مختصر

تفسير الطبري

للإمام المفسر أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى

«جامع البيان عن تأويل آي القرآن»

مع تحقيقات علمية هامة

اختصار وتحقيق

الشيخ محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة - جامعة أم القرى

الدكتور صالح أحمد رضا

الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

دار إحياء التراث العربي

من ذخائر التراث الإسلامي

مختصر

تفسير الطبري

للإمام المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله المسمى

"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"

مع تحقيقات علمية هامة

اختصار وتحقيق

الشيخ محمد علي الصابوني
أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

الدكتور صالح أحمد رضا
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

المجلد الأول

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

آية (٢٩) سورة صٓ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

آية (٤٤) سورة النحل

كلمة سعادة الدكتور علي عبّاس الحكمي
عميد كلية الشريعة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن آتبعهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين ، وبعد

فإن من أجلِّ نعم اللّه على العبد ، أن يوفِّقه في اختيار العمل الذي يقضي فيه عمره ، ويكون نافعاً له في الدنيا والآخرة

ولقد كان من فضل الله العظيم ، على فضيلة الأخ الشيخ محمد علي الصابوني أن وفَّقه اللّه ويسَّر له ، خدمة كتاب الله العزيز ، دراسة ، وتدريساً ، وبحثاً وراء كنوزه الثمينة ، وكان من حصيلة ذلك أن أخرج بضعة كتب في التفسير وعلوم القرآن ، نذكر منها كتابه القيِّم المسمَّى « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » و « مختصر تفسير ابن كثير » وكتاب « التّبيان في علوم القرآن » كما ألَّف كتاباً مبسَّطاً ، سهل العبارة ، بديع الترتيب ، جامعاً لخلاصة آراء علماء التفسير وسمَّاه « صفوة التفاسير »

وقد قام أخيراً بالاشتراك مع فضيلة الدكتور صالح أحمد رضا باختصار التفسير الكبير المسمَّى « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » لإمام المفسرين « أبي جعفر محمد بن جرير الطبري » الذي يُعتبر بحقٍّ موسوعة في علم التفسير ، لييسِّرا على طلبة العلم الرجوعَ إليه ، والانتفاعَ بكنوزه الثمينة ، فجزاهما الله خير الجزاء ، وقد أطلعني فضيلته على نماذج من هذا المختصر ، فوجدته نتيجةً مباركةً طيبةً ، لجهد غوَّاص ماهر في التقاط الدُّرر ، حاول الشيخان أن ينتزعاها من أعماق ذلك السِّفر الكبير ، ويضعاها بين يدي طلبة العلم ، سهلةً ميسورةً ، مصوغةً بعبارة المصنِّف أو تكاد ، ممَّا يعطي القارىء الثقة الكاملة ، بأن ما يقرأه هو أصيلٌ ، وحديثٌ في نفس الوقت ، أصيلٌ في مصدره ومنبعه ، وحديثٌ في عرضه ووضوحه

فكان بذلك من أحسن الكتب المختصرة ، وأكثرها أصالة ، وأعمها فائدة ، وأقربها إلى الكمال ، مع بعض التعليقات العلمية الهامة النافعة

نسأل الله أن ينفع به ، ويجزي الأخوين الكريمين على جهدهما الكبير خير الجزاء ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

١٥ / ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ

وكتبه
الدكتور علي عباس الحكمي
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
جامعة أم القرى

إني لأعجب ممن يقرأ القرآن، كيف
يلتذ بتلاوته ولم يفهم معناه

« الإمام الطبري »

كلمة معالي الدكتور راشد بن راجح بن محمد
مدير جامعة أم القرى

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلّي ونسلم على أشرف خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد

فلقد تصفحت بعض صفحات من كتاب « مختصر تفسير الطبري » اختصار وتحقيق فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني ، وسعادة الدكتور صالح أحمد رضا

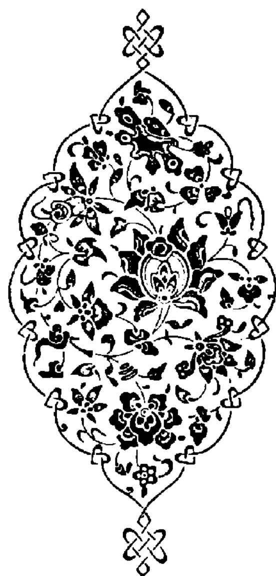
ولا شك أن القراء الكرام ، يعلمون منزلة كتاب « تفسير الإمام ابن جرير الطبري » ، المسمَّى ـ جامعَ البيان عن تأويل آي القرآن ـ وابن جرير معروف بفضله ، وعلمه ، وهو إمام المفسرين بلا منازع ، وتفسيرُه يعدُّ المصدر الأول لكتب التفسير بعده ، وهو إمام من أئمة السلف البارزين الذين ينفون عن عقيدة السلف الصالح تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وكذب المفترين وأتشرف بالإشراف على طالب بجامعة أم القرى لدرجة « الدكتوراه » يقوم ببحثٍ علمي في هذا الموضوع .

وما يقوم به صاحبا الفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني ، وزميله الدكتور صالح رضا ، من جهدٍ نحو اختصار وتحقيق لهذا الكتاب ، هو جهدٌ يُشكران عليه ، ولهما من الله الأجر والثواب . ولا شك أنَّ كل محقِّق ، أو مؤلِّف ، أو مختصِرٍ لكتاب ، له منهجُه ورأيه ، وطريقته الخاصة والشيء الذي يمكن أن أقوله هنا هو الشكر الجزيل للأخوين الكريمين ، على هذا العمل الدائب ، والجهد المتواصل لخدمة كتاب الله ودعائي لهما بالتوفيق والسداد وحسن العاقبة والله الهادي إلى سواء السبيل . وهو حسبنا ونعم الوكيل

مدير جامعة أم القرى

راشد بن راجح بن محمد

السبت / ٢٦ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

● **أما بعد** : فإن تفسير الإمام ابن جرير الطبري يعتبر كنزاً من نفائس الكنوز العلمية ، ودُرَّة ثمينةً من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأفْذاذ ، الذين خدموا الدين والعلم بما لم تصنعْه أمةٌ من الأمم ، ولم يبلغ غيرهم مِعْشارَ ما بلغوه ، وما قاموا به من جهود جليلة ، في خدمة الكتاب العزيز

● وإذا عُدَّ المفسرون كان الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في مركز الصَّدارة ، طوداً شامخاً ، ومحققاً بارعاً ، وعَلَماً بارزاً من أعلام الإسلام ، يتربع على عرش العلم ، إماماً بلا مراء ، وأستاذاً رائداً لجهابذة العلماء في القديم والحديث ، قلَّ أن يجود الزمان بمثله ، نبوغاً ، وذكاءً ، وعلماً ، وصلاحاً

● وإذا ذُكرتْ كتب التفسير الشهيرة ، كان « تفسير الطبري » في مقدمة هذه الكتب ، لأن فيه مزايا يندر أن توجد في تفسير غيره ، حتى استحق مؤلفه الحجة أن يُسَمَّى بحقٍ « إمامَ المفسرين » وإذا كان الفقهاء في الفقه عِيالاً على الإمام « أبي حنيفة » النعمان كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله فإننا نقول بكل ثقةٍ واطمئنان إنَّ المفسرين عيالٌ في التفسير على الإمام ابن جرير قدَّس اللّه روحه

● وهذا المختصر لتفسير الإمام الطبري ـ الذي نضعه بين يديك أيها القارىء الكريم ـ هو تفسير الشيخ الطبري نفسه ، بل يكاد يكون كلامه بالحرف الواحد ، ولكنه جاء مفرقاً متناثراً ضمن تفسيره الكبير ، تناثر الورود والأزهار في الحدائق والرياض لم نأتِ بشيءٍ جديد من عندنا وننسبه للشيخ الطبري ، وإنما لخصناه من تفسيره ، ونقلناه بأمانةٍ ودقة ، من خلال تفسيره الجامع الواسع ، غير ما دعت الحاجة إليه ، من زيادةِ كلمةٍ أو حرف للربط بين الجمل ، أو تغيير لفظةٍ غامضةٍ بكلمةٍ واضحة ، وأمثال ذلك مما يحتاج إليه أسلوب التنقيح والتهذيب

● ولقد وضعنا بعض التعليقات الضرورية في أسفل الكتاب ليتميز عن كلام الشيخ الطبري ، وذلك زيادة في التثبت وتحري الدقة ، والاطمئنان إلى أنَّ عملنا في غاية المستطاع من الجودة والإتقان

● وللشيخ الطبري طريقةٌ فريدة في تفسيره للقرآن الكريم ، يبدأ بذكر المعنى اللغوي ، ثم يستشهد على ذلك المعنى بالأشعار ، ثم يعقبه بذكر الآثار ويرجّح بينها ، وفي خلال ذلك يأتي ببعض معاني الآية الكريمة ممَّا قرَّره وتبناه ، ويُعَرِّج على بعض الأقوال الضعيفة فيفنّدها بالحجة والبرهان ، وفي نهاية المطاف يعود فيوضّح معنى الآية بأسلوب مسهب ، أوسع لفظاً ، وأوضح بياناً

● وهكذا نجد من لم يعرف طريقة الشيخ الطبري ، يظن أنَّ هذا المختصر ليس تفسير الطبري ، وإنما هو تفسير جديدٌ مسايرٌ لروح العصر ، نُسب إلى الإمام الطبري ليكسب الشُهرة والرَّواج ، مع أن الحقيقة أنه كلام الشيخ الطبري نفسه ، اختصرناه ، وهذَّبناه ، ورتَّبناه ، ليسهل الرجوع إليه ، والانتفاع بما فيه من كنوزٍ ثمينة ، ودررٍ نفيسة ، قلَّ أن توجد في غيره من التفاسير

● ولقد عهدتُ إلى أخي وصديقي ، العالم الفاضل اللامع الدكتور « صالح أحمد رضا » أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ليساعدني في هذا العمل الجليل ، فتفضَّل مشكوراً بقبول ذلك ، وتقاسمنا العمل بيننا ، فبدأت من أول القرآن الكريم ، من سورة البقرة إلى نهاية سورة الإسراء ، واشتغل أخي الكريم بالنصف الأخير منه ، بدءاً من سورة الكهف إلى نهاية سورة الناس

● وحتى يكون العمل ـ في هذا المختصر ـ قد جاء في غاية الدقة والإتقان أعدتُ النظر في القسم الذي اختصره فضيلة الدكتور « صالح رضا » حفظه الله ، ببعض الزيادة أو النقصان ، وبعض التعليقات العلمية الضرورية ، ليظلَّ العمل في المستوى المنشود ، الذي نحاول الوصول إليه وليبقى بروحٍ واحدة مترابطاً ، متناسقاً من بدايته إلى نهايته والكمالُ للهِ وحده

● واللّهَ أسأل أن يسدِّد الخُطَى ، ويلهمنا السَّداد والرشاد ، ويجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، ويُبقيه ذخراً لنا يوم الدين ، يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح ، الخالص لوجه الله الكريم « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير »

● وصلَّى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد ، إمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمّد علي الصّابوني

تفسير الاستعاذة والبسملة

قال الشيخ الأجلّ ، العارف بالله ، إمامُ المفسرين ، وقدوةُ العلماء العاملين ، الشيخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله ، وجعل جنة الفردوس مسكنه ومأواه

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ

أي أستجير بالله ـ دون غيره من سائر خلقه ـ من الشيطان الملعون ، أن يضرني في ديني ، أو يَصُدَّني عن حقٍ يلزمني لربي ! والشيطانُ كلُّ متمردٍ عاتٍ من الإنس ،والجنِّ،والدواب وغيرها ،قال تعالى ﴿شياطينَ الإنسِ والجنِّ . .﴾ سُمِّي شيطاناً لبعده من الخير ، والرجيمُ الملعونُ المشئومُ ، لأن الله جل ثناؤه طرده من سماواته ، ورجمه بالشهب الثواقب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

معناه أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيءٍ ، مستعيناً به جل وعلا في جميع أموري ، طالباً العون منه ، فإنه الإِلَهُ المعبود ، ذو الفضلِ والجود ، وتسميتُه « رحمن » لعموم رحمته جميع خلقه ، وتسميتُه « رحيم » لخصوص رحمته المؤمنين ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فربنا جلَّ ثناؤه رحمنُ جميع خلقه ، ورحيم المؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة

قال ابن جرير إنَّ الله تعالى ذكرُه ، وتقدستْ أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه تقديم ذكرِ أسمائِهِ الحسنى ، أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك سُنَّةً لجميع خلقه يستنُّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها ، فقولُ القائل ﴿ بسم الله الرحمنِ الرحيمِ ﴾ إذا افتتح سورةً ، يُنْبِىءُ عن أن مراده بذلك أقرأُ باسم الله ، وكذلك عند القيام ، والقعود إذا قال « باسم الله » أن معناه أقومُ باسمِ الله ، وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال

(١) قال الخطابي : «الرحمنُ» ذو الرحمة الشاملة ، التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم ، وعمَّت المؤمن والكافر ، و «الرحيم» خاصٌ بالمؤمنين ، ولا يجوز إطلاق اسم «الرحمن» على غير الله تعالى ، بخلاف « الرحيم » فإنه يطلق على المخلوق أيضاً .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

* * *

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشكرُ والثناء خالصاً لله جلَّ وعلا دون سائرِ ما يُعبدُ من دونه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها عددٌ ، ولا يحيط بعددها أحدٌ ، وقد قيل : **﴿الحمدُ لله﴾** ثناءٌ على الله بأسمائه وصفاته الحُسنى ، و « الشكرُ لله » ثناءٌ عليه بنعمِه وأياديه[١] **﴿ربِّ العَالمين﴾** أي ربِّ الإِنس والجنِّ والملائكة ، وربِّ السمواتِ والأرضين ، والربُّ في كلام العرب يطلق على السيد المطاع ، والمصلح للشيء ، والمالكِ للشيء ، فربُّنا جلَّ ثناؤُه هو السَيدُ الذي لا شبيه له ولا مثيل في سؤدده ، والمصلحُ أمر خلقِهِ بما أسبغ عليهم من نِعَمِهِ ، والمالكُ الذي له الخلقُ والأمرُ ، و « العالَمُ » اسمٌ لأصناف الأمم ، فالإِنس عالَمٌ ، والجنُّ عالَمٌ ، وكذلك سائر أجناس الخلق **﴿الرحمٰنِ الرحيم﴾** الرحمن أي الموصوف بعموم الرحمة لجميع الخلق ، الرحيم أي الموصوف بخصوص الرحمة للمؤمنين **﴿مالِكِ يوم ِ الدِّينِ﴾** قُرىء « مَلِكِ » من المُلْك ، وقُرىء « مالك » من المِلْك ، ومعناه على الأول أنه تعالى المنفرد يومئذٍ بالمُلْك ، دون الملوك الجبابرة ، الذين كانوا في الدنيا ينازعونه المُلْك ، ويدافعونه العظمة والكبرياء كقوله « لمن المُلْكُ اليوم » ؟ ومعناه على الثاني أنه لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معه حكماً ، فهو جل وعلا الذي يملك الحكم بينهم وفصل القضاء[٢] ، والدينُ في اللغة معناه : الحسابُ والجزاء أي إنَّه تعالى مالكُ حساب الخلائق يوم القيامة **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** أي لك اللهمَّ نخشع ونذل ونستكين لا لغيرك **﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** أي وإياك ربنا نستعين على عبادتنا وطاعتنا في جميع أمورنا ، لا أحداً سواك **﴿اَهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ﴾** أي وفقنا للثبات على الطريق المستقيم ، الذي وفقت له من أنعمت عليه من

---

(١) قال ابن جرير: وإنما دخلت «ألْ» في «الحمدُ لله» لإفادة الشمول لأن المعنى: جميعُ المحامدِ، والشكر الكامل إنما هو لله دون سواه.

(٢) رجح الإمام الطبري القراءة الأولى «مَلِك» لأنها أعم وأشمل وقال: كل مَلِكٍ مالكٌ، وقد يكون المالك للشيء ليس ملكاً. الخ وفي هذا الترجيح نظر لأن المراد من الآية أنه تعالى المالك للجزاء والحساب يوم القيامة، المتصرف في يوم الدين تصرُّفَ المالك في ملكه، ليس لأحد سواه تصرف ولا ملك، وهو قول ابن عباس.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

* * *

عبادك ، والصراطُ المستقيمُ هو الطريق الواضحُ الذي لا اعوجاج فيه ، وهو دينُ الإسلام الذي لا يقبل الله من العباد غيره ، ثم وضّحه وأبانه بقوله ﴿صِرَاطَ الذينَ أنعمت عليهم﴾ أي طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك ، من الملائكة والنبيّين والصِدّيقين والشهداء والصالحين ﴿غير المغضوبِ عليهم﴾ أي غير طريق المغضوب عليهم وهم «اليهود» الذين وصفهم الله بقوله « مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وغضب عليه وجعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازير»[١] ﴿ولا الضَّالين﴾ أي وغير طريق الضالين وهم «النَّصارى» ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله « قد ضَلُّوا من قبلُ ، وأضلوا كثيراً ،وضَلُّوا عن سَوَاءِ السبيلِ »[٢] وكلُّ حائدٍ عن قصد السبيل ، وسالك غير المنهج القويم ، فضالٌّ عند العرب ، فلذلك سمى الله النصارى ضُلَّالاً ، والمراد من الآية ألهمنا يا رب دينك الحقَّ ، حتى لا تغضب علينا كما غضبتَ على اليهود ، ولا تضلَّنا كما أضللتَ النصارى .

* * *

كلمة وجيزة حول فاتحة الكتاب

قال ابن جرير رحمه الله :« إن الله جل ثناؤه جمع لنبينا محمد ﷺ في القرآن معاني لم يجمعهنَّ بكتابٍ أنزله إلى نبيٍ قبله ،وذلك أن كل كتابٍ أنزله تعالى على نبيٍ من أنبيائه ، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعها كتابُه ، كالتوراة التي هي مواعظ وتفصيل ، والزبور الذي هو تحميدٌ وتمجيد ، والإنجيل الذي هو مواعظ وتذكير ، والكتابُ الذي أنزل على نبينا يحوي معاني ذلك كله ، ويزيد عليها كثيراً من المعاني التي سائر الكتب منها خالٍ ، ومن أشرف تلك المعاني - التي فَضَلَ بها كتابنا سائر الكتب - نظمُه العجيبُ ، ورصفُه الغريب ، وتأليفه البديع ، الذي عجزت عن نظم مثل سورةٍ منه الخطباء ، وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء ، وتحيَّرت في تأليفه الشعراء ، فلم يجدوا إلا التسليم والإقرار ، بأنه من عند الله الواحد القهار ، وفي سورة « أم القرآن » أراد الله أن يجمع الدلالة على نبوة نبينا محمد ﷺ ، لأنها جمعت معاني لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء ، فما فيها من تحميد وتمجيد وثناء عليه ، تنبيهٌ للعباد على عظمته وسلطانه ، ليذكروه بآلائه ، ويحمدوه على نعمائه ، فيستحقوا به منه المزيد ، ويستوجبوا عليه الثواب الجزيل ، وبما فيها من نعت من أنعم عليه بمعرفته ،

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٠

(٢) سورة المائدة آية رقم ٧٧

وتفضَّلَ عليه بتوفيقه لطاعته ، تعريف عباده أن كل ما بهم من نعمةٍ في دينهم ودنياهم فمنه تعالى ، ليصرفوا رغبتهم إليه ، ويبتغوا حاجاتهم من عنده ، دون ما سواه من الآلهة والأنداد ، وبما فيها من ذكر ما أحلَّ بمن عصاه ، وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ، ترهيبُ عباده عن ركوب معاصيه ،**والتَّعرضِ** لما لا قبل لهم به من سخطه ، فيسلك بهم في النكال**والعقوبات**،سبيل من ركب ذلك من الهالكين ، وفيما كان نظيراً لها من سائر سور القرآن ، وذلك هو الحكمة البالغة ، والحجة الكاملة[١]

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة الفاتحة»

* * *

(١) هذا نص كلام الشيخ ابن جرير اختصرناه من تفسيره الكبير ، في مسألة طعن أهل الإلحاد في القرآن ١/٩٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ

* * *

﴿الٓمٓ﴾ قال بعضهم: لكل كتاب سرٌّ، وسرُّ القرآن فواتِحُهُ. وقال بعضهم: هي أسماء للسور، وقال آخرون: معنى **﴿الٓمٓ﴾** أنا الله أعلم، وقال غيرهم: ابْتُدِىء بهذه الحروف المقطَّعة أوائل السور، ليفتح لاستماع القرآن أسماع المشركين، لأنهم تواصوا بالإعراض عن القرآن «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه» والصوابُ في تأويل مفاتح السور، التي هي حروف مقطعة، أن الله أراد بكل حرفٍ منه الدلالة على معانٍ كثيرة، شامل جميعها من أسماء الله عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون[1] **﴿ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾** أي هذا الذي ذكرتُه وبيَّنتُه لك يا محمد هو الكتاب **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي لا شك في أنه من عند الله **﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾** أي هداية للمتقين، الذين اتقوا ربهم فأطاعوه فيما أمرهم به من فرائضه، وتجنبوا ركوب ما نهاهم عنه من معاصيه، وخصَّ الهداية بالمتقين، لأنه شفاءٌ لما في صدور المؤمنين، وعمًى لأبصار الجاحدين[2]، وحجةٌ بالغةٌ لله على الكافرين، فالمؤمن به مهتدٍ، والكافر به محجوج **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾** أي الذين يُصدّقون بكل ما غاب عنهم من الجنة والنار، والثواب والعقاب، وبما ذكر الله في القرآن، من التصديق بالله وملائكته، وكتبه، ورسله **﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾** أي يؤدونها بحدودها وفروضَها، كما فرضت عليهم بتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع كما قال ابن عباس **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** أي ينفقون من طيِّب ما رزقهم ربهم، من زكاة الأموال وسائر النفقات المحمود عليها، من الحلال الذي لم يَشُبْه حرام **﴿والذين يؤمنونَ بما**

(١) الراجح أن هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن كما حققناه في كتابنا «صفوة التفاسير» وهو قولُ المحقِّقين من أئمة علماء التفسير، وما ذكره ابن جرير قول لبعض المفسرين مرجح والله أعلم

(٢) قال تعالى ﴿قلْ هو للذين آمنوا هُدًى وشفاءٌ والذينَ لا يؤمنون في آذانِهم وقرٌ وهو عليهم عَمًى . .﴾ فصّلت آية ٤٤

هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قَبْلِكَ﴾ أي والذين يصدقون بما جئتَ به من الله عز وجل، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون بما جاءوهم به من عند الله ﴿وبالآخرةِ هم يوقنون﴾ أي وبالدار الآخرة التي تتلو هذه الدار الدنيا، وما فيها من البعث والنشور، والثواب والعقاب، والحساب والميزان يوقنون ﴿أولئكَ على هُدىً من ربِّهِمْ﴾ أي أولئك المؤمنون بالغيب والمؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وعلى من قبله من الرسل، على نور من ربهم واستقامة وبرهان ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الناجحون، المدركون لما طلبوا من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان

قال ابن جرير: أخبر جلَّ ثناؤه أن هذا الكتاب هدى لأهل الإيمان، المصدقين بما أنزل الله إلى محمد ﷺ وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى، ثم أكد جل ثناؤه أمر المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب، بأنهم هم أهل الهدى والفلاح خاصةً دون غيرهم، وأن غيرهم هم أهل الضلال والخسار[1] ﴿إنَّ الذينَ كفروا﴾ أي جحدوا بالقرآن وبرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهُمْ أم لم تُنْذِرهم لا يُؤْمنونَ﴾ أي متساوٍ ومتعادلٌ عندهم، الإنذارُ أم تركُ الإنذار، فإنهم لا يؤمنون. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرصُ أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله جل ثناؤه، أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول[2] ﴿خَتَمَ الله عَلى قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ﴾ أي طبع الله على قلوبهم وأسماعهم، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، كما يُطبع ويختم على الأوعية والظروف ﴿وعَلى أبْصارِهِمْ غِشَاوةٌ﴾ غطاءٌ فلا يبصرون سبيل الهدى ﴿ولهم عَذَابٌ عظيمٌ﴾ على تركهم طاعة الله وفرائضه.

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ أي صَدَّقنا بالله وبالبعث يوم القيامة، سُمي يومُ القيامة اليومَ الآخِر، لأنه آخر يوم لا يوم بعده ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم بمصدقين، لأنهم يُبْدون بأفواههم خلاف ما في قلوبهم، وهؤلاء هم أهل النفاق من أحبار اليهود وغيرهم من العرب، ممن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر[3] ﴿يُخَادِعونَ الله والذين آمنوا﴾ أي يظهرون بلسانهم

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٤٦ تحقيق محمود شاكر. (٢) الطبري ١/٢٥٢

(٣) تناولت السورة الكريمة الفِرَقَ الثلاثة «المؤمنين، الكافرين، المنافقين» وقد تحدثت عن صفات المؤمنين في خمس آيات، فأثنت عليهم بما تحلّوا به من الصفات الكريمة الحميدة، ثم تحدثت عن الكافرين في آيتين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن في المقارنة بين الأبرار والفجار، ثم تناولت الصنف الثالث وهم المنافقون بالإسهاب، في ثلاث عشرة آية،، لينبّه تعالى إلى عظيم خطرهم وكبير ضررهم

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا

* * *

من القول والتصديق، خلاف الذي في قلوبهم من الشك والتكذيب، ليتخلصوا من القتل بدعوى الإيمان، سمي مخادعاً لأنه بفعله خادع لنفسه ولهذا قال ﴿وما يخدعون إلا أنفسَهُمْ﴾ أي وما يخدعون ـ على الحقيقة ـ إلا أنفسهم، لأنه يعطي نفسه أمنيتها، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، ومجرّعها كأس عذابها ﴿وما يَشْعُرونَ﴾ أي وما يدرون أنَّ هذا استدراج من الله تعالى لهم ﴿في قلوبهِمْ مَرَضٌ﴾ أي سُقْم وهو مرض الاعتقاد، وهو شكهم في أمر محمد وأمر نبوته ﴿فَزَادهم الله مَرَضاً﴾ أي فزادهم شكاً وحيرة، كما زاد المؤمنين به إيماناً ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ أي ولهم عذاب مؤلمٌ موجع ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي بسبب كذبهم بدعواهم الإيمان، وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وإذا قيلَ لهم لا تُفْسدوا في الأرضِ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والشك في دين الله، وموالاة اليهود أعداء الله ﴿قالوا إنَّما نحنُ مُصْلِحونَ﴾أي قالوا إنما نريد الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب،وإنما نحن مصلحون لامفسدون،لأننا على رُشدٍ وهدى﴿ألَا إنهم هم المفسدونَ﴾أي إنهم هم المفسدون حقاً، بتعدِّيهم حدود الله، وركوبهم معصيته، وتركهم فروضه، لا المؤمنون الذين ينهونهم عن الإفساد في الأرض ﴿وَلَكِنْ لا يَشْعُرونَ﴾أي ولكنهم لا يدرون أنهم كذلك،يفسدون من حيث يظنون أنهم يُصْلحون، ويسيئون إلى أنفسهم من حيث يظنون أنهم يُحْسنون ﴿وإذَا قيلَ لهمْ آمنوا كما آمنَ الناسُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: صدِّقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله، كما صدَّق به المؤمنون ﴿قَالُوا أنُؤْمِنُ كما آمنَ السُّفَهاءُ﴾؟ أي قالوا إجابةً لقائل ذلك: أنؤمن كما آمنَ أهلُ الجهل، ونصدِّق بمحمد كما صدَّق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام؟! يعنون أصحاب رسول الله ﴿ألَا إنَّهم هُمُ السُّفَهاءُ ولَكِنْ لا يَعْلَمونَ﴾ أي ألا إنهم هم الجُهَّال في أديانهم، الضعفاء في آرائهم واعتقاداتهم، لإساءتهم إلى أنفسهم، دون المؤمنين المصدِّقين بالله وبكتابه، وبثوابه وعقابه، ولكن لا يعلمون ذلك ﴿وإذا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قالوا آمَنَّا﴾ أي وإذا لقي المنافقون المؤمنين قالوا لهم: آمنا وصدَّقنا بمحمد وبما جاء به من عند الله، قالوا ذلك خِداعاً وخبثاً ﴿وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهمْ﴾ أي وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مردتهم من المنافقين والمشركين، واختلوا برءوسهم في الكفر والشر ﴿قالوا إنَّا معكم﴾ قالوا لهم: إنا معكم على دينكم، وعلى

نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ
فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ
بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

* * *

مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نحــنُ مُسْتَهزئونَ﴾ إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد.بقولنا لهم: آمنا بالله وباليوم الآخر ﴿الله يَسْتَهزِىءُبهــمْ﴾يعاملهم معاملة المستهزىء، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ما يرضيهم به ظاهراً، من حقن دمائهم وأموالهم، مع ما أعدَّ لهم في الآخرة من أليم العقاب والنكال، جـزاءً عـلى ستهزائهم بالمؤمنين[1] ﴿وَيَمُدُّهم في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ويزيدهم في كفرهم وضلالهم، يترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ﴿أولئكَ الذينَ اشترَوُا الضَّلَالَةَ بالهُـدَى﴾ أي أخذوا الضلالة وتركوا الهُدَى، واستبدلوا الكفر بالإيمان ﴿فما ربحتْ تجارتهُـم﴾ أي خسروا ولم يربحوا ﴿وما كانوا مهتديـن﴾ أي وما كانوا رشداء في اختيارهم الضلالة على الهدى، واستبدالهم الكفر بالإيمان ﴿مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الذي استَوْقَدَ ناراً﴾ أي مثل هؤلاء المنافقين في استضاءتهم بنور الإيمان، كمثل استضاءة موقد النار بناره ﴿فلَمَّا أَضَاءتْ ما حولَهُ ذهبَ الله بنورهم﴾ أي فلما ارتفق بضيائها، وأبصر ما حوله مستضيئاً بالنور من الظلمة، خمدتِ النارُ وانطفأتْ، وعاد في ظلمةٍ وحَيْرة ﴿وتركَهُمْ في ظُلماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ أي تركهم يتخبطون في ظلمات الشك والنفاق، كما انطفأت نار المستوقِد بعد إضاءتها له فبقي في ظلمته حيران تائهاً ﴿صُمٌّ بكمٌ عميٌ﴾ أي لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عن غيِّهم وضلالهم ،ولا يتوبون من نفاقهم ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو مثلهم كمثل مطر غزيرٍ تحدَّر من السماء، تحمله سحابة ظلماء في ليلة مظلمة ﴿فيه ظُلماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ﴾ أي في هذا المطر الذي سرى ليلاً في مُزْنة ـ أي سحابة ـ ظلماء، وليلة مظلمة، يحدوها رعدٌ، ويستطير في حافاتها برقٌ شديدٌ لمعانُه، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه ﴿يجعلونَ أصابعَهُمْ في آذانِهِمْ من الصَّواعقِ حَذَرَ الموتِ﴾ أي يضعون أصابعهم في آذانهم كما يتقي الخائـف أصوات الصواعق حذراً على نفسه منها ﴿والله محيطٌ بالكافرين﴾ أي جامع الكافرين فمحِلٌّ بهم عقوبته قال مجاهد: جامعهم في

(١) قال الطبري: ذهب بعض المفسرين إلى أن الاستهزاء والخداع والسخرية والمكر وأمثال ذلك إنما هو محمول على الإخبار عن الجزاء كقوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ وقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وقوله ﴿فيسخرون سخر الله منهم﴾ قالوا: هو إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فهما وإن اتفقا في اللفظ مختلفان في المعنى كقوله ﴿وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها﴾ ومعلوم أن الأولى سيئة لأنها معصية، والثانية عدل لأنها جزاء على المعصية، وإلى هذا وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. الطبري ٣٠٢/١، أقول: هذا يسمى عند علماء البلاغة بالمشاكلة وهي الاتفاق باللفظ دون المعنى

يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

جهنم ﴿يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبصارَهُمْ﴾ أي يكاد البرق يذهب بأبصارهم من شدة ضيائه ولمعانه، والخَطْفُ: السلبُ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لهم مَشَوْا فيهِ﴾ أي كلما أضاء لهم البرقُ مشوا في ضوئه، كما يمشي السائر في ظلمة الليل إذا برقت له بارقة أبصر طريقه فيها ﴿وإذَا أَظْلَمَ عليهِمْ قَامُوا﴾ أي وإذا ذهب ضوء البرق عنهم وقفوا عن المشي ﴿ولو شَاءَ الله لذهب بسمعِهِمْ وأَبْصَارهِمْ﴾ أي ولو شاء الله لأذهبَ أسماعهم وأبصارهم ﴿إنَّ الله على كل شيء قديرٌ﴾ أي هو تعالى قادرٌ على كل شيءٍ،وإنما وصف نفسه بالقدرة على كل شيءٍ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته(١).

﴿يا أيها الناسُ اعبُدوا ربَّكُمْ﴾ أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قبلِكُـم﴾ أي الذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو القادر على ضركم ونفعكم ﴿لعلكـم تتقـونَ﴾ أي لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل بكم، ولتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم ﴿الذي جعل لكم الأرضَ فراشاً﴾ أي جعلها لكم مهاداً موطَّأً، وقراراً تستقرون عليها ﴿والسَّماءَ بنـاءً﴾ أي وجعل السماء بناء كهيئة القبة، وإنما سميت السماء سماءً لعلوِّها على الأرض وعلى سكانها من خلقه. ذكر تعالى السماء والأرض- فيما عدَّد عليهم من نعمه- لأن منها أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، فأعلمهم أن الذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما،هو المستحق عليهم الطاعة، المستوجب منهم الشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وأنزلَ منَ السماءِ مَاءً فأخرجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لكُـمْ﴾ أي أنزل المطر فأخرج به من الزرع والغرس ثمراتٍ،غذاءً وأقواتاً لكم. نبههم بذلك على قدرته وسلطانه، وأنه هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم ويكفلهم، ثم زجرهم عن أن يجعلوا له نِدّاً مع علمهم بأنه لا نافع ولا ضار، ولا خالق ولا رازق سواه فقال ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي عدلاء وأشباهاً، وكلُّ شيء

---

(١) روى الطبري عن ابن عباس أن الرعد ملك موكل بالسحاب يزجره ويسوقه كما يسوق الراعي الإبل، وأن البرق ضربه السحاب بمخراق من حديد، وقال علماء الطبيعة: إنه ناشىء من اجتماع السحاب الموجب بالسالب فيحدث الرعد والبرق، ولا مانع من ذلك لأنه بفعل الله وتدبيره.

(٢) قال الطبري نقلاً عن الربيع بن أنس: مثل المنافقين كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة على جادة، فيها مطر ورعد وبرق، فإذا أبرقت أبصروا الجادة فمضوا فيها، وإذا ذهب البرق تحيروا، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له، فإذا شك تحيَّر ووقع في الظلمة! اهـ. الطبري ٣٥١/١.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي
رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

* * *

كان نظيراً لشيء وشبيهاً له فهو نِدٌّ ﴿وأنتم تعلمونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وأنه مبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم.

﴿وإن كنتم في رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلنَا على عَبْدِنا﴾ أي إن كنتم أيها المشركون في شك مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النوروالبرهان وآيات الفرقان ﴿فَأْتُوابسُورَةٍمن مثلِهِ﴾ أي فأتوا بسورةٍ من مثل هذاالقرآن، فأنتم أهل البراعةفي الفصاحة والبلاغة ﴿وادْعُواشُهَدَاءكُمْ من دُونِ الله﴾ أي وادعوا أعوانكم ومن تستنصرون بهم ليعينوكم، دون الله تعالى ﴿إنْ كنتُمْ صادقينَ﴾ في دعواكم وزعمكم أن محمداً افترى واختلق هذا القرآن ﴿فإنْ لم تَفْعَلُـوا﴾ أي فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، وعجزتم وعجز جميع الخلق عنه ﴿وَلَنْ تفعلـوا﴾ أي ولن تأتوا بسورةٍ من مثله أبداً ﴿فاتقوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النّاسُ والحجارةُ﴾ أي فاحذروا نار جهنم التي حطبها النّاسُ وحجارة الكبريت، وهي أشدُّ الحجارة حراً إذا أُحميت ﴿أُعِدَّتْ للكافريـنَ﴾ أي هيئت للجاحدين بالله وبرسلِهِ ﴿وَبَشِّرِ الذينَ آمنـوا وعَمِلُوا الصَّالحـاتِ﴾ أي وبشِّرْ[1] يا محمد من صدَّقك أنك رسولي، وحقَّق تصديقه بأداء صالح الأعمال ﴿أنَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ أي بأن لهم بساتين، تجري من تحت أشجارها وثمارها وغروسها أنهارالجنة[2] ﴿كُلَّما رُزقوا منها من ثَمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنـا من قبـلُ﴾ أي كلما رُزق المؤمنون من ثمرةٍ من ثمار الجنة في الجنة،قالوا :هذا الذي كنا قد رزقنا من قبلُ في الدنيا[3] من الثمار والرزق ﴿وأُتُوا بهِ مُتَشَابهاً﴾ أي مشتبهاً في اللون والمنظر، ومختلفاً في الطعم والذوق ﴿ ولهم فيها أزواجٌ مطهَّـرةٌ﴾ أي ولهم في الجنات أزواجـ أي نساءـ مطهَّرات من كل دنسٍ وأذىـ حسِّيٍ ومعنويٍـ مما عليه نساء الدنيا، من الحيض والنفاس، والبول والغائط، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والمكاره ﴿وهمْ

---

(١) قال الطبري أصل البشارة الخبرُ السار الذي يُسرُّ به المخبر، أقول: ولهذا لا تكون البشارة إلاَّ في الخير، فإذا استعملت في الشرِّ كان ذلك من باب التهكم والسخرية كقوله تعالى ﴿فبشِّرْهم بعذابٍ أليمٍ﴾

(٢) قال الطبري: الذي توصف به أنهار الجنة أنها جارية في غير أخاديدَ.

(٣) رجح الطبري هذا القول أنه في الدنيا، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد في الجنة، أي هذا الذي رزقنا من قبلُ في الجنة لما رُوي في الأثر «يُؤْتى أحدهُم بالصحفة فيأكل منها، ثم يُؤْتَى بأخرى فيقول: هذا الذي أُتينا به من قبلُ، فيقول الملك: كُلْ يا عبد الله، فاللون واحدٌ والطعم مختلف».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

* * *

فيها خَالِـدُونَ﴾ أي مقيمون في الجنات أبداً، مع السرور والنعيم الدائم.

﴿إنَّ الله لا يَسْتَحْيي أن يَضْـرِبَ مَثَـلاً مـا﴾ أي لا يستحيي أن يضرب ـ في الحقِّ ـ الأمثال، صغيرها وكبيرَها، ليَميـز بين أهل الإيمان والتصديق ،وأهل الكفروالضلال[1] **﴿بَعُوضَةً فما فَوْقَهـا﴾** أي بعوضةً فما هو أعظم منها[2] **﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا فيعلمونَ أنَّهُ الحقُّ منْ ربهمْ﴾** أي فأما الذين صدَّقوا الله ورسوله فيعرفون أن هذا المثل الذي ضربه الله كلامُ الرحمن ومن عنده، وأنه الحق من الله **﴿وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ الله بهذَا مَثلاً﴾**؟ أي وأما الذين جحدوا آيات الله، من المنافقين والمشركين ونظرائهم فيقولون: ما الذي أراد الله بهذا المثل؟ ولماذا ضرب به المثل؟! **﴿يُضِلُّ بـه كَثِيراً﴾** أي يُضل الله بالمثل الذي يضربُه كثيراً من أهل النفاق والكفر **﴿ويَهْدي بهِ كثيـراً﴾** ويهدي بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيد أولئك ضلالاً إلى ضلالهم لتكذيبهم به، ويزيد هؤلاء هدىً إلى هداهم لتصديقهم به **﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسـقينَ﴾** أي وما يضلُّ به إلا المنافقين، الخارجين عن طاعة ربهم **﴿الذينَ يَنْقُضُونَ عَهْـدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِـهِ﴾** هؤلاء الفاسقون هم الذين نقضوا عهد الله الذي أخـذه عليهم في التوراة، من الإقرار بمحمد ﷺ، وتبيين نبوته للناس، وعدم كتمهم لآيات الله، وهم «أحبارُ اليهود» ومن كان على سبيلهم ومنهاجهم، من جميع الخلق وأصناف الأمم[3]، وقولهُ«من بعدِ مِيثَاقِهِ» أي من بعد توثق الله فيه بأخذه عهودهم بالوفاء بذلك **﴿ويَقْطعونَ ما أمرَ الله بهِ أَنْ يُوصَـلَ﴾** أي ويقطعون الأرحام،التي أمر الله عز وجل بوصلها والإحسان إليها **﴿ويُفْسدُونَ في الأرض﴾** أي يفسدون فيها بالكفر والمعاصي وانتهاك الحرمات، والتكذيب لرسول الله ﷺ **﴿أولئكَ هم الخاسـرونَ﴾** أي الخاسرون رحمةَ الله، الذين نَقَصُوا أنفسهم حُظُوظها، كما يخسر الرجل في تجارته من رأس

---

(١) قال المفسرون: لما ذكر الله العنكبوت والذباب في القرآن، وضرب بها الأمثال، قال المشركون: الله أجلُّ وأعظم من أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة فنزلت الآية.

(٢) وقال بعض المفسرين: «فما فوقها» في الصغر والقلة، كما يقال في الرجل يصفه الواصف باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم وفوق ذاك، يعني وفوق الذي وصفت في الشح واللؤم، والأول اختيار الطبري ٤٠٦/١.

(٣) يرى الطبري أن الآية وإن نزلت في أحبار اليهود، إلا أنها تشمل كل من كان على طريقتهم ومنهاجهم من جميع الخلق والأمم، وكل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال ٤١٢/١.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

* * *

ماله ﴿كيفَ تكفرونَ بالله وكنتُمْ أمواتاً فأحياكُمْ﴾؟ أي كيف تجحدون قدرةَ الله على إحيائكم بعد إماتتكم، وقد كنتم نُطَفاً أمواتاً في أصلاب آبائِكم، فأنشأكم خلقاً سوياً،وجعلكم بشراً أحياء[١]؟وهذه الآية توبيخٌ من الله للذين قالوا بأفواههم خِداعاً لله وللمؤمنين «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» ﴿ثُمَّ يُميتُكُمْ ثم يُحْييكُمْ﴾ أي ثم يميتكم بعد إنشائكم، ويعيدكم بعد إفنائكم، ومن فعل ذلك بقدرته، فغيرُ عاجزٍ عن حشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم ﴿ثم إليه تُرجعون﴾ أي يحشركم لموقف الحساب، للثواب والعقاب ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي هو جل ثناؤه الذي خلق لكم جميع ما في الأرض من المعايش، تفضلاً منه وكرماً ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ﴾ أي علا على السماء وارتفع[٢]﴿فسوَّاهنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ﴾ أي فدبَّرهن بقدرته وخلقهن سبع سمواتٍ ﴿وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾ أي وهو تعالى عالمٌ بأموركم وأحوالكم، ما تبـدون وما تكتمون، الذي قد كَمَل في علمه.

﴿وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرض خَلِيفةً﴾ أي مستخلف في الأرض خليفة، يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك هو آدم ﴿قالوا أَتَجْعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾؟ أي قالت الملائكة ـ على سبيل الاسترشاد والاستخبار لا على سبيل الاعتراض والإنكار ـ أعلمنا يا ربنا أجاعل أنت في الأرض من يفسدُ فيها ويسفك الدماء، وتارك أن تجعل خلفاءك منا؟ ﴿ونحن نُسبِّحُ بحَمْدِكَ ونقدِّسُ لـكَ﴾ أي ونحن نعظِّمك بالحمد لك والشكر؟ والتسبيحُ: التنزيهُ، والتقديسُ: التطهيرُ والتعظيم ﴿قالَ إني أعلمُ ما لا تَعْلمونَ﴾ مّا خفي عليكم من شأن آدم وإبليس ﴿وعلَّم آدمَ الأسْماءَ كُلَّها﴾ أي علَّمه أسماء كل شيءٍ، أسماءَ ذريته وأسماء الملائكة ﴿ثم عرضهُمْ على الملائكة﴾ أي ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فقال أنبئوني بأسـماءِ هؤلاء﴾ أي أخبروني بأسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم أيها الملائكة ﴿إن كنتم

---

(١) قال الطبري: و«كيف». بمعنى التعجب والتوبيخ لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويحكم كيف تكفرون بالله والحال أنكم كنتم أمواتاً فأحياكم!؟ الطبري ١ / ٤٢٧

(١) علواً يليق بجلاله، وقد ذكر الطبري أقوالاً عديدة في الإستواء للمفسرين، وردَّها لأنها خلاف المفهوم من كلام العرب ثم قال: الإستواء هنا بمعنى العلو والارتفاع، علا عليها علوَّ مُلْك وسلطان، لا علو انتقال وزوال. انظر الطبري ٤٣٠/١.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

* * *

صادقين﴾ في دعواكم أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدّستموني، وإن استخلفتُ فيها غيركم عصاني ذريتُه، وأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء ﴿قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا﴾ أي نسبحك تسبيحاً، وننزهك تنزيهاً، ونبرّئك من أن نعلم شيئاً غير ما علمتنا ﴿إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾ أي إنك أنت يا ربنا العالم للغيوب دون جميع خلقك، ذو الحكمة التامة. قال ابن عباس: «العليم» الذي قد كَمل في علمه «الحكيم» الذي قد كَمل في حكمه[١] ﴿قالَ يا آدمُ أنبئهمْ بأسمائِهِمْ﴾ أي أخبرْ الملائكة بأسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليهم فلم يعرفوهم ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ أي فلما أخبرهم آدم بأسمائهم ﴿قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إني أَعْلَمُ غيب السَّمواتِ والأرضِ﴾ أي قال لهم ربهم: ألم أقل لكم أيها الملائكةُ إني أعلم غيب جميع السموات والأرض، لا يعلمه غيري ﴿وأعلم ما تُبْدونَ وما كنتم تكتمون﴾ أي وأعلم ما تُظهرون بألسنتكم، وما كنتم تخفونه في أنفسكم، لا يخفى عليَّ شيء، والذي أظهروه بألسنتهم قولهم «أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها»؟ والذي كانوا يكتمونه ما كان منطوياً عليه إبليس من التكبر عن طاعة الله، ورُوي عن الربيع بن أنس أن الذي كتموه قولهم: «لن يخلق ربنا خَلْقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم» فعرفوا أن الله فضَّل عليهم آدم في العلم والكرم[٢] ﴿وإذْ قُلْنَا للملائكـةِ اسْجُدوا لآدمَ﴾ هذا من عطف القصة على القصة، وكأنه جل ثناؤه يقول لليهود: اذكروا فعلي بكم إذْ أنعمتُ عليكم، فخلقتُ لكم ما في الأرض جميعاً. وإذْ قلتُ للملائكة

(١) قال الطبري: بدأ بعد تعداد النعم، بذكر أبينا آدم وما سلف من كرامة الله إليه وآلائه لديه، لينبه أحبار اليهود- الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين - على حكمه في المنيبين إليه بالتوبة، وليذكّرهم خاصة بأن محمداً ﷺ رسولُ لله مبعوث، وأن ما جاءهم به فمن عند الله، إذ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص من مكنون علومهم، ومصون ما في كتبهم، وكان معلوماً لديهم أن محمداً ﷺ لم يكن قط كاتباً، ولا لأسفارهم تالياً، ولا لأحد منهم مصاحباً حتى يدعوا أنه أخذ من كتبهم ولذلك ذكر تعالى قصة آدم.

(٢) قال الطبري: وفي هذه الآيات الثلاث العبرةُ لمن اعتبر، والذكرى لمن ادّكر، والبيانُ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحِكَم، التي تعجز عن وصفها الألسن، وذلك أن الله جل ثناؤه احتج لنبيه ﷺ على يهود بني إسرائيل، باطلاعه إياه من علوم الغيب، التي لم يكن أطلع عليها من خلقه إلا خاصاً، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما جاءهم به فمن عند الله، وذلك في قصة «آدم مع الملائكة» حيث ردَّ على الملائكة بما عرَّفهم من قصور علمهم عند عرضه عليهم أهل الأسماء، فلم يكن لهم مفزعٌ إلا الإقرار بالعجز، والتبرىء من العلم، فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة، على كذب من ادعى شيئاً من علوم الغيب كالكهنة والمنجمة، وذكَّر بها اليهود سوالف نعمه على آبائهم، وأياديه عند أسلافهم، وحذرهم حلول العقاب بهم بالإصرار على البغي والضلال، نظير ما أحل بعدوه إبليس حين تمادى في الغيّ والخسار. الطبري ٤٩٤/١

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

* * *

إني جاعل في الأرض خليفة، فكرَّمت أباكم «آدم» بما آتيتُه من علمي وفضلي وكرامتي. وإذْ أسجدتُ له ملائكتي فسجدوا له. الخ ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر﴾ أي فسجدوا جميعهم إلا إبليس امتنع من السجود لآدم، وتكبر عن طاعة الله، و«إبليس» من الإبلاس وهو الإياسُ من الخير، واختلف فيه هل هو من الملائكة أم من الجن؟ فقال ابن عباس: كان من الملائكة وكان اسمه «عَزَازيل».وقال الحسن: لم يكن إبليس من الملائكة طرفةعين[١]﴿وكانمن الكافرينَ﴾ أي وكان من الجاحدين لنعم الله، الكافرين بالله حين أبى السجود، وكان سجود الملائكة لآدمَ تكرمةً له وطاعةً لله، لا سجود عبادة لآدم ﴿وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُـك الجنـةَ﴾ أي اسكن مع زوجتك جنة الخلد ﴿وكُلَا منها رَغَداً﴾ أي كلا من الجنة أكلاً واسعاً هنيئاً، لا عناء فيه ولا تعب ﴿حيث شئتما﴾ أي من أي مكانٍ شئتما من الجنة ﴿ولا تَقْربَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي ولا تقربا شجرة معينةً من أشجار الجنة ﴿فتكونَا مِنَ الظالمينَ﴾ أي المتعدين حدود الله، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيءِ في غير موضعه. قال الطبري: وليس في القرآن ما يدل على شجرة على وجه التعيين، فقال بعضهم: إنها السنبلة، وقال قوم: إنها الزيتونة، وقال آخرون: إنها العنب، ولو كان في تعيينها ضرورة لذكرها الله تعالى[٢] لنا ﴿فَأَزَلَّهُمَاالشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي استزلهما وأوقعهما في الخطيئة والزلل عن طاعة الله، يقال: زلَّ إذا هفا وأخطأ، وأزلَّه إذا سبَّب له الوقوع في المخالفة، وقال ابن عباس: أغواهما ﴿فأخرجَهُما مِمَّا كَانَا فيهِ﴾ أي فأخرج آدم وزوجته مما كانا فيه من رغد العيش، وسعة نعيم الجنة ﴿وقلنا اهْبِطُوا بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا إلى الأرض، بعضكم أعداءُ بعـض، والمخاطبُ «آدمُ وحواءُ وإبليس» والعداوةُ بين ذرية آدم وإبليس هي عداوة الإيمان والكفر ﴿ولكمْ في الأرض مسـتقرٌّ﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقرون عليها ﴿ومَتَاعُ

(١) رجح ابن جرير أن إبليس كان من الملائكة بدليل استثنائه منهم أخذاً بظاهر الآية، وأورد آثاراً كثيرة في ذلك، والذي تطمئن إليه النفس وترتاح، ويؤيده البحث العلمي الدقيق، الذي توصلنا إليه بعد التحقيق: أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما هو من الجن للأسباب الآتية التي نوجزها فيما يلي: **أولاً**: أنه لو كان من الملائكة لما عصى أمر الله، لأن الله تعالى أخبر عنهم بقوله﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾**ثانياً**: الملائكة لا تتناسل ولا تتوالد، ولإبليس نسلٌ وذرية وقد قال تعالى﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾؟ **ثالثاً**: الاختلاف في طبيعة الخلق، فالملائكة كما ثبت في الحديث الصحيح «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجانُّ من مارج من نار» وإبليس يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾وهو أعرف بطبيعته منا، والقرآن كذلك يصرح﴿والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم﴾. **رابعاً**: تصريح القرآن في سورة الكهف بأن إبليس من الجن ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه. ﴾وكفى بالقرآن حجة وبرهانا!! **خامساً**: ما روي عن الحسن البصري أنه قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس» وأما الاستثناء فهو منقطع، وهذا ما ذهب إليه العلامة ابن كثير والله أعلم

(٢) الطبري ١ / ٥٠٦

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

* * *

﴿إلى حينٍ﴾ أي استمتاعٌ بما فيها من المعاش والرياش، والزينة واللَّذة إلى حين انقطاع الدنيا **﴿فتلقَّى آدمُ منْ ربهِ كلماتٍ﴾** أي أوحى إليه بكلمات يقولهنَّ ليتوب عليه فقبلهنَّ وعمل بهن. والكلماتُ هي «قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» **﴿فتاب عليهِ﴾** أي فتاب ربه عليه، حين تنصَّل من خطيئته، نادماً على ما سلف منه من الذنب **﴿إنه هو التوابُ الرحيمُ﴾** أي التواب على من تاب من ذنبه، المتفضل بالرحمة والصفح عن الجرم **﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾** الخطاب كما مرَّ لآدم وحواء وإبليس، أي اهبطوا جميعاً من السماء إلى الأرض **﴿فإمَّا يأْتينَّكُمْ مني هُدىً﴾** أي فإن يأتكم - يا بني آدم - مني بيانٌ ورشاد، و«ما» توكيدٌ للكلام **﴿فمنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾** أي فمن اتبع بياني الذي بعثته على لسان رسلي **﴿فلا خوفٌ عليهمْ﴾** من أهوال القيامة **﴿ولا هُمْ يَحْزنون﴾** على ما فاتهم في الدنيا **﴿والَّذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتِنَا﴾** أي جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله **﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدونَ﴾** أي أهل النار مخلدون فيها أبداً إلى غير نهاية، لا يخرجون منها أبداً

﴿يا بني إسرائيل﴾ أي يا أولاد يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن، و«يعقوب» هو إسرائيل ومعناه عبدُ الله. خاطب أحبار اليهود من بني إسرائيل لأنهم كذبوا رسول الله، تذكيراً لهم بنعَمِه تعالى عليهم على لسان رسول الله محمد ﷺ، نظير تذكير موسى أسلافهم على عهده **﴿اذكُروا نِعْمتيَ التي أنْعَمتُ عليكُمْ﴾** أي نعمي عليكم بإنقاذكم من البلاء والضرَّاء من فرعون، واصطفاء الرسل منكم، وإنزال الكتب عليكم **﴿وأَوْفُوا بِعَهْدي أوفِ بِعَهْدكُمْ﴾** أي أوفوا بوصيتي إليكم بالإيمان بمحمد وتبيين أمره للناس، أُوف بعهدكم بإدخالكم الجنة **﴿وإيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾** اخشوني ولا تخشوا غيري **﴿وآمِنُوا بما أنزلتُ﴾** أي صدقوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ **﴿مصدِّقاً لما معكم﴾** أي مصدقاً لما في التوراة **﴿ولا تكونوا أول كافرٍ به﴾** أي أول مكذب بالقرآن **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** أي ولا تبيعوا آيات الله بعرَضٍ قليل، وثمنٍ بخيس من حطام الدنيا **﴿وإيَّايَ فاتقونِ﴾** أي احذروا عقابي أن أُحلَّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم من العقوبات

وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾
۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

* * *

والنقم ﴿ولا تَلبِسُوا الحَقَّ بالباطـلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب، بزعمكم أن محمداً مبعوث إلى غيركم ﴿وَتَكْتُموا الحَقَّ﴾ أي وتخفوا ما تجدونه في كتابكم من نَعْتِه ﷺ وصفته ﴿وَأَنْتُمْ تَعلمـونَ﴾ أنه رسولي، وأن القرآن كلامي ﴿وأقيموا الصـلاة﴾ أدُّوا الصلاة مع المسلمين ﴿وآتوا الزكـاة﴾ ادفعوا زكاة أموالكم للمستحقين ﴿واركعوا مع الراكعيـن﴾ واخضعوا لله مع الخاضعين. **قال ابن جرير**: وهذا أمرٌ من الله ـ لمن ذُكر من أحبار بني إسرائيل ـ بالتوبة والإنابة، والدخولِ مع المسلمين في الإسلام والخضوع لله بالطاعة، ونهيٌ عن كتمان ما علموه من نبوة محمد ﷺ بعد تظاهر الحجج عليهم، وبعد الإعذار إليهم والإنذار، وتذكيرهم بنعمه عليهم وعلى أسلافهم، تعطفاً منه بذلك عليهم وإبلاغاً في المعذرة[1] ﴿أتأمرونَ النَّاسَ بالبرِّ﴾؟ أتأمرون الناس بطاعة الله وتعصونه أنتم[2]؟ ﴿وتَنْسَونَ أنفسكُمْ﴾ أي وتتركون أنفسكم من طاعته، فهلَّا تأمرونها بما تأمرون به الناس!؟ ﴿وأنتم تتلـون الكتابَ﴾ أي وأنتم تقرأون التوراة ﴿أفـلا تعقلـونَ﴾؟ أي أفلا تفهمون قبح ذلك الصَّنيع؟ والخطابُ لأحبار اليهود تقريعاً لهم وتقبيحاً ﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾ أي واستعينوا ـ أيها الأحبارُ ـ على الوفاء بعهدي وطاعتي، بالصبر والصلاة، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وكفِّها عن معاصي الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مراضي الله. خُصَّت الصلاة بالذكر لأن فيها تلاوة كتاب الله، الداعي إلى رفض الدنيا وهجر نعيمها، المذكِّر بالآخرة وما أعد الله لأهلها، ولهذا كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة ﴿وَإنَّهَا لكبيرَةٌ إلا عَلى الخَاشِعِينَ﴾ أي وإن الصلاة لعظيمة وثقيلة إلا على الخاضعين الخائفين من سطوة الله، المصدقين بوعده ووعيده ﴿الَّذِيـنَ يَظُنُّونَ أنَّهم مُلاَقُوا رَبِّهم﴾ أي يوقنون بلقاء الله ﴿وأنَّهُمْ إليهِ راجِعُـونَ﴾ أي رجوعهم إلى الله بعد مماتهم. . . وإنما أخبر أن الصلاة كبيرةٌ إلا على الموقنين بلقاء الله، لأن من كان غير موقنٍ بمعاد، ولا مصدِّق بثوابٍ ولا عقاب، فالصلاة عنده عَناءٌ وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراكَ نفعٍ ولا دفعَ ضُر، وحُقَّ لمن كانت هذه صفته أن تكون الصلاة عليه ثقيلة وله فادحة، وإنما خفَّت على المؤمنين، لما يرجون بإقامتها من جزيل الثواب، ويخافون بتضييعها أليم العقاب

(١) الطبري ١ / ٥٧٥
(٢) هذا الاستفهام الغرضُ منه التقريعُ والتوبيخ.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾

* * *

﴿يا بَني إِسْرائيلَ اذكرُوا نِعْمتِيَ الَّتي أنْعمتُ عليكُمْ﴾ أي يا معشر اليهود ـ يا أولادَ يعقوب ـ اذكروا آلائي ونِعَمي عليكم، التي أنعمتُ بها على آبائكم وأسلافكم ﴿وأَنِّي فضلتكم على العالمين﴾ عامٌ يراد به الخصوص أي وأني فضلتكم على عالَمي زمانكم بدليل الحديث «ألا إنكم وفَّيتم سبعين أمة، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله» **قال ابن جرير**: فقدْ أنبأ هذا الخبر أن بني إسرائيل لم يكونوا مفضلين على أمة محمد عليه السلام ،وأن المعنى على ما بيَّنا من تأويلها[1] ﴿واتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً﴾ أي لا تُغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا تَقْضي عنها شيئاً لزمها لغيرها، لأن القضاء هناك من الحسنات والسيئات لما ورد في الحديث «رحم الله عبداً كانت عنده لأخيه مَظْلَمة في عِرْضٍ أو مالٍ أو جاهٍ، فاستحلَّه قبل أن يُؤخذ منه وليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذوا من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم»[2] ﴿ولا يُقْبَلُ منها شَفَاعةٌ﴾أي لا يقبل الله منها شفاعة شافع، وهذه لمن مات على كفره غير تائب إلى الله لحديث «إني خَبَأْتُ دعوتي شفاعةً لأمتي، وهي نائلةٌ إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً»[3] ﴿ولا يُؤْخَذُ منها عَدْلٌ﴾ أي لا يُقبل منها فدية، لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تُقبِّل منها ﴿ولاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي لا ينصرهم يومئذٍ ناصرٌ، بطلت هناك المحاباة، واضمحلت الشفاعات، وارتفع التناصر، وصار الحُكم إلى العَدل الجبار، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فلا شفاعة للمجرم يوم القيامة ولا ناصر ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعونَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أنجيتكم من طغيان أهل فرعون وأشياعه ﴿يَسُومونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ أي يذيقونكم أشد وأسوأ أنواع العذاب. ثم وصفه بقوله ﴿يُذَبِّحونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيونَ نساءَكُمْ﴾ أي يَذْبحون عند الولادة أبناءكم الذكور[4]،ويستبقون الإناث فلا يقتلونهن ﴿وفي ذلكُمْ بَلاَءٌ من ربكُمْ عَظيمٌ﴾ أي وفي إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون نعمةً

---

(١) الطبري ٢٥/٢ والحديث الذي ذكره الطبري رواه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بلفظ «أنتم تُتِمّونَ سبعين أمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله» وقال: حديث حسن.

(٢) الحديث صحيح الاسناد رواه الترمذي ٢٩٢/٣ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الحديث أورده الطبري بدون إسناد، وهو في الصحيحين من حديث أنس بن مالك بلفظ «لكل نبي دعوة مستجابة، وقد تعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي..» الخ ،وانظر الترغيب والترهيب ٢١٣/٤

(٤) **قال الطبري**: وكان سبب ذبح أبناء بني إسرائيل ما رُوي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس إلى مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل مولود يكون هلاكك وذهاب ملكك على يديه، فأمر بذبح كل غلامٍ يُولد لهم. الطبري ٤٤/٢.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

* * *

عظيمة، وأصلُ البلاء: الاختبارُ وقد يكون بالخير وقد يكون بالشر كقوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ﴾ أي واذكروا نعمتي حين فصلتُ بكم البحر، اثني عشر طريقاً لكل سِبطٍ طريقٌ ليسلكوه ﴿فأنجيناكُمْ وأغْرَقنا آل فِرْعونَ﴾ أي فأنجيناكم من الهلاك وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأنتُمْ تنظرون﴾ وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون، والتطام أمواج البحر بآل فرعون. يذكّرهم آلاءه، ويحذِّرهم أن يحلَّ بهم ما حلَّ بفرعون وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسَى أَرْبَعينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدناه أربعين ليلةً بتمامها لإنزال التوراة عليه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِه﴾ أي ثم عبدتم العجل واتخذتموه إلٰهاً بعد أن فارقكم موسى إلى الموعد ﴿وأَنْتُمْ ظالمونَ﴾ أي وأنتم ظالمون ـ بهذا الصنيع ـ لأنكم وضعتم العبادة في غير موضعها ﴿ثُمَّ عفَوْنَا عنكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلكَ﴾ أي تركنا عقوبتكم من بعد اتخاذكم العجل إلٰهاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ لتشكروني على عفوي ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسى الْكِتَابَ﴾ أي واذكروا أيضاً حين أعطينا موسى التوراة ﴿والفرقانَ﴾ أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وهو عطف بيان لأنه صفةٌ للتوراة ﴿لعلكُمْ تهتدونَ﴾ لتهتدوا وتتبعوا ما فيها من الحق المبين ﴿وإذْ قَالَ موسى لقومِه يا قوم إنكم ظَلَمتُمْ أَنْفسَكُمْ باتخاذكم العجلَ﴾ أي واذكروا أيضاً حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل رباً ﴿فتُوبُوا إلى بَارئِكُمْ﴾ فتوبوا إلى خالقكم من هذا الذنب ﴿فاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتلْ بعضكم بعضاً. أمر موسى من لم يكن عَبَد العجل أن يقتل من عَبَده، فجعلوا يقتلونهم حتى بلغ قتلاهم سبعين ألفاً، وبكى موسى حتى تاب الله عليهم[1] ﴿ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكُمْ﴾ أي قتلكم أنفسكم امتثالاً لأمر الله، خيرٌ لكم عند خالقكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة ﴿فتاب عليكم﴾رجع عليكم بالعفو والصفح عن جرمكم ﴿إنهُ هوَ التَّوابُ الرحيمُ﴾ التائب على من أناب، الرحيم بالعباد.

﴿وإذْ قُلتُمْ يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى الله جَهْرَةً﴾ أي واذكروا أيضاً حين قلتم: يا موسى لن نصدِّقك ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله عِياناً، ننظر إليه بأبصارنا[2] ﴿فَأَخَذتكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي

(١) الطبري ٢ / ٧٧ والمراد بقوله تعالى ﴿فاقتلوا انفسكم﴾ أي ليقتُلْ البريءُ منكم المجرمَ الذي عَبَد العجل

(٢) القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى ليعتذروا من عبادة العجل، كذا في رواية السدي التي رواها الطبري ٨٧/٢.

تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

* * *

فأهلكناكم بالصاعقة وهي نارٌ محرقة **﴿وأنتُمْ تَنْظُرونَ﴾** أي وأنتم ترونها وتنظرون إليها **﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرونَ﴾** أي ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة، لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم. ثم عدَّد نعمه على بني إسرائيل تذكيراً لهم بواجب الشكر فقال **﴿وَظَلَّلْنَا عَليكُمُ الْغَمَامَ﴾** أي ظلَّلنا عليكم السحاب حين كنتم في التِّيه **﴿وأنزلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوى﴾** أي أنزلنا عليكم يا بني إسرائيل وأنتم في التيه المَنَّ الذي منَّ الله به عليكم يسقط على الشجر وهو أطيب من العسل، والسَّلْوى وهو طائر يسمى «السُّماني» يشبه الحمام **﴿كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾** أي وقلنالكم: كلوا من لذائذ وشهيات ما رزقناكم **﴿وما ظلمونَا ولكنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلمونَ﴾** أي وما ظلمونا بعصيانهم أمرنا، ولكنْ ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب **﴿وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هـٰذِهِ القريةَ﴾** بيت المقدس **﴿فَكلُوا منها حيثُ شئتُمْ رغداً﴾** أي كلوا منها أكلاً هنيئاً واسعاً بغير حساب **﴿وادخُلُوا الباب سُجَّداً﴾** أي ادخلوا باب «بيت المقدس» ساجدين شكراً لله **﴿وقُولُوا حِطَّةٌ﴾** أي قولوا: حُطَّ عنا يا ربنا ذنوبنا ـ وهي كلمة استغفار عندهم ككلمة أستغفرُ الله عندنا[1] ـ **﴿نَغْفِرْ لكمْ خَطَاياكُمْ﴾** أي نستر لكم ذنوبكم، ونحطُّ عنكم أوزاركم **﴿وسنزيد المحسنينَ﴾** أي سنزيد المحسن منكم إحساناً **﴿فَبدَّلَ الَّذينَ ظَلَمُوا منهمْ قَوْلاً غيرَ الَّذي قيلَ لَهُمْ﴾** أي فغيَّروا وبدَّلوا كلاماً آخر غير ما أُمروا أن يقولوه، قال ابن عباس: «دخلوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا منه سُجَّداً يزحفون على أستاههم ـ يعني مقاعدهم ـ يقولون: حنطةٌ في شعيرة»[2] **﴿فأنزلْنَا على الَّذينَ ظَلَمُوا رجزاً مِنَ السَّماءِ﴾** أي فأنزلنا على الذين خالفوا أمرنا عذاباً من السماء، طاعوناً أو غيره **﴿بما كانوا يَفْسُقونَ﴾** أي بمعصيتهم وخروجهم عن طاعة الله **﴿وإذِ استَسْقَى موسى لقومِهِ فقُلْنَا اضْرِبْ بَعَصَاكَ الحَجَرَ﴾** أي سأل موسى ربه ـ حين كان في أرض التيه ـ أن يُسقيَ قومه بني إسرائيل ماءً، فقلنا له: اضرب بعصاك الحجر فضربه **﴿فانفجرَتْ منه اثنتا عَشْرةَ عيناً﴾** أي فتفجرت من الحجر عيونُ الماء بقدر عدد الأسباط، وجعل الله لكل سبطٍ من الأسباط

---

(١) هذه الجملة التوضيحية من كلامنا.

(٢) رواه ابن عباس مرفوعاًوهو صحيح إسناده،فقد ذكره البخاري ومسلم والترمذي،وأكثر رواة البخاري على لفظ «شعرة» بدل « شعيرة ».

مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ

* * *

«الإثني عشر» عيناً من الحجر، يشرب منها دون سائر الأسباط، وكان هذا النابع من الحجر، مخالفاً معاني سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين، ولكل سبطٍ منبعٌ من منابع الحجر خاصٌ، ولهذا قال تعالى بعده ﴿**قَدْ علِمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ**﴾ أي قد علم كل جماعةٍ منهم مشربهم ﴿**كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ الله**﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من المنِّ والسلوى، واشربوا من الماء العذب الفرات، الذي فجَّره الله لكم من الحجر، بقدرة ذي الجلال والإكرام ﴿**ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدينَ**﴾ أي ولا تسعوا في الأرض بالفساد، وأصلُ العثُوِّ شدةُ الفساد ﴿**وإذْ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نَصْبر على طَعَامٍ وَاحِدٍ**﴾ أي واذكروا يا معشربني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى: لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، وهو المنُّ والسلوى في قول بعضهم، والخبزُ النقيُّ مع اللحم في قول وهب[١] ﴿**فادعُ لنا ربكَ يُخرجْ لنا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِهَا وقِثَّائِها وفُومِهَا وَعَدَسِها وبَصَلِهَا**﴾ أي فاسأل لَنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من البقل والقثاء.

الخ.**قال الطبري**: والبقلُ، والقِثَّاءُ، والعدسُ، والبصلُ، هو مما عرفه الناس من نبات الأرض وحبها، وأمَّا الفومُ فهو في قول ابن عباس وعطاء: الحنطةُ، وفي قول مجاهد والربيع: الثُومُ[٢] ﴿**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بالَّذِي هُوَ خيرٌ**﴾؟! أي قال لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخسُّ وأردأُ، بدلاً من الذي هو خيرٌ فضلاً وقدراً؟ ولا شك أن من استبدل بـ «المنِّ والسلوى» البقلَ والقثاء، والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع بالرفيع ﴿**اهبطُوا مِصْراً فإنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ**﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: فدعا موسى فاستجبنا له فقلنا لهم: اهبطوا مِصْراً أي انزلوا مِصْراً من الأمصار[٣]، لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم ما سألتم من العيش، من العدس والبصل والثوم ﴿**وَضُربتْ عليهمُ الذِلَّةُ والمَسْكَنَةُ**﴾ أُلزمت وفرضت على اليهود «الذِلة» أي الصَّغـار، و«**المسْكَنةُ**» أي الفاقةُ والحاجة، ﴿**وبَاءُوا بِغَضَبٍ من الله**﴾ رجعوا وانصرفوامتحمِّلين غضب الله وسخطه ﴿**ذلكَ بأنهمْ كانُوا يكفرونَ بآياتِ الله**﴾ ذلك الذل والهوان والسخط، من أجل أنهم كانوا يجحدون حجج

---

(١) الطبري ١٢٥/٢

(٢) وذكر أن ذلك قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وهو من باب الإبدال، ورجحه ابن جرير لأنه الموافق لذكر البصل، الطبري ١٢٧/٢

(٣) مِصْراً بالتنوين بلدةً من البلاد لا بلداً معيناً، وبالفتح «مصرَ» البلدة المعروفة باسم مصر.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا
مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ
فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ
كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

الله، الدالة على توحيده ﴿وَيَقْتلونَ النبيِّينَ بغيرِ الحقِّ﴾ ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لهداية خلقه بغير إذنِ الله تعالى ﴿ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ﴾ ذلك العقاب بعصيانهم أمري وتجاوزهم حدي. فأخبرهم تعالى أنه يبدلهم بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاءً منه على كفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق ﴿إن الذينَ آمنوا﴾ المؤمنون الذين صدَّقوا رسول الله فيما أتاهم به من عند الله ﴿والَّذينَ هَادُوا﴾ اليهود الذين هادوا أي تابوا ﴿والنَّصَارى﴾ الذين ناصروا عيسى[1] ﴿والصابئين﴾ قومٌ لا دين لهم ولا كتاب يعبدون الملائكة ﴿مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ﴾ هذا خبر الجملة «إن الذين آمنوا» أي من صدَّق من هؤلاء المذكورين بالله، وأقر بالبعث بعد الممات ﴿وعملَ صالحاً﴾ أطاعَ الله ﴿فَلَهمْ أجرُهُمْ عِنْدَ ربهِمْ﴾ لهم ثواب عملهم الصالح عند الله ﴿ولا خَوْفٌ عَليهِمْ﴾ من أهوال القيامة ﴿ولا هُمْ يَحْزنُونَ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، عند معاينتهم النعيم المقيم ﴿وإِذْ أخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورفَعْنَا فوقكُمُ الطُّور﴾ اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا ميثاقكم المؤكد بالعهد أو اليمين، ورفعنا فوقكم جبل الطور ﴿خُذُوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقلنا لكم: خذوا ما أمرناكم به في التوراة، واعملوا بجدٍ واجتهاد، من غير تقصير ولا توَان ﴿واذكروا ما فيهِ لعلكم تتقونَ﴾ اعتبروا بما فيه من وعدٍ ووعيد، وترغيبٍ وترهيب، كي تتقوا وتخافوا عقابي ﴿ثُمَّ تَوَليتُمْ مِنْ بعدِ ذَلِكَ﴾ ثم أعرضتم وتركتم العمل بكل ما أُمرتم به، فنبذتموه وراء ظهوركم، بعد إعطائكم ربكم المواثيق على العمل به بجد واجتهاد ﴿فلولا فَضْلُ الله عليكُمْ ورحمتُهُ لكنتم من الخاسرينَ﴾ فلولا تفضلُ الله عليكم، ورحمته إياكم بإنقاذكم بالتوبة من خطيئتكم وجرمكم، لكنتم من الهاليكن ﴿وَلَقَدْ عَلمتُمُ الَّذين اعتَدَوْا منكُمْ في السَّبْتِ﴾ ولقد عرفتم الذين اجترأوا على مخالفة أمري فاصطادوا يوم السبت، عرفتم ماذا فعلتُ بهم ﴿فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين﴾ فقلنا لهم: صيروا قردة، أذلاء صغراء، مبعدين مطرودين ﴿فَجعلنَاهَا نَكَالاً لِمَا بينَ يَدَيْها وما خَلْفَها﴾ فجعلنا تلك المسخة التي مسخناهم بها، عقوبةً لما سبق من ذنوبهم السالفة، ولمن بقي بعدهم أن يعملوا بمثل ما عملوا، فيُمْسخوا مثل ما مُسخوا ﴿وَمَوْعظَةً لِلْمتَّقينَ﴾ وتذكرةً للمتقين، وعبرةً

(١) هذا على القول بأن لفظ «النَّصارى» من النُّصرة، وقيل سُمُّوا «نصارى» نسبة إلى البلدة المسمَّاة بالنَّاصرة والله أعلم

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ
فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ
لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا

* * *

للمؤمنين، ليتعظوا بها ويعتبروا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لقومِهِ إنَّ الله يَأْمركُمْ أَنْ تذبحوا بَقَـرَةً﴾ واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين قال موسى لأسلافكم الذين نكثوا ميثاقي: إنَّ ربكم يأمركم أن تذبحوا بقرة، وذلك حين تدافعوا في القتيل الذي قُتل فيهم ﴿قالوا أتتَّخِذُنَا هُزواً﴾؟ قالوا: أتلعب وتهزأ بنا؟ ﴿قَالَ أعوذُ بالله أَنْ أكونَ من الجاهلينَ﴾ قال لهم موسى: أستجير بالله أن أكون من السفهاء الذين يكذبون على الله. ظنوا بموسى أنه هازىءٌ لاعب، ولم يكن لهم أن يظنوا بنبيٍّ الله ذلك، وهو يخبرهم أنَّ الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة ﴿قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبَيِّنْ لنا ما هـي﴾ قالوا لموسى: بجفاء أخلاقهم، وغِلظِ طبائعهم، وسوءِ أفهامهم: سلْ لنا ربك يبينِّ لنا ما هي؟ ما صفتُها؟ وما حليتُها؟ حتى نعرفها ﴿قالَ إنهُ يقولُ إنَّها بَقَرةٌ لا فَارضٌ ولا بِكْـرٌ﴾ أي لا مُسِنَّة هرمة، ولا فتيَّة صغيرة ﴿عَوَانٌ بين ذلكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وسطٌ بين البكر والهرمة فافعلوا ما آمركم به تعرفوا القاتل ﴿قالُوا ادْعُ لَنَا ربَّكَ يُبيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ قالوا تعنتاً منهم لموسى: سلْ لنا ربك يبينّ لنا أيُّ شيءٍ لونُها؟ أسوداءُ هي أم صفراءُ؟ ﴿قَالَ إنهُ يَقُولُ إنّها بَقَرةٌ صَفْراءُ فَاقعٌ لَوْنُها﴾ قال لهم موسى: إن الله يقول إنها بقرةٌ صفراء، شديدة الصفرة ـ والفقوُع في الصفرة نظيرُ النُّصوع في البياض ـ ﴿تَسُرُّ الناظرينَ﴾ تعجب الناظرين في حسن منظرها وهيئتها ﴿قالوا ادْعُ لنا ربكَ يُبيِّنْ لنا ما هي إنَّ البقَرَ تَشَابهَ علينَا وإنَّا إنْ شَاءَ الله لمهْتَدُونَ﴾ أي إن البقر التبس علينا، وإنا بمشيئة الله سنعرف ما التبس علينا من أمرها وتشابه. قال الطبري: لما زادوا نبيَّهم أذى وتعنتاً، زادهم الله عقوبةً وتشديداً، ولو أن بني إسرائيل ـ كما يقول ابن عباس ـ أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، وقال عطاء: لو لم يقولوا «إن شاءَ الله» لما بُيِّنت لهم آخر الأمر ﴿قالَ إنهُ يقولُ إنَّها بَقرةٌ لا ذَلُولٌ تثيرُ الأَرْضَ﴾ أي ليست مذلَّلة لإثارة الأرض وقلبها بالحِراثة ﴿ولا تسـقي الحَرْثَ﴾ وليست مسخرة لسقي الزرع ﴿مسلَّمةٌ لاشيةَ فيها﴾ مسلَّمة من العيوب، لا لون فيها يخالف لون جلدها ﴿قالوا الآن جئت بالحقِّ﴾ الآن بيَّنت لنا الحقَّ وعرفناها حق المعرفة، وهذا منهم هُراءٌ وخطأٌ وجهلٌ، كأنه لم

وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ * أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

* * *

يكن جاءهم بالحق قبل ذلك ﴿فذبحوها﴾ ذبحوا البقرة المعيَّنة ﴿وما كادوا يفعلون﴾ قاربوا أن يتركوا ذبحها، لغلاء ثمنها وخشية الفضيحة بإظهار الله نبيَّه على القاتل. قال مجاهد: كانت البقرة لرجل يبرُّ أمه، فباعها لهم بملءجلدها ذهباً، ولذلك قال تعالى «وما كادوا يفعلون».

﴿وإذْ قَتَلْتُمْ نَفساً فَادَّارَأْتُـمْ فيهـا﴾ هذا بيانٌ لقصةالبقرة[1] أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً فتدافعتم في شأن قتله، وأصبح كل فريق يدفع أن يكون قاتِله، وأصلها «فتَدارأتم» أي اختلفتم وتنازعتم وتدافعتم ﴿والله مخرجٌ ما كُنتُمْ تَكْتُمونَ﴾ والله مظهرٌ ما تسرونه من أمر القتيل الذي قتلتموه ﴿فقُلْنا اضربُوهُ بِبَعْضِهـا﴾ فقلنا لقوم موسى: اضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا ويُخبركم عن قاتله، فضربوه فأحياه الله وأنبأهم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيي الله الموتَى﴾ كما أحيا الله هذا القتيل بعد موته في الدنيا، كذلك يحيي الموتى بعد مماتهم، فاعتبروا يا أولي الألباب ﴿وَيُريكُمْ آياتِهِ﴾ ويريكم أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ، حجَجه وأدلتَه الدالةَ على توحيده وصدق رسله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا وتفهموا قدرة الله، وأن محمداً محقٌ صادق فتؤمنوا به ﴿ثم قَسَتْ قُلوبكُمْ من بعد ذلكَ﴾ ثم غَلُظتْ وصلُبتْ قلوبكم- يا كفار بني إسرائيل- من بعد رؤية تلك الآية الباهرة ﴿فَهي كالحِجَارة أو أشَدُّ قَسْوةً﴾ فهي كالحجارة صلابةً ويُبساً، وبعضُها أشدُّ صلابةً من الحجارة[2] ﴿وَإنَّ مِنَ الحجارَةِ لَمَا يتفجَّرُ منهُ الأنْهارُ﴾ أي من الحجارة ما يتفجر بالأنهار ﴿وَإِنَّ منْهَا لما يَشَّقَّقُ فَيَخْرجُ منه المْاءُ﴾ أي ومنها ما يتشقق بالماء، فيكون عيناً نابعة وأنهاراً جارية ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبطُ من خَشْيةِ الله﴾ أي ومن الحجارة ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته. ضرب تعالى ذلك مثلاً لقلوبهم، فأخبر أن من الحجارة ما هو ألين من قلوب هؤلاء الذين أراهم من الآيات والعِبر، وعاينوا من

(١) روي أن رجلاً من بني إسرائيل كان غنياً وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابنته فأبى أن يزوجه إياها، فغضب الفتى وقال: واللهِ لأقتلنَّ عمي، ولآخذنَّ ماله، ولأنكحنَّ ابنته، فجاءه يوماً وقال: يا عم قدم تجار فانطلق معي واشتر لي من تجارة القوم لعلي أصيب منها ربحاً فإنهم إذا رأوك أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلاً فقتله الفتى ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يبحث عن عمه فوجد قوماً مجتمعين عليه فقال: قتلتم عمي فأدوا إليَّ ديته، وجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعماه، ثم ذهبوا إلى موسى فأمرهم بذبح البقرة. الطبري ١٨٥/٢

(٢) «أو» هنا ليست للشك، وإنما هي للتنويع والمعنى: بعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشدُّ قسوة من الحجارة، وقيل: إنها بمعنى الواو، أي فهي كالحجارة وأشد قسوة، وقيل: إنها بمعنى بل أي بل أشد قسوة، ورجح الطبري الأول.

حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

* * *

حقوقهم التي فرضها الله في أموالكم ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ وقولوا للناس قولاً حَسَناً[1]، بالأدب الحسن الجميل، والخُلُق الكريم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أدوها كاملة، بتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع ﴿وَآتُوا الزَكَاةَ﴾ ادفعوا زكاة أموالكم إلى المستحقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَليلاً منكُمْ﴾ ثم أعرضتم يا معشر اليهود عن الوفاء بالعهد، إلاَّ من عصمه الله منكم فوفَّى لله بعهده وميثاقه ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضونَ﴾ وأنتم معرضون عن الحقِّ والهدى ﴿وإِذْ أَخَذْنَا ميثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ﴾ واذكروا أيضاً يا معشر اليهود حين أخذنا عهدكم المؤكد ألَّا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تُخْرِجونَ أنفسُكُمْ من دِيارِكُمْ﴾ ولا يخرج بعضكم بعضاً ـ من وطنه ـ بطريق العدوان ﴿ثُمَّ أَقْررتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدونَ﴾ ثم أقررتم بالميثاق الذي أخذنا عليكم، وأنتم شهودٌ على ذلك ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفسَكُمْ﴾ ثم أنتم يا معشر اليهود ـ بعد إقراركم بالميثاق ـ تقتلون إخوانكم في الدين ﴿وتُخْرِجونَ فَريقاً منكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَليهِمْ بالإِثْم وَالعُدْوان﴾ وتخرجون فريقاً من أهل دينكم من ديارهم، تعينون عليهم المشركين ظلماً وعدواناً[2] ﴿وإنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادوهم﴾ إن وجدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من أعدائكم تفدونه!؟ يوبخهم ويعرفهم قبيح أفعالهم ﴿وهو مُحَرَّمٌ عليكُمْ إخراجُهُمْ﴾ وإخراجهم من ديارهم حرامٌ عليكم، فكيف تستجيزون قتلهم، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم؟! ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرون ببعض﴾؟ أفتصدِّقون ببعض التوراة وتجحدون بعضها؟ قال مجاهد: إن وجدتَه في يدِ غيركَ فديتَه، وأنتَ تقتُله بيدك؟[3] ﴿فما جَزَاءُ مَنْ يَفْعلُ ذلكَ منكُم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُّنْيَا﴾ فليس جزاء من نقض عهد الله، إلاّ الذلّ والصَّغار

---

(١) الحُسْن: بالضم اسم عام جامع لجميع معاني الحُسْن ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً﴾ وبالفتح اسم لبعض معاني الحسن. الطبري ٢/٢٩٥

(٢) قال ابن عبَّاس: حرَّم الله تعالى على بني إسرائيل سفك دمائهم، وافترض عليهم في التوراة فداء أسراهم فكانوا فريقين: النضير وقريظة حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، فاذا وقعت حرب بين الأوس والخزرج، ظاهر ـ أي أعان ـ كلٌ من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يسفكوا دماءهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها حكم الله، وكان الأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنةً ولا ناراً، ولا بعثاً ولا حساباً، ولا حراماً ولا حلالاً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة، فوبخهم تعالى على ذلك. الطبري ٢/٣٠٥.

(٣) الطبري ٢ / ٣٠٩

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى
ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ

* * *

في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ويومَ الْقيامةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذاب﴾ وفي الآخرة يُردُّ هؤلاء إلى أشدِّ العذاب الذي أعدَّه لأعدائه ﴿وما الله بغَافِلٍ عما تَعْملُونَ﴾ وليس الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بل هو محصٍ لها، وسيذلهم ويفضحهم في الآخرة ﴿أولئكَ الذينَ اشتَرَوُا الحياة الدنيا بالآخرةِ﴾ باعوا حظوظهم من نعيم الآخرة، بالخسيس التافه من الدنيا ﴿فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ﴾ لا يخفُّ عنهم عذاب جهنم ﴿ولاَ هُمْ يُنْصَرونَ﴾ وليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله.

﴿ولقد آتَيْنَا مُوسى الكِتَابَ﴾ أعطيناه التوراةَ ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُسُلِ ﴾ أتبعنا بعضَهم بعضاً، على منهاجٍ واحد وشريعةٍ واحدة ﴿وآتَيْنا عِيسى ٱبنَ مَرْيمَ البَيّناتِ﴾ المعجزات الواضحات الدالة على نبوته، من إحياء الموق، وإبراء الأعمى والأبرص، ونحو ذلك من الآيات ﴿وأيَّدْنَاهُ برُوحِ القُدُسِ ﴾ وقوَّيناه وأعنَّاه بالروح المطهَّرة، وهو جبريل عليه السلام ﴿أفكُلَّمَا جَاءَكُم رَسُولٌ بما لا تَهْوى أنْفُسكُمْ استكبرتم﴾ أفكلَّما جاءكم يا معشر اليهود رسولٌ من الرسل، بغير الذي تهواه نفوسكم، استكبرتم عليهم بغياً وتجبراً ﴿فَفريقاً كُذَّبتُمْ وفَريقاً تقْتُلونَ﴾ فكذبتم بعضاً منهم، وقتلتم بعضاً آخر، هكذا فعلكُمْ أبداً برسلي؟ ﴿وقالوا قُلوبُنا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا في أكنة وأغطية مما تدعونا إليه يا محمد ﴿بلْ لعنهم الله بكفرهم﴾ بل أبعدهم الله وطردهم من رحمته[١] بسبب كفرهم وجحودهم آيات الله وبيناته ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ لا يؤمن منهم إلا قليل ﴿ولَمَّا جَاءَهُمْ كتابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ ولما جاء هؤلاء اليهودَ القرآنُ، مصدِّقاً لما معهم من التوراة والإنجيل ﴿وكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الذين كَفَرُوا﴾ وكان هؤلاء اليهود ـ قبل مبعثه ﷺ ـ يستنصرون الله به على مشركي العرب[٢] ﴿فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به﴾ فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به وكذبوه ﴿فَلَعْنَةُ

---

(١) أصل اللعن: الطردُ والإبعاد، والمراد به هنا طردهم من رحمته. الطبري ٣٢٨/٢.

(٢) كان اليهود يستنصرون بمحمد ﷺ يقولون: إذا وقعت حربٌ بينهم وبين المشركين: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان، فلما بُعث ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ

* * *

الله على الكَافِرِينَ﴾ فخزيُ الله وطردُه للجاحدين، المنكرين لنبوته ﴿بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ بئس الشيءُ الذي باع اليهود به أنفسهم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بما أَنْزَلَ الله بَغْياً﴾ جحودُهم بما أنزل الله بغياً وحسداً ﴿أَنْ يُنَزِّلَ الله من فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من أجل أن ينزِّل الله النبوة على محمد ﷺ، لأنه كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وهذه الآية في حسد اليهود لمحمد ﷺ، مع علمهم بصدقه وأنه نبيٌّ مرسل، نظيرةُ قوله تعالى «أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله» ﴿فَبَاءُوا بغضَبٍ على غَضَبٍ﴾ فرجع اليهود بسخطٍ عظيم من الله بكفرهم بمحمد ﷺ، على سابق غضبه وسخطه عليهم، بتحريفهم وتبديلهم أحكام التوراة ﴿وَلِلْكافرينَ عَذَابٌ مُهينٌ﴾ وللجاحدين المكذبين نبوة محمد عذاب مُهين مخز، يخلَّد صاحبه في النيران مع الذلة والهَوَان ﴿وإذَا قِيلَ لهُمْ آمنوا بما أنزلَ الله﴾ وإذا قيل لليهود: صَدِّقوا بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ ﴿قالوا نؤمنُ بما أُنزل عَلَيْنا﴾ قالوا: نصدِّق بالتوراة التي أنزلهاالله علينا ﴿ويكفرونَ بما وراءه وهو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم﴾ ويجحدون بما وراء التوراة من كتب الله التي أنزلها على رسله كالإنجيل والقرآن، مع أنها موافقة لما في التوراة، لأن كتب الله يُصدِّق بعضُها بعضاً ﴿قُلْ فلِمَ تقتلونَ أنبياءَ الله منْ قَبْلُ إنْ كُنْتم مُؤْمِنينَ﴾؟ قل لهم يا محمد: إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلم قتلتم رسل الله، وقد حرَّم الله عليكم قتلهم، وأمركم بطاعتهم وتصديقهم؟ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بالبيِّنَاتِ﴾ جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته كالعصا واليد ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُم الْعِجْلَ مِنْ بـعدِهِ وأنتم ظَالمون﴾ ثم اتخذتم العجل إلَهاً، من بعد أن فارقكم موسى لميعاد ربه، وأنتم ظالمون لأنفسكم، لأنكم عبدتم ما لا يستحق العبادة. وهذا توبيخٌ لهم في عبادتهم العجل وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، بعد أن علموا أن ربهم الذي يفعل الأعاجيب، والذي أجرى على يدي موسى من الخوارق ما لم يقدر عليه فرعون وجنده، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حِكَم الله، فكيف يُستبعد منهم أن يكذبوا رسول الله، مع بُعدِ ما بينهم وبين عهد موسى؟! ﴿وإذْ أَخَذْنَا مِيثَاقكُمْ ورَفَعنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا يا معشر بني إسرائيل حين أخذنا عهودكم، ورفعنا فوقكم جبل الطور ﴿خذوا ما آتيناكم بقوةٍ﴾ وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم في التوراة بجدٍ منكم في

بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ
ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا

* * *

ذلك ونشاط ﴿واسمعوا﴾ واسمعوا ما أمرتكم به وتقبَّلوه بالطاعة، فكان جوابكم ﴿قَالُوا سمِعْنَا وعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وأُشْرِبُوا في قُلوبِهِمُ العِجْلَ بكفرهِمْ﴾ وأُشربوا في قلوبهم حبَّ العجل بكفرهم وضلالهم ﴿قُلْ بئسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إيمانُكُمْ إنْ كُنْتُمْ مؤمنينَ﴾ قل لهم يا محمد: بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم، إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله، والتكذيب بكتبه وبما جاء من عنده، إن كنتم مصدقين- كما زعمتم- بما أنزل الله عليكم!! والآية تكذيبٌ لهم في دعواهم الإيمان، ونفيٌ من الله عن التوراة أن تكون تأمربشيءٍمن قبيح أفعالهم، وإنما تأمرهم بذلك أهواؤ هم وما هم عليه من البغي والعدوان ﴿قلْ إنْ كانتْ لكُمُ الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالصةً من دونِ النَّاسِ فتمنوا الموت إنْ كنتُمْ صادقينَ﴾ قل يا محمد: إن كان نعيمُ الدار الآخرة ولذاتُها، لكم يا معشر اليهود صافية وخاصة من دون جميع الناس، فاشتهوا الموت وتمنَّوْه، إن كنتم صادقين فيما تزعمون، وإنما أُمر رسولُ الله ﷺ أن يقول لهم: تمنَّوا الموت، لأنهم قالوا «نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه» وقالوا «لَنْ يَدْخلَ الجنةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارى». فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكتْ، وظهرت حجةُ رسول الله وحجةُ أصحابه عليهم، ولم تزل والحمدُ لله ظاهرةً عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل ﴿ولَن يَتمنَّوْهُ أَبَداً بما قَدَّمَتْ أيديهِمْ﴾ ولن يتمنوا الموتَ أبداً بما أسلفته أيديهم من الجرائم ﴿والله عليمٌ بالظالمينَ﴾ والله عالم بكل ظالم، من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل والأديان ﴿ولَتَجدنَّهمْ أَحْرص النَّاسِ عَلى حَياةٍ﴾ ولتجدنَّ يا محمد أشدَّ الناس حرصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهةً للموت اليهود ﴿وَمِنَ الَّذينَ أَشْرَكُوا﴾ أي وأحرص من الذين أشركوا على الحياة، لعلمهم بما قد أعدَّ الله لهم في الآخرة على كفرهم، فهم للموت أكره من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿يودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يتمنى الواحد منهم لو يعمَّر في الدنيا ألف سنة ﴿وَماهُوَبِمزَحْزِحِهِمِنَ العَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ وما طولُ العمر بمبعده من عذاب الله، ولا منحِّيه منه، لأنه لا بدَّ للعمر من الفَناء ﴿والله بَصِيرٌ بما يعملونَ﴾ لا يخفى عليهشيءٌمن أعمالهم، بل هو بجميعها محيطٌ ولها حافظ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُواً لجبريلَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن جبريل لهمعدوٌ[1]،لأنه ينزل بالعذاب والشدة، مَنْ كان من الناس

(١) رُوي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن أشياء أربعة لا يعلمهن إلا نبيٌّ: سألوه عن الطعام الذي حرمه إسرائيل عن نفسه. ٢- وعن الولد يشبه =

لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ

* * *

عدواً لجبريل ﴿**فإنَّهُ نزَّله على قَلْبِكَ بإذنِ الله**﴾ فإن جبريل نزَّل القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله وحكمه ﴿**مُصَدِّقاً لما بينَ يديهِ**﴾ مصدِّقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها الله كالتوراة والإنجيل ﴿**وَهُدىً وبُشْرَى للمُؤْمنينَ**﴾ وهداية وبشارة للمؤمنين، لأنهم جعلوا القرآن إمامهم وقائدهم، ينقادون لأمرهِ ونهيه، وحلاله وحرامه ﴿**مَنْ كانَ عدواً لله وملائكته ورسله وجبريلَ وميكال فَإنَّ الله عدوٌ للكافرين**﴾ من كان عدواً لله والملائكة والرسل- وخصَّ جبريلَ وميكائيل بالذكر، للردِّ على اليهود حين قالوا: جبريلُ عدوُّنا، وميكائيل وليُّنا- فإنه كافر، والله عدوٌّ للكافرين. والآية توبيخٌ لليهود في كفرهم بمحمد ﷺ وعدائهم لجبريل الذي يتنزَّل بالوحي على الرسل ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات، دالاتٍ على نبوتك[1] ﴿**وما يَكْفُرُ بها إلاَّ الفَاسِقونَ**﴾ وما يجحد بتلك الآيات الدالة على صدقك ونبوتك، إلا الخارجون من دينهم العاصون لربهم ﴿**أَوَكُلَّماَ عَاهَدوا عَهْداً نَبَذَه فريقٌ منهمْ**﴾؟ أو كلما أعطى اليهود ربهم عهداً مؤكداً على العمل بالتوراة، و الإيمان بمحمد رسول الله، طرح هذا العهدَ فريقٌ منهم فرفضه ونقضه؟ ﴿**بلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمنونَ**﴾ بل أكثر هؤلاء اليهود لا يصدقون بالله ورسله، ولا وعده ووعيده، فكيف يفون بالعهد؟ ﴿**ولمَّا جَاءَهُمْ رسُولٌ منْ عندِ الله مُصَدِّقٌ لما مَعَهُمْ**﴾ ولما جاء علماءَ اليهود- الذينَ أعطاهم الله العلم بالتوراة- محمدٌ ﷺ يصدِّق التوراة، والتوراةُ تصدِّقه في أنه نبيٌ مبعوث إلى الخلق ﴿**نَبَذَ فريقٌ منَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ كتابَ الله وراء ظهورهم**﴾ طرح هؤلاء اليهود كتابَ الله وراء ظهورهم وأعرضوا عنه ﴿**كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ كأن هؤلاء لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه. وهذا مثل ضربه الله لليهود، يقال لكل رافضٍ أمراً قد جعله وراء ظهره، يعني به أعرض وصدَّ وانصرف عنه، وفي التعبير بقوله «كأنهم لا يعلمون» تنبيه على أنهم جحدوا الحق على علمٍ منهم ومعرفة ﴿**واتَّبَعوا ما تَتْلُوا الشَّياطينُ على مُلْكِ سليمـانَ**﴾ اتَّبع

= أمه، والنطفة للرجل ٣- وعن النبي الأمي الذي تنام عيناه ولا ينام قلبه ٤- وعن وليّ الرسولِ من الملائكة!! وأعطوه العهود على أن يؤمنوا به إن أجابهم عنها، فلما أخبرهم ﷺ بها قالوا: أخبرنا من الذي ينزل بالوحي عليك! فقال: جبريل، فقالوا له: ذاك عدونا يأتي بالشدة والغلظة والعذاب، ولو قلت: ميكائيل لآمنا بك، فإنه يأتي بالخصب والسلم والرأفة والرحمة، فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك..﴾ الآية

(١) قال ابن جرير: «وتلك الآيات ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم وما بدّلوه من الأحكام في التوراة فأظهر الله هذه الخفايا وتلك الأسرار؛ وأطلع عليها نبيه محمداً ﷺ من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي». الطبري ٣٩٧/٢.

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

* * *

أحبار اليهود ما تُحَدِّث وتروي الشياطين من السحر في عهد مُلك سليمان ﴿وما كَفَرَ سُلَيْمانُ﴾ ما سحر سليمان، ولا تعلَّم السحر، ولا كان ساحراً لأن السحر كفرٌ ﴿ولكنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعلِّمون الناس السحرَ﴾ أي كفروا بتعليمهم السحر للناس، فالشياطين هي التي علَّمت الناس السحر، وروتْه لهم، لا سليمان عليه السلام، روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان بن داود» وعدَّه في المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن «سليمان بن داود» كان نبياً! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت الآية. **والغرض** أن أحبار اليهود نبذوا كتاب الله المنزَّل على رسوله، ونقضوا العهد، وآثروا السحر الذي روته الشياطين وحدثت به في عهد ملك سليمان، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد الإنس والجن والشياطين بالسحر، فبرَّأ الله سليمان من السحر والكفر، وأخبرهم بأنهم إنما اتَّبعوا في عملهم بالسحر، ما تلته الشياطين في عهد سليمان ﴿وَمَا أُنْزِلَ علىالمَلَكَيْنِ ببابلَ هَارُوت وَمَارُوتَ﴾ واتبعوا أيضاً السحر الذي أُنزل على الملكَين «هاروت» و«ماروتَ» ببلدة بابل ﴿وما يُعلِّمانِ من أحدٍ حتىَّ يَقُولا إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تكفُرْ﴾ وما يعلّم المَلَكان السحر أحداً من الناس حتى يخبراه بأنهما فتنةٌ وابتلاء، وينهيانه عن السحر والعمل به ﴿فيتعلَّمونَ منهما ما يُفرِّقونَ بِهِ بينَ المرءِ وزَوْجِهِ﴾ فيتعلم الناس منهما السحر، الذي يفرّقون به بين الرجل وزوجته[1]، وذلك بتخييل الساحر إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف حقيقته، من حسن وجمال حتى يقبّحه عنده فيحدث الفراق ﴿وما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ﴾ ولا يضرُّون بالذي تعلموه أحداً من الناس، إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضرُّه ﴿ويَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ﴾ويتعلم الناس السحر الذي يضرُّهم في دينهم، ولا ينفعهم في معادهم ﴿ولقد عَلِموا لَمِنِ اشْتَراهُ مَا لَهُ فِي الآخِرةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ ووالله لقد علم اليهود لمن اشترى السحر، ما له في الآخرة حظٌ ولا نصيبٌ من الجنة ﴿ولَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهمْ لو كَانُوا يَعْلمونَ﴾ ولبئسما باعَ به نفسَه من تعلَّم السحر، لو كان يعلم سوء عاقبته. . وهذا ذمٌ من الله تعالى لمن تعلَّم السحر، وخبر منه جلَّ ثناؤه أنهم بئسما باعوا به

(١) قال الطبري: فإن قيل: هل يجوز أن ينزّل الله السحر؟ وهل يجوز لملائكته أن تعلمه الناس؟ قلنا: إنَّ الله قد أنزل الخير والشر كله ابتلاءً، فليس في إنزال الله إياه على الملكَيْن، ولا في تعليم الملكَيْن من علَّماه من الناس إثْمٌ، إذْ كان تعليمهما بإذن الله لهما، بعد إخباره بأنهما فتنةٌ، ونهيه عن السحر والعمل به، وإنما الإثم على من يتعلمه منهما ويعمل به، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام، وإنما الإثم في عمله وتسويته. اهـ. الطبري ٤٢٧/٢.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟
ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم
مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

* * *

أنفسهم برضاهم بالسحر عِوَضاً عن دينهم، الذي به نجاة أنفسهم من الهَلَكَة، جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم ﴿ولو أَنَّهُمْ آمنوا واتَّقَوْا﴾ ولو أن الذين تعلموا السحر، صدَّقوا الله ورسوله، وخافوا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ الله خيرٌ﴾ لكان جزاءُ الله وثوابهُ لهم على إيمانهم وتقواهم، خيراً لهم من السحر وما اكتسبوا به ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لو كانوا يعلمون ذلك ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولوا رَاعِنَا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لا تقولوا لنبيكم: رَاعِنَا- بمعنى أَرْعِنا سمعك حتى تفهم عنَّا- وهي كلمة كان اليهود يقولونها على وجه الاستهزاء والمسبة[1] ﴿وَلَكِنْ قُولُوا انْظُـرْنَا﴾ ولكن قولوا انظرنا وارْقُبْنا، لنفهم ونتبينَّ ما تقول لنا ﴿واسْمَعُوا﴾ اسمعوا منه ﷺ ما يقول لكم فافهموه واحفظوه ﴿وَلِلْكَافرينَ عَذابٌ أَليمٌ﴾ وللجاحدين بآيات الله، المكذبين لرسوله عذابٌ موجع ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلَا المُشْركينَ﴾ ما يحب الكافرون من أهل الكتاب، ولا المشركين بالله من عَبدة الأوثان ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عليكُمْ من خَيْرٍ من ربكُمْ﴾ ما يحبون حسداً وبغياً أن يُنزَّل عليكم القرآن، وما أوحاه الله إلى محمد ﷺ من آياته وأحكامه ﴿والله يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ يختص بالنبوة والرسالة، والهداية والإيمان، من شاء من خلقه ﴿والله ذو الفَضْلِ العظيمِ﴾ والله ذو الإنعام العظيم، فكل خير ناله عبادُه في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده تعالى ابتداءً وتفضلاً منه عليهم، من غير استحقاقٍ منهم ذلك عليه، والآية تعريضٌ بأهل الكتاب في حسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ﴾ ما ننقلْ من حكم آيةٍ إلى غيره فنبدِّله ونغيِّره، كتحويل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً ﴿أو نُنْسِها﴾ أو نترك نسخها دون تبديل ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ منها أو مِثْلِهـا﴾ نأتِ بخير لكم منها- أيها المؤمنون- في العاجل أو الآجل، إمَّا برفع مشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم[2]، أو بمثلها في الفائدة للعباد ﴿أَلم تَعْلَمْ أَنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾ ألم تعلم يا محمد أنَّ الله قادرٌ

---

(١) قال قتادة: «كان المسلمونَ يقولون: راعنا سمعك، فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين، فزجر الله المؤمنين عن قولها» وقال الطبري: أمر الله المؤمنين بتوقير نبيه ﷺ وتعظيمه، حتى نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن الجهر له بالقول لئلا تحبط أعمالهم، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أرقها، ومن ذلك قولهم «راعنا» أرعنا سمعك حتى نفهمك وتفهم عنا، فنهى المؤمنين عن التشبه باليهود في خطابهم الرسول بقولهم ﴿واسمع غير مسمع وراعنا﴾ الطبري ٢/٤٦٤.

(٢) ذكر الطبري أمثلة للنسخ بما هو أيسر، وأشق، وبما هو بالمثل، فالأول كنسخ فرض قيام الليل على المؤمنين، والثاني كنسخ صيام أيام معدودات إلى -

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾

* * *

على كل شيء؟وهو استفهام تقريري بمعنى قد علمت ذلك ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرض﴾ ألم تعلم يا محمد إن لي مُلك السموات والأرض، أحكم فيهما بما أشاء، وآمر فيهما بما أشاء، وأنسخ وأبدِّل من أحكامي ما أشاء، وأقرُّ منها ما أشاء؟ والآية تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، فأخبرهم أن له ملك السموات والأرض يفعل ما يشاء ﴿وَمَا لكمْ منْ دونِ الله من وَلِي ولا نَصِيرٍ﴾ وما لكم أيها المؤمنون سوى الله، وبعد الله من قيِّمٍ يقوم بأمركم، ولا نصيرٍ يؤيدكم ويقويكم ويعينكم على أعدائكم ﴿أم تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رسولَكُمْ كما سُئِلَ موسى من قبلُ﴾ أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم، نظير ما سأل قوم موسى من قبل؟ فتضلوا كما ضلوا؟ وبكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا رسولهم تعنتاً واستكباراً فقالوا «أرنا الله جهرةً»[(١)]؟! ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ﴾ ومن يستبدل الكفر والجحود بآيات الله، بدل التصديق بالله وبآياته، فقد حاد عن نهج الاستقامة، وعن الطريق السويّ الموصل إلى جنات النعيم ﴿ودَّ كثيرٌ من أَهْلِ الكِتَابِ لو يَرُدونكُمْ منْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً﴾ تمنى كثير من اليهود والنصارى لو ردوكم كفاراً بعد إيمانكم ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾ حسداً منهم لكم على ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد ﴿مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لهم الحقُّ﴾ من بعد ما وضح له الحق في أمر محمد وأمر رسالته، فكفرهم بالله ورسوله عناد، وعلى علمٍ منهم ومعرفة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتىًّ يأتيَ الله بأمرهِ﴾ فتجاوزوا واصفحوا عما كان منهم من جهل وإساءة، حتى يحدث الله أمراً، ويقضي فيهم ما يريد، وقد نسخ تعالى العفو عنهم بفرض قتالهم ﴿إنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ أي إنه تعالى قوي قادر على كل شيء، إن شاء انتقم منهم، وإن شاء هداهم، له الخلق والأمر ﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ﴾ أدوا الصلاة بحدودها وفروضها، وادفعوا زكاة أموالكم عن طيب نفسٍ منكم ﴿وما تُقَدِّمُوا لأنفسِكُمْ من خَيْرٍ تجدوه عندَ

= صيام شهر كامل، فهذا وإن كان أشق ولكن الثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر، فهو خير من الأول، وأما الثالث فكنسخ التوجه شطر بيت المقدس، إلى التوجه شطر المسجد الحرام، فالكلفة واحدة وهو معنى المثل. الطبري ٤٨٣/٢.

(١) عن مجاهد قال: سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم، فأبوا ورجعوا فأنزل الله ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ حين سألوه أن يريهم الله جهرة. الطبري ٤٩١/٢.

تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ
أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ
وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ

* * *

الله﴾ مهما تفعلوا من عملٍ صالح فتقدموه ذخراً لآخرتكم، تجدوا ثوابه عند الله **﴿إنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾** وعدٌ ووعيدٌ أي إنه بصير بجميع أعمال العباد، فلْيجدُّوا في طاعته، ولْيحذروا معصيته **﴿وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصارىٰ﴾** أي وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً **﴿تِلْكَ أمانيُّهُمْ﴾** تلك هي أمانيُّ النفوس الكاذبة، أمانيّ يتمنونها على الله بغير حقٍ ولا حجة ولا برهان **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** أحضروا حجتكم وبينتكم على ما تزعمون **﴿إن كُنْتُمْ صادقين﴾** إن كنتم محقين في دعواكم **﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَمُحْسِنٌ﴾**بلى يدخل الجنة من استسلم لأمر الله، وخضعت جوارحه لطاعة ربه، وهو مؤمن قد أحسن في فعله وإسلامه **﴿فلهُ أجرُهُ عندَ رَبِّـهِ﴾** فله جزاؤه وثوابه على إسلامه وطاعته لربه، عند الله في معاده **﴿ولا خوفٌ عليهمْ﴾** ولا خوفٌ عليهم من عقابه، وعذاب جحيمه **﴿ولا هم يَحْزنُونَ﴾**ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا **﴿وقالتِ الْيهودُ لَيستِ النَّصارىٰ على شَيْءٍ﴾**أي ليسوا في دينهم على صوابٍ **﴿وقالت النصارى ليست اليهودُ علىشَيْءٍ﴾**أي ليس اليهود على صوابٍ في دينهم **﴿وهم يتلون الكتابَ﴾** وهم يقرأُون التوراة والإنجيل. **قال ابن عباس**: لما قدم نصارى نجران على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال اليهود: ما أنتم على شيء،وكفروا بعيسىٰابن مريم وبالإنجيل، وقالت النصارى: ما أنتم على شيء، وجحدوا بنبوة موسى وكفروا بالتوراة فنزلت الآية[1] **﴿كَذَلِكَ قالَ الَّذينَ لا يَعْلمونَ مِثْلَ قولِهِمْ﴾** كذلك قال الجهلاء من مشركي العرب وغيرهم، نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض **﴿فالله يَحكُمُ بينهمْ يومَ القِيامةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتلِفُونَ﴾**فالله يفصل بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويتبيَّن المحقُّ منهم من المبطل، سُمي يوم الجزاء «يوم القيامة» لأنه يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ﴾؟وأيُّ امرىءٍ أشدُّ ظلمًا وتعدياً على الله، منامرىءٍ منع مساجد الله أن يُعبد الله فيها؟ **﴿وَسَعَى في خرابها﴾** وسعى في تخريبها. **قال قتادة**:أولئك أعداءُ الله

(١) الطبري ٢/٥١٣.

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ
أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

* *

«النصارى» حملهم بغضُ اليهود على أن أعانوا بختنصَّر المجوسي على تخريب بيت المقدس[١] **﴿أولئك ما كانَ لهم أن يدخلوها إلا خائفينَ﴾** أولئك الذين يسعون في تخريب بيوت الله، ما يصحُّ لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوفٍ ووجلٍ من العقوبة **﴿لهمْ في الدنيا خزيٌ﴾** لهم في الدنيا ذلةٌ وهوان، وقتلٌ وسبيٌ **﴿ولهمْ في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾** ولهم في الآخرة عذاب جهنم، وهو العذاب العظيم **﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ﴾** ولله مِلْكُ المشرق والمغرب، ومِلْك ما بينهما من الخلق **﴿فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾** فحيثما تولُّوا وجوهكم أيها المؤمنون في صلاتكم فهناك وجهُ الله[٢]، يسعكم فضله، وأرضه، وبلاده، أو فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم فهنالك وجهي، أستجب لكم دعاءكم **﴿إنَّ الله وَاسِعٌ عَليمٌ﴾** يسع خلقه بالإفضال والتدبير، عالم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء **﴿وقالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً﴾** هم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله، فكذبهم تعالى بقوله **﴿سُبْحانَهُ بلْ لَهُ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ﴾** أي تنزيهاً وتبريئاً له تعالى أن يكون له ولد، بل له ما في السمواتِ والأرض ملكاً وخلقاً **﴿كلٌّ له قَانِتُونَ﴾** أي كل ما في السموات والأرض مطيعٌ لله، مقرٌّ له بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله عز وجل، وأن الله تعالى بارئها وخالقها، وعيسى أحدهم، فكيف يكون لله ولداً وهذه صفتُه؟ **﴿بديعُ السمواتِ والأرضِ﴾** مبدعها ومنشئها وموجدها من غير أصلٍ، ولا مثالٍ سابق **﴿وإذَا قَضَى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكونُ﴾** وإذا أحكم أمراً وأراد تكوينه، قال له: «كنْ» فيكون موجوداً كما أراده وشاءه، فكذلك كان ابتداعُه المسيح وإنشاؤه **﴿وَقَالَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله أو تَأْتِينَا آيةٌ﴾** وقال النصارى[٣]، الجهال بالله وبعظمته: هلاَّ يكلمنا ربنا كما كلَّم أنبياءه ورسله، أو تجيئنا علامة نعرف بها صدق ما نحن عليه؟ **﴿كَذَلكَ قَالَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾** كما قال هؤلاء الجهال من النصارى، كذلك قال من قبلَهم من اليهود، فسألوا أن يريهم الله نفسه جهرة، ويؤتيهم آية، وتمنوا الأماني **﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** اشتبهت قلوب اليهود والنصارى في تمردهم على الله،

---

(١) الطبري ٢/٥٢٠.

(٢) عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع النبي ﷺ في ليلة مظلمة في سفر، فلم ندر أين القبلة، فصلينا، فصلى كل واحد منا حِيَالَه - أي تلقاء وجهه - ثم أصبحنا فذكرنا للنبي ﷺ فنزلت الآية.

(٣) ذهب الطبري إلى أن المراد بالذين لا يعلمون النصارى، والذين من قبلهم اليهود، وهذا مروي عن مجاهد، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، والذين قبلهم من اليهود والنصارى وهو قول قتادة، وهذا القول أظهر، والله أعلم

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾

* * *

وجرأتهم على أنبيائه ورسله، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها **﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَـاتِ﴾** قد وضحنا العلامات التي من أجلها غضب الله على اليهود والنصارى، فمسخ اليهود قردةً وخنازير، وأخزى النصارى **﴿لقومٍ يوقنونَ﴾** لقوم يطلبون معرفة حقائق الأشياء على صحةٍ ويقين **﴿إِنَّا أرسلناك بالحقِّ﴾** إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الحقِّ، الذي لا يقبل الله ديناً غيره **﴿بَشيراً ونَذيراً﴾** مبشراً لمن أطاعك بالنصر في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، ومنذراً لمن عصاك بالخزي والذل في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة **﴿ولا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحيمِ﴾** ولست مسئولاً يا محمد عمن كفر، وكان من أصحاب الجحيم **﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلَا النَّصارى حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾** لن يرضى عنك يا محمد اليهود ولا النصارى أبداً، حتى تنسلخ عن دينك وتكون يهودياً ونصرانياً، فدعْ طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبلْ على طلب رضا الله فيما بعثك فيه من الحق **﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله هو الْهُدَى﴾** قل لهم يا محمد: إن بيان الله هو البيان المقنع، والقضاء الفاصل بيننا، فهلموا إلى كتاب الله وبيانه، يتضحْ لكم المحقُّ منا من المبطل، وأينا أهلُ الجنة وأينا أهل النار **﴿ولئن اتبعتَ أهواءَهُمْ﴾** ولئن اتبعت يا محمد هَوَى هؤلاء اليهود والنصارى **﴿بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾** بعدما وضَّحتُ لك حالهم، واقتصصتُ عليك نبأهم **﴿مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِي ولا نَصِيرٍ﴾** ليس لك يا محمد من يتولى أمرك، ولا من ينصرك من الله فيدفع عنك عذابه وانتقامه **﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتاب يَتْلونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ﴾** الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، فآمنوا بالله وصدَّقوا رسوله، وعملوا بما أمرهم الله به من اتباع محمد ﷺ أولئك يتبعونه حقَّ اتباعه قال ابن مسعود: «يتلونه حقَّ تلاوته» أن يُحِلَّ حلاله، ويُحَرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرِّفه عن مواضعها[1] **﴿أولئكَ يُؤمنونَ بهِ﴾** أولئك المذكورون يُصدِّقون بالكتاب على الوجه الحق **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾** ومن يجحد بالكتاب وما فيه من فرائض الله، وتصديق نبوة محمد، فأولئك الذي بخسوا أنفسهم حظها من رحمة الله واستبدلوا بها سخط الله وغضبه **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضلتكم على العالمينَ﴾** أي اذكروا أياديَّ لديكم، وصنائعي عندكم، ونعمي التي لا تُحصى

---

(١) الطبري ٢/٥٦٧.

وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ * وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾
وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا
بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

* * *

عليكم وعلى آبائكم، وأني فضلتكم على عالمي زمانكم **﴿واتقوا يَوْماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾** واتقوا يا معشر بني إسرائيل، عذاب يومٍ لا تقضي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا تُغْني عنها أيَّ غناء **﴿ولا يُقبل منها عَدْلٌ﴾** ولا يُقبل منها فدية ولو جاءت بمثل الأرض ذهباً لتفتدي به **﴿ولا تنفعها شفاعةٌ﴾** ولا تنفعها شفاعة شافع إذا ماتت على غير الإيمان **﴿ولا هم يُنْصَرُونَ﴾** ولا ينصرها ناصرٌ فيخلصها من عذاب الله.

﴿وإذِ ابتلى إبْرَاهِيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ واذكروا حين اختبر الله نبيه وخليله إبراهيم بتكاليف وأوامر أوحاهنَّ إليه، وكلَّفه العمل بهن، فأداهنَّ على التمام والكمال، ووفَّى بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها، قال الحسن: ابتلاه الله بذبح ولده فصبر على ذلك، وابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، ثم ابتلاه بالهجرة من وطنه فخرج مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالإلقاء في النار فصبر[١] **وقال ابن عباس**: لم يُبْتلَ أحدٌ بهذا الدِّين فأقامه إلا إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه «وإبراهيم الذي وَفَّى» فكتب الله له البراءة من النار[٢] **﴿قَالَ إني جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمَاماً﴾** قال له ربه: يا إبراهيم إني مصيِّرك للناس إماماً في الخيرات، يُهْتدى بك ويُقْتدى بأفعالك، تتقدم الناس فيتبعون هديك، ويستنُّون بسنَّتك **﴿قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾** قال إبراهيم: ومن ذريتي يا ربِّ فاجعل أئمةً يُقْتدى بهم؟! **﴿قالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمينَ﴾** قال له ربه: لا ينالُ النبوة والإمامة لأهل الخير، من كان منهم ظالماً، جائراً عن قصد السبيل. أخبره تعالى أنه فاعل ذلك، إلا بمن كان من أهلِ الظلم، فإنه غير مكرم له بالإمامة، لأن الإمامة في أوليائه دون أعدائه.

﴿وإذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْناً﴾ واذكروا حين جعلنا البيت الحرام مرجعاً للناس، يأتونه كل عام ويرجعون إليه، فلا يقضون منه وطراً، وجعلناه أمناً للناس، لا يخاف من دخله **﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** واتخذوا أيها الناس من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده، عبادة منكم، وتكرمة مني لإبراهيم، فإني جعلته إماماً يُقتدى به وبآثاره[٣] **﴿وعهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أَنْ طَهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود﴾** وأمرنا وأوصينا إبراهيم وإسماعيل، بأن يطهرا البيت العتيق من الشرك وعبادة الأوثان، للذين

---

(١) الطبري ٣/١٤ (٢) الطبري ٣/٨.
(٣) المقام: هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناء البيت، وضعف عن رفع الحجارة، روي عن عمر أنه قال: قلت يا رسول الله: لو اتخذت المقام مصلًّى فأنزل الله ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ
قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ
مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً
مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ

* * *

يطوفون به عبادةً لله، وللمعتكفين المجاورين، وللمصلين في بيت الله **﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾** أي اجعل هذا البلد بلداً آمناً من الجبابرة أن يُسلَّطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله **﴿وارْزُقْ أَهْلَهُ من الثَّمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾** وارزق يا ربِّ من الثمرات سكان مكة المؤمن منهم دون الكافر **﴿قالَ ومَنْ كَفَرَ فأُمَتِّعُهُ قليلاً﴾** قال له ربه: ومن كفر أرزقه أيضاً، فإني أرزق البرَّ والفاجر، فأمتّعه قليلاً برزقي من الثمرات في الدنيا إلى أن يأتيه أجلُه **﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذابِ النَّارِ﴾** ثم أدفعه وأسوقه إلى عذاب جهنم سحباً وجراً على وجهه **﴿وبئسَ المصيرُ﴾** وبئس الموضع الذي يصير إليه في جهنم بعد ذلك النعيم **﴿وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ الْقَواعِدَ من الْبَيْتِ وَإسْماعيلُ﴾** واذكر حين يرفع إبراهيم وإسماعيل أركان وأسس البيت العتيق[1]، وهما يبنيانه ويقولان **﴿رَبَّنا تقَبَّلْ منَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَليمُ﴾** أي تقبَّلْ منا عملنا وطاعتنا إياك في بناء بيتك، إنك أنت السميع لدعائنا، العليم بما في ضمائرنا **﴿رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾** اجعلنا مستسلمَيْنِ لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك غيرك **﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمةً مُسْلِمَةً لكَ﴾** واجعل من ذريتنا أيضاً جماعةً مستسلمةً لأمرك، خاضعة لك بالطاعة **﴿وَأرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾** وعلمنا يا ربنا مناسك حجنا، كيف نطوف ونسعى؟ وكيف نقف بعرفات ونرمي الجمار[2]؟ **﴿وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** وعُدْ علينا بالعفو عما سلف منا، إنك أنت المتفضل بالعفو والغفران **﴿رَبَّنَا وابْعَثْ فيهمْ رسُولاً مِنهمْ يَتْلُو عليهمْ آياتِكَ﴾** أي ابعث في ذريتنا رسولاً من العرب، يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه، وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ، وهي الدعوة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي»[3] **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾** ويعلمهم القرآن، والمعرفة بالفقه والدين

---

(١) قال ابن عباس: رفعا قواعد البيت وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاءه بهذا الحجر- حجر المقام- فقام عليه إبراهيم وهو يبني اهـ. الطبري ٦٧/٣

(٢) عن علي رضي الله عنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: فقلت أي رب فعلمنا مناسكنا، فبعث الله جبريل فحج به. الطبري ٧٩/٣.

(٣) هذه رواية الطبري، والحديث جاء في المسند للإمام أحمد بنحوه، وآخره عنده «ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين».

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

* * *

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان ﴿إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ إنك أنت يا رب القويُّ الذي لا يعجزه شيء، الحكيم الذي لا يدخل تدبيره خللٌ ولا زَلَلٌ.

﴿ومَنْ يَرْغَبُ عن مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ من سَفِهَ نَفْسَه﴾ ولا يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية، ولا يزهد فيها ويتركها إلا سفيهٌ جاهل، وعنى بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم اليهودية والنصرانية على الإسلام ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه واجتبيناه لِخُلَّتنا، وجعلناه إماماً للناس ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحينَ﴾ وإنه في الآخرة من عبادنا الصالحين، فهو في الدنيا صفيٌّ، وفي الآخرةِ وليٌّ، لأنه وفَّى بعهده ﴿إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي أخلصْ العبادة لي، واخضع بالطاعة لربك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمينَ﴾ قال إبراهيم: خضعتُ وأخلصتُ العبادة لمالك الخلائق ومدبّرها ﴿وَوَصَّى بها إبْراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ﴾ ووصَّى بهذه الكلمة- وهي الإسلام بمعنى إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له- وصَّى بها إبراهيم أبناءه، وكذلك وصَّى بها يعقوب أبناءَه قائلاً لهم ﴿يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدينَ﴾ يا أبنائي إن الله اختار لكم هذا الدين، الذي قد عهد إليكم فيه، وهو دين الإسلام ﴿فَلاَ تَموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ أي استمسكوا بالإسلام حتى تموتوا عليه، ولا تفارقوا هذا الدين أيام حياتكم، فإن أحداً لا يدري متى تأتيه منيَّته ﴿أَمْ كنتُمْ شُهَداءَ إذْ حَضَر يعقوبَ الموتُ﴾؟ أكنتم يا معشر اليهود والنصارى شهود يعقوب حين حضره الموت، فتعلموا ما قال لوَلَده وقال له وَلَدُه؟ ﴿إذْ قَالَ لبنيهِ ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ حين قال لأولاده: أيَّ شيءٍ تعبدون بعد وفاتي[1]؟ ﴿قَالُوا نعبدُ إلهَكَ وَإلَهَ آبائكَ إبراهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحٰقَ﴾ قالوا: نعبدُ معبودك الذي تعبده، ومعبود آبائك إبراهيم وإسحٰق ويعقوب، نخلص له العبادة، ولا نشرك به شيئاً ﴿ونَحْنُ له مُسْلمونَ﴾ ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة ﴿تلكَ أمةٌ قد خَلَتْ﴾ تلك جماعة قد مضت لسبيلها، دَعُوا ذكرهم وذكر أولادهم، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية فتقولوا: إنهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿لَهَا ما كَسَبَتْ ولكُمْ ما كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم ما عملوا من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى كذلك ما عملتم ﴿ولا تُسْألون عما كانوا يَعْملون﴾ ولستم تُسألون عن أعمالهم، لأن لكل نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت

(١) هكذا تكون رعاية الآباء للأبناء، بالاهتمام بدينهم، والعناية بهم بما ينجيهم من عذاب الله، كما فعل يعقوب عليه السلام

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ
أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ

* * *

﴿وقالوا كُونُوا هُوداً أو نَصَارى تَهْتَدُوا﴾ وقالت اليهود للمسلمين: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا أي تصيبوا طريق الحق **﴿قلْ بلْ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾** قل لهم يا محمد: لا نتبع اليهودية والنصرانية، ولا نتخذها ملَّة، بل نتَّبع الحنيفية المسلمة ملة إبراهيم، مستقيمين على هديه ومنهاجه **﴿وما كانَ من المشركينَ﴾** ولم يكن مشركاً يعبد الأوثان، ولا يهودياً ولا نصرانياً. علَّم الله نبيه أبلغ حجةٍ وأوجزها وأكملها فقال له: قل لهؤلاء الذين يدعونكم إلى اليهودية والنصرانية: تعالوا نتبع ملة إبراهيم، الذي يُجْمع كلنا على الشهادة لها بأنها دينُ الله الذي اجتباه وارتضاه، ونَدَع سائر الملل التي نختلف فيها، فإن دين إبراهيم كان الحنيفية المسلمة، وما كان من المشركين، فكل من اقتدى بإبراهيم واستقام على دينه فهو الحنيف **﴿قُولُوا آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنزِلَ إلينَا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحٰقَ ويعقوبَ والأَسْباطِ﴾** قولوا أيها المؤمنون: صدَّقنا بالله، وصدَّقنا بالكتاب الذي أُنزل على نبينا محمد ﷺ، وصدقنا أيضاً بما أنزل على الأنبياء إبراهيم، وإسماعيل، وإسحٰق، ويعقوب، و«الأسباط» وهم الأنبياء من وَلَد يعقوب **﴿وَمَا أُوتيَ مُوسى وَعِيسى﴾** أي وآمنا أيضاً بالتوراة التي نزلت على موسى، وبالإنجيل الذي نزل على عيسى **﴿وَمَا أُوتيَ النبيُّونَ مِنْ رَبِّهِم﴾** أي وبالكتب التي نزلت على النبيين كلهم، وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونورٌ من عند الله، وأن جميع رسل الله على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضاً، على منهاجٍ واحد من توحيدِ الله **﴿لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهم﴾** لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، بل نشهد لجميعهم بأنهم رسل الله، بُعثوا بالحق والهدى **﴿ونَحْنُ له مُسْلِمونَ﴾** ونحن خاضعون لله بالطاعة، مذعنون له بالعبودية **﴿فإنْ آمَنُوا بمثلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهتَدَوْا﴾** فإن صدَّقوا وأقرُّوا بمثل ما صدقتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورُشدوا، واهتدوا بلزوم طريق الحق **﴿وإنْ تَوَلَّوْا فإنما هم في شقاقٍ﴾** وإن أعرضوا عن الإيمان فإنما في حربٍ وفراق وعصيان لله ورسوله **﴿فَسَيَكْفيكَهُمُ الله﴾** فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء المجرمين، إما بالقتل أو الجلاء **﴿وهو السميعُ العليمُ﴾** أي السميع لأقوالهم، العليم بما يخفون في أنفسهم من الحسد والبغضاء، وقد أنجز تعالى وعده، فكفى نبيه ﷺ شرهم حتى قتل بعضهم، وأجلى بعضاً، وأذلَّ بعضاً بالجزية والصغار **﴿صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾**؟ أي الزموا الحنيفية المسلمة، صبغةَ الله التي هي أحسن الصِّبَغ[1] ودعوا الشرك بالله،

(١) قال ابن عباس ﴿صبغة الله﴾ دين الله، وقال مجاهد: فطرة الله. اهـ. الطبري ٣ / ١١٩

وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ
وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل

* * *

فليس هناك دينٌ أحسن من دين الله ﴿ونحنُ له عابدون﴾ ونحن خاضعون لجلاله، لا نستكبر عن عبادته ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا في الله وهو رَبُّنَا وربُّكُمْ﴾؟ قل يا محمد لليهود والنصارى: أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى بالله منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربنا وربكم واحد عدلٌ لا يجور؟ ﴿وَلَنَا أَعْمالُنَا ولكم أَعْمَالُكُمْ﴾ ولكل فريق منا جزاء ما اكتسب من صالح الأعمال وسيئها، يُثاب عليها أو يعاقب، لا على الأنساب وَقِدَم الدِّين والكتاب ﴿ونحنُ لهُمُخْلِصونَ﴾ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به كما أشركتم، وهذا توبيخٌ لليهود في مجادلتهم المؤمنين في أمر الدين ﴿أَمْ تَقُولونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحٰقَ ويعقوب والأسباطَ كانُوا هُوداً أو نَصارى﴾ أتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى منا وأهدى منا سبيلاً، أم تزعمون أن هؤلاء الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب كانوا يهوداً أو نصارى، مع أن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الأنبياء؟ ﴿قل أأنتم أعلمُ أم الله﴾ أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم رب العالمين؟ ﴿ومن أظلمُ مِمَّنْ كتَمَ شهادةً عنده من الله﴾؟ وأيُّ امرىءٍ أظلم ممن عرف أن هؤلاء الأنبياء كانوا مسلمين، فأخفى ذلك وكتمه ونسبهم إلى اليهودية والنصرانية ﴿وما الله بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾ من كتمانكم الحقَّ، ولا ساهٍ عن عقابكم ﴿تلكَ أمةٌ قَدْ خَلَتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم﴾ تلك جماعةٌ قد مضت لسبيلها، فصارت إلى ربها، ومضت بآمالها وأعمالها، لها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر ﴿ولا تُسألونَ عمَّا كانوا يعملونَ﴾ ولا تُسألون عن أعمالهم، وإنما تُسألون عما كسبت وأسلفت أيديكم من الخير والشر.

﴿سَيقولُ السُّفَهاءُ من النَّاسِ﴾سيقول الجُهَّال وأهلُ الغباء من اليهود والمنافقين ﴿مَاوَلَّاهُمْ عنْ قِبْلتهمُ الّتي كَانُوا عَلَيها﴾؟ أيُّ شيءٍ صرفهم وحوَّل وجوههم عن القبلة، التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم[1] ؟ أعلمه تعالى

---

(١) عن ابن عباس قال: لما صُرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، قال اليهود: يا محمد ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، يريدون فتنته عن دينه، فنزلت ﴿سيقول السفهاء من الناس . .﴾ الآية

لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

* * *

ما يقوله اليهود والمنافقون، وعلَّمه ما ينبغي أن يرد عليهم من الجواب فقال ﴿قُلْ لله المشرقُ والمغربُ﴾ قل لهم يا محمد: لله مُلك المشرق والمغرب وما بينهما من العالم ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يهدي من يشاء من خلقه، فيوفقه إلى الطريق القويم، ويخذل من يشاءُ فيضلُّه عن سبيلِ الحقِّ، وعنى بالصراط المستقيم قبلة إبراهيم ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ كما هديناكم أيها المؤمنون، وخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم،كذلك فضَّلناكم على غيركم بأن جعلناكم أمةً خياراً عدولاً[١] ﴿لتكونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويكونَ الرَّسُولُ عليكُمْ شَهيداً﴾ لتكونوا شهداء للأنبياء أنهم بلَّغوا أممهم رسالات الله، ويكون محمد ﷺ شهيداً عليكم بإيمانكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عليها إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ على عَقِبيهِ﴾ وما جعلنا صَرْفك عن القبلة التي كنتَ عليها وهي «بيت المقدس» وتحويلك إلى «الكعبة» إلاَّ لنميِّز بين أهل اليقين، وأهل الشرك والريبة، ونعلم من يتّبع محمداً ﷺ فيتوجه إلى وجهته، ومن يرتد عن دينه فينافق أو يكفر[٢]﴿وإنْ كانتْ لكبيرةً إلاّ عَلى الذينَ هَدَى الله﴾وقد كان تحويل القبلة عظيمًا وكبيراً إلا على من وفّقه الله لاتباعك وتصديقك فيما أنزل الله عليك ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُضيعَ إيمانَكُمْ﴾ وما كان الله ليضيع صلاتكم التي صليتموهاإلى بيت المقدس[٣] ﴿إنَّ الله بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾إن الله بجميع عباده ذو رحمةٍ وشفقةٍ عليهم﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ﴾ قد نرى يا محمد ترديد بصرك ورفعه إلى السماء، تنتظر أمر الله بالتحويل نحو الكعبة ﴿فَلَنوَلِّيَنَّكَ قبلةً تَرْضَاها﴾فلنصرفنَّك عن بيت المقدس إلى قبلةٍ تحبُّها وتهواها[٤] ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

---

(١) قال الطبري: الوسط في هذا الموضع هو: الوسط بين الطرفين،لتوسطهم في الدين، فلا هم مغالون غلو النصارى في الترهب، ولا هم أهل تقصير كاليهود، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه.

(٢) لما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، ارتد بعض ضعفاء الإيمان، وأظهر كثيرمن المنافقين نفاقهم وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرةً إلى هنا ومرة إلى هنا؟ وقال المشركون: تحيَّر محمد في دينه، واشتاق إلى قبلة قومه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم فكان ذلك فتنةً وتمحيصاً للناس.

(٣) لما وجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال المسلمون: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس!! فنزلت الآية

(٤) قال ابن عباس: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة - وكان أكثر أهلها اليهود - أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ ستة عشر شهراً، وكان ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء فنزل ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء..﴾ الآية

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ
قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ
ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ

* * *

المسجدِ الحَرَامِ﴾ فاصرف وجهك وحوِّله تلقاء المسجد الحرام **﴿وحيثُما كُنْتُمْ فوَلُّوا وجوهكم شَطْرَهُ﴾** وأينما كنتم أيها المؤمنون فحوّلوا وجوهكم في صلاتكم نحو المسجد الحرام **﴿وإنَّ الذينَ أوتوا الكتاب ليعلمونَ أنه الحقُّ من ربِّهِمْ﴾** وإن أحبار اليهود وعلماء النصارى، ليعلمون أن هذا التوجه نحو المسجد الحرام، حقٌّ فرضه الله على عباده **﴿وما الله بغافلٍ عما يَعْملونَ﴾** وليس الله بساهٍ ولا غافل عن أعمال العباد **﴿ولئِنْ أتيتَ الذينَ أُوتُوا الكتَابَ بكل آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾** ولئن جئت يا محمد اليهود والنصارى بكل برهانٍ وحجة، على فرضية تحول القبلة إلى المسجد الحرام، ما صدَّقوا بذلك ولا اتبعوا قبلتك التي حولتُك إليها **﴿وما أنتَ بِتَابعٍ قبلتهم﴾** ولست يا محمد بمتبعٍ قبلتهم **﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾** وليس اليهود بتابعين قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعين قبلة اليهود، فلا تُشعِر نفسك رضاهم، فإنك إن اتبعت قبلة اليهود أسخطتَ النصارى، وإن اتبعتَ قبلة النصارى أسخطتَ اليهود، فدع ما لا سبيل له، وادعهم إلى الحنيفية المسلمة، قبلتك وقبلة إبراهيم والأنبياء من بعده **﴿ولئن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ من بعدِ ما جاءكَ منَ العلم﴾** ولئن التمستَ يا محمدُ رضا هؤلاء اليهود والنصارى، فرجعتَ إلى قبلتهم بعدما وصل إليك العلم بعنادهم، وإقامتهم على الباطل، ومعرفتهم بأن القبلة التي وجهتك إليها هي قبلة إبراهيم وسائر الرسل **﴿إنكَ إذاً لمن الظالمينَ﴾** أي إن سايرتهم على ضلالهم تكون من الظالمين لأنفسهم، بمخالفتك أمر الله **﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعْرفونَهُ كمَا يَعْرفونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾** أي أحبار اليهود وعلماءُ النصارى، يعرفون أن الكعبة هي قبلة الأنبياء وأنها قبلتهم، كما يعرفون أبناءهم **﴿وإنَّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقَّ وهم يعلمون﴾** وإن طائفةً منهم ليخفون أمر القبلة، وأمر محمد ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ويفعلون ما يفعلون عن علمٍ منهم، فيتعمدون معصية الله تبارك وتعالى **﴿الحقُّ منْ ربكَ﴾** الحقُّ ما أعلمك به ربك، لا ما يقول لك اليهود والنصارى **﴿فلا تكونَنَّ من الممترينَ﴾** فلا تكونن يا محمد من الشاكِّين، في أن القبلة التي وجهتك نحوها، هي قبلة إبراهيم ومن بعده من الأنبياء والمرسلين **﴿وَلِكُلٍ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾** ولكل أهل ملة قبلةٌ هو مستقبلها ومولٍ وجهه إليها **﴿فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ﴾** فبادروا وسارعوا بالأعمال الصالحة، شكراً لربكم،

جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ
نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

* * *

وتزودوا من **دُنْياكُمْ** لآخرَتكم، وحافظوا على قبلتكم فلا تضيعوها كما ضيعتها الأمم قبلكم، فتضلُّوا كما ضَلُّوا **﴿أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً﴾** في أي مكان وبقعةٍ تهلكون فيها، يأتِ بكم الله جميعاً يوم القيامة **﴿إنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾** إنه تعالى على جمعكم من قبوركم بعد مماتكم قادرٌ **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فولِّ وَجْهكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرَام﴾** ومن أي مكان خرجت يا محمد، فحوِّل وجهك تلقاء المسجد الحرام **﴿وحيثُما كُنْتم فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾** وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فتوجهوا في صلاتكم نحو المسجد الحرام **﴿لئلا يكونَ للناسِ عليكم حجةٌ﴾** لئلا يحتج عليكم أهل الكتاب فيقولوا: يخالفنا محمد في ديننا ويتَّبع قبلتنا؟! **﴿إلَّا الذين ظَلَمُوا منهم﴾** غير مشركي قريش فإن لهم خصومةً ودعوى باطلة عليكم بقولهم: رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا **﴿فلا تَخْشَوهُمْ واخشوني﴾** فلا تخشوا هؤلاء الظلمة في حجتهم وجدالهم، ولكن اخشوني في مخالفتكم أمري، وخافوا عقابي **﴿وَلأُتمَّ نِعْمتي عليكم﴾** ولأكمل نعمتي عليكم بهدايتي لكم إلى قبلة إبراهيم، وأتمم به شرائع الحنيفية المسلمة **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدون﴾** ولكي تهتدوا للصواب من أمر القبلة **﴿كَمَا أَرْسلنا فيكُمْ رَسُولاً منكُمْ يَتْلو عليكُمْ آيَاتِنَا﴾** كماهديتكم لدين خليلي إبراهيم، وأتممتُ عليكم نعمتي ببيان الحنيفية السمحة، كذلك أرسلتُ فيكم رسولاً عربياً، يتلو عليكم آيات القرآن **﴿ويزكِّيكم﴾** ويطهركم من دنس الذنوب **﴿ويُعَلمكُمُ الكتابَ والحكمةَ﴾** ويعلمكم أحكام القرآن العظيم، والسُّنَن والفقه في الدين **﴿ويُعَلمكُمْ مَا لم تَكونُوا تَعْلمونَ﴾** ويعلمكم قصص الأمم الخالية، وأخبار الأنبياء، وما هو كائنٌ من الأمور التي لم تكونوا تعلمونها **﴿فَاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ﴾** فاذكروني بطاعتي، أذكركم برحمتي ومغفرتي **﴿وَاشْكُرُوا لي وَلاَ تَكْفُرونِ﴾** واشكروا لي أيها المؤمنون، فيما أنعمت به عليكم من الإسلام، والهداية للدين الحق، ولا تجحدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي.

﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْر والصَّلاَةِ﴾ استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله، فإنكم

أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

* * *

بالصبر على المكاره، ثم بالفزع إلى الصلاة، تدركون حاجاتكم ومرضاتي **﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾** فإني مع الصابرين، أنصرهم، وأرعاهم، وأكلؤهم **﴿ولا تَقُولوا لمن يُقْتَلُ في سبيلِ الله أمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ﴾** لا تقولوا لمن قُتل في سبيل الله هو ميِّتٌ، فإن الميِّت من لا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيمًا، ومن قُتِل في سبيلي فهو في حياة ونعيم، وعيش هنيء، يُرْزقون من مآكل الجنة ومطاعمها، وهم في برزخهم يُنعَّمون **﴿وَلَكِنْ لا تَشْعُرونَ﴾** ولكنكم لا ترونهم فتعلموا أنهم أحياء **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ من الخوفِ والجوعِ﴾** ولنختبرنكم بشيءٍ من الخوف ينالكم من عدوكم، وبشيءٍ من الجوع- بسبب القحط- ينالكم فيه مجاعة وشدة **﴿ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثَّمراتِ﴾** وبشيءٍ من نقص الأموال، والأولاد، والثمار، كل ذلك للامتحان والاختبار، ليتبيَّنَ الصادق في الإيمان من المنافق **﴿وبَشِّرِ الصَّابرينَ﴾** وبشِّرْ يا محمد الصابرين على بلائي، المستسلمين لقضائي، بما يسرُّهم من المغفرة والرحمة **﴿الذينَ إذَا أصابَتْهُمْ مُصيبةٌ قالُوا إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعُونَ﴾** القائلين عند المصيبة: إنَّا عبيدٌ لله في حياتنا، وصائرون إليه بعد مماتنا، **﴿أُولَئِكَ عليهم صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهم وَرَحْمَةٌ﴾** هؤلاء الصابرون لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم، ولهم رحمةٌ من الله ورأفةٌ **﴿وأولئك هم المهتدونَ﴾** المصيبون لطريق الحق، المهتدون للرشد والصواب

﴿إنَّ الصَّفَا والمروةَ من شعائرِ الله﴾ إن جبل الصفا وجبل المروة، من معالم الله التي جعلها مَعْلَمًا ومشعراً لعباده، يعبدونه عندها، بالدعاء، أو الذكر، أو السعي بينها **﴿فَمَنْ حجَّ البيتَ أو اعتَمَر﴾** فمن أتى البيت العتيق، قاصداً الحج، أو العمرة أي الزيارة **﴿فلا جُنَاحَ عليهِ أنْ يَطَّوَّفَ بهما﴾** فلا حرج عليه ولا إثم في الطواف بهما، فإنَّ المشركين كانوا يطوفون بهما للأصنام، وأنتم تطوفون للرحمن، طاعةً لأمري، وتصديقاً لرسولي[1] **﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خيْراً﴾** ومن تطوَّع بالحج والعمرة، بعد قضاء حجته الواجبة عليه **﴿فإنَّ الله شَاكِرٌ عَليمٌ﴾** شاكرٌ له تطوعه ابتغاء وجهه، عليمٌ بما قصد وأراد.

---

(١) سبب تحرج المسلمين عن الطواف أي السعي بين الصَّفا والمروة، أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون لصنمين عظيمين كانا عليهما، هما «إساف» و«نائلة» كان يعبدهما المشركون فلما جاء الإسلام، خافوا أن يسعوا بين الصفا والمروة لئلا يتشبهوا بالمشركين في عبادتهم فنزلت الآية

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ
وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

* * *

﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلْنَا من البيِّناتِ والهُدَى﴾ يخفون ما بيَّنه تعالى من أمر نبوة محمد ﷺ وما أوضحه في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، والمراد بهم علماء اليهود والنصارى[١] ﴿مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتَابِ﴾ من بعد تبييني ذلك وإيضاحه للناس في التوراة والإنجيل ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُم الله ويَلْعنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ أولئك الكاتمون لأمر محمد ولدينه، يطردهم اللَّهُ من رحمته، وتلعنهم الملائكةُ والمؤمنونَ ﴿إلاَّ الذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ تابوا عن الكتمان، وأصلحوا أنفسهم بصالح الأعمال، وبيَّنوا وحي الله الذي أنزله على أنبيائه ﴿فَأُولئِكَ أَتُوبُ عليهِمْ﴾ فهؤلاء أتوب عليهم، فأجعلهم من أهل طاعتي ومرضاتي ﴿وأنا التَّوَّابُ الرحيمُ﴾ وأنا التواب على عبادي، أتغمدهم بعفوي، وأصفح عنهم برحمتي ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَروا وَمَاتُوا وهم كُفَّارٌ﴾ جحدوا نبوة محمد، من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وماتوا وهم على جحودهم ﴿أولئك عليهمْ لَعْنَةُ الله والمَلاَئكةِ والنَّاسِ أجمعينَ﴾ أي يطردهم الله من رحمته، وتلعنهم الملائكة وجميع الناس ﴿خالدينَ فيها﴾ ماكثين في نار جهنم ﴿لايُخَفَّفُ عنهم العَذَابُ﴾ عذابهم دائم أبداً، من غير توقيتٍ ولا تخفيف ﴿ولا هم يُنْظَرُونَ﴾ ولا يُمْهلون بمعذرةٍ يعتذرون بها.

﴿وإلَهُكُمْ إلَهٌ واحدٌ﴾ معبودكم- أيها الناس- الذي يستحق العبادة معبودٌ واحدٌ[٢] ﴿لا إلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لا ربَّ سواه، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه، فإنه لا مِثْلَ له، ولا نظير، وهو الرحمن الرحيم ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ﴾ إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض، وابتداعهما على غير مثالٍ سابق ﴿واختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ وتعاقب الليل والنهار، كلٌّ منهما يخلف صاحبه، إذا ذَهب الليل جاء النهار، والعكسُ ﴿والفُلْكِ التي تجري في البحرِ﴾ والسفن التي تسير في البحار، وهي مثقلة بالأحمال ﴿بما يَنْفَعُ

---

(١) قال الطبري: والآية وإن كانت نزلت في خاص فإنها تشمل كل كاتم علماً فرض الله بيانه للناس.

(٢) هذه الآية الكريمة لإقامة الحجج والبراهين، على وحدانية رب العالمين، فقد نبَّه تعالى بآثار مخلوقاته على وجوده ووحدانيته، بأبلغ حجةٍ، وأوضح بيان.

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ
حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ
ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

* * *

النَّاس﴾ بما فيه نفع البشر **﴿وما أنزلَ الله من السَّماءِ من مَاءٍ فأَحْيا به الأَرْضَ﴾** وفي المطر الذي ينزله الله من السماء، فيخرج به النبات، الذي هو للعباد أقواتٌ، وللأنام أرزاقٌ **﴿بعد موتها﴾** بعد جدب الأرض ويُبسها **﴿وبثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابةٍ﴾** وفيها فرّق في الأرض، من كل ذي روح يدبُّ على ظهرها، من إنسانٍ ، وحيوان **﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ ﴾** وفي تصريف الله الرياح، بأن يرسلها مرةً لواقح للسحاب، ومرة ريحاً عقيمًا، تدمِّر كل شيءٍ **﴿والسَّحابِ المسخَّرِ بينَ السَّماءِ والأَرْضِ ﴾** وفي السَّحاب الذي سيَّره الله، يحمل المطر الذي به حياتكم، وحياةُ أنعامكم ومواشيكم **﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** لعلاماتٍ ودلالاتٍ على أن خالق ذلك كله إلَهٌ واحدٌ، لمن عقل، وفهم أدلته على وحدانيته. أخبرهم تعالى أن إلهم هو الله، الذي أنعم عليهم بـهذه النعم، لا ما يعبدون من الأصنام والأوثان **﴿ومن النَّاسِ مَنْ يتَّخِذُ من دُونِ الله أَنْـدَاداً﴾** ومن الناس من يجعل لله شركاء وعدلاء **﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾** يحبون أوثانهم، كحب المؤمنين لله **﴿والَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حباً لله﴾** والذين آمنوا أشد حباً لله، من حبِّهم هم لآلهتهم **﴿ولو يَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾** ولو يرى الظالمون عذاب الله، الذي أعدَّه لهم في جهنم، لعلموا حين يعاينون العذاب **﴿أن القوة لله جميعـاً﴾** أن القوة كلُّها لله، دون الأنداد والآلهة، التي لا تُغْني عنهم شيئاً **﴿وأَنَّ الله شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾** ولأيقنوا أن الله شديد العذاب، لمن كفر به **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾** تبرأ المتبوعون من الأتباع، الذين كانوا يتبعونهم على الضلال **﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾** وعاينوا عذاب الله في الآخرة، وتقطَّعت بينهم العلاقات والوسائط والصِّلات،التي كانت في الدنيا، فلا صداقةَ، ولا مودة، ولا شفاعةَ، ولا أرحام تنفعهم في الآخرة **﴿وَقَالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لنا كَرَّةً فنَتَبَرَّأَ منهمْ كما تبرَّءُوا منَّا﴾** وقال الأتباع الذين أطاعوهم في معصية الله: لو أنَّ لنا رجعةً إلى الدنيا، فنتبرأ من رؤساتنا الذين أضلونا، كما تبرءوا منَّا **﴿كَذَلِكَ يُريهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾** كما أراهم العذاب، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، فكذلك يريهم أعمالهم الخبيثة، نداماتٍ عليهم، يندمون حين يرون جزاءها وعقابها **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ من النَّارِ﴾** وليسوا

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا
عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا
يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

* * *

بخارجين من نار جهنم، ولكنَّهم فيها مخلَّدون ﴿يا أيها النـاسُ كُلوا مِمَّا في الأرضِ﴾ كلوا مما أحللت لكم من الأطعمة، دون ما حرمته عليكم من المآكل كالميتة، والدم، ولحم الخنزير ﴿حَلاَلاً طَيِّباً﴾ حلالاً طاهراً، غير نَجِسٍ ولا محرم ﴿ولا تَتَّبعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسلكوا طريق الشيطان، في آثاره وأعماله، وفيما يدعوكم إليه من مخالفة طاعة الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، قد أبان عداوته، بغروره لأبيكم حتى أخرجه من الجنة، واستزلَّه بالخطيئة، حتى أكل من الشجرة ﴿إِنَّما يَأْمُرُكُم بالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ إنما يأمركم الشيطان بمعصيـةالله، التي تسوءُ صاحبَها، وبكل فاحش وقبيح كالزنا ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلى الله مَا لاَ تَعْلَمونَ﴾ وأن تُحرِّموا البحائر، والسوائب، والوصائل، وتزعموا أن الله حرَّم ذلك ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء الكفار: إعملوا بما أنزل الله في كتابه على رسوله، فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، واتبعوا أحكامه ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قالوا بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا، من تحليلٍ وتحريم ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾؟ أيتَّبعون آباءهم الكفار، الذين لا يعقلون شيئاً من دين الله وفرائضه، ولا يهتدون لرشدٍ ولا صوابٍ؟ فكيف يتبعونهم، ويتركون ما يأمرهم به ربهم؟ والجاهلُ لا يتَّبعه إلا من لا عقل له ولا تمييز!؟ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مثل الكافر في قلة فهمه، وسوء قبوله لما يُدْعَى إليه، من توحيد الله وطاعته ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بما لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ كمثل البهيمة التي تسمع الصوت، ولا تعقل ما يُقال لها[1] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ هؤلاء الكفار صُمٌّ عن الحق فلا يسمعونه، خُرْسٌ عن الحق فلا ينطقون به، عُمْيٌ عن طريق الهدى فلا يبصرونه. **قال ابن عباس**: لا يسمعون الهدى، ولا يُبْصرونه، ولا يعقلونه ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنوا كُلُوا من طَيِّباتِ ما رزقناكُمْ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأذعنوا له بالطاعة، إطْعَموا من حلال الرزق، الذي أحللناه لكم ﴿وَاشْكُروا لله إنْ كُنْتُمْ إيَّاه تَعْبُدُونَ﴾ وأثْنُوا على الله، على ما رزقكم من النِّعَم، إن كنتم منقادين لأمره، سامعين مطيعين له. ثم بيَّن تعالى ما

(١) قال مجاهد: مثل الكافر كمثل البهيمة، تسمع الصوت ولا تعقل. وقال ابن عباس: كمثل البعير والحمار، إن قلت له «كُلْ» لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

* * *

حرَّم عليهم مفصَّلاً فقال ﴿إنَّمَا حَرَّم عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ﴾ أي ما حَرَّم عليكم ربكم غير الميتةِ، والدم، ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ وما ذُبح للآلهة والأوثان لغير الله وسُمّي إهلالاً لأنهم كانوا يذكرون اسم آلهتهم، و يجهرون عند الذبح لها بأصواتهم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ فمن حلَّت به ضرورة، لأكل ما حُرِّم عليه غيرَ باغٍ بأكله ما حَرَّم الله، ولا مُعتدٍ بتركه الحلال إلى الحرام ﴿فلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا حرج ولا تَبعة عليه بأكله ذلك ﴿إِنَّ الله غفورٌ رحيـمٌ﴾ يصفح ما سلف منكم، ويترك عقوبتكم عليه، وهو رحيمٌ بكم.

﴿إنَّ الَّذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ الله مِنَ الكِتَـابِ﴾ هم أحبار اليهود، الذينَ كتموا الناس أمر محمد ﷺ ونبوته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ﴿وَيَشْتَرُونَ به ثَمَناً قَليلاً﴾ ويبتاعون بكتمانهم نبوتَه، اليسير من عَرَض الدنيا ﴿أولَئِكَ ما يَأْكُلونَ في بُطُونِهِـمْ إلاَّ النَّارَ﴾ هؤلاء الذين كتموا، وحرَّفوا آياتِ الله، وغيَّروا معانيها، من أجل الخسيس من الدنيا، ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار[1]، ويصلون سعيرها ﴿ولا يُكَلِّمُهُم الله يومَ القِيامـةِ﴾ لا يكلمهم بما يُحِبُّون ويشتهون ﴿ولا يُزَكِّيهِـمْ﴾ ولا يطهّرهم من دنس الذنوب والكفر ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ ولهم عذاب موجع ﴿أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى﴾ أخذوا الضلالة وتركوا الهُدَى ﴿وَالْعَذَابَ بِالمَغْفِـرةِ﴾ أخذوا ما يوجب لهم عذاب الله ،وتركوا ما يوجب لهم مغفرته ورضوانه ﴿فما أَصْبَرَهُمْ عَلى النَّـارِ﴾؟ فما أجرأهم على عذاب النار!؟ وهو تعجبٌ من حالهم، بارتكابهم أعمالَ أهل النار ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكِتَابَ بالحَقِّ﴾ ذلك العذاب لأحبار اليهود، بسبب أني أنزلتُ كتابي بالحقِّ، فكفروا به واختلفوا فيه ﴿وإنَّ الَّذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لفي شِقَاقٍ بعيد﴾ وهؤلاء اليهود والنصارى، الذين اختلفوا فيما أنزلتُ إليك يا محمد، لفي نزاعٍ ومفارقةٍ للحق، بعيدةٍ عن الرشد والصواب ﴿لَيْس الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشرق وَالْمَغْرب﴾ ليس البرَّ- يا معشر اليهود والنصارى- أن يوليَ بعضُكم وجهَهُ قِبل

(١) هذا التعبير من باب المجاز باعتبار ما يئول إليه ، لأن النار لا تؤكل ، وإنما المعنى يأكلون شيئاً خبيثاً يوردهم نار جهنم ، ففيه مجاز مرسل

وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ
مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ

* * *

المشرق، وبعضكُم قِبَلَ المغرب[1] **﴿وَلَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلاَئِكَةِ والكِتاب وَالنَّبِيّين﴾** ولكنَّ البرَّ، برُّ من صدَّق بالله، وبالآخرة، وآمن بالملائكة، والكتب، والرسلَ **﴿وَآتـى الْمَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ﴾** وأعطى ماله وهو محبٌّ له، حريصٌ على جمعه، شحيحٌ به، لذوي القرابة، ولليتامى الذين مات آباؤ هم، ولأصحاب الحاجة والفاقة **﴿وابْنَ السَّـبِيلِ﴾** وللمسافر الذي انقطع في سفره، سمّي «ابنَ السبيل» لملازمته الطريق **﴿وَالسَّائِلِيـنَ﴾** الطالبين للعون **﴿وفي الرقـاب﴾** وفي فك الرقاب من العبودية، وهم المكاتَبون **﴿وَأَقَامَ الصَّـلاَةَ وآتَى الزَّكـاةَ﴾** وأدَّى الصلاةَ بحدودها، وأعطى الزكاة كما فرضها الله عليه **﴿وَالْمُوفُونَبِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا﴾** لا ينقضون عهد الله بعد المعاهدة **﴿والصَّابريـنَ في الْبَأْسَاءِ والضرَّاءِ﴾** وأمدحُ الصابرين، وقتَ البؤس والضُّر[2] **﴿وحينَ البأس﴾** والصابرين وقت شدة القتال، في الحرب **﴿أُولئِكَ الَّذينَ صَدَقوا﴾** صدقوا الله في إيمانهم، وحقَّقوا أقوالهم بأفعالهم **﴿وأولئكَ هم المتقـونَ﴾** اتَّقَوْا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ في القَتْلَى﴾ فُرض عليكم القِصَاصُ من القاتل، دونَ غيره **﴿الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعبدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى﴾** أن يُقتص الحُرُّ بالحُرِّ، والعبدُ بالعبد، والأنثى بالأنثى[3] **﴿فمن عُفِيَ له من أخيهِ شيءٌ﴾** فمن صُفح له من أخيه، عن شيءٍ من الواجب، من الدية أو غيرها **﴿فاتِّباعٌ بالْمَعْرُوفِ﴾** فعلى الراضي بالدية ـ وهو وليُّ القتيل ـ أن يطالب بديته بالمعروف، وهي مائة من الإبل دون زيادة **﴿وأداءٌ إليه بإحسانٍ﴾** وعلى القاتل أن يدفع ما لزمه بقتله من الدية بإحسان، دون أن يحوجه إلى

---

(١) كانت اليهود تصلي قِبَلَ المغرب، والنصارى تصلي قِبَلَ المشرق، فنزلت الآية توضّح أن فعل البر والخير ليس بالصلاة وحدها، ولكنه بخصال الإيمان التي بيَّنها الرحمن جل وعلا، من الإيمان بالله، وبكتبه، وبرسله، والانفاق في سبيل الله، والجهاد في سبيله، وغير ذلك

(٢) البأساء الفاقة والفقر، والضراءُ الوجعُ والمرضُ يصيب الجسد، وانتصب لفظ «والصابرين» على المدح أي أمدح الصابرين وأخصهُم بالثناء

(٣) كان عند العرب بغيٌ وعدوان، فكانوا إذا قُتلت فيهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلا، وإذا قتل فيهم عبد قالوا: لا نقتل به إلا حراً فنزلت تأمر بقتل القاتل فقط.

فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

* * *

المطالبة[1] ﴿ذَلِكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبكُمْ وَرَحْمةٌ﴾ ما حكمتُ به من قبول الدية، تخفيفٌ مني عليكم، ورحمة مني لكم، أطعمتكم الدية، وأحللتها لكم، ومنعتها من كان قبلكم من الأمم ﴿فمن اعْتَدَى بَعْدَ ذلكَ فَلَهُ عَذَابٌ أليمٌ﴾ فمن اعتدى بعد أخذه الدية، فسفك دم القاتل، فله عذاب أليم موجع ﴿ولكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُوْلي الأَلْبَاب﴾ ولكم - يا أصحاب العقول - فيما فرضت عليكم من القصاص، ما يمنع به بعضكم من قتل بعض، فتكون لكم بذلك الحياة[2] ﴿لعلكم تَتَّقُونَ﴾ كي تنتهوا بالقصاص عن القتل.. وخصَّ تعالى بالخطاب أهل العقول، لأنهم هم الذين يعقلون عن الله، أمرَه ونهيَه، ويتدبرون حججه.

﴿كُتِبَ عليكُمْ إذَا حَضَرَ أحدَكُم المَوْتُ﴾ فُرض عليكم - أيها المؤمنون - إذا حضرتْ منيّةُ أحدكم ﴿إنْ تركَ خيراً الوصيَّةُ للوالدين والأقربينَ﴾ إن تركَ مالاً، فالواجب عليه أن يوصيَ لمن لا يرثه، من آبائه، وأمهاته، وأقربائه[3] ﴿بالمعروفِ﴾ في حدود الثلث ﴿حقاً على المتقينَ﴾ حقاً واجباً، على من اتقى الله فأطاعه ﴿فمنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَه﴾ فمن غيَّر وصية الموصي، بعدما سمع الوصية ﴿فإنّما إثْمُهُ عَلى الّذينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فإنما إثم التبديل، على من بدَّل الوصية ﴿إنَّ الله سَميعٌ عَليمٌ﴾ سميعٌ لوصيتكم، عليمٌ بما تُخفيه صدوركم ﴿فَمَنْ خَافَ من مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إثْماً﴾ فمن خاف من الموصي، الجورَ، والعدولَ عن الحقِّ، أو خاف أن يتعمد الإثم في وصيته، بأن يوصي بأكثر من الثلث ﴿فَأَصْلَحَ بينهُمْ فَلَا إثْمَ عليهِ﴾ فأصلح بين الموصي وبين ورثته، فلا ذنب عليه ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾ يصفح عن الذنوب، ويرحم العباد

﴿يا أيها الذينَ آمنوا كُتِب عليكُمُ الصِّيامُ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، فُرض عليكم الصيام ﴿كما كُتِبَ على الذينَ من قبلكم﴾ كما فُرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب ﴿لعلكم تَتَّقُونَ﴾ لتتقوا ما

(١) قال ابن عباس: العفو أن يقبل الدية في العمد، فيطلب هذا بمعروف، ويؤدي هذا بإحسان.

(٢) اشتهر عن العرب قولهم: «القتلُ أنْفَى للقتل» ولكنَّ في الآية الكريمة من نفحات الإعجاز، ما يفوق تلك العبارة جمالاً وبياناً ﴿ولكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ﴾ ففي قتل القاتل حياةٌ للبشر، وصيانة للأرواح أن تُزْهق، وانظر الفوارق الدقيقة بين الجملتين في كتابنا صفوة التفاسير ١ / ١٢٠

(٣) ذهب البعض إلى أن الوصية منسوخة بآية المواريث وذهب الطبري إلى أنها محكمة وهي في الوالدين والأقربين الذين لا يرثونه.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ
فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ
الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

* * *

يُفَطِّركم، من الطعام، والشراب، والجماع[١] ﴿أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ﴾ أيام شهر رمضان ﴿فمنْ كَانَ منكم مَرِيضاً﴾ فمن كان من المكلفين مريضاً ﴿أو عَلى سَفَرٍ﴾ أو كان على سفر ﴿فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صوم عدة الأيام، التي أفطرها في مرضه، أو في سفره، من أيام أخرى ـ غير رمضان ـ ﴿وَعَلى الذينَ يُطيقُونَه فدية طعَامُ مسكينٍ﴾ وعلى الذين يطيقون الصيام، جزاءُ طعامُ مسكينٍ، لكل يوم أفطره والآية منسوخة[٢]، وقيل: هي في الشيخ الكبير، والعجوز الفانية، رُخّص لهما أن يُفطرا، ويُطْعما لكل يوم مسكيناً ﴿فَمَنْ تَطوَّعَ خيراً فهو خيرٌ لَهُ﴾ فمن تطوّع خيراً فزاد طعام مسكين آخر، أو جمع الصوم مع الفدية فهو خيرٌ له ﴿وأن تَصُومُوا خيرٌ لكم﴾ صيامكم شهر رمضان، خيرٌ لكم من أن تفطروه وتفتدوا ﴿إن كنتم تعلمونَ﴾ فضل الصيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ الأيامُ المعدوداتُ هنَّ شهر رمضان، الذي ابتدأ فيه نزول القرآن ﴿هُدَىً للنَّاسِ﴾ رشاداً للناس إلى سبيل الحقّ ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقانِ﴾ وواضحاتٍ من الحلال والحرام، تفصل بين الحق والباطل ﴿فَمَنْ شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيمٌ، فعليه صومُ الشهر كله ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر﴾ ومنْ كان مريضاً، أو مسافراً فأفطره ﴿فَعِدَّةٌ منْ أيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صيام عدة الأيام التي أفطرها، من أيام أخرى، غير أيام رمضان ﴿يُريدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يُريدُ بكم العُسْرَ﴾ يريد الله ـ بما شرع لكم ـ التخفيفَ والتسهيل عليكم، ولا يريد بكم الشدة والمشقة ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ﴾ ولتكملوا عدة ما أفطرتم، في السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبّروا الله على ما هَدَاكم﴾ ولتعظّموا الله بالتكبير يوم الفطر، على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ ولتشكروا الله على ذلك ﴿وَإذَا سَألَكَ عِبادِي عَنّي فَإنِّي قَريبٌ﴾ وإذا سألك يا محمد عبادي أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم. نزلت حين سأل بعضهم الرسول ﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ ﴿أُجيبُ دعوةَ الدَّاع

(١) هكذا فسَّرها الطبري، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى لتتّقوا الله أي لكي تحصلوا على مرتبة التقوى، التي هي جماع الدين وطريق السعادة، والوصول إلى رضوان الله، فمن صام رمضان كان من المؤمنين المتقين، جعلنا الله منهم.

(٢) كان الصيام مفروضاً على المسلمين، من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى بطعام مسكين، ثم نزل قوله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فَنُسِخَ ذلك الحكمُ.

يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ

* * *

﴿إذا دَعَانِ﴾ أسمع دعاءهم، وأجيب دعاء الداعي منهم إذا دعاني **﴿فَلْيَسْتَجيبُوا لي﴾** بالطاعة **﴿ولْيُؤْمِنُوا بي﴾** ولْيصدّقوا أني أجزلُ لهم الثواب والكرامة **﴿لَعَلَّهمْ يَرْشُدُونَ﴾** ليهتدوا إلى طريق الرشاد **﴿أُحِلَّ لكمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ﴾** أبيح لكم- أيها المؤمنون- في ليالي رمضان الجماعُ لنسائكم، **قال ابن عباس**: الرفث: الجماع، ولكنَّ الله كريمٌ يَكْني **﴿هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾**[1] نساؤكم لباسٌ لكم، وأنتم لباسٌ لهن، وكل واحد منكم سِتْرٌ لصاحبه، لانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه عند الجماع **﴿عَلِمَ الله أنكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أنفسكم﴾** تخونون أنفسكم، بالجماع، والأكل والشرب بعد النوم في الليل ،**قال قتادة**: كان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يَرْقُدوا، فإذا رقدُوا حرم عليهم ذلك، ثم أحلَّ الله لهم بعد ذلك الطعام والشراب وغشيان النساء إلى طلوع الفجر **﴿فتابَ عليكُمْ وعَفَا عنكم فالآنَ بَاشِرُوهنَّ﴾** فالآن جامعوهنَّ في ليالي شهر رمضان حتى يطلع الفجر **﴿وابْتَغُوا ما كَتَبَ الله لكُمْ﴾** واطلبوا ما قضى الله لكم، من الولد والنسل **﴿وكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يتبيَّنَ لكُمُ الخَيْطُ الأبيضُ من الخَيْطِ الأَسْوَدِ من الفَجْر﴾** وكلوا واشربوا من أول الليل، إلى أن يظهر لكم ضوء النهار من ظلمة الليل، بطلوع الفجر **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ﴾** ثم أتموا صيامكم إلى غروب الشمس. والمرادُ بالخيط الأبيض: بياضُ النهار، وبالخيط الأسود: سوادُ الليل **﴿ولا تُبَاشِروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد﴾** ولا تجامعوا نساءكم حال عكوفكم في المساجد لعبادة الله **﴿تلكَ حُدُودُ الله فلا تَقْرَبُوهَا﴾** هذه الأشياء التي بيَّنْتُها لكم هي محارم الله، فاجتنبوها ولا تقربوها، فتستحقوا العقوبة **﴿كذلك يُبَيِّنُ الله آياته للناس﴾** كما أوضحت لكم الأحكام، أبيِّنُ للناس الحلال والحرام **﴿لعلهم يتقون﴾** ليتقوا محارمي، ويتجنَّبوا غضبي وسخطي.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ ولا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل **﴿وتُدْلوا بها إلى الحكام﴾**

---

(١) ما ألطف هذا التعبير وما أبدعه!! فإنه من الألفاظ الرشيقة التي فاقت الخيال في الجمال، فالمرأة للرجل كاللباس زينة وكمالاً، تكمِّله وتزينه، والرجل للمرأة كاللباس يسترها ويجمّلها، وهما حال المعانقة والمباشرة كالشخص الواحد المتسربل باللباس، روحان حَلّا في جسد واحد، فلله ما أسمى وأروع تعبير القرآن!؟.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

* * *

وتخاصموا بها إلى الحكام[1] قال مجاهد: لا تخاصم وأنت ظالم **﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾** لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالحرام **﴿وأنتم تَعْلمونَ﴾** وأنتم تتعمدون ذلك، وتعلمون أنه حرام **﴿يَسْألونَكَ عن الأهِلَّةِ﴾** يسألونك يا محمد عن الأهلة وتغير أحوالها بالزيادة والنقصان، وعدم كونها كالشمس دائمة أبداً على حال واحدة **﴿قُلْ هي مَوَاقيتُ للنَّاسِ والحَجّ﴾** قل لهم: هي مواقيتُ لكم، تعرفون بها أوقات صومكم، وإفطاركم، ومناسك حجكم **﴿وليس البرُّ بأنْ تَأْتُوا البيوتَ من ظهورها﴾** وليس البرُّ ـ أيُّها الناسُ ـ بأن تأتوا البيوت في حال إحرامكم من ظهورها. نزلت في قومٍ كانوا لا يدخلون بيوتهم إذا أحرموا من أبوابها، و لكنْ يدخلون من الكُوَّةِ، ويتسورون الجدران **﴿ولكنَّ البرَّ من اتَّقَى﴾** ولكنَّ البرَّ من اتقى الله، وتجنَّب محارمه **﴿وأْتوا البُيوتَ منْ أبْوابها﴾** ادخلوا البيوت من الأبواب **﴿واتَّقُوا الله لعلكم تُفْلِحونَ﴾** احذروا ربكم وارهبوه، بطاعته واجتناب نواهيه، لتدركوا البقاء في جناته، والخلود في نعيمه.

﴿وقاتلوا في سبيلِ الله الذينَ يقاتلونكم﴾ قاتلوا ـ أيها المؤمنون ـ من أجل دين الله، الذي شرعه لعباده، الذين يقاتلونكم من المشركين **﴿ولا تعتدوا﴾** بقتل النساء والذريَّة، الذين لم ينصبوا لكم الحرب، قال ابن عباس لا تقتلوا النساء، ولا الصبيان، ولا الشيخ الكبير، ولا من كفَّ يده، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم **﴿إن الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾** الذين يجاوزون حدوده، ويستحلّون ما حرمه عليهم **﴿واقْتُلوهُمْ حيثُ ثَقِفْتُموهُمْ﴾** اقتلوا المشركين، في أي مكانٍ تمكنتم من قتلهم **﴿وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم﴾** أخرجوا هؤلاء المقاتلين من مساكنهم وديارهم، كما أخرجوكم منها ـ يعني بذلك المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم بمكة ـ **﴿والْفِتْنَةُ أَشدُّ مِنَ الْقَتْل﴾** والشركُ بالله أشدُّ من القتل، وفتنةُ المؤمن في دينه، حتى يرجع عنه ويصير مشركاً، أشدُّ من قتله **﴿ولا تُقَاتِلوهُمْ عند المَسْجِدِ الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فيهِ﴾** ولا تبتدئوا المشركين بالقتال عند المسجد الحرام، حتى يبدأُوكم به **﴿فإنْ قاتلوكُمْ فاقْتُلوهُمْ﴾** فإن بدءوكم بالقتال فاقتلوهم **﴿كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرينَ﴾** جزاؤ هم القتلُ في الدنيا، والخزيُ في الآخرة **﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فإنَّ الله غَفُور رحيمٌ﴾** فإن ترك

---

(١) فسَّر الإمام ابنُ جرير الإدلاء بمعنى المخاصمة إلى الحكام، وفسَّرها البعض بإلقاء الأموال رشوة إلى الحكام، وهذا أظهر والله علم

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ

* * *

الكافرون قتالكم وتابوا، فإن الله يغفر ذنوبهم ويرحمهم، بفضله وَمَنِّه **﴿وقَاتِلُوهُمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله﴾** وقاتلوا المشركين، حتى لا يبقى شرك، وتكون العبادة والطاعة لله وحده، دون غيره من الأصنام والأوثان **﴿فإن انْتَهَوْا فلا عُدْوانَ إلاَّ على الظالمين﴾** فإن كفُّوا عن قتالكم، ودخلوا في ملتكم، فَدَعوا قتالهم، فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين، المشركين بالله **﴿الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الحَرامِ﴾** شهرُ ذي القعدة، الذي صدَّكم فيه المشركون عن مكة، بالشهر الحرام الذي أديتم فيه مناسك العمرة، فهذا بذاك مقاصَّةٌ[1] **﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾** ودخولكم الحرم بالإحرام، في شهركم هذا الحرام، قصاصٌ مما مُنعتم من مثله عامكم الماضي **﴿فمنِ اعْتَدَى عليكُمْ فاعْتَدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكُمْ﴾** فمن قاتلكم من المشركين، فقاتلوه كما يقاتلكم **﴿واتَّقُوا اللهَ﴾** في حُرُمَاته وحدوده، أن تعتدوا فيها **﴿واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ﴾** الذين يتقونه بأداء فرائضه، واجتناب محارمه **﴿وأَنْفِقُوا في سبيلِ اللهِ﴾** أنفقوا لإعزاز دينه، الذي شرعهُ لكم **﴿ولا تُلْقُوا بأيديكـم إلى التَّهْلُكَةِ﴾** ولا تتركوا النفقة في سبيل الله، فتهلكوا باستحقاقكم العذاب **﴿وَأَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسـنين﴾** وأحسنوا في أداء الفرائض، وتجنب المحارم، وعون الضعفاء، فإني أحب المحسنين **﴿وأتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله﴾** أتموا الحج بمناسكه وسننه، وأتموا العمرة بحدودها وسننها، كما أمركم الله ابتغاء وجهه **﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾** فإن أحصركم[2] أي حبسكم ـ خوف عدوٍّ، أو مرض، عن الوصول إلى البيت، فعليكم أن تذبحوا شاة لإحلالكم **﴿ولا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حتىَّ يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾** ولا تحلُّوا من إحرامكم، بحلق رءوسكم، حتى تذبحوا الهدي، في الموضع الذي أُحْصرتُم فيه، في حَرَم كان، أو في حِلٍّ، سُمِّي هَدْياً لأنه بمنزلة الهديَّة يُهْديها الرجلُ إلى غيره **﴿فمنْ كَانَ منكم مَريضاً أَوْ بِهِ أَذًى من رَأْسِهِ﴾** فمن اضطر إلى حلق رأسه لمرضٍ، أو صُدَاعٍ، أو قمل وصِئْبانٍ[3] **﴿فَفِدْيةٌ مِنْ صِيَامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾**

(١) هذا ما فسَّره به الطبري، وقال غيره المعنى: الشهرُ الحرام يقابل بالشهر الحرام، وهتكُ حرمته تقابل بهتك حرمته، فلا تبالوا بقتالهم فيه إن قاتلوكم، ولعلَّ هذا المعنى أظهر!!

(٢) الإحصارُ: معناه الحبسُ والمنعُ، عن إتمام الحج أو العمرة، بسبب مرضٍ أو عدو.

(٣) روي عن كعب بن عجرة أنه قال حُملت إلى رسول الله ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي، فقال لي رسول الله ﷺ ما كنتُ أرى أن

أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

* * *

فالواجب عليه جزاءٌ وفديةٌ، من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع، أو ذبح شاة، يُخيَّرُ بين ذلك **﴿فإذَا أَمِنْتُمْ﴾** فإذا أمنتم من خوفكم، وبرأتم من مرضكم **﴿فمن تمتَّعَ بالعُمْرةِ إلى الحجّ﴾** فمن تمتع ممن حلَّ بسبب الإحصار من حجه **﴿فَما اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾** فعليه ما تيسَّر من الهدي، وأقلُّه شاةٌ **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثةِ أيَّامٍ في الحَجّ وسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ﴾** فإن لم يجد الهَدْيَ، فعليه صيام ثلاثة أيام في حجه، وسبعةٍ إذا رجع إلى أهله[١] **﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ﴾** تلك عشرة أيام، فرضنا عليكم إكمالها، إن لم تجدوا الهَدْيَ **﴿ذلكَ لمن لم يكنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المْسجِدِ الحرَامِ﴾** ذلك التمتع، لمن لم يكنْ من أهل الحرم، أو قريب المنزل من الحرم، مما لا تُقصر فيه الصلاة **﴿واتَّقُوا الله﴾** بطاعته، واجتناب نواهيه **﴿واعْلَمُوا أنَّ الله شديدُ العِقابِ﴾** وتيقنوا أنه تعالى شديدُ عقابُه، لمن انتهك محارمه **﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ﴾** وقتُ الحج أشهرٌ معلومات هي: شوال، وذو القعدة، وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فمن فَرَضَ فيهن الحَجَّ﴾** فمن أوجب الحج على نفسه فيهنَّ **﴿فلا رَفَثَ ولا فسوقَ ولا جدال في الحج﴾** فلا يفحش في كلامه، ولا يجامع أهله، ولا يعص ربه، ولا يجادلْ ويخاصم رفاقه[٢] **قال ابن عباس** الجدال أن تجادل صاحبك حتىَّ تُغْضبه **﴿وَمَا تَفْعَلُوا من خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله﴾** ومهما تفعلوا من خيرٍ وعمل صالح، فإن الله يجازيكم عليه، لأنه مطَّلعٌ على السرائر والضمائر **﴿وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾** تزودوا من الأقوات في حجكم وسفركم، فليس البرُّ بترك التزود، ولكنَّ البر بتقوى الله وهو خير الزاد. نزلت في قوم كانوا يحجون بغير زاد[٣] **﴿واتَّقونِ يا أُولي الألْبَاب﴾** خافون يا أهل العقول والأفهام. خصَّهم بالذكر لأنهم أهل الفكر الصحيح، والتمييز بين الحق

= الجهد قد بلغ منك ما أرى!! أتجد شاةً؟ فقلت: لا، قال صُمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع من طعام، واحلق رأسك، فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة. رواه الشيخان.

(١) قال بعضهم: آخر الثلاثة يوم عرفة، ورجح ابن جرير أنها آخر أيام منى.

(٢) رجح ابن جرير أن المراد بالجدال الجدالُ في الحج ووقته، وأنه قد استقام أمره ببيان الله تعالى، فلا تنازع في وقته ولا مراء، والراجح ما ذكرنا وهو قول ابن عباس، ذكره ابن جرير ضمن الآثار التي رواها، ثم رجَّح القول المرجوح وهو خلاف أقوال المفسرين

(٣) روي عن ابن عباس أنه قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزودون. ويقولون: نحن المتوكلون فأنزل الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ

* * *

والباطلَ، وغيرُهم أشباحٌ كالأنعام، وصورٌ كالبهائم ﴿لَيْس عليكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ ربِّكُمْ﴾ ليس عليكم أيها المؤمنون حرجٌ، أن تلتمسوا من رزق الله، بالتجارة في موسم الحج، قال مجاهد: كانوا يحُجُّون ولا يتجرون فنزلت الآية[1] ﴿فَإذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ إذا كررتم راجعين من عرفات ﴿فَاذْكُرُوا الله عِندَ المَشْعَر الحَـرَام﴾ فادعوا الله، وصلُّوا عند المشعر الحرام، بمزدلفة ﴿واذكـروه كما هَدَاكم﴾ اذكروا الله بالثناء عليه، والشكر له على أياديه، كما هداكم فاستنقذكم من النار ﴿وإنْ كُنْتُم من قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ وقد كنتم قبل ذلك في الشرك والحيرة، والعمى عن طريق الحق ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا من حيثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم ادفعوا - يا معشر قريش - من حيث أفاض الناسُ من عرفات[2] ﴿واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ واستغفروا الله لذنوبكم، فإنه غفور لكم، رحيم بكم ﴿فإذا قضيتُمْ مناسككـم﴾ فإذا فرغتم من حجكم، وذبحتم نسككم ﴿فاذكروا الله كذكركُـمْ آباءَكُمْ﴾ اذكروا ربكم بالثناء، والشكر، والتكبير، كما يتضرع الولد لوالده، والصبيُّ لأمه وأبيه[3] ﴿أو أشدَّ ذكراً﴾ أو أشدَّ من ذلك، وارغبوا إليه فيما لديه، من خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنَا في الدُّنْيـا﴾ فمن الناس فريقٌ لا يسألون ربهم إلا متاع الدنيا ﴿وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ لا حظَّ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته، لأن أعمالهم للدنيا وزينتها ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخرة حَسَنة﴾ ومنهم فريق يسألون ربهم خيري الدنيا والآخرة، فالحسنةُ في الدنيا: العافيةُ في الجسم، والمعاشُ والرزق، والعلمُ والعبادةُ، والحسنةُ في الآخرة: الجنةُ ونعيمُها، لأن من لم ينلها حُرم جميع الحسنات ﴿وَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ﴾ اصرف عنا عذاب النار ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ هؤلاء لهم حَظٌّ وافرٌ من حجهم، ونسكهم، وثوابٌ جزيل على عملهم، دون الفريق

(١) انظر الطبري ٤ / ١٦٤

(٢) عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها، يقفون بالمزدلفة، وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه، فلا نخرج منه ولا نفيض الا من الحرم، فنزلت ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي انزلوا من عرفة حيث ينزل الحُجَّاج، لا من المزدلفة

(٣) كان الناس في الجاهلية بعد فراغهم من الحج، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، يقولون: أبي كان يطعم الطعام، أبي كان يضرب بالسيف، فأمرهم تعالى أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر، والتعظيم لربهم دون غيره.

مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ
الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

* * *

الآخر، الذين تكلفوا ما تكلفوا من أسفارهم، رجاء خسيس من عَرَض الدنيا، وابتغاء عاجل حُطامها ﴿والله سَرِيعُ الحِسَاب﴾ مجازٍ عباده على أعمالهم بأسرع وقت ﴿واذكروا الله في أيامٍ معـدوداتٍ﴾ اذكروا الله في أيام مِنى ﴿فمن تَعَجَّـلَ في يَوْمَين فلا إثْمَ عَلَيْهِ﴾ فمن تعجَّل فنفر في اليوم الثاني، فلا إثم عليه، لتكفير الله له ما سلف من آثامه ﴿وَمَنْ تَأَخَّر فَلَا إِثْمَ عليهِ﴾ ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهن، فلا إثم عليه، قد غفرت ذنوبه ﴿لِمَنِ اتَّقى﴾ إن كان قد اتقى الله في حجه ﴿واتَّقُـوا الله﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إليهِ تُحْشَرونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قَولُهُ في الْحيَاةِ الدُّنْيَا﴾ومن الناس فريقٌ، يعجبك ظاهر قوله وعلانيته﴿وَيُشْهِدُ الله عَلى مَا في قَلْبِهِ﴾ ويستشهد الله على ما في قلبه، بأنه محقٌّ في قولِه، وأنَّ قوله موافقٌ لاعتقاده ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَـامِ﴾ وهو شديد الخصومة، يجادل بالباطل والزور. وهذه صفةُ المنافقين الذين يُظهرون غير ما يُبطنون﴿وإذا تولَّى﴾ وإذا أدبر هذا المنافق،منصرفاً عنك﴿سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها﴾ عمل في الأرض بما حرَّم الله، من قطع الطريق، وإفساد السبيل، ليخيف عباد الله ﴿وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْـلَ﴾ ويهلك الزرع، وقتل ما لا يحلُّ من الحيوانِ،والدواب[1]﴿والله لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ لا يحب المعاصي، وقطع الطريق، وإخافة السبيل ﴿وإذا قيلَ له اتَّقِ الله﴾ وإذا قيل لهذا المنافق: خفْ الله في إفسادك في الأرض ﴿أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثْم﴾ استكبر، ودخلته العِزَّةُ والحميَّةُ، وتمادى في غيِّه وضلاله ﴿فحسبُهُ جَهَنَّمُ﴾ كفاه عقوبةً على غيِّه، الاصطلاءُ بنار جهنم ﴿وَلَبِئْسَ المِهَـادُ﴾ ولبئس الفِراشُ والوطاءُ جهنم ولما ذكر أوصاف المنافقين الأشقياء، ذكر بعدها أوصاف المؤمنين السعداء فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ﴾ ومن الناس من يبيع نفسه ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله﴾ طلب مرضاة الله، وابتغاء ثوابه ﴿والله رَءُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ ذو رحمةٍ واسعة بعباده

(١) قال السُّدي نزلت في «الأخنس بن شريق» جاء إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق، ثم خرج من عند النبي فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحمر، ففيه نزلت الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ﴾

* * *

المؤمنين[١] ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا ادخلوا في السِّلْمِ كافةً﴾ ادخلوا في الإسلام عامةً جميعاً، واعملوا بشرائعه كلها ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تتبعوا طرائقَ الشيطان وآثاره ﴿إنه لكم عـدوٌ مبينٌ﴾ إنه ظاهر العداوة لكم ﴿فإنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ البَيِّنـاتُ﴾ فإن خالفتم شرائع الإسلام، بعد أن اتضحت لكم الحجج والبينات، على صحة أمر الإسلام ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فاعلموا أن الله غالبٌ، لا يدفعه عن عقوبتكم دافع، ولا يمنعه مانع، حكيمٌ فيما يفعل بكم ﴿هل يَنْظُرونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والملائكـةُ﴾ هل ينظر المكذبون لمحمد، إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام، وتأتيهم الملائكة، للفصل بين العباد، والقضاء في أمرهم؟! ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ فُصِل القضاءُ بالعدل بين الخلق ﴿وإلى الله تُرْجَعُ الأُمـورُ﴾ وإلى الله يئول القضاء والحكم، بين الخلق يوم القيامة، فيفصل بين المتظالمين، ويجازي كلاً بما يستحق، لأنه يستوي الضعيفُ والقويُ، والفقيرُ والغنيُّ، ويضمحل الظلم، وينزل سلطان العدل ﴿سَلْ بني إسْـرَائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ سل يا محمد بني إسرائيل: كم جاءتهم من علامةٍ بينة، وحجة واضحة، على صدق رسلي؟ فكفروا وكذَّبوا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ ومن يغيِّرْ نعمة الله ـ وهي الإسلام ـ فيكفر بها ﴿فإنَّ الله شَـدِيدُ الْعِقَابِ﴾ شديدُ عقابُه؛ أليمٌ عذابُه ﴿زُيِّنَ للذينَ كفروا الحياةُ الدنيا﴾ زُيِّن للكافرين حبُّ الحياة العاجلة، يبتغون فيها المفاخرة والمكاثرة ﴿ويَسْخَرونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويهزأون من أهل الإيمان، لرفضهم الدنيا وتركهم زينتها[٢] ﴿والَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ والذين اتقوا ربهم ـ بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه ـ فوق هؤلاء الكافرين في الجنة، يوم القيامة ﴿والله يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغير حسـاب﴾ يعطي المتقين من كراماته، وجزيل عطاياه، بغير حساب، لأنه لا يخاف نفاد خزائنه ﴿كَانَ

(١) نزلت الآية في «صُهَيب الرومي» لما أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة، منعه قومه وحبسوه، فقال لهم: أعطيكم داري ومالي، وما كان لي من شيء، وخلوا عني حتى ألحق بمحمد، فرضوا وأعطاهم داره وماله، ثم خرج مهاجراً إلى الله ورسوله، فنزلت الآية، فلما دنا من المدينة، تلقاه رجال من الصحابة فيهم عمر، فقالوا له: ربح البيع، قال: وما ذاك؟ فأخبروه بما نزل فيه.

(٢) قال عكرمة: قال المشركون لو كان محمد نبيًّا كما يقول ـ لاتَّبعه أشرافنا وسادتنا، والله ما اتَّبعه إلا الفقراء، أصحاب الحاجة فنزلت الآية؟.

ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا
ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ
مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ
نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ

* * *

﴿النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان الناس أمة واحدة، مجتمعةً على دين واحدٍ، فاختلفوا[1] ﴿فَبَعَثَ الله النبيّين مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فبعث الله فيهم الرسل والأنبياء، يبشرون من أطاع الله بجزيل الثواب، وكريم المآب، وينذرون من عصى الله بشديد العقاب، وسوء الحساب ﴿وأنزلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بيْنَ النَّاس فيما اختلفوا فيه﴾ وأنزل معهم التوراة[2]، ليحكم بين بني إسرائيل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فيه إلاّ الَّذِينَ أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ لم يكن اختلاف اليهود في التوراة عن جهلٍ منهم، بل كان عن تعمد وعلم، من بعد ما ثبتت حجته عليهم ﴿بَغْياً بينهم﴾ طلباً للرياسة ﴿فَهَدَى الله الَّذِينَ آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ﴾ فوفَّق الله أهل الإيمان، لدين إبراهيم الحنيف خليل الرحمن ﴿بإذنه﴾ بتوفيقه وعلمه ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مستقيم﴾ والله يرشد إلى الطريق القويم، من شاء من خلقه، ويسدّدهم لإصابة الحق والصواب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة ﴿ولَمَّا يأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولم يُصبكم ما أصاب مَنْ قبلكم، من الشدائد والمِحَن، وأنواع الاختبار ﴿مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ﴾ أصابتهم الحاجة والفاقة، والعِلَل والأوصاب ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والذينَ مَعَهُ متى نَصْرُ الله﴾ وزُلزلتْ نفوسُهم من الخوف والرعب، وشدة الجهد، واستبطأ القوم نصر الله حتى قال الرسول والمؤمنون: متى الله ناصرنا؟ ﴿ألاَ إنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾ نصرُه من المؤمنين قريب. نزلت يوم الخندق، حين لقي المؤمنون ما لقوا، من شدة الجهد، وشدة أذى البرد، وضيق العيش، الذي كانوا فيه يومئذٍ كما قال تعالى «هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً»

﴿يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾[3] يسألونك يا محمد: أيَّ شيءٍ يُنفقون من أموالهم؟ وعلى من ينفقونه ويتصدقون به؟ ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ من خَيْرٍ﴾ قل لهم: ما أنفقتم من أموالكم،

---

(١) قال قتادة كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين

(٢) الظاهر أن « أل » في الكتاب للجنس، أي أنزل مع الأنبياء الكتب السماوية ومنها التوراة، لا أن المراد التوراة فقط كما ذهب إليه ابن جرير، فإن اللفظ على العموم ﴿فبعث الله النبيين . وأنزل معهم﴾

(٣) قال الطبري: وهذه الآية نزلت قبل أن يفرض الله زكاة الأموال

ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ
شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ
ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ
عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن
يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ

* * *

وتصدقتم به ﴿فللوالدين والأقربين﴾ فاجعلوه لآبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم ﴿وَالْيَتَامَىٰ والْمَسَاكين وابْن السَّبيلِ﴾ ولليتامى الذين مات آباؤهم، والمحتاجين، وللمسافر المنقطع في سفره ﴿وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وما تصنعوا من خير وإحسان ﴿فإنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ﴾ محصيه لكم، ومثيبكم عليه يوم القيامة

﴿كُتِبَ عليكُمْ القِتالُ﴾ فُرض عليكم قتالُ المشركين ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ وهو مكروهٌ لكم، تكرهه نفوسكم لما فيه من المشقة والجهد، ثم حضّهم تعالى على جهاد الأعداء، ورغَّبهم في قتال الكفار فقال ﴿وَعَسَى أَنْ تكرهوا شَيْئاً وهو خيرٌ لكم﴾ ولا تكرهوا القتال، فإنكم لعلكم أن تكرهوه وهو خيرٌ لكم ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شرٌّ لَكُمْ﴾ ولا تحبوا ترك الجهاد، فلعلكم أن تحبوه وهو شرٌّ لكم ﴿والله يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلمونَ﴾ والله يعلم ما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌّ، وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿يَسْأَلُونكَ عن الشَّهْرِ الحَرامِ قِتَالٍ فيه﴾ يسألونك عن القتال في الشهر الحرام- شهر رجب- ﴿قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ قل لهم: القتالُ فيه كبير، وسفك الدماء في الشهر الحرام، عظيمٌ عند الله[1] ﴿وصدٌّ عن سَبيلِ الله وكفرٌ بِهِ﴾ ومنعُ الناس عن الدخول في الإسلام، وكفرٌ بالله ﴿ والمَسْجِدِ الحَرامِ ﴾ وصدُّ المؤمنين عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ الله﴾ وإخراج أهل المسجد الحرام- وهم أهلُه وولاتُه- أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الشركُ بالله أعظمُ وأكبرُ من القتل. يقول: ما صنعتم يا معشر المشركين، أكثر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددتم عن المسجد الحرام محمداً وأصحابه، وأخرجتموهم من ديارهم، وفتنتم المسلمين عن دينهم، فذلك أكبرُ عند الله من القتل ﴿ولا يَزالُونَ يُقَاتِلونكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينكُمْ إن اسْتَطَاعُوا﴾ ولا يزال كفّار قريش يقاتلونكم، ويفتنون المسلمين عن دينهم، حتى يردوهم إلى الكفر، إن قدروا على ذلك ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ منكُمْ عنْ دِينِهِ﴾ ومن يرجع منكم عن دينه ﴿فَيَمُتْ وهو كافرٌ﴾ فيمت على

(١) روي أن النبي ﷺ بعث سرية وأمّر عليهم «عبد الله بن جحش» فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدما، فيها «عمرو بن الحضرمي» فقتله المسلمون، وكان ذلك في أول يوم من رجب، فقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فنزلت الآية

هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ

* * *

الكفر ﴿فأولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدنيا والآخِرة﴾ فأولئك بطلت أعمالهم، وذهب ثوابها ﴿وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدونَ﴾ وهم مخلدون في جهنم، لا يخرجون منها أبداً ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدَّقوا بالله وبرسوله ﴿والذين هاجروا﴾ هجروا مساكنة المشركين، ومجاورتهم في ديارهم ﴿وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله﴾ قاتلوا وحاربوا الأعداء، نصرةً لدين الله ﴿أولئكَ يَرْجُونَ رحمةَ الله﴾ يطمعون بدخول جنته، بفضل رحمته ﴿والله غفورٌ رحيم﴾ ساترٌ لذنوب العباد، متفضلٌ عليهم بالرحمة.

﴿يَسْألُونَكَ عن الخَمر والمَيْسر﴾ يسألك أصحابك يا محمد عن الخمر وشربها، وعن القمار ﴿قُلْ فيهما إثْمٌ كبيرٌ﴾ قل لهم: فيهما إثم كبير، بزوال عقل شارب الخمر، وذلك أعظم الآثام، وبما في الميسر من الشغل به عن ذكر الله، وعن الصلاة، ووقوع العداوة والبغضاء بين المتقامرين بسببه ﴿ومَنافعُ للنَّاس﴾ أما منافع الخمر فأثمانها قبل تحريمها، وما يجدون بشربها من اللذة[1]، كما قال حسان:

ونَشْـرَبُهـا فتتْـرُكُنـا مُلُوكـاً ... وأُسْـداً لا يُنَهْنِهُنَـا اللِّقـاءُ

وأما منافع الميسر، فما يصيبون من أنصباء الجزور ﴿وإثْمُهما أكبرُ منْ نَفْعِهمَـا﴾ إثمُ الخمر والقمار، أعظم وأكبر مضرة من النفع المذكور، وذلك لأنهم كانوا إذا سكروا، وثَبَ بعضهم على بعض، وقاتل بعضهم بعضاً، وإذا قامروا وقع بينهم الشر. وهذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ﴿ويَسْألونَكَ مَاذَا يُنْفِقُـونَ﴾ ويسألونك أي شيءٍ ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ ﴿قُلِ العَفْوَ﴾ قل لهم: أنفقوا منها العفو، وهو ما فضل عن حاجتكم ونفقة أهلكم ﴿كذلك يبيّنُ الله لكم الآياتِ﴾ كما بَيَّنْتُ لكم الأدلة على وحدانيتي، أُبيِّنُ لكم حدودي وفرائضي، وسائر ما أنزلته على نبيِّي محمد ﷺ ﴿لعلكـم تتفكرونَ. في الدنيا والآخرة﴾ لتتفكروا في وعدي ووعيدي، وثوابي وعقابي، وتختاروا الباقية على الفانية، قال ابن جريج: لتعلموا أن الدنيا دار بلاء ثم فناء، والآخرة دار جزاء ثم بقاء، فتعملوا للباقية منها.

﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ﴾ ويسألونك يا محمد عن مال اليتامى، ومخالطتهم[2] في

---

(١) نبَّه الإمام ابن جرير إلى أن ما ذُكر في الآية من منافع الخمر، إنما هي «منافعُ ماديَّةٌ» لأنهم كانوا يتجارون بالخمور، فيربحون من ورائها الربح الفاحِش، ويتخْيل السكران أنه صار بطلاً، كما قال القائل: لا يَـلَذُّ السُّكْرُ حَـتَّـى ... يـأكـلَ الـسَّكـرانُ نَـعْـلَه

(٢) لما نزلت ﴿ولا تقربوا مال اليتيم..﴾ اعتزل الناس اليتامى، فلم يخالطوهم في مأكل ولا مشرب، ثم نزلت الرخصة ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين..﴾ الآية، فكان ذلك تيسيراً من الله تعالى على عباده

ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ

* * *

أموالهم، فقل لهم: تفضُّلكم عليهم بإصلاح أموالهم خيرٌ لكم عند الله، وأعظم أجراً ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإن خلطتم طعامكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم، وأموالكم بأموالهم، فهم إخوانكم في الدين، والإخوانُ يُعِينُ بعضُهم بعضاً، فعليكم النظر لأموالهم، نظرَ الأخِ الشفيقِ لأخيه ﴿والله يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ يعلم من خالط منكم يتيمه، ماذا يقصد بمخالطته إياه، أفسادَ ماله وأكلَه بالباطل؟ أم إصلاحه وتثميره؟ ﴿ولو شَاءَ الله لأَعْنَتَكُمْ﴾ لشقَّ عليكم وضيَّق عليكم، ولكنَّه وسَّع ويسَّر، رحمةً ورأفةً بكم ﴿إنَّ الله عَزيزٌ حكيمٌ﴾ عزيزٌ في سلطانه، حكيمٌ في تدبيره.

﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حتَّى يُؤْمِنَّ﴾ ولا تنكحوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركات الوثنيات، اللاتي ليس لهن كتابٌ، حتى يصدِّقن بالله ورسوله، وما أنزل عليه[1] ﴿وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خيرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ولو أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولأن تنكحوا أَمَةً مؤمنةً بالله ورسوله، خيرٌ عند الله وأفضلُ، من حرة مشركة كافرة، وإن أعجبتكم المشركة في الجمال، والحسب، والمال ﴿وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا ـ أيها المؤمنون ـ مسلمةً لمشرك، كائناً من كان، حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ولو أَعْجَبَكُمْ﴾ ولأن تُزَوجوهنَّ من عبدٍ مؤمنٍ، مصدِّق بالله وبرسوله، خيرٌ لكم من أن تُزَوجوهنَّ من حرٍّ مشرك، وإن أعجبكم حَسَبُه ونسبُه ﴿أولئك يدعون إلى النَّار﴾ هؤلاء الذين حرمتُ عليكم مناكحتهم، من المشركين والمشركات، يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار ﴿والله يَدْعُوا إلى الجنَّةِ والمغفرةِ بإذنه﴾ والله يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، وإلى ما يمحو به خطاياكم، بتوفيقه وتيسيره ﴿وَيُبَيِّنُ آياتِهِ للنَّاس﴾ ويوضّح أدلته وحججه في كتابه لعباده ﴿لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾ ليتذكَّروا فيعتبروا، ويميِّزوا بين ما يدعو إلى النار، وما يدعو إلى الجنة والغُفْران.

﴿ويسألونك عن المحيض﴾ ويسألك أصحابك عن الحيض[2] ﴿قُلْ هو أذًى﴾ قل لهم: إنه يؤذي لنتن

---

(١) قال الطبري: لا يدخل في الآية نساء أهل الكتاب، لأن الله تعالى أحل نكاحهن بقوله ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وإنما كره عمر لطلحة وحذيفة نكاح اليهودية والنصرانية، حذاراً من أن يقتدي الناس بهما في ذلك، فيزهدوا في المسلمات.

(٢) إنما سألوا رسول الله ﷺ عن الحيض، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا حاضت المرأة، لم يساكنوها، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، فبين تعالى لهم أن عليهم في أيام الحيض، أن يجتنبوا جماعهنَّ فقط، دون المضاجعة والمؤاكلة والمشاربة

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ
فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ
عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

* * *

ريحه، وقَذَره، ونجاسته ﴿فاعتَزلوا النِّساءَ في المحيض﴾ اجتنبوا جماعهنَّ في أيام حيضهنَّ ﴿ولا تقربوهنَّ حتَّى يَطْهُرنَ﴾ ولا تجامعوهنَّ حتى يطهرن من حيضهنَّ، ويغتسلن ﴿فإذا تَطَهَّرْنَ﴾ فإذا اغتسلن فتطهَّرن بالماء ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمركُمُ الله﴾ فأتوهنَّ في فروجهن، من الوجه الذي أذن الله لكم بإتيانهنَّ، وذلك حال طهرهنَّ لا في حيضهنَّ ﴿إنَّ الله يحبُّ التوابينَ ويُحب المتطهرينَ﴾ يحبُّ المنيبين إلى طاعته، والمتطهرين من الجنابة والأحداث ﴿نِساؤُكُم حَرْثٌ لكُمْ﴾ نساؤكم مزدرع- أي مزرعة- أولادكم ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئتُمْ﴾ فجامعوا النساء كيف شئتم، ومن حيث شئتم، من وجوه المأتى، بعد أن يكون في الفرج، قال ابن عباس: «ائتها أنَّى شئتَ، مُقْبلةً، ومُدْبرةً، ما لم تأتها في الدُّبُر، والمحيض»[1]. والآية نصٌ على حرمة إتيان النساء في الأدبار، لأن الدبر لا يصلح للحرث، فأي محترث فيه؟[2] ﴿وقدِّموا لأنفسكم﴾ صالح الأعمال ليوم المعاد ﴿واتَّقوا الله﴾ في حدوده أن تضيِّعوها، وفي معاصيه أن تقربوها ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ في معادكم، فمجازيكم بأعمالكم ﴿وبَشِّرِ المؤمنين﴾ بالفوز يوم القيامة، وبالخلود في الجنة.

﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأيْمانِكم﴾ لا تجعلوا الحلف بالله، حجةً لكم في ترك فعل الخير ﴿أنْ تَبَرُّوا وتتَّقُوا وتُصْلِحُوا بينَ النَّاسِ﴾ أن تَبَرُّوا بفعل الخير، وتتقوا ربكم، وتصلحوا بين الناس بالمعروف، وذلك إذا سُئل أحدكم الشيء من الخير قال: قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله، فيعتلُ في تركه فعلَ الخير، والإصلاح بين الناس، بالحلف بالله ﴿والله سَميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لأقوال العباد، عليمٌ بما يقصدون ويبتغون، وهذا من الله تهدُّدٌ ووعيد ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ الله باللَّغْوِ في أيْمانِكُمْ﴾ لا يؤاخذكم الله بما سبق على ألسنتكم من الأيمان، إذا لم تقصدوا الحلف واليمين، كقول الرجل: لا والله، وبلى والله[3] ﴿وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُم بما كَسَبتْ قلوبكُم﴾ ولكنْ يؤاخذكم بما قصدتم وعزمتم عليه من الأيمان، كالحلف على الإثم والكذب ﴿والله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ والله واسع المغفرة، حليمٌ لا يعاجل عباده بالعقوبة.

(١) عن جابر أن اليهود كانوا يقولون: إذا جامع الرجل أهله في فرجها من ورائها، جاء الولد أحول فأنزل الله﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾أقول: المراد بقوله وأنى شئتم، كيف شئتم ومن أي وجه أحببتم، بعد أن يكون في موضع النسل والذرية، وموضع الزرع إنما هو القبل لا الدبر.

(٢) رحم الله الإمام ابن جرير، فقد كان صريحاً واضحاً في تفسيره لقوله تعالى ﴿أنَّى شئتم﴾!! أي كيف شئتم، قائمة أو قاعدة أو مضطجعة، لكنْ لا بدَّ أن يكون في الفرج فهو مكان الزرع لا غير، خلافاً لما يفهمه بعض الجهلاء أن المعنى من أين شئتم

(٣) هذا قول عائشة وابن عباس، وقال مجاهد والحسن: هو أن يحلف على الشيء يعتقد أنه كما حلف عليه فلا يكون كذلك، كقوله: «والله إن هذا البيت لفلان» وليس له» وإن هذا الثوب لفلان» وليس له، فليس فيه كفارة.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ
ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

* * *

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ للذين يحلفون على اعتزال نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ فإن رجعوا عن ترك ما حلفوا عليه، من ترك جماعهنَّ ﴿فَإِنَّ الله غَفورٌ رَحيمٌ﴾ يغفر ما سلف منهم من اليمين، رحيمٌ بعباده المؤمنين ﴿وإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ﴾ وإن صمَّموا على ترك معاشرتهن، فطلّقوهُنَّ[1] ﴿فإنَّ الله سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لطلاقهم إياهنَّ، عليمٌ بما أتوا إليهنَّ ﴿والمُطلَّقاتُ يَتَربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ النساء اللواتي طُلِّقن- إذا كنَّ من ذوات الحيض- عليهنَّ الانتظار عن نكاح الأزواج ثلاثة أطهار، فإذا انقضين فقد انقضت عدتهن ﴿ولا يَحِل لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ الله في أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يحلُّ للمطلقات أن يُخْفين ما في أرحامهنَّ، من الحيض والحَبَل، بقصد إبطال حقوق أزواجهنَّ، من الرجعة عليهنَّ ﴿إنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بالله واليوم الآخر﴾ إن كنَّ مسلماتٍ حقاً، يُصَدِّقن بالله واليوم الآخر، فإن كتمان ما في رحمها من الحيض والولد، ليس من فعل من يؤمن بالله واليوم الآخر، وإنما هو من فعل النساء الكوافر ﴿وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلكَ﴾ وأزواج المطلقات، أحقُّ وأولى بردهنَّ إلى أنفسهم، حال العِدَّة وأيام الحبَل ﴿إنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾ إن كان الزوج يريد بالرجعة إصلاح أمرها وأمره ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بالْمَعروفِ﴾ ولهنَّ من حسن الصحبة والعُشرة بالمعروف، مثلُ ما عليهن من الطاعة لأزواجهن، قال ابن عباس: إني أحب أن أتزين لامرأتي، كما أحبُّ أن تتزين لي، لأن الله تعالى يقول: ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف﴾[2] ﴿وَلِلرِّجال عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وللرجال على النساء منزلةٌ ورتبةٌ، بالإمرة والطاعة ﴿والله عزيزٌ حكيمٌ﴾ عزيز في انتقامه ممن تعدَّى حدوده، حكيم فيما قضى من أحكامه ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾ الطَّلاقُ الذي فيه الرجعةُ مرتان ﴿فإمْسَاكٌ بمَعْروفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ﴾ فإمَّا أن يمسكها بالمعروف، فيحسن صحبتها، أو يفارقها ويُسرحها، ولا يظلمها من حقها شيئاً ﴿ولا يَحلّ لكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتيتموهُنَّ شَيْئاً﴾ ولا يحل لكم-

---

(١) الإيلاء: أن يحلف الرجل على ترك وطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، وقد اختلف العلماء في المدة التي تبين فيها المرأة من زوجها، فقال ابن عباس: إذا مضت أربعة أشهر قبل أن يفيء بانت بطلقة، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقال الشافعي وأحمد: لا تطلق بمضي المدة وإنما يؤمر الرجل بالرجوع عن يمينه أو بالطلاق، فاذا امتنع طلقها الحاكم عليه، وهذا قول عمر وعلي، وهو اختيار الطبري. انظر تفصيل الموضوع في تفسيرنا آيات الأحكام ٣١٢/١.

(٢) في الآية إيجاز وإبداع فقد حذف من الأول بقرينة الثاني وفي الثاني بقرينة الأول والمعنى لهنَّ على الرجال من الحقوق، مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، فأوجز ذلك بهذه العبارة الرائعة، والدرجة التي للرجال على النساء، هي القوامة والمسئولية، فهي إذاً درجة تكليف لا تشريف، كقوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾

يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

* * *

أيها الرجال ـ أن تأخذوا شيئاً مما أعطيتموهنَّ من الصَّداق ـ المهر ـ ﴿إلاّ أنْ يَخَافَا ألاَّ يُقيما حُدُودَ الله﴾ إلاّ أن يخاف الزوجان في تفريط كل واحد منهما في حقِّ صاحبه، بإساءة الصحبةِ والعِشرة ﴿فإن خفتم ألاَّ يُقيما حـدودَ الله﴾ فإن خفتم ألا يقيما ما أوجب الله عليهما، من العِشرة بالمعروف، والصُّحبةِ بالجميل ﴿فلا جُنَاحَ عليهما فيما افْتَدَتْ بـهِ﴾ فلا حرج أن تفتدي نَفسها من زوجها، ولا حرج أن يأخذ العِوَض منها على فراقها ﴿تِلْكَ حدودُ الله فلا تعتـدوها﴾ هذه معالم الدين، مما أمر به ونهى عنه، فلا تتجاوزها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ من تخطَّى وتجاوز حدود الله، إلى ما حرَّم عليه ونهاه، فإنه هو الظالم الذي وضع الشيء في غير موضعه ﴿فَإنْ طلّقها فلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حتىَّ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ فإن طلَّقها ـ التطليقة الثالثة ـ فلا رجعة له عليها، حتى تتزوج غيره ويدخل بها[1]، لقوله ﷺ لامرأة رفاعة: «أتريدينَ أن تَرْجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوقي عُسَيْلته، ويذوقَ عُسَيْلَتكِ» ﴿فإنْ طَلَّقها﴾ فإن طلقها زوجها الثاني ﴿فلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يتراجعا﴾ فلا حرج على الأول أن يتزوجها ـ إذا طلَّقها الآخر أو مات عنها ـ بنكاح جديدٍ ﴿إنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ الله﴾ إن طمعا وَرَجَوْا أن ينفِّذا أوامر الله، من حسن المعاشرة بالمعروف، والصحبة بالجميل ﴿وتلكَ حـدودُ الله﴾ وهذه أحكامُ الله وأوامرُه ﴿يُبيّنها لِقوم يَعْلَمونَ﴾ يفصّلها لقوم يعرفون حكمة الله، ويصدِّقون بآياته ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم نساءكم، فبلغن ميقاتهنَّ، الذي وقَّته الله لهنَّ، من انقضاء الأقراء أو الأشهر ﴿فأَمْسِكوهُنَّ بمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بمعـروفٍ﴾ فراجعوهنَّ بما أذن الله لكم، من الرجعة، والصحبة، والعشرة بالمعروف، أو خلُّوهن يقضين عدتهن، مع إيفائهن حقوقهن من المهر، والمتعة، والنفقة ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ ولا تراجعوهن مضارَّةً لهنَّ، لتطوِّلوا عليهنَّ العدة، أو لتأخذوا منهن بعض ما آتيتموهنّ، فتظلموهن بمجاوزتكم حدودي. قال ابن عباس: كان الرجل يُطلِّق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها، يفعل ذلك يضارُّها ويعضلها فنزلت الآية ﴿ومَنْ يَفْعَلْ

(١) لا بدَّ بعد الطلاق الثالث أن تنكح المطلقة زوجاً آخر، نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه ثم يطلقها حتى تحلَّ لزوجها الأول، فمن تزوجها بقصد الإحلال كان زواجه «صورياً» غير صحيح، ولا تحل به المرأة للأول. وانظر ما كتبناه مفصلاً في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ج ٣٤٠/١.

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ

* * *

﴿ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يراجعها ضِرَاراً لها، فقد أكسب نفسه الإثم والعقوبة ﴿ولا تَتَّخِذُوا آيَاتِ الله هُزُواً﴾ ولا تتخذوا وحيه وتنزيله، استهزاءً ولعباً ﴿واذْكُروا نِعْمَةَ الله عليكم﴾ اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام ﴿وما أَنْزَلَ عليكم مِنَ الكتابِ والحكمةِ﴾ واذكروا ما أنزل عليكم من القرآن، والسنن التي سنَّها لكم الرسول ﷺ ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يعظكم بالقرآن، الذي أنزله عليكم ﴿واتقوا الله﴾ خافوا الله، بامتثالكم أوامره، واجتنابكم نواهيه ﴿واعْلَمُوا أَنَّ الله بكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾ عالم بكل أعمالكم، من خيرٍ وشر، وسرٍّ وجهر، وهو يجازيكم بالإحسان إحساناً، وبالسيء سيئاً ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم النساءَ، وانقضت عدتهنَّ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجهنَّ﴾ فلا تمنعوهن أن يرجعن إلى أزواجهن ﴿إذا تَرَاضَوْا بينهم بالمعروف﴾ إذا تراضى الأزواج والنساء، وأرادت المرأة أن ترجع إلى زوجها بنكاح جديد[١] ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ منكُمْ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ﴾ هذا الذي نهيتكم عنه موعظةٌ، لمن كان منكم يُصدِّق بالله، ويُقرّ بربوبيته، وبالبعث والجزاء ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لكم﴾ مراجعة أزواجهن لهنَّ بنكاح ومهرٍ جديد، أفضل وخيرٌ عند الله ﴿وَأَطْهَرُ﴾ وأطهر لقلوبكم وقلوبهنَّ من الريبة، فإنه إذا كان بينهما علاقة حبٍ، لم يُؤْمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحلَّه الله ﴿والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ يعلم من السرائر وخفيات الأمور، ما لا يعلمه بعضكم من بعض. نهى تعالى الأولياء عن عَضْل النساء، لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوبة من غلبة الهوَى، وميل كل منهما إلى صاحبه ﴿والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ النساء اللواتي طُلِّقن من أزواجهن ولهنَّ أولاد، يرضعن أولادهن سنتين كاملتين، ومعنى «يرضعن» أنهن أحقُّ برضاعهم من غيرهنَّ[٢] ﴿لمن أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ لمن أراد من الآباء والأمهات، أن يُتمَّ رضاع ولده

---

(١) أخرج البخاري عن معقل بن يسار أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب فقال له: يا لُكَع- أي يا لئيم- أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك».

(٢) ليس ذلك بإيجاب رضاعهم عليهن إذا كان الوالد موسراً، لقوله تعالى ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ وإنما هو لبيان المدة التي تستحق عليها-

لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

* * *

﴿وَعَلَى المَوْلُود لَهُ رِزْقُهنَّ وكِسْوتهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾ وعلى آباء الصبيان، رزقُ المرضعاتِ وكسوتهن، على قدر الميسرة «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَته» ﴿لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلاّ وُسْعَهَا﴾ لا تُحمَّل نفسٌ شيئاً يَضيق عليها ويُجْهدها ﴿لا تُضَارَّ وَالدَةٌ بوَلَدِهَا﴾ ليس للوالد أن يضارَّها، فينتزع الولد منها إذا رضيت بإرضاعه[1] ﴿ولَا مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ﴾ وليس لها أن تضارَّ الأب، فتقذف الولد إلى أبيه ضراراً. نهى تعالى كل واحد من أبويْ المولود بمضارة صاحبه، فإن ذلك حرامٌ عليهما﴿وَعَلى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ﴾ وعلى وارث الصبي إذا كان أبوه ميتاً، مثلُ الذي كان على أبيه في حياته من أجر رضاعه ونفقته، إذا لم يكن للمولود مالٌ ﴿فإنْ أَرادا فِصَالاً عَنْ تراضٍ منهما وتشاورٍ﴾ فإن أراد والد المولود ووالدته، فطامَ ولدهما من اللبن في الحولين، عن تشاور وتراضٍ فيما فيه مصلحة المولود ﴿فَلاَ جُنَاحَ عليهما﴾ فلا حرج عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أولادكُمْ﴾ وإن أردتم ـ أيها الآباء ـ أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير أمهاتهم، إذا أبين من رضاعهم ﴿فلا جُنَاحَ عليكم﴾ فلا حرج عليكم في ذلك﴿إذَا سَلَّمْتُم ما آتَيْتُمْ بالْمَعْرُوفِ﴾ إذا أعطيتم إلى أمهاتهم وإلى المرضعة[2]، حقوقهن التي أوجبها الله لهن عليكم، دون بخسٍ ولا ظلم ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ خافوا الله، واحذروا أن تخالفوا حدوده، فتستوجبوا عقوبته ﴿واعْلَموا أَنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ واعلموا أن الله مطَّلع عليكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم ﴿والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ الذين يموتون من الرجال ويتركون أزواجهم بعد الموت ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ على هؤلاء الزوجات أن يحتبسن بأنفسهن، ويمكثن معتداتٍ ـ حداداً على أزواجهن ـ عن الزواج، والطيب، والزينة أربعة أشهر وعشرة أيام، أمَّا الحوامل فإلى حين وضع الحمل ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت عدتهن ﴿فلا جُنَاحَ عليكُمْ فيما فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالْمَعْرُوفِ﴾ فلا حرج ولا إثم عليكم ـ أيها الأولياء في تركهن أن يتزوجنَ، ويتطيَّبْنَ، ويتزيَّن، ويفعلْنَ ما

ـ المطلقة أجرة الرضاع، فلا تستحقُّ أجراً على الرَّضاع أكثر من سنتين

(١) الأم أحق برضاع ولدها في الحولين، وليس للأب أن يسترضع له غيرها إذا رضيت أن ترضعه بأجرة المثل، لأن لبن الأم أصلح، وشفقتها على ولدها أكمل، ولا ينبغي للأم أن تمتنع عن إرضاعه إضراراً للأب، فإن ذلك حرام، لأن الطفل البريء سيكون هو الضحيَّة

(٢) قال السدي: إن قالت الأم «لا طاقة لي به فقد ذهب لبني» فليسلِّم لها أجرها بقدر ما أرضعت وليستأجر له أخرى، وقال سفيان: إذا سلمتم أجر المرضعة وقد جمع الشيخ الطبري بين القولين.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ

* * *

أباحه الله لهنَّ ﴿والله بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم ﴿ولا جُنَاحَ عليكم فيما عَرَّضتم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ لا ضيقَ ولا حرج عليكم ـ أيها الرجال في إبداء الرغبة بالتزوج من النساء المعتدَّات، بطريق التلميح لا التصريح[1] ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ في أَنْفُسِكُمْ﴾ أو أخفيتم وسترتم في أنفسكم، عزمكم على نكاحهن ﴿عَلِمَ الله أنكم ستذكرونهنَّ﴾ عَلِم الله أنكم ستذكرون المعتدات في أنفسكم، فأباح لكم التعريض بذلك ﴿ولكنْ لا تُوَاعِدُوهنَّ سِرّاً إلاَّ أنْ تقُولوا قولاً معروفاً﴾ لا تواعدوهنَّ الزنا وفعل الفاحشة[2]، ولكنْ قولوا قولاً معروفاً، وهو التعريض برغبتكم في نكاحهنَّ، دون التصريح، قال ابن عباس: لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألَّا تتزوَّجي غيري، وقال مجاهد: السرُّ هو قول الرجل للمرأة: «لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك» وهذا لا يحلُّ ﴿وَلَا تَعزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حتىً يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجلَهُ﴾ لا تُصحِّحوا وتُوجبوا عُقدة النكاح عليها، حتى تنقضي العِدَّة ﴿واعْلَموا أنَّ الله يَعْلَـمُ ما في أَنْفُسِكُمْ فاحْـذَروهُ﴾ احذروا أن تأتوا شيئاً مما نهاكم الله عنه ﴿واعلموا أن الله غفورٌ حليـمٌ﴾ «غفور» ستَّار للذنوب، «حليم» لا يعجِّل العقوبة ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ طَلَّقْتُـم النِّسَاءَ ما لم تَمَسُّوهُنَّ﴾[3] لا حرج عليكم إن طلقتم نساءكم قبل مجامعتهنَّ ﴿أو تَفْرِضُوا لهنَّ فَريضَةً﴾ أو توجبوا لهن صَداقاً ـ مهراً ـ واجباً ﴿وَمَتِّعُوهنَّ عَلى المُوسِعِ قَدَرُهُ وعلى المُقْترِ قَدَرُهُ﴾ أعطوهنَّ المُتعة من أموالكم، على قدر عُسْر الرجل ويُسْره، وعلى قدر غناه وفقره ﴿مَتَاعاً بالمَعْروفِ حَقّاً على المُحْسِنِينَ﴾ متعوهنَّ متاعاً بالمعروف، من غير ظلم ولا مدافعة، وهذا التمتيعُ حقٌّ على كل محسن، يسارع إلى طاعة الله، قال ابن عباس: إن كان موسراً متَّعها بخادم، وإن كان معسراً متَّعها بثلاثة أثواب ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَمَسُّـوهنَّ﴾ وإن طلقتم النساء من قبل الجماع ﴿وَقَدْ فَرضْتُمْ لَهُنَّ فَريضَةً﴾ وقد

---

(١) التعريض في النكاح كقول الرجل للمرأة: والله إنك لجميلة، وإنك لنافقة، وإنك الى خير إن شاء الله، وسيسوق الله لك خيراً ورزقاً، وأمثال ذلك، وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

(٢) رجح الطبري أن لفظة «السر» في الآية يراد بها الزنا، وما قاله ابن عباس أظهر، وذلك بأن يصرِّح لها برغبته الزواج بها

(٣) كنِّي بالمسِّ عن الجماع ﴿ما لم تمسوهنَّ﴾ والكناية به مشهورةٌ، ومنه ﴿لم يَمْسَسْني بشرٌ﴾ وفي هذه الكناية تعليم للعباد الأدب، في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به، قال ابن عباس: المسُّ: الجماعُ، ولكن الله حييٌّ يَكني.

أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ
أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم
مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

* * *

أوجبتم لهنَّ مهراً، وذكرتم لهن صَدَاقاً ﴿فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾ فلهن عليكم نصفُ الصَّداق ﴿إلَّا أنْ يَعْفُونَ﴾ إلا أن يصفحن لكم عنه تفضلاً منهن، إذا كنَّ بالغات رشيدات ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذي بيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أو يعفو الزوج[1] لها عن كامل المهر ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأن يعفو بعضكمُ عن بعض، أقربُ لكم إلى تقوى الله ﴿وَلاَ تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ولا تنسوا ـ أيها الناسُ ـ المودَّة، والإحسان، والجميلَ بينكم ﴿إنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها ﴿حَافِظُوا على الصَّلَواتِ والصَّلاَةِ الوسطى﴾ واظبوا على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، وعلى صلاة العصر، سميت وسطى لتوسطها الصلواتِ الخمس ﴿وقوموا لله قانتينَ﴾ وقوموا لله ـ في صلاتكم ـ مطيعين، خاشعين، ساكتين. **قال مجاهد**: كانوا يتكلمون في الصلاة، يأمر أحدهم أخاه بالحاجة، فنزلت الآية فقطعوا الكلام ﴿فَإنْ خِفْتُمْ فرِجَالاً أو رُكْبَاناً﴾ فإن خفتم من عدوكم في الحرب أن تصلُّوا قياماً، فصلُّوا مُشاةً على أرجلكم، أو ركباناً على ظهور دوابكم، وهذه صلاة الخوف ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ فإذا أمنتم من عدوكم وزال الخوف، فأقيموا صلاتكم كما علَّمكم الله، بالشكر له والثناء عليه ﴿والذين يُتَوفَّون منكم ويذرون أزواجاً﴾ الذين يُتوفون منكم ويتركون زوجاتهم ﴿وَصيَّةً لأزواجهم مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غَيرِ إخراجٍ﴾ كتب الله لأزواجهم عليكم ـ أيها المؤمنون ـ وصيةً، ألَّا تخرجوهن من منازل أزواجهن حولاً كاملاً. والآية منسوخة بأربعة أشهر وعشراً ﴿فإنْ خرجْنَ فلا جُنَاحَ عليكُمْ فيما فَعَلْنَ في أنْفُسهنَّ من مَعْروفٍ﴾ فإن خرجن من منازل أزواجهن قبل الحول، فلا حرج على أولياء الميت في خروجهن وتركهن الحداد على أزواجهن، ولا حرج في التزين، والتطيب لهن، لأن الحداد لم يكن فرضاً عليهن ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾ عزيزٌ في انتقامه، حكيم في تشريعه وأحكامه ﴿وللمطلقات متاعٌ بالمعروف﴾ لكل مطلقةٍ متعةٌ من ثياب وكسوة وغير ذلك مما يُستمتع به بالإحسان ﴿حقاً على المتقين﴾ ذلك حقٌ على الذين اتقوا ربهم،

(١) رجح الطبري أن المراد بالذي بيده عقدة النكاح الزوج وهو قول شريح وسعيد بن جبير، وقال الحسن ومجاهد وطاوس: هو ولي أمر المرأة إذا كانت صغيرة، فإذا أسقطت حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق جاز، ولعل هذا الرأي أرجح لأن الآية وردت لبيان سقوط نصف المهر عن كاهل الزوج والله أعلم.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ

* * *

في أمره، ونهيه، وحدوده ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لكم آياتِهِ﴾ كما عرَّفتكم أحكامي، وبيَّنت لكم الحق الواجب لبعضكم على بعض، كذلك أبيِّن لكم سائر الأحكام في آياتي المنزلة على نبيّ ﴿لعلكم تعقلـون﴾ لتعقلوا حدودي، وتعرفوا ما فيه صلاحكم في دينكم ودنياكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وهُمْ أُلوفٌ﴾ ألم تعلم يا محمد خبر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ مؤلفة ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ فراراً من الموت، قال الحسن: خرجوا فراراً من الطاعون، فأماتهم الله قبل آجالهم، ثم أحياهم إلى آجالهم ﴿فقَالَ لهمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فأماتهم الله ثم أحياهم[1] ﴿إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس﴾ ذو تفضلٍ ومنٍّ على خلقه ﴿ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أكثر الخلق لا يشكرون الله على نعمه، ويتخذون لهم آلهة من دونه ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ قاتلوا - أيها المؤمنون - من أجل دين الله أعداء دينكم، الصادِّين عن سبيل ربكم ﴿واعلموا أن الله سميعٌ عليم﴾ سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً﴾[2] من هذا الذي ينفق في سبيل الله، فيعينُ ضعيفاً، ويعطي مُقْتراً، ويتصدَّق على ذي الحاجة والفاقة، احتساباً لوجه الله؟ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ فيضاعف الله له الجزاء، على قرضه ونفقته، ما لا حدَّ له ولا نهاية ﴿واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقتِّر الرزق على من شاء، ويوسِّع على من شاء ﴿وإليه تُرْجعون﴾ إلى الله معادكم، فيجازيكم بأعمالكم ﴿ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل﴾ ألم تر يا محمد بقلبك، فتعلم بخبري إياك، إلى وجوه بني إسرائيل، وأشرافهم ورؤسائهم؟ ﴿من بعد موسى﴾ من بعد ما قُبض موسى فمات ﴿إذ قالوا لنبيٍّ لهم﴾ هو

---

(١) حث تعالى عباده في هذه الآية على الجهاد في سبيله، والصبر على قتال أعداء دينه، وبيَّن لهم أن الإماتة والإحياء بيده وحده، وأن الحذر لا يدفع القدر، فهؤلاء الذين خرجوا فراراً من الطاعون وكانوا كثرة كثيرة يزيدون على أربعين ألفاً ـ قد لاقوا حتفهم فماتوا، فالفرار من القتال، والتحصن بالحصون، والاختباء في المنازل لا ينفع شيئاً، كما لم ينفع الهاربين من الطاعون فرارهم من الأوطان.

(٢) لما نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟! قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده فقال: إني قد أقرضت ربي حائطي ـ بستاني ـ وكان فيه ستمائة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى البستان وأم الدحداح فيه مع عيالها، فناداها يا أم الدحداح! قالت لبيك! قال: اخرجي فقد أقرضت ربي حائطي، فقالت ربح البيع يا أبا الدحداح، ثم خرجت مع أولادها

لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ
أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ
وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ
سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم

* * *

«شمعون» وقيل: هو «يوشع بن نون» ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ في سبيل الله﴾ أرسل لنا أميراً على الجيش، نقاتلْ معه في سبيل الله أعداءنا ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إنْ كُتِب عليكُمُ القِتَالُ ألَّا تُقَاتِلُوا﴾ عَسَى إن فرض عليكم القتال، ألَّا تفوا بما تعدون به من الجهاد في سبيل الله!! ﴿قالوا وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل الله﴾ قالوا: أيُّ شيءٍ يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله عدونا وعدوَّ الله!؟ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيارِنَا وأَبْنَائِنَا﴾ بالقهر والغلبة ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ﴾ فلما فُرض عليهم قتالُ عدوهم ﴿تَوَلَّوْا إلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ أدبروا عن القتال، وضيَّعوا ما سألوا نبيَّهم من فرض الجهاد، إلا القليل وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿واللهُ عليمٌ بالظالمينَ﴾ عالمٌ بمن أخلف وعده، ونقض عهده. وهذا تقريعٌ لليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، في تكذيبهم رسول الله، ومخالفتهم أمر ربهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ الله قَدْ بَعَثَ لكُمْ طَالوتَ مَلِكاً﴾ قال لهم نبيهم: إن الله قد أعطاكم ما سألتم، وبعث لكم طالوت أميراً على الجيش ﴿قالوا أنَّى يكونُ لهُ المُلْكُ علينا﴾ كيف يكون له المُلْك علينا، وهو من سبط «بنيامين» ولا ملك فيهم ولا نبوَّة؟ قال قتادة: كان في بني إسرائيل سبطان: سبطُ نُبوَّة، وسبطُ مملكة، وكان سبط النبوة «لاوي» وسبطُ المملكة «يهوذا» فلما بُعث من غيرهما، أنكروا ذلك وعجبوا منه ﴿ونحنُ أحقُّ بالمُلْكِ منهُ﴾ لأنا من سبط «يهوذا» بن يعقوب ﴿ولم يُؤْتَ سَعَةً من المالِ﴾ ولم يُعط طالوت كثيراً من المال ﴿قَالَ إنَّ الله اصْطَفَاهُ عليكُمْ﴾ اختاره عليكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ﴾ بَسَط له في العلم والجسم، فآتاه من العلم فضلاً، ومن الجسم طولاً ﴿واللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ﴾ الملكُ بيد الله، يعطيه من يشاء من خلقه ﴿واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ واسع الفضل والعطاء، عليمٌ بمن هو أهلٌ لفضله ﴿وقَالَ لهم نَبيُّهم إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ إن علامة ملك طالوت ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أن يُردَّ عليكم التابوت الذي كنتُم تستنصرون به ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه ما تسكن إليه نفوسكم، من العلاقات التي تعرفونها ﴿وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هارونَ﴾ وفيه الشيء الباقي من تركة

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا
طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ

* * *

آل موسى وآل هارون، كعصا موسى، ونعليه، وبعض الألواح ﴿تَحْمِلُهُ الملائِكَةُ﴾ تحمله حتى تضعه في بيت طالوت ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ﴾ إن في مجيئكم بالتابوت تحمله الملائكة، لعلامة ودلالة لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مؤمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدِّقين لي فيما أقول ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طالوتُ بالجنودِ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فصدَّقوا عند ذلك نبيهم، وأقروا بأن الله قد بعثه عليهم، وأذعنوا له بذلك، فلما قطع ورحل بالجنود من بيت المقدس، وهم ثمانون ألف مقاتل ﴿قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بنَهَرٍ﴾ إنَّ الله مختبركم بنهر، ليعلم كيف طاعتكم له، قال ابن عباس: هو نهر بين فلسطين والأردن، عذبُ الماء طيِّبه ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ومَنْ لم يَطْعَمْهُ فإنَّهُ مِنِّي﴾ شكوا إليه العطش، فأخبرهم بأن الله مبتليهم بنهر، فمن شرب من مائه فليس من أهل ولايتي وطاعتي، ومن لم يذق ماء ذلك النهر، فإنه من أهل ولايتي وطاعتي ﴿إلاَّ مَن اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ إلَّا من شرب غُرْفة اغترفها بيده فإنه مني ﴿فَشَرِبُوا منه إلا قَلِيلاً منهُمْ﴾ فشرب عامتهم إلا القليل، فكان من شرب منه عطش، ومن اغترف غُرْفةً رَوِيَ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لمَّا جاوز النهر طالوت، والمؤمنون معه من جنده ﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لنا اليومَ بِجَالُوتَ وجُنُودِهِ﴾ لا قوة ولا قدرة لنا، على قتال جالوت وجنوده[1] ﴿قال الذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقوا الله﴾ قال الذين يستيقنون بلقاء الله، ويصدِّقون بالمرجع إليه ﴿كم من فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بِإِذْنِ الله﴾ كثيراً ما غلبت جماعة قليلة جماعةً كثيرة، بقضاء الله وقدره ﴿والله مع الصابرينَ﴾ والله مع الصابرين بالعون والنُّصرة ﴿ولَمَّا بَرَزُوا لجالوتَ وجنوده﴾ ولمَّا ظهر طالوت وجنودُه، لجالوت وجنوده ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أنزلْ علينا صبراً ﴿وثَبِّتْ أقْدامنا﴾ قوِّنا حتى لا ننهزم أمامهم ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ انصرنا على من جحدوا ألوهيتك، وعبدوا الأوثان ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ استجاب الله دعاءهم، فهزم طالوت وجنوده أصحاب جالوت، بقضاء الله وقَدَره ﴿وقَتَلَ داودُ جالوتَ﴾ قتل «داود» المؤمن، ذلك الجبار الكافر «جالوت» ﴿وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والْحِكْمَةَ﴾ أعطاه

(١) قال الطبري: وهذا يدل على أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت المؤمنون الذين لم يشربوا من النهر، والكافرون الذين شربوا منه الكثير، ثم وقع بينهم التمييز برؤية جالوت، فانخزل عنه أهل الشرك والنفاق، ومضى معه أهل البصيرة والإيمان، وهذا قول ابن عباس والسدي

مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾
تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم
مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ
ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ

* * *

السلطان والنبوّة ﴿وَعَلَّمَهُ مما يَشَاءُ﴾ وعلّمه صنعة الدروع[1] لقوله «وعلمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكُمْ» ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ﴾ لولا أنَّ الله يدفع بأهل الطاعة والإيمان، أهلَ الشرك والعصيان ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ لهلك أهل الأرض، وانتشر البغي والفساد ﴿وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ على الْعَالمينَ﴾ ذو تفضّلٍ ومَنٍّ على خلقه ﴿تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحقِّ﴾ هذه الآيات التي قصصناها عليك يا محمد، هي حججي على من جحد نعمتي، نتلوها عليك باليقين، بدون زيادةٍ ولا تحريف ﴿وإنَّكَ لمن المرسلينَ﴾ وإنك يا محمد لمرسلٌ حقاً من عندي، ومن ضمن رسلي الذين أقاموا أمري.

﴿تلك الرسلُ فَضَّلْنَا بعضَهم على بعضٍ﴾ هؤلاء الرسل الذين قصَّ الله قصصهم في هذه السورة، كموسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وداود وغيرهم، هؤلاء رسلي فضلت بعضهم على بعض ﴿مِنهُمْ مَنْ كَلَّمَ الله﴾ كموسى بن عمران ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بالكرامة، ورفعة المنزلة، كمحمد وإبراهيم﴿وَآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيم الْبيِّنَاتِ﴾ وأعطينا عيسى الحجج والمعجزات الدالة على نبوته، كإبراء الأعمى، والأبرص، وإحياء الموتى وغيرها ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾ وقوّيناه وأعنّاه بجبريل ﴿ولو شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَل الَّذِينَ مِنْ بعدهم﴾ ولو أراد الله ما اقتتل الناس من بعد الرسل ﴿مِنْ بَعْدِما جَاءَتْهُمُ الْبيِّنَاتُ﴾ من بعدما جاءهم من الآيات ما أبان لهم الحقَّ، وأوضح لهم السبيل ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمنهُمْ مَنْ آمنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ ولكنَّ الناس اختلفوا بعد ثبوت الحجة عليهم بوحدانية الله، ورسالة رسله، فكفر بعضهم وآمن بعضهم ﴿ولو شَاءَ الله ما اقْتَتَلُوا﴾ ولو أراد الله أن يحجزهم عن معصيته، لما اقتتلوا ولا اختلفوا ﴿ولكنَّ الله يَفْعَلُ ما يُريدُ﴾ يوفّق هذا لطاعتِه فيطيعه، ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا ممَّا رزقناكم﴾ تصدَّقوا من أموالكم، وأعطوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ﴾ من قبل مجيء يوم القيامة، الذي لا ينفع فيه صدقةٌ ولا نفقة، لأنه يوم ثواب وعقاب، لا يوم عملٍ واكتساب ﴿ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ﴾ ولا تنفع فيه الكافر صداقةٌ ولا شفاعة، حُرم الكفارُ النصرة

---

(١) هكذا فسّرها ابن جرير، وقال غيره علّمه ممّا يشاء، ومن العلم النافع الذي أفاضه عليه، وهذا القول أظهر والله أعلم.

وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾
لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

* * *

من الأخلاء، والشفاعةَ من الأولياء، وحرمانُ الشفاعة خاصٌ بأهل الكفر بدليل قوله **﴿والكافرونَ هُمُ الظالمونَ﴾**[1] أي والمكذبون بالله وبرسله، هم الظالمون لأنفسهم.

﴿اللهُ لا إلَهَ إلاَّ هو الحيُّ القَيُّومُ﴾ اللهُ الذي لا معبود سواه، هو الباقي الدائم الذي لا يموت، القيوم أي القائم برزق ما خلق وحفظه، يكلؤه ويحفظه **﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾** لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم ثقيلٌ[2] **﴿لَهُ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾** هو المالك لجميع ما في السموات والأرض، الكلُّ ملكُه وخلقُه، فلا ينبغي أن يُعبد غيرُه **﴿مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنِهِ﴾** لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الرحمن[3] **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ﴾** هو المحيط علماً بكل ما كان وما هو كائن، لا يخفى عليه شيءٌ **﴿ولا يُحيطونَ بشيءٍ من علمه إلا بما شَاءَ﴾** لا يعلم أحد سواه شيئاً، إلاَّ بما شاء هو أن يُعلِمه **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ﴾** أحاط كرسي الرحمن بالسموات والأرض، كما أحاط بهما علمُه[4] **﴿ولا يَؤُودُهُ حفظهُمَا﴾** ولا يَشقُّ عليه ولا يُثْقله حفظُ السموات والأرض **﴿وَهُوَ العَلِيُّ﴾** وهو ـ جلَّت عظمته ـ ذو العلوّ والارتفاع على خلقه **﴿العظيمُ﴾** ذو العظمة والسلطان، الذي كلُّ شيءٍ دونه، **قال ابن عباس**: الذي قد كمل في عظمته **﴿لا إكراهَ في الدِّين﴾** لا يُكره أحدٌ في دين الإسلام على الإسلام، والآيةُ خاصةٌ بأهل الكتاب وليست منسوخة، وأما عَبَدة الأوثان والمرتدون عن دين الإسلام، فلا تشملهم الآية والمعنى: لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حلَّ قبول الجزية منه **﴿قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الْغَيّ﴾** قد وضح الحقُّ من الباطل، واستبان الغيُّ من الرشاد **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ﴾** فمن يكفر بكل معبود من دون الله، من شيطانٍ، أو وثن، أو صنم، كائناً من كان، ويصدِّق بالله أنه إلّهه وربه ومعبوده **﴿فقد اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾** فقد تمسَّك

---

(١) قال عطاء: الحمد لله الذي قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومرادُه أنه لو قال ذلك، لهلك أكثر الناس

(٢) قال ابن عباس: السِّنةُ: النعاس، والنوم هو النوم المعروف الذي يستثقل به الجسم.

(٣) الآية ردٌّ على المشركين حيث اعتقدوا بشفاعة الأوثان ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

(٤) رجح ابن جرير أن المراد بالكرسي علمُ الله جل وعلا، وروى بذلك أثراً عن ابن عباس أنه قال: كرسيُّه: علمه.. والصحيح هو ما عليه السلف أننا نؤمن بالعرش والكرسي كما أخبر تعالى دون تأويل أو تعطيل ونترك معرفة الصفة والشكل والجوهر إلى علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية، فإن هذا أسلم والله أعلم، وفي الآية دليلٌ على أن العرش ليس في السَّماء فقط، بل هو محيطٌ بالسموات والأرض، وبالكرسي الذي أحاط بهما.

لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ

* * *

واعتصم بالإيمان، الذي هو أوثق ما تمسَّك به من طلب الخلاص لنفسه،من عذاب الله وعقابه[١] ﴿لا انْفِصَامَ لها﴾ لا انكسار لها ولا انقطاع ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لإقرار من شهد بوحدانية الله، عليم بإخلاصه ﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا﴾ نصيرُ المؤمنين، يتولاهم بعونه وتوفيقه ﴿يُخرجُهُمْ مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ﴾ يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿والَّذينَ كَفروا أَوْليَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ والجاحدون لوحدانية الله، أنصارهم الأصنامُ والأوثان، الذين عبدوهم من دون الرحمن ﴿يُخْرِجُونَهُمْ من النُّورِ إلى الظلماتِ﴾ يخرجونهم من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والطغيان ﴿أُولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خالدون﴾ هم أهل النار، يُخلَّدون فيها إلى غير غايةٍ ولا نهاية.

﴿أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذي حَاجَّ إبْرَاهيمَ في ربِّهِ﴾ هذا تعجيب من الله تعالى لرسوله كأنه يقول: هل رأيت مثل هذا أو كهذا؟ والمعنى ألم تر يا محمد بقلبك، إلى الذي خاصم إبراهيم وجادله في ربه؟ وهو «نمروذ بن كنعان» أول مَلِك جبار في الأرض ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾ لأن الله آتاه المُلْك ﴿إذ قال إبراهيمُ ربي الذي يُحْيي ويُميتُ﴾ حين قال له إبراهيم: ربي الذي بيده الحياةُ والموتُ، يحيي من يشاء، ويميتُ من يشاء ﴿قال أنا أحيي وأميتُ﴾ قال: أنا أفعل ذلك فأحيي وأُميت،قال مجاهد: أُتي برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، وقال: هذا أمتُّه، وهذا أحييتُه[٢] ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرقِ فأتِ بها من المغرب﴾ إن ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فأتِ بها من مغربها إن كنت صادقاً أنك إلَه!! ﴿فَبُهِتَ الذي كَفَرَ﴾ انقطع وبطلت حجته ﴿واللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظالمينَ﴾ لا يهديهم عند الخصومة إلى الحجة ﴿أو كالذي مرَّ على قريةٍ﴾ تعجيبٌ آخر للرسول ﷺ والمعنى هل رأيت يا محمد كالذي حاجَّ إبراهيم، أو كالذي مرَّ على قريةٍ؟! قال قتادة: القريةُ بيتُ المقدس، أتى عليه عزيرٌ بعدما خرَّبه«بختنصَّر» البابلي

(١) شبَّه المستمسك بالإيمان، بالمتمسك بعروة الشيء المتين، الذي لا ينقطع ولا ينكسر، أو بالحبل الوثيق المحكم، وهو من لطيف أنواع الاستعارة.

(٢) هذه سفاهة وحماقة من النمروذ ومغالطة كبيرة، فإن الإحياء والإماتة خلق الحياة في المعدوم وإخراجه إلى الوجود، لا العفو عن إنسان وإعدام إنسان

مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ

* * *

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية من أهلها وسكانها[١]، والعروش: الأبنية والبيوت ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف يحيي اللهُ هذه القرية بعد خرابها، وفناءِ أهلها؟ ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أراه الله قدرته على ذلك في نفسه، فأماته مائة سنة، ثم بعثه حياً بعد مماته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ كم مكثتَ ميتاً، قبل أن أبعثك؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال عُزَير: مكثتُ يوماً واحداً، أو بعض اليوم. قبض تعالى روحه أول النهار، ثم ردَّ إليه روحه آخر النهار بعد مائة عام، فلما سُئل نظر فرأى الشمس أوشكت على الغروب، فلذلك قال «أو بعضَ يومٍ» ﴿قَالَ بَلْ لبثتَ مائةَ عَام﴾ قال له ربه: بل مكثت ميتاً مائة عام ﴿فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرابكَ لم يَتَسنَّه﴾ لم يتغيَّر بطول المدة، وكان طعامه سلة تينٍ وعنب، وشرابُه قُلَّةُ ماءٍ ﴿وانظر إلى حِمَارِكَ﴾ وانظر إلى حمارك، الذي قد مات معك، كيف نُحييه بقدرتنا؟ ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيةً للنَّاس﴾ ولنجعلك حجةً على من جهل قدرتنا، وشكَّ في عظمتنا، أمتناك ثم أحييناك ﴿وانظر إلى العِظَامِ﴾ وانظر إلى عظامك وعظام حمارك، التي تراها ببصرك ﴿كيف نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾ كيف نركِّب بعضها على بعض، ثم نغطِّيها ونُلبسها اللحم ﴿فَلَمَّا تبيَّنَ لهُ قالَ أَعْلَمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ فلما اتَّضح له عياناً، ما كان مستنكراً من قدرة الله، وعظيم سلطانه، قال: أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قادر[٢]

﴿وإذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أرني كيفية إحيائك للأموات[٣]، قال ذلك من غير شكٍ في الله تعالى ولا في قدرته ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: أَوَلم تُصدِّق يا

---

(١) هكذا فسرها الطبري وفسرها غيره بأنها ساقطة جدرانها على سقفها ولعله أظهر والله أعلم.

(٢) لما استنكر إحياء القرية بعد أن تخربت، أراه الله تعالى في نفسه آية خارقة، كيف يجمع الله العظام المتفتة ويركب بعضها فوق بعض، ونظر إلى حماره فاذا هو قد بلي وتفككت أوصاله، فبعث الله ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، فركب بعضها فوق بعض وهو ينظر، فكانت آية باهرة.

(٣) لم يشك إبراهيم عليه السلام في قدرة الله تعالى، فلم يقل «هل تقدر على إحياء الموتى»؟ وإنما سأل عن الكيفية ﴿أرني كيف تحيي الموتى﴾ فأحب أن يرى بعينيه ما يعتقده بقلبه، وأن يرى ذلك نظراً بعد أن علمه خبراً، فليس الخبر كالمعاينة، وسبب هذا أنه عليه السلام أتى على دابة توزعتها البهائم والسباع، فقام ينظر متعجباً، ثم قال: ربِّ قد علمت أنك ستجمعها من بطون هذه السباع والوحوش، رب أرني كيف تحيي الموتى؟ فليس في الأمر شك إذاً، كما قد يفهم بعض البسطاء، وانما هو سؤال عن الكيفية، ولهذا دفع تلكَ الشبهةَ النبيُّ ﷺ بقوله: «نحنُ أحقُّ بالشَكِّ من إبراهِيمَ» ومراده أننا لم نشكَّ، فإبراهيم أولى وأحرى بعدم الشكِّ، فتنبَّه له فإنه دقيق.

يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ
وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ

* * *

إبراهيم بأني على ذلك قادرٌ؟ قال: بلى يا رب، ولكنْ سألتُك أن تريني ذلك، ليسكنَ ويهدأ قلبي باليقين، الذي أراه من قدرتك ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهنَّ إليكَ﴾ خذ أربعة طيور، فضمهُنَّ إليك، ثم قَطِّعهنَّ ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ فرِّقْهنَّ بعد تقطيعهنَّ أجزاءً، فاجعل على كل جبل قسماً وجزءاً ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ ثمَّ نادهنَّ: تعالَيْنَ بإذن الله، يجئن إليك مسرعات. قيل إنه أخذ ديكاً، وطاووساً، وغراباً، وحماماً، ثم ذبحها وخلط بين لحمها وعظمها وريشها، وجعل على كل جبلٍ جزءاً منها، ثم نادى: تعالَيْنَ بإذن الله، فجعلت الأجزاء تتطاير، وينضم كل جزء إلى الآخر، حتى جئن إليه طائرات مسرعات كما كنَّ ﴿واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ﴾ واعلم يا إبراهيم، أن الذي أحيا هذه الأطيار، وردَّ إليها الروح، عزيزٌ في بطشه، حكيم في أمره

﴿مَثَلُ الذينَ يُنْفِقونَ أموالَهُمْ في سبيلِ الله كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائةُ حبَّةٍ﴾ هذا مثلٌ للمجاهد الذي ينفق ماله في جهاد أعداء الله، يُضاعَفُ له أجرُه إلى سبعمائة ضعف، كحبة الحنطة إذا بُذرت أنبتت سبعمائة حبة ﴿واللهُ يُضاعِفُ لمن يَشاءُ﴾ على السبعمائة إلى ما شاء ﴿واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ يزيد من فضله لمن يشاء، عليمٌ بمن يستحق الزيادة ﴿الذين يُنفِقونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ﴾ ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وطلب ما عنده ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذى﴾ لا يُتبعون إنفاقهم بالامتنان، ولا بالإساءة ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ لهم ثوابهم وجزاؤهم عند الله ﴿ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ لا خوف عليهم من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءهم في الدنيا ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ﴾ قولٌ جميل، وسترٌ على الفقير، على سوء حالته ﴿خيرٌ من صَدَقةٍ يَتْبَعُها أَذًى﴾ خيرٌ عند الله، من صدقةٍ يتصدق عليه بها، ويؤذيه بسببها ﴿واللهُ غنيٌّ حليمٌ﴾ مستغنٍ عما يتصدقون به، لا يعجِّل العقوبة لمن يمنُّ بصدقته ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالْمَنِّ والأَذى﴾ لا تبطلوا أجور صدقاتكم، بالمنِّ والأذى ﴿كالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآء النَّاس﴾ كالمنافق الذي ينفق ماله لغير وجه الله، ليحمده الناس فيقولوا: هو سخيٌّ كريم ﴿ولا يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ ولا يُصدِّق بوحدانية الله، ولا بالبعث بعد

وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

* * *

الموت، ليجعل عمله طلب ثوابه ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليهِ تُرَابٌ﴾ فمثل هذا المرائي، كمثل حجارةٍ مُلْسٍ، عليها ترابٌ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ فأصاب هذه الحجارة المُلْس، مطرٌ شديد عظيم، فترك الصفوان صَلْداً[1]، لا تراب عليه، ولا شيء من نباتٍ ولا غيره، فكذلك هؤلاء المراءون، تذهب أعمالهم وتضمحل، كما يذهب المطر الغزير، بما على الصفوان من التراب، فلا يُبقي له أثراً ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ممَّا كَسَبوا﴾ لا يقدرون يوم القيامة، على ثواب شيءٍ من أعمالهم، لأنهم عملوها رئاء الناس، وطلب حمدهم ﴿واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافرين﴾ لا يوفقهم لإصابة الحق، بل يتركهم في ضلالهم يعمهون ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ يُنفِقونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ ينفقونها في طاعة الله، وطلب مرضاته ﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وتصديقاً ويقيناً بوعد الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ كمثل بستانٍ، بمكانٍ مرتفع من الأرض، وإنما وصفها بأنها بربوة، لأنها أحسن غرساً، وأزكى ثمراً ﴿أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ﴾ أصابها مطر شديدٌ عظيم القطر، فأعطت ثمرها ضعفين ﴿فإن لم يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فإن لم يصبها المطر الغزير، أصابها النَّدى، واللَّيِّنُ من المطر ﴿واللهُ بما تَعْملونَ بصيرٌ﴾ مطَّلع على أعمالكم، يعلم المنفق رئاء الناس، والمنفق ابتغاء مرضاة الله ﴿أَيودُّ أحدُكُمْ أَنْ تكونَ له جَنَّةٌ من نَخيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْري من تحتها الأَنْهارُ﴾ أيحب أحدكم أن يكون له بستانٌ وحديقة، فيها أشجار النخيل والعنب، تجري من تحت الجنة الأنهارُ ﴿له فيها من كُلِّ الثمراتِ﴾ له فيها من أنواع الثمار ﴿وَأَصابَهُ الكِبَرُ﴾ أدركته الشيخوخة ﴿وَلَهُ ذُرِّيةٌ ضعفاءُ﴾ وله أطفال صغار ﴿فأَصابها إعصارٌ فيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أصابها ريح شديدة مهلكة، فيها سموم فأحرقت جنته؟ ﴿كذلكَ يبيّنُ اللّهُ لكم الآياتِ﴾ كذلك يوضِّح الله لكم الحجج والبراهين ﴿لعلكم تتفكرونَ﴾ لتتفكروا بعقولكم في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وهذا المثل ضربه الله للمنفقين أموالهم رئاء الناس، من أجل حمد الناس وثنائهم، لا ابتغاء مرضاة الله، فإذا كان يوم القيامة

---

(١) الصَّلْد من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه ولا نبات، وهو من الأرض ما لا ينبت فيه شيء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

* * *

واحتاج أحدهم إلى نفقته، أطفأ الله نوره، وأحبط أجره، أحوجَ ما كان إلى عمله، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت، وكثر عياله وكبرت سنُّه، جاءت ريح فيها سموم، فأحرقت بستانه في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرتها ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا من طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، تصدَّقوا من أحسن وأجود ما عندكم وأنْفَسِه، من أموالكم التي اكتسبتموها من التجارة ﴿وَمِمَّا أخرجنا لكُمْ منَ الأرضِ﴾ وتصدَّقوا أيضاً من سائر أصناف النبات، والفاكهة، والثَّمر ﴿ولا تَيمَّموا الخبيثَ منه تُنْفقونَ﴾ ولا تقصدوا الرديء فتتصدقوا منه، ولكنْ تصدَّقوا من الطيِّب الجيد. قال علي: كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه - يقطعه - فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء فنزلت الآية ﴿ولستُم بآخذيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فيه﴾ لا تأخذون هذا الرديء في حقوقكم، إلا عن إغماضٍ منكم، وكراهةٍ لأخذه وتسامحٍ منكم، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنْفَسِه؟ ﴿واعلموا أنَّ اللهَ غنيٌّ حميدٌ﴾ غنيٌّ عن صدقاتكم، محمودٌ عند خلقه، بما بسط لهم من فضله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ويأْمُرُكم بالفَحْشَاءِ﴾ الشيطان يعدكم - أيها الناسُ - بالفقر إن تصدقتم، ويأمركم بمعاصي الله، وترك طاعته ﴿والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً﴾ والله يعدكم على صدقتكم، مغفرةً منه لذنوبكم، وسعة في أرزاقكم ﴿والله واسعٌ عليمٌ﴾ واسع الفضل، عليم بمن يستحق الإكرام ﴿يُؤْتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ﴾ يعطي الفهم والإصابة في القول والفعلِ، من يشاء من عباده[1] ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً كثيراً﴾ ومن يعط الفهم وإصابة الصواب، فقد أعطي خيراً كثيراً ﴿وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الألْبَابِ﴾ وما يتَّعظُ ويتذكَّر، إلا أصحابُ العقول ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ﴾ أيَّ صَدَقةٍ تصدقتم بها ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ وأيَّ نذرٍ نذرتموه، بقصد الخير ﴿فإنَّ اللهَ يَعْلَمهُ﴾ فجميع ذلك يعلمه الله، لا يغيب عنه منه شيء، وسيجازيكم عليه ﴿وما للظالمينَ من أنصارٍ﴾ وليس لِلظالمين من ينصرهم، من عقاب الله وبطشه

(١) قال ابن عباس: «الحكمة» القرآن، والفقهُ في القرآن، بمعرفة حلاله وحرامه، وأحكامه وأمثاله.
(٢) النذر ما أوجبه الإنسان على نفسه من صدقة وعمل تقرباً إلى الله.

إن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا
تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ
النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

* * *

﴿**إنْ تُبْدوا الصَّدَقات فنِعِمَّا هيَ**﴾ إن تظهروا الصدقات فنعم الشيءُ هي ﴿**وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم**﴾ وإن تستروها فلم تعلنوها، وتعطوها الفقراء في السرّ،فهو خيرلكم من إعلانها[1] فإن صدقة السرِّ أفضل ﴿**ويُكَفِّرُ عنكُم مِنْ سَيِّئاتِكُمْ**﴾ ويكفّر الله عنكم بصدقاتكم بعض الذنوب ﴿**والله بمَا تَعْملونَ خَبيرٌ**﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ﴿**لَيْس عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ ليس عليك يا محمد هداية المشركين ﴿**ولكنَّ الله يهدي من يشاءُ**﴾ ولكنَّ الله يرشد من يشاء من خلقه إلى الإسلام، فيوفقهم له ﴿**وما تنفقوا من خير فلأنفسكم**﴾ وأيَّ شيءٍ تنفقونه ابتغاء وجه الله، فثوابُه وأجرُه عائد عليكم ﴿**وما تُنْفِقُونَ إلا ابتغاء وجه اللهِ**﴾ لا ينبغي أن يكون إنفاقكم إلا طلباً لثواب الله ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا من خَيْرٍ يُوَفَّ إليكم**﴾ وما تتصدقوا به من مال، يؤدَّ إليكم وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿**وأنتم لا تُظْلَمون**﴾ لا تُنْقصونَ من أجور أعمالكم شيئاً ﴿**للفقراء الَّذينَ أُحْصِرُوا في سبيلِ اللهِ**﴾ سبيلُ الإنفاقِ للفقراء، الذين حُبسوا بسبب الجهاد، عن التصرف لطلب الرزق ﴿**لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأرضِ**﴾ لا يستطيعون تقلباً في الأرض، وسفراً في البلاد، ابتغاء المعاش وطلب المكاسب ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أغْنِياءَ مِنَ التَعَفُّفِ**﴾ يظنهم الجاهل أغنياء، من تعففهم عن المسألة ﴿**تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾ تعرفهم بعلامتهم وآثارهم من التخشع، والجهد، وآثار الضر ﴿**لا يَسْألونَ النَّاسَ إلْحَافاً**﴾ لا يسألون الناس إلحاحاً لعفَّتهم ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْر فإنَّ اللهَ بِهِ عَليمٌ**﴾ وما تتصدقوا به من المال، فإن الله يعلمه، وسيجازيكم عليه ﴿**الذينَ يُنفقونَ أمْوالَهُمْ بالليْلِ والنَّهار**﴾ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، بالليل والنهار، من غير سرَفٍ ولا تقتير، ولا فسادٍ ولا تبذير ﴿**سِرّاً وَعَلَانِيَةً**﴾ خفيةً وجهراً، يقصدون وجه الله ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبهِمْ**﴾ لهم ثوابهم وجزاؤ هم عند ربهم ﴿**ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزنُونَ**﴾ لا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا في الدنيا.

---

(١) قال الحكماء: إذا اصطنعتَ المعروف فاستُرْه، وإذا اصطُنِعَ إليك فانشره، وأنشدوا:

يُخفي صَنائعه واللهُ يُظهِرُها إنَّ الجميلَ إذا أَخفيتَه ظَهَرَا

ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

* * *

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الذين يتعاملون بالربا، أخذاً، وعطاءً، وأكلاً، وليس المقصود في الآية الأكل فحسب، وإنما وردت تقبيحاً للحال التي هم عليها في مطاعمهم، وتعظيماً لأمر الربا[1] ﴿لا يَقُومُونَ إلاَّ كما يقومُ الذي يتخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ من المَسِّ﴾ لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، إلا كقيام المصروع الذي يخنقه الشيطان[2] فيصرعه من الجنون ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ذلك الجزاء بسبب أنهم كانوا يكذبون ويفترون ويقولون: الربا مثلُ البيع، فلماذا يكون حراماً؟ ﴿وأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أحلَّ الله الربحَ في التجارة، والبيعِ والشراءِ، وحرَّم الزيادة بسبب الأجل، وتأخير الدين ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ من رَبِّهِ فانْتَهى﴾ فمن جاءه تذكيرٌ وتخويفٌ من ربه، فانزجر عن أكل الربا وارتدع ﴿فَلَهُ ما سَلَفَ﴾ فله ما مضى، قبل مجيء التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إلى اللهِ﴾ أمرُ آكل الربا إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ومن عاد لأكل الربا، بعد التحريم ﴿فأولئكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فيهَا خالدونَ﴾ فأولئك أهل النار، ماكثون فيها أبداً ﴿يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾ يُنقص اللهُ الربا فيُذهبه[3]، ويُضاعف أجر الصدقات وينمّيها ﴿وَاللهُ لا يُحبُّ كلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ والله لا يحب المصرَّ على الكفر، المتمادي في الإثم، الذي لا يتَّعظ ولا يرعوي ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أدَّوها بأركانها وسننها ﴿وآتوا الزكاة﴾ أعطوا الزكاة المفروضة في أموالهم ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ لهم ثواب أعمالهم في معادهم ﴿ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ لا خوفٌ عليهم من العقاب، ولا هم يحزنون على ما تركوا في الدنيا.

(١) يكفي أن نعلم عظم هذه الجريمة المنكرة، من تصوير حال المرابين بذلك التصوير الفظيع الشنيع، الذي صوَّرهم به القرآن، صورة الشخص المصروع المخبول، الذي يتخبطه الشيطان من المسّ أي الجنون، فهو يتخبط ويهذي كالمجنون الذي أصيب في عقله وجسمه، ولكن أهل الفتنة في زماننا، يحاولون أن يهوِّنوا على الناس أمر الربا، وقد عظمه الله وقبحه، وآذن المتعاملين به بحرب من الله ورسوله، ومن أظلم ممن يهوِّن على الإنسان حرب ربه؟ بتحليل ما حرم الله من بعض وجوه الربا، إرضاءً لأهواء الحاكمين؟ فاللهم اهدنا ولا تفتنا كما فتنت رجالاً قبلنا، وثبتنا على دينك الحق يا رب العالمين.

(٢) انظر حكمة التشريع في كتابنا تفسير آيات الأحكام ١ / ٣٩٤

(٣) محق الربا إمَّا بإذهابه بالكلية، أو بحرمانه بركة ماله، وفي الحديث «الربا وإن كثُرَ فإلى قُلٍّ» بخلاف الصدقات، فإن الله يباركها وينميها، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد يوم القيامة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ
وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾

* * *

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ خافوا الله على أنفسكم، بطاعته، واجتناب معاصيه **﴿وذَرُوا ما بَقِيَ منَ الرِّبَا﴾** واتركوا ما بقي لكم، من زيادة على رءوس أموالكم **﴿إنْ كنتم مؤمنين﴾** إن كنتم محققين إيمانكم، قولاً وفعلاً. **قال الضحاك**: كان رباً يتبايعون به في الجاهلية، فلما أسلموا أُمِروا أن يأخذوا رءوس أموالهم **﴿فإن لم تفعلوا﴾** فإن لم تتركوا الربا **﴿فَأْذَنُوا بحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسولِهِ﴾** فكونوا على علمٍ ويقين، من حرب الله ورسوله لكم[1] **﴿وإن تُبْتُم فلكُمْ رُءُوسُ أَمْوالِكُمْ﴾** وإن أنبتم إلى الله، وتركتم أكل الربا، فلكم رءوس أموالكم، دون الزيادة. **﴿لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمونَ﴾** لا تَظْلِمون غيركم بأخذ الزيادة على أموالكم، ولا تُظْلَمون أنتم بأخذكم رءوس أموالكم فقط[2] **﴿وإنْ كَانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ﴾** وإن كان المستدين معسراً، فعليكم أن تُنظروه إلى ميْسَرة، أي إلى وقت الغنى واليسار **﴿وأَنْ تَصدَّقُوا خيرٌ لكم إن كُنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾** وأن تتصدقوا على هذا المعسر برءوس أموالكم، خيرٌ لكم من أن تُنْظروه، لتقبضوا منه أموالكم، إن كنتم تعلمون فضل الصدقة، وثواب من وضع عن غريمه المعسر دَيْنه **﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجعون فيه إلى اللهِ﴾** احذروا يوماً رهيباً، تلقون فيه ربكم **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾** ثُمَّ تنال كل نفسٍ جزاءها العادل، وما قدمت من سيءٍ وصالح، لأنه يوم مجازاةٍ بالأعمال **﴿وهم لا يُظْلَمون﴾** لا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً، وكيف يُظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟ وهذه آخر آية نزلت من القرآن[3].

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا اللهَ ورسوله **﴿إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾** إذا تبايعتم أو اشتريتم أو تعاطيتم بديْن **﴿إلى أجل مسمًّى فاكتبوه﴾** إلى وقتٍ معلوم، فاكتبوا ذلك الدَّيْن، بيعاً كان أو قرضاً

---

(١) أيُّ مسلم يسمع مثل هذا الوعيد ثم يتعامل بالربا؟ فالويلُ كل الويل لمن سمع هذه الآية ولم يتب من ذنبه، ويكفّ عن التعامل بهذه الجريمة الشنيعة، فالربا والإيمان نقيضان لا يجتمعان

(٢) قال ابن زيد: لا تأخذون باطلاً لا يحل لكم، ولا تُنْقَصُونَ من أموالكم.

(٣) هذه الآية آخر ما نزل من القرآن كما قال الجمهور، ثم انقطع الوحي وعاش بعدها النبي ﷺ تسع ليالٍ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وفيها تذكير للناس بالوقفة الرهيبة، بين يدي أحكم الحاكمين ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾

كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ

* * *

﴿وَلْيَكْتُبْ بينكم كَاتِبٌ بالعَدْلِ﴾ وليكتب الدَّيْن بينكم، كاتبٌ، بالحق والإنصاف **﴿ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾** ولا يمتنعْ من استُكتب أن يكتب الدين، كما عَلَّمه الله كتابته، وخصَّه بذلك **﴿فَلْيَكتبْ﴾** فليكتبْ الكاتب ذلك الدين، وهو أمرٌ للفرض، وقيل: للندب والإرشاد **﴿وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ﴾** ليتولَّ المدين إملاء ما عليه من الدين على الكاتب **﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾** وليحذر عقاب الله، أن يُنقصه من حقه شيئاً **﴿ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾** ولا يُنقِصْ من حقّ الدائن شيئاً **﴿فإن كان الذي عليه الحقُّ سفيهاً﴾** فإن كان المدينُ جاهلاً بالإملاء، ومواضع الصواب **﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾** أو عاجزاً عن الإملاء لعيّ لسانه، أو خرسٍ به **﴿أو لا يستطيع أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾** أو لا يستطيع الإملاء، لكونه محبوساً أو لغيْبته **﴿فَلْيُمْلِلْ وليُّه بالعَدْلِ﴾** فليمْلِ على الكاتب، وليُّ السفيه والضعيف بالحقّ **﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾** استشهدوا على حقوقكم[1]، شاهدين من المسلمين الأحرار **﴿فإنْ لم يكونَا رَجُلين فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَونَ من الشُّهداءِ﴾** فإن لم يكن الشهود رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان على ذلك، من العدول المرتضى دينهُم وصلاحُهم **﴿أَنْ تَضِلَّ إحداهُمَا﴾** كي إن ضلَّت إحداهما[2] **﴿فَتُذَكِّرَ إحداهما الأُخْرى﴾** ذكَّرتها الأخرى **﴿ولا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾** ولا يمتنع الشهداء عن الشهادة، إذا دُعوا لإقامتها، وأدائها عند الحاكم **﴿ولا تَسْأَموا أَنْ تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾** ولا تملُّوا أن تكتبوا قليل الحق، أو كثيره، إلى أجله المحدَّد، فإن الكتابة أحصى للأجل والمال **﴿ذلكم أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾** اكتتابُ الدَّيْن، أعدل عند الله **﴿وأَقْومُ للشَّهَادَةِ﴾** وأصوبُ لشهادة الشهود، لأنه يحوي إقرار البائع والمشتري، والدائن والمستدين، فلا يقع بين الشهود اختلاف في الشهادة **﴿وأدنىَ ألَّا ترتابوا﴾** وأقرب ألَّا تشكُّوا في الشهادة، إذا كان ذلك مكتوباً **﴿إلَّا أَنْ تكونَ تِجَارةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بينكم﴾** إلا إذا كان البيعُ بالنقود الحاضرة، يداً بيد، بدون

---

(١) انظر كيف أن الباري جل وعلا يعلمنا الكتابة في المعاملات، والنظام في شئون الحياة، ليحل الوئام مكان الخصام، والوفاق مكان الشقاق، فالإسلام ليس دين عبادة فحسب، بل هو دين نظام شامل للحياة، دين عبادة، وأخلاق، واقتصاد، وسياسة، ونظام، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

(٢) ويصح أن يكون المعنى لئلا تنسى إحداهما، أو خشية أن تنسى.

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

* * *

أجلٍ ولا تأخير ﴿فليس عليكم جُنَاحٌ أَلَّا تكتُبُوهَا﴾ فلا حرج عليكم ألا تكتبوها، لأن كل واحد يقبض ما وجب له قبل المفارقة، فلا حاجة إلى كتابة ذلك ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أشهدوا على كل مبيع ومشترى، لئلا تضيع الحقوق ﴿ولا يُضَارَّ كاتِبٌ ولا شَهِيدٌ﴾ لا تُلحقوا الضرر بالكاتب والشاهد، بأن يأبى الرجل على الكاتب، إلا أن يكتب له وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على الشاهد إلا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ، قال مجاهد: لا يأت الرجل فيقول :انطلقْ فاكتبْ لي، واشْهَدْ لي، فيقول: إن لي حاجة وأنا في شُغل، فالتمسْ غيري، فيقول: اتق الله، فإنك قد أُمرت أن تكتب لي، فهذه المضارَّة، فأمره تعالى أن يطلب غيرهما ولا يضارهما ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وإن تُضارُّوا الكاتب، أو الشاهد، فقد عصيتم ربكم وأثمتم، وخرجتم عن طاعته ﴿واتَّقُواالله﴾خافوا الله، في حدوده أن تُضيّعوها ﴿ويُعَلِّمكُمُ اللهُ﴾(١) أمور دينكم، ما يجب لكم وعليكم ﴿واللهُ بكل شيءٍ عليمٌ﴾ والله عالم بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها ﴿وإنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولم تَجِدُوا كَاتِباً فرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ إذا كنتم مسافرين، ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم أمر الدين، فارتهنوا بديونكم رهوناً تقبضونها، لتكون ثقةً لكم بأموالكم ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ فإن ائْتمنَ بعضكم بعضاً، فلم يأخذ منه رهناً، لثقتهِ به ﴿فَلْيُوَدِّ الذي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ فليدفعْ المَدِينُ دَيْنَه، الذي ائتمنه عليه، وليخفْ الله ربه أن يجحده حقه، فيتعرض لعقوبة الله ﴿ولا تكتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ ولا تكتموا(٢) ـ أيها الشهود ـ شهادتكم عند الحكام ﴿ومن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾ ومن يكتم شهادته، فإنه فاجرٌ، مكتسبٌ بذلك معصية الله ﴿والله بما تعملون عليمٌ﴾ عالمٌ بجميع أعمالكم، ومجازيكم عليها، إمَّا خيراً وإمَّا شراً.

---

(١) إذا اتقى العبد ربه، فتح الله عليه فتوح العارفين، ورزقه العقل والفهم، وبصَّره سبيل الرشد والفلاح، ومصداق هذا قوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وقد أشار الإمام الشافعي رحمه الله إلى ذلك بقوله

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلم نورٌ ... ونورُ اللهِ لا يُهدى لعاصي

(٢) أي أدوها ولا تكتموها، لتُردَّ الحقوق إلى أربابها، والمظالم إلى أصحابها، وكفى بها موعظة!!.

أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ
عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا

* * *

﴿للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ﴾ لله مُلك كل ما في السموات والأرض، إليه تدبيرُه، وبيده تقليبُه، لا يخفى عليه منه شيء، لأنه مالكه، ومدبِّره، ومصرِّفه ﴿وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفسِكُمْ أو تُخفوهُ يُحَاسبكُمْ بِهِ اللهُ﴾ وإن تُظهروا ما في أنفسكم ـ أيها الناس ـ أو تُسرُّوه وتخفوه، بحيث لا يطلع عليه أحد، يحاسبكم عليه ربكم ﴿فيغفر لمن يَشاءُ ويُعذِّبُ من يشاء﴾ يغفر لأهل الإيمان، ويُعذِّب أهل الشرك والعصيان ﴿واللهُ عَلى كل شيءٍ قدير﴾ والله عزَّ وجل، قادرٌ على كل شيءٍ ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربه﴾ صدَّق الرسول محمد ﷺ، بما أوحاه إليه ربه من القرآن ﴿والمؤمنونَ كلٌ آمنَ باللهِ وملائكته وكتبه ورسله﴾ وصدَّق المؤمنون أيضاً مع نبيّهم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ من رُسُلِهِ﴾ يقولون: نصدِّق بجميع الرسل، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض[1]، كما فعل اليهود والنصارى ﴿وَقَالُوا سمعنا وأطعنا﴾ سمعنا قولَ ربنا، وأطعنا أمره ﴿غفرانك رَبَّنَا وإليك المصيرُ﴾ استرْ واصفحْ عنا يا ربنا ذنوبنا، وإليك مرجعُنا ومعادُنا، فاغفرْ لنا ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾ لا يكلف الله نفساً بما يُجْهِدها، أو يُضيّق عليها؛ بل بقدر طاقتها، لها ما عملت من خير، وعليها ما عملت من شر ﴿رَبَّنَا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ هذا تعليمٌ للعباد والدعاء، أي قولوا: يا ربنا اصفحْ عنا، ولا تعاقبنا على شيءٍ قصَّرنا فيه، أو أخطأنا في فعله، على غير قصدٍ منا إلى المعصية ﴿رَبَّنا ولا تَحملْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ لا تحملْ علينا عهداً نعجز عن القيام به، ولا تكلفنا بما يشق علينا، كما كلِّفت به من قَبْلَنا، كاليهود والنصارى ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ربنا لا تكلفنا من الأعمال، ما لا نطيق القيام به، لثقل حمله علينا ﴿واعْفُ عَنَّا واغْفِرَ لنا وارْحَمْنَا﴾ اعفُ عن تقصيرنا، واسترْ علينا ذنوبنا، فلا تفضحنا، وتغمدنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَنْتَ مَوْلاَنَا﴾ أنت وليُّنا بنصرك، لأننا

(١) ليس معنى التفريق بين الرسل التفضيل بينهم، فذلك ثابت بنص القرآن ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ ولكن المراد بالتفريق الإيمان بالبعض والكفر بالبعض كما سنوضحه إن شاء الله في سورة النساء.

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

* * *

نؤمن بك ونطيعك ﴿فانصرنا على القوم الكافرينَ﴾ انصرنا على الجاحدين بوحدانيتك، الذين عبدوا الآلهة والأنداد، فإنَّا حزبك المؤمنون. . عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «آمن الرسول بما أُنزل إليه» قرأها رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله «غفرانك ربنا» قال الله عز وجل: قد غفرتُ لكم، فلما قرأ «ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال الله عز وجل: لا أحمِّلكم، فلما قرأ «واغفرْ لنا» قال الله تعالى: قد غفرتُ لكم، فلما قرأ «وارحَمْنَا» قال الله عز وجل: قد رحمتُكم، فلما قرأ «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال الله عز وجل: قد نصرتكم عليهم(١)

« تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة البقرة »

* * *

(١) خُتمت هذه السورةُ الكريمةُ بهذه الآيات الروائع، وذلك للمناسبة التَّامةِ بين ما اشتملت عليه السورة، من تكاليفَ شرعيةٍ كثيرة، كالصَّلاة، والزكاة، والصَّوم، والحج والقصاص، والجهاد، والطلاق، والعدة، والبيع . . . إلى غير ما هنالك من التكاليف والأوامر الإلٰهية، وبين الحساب والجزاء، الذي ينتظر الإنسان في الدار الآخرة، لتُجزى كل نفس بما كسبت، وتوفَّى جزاءها العادل، فناسب أن يذكِّرنا الله تعالى بفضله علينا، بأنه لم يكلِّفْ أحداً من الخلق بما يشقُّ عليه، بل كلَّفه بما فيه طاقتُه وقدرتُه ﴿لا يكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها لهاما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾ ويا له من تناسقٍ عجيب، جميع بين التشريع والتكليف، والترغيب والترهيب!!



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

* * *

﴿الٓمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة(١) ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحقٍ إلا الله ، لانفراده بالربوبية ، وتوحُّده بالألوهية ﴿الحيُّ القَيُّومُ﴾(٢) الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق، بالحفظ والرزق والرعاية ﴿نَزَّلَ عليْكَ الكِتَابَ بالحقِّ﴾ نزَّل عليك ربك يا محمد هذا القرآن ، بالصِّدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ﴿مُصَدِّقاً لما بين يديه﴾ مصدِّقاً لما سبقه من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإنجِيلَ. من قبلُ هُدَى للناسِ﴾ وأنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، من قبل هذا القرآن ، بياناً للناس إلى توحيد الله وشرائع دينه ﴿وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾ وأنزل الحجة البالغة القاطعة ، في الفصل بين الحق والباطل ، في أمر عيسى وغيره من الأمور ﴿إنَّ الذينَ كفروا بآياتِ اللَّهِ﴾ جحدوا آياتِ الله ، وأدلته على توحيده وألوهيته ، واتخذوا المسيحَ إلَهاً ورباً ﴿لهم عذابٌ شديدٌ﴾ لهم عذاب شديد يوم القيامة ،وهذا وعيدٌ لمن عاند الحق بعد وضوحه ، وخالف سبيل الهدى بعد قيام الحجة عليه ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ ذو انتقام﴾ والله غالبٌ في

(١) انظر ما ذكره الشيخ الطبري في أول سورة البقرة ، وما ذكرناه في التعليق حول الحروف المقطعة ، والتحقيق الدقيق فيها

(٢) هذه السورة الكريمة ابتدأ الله جل وعلا فاتحتها بنفي الألوهية عن غيره ، وبإثبات الوحدانية له ، احتجاجاً على النصارى الذين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله وقد نزل ما يقرب من ثمانين آية في وفد نصارى نجران ، الذين جادلوا الرسول ﷺ في شأن المسيح ، فزعموا أنه هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، فردت عليهم بالحجة الدامغة، والبرهان القاطع

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي
ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

* * *

سلطانه ، لا يمنعه مانع ممن أراد عذابه ، منتقمٌ ممَّن جحد أدلته وحُجَجه **﴿إنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عليْهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ وَلَا في السَّمَاءِ﴾** لا يخفى عليه شيء هو في الأرض ، ولا شيءٌ هو في السماء ، فكيف يخفى عليه شأن هؤلاء المجادلين في شأن عيسى ابن مريم ؟ **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَام كَيْفَ يَشَاءُ﴾** يجعلكم صوراً في أرحام أمهاتكم كيف أحبَّ ، من ذكرٍ وأنثى ، وأسود وأحمر ، وقد صوَّر عيسى في رحم أمه ، فكيف يكون إلَهاً وقد كان بذلك المنزل ؟! **﴿لا إِلَه إلاَّ هُوَ﴾** لا معبود بحقٍ إلاَّ هو **﴿العزيز الحكيم﴾** العزيز في انتقامه ، الحكيم في أمره وتدبيره

﴿هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ فيه آياتٌ مُحْكَماتٌ﴾ اللّه الذي أنزل عليك يا محمد القرآن ، فيه آياتٌ واضحات بيِّنات ، قد أُحكمن بالبيان والتفصيل ، في الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والحلال والحرام ، والعظة والعِبر **﴿هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾** هنَّ أصلُ الكتاب الذي فيه عماد الدين ، من الفرائض والحدود ، والأحكام ، وسائر الأمور الضرورية **﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾** وآياتٌ أخر متشابهات في التلاوة ، مختلفات في المعاني[1] **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾** فأمّا الذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقّ وانحرافٌ عنه **﴿فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنهُ﴾** فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه **﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** إرادة اللَّبس ، وطلباً لتفسيره على أهوائهم الباطلة ، دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من الآيات **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾** وما يعلم معنى المتشابه إلا الله وحده **﴿والرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾** العلماء المتمكنون في العلم ، يقولون صدَّقنا بالمتشابه من الكتاب وإن لم نعلم تأويله **﴿كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** كلٌ من المحكم والمتشابه منزَّل من عند الله **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبابِ﴾** وما يتذكر ويتعظ إلاّ أصحاب العقول **﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾** يقولون يا ربنا لا

---

(١) أرجح الأقوال في معنى « المحكم والمتشابه » هو : المحكم ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحدإلى علمه سبيل ، مما استأثر الله عز وجل بعلمه دون خلقه ، كوقت خروج عيسى ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا وما أشبه ذلك ، وهو اختيار الطبري

وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ
ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾
قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ
تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى

* * *

تُمل قلوبنا فتصرفها عن هُدَاك بعد إذ هديتنا فوفقتنا للإيمان ﴿وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ وامنحنا من عندك رحمةً ، وتوفيقاً وثباتاً على الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسدادَ ﴿رَبَّنَا إنَّك جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ربنا إنّك جامعُ الناسِ في يوم القيامة الذي لا شكَّ فيه ، فاغفر لنا في ذلك اليوم وارحمنا ﴿إنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ﴾ فإنك لا تخلف وعدك ، لمن آمن بك واتَّبع رسولك ﴿إنَّ الذين كفروا لن تغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ من اللّهِ شيئاً﴾ إنَّ الذين جحدوا الحقَّ ، وأنكروا نبوة محمد ﷺ من اليهود والمنافقين وكفار العرب ، لن تنجيهم أموالهم ولا أولادهم من عقوبة الله ولن تفيدهم شيئاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ وهم في الآخرة حطب جهنم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعادة آل فرعون وسُنَّتهم ، ومن سبقهم من الأمم الطاغية كقوم نوح وهود ولوط ﴿كذَّبُوا بآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كذَّبوا بآيات ربهم ، فأخذناهم بذنوبهم وأهلكناهم ، فلم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴿واللَّهُ شَدِيدُ العِقابِ﴾ وعقاب الله شديدٌ ، لمن كفر به وكذَّب رسله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرونَ إلى جَهَنَّم﴾(١) قل يا محمد لهؤلاء الكافرين من اليهود ستُغلبونَ وتُجمعون وتُساقون إلى جهنم ﴿وبِئْس المهادُ﴾ وبئس الفراش جهنم

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ قد كان لكم يا معشر اليهود ، علامة ودلالة على صدق ما أقول من هزيمتكم وغلبتكم ، في فرقتين وجماعتين من الناس ، التقتا في الحرب ﴿فئةٌ تُقاتِلُ في سبيلِ اللّهِ وأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ جماعةٌ تقاتل من أجل دين الله وهم الرسول وأصحابه ، وجماعة أخرى كافرة وهم مشركو قريش . **قال مجاهد** : ذلك يوم بدر ، التقى المسلمون والكفار ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ

---

(١) روي أن النبي ﷺ لما أصاب قريشاً يوم بدر ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً ، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌ مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، فقالوا يا محمد لا يغرنَّك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً - أي جهلاء - لا يعرفون القتال ! إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس !! فنزلت الآية

ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ
ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم
بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟

* * *

﴿الْعَيْنِ﴾ يرى المسلمون الجماعة الكافرة مثليهم - ضعفيهم - في كثرة العدد، رؤيةً حقيقية بأبصارهم ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والله يقوّي بنصره من شاء من عباده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ إن في نصرة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، لمتفكراً ومتعظاً لمن عقل وأبصر الحق ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ زُيِّنَ للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين ﴿والقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ﴾ والمال الكثير الذي لا يُحدُّ قدره من الذهب والفضة ﴿والْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ والخيل المعلَّمة المطهَّمة الحِسان ، التي تُعجب من رآها ﴿والأَنْعَامِ والْحَرْثِ﴾ والأنعام[1] جمعُ نعم وهي « الإبل والبقر والغنم » والحرث وهو الزرعُ ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذلك المذكور من شهوات الدنيا ، هو ما يُستمتع به فيها دون الآخرة ﴿واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وعند الله حسن المرجع والمنقلب للمتقين ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ قل يا محمد أأخبركم وأُعلمكم بخيرٍ وأفضل لكم من شهوات الدنيا ؟! ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ للذين خافوا الله فأطاعوه، بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، لهؤلاء المتقين بساتينُ تجري من تحت أشجارها أنهارُ الجنة ﴿خالدين فيها﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ وزوجاتٌ في الجنة ، مطهراتٌ من كل أذى يلحق نساء أهل الدنيا ، من الحيض ، والبول، والنفاس وغير ذلك ﴿ورضوانٌ من اللَّهِ﴾ ورضىً من الله عليهم ، وإنما ذكر « الرضوان » لأنه أعلى كرامةٍ لأهل الجنة ﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ذو بصرٍ بمن يتقيه ومَنْ يعصيه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ هؤلاء المتقون هم الذين يقولون ربنا إننا صدَّقنا بك ، وبنبيّك ، وبما جاء به من عندك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فاستُرْ علينا ذنوبنا بعفوك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وادفع عنا عذاب النار ، فلا تعذبنا بها يا ربنا ﴿الصَّابرينَ والصَّادقينَ﴾ الذين صبروا في البأساء والضرَّاء ، وصَدقوا اللهَ في قولهم وفعلهم ﴿وَالْقَانِتِين

---

(١) الأنعام الماشية التي ترعى ؛ واحدها نَعَم ، والعرب إذا أفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا الأنعام أرادوا بها الإبل والبقر والغنم ، كذا في لسان العرب

ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

* * *

﴿**والْمُنْفِقِينَ**﴾ والمطيعين لله، والمنفقين أموالهم في وجوه الخير ﴿**والْمُسْتَغْفِرينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ والسائلين ربهم المغفرة وقت السحر ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ شهد تعالى بأنه الواحد الأحد، ولا معبود بحقٍ إلا هو، لأنه الخالق لكل ما سواه ﴿**والْمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ**﴾ وشهدت الملائكةُ وأهل العلم أنه لا إله إلا هو، وأنَّ كل من اتخذ رباً دون الله فهو كاذب ﴿**قَائِماً بالقِسْطِ**﴾ قائماً بالعدل بين خلقه ﴿**لا إِلَهَ إلا هو**﴾ لا معبود بحقٍ إلا هو ﴿**العزيز الحكيمُ**﴾ العزيز في انتقامه، الحكيم في تدبيره ﴿**إِنَّ الدِّينَ عندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ إنَّ الدين الذي شرعه الله، وبعث به رسله، والذي لا يقبل غيره هو الإسلام ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ**﴾ وما اختلف النصارى ـ الذين أوتوا الإنجيل ـ في أمر عيسى ﴿**إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾ إلا من بعد ما علموا الحقَّ عن يقين ﴿**بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾ تعدياً من بعضهم على بعض، وطلب الرياسة والمُلْكِ والسلطان ﴿**ومَنْ يَكْفُرْ بآياتِ اللَّهِ**﴾ ومن يجحد حُجج الله وبراهينه، التي نصبها لمن عقل واعتبر ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسابِ**﴾ محصٍ على كل إنسانٍ أعماله ومجازيه عليها، بغير كُلْفةٍ ولا مُؤْنة، ولا معاناةٍ للحساب[1] ﴿**فإن حاجُّوكَ**﴾ فإن جادلك النصارى في أمر عيسى، وخاصموك فيه بالباطل ﴿**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ**﴾ فقل انقدتُ للَّهِ وحده، بلساني وقلبي وجوارحي[2] ﴿**ومن اتَّبَعَنِ**﴾ وأسلم من اتبعني أيضاً وجهه لله ﴿**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ**﴾ وقل لليهود والنصارى ولمشركي العرب هل أفردتم التوحيد، وأخلصتم العبادة والألوهية لرب العالمين؟ ﴿**فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَد اهْتَدَوْا**﴾ فإن انقادوا وأخلصوا العبادة لله، فقد سلكوا سبيل الرُّشْد ﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإنَّما عَلَيْكَ البَلاَغُ**﴾ وإن أعرضوا عمَّا تدعوهم إليه من الإسلام والتوحيد، فإنما أنت يا محمد رسولٌ مبلّغ، ليس عليك إلا تبليغ الرسالة ﴿**واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ مطَّلع على عباده، وسيجازيهم على أعمالهم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرونَ بِآياتِ اللَّهِ**﴾ يجحدون حجج الله من اليهود

(١) معنى «سريع الحساب» أنه يحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، لأنه لا يشغله شأن عن شأن، كذا نقل عن ابن عباس

(٢) إنما خصَّ الوجه بالذكر، لأنه أكرم أعضاء الإنسان وجمالُ الإنسان وبهاؤه به، فإذا خضع وجهه لشيء فقد خضعت له سائر الأعضاء

بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

* * *

والنصارى[١] ﴿ويقتلونَ النبيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويقتلون رسل الله كزكريا ويحيى وما أشبههما من أنبياء الله ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ ويقتلون الذين يأمرون بالعدل ، وينهون عن ارتكاب معاصي الله[٢] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم﴾ فأخبرْهُم يا محمد وأعلمهم بعذاب مؤلم موجع ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فباللعنة والمذمة ، لأنهم كانوا على ضلال وباطل ، فلم يرفع الله لهم بها ذكراً ، بل لعنهم وهتك أستارهم ، وأما في الآخرة فبالحرمان من النعيم والخلود في الجحيم ، لأن أعمالهم تصير بوراً لا ثواب لها ﴿وما لهم من ناصرين﴾ وما لهم ناصرٌ ينصرهم من الله، ويستنقذهم من عذابه ﴿ألم تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً من الكتابِ﴾ ألم تر يا محمد إلى الذين أُعطوا حظاً من الكتاب ـ وهو التوراة ـ ﴿يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يُدعون إلى التوراة التي يُقرُّون أنها من عند الله ، لتحكم بينهم في بعض ما تنازعوا فيه مع الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ثم يستدبر جماعة منهم عن كتاب الله منصرفين عنه ، وهم عالمون بحجته ، فكانت الحجة عليهم أبلغ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمسَّنا النَّارُ إلَّا أيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾[٣] إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة، من أجل قولهم لن تمسنا النار إلَّا أربعين يوماً ـ وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل ـ ﴿وَغَرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ اغتراراً منهم بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل ،حين قالوا : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ﴿فَكَيْفَ إذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فكيف حالهم إذا جمعناهم ليوم لا شك في مجيئه ؟ وما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله في ذلك اليوم الرهيب ؟ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ ووفَّى اللَّهُ كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ

---

(١) الآية عامة لكل كافر وجاحد ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، فهي وإن كانت قد نزلت في فريق من اليهود والنصارى ، إلا أنها عامة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٢) رُوي أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً في أول النهار ، فقام مائة رجل من عُبَّاد بني إسرائيل من أتباع الأنبياء ، فنصحوهم وذكَّروهم فقتلوهم من آخر النهار جميعاً ففيهم نزلت .

(٣) التعبير بالبشارة في موطن العذاب للسخرية والتهكم ، ويسمى هذا الأسلوب التهكمي .

مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ

* * *

وشرٌ ﴿وهم لا يُظلمونَ﴾ لا يخاف أحدٌ يومئذٍ ظلماً ولا هضماً ، لأنه لا يُبخس المحسنُ جزاء إحسانه ، ولا يعاقب المسيءُ بغير إجرامه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ قل يا محمد : يا اللهُ يا مالك المُلكِ ، يا من له ملك الدنيا والآخرة ﴿تُؤتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ﴾ تعطي الملك من تشاء فتملّكه وتسلطه على من تشاء ، وتسلب الملك ممن تشاء أن تسلبه منه ﴿وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾ وتُعزُّ من تشاء بإعطائه المُلْك والسلطان ، وتُذِلُّ من تشاء بسلب ملكه وتسليط عدوه عليه ﴿بيدِكَ الخيرُ﴾ كلُّ ذلك بيدك وإليك ، لا إلى غيرك ﴿إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ لا يقدر على ذلك أحد غيرك ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تُدخل ما نقصت من ساعات الليل في ساعات النهار ، وبالعكس . قال ابن عباس ما نقص من النهار يجعله في الليل ، وما نقص من الليل يجعله في النهار ﴿وَتُخْرِجُ الحيَّ من الميّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ تخرج الإنسان الحيَّ من النطفة الميتة ، وتُخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي ، وكذلك الأنعام والبهائم ، فالنطفة ميتةٌ ثم يُنشىء الله منها إنساناً حياً ، ومن الإنسان الحيّ تخرج النطفة الميتة ، وقيل : يُخرج النخلة من النواةِ ، والنواة من النخلة ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن[1] ﴿وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ﴾ وتجود على من تشاء من خلقك ، بغير محاسبة لمن أعطيته ، لأن خزائنك لا تنقص

﴿لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلياءَ مِنْ دُونَ الْمُؤْمِنينَ﴾[2] لا تتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً ، توالونهم في دينهم وتدلونهم على عورات المسلمين ﴿ومَنْ يَفعلْ ذٰلِكَ فلَيْسَ مِنَ اللَّهِ في شَيْءٍ﴾ ومن يتخذ الكافرين أولياء ، فقد بريء من الله وبريء الله منه ﴿إلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ إلَّا أن تخافوا منهم مخافة ، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم ، وتضمروا لهم العداوة بقلوبكم ﴿ويُحَذِّرِكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾

---

(١) المعنى الأول الذي أورده الطبري فهو على سبيل الحقيقة ، وأما إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس فهو على سبيل المجاز .

(٢) كان لبعض المؤمنين أصحابٌ من اليهود يوالونهم ، فقال لهم بعض الصحابة اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا مصاحبتهم لئلا يفتنوكم عن دينكم ويضلوكم بعد إيمانكم ، فلم يقبلوا النصيحة فنزلت الآية

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ
أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

* * *

ويخوِّفكم الله من نفسه ، أن ترتكبوا معاصيه أو توالوا أعداءه ﴿وإلى الله المصيرُ﴾ إلى الله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم ﴿قُلْ إنْ تُخْفُوا ما في صُدُوركم أو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يوالون الكافرين إنْ تُسِرُّوا ما في نفوسكم من موالاة الكفار ، أو تُظهروه بألسنتكم وأفعالكم يعلمه الله ، فإنه لا يخفى عليه شيء ﴿ويعلم ما في السمواتِ وما في الأرضِ﴾ لا يخفى عليه شيء هو في سماءٍ أو أرض أو حيث كان ، فكيف يخفى عليه ما في صدوركم من الميل إلى الكافرين بالمودة والمحبة ، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلاً وقولاً ؟ ﴿واللّهُ على كل شيء قدير﴾ قادرٌ على معاجلتكم بالعقوبة على موالاتكم الكافرين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ مُحْضَراً﴾ ويحذركم الله نفسه ، في اليوم الذي تجد فيه كل نفسٍ ما عملته من خير موفَّراً حاضراً ﴿وَمَا عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ والذي عملته من سوء ، تودُّ لو أنَّ بينها وبينه غايةً بعيدة[١] ﴿ويُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ يخوفكم سخطه وعقابه ﴿واللَّهُ رَءُوفٌ بالعِبَادِ﴾ رحيمٌ بهم ، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه وتخويفهم عقوبته ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ قل يا محمد إن كنتم كما تزعمون تحبون الله ، وأنكم تعظِّمون المسيح حباً منكم لربكم[٢] ﴿فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فحققوا قولكم باتباعي ، فإن ذلك علامة صدقكم في محبتكم لله ﴿وَيَغْفِرْ لكم ذنوبكم﴾ يصفح ويعفو عما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده، رحيم بهم﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ أطيعوا الله ورسوله محمداً ﷺ ﴿فإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه ، فأعلِمْهم أن الله لا يحب الجاحد للحق ، بعد معرفته له .

﴿إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعَالَمين﴾ اختار آدم ونوحاً ، واختار

---

(١) قال الحسن يَسُرُّ أحدَهم أن لا يلقى عمله القبيح أبداً ، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئةً يستلذها

(٢) نزلت في وفد نصارى نجران جاءوا يجادلــون رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، فمرةً كانوا يقولون إن عيسى هو الله ، وأخرى يقولون إنه ابن الله ؛ ومرة يقولون : إنه ثالث ثلاثة ، فنزلت الآية رداً عليهم ، وهي عامة

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ

* * *

المؤمنين من آل إبراهيم وآل عمران ، ففضّلهم على الناس جميعاً لدينهم ، لأنهم كانوا أهل الإسلام. **قال قتادة** ذكر الله أهل بيتين صالحين ، ورجلين صالحين ، ففضّلهم على العالمين ، فكان محمد من آل إبراهيم ، **وقال الحسن** : كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾** ذريةً بعضهم من بعض في الصلاح والدين ، والإخلاص والتوحيد لله[١] **﴿واللَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾** سميعٌ لأقوال العباد عليمٌ بأفعالهم **﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾** حين قالت «حنَّة» زوجة عمران وأم مريم جدة عيسى عليه السلام **﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾** جعلت لك يا رب الذي في بطني نذراً محرَّراً أي خالصاً من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس **﴿فَتَقَبَّلْ مِنّي﴾** تقبَّل مني ما نذرتُ لك يا رب **﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليمُ﴾** السميع لدعائي ، العليم بما في نفسي **﴿فلما وضعتها قَالَتْ رَبِّ إني وضعتُها أُنثى﴾** فلما ولدتها قالت يا ربِّ إني ولدتُ النذيرة أنثى **﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعتْ﴾** واللهُ أعلم من كل خلقه بما ولدت ، من غير أن تقول ذلك ، وهي جملة اعتراضية ثم عاد الخبر عن قولها ، فقالت معتذرة إلى ربها مما كانت نذرت في حملها **﴿ولَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى﴾** الذكرُ أقوى على الخدمة وأقوم بها ، والأنثى لا تصلح - في بعض الأحوال - لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس **﴿وإِنّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ﴾** أسميتُ هذه المولودة مريم **﴿وإِنّي أُعيذُها بِكَ وذريتها من الشيطانِ الرجيم﴾** وإني أجيرها وأحصِّنها بك يا رب هي وأولادها من شر الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله دعاءها ، ولم يجعل له عليها سبيلاً[٢] **﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾** تقبَّل الله مريم من أمها لخدمة بيت المقدس قبولاً حسناً **﴿وَأَنْبَتَها نَبَاتاً حَسَناً﴾** وأنبتها ربها حتى صارت بالغة كاملة[٣] **﴿وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾** وضمَّها الله إلى زكريا ليتكفل بتربيتها[٤] **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عليها زكريا المحرابَ﴾** كلما دخل زكريا

---

(١) المراد أنهم في الدين والتقى والصلاح متفقون، وهم على قدم واحدة في الطاعة لله والإخلاص له جل وعلا، وليس المراد أنهم من نسبٍ واحد.

(٢) في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ما من مولود يولد إلا يمسُّه الشيطان ، فيستهل صارخاً من مسِّهِ الشيطان ، إلا مريم وابنها ، واقرأوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾

(٣) شبَّه حفظ الله ورعايته لمريم بالنبات الذي يُسقى فينبت زاهياً حسناً ، ففي الآية استعارة لطيفة للتربية الحسنة .

(٤) كان زكريا وعمران قد تزوجا أختين ، فكان عيسى ويحيى ابني الخالتين ، ومن أجل ذلك تكفل زكريا بمريم بعد موت أبيها .

يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾

* * *

على مريم في مجلسها ومصلاَّها ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ وجد عندها طعاماً قيل كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قال يا مريمُ أنّى لكِ هذا﴾ من أين لك هذا الرزق ؟ ﴿قالت هو من عند الله﴾ رزقٌ ساقه الله إليَّ . قال ابن عباس كان يجد عندها الفاكهة الغضَّة حين لا توجد الفاكهة عند أحد ﴿إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يسوق الرزق لمن شاء من خلقه بغير إحصاءٍ ولا عدد ﴿هُنالِكَ دَعَا زكَرِيَّا ربَّهُ﴾ فعند ذلك دعا زكريا ربه ، ورجا أن يرزقه من امرأته العاقر ، مع كبر سنه ولداً ﴿قال ربِّ هبْ لي من لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً﴾ ارزقني يا رب من عندك ولداً مباركاً ﴿إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ تسمع دعاء من دعاك ، وتجيب نداءه ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ وهو قائِمٌ يُصَلّي في المِحْرابِ﴾ فنادته الملائكة في حال قيامه مصلياً[1] في مقدَّم المسجد ﴿أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيَحْيَى﴾ أن الله يسرُّك بولدٍ يهبه لك يسمى يحيى . ﴿مصدِّقاً بكلمةٍ من الله﴾ مصدِّقاً بعيسى عليه السلام ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ وشريفاً في قومه في عبادته وحلمه وورعه ، وحَصُوراً[2] أي ممتنعاً من جماع النساء ﴿ونبياً من الصالحين﴾ ونبياً من أنبيائه الصالحين ﴿قال ربِّ أنَّى يكونُ لي غلامٌ﴾ من أين يأتيني غلامٌ ، وكيف يكون ذلك ؟ ﴿وقَدْ بلغنيَ الكِبَرُ وامرأتي عاقِرٌ﴾ وقد بلغتُ من السنِّ ما بلغتُ ، وامرأتي عاقر لا تلد ؟ لم يكن قوله شكاً ولكن للتثبت من البشارة ﴿قال كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الأمر هيِّنٌ على الله ، أن يخلق ولداً من الكبير الذي يئس من الولد ، ومن العاقر التي لا تلد ، كما خلقك من قبل ولم تك شيئاً ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَةً﴾ اجعل لي علامة على وقت ولادته ﴿قَالَ آيَتُكَ ألَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلا رَمْزاً﴾ قال علامتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا بالإيماء بالشفتين وبالإشارة ، من غير خَرَس ولا عاهة ولا مرض ﴿واذكرْ رَبَّكَ كثيراً﴾ اذكر ربك ذكراً كثيراً ، فإنه لا يحال بينك

---

(١) في الآية إشارة إلى أن الصلاة مفتاحٌ للخيرات ، وبها تُستجاب الدعوات ، فمن كان له حاجة عند الله فليقبل على الصلاة بخشوع وخضوع ثم يدعو ربه ، وقد كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة

(٢) الحصور : الذي لا يأتي النساء تعففاً وزهداً لا عجزاً ، وأما ما قيل إنه كان عنِّيناً لا يستطيع غشيان النساء فغير صحيح ، لأنه نقصٌ في الرجولة ، والآية وردت مورد المدح والثناء لا مورد ذكر المعايب ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ١ / ٢٧٠

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

* * *

وبين ذكره ﴿وسبِّحْ بالعشيِّ والإبكار﴾ عظِّمْ ربك بعبادته «بالعشي» أي من حين الزوال إلى الغروب ، «والإبكار» من طلوع الفجر إلى الضحى ﴿وإذ قَالَتِ المَلائكةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ﴾ اختاركِ واجتباكِ لطاعته ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ طهَّركِ من الريب والأدناس ﴿واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمين﴾ اختارك على نساء العالمين في زمانك ، ففضَّلكِ عليهم ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتي لِرَبِّكِ﴾ أخلصي الطاعة لربك وحده ﴿واسجدي واركعي مع الراكعينَ﴾ اخشعي لطاعته وعبادته ، مع من خشع له من خلقه ، شكراً له على الاصطفاء والتفضيل ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد ، من أخبار الغيب التي لم تطَّلع عليها أنت ولا قومك ، ولم يعلمها إلا قليل من أحبار اليهود والنصارى ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ننزله عليك يا محمد ﴿وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ وما كنت عندهم حين يلقون سهامهم التي يستهمون بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم﴾ أيهم أولى بكفالتها وأحقُّ ﴿وما كنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وما كنت عندهم حين اختصموا فيها أيهم أحقُّ بها وأولى ، والغرضُ تحقيق نبوته ﷺ والحجة على أهل الكتاب ﴿إذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ يبشركِ ببشرى من عنده هي ولدٌ يكون وجوده بكلمة من الله . ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسى ابنُ مَرْيَم﴾ نَسبَه إلى أمه للرد على النصارى حيث زعموا أنه ابن الله ، وعلى اليهود حيث افتروا على أمه وزعموا أنه ابن زنى ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ ذا شرفٍ وكرامة ومنزلة عالية في الدنيا والآخرة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله يوم القيامة ، حيث يسكنه في جواره ويُدْنيه منه ﴿ويُكلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً﴾ ويكلم الناس طفلاً صغيراً ، وبالغاً كبيراً . قال ابن زيد كلمهم عيسى في المهد صغيراً ، وسيكلمهم إذا ظهر ـ عند نزوله لقتل الدجال ـ وهو كهل[1] . ﴿ومن الصالحينَ﴾ ومن عِداد الصالحين ، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ﴾ من أيِّ وجهٍ يكون لي ولدٌ ولست بذات زوج ، ولم يقربني بشر ؟ ﴿قال كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما

(١) في الآية دليل واضح على حياة عيسى عليه السلام وهو مذهب أهل السنة ، حيث أشارت الآية الى تكليمه للناس في حال الكهولة والشيخوخة ، وهذا إنما يكون عند نزوله من السماء إلى الأرض في آخر الزمان ، والله أعلم

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ
لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ
وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

* * *

﴿يَشَاءُ﴾(١) قال الله لها هكذا يخلق الله منك ولداً ، فيجعله للناس آية وعبرة ، فإنه تعالى يصنع ما يريد ويخلق ما يشاء ، من زوج ومن غير زوج **﴿إذَا قَضَى أمراً فإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** إذا أراد أمراً ، فإنما يقول له « كنْ » فيكون ما أراد **﴿وَيُعَلِّمُهُ الكتابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ﴾** هذا من تمام البشارة لمريم بالكرامة ورفعة المنزلة التي ينالها ولدها أي ويعلمه ربه الخطّ بيده، والسنة التي يوحيها إليه ، والتوراة التي أنزلت على موسى ، والإنجيل الذي سينزل على عيسى **﴿وَرَسُولاً إلى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبيِّي وبشيري ، وحجته على ذلك بمجيئه بعلامة واضحة من ربكم ، تحقّق صدق رسالته **﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾** هذه العلامة هي بأني أصوِّر لكم من الطين كشكل الطائر **﴿فَأَنفخ فيه فيكونَ طيراً بإذن اللهِ﴾** فأنفخ في الطير ـ أي الصورة ـ فيكون طيراً بإذن الله عزَّ وجل يُروى أنه كان يوماً مع الغلمان ، فأخذ طيناً وقال لهم أجعل لكم من هذا الطين طائراً ؟ قالوا وتستطيع ذلك ! قال نعم بإذن ربي ، فهيأه في شكل الطائر ثم نفخ فيه وقال كن طائراً بإذن الله ، فخرج يطير بين كفيه **﴿وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ﴾** وأشفي الأعمى الذي يُولد أعمى ، وكذلك من به بَرَص ، ممَّا لا يقدر على شفائه ذو طب بعلاج **﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾** وأحيي الموتى بقدرة الله ومشيئته لا بقدرتي **﴿وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخرون في بُيُوتِكُمْ﴾** وأخبركم بما تأكلون ممَّا لم أعاينه وأشاهده معكم ، وما ترفعونه فتخبئونه ولا تأكلونه(٢) يخبرهم أنه يعلم الغيب الذي لا سبيل لأحدٍ من البشر إلى معرفته ، بعد أن أظهرلهم المعجزات الباهرة، وكان إحياء عيسى للموتى بدعاء الله، عز وجل، يدعوفيستجيب الله دعاءه ويحييهم له **﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لَكُمْ﴾** إن في هذه الآيات الباهرات لعبرةً لكم ومتفكراً **﴿إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن كنتم مصدقين بحجج الله وآياته **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** ومصدقاً لما سبقني

---

(١) إنما قال هنا ﴿يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة زكريا ﴿يفعل ما يشاء﴾ لأن الأمر هنا أعجب وأغرب ، حيث يأتي الولد من غير زوج فناسبه ذكر الخلق ، وهناك من أبٍ كبير وأم عقيم فناسبه ذكر الفعل والقدرة ، فتدبرْ ـ رعاك الله ـ أسرار القرآن

(٢) يروى أنه كان يقول للغلام إن أهلك قد خبأوا لك كذا وكذا من الطعام ، فينطلق الصبيُّ ويطلب من أهله ذلك الشيء ، فيقولون له من أخبرك بهذا ؟ فيقول عيسى ، وهذا من معجزاته عليه السلام ، أنه كان يخبر عن المغيبات

فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ

* * *

من التوراة ، مقراً بها مؤمناً بأنها من عند الله ، عاملاً بأحكامها إلا ما خفَّف الله عن أهلها في الإنجيل ﴿ولأحِلَّ لكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم[1] ، كلحوم الإبل ، والشحوم ، وأشياء من الطير والحيتان ﴿وجئتكم بآيةٍ من ربكم﴾ وجئتكم بحجة وعبرة من عند ربكم تعلمون بها صدقي ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطيعونِ﴾ فخافوا يا معشر بني إسرائيل الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا أمري فيما دعوتكم إليه ﴿إنَّ اللهَ رَبِّي وربكم فَاعْبُدُوهُ﴾ أنا عبدُ الله كسائر الخلق ، إلا ما خصني الله به من النبوة والحجج ، دليلاً على صدقي ، فاعبدوا الله وحده ربي وربكم ﴿هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾ هذا هو الطريق القويم ، والهُدَى المتين الذي لا اعوجاج فيه ﴿فلمَّا أَحَسَّ عِيسَى منهم الكُفْرَ﴾ فلما وجد[2] عيسى من بني إسرائيل الجحود لنبوته ، والتكذيب لرسالته ﴿قال من أَنْصَارِي إلى اللهِ﴾ مَنْ أنصاري مع الله ، على الجاحدين المكذبين بدينه ؟ ﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نحنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ قال أصحاب عيسى نحن أنصارُ الله ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ صدَّقنا بالله ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ واشهد أنت يا عيسى بأننا مسلمون وفيه دلالة على أنَّ الإسلام دين جميع الأنبياء ، لا النصرانية ولا اليهودية ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ ربنا صدَّقنا بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك ﴿واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ صرنا أتباع عيسى ، وأعوانه على الحق ﴿فاكتبنا مع الشَّاهِدِينَ﴾ فأثبتْنا مع الذين شهدوا بالحق ، وصدَّقوا رسلك ، وأقرُّوا لك بالتوحيد ثم أخبر تعالى عن كفار بني إسرائيل ، الذين أحسَّ عيسى منهم الكفر فقال ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ احتال كفار بني إسرائيل على الفتك بعيسى وقتله ، ومكر الله بهم[3] بإلقاء شبه عيسى على بعض أتباعه ، ورُفع عيسى إلى السماء ﴿واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾ خير من يبطل مكرهم ، ويردُّ كيد الأشرار عن أنبيائه ورسله ﴿ إذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إنّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ﴾ حين قال الله لعيسى إني قابضك من الأرض حياً ، ورافعك إلى جواري[4]

---

(١) قال ابن كثير فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين .

(٢) فسر الطبري « أحسَّ » بمعنى وجد ، وفسرها ابن كثير بمعنى استشعر ، وأصل معنى الكلمة عرف بأحد حواسه ، فما قاله ابن كثير أظهر والله أعلم .

(٣) مَكَرَ اللهُ أي جازاهم على مكرهم ، وهذا على سبيل المقابلة لمكرهم ؛ حيث ألقى شبه عيسى على رجلٍ ممن كان معه في المنزل ، ثم رفع عيسى إلى السماء حياً ، وسينزل في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة

(٤) قيل : إن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره إني رافعك إلى السماء ومتوفيك عند انتهاء أجلك ، وقيل المراد بالوفاة النوم ، واختار الطبري أن =

كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ

* * *

﴿ومطهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُوا﴾ ومخلّصك ومنجيك ممن كفر بك وجحد برسالتك ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبعوكَ فَوْقَ الذينَ كَفَرُوا إلى يومِ القيامةِ﴾ وجاعل أتباعك الذين هم على ملّتك ومنهاجك، فوق الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة[١] ﴿ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأحكُمُ بينكُمْ فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم إلى الله مصيركم يوم القيامة، أيها المختلفون في أمر عيسى، فأقضي بين الفريقين منكم الذين اتبعوه، والذين كفروا به ﴿فأمَّا الذين كفروا﴾ فأمّا الذين جحدوا نبوة عيسى، وقالوا فيه الباطل ﴿فأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً في الدُّنْيا والآخِرةِ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي، وبالذلة والمسكنة، وفي الآخرة بنار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿وما لهم من نَاصِرِينَ﴾ وما لهم من عذاب الله مانعٌ، ولا من أليم عقابه دافع ﴿وأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأما الذين آمنوا بعيسى، وعملوا بفرائض الله ﴿فَيُوفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً ﴿واللهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ﴾ لا يحب من ظلم غيره، فكيف يظلم خلقه؟ والآية وعيدٌ للكافرين، ووعدٌ للمؤمنين ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ هذه الأنباء والقصص التي نقرأها عليك يا محمد على لسان جبريل، هي من الحجج والعِبر، ومن القرآن الحكيم الفاصل بين الحق والباطل ﴿إنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إنَّ شَبَه عيسى في الخَلْق كشَبَه آدم، فليس خلقُ عيسى من غير أب، بأعجب من خلق آدم من غير أب ولا أم[٢]. ﴿خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ﴾ خلقه بقدرته من تراب بدون ذكرٍ ولا أنثى، ثم أمره أن يكون فكان، فكذلك خلقي عيسى ﴿الحقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ما أخبرتك عن عيسى هو الحقُّ من ربك ﴿فلا تكنْ من الممترينَ﴾ فلا تكن من الشاكّين في ذلك ﴿فمن حَاجَّكَ فيه من بعد ما جاءكَ من العِلْمِ﴾ فمن جادلك في المسيح ابن مريم، بعد الذي قد بينتُه لك أنه عبد

=المراد به القبض من الأرض حياً لتواتر الأخبار في نزوله آخر الزمان وهو الصحيح

(١) قال ابن زيد المراد أن النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة

(٢) إذا كان النصارى يعتقدون في المسيح أنه «ابن الله» لأنه لا أب له، فآدم أحقُّ بهذه الدعوى، لأنه لا أب له ولا أم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً

وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

* * *

الله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبناءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنَا وأنْفُسَكُمْ﴾ فقل هلموا فلندع هؤلاء جميعاً ﴿ثم نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعنةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبينَ﴾ ثم نـلتعن ـ أي ندع باللعنة ـ على الكَاذبين منَّا ومنكم[١] ﴿إنَّ هذا لَهُوَ القَصَصُ الحقُّ﴾ إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى ، هو القصص الحقُّ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلاَّ اللهُ﴾ وليس للخلق معبودٌ يستوجب العبادة إلا الله رب العالمين ﴿وإنَّ اللهَ لهو العزيزُ الحكيمُ﴾ العزيز في انتقامه ممن عصاه ، الحكيم في صنعه وتدبيره ﴿فإن تَوَلَّوْا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمفسدينَ﴾ فإن أعرضوا عما جاءك من الهُدى والبيان ، فإن الله عالمٌ بهم وبإفسادهم ، وسيجازيهم جزاءهم العادل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قل يا معشر اليهود والنصارى هلُمّوا إلى كلمةٍ عدلٍ بيننا وبينكم ﴿ألَّا نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ﴾ بأن لا نعبد غير الله ، ونبرأ من كل معبودٍ سواه ﴿ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ لا وثناً ولا صَنَماً ، ولا صليباً ولا طاغوتاً ﴿ولا يَتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ﴾ ولا يدينُ بعضنا لبعضٍ بالطاعة في معصية الله ، ويعظِّمهُ بالسجود له كما يسجد لربه ﴿ فإنْ تولَّوا فقولوا آشهدوا بأنا مسلمون ﴾ فإنم أعرضوا عما دعوتهم اليه من الكلمة العدل ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون اشهدوا علينا بأننا مسلمون ، خاضعون لله ، متذلّلون له بقلوبنا وألسنتنا

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لم تُحَاجُّونَ في إبْرَاهيمَ وما أُنزلَتِ التَّوْرَاةُ والإنْجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾[٢] يا أهل التوراة والإنجيل لم تجادلون وتخاصمون في إبراهيم خليل الرحمن ، فتدَّعون أنه كان على دينكم ، والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد وفاته بحين ؟ فكيف يكون منكم ؟ ﴿أفلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفقهون خطأ

(١) المباهلة : الملاعنة وهي أن يخرج الفريقان بأبنائهم ونسائهم ، ثم يدعون باللعنة على الكاذب منهم ، وفي الحديث « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » رواه أحمد

(٢) الآية توبيخ لليهود والنصارى ، حيث زعم اليهود أن دين إبراهيم هو اليهودية ، وزعم النصارى أن دينه هو النصرانية ، وبين إبراهيم وموسى ألف عام ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون على دينٍ لم يحدث إلا بعده بأزمنة طويلة ؟

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟

* * *

قولكم ؟ ﴿ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى ، خاصمتم وجادلتم فيما لكم به علمٌ من أمر دينكم ، الذي وجدتموه في كتابكم ﴿فلم تُحَاجُّونَ فيما ليس لكم به عِلْمٌ﴾ فلم تجادلون وتخاصمون في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه ؟ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾ والله يعلم الأمور على حقائقها وأنتم لا تعلمون ذلك ، فلا تجادلوا بالباطل ثم كذَّبهم تعالى في دعواهم أن إبراهيم كان على ملتهم فقال ﴿ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً﴾ ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا النصرانية ، ولكنْ كان « حنيفاً » أي متبعاً أمر الله وطاعته ، مستقيماً على محجة الهدى « مسلماً » أي خاشعاً لله بقلبه متذللاً له بجوارحه ﴿وما كان من المشركين﴾ وما كان من الذين يعبدون الأوثان والأصنام ، أو مخلوقاً من البشر ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ إن أحقَّ الناس بالانتساب إلى إبراهيم ، الذين سلكوا طريقه ومنهاجه ، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين ﴿وهذا النبيُّ والذين آمنوا﴾ وهذا النبي محمدٌ ﷺ ، والذين صدَّقوا برسالته ﴿والله وليُّ المؤمنين﴾ والله ناصر المؤمنين على من خالفهم ﴿وَدَّتْ طائفةٌ من أهل الكتابِ لو يضلونكم﴾ تمنت جماعة من اليهود والنصارى لو يردونكم أيها المؤمنون إلى الكفر فيهلكونكم ﴿ومـا يضِلُّونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرونَ﴾ وما يُهلكون ـ بفعلهم هذا ـ غير أنفسهم ، وما يدرون ولا يعلمون ﴿يا أهل الكِتَابِ لم تكفرونَ بآياتِ الله وأنتم تشهدون﴾ لِمَ تجحدون بكتاب الله المنزَّلِ عليكم ، وأنتم تشهدون أنه حق من عند ربكم ؟ وهذا توبيخٌ لهم على كفرهم بمحمد ﷺ وجحودهم نبوته ، وهم يجدونه في كتبهم ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تـلبسـون الحَقَّ بالبَاطِلِ﴾ لم تخلطون الحقَّ بالباطل ، بإظهاركم التصديق بمحمد بألسنتكم ، دون ما في قلوبكم ؟ ﴿وتكتمونَ الحقَّ﴾ وتخفون الحقَّ الذي في كتبكم من نعت محمد ﷺ ونبوته ﴿وأنتم تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم تعرفون ذلك ﴿وقالت طائفةٌ من أهلِ الكتابِ﴾ وقالت جماعة من اليهود ﴿آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ

إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
* وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ
عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

* * *

على **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ﴾** صدِّقوا بالذي أُنْزل على المؤمنين أول النهار ، واكفروا آخر النهار **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** لعلهم يرجعون عن دينهم[1] **﴿ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لمنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾** لا تصدقوا - يا معشر اليهود - إلاَّ لمن تبع دينكم فكان يهودياً وهذا خبرٌ عن اليهود فيما قالوه لإخوانهم **﴿قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ﴾** قل يا محمد لهم إنَّ التوفيق توفيقُ اللهِ ، والبيانَ بيانه وهي جملة اعتراضية ، ثم رجع الحديث إلى كلامهم فقال **﴿أَنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُمْ أو يحاجوكم عند ربكم﴾** يقولون ولا تؤمنوا - بمحمد ودينه - لئلا يُؤْتى أحد مثل ما أوتيتم من الوحي ، أو يحاجوكم عند ربكم أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم **﴿قُلْ إنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾** قل لهؤلاء اليهود إن التوفيق للإيمان ، والهداية للإسلام ، بيد الله وحده ، يعطيه من أراد من عباده **﴿واللهُ وَاسِعٌ عليم﴾** واللهُ واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهل له **﴿يختص برحمته من يشاء﴾** يخصُّ بالإسلام والقرآن من يشاء **﴿واللهُ ذو الفضل العظيم﴾** ذو الإنعام والتفضل الواسع **﴿وَمِنْ أهْـلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ﴾** ومن اليهود أناسٌ أهل أمانة ، لو ائتمنت أحدهم على المال الكثير يردُّه لك ولا يخونك فيه . **﴿ومِنْهُمْ مَنْ إنْ تأمنْهُ بـدينارٍ لا يؤده إليكَ﴾** ومنهم الخائن الذي إنْ تأمنه على دينارٍ لا يردُّه إليك **﴿إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾** إلا أنْ تُلِحَّ عليه بالمطالبة والاقتضاء والإلحاح الشديد **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيس عَلَيْنَا في الأُمِّيِّنَ سبيلٌ﴾**[2] استحلال الخيانة من اليهود ، من أجل أنهم قالوا لا حرج ولا إثم علينا فيما أصبنا من أموال العرب. **قال السدي** قال اليهود ليس علينا حرجٌ في أموال العرب ، قد أحلَّها الله لنا **﴿ويقولون على اللهِ الكذبَ﴾** ويكذبون على الله بقولهم ذلك **﴿وهم**

---

(١) تواصى اليهود فيما بينهم أن يؤمن فريق منهم أول النهار ، ثم يكفروا آخره لأجل أن تتزلزل عقائد المؤمنين ، فيقولوا في أنفسهم ما رجع هؤلاء عن الدين إلا لنقيصةٍ وعيب فيه وهذه مكيدة أرادها اليهود ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم

(٢) لما نزلت الآية قال النبي ﷺ « كَذَبَ أعداءُ الله ، ما من شيءٍ كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر »

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

* * *

يعلمون﴾ أن الله ما أحلَّ لهم شيئاً مما قالوه ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى﴾ نعم من أوفى منهم بعهد الله فآمن بمحمد وصدَّقه بما جاء به ، واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر والمعاصي خوف عقابه ﴿فإنَّ اللهَ يُحبُّ المتقين﴾ يحب الذين يتقونه ، فيطيعون أمره ويجتنبون نهيه ﴿إنَّ الذينَ يشترونَ بعهدِ اللهِ وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ يستبدلون بأيمانهم الكاذبة ، بدلاً خسيساً ، وعوضاً حقيراً من عرض الدنيا وحطامها ﴿أولئِكَ لا خَلاَقَ لهم في الآخرة﴾ لا حظ ولا نصيب لهم من نعيم الجنة ﴿ولا يكلِّمُهُمُ اللهُ﴾ لا يكلمهم الله بما يَسُرُّهم ﴿ولا يَنْظُرُ إليهِمْ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا ينظر إليهم نظر تعطفٍ ورحمة ، ولا يطهِّرهم من دنس الكفر والذنوب . ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ ولهم عذاب موجع . . نزلت في بعض أحبار اليهود وهي عامة ﴿وإنَّ منْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْـوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ﴾ وإن جماعة من اليهود يحرِّفون ألسنتهم بالكتاب لتظنوا أن الذي يحرفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله ﴿وما هو من الكتابِ﴾ وما ذلك الذي حرَّفوه من كتاب الله ﴿ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ويزعمون أن هذا الكذب والباطل مما أنزله الله على أنبيائه ، وليس مما أنزله الله وإنما هو افتراء على الله ﴿ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون﴾ ويتعمدون الكذب على الله ، والشهادة عليه بالباطل ، طلباً للخسيس من حُطام الدنيا . **قال ابن عباس**: كانوا يزيدون في كتاب الله ما لم يُنزِّل الله ﴿مَا كَانَ لبشرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾ ما ينبغي لأحدٍ من البشر أن ينزِّل الله عليه كتابه ، ويعلِّمه الحكمة ، ويعطيه النبوة ﴿ثم يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي من دون اللهِ﴾ ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله ﴿وَلَكِنْ كونوا ربَّانِيِّين﴾ ولكنْ إذا آتاه الله ذلك ، يدعوهم إلى العلم بالله ويقول لهم كونوا علماء ، حكماء ، أتقياء ، مصلحين[1] ﴿بما كُنْتُمْ تُعَلِّمونَ الكتابَ وبما كنتم تدرسون﴾

---

(١) في الآية ردٌّ على النصارى حيث زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم بعبادته ، والربانيُّ نسبة إلى الرب جل وعلا ، وهو العالم بالفقه=

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ
مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ
ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

* * *

بتعليمكم الناسَ كتاب الله ، وما فيه من حلالٍ وحرام ، وبدراستكم وتلاوتكم له ﴿ولا يأمُرَكُمْ أنْ تتخذوا الملائكة والنبيِّين أرْبَاباً﴾ وما كان لبشر أن يأمركم بأن تعبدوا الملائكة والنبيِّين ، وتجعلوهم آلهة من دون الله نزلت في قومٍ من اليهود والنصارى قالوا للرسول ﷺ أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال معاذَ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله ! فنزلت الآية ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمونَ﴾ أيأمركم نبيكم بالكفر بوحدانية الله ، بعد أن كنتم منقادين لله بالطاعة والعبودية ؟ إن ذلك لا يكون أبداً ﴿وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّينَ﴾ واذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على الأنبياء ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لمهما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة(١) ﴿ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم﴾ ثم جاءكم رسول من عندي يُصدِّق ما جئتم به وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ﴾لتصدقُنَّ به ولتنصرنه ﴿قال أأَقْرَرْتُمْ وأخَذْتُمْ على ذَلِكُمْ إصْرِي﴾أأقررتم بالميثاق وأخذتم على ذلك عهدي ووصيتي ؟ ﴿قالوا أقْرَرْنا قالَ فاشهدوا وأَنَا مَعَكُمْ من الشاهدينَ﴾ اشهدوا أيها النبيون على الميثاق ، وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بعد ذَلِكَ﴾ فمن أعرض عن الإيمان برسلي وعن نصرتهم ، ونكث العهد والميثاق ﴿فأولَئِكَ هم الفاسقون﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ أفغير دين الله يلتمسون ويريدون ؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمواتِ وَالأرْضِ﴾ وله خشع وخضع ، وانقاد بإخلاص التوحيد والألوهية ، جميعُ من في السموات والأرض ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ المؤمن طائعاً ، والكافر أسلم كارهاً حين رأى بأس الله(٢) « فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» ﴿وإليه يُرْجَعُونَ﴾ وإليه يصيرون

= والحكمة والجامع إلى العلم والفقهُ البصرَ بالسياسة والتدبير .

(١) قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته .

(٢) هذا قول قتادة ، وقال ابو العالية : كل آدمي قد أقر على نفسه بأن الله ربه وخالقه ، فمن أخلص لله العبودية فهو الذي أسلم طوعاً ، ومن أشرك في عبادة الله فهو الذي أسلم كرهاً

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾

* * *

بعد الموت ، فيجازيهم بأعمالهم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته **﴿قُلْ آمَنَّا باللهِ﴾** قل يا محمد للذين ابتغوا غير دين الله صدَّقنا بالله ربنا وإلٓهنا ، لا نعبد أحداً سواه **﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾** وصدَّقنا بما أُنزل علينا من وحيه وتنزيله **﴿وما أُنْزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ﴾** وصدَّقنا بما أنزل على إبراهيم خليل الله ، وعلى ابنيْه إسماعيل وإسحاق ، وابن ابنه يعقوب ، وبما أُنزل على الأسباط وهم أولاد يعقوب الإثنا عشر[1] **﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** وآمنا بالتوراة والإنجيل ، وما أنزل على النبيِّين **﴿لا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم﴾** لا نصدِّق بعضهم ونكذِّب بعضهم ، كما فعلت اليهود والنصارى ، بل نؤمن بجميعهم **﴿ونحنُ له مُسْلِمونَ﴾** ونحن منقادون لله بالطاعة ، مقرُّون له بالربوبية **﴿ومَنْ يَبْتَغِ غير الإسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبل مِنْهُ﴾** ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ، فلن يقبل الله منه ذلك **﴿وَهُوَ في الآخِرةِ مِنَ الخاسِرين﴾** خسر رحمة الله عزَّ وجل **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ﴾** كيف يرشد الله ويوفق للإيمان ، قوماً جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد تصديقهم به؟ قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا نعت محمد ﷺ في كتابهم وأقروا به ، ثم كفروا بعد إقرارهم **﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾** وعرفوا أن محمداً رسول الله إلى الخلق ثم كفروا به **﴿وجاءهم البيناتُ﴾** قامت عليه الحجج والبراهين على صدق رسالة محمد **﴿واللهُ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ﴾** والله لا يوفق للحق والصواب ، الظلمةَ الذين اختاروا الكفر على الإيمان **﴿أولئك جزؤاهم أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والْمَلاَئكَةِ والنَّاسِ أجمعين﴾** ثوابُهم على ما عملوا أن تحل بهم لعنة الله ـ أي إقصاؤ هم وبعدهم عن رحمة الله ـ وأن تلعنهم الملائكة وجميع الخلق **﴿خالدين فيها﴾** ماكثين في عقوبة الله أبداً **﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ولا هم يُنْظَرونَ﴾** لا يُنقصون من العذاب شيئاً ، ولا

(١) ذهب الطبري إلى أن الأسباط هم « إخوة يوسف » أولاد يعقوب عليه السلام ، وهذا ضعيف لأنهم وقعت منهم أعمال تتنافى مع النبوة ، كعزمهم على قتل يوسف ، وحسدهم له ، وكذبهم على أبيهم الخ والصحيح أن الأسباط هم شعوب بني إسرائيل ، الذين جعل الله فيهم الوحي والنبوة ، والمتشعبين من أولاد إسرائيل ، وهذا اختيار ابن كثير والبخاري ، فقد قال البخاري الأسباطُ قبائل بني إسرائيل ، والله أعلم

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ
كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم
مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ
مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

* * *

يُمهلون لتوبةٍ أو اعتذار . ﴿إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ إلا من تاب من ذنبه ، وأصلح عمله ﴿فإنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيمٌ﴾ يستر ذَنبه ويرحمه ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ﴾ كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم به ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾ بما أصابوا من المعاصي ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لن تُقبل توبتُهم من الذنوب ، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد ﴿وأولئك هم الضالُّونَ﴾ هم الذين ضلوا سبيل الحق ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ﴾ جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يصدِّقوا ما جاءهم به من عند الله ، وماتوا على الكفر والجحود ﴿فلن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدهمْ مِلءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ فلن يُقبل من أحدهم عوضٌ أبداً ، حتى ولو كان له من الذهب قدر ما يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها ﴿أولئك لهم عذاب أليمٌ﴾ عذاب موجع ﴿وما لهم من ناصرينَ﴾ وما لهم من قريب ولا حميم ، ينقذهم من عذاب الله ﴿لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تُحبونَ﴾ لن تدركوا أيها المؤمنون الجنة ، حتى تتصدقوا مما تحبون وتشتهون ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ ومهما تتصدقوا به من أموالكم ، فإنه محفوظ لكم يعلمه الله ، وسيجازيكم عليه ﴿كلُّ الطَّعام كانَ حِلّاً لبني إسْرَائيلَ﴾ كل الأطعمة كانت حلالاً على بني إسرائيل ـ أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ـ ﴿إلاَّ ما حَرَّم إسرائيلُ على نفسِهِ﴾ إلا ما كان يعقوب حرَّمه على نفسه ، من غير تحريم الله ذلك عليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ من قبل نزول التوراة على موسى ﴿قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ﴾ قل يا محمد فأتوا يا معشر اليهود بالتوراة ﴿فَاتْلُوهَا إنْ كنتم صادقينَ﴾ فاقرأُوها حتى يتبين كذبكم وقولكم الباطل على الله ، إن كنتم محقين في دعواكم أن الله حرَّم ذلك[1] ﴿فمن افترى على اللهِ الكذبَ﴾ فمن كذب على الله. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد النظر في التوراة ﴿فأُولئكَ هم الظالمونَ﴾ فهم الكافرون القائلون

---

(١) رُوي أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً ، فنذر إن شفاه الله ليحرمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ـ وكان أحبُّ الطعام إليه لحم الإبل وألبانها ـ فلما شفاه الله حرَّم ذلك على نفسه واقتدى به أولاده ، دون أن يكون التحريم في وحي أو تنزيل .

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ
حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

* * *

على الله الباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ قل يا محمد صَدَق الله فيما أخبرنا به ﴿فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبْراهيمَ حنيفاً﴾ فاتبعوا دين إبراهيم خليل الله وهو الحنيفية، دون اليهودية والنصرانية، إن كنتم محقين في دعواكم أنكم على الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ﴿وما كانَ من المشركينَ﴾ وماكان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً، ولكنْ كان حنيفاً مسلماً، أخلص العبادة لربه وحده

﴿إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للناس﴾ إن أول مسجد بُني لعبادة الله في الأرض ﴿لَلَّذي ببكة مباركاً﴾ البيتُ الذي بمكة وهو البيت العتيق المبارك، لأن الطواف به مغفرة للذنوب، و «بكة» موضع مزدحم الناس للطواف، من البكِّ وهو الزحم، سميت البقعة بفعل المزدحمين فيها ﴿وهدىً للعالمين﴾ ومصدر هداية لجميع الخلق ﴿فيه آياتٌ بيناتٌ﴾ فيه علامات بينات من قدرة الله، وآثار خليله إبراهيم ﴿مَقَامُ إبْرَاهيمَ﴾ منهنَّ مقامُ إبراهيم، والحجرُ الأسود والحطيم ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ ومن دخله من الناس مستجيراً به كان آمناً ما دام فيه. قال ابن عباس: لو وجدتُ فيه قاتل أبي لم أُعرِضْ له[1] ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وفرضٌ واجبٌ لله على المستطيع حج بيته الحرامِ الحجُّ إليه ﴿وَمَنْ كَفَر فَإنَّ الله غَنيٌّ عَنِ الْعَالمينَ﴾ ومن جحد فريضة الله[2]، فإن الله غنيٌّ عنه وعن حجه وعمله، وعن سائر الخلق ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآياتِ الله﴾ يا معشر اليهود والنصارى، لِمَ تجحدون حجج الله الدالة على صدق محمد ونبوته؟ ﴿وَاللهُ شَهيدٌ عَلى مَا تَعْمَلُونَ﴾ والله شاهد على أعمالكم، وتعمدكم الكفر بالله ورسوله على علمٍ منكم ومعرفة ﴿قل يا أهل الكتاب لم تَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ من آمنَ﴾ لِمَ تُضِلُّون عن طريق الله ومحجته، مَنْ صدَّق بالله ورسوله ﴿تبغونها عِوَجاً﴾ تطلبون لدين اللهِ اعوجاجاً عن سنَن الهدى، وميلاً عن الحق، وتريدون لأهل الإسلام الزيغ والضلال عن الهدى ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ وأنتم شهود على أن الذي تصدُّون عنه

(١) كان الحرم في الجاهلية مفزع كل خائف، وملجأ كل جانٍ، حتى كان الرجل إذا رأى قاتل أبيه وابنه لم يمسَّه بسوء، فلما جاء الإسلام زاده تعظيماً وتكريماً، وهذا هو مراد ابن عباس أن من لجأ إليه وكان جانياً لم يقتص منه حتى يخرج من الحرم

(٢) إنما وضع ﴿ومن كفر﴾ بدل «ومن لم يحج» للتنبيه على أن من ترك الحج وهو قادر مستطيع له، فقد سلك طريق الكافرين

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ

* * *

حق . قال السدي: كان إذا سألهم أحد هل تجدون محمداً في كتبكم ؟ قالوا لا ، فصدُّوا الناس عن الإيمان به واتباعه بكتمانهم صفته التي يجدونها في كتبهم **﴿وما الله بغافلٍ عمَّا تعملون﴾** ليس الله بساهٍ عن أعمالكم وإجرامكم **﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا فريقاً منَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ﴾** يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إن تطيعوا جماعة من أهل التوراة والإنجيل **﴿يردُّوكم بعد إيمانكم كافرينَ﴾** يضلوكم فيردوكم بعد تصديقكم لرسولكم، جاحدين لما قد آمنتم به وصدَّقتموه من الحق، نهاهم جلَّ ثناؤه أن يقبلوا منهم نصيحةً أو مشورة ، لما تنطوي عليه نفوسهم من الغش والبغض والحسد[1] **﴿وكَيْفَ تكفرونَ وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ اللهِ﴾** وكيف تكفرون بعد إيمانكم ، وترتدون على أعقابكم ، وأنتم تسمعون آيات الله التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ **﴿وفيكم رَسُولُهُ﴾** وفيكم رسوله يبصِّركم الهُدى والرشاد ، وينهاكم عن الغيِّ والضلال ؟! فما هو عذركم عند ربكم ؟ **﴿ومن يَعْتَصِمْ باللهِ﴾** ومن يستمسك بدين الله وطاعته **﴿فقد هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾** فقد وُفِّق إلى طريق واضح ، هو الإسلام

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حَقَّ تُقَاته﴾ خافوا الله حقَّ خوفه وذلك بأن يُطاع فلا يُعْصَى ، ويُذْكر فلا يُنْسَى ، ويُشْكر فلا يكفر **﴿ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾** ولا تموتُنَّ إلا على الإسلام **﴿وَاعْتَصِمُوا بـحَبْلِ اللهِ جميعاً﴾** وتمسَّكُوا بدين الله الذي أمركم به ، وعهده الذي عهده إليكم ، من الألفةوالاجتماع على الحق. **﴿ولا تفرَّقوا﴾** لا تتفرقوا عن دينه وعن الائتلاف والاجتماع على طاعته. **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾** اذكروا فضل الله ونعمته عليكم. **﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبكم﴾** حين كنتم أعداء في جاهليتكم ، يقتل بعضكم بعضاً ، فألف الله بين قلوبكم بالإسلام **﴿فأصبحتم**

(١) روي أن شاس بن قيس اليهودي ـ وكان شديد الحسد والعداوة للمؤمنين ـ مرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، يتحدثون في مجلسهم ، فغاظه ما رأى من اجتماعهم وألفتهم بعدما كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فأمر فتىً من اليهود أن يجلس بينهم ويذكِّرهم يوم بُعاث ـ وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج ـ وينشدهم بعض الأشعار فيه ، ففعل فتكلم القوم وتنازعوا وتفاخروا ، ثم تداعوا إلى السلاح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال : يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ؟ فعرف القوم أنها نزعة شيطان فألقوا السلاح . فنزلت الآية

مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

* * *

بنعمته إخواناً﴾ فأصبحتم بالإسلام إخواناً متصادقين ، لا ضغائن ولا تحاسد **﴿وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾** وكنتم يا معشر المؤمنين على طرف حفرةٍ من النار ، فأنقذكم الله منها بالإيمان ، وهذا مَثَلٌ لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام يقول كنتم على طرف جهنم بكفركم ، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هداكم له **﴿ كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ﴾** كما بيَّن لكم ربكم الحال التي كنتم عليها في الجاهلية ، كذلك يبين لكم سائر حججه ، لتهتدوا إلى سبيل الرشاد فلا تضلوا **﴿ولتكُنْ منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ﴾** ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعة ، يدعون الناس إلى الإسلام وشرائعه **﴿وَيَـأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾** يأمرون بالإيمان بمحمد ودينه ، وينهون عن الكفر بالله والتكذيب برسوله[1] **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** الفائزون في جناته ونعيمه **﴿ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّناتُ﴾** لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا في دين الله وأمره ونهيه ، من بعد ما علموا الحقَّ ، وظهرت لهم حجج الله وآياته البينات **﴿وأولئكَ لهم عَذَابٌ عظيمٌ﴾** ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم عند الله **﴿يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ﴾** لهم عذاب عظيم في يوم تبيض فيه وجوه المؤمنين ، وتسود وجوه الكافرين **﴿فأما الذين اسودَّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾** فأما الكافرون فيقال لهم أجحدتم توحيد الله بعد تصديقكم بأنه ربكم ؟ **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** فذوقوا عذاب جهنم بسبب كفركم وجحودكم **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾** وأما المؤمنون السعداء الذين ابيضت وجوههم بثباتهم على الإيمان والتوحيد **﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدونَ﴾** فهم في جنة الله ونعيمه ، باقون فيها أبداً **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾** هذه مواعظ الله وحججِه البيِّنة ، نقصها عليك يا محمد بالصدق واليقين **﴿وَمَا اللهُ يريد ظُلْماً لِلْعَالَمينَ﴾**

---

(١) المعروف كل ما استحسنه الشرع من قول وعمل ، والمنكر كل ما استقبحه الشرع من قول وعمل ، وما ذكره الشيخ الطبري نوع من أنواع المعروف والمنكر ، فهو للتمثيل لا للتعريف .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

* * *

وليس الله بظالمٍ أحداً من خلقه. ﴿وَلِلّهِ مَا في السَّمَوات وما في الأَرْضِ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ إليه تعالى مصير جميع خلقه ، الصالح منهم والطالح ، والمحسن والمسيء ، فيجازي كلاً على قدر استحقاقه

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كنتم ـ يا أتباع محمد ـ خير الأمم وأكرمها على الله ، وخير الناسِ للناسِ ، تجيئون بهم في السلاسل ، تدخلونهم في الاسلام[١]. قال عمر: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدِّ شرط الله منها[٢] ﴿تأمرونَ بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللّهِ﴾ تأمرون بالإيمان بالله وشرائعه ، وتنهون عن الشرك والمعاصي[٣] ، وتصدّقون بالله فتخلصون له العبادة. قال مجاهد: على هذا الشرط أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله ﴿ولو آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ ولو صدَّق أهل التوراة والإنجيل بمحمد والقرآن ، لكان خيراً لهم عند الله ﴿مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ منهم المؤمنون المصدِّقون برسول الله ، كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعْية ، وأكثرهم خارجون عن دينهم الذي يدَّعون أنهم متمسكون به ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذَى﴾ لن يضركم هؤلاء الفاسقون شيئاً ، ولكنهم يؤذونكم بشركهم وكفرهم ، ودعائهم لكم إلى الضلالة ﴿وَإِنْ يُقَاتِلوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾ وإن يقاتلكم أهل الكتاب يُهزموا أمامكم ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرونَ﴾ ثم لا ينصرهم الله عليكم[٤] ، لكفرهم بالله ورسوله. ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ أينَ مَا ثُقِفُوا﴾ أُلْزِم اليهودُ الذلَّ والهوان ، أينما كانوا من الأرض ، وبأي مكانٍ وجدوا في بقاعها ﴿إلاَّ بحبلٍ منَ اللّهِ وَحَبْلٍ من النَّاسِ﴾ إلا بَسبب عهدٍ وأمانٍ من الله ، عاهدَهم عليه المسلمون[٥] ، أو عهدٍ من الناس ﴿وباءوا بغضب من اللّهِ﴾ وانصرفوا متحملين غضب الله

---

(١) هذه الرواية منقولة عن أبي هريرة ، وقال الحسن : نحن آخر الأمم وأكرمها على الله

(٢) أي فليؤد شرط الله الذي طلبه منه ، وهو الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣) هكذا فسرها الطبري ثم قال : وأصل المعروف ما كان جميلاً مستحسناً غير مستقبح عند أهل الإيمان ، وأصل المنكر ما أنكره الله وكان فعله قبيحاً

(٤) هذا وعدٌ من الله تعالى لا يُخْلف ، فمتى يتحقق فينا الإيمان حتّى ينجز الله لنا وعده ؟ !

(٥) عهدُ الله هو عقد الذمة الذي بموجبه تلزمهم الجزية بأمر الله ، وأما العهد من الناس فما يكون بمساندة الكفرة لهم كما تدعمهم اليوم وأمريكا وروسيا وغيرهما من دول الكفر والبغي ، ولولا مساندة هؤلاء لليهود لما كان لهم كيانٌ ولا سلطان

كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُواْ سَوَآءً
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

وسخطه ﴿وَضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَةُ﴾ ولزمتهم الفاقة والحاجة ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويَقْتُلونَ الأنْبِياءَ بِغَيْرِ حقٍّ﴾ ذلك الذل والهوان ، والفاقة والحاجة، بسبب أنهم كانوا يجحدون حجج الله ، الدالة على صدق أنبيائه ، ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لخلقه ، ظلماً واعتداءً بغير حق استحقوا به القتل ﴿ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾ إنما أحللنا عليهم الذلة والخزي ، بعصيانهم أمري واستحلالهم محارمي ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس هؤلاء على حدٍّ سواء ، وليسوا متساوين ، بل منهم المسلم ومنهم المجرم ، ثم قال ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ من أهل الكتاب جماعة ثابتة على الحق ، مستقيمةٌ على الهدى وشريعة الله ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدونَ﴾ يقرؤون كتاب الله في ساعات الليل في صلواتهم ، وهم يسجدون فيها لله ﴿يؤمنون باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾ يصدّقون بالله ، وبالبعث بعد الموت ﴿ويَأْمُرونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ ويأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وينهونهم عن الكفر بالله وتكذيب رسوله(١) ﴿ويُسَارِعُونَ في الخيراتِ﴾ ويبتدرون فعل الخيرات ﴿وَأُولَئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهم في عداد الصالحين ﴿وَمَا يَفْعلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ﴾ وما يفعلوا من خيرٍ فلن يضيع عند الله ، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿واللَّهُ عليمٌ بالمتقين﴾ عالمٌ بمن اتقاه واجتنب معاصيه ، وسيجازيهم بها ﴿إنَّ الذينَ كفروا لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ لن تدفع عنهم أموالهم التي جمعوها ولا أولادهم شيئاً من عقوبة الله ﴿وأولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خـالـدون﴾وهم أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿مَثَلُ ما ينفقونَ في هذه الحياةِ الدُّنْيا﴾ مثل ما يتصدقون به في الدنيا على وجه القربة. ﴿كمَثَلِ ريح فيها صِرٌّ﴾ كمثل ريح فيها بردٌ شديد . ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أصابت هذه الريح زرع قوم

(١) الأظهر أن المراد يأمرون بكل خير ، وينهون عن كل شر ، وقد تقدم

لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ
قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

* * *

عصوا ربهم فأهلكت زرعهم ، فكذلك يبطل الله ثوابهم ، ويخيّب رجاءهم ﴿وَمَا ظلمـهُم اللَّهُ﴾ بإحباط ثواب أعمالهم ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ﴾ ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث أوردوها نار جهنم

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم﴾ لا تتخذوا أصدقاء وأولياء من غير المؤمنين(١) ، سُمي الصديق بطانةً تشبيهاً له ببطانة الثوب ، لاطلاعه على أسراره ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً﴾ لا يُقصِّرون ولا يَدَعون جهدهم فيما يورثكم الفساد ﴿ودُّوا ما عَنِتُّمْ﴾ تمنَّوا وقوعكم في المشقة ، وفيما يسوءكم ولا يسرُّكم ﴿قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ من أفواههم﴾ قد ظهرت عداوتهم لأهل الإيمان من فلتات ألسنتهم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورهُمْ أَكْبر﴾ والذي تخفيه صدورهم من العداوة والبغضاء أكبر وأعظم ﴿قَدْ بيَّنَّا لكم الآياتِ﴾ وضحنا لكم ما تعتبرون وتتعظون به ﴿إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله أمرَه ، ونهيَه ، ومـواعـظَه ، ﴿هَا أَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبونَهُم ولا يُحبُّونَكُمْ﴾ ها أنتم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء الكفار ، فتودونهم وتواصلونهم، وهم لا يحبونكم، بل يبطنون لكم العداوة والغش ﴿وتُؤْمنونَ بِالكتابِ كُلِّهِ﴾ وتؤمنون بالكتب كلها التي أنزلها الله على رسله ، وهم يكفرون بكتابكم ﴿وإذَا لَقُوكُمْ قالوا آمنَّا﴾ وإذا رأوا المؤمنين قالوا ـ تقيةً وحذراً على أنفسهم ـ صدقنا بما جاء به محمد ﷺ ﴿وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظِ﴾ وإذا صاروا في خلاء بحيث لا ترونهم ، عضُّوا أطراف أصابعهم من الغيظ والكراهة لكم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ قل يا محمد لهم : موتوا كَمَداً وغيظاً ، وهو دعاءٌ عليهم بالهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾ عالم بما تنطوي عليه صدوركم من الغلِّ والغم، والخير والشر ، وسيجازيكم عليه ﴿إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئة يَفْرَحوا بِهَا﴾ إن نالكم سرور من نصر ، وأُلفةٍ ، واجتماع كلمة ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإن تنلكم مساءة في هزيمة ، أو تنازع ، واختلاف بين الجماعة ، سرَّهم ذلك وأُعجبوا به وابتهجوا ﴿وإن تَصْبِروا وتَتَّقُوا لا يضركم كيْدهم شيئاً﴾ وإن تصبروا على طاعة الله واجتناب نواهيه، وتتقوا ربكم فتخافوا عقابه ، لا

(١) نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء يطلعونهم على أسرارهم ، وعرَّفهم ما هم منطوون عليه من الغش والخيانة والكيد للمسلمين حتى يحذروهم

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

* * *

يضركم كيد هؤلاء المنافقين الفجار شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ حافظٌ لأعمالهم ، من الفساد والصدِّ عن سبيله ، محيط بهم وبكيدهم ، ليذيقهم عقوبته ، ويوفيهم جزاءهم عليه

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحد ، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المنافقين والصابرين[١] فقال ﴿وَإِذْ غدوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمنينَ مَقَاعِدَ للقتال﴾ واذكر يا محمد حين غدوت من أهلك ، تتخذ للمؤمنين معسكراً وموضعاً لقتال عدوهم ﴿واللَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ، عليمٌ بضمائركم وأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا﴾ حين همَّت قبيلة « بني حارثة » وقبيلة « بني سلمة » أن تضعفا وتجبنا عن لقاء عدوهما، وتنصرفا عن رسول الله ﷺ فعصمهما الله[٢] ﴿واللَّهُ وَلِيُّهُما﴾ واللَّهُ ناصرهما على الأعداء ﴿وعلى اللَّهِ فليتوكلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فلْيعتمد المؤمنون ، وليستعينوا به في جميع أمورهم ﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ﴾ نصركم على أعدائكم ببدر ، وأنتم يومئذٍ قليلون في العدد مع كثرة عدوكم ﴿فاتقوا اللَّهَ﴾ بطاعته واجتناب محارمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ لتشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر ﴿إِذْ تَقُولُ للمؤمنين أَلَنْ يكفيَكم أَنْ يُمِدَّكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكةِ مُنْزَلِين﴾ حين تقول لأصحابك أما كفاكم أن ينزل الله ثلاثة آلاف من الملائكة لتقاتل معكم؟ قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة إلا في بدر ، وكانوا في غير بدر يكونون عدداً ومدداً لا يقاتلون[٣] ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ بلى إن صبرتم أمام الأعداء ، واتقيتم الله عز وجل ﴿ويَأْتوكُمْ من فَوْرِهِم هذا﴾ ويأتيكم الأعداء من ساعتهم[٤]. ﴿يُمْدِدْكم ربكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مُسَوِّمينَ﴾ يزدكم قوةً

---

(١) ذكَّرهم تعالى بما جرى لهم بأحدٍ من البلاء ، بسبب عدم صبرهم ومخالفتهم أمر الرسول ﷺ وبما حدث لهم من النصر في غزوة بدر بسبب صبرهم وتوكلهم على الله

(٢) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية، قال: ونحن الطائفتان « بنو حارثة » و « بنو سلمة » وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿ واللهُ وليُّهما ﴾

(٣) ثبت بآثار كثيرة أن الملائكة قاتلت مع المسلمين في بدر ، وكانوا معمَّمين بعمائم صفر ، حتى قال أبو داود المازني ـ وكان شهد بدراً ـ إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي

(٤) قال الحسن ﴿من فورهم هذا﴾ من وجههم هذا أي من مخرجهم الذي خرجوا منه لنصرة أصحابهم المشركين .

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾
لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ
لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

* * *

بإمدادكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلَّمين بعلامات حسنة ، عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم(١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾ وما جعل الله إمداده لكم بالملائكة ، إلا بشارة لكم يبشركم بها ﴿ولتطْمئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ولكي تطمئن وتسكن قلوبكم بوعد الله ﴿وما النُّصْرُ إلاَّ من عند اللَّهِ﴾ وما ظفركم بعدوكم إلا بعون الله ، لا بالجموع وكثرة العدد ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره ولو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعل ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة من الكفار . ﴿أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ أو يخزيهم بخيبتهم من الظفر بكم ، فيرجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا يؤملون ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ﴾ ليس لك يا محمد من أمر عبادي شيء ، بل أمرهم إليَّ ، أقضي فيهم وأحكم بما أشاء(٢) ﴿أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ إن شاء تاب عليهم ، وإن شاء عذبهم ، فإنهم ظالمون مستحقون للعقاب ﴿وللَّهِ ما في السَّمَوات وما فِي الأرضِ﴾ له جل وعلا جميع ما بين أقطار السموات والأرض ﴿يغفر لمن يشاءُ ويعذب من يشاءُ﴾ يتوب على من شاء من خلقه فيغفر له ذنبه ، ويعاقب من شاء منهم فينتقم منه ﴿واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ يغفر الذنوب ويرحم العباد

﴿يَا أَيُّها الَّذِيَن آمنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ لا تتعاملوا بالربا كما كنتم في جاهليتكم تأخذونه أضعافاً مضاعفة(٣) ﴿واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحونَ﴾ خافوا الله ، لتنجحوا فتنجوا من عقابه ، وتدركوا ما رغَّبكم فيه من ثوابه .﴿واتَّقُوا النَّار التي أُعِدَّتْ للكافرينَ﴾ خافوا نار جهنم التي أعدَّها الله لمن كفر به ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلكُمْ تُرْحَمونَ﴾ وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه من أكل الربا ،

(١) هذا قول ابن الزبير ، وقال الربيع كانوا على خيل بُلْقٍ

(٢) روي أن النبي ﷺ لما أصيب يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، وشجَّ وجهه قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم فنزلت الآية

(٣) كانوا في الجاهلية إذا حلَّ أجل الدين قال المرابي للمستدين إمَّا أن تقضي ، وإمَّا أن تُربي ، فإن قضاه وإلاَّ زاده في المدة وضاعف له القدر ، وهكذا كل عام حتى يصير القليل كثيراً مضاعفاً ، وليس ذكر الأضعاف للقيد حتى لا يكون القليل محرماً ، بل هو لبيان الظلم الفادح .

* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ
فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ
أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

* * *

وأطيعوا الرسول أيضاً ، لترحموا فلا تعذبوا **﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ من ربِّكُمْ﴾** بادروا وسابقوا إلى ما يوجب لكم ستر ذنوبكم ، والعفو عنها برحمته تعالى **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ والأرضُ﴾** وسارعوا إلى جنةٍ عرضُها كعرض السموات السبع والأرضين السبع في السعة والعِظَم[١] **﴿أُعِدَّتْ للمتقينَ﴾** أعدها الله للمطيعين ، الذين اتقوا الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ثم فسّر المتقين بقوله : **﴿الذينَ يُنْفِقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ﴾** الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، في حال الرخاء والسَّعة ، وفي حال الضيق والشدة **﴿والكاظمين الغَيْظَ﴾** والذين يكتمون غيظهم إذا ما أُغضبوا **﴿والعافينَ عن النَّاسِ﴾** والصافحين عمَّن أساء إليهم **﴿واللهُ يُحبُّ المحسنينَ﴾** يحبُّ من كان محسناً في عمله **﴿والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾** والذين إذا فعلوا قبيحاً ، أو ارتكبوا معصيةً ، ذكروا وعيد الله على ما أتوا من المعاصي **﴿فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾** سألوا ربهم أن يستر عليهم ذنوبهم فلا يعاقبهم عليها **﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ﴾** وما يغفر الذنوب أحدٌ إلا الله **﴿ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمونَ﴾** ولم يقيموا على ذنوبهم التي فعلوها ، ومعصيتهم التي ركبوها ، وهم يعلمون وعيد الله عليها ، ولكنهم تابوا واستغفروا **﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** ثوابُهم على ما أطاعوا ، عفوٌ لهم من الله عن عقوبتهم **﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾** ولهم بساتين تجري خلال أشجارها أنهار الجنة **﴿خالدين فيها﴾** مقيمين فيها أبداً **﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾** ونعم جزاء العاملين لله جناتُ النعيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ قد مضت من قبلكم يا أصحاب محمد وقائع الأمم

(١) روي أن « هرقل » ملك الروم كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض ، فأين النار ؟ فقال النبي ﷺ « سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار »؟ رواه أحمد ومعناه أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل ألا يكون في مكان آخر ، وكذلك النهار يكون حيث شاء الله ، والغرضُ من الآية تشبيه سعة الجنة بما يدركه الناس كما في الآية الثانية ﴿ وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ وإلا فحقيقة الجنة وسعتها لا يعلمه إلا الله تعالى

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ
فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

* * *

السابقين[١]. ﴿فَسِيرُوا في الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المكذبينَ﴾فسيروا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ، تروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي ، وما آل إليه حالهم من الهلاك والدمار . ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمتَّقِينَ﴾ هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم إياه ، تفسيرٌ وتوضيح للناس ، ودلالة على سبيل الحق ، وتذكرة للمتقين إلى الصواب والرشاد ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ ولا تضعفوا ولا تجزعوا على ما أصابكم من القتل في أُحد ، وأنتم الظاهرون على أعدائكم ، الغالبون عليهم ﴿إِنْ كنتُمْ مُؤْمنينَ﴾ إن كنتم مصدِّقين محمداً ﷺ فيما وعدكم به ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أن يصبكم يا معشر المؤمنين قتلٌ وجراح ، فقد أصاب أعداءَكم قتلٌ وجراح مثلهُ ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نجعلها دُولاً بين الناس ، يوماً لكم ويوماً عليكم .﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمنوا﴾ وليعلم الله الذين آمنوا منكم من الذين نافقوا ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ﴾ وليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها ﴿واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ وليختبر بالابتلاء المؤمنين ، حتى يتبيَّن المؤمن الصادق من المنافق ، ويُنقص ويُفني الكافرين ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ أظننتم أن تنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده ﴿وَلَمَّا يَعْلَم اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ويَعْلَم الصَّابرينَ﴾ ولمَّا يتبيَّن لعبادي المؤمنين[٢] ، المجاهدُ منكم في سبيل الله ، والصابرُ عند البأس ؟ ﴿ولقد كنتم تَمَنَّوْنَ المَوْتَ من قبل أَنْ تَلْقَوْه﴾ ولقد كنتم يا أصحاب محمد تتمنَّون قتال أعدائكم ، لتنالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر ، من قبل أن تروا القتال ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ فقد رأيتم الموت قريباً منكم، بمرأى منكم ومنظر. قال قتادة كانوا يتمنون أن يلقوا المشركين فيقاتلوهم ،

(١) قال ابن كثير يخاطب تعالى المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحد وقُتل منهم سبعون ، فيبيّن لهم أنه قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلهم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم على الكافرين

(٢) إنما فسره بهذا التفسير لأن الله عالم بكل شيء ، قبل انكشافه للعباد وبعد انكشافه ، لا تخفى عليه خافية

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن
يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ
كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

* * *

فلما لقوهم يوم أُحدٍ ولَّوْا منهزمين ، فعاتب من فرَّ منهم ، وأثنى على الصابرين **﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسلُ﴾** وما محمد إلا رسول كسائر الرسل ، الذين مضوا قبله وماتوا عند انقضاء آجالهم **﴿أفإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقلبتُمْ على أعقابكم﴾** أفإن مات محمد أو قتله عدوٌّ ، ارتددتم عن دينكم ، ورجعتم كفاراً بعد الإيمان بالله[١] ؟ **﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً﴾** ومن يرتدد منكم عن دينه ، ويرجع كافراً بعد إيمانه ، فلن يوهن عزة الله وسلطانه ، ولن يُنْقِص من ملكه شيئاً **﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرينَ﴾** وسيثيب الله من شكره ، بثبوته على الحق ، وتمسكه بدينه **﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللهِ﴾** لا يموت محمد ﷺ ولا غيره إلا إذا بلغ أجله الذي كتبه الله له[٢] **﴿كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾** كتب تعالى ذلك كتاباً عنده ، أنه لا يموت أحدٌ إلا عند بلوغ أجله **﴿ومن يُرِدْ ثواب الدنيا﴾** ومن يُرِدْ بعمله جزاء الدنيا وثوابها . **﴿نؤته منها﴾** نعطه ما قُسم له منها في حياته ، ثم لا نصيب له من كرامة الله **﴿ومن يُرِدْ ثواب الآخرة نؤته منها﴾** ومن يرد بعمله جزاء الآخرة وكرامتها التي أعدَّها للعاملين ، نعطه جزاءه فيها مع رزقه في الدنيا **﴿وسنجزي الشاكرين﴾** نثيب الشاكرين ذلك الجزاء الوافر .

﴿وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربِّيُّونَ كثيرٌ﴾ وكم من نبي قُتِل ومعه جماعات كثيرة[٣] **﴿فما وَهَنُوا لما أصابَهُمْ في سبيلِ اللَّهِ﴾** فما ضعفوا لما نالهم من ألم الجراح في سبيل الله **﴿وما ضعفوا وما استكانوا﴾** وما ضعفت قواهم ، وما ذلُّوا لأعدائهم **﴿واللَّهُ يحبُّ الصابرينَ﴾** يحب الصابرين في الجهاد ، لا من دخله وهنٌ وضعف **﴿وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربَّنا اغفرْ لنا ذنوبنا﴾** وما كان قول أتباع الأنبياء إلا طلب المغفرة

---

(١) لما أشاع المشركون في « غزوة » أُحد أن النبي ﷺ قد قتل ، دبَّ الوهن والضعف في قلوب بعض المؤمنين ، فنزلت الآية تعاتبهم

(٢) قال ابن كثير : أي لا يموت أحد إلا بقَدَر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له .

(٣) قال ابن عباس : ﴿ربيون كثير﴾ جموع كثيرة ، وقال الحسن : علماء صابرون كثيرون ، وقد اختار ابن جرير قراءة « قُتِل » أي قتِل وقُتِل معه ربيون كثير ، واختار غيره قراءة « قاتل » .

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى

* * *

من الله بعد قتل نبيهم ، وإلا الصبر والاعتصام بالله في مجاهدة عدوهم **﴿وإسرافنا في أمرنا﴾** ومجاوزتنا الحدَّ في ارتكاب الخطايا **﴿وثَبِّتْ أقدامنا﴾** وثبتنا في الحرب حتى لا ننهزم **﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾** انصرنا على من جحد وحدانيتك ، ونُبُوَّة نبيك والآية تأنيبٌ من الله للذين فرُّوا يوم أُحد **﴿فآتاهم اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخرة﴾** فأعطاهم الله خير جزاء الدنيا ، بالنصر على الأعداء ، والتمكين لهم في البلاد ، وخير جزاء الآخرة وهو الجنةُ ونعيمها ، على ما أسلفوا في الدنيا من الأعمال الصالحة **﴿واللَّهُ يحبُّ المحسنين﴾** يحب من كان محسناً **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم﴾** إن أطعتم اليهود والنصارى ، الذين جحدوا نبوة نبيكم ، يحملوكم على الكفر بعد الإيمان **﴿فتنقلبوا خاسرين﴾** فترجعوا هالكين قد خسرتم دنياكم وآخرتكم **﴿بلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾** بل اللّه وليُكم وناصركم فاعتصموا به . **﴿وهو خيرُ الناصرين﴾** هو خير من نصر فاستنصروا به **﴿سنُلْقي في قُلُوبِ الذينَ كفَروا الرُّعبَ﴾** سنلقي في قلوبهم الجزع والهلع **﴿بما أشركوا باللَّهِ ما لم يُنَزِّلْ به سُلْطاناً﴾** بشركهم بالله وعبادتهم الأصنام بغير حجة **﴿ومَأْواهُمُ النَّارُ﴾** ومرجعهم يوم القيامة نارُ جهنم **﴿وبئس مَثْوَى الظَّالمين﴾** وبئس مقام الظالمين النارُ . **﴿ولقدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إذ تَحُسُّونَهُمْ بإِذْنِهِ﴾** ولقد وفى الله لكم عهده ، بما وعدكم من النصر على عدوكم بأُحد ، حين تقتلونهم بحكمه تعالى وقضائه **﴿حتَّى اذا فشتلم وتنازعتم في الأمر﴾** حتى إذا ضعفتم وجبنتم ، واختلفتم في أمر الله **﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون﴾** وعصيتم أمر نبيكم فتركتم مراكزكم في الجبل[1] ، من بعد ما أراكم النصر والظفر على المشركين **﴿منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة﴾** منكم من يريد الغنيمة ، ومنكم من يريد ما عند الله من الثواب ، وهم الذين ثبتوا في أماكنهم من الرماة. **قال ابن مسعود** : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى

---

(١) كان النبي ﷺ قد وضع سبعين من الرماة على الجبل في أُحد ، ليحموا ظهور المسلمين ، وقال لهم : لا تبرحوا أماكنكم سواءً انتصرنا أو هُزمنا ، فلما انتصر المسلمون ترك الرماة الجبل ونزلوا لجمعِ الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فلما رأى المشركون الجبل خالياً كرّوا عليهم من خلفهم فهزموهم ، وكانت النكسة بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا

* * *

نزلت الآية ﴿ثُمَّ صَرَفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم ردَّ وجوهكم عن المشركين بعد هزيمتكم لهم، ليختبر إيمانكم فيتميز الصادق من المنافق. ﴿ولقد عَفا عنكم﴾ ولقد صفح عن عقوبة ذنبكم، إذْ لم يستأصلكم إهلاكا. ﴿واللَّهُ ذُو فضلٍ على المؤمنينَ﴾ ذو طَوْلٍ وإحسانٍ على أهل الإيمان. ﴿إذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ على أَحدٍ﴾ حين تهربون في بطون الأودية والشِّعاب، ولا يلتـفت بعضكم إلى بعض هرباً من عدوكم ﴿والرَّسُولُ يَدْعوكُمْ في أُخْراكُم﴾ ورسول الله ﷺ يناديكم من خلفكم «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عباد الله» ﴿فأثابكم غمًّا بغَمٍّ﴾ فجازاكم بفراركم عن نبيكم، ومعصيتكم لربكم، غمّاً على غمٍّ [1] ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة والنصر، ولا ما أصابكم من الجراح والقتل ﴿واللَّهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾ ذو علم بالمحسن والمسيء ﴿ثُمَّ أنْزَلَ عليكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً﴾ ثم ألقى النعاس عليكم من بعد الغم الذي أصابكم - أماناً لأهل الإخلاص واليقين - دون أهل النفاق والشك ﴿يَغْشى طَائِفَةً منكم﴾ يَغْشى هذا النعاس فريقاً من أهل الإيمان [2]. ﴿وطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ والطائفة الأخرى هم المنافقون، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، قد طار عن أعينهم الكرى - النوم - ﴿يَظُنُّونَ باللَّهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهليةِ﴾ يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظنَّ أهل الشرك، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لرسوله ﷺ ﴿يَقُولونَ هَلْ لَنَا من الأَمْر من شيءٍ﴾ يقول المنافقون ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا للقتال ﴿قُلْ إنَّ الأمر كُله لِلَّهِ﴾ قل لهؤلاء المنافقين إن الأمر كلَّه لِلَّهِ، يُصرِّفه كيف يشاء، ويدبِّره كيف يحب ﴿يُخْفُونَ في أنفسِهِمْ ما لا يُبْدون لك﴾ يخفون في أنفسهم من الكفر والشك، ما لا يُظهرون لك يا محمد

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنَا ههُنا﴾ لو كان الخروج إلى حرب المشركين إلينا، ما خرجنا

---

(١) الغمُّ الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قيل: قُتِل محمد ﷺ، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى: جازاكم غماً بغمّكم للرسول ﷺ، والأول اختيار الطبري وابن كثير.

(٢) روى البخاري عن أبي طلحة قال «كنتُ فيمن تغشَّاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه». أقول كان نوم الصحابة في الحرب آية من آيات الله الباهرة، ليستعيدوا قوتهم ونشاطهم، ويطمئنوا بنصر الله، فإن النوم في تلك الحال دليل الأمان، والخائف لا يأتيه النوم

قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا
فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي
وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

* * *

إليهم ، ولا قُتِلَ منا أحدٌ في هذه المعركة ﴿قُلْ لو كنتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبرزَ الَّذِينَ كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ﴾ قل يا محمد لو كنتم في بيوتكم ولم تحضروا مع المؤمنين الحرب، لظهر من كُتِبَ عليه القتل إلى مصرعه ، ولخرج من بيته حتى يُصْرع ويموت ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليختبر الله ما في صدوركم من الشك ، ويُظْهِر للمؤمنين نفاقكم ﴿ ولِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليبيِّن ما في قلوبكم من الاعتقاد الفاسد وكلُّ ما جاء من نحو « وليعْلَمَ اللهُ » «وَلِيَبتلي اللَّهُ»فإن معناه إظهارُه لأوليائه[1]وأهلِ طاعته ﴿واللَّهُ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالمٌ بما في صدور خلقه من خيرٍ وشر ، وإيمانٍ وكفر ﴿إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا منكُمْ يَوْمَ الْتَقى الجَمْعَانِ﴾ انهزموا يوم التقى جمعُ المسلمين وجمعُ المشركين بأحد ﴿إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ببعضِ مَا كَسَبُوا﴾ إنما دعاهم الشيطان إلى الخطيئة ، بسبب بعض ما عملوا من الذنوب ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ صفح عنهم ، وتجاوز عن عقوبتهم ﴿إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يستر الذنوب ، ولا يُعجِّل العقوبة لمن خالف أمره ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لا تَكُونوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تكونوا كهؤلاء المنافقين ، أصحاب عبد الله بن سلول ﴿وَقَالُوا لِإخْوانِهِم إذَا ضَرَبُوا في الأَرْضِ﴾ وقالوا لإخوانهم في الكفر ، إذا خرجوا من بلادهم سفراً في تجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أو كانوا غُزاةً في سبيل الله ، فقتلوا في غزوهم ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ما مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾لو أقاموا في بلادهم ما ماتوا في السفر، ولا قُتِلوا في الغزو. ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرَةً في قُلُوبِهِمْ﴾ يقولون ذلك لكي يجعل هذا القول في قلوبهم حُزْناً وغمًّا. ﴿واللَّهُ يحيي ويميتُ واللَّهُ بما تعملون بصيرٌ﴾ الحياةُ والموتُ بيده جل وعلا ، وسيجازي كل عاملٍ بعمله والغرضُ ترغيب المؤمنين في جهاد الأعداء ، والصبر عند اللقاء .﴿ولئِنْ قُتِلْتُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ أو مُتُّمْ لَمَغْفِرةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الموت كائنٌ لا بدَّ منه ، فإنَّ موتاً في سبيل الله أو قتلاً في الله ، خيرٌ لهم مما يجمعون في الدنيا من حُطامها ورغيد عيشها ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أو قُتِلْتُمْ لإلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى الله مرجعكم ، فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقرِّبكم

(١) إنما فسره الطبري بهذا لأن الله تعالى عالمٌ بكل ما يحدث من الإنسان قبل أن يخلقه ، فلا يحتاج في علمه إلى امتحانٍ واختبار .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ

* * *

من الله ، من الجهاد في سبيله ، والعمل بطاعته ، على الركون إلى الدنيا ، والاشتغال بحطامها الزائل **﴿فَبِمَا[١] رَحْمَةٍ من اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾** فبرحمةٍ من الله ـ أو دعها الله في قلبك يا محمد ـ لنت لأصحابك ، وحَسُنَتْ لهم أخلاقُك ، حتى احتملت الأذى منهم **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلْب لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** ولو كنت جافياً ، قاسي القلب ، لتفرقوا عنك وتركوك ، ولكنَّ الله رحمهم بك[٢] ، فليَّن قلبك وحسَّن خلقك **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** فتجاوز عن أصحابك واصفح عما نالك من أذاهم ، وادْعُ ربك لهم بالمغفرة ، وشاورهم فيما حَزَبك من أمر[٣] ، تطييباً لقلوبهم ، وتألفاً لهم ، ليقتدوا بك عند النوازل **﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** فإذا صحَّ عزمك على أمرٍ ، فامضِ لما أمرناك به ـ وافق ذلك آراءَ أصحابك أو خالفها ـ واعتمدْ على ربك في جميع أمورك ، وثقْ به. **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** يحبُّ الراضين بقضائه ، المستسلمين لحكمه ، الواثقين به في جميع الأمور **﴿إن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فلا غَالِبَ لَكُمْ﴾** إن ينصركم الله أيها المؤمنون على أعدائكم ، فلن يغلبكم أحد ، ولو اجتمعوا عليكم **﴿وإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾** وإن يترك نصرتكم ويتخلَّ عنكم ، فمن الذي ينصركم بعد الله تعالى ؟ ! **﴿وَعَلَى اللَّهِ فلْيتوكَّل الْمُؤْمِنُونَ﴾** وعلى الله لا على الناس ، فليعتمدْ المؤمنون ، ليكفيهم بعونه ، ويمدهم بنصره **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾** وما ينبغي لنبي أن يخون في الغنيمة[٤] **﴿ومن يَغْلُلْ يأْتِ بما غلَّ يومَ القيامَةِ﴾** ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً ،يأت به يوم القيامة يحمله على عنقه. **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾** تُعطى كل نفسٍ جزاء عملها وافياً **﴿وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** لا يُنقصون شيئاً **﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ**

---

(١) فبما « ما » صلة أي زائدة ، زيدت لتأكيد الكلام ، والمعنى فبرحمةٍ من الله ، ومثلها قوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهم ميثاقهم ، وهذا كثير ومشهور عند العرب .

(٢) الغرض الامتنان على الرسول ، وعلى المؤمنين بالرحمة المهداة ، سيد الكائنات ﷺ

(٣) وقد امتثل ﷺ الأمر ، فكان يشاور أصحابه فيما يحدث له من أمور ، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر ، وشاورهم يوم أحد ، ويوم الخندق ، وفي الحديبية ، وهذا تشريع منه ﷺ للأمة لئلا يستبدوا بالرأي

(٤) قال ابن عباس : نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر ، فقال بعض المنافقين : لعلَّ رسول الله أخذها فنزلت الآية ، قال ابن كثير وهذا تنزيهٌ له ﷺ من جميع وجوه الخيانة ، في أداء الأمانة ، وقسم الغنيمة وغير ذلك

مِنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟
مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

* * *

﴿اللَّهِ﴾ أفمن عمل بطاعة الله واجتنب محارمه ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسخطٍ من اللَّهِ﴾ كمن انصرف متحملاً سخط الله وغضبه ؟. ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْس المصِيرُ﴾ ومسكنه جهنم ، وبئس المرجع والمآب نارُ جهنم ﴿هُمْ درَجَاتٌ عِنْد اللَّهِ﴾ هم يوم القيامة مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتَّبع رضوان الله الكرامةُ والثوابُ ، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب ﴿واللَّهُ بصيرٌ بما يعمَلُونَ﴾ يُحصي على الناس أعمالهم، ولا يخفى عليه شيءٌ.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنين إِذْ بَعَثَ فيهم رَسُولاً من أَنْفُسِهِمْ﴾ لقد امتنَّ الله على المؤمنين ، حين أرسل فيهم رسولاً من جنسهم ، ومن أهل لسانهم[١] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويطهّرهم من دَنَس الذنوب والآثام ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمَةَ﴾ ويعلّمهم كتاب الله ، وسنة رسوله عليه السلام ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لفـي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وإن كانوا من قبل بعثته ، لفي جهالةٍ جهلاء ، وضلالةٍ عمياء ﴿أَولَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أَوَ حين أصابتكم مصيبةٌ يوم أُحد ، قد أصبتم مثليها يوم بدر ، قلتم من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون ؟ كان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ قل لهم أصابكم ذلك بترككم طاعتي ، ومخالفتكم أمري ﴿إِنَّ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ﴾ قادر على جميع ما يريد ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ وما أصابكم يوم أحد ، حين التقى جمع المسلمين والمشركين ، فبقضاء الله وقَدَره ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعلم الله المؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليعلم المنافقين ، فيميز أهل الإيمان عن أهل النفاق ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَو ادْفَعُوا﴾ تعالوا قاتلوا المشركين معنا ، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم. وهؤلاء

(١) المنة العظمى على العباد، بعثة السراج المنير سيدنا محمد صلوات الله عليه ، فلقد خلق الله الكائنات وما فيها من سماء وأرض، وشمس وقمر ، ونجوم وكواكب ، وبحار وأنهار ، وجبال وأشجار ، ولكنه لم يمتنَّ علينا بها ، وإنما امتنَّ علينا بالنعمة العظمى ، بعثة خاتم المرسلين ﷺ

مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

* * *

هم ابن سلول المنافق وأصحابه ، الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإيمانِ﴾ هم في تلك الحال أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ﴾ يظهرون بألسنتهم غير ما في قلوبهم ، من النفاق وعداوة الرسول ﷺ ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمونَ﴾ والله أعلم بما يخفون ويضمرون ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإخوانهم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين بأحد وقعد هؤلاء المنافقون عن الجهاد لو أطاعنا إخواننا ما قُتلوا هنالك ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في قولكم لو أطاعونا ما قُتلوا ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾ ولا تظننَّ الذين استشهدوا في سبيل الله أمواتاً ، لا يُحسُّون شيئاً ولا يلتذُّون ولا يتنعَّمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عند رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فإنهم أحياء عندي ، متنعمون في رزقي(١) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مسرورون بما آتيتُهم من كرامتي ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ويستبشرون لإخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء ، لعلمهم بأنهم إنْ استشهدوا فلحقوا بهم ، صاروا إلى الكرامة والفضل والنعيم ، فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿أَلَّا خوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بأنهم لا خوفٌ عليهم لأمنهم من العقاب ، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ يفرحون بما حباهم الله من عظيم كرامته ، وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ﴿وأَنَّ اللهَ لا يُضَيعُ أَجْرَ المؤمنينَ﴾ وبأن الله لا يبطل جزاء

(١) وفي الحديث « لما أُصيب إخوانكم يوم أُحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر ، تَرِدُ أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم ، قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا ..﴾ الآيات

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ
فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ

* * *

المؤمنين ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ والرَّسولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هم الذين استجابوا للهِ والرسول من بعدما أصابتهم الجِراح والكُلُوم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ واتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب جزيل وجزاء عظيم ، وهم الذين تبعوا رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، بعد منصرفهم من أُحد

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جَمَعوا لكم فَاخْشَوْهُمْ﴾ إن الناس قد جمعوا الرجال للقائكم وحربكم ، فاحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فَزادَهُمْ إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فزادهم ذلك يقيناً إلى يقينهم ، وقالوا يكفينا اللهُ ونعم المولى لمن وليَه وكفله ﴿فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ فرجعوا بعافيةٍ من ربهم ، لم يلقوا عدواً ، وأجر عظيم اكتسبوه ، لم ينلهم أذى ولا مكروه ﴿واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ﴾ أرضوا ربهم بطاعتهم لرسوله ﴿واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظيمٍ﴾ ذو إحسانٍ عظيم على خلقه ﴿إنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّف أولياءَهُ﴾ إنما ذلكم من فعل الشيطان ، يخوفكم بأوليائه المشركين ، لترهبوهم وتجبنوا عنهم ﴿فلا تَخافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا ترهبوا جمعهم ، فإني متكفل لكم بالنصر والظفر ، ولكن خافوا أن تخالفوا أمري فتهلكوا ﴿ولا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الكُفْرِ﴾ لا تحزن يا محمد لكفر هؤلاء المنافقين ، الذين يسارعون في الكفر مرتدين على أعقابهم ﴿إنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ لن يضرُّوا الله بكفرهم وارتدادهم عن الإيمان شيئاً ، وإنما يضرون أنفسهم ﴿يُريدُ اللهُ ألّا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ يريد الله ألّا يجعل لهؤلاء نصيباً في ثواب الآخرة ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾ هو عذاب النار ﴿إنَّ الذينَ اشتروا الكفر بالإيمانِ لن يضروا اللهَ شيئاً﴾ إن هؤلاء المنافقين ، الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن

---

(١) لما أصيب نبي الله ﷺ يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال. من يرجع في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً ،منهم الزبير وأبو بكر ، فساروا حتى انتهوا إلى « حمراء الأسد » وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فولوا الأدبار منهزمين ، ورجع المسلمون إلى المدينة آمنين

شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ
مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

* * *

يضروا الله شيئاً بارتدادهم عن الإيمان **﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾** ولهم عذاب موجع **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾** لا يظنَّنَّ الكفار أن إطالتنا لأعمارهم ، وتأخيرنا لآجالهم خيرٌ لهم **﴿إِنَّمَا نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾** إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ، ليكتسبوا المعاصي ، فتزداد آثامُهم وتكثر **﴿ولهم عَذَابٌ مهينٌ﴾** لهم عقوبةٌ شديدة مع الذل والإهانة **﴿ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْه﴾** ما كان الله ليترك المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق ، فلا يُعرف هذا من هذا **﴿حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** حتى يُفرّق بالمِحن والاختبار ، بين المنافق والمؤمن الصادق. **قال مجاهد** : ميَّز بينهم «يوم أُحد » المنافق من المؤمن **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ﴾** ولم يكن ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده ، لتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر **﴿ولكنَّ الله يجتبي من رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ﴾** ولكنه تعالى يصطفي من يشاء من رسله ، فيطلعه على بعض ما في ضمائر الناس والغرضُ أنه لا يطلع العباد على سرائر الناس، ولكنه يميز بينهم بصنوف المِحَن ، حتى يعرفوا المؤمن والكافر والمنافق ، إلا من استثناه من رسله فخصَّه بعلمه **﴿فآمنوا باللهِ ورسله﴾** فصدّقوا بالله ورسله **﴿وإنْ تُؤْمِنُوا وتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** وإن تصدِّقوا رسولكم ، وتتقوا ربكم ، فلكم ثوابٌ عظيم **﴿ولا يَحسبنَّ الَّذِينَ يَبْخلونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** ولا يظننَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال ، فلا يخرجون منها الزكاة **﴿هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم﴾** هو خيراً لهم يوم القيامة ، بل هو شرٌّ لهم **﴿سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾** سيجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة[1]. **﴿وللهِ ميراثُ السمواتِ والأرض﴾** هو الحيُّ الباقي بعد فناء خلقه ، الذي له ميراث كل شي ء **﴿واللهُ بما تعملون خبيرٌ﴾** ذو خبرة وعلم ، فيجازي المحسن بالإحسان ، والمسي ء بما يستحق

(١) روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته ، مُثِّل له ماله شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيبتان ، يطوِّقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا الآية الكريمة

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

* * *

﴿لَقَدْ سمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ﴾ لقد سمع الله قولَ اليهود الذين قالوا إن الله فقيرٌ إلينا ، ونحن أغنياءُ عنه. قال الحسن لما نزل « من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً » عجبت اليهود فقالوا إن الله فقير يستقرضُ منا فنزلت الآية ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ سنكتب ما قالوا من الإفك والإفتراء على ربهم ، وقتلهم أنبياءهم بغير حق ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ونقول للمفترين على الله ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ذلك بما اكتسبت أيديكم من الآثام، واجترحت من السيئات ﴿وأَنَّ اللهَ ليس بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله عادل ، لا يعاقب عبداً بغير استحقاقه للعقوبة ﴿الذينَ قالوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا أَلَّا نؤمنَ لرسولٍ﴾ الذين قالوا إن الله أوصانا ألَّا نصدِّق رسولاً من الرسل ﴿حتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تأكُلُهُ النَّارُ﴾ حتَّى يجيئنا بقربان يقرِّبه لله ، فتنزل نارٌ من السماء فتأكله ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكم رَسُلٌ مِنْ قَبْلِي بالبيِّنَاتِ﴾ قل لهم يا محمد لقد جاءكم الرسل من قبلي بالحجج الدالة على صدق نبوّتهم ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ وبالذي ادعيتم من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ﴾ فلم قتلتم الرسل بعد ظهور الحجة لهم عليكم ؟ ﴿إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الإيمان ﴿فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّب رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك هؤلاء ، فقد كذَّب أسلافهم من قبلُ رسل الله ﴿جَاءُوا بالبيِّناتِ﴾ جاءوهم بالحجج القاطعة ، والأدلة الباهرة ، والآيات المعجزة ﴿والزُّبُرِ والكِتَابِ المنيرِ﴾ وبالكتب السماوية ، وبالكتاب الذي ينير الحق ويوضّحه ـ التوراة والإنجيل ـ والآية تعزيةٌ للرسول ﷺ لما ناله من أذى اليهود[1]

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الموت حتمٌ على جميع الناس ، ومصيرهمُ ومرجعهم إليَّ ﴿وَإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وإنما تُعطون أجور أعمالكم يوم القيامة ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ

---

(١) قال الضحاك يعزِّي نبيه ﷺ

ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

* * *

﴿الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ فمن أُبْعد عن النار ، وأُدْخل الجنة فقد نجا وظفر بحاجته **﴿وَمَا الْحَياةُ الدنيا إلاَّ مَتَاع الغُرُور﴾** وما شهواتُ الدنيا إلا متعةٌ يسيرة ، تُخدعون بها ثم تعود عليكم بالفجائع والمصائب ، فأنتم منها في غرور ، وبعد قليل عنها راحلون **﴿لَتُبْلَوُنَّ في أمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ﴾** لتختبرنَّ بالمصائب في أموالكم وأنفسكم **﴿ولَتَسمعُنَّ من الَّذِينَ أوتُوا الكتابَ من قبلِكُمْ ومنَ الَّذِينَ أشْرَكُوا أذًى كثيراً﴾** ولتسمعن من اليهود والنصارى والمشركين الأذى الكثير كقول اليهود « إن الله فقير » و « يدُ الله مغلولة » وقول النصارى « المسيح ابن الله » وما أشبه ذلك من كفرهم **﴿وَإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾** وإن تصبروا على الأذى ، وتتقوا الله بطاعته ، فإن ذلك مما عزم الله عليه وأمركم به

﴿وَإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب﴾ واذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود والنصارى. **﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ﴾** لتبيننَّ للناس أمر محمد ، وأنه رسولُ اللهِ بالحق، ولا تخفون ما في التوراة والإنجيل **﴿فَنَبذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾** فتركوا أمر الله وضيَّعوه[١] ، ونقضوا الميثاق **﴿واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾** وابتاعوا بكتمانهم أمر نبوتك ، عوضاً خسيساً من عَرَض الدنيا **﴿فبئس ما يشترون﴾** فبئس الشراء الذي اشتروه بتضييع الميثاق **﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾** لا تظننَّ يا محمد أهل الكتاب ، الذين يفرحون بما أتوا من كتمانهم للناس أمرك **﴿وَيُحبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** ويحبون أن يحمدهم الناس ، أنهم أهل طاعة وعبادة ، وهم بخلاف ذلك **قال ابن عباس** دعا النبي ﷺ اليهود ، فسألهم عن شيءٍ فكتموه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه

---

(١) هذا مثل لمن ضيَّع الشيء وفرَّط فيه يقال نبذه وراء ظهره أي ضيَّعه ولم يعمل به

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

* * *

فنزلت ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فلا تظنَّنهم بمنجاةٍ من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذابٌ موجع

﴿وَللهِ ملك السمواتِ والأرض﴾ لله جلَّ وعلا ملك جميع ما حوته السمواتُ والأرض ، فكيف يكون فقيراً ؟ ﴿واللهُ على كُلِّ شـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو القادر على تعجيل العقوبة لكل مفترٍ ومكذب ثم ذكر تعالى أدلة قدرته ووحدانيته فقال ﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ والَّنهارِ﴾ اعتبروا أيها الناسُ ، فإن فيما خلقته من السموات والأرض ، وفيما أنشأته لأقواتكم وأرزاقكم ، وفيما جعلته من تعاقب الليل والنهار ، يجيء هذا بعد هذا ، فتتصرفون في النهار لمعاشكم ، وتسكنون في الليل راحةً لأجسادكم ﴿ لآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لمعتبراً ومذَّكراً وعظات ، لمن كان ذا لُب وعقل ، فاعتبروا يا أولي الألباب ، ثم وصفهم بقوله ﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ الذاكرين الله قياماً في صلاتهم ، وقعوداً في مجالسهم ، ومضطجعين على جنوبهم(١) قال ابن جريج هو ذكر الله تعالى في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، وفي قراءة القـرآن ﴿ويتفكرون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ﴾ ويتفكرون في الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك ، وأنه ليس كمثله شـيء ، قائلين ﴿رَبَّنَا ما خلقتَ هٰذَا بَاطِلاً﴾ لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ، وإنما خلقته لأمرٍ عظيم ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تنزيهاً لك من أن تفعل شيئاً عبثاً ، فقنا وأجرنا من عذاب الجحيم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الإهانة ﴿وَمَا للظَّالِمينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وليس للظالمين ناصر ينصرهم ، أو ينقذهم من عذاب الله ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادياً يُنَادِي لِلإيمانِ أَنْ آمِنُوا بِربكُمْ فَآمَنَّا﴾ ربنا إننا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان ، فصدَّقنا بذلك يا ربنا ، والمنادي هو القرآن(٢) ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استر علينا خطايانا ، ولا

(١) قال ابن كثير : أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ، بألسنتهم ، وسرائرهم ، وضمائرهم

(٢) اختار الطبري أن المراد بالمنادي هو القرآن وهو قول محمد بن كعب ، واختار ابن كثير أن المنادي هو محمد ﷺ ، وهو الأرجح ويؤيده قوله تعالى ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾

سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟
وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى
ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

* * *

تفضحنا بها يوم القيامة ﴿وكفِّرْ عنا سَيِّئَاتِنَا﴾ وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ﴿وتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ اقبضنا إليك ، واحشرنا في زمرة الأبرار ، الذين رضيت عنهم ﴿رَبَّنَا وآتِنَـا مَا وَعَدْتَنَا على رُسُلِكَ﴾ ربنا أعطنا ما وعدتنا من الكرامة على ألسنة رسلك ﴿ولا تُخْزِنَا يومَ القيامةِ﴾ ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة ﴿إنك لا تُخلِفُ الميعادَ﴾ لا تخلف وعدك ﴿فاسْتَجَاب لهم ربُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَل عَامِلٍ منكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثَى﴾ فأجابهَم ربُّهم بأني لا أضيع عمل عاملٍ منكم عمل خيراً ، ذكراً كان العامل أو أنثى ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ في النصرة والدين(١) . ﴿فالذين هاجروا﴾ هجروا قومهم وعشيرتهم ﴿وأُخْرِجُوا من ديارهم﴾ أخرجهم المشركون من أوطانهم ﴿وأُوذُوا في سبيلي﴾ وأوذوا لطاعتهم ربهم ، وعبادتهم له ﴿وقَاتَلُوا وقُتِلُوا﴾ وقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، واستُشهـدوا في سبيل الله ﴿لأكفِّرنَّ عنهم سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لأمحون عنهم سيئاتهم بعفوي ورحمتي ﴿ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأَنْهارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ جزاءً لهم على ما أبلوا في الله وفي سبيله ﴿والله عنده حُسْنُ الثواب﴾ والله عنده حسن الجزاء ، مما لا عينٌ رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا في البِلَادِ﴾ لا يغرنك يا محمد تصرف الكفار وضربهم في البلاد ، وإمهال الله لهم مع شركهم وجحودهم والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أتباعه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثم مَأْوَاهم جهَنَّمُ﴾ تمتعهم في هذه الدنيا قليل ، ثم مصيرهم الذي يأوون إليه جهنم ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ وبئس الفراش والمضجع جهنم ﴿لكنِ الذين اتقوْا ربهم﴾ لكن الذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره ، واجتناب محارمه ﴿لهم جناتٌ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ لهم بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً ﴿نُزُلاً من عند اللَّهِ﴾ كرامةً من قِبَل الله لهم

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري ، وقال ابن كثير أي جميعكم في ثوابي سواء ، والأرجح أن اللفظ على حقيقته والمعنى الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فلا تفريق ولا تمييز . ،ويشهد له قوله تعالى ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وما عند الله خيرٌ للأبرار﴾ وما عند الله من الحياة ، والكرامة وحسن المآب ، خيرٌ للأبرار ممَّا يتقلب فيه الكفار ، من متاع الدنيا الخسيس **﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إليكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾** وإنَّ من أهل التوراة والإنجيل ، **لمن يُقرُّ** بوحدانية الله ، وبما أُنزل إليكم من القرآن ، وما أنزل على أهل الكتاب من التوراة والإنجيل ، نزلت في « النَّجاشي[1] » وغيره ممن أسلم من أهل الكتاب . **﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾** خاضعين لله بالطاعة ، مستكينين له متذلِّلين **﴿لا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللهِ ثَمناً قَليـلاً﴾** لا يحرِّفون ما أنزل إليهم من نعت محمد ﷺ وغيره من الأحكام ، لعَرَضٍ من الدنيا خسيس **﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾** لهم ثواب طاعتهم ، وعوض أعمالهم يوم القيامة **﴿إنَّ الله سريعُ الحِسَابِ﴾** سريع الإحصاء لأعمال العباد ومجازيهم عليها ، لا حاجة به إلى إحصاء عدد حتى يقع الإبطاء **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، اصبروا على دينكم وطاعة ربكم ، وعلى جميع ما أمر به ونهى عنه **﴿ وَصَابِـرُوا ﴾** وصابروا أعداءكم من المشركين ، فكونوا أصبر منهم حتى تظفروا بهم **﴿وَرَابِطُوا﴾** ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم ، بالإقامة بالثغور ، والدفاع عن المسلمين **﴿واتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** واحذروا أن تخالفوا أمر الله ، لتفلحوا وتنجحوا بنعيم الأبد.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »

***

(١) روي أن النبي ﷺ قال للصحابة : إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه ، فقال المنافقون : يصلي على عِلجٍ نصراني لم يره قط ! ؟ فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله . .﴾ الآية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ
ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى

* * *

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾ خافوا أيها الناس ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿**الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ يعني آدم ﷺ ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ يعني حواء، خلقت من ضِلع من أضلاعه(١) ﴿**وَبَثَّ منهما رِجَالاً كَثيراً وَنِسَاءً**﴾ ونشر من آدم وحواء، رجالاً ونساءً كثيرين. ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ**﴾ وخافوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به فيقول الرجل: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها. ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ حفيظاً على أعمالكم، يحصيها عليكم، ويعلمها ويعرفها. وصف تعالى نفسه بأنه المتفرّد بخلق جميع الأنام، معرِّفاً عباده أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأم واحدة، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القويُّ نفسه للضعيف، وختم الآية بأنه لم يزل عليهم رقيباً، يحصي عليهم أعمالهم، ويتفقد رعايتهم لحرمة الأرحام. ﴿**وآتُوا اليَتَامَى أَمْوالَهُمْ**﴾ أعطوا ـ يا معشر الأوصياء ـ اليتامى أموالهم، إذا بلغوا الحلُم، وآنستم منهم الرشد. ﴿**وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بالطَّيِّبِ**﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموال اليتامى، بالحلال من أموالكم، وتأخذوا الرديء الخسيس بالطيِّب النفيس. ﴿**ولا تَأْكُلوا أموالَهُمْ إلى أَمْوالِكُمْ**﴾ ولا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً. ﴿**إِنَّهُ كانَ حُوباً**

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وهو قول مجاهد والسُّدي، وذهب بعض المفسرين إلى أن «من» للجنس والمعنى وخلق من جنسها حواء، وما ذهب إليه ابن جرير هو المأثور.

ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

* * *

كَبِيراً﴾ إن أكل أموال اليتامى إثم عظيم. **﴿وإنْ خفتم ألَّا تُقْسِطُوا في اليتامى﴾** وإن خفتم ألَّا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها. **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾** فكذلك فخافوا في النساء ألا تعدلوا بينهن، فلا تنكحوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور، من واحدة إلى أربع[١] **﴿فإنْ خِفْتُم ألَّا تَعْدلوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانُكُمْ﴾** فإن خفتم ألَّا تعدلوا[٢] فيما زاد على الواحدة من النساء فانكحوا واحدة منهن، أو ما ملكت أيمانكم من الجواري والسراري. **﴿ذلك أدْنَى ألَّا تَعُولُوا﴾** ذلك أقرب ألَّا تجوروا ولا تميلوا، من عَالَ إذا مال وجار. **﴿وآتُوا النِّساءَ صَدُقَاتِهنَّ نِحْلَةً﴾** أعطوا النساء مهورهنَّ، عطية واجبةً وفريضة لازمة. **﴿فإن طِبْنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾** فإن طابت لكم أنفسهن بشيء من المهر فكلوه هنيئاً[٣] مريئاً. **﴿ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالَكُمْ﴾** ولا تؤتوا أيها الناسُ السفهاء من الصبيان والنساء أموالكم فيضيعوها ويفسدوها. **﴿التي جَعَلَ اللهُ لكم قِيَاماً﴾** التي جعلها الله قِواماً لحياتكم ومعاشكم. **﴿وارْزُقُوهُمْ فيها واكْسُوهُمْ﴾** وأنفقوا عليهم منها بالطعام، والشراب، والكسوة، وسائر الحاجات. **﴿وقُولُوا لهم قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾** قولوا لهم: إن صلحتم ورشَدتُم سلَّمنا إليكم أموالكم. **﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾** اختبروا عقول اليتامى، وصلاحهم في أديانهم وأموالهم، حتى إذا بلغوا الحُلُم. **﴿فإنْ آنستُمْ منهم رُشْداً﴾** فإن وجدتم وعرفتم منهم العقل، وإصلاح المال **﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾** فادفعوا إليهم أموالهم ولا تحبسوها عنهم **﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبِدَاراً أن يَكْبَروا﴾** ولا تأكلوها بغير ما أباحه الله لكم، إسرافاً لها ومبادرةخشية أن يبلغوا فيلزمكم تسليمهم أموالهم. **﴿ومن كان غنياً**

---

(١) قال ابن كثير معنى الآية إذا كان تحت حجْر أحدكم يتيمة، وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها، فليتزوج إن شاء ثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه

(٢) المراد بالعدل العدلُ في القسمة، وقال الضحاك في المجامعة والحب

(٣) المراد فكلوه حلالاً طيباً، وأصله من هَنُؤ الطعام ومَرُؤ إذا انساغ وانحدر إلى المعدة بدون ضرر

أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً

* * *

فلْيَسْتَعْفِفْ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ ومن كان منكم غنياً فليكفَّ عن مال اليتيم، ومن كان فقيراً فليأكل بقدر الحاجة والضرورة على وجه الاستقراض. **﴿فإذا دفعتُمْ إليهمْ أموالَهُمْ فأَشْهِدوا عليهم﴾** فإذا دفعتم إلى اليتامى أموالهم، فأشهدوا عليهم لئلا يجحدوا تسلمها. **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** وكفى بالله محاسباً وشهيداً. **﴿للرجال نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدان وَالأقْرَبُونَ﴾** للذكور من أولاد الميت حصةٌ من ميراث أقربائهم **﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأقْرَبونَ﴾** وللإناث منهم حصةٌ منه، **قال قتادة**: كانوا لا يورِّثون النساء فنزلت **﴿مِمَّا قلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ﴾** من قليل ما خلَّف الميت بعده وكثيره. **﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾** حصة مفروضة معلومة. **﴿وإذَا حَضَر القِسْمَةَ أُولوا القُرْبَى واليتَامَى والْمَساكِينُ﴾** وإذا حضر قسمة الميراث أقرباء الميت واليتامى والمساكين. **﴿فارزقوهم منه﴾** فاقسموا لهم ما طابت به أنفسكم[١]. **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** ادعوا لهم بالرزق والغنى. **﴿وَلْيَخْشَ الَّذينَ لو تَرَكُوا من خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً﴾** ولْيخف الذين لو تركوا بعد وفاتهم أولاداً صغاراً. **﴿خافوا عليهم﴾** خافوا عليهم الفقر والضياع. **﴿فَلْيتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾** فلْيخافوا الله في اليتامى الضعاف، إذا ولوا أمرهم، وليحسنوا إليهم[٢]، وليقولوا قولاً عدلاً وصواباً والمعنى: كما تحب أن يعامل الناسُ ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم. **﴿إنَّ الذينَ يَأْكُلونَ أَمْوالَ اليَتَامى ظُلْماً﴾** يأكلونها ظلماً بغير حق. **﴿إنما يأكلونَ في بُطُونهمْ نَاراً﴾** إنما يأكلون ناراً، تتأجج في بطونهم يوم القيامة. **﴿وَسَيَصْلَوْنَ سعِيراً﴾** وسيصطلون بنارٍ موقدة مشعَّلة، شديدة الحرِّ. **﴿يوصيكم اللهُ في أولادكم للذكر مِثْلُ حظِّ الأنثيين﴾** يعهد

---

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل إن الآية منسوخة بآية المواريث، وهو قول سعيد بن المسيَّب والضحاك، واختار الطبري أن المراد بها الوصية أي أوصوا لأولي القربى من أموالكم

(٢) هذا أحد أقوال ذكرها ابن جرير عن ابن عباس، وقد استحسنه ابن كثير، ويؤيده التهديد الذي جاء بعده ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً...﴾ الآية، فتذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك، وعامل اليتامى بمثل ما تريد أن يعامل به أبناؤك بعد فقدك

فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ
إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا

* * *

إليكم ربكم، إذا مات أحدكم وخلَّف أولاداً ذكوراً وإناثاً، فالمال لأولاده، للذكر منهم ضعف الأنثى، سواءٌ فيه الصغار والكبار[1] **﴿فإنْ كنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾** فإن كان المتروكات ـ بنات الميت ـ أكثر في العدد من اثنتين، فلبناته الثلثان من ميراثه، إذا لم يكن خلَّف ولداً ذكراً. **﴿وإن كانت واحدةً فلها النصفُ﴾** وإن كانت المتروكة ابنةً واحدة، فلها نصف الميراث. **﴿ولأبويهِ لكلٍّ واحدٍ منهما السُّدُسُ مِمَّا ترك إن كان له ولدٌ﴾** ولأبويْ الميت لكل واحدٍ منهما سدس التركة، إن كان للميت ولدٌ، ذكراً كان الولد أو أنثى. **﴿فإنْ لم يكنْ لهُ ولدٌ وورثَهُ أبواهُ فلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾** فإن لم يكن للميت ولدٌ ـ ذكرٌ ولا أنثى ـ وورثه أبواه دون غيرهما، فلأمه من تركته ثلث جميع المال، والثلثان للأب. **﴿فإنْ كانَ لهُ إخوةٌ فلأمهِ السُّدسُ﴾** فإن كان للميت إخوة ـ اثنين فأكثر، ذكريْن ،أو أُنثيـن،أو أحدهما ذكرٌ والآخر أنثى ـ فللأم سدس التركة، والباقي للأب، وإنما حجبوا أمهم من الثلث إلى السدس، لأن أباهم تلزمه نفقتهم دون أمهم. **﴿مِنْ بعدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾** من بعد قضاء دَيْن الميت، ومن بعد تنفيذ وصيته في حدود الثلث، وقد أجمعت الأمة على أن الدَّين مقدمٌ على الوصيَّة. **﴿آباؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهم أَقْرَبُ لكم نَفْعاً﴾** هؤلاء الذين أوصيناكم بتوريثهم، هم آباؤكم وأبناؤكم، وأنتم لا تعلمون أيهم أشد نفعاً لكم، في دنياكم وآخرتكم. **﴿فريضةً من اللهِ﴾** فريضة فرضها الله وبيَّنها لعبادة **﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** عليمٌ بما يُصلح خلقه، حكيمٌ في تدبيره. **﴿ولكم نِصْفُ ما تركَ أزواجكُمْ إنْ لم يكنْ لهنَّ ولدٌ﴾** ولكم ـ أيها الرجال ـ

---

(١) كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء، ويقولون كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سيفاً، ولا يقاتل عدواً !! فنزلت الآية تقرّر أن للصغير والكبير، والرجل والمرأة حقاً في الميراث وقد يتساءل البعض لم أعطيت المرأة نصف نصيب الرجل، مع أنها اضعف منه وأحوج للمال؟ والجواب أن الإسلام راعى الحاجة، فالتكليفات المالية التي يطالب بها الرجل أكبر، والتزاماته المادية أضخم، فهو المطالب بنفقة الأولاد، وعلاجهم، وإصلاحهم، وهو المطالب بنفقة المرأة، بدفع المهر، وتأمين المسكن، والمطعم والملبس، وسائر النفقات، والمرأة لا تتحمل شيئاً من التبعات، فهي تأخذ ولا تعطي، وتغنم ولا تغرم، وتدّخر ولا تنفق، ذلك لأن الفطرة الإنسانية، التي قام عليها بنيان المجتمع، هي التي جعلت المرأة قوّامة على البيت وتدبيره، ورعاية الأولاد وتهيئة راحتهم، وجعلت الرجل كادحاً بعمل خارج البيت، ويقدم المال المطلوب لميزانية الأسرة، فليس من العدل والإنصاف المساواة بين الرجل والمرأة، مع اختلاف النفقات والتبعات وانظر الحكمة بالتفصيل في كتابنا : المواريث في الشريعة الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة

تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

* * *

نصفُ ما ترك زوجاتكم من الميراث، إن لم يكن لهن ولدٌ، ذكرٌ أو أنثى. **﴿فإنْ كانَ لهنَّ ولدٌ فلكم الرُبع مما تركنَ﴾** فإن كان لزوجاتكم ولدٌ ـ ذكرٌ أو أنثى ـ فلكم ربع المال والميراث **﴿من بعد وصيةٍ يوصينَ بها أو دينٍ﴾** من بعد قضاء الدين، وتنفيذ وصاياهنَّ. **﴿ولهنَّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولدٌ﴾** ولزوجاتكم ـ أيها الرجال ـ ربع ما تركتم من مالٍ وميراث، إن لم يكن لكم ولد ـ ذكرٌ أو أنثى ـ. **﴿فإن كان لكم ولدٌ فلهُنَّ الثمن ممَّا تركتم مِنْ بَعْد وصيةٍ تُوصونَ بها أو دَيْنٍ﴾** فإن كان لكم ولدٌ ـ واحدٌ أو أكثر ـ فلزوجاتكم الثمن من أموالكم، بعد قضاء ديونكم، وإنفاذ وصاياكم. **﴿وإن كان رجلٌ يُورَثُ كلالةً أو امرأةٌ﴾** وإن كان رجل يُورث بطريق الكلالة، أو امرأةٌ تورث بطريق الكلالة، أي لا والد له ولا ولد[1] **﴿وله أخٌ أو أخْتٌ﴾** من أمٍ **﴿فلكل واحدٍ منهما السُدسُ﴾** فلكل واحدٍ من المذكورين، السدسُ من الميراث. **﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثُلُثِ﴾** فإن كان الإخوة والأخوات لأم، اثنين فأكثر فهم شركاء في الثلث، يتقاسمونه بالسويّة، لا يفضل ذكرٌ منهم على أنثى. **﴿مِنْ بَعْدِ وصيَّةٍ يُوصَى بهَا أو دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾** من بعد قضاء دين الميت، وإنفاذ وصيته التي لا إضرار فيها بالورثة[2] **﴿وَصِيَّةً مِنَ اللهِ﴾** يوصيكم الله بجميع ما ذُكر، وصيةٌ منه لعباده. **﴿واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾** عليمٌ بمصالح خلقه، حليمٌ لا يعاجل العقوبة **﴿تلكَ حدودُ اللهِ﴾** هذه الفرائض والأحكام التي شرعها الله لكم، هي الحدود بين طاعته ومعصيته، فلا تتعدوها. **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ يدخلْهُ جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنْهارُ﴾** ومن يطع الله، بالعمل بأوامره، واجتناب نواهيه، يدخله بساتين تجري من تحت غروسها وأشجارها أنهار الجنة. **﴿خالدين فيها﴾** باقين فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا يُخرجون منها. **﴿وذلك الفوزُ العظيمُ﴾** وذلك هو الفلاح العظيم. **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعدَّ حدودَهُ﴾** ومن يعص اللهَ بمخالفة أمره، وانتهاك حرماته، ويتجاوز ما حدَّه الله له من

---

(١) المراد بالكلالة من يرثه من حواشيه، لا أصوله ولا فروعه، ولهذا قال الصدِّيق الكلالة من لا ولد له ولا والد

(٢) بشرط أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة

يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ
فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ
فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ

* * *

الأحكام، إلى ما نهاه عنه. ﴿يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها﴾ يدخله ناراً باقياً فيها أبداً، لا يموت ولا يُخرج منها أبداً. ﴿وله عذابٌ مهينٌ﴾ وله عذابٌ مخزٍ مع الذل والإهانة.

﴿واللاتي يأتينَ الفاحشة من نسائِكم﴾ واللاتي يزنين من نسائكم، وهنَّ ذوات أزواج أو غير ذوات أزواج. ﴿فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم﴾ فاستشهدوا عليهن بما أتين من الفاحشة، أربعة رجالٍ من المسلمين. ﴿فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهنَّ في البُيوتِ حتَّى يَتوفَّاهنَّ الموتُ﴾ فإن شهدوا عليهن فاحبسوهنَّ في البيوت حتَّى يَمُتْنَ. ﴿أو يَجْعَلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً﴾ أو يجعل الله لهنَّ مخرجاً وطريقاً إلى النجاة، مما أتين به من الفاحشة، والسبيلُ للمحصن الرجمُ بالحجارةِ، وللبكر الجلدُ لحديث «خُذُوا عنّي خُذوا عنّي، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام، والثَّيِّبُ بالثيِّب جلدُ مائةٍ والرجمُ[1]» ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِهَا منكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ والرجل والمرأة، اللذان يفعلان فاحشة الزنا ـ إذا زنيا وكانا بكريْن غير محصنيْن ـ فآذوهما بالتعيير والتوبيخ، على ما أتيا من الفاحشة. قال ابن عباس: بالتعيير وضرب النِّعال ﴿فإنْ تَابَا وأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عنهما﴾ فإن تابا عن الزنا، وأصلحا أمرهما بالعمل بما يرضي الله، فاصفحوا عنهما، وكفوا الأذى. ﴿إنَّ اللهَ كانَ تَوَّاباً رحيماً﴾ كان اللهُ ـ ولم يزل ـ كثير التوبة، رحيماً بالعباد.

﴿إنَّما التَّوْبةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ إنما يتقبل الله التوبة ممن عصوا ربَّهم حال جهالتهم وهم به مؤمنون. ﴿ثُمَّ يتوبونَ من قريب﴾ ثم تابوا سريعاً قبل نزول الموت بهم. ﴿فأولئِكَ يتوبُ اللَّهُ عليهِمْ﴾ يتقبَّل توبتهم ﴿وكَانَ اللَّهُ عَليماً حَكِيماً﴾ عليماً بالمنيبين من عباده، حكيماً في أفعاله وتدبيره ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وليست التوبة المقبولة عند الله للمُصرِّين على معاصي الله ﴿حتَّى إذا حَضَر أحَدَهُم الموتُ قال إني تُبْتُ الآن﴾ حتى إذا حَشرج أحدهُم بنفسه،

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً

أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا

* * *

وعاين ملائكة ربه أقبلتْ لقبض روحه ، تاب وأناب ، فليس لهذا عند الله توبة لحديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ »[1] ﴿وَلَا الذينَ يَموتونَ وهم كُفَّارٌ﴾ وليست التوبة لمن ماتوا على الكفر **﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾** أعددنا لهم عذاباً موجعاً

﴿يا أيها الذين آمنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً﴾ لا يحل لكم ـ أيها المؤمنون ـ أن ترثوا نكاح نساء أقاربكم بدون رضى منهن . كانوا في الجاهلية إذا مات الزوج، كان ابنه أو قريبه أحقَّ بالمرأة من غيره، إن شاء نكحها، وإن شاء عَضَلها فمنعها من الزواج حتى تموت، فحرَّم الله ذلك، وحظر عليهم نكاح زوجات آبائهم وعضلهنّ **﴿ولا تَعْضُلُوهُنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ﴾** ولا يحل لكم أيها المؤمنون، أن تحبسوا نساءكم وتُضيِّقوا عليهن، مضارة لهنَّ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من المهر. **قال ابن عباس:** الرجل تكون له المرأة ـ وهو كارهٌ لصحبتها ـ ولها عليه مهرٌ، فيُضِرُّ بها لتفتدي نفسها منه. **﴿إلَّا أَنْ يأتينَ بفَاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾** إلَّا إذا أتين بفاحشةٍ ظاهرة، كالزنا، والعصيان، وبذاءة اللسان[2] فيحلُّ لكم التضييق عليهنَّ حتى يفتدين منكم . **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ﴾** وصاحبوهنَّ بالمعروف والإحسان، كما أمركم الله تعالى[3] **﴿فإن كرهتموهُنَّ﴾** فإن كرهتموهنَّ فأمسكوهنَّ ولا تطلقوهن . **﴿فَعَسَى أَنْ تكرهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كثيراً﴾** فلعلكم أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيراً كثيراً : **قال ابن عباس** :أن يعطف عليها، فيرزق منها ولداً صالحاً. **﴿وإنْ أردتم استبدال زوجٍ مَكَانَ زوجٍ﴾** إذا أردتم نكاح امرأةٍ، مكان امرأة لكم أردتم تطليقها. **﴿وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً﴾** وقد أعطيتم التي

(١) أي ما لم يصبح في سكرات الموت تبلغ الروح الحلقوم ، والحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد

(٢) قال ابن مسعود « الفاحشة المبيّنة » الزنا ، إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصّداق ، وقال ابن عباس الفاحشة هي النشوز والعصيان ، واختار الطبري العموم

(٣) المراد بالمعاشرة بالمعروف الملاطفة والمؤانسة ، وتطييب القول ، والمعاملة بحسن الخُلق ففي الحديث « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وقد كان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى إنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها ، يؤانس نساءه بذلك ، وهو ﷺ المثل الأعلى للمؤمنين

فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن

* * *

تريدون طلاقها قنطاراً من المال، أي مالاً كثيراً. ﴿**فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً، ولو كان المهر كثيراً ﴿**أَتَأْخذونهُ بُهْتَاناً وإثماً مُبيناً**﴾ أتأخذونه ظلماً بغير حق، وذنباً ظاهراً جلياً؟ ﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ**﴾ على أيِّ وجهٍ تأخذون ما آتيتموهنَّ، وقد وصل كل منكم إلى الآخر بالمباشرة والجماع؟! **قال ابن عباس**: الإفضاءُ المباشرةُ، ولكنَّ اللهَ كريمٌ يَكْني. ﴿**وأخَذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ أخذن عهدكم عند النكاح، على الإمساك بالمعروف، أو التسريح بإحسان، وفي الحديث «استوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانةِ اللهِ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[1]» **قال مجاهد**: الميثاقُ الغَليظُ، كلمةُ النكاح التي استحلَّ بها فرجها.

﴿**ولا تَنْكِحُوا ما نكح آبَاؤُكُمْ من النساء**﴾ ولا تنكحوا كنكاح آبائكم في الجاهلية على الوجوه الفاسدة[2] ﴿**إلاَّ ما قد سَلَفَ**﴾ إلاَّ ما قد مضى، فإنَّ الله قد عفا عنه. ﴿**إنه كان فاحشةً ومقتاً**﴾ فإنه معصيةٌ،وشيءٌ ممقوتٌ يُبغضه الله﴿**وساءَ سبيلاً**﴾ بئس طريقاً ومنهجاً، ما كنتم تفعلونه في الجاهلية، حرَّم الله نكاح حلائل الآباء، وكل نكاح سواه ممَّا كانَ أهل الجاهلية يتناكحونه في شركهم. ﴿**حُرِّمَتْ عليكُمْ أمهاتكُمْ وبناتُكمْ وأخواتُكمْ وعمَّاتُكمْ وخالاتُكم وبناتُ الأخ وبناتُ الأختِ**﴾ حُرِّم عليكم نكاحُ أمهاتكم وبناتكم. الخ والمحرماتُ من النسب سبعٌ، ثم بيَّن المحرمات من الرضاع فقال: ﴿**وأمهاتكم اللاَّتي أرضعنكم وأخواتكُمْ من الرَّضاعةِ**﴾ ويحرم عليكم نكاح أمهاتكم المرضعات، وأخواتكم من الرضاعة وفي الحديث «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب[3]». ثم بيَّن المحرمات بالمصاهرة فقال: ﴿**وأمهاتُ نسائكم**﴾ وأمهاتُ زوجاتكم مطلقاً، فإن أم المرأة تحرم بمجرد العقد على البنت ﴿**وربائبكُمُ**

---

(١) رواه مسلم، وهو جزء من خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع

(٢) فسَّر ابن جرير ﴿ما نكح آباؤكم﴾ أي كنكاح آبائكم، فجعل «ما» مصدرية، وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ «ما» اسم موصول أي لا تنكحوا حلائل الآباء الذين نكحهم آباؤكم ولعل هذا أظهر والله أعلم

(٣) رواه مسلم، ومعناه أنه كما تحرم الأمهات، والبنات، والأخوات، والخالات، والعمات، وبنات الأخ، وبنات الأخت من النسب، فكذلك يحرم مثلهن من الرضاع

نِسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ

* * *

اللاَّتي في حُجُوركم من نسائكم اللاَّتي دخلتم بهنَّ﴾ وحرامٌ عليكم نكاح الربائب، جمع ربيبة وهي ابنة امرأة الرجل، إذا دخل بأمها بطريق الجماع. **﴿فإن لم تكونُوا دخلتُمْ بهنَّ فلا جُنَاح عليكم﴾** فإن لم تكونوا جامعتموهنَّ، فلا حرج عليكم في تزوُّح بناتهنَّ من غيركم **﴿وحَلاَئلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذينَ مِنْ أَصْلاَبكم﴾** وأزواج أبنائكم الذين ولدتموهم، دون الذين تبنَّيتموهم، سميت المرأة «حليلةً» لأنها تحِلُّ معه في فراش واحدٍ **﴿وأن تَجْمعُوا بين الأختين﴾** في التزوج **﴿إلاَّ ما قد سَلَف﴾** لكنْ ما مضى فقد عفا الله عنه. **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** رحيماً بعباده حيث لم يحمِّلهم ما لا يُطيقون. **﴿والمُحْصَناتُ من النِّساءِ إلا ما ملكتْ أَيْمانُكم﴾** وحُرِّم عليكم المزوَّجات من النساء إلا السَّبايا، **قال ابن عباس**: كلُّ ذاتِ زوجٍ إتيانُها زناً، إلاَّ ما سبيْت[١] **﴿كتابَ اللهِ عليكم﴾** كتاباً من الله عليكم أي فرض ذلك عليكم فرضاً **﴿وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلكم﴾** وأحِلَّ لكم ما عدا هؤلاء اللواتي حرمتهنَّ عليكم. **﴿أن تَبْتَغُوا بأموالِكُمْ﴾** أن تطلبوا وتلتمسوا بأموالكم. **﴿مُحْصِنينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾** أعفَّاء غير زانين[٢] **﴿فَمَا اسْتَمتعتُمْ بهِ مِنْهُنَّ﴾** فما نكحتم من النساء فجامعتموهنَّ[٣] **﴿فآتوهنَّ أجورهنَّ فريضةً﴾** فأعطوهنَّ مهورهنَّ فريضةً معلومة **﴿ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾** ولا حرج عليكم -أيها الناس- فيما تراضيتم به مع نسائكم، على إسقاط وحطِّ بعض المهر كقوله تعالى « فإنْ طِبْنَ لكمْ عن شيءٍ منه نَفْساً فكُلوه هنيئاً مريئاً » **﴿إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً﴾** عليماً بما يُصلح العباد، حكيماً في تشريعه وتدبيره. **﴿ومن لم يستطعْ منكم طَوْلاً أن ينكح المحصَنَاتِ المؤمناتِ﴾** ومن لم يجد منكم سَعَةً من مال، لنكاح الحرائر المؤمنات. **﴿فمِمَّا ملكتْ**

---

(١) السَّبْيُ ما يغنمه المجاهدون من نساء الكفار حال الحرب، وهنَّ المملوكات بملك اليمين

(٢) قال مجاهد السِّفاح الزنا سُمي سفاحاً من السَّفح وهو الصبُّ لأن الزاني لا غرض له إلا سفح النطفة

(٣) اتفق المفسرون على أن المراد بقوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهنَّ﴾ الاستمتاع بالنكاح والصَّداق، وذهب الشيعة إلى أن المراد به « نكاح المتعة » وهذا باطلٌ لثبوت التحريم القطعي للمتعة، وهو إجماع أجمع عليه الفقهاء والعلماء، وانظر الأدلة الشرعية والعقلية على تحريم المتعة في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ١ / ٤٥٨

أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

* * *

أَيمانُكم من فَتَياتِكُمُ المؤمِناتِ﴾ فلْيَنْكِحْ من الإماء المؤمنات، غير المشركات من عَبَدة الأوثان. **﴿واللهُ أعلمُ بإيمانكم﴾** هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، فكِلُوا سرائرهنَّ إلى الله **﴿بعضُكم من بعضٍ﴾** أنتم من نفسٍ واحدة. **﴿فَانْكحوهُنَّ بإذنِ أَهْلِهِنَّ﴾** فتزوجوهن برضى أربابهنَّ. **﴿وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروفِ﴾** وأعطوهن مهورهن على ما تراضيتم به **﴿مُحْصَناتٍ غير مُسَافِحَاتٍ ولا متخذاتِ أَخْدانٍ﴾** عفيفاتٍ غير زانيات، ولا متخذات أخلاَّء وأصدقاء للفجور بهنَّ سرّاً. **قال قتادة**: المسافِحةُ: البغيُّ التي تؤاجر نفسها لمن عَرَض لها، و«ذات الخِدْن» ذات الخليل الواحد، تزني به ولا تزني بغيره. **﴿فإذا أُحْصِنَّ فإنْ أتينَ بفاحشةٍ﴾** فإذا تزوجن فصرن ممنوعات الفروج بالأزواج، فإن زنين بعد الإحصان. **﴿فعليهنَّ نصفُ ما عَلَى المحصَنَاتِ من العَذَابِ﴾** فعليهنَّ نصفُ ما على الحرائر من الحدِّ، وهو خمسون جلدة[1] **﴿ذلكَ لمنْ خَشِيَ الْعَنَتَ منكُمْ﴾** إنما أبحتُ نكاح الإماء، لمن خاف منكم الوقوع في الزنا. **﴿وأنْ تَصْبِروا خيرٌ لكم﴾** والصبرُ عن نكاح الإماء خيرٌ لكم. **﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** ساترٌ لذنوب عباده، رحيمٌ بهم. **﴿يريدُ اللهُ ليبيِّن لكم﴾** يريد الله أن يُبيِّن لكم الحلال والحرام. **﴿ويهدِيَكم سُنَنَ الَّذينَ من قبلِكُمْ﴾** ويرشدكم إلى سبل ومناهج من قبلكم من أهل الإيمان. **﴿ويتوبَ عليكُمْ﴾** فيما سلف منكم **﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** عالمٌ بما يصلح العباد، حكيمٌ في تدبيره **﴿واللهُ يريدُ أن يتوبَ عليكمْ﴾** يعفو عما سلف من آثامكم. **﴿وَيُريدُ الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾** ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم **﴿أنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً﴾** أن تميلوا عن الحق وترتكبوا المعاصي والآثام. **﴿يريدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ﴾** ييسِّر عليكم أمور الدين **﴿وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾** فقد خلقتم عجزةً ضعفاء، قليلي الصبر في أمر النساء.

---

(١) المراد بالعذاب «الجَلْد» لا الرجم، لأنه تعالى لما نصَّف العقوبة، عرفنا أن المراد بها عقوبة الجلد، لأن الرجم لا يتنصَّف، وهذا متفق عليه بين العلماء

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ

* * *

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لا يأكل بعضكم أموال بعض بالحرام، كالربا والقمار وغير ذلك مما حرَّمه الله. ﴿إلاّ أَنْ تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم﴾ إلا ما كان بطريق التجارة، والبيع، والعطاء عن رضى منكم[1] ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ولا يقتل بعضكم بعضاً. ﴿إنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحيماً﴾ ومن رحمته بكم أن حرَّم دماء بعضكم على بعض ﴿وَمَنْ يفعلْ ذلِكَ عُدْواناً وظلماً﴾ ومن يقتل أخاه المؤمن تعدِّياً وظلماً، ويفعل ماحرَّم الله عليه. ﴿فسوفَ نُصْليهِ ناراً﴾ فسوف نورده ناراً يحترق فيها. ﴿وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً﴾ كان عذابه سهلاً يسيراً على الله، لا يصعب الوفاءُ به، لأن الظالم في قبضته. ﴿إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَونَ عنه نكَفِّرْ عنكم سيئاتكم﴾ إن تجتنبوا ـ أيها المؤمنون ـ كبائر الذنوب، نكفِّر عنكم الصغائر[2] ﴿ونُدْخلكم مُدْخلاً كريماً﴾ وندخلكم الجنة دار الهناء والسعادة التي لا هموم فيها، ولا أحزان، ولا أكدار ﴿ولاَ تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بعضكم على بعضٍ﴾ ولا تتمنوا الذي فضَّل الله به بعضكم على بعض، من منازل الفضل ودرجات الخير، وليرْضَ أحدكم بما قسم اللهُ له[3] ﴿للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا وللنِّساءِ نصيبٌ ممَّا اكتسبْنَ﴾ للرجال نصيبٌ من ثواب الله وعقابه، ممَّا اكتسبوه من خير أو شر، وللنساء نصيبٌ مثل ذلك ﴿واسألوا اللهَ من فضلِهِ﴾ واسألوا اللهَ توفيقه ومعونته على ما يرضيه ﴿إنَّ اللهَ كان بكلِ شيءٍ عليماً﴾ عليماً بما يُصلح العباد، فيما قسم لهم من خير، فسلموا الأمر إليه وارضوا بقضائه. ﴿ولكلٍ جعلنا مواليَ ممَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ﴾ ولكل الناس جعلنا ورثةً من بني

---

(١) قال الطبري وفي الآية تكذيبٌ لقول الجهلة من المتصوِّفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات، فالتاجر الأمين الصدوق في ظل عرش الله يوم القيامة

(٢) الكبائر: كل ما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ مع الوعيد كالشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرمها الله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والزنا بحليلة الجار الخ

(٣) قال مجاهد قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث!! فنزلت الآية

عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا
فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ
وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ

* * *

عمه، وإخوته وسائر عصبته، يرثونه ممَّا تركه والداه وأقرباؤه من الميراث ﴿والذينَ عَقَدتْ أيْمانُكُمْ فآتوهُمْ نصيبهم﴾ والذين تعاقدتم معهم بطريق الحِلْف، فأعطوهم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرأي[1] ﴿إنَّ الله كان على كل شيء شهيداً﴾ شاهداً على أفعالكم، وسيجازيكم عليها ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ على النِّساءِ﴾[2] الرجال لهم درجة القوامة على نسائهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهنَّ. ﴿بما فضَّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم﴾ بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصَّهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على شؤون النساء كما يقوم الولاة على الرعايا بالحفظ والرعاية وتدبير الشؤون، ولذلك كانوا نافذي الأمر عليهن ﴿فالصَّالحاتُ قَانِتَاتٌ حافِظَاتٌ لِلْغَيْب بما حَفِظَ الله﴾ فالصالحاتُ مطيعاتٌ للهِ ولأزواجهن، حافظاتٌ لأنفسهنَّ في غيبة أزواجهن، بحفظ اللهِ إياهنَّ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير[3] ﴿واللاَّتي تَخافُونَ نَشُوزَهُنَّ﴾ استعلاءهن عليكم، وعصيانهن لأوامركم ﴿فعظوهنَّ﴾ ذكّروهنَّ الله، وخوّفوهنَّ وعيده. ﴿واهجروهنَّ في المضاجـع﴾ اهجروا مضاجعتهن وجماعهنَّ. قال مجاهد: لا تضاجعوهن على فراش واحد، وقال سعيد بن جبير: الهجرُ هجرُ الجماع[4] ﴿واضربوهنَّ﴾ ضرباً غير شائن[5] ﴿فإن أطعنكُمْ فلَا تَبْغُوا عَليهنَّ سبيلاً﴾ فإن أطعنكم فلا

---

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري، وذهب غيره إلى أن المراد فأعطوهم نصيبهم من الميراث، ثم نسخ بآية المواريث

(٢) ليست قوامة الرجل على المرأة قوامة استبداد واستعباد، وإنما هي قوامة توجيه وإرشاد، فقد قضت السنَّة الكونية أن يكون في الأسرة قيِّمٌ، يدير شؤونها، ويتعهد أحوالها، وينفق من ماله عليها، لتؤدي رسالتها على أكمل الوجوه، ولما كان الرجل أقدر على تحمل هذه المسؤولية من المرأة، بما وهبه الله من العقل، وقوة الإرادة والعزم، وبما كلَّفه من السعي والإنفاق على الزوجة والأولاد، كان هو الأحق بهذه القوامة، التي هي في الحقيقة درجة «مسؤولية وتكليف» لا درجة «تفضيل وتشريف» إذ هي مساهمة في تحمل الأعباء، وليست للسيطرة والاستعلاء

(٣) في الحديث الشريف «ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»

(٤) ذهب الطبري إلى أن المراد بالهجر الربط بالهجار، أي شدّوهن وثاقاً في منازلهن، وهو ضعيفٌ، والجمهور أن المراد هجر الفراش وهجر المضاجعة

(٥) يشترط في الضرب أن يكون غير مبرِّح، لأن الغرض التأديب لا التحطيم، وهو علاجٌ لبعض الحالات الشاذة، التي لا ينفع فيها إلا هذا الدواء، وكما يقول العرب آخر الدواء الكيُّ فالمرأة إذا طغت وبغت، وأساءت عشرة زوجها، وركبت رأسها وسارت وراء الشيطان وبقيادته، لا ترعوي ولا تكف عن غيِّها وضلالها، فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشد القرآن الكريم إلى الدواء، فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ =

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ * وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

* * *

تلتمسوا طريقاً لايذائهنَّ ﴿إنَّ اللهَ كَانَ علياً كبيراً﴾ فإنَّ الله أعلى منكم وأكبر، فلا تظلموهنَّ فيتتصر لهنَّ منكم ﴿وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا حَكَماً مِنْ أهله وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾ وإن علمتم العداوة والشقاق بين الزوجين، فأرسلوا حكمين عدلين، واحداً من أقربائه، وواحداً من أقربائها، لينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة. ﴿إنْ يُريدا إصلاحاً يُوفق اللهُ بينهُمَا﴾ إن قصد الحَكَمان إصلاحاً بين الزوجين، وفَّقهما الله للحقِّ والصواب. ﴿إنَّ الله كان عليماً خبيراً﴾ عالمٌ بما أراد الحكمان، خبيرٌ بنيَّاتهما.

﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشْركوا به شيئاً﴾ أفردوا اللهَ بالعبادة والطاعة، ولا تجعلوا له في الربوبيَّة شريكاً. ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وآمركم بلزوم البرِّ والإحسان إلى الوالدين. ﴿وبِذي القُرْبى واليتامَى والمساكين﴾ واستوصوا بالقريب، واليتيم، والمسكين خيراً، وتعطَّفوا عليهم، والزموا وصيتي فيهم ﴿والجار ذي القربى﴾ والجار الذي بينك وبينه قرابة. ﴿والجَارِ الجُنُبِ﴾ والجار البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة، مسلماً كان أو مشركاً ﴿والصَّاحِب بالجَنْبِ﴾ وبالرفيق في السفر، والزوجة المصاحبة، والصديق المرافق ﴿وابْنِ السَّبِيلِ﴾ والمسافر المنقطَع في سفره. ﴿وما ملكت أيمانُكم﴾ من العبيد والأرقاء ﴿إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كَانَ مختالاً فخوراً﴾ لا يحبُّ المتكبرين المفتخرين على عباد الله. ثم بيَّنهم بقوله ﴿الذينَ يَبْخَلونَ وَيَأْمرونَ الناس بالبخلِ﴾ هم الذين يبخلون بفضلِ ما رزقهم الله، ويأمرون الناس بالبخل وترك الإنفاق. ﴿ويكتمون ما آتاهم اللهُ من فضلِهِ﴾ ويكتمون نبوة محمد ﷺ وصفته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ وهيأنا للجاحدين نعمة الله، المكذبين بنُبوَّة محمد ﷺ، عذاباً شديداً مع الذل والإهانة. ﴿والَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رئاءَ النَّاسِ﴾ ينفقونها مراءاة الناس في غير طاعة الله، ولكنْ في سبيل

=والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنفع كلُّ هذه الوسائل، فقد أذن له بالضرب ضرباً غير مبرح، لكسر غطرستها وكبريائها، وإخراج الشيطان من رأسها، وهذا خيرٌ من طلاقها، لأن الطلاق هدم للأسرة، وتمزيق لشملها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأعظم، كان ارتكاب الأخفِّ حسناً وجميلاً كما قيل «وعند ذكر العمى يُستحسن العَوَرُ»

﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ﴾

***

الشيطان ﴿ولا يُؤمنونَ باللهِ ولا باليوم الآخرِ﴾ ولا يصدِّقون بوحدانية الله، ولا بالبعث بعد الممات ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ ومن يكن الشيطان صاحباً وصديقاً له، فبئس هذا الصديق والخليل. ﴿وَمَاذَا عليهِمْ لَوْ آمَنُوا باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أيُّ شيءٍ على هؤلاء المرائين بأعمالهم، لو صدَّقوا بوحدانية الله، وأخلصوا له العمل، وأيقنوا بالبعث بعد الممات!! ﴿وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ وأدَّوا زكاة أموالهم، ابتغاء وجه الله، ولم ينفقوها التماس الذكر والفخر!! ﴿وكانَ اللهُ بهم عليماً﴾ عالمٌ بما يقصدون ويريدون بإنفاقهم، وسيجازيهم بأعمالهم. ﴿إنَّ اللهَ لا يظلم مثقال ذَرَّةٍ﴾ لا يبخس أحداً من خلقه وزن ذرةٍ[1] من عمله ﴿وإنْ تكُ حسنَةً يضاعفْها﴾ وإن تكن هذه الذرة حسنةً، يضاعفْ لها ثوابها وأجرها. ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ويعطه من عنده أجراً كبيراً، وهو الجنة دار المتقين. ﴿فكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمةٍ بشهيدٍ﴾ فكيف بهم إذا جئنا من كل أمة بمن يشهد عليها بأعمالها؟ ﴿وجئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً﴾ وجئنا بك يا محمد شاهداً على أمتك[2]؟ ﴿يومئذٍ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ في ذلك اليوم يتمنى الذين جحدوا وحدانية الله، وعَصَوْا رسوله ﴿لَوْ تُسَوَّى بهمُ الأَرْضُ﴾ لو سوَّاهم الله بالأرض، فصاروا تراباً مثلها، كما يفعل بالبهائم «ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تُراباً» ﴿ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً﴾ وتمنَّوا أنهم لم يكونوا كتموا الله حديثاً، لأن الله يفضحهم ويذلهم بشهادة جوارحهم عليهم.

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تَقربوا الصَّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ لا تُصلُّوا وأنتم سكارى من الخمر، حتى تعرفوا ما تقولون في صلاتكم. .وكان هذا قبل تحريم الخمر[3] . قال مجاهد:

(١) الذرة قيل إنها النملة الصغيرة الحمراء، وقيل إنها الهباءة التي ترى في شعاع الشمس

(٢) روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ « إقرأ عليَّ القرآن، فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال نعم فإني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال حسبك الآن، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان »

(٣) روي في سبب نزول الآية، أن بعض الصحابة شرب الخمر وحانت صلاة المغرب، فقدموا أحدهم إماماً فقرأ « قل يا أيها الكافرون لا أعبُد =

عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ
ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ
ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا

***

نُهوا أن يُصلُّوا وهم سكارى، فكانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات، ثم نسخها تحريمُ الخمر. ﴿ولا جُنُباً إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنبٌ ـ إلاَّ إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماءَ فتيمَّموا وصلُّوا ـ حتى تغتسلوا من الجنابة[١] ﴿وإنْ كنتم مرضى أو على سَفَرٍ﴾ وإن كنتم مرضى بجراحٍ أو قروح، وأنتم مقيمون غير مسافرين، أو كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنبٌ. ﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾ أو قضى أحدكم حاجته ببولٍ أو غائط ﴿أو لاَمَسْتُمُ النِّساءَ﴾ أو عاشرتم النساء بالجماع ﴿ولم تجدوا ماءً﴾ ولم تجدوا ماءً تتطهرون به من الجنابة أو الحدث الأصغر ﴿فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾ فاقصدوا وتعمَّدوا تراباً طاهراً من الأقذار والنجاسات، أو تعمَّدوا وجه الأرض الطاهرة ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ فتطهروا بالتراب فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم، ثم صلُّوا[٢] ﴿إنَّ اللهَ كان عفُوّاً غَفُوراً﴾ عفواً عن ذنوب عباده، ساتراً لخطاياهم.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً مِنَ الكتاب﴾ ألم تر بقلبك يا محمد فتعلم حال اليهود، الذين أعطوا حظاً من كتاب الله ﴿يشترون الضلالة﴾ يختارون الضلالة على الهدى، بتركهم الإيمان وتكذيبهم لمحمد عليه السلام. ﴿ويريدون أن تَضِلُّوا السبيلَ﴾ويحبون أن تضلّوا ـ يا معشر أصحاب محمد ـ عن سبيل الحق والهدى، فتكونوا مثلهم. ﴿واللهُ أَعْلَمُ بأعدائِكُمْ﴾ والله أعلم منكم، بعداوة هؤلاء اليهود لكم، فلا تقبلوا نصيحتهم فتهلكوا. ﴿وكفى باللهِ ولياً وكفى باللهِ نصيراً﴾ حسبكم الله ولياً، وحسبكم الله ناصراً، يرعاكم وينصركم على أعدائكم، فثقوا به وعليه توكلوا. ﴿من الذين هَادُوا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾ هؤلاء الأعداء هم من اليهود، الذين يبدّلون الكلام في التوراة عن أماكنه ووجوهه الصحيحة[٣]﴿ويقولون سمعنا

= ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، وأخذ يخلط فيها ، فنزلت الآية

(١) وقيل المراد من الصلاة أماكنها وهي المساجد أي لا تقربوا المساجد للصلاة فيها حتى تغتسلوا

(٢) التيمم يجزىء عن الوضوء وعن الغسل عند فقد الماء ، وقد نبهت الآية الكريمة إلى النوعين ، فأشارت بقوله ﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾ إلى الحدث الأصغر ، وبقوله ﴿أو لامستم النساء﴾ إلى الحدث الأكبر لأنه كناية عن الجماع ، وهو اختيار الطبري

(٣) أي يفسرونه بغير مراد الله عز وجل

فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

***

وعصينا﴾ ويقولون سمعنا يا محمد قولك، وعصينا أمرك ﴿واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ﴾ اسمعْ منَّا لا أسمَعَكَ اللهُ ﴿وَرَاعِنَا﴾ راعنا سمعك أي افهمْ عنَّا وأفْهِمْنا. ﴿ليَّاً بألسنَتِهِمْ وَطعْناً في الدِّين﴾ تحريكاً منهم بألسنتهم لتحريف معناه(١)، وطعناً في دين الله. كانوا يسبُّون رسول الله ﷺ، ويؤذونه بالقبيح من القول، شتماً له واستهزاءً، فيقولون: اسمعْ لا سمعتَ، وراعنا، يقصدون الدعاء عليه بالصَّمم، والرعونة وهي كلمة مسبَّة عند اليهود. ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ ولو أن هؤلاء اليهود قالوا: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك. ﴿واسمعْ وانظرنا﴾ واسمع منا ما نقول، وانتظرنا حتى نفهم ما تقول لنا. ﴿لكانَ خيْراً لهمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان ذلك خيراً لهم عند الله، وأصوب وأعدل في القول. ﴿ولكنْ لعنهم اللهُ بكفرهم﴾ ولكنْ أخزى الله اليهود، فطردهم وأبعدهم عن رحمته، بجحودهم نبوة محمد ﷺ، وما جاءهم به من الهدى والبيِّنات. ﴿فلا يؤمنونَ إلَّا قليلاً﴾ فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً(٢) ﴿يا أيها الَّذينَ أُوتوا الْكِتَابَ آمنُوا بِمَا نَزَّلنـا مُصَدِّقاً لمَا مَعَكُمْ﴾ يا معشر اليهود آمنوا بما نزَّلنا على محمد ﷺ من القرآن، مصدِّقاً لما معكم من التوراة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِس وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها، حتى تصير كالأقفاء(٣)﴿أونلعنهم كما لعنَّا أصحابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم فنمسخهم قردة، كما فعلنا بالذين اعتدوا في السبت «فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين» ﴿وكان أمرُ الله مفعولاً﴾ لا يمتنع عليه شيء مما أراده. ﴿إنَّ اللهَ لا يغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويغفِرُ ما دونَ ذلِكَ لمن يشاءُ﴾ لا يغفر الكفر والإشراك به، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب والآثام لمن شاء من عباده. أبانت الآية أن كلَ صاحب كبيرة في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله. ﴿ومن يشركْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ فقد اختلق إثماً

---

(١) الليُّ الفتلُ أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل.

(٢) أي إيماناً غير نافع لهم عند الله، كإيمانهم بموسى، واعتقادهم بأنهم أحباب الله الخ

(٣) المراد أن نطمس منها حواسّها فلا نبقي لها سمعاً، ولا بصراً، ولا أنفاً، وروي عن ابن عباس أن المراد بالآية أن يجعل وجوههم من قِبَل أقفيتهم فيمشون القهقرى

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ
اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ
عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

***

عظيماً، وجرماً كبيراً، بجحوده وحدانية الله. ﴿ألم تر إلى الذين يزكُّون أنفسهم﴾ هم اليهود والنصارى قالوا: لا ذنب لنا ولا خطايا، ونحن أبناء الله وأحباؤه. ﴿بلِ اللهُ يُزكّي مَنْ يَشاءُ﴾ بل اللهُ يزكي من يشاء من خلقه، فيطهِّره من الذنوب. ﴿ولا يُظلمون فتيلاً﴾ ولا يُظلم أحد شيئاً من حقه، ولو كان بمقدار الفتيل[1] ﴿أنظُرْ كيف يفترون على الله الكذب﴾ انظر كيف يختلقون على الله الكذب والزور. ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ وحسبهم بهذا الافتراء ذنباً واضحاً، يبيِّن أنهم كَذَبة فجرة. ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أُعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه ﴿يؤمنون بالجبتِ والطّاغوتِ﴾ يُصدِّقونَ بكل ما عُبد من دون الله، من حجر، وكاهن، وشيطان، وكل رأس في الضلال[2] ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ لمشركي قريش ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أنتم أهدى من محمد وأصحابه ديناً، قال عكرمة: لما قدم «كعب ابن الأشرف» مكة، قال له المشركون: أنت سيدنا وسيِّد قومك، فاحكم بيننا وبين هذا الأبتر ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فقال كعب اليهودي: أنتم والله أهدى منه، ودينكم خيرٌ من دينه فنزلت ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أخزاهم الله فأبعدهم من رحمته. ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ ومن يلعنه الله، فلن تجد له ناصراً ينصره من عقوبة الله ﴿أم لهم نصيبٌ من الملك﴾ ليس لهم حظٌ من الملك، ولو كان لهم حظٌ ونصيب من الملك. ﴿فإذاً لا يؤتون النّاس نقيراً﴾ فإذاً لم يكونوا يعطون الناس نقيراً[3] من بخلهم. ﴿أم يَحْسُدونَ النّاس عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ من فضله﴾ أم يحسد هؤلاء اليهود النبي ﷺ على النبوة التي فضَل الله بها محمداً، وشرَّف بها العرب؟ ﴿فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فقد أعطينا أهل إبراهيم الصحف، وسائر ما آتيناهم من الكتب. ﴿وآتيناهم مُلْكاً عظيماً﴾ وأعطينا ـ من ذريته ـ سليمان ملكاً

(١) الفتيل: ما فتلته بين أصبعيك أو ما يكون [illegible] يضرب مثلاً للشيء التافه الحقير
(٢) الجبت والطاغوت قيل: صنمان، [illegible] من حجر، أو مدر، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت
(٣) النقير: النقرة التي في ظهر النواة. [illegible] مثل للشيء اليسير الحقير

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا
كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟
بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟
ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ

***

واسعاً، فلماذا لا يحسدون آل إبراهيم، ويحسدون محمداً والعرب؟ **﴿فمنهم من آمنَ به ومنهم من صدَّ عنه﴾** فمن اليهود من صدَّق بما أنزلنا على محمد ﷺ ومنهم من أعرض عن التصديق به **﴿وكفى بجنهم سعيراً﴾** وحسبُ المكذبين نار جهنم تُسعَّر وتوقد **﴿إن الذينَ كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً﴾** جحدوا آيات القرآن فلم يصدِّقوا بها، سوف نشويهم في نار شديدة. **﴿كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العَذَابَ﴾** كلما احترقت جلودهم بدلناهم بجلود أخرى(١)، ليجدوا ألم العذاب وشدته **﴿إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حكيماً﴾** عزيزٌ في انتقامه، حكيمٌ في تدبيره وقضائه **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** سندخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة. **﴿خالدين فيها أبداً﴾** باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع. **﴿لهم فيها أزواجٌ مطهّرةٌ﴾** لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى **﴿وَنُدْخلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً﴾** وندخلهم ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس.

﴿إنَّ الله يأمركم أنْ تؤدوا الأماناتِ إلى أهلِها﴾ إنَّ الله يأمركم ـ يا معشر الحكام ـ أن تؤدوا حقوق الرعية إليهم، من الغنيمة والفيء، وسائر الحقوق التي ائتُمنتم عليها **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعَدْل﴾** ويأمركم إذا حكمتم بين الرعية، أن تحكموا بالعدل والإنصاف. **﴿إنَّ اللهَ نِعمَّا يعظكم بِهِ﴾** نعم الشيء الذي يعظكم به **﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾** سميعٌ لما تقولون، بصيرٌ بما تفعلون، وسيجازي المحسن بالإحسان، والمسيء بالإساءة. أوصى الراعي بالرعية، كما أوصى الرعية بالطاعة فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ﴾** أطيعوا الله ورسوله في كل أمرٍ ونهي، وذلك باتباع الكتاب والسُّنَّة. **﴿وأولي الأمر منكم﴾** وأطيعوا الأمراء والولاة إذا كانوا مسلمين، فيما فيه لله طاعةٌ، وللمسلمين

---

(١) ورد في الحديث «أن غلظ جلد الكافر سبعون ذراعاً، وأن ضرسه مثل أحد» رواه أحمد

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

***

مصلحة[1] ﴿فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول﴾ فإن اختلفتم في شيءٍ من أمر دينكم أنتم وولاة أمركم، فاحتكموا إلى كتاب ربكم وسنَّة نبيكم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إن كنتم تصدّقون بالله، وبالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب. ﴿ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ ذلك خيرٌ لكم عند الله، وأحسن عاقبةً ومآلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ من قَبْلِكَ﴾ ألم تر يا محمد إلى هؤلاء المنافقين[2] الذين يزعمون أنهم صدَّقوا بما أُنزِلَ إليك من الكتاب، وما أنزل من قبلك من الكتب؟ ﴿يُريدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وقد أُمِرُوا أَنْ يكفُرُوا بهِ﴾ يريدون التحاكم في خصومتهم إلى من يعظمونه من طواغيتهم، وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت ويحتكموا إلى كتاب الله ﴿ويريدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعيداً﴾ ويريد الشيطان أن يبعدهم عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالاً بعيداً ﴿وإذا قيلَ لهم تَعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرسُولِ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين هلُمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه، وإلى حكم رسوله ﴿رَأَيْتَ المُنافِقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ رأيت المنافقين يعْرضون عنك إعراضاً، ويمنعون غيرهم من المجيء إليك ﴿فَكَيْفَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فكيف بهؤلاء إذا نزلت بهم نقمة من الله، بذنوبهم التي سلفت منهم. ﴿ثُمَّ جاءُوكَ يَحْلفونَ باللهِ إنْ أَرَدْنَا إلاَّ إحْساناً وتَوْفيقاً﴾ ثم جاءوك يحلفون بالله كذباً وزوراً، ما أردنا بتحاكمنا إلاَّ الإحسان لبعضنا، والتوفيق فيما بيننا.

---

(١) أوجب تعالى طاعة أولي الأمر بشرطين ١ ـ أن يكونوا مسلمين لقوله تعالى ﴿وأولي الأمر منكم﴾ ٢ ـ ألا يأمروا بما فيه معصية لله، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أما إذا كانوا مجرمين فلا سمع ولا طاعة

(٢) روي أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهودي تعال نتحاكم إلى محمد، فأبى المنافق وقال بل تعال نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» فقال له اليهودي أدعوك إلى نبيك فتأبى!؟ فذهب معه مكرهاً وعرضا عليه الأمر، فحكم لليهودي على ذلك المسلم المزيَّف، فلما خرجا من عنده أبى المنافق أن يقبل بحكم الرسول ﷺ وقال له تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فذهبا إلى عمر فقال اليهودي كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فحكم لي عليه، فأبى أن يقبل بحكمه ورضي بحكمك، فقال له عمر أصحيح ما يقول؟ قال نعم، قال فانتظراني قليلاً حتى أحكم بينكما، فدخل بيته وتقلد سيفه ثم خرج فضرب به رأس المنافق وقال هكذا أحكم فيمن لم يرض بحكم الله ولا بحكم رسوله فنزلت الآية

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

***

﴿أولئك الَّذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلُوبهمْ﴾ هؤلاء المنافقون هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق والزَّيغ ﴿فأعْرِضْ عنهم وعِظْهُمْ﴾فدعهم ولا تعاقبهم، ولكنْ خوِّفهم وعظْهم ﴿وقلْ لهم في أنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ انصحهم بكلام بليغ رادع، مؤثرٍ في نفوسهم، ومُرْهم باتقاء الله، والتصديق بوعده ووعيده ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا لِيُطاع بإذنِ الله﴾ لم نرسل رسولاً إلا فرضنا طاعته على أمته، بأمر الله وقَدَره، ومحمد ﷺ من أولئك الرسل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ولو أن هؤلاء المنافقين، حين ظلموا أنفسهم باحتكامهم إلى الطاغوت. ﴿جَاءُوكَ فاسْتَغْفَروا الله واسْتَغفَرَ لهُمُ الرَّسُولُ﴾ جاءوك تائبين منيبين، فسألوا الله المغفرة لذنوبهم، واستغفرت لهم يا محمد[1] ﴿لَوَجَدُوا اللهَ توَّاباً رَحيماً﴾ لوجدوا الله واسع المغفرة، رحيماً بهم في ترك عقوبتهم ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنون﴾ فوربك[2] يا محمد لا يؤمنون حقَّ الإيمان. ﴿حتَّى يُحكِّموكَ فيما شَجَر بينهم﴾ حتى يجعلوك حكماً فيما تنازعوا واختلفوا فيه من أمورهم. ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسهم حَرَجاً ممَّا قضيتَ﴾ ثم لا يجدوا ضيقاً في أنفسهم ممَّا حكمت بينهم ﴿ويُسَلِّموا تَسْليماً﴾ ويسلِّموا لقضائك وحكمكَ تسليماً مطلقاً، مع الإذعان والقبول.

﴿ولو أنَّا كتبنا عليهم﴾ولو أنا فرضنا على هؤلاء المحتكمين إلى الطاغوت. ﴿أنِ اقْتُلُوا أنفسَكُمْ أو اخْرُجُوا من دِيارِكُمْ﴾ أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم، أو يُهاجروا من أوطانهم ﴿ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾ ما فعله إلا قليل منهم. ﴿ولو أنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوَعَظُونَ به﴾ ولو أن هؤلاء المنافقين، فعلوا ما ذُكِّروا به من طاعة الله ﴿لكان خيراً لهم﴾ في دنياهم وآخرتهم ﴿وأَشدَّ تثبيتاً﴾ وأشدَّ تثبيتاً لإيمانهم، وتصحيحاً لعزمهم

(١) هذا من باب الالتفات تعظيماً لمقام النبي ﷺ، والأصل واستغفرت لهم

(٢) ﴿فلا وربك﴾ لا لتأكيد القسم أي فوربك، وتأوله ابن جرير ليس الأمر كما زعموا، ثم استأنف القسم فقال وربك ،وما ذكرناه هو رأي جمهور المفسرين

وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ
مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾
ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا
جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾
وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا

***

﴿وإذاً لآتيناهم من لَدُنَّا أجراً عظيماً﴾ ولو فعلوا ما أمروا به، لأعطيناهم ثواباً عظيماً على أعمالهم **﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾** ولأرشدناهم إلى طريقٍ لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام. ثم ذكر جلَّ ثناؤه ما وعد به أهل طاعته، من الكرامة الدائمة لديه، والمنازل الرفيعة عنده فقال **﴿ومَنْ يطع الله والرسولَ﴾** بالتسليم لأمرهما، والرضى بحكمهما، والانزجار عن معصية الله **﴿فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النبيِّين والصِدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ﴾** فهو مع الذين وفقهم الله لطاعته من الأنبياء، والمصدِّقين للأنبياء الذين اتبعوا منهاجهم، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، والصالحين من عباد الله **﴿وَحَسُن أولئكَ رفيقاً﴾** نعم هؤلاء رفقاء في الجنة[١] **﴿ذلكَ الفضلُ من اللهِ﴾** ذلك فضل الله الذي تفضَّل به عليهم **﴿وكفى باللهِ عليماً﴾** وحسبُ العباد بعلم الله تعالى بهم، يعلم المطيع منهم والعاصي. **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله **﴿خُذُوا حِذْرَكم﴾** خذوا الحَذَر من عدوكم بالتسلح. **﴿فانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفروا جميعاً﴾** فانفروا إلى عدوكم متسلحين جماعةً بعد جماعة، أو انفروا جميعاً مع نبيكم لقتالهم. **﴿وإنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾** وإن منكم من يبطِّىءغيره عن الجهاد، وهم المنافقون. **﴿فإن أصابتكم مصيبةٌ﴾** فإن أصابتكم هزيمة أو قتلٌ وجراح. **﴿قال قد أنعمَ اللهُ عليَّ إذْ لم أكنْ معهم شهيداً﴾** إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، فيصيبني جراح أو قتل، وسرَّه تخلُّفه عنكم شماتةً بكم. **﴿ولئِنْ أصابكُمْ فضْلٌ مِنَ اللهِ﴾** ولئن أصابكم نصرٌ وظفرٌ وغنيمةٌ **﴿ليقولَنَّ كأَنْ لم تكنْ بينكم وبينه مودَّةٌ﴾** ليقولَنَّ هذا المنافق، كأنه ليس من أهل دينكم: **﴿يا ليتني كنتُ معهم**

---

(١) روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنك لأحبُ إليَّ من نفسي، وأحبُ إليَّ من أهلي وولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيِّين، وإن دخلتُ الجنة خشيتُ أن لا أراك فنزلت ﴿ومن يطع الله والرسول..﴾ الآية

عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ
يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ
وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن
لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

***

فأفوز فوزاً عظيماً﴾ يا ليتني كنت معهم حتى أصيب من الغنيمة. وهذا خبرٌ من الله عن المنافقين، أن شهودهم الحرب ـ إن شهدوها ـ لطلب الغنيمة، وإن تخلَّفوا عنها فللشكِّ الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً، ولا يخافون بالتخلف عنها عقاباً. ثم حضَّ المؤمنين على الجهاد في سبيل الله فقال: **﴿فلْيقاتلْ في سَبيلِ اللَّهِ﴾** فليقاتل لإعلاء دين الله، ونصرة شريعته، **﴿الَّذينَ يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾** الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة، وينفقون أموالهم في طلب رضى الله **﴿ومن يقاتلْ في سبيل الله﴾** ومن يقاتل لإعلاء كلمة الله **﴿فيُقْتلْ أو يَغْلِبْ﴾** فيقتله الأعداء، أو يظفر هو بهم **﴿فسوفَ نؤتيه أجراً عظيماً﴾** فسوف نعطيه في الآخرة ثواباً عظيماً **﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ﴾** ما لكم أيها المؤمنون، وما شأنكم لا تقاتلون لنصرة دين الله؟! **﴿والمستضعفين من الرجالِ والنِّساءِ والولدانِ﴾** وفي سبيل نصرة المستضعفين، من الرجال والنساء والصبيان، الذين آذاهم المشركون، ونالوهم بالعذاب ليفتنوهم عن دينهم؟! **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾** الذين يقولون في دعائهم: يا ربنا أخرجنا من مكة. **﴿الظالِم أهلُها﴾** الذين ظلمنا أهلها **﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾** واجعل لنا من عندك ولياً يتولَّى شئوننا. **﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** واجعل لنا من عندك من ينصرنا على من ظلمنا **﴿الذينَ آمنوا يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ﴾** الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأيقنوا بوعد الله، يقاتلون لإعلاء دينه ونصرة شريعته **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** والذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، يقاتلون في سبيل الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾** فقاتلوا أنصار الشيطان **﴿إنَّ كيدَ الشيطان كان ضَعِيفاً﴾** إن ما يكيده الشيطان لكم ضعيفٌ، فلا تهابوا أولياء الشيطان **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم﴾** ألم تر يا محمد إلى الذين قيل لهم أمسكوا أيديكم عن قتال المشركين وحربهم؟ **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ﴾**

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا
ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟
يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾
مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

***

وأدوا الصلاة بحدودها، وأعطوا الزكاة إلى أهلها. ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ﴾ فلما فُرض عليهم القتال الذي كانوا يسألون عنه ﴿إذا فريقٌ منهم يخشون النَّاس كخشية اللهِ أو أشدَّ خشية﴾ إذا جماعة منهم يخافون قتال المشركين، كخوفهم من الله، أو أشدَّ خوفاً[1] ﴿وقالوا ربَّنا لم كتبتَ علينا القتالَ﴾ وقالوا جَـزَعـاً: يا ربَّنا لِمَ فرضتَ علينا القتال؟ ركوناً منهم إلى الدنيا، وإيثاراً للدَّعة ولين العيش ﴿لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب﴾ هلاَّ أخرتنا إلى أن نموتَ على فرشنا وفي منازلنا !! ﴿قل مَتَاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقى﴾ قل لهم يا محمد تمتعكم في الدنيا قليل لأنها فانية، ونعيمُ الآخرة خيرٌ لمن اتَّقى ربَّه، لأنها باقية ونعيمُها دائم. ﴿ولا تُظلمون فتيلاً﴾ ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلاً، بمقدار الذي يكون في شقِّ النواة﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ﴾ حيثما تكونوا أيها الناسُ ينلكم الموتُ ﴿ولو كنتُمْ في بروجٍ مشيَّدة﴾ ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة، فلا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حَذَراً من القتل أو الموت. ﴿وإن تصبْهم حسنةٌ يقولوا هذه من عند اللهِ﴾ إن نالهم رخاءٌ وفتح وغنيمة، قالوا هذا من قِبَل الله وبتقديره. ﴿وإن تصبهم سيئةٌ يقولوا هذه من عندك﴾ وإن نالهم شدة من هزيمة وألم وجراح، قالوا هذا من عند محمد، بإساءته التدبير وإساءته النظر. ﴿قلْ كلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾قل لهم يا محمد: الرخاء والشدَّة، والنصر والهزيمة كلُّ ذلك من عند الله ﴿فما لهؤلاء القَوْم لا يَكَادُونَ يَفْقَهونَ حَديثاً﴾؟ فما شأنهم لا يكادون يفهمون أن كل شيء بتقديره تعالى، وأن مفاتح الأشياء كلها بيده سبحانه ؟﴿مَا أَصَابكَ مِنْ حَسَنَةٍ فمن اللهِ﴾ ما أصابك من خير فبفضل الله وإحسانه ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فمن نفسِكَ﴾ وما أصابك من مكروه وشرّ، فبذنب اكتسبتْه نفسُك ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ للنَّاس رَسُولاً﴾

(١) روي أن بعض المسلمين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا نبي الله: كنَّا في عزةٍ ونحن مشركون، فلما آمنَّا صرنا أذلة ؟ ألا تأذن لنا بقتال الأعداء ! فقال لهم رسول الله ﷺ : إني أُمِرتُ بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما فُرِض عليهم القتالُ جبنوا وخافوا، فنزلت ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية .

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟
مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ
ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ

***

وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس، تبلغهم رسالة ربك ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ حسبُك أن الله شاهد على تبليغك الرسالة والوحي ﴿**من يُطع الرسول فقد أطاع الله**﴾من يطع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، لأنـه هـو الذي أرسله. ﴿ **ومَنْ تولَّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ ومن أعرضَ عن طاعتك، فما أرسلناك حافظاً على أعمالهم، وإنما أرسلناك هادياً، وكفى بنا حافظين ومحاسبين ﴿**ويقولون طاعةٌ**﴾ ويقول المنافقون للنبي ﷺ: أمرك طاعةٌ، ولك منا الطاعة فيما تأمرنا وتنهانا. ﴿**فإذا بَرَزُوا من عندكَ**﴾ فإذا خرجوا من عندك يا محمد ﴿**بيَّتَ طائفةٌ منهمْ غَيْرَ الَّذي تَقُولُ**﴾ غيَّر جماعة منهم ليلاًما قلت لهم .قال قتادة: يغيِّرون ما عهد نبي الله ﷺ لهم ﴿**واللهُ يكتبُ ما يُبيِّتُونَ**﴾ والله يكتب ما يغيّرون من قولك في صحف أعمالهم. ﴿**فأَعْرِضْ عنهم وتَوَكَّلْ على اللهِ**﴾ فأعرض عن هؤلاء المنافقين، وفوِّض أمورك إلى الله ﴿**وكفى باللهِ وكيلاً**﴾ وحسبك الله ناصراً ومعيناً. ﴿**أفلا يتدبَّرون القرآن**﴾ أفلا يتدبر ويتمعَّن هؤلاء كتاب الله، فيفهموا معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة؟ ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ ولو كان هذا القرآن من عند غير الله، لاختلفتْ أحكامه، وتناقضتْ معانيه، وأبان بعضُه عن فساد بعض. ﴿**وإذا جاءهم أمرٌ من الأَمْنِ أو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾ وإذا جاءهم خبرٌ عن سريةٍ للمسلمين بانتصارها أو انهزامها، أفشوا ذلك الأمر وبثُّوه بين الناس ﴿**ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم**﴾ ولو ردُّوا الأمر إلى الرسول ﷺ وإلى أمرائهم، وسكتوا فلم يذيعوا الخبر. ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتنبطونَهُ منهم**﴾ لعلم حقيقة ذلك الخبر، الذين يبحثون عنه ويستخرجونه من أولي الأمر(١) ﴿**ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتبعتم الشيطانَ إلا قليلاً**﴾ لولا توفيق الله وإنعامه عليكم بالإيمان، لسلكتم طريق الشيطان كما سلكه هؤلاء المنافقون ﴿**فقاتلْ في سبيل اللهِ لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ**﴾ فجاهد يا محمد أعداء الله، وقاتلهم بنفسك، فإنَّ الله لا يكلفك إلا بما

---

(١) قال ابن كثير: الآية إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيفشيها وينشرها وقد لا يكون لها صحة

﴿الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

***

فرضه عليك ﴿وَحَرِّضِ المؤمنين على القتال﴾ وحُضَّ المؤمنين على قتال المشركين ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بأسَ الذينَ كفروا﴾ لعلَّ الله أن يدفع عنكم شرَّ الكافرين[١] ﴿واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً﴾ والله أشدُّ قوةً وانتقاماً منهم ؛ وأشد عقوبة. ﴿مَنْ يشفع شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها﴾ من يشفع شفاعةً في مرضاة الله ، يكن له حظٌ من ثوابها[٢] . ﴿ومن يشفع شفاعة سيئةً يكن له كِفْلٌ منها﴾ ومن يشفع شفاعة في سخط الله ، يكن له نصيبٌ من وزرها. ﴿وكان اللهُ على كل شيء مقيتاً﴾ قديراً[٣] ﴿وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾ وإذا حيَّاكم أحدٌ بتحية ، فحيُّوه بأفضل منها أو ردُّوا التحية بمثلها[٤] ﴿إنَّ اللهَ كانَ على كل شيءٍ حَسِيباً﴾ حفيظاً على أعمالكم ، ومحاسبكم عليها ﴿اللهُ لا إله إلا هو﴾ اللهُ الذي لا معبود بحقٍّ سواه. ﴿ليجمعنكم إلى يومِ القيامة لا ريبَ فيه﴾ ليبعثنكم من بعد مماتكم إلى موقف الحشر، للجزاء والحساب الذي لا شك فيه ﴿ومَنْ أصدقُ من اللهِ حديثاً﴾؟ وأيُّ ناطقٍ أصدقُ من الله حديثاً؟ لا أحد ، فلا تشكُّوا في صحة خبر الله ﴿فما لكم في المنافقين فِئَتَيْن﴾ فما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق مختلفين إلى جماعتين[٥] ؟ ﴿واللهُ أركسهم بما كَسَبوا﴾ واللهُ ردَّهم إلى أحكام أهل الشرك بسبب ما اقترفوا. ﴿أتريدونَ أن تَهْدُوا مَنْ أضلَّ اللهُ﴾ أتريدون أيها المؤمنون أن تهدوا إلى الإسلام ، من خذله الله وأضله؟ ﴿ومن يضللِ اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾ ومن يضلله الله ، فلن تجد له طريقاً ولا منهجاً تهديه إليه

---

(١) قال الطبري «عسى» من الله واجبة ، أي أنها تفيد التحقيق بدفع شر الأعداء

(٢) هذا الذي ذكرناه هو المشهور ، وهو قول مجاهد ، وذهب الطبري إلى أن المراد شفاعة الإنسان بالانضمام إلى صف المجاهدين لقتال الأعداء

(٣) وقال مجاهد «مقيتاً» شهيداً وحسيباً وهو الأظهر.

(٤) الزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة ، فإذا سلَّم عليك أحد فقل وعليك السلام ورحمة الله ، أو وعليكم السلام

(٥) كان قوم من أهل مكة أسلموا ، ثم ارتدوا عن الإسلام ، فاختلف الصحابة فيهم فرقتين ، فنزلت الآية

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ
فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ
عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ
يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

***

﴿ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ تمنَّى هؤلاء المنافقون أن تكفروا كما كفروا، فتستوون أنتم وهم في الشرك بالله **﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يُهاجروا في سبيل الله﴾** فلا توالوهم حتى يخرجوا من دار الشرك ابتغاء دين الله. **﴿فإن تَوَلَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾** فإن تركوا الهجرة، فخذوهم واقتلوهم أين أصبتموهم من أرض الله **﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾** ولا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعدائكم، فإنهم كفارٌ لا يألونكم خبالاً **﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ﴾** سوى من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلهم من الأمان مثل ما لهؤلاء **﴿أو جاءوكم حَصِرتْ صدورُهُمْ أنْ يُقاتلوكم أو يُقَاتلوا قومهم﴾** أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم، أو يقاتلوا قومهم **﴿ولو شاء الله لسلَّطهم عليكم فلقاتلوكم﴾** ولو أراد الله لسلَّط هؤلاء فقاتلوكم مع أعدائكم من المشركين، ولكنَّ الله كفَّهم عنكم بفضله. **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم﴾** فإن اعتزلكم هؤلاء المنافقون، وصالحوكم واستسلموا لكم. **﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾** فليس لكم طريق إلى قتالهم فلا تتعرضوا لهم. **﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾** ستجدون فريقاً آخر من المنافقين، يظهرون الإسلام لكم ليأمنوكم وهم كفار، وإذا لقوا قومهم عبدوا معهم ما يعبدون من دون الله، ليأمنوا على أنفسهم. **﴿كلما رُدُّوا إلى الفتنةِ أُرْكِسُوا فيها﴾** كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم. **﴿فإن لم يعتزلوكم ويُلْقُوا إليكُمُ السَّلَمَ﴾** يستسلموا لكم ويصالحوكم. **﴿ويكفُّوا أيديهم﴾** عن قتالكم **﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** خذوهم واقتلوهم أين لقيتموهم **﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾** وهؤلاء جعلنا لكم عليهم حجةً بيِّنة في قتلهم

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ

***

﴿وَمَا كَانَ لمؤمنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمناً إلاَّ خَطَأً﴾ ما كان من شأن المؤمن ولا ينبغي له أن يقتل مؤمناً، إلا إذا وقع القتل خطأً **﴿وَمَنْ قَتلَ مُؤْمناً خطأً فَتحْريرُ رقبةٍ مُؤْمنةٍ﴾** ومن قتل مؤمناً بطريق الخطأ، فعليه عتق رقبةٍ مؤمنة في ماله **﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ﴾** وديةٌ مسلَّمة إلى أهل القتيل، تؤديها عاقلته[1] **﴿إلاَّ أن يَصَّدَّقوا﴾** إلا أن يعفو أهل القتيل، ويسقطوا الدية باختيارهم **﴿فإن كان من قومٍ عدوٍ لكم وهو مؤمنٌ فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ﴾** فإن كان هذا القتيل مؤمناً من عداد قومٍ مشركين، فالواجب على قاتله عتق رقبةٍ مؤمنة[2] **﴿وإن كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فديةٌ مسلمة إلى أهله وتحريرُ رقبةٍ مؤمنة﴾** وإن كان القتيلُ من قومٍ بينكم وبينهم عهد وذمة، فعلى قاتله دية مسلَّمةٌ إلى أهله، وعتق رقبةٍ مؤمنة **﴿فمن لم يجدْ فصيامُ شهرين متتابعين﴾** فمن لم يجد رقبةً مؤمنة، فعليه صوم شهرين متتابعين. **﴿توبةً من اللهِ﴾** توبة من الله على عباده بتخفيفه عنهم. **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** عليماً بما يصلح عباده، حكيماً في تشريعه. **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾** ومن يقتل مؤمناً عامداً إتلاف نفسه، فجزاؤه على ذلك نار جهنم باقياً فيها أبداً **﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيه وَلَعَنَه﴾** وسخط الله عليه بقتله وأبعده من رحمته وأخزاه **﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عظيماً﴾** وهيأ له عذاباً شديداً، لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا﴾** إذا خرجتم في جهاد أعدائكم، فتثبَّتوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا هل هو مسلم أم كافر؟ **﴿ولا تقولوا لمنْ أَلْقَى إليكم السَّلام لستَ مؤمناً﴾** ولا تقولوا لمن استسلم لكم، وأظهر الإسلام لستَ

---

(١) العاقلة عصبة الرجل أي قرابته من جهة أبيه، فهم الذين يدفعون دية قتل الخطأ، والديةُ مائة من الإبل، ومن الذهب ألف دينار، ومن الفضة عشرة آلاف درهم

(٢) لا تجب الدية لأهل القتيل هنا لأنهم أعداء محاربون، فلا يعطون من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم، أما إذا كان المقتول معاهداً فالواجب في قتله كالواجب في قتل المؤمن.

مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ

***

مؤمناً فتقتلوه ﴿**تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياة الدنيا**﴾ تريدون متاع الدنيا الزائل ﴿**فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كثيرةٌ**﴾ فعند الله خيرٌ مما رغبتم فيه، من عَرَض الحياة الدنيا. ﴿**كذلكَ كنتم من قبلُ فمنَّ اللهُ عليكم**﴾ كذلك كنتم كفاراً مثلهم، فمنَّ الله عليكم بالهداية للإيمان. ﴿**فتبيَّنوا**﴾ فتثبتوا ولا تعجلوا بقتل من التبس عليكم أمره ﴿**إنَّ اللهَ كانَ بما تَعْملونَ خبيراً**﴾ مطَّلعاً على أعمالكم، وسيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنينَ غيْر أولي الضَّرر والمجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالهم وأنفسهم**﴾ لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد من المؤمنين ـ إلَّا أهل العذر منهم كالأعمى[1] والأعرج ـ مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ﴿**فَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنْفسِهمْ على القَاعِدينَ درجةً**﴾ فضَّل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر[2] فضيلةً واحدة، بفضل الجهاد بالنفس. ﴿**وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى**﴾ وكلًّا من المجاهدين والقاعدين من أهل الضرر، وعده الله الجنة. ﴿**وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أَجْراً عظيماً. درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً**﴾ وفضَّل الله المجاهدين، على المتخلفين عن الجهاد من غير أولي الضرر، منازل رفيعة من منازل الكرامة، ومغفرةً لذنوبهم، ورحمةً بهم، بسبب ما أبلوا في ذات الله ﴿**وكَانَ اللهُ غَفُوراً رحيماً**﴾ غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

﴿**إنَّ الذينَ توفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم**﴾ إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم، مكتسبين غضب الله وسخطه بترك الهجرة. ﴿**قالوا فيم كنتم قالوا كنَّا مستضعفين في الأرض**﴾ قالت الملائكة لهم: لم

---

(١) روى البخاري أن زيد بن ثابت أملى عليه رسول الله ﷺ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، فقال يا رسول الله والله لو أستطيعُ الجهاد لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله ﴿غيرُ أولي الضرر﴾

(٢) ذهب ابن جرير إلى أن التفضيل بالدرجة على أهل الضرر وهو قول ابن جريج، وذهب ابن كثير إلى أن التفضيل على غير أولي الضرر وهو رواية عن ابن عباس وما ذهب إليه الإمام ابن جرير هو الأظهر والله أعلم

أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ
مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ
كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

***

مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟ قالوا كنا لا نقدر على الخروج، لأن أهل الشرك استضعفونا في أرضنا وبلادنا ﴿قالوا ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها﴾ ؟ أليست أرض الله واسعة فتخرجوا من أرضكم ودوركم، وتفارقوا أهل الشرك والضلال؟ ﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ فهؤلاء مصيرهم ومسكنهم جهنم ﴿وساءت مصيراً﴾ وساءت جهنم مسكناً ومأوى لأهلها ﴿إلَّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ إلا العاجزين عن الهجرة، من الرجال والنساء والصبيان. ﴿لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً﴾ لقلة حيلتهم، وسوء بصرهم ومعرفتهم بالطريق ﴿فأولئك عَسَى اللهُ أن يعفو عنهم﴾ لعلَّ الله أن يعفوه عنهم، في تركهم الهجرة للعجز ﴿وكَانَ اللهُ عَفُوّاً غفُوراً﴾ يصفح بفضله عن ذنوبهم، ويستر بعفوه عليهم، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين، الذين عذرهم الله ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ في سبِيلِ اللهِ يَجِدْ في الأرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ ومن يفارق وطنه هرباً بدينه، يجد في أرض الله مذهباً وملجأً يتحصن فيه، وسعةً في أمر دينه، أو في رزقه ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بيتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ ومن يخرج مهاجراً من أرض الشرك فراراً بدينه، وأدركته منيّته قبل بلوغه دار الهجرة ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ فقد استوجب الثواب لفراق وطنه وعشيرته ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ساتراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

﴿وإذَا ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ﴾ وإذا سافرتم في البلاد ﴿فليس عليكم جُنَاحٌ أنْ تَقْصُروا من الصَّلاة﴾ فليس عليكم إثم أن تقصروا من ركعاتِ الصلاة، فتصلُّوا الأربع ثنتين، ﴿إنْ خفتم أن يفتنكم الذينَ كفروا﴾ إذا خشيتم فتنة الكفار، باعتدائهم عليكم في سجودكم[1] ﴿إنَّ الكافرينَ كانُوا لكم عَدوّاً مُبيناً﴾ أعداء

(١) عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب عن قوله تعالى ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقلت قد أمن الناسُ! فقال لي عجبتُ ممَّا عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم
مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟
ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

***

ظاهرين في عداوتهم. ﴿**وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصَّلاةَ**﴾ وإذا كنت يا محمد مع أصحابك في الحرب، فصليتَ بهم في حال تلاقيهم مع عدوهم، وتزاحف بعضهم على بعض، ﴿**فَلْتَقُم طائفةٌ منهم معك**﴾ فلتصلِّ فرقة من أصحابك معك. وهذه صلاة الخوف إذا كان العدوُّ بين الإمام والقبلة. ﴿**وَلْيأخُذُوا أسلحتهم**﴾ وليحملوا أسلحتهم حذراً من الأعداء ﴿**فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم**﴾ فإذا سجدت الطائفة الأولى، فليكونوا خلفك بإزاء العدو، بعد فراغهم من بقية صلاتهم ﴿**ولتأتِ طائفةٌ أُخرى لم يُصَلُّوا فَلْيصلُّوا معك**﴾ ولتأتِ الطائفة التي كانت بإزاء العدو، التي لم تصلِّ الركعة الأولى، فلْيصلُّوا معك الركعة التي بقيتْ عليك ﴿**ولْيأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم**﴾ لقتال عدوهم بعد فراغهم من صلاتهم ﴿**ودَّ الذينَ كفروا لَوْ تَغْفُلونَ عن أسلحتكم وأمتعتكم**﴾ تمنَّى الكفار لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وحوائجكم فتسهون عنها. ﴿**فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدةً**﴾ فيحملون عليكم حملةً واحدة، فيقتلونكم وأنتم مشغولون بصلاتكم، فلا تُصلُّوا جميعكم بصلاتكم، فتمكِّنوا عدوكم من أنفسكم. ﴿**ولا جُناحَ عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم**﴾ ولا إثم عليكم إن أصابكم مطرٌ ونالكم به أذى، أو كنتم جرحى أَن تضعوا أسلحتكم إن ضعفتم عن حملها. ﴿**وخذوا حِذْركم**﴾ احترسوا من عدوكم لئلا يميلوا عليكم وأنتم غافلون. ﴿**إنَّ اللهَ أَعَدَّ للكافرينَ عذاباً مُهيناً**﴾ هيأ لهم عذاباً مذلاً لا يخرجون منه، هو عذاب جهنم ﴿**فإذا قضيتُم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، فاذكروا الله على كل أحوالكم ـ قياماً وقعوداً ومضطجعين على جنوبكم ـ اذكروه بالتعظيم والدعاء، بأن يظفركم وينصركم على أعدائكم[1] ﴿**فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة**﴾ فإذا زال خوفكم

(١) قال ابن عباس: ما فرض الله على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً غير الذكر فقال ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، وفي البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسِّر والعلانية، وعلى كلِّ حال.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)

***

واطمأنت أنفسكم بالأمن، فأتموا الصلاة بحدودها كما أمركم ربكم ﴿إنَّ الصَّلاة كانتْ على المؤمنين كتاباً موْقُوتاً﴾ فرضاً مفروضاً في أوقاتٍ محدَّدة ﴿ولا تَهِنُوا في ابْتِغَاءِ القَوْم﴾ لا تضعفوا في طلب عدوكم ﴿إنْ تكونُوا تَأْلمونَ فإنَّهمْ يأْلمون كما تألمونَ﴾ إن تكونوا تتوجعون من الجراح، فإنهم يتوجعون ممَّا نالهم من الجراح والأذى كما تتوجعون أنتم[1] ﴿وترجونَ من الله ما لا يرجون﴾ وترجون من الثواب ما لا يرجونه هم، لأنكم توقنون بثواب الله، وهم به مكذّبون ﴿وكان اللهُ عَليماً حكِيماً﴾ عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في تقديره وتدبيره.

﴿إنَّا أنزلنا إليكَ الكتاب بالحقِّ﴾ نحن أنزلنا إليك يا محمد القرآن بالحقِّ ﴿لتحكم بين النَّاس بما أراكَ اللهُ﴾ لتقضي بين الناس، بما أمرك الله به في كتابه ﴿ولا تكنْ للخائنين خصيماً﴾ لا تكن لمن خان أحداً في نفسه أو ماله، خصيماً تخاصم عنه وتدافع[2] ﴿واستغفر اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ غفُوراً رحيماً﴾ واستغفر ربك ممَّا سلف من خصومتك عن هذا الخائن، إن الله يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم ﴿ولا تجادلْ عن الذينَ يختانون أنفسهم﴾ ولا تخاصم يا محمد عن الذين يخونون أنفسهم بالسرقة وأكل الوديعة. ﴿إنَّ الله لا يحبُّ من كان خَوَّاناً أثيماً﴾ لا يحب من يخون الناس في أموالهم، ويرتكب الآثام والمعاصي. ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتخفونَ مِنَ اللهِ﴾ يستخفون بقبائحهم من الناس حياءً وحذراً، ولا يستخفون من الله الذي هو مطَّلع عليهم، وبيده العقاب وتعجيل العذاب، وهو أحقُّ أن يُستحيا منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والله شاهدهم ﴿إذْ يُبيِّتُونَ ما لا يَرْضَى من الْقَوْل﴾ حين يدبّرون ليلاً ما لا يرضاه الله من القول ﴿وكَانَ اللهُ بما يعملُونَ مُحِيطاً﴾ والله جل وعلا مطَّلعٌ

(١) هذه تسلية لأصحاب النبي ﷺ لما نالهم يوم أحد

(٢) نزلت الآيات في قصة «طُعمة بن أبيرق» سرق درعاً وخبأه عند اليهودي، ثم اتهم اليهودي بأنه هو الذي سرقه الخ، انظر تفصيل القصة في كتابنا «صفوة التفاسير» ١ / ٥٢٠ ومختصر ابن كثير ١ / ٦٣٤

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾
وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ
ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

***

على إجرامهم، محصٍ لأعمالهم وسيجازيهم عليها. **﴿ها أنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عنهمْ في الحياةِ الدنيا﴾** ها أنتم يا معشر المجادلين خاصمتم عن الخائنين في الحياة الدنيا **﴿فمنْ يجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامةِ﴾**؟ فمن يخاصم الله ويدافع عنهم في الآخرة؟ **﴿أمْ مَنْ يكونُ عليهمْ وكيلاً﴾** ومن ذا الذي يتوكل في الدفاع عنهم يوم القيامة؟ **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسَهُ﴾** ومن يرتكب ذنباً، أو يظلم نفسه باكتساب ما يستحق به العقوبة **﴿ثم يَسْتَغفرِ اللهَ﴾** ثم يتوب إلى الله **﴿يجد اللهَ غفوراً رحيماً﴾** يجد ربَّه ساتراً لذنبه، رحيماً به **﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً فإنَّما يَكْسِبُهُ على نَفْسِه﴾** ومن يجترحْ ذنباً على عمدٍ منه، فإنَّ وبال ذلك الذنب وخزيه يعود على نفسه **﴿وكانَ اللهُ عليماً حكيماً﴾** عليماً بخلقه، حكيماً في تدبيره **﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ بِهِ بريئاً﴾** ومن يأت ذنباً على غير عمدٍ منه، أو معصيةً على عمدٍ منه، ثم يتهم بما اقترف شخصاً بريئاً. **﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾** فقد تحمَّل بذلك كذباً وزوراً، وجرماً عظيماً **﴿ولولا فضلُ اللهِ عليك ورحمتُه﴾** ولولا فضل الله عليك يا محمد، وعصمته لك بتوفيقه وإظهاره أمر الخائن **﴿لهمَّت طائفةٌ منهم أنْ يُضِلُّوكَ﴾** لهمَّت فرقةٌ منهم أن يُزلُّوك عن طريق الحقِّ، بتلبيسهم عليك أمر الخائن، وشهادتهم بأنه بريء **﴿وما يُضِلُّونَ إلاّ أنْفُسَهم﴾** فإن وبال إضلالهم راجع إليهم **﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾** وما يضرك هؤلاء شيئاً، لأن الله مثبِّتك ومسدِّدك **﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتاب والحكمةَ﴾** وأنزل عليك ربك القرآن والحكمة، وهي العلم بأحكام الله[1] **﴿وعلَّمك ما لم تكن تعلم﴾** من خبر الأولين والآخرين **﴿وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾** فاشكره على ما أولاك به من إحسانه

---

(١) قال الطبري الحكمةُ العلم بأحكام الله التي لا يُدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

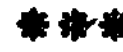
***

﴿لا خير في كثيرمن نجواهم﴾ لا خير في كثير من نجوى[1] الناس ﴿إلَّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين النَّاسِ﴾ إلا إذا كان التناجي بأعمال البر والخير، من الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين المتخاصمين، ﴿ومَنْ يَفْعلْ ذلكَ ابتغاء مرضاةِ اللهِ﴾ ومن يَفْعل ذلك الخير طلب رضى الله ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فسوف نعطيه جزاء عمله، ثواباً جزيلاً لا يعلم قدره إلا الله ﴿ومَنْ يُشاقِقِ الرسُولَ من بعد ما تبيَّنَ له الهُدَى﴾ ومن يعاد الرسول ويخالف أمره، من بعد ما ظهر له الحقُّ وأنه رسول الله ﴿وَيَتَّبعْ غير سبيل المؤمنينَ﴾ ويتَّبع طريقاً ومنهاجاً، غير طريق المؤمنين ومنهاجهم[2] ﴿نُولِّه ما تولَّى ونُصْلِهِ جهنم﴾ نتركه وما استعان به من الأوثان والأصنام، ونحرقه بنار جهنم ﴿وسَاءَتْ مَصِيراً﴾ وساءت جهنم مسكناً ومأوى لهؤلاء. ﴿إنَّ اللهَ لا يغفر أن يشركَ به﴾ لا يغفر الكفر والإشراك بالله ﴿ويغفر ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ﴾ ويغفر سائر الذنوب ـ غير الإشراك ـ لمن يشاء من عباده ﴿وَمَنْ يشركْ بالله فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ ومن يجعل لله شريكاً فقد حاد عن طريق الحق، وذهب عنه ذهاباً بعيداً ﴿إن يدعون من دونه إلَّا إناثاً﴾ ما يدعون بعد الله وسواه إلا أوثاناً سمَّوها آلهة، كاللَّات والعُزَّى ومناة، فحسبُ هؤلاء ضلالاً أنهم يعبدون إناثاً، ويدعونها آلهةً وأرباباً. ﴿وإنْ يدعون إلَّا شيطاناً مريداً﴾ وما يدعون إلا شيطاناً متمرداً على الله ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ أخزاه الله وأبعده عن رحمته ﴿وقال لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ وقال الشيطان لربه حين لَعَنه: لأضلنَّ من عبادك عدداً وافراً معلوماً، بتزيين الكفر والضلال لهم حتى يتَّبعوني ﴿ولأُضلَّنَّهُمْ ولأمنِّينَّهم﴾ ولأضلنَّهم عن محجة الهدى، ولأزيغنهم عن طاعتك بالأماني ﴿ولآمرنَّهم فليبتِّكُنَّ آذانَ

(١) النجوى حديث الناس الذي يتحدثونه بينهم

(٢) هذه الآية دليلٌ واضح على من استدل من العلماء بحجية الإجماع، فإن هذه الأمة المحمدية لا تجتمع على ضلالة كما ورد في الصحيح.

ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾



الأنْعَام﴾ ولآمرنهم بتشقيق آذان الأنعام بحيرةً لطواغيتهم. **قال قتادة**: كانوا يشقون آذانهم لطواغيتهم، كما شرع لهم إبليس، **﴿ولآمرنّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خلْقَ اللهِ﴾** بالخِصاء، والوشْم وغير ذلك[1]. **﴿ومن يَتَّخِذ الشيطانَ ولياً من دون اللهِ﴾** ومن يتّبع الشيطان فيطيعه في معصية اللهِ، ويتخذه نصيراً من دون الله **﴿فَقَدْ خَسِر خُسْرَاناً مُبِيناً﴾** خسر خسارة فادحة لمصيره إلى النار المؤبدة **﴿يعدهم ويُمَنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً﴾** يعدهم الشيطان بالنصرة والدفاع عنهم، ويمنيهم بالظفر على خصومهم، وما يعدهم إلاّ باطلاً **﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾** مصيرهم الذي يصيرون إليه جهنم، ولا يجدون عنها معدلاً ولا مهرباً. **﴿والذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** والذين صدَّقوا الله ورسوله، وأدَّوا ما فرض الله عليهم، سوف ندخلهم بما عملوا من الصالحات ـ بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة. **﴿خالدينَ فيها أبداً﴾** باقين في هذه الجنات دائماً أبداً. **﴿وَعْدَ اللهِ حقاً﴾** وعداً من الله يقيناً صادقاً، لا كمواعيد الشيطان الكاذبة. **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ من اللهِ قيلاً﴾**؟ ومن أصدقُ من الله قولاً؟ لا أحد أصدق منه تعالى. **﴿ليس بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أمانِيِّ أهلِ الكتابِ﴾** ليس الأمر بأمانيكم يا معشر الكفار، ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب. **قال مجاهد**: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذَّب، وقالت اليهود والنصارى «لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى» فنزلت: **﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾** من يرتكب صغيرة أو كبيرة، يجازه الله بها. **﴿ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيراً﴾** ولا يجد له من بعد الله ولياً يتولى أمره، ولا ناصراً ينصره من عذاب الله.

---

(١) في الصحيح عن ابن مسعود «لعن الله الواشماتِ والمستوشمات، والنَّامصات والمتنمِّصَات، والمتفلِّجات للحسن المغيِّرات خَلْق الله» النامصة: التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلّجة: التي تبرد أطراف أسنانها للتجميل، وقد ظهر في هذا الزمان أشياء من مظاهر الفتنة والإغراء تهون هذه بالنسبة لها، من إطالة الأظافر وطليها بالمناكير، وتكديس الشعور المستعارة، واستعمال «المكياج» الذي يجعل العجوز الشمطاء صبيَّة هيفاء، ونعوذ بالله من كيد إبليس اللعين

(٢) روي أن أهل الأديان افتخروا، فقال اليهود كتابنا خير الكتب ونبينا أكرم الأنبياء! وقالت النصارى: ديننا خير الأديان ونبينا أفضل الرسل! =

وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

***

﴿ومَنْ يَعْمَلْ من الصَّالِحَاتِ من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ﴾ يعمل الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾ ولا يُظلمون من ثواب أعمالهم، مقدار النقرة التي تكون في ظهر النواة. ﴿ومَنْ أحسنُ ديناً ممَّنْ أسْلَمَ وجهه للهِ وهو محسنٌ﴾ ومن أحسن ديناً ممن انقاد لله بالطاعة، وهو عاملٌ بأوامر الله مجتنبٌ لمحارمه؟ ﴿واتَّبعَ مِلَّةَ إبراهِيمَ حنيفاً﴾ واتَّبع دين إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله ﴿واتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً﴾ اتخذه ربه خليلاً لإخلاصه، ومسارعته في محبته ورضاه. وهذا قضاءٌ من الله للمسلمين وأهله بالفضل على سائر الملل، لأنهم على ملة إبراهيم ﴿ولله ما في السمواتِ وما في الأرض وكان الله بكل شيءٍ محيطاً﴾ محصياً لأعمال العباد، لا يخفى عليه شيءٌ منها.

﴿ويستفتونك في النِّساءِ قلِ اللهُ يُفتيكم فيهنَّ﴾ يسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم في أمر النساء، وما الواجب لهن وعليهن؟ قل لهم: اللهُ يفتيكم في أمرهنَّ ﴿وما يُتْلَى عَلَيْكم في الكتابِ في يَتَامَى النِّساءِ اللَّاتي لا تؤتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لهُنَّ وترغبون أنْ تَنْكِحوهنَّ﴾ ويفتيكم في ما يُتلى عليكم في كتاب الله الذي أنزله على نبيه، في أمر يتامى النساء اللاتي لا تعطونهنَّ ما فرض الله لهن من الميراث، وترغبون في نكاحهنَّ، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرَّم الله ذلك ونهى عنه ﴿والمستضعفين من الولْدان﴾ ويفتيكم في أمر المستضعفين من الولدان، أن تؤتوهم حقوقهم من الميراث ﴿وأنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بالقِسْطِ﴾ وأن تعطوا اليتامى حقوقهم بالعدل[١]، فقد كانوا لا يورِّثون الصغار من أولاد الميت. ﴿وما تفعلوا من خير فإنَّ اللهَ كانَ بِهِ عليماً﴾ ومهما تفعلوا من طاعة

= وقال المسلمون نبينا سيد الأنبياء ودينا خير الأديان فنزلت ﴿ليس بأمانيكم . .﴾ الآية .

(١) قال ابن عباس : كانوا لا يورّثون الصغار ولا البنات ، فأمرهم الله تعالى أن يعطوا كلاً نصيبه من الميراث .

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ
وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟
بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

***

ومعروف، فإن الله يعلمه ويحصيه لكم حتى يجازيكم به يوم القيامة **﴿وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إعْراضاً﴾** وإن خافت امرأةٌ من زوجها استعلاءً بنفسه عنها، لبغضٍ لها لدمامتها أو كبر سنها، أو إعراضاً بصرف وجهه عنها. **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾** فلا حرج على الرجل والمرأة أن يتصالحا بينهما على شيء[1]، بترك بعض الحقِّ استدامة لعقد النكاح **﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾** والصلح خيرٌ من طلب الفرقة والطلاق **﴿وأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ﴾** وأُحضرت نفس النساء الشُّحّ بحقوقهن من أزواجهنّ[2] في القسم والنفقة، والشحُّ الإفراط في الحرص **﴿وإنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ اللَّهَ كانَ بما تَعْملونَ خبيراً﴾** وإن تحسنوا إلى نسائكم، وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر، والنفقة والعشرة بالمعروف، فإن الله عالمٌ بما تعملون، وسيجازيكم عليها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ ولو حَرَصْتُمْ﴾** لن تستطيعوا - أيها الرجال - أن تعدلوا بين أزواجكم في المحبة والهوى، ولو حرصتم في ذلك[3] **﴿فلا تَمِيلُوا كلَّ المَيْلِ فَتَذَروهَا كالْمُعَلَّقَةِ﴾** فلا تميلوا بأهوائكم إلى بعضهن، وتتركوا بعضهن حتى تصبح الواحدة كالمعلَّقة التي ليست بذات زوج، ولا مطلَّقة أمر تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا من القسمة، والنفقة، والمعاشرة بالمعروف، وصفح لهم عما لا يطيقونه مما في القلوب من المحبة والهوى **﴿وإنْ تُصْلِحوا وتَتَّقوا فإنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾** وإن تعدلوا في قسمكم، وتتقوا ربكم فيما كلَّفكم به، فإن الله يستر عليكم ما سلف ويرحمكم **﴿وإنْ يتفرَّقا يُغنِ اللَّهُ كلاًّ من سَعَتِهِ﴾** وإن يتفرَّق الزوجان بالطلاق، فإن الله تعالى يغني كلَّ واحد منهما من سعة فضله، برزقٍ أوسع، وزوجٍ أصلح. **﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾** واسعاً في عطائه ورزقه، حكيماً في تدبيره وصنعه

---

(١) قالت عائشة هذا الرجل يكون له امرأتان، إحداهما قد عجزت أو هي دميمة، فتقول لا تُطلِّقني وأنتَ في حلٍّ من شأني

(٢) وقيل إن المعنى أحضرت نفسُ كل واحدٍ من الرجل والمرأة الشح بحقه قِبَل صاحبه، واختار الطبري الأول.

(٣) المراد بالعدل في الآية الكريمة العدلُ في المحبة القلبية فقط، وإلاّ لتناقض النص الكريم مع قوله تعالى ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .﴾ الآية وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول « اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملكُ ولا أملك » يعني بذلك المحبة القلبية، ويؤيده قوله تعالى ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ ولا عبرة بما يقوله أنصاف المتعلمين، الذين يتسمون بالمجددين، من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فإن هذا باطل محضٌ والغرض منه تقليد الأجانب، وكفانا الله شرَّ الجهلاء.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن
تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن
كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ * يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا
قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ
فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

***

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ ولله ملك جميع ما في السموات وما في الأرض من الأشياء. ﴿وَلَقَدْ وصَّيْنا الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيّاكُم أَنِ اتَّقُوا الله﴾ ولقد أمرنا أهل التوراة والإنجيل وأمرناكم بتقوى الله. ﴿وإنْ تَكْفُرُوا فَإنَّ لله ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ﴾ وإن تجحدوا وحدانية الله وتخالفوا وصيته، فإنكم لا تضرون ربكم، لأن له ملك جميع ما في السموات والأرض ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ غنياً عن خلقه، محموداً في صنائعه وآلائه ﴿ولله ما في السَّمَواتِ وما في الأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً﴾ كفى به حافظاً، ومدبراً لشؤون العباد ﴿إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ ويأْتِ بآخَرينَ﴾ لو شاء لأهلككم وأفناكم، وجاء بخلقٍ آخرين غيركم. ﴿وَكانَ اللهُ على ذلك قديراً﴾ قادراً على إهلاككم، واستبدال آخرين بكم. ﴿مَنْ كَانَ يُريدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا والآخِرةِ﴾ من كان يريد بعمله أجر الدنيا فقط، فليعلم أن الله عنده أجر الدنيا والآخرة[1] ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ سميعاً لأقوال العباد، بصيراً بأعمالهم. ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسطِ﴾ كونوا قائمين بالعدل في أحكامكم. ﴿شهداءَ للهِ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ شهداء للهِ بالحق، ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم، ﴿إن يكنْ غنياً أو فقيراً﴾ أن يكن المشهود له غنياً أو فقيراً، فلا يحملنكم غناه أو فقره على الشهادة له بالزور ﴿فاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ هو أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما. ﴿فلا تَتَّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ لا يحملنكم الهوى على ترك العدل في أموركم ﴿وَإنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضوا فإنَّ اللهَ كَانَ بما تَعْملونَ خَبيراً﴾ وإن تحرِّفوا الشهادة وتغيِّروها، أو تكتموها فلا تشهدوا بها،

---

(١) ذهب الطبري إلى أن الآية في المنافقين، ومعناها أن الله يجازيه في الدنيا من الدنيا، وفي الآخرة من الآخرة بالعقاب والنكال.. والآية أعمُّ وأشمل والمعنى: لم يطلب الأخسَّ الأدنى ولا يطلب الأعلى؟ فعند الله ما هو أسمى وأغلى وهو أجر الدنيا والآخرة، وهذا رأي ابن كثير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

***

فإن اللهَ مطَّلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا باللهِ ورسُولِهِ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالتوراة والإنجيل[1]، آمنوا بالله وبمحمد ﷺ الذي تجدون صفته في كتبكم ﴿والكتاب الذي نَزَّلَ على رسوله﴾ وبالقرآن الذي نزَّله على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنزل من قبلُ﴾ وبالتوراة والإنجيل التي تزعمون أنكم بها مؤمنون. ﴿ومَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ ورسلِهِ واليوم الآخِرِ﴾ ومن يكفر بمحمد ﷺ وبشيء مما أمره الله بالإيمان به ﴿فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ فقد خرج عن قصد السبيل، وذهب عن طريق الهدى إلى المهالك ذهاباً بعيداً. ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثم كَفَرُوا﴾ هم المنافقون آمنوا ثم ارتدوا[2] ﴿ثم آمنوا ثم كَفَرُوا﴾ ثم آمنوا ثم ارتدوا مرة ثانية. ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بموتهم على الكفر. ﴿لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ لن يغفر الله لهم ذنوبهم، ولن يرشدهم إلى طريق الحق. ﴿بشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذاباً أليماً﴾ أخبر[3] يا محمد المنافقين بأنَّ لهم يوم القيامة عذاباً شديداً موجعاً، وهو عذاب جهنم. ﴿الَّذين يَتَّخِذُونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ مَنْ دُونِ المُؤْمنينَ﴾ الذين يتخذون أهل الكفر والإلحاد، أنصاراً وأخلاء من غير المؤمنين. ﴿أيبتغون عندهم العِزَّةَ﴾ أيطلبون عند الكافرين المَنَعَةَ والقوة، باتخاذهم أولياء من دون أهل الإيمان؟ ﴿فإنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾ فإن المنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة[4]، فهلَّا

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري، وذهب ابن كثير إلى أن هذا من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته كما يقول المؤمن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا عليه فكذلك هنا يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على الإيمان

(٢) هذا قول مجاهد وهو الأظهر أنها في المنافقين، ورجَّح الطبري أنها في اليهود والنصارى

(٣) أصل البشارة الخبرُ السارُّ، واستعمالها هنا في الشر للسخرية والتهكم

(٤) هل عرف الذين يسيرون في ركاب الشرق أو الغرب أين تكون العزة والنصرة؟ ومتى يمنحهم الله العزة والسيادة؟ إنها تأتي بموالاة المؤمنين، لا بموالاة الكفرة المجرمين

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

***

اتخذوا الأولياء من المؤمنين حتى يعزهم الله؟ **﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب﴾** نزَّل عليكم في القرآن العظيم **﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُسْتهزأ بها﴾** بأنه إذا سمعتم من يسخر ويهزأ بآيات القرآن. **﴿فلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غيرِهِ﴾** فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثاً غيره. **﴿إنكم إذاً مثلُهُمْ﴾** إن جالستم من يكفر بآياتِ الله ويستهزىء بها، فأنتم مثلهم في ارتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره **﴿إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جَهَنَّمَ جَميعاً﴾** جامع الفريقين ـ المنافقين والكافرين ـ في نار جهنَّم، كما اتفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين. **﴿الذين يتربصون بكم﴾** ينتظرون بكم السُّوء **﴿فإن كان لكم فتحٌ من اللهِ﴾** إن كان لكم النصر على عدوكم، وغنمتم منهم **﴿قالوا ألم نكن معكم﴾**؟ قالوا: ألم نجاهد معكم الأعداء، فأعطونا من الغنيمة؟ **﴿وإن كان للكافرين نصيبٌ﴾** وإن كان لأعدائكم حظٌ منكم، وظفرٌ عليكم. **﴿قالوا ألم نَسْتَحْوِذْ عليكُمْ ونمنعكم من المؤمنين﴾** قالوا للكافرين: ألم نساعدكم ونغلب عليكم بما أبديناه، حتى قهرتم المؤمنين؟ **﴿فاللهُ يحكم بينكم يوم القيامة﴾** يفصل بين المؤمنين والمنافقين بحكمه العادل **﴿ولَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلاً﴾** حجةً يحتجون بها عليهم يوم القيامة[1] وهذا وعدٌ من الله بأنه لن يُدخل المنافقين مدخل المؤمنين في الجنة، ولن يُدخل المؤمنين النار، فيكون للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم: ماذا نفعكم الإيمان؟ **﴿إنَّ المنافقين يخادعونَ اللهِ﴾** يخادعون اللهَ[2] بإظهار الإيمان وإبطان الكفر حقناً لدمائهم. **﴿وهو خادعهم﴾** بإجراء أحكام المسلمين عليهم استدراجاً لهم، حتى يردوا نار جهنم. **﴿وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا**

---

(١) قال ابن كثير ويحتمل أنه في الدنيا! بأن يُسلَّطوا عليهم تسليط استئصال بالكلية

(٢) الله جل وعلا لا يُخدع، ولكنَّ المنافقين لجهلهم وقلة عقلهم، يظنون أن أمرهم كما راج عند الناس يروج عنده تعالى، لأنه لم يأمر بقتلهم كما أمر بقتل الكافرين، وهذا سفهٌ منهم وحماقة، فإنه العالم بالسرائر والضمائر

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

***

كُسَالَى﴾ إذا قاموا لأداء الصلاة، قاموا إليها متثاقلين[1] **قال قتادة**: واللهِ لولا الناسُ ما صلَّى المنافق، ولا يصلّي إلا رياءً وسمعة. **﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾** يصلُّون رياءً للمؤمنين، لأنهم لا يوقنون بمعاد، ولا بثواب وعقاب **﴿ولا يذكرون اللهَ إلا قليلاً﴾** ولا يذكرون اللهَ إلا ذكر رياء، لا ذكر موقن مصدِّق بتوحيد الله **﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلكَ﴾** متردِّدين بين الكفر والإيمان **﴿لا إلى هَؤُلَاءِ ولا إلى هَؤُلاءِ﴾** ليسوا مع المؤمنين فيظهروا إيمانهم، ولا مع المشركين فيصرِّحوا بشركهم، ولكنهم حيارى كالشاة المتردِّدة بين قطيعين **﴿ومن يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾** ومن لم يوفقه الله إلى طريق الرشاد، فلن تجد له طريقاً يوصله إلى الحق **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** لا توالوا الكفار وتصاحبوهم، من دون أهل دينكم، فتكونوا ممن وجبت لهم النار **﴿أتريدون أنْ تجعلوا لله عليكم سُلْطاناً مبيناً﴾** أتريدون أن تكون لله حجة ظاهرة عليكم، فتتعرضوا لغضب الله، وتستوجبوا ما استوجبه أهل النفاق من العذاب؟ **﴿إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ﴾** في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم **﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾** ناصراً ينصرهم من عذابه، ويرفع عنهم أليم عقابه **﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾** إلاَّ الذين رجعوا إلى الحق، وأصلحوا أعمالهم **﴿واعتصموا باللهِ﴾** وتمسكوا بعهد الله **﴿وأخلَصوا دينهم للهِ﴾** أخلصوا العمل لله، وتبرءوا من الرياء والنفاق **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** يسكنهم معهم في الجنة **﴿وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنين أجراً عظيماً﴾** يعطيهم على إيمانهم ثواباً عظيماً، وذلك برفع درجاتهم في الجنة. **﴿ما يفعل اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾** ما يصنع الله بعذابكم، إن شكرتم نِعَمه وآمنتم برسوله؟ **﴿وكانَ اللهُ شاكراً عليماً﴾** شاكراً طاعة عباده، عليماً

(١) التثاقل عن الصلاة من صفات المنافقين، فليحذر المؤمنون هذه الآية وليقوموا إلى الصلاة برغبة ونشاط، فإنها راحة لقلب المؤمن كما قال ﷺ «وجعلت قرة عيني في الصلاة»

* ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ﴾

***

بما يعملون من صالح وطالح، ومجازيهم عليها. ﴿لا يحبُّ الله الجهر بالسُّوء من القَوْل إلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ لا يحب الله أن يجهر أحدٌ لأحدٍ بالقول السيء، إلا المظلوم فلا حرج عليه أن يُخبر بما أسيء إليه ﴿وكان اللهُ سميعاً عليماً﴾ سميعاً لأقوال العباد، عليماً بما يخفون في نفوسهم. ﴿إن تُبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوءٍ فإن الله كان عفواً قديراً﴾ إن تُظهروا ـ أيها الناسُ ـ الجميل من القول، أو تستروه، أو تصفحوا عمن أساء إليكم، فإن الله يصفح عمن عصاه مع قدرته على الانتقام منه، فاعفوا أنتم عمن أساء إليكم ﴿إنَّ الذينَ يكفرونَ باللهِ ورُسلِهِ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿وَيُريدُونَ أنْ يُفرِّقُوا بين اللهِ ورسلِهِ﴾ بزعمهم أن الرسل كذبوا على ربهم. ﴿ويقولونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُر ببعْضٍ﴾ ويقولون: نصدِّق ببعض الرسل ونكذِّب ببعض، كما فعل اليهود حيث كذَّبوا عيسى ومحمداً وصدَّقوا موسى، وكما فعل النصارى حيث صدَّقوا عيسى وسائر الأنبياء قبله، وكذبوا محمداً ﷺ ﴿وَيُريدونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ طريقاً وسطاً بين الهدى والضلال. ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ هؤلاء هم أهل الكفر على وجه اليقين، لأن من صدَّق ببعض الرسل وكذَّب ببعض، فهو كافر بالله لتكذيبه رسله ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ وهيأنا لمن جحد بالله ورسوله عذاباً يُهين من عُذِّب به. ﴿والذينَ آمنوا باللهِ ورسله ولم يفرِّقوا بين أحدٍ منهم﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية الله، وأقروا بنبوة جميع الرسل، ولم يكذِّبوا بعضهم ويصدقوا بعضهم. ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ هؤلاء المؤمنون سوف يعطيهم جزاءهم وثوابهم ﴿وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً﴾ غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم. ﴿يسألك أهلُ الكتاب أنْ تُنزِّل عليهم كتاباً من السَّمَاءِ﴾ يسألك اليهود يا محمد أن تسأل ربك، أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، آية معجزةً تدل على صدقك(١) ﴿فقدْ سألُوا مُوسَى أكبر مِنْ

(١) سأل اليهود ذلك على سبيل التعنت والعناد، والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك

بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

***

ذَلِكَ﴾ فقد سأل أسلاف اليهود نبيَّهم موسى أعظم مما سألك هؤلاء. ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ فقالوا: أرنا اللهَ عِيَاناً ننظرإليه. ﴿فَأَخذتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فصُعِقوا ـ أي ماتوا ثم أحياهم الله بدعوة موسى ـ بطغيانهم وبغيهم ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ثم اتخذوا العجل إلٰهاً يعبدونه من دون الله، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على قدرة الله ووحدانيته ﴿فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ فعفونا عن إجرامهم بعبادتهم العجل، وأعطينا موسى حجة واضحة تُبين عن صدقه، وهي المعجزات الباهرات التي أيّده الله بها. والآية توبيخٌ وتقريعٌ لليهود على تعنتهم مع الرسول ﷺ وتسليةٌ له عمَّا يلقاه من أذاهم، ثم قصَّ عليه بعض جرائمهم فقال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ ورفعنا فوقهم جبل الطور، بما أعطوا الله الميثاق والعهد، على العمل بما في التوراة ﴿وقلنا لهم ادخلوا البَابَ سُجَّداً﴾ ادخلوا باب «ببيت المقدس» ساجدين شكراً لله، فبدَّلوا ودخلوا يزحفون على مقاعدهم[1]. ﴿وقلنا لهم لا تَعْدوا في السبتِ﴾ لا تتجاوزوا أمر الله فتصطادوا يوم السبت، فخالفوا واصطادوا ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ عهداً شديداً مؤكداً، على العمل بما في التوراة ﴿فَبِمَا نَقْضِهِـمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ فبنقض اليهود العهد المأخوذ عليهم بالعمل بما في التوراة ﴿وكفرهمْ بآياتِ اللهِ﴾ وجحودهم الآيات الدالة على صدق الأنبياء والرسل ﴿وقتلِهِمُ الأنبياء بغير حقٍّ﴾ وقتلهم أنبياء الله، بغير ذنب ولا خطيئة استوجبوا بها القتل. ﴿وقولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ عليها غِشاوة وأغطية، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله ﴿بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهم﴾ ختم عليها بالضلالة والشقاوة بسبب كفرهم. وهذا تكذيبٌ من الله لهم في قولهم: «قلوبُنا غلفٌ» ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لأن قلوبهم تعودت على الكفر والطغيان. ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ ويكفرهم ورميهم مريم بالزنى، من غير حجة ولا برهان.

---

(١) روى البخاري أنّ بني اسرائيل قيل لهم: «ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطّة» فدخلوا يزحفون على أستاههم ـ مقاعدهم ـ فبدَّلوا وقالوا: «حبة في شعرة» وفي رواية حنطة.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾
فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟
وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

***

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريمَ رسولَ الله﴾ وبقولهم: نحن قتلنا عيسى رسول الله[1]. ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم﴾ وما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ولكنْ صلبوا شبهه، قال مجاهد: صلبوا رجلاً غير عيسى يظنونه إيَّاه، ورفع الله عيسى إليه حياً. ﴿وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه﴾ وإنَّ اليهود الذين اختلفوا في أمر عيسى، لفي شكٍ من قتله ﴿ما لهم بِهِ من عِلْمٍ إلاّ اتِّبَاعَ الظنِّ﴾ ليس لهم بمن قتلوه علمٌ من هو؟ هل هو عيسى أم هو غيره؟ إلاّ ظناً منهم أنه عيسى الذي يريدون قتله ﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾ وما قتلوا المسيح يقيناً، لأنهم كانوا على ظنٍ منه وشبهة، بل رفعه الله إلى السَّماء[2] حياً. ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ عزيزاً في انتقامه من أعدائِه، حكيماً في تدبيره وقضائه. ﴿وإنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلاّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وما من أهل الكتاب الا ويؤمن بعيسى ويصدق به، إذا نزل لقتل الدجال قبل موت عيسى، فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام، قال الحسن: واللهِ إنه الآن لحيٌّ عند الله، وإذا نزل عيسى آمنوا به أجمعون. ﴿ويومَ القيامة يكونُ عليهم شهيداً﴾ ويوم القيامة يكون عيسى شاهداً على من صدَّقه منهم ومن كذَّبه. ﴿فبظلم من الذينَ هَادُوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم﴾ حرَّمنا على اليهود طيباتٍ من المآكل كانت حلالاً لهم، عقوبة لهم بسبب ظلمهم وقتلهم الأنبياء. ﴿وبصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الله كثيراً﴾ ويصدهم الناس عن دين الله صداً كثيراً. ﴿وَأَخْذَهُم الرِّبا وقد نُهُوا عَنْهُ﴾وأخذهم الربا وقد حرَّمه الله عليهم ﴿وأكلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بالباطل﴾ وأكلهم المال الحرام كالرشى، وأثمان ما حرَّفوه من كتاب الله، وغيرها من المآكل الخبيثة. ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾وهيأنا للكافرين من

---

(١) هذا منهم على سبيل التهكم والاستهزاء، ولو اعتقدوا أنه رسول الله حقاً لم يقتلوه، وإنما قالوه تهكماً.

(٢) هذه عقيدتنا نحن المسلمين أن عيسى لم يُقتل ولم يُصْلب، وإنما قتل اليهود رجلاً آخر ألقى الله شَبَهه عليه، ورفع عيسى إلى السماء حياً، وسينزل قبل قيام الساعة إلى الأرض، والعجب أن النصارى يعتقدون بألوهية المسيح ثم يقولون إنه صُلب، وما أحسن ما قال الشاعر:

إذا صُلِبَ الإلَهُ بفعل عبدٍ يهوديٍ، فما هذا الإلَه؟

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ * إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

***

اليهود عذاباً موجعاً، وهو عذاب جهنم. ﴿لكنِ الراسخون في العلم منهم﴾ لكن المتمكّنون من العلم من اليهود، الذين رسخ العلم في قلوبهم، فعلموا أنك لله رسولٌ، ﴿والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل اليكَ وما أُنزل من قبلكَ﴾ والمؤمنون منهم يصدِّقون بالقرآن الذي أنزله الله عليك، وبالكتب التي أنزلها على الرسل قبلك. ﴿والمقيمين الصلاة﴾ والمقيمين الصلاة أخصُّهم بالمدح[1]. ﴿والمؤتون الزكاة﴾ والذين يدفعون زكاة أموالهم إلى الفقراء، طيبةً بها نفوسهم. ﴿والمؤمنون باللهِ واليومِ الآخر﴾ والمصدِّقون بوحدانية الله، وبالبعث بعد الممات. ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾هؤلاء المذكورونَ سنعطيهم ثواباً عظيماً على طاعتهم، وذلك الجنة.

﴿إنّا أوْحَيْنا إليكَ كما أوْحَينا إلى نُوحٍ والنَّبيِّينَ من بعدِه﴾ إنا أوحينا اليك بالنبوة يا محمد، كما أوحينا إلى نوحٍ وإلى سائر الأنبياء من بعده. ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾[2] وأوحينا إلى إبراهيم خليل الرحمن، وابْنَيه«إسماعيل وإسحٰق» وابن ابنه يعقوب بن إسحٰق، وإلى الأسباط نسل يعقوب ﴿وعيسى وأيوبَ ويونس وهارونَ وسليمانَ﴾ وأوحينا كذلك إلى هؤلاء الرسل الكرام ﴿وآتَيْنا داودَ زَبُوراً﴾وأعطينا داود الزبور، كما أعطيناك يا محمد الفرقان ﴿وَرُسُلاً قد قَصَصْنَاهُمْ عليكَ مِنْ قَبلُ ورُسلاً لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وأوحينا إلى رسلٍ كثيرين، منهم قد قصصنا عليك أخبارهم، ومنهم من لم نقصص عليك. ﴿وكلَّم اللهُ مُوسَى تَكْليماً﴾ وخاطب الله موسى مشافهةً دون واسطة ﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ﴾ أرسلنا هؤلاء الرسل مبشرين لمن أطاعني بالثواب، ومنذرين لمن عصاني بالعقاب ﴿لئلا يكونَ للناسِ على اللهِ

(١) اختار الطبري أن « المقيمين الصلاة » منصوب عطفاً على « ما » في قوله ﴿يؤمنون بما أنزل﴾ والمعنى ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، كما ذكر الوجه الذي اخترناه

(٢) ذكر تعالى في هذه الآية مشاهير الرسل الكرام من ذرية نوح وإبراهيم، وبدأ بخاتم المرسلين تشريفاً لمقامه العظيم

حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا

***

حُجَّةٌ بعد الرسل﴾ لئلا يحتجَّ الكفار فيقولوا: ما أرسلت إلينا رسلاً!! فقطع الله تعالى بإرسال الرسل كل مبطل ألحد في دينه، لتكون للهِ الحجةُ البالغةُ على جميع خلقه **﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** عزيزاً في انتقامه ممن كفر به، حكيماً في تدبيره بإرسال الرسل **﴿لكن اللهُ يشهدُ بما أنزل إليكَ أنزلهُ بعلمِهِ﴾**لكنِ اللّهُ يشهد لك يا محمد، بما أنزل عليك من كتابه ووحيه، أنزله بعلمٍ منه أنك خيرة خلقه ، فلا تحزن بتكذيب اليهود لك والمشركين **﴿والملائكةُ يشهدون﴾** ويشهد لك بذلك ملائكتُه. **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** وحسبك اللهُ شاهداً على صدقك **﴿إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾** إن الذين جحدوا نبوتك، وصدُّوا الناس عن دين الإسلام **﴿قد ضَلُّوا ضلالاً بعيداً﴾** قد حادوا عن الطريق السويّ ـ طريق الإسلام ـ وزاغوا عن الهدى زيغاً كبيراً. **﴿إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾** جحدوا رسالتك يا محمد، وظلموا بمقامهم على الكفر. **﴿لم يكنِ اللهُ لِيغْفِرَ لهمْ ولا لِيَهْدِيهُمْ طَرِيقاً﴾** لم يكن الله ليصفح عن ذنوبهم، ولا ليوفقهم للإسلام، ولكنه يخذلهم عنه حتى يسلكوا طريق جهنم، ولهذا قال بعده **﴿إلاَّ طريقَ جهنم خالدين فيها أبداً﴾**إلا الطريق الموصل إلى نار جهنم ـ وهو الكفر ـ مقيمين فيها أبداً**﴿وكان ذلك على اللهِ يسيراً﴾** كان تخليد هؤلاء في جهنم، سهلاً يسيراً على الله، لأن الخلقَ خلقُه، والأمرَ أمرُه **﴿يا أيها الناسُ قد جاءكم الرسُولُ بالحقِّ من ربكم﴾** يا أيها الناسُ قد جاءكم محمد ﷺ بالإسلام من عند ربكم، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده **﴿فآمنوا خيراً لكم﴾** فصدِّقوا بمحمد وبما جاءكم به، فإنه خيرٌ لكم **﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمواتِ والأرض﴾** وإن تجحدوا رسالته، وتكذِّبوا بما جاءكم به، فإن ذلك لن يُنقص من ملك الله وسلطانه شيئاً، لأن له جميع ما في السموات والأرض **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** عليماً بأحوال العباد، حكيماً في تدبيره **﴿يا أَهْلَ الكِتاب لا تَغْلُوا في دينكم﴾** يا معشر النصارى لا تجاوزوا الحدّ في دينكم

تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ
فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ
وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا
لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

***

فتفرطوا فيه ﴿ولا تقولوا على اللهِ إلاَّ الحقَّ﴾ ولا تقولوا في عيسى غير الحقِّ، فإن قولكم فيه انه ابنُ الله قولٌ باطلٌ، لأن الله لم يتخذ ولداً. ﴿إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم رَسُولُ الله﴾ ما المسيح ابن مريم إلا رسولُ الله، وليس ابن الله كما تزعمون ﴿وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ﴾ وبشارته التي أعلم وأخبر بها مريم[1] ﴿وروحٌ منه﴾ وروحٌ من الله ألقاها إلى مريم بواسطة جبريل ﴿فآمنوا باللهِ ورسُلِهِ﴾ فصدِّقوا بوحدانية الله، وصدِّقوا برسله. ﴿ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾ ولا تقولوا الأرباب ثلاثة[2] ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ انتهوا عمَّا تقولون من الزور والشركِ بالله، فإنه خير لكم من العقاب العاجل والآجل ﴿إنَّما اللهُ إلهٌ واحدٌ﴾ إنما الإلّه المعبود آلهٌ واحد، لا ولد له ولا والد ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يكونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تنزَّه وتعظَّم الله، عن أن يكون له ولدٌ أو صاحبة ﴿لهُ ما في السَّموات ومَا في الأَرْضِ﴾ له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، ملكاً وخلقاً، وجميع الخلق عبيده وإماؤه، فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو من جملة مخلوقاته؟ ﴿وَكَفَى باللهِ وكيلاً﴾ حسبُ العباد أن يكون الله قيِّماً ومدبِّراً ورازقاً لهم. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يكونَ عَبْداً للهِ﴾ لن يأنف ولن يستكبر المسيح عن أن يكون عبداً لله ﴿ولا الملائكة المقربونَ﴾ ولن يستكبر عن عبادته والإذعان له، الملائكة الذين قرَّبهم الله إليه ﴿ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبرْ فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ ومن يتعظَّم ويستكبر عن عبادة الله، فسيجمعهم ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوفِّيهِمْ أُجُورهُمْ﴾ فأما المؤمنون المقرون بوحدانية الله، العاملون لصالح الأعمال، فسوف يؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة تاماً وافياً ﴿ويزيدهم من فضلِهِ﴾ ويزيدهم من إحسانه ما لا حدَّ لقدره.

(١) المراد بالكلمة « الروح » أن الله خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فحملت بعيسى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف.

(٢) العقيدة السائدة عند النصارى أن عيسى إلّه وهو أحد ثلاثة آلهة يسمونها « أقانيم » وهي الآب، والابن، وروح القدس.. والعجب أنهم مع اعتقادهم بألوهية عيسى، يُقرون بأنه كان يأكل، ويشرب، وينام، وأنه صلب، وهذه صفات البشر لا الإلّه، وهم كذلك يعترفون بأنه تكوَّن في رحم مريم ثم وُلد، فكيف يقر عاقل بأن الإلّه خرج من فرج امرأة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم

أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ
إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ
مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً
فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

***

﴿وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عذاباً أليماً﴾ وأما الذين تكبروا عن عبادة الله فيعذبهم عذاباً موجعاً ﴿ولا يجدون لهم من دون اللَّهِ ولياً ولا نصيراً﴾ ولا يجدون لهم ـ سوى الله ـ ولياً ينجيهم من عذابه، ولا ناصراً ينقذهم من عقابه ﴿يا أيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من ربكم﴾ قد جاءكم حجةٌ من الله وهو محمد ﷺ ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ وأنزلنا إليكم القرآن العظيم، الذي يبيِّن لكم الحجّة الواضحة، والسُّبل الهادية. ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ فأما الذين صدَّقوا الله، وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله على نبيِّه. ﴿فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضل﴾ فسوف يدخلهم في جنته، التي هي مكان رحمته، وينالهم عطاؤه وفضلُه العظيم ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ ويوفقهم لسلوك دين الله، الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

﴿يستفتونك قُلِ اللَّهُ يفتيكم في الكلالةِ﴾ يسألونك يا محمد أن تفتيهم في الكلالة، قل الله يفتيكم فيها ـ والكلالةُ هي: ألاَّ يوجد والدٌ ولا ولد ـ ﴿إن امروٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفُ ما تركَ﴾ إن مات إنسان ليس له ولدٌ ـ ذكرٌ ولا أنثى ـ وللميت أختٌ شقيقة، أو أخت لأب، فلأخته نصفُ تركته وما بقي فلعَصَبته[1]. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إنْ لمْ يكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وأخوهاالشقيق يرثها إن ماتت قبله، إذا لم يكن لها ولدٌ ولا والد ﴿فإنْ كَانَتَا اثْنَتيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ فإن كانتا أختين شقيقتين فأكثر أو لأب، فلهما الثلثان من التركة، إذا لم يكن له ولد ولا والد ﴿وإنْ كَانُوا إخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَر مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ وإن كان إخوة الميت ذكوراً وإناثاً، أشقاء أو من أبيه، وليس للميت ولدٌ ولا والد، فللذكر منهم مثل نصيب أختين ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ يبيِّنُ الله لكم القسمة في شأن المواريث، لئلا تضلوا وتجوروا عن الحق، وتخطئوا الحكم فيه ﴿وَاللهُ بكلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالمٌ بمصالح العباد، وبجميع الأشياء، لا تخفى عليه خافية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء»

---

(١) هذه الآية الكريمة فصَّلت حكم الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، إذا لم يكن للميت أصلٌ ولا فرع، وورثه إخوته بحكم الكلالة.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾

***

﴿يا أيها الذينَ آمنوا أوْفُوا بالعقودِ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، أوفوا بالعهود التي أوجبها عليكم ربكم من شرائع دينه، والعهود التي عاهدتم عليها الناس، من بيع، وشركةٍ، وذمةٍ، وأمان[1] ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلاَّ ما يُتْلى عليكم﴾ أبيح لكم أكل بهيمة الأنعام[2] وهي: الإبل، والبقر، والغنم، إلا ما حرَّم الله عليكم من الميتة، والمنخنقة، والموقوذة، وما ذُبحَ لغير الله مما هو مبيَّنٌ في قوله «حُرِّمت عليكم الميتةُ والدم ولحم الخنزير. .» الآية. ﴿غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ غير محلِّين الصَّيد في حال إحرامكم. ﴿إنَّ اللهَ يحكُمُ ما يُريدُ﴾ إن الله يقضي في خلقه بما يشاء، من تحريم وتحليل، وفرائض وأحكام. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلُّوا شعائر اللهِ﴾ لا تستحلُّوا حرماتِ الله، ولا تُضيِّعوا فرائضه ﴿ولا الشَّهْرَ الحَرَامَ﴾ ولا تستحلُّوا الشهر الحرام بقتالكم فيه أعداءكم المشركين. ﴿ولا الهَدْيَ ولا القَلائدَ﴾ ولا ما يُهْدى لبيت الله، تقرباً إلى الله وطلباً لثوابه، ولا المقلَّد من الهَدْي، الذي جُعل له قلادة من لِحَاء الشجر، فلا تتعرضوا للهَدْي ولا للقلائد، **قال قتادة**: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحجَّ، تقلَّد من السَّمُر فلم يعرضْ له أحد، فإذا رجع تقلَّد قلادَة شَعَر فلم يعرض له أحد، فيأمن

---

(١) العقود جمع عقد، وأصله في اللغة الربط، تقول: عقدتُ الحبل بالحبل، ثم استعير للمعاني كعقد البيع والعهد، ، والمراد بالعقودهنا ما يشمل العقود التي عقدها الله على عباده كالتكاليف الشرعية، والعهود التي بين الناس كعقود الأمانات والمبايعات كما ذهب اليه الإمام الطبري

(٢) سميت بهيمة لأنها لا تنطق، ولما في أصواتها من الإبهام، والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم.

وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن

***

على نفسه ﴿ولا آمِّينَ البيتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ ربِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ ولا تستحلوا من قصد البيت الحرام، يطلب ويلتمس الربح في تجارته، ورضى الله في حجه. ﴿وإذَا حَلَلْتُمْ فاصْطَادُوا﴾ وإذا تحللتم من إحرامكم فلا حرج عليكم أن تصطادوا، فقد أبيح لكم الصيدُ. ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قوم أَنْ صدُّوكم عن المسجد الحرام أَنْ تَعْتَدُوا﴾ ولا يحملنكم عداوة قوم لأنهم منعوكم عن المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم. ﴿وتَعَاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعُدْوانِ﴾ وتعاونوا ـ أيها المؤمنون ـ على العمل بما يرضي الله، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ولا تتعاونوا على المآثم والمحارم، التي حرَّمها الله من البغي والعدوان، وسائر ما حرَّم الله. ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ خافوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿إنَّ اللهَ شديد العقابِ﴾ عقابُه شديد لمن عصى أمره، فإن النار لا يُخمد جمرها، ولا يسكن لهبُها.

﴿حُرِّمتْ عليكم الميتةُ﴾ حرَّم الله عليكم الميتة ـ وهي ما مات من دواب البَرِّ وطيوره من غير تذكية شرعية ـ أي من غير ذبح ﴿والدَّمُ ولحم الخنزيرِ﴾ وحُرِّم عليكم الدمُ المسفوح، ولحمُ الخنزير، بجميع أجزائه الباطنة والظاهرة ﴿وما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بِهِ﴾ وما ذُبِحَ لـلآلهة والأوثان، وسُمِّي عليه غير اسم الله ﴿والْمُنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ﴾ والتي تختنق فتموت، والتي تضرب بشيء ثقيل حتى تموت، قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعِصِيِّ حتى إذا ماتت أكلوها. ﴿والْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ﴾ والتي تتردَّى من جبل فتموت، والتي تنطحها أخرى فتموت[1] ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلَّا ما ذَكَّيْتُمْ﴾ وحُرِّم عليكم ما أكل السبع غير المعلَّم، إلا ما طهرتموه بالذبح قبل أن يموت. والاستثناء راجع إلى المنخنقة، والموقوذة، والنطيحة، والمتردية، وما أكله السبع أي إلا ما أدركتم زكاته قبل أن تفارق روحه جسده من هذه الأشياء فذلك حلال. ﴿وما ذُبِحَ على النُّصُبِ﴾ وحُرِّم عليكم ما ذُبِح على الحجارة التي حول الكعبة، تقرباً للأوثان والأصنام.

---

(١) النطيحة: المنطوحة، فعيل بمعنى مفعول، فما مات قبل أن يدركوا تذكيته فهو حرام.

تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ
لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

***

قال مجاهد: هي حجارة حول الكعبة كان يذبح عليها أهل الجاهلية. **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأزلَامِ﴾** وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأقداح، عند إرادة أحدكم السفر، أو الغزو، أو التجارة، طلباً لمعرفة ما قُسم في الغيب[1] **﴿ذلكم فسقٌ﴾** هذه الأمور التي حرمتها عليكم، من أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذُكر، خروجٌ عن أمر الله وطاعته. **﴿اليومَ يئس الذينَ كفروا من دينكم﴾** اليوم انقطع أمل الكفار منكم، أن ترتدوا عن دينكم إلى الشرك. **﴿فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ﴾** فلا تخافوا منهم أن يغلبوكم ويردوكم عن دينكم، ولكن خافون إن عصيتم أمري أن أحل بكم عقابي. **﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾** اليومَ أكملت لكم الإسلام، بتبيين الحلال والحرام، والفرائض والأحكام **﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾** بإظهاركم على عدوكم، ونفيهم من بلادكم **﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾** واختياري لكم دين الإسلام ديناً، فالزموه ولا تفارقوه. والآية نزلت في حجة الوداع، والرسول ﷺ في عرفة، ولما نزلت بكى عمر، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لقد كنا في زيادة من ديننا، وأمَّا إذْ كمُل فما كمل شيء إلَّا نقص، **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ﴾** فمن ألجأته الضرورة لأكل شيء، من المحرمات في مجاعة ثم قال تعالى بعد بيانه **﴿غير متجانفٍ لإثم﴾** غير متعمد ولا قاصد للمعصية في حال أكله **﴿فإن اللهَ غفور رحيم﴾** ساترٌ لذنوب العباد، رحيم بهم، ولهذا أباح لهم أكل المحرمات وقت الاضطرار **﴿يسألونك ماذا أُحِلَّ لهمْ﴾** يسألونك يا محمد: ماذا أباح الله لهم أكلَه من المطاعم والمآكل؟ **﴿قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾** قل لهم: أبيح لكم الحلال من المآكل والذبائح **﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾** وأُحل لكم صيدُ ما علَّمتم من سباع البهائم والطير، إذا اقتنصن الصيد بمخالبهن أو أظفارهنَّ[2] **﴿تُعلِّمُونَهُنَّ مِمَّا علَّمكُمُ اللهُ﴾** تُعلِّمون

(١) كان لأهل الجاهلية أقداح يستقسمون بها، يستشيرون بها ـ على زعمهم ـ الآلهة في أمورهم، مكتوبٌ على بعضها «أمرني ربي» وعلى بعضها «نهاني ربي» وبعضها غُفْلٌ ـ لم يكتب عليها شيء ـ فإذا أراد أحدهم السفر أو الغزو أو التزوج استقسم بها، فإذا خرج أمرني ربي، مضى لما أراد، وإذا خرج نهاني ربي، أمسك عن المضي لما يريد، وإذا لم يخرج شيء أعاد الاستقسام

(٢) ذهب الطبري إلى أن قوله «مكلبين» صفةٌ للقانص والمعنى: حال مصيركم أيها الناس أصحاب كلاب، وما أثبتناه من تفسير ابن كثير. وهو أحد أقوال ذكرها الطبري

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ

***

الجوارح ـ من السباع والطير ـ طلب الصيد، بالوجه الذي علَّمكم الله إياه. **﴿فكلوا ممَّا أمسكنَ عليكم واذكروا اسمَ اللهِ عليه﴾** فكلوا من الصيد الحلال الذي أمسكته عليكم الجوارح، واذكروا اسم الله عليها عند إرسالها، وفي الحديث «إذا أرسلت كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه فكل ما أمسكَ عليك، وإن أدركته وقد قَتَلَ وأكل منه فلا تأكل منه شيئاً، فإنما أمسكَ على نفسه»[1] **﴿واتقوا اللهَ﴾** بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. **﴿إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ﴾** يحاسب الخلائق جميعاً في أقرب زمان، لأنه لا يشغله شأنٌ عن شأن[2] **﴿اليومَ أُحِلَّ لكم الطيِّباتُ﴾** اليوم أبيح لكم الحلالُ المستطابُ من الذبائح والمطاعم، دون الخبائث منها **﴿وَطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهُمْ﴾** وذبائح اليهود والنصارى حلال لكم، وذبائحكم أيها المؤمنون حلال لهم. **﴿والمحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** وأُحلَّ لكم نكاح العفائف الحرائر من المؤمنات، والعفائف الحرائر من نساء أهل الكتاب، الذين آمنوا بما في التوراة والإنجيل من قبلكم. **﴿إذَا آتيتموهنَّ أجورهنَّ﴾** إذا دفعتم إليهن مهورهنَّ **﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدانٍ﴾** أعفاء غير زانين، ولا متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن في السرِّ **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عملهُ وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** ومن يجحد وحدانية الله، ونبوة محمد ﷺ ويرتدَّ عن الإسلام،فقد بطل ثوابُ عمله، وهو يوم القيامة من الهالكين. **﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصَّلاةِ﴾** إذا أردتم أيها المؤمنون القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة **﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافِق﴾** فاغسلوا بالماء الطاهر وجوهكم وأيديكم إلى مرافقها **﴿وامْسَحُوا برُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْن﴾** وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم إلى

---

(١) الحديث في الصحيحين، وقد جاء بطرقٍ متعددة عن عدي بن حاتم مرفوعاً.

(٢) هكذا روي عن ابن عباس.

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

***

الكعبين[1] **﴿وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَرُوا﴾** وإن أصابتكم جنابةٌ فتطهَّروا بالاغتسال منها **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ﴾** وإن كانت بكم جراحة، أو كنتم مسافرين وأنتم جنبٌ **﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾** أو قضى الإنسان حاجته ببولٍ أو غائط **﴿أو لامستم النِّساءَ﴾** أو جامعتم النساء **﴿فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾** فاقصدوا وجهِ الأرض والتراب الطاهرِ النظيف **﴿فامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾** فامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب الطاهر، ثم صلُّوا **﴿ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** ما يريد الله بما فرض من الأحكام، أن يُضيّق عليكم في الدين. **﴿ولكنْ يُريدُ ليطهركم وَلِيُتِمَّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾** ولكنَّ الله يريد أن يطهّركم من الأحداث والجنابة والذنوب والآثام، ويُتمَّ نعمته عليكم بإباحةالتيمم، لتشكروه على نعمه، وتحمدوه علىآلائه **﴿واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم وميثاقه الذي واثقكم به﴾** واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ نعمة الله الجليلة عليكم بهدايته إياكم للإسلام، وعهده الذي عاهدكم به، حين بايعتم رسوله على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره **﴿إذْ قلتم سمعنا وأطعنا﴾** حين قلتم: سمعنا ما عاهدتنا عليه، وأطعناك فيما أمرتنا ونهيتنا **﴿واتَّقُوا اللهَ﴾** بامتثال أوامره واجتناب نواهيه **﴿إنَّ اللهَ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** عالمٌ بما في قلوبكم من النوايا والخفايا، ومجازيكم عليها.

﴿يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كونوا قوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ﴾ كونوا قائمين لله بالحق، شهداء بالعدل مع أصدقائكم وأعدائكم **﴿ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾** ولا يحملنكم عداوة قوم على ألَّا تعدلوا فيهم وتجوروا عليهم في حكمكم **﴿اعدِلُوا هو أقربُ للتَّقْوى﴾** إعدلوا مع جميع الناس، فإن ذلك أقرب لأن تكونوا من أهل التقوى **﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تَعْمَلونَ﴾** خبير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

---

(١) قوله تعالى ﴿وأرجلَكم إلى الكعبين﴾ بالفتح عطفاً على اليدين، وهذا كما قال الطبري من المقدم والمؤخر من الكلام، والتقدير: إغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم، خلافاً لما ذهب إليه الشيعة من المسح على الرجلين، =

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

***

﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لهم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وعد الله المؤمنين المتقين، بالعفو عن ذنوبهم، وإدخالهم جنات النعيم ﴿والذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أولئكَ أصحابُ الجحيم﴾ والذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا ما جاءت به الرسل من الحجج والبراهين، أولئك أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اذكروا نعمة اللهِ عليكم إذ همَّ قومٌ أَنْ يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عَنْكُمْ﴾اذكروا نعمة الله العظيمة عليكم، حين عزم يهود بني النضير على قتلكم والغدرِ بكم وبرسول الله ﷺ، فصرف أيديهم عنكم(١) ﴿واتقوا اللهَ﴾ خافوا الله بامتثالكم أوامره، واجتنابكم نواهيه ﴿وعلى اللهِ فلْيتوكلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون، وليستسلموا لقضائه، وليثقوا بنصره وعونه ﴿ولقد أخذ الله ميثاقَ بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنيْ عَشَرَ نقيباً﴾ أخذ الله عهودهم المؤكدة على الوفاء لله بطاعته والإيمان برسله، وأرسل منهم اثني عشر كفيلاً من رؤسائهم، ليكفلوا قومهم على الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وقالَ اللهُ إني معكم﴾ وقال الله لهم: إني معكم بالعون والنصر ﴿لئنْ أقمتُمُ الصَّلاَةَ وآتيتُم الزكاةَ﴾ وأقسمُ لئن أقمتم يا معشر بني إسرائيل الصلاة، وأعطيتم الزكاة لمستحقيها ﴿وآمنتُمْ برسُلي وعَزَّرتموهُمْ﴾ وصدقتم رسلي ونصرتموهم ﴿وأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ وأنفقتم في سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿لأكفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأمحونَّ عنكم ذنوبكم ﴿ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ ولأدخلنكم يوم القيامة

=فهذا خطأ واضح بالنصوص القرآنية الكريمة، فإن الله عزوجلَّ لما ذكر المسح لم يقيّده بغاية ولما ذكر غسل اليدين والرجلين قال: إلى المرافق، وإلى الكعبين، ثم إن هذا القول مخالفٌ للسنَّة ولإجماع الأمة، فقد ثبت أن النبي ﷺ رأى أقواماً لا يسبغون الوضوء فقال: ويلٌ للأعقاب من النار.

(١) روي أن النبي ﷺ خرج مع بعض أصحابه إلى يهود بني النضير يستعينهم في أمر، فتآمروا على قتله وقتل أصحابه غدراً، فنزل عليه جبريل يخبره بما دبّروا، ونجّى الله رسوله والمؤمنين من شرهم.

مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

***

بفضلي بساتين، تجري من تحت أشجارها أنهارُ الجنة ﴿فمن كَفَر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ فمن جحد نعمة الله منكم، بعد ذلك العهد والميثاق، فقد أخطأ قصد الطريق الواضح، وزلَّ عن منهـج الهداية والسداد... والآيـةُ إعلامٌ من الله جل وعـلا لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما عليه اليهود من الغدر ونقض العهد، وأن ذلك من أخلاقهم وأخلاق أسلافهم قديماً وحديثاً، وتوبيخٌ لليهود في تماديهم في الغيِّ والضلال ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم، طردناهم وأبعدناهم عن رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ جعلنا قلوبهم غليظة يابسة، لا تلين لموعظة، قد نُزعتْ منها الرأفةُ والرحمةُ ﴿يُحرِّفونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ﴾ يحرِّفون كلام ربهم ـ التوراة ـ فيبدِّلونه ويغيِّرونه، ويكتبون بأيديهم غير ما أنزل الله، ثم يقولون لجهَّال الناس: هذا هو كلامُ الله ﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّروا بِهِ﴾ وتركوا نصيباً من أوامر الله وأحكامه فلم يعملوا بها ﴿ولا تَزَالُ تَطَّلعُ على خَائِنَةٍ منهم إلاَّ قليلاً منهم﴾ ولا تزال يا محمد تطَّلع من اليهود على خيانةٍ وغدرٍ، ونقض للعهد، إلا قليلاً منهم لم يخونوا ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ﴾ فاعف يا محمد عن هـؤلاء اليهود، واصفحْ عن جرمهم وكيدهم ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يُحبُّ من أحسن فعفا وصفح عمن أساء إليه ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ ومن الذين ادَّعوا أنهم نصارى، أخذنا كذلك عهدهم المؤكد على طاعتي، واتباع رسلي، فسلكوا منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدَّلوا دينهم، ونقضوا عهدهم ﴿فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا به﴾ فتركوا نصيباً وافراً من أوامر الله وتشريعه فلم يطبقوها ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يومِ القيامةِ﴾ فألقينا بين النصارى العداوة والبغضاء، وحرَّشنا بينهم باتباع الأهواء ـ لتركهم كتاب الله، وتضييعهم فرائضه، وتعطيلهم حدوده ـ ولا يزالون كذلك متعادين متباغضين إلى قيام الساعة[١] ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وسوف

---

(١) هـذا حكمٌ من الله قاطع، يشهد له الواقع، فإن طوائف النصارى متعادية، متقاتلة، متناحرة، يكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فهذا «كاثوليكي» وهذا «بروستانتي» وهذا من الروم الأرثوذوكس، لا يتزوج أحدهم من المذهب الآخر، بل ولا يسمح له بدخول كنيسة الآخر، وهكذا نجد الأمم الغربية ـ وقد جمعتهم النصرانية وهم أبناء دين واحد ـ يتفنن بعضهم في إهلاك بعض، فمن مخترع للقنبلة الذرية، إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية، إلى مصمم لقنبلة الكوبالت، وكلها مواد مدمِّرة ناسفة، لا يستطيع العقل البشري أن يتصور =

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرً۬ا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ۬ۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ۬ وَكِتَـٰبٌ۬ مُّبِينٌ۬ (١٥) يَہۡدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٲنَهُ ۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَہۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٲطٍ۬ مُّسۡتَقِيمٍ۬ (١٦) لَّقَدۡ ڪَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُ ۥ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعً۬اۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٲتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَہُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ۬ قَدِيرٌ۬ (١٧)﴾

***

يخبرهم في الآخرة بإجرامهم في الدنيا، ويعاقبهم على ما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله. **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّنُ لكم كثيراً ممَّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثيرٍ﴾** يا معشر اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد ﷺ يُظهر ويكشف لكم كثيراً مما كنتم تخفونه عن الناس، من أحكام التوراة والإنجيل - من كتاب ربكم - ويترك أخذكم بكثير مما كنتم تخفونه من كتابكم **﴿قد جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ﴾** قد جاءكم محمد ﷺ الذي أنار الله به الحقَّ، ومحق به الشرك والضلال، وكتابٌ واضح منير هو القرآن العظيم، الذي أوضح الله فيه الحلال والحرام، وفرق به بين الحق والباطل **﴿يَهْدِي بهِ الله من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام﴾** يرشد بهذا القرآن المبين، من اتبع رضى الله، إلى طرق النجاة والسلامة **﴿ويُخْرِجُهُمْ من الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإِذْنِهِ﴾** ويخرجهم من ظلمات الشرك والكفر، إلى نور الإسلام وضيائه، بتوفيقه وهدايته **﴿ويَهْديهمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾** ويرشدهم إلى طريق مستقيم، هو دين الله القويم. ثم ذمَّ تعالى النصارى الذين ضلوا عن سبل السلام فقال: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريمَ﴾** أُقسمُ بأن الذين قالوا: إن المسيح ابن مريم هو اللهُ كفارٌ، كاذبون على الله. **﴿قُلْ فمن يملكُ من الله شيئاً﴾** قل يا محمد للنصارى الذين افتروا على الله هذا البهتان: من الذي يطيق أن يدفع أمر الله وقضاءه **﴿إنْ أَرَادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريم وأمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً﴾** إن شاء أن يُعدم عيسى ومريم، ويُعدم الخلق جميعاً؟ فلو كان المسيح - كما تزعمون هو الله - لقَدَرَ أن يُردَّ أمر الله، ولكنه بشرٌ كسائر الناس، والله هو الحيُّ الدائم القيوم الذي يُحيي ويُميت، وينشىء ويُفني، والذي لا يُغلب ولا يُقهر، وهو حي لا يموت **﴿ولله مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما﴾** واللهُ جلَّ وعلا هو المتصرف في الكون، يُنْفِذ في الخلائق حكمه، ويُمْضي فيهم قضاءه **﴿يخلقُ ما يشاءُ واللهُ على كل شيء قديرٌ﴾** يوجد

=مدى ما تُحدثه هذه المخترعات الجهنمية، من تلفٍ بالغ، وهلاك شامل لهم وللإنسانية، وليست صور الخراب والدمار، التي حلَّت بألمانيا وإنكلترا وفرنسا، بعد الحرب العالمية الثانية ببعيدة عن الأذهان، مصداقاً لما أخبر عنه القرآن!!

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ

***

من العدم ما يشاء، وهو القادر على كل شيء، فكيف يكون إلٰهاً من كان عاجزاً عن دفع السُّوء عنه، وصرف مانزل به من الهلاك؟ بل الإلٰه المعبود هو الذي له تدبير السمواتِ والأرض، وبيده تصريف كل شيء **﴿وقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ﴾** قالوا: إنَّ الله يحبنا وله عنايةٌ بنا، لأننا منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه **﴿قل فلم يُعذبكم بذنوبكم﴾** قل لهؤلاء المفترين على الله: فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم؟ فإن الحبيب لا يُعذِّب حبيبه **﴿بل أنتم بشرٌ ممن خَلَق﴾** بل أنتم خلق من بني آدم كسائر الناس **﴿يَغْفِرُ لمن يَشَاءُ ويُعذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** يصفح عمن يشاء بفضله، ويُعذِّب من يَشاء بعدله **﴿ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما﴾** بيده أمر السموات والأرض، وله ملكهما وملك ما بينهما، يدبر ويصرِّف شؤونهما كيف أحبَّ **﴿وإليه المصيرُ﴾** وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل عاملٍ بعمله **﴿يا أهل الكِتَاب قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكُمْ عَلَى فَتْرةٍ مِن الرُّسُلِ﴾** يا معشر اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد ﷺ يُعرِّفكم الحقَّ، ويوضِّح لكم الهدى، ويرشدكم إلى المرتضى، على انقطاعٍ من بعثة الرسلِ، دامت خمسمائة وستين سنة **﴿أَنْ تَقُولُوا ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ وَلانَذِيرٍ﴾** كي لا تقولوا: ما جاءنا رسولٌ مبشِّرٌ ومنذرٌ **﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾** فقد أرسلنا إليكم محمداً ﷺ يُبشِّر من أطاع الله بالثواب الجزيل، وينذر من عصى الله بالعذاب الأليم **﴿والله على كل شيء قديرٌ﴾** قادرٌ لا يعجزه شيء أراده **﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾** اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، وأياديه وآلاءه العظيمة **﴿إذْ جَعَلَ فيكم أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾** حين بعث فيكم الأنبياء والمرسلين، وسخَّر لكم من يخدمكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعونَ وأتباعه. **﴿وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمينَ﴾** وأعطاكم من نعم الله وكرامته، ما لم يعطه أحداً في زمانكم[1] **﴿يا قوم ادخلوا الأرْضَ المقدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكُمْ﴾** ادخلوا الأرض المطهرة المباركة ـ

---

(١) عنى بـ «العالمين» عالمي زمانهم، لا عالمي كل زمان، فأمة محمد ﷺ قد أعطيت من كرامة الله وفضله، ما لم يعط أحدٌ غيرهم مثله.

ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا
ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ
إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

***

أرض بيت المقدس ـ التي وعدكم الله أن تكون مساكن ومنازل لكم **﴿ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾** ولا ترجعوا إلى ورائكم منهزمين، فتنصرفوا خائبين، قد خسرتم عزتكم بتضييع فرض الجهاد **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارينَ﴾** قالوا يا موسى: إن في الأرض المقدسة قوماً أشداء، لا طاقة لنا بحربهم قد قهروا الأمم لشدة بطشهم **﴿وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون﴾** وإنا لا نطيق دخولها وهم فيها، فإن يخرج منها هؤلاء الجبارون دخلناها، قالوا ذلك جُبناً منهم، وجزعاً من قتالهم[1] **﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾** قال رجلان صالحان من قوم موسى، ممن يخاف الله ويراقبه في أمره ونهيه وهما: «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا» **﴿أنعمَ اللهُ عليهما﴾** بطاعة الله وطاعة نبيه، وبالتوفيق لرضى الله **﴿ادخلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾** ادخلوا عليهم ـ أيها القوم ـ باب مدينتهم، فإن الله معكم وناصركم، وإنكم إذا دخلتم عليهم الباب غلبتموهم **﴿وعلى اللهِ فتوكلوا إنْ كنتم مؤمنين﴾** على الله وحده فاعتمدوا، وثقوا بنصره إن كنتم مصدِّقين نبيكم، فيما أخبركم به من الظفر والنصر عليهم **﴿قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾** لن ندخل أرض الجبارين ومدينتهم أبداً، ما داموا مقيمين فيها. **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾** فاذهب يا موسى أنت وربك لقتال هؤلاء الجبارين، فنحن قاعدون ههنا **﴿قال ربِّ إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي﴾** قال موسى: يا رب إني لا أقدر على حمل أحدٍ على طاعتك، إلاّ على نفسي وأخي **﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾** فافْصل

---

(١) هذه طبيعة في اليهود متأصلة في نفوسهم وهي الجبن والخور، وانظر إلى جوابهم لنبيهم﴿لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ فهل يتصوَّر أن يُسلِّم الإنسان دياره وأوطانه دون حرب وقتال؟ وانظر كيف يعلمنا القرآن الخطط الحربية الحكيمة، يعلمنا أن نتَّبع خطة الهجوم، وهي خطة الاستبسال والشجاعة، أما اليهود فإنهم جبناء، لا شجاعة عندهم ولا جرأة، ولكنهم استأسدوا على العرب في هذه الأيام لأن المسلمين تركوا الجهاد في سبيل الله، وركنوا إلى نعيم الحياة، وما تركت أمة الجهاد إلا ذلُّوا، ومثل اليهود كمثل القطِّ ينتفخ ويغتر عندما لا يجد من يصاوله «كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد» فإذا جاء الأسد الحقيقي انقصم ظهرُ الهرّ فزعاً ورعباً

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ
قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

***

بقضائك العادل، بيننا وبين الخارجين عن الإيمان إلى الكفر والعصيان **﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحرَّمَةٌ عليهمْ أَرْبعينَ سَنَةً يتيهونَ في الأرضِ﴾** قال له ربه: إن الأرض المقدسة محرَّمة على بني إسرائيل أربعين سنة، عقوبةً لهم على جبنهم وعدم استجابتهم لأمر ربهم ونصيحة نبيِّهم، يحارون في الأرض ويضلّون هذه المدة. **﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾** فلا تحزن يا موسى على القوم الخارجين عن طاعة الله.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ واقصص يا محمد على هؤلاء اليهود خبر «هابيل وقابيل» ابنيْ آدم، وعرِّفهم عاقبة الظلم والمكر **﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾** حين قَرَّبَ «هابيل» و«قابيل» قرباناً لله، فتقبَّل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، **قال ابن عمر**: كان أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب زرع، فقرَّب صاحب الغنم «هابيل» أسمن وأحسنَ غنمه، طيبةً بها نفسه، وقرَّب صاحب الزرع «قابيل» شرَّ زرعه غير طيبة بها نفسه، فتقبَّل الله قربان صاحب الغنم **﴿قال لأقتلنَّكَ﴾** قال له أخوه قابيل: لأقتلنَّك **﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾** أجابه هابيل ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله ممن خافه واتَّقاه **﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾** لئن مددتَ إليَّ يدك لتقتلني، ما أنا بمادٍّ يدي إليك لأقتلك **﴿إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ﴾** إني أخاف من الله، مالك الخلائق كلها أن يعاقبني إن حاولتُ الإعتداء عليك **﴿إني أُريدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فتكونَ منْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾** إني أريد أن ترجع بخطيئتي فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي، فتصبح من سكان الجحيم المخلَّدين فيها **﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالمين﴾** والنار عقوبة كل ظالم، منتهك لحدود الله، **قالَ ابن عباس**: خوَّفه بالنَّار فلم ينته ولم ينزجر **﴿فَطَوَّعت له نفسُهُ قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** فزيَّنت له نفسه وحسَّنت له قتل

---

(١) روي أنه لما قتل أخاه لم يعلم كيف يدفنه، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر في الأرض ثم حثا عليه التراب، فلما رآه ﴿قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب .﴾

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ

***

أخيه فقتله، فأصبح من جملة الخاسرين. قال السدي: أمسكه فشدخ رأسه بصخرة فمات، وتركه بالعراء ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾ فأرسل الله للقاتل غراباً يحفر في الأرض فيثير ترابها، ليريه كيف يستر جيفة أخيه ﴿قال يا ويلتى أعَجَزْتُ أن أكونَ مثل هذا الغراب فأواريَ سَوْأة أخي﴾ قال القاتل: يا حسرتي ويا هلاكي، هل عجزت أن أكون مثل هذا الغراب، الذي دفن الغراب الآخر، فأستر جسد أخي؟ ﴿فأصبحَ من النَّادمينَ﴾ على ما فرط منه، في معصية الله بقتل أخيه ﴿منْ أجل ذلكَ﴾ من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿كَتَبْنَا على بَنِي إسْرَائيلَ﴾ حكمنا على بني إسرائيل ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ من قتل منهم نفساً مؤمنة، بغير أن يقتل نفساً، فتستحق القتل قصاصاً ﴿أو فسادٍ في الأرضِ﴾ وبغير إفسادٍ في الأرض، بطريق المحاربة ﴿فكأنما قَتَلَ النَّاسَ جميعاً﴾ فكأنه قتل جميع الناس ﴿ومَنْ أحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَميعاً﴾ ومن لم يقتل النفس ظلماً، فقد حيي الناسُ جميعاً بسلامتهم[1] منه ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبيِّناتِ﴾ بالآيات الواضحات، والحجج الساطعات ﴿ثُمَّ إنَّ كثيراً مِنْهُمْ بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ ثم إن كثيراً من بني إسرائيل ـ بعد مجيء الرسل اليهم بالبيِّنات ـ لعاملون بمعاصي الله؛ مخالفون لأوامره ﴿إنَّما جَزاءُ الَّذينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ إنما جزاء من يقتل النفوس بغير حق، ويخيف الآمنين فيغير عليهم في أمصارهم وقراهم ﴿ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً﴾ بقطع الطريق[2]، والعمل بمعاصي الله ﴿أَنْ يُقَتَّلوا﴾ عقوبتهم القتلُ إن قتلوا ﴿أو يُصَلَّبوا﴾ إن قتلوا وأخذوا المال ﴿أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، إن أخذ المال ولم يقتل ﴿أو يُنفَوْا من الأرضِ﴾ أو يُطرد من بلده إلى بلد آخر، ويُحبس فيها بالسجن، إن أخاف الناس ولم يقتل ولم يسلب مالاً، فالعقوبة تكون على قدر استحقاقه[3]، لا أن الإمام

---

(١) لأن الإنسان إذا كفَّ عن قتل غيره، سلم الناس كلهم منه، ففيه حياة لهم بهذا الاعتبار.

(٢) هم قطّاع الطريق الذين يعيثون في الأرض فساداً، ويزرعون الخوف، ويفسدون الأمن

(٣) قال عطاء وقتادة: هذا اللص الذي يقطع الطريق فهو محارب لله ولرسوله، فإن قتل وأخذ مالاً صُلب، وإن قتل ولم يأخذ مالاً قُتل، =

ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾
وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ

***

مخيَّر فيه كما قيل. ﴿ذلك لهم خزيٌ في الدنيا﴾ هذا الجزاء لهم عقوبةٌ وشرٌّ، وذلة، في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾ ولهم في الآخرة ـ إن لم يتوبوا ـ عذاب جهنم[1] ﴿إلَّا الَّذين تَابُوا من قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عليهمْ﴾ إلا من تاب من قُطّاع الطريق إذا ترك الحرابة وأمَّنه الإمام قبل أن يُقبض عليه ﴿فاعلموا أن اللهَ غفُورٌ رحيمٌ﴾ فإن توبته تضع عنه تبعات الدنيا، رحمةً من الله عليه.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ﴾ أجيبوا الله بطاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ واطلبوا القربة إليه، بالعمل الصالح الذي يرضيه ﴿وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لعلكم تُفْلِحونَ﴾ وجاهدوا الأعداء بقتالهم، كيما تنجحوا فتدركوا الخلود في جناته ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ جحدوا وحدانية الله ﴿لَوْ أنَّ لَهُمْ ما في الأَرْضِ جميعاً ومثله مَعَهُ﴾ لو أنَّ لهم ملكَ ما في الأرض كلها، وضعفه معه ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ ليفتدوا أنفسهم من عقاب الله، وقدَّموا كل ذلك عوضاً ﴿ما تُقُبِّلَ منهُمْ﴾ ما تقبَّل الله منهم ذلك فداءً وعوضاً ﴿ولهم عَذَابٌ أليمٌ﴾ عذابٌ موجع ﴿يُريدونَ أنْ يَخْرُجُوا من النَّار وما هُمْ بخارجين منها﴾ يريد هؤلاء الكفار أن يخرجوا من النار، وليسوا بخارجين منها أبداً ﴿ولهم عذابٌ مقيمٌ﴾ لهم عذابٌ دائمٌ لا ينقطع. ﴿والسَّارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما﴾ من سَرَقَ ـ فاقطعوا يده اليمنى ـ ذكراً كان السارق أو أنثى ﴿جزاءً بما كَسَبَا﴾ مجازاة لهما على سرقتهما ﴿نَكالاً من اللهِ﴾ عقوبةً من الله تعالى لهما ﴿واللهُ عزيزٌ حكيم﴾ عزيزٌ في انتقامه ممن عصاه، حكيم في تدبيره وقضائه[2] ﴿فمن تابَ من بعد

= وإن أخذ مالاً ولم يُقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن أخذ قبل أن يفعل شيئاً من ذلك نفي إلى بلدة أخرى، واختاره الطبري.

(١) نزلت الآية في قوم من عُرينة ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل.. الخ، وانظر قصتهم في البخاري

(٢) روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، وختمها خطأً بقوله «والله غفور رحيمٌ» فقال الأعرابي: ما هذا كلام الله! أعدْ عليَّ الآية، فأعادها وقرأها صحيحة ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾ فقال الأعرابي عندئذٍ: نعم هذا كلام الله، عزَّ فحكم فقطع، ولو رحم وغفر لما قطع.

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ

***

ظلمه وأصلَحَ﴾ فمن تاب من هؤلاء السُرَّاق، بعد سرقته واعتدائه، وأصلح عمله ﴿فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه﴾ يغفر له خطيئته، بعد إقامة الحدِّ عليه[1] ﴿إن اللهَ غفورٌ رحيم﴾ غفورٌ لذنوب العباد، رحيمٌ بهم ﴿ألم تعلمْ أنَّ اللهَ له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ﴾ ألم تعلم ـ أيها المخاطبُ ـ أنَّ الله مدبِّرُ الكونِ وخالقُه ومصرِّفُه، لا يمتنع عليه شيء مما أراده، لأن كل ذلك ملكه وإليه أمره؟ ﴿يُعذِّبُ مَنْ يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ﴾ يُعذِّب من يشاء من خلقه على معصيته، ويغفر لمن يشاء منهم بتوبته ﴿واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ﴾ قادرٌ على كل ما يريد، لأن الخلق خلقُه، والملك ملكه.

﴿يا أيُّها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسَارعونَ في الكُفْرِ﴾ ياأيها المرسل من عندالله، لا يؤلمك تسرُّع هؤلاء المنافقين نحو الكفر. ﴿مِنَ الَّذينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْوَاهِهِمْ ولم تُؤمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ من الذين يقولون بألسنتهم صَدَّقناك، وهم معتقدون تكذيبك ﴿وَمِنَ الَّذينَ هَادُوا﴾ ولا تسرُّع اليهود إلى جحود نبوتك.. ثم وصفهم بأوصافهم الذميمة، وأفعالهم الرديئة فقال: ﴿سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوكَ﴾ يسمعون الكذب من أحبارهم يهود المدينة، ومن يهود فَدَكَ الذين لم يحضروا مجلسك يا محمد ﴿يُحرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بعد مواضِعِهِ﴾ يُحرِّف هؤلاء اليهود ويغيِّرون حكم الله الذي أنزله في التوراة، من الرجم إلى الجلد والتحميم[2]، من بعد وضع الله ذلك في مواضعه ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤتَوه فاحذروا﴾ يقول الخبثاء: إن أفتاكم محمد بالجلد في صاحبنا فاقبلوا قوله، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروه ولا تستجيبوا له[3] ﴿ومن يُردِ اللهُ فتنته﴾ ومن يرد الله ضلالته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ فلن تنقذه من حيرته وضلالته، فلا تُشعرْ نفسكَ الحزن على عدم اهتدائه للحق. ﴿أُولَئِكَ الذينَ لم يُردِ اللهُ أنْ

(١) هذا قول مجاهد وابن عباس، أن توبته بإقامة الحد عليه.

(٢) التحميم: تسويد الوجه بالفحم، وقد استبدلوا الرجم بالجلد وتسويد الوجه، وحمله على حمار للتشهير به.

(٣) روي أن يهودياً زنى بيهودية، فقال بعض اليهود: اذهبوا إلى محمد، فإن حكم بالجلد والتحميم «تسويد الوجه» فخذوا عنه، واجعلوه حجةً بينكم وبين الله، فإنه حكم نبي من أنبيائه، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك، فنزلت الآية تكشف تآمرهم.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟
عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

***

﴿يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لم يرد أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر والإشراك. **﴿لهم في الدنيا خِزْيٌ﴾** لهم في الدنيا ذلٌ وهوان **﴿ولهم في الآخرة عَذَابٌ عظيمٌ﴾** ولهم في الآخرة عذاب جهنم، خالدين فيها أبداً **﴿سمَّاعون للكذِبِ﴾** يسمعون قول الباطل والكذب **﴿أكَّالون للسُّحْتِ﴾** يأكلون الرشوة والحرام **﴿فإنْ جاءوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم﴾** فإن جاءك هؤلاء القوم محتكمين إليك، فاحكم بينهم إن شئت بالحقِّ، أو اترك الحكم بينهم إن شئت. **﴿وإنْ تُعرِضْ عنهم فَلَنْ يضروك شيئاً﴾** وإن تترك النظر بينهم فيما احتكموا إليك، فلن يقدروا على ضُرِّك. **﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسْطِ﴾** وإن اخترت الحكم والنظر في خصوماتهم، فاحكم بينهم بالعدل **﴿إن الله يحب المقسطين﴾** العادلين في حكمهم بين الناس **﴿وكيف يحكمونكَ﴾** كيف يرضى بحكمك يا محمد هؤلاء اليهود؟ **﴿وعندهُمُ التَّوْرَاةُ فيها حُكْمُ اللهِ﴾** وعندهم التوراة التي أنزلها الله على موسى، فيها حكم الله الواضح فلا يعملون به؟ والغرضُ تقريع اليهود حيث يتحاكمون إلى رسول الله ﷺ مع جحودهم نبوته وتكذيبهم له، ويتركون حكم الله الصريح، في الكتاب الذي يعتقدون صحته وهو التوراة. **﴿ثم يَتَوَلَّونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** يعرضون عمَّا في التوراة، جراءةً على الله. **﴿وَمَا أُولَئِكَ بالمُؤْمِنِينَ﴾** وليس بمؤمنٍ بالله من أعرض عن حكمه فلم يقبل به **﴿إنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدَىً ونـورٌ﴾** فيها هدايةٌ وجلاءٌ وضياءٌ لما التبس من الحكم. **﴿يَحْكُمُ بهَا النبيُّونَ الذينَ أَسْلَموا لِلَّذِين هَادُوا﴾** يفصل بحكم التوراةِ الأنبياءُ، الذين أذعنوا لحكم الله وانقادوا له، لليهود من أتباعهم **﴿والربَّانيونَ والأحبارُ﴾** ويحكم بها الفقهاء والعلماءُ من أحبار اليهود **﴿بما استُحفظوا من كتابِ الله﴾** بما استودعوا من كتاب الله[1]، وكلِّفوا العمل به **﴿وكانوا عليه شهداء﴾** وكانوا على حكم النبيِّين شاهدين أنهم قضوا بكتاب الله **﴿فَلَا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** لا تخافوا الناس ـ يا أحبار اليهود ـ ولكنْ خافوا منِّي، فإن النفع

---

(١) وَكَّل الله حفظ التوراة من التبديل والتحريف إلى علمائهم، ﴿بما استحفِظوا من كتاب الله﴾ وأما القرآن العظيم فقد تكفَّل تعالى بحفظه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وشتان بين حفظ الربِّ وحفظ العبد.

هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ
وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ
هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

***

والضرَّ بيدي[1] ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَناً قَليلاً﴾ ولا تأخذوا بترك الحكم بآياتي، عوضاً خسيساً من حطام الدنيا الفاني ﴿وَمَنْ لم يحكُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ومن ترك حكم الله الذي أنزله في كتابه، مستحلاً تركه فهو كافر، **قال الحسن**: نزلت في اليهود، وهي شاملة للمسلمين، ﴿وكتبنا عليهم فيها أَنَّ النَّفْس بالنَّفس﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة، أنَّ من قَتَلَ نفساً ظلماً قُتِل بها قصاصاً ﴿والعينَ بالعَيْن﴾ ومن فقأ عيناً فقئت عينُه ﴿والأَنْفَ بالأَنْفِ﴾ ومن جَدَع أنفاً جُدِع أنفه ﴿والأُذُنَ بالأُذنِ﴾ ومن قطع أذناً قُطعت أذنه ﴿والسِّنَّ بالسِّنِّ﴾ ومن قلع سِنّاً قُلعت سِنُّه ﴿والجروحَ قِصَاصٌ﴾ ومن جَرَح غيره ظلماً، اقتُصَّ منه مثل الجرح ﴿فمن تَصَدَّقَ بهِ فهو كفارةٌ له﴾ فمن عفا عن الجارح وتجاوز عن حقه، فهو هدمٌ لذنوب المجروح. **قال ابن مسعود**: يُهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدَّق به ﴿وَمَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأُولئكَ هم الظَّالِمونَ﴾ ومن ترك الحكم بما أنزل الله فهو ظالم، جائر عن حكم الله ﴿وَقَفَّيْنَا على آثارِهِمْ بعيسى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وأتبعنا على آثار النبيِّين بعيسى ابن مريم فبعثناه نبياً ﴿مصدِّقاً لما بينَ يديهِ مِنَ التَّوْراة﴾ مصدِّقاً لما سبقه من التوراة ﴿وآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وأعطيناه الإنجيل فيه هداية للناس، وضياء من عمى الجهالة ﴿ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة﴾ تأكيدٌ لما سبق، وبيانٌ بأن عيسى جاء متبعاً لأحكام التوراة غير ناسخ لها[2] ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ وبيانٌ لحكم الله، وتذكرة وزجرٌ للمتقين الذين يخافون عقاب الله ﴿وليحكُمْ أهلُ الإنجيل بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ وأمرنا عيسى وأتباعه أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل من الأحكام ﴿ومن لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئك هم الفاسقون﴾ ومن ترك الحكم بما أنزل الله، فإنه فاسقٌ خارج عن طاعة ربه[3].

---

(١) الآية نهي عن التزلف والتملق إلى العظماء والكبراء، وأمرٌ بردِّ الطاغي عن طغيانه.

(٢) عيسى عليه السلام جاء بشريعة مكمّلة لشريعة موسى عليه السلام، والمشهور عند العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة ولم ينسخها كلها لقوله تعالى ﴿ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾

(٣) جمع تعالى في هذه الآيات لمن ترك الحكم بما أنزل الله بين «الكفر، والظلم، والفسق» قال ابن عباس: من جحد ما أنزل الله فقد=

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ﴾

***

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتابَ بالْحَقِّ﴾ وأنزلنا إليك يا محمد القرآن، بالصِّدق الذي لا شك في أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بينَ يَدَيْه مِنَ الكِتَاب﴾ مصدِّقاً لما تقدَّمه من كتب الله المنزلة على أنبيائه ﴿ومهيمناً عليه﴾ ومؤتمناً على كتب الله المتقدمة قبله، حاكماً وشاهداً عليها، فما وافقه منها فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل[1] ﴿فاحكمْ بينهمْ بما أنزلَ اللهُ﴾ فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركين، بما أنزل الله عليك في القرآن، في الحدود، والجروح، وسائر الأحكام ﴿ولا تَتَّبع أهواءهم عمَّا جاءكَ منَ الحقِّ﴾ ولا تتبع أهواء اليهود والمشركين فيما يدعونك إليه، عن الذي جاءك من عند الله من الحق، فتترك العمل بكتابي اتباعاً لأهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً﴾ لكل أُمة منكم جعلنا شريعة يعملون بها، وطريقاً بيناً واضحاً يسلكونه ﴿ولو شاءَ اللهُ لجعلكم أمةً واحدةً﴾ ولو أراد الله لجعل شرائعكم واحدة[1]، ولم يجعل لكل أمة شريعةً خاصة. ﴿ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم﴾ ولكنه تعالى خالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع من العاصي، والعامل من المخالف ﴿فاستبقوا الخيراتِ﴾ فابتدروا وسابقوا إلى فعل الصالحات، التي تقربكم من رضوان ربكم ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ إلى الله مصيركم - أيها الناس - جميعاً، فيخبركم بأعمالكم ويفصل بينكم بقضائه العادل، وحينئذ يتبيَّن المحقُّ من المبطل، والبرُّ من الفاجر. ﴿وأنِ احكمْ بينَهُمْ بما أنزلَ اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءَهُمْ﴾ احكم بينهم بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه، ولا تتَّبع أهواء اليهود ﴿واحذرهم أنْ يفتنوك عن بعض

= كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسقٌ.

(١) لأنه يكون مما حرَّفه وبدَّله أحبار اليهود والنصارى، قال ابن عباس: القرآن شاهد على التوراة والإنجيل، وحاكم على ما كان قبله من الكتب. وقال ابن كثير: جمع الله في القرآن محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه.

(٢) شرائع الأنبياء مختلفة، ودينُهم واحد﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وإنما اختلفت الشرائع تيسيراً على العباد، لأن ما يصلح في عصر قد لا يصلح في عصر آخر﴿لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ فتدبر حكمة الله البليغة.

اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾
أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ
أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾

***

ما أنزلَ اللهُ إليكَ واحذر هؤلاء اليهود أن يصدوك عن العمل بما أنزل الله إليك **﴿فإنْ تولَّوا فاعلم أنما يريدُ الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾** فإن أعرضوا عن قبول حكمك، فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى به، إلا من أجل شقائهم وتعاستهم بسبب ذنوبهم السالفة **﴿وإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ لفاسِقُونَ﴾** وإن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم إلى معصيته **﴿أفحكمَ الجاهلية يَبْغونَ﴾**؟ أيطلبون حكم الجاهلية من عبدة الأوثان، ويتركون حكم الله جلَّ وعلا؟ **﴿وَمَنْ أَحْسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** وأيُّ حكم أحسنُ من حكمِ الله، لمن أيقن بوحدانيته، وأقرَّ بربوبيته.

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارى أَوْلياءَ﴾ لا تتخذوا اليهود والنصارى أعواناً وأنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان **﴿بعضُهم أولياءُ بعضٍ﴾** وبعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم ومِلَّتهم **﴿ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم﴾** ومن يتخذهم أنصاراً وأعواناً فقد صار منهم، لأنه رضي بموالاة أعداء الله **﴿إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾** لا يوفِّق للخير من وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهود والنصارى مع عداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين **﴿فترى الذين في قلوبهم مرضٌ﴾** فترى الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق(١) **﴿يُسارعون فيهم﴾** يُسرعون في موالاتهم ومصانعتهم، ويتودَّدون إليهم **﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾** يقولون نخاف أن يكون للدهر دولة، وحادثة تدور بنا فنحتاج إلى نصرتهم، فلذلك نواليهم، قال تعالى رداً عليهم **﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَـأْتِيَ بِالفتـح﴾** فلعلَّ الله أن يقضي للمؤمنين بالنصر على أعدائهم، أو بفتح مكة **﴿أَوْ أمر من عندِهِ﴾** أو يقضي لهم بأمرٍ فيه عزةٌ للمؤمنين على الكافرين **﴿فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين﴾** فيصبح هؤلاء المنافقون على ما أخفوا في أنفسهم ـ من مودة اليهود والنصارى وموالاتهم، وبغضهم للمؤمنين

(١) المراد بهم عبد الله بن سلول وأصحابه المنافقون.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ
خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ
رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾

***

ومعاداتهم - نادمين على صنيعهم **﴿ويقول الذينَ آمنوا أهؤلاءِ الذينَ أقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانهم إنهم لمعكم﴾** ويقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين: أهؤلاء الذين حلفوا لنا بالله أغلظ الأيمان كذباً أنهم لمعنا؟ يقول تعالى مخبراً عن حالهم **﴿حبطتْ أعمالهم فأصبحوا خاسرينَ﴾** بطلت أعمالهم فلا أجر لها ولا ثواب، وخابت صفقتهم وهلكوا. **﴿يا أيها الذينَ آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه﴾** من يرجع منكم عن دينه الحق، فيبدّله باليهودية أو النصرانية، أو غير ذلك من صنوف الكفر **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونه﴾** فسوف يستبدل الله قوماً خيراً منهم، يُحبهم الله ويُحبون الله. والآيةُ وعيدٌ لكل من ارتد عن الإسلام، أن الله سيستبدل خيراً منهم يكونون بدلاً عنهم **﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرينَ﴾** رحماء متواضعين للمؤمنين، أشداء غلظاء على الكافرين **﴿يجاهدون في سبيلِ الله ولا يخافون لومةَ لائم﴾** يقاتلون الأعداء إعزازاً لدين الله، ولا يخافون في ذات الله أحداً **﴿ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ﴾** وذلك من فضل الله وتوفيقه، تفضّل به عليهم **﴿واللهُ واسعٌ عليم﴾** واسع الفضل والعطاء، عالمٌ بمن يستحق جوده وعطاءه **﴿إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذينَ آمنوا﴾** ليس لكم - أيها المؤمنون - وليٌ ولا ناصر، إلا الله ورسوله والمؤمنون، فلا توالوا اليهود والنصارى أعداءكم **﴿الذينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** هؤلاء المؤمنون هم الذين يؤدون الصلاة كاملة بحدودها وفروضها ويدفعون الزكاة إلى مستحقيها، وهم خاضعون لربهم، متذللون له بالطاعة والخشوع **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** ومن يتبرأ من أعداء الله، ويثق بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فإنه من حزب الله، وإن حزب الله وأنصار دينه، هم الغالبون دون حزب الشيطان **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً﴾** لا تتخذوا - أيها المؤمنون - الذين يسخرون ويهزأون من دينكم **﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياءَ﴾** من اليهود والنصارى ومن

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ
مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ
مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ
أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ
خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

***

المشركين عبدة الأوثان، لا تتخذوهم أنصاراً وإخواناً وحلفاء، وإن أظهروا لكم مودةً وصداقة ﴿**واتقوا الله إن كنتم مؤمنينَ**﴾ وخافوا الله وارهبوا عقوبته، إن كنتم مصدِّقين بلقائه ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلى الصَّلاةِ اتَّخذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً**﴾ وإذا أذَّنتم ودعوتم إلى الصلاة، سخر منكم هؤلاء الكفار، من اليهود والنصارى والمشركين ﴿**ذلكَ بأنهم قومٌ لا يعقلون**﴾ ذلك الاستهزاء والسخرية بسبب أنهم قوم جهلة، لا يعقلون ما عليهم في استهزائهم عند الله من العقاب، ولو عقلوا ما فعلوه.

﴿**قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا**﴾ قل لهم: يا معشر اليهود والنصارى هل تكرهون منا أو تعيبون علينا ﴿**إلَّا أَنْ آمنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ**﴾ إلَّا إيماننا وتصديقنا بوحدانية الله، وبالقرآن الذي أنزل علينا وبالكتب التي أنزلت على أنبياء الله من قبلنا؟ ﴿**وأَنَّ أكثركم فاسقون**﴾ وبأن أكثركم خارجون عن طاعة الله تعالى؟ ﴿**قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك**﴾ هل أخبركم بشر ممَّا تعيبون به علينا من الإيمان بالله، والتصديق بكتبه ورسله؟ ﴿**مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ**﴾ جزاءً وثواباً[1] عند الله ﴿**مَنْ لَعَنَهُ اللهُ**﴾ من أبعده الله وطرده من رحمته ﴿**وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾ وسخط عليه فعجَّل له الخزي والنكال في الدنيا ﴿**وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والْخَنازِيرَ**﴾ ومسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ وجعل منهم من عبد الشيطان والأوثان ﴿**أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل**﴾ هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الشنيعة، شرٌّ منزلة ممَّن نقمتم عليهم يا معشر اليهود، وأبعد عن سبيل الرشد والهدى. وفيه تعريضٌ باليهود، بإخبارهم بقبيح فِعالهم، وذميم أخلاقهم، كأنه يقول: أهؤلاء المؤمنون الذين تستهزئون منهم شرٌّ، أم من لعنه اللهُ؟ ﴿**وإذا جاءوكم قالوا آمنَّا**﴾ وإذا جاءكم هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: صدَّقنا بدينكم، وبما جاء به نبيكم محمد ﷺ ﴿**وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به**﴾ وقد دخلوا عليكم كفاراً، وخرجوا كفاراً، لم يخالط الإيمانُ قلوبهم ﴿**واللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمونَ**﴾ والله أعلم بما يضمرونه من الكفر والجحود

(١) وضعُ «المثوبة» موضع العقوبة للتهكم والسخرية.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

* * *

﴿وَتَرَى كثيراً منهمْ يُسَارِعُونَ في الإِثْمِ والعُدْوَانِ﴾ وترى كثيراً من هؤلاء اليهود، يعجِّلون بمواقعة المعاصي والآثام، ومجاوزة الحدِّ في الطغيان **﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** وأكلهم الرشوة والحرام **﴿لَبِئْس مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾** بئس عملهم هذا **﴿لولا ينهاهم الربَّانيونَ والأحبارُ عن قولهم الإِثم وأكلهم السُّحْتَ﴾** هلَّا ينهاهم أئمتهم وعلماؤ هم عن قول الكذب والزور، وأخذ الرشوة والحرام **﴿لَبِئْس مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** بئس هذا الصَّنيع من العلماء والفقهاء في تركهم النهي عن المنكر، قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشدُّ توبيخاً للعلماء، ولا أخوف عليهم من هذه الآية(١) **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مغلولةٌ﴾** قال اليهود أعداء الله: إنَّ الله بخيلٌ يمنعنا عطاءه، ويُمسك عنا فضله، كالمغلولة يده لا يقدر أن يبسطها ببذلٍ ولا عطاء **﴿غُلَّتْ أَيْديهِمْ وَلُعِنُوا بما قَالُوا﴾** قُبضت أيديهم عن الخيرات، وأُبعدوا من رحمة الله وفضله، بما افتروا على الله من الكذب والبهتان **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** بل هو كريم جواد، يداه مبسوطتان بالبذل والعطاء، يرزق كيف يشاء **﴿وَلَيزيدَنَّ كَثِيراً منهُمْ مَا أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وكفراً﴾** وليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، الكثيرين من اليهود غلواً في إنكار نبوتك، وتكذيباً وجحوداً لعظمة الله.

أخبره بأنهم أهل عتوٍ وتمردٍ، لا يذعنون لحق، تسلية له عليه السلام **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾** وأوقعنا بين اليهود والنصارى(٢) العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾** كلما أجمعوا أمرهم على شيء، فيه كيد وحربٌ لمن ناوأهم، شتَّت الله شملهم وفرَّق أمرهم، **قال مجاهد:** أولئك أعداء الله اليهود، ولن تلقاهم ببلدٍ إلا وجدتهم من أذلِّ أهله **﴿وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَاداً واللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدينَ﴾** ويسعون في الإفساد في الأرض، بفعل المعاصي وإثارة

(١) وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، أننا لا ننهى عن المنكر.

(٢) هذا ما ذهب إليه الطبري، وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير يعود على اليهود أي ألقينا بين اليهود بعضهم مع بعض العداوة والبغضاء، واختاره ابن كثير.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ
وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ
تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا

***

الشر، والله لا يحبُّ من هذه صنعته ﴿ولو أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ ولو أن اليهود والنصارى صدَّقوا بالله وبرسوله، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لمحونا عنهم ذنوبهم، وسترناها عليهم فلم نفضحهم. ﴿ولأدخلناهم جنَّاتِ النَّعيم﴾ ولأدخلناهم بساتين يتنعَّمون فيها في الآخرة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزل إليهم من ربهم﴾ ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وعملوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ. ﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لأغدق الله عليهم الخيرات، فأعطتهم السماء بركتها بالمطر، والأرض بركتها بالثمر، وأكلوا من حبِّها ونباتها وثمارها ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدةٌ﴾ من هؤلاء جماعةٌ مؤمنة، تعمل بالعدل والخير، ليست غالية في الدين ولا مقصِّرة فيه. ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملونَ﴾ وكثير من اليهود والنصارى أعمالهم سيئة، فالنصارى تزعم أن المسيح ابن الله، وتكذِّب بمحمد ﷺ، واليهودُ تكذِّب بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما.

﴿يا أيُها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا من بعثتك للناس رسولاً[1]، بلِّغْ ما أنزل الله عليك في القرآن، ولا تخف أن يصيبكَ أحدٌ بمكروه ﴿وإن لم تفعلْ فما بلَّغت رسالتَه﴾ وإن قصَّرت في تبليغ رسالة ربك، وكتمت شيئاً مما أنزل إليك، فقد ارتكبت ذنباً عظيماً ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس﴾ والله يمنعك من الناس، أن ينالوك بسوء[2] ﴿واللهُ لا يهدي القوم الكافرين﴾ لا يوفقهم لخير ولا رشاد ﴿قُلْ ياأَهْلَ الكِتَاب لستُمْ على شيءٍ﴾ قل لهم: يا معشر اليهود والنصارى، لستم على شيءٍ من الدين ﴿حَتَّى تُقيمُوا التَّوْرَاةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكُم مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حتى تؤمنوا بما في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، فتعملوا بذلك كله، ولا تكذبوا بشيءٍ منه، فإن كتب الله يُصدِّق بعضُها بعضاً ﴿وَلَيزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِلَ

---

(١) خاطب تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا زكريا، ولم يخاطب الرسول ﷺ إلا بوصفه ﴿يا أيها الرسول﴾ و﴿يا أيها النبي﴾ وذلك للتنبيه على رفعة شأنه ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين

(٢) عن عائشة قالت: كان النبي يُحرس، فلما نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ قال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل.

فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

***

﴿إليكَ طُغياناً وكُفْراً﴾ وليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، كثيراً من اليهود والنصارى، تجاوزاً وغلواً في التكذيب، وجحوداً لنبوتك ﴿فلا تأس على القوم الكافرينَ﴾ فلا تحزن على تكذيب هؤلاء الكفار لك، فإنما يدفعهم إلى ذلك الحسد ﴿إن الذين آمنوا﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وهم المسلمون ﴿والَّذينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود أتباع موسى ﴿والصَّابئُونَ﴾ وهم قوم باقون على الفطرة ولا دين مقرر لهم ﴿والنَّصارَى﴾ أتباع عيسى ﴿مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من صدَّق منهم بالبعث بعد الممات ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وعمل عملاً صالحاً لمعاده[1] ﴿فلا خوفٌ عَلَيهِمْ﴾ من أهوال القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائيلَ وأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾ أقسمُ لقد أخذنا العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على الإخلاص والسمع والطاعة لله ولرسوله، وأرسلنا إليهم بذلك رسلاً ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ كلما جاءهم رسول بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق أهواءهم ﴿فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون﴾ كذَّبوا فريقاً منهم، وقتلوا فريقاً آخر، نقضاً للميثاق وجرأةً على الله ﴿وَحَسِبُوا ألَّا تكون فتنةٌ﴾ وظنوا أن لا يكون لهم من الله عقوبات، وشدائد، وبلاء بما فعلوا. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ فعموا عن رؤية الحق وسماعه، كأنهم ما علموا وما سمعوا ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أنابوا ورجعوا إلى الله، فتاب الله عليهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كثيرٌ منهُمْ﴾ ثم عمي كثير من هؤلاء اليهود عن رؤية الحقِّ وسماعه، بعد توبتي عليهم ﴿واللهُ بصيرٌ بما يعملون﴾ يرى أعمالهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ﴾ لقد كفر النصارى الذين قالوا إن عيسى هو اللهُ[2]

(١) المقصود من الآية أن كل فرقةٍ آمنت بالله وباليوم الآخر، وعملت صالحاً وصدَّقت برسلها في زمانها، فإنها تدخل الجنة، أما اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ في زماننا فإنهم حطب جهنم لقوله تعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾

(٢) كيف يكون عيسى إلهاً وقد خرج من فرج امرأة؟ وكيف يكون رباً يُعبد وقد صُلب على زعم النصارى؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ
وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

***

واتَّخذوه رباً، وهذا قولُ «اليعقوبية» عليهم غضبُ الله **﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يا بني إسْرَائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ﴾** وقال لهم المسيح: اعبدوا الله الذي خلقني وخلقكم، الذي ينزل له كل شيء، وله يخضع كل موجود **﴿إنه مَنْ يُشركْ باللهِ فقد حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنةَ﴾** من جعل لله شريكاً فقد حرَّم الله عليه دخول الجنة في الآخرة **﴿ومأواه النَّارُ﴾** ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه نار جهنم **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** وليس لمن عَبَدَ غير الله، ناصرٌ ينقذه من عذاب الله **﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾** لقد كفر النصارى الذين قالوا: إن الله واحد من ثلاثة آلهة[1] **﴿وَمَا مِنْ إلَه إلاَّ إلَه واحدٌ﴾** وما لكم معبودٌ إلا معبودٌ واحد **﴿وإن لم ينتهوا عمَّا يقولونَ﴾** وإن لم يكفُّوا عن هذا الافتراء والكذب **﴿لَيَمَسَّنَّ الذينَ كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾** ليصيبنَّ الذين قالوا: المسيح هو الله، والذين قالوا: الله ثالث ثلاثة، عذاب موجع **﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾** أفلا يتوبون مما قالوا ويسألون ربهم المغفرة؟ **﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾** غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم حيث يصفح عما سلف من إجرامهم **﴿مَا الْمَسِيحُ ابنُ مريم إلاَّ رَسُولٌ﴾** ليس المسيح إلا رسول كسائر الرسل، أجرى الله على يديه ما شاء من الآيات والمعجزات، ولدته أمه كما تلد الأمهات، فهو ابن مريم، وهذا من صفات البشر لا من صفات خالق البشر **﴿قد خلت من قبلِهِ الرسل﴾** قد مضت من قبله رسل كثيرون، أجرى الله على أيديهم الآيات والخوارق **﴿وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ﴾** وأمه تقيَّةٌ صالحة مبالغة في الصِّدق، لا كما يقول اليهود عليهم لعنة الله: إنها زانية، **﴿كانا يأكلان الطعامَ﴾** كانا يتناولان الطعام والشراب كسائر البشر، فكيف يكون إلَهاً من كان محتاجاً إلى الغذاء ليقيم به حياته[2]؟ **﴿انْظُرْ كيفَ نبيِّنُ لهم الآيات﴾** انظر يا محمد كيف نوضح لهؤلاء النصارى الأدلة الساطعة، والحجج القاطعة، الدالة على بطلان كون المسيح إلَهاً أو ابن إلَه **﴿ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤْفكون﴾** ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح، كيف يُصرفون عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال؟ **﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ**

---

(١) قال الطبري وهذا قول جماهير النصارى، كانوا يقولون «الإلَه القديم جوهرٌ واحد يعمُّ ثلاثة أقانيم أباً والداً غير مولود، وابناً مولوداً غير والد، وزوجاً متتبعة بينهما» أقول وهذا هو المشهور في زماننا حيث يقولون «باسم الآب، والإبن، وروح القدس»

(١) في الآية الكريمة إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام، لا بدَّ أن يكون في حاجةٍ إلى إخراجه، ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد؟ وكيف يتوهم أنه إلَه، وهو في حاجة إلى الطعام والشراب وإخراج الفضلات؟ **﴿فما لهؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يَفْقَهُون حَديثاً﴾**؟

نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

***

﴿نَفْعاً﴾ قل لهؤلاء الكفرة، الزاعمين أن المسيح ربهم: أتعبدون مَنْ لا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا جلب نفع لكم، وتتركون عبادة القادر على كل شيء؟ **﴿واللهُ هو السميعُ العليمُ﴾** السميعُ لأقوال العباد، العليمُ بأحوالهم **﴿قلْ يا أهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحقِّ﴾** قل لهم يا معشر النصارى: لا تُفرطوا في أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَّ إلى الباطل، فتقولوا: إنه اللهُ، أو إنه ابنُ اللهِ **﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾** ولا تتبعوا أهواء اليهود، الذين ضلوا قبلكم عن طريق الهدى والرشاد، فزعموا أن عيسى ابن زنا[1]، واتهموا أمه بالفجور وهي صدِّيقة **﴿وَأَضَلُّوا كَثيراً﴾** وأضلوا كثيراً من الناس فحملوهم على الكفر والضلال **﴿وضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** وضلُّوا عن الطريق المستوي الواضح المستقيم، بكفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى ومحمداً صلوات الله عليهما. ثم أخبر عما حلَّ باليهود من الخزي واللعنة والدَّمار فقال: **﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيلَ﴾** أبعدَ الله اليهود، وطردهم من رحمته ولعنهم **﴿على لِسَانِ دَاوُدَ وعيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾** على لسان أنبيائه ورسله، في الزبور والإنجيل، **قال ابن عباس**: لُعِنوا بكل لسانٍ، لُعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزَّبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد في القرآن **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** ذلك اللعن بسبب عصيانهم لأوامر الله، ومجاوزتهم حدوده **﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾** كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً، عما يفعله من المعاصي، وركوب المحارم، وقتل الأنبياء والرسل **﴿لبئس ما كانوا يفعلونَ﴾** بئس فعلهم وصنيعهم، تركهُم النهيَ عن معاصي الله ومحارمه **﴿تَـرَى كثيـراً منهم يَتَوَلَّونَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾** ترى كثيراً من اليهود، يتولون المشركين من عَبَدة الأوثان، فيتخذونهم إخواناً وأحباباً وأنصاراً **﴿لبئْسَ مَا قدَّمت لهُمْ أنْفُسُهُمْ أنْ سخِطَ اللهُ عليهِمْ﴾** لبئس الشيء الذي قدَّموه لآخرتهم، أن نالوا سخط اللهِ وغضبه عليهم، بسبب مصاحبتهم للكافرين وموالاتهم لهم **﴿وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾** وفي عذاب الله يوم القيامة،

---

(١) الغلوُّ: مجاوزة الحد في كل أمر، فقد قالت النصارى عن عيسى إنه إِلّه، وإنه ابن الله، وقالت اليهود: إنه ابن زنا، وكلا الفريقين في غلوٍّ وضلال.

وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

***

مقيمون ماكثون فيه أبداً ﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزلَ إليهِ ما اتَّخذوهُمْ أَوْلياءَ**﴾ ولو كانوا يصدِّقون بالله، وبالنبي محمد ﷺ، ويُقرّون بما أُنزل إليه من آيات القرآن، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين. ﴿**ولكنّ كَثِيراً منهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ ولكنَّ كثيراً منهم خارجون عن طاعة الله، مستحلّون لمحارمه ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّـاسِ عَدَاوةً للَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ والَّذينَ أَشْرَكُوا**﴾ لتجدنَّ يا محمد أشدَّ الناس بغضاً وعداوة للمؤمنين، اليهودَ وعبدة الأوثان، لأن كفـر اليهود كفر عنادٍ وجحود، وكذلك المشركون. ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى**﴾ ولتجدنَّ أقرب الناس مودة ومحبةً للمؤمنين النصارى، الذين عرفوا الحقَّ فأسلموا ولم يستكبروا عنه[1] ﴿**ذَلِكَ بأَنَّ منهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً**﴾ ذلك لأن منهم علماء وعُبَّاداً، وأهل ترهب في الصَّوامع ﴿**وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ**﴾ وأنهم لا يستكبرون عن قبول الحقِّ ﴿**وإذا سمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ وإذا سمعوا آيات القرآن، بكوا وسالت الدموع من أعينهم غزيرةً ﴿**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ لمعرفتهم بأن ما سمعوه من كتاب الله حقٌّ ﴿**يقولون ربنا آمنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين**﴾ يقولون: يا ربنا صدَّقنا بالقرآن الذي أنزلته على نبيِّك محمد ﷺ فاجعلنا مع الذين يشهدون بأنه حقٌّ، وألحقنا في الثواب والجزاء منازلهم. ﴿**وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ**﴾ وما لنا لا نُقرّ بوحدانية الله، وما جاءنا في كتابه العزيز؟ ﴿**وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾ ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا مع أهل طاعته، في جنات النعيم، ويلحقنا بمنازلهم يوم القيامة ﴿**فأثابهُم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ**﴾ فجازاهم الله على إيمانهم واعترافهم بالحق،

---

(١) من الجهال من يظن أن في هذه الآية مدحاً للنصارى، ويزعم أنهم إخوة لنا لأنهم لا يعادون المسلمين كعداء اليهود، ويقولون إن القرآن ذمَّ اليهود ومدح النصارى. الخ وهذاظنٌّ فاسد، وجهلٌ فاضح بسياق الآية وسباقها، فإن القرآن بيَّن لنا عداوة اليهود والنصارى الشديدة للمسلمين، وحذرنا من موالاتهم ومصادقتهم﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض. .﴾وقال جل ثناؤه ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتَّبع ملتهم. ﴾ الآية وإنما نزلت هذه الآيات في قوم مخصوصين هم «نصارى الحبشة» الذين بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ عليهم القرآن بكوا وعرفوا الحقَّ وآمنوا، ويدل عليه تتمة الآية الكريمة ﴿وأنهم لا يستكبرون. وإذا =

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن
يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ
تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

***

بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهارُ **﴿خالدين فيها﴾** ما كثين فيها دائماً، لا يخرجون منها، ولا يُحوَّلون عنها **﴿وذلكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنينَ﴾** وهذا جزاء كل محسنٍ في فعله وقوله **﴿والَّذينَ كَفَرُوا وكذَّبُوا بآياتِنَا﴾** والذين جحدوا وحدانية الله، وأنكروا نبوَّة محمد ﷺ، وكذبوا بآيات كتابه **﴿أولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** هؤلاء هم سُكَّان نار جهنم، الشديد حرُّها

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ لا تحرِّموا اللذائذ التي تشتهيها النفوسُ، وتميل إليها القلوبُ، مما أحلَّ الله لكم، كما فعل القسيسون والرهبان، حيث حرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة **﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يُحبُّ المعتدينَ﴾** ولا تجاوزوا الحدَّ الذي حدَّه لكم ربكم، في الحلال والحرام، فإن الله لا يحب المتجاوزين حدود الله في كل شيء. **قال ابن عباس**: إن رجالاً من أصحاب النبي حرَّموا النساء واللحم على أنفسهم، وقالوا: نقطع مذاكيرنا لنتفرغ لعبادة الله، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان فنزلت: **﴿وكلوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾** وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله، الذي أحلَّه لكم من الأطعمة **﴿حَلاَلاً طَيِّباً﴾** حلالاً طاهراً غير نجسٍ ولا محرم **﴿واتَّقُوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنون﴾** وخافوا الله الذي أقررتم بوحدانيته، واحذروا أن تخالفوه فينزل بكم سخطُه، وتستوجبوا عقوبته **﴿لا يُؤَاخذكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ﴾** لا يؤاخذكم الله بما صدر منكم من الأيمان، التي تجري على ألسنتكم من غير قصدٍ منكم للحلف واليمين، كقول أحدكم: لا واللهِ، وبَلَى واللهِ **﴿وَلَكِنْ يؤاخذكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾** ولكنْ يؤاخذكم بما أكَّدتموه وأوجبتموه على أنفسكم من الأيمان وعزمت عليه قلوبكم، كحلف أحدكم على الفعل أو الترك، **﴿فكفارتُه إطعامُ عشرةِ مساكينَ من أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أهليكم﴾** فكفارة هذا اليمين إطعام عشرة فقراء، من أوسط الطعام الذي تطعمون منه أهلكم. **قال ابن زيد**: هو الوسط مما يقوت به أهله، ليس بأدناه ولا بأرفعه **﴿أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبةٍ﴾**

= سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ فتنبه هداك الله.

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

***

أو كسوة عشرة فقراء، لكل فقير ثوبٌ، أو فكُّ عبدٍ من أسر العبودية وإعتاقه لوجه الله[١] **﴿فَمَنْ لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيام﴾** فمن لم يجد ما يكفِّر به من الطعام أو الكسوة أو الرقبة، فعليه صيام ثلاثة أيام[٢] **﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾** هذه كفارة أيمانكم الشرعية عند حلفكم **﴿واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾** احفظوها من التضييع، ولا تتركوها بغير تكفير. **﴿كذلك يبيِّنُ اللهُ لكم آياتِه لعلكم تشكرونَ﴾** كذلك يوضِّح الله لكم أحكام الدين، لتشكروا ربكم على هدايته وتوفيقه **﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ﴾** إن الخمر التي تشربونها، والقمار الذي تأكلونه ـ ويدخل تحته سائر ضروب اللعب وأوراق اليانصيب ـ **﴿والأَنْصَابُ والأزلَامُ﴾** والحجارة التي تذبحون عندها، والأقداح التي تستقسمون بها **﴿رجسٌ من عملِ الشيطانِ﴾** قذرٌ ونتنٌ من تزيين الشيطان، وتحسينه لكم القبيح من الأشياء **﴿فاجْتَنبوهُ لعلكم تُفْلِحون﴾** فاتركوه وارفضوه لكي تنجحوا، وتدركوا الفلاح عند ربكم **﴿إنما يريدُ الشيطانُ أَنْ يُوقِعَ بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾** لا يريد الشيطان ـ بشربكم الخمر ولعبكم القمار ـ إلا أن يحدث بينكم أيها المؤمنون العداوة والبغضاء، فيشتّت أمركم بعد أن جمع الله بينكم بأخوة الإسلام. **﴿ويَصُدَّكُمْ عن ذكر اللهِ وعن الصلاةِ﴾** ويصرفكم ـ بمقارفة هذه الموبقات ـ عن ذكر الله، وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربُّكم **﴿فهل أنتم منتهون﴾** فانتهوا عمَّا حرَّم الله عليكم. ولما نزلت قال أصحاب رسول الله: انتهينا ربَّنا انتهينا، وأراقوا ما عندهم من الخمور **﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحْذَرُوا﴾** وأطيعوا أوامر الله وأوامر رسوله، في اجتنابكم الخمر والميسر وسائر ما ذُكر، واحذروا أن تخالفوا أمره، فتستحقوا عقوبته **﴿فإن تَوَلَّيْتُمْ﴾** فإن أعرضتم عمَّا نهيتكم عنه **﴿فاعلموا أَنَّما عَلَى رسولِنا البَلَاغُ المبينُ﴾** فاعلموا أنه ليس على رسولنا إلا تبليغ الرسالة، بياناً يوضِّح لكم سبيل الحق، وأما العقاب والإنتقام فعلى الله جل وعلا. وهذا وعيدٌ من

---

(١) يُخيَّر الحالف بين الإطعام والكسوة، والعتق، ولا يصح الصوم إلا عند عدم القدرة على ذلك لقوله تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ فالصوم إنما يكون عند العجز.

(٢) ذهب الحنفية والحنابلة إلى وجوب التتابع في الصيام، لما روي عن أُبي وابن مسعود أنهما قرءا «متتابعات» وذهب الشافعي ومالك إلى عدم وجوب التتابع لأن الله أطلق الأيام ولم يقيدها بشيء «فصيام ثلاثة أيام» ورجح الطبري القول الثاني وقال: يجزئه أن يصومها متفرقة أو متتابعة.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟
وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ
تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ

***

الله تعالى لمن تولَّى عن أمره ونهيه، يقول لهم: إن توليتم عن أمري ونهيي، فتوقعوا عقابي، واحذروا سخطي ﴿**ليس عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا**﴾ ليس على المؤمنين الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ذنبٌ ولا إثم، **قال ابن عباس**: لمَّا نزل تحريم الخمر قالوا يا رسول الله: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فنزلت ﴿**إذَا مَا اتَّقَوْا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ إذا خافوا الله وراقبوه في اجتنابهم ما حرَّم عليهم، واكتسبوا الأعمال الصالحة التي ترضي الله ﴿**ثم اتَّقَوْا وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وأحسنوا**﴾ ثم خافوا الله فثبتوا على إيمانهم، ودعاهم خوفهم إلى إحسان أعمالهم ﴿**واللهُ يحبُّ المحسنين**﴾ يحب المتقربين إليه بالطاعات ونوافل الأعمال[1] ﴿**يا أيها الذينَ آمنوا ليبلونكم الله بشيءٍ من الصَّيْدِ تنالُه أيديكم ورماحكم**﴾ ليختبرنكم الله ببعض صيد البر وأنتم محرمون، تصيدونه بأيديكم، أو بنِبَالكم ورماحكم. ﴿**لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بالغَيْبِ**﴾ كي يعلم الله من يجتنب محارم الله خوف عقابه، بحيث لم يره ولم يعاينه ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ**﴾ فمن جاوز حدَّ الله، واستحلَّ الصيد حال الإحرام، فله من الله عذاب مؤلمٌ موجعٌ.

﴿**يا أيهاالذين آمنوا لا تقتلوا الصَّيْد وأنتم حُرُمٌ**﴾لا تقتلوا صيد البر وأنتم محرمون بحجٍ أو عمرة ﴿**وَمَنْ قَتَله منكم متعمداً**﴾ ومن قتل الصَّيد عامداً وهو محرم ﴿**فَجزاءُ مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم**﴾ فعلى القاتل بدل ونظير الصيد من النَّعم يتصدَّق به ويُهديه، فإن صاد حمار وحش فعليه بقرة، وإن صادَ أرنباً فعليه شاة وهكذا ﴿**يحكم بهِ ذَوَا عَدْلٍ منكم**﴾ يحكم بمثل المقتول من الصيد، فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل ﴿**هَدْياً بَالغَ الكعبةِ**﴾ يُهْدى حتى يصل الكعبة، فيذبح ويُفرَّق لحمه على مساكين الحرم ﴿**أو كفارةُ طعامُ مَسَاكينَ**﴾ أو عليه كفارة إطعام مساكين، لكل مسكينٍ مدٌّ من الحنطة ﴿**أو عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً**﴾ أو ما يماثل قدره من الصيام، بأن يُقوَّم قيمة الصيد من الطعام، ثم يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً. ﴿**ليذوقَ وَبَالَ**

(١) قال ابن جرير: الإتقاء الأول بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق، والثاني: بالثبات على الإيمان وترك التبديل والتغيير، والثالث بالإحسان والتقرب إلى الله بنوافل الأعمال.

عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ
ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾
مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ

***

أمره﴾ كي يذوق عقوبة فعله ﴿**عَفَا اللهُ عمَّا سَلَفَ**﴾ سامح الله وعفا عمَّا كان منكم في الجاهلية قبل النهي ﴿**ومنْ عَادَ فينتقم اللهُ منه**﴾ ومن عـاد إلى الصيد بعد التحريم في الإسلام فينتقم الله منه بعقوبته في الآخرة ﴿**واللهُ عَزيزٌ ذُو انتقام**﴾ والله غالب لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام مانع، وهو قادر على معاقبة من عصاه ﴿**أُحِلَّ لكم صيدُ البحرِ وطعامُه متاعاً لكم وللسيَّارة**﴾ أحل لكم ـ أيها المؤمنون ـ صيدُ البحر ما كان منه طرياً وما رمى به البحر ميتاً، منفعةً للمقيمين منكم، وللمسافرين يتزودونه في سفرهم مليحاً ﴿**وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دمتُمْ حُرُماً**﴾ وحُرِّم عليكم صيد البرّ ما دمتم محرمين ﴿**واتقوا اللهَ الذي إليه تُحْشرون**﴾ واحذروا عقاب الله، الذي مرجعكم ومصيركم إليه، فيجازيكم على أعمالكم ﴿**جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للنَّاسِ**﴾ جعلَ الله البيتَ الحرام ـ الذي فيه الكعبة المشرَّفة ـ قِواماً للناس ومصالح أمورهم، وجعلها معالم لدينهم ﴿**والشَّهْرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائد**﴾ وجعل الله الشهر الحرام، وما يُهدى إلى بيت الله، وما يتقلَّده المحرم أو يُقلِّده هديه، قواماً لدينهم ومعالم لحجّهم ﴿**ذلكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يعلم ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ**﴾ ذلك لكي تعلموا أن الله يعلم جميع ما في السموات والأرض، مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم. ﴿**وأن الله بكل شيء عليم**﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم ومجازيكم عليها ﴿**اْعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شديدُ العِقَاب**﴾ شديد عقابُه لمن عصاه ﴿**وأَنَّ اللهَ عفور رحيمٌ**﴾ لمن أطاعه وأناب إليه ﴿**مَـا عَلَى الرسول إلا البلاغ**﴾ ليس على رسولنا إلا أن يبلِّغكم رسالتنا ﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمونَ**﴾ والله عالمٌ بما تظهرونه من أعمالكم وأقوالكم، وما تخفونه في أنفسكم، يعلم ضمائر الصدور، وبيده الثواب والعقاب ﴿**قُلْ لا يَسْتوي الْخَبيثُ والطَيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبيثِ**﴾ قل يا محمد لا يتساوى عند الله الصالح والطَّالح، والمطيعُ والعاصي، ولو كثر أهل الضلال والعصيان، فلا تعجبنَّ من كثرتهم، لأن أهل المعاصي هم الأخسرون الخائبون ﴿**فاتقوا اللهَ يا أولي الألباب لعلكم تُفلحون**﴾ فاتقوا الله يا أهل

أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

***

العقول والحِجى، كي تفلحوا وتنجحوا في مطلوبكم ﴿**يا أيها الذينَ آمنوا لا تَسْألوا عن أشياءَ إنْ تُبْد لكم تَسؤْكُمْ**﴾ لا تكثروا السؤال على رسول الله ﷺ ولا تسألوه عن أمور إن أظهرها لكم ساءتكم[١] ﴿**وإنْ تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم**﴾ وإن تسألوا عن هذه الأشياء حين ينزل الوحيُ،فتستوضحوا عنها يبيّنها اللهُ لكم ﴿**عَفَا اللهُ عنها**﴾ عفا الله عمَّا كان منكم قبل ذلك ﴿**واللهُ غفورٌ رحيمٌ**﴾ غفور لذنوب التائبين، لا يعاجل العقوبة للمذنبين ﴿**قد سألها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين**﴾ قد سأل الآيات أناس قبلكم ثم أصبحوا جاحدين بها كقوم صالح لما جاءتهم الناقة ﴿**ما جعل اللهُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ**﴾ ما شرع الله البحيرة ولا السائبة؛ **قال ابن المسيب**:البحيرةُ الناقةُ يُمنح درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبةُ من الإبل كانوا يسيّبونها - يتركونها - لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء ﴿**ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ**﴾ ولا الوصيلة وهي الأنثى إذا جاءت بتوأم «ذكر وأنثى» قالوا: وصَلَتْ أخاها فدفعت عنه الذبح، ولا الحام وهو الفحل يُحْمى ظهرُه من الركوب والانتفاع، بسبب تتابع أولادٍ من ضِرابه «إتيانه الإناث» وهذه أمور كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلام، حيث كانوا يُحرِّمون من الأنعام ما لم يُحرِّمه اللهُ، اتباعاً لخطوات الشيطان ﴿**ولكنَّ الذينَ كفروا يَفْتَرونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ**﴾ ولكنَّ المشركين يختلقون الكذب على الله، بإضافة تحليل ما أحلُّوا، وتحريم ما حرَّموا إلى الله تعالى ﴿**وأكثرهُمْ لا يعقلون**﴾ أكثر هؤلاء المشركين لا فهم لهم ولا عقل ﴿**وإذا قيلَ لهم تَعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ**﴾ وإذا قيل لهؤلاء المشركين: أَقْبلوا إلى كتاب اللهِ وإلى رسوله، ليتبيَّنَ لكم الهدى من الضلال. ﴿**قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ أجابوا يكفينا اتباعُ طريقة آبائنا فنحن لهم تَبَع، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿**أَوَلَوْ كانَ آباؤهم لا يَعْلَمونَ شيْئاً ولا يهتدون**﴾ أيتّبعون آباءهم ويقلِّدونهم ولو كانوا على ضلالةٍ وخطأ؟ ﴿**يا أيُّها الذينَ آمنوا عليكُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾ الزموا أنفسكم فأصلحوها، واعملوا في خلاصها من عقاب الله ﴿**لا يضرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتُمْ**﴾ لا

---

(١) هذا تأديب من الله للمؤمنين ونهيٌ لهم أن يسألوا عن أمور لا فائدة لهم في السؤال عنها، روي أن قوماً كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فنزلت

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ

***

يضركم من كفر وسلك غير سبيل الحق، إذا أنتم آمنتم بربكم واهتديتم، وأديتم حقَّ الله تعالى في النصح والإرشاد **﴿إلى اللهِ مرجعُكُم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملونَ﴾** إلى الله مصيركم في الآخرة فيجازيكم على أعمالكم

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا شهادةُ بينكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ﴾ ليشهد بينكم عند معاينة أحدكم الموتَ **﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكُمْ﴾** وقت الوصية، ليشهدْ اثنان ذوا رُشْدٍ وعقل من المسلمين **﴿أو آخرَانِ من غيركم﴾** أو آخران من غير المسلمين **﴿إنْ أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبةُ الموتِ﴾** إن أنتم سافرتم في الأرض فنزل بكم الموتُ[1] **﴿تحبسونهما من بعد الصَّلاةِ﴾** تستوقفونهما من بعد صلاة العصر، إنْ شككتم في أمانتهما **﴿فَيُقْسِمَانِ باللهِ إن ارتبتُمْ لا نشتري به ثَمَناً ولو كَانَ ذا قُرْبى﴾** فيحلفان بالله ـ إن اتهمتموهما بخيانةٍ فيما ائْتُمنا عليه ـ لا نحلف كاذبين على عوضٍ نأخذه عليه، ولو كان المشهود عليه قريباً لنا **﴿ولا نكتُم شهادةَ اللهِ إنَّا إذاً لمنَ الآثمينَ﴾** ولا نُخفي شهادةً للهِ عندنا، فإن فعلنا ذلك نكون من المجرمين المستحقين للعقاب **﴿فإنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحقَّا إثماً﴾** فإن اطُّلع وظهر من الشاهدين أنهما قد خانا فاستوجبا الإثم[2] **﴿فآخرانِ يقومانِ مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأوليانِ﴾** فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة من أَوْلى من يستحق ذلك المال **﴿فيُقْسِمانِ باللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شهادَتِهِمَـا﴾** فيحلفان باللهِ لأيماننا أحقُّ من أيمانهما الكاذبة **﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إنَّا إذاً لَمِنَ الظَّالمينَ﴾** وما اعتدينا عليهما في نسبتهما إلى الخيانة، إنَّا إن كذبنا عليهما نكون من الظالمين **﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بالشَّهَادَةِ على**

---

(١) هذا إذا كان الرجل بأرضٍ غريباً فحضره الموت، ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته، فله أن يشهد على وصيته يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، وشهادتهم مقبولة في الوصية في السفر، ولا تجوز في غير ذلك.

(٢) روي في سبب نزول الآية أن رجلاً من بني سهم خرج مع نصرانيين ـ تميم وعديّ ـ فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا إناءً من فضة عليه صفائح من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الإناء بمكة فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، وحلف الورثة أنه لصاحبهم فنزلت

أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنُۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ
ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ
نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ
وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

***

وَجْهِهَا﴾ هذا الذي بيَّنتهُ في أمر الأوصياء، أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم، ويُقِرُّوا بالحقِّ ولا يخونوا **﴿أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أيمانِهِمْ﴾** أو يخافوا الفضيحة على أنفسهم بين الناس، إن رُدَّت اليمين على الورثة **﴿واتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا﴾** خافوا الله وراقبوه في أيمانكم، واسمعوا ما يُقال لكم فاعملوا به **﴿واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقينَ﴾** لا يوفِّق من خرج عن طاعة ربه، وأطاع الشيطان **﴿يومَ يَجْمَعُ اللهُ الرُسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾** احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل فيسألهم: ما الذي أجابتكم به أممكم؟ **﴿قالوا لا علم لنا﴾** قالوا أدباً مع الله: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء **﴿إنك أنتَ علَّام الغيوبِ﴾** لايخفى عليك أمر من خفيِّ العلوم وجليِّها. **﴿إذْ قالَ الله يا عيسى ابن مريمَ اذكر نعمتي عليك وعلى والدتكَ﴾** حين قال الله يا عيسى: اذكرْ أياديَّ عليك وعلى والدتك **﴿إذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ﴾** حين قوَّيتك وأعنتُك بجبريل **﴿تُكَلِّمُ النَّاس في المَهْدِ وَكَهْلاً﴾** تكلِّم النَّاس صغيراً وكبيراً[1] **﴿وإذْ علَّمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل﴾** واذكر نعمتي أيضاً عليك حين علمتك «الكتاب» الكتابة والخط، «والحكمة» وهي الفهم بمعاني الكتاب، وعلمتك التوراة والإنجيل **﴿وإذْ تخلُقُ من الطِّين كهيئة الطير بإذني﴾** وإذ تصوِّر وتُشكِّل على صورة الطير بتعليمي وعوني **﴿فَتَنْفُخُ فيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾** فتنفخ في تلك الصورة، فتصبح طيراً حقيقياً بأمري ومشيئتي **﴿وتُبْرِىء الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بإذْني﴾** وتشفي الأعمى الذي لا يُبصر، والأبرص المصاب في جلده، بمشيئتي وأمري. **﴿وَإذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بإذْني﴾** وإذْ تُحيي الموتى من قبورهم بمشيئتي وأمري **﴿وإذْ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنكَ إذْ جئتَهم بالبيِّناتِ﴾** واذكر نعمتي عليك حينَ كففت اليهود عنك، وقد همُّوا بقتلك حين جئتَهم بالأدلة والبراهين القاطعة على نبوتك ورسالتك **﴿فَقالَ الَّذينَ كفروا منهم إنْ هذا إلَّا سحرٌ مبينٌ﴾** فقال الكافرون منهم: ما هذا إلا ساحرٌ لا نبيٌّ

---

(١) لعلَّ هذا التعبير يوحي بنزول عيسى ابن مريم من السماء ليستكمل حياته، حتَّى يكلِّم الناس في شيخوخته، فإنه قد رفع إلى السماء وهو شاب، وفي الآية تكذيب للذين زعموا صلب عيسى عليه السلام كما هو عقيدة النصارى.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

***

صادق، يُظهر بأفعاله وأموره العجيبة أنه ساحر ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ واذكر حين ألقيتُ إلى أنصارك وأتباعك أن صدِّقوا بي وبرسولي عيسى ﴿قالوا آمنا واشهدْ بأننا مسلمونَ﴾ قالوا: صدَّقنا بما أمرتنا به يا ربنا، واشهد علينا بأننا خاضعون، مطيعون لأمرك ﴿إِذْ قَالَ الحواريُّونَ يَا عِيسى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتطيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ علينَا مَائِدَةً من السَّماءِ﴾ واذكر حين قال أتباعك: هل يستجيب لك ربك ويُطيعك، إن سألته أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء فيها أنواع الطعام[1]؟ ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين﴾ قال: خافوا الله وراقبوه، إن كنتم مصدِّقين بقدرته، فإن الله لا يعجزه شيء. ﴿قالوا نُريد أن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمئِنَّ قلوبُنا﴾ قالوا نريد أن نأكل من المائدة، وتسكن قلوبنا وتستقر على الإيمان بوحدانيته وقدرته ﴿ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ونعلم صدقك فيما أخبرتنا به ﴿ونكونَ عليها مِنَ الشاهدينَ﴾ ونشهد أنها آية من الله، وحجة دالة على صدق نبوتك ﴿قالَ عيسى ابنُ مريمَ اللهمَّ رَبَّنَا أنزلْ علينا مائدةً من السَّماءِ تكونُ لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً نعظِّمه نحن ومن بعدنا، ونصلي لك فيه ﴿وآيةً منكَ﴾ وعلامةً منك يا رب على صدق رسولك ﴿وارزقنا وأنتَ خيرُ الرازقينَ﴾ وأعطنا من فضلك وجودك، فإنك خير من أعطى وتفضَّل ﴿قَالَ اللهُ إنِّي مُنَزِّلُهَا عليكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ قال الله: سأنزل عليكم المائدة لتطعموا منها، فمن يجحد بعد إنزالها نبوة عيسى منكم ﴿فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً من العَالَمِينَ﴾ فإني سأعذبه عذاباً شديداً، لن أعذِّب به أحداً من عالمي زمانه ﴿وإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابْنَ مريم أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذوني وأُمّي إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ واذكر حين قال الله لعيسى ابن مريم عند رفعه إلى السَّماء[2]: هل أنت قلت لقومك اعبدوني أنا وأمي، واجعلوني مع أمي معبودين تعبدونهما من دون الله؟ ﴿قَالَ

---

(١) لم يكن الحواريُّون شاكين في قدرة الله، وإنما أرادوا أن يُظهر لهم عيسى آية خاصةً بهم ليتحدثوا به عن معجزات نبيِّهم، وسؤالهم كان اقتراحاً ولم يكن تعنتاً وعناداً، كسؤال قوم صالح الناقة، وسؤال كفار مكة أن يحوِّل لهم الصفا ذهبا، ويفجر فجاج مكة أنهاراً

(٢) ذهب ابن جرير إلى أن السؤال يكون عند رفعه إلى السماء، والجمهور على أن هذا يقوله له يوم القيامة تقريعاً وتوبيخاً للنصارى على رءوس الأشهاد، لأنهم عبدوا المسيح وأمه، وهو الأظهر والأرجح.

سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ
إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا
مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ
وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

***

﴿سُبْحَانَكَ ما يكونُ لي أَنْ أَقُولَ ماليس لي بحَقٍّ﴾ قال: أنزّهك وأعظِّمك يا رب، عن أن أفعل ذلك أو أتكلم به، فأنا عبد مخلوقٌ وأمي كذلك، فكيف ندّعي الربوبية؟ **﴿إِنْ كنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمتَهُ﴾** إن كان ذلك صدر منّي فإنك عالم به **﴿تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِك﴾** إنك لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي، تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما قد نطقت به؟ ولا أعلم يا رب ما أخفيته عنّي من الأشياء **﴿إِنَّكَ أنتَ عَلَّام الغُيوب﴾** أنتَ العالم بخفيات الأمور، التي لا يعلمها غيرك **﴿ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتني بِهِ أَنْ اعبدوا الله ربِّي وربَّكُمْ﴾** ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من توحيدك وعبادتك **﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾** وكنت شاهداً عليهم وعلى أعمالهم، حين كنت بين أظهرهم **﴿فلمَّا توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم﴾** فلما قبضتني إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دوني **﴿وأنتَ على كل شيءٍ شهيدٌ﴾** أنت تشهد على كل شيء لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾** إنْ تعاقب هؤلاء الناس فإنهم عبادك **﴿وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾** وإن تصفح عنهم وتستر ما فرط منهم **﴿فإنك أنت العزيزُ﴾** الغالب المنتقم الذي لا يقدر أحدٌ أن يدفع انتقامه منه **﴿الحكيمُ﴾** في تدبيره وصنعه **﴿قالَ الله هذا يومُ ينفعُ الصَّادقينَ صِدْقُهم﴾** يقول تعالى: هذا اليوم وقتُ القول والصدق النافع، الذي ينتفع فيه الصادق بصدقه **﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** لأولئك الصادقين بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة **﴿خالدينَ فيها أبداً﴾** باقين فيها دائماً، لا يزول عنهم نعيمها **﴿رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه﴾** رضي الله عنهم بقبول طاعتهم، ورضوا عن الله بما أنالهم من جزيل الثواب. **﴿ذلك الفوزُ العظيمُ﴾** هذا هو الفوز والظفر العظيم، الذي نالوه بدخولهم جنات النعيم **﴿للهِ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ﴾** للهِ جلَّ وعلا مُلْكُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وهو المتصرِّف فيهما دون عيسى الذي تزعمون أنه إلّهكم. **﴿وهو على كل شيءٍ قديرٌ﴾** لا يُعجزه شيء أراده، فله القدرة التامة والسلطان العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

***

﴿**الْحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ**﴾ الثناء والشكر لله وحده دون ما سواه، الذي خلقكم أيها الناس وخلق السموات والأرض ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ**﴾ وأظلَمَ الليلَ وأنار النهار ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلونَ**﴾ ثم إن الكفار يجعلون لله شريكاً، فيعبدون معه الأنداد والأوثان. وهذا تعجيبٌ من عبادتهم غير الخالق[١] ﴿**هو الذي خلقكم من طينٍ**﴾ هو الذي أنشأ أصلكم «آدم» من طين ﴿**ثم قَضَى أَجَلاً**﴾ثم حدَّ أجلاً لموتكم ﴿**وأجلٌ مسمًّى عنده**﴾ وهو أجل البعث والنشور ﴿**ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرونَ**﴾ ثم أنتم تشكُّون في قدرة الله، على بعثه لكم بعد فنائكم ﴿**وهو اللهُ في السَّموات وفي الأرض**﴾ وهو الله المعبود في السموات والأرض ﴿**يعلم سرَّكم وجهركم**﴾ يعلم ما تخفونه في نفوسكم، وما تجهرون به من أقوالكم وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء ﴿**ويعلم ما تكسبون**﴾ ويعلم ما تعملون وتجرحون في دنياكم، يقول إنَّ ربكم الذي يستحق الحمد، وإخلاص العبادة له، هو الموصوف بهذه الصفات الجليلة، لا من لا يقدر

---

(١) سبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها من عظةً، لمن فكّر فيها وتدبّر! فإن الله جلّت عظمته هو وحده الخالق المبدع للكائنات، فهو الذي خلق السموات والأرض وجعل فيهما معايش الناس وأقواتهم وأقوات أنعامهم، فمن السموات ينزل الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر لمصالح العباد، ومن الأرض ينبتُ الحب الذي به غذاؤهم، والثمار التي فيها ملاذهم، فسبحانه من إله عظيم أوجز هذه الجمل الكثيرة في ألفاظ يسيرة!!

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ
يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن
لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا

***

على ضُرٍّ ولا نفع ﴿وما تأتيهم من آيةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضينَ﴾ وما يأتي هؤلاء الكفار حجة دالة على وحدانية الله، وصدق نبوة محمد ﷺ إلَّا أعرضوا عنها وصدُّوا عن قبولها ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فقد كذبوا بنبوة محمد ﷺ لمَّا جاءهم من عند الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزئُونَ﴾ فسوف يأتيهم أخبارُ استهزائهم بآياتي ورسلي. وهذا وعيدٌ لهم على كفرهم واستهزائهم، وقد وفَّى لهم بالوعيد فقتلهم يوم بدر ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون، كثرة من أهلكتُ قبلهم من الأمم؟ ﴿مكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ ما لمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة، من الخيرات، والثمار، والأنهار ﴿وأرسلنا السَّماءَ عليهم مِدْرَاراً﴾ وأرسلنا عليهم المطر غزيراً دائماً ﴿وجعلنا الأنهارَ تجري من تحتِهِم﴾ وفجرنا عيون المياه من تحتهم بينابيعها، حتى جرت منها الأنهار، ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ فغمطوا نعمةَ ربهم، وعصوا رسولَ خالقهم، فأهلكناهم بسبب ما اكتسبت أيديهم[1] ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرينَ﴾ وأحدثنا بعد إهلاكهم أمماً آخرين، جعلناهم خلفاً لهم ﴿ولو نَزَّلنا عليكَ كتاباً في قرطاسٍ﴾ ولو نزلنا عليك يا محمد، الوحي الذي جاءهم من عند الله، مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ﴾ فعاينوه ومسُّوه بأيديهم ﴿لَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ مُبينٌ﴾ لقال المشركون: ما هذا الذي جئتنا به، إلَّا سحرٌ ظاهر واضح، سحرتَ به أعيننا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْه مَلَكٌ﴾ وقالوا: هلَّا أُنْزل عليه مَلَكٌ من السماء، يصدِّقه ويشهد له بأن الله أرسله إلينا!! ﴿ولو أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ ولو أنزلنَا مَلَكاً ثم كفروا ولم يؤمنوا، لجاءهم العذابُ عاجلاً غير آجل ﴿ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ ثم لم يُؤخروا طرفة عين ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ لو بعثنا إليهم مَلَكاً ـ كما اقترحوا ـ لجعلناه في

---

(١) قال أبو جعفر: يقول أعطيناهم ما لم نعطكم، حيث أمطرت فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها، وأعطتهم الأرض نباتها، ودرَّت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه، ولكنهم عصوا وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا في الأرض، فعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة.

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

***

صورة رجل، لأنهم لا يقدرون على رؤية المَلَك في صورته **﴿وللَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾** لاختلط عليهم الأمر، فلم يدروا أملَكٌ هو أم بشر؟ **﴿ولقد اسْتُهْزِىءَ برسلٍ من قبلِكَ﴾** تسليةٌ للرسول ﷺ يقول: هوِّنْ عليك يا محمد ما تلقاه من هؤلاء المستهزئين، فلقد استهزأ أمم كثيرون بأنبيائهم ورسلهم **﴿فحاقَ بالَّذينَ سخِروا منهم ما كَانُوا بهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** فنزل وأحاط بالمستهزئين العذاب الذي كانوا يهزأون به **﴿قُلْ سيروا في الأرضِ ثم انظروا كيف كَان عاقبةُ المكذبين﴾** قل لهم: جولوا في بلاد المكذبين، ثم انظروا ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار وخراب الديار، واحذروا أن يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم **﴿قُلْ لِمَنْ مَا في السَّمواتِ والأرضِ قلْ للهِ﴾** قل لمن مُلْكُ ما في السمواتِ والأرض؟ قل: لله لا للأوثان والأصنام، فهو الذي قهر كل شيء بملكه وسلطانه **﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾** قضى تعالى على نفسه أن يرحم عباده **﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا رَيْب فِيهِ﴾** واللهِ ليجمعنكم أيها الناسُ ليوم القيامة الذي لا شك فيه، فيجازي كل عامل بعمله[1] **﴿الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بعدم الإيمان، فهم لا يوحدون الله ولا يُقرّون بنبوة محمد عليه السلام **﴿وله ما سَكَنَ في الليلِ والنَّهارِ﴾** وله جلَّ وعلا ما استقر في الليل والنهار، وهو المالك لكل شيء **﴿وهو السميعُ العليمُ﴾** السميع لأقوال الناس، العليمُ بما يضمرونه في أنفسهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك **﴿قُلْ أغير اللهِ أتخذ ولياً فاطرِ السمواتِ والأرضِ﴾** قل لهؤلاء المشركين: أغير اللهِ خالق السموات والأرض ومبتدعهما، أتخذ رباً أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث؟ **﴿وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾** وهو يرزق خلقه ولا يرزقه أحد **﴿قُلْ إنّي أمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ أسلم﴾** قل لهم: **إنَّ ربي أمرني أن أكون أول من خضع له بالعبودية، وانقاد له من أهل زماني** **﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾** **وقيل لي: لا تكن ممن جعل لله**

---

(١) رجح ابن جرير أن قوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ كلام مقطوع عما قبله، والأظهر أنه متعلق بما قبله والمعنى: كتب تعالى وأوجب على نفسه أن يجمعكم للحساب يوم القيامة، وهو الأظهر والله أعلم.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٖ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾
وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ
إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

***

شركاء من الآلهة والأنداد ﴿قُلْ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربي عَذَاب يوم عظيم﴾ أخاف إن عبدت هذه الأوثان، عذاب يوم عظيم الهولِ والشدة ﴿مَنْ يُصْرَفْ عنهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة فقد نال رحمة الله ﴿وذلك الفَوْزُ المُبينُ﴾ النجاة من الهلاك والظفر بالمطلوب ﴿وَإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ إن أصابتك شدة في دنياك، وضيقٌ في عيشك، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله تعالى ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإن نالك رخاء وسعة في الرزق فمن الله تعالى، هو القادر على نفعك وضُرِّك، لا هذه الآلهة المهينة ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو جل وعلا العالي الغالب على عباده ﴿وهو الحكيمُ الخبيرُ﴾ وهو الحكيم في تدبيره، الخبيرُ بمصالح عباده ﴿قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً﴾ قل لهم: من أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم ﴿قل اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ قل لهم: اللهُ ـ الذي شهادتُه أكبر الشهادات ـ شاهدٌ بصدقي، وهو العالم بالمحقِّ منا والمبطل، والرشيد والسفيه ﴿وأُوحِيَ إليَّ هَذَا القرآنُ﴾ وأوْحى إليَّ ربي هذا القرآن العظيم ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ لأخوِّفكم به نقمته وعقابه إن لم تؤمنوا، وأنذر به من بلغه القرآن من سائر الناس كلهم. قال ابن كعب: من بلغه القرآنُ فقد أبلغه محمد ﷺ ﴿أئنَّكم لتشهدون أنَّ مع اللهِ آلهةً أخرى﴾ أئنكم أيها المشركون لتعترفون أن مع الله معبوداتٍ غيره، من الأصنام والأوثان؟ ﴿قُلْ لاَ أَشْهَدُ﴾ قل لهم: لا أقرُّ ولا أعترف بذلك، بل أجحد وأنكر ﴿قُلْ إنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ قل: إنما هو معبود واحد، لا شريك له ﴿وَإنَّني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْركُونَ﴾ وإنني أتبرأ من كل شريك تعبدونه معه، لا أدعو غيره إلَهاً ﴿الذينَ آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ أهل التوراة والإنجيل يعرفون أن محمداً رسول الله، كما يعرف الواحد منهم ابنه، لصفته المذكورة في كتبهم[1] ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أهلكوا أنفسهم وألقوها في نار

---

(١) روي أن عبد الله بن سلام كان يقول: والله لمعرفتي بمحمد ﷺ أشدُّ من معرفتي بابني من أجل الصفة والنعت الذي أجده في التوراة.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ﴾

***

جهنم ﴿فهم لا يؤمنونَ﴾ فهم لا يُصدِّقون برسالة محمد ﷺ ﴿ومن أظْلَمُ ممن افترى على الله كذباً﴾ من أشد اعتداء وظلماً ممن اختلق على الله الباطل، فزعم أن له شريكاً، أو ادَّعى أن له صاحبةً وولداً؟ ﴿أو كذَّب بآياتِهِ﴾ أو كذَّب بالمعجزات التي أيَّد الله بها رسله؟ ﴿إنه لا يُفلح الظالمون﴾ لا يفوز ولا ينجح المفترون على الله الكذب.

﴿ويومَ نحشرهم جميعاً ثم نقول للذينَ أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعُمون﴾ نجمعهم للحساب ثم نقول للمشركين: أين آلهتكم الذين كنتم تدَّعون أنهم أرباب مع الله تعالى؟ ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا واللهِ ربنا ما كنا مشركينَ﴾ ثم لم يكن قولهم[1] واعتذارهم إلا أن أقسموا كذباً منهم فقالوا: واللهِ يا ربنا ما كنا ندعو سواك، ولا جعلنا لك شريكاً ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسِهِمْ﴾ انظر كيف كذب هؤلاء في الآخرة على أنفسهم، كما كانوا يكذبون في الدنيا؟ وفيه تعجيبٌ من حالهم ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونَ﴾ وذهبت عنهم أصنامهم وآلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولم ينتفعوا بها ﴿ومنهمْ مَنْ يَسْتَمعُ إليكَ﴾ ومن هؤلاء من يستمع القرآن منك ﴿وَجَعَلْنَا على قُلُوبهم أكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموه ﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾ وجعلنا في آذانهم ثِقلاً وصمماً عن فهم ما تتلو[2] ﴿وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤْمنوا بها﴾ وإن يروا كل حجةٍ وعلامة تدل على صدق نبوتك، لا يصدّقون بها ولا يُقرّون ﴿حتّى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يخاصمونك ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين﴾ يقول الذين جحدوا آيات الله: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وهم يَنْهَوْنَ عنه ويَنأَون عنه﴾[3] وهم ينهون عن

---

(١) سمَّى قولهم واعتذارهم «فتنة» لأنه كان اختباراً وامتحاناً لهم.

(٢) قال قتادة: يسمعونه بآذانهم ولا يَعُون منه شيئاً، كمثل البهيمة تسمع النداء ولا تدري ما يُقال لها.

(٣) انظر روعة الجمال بين «ينهون» و«ينأون» ووقعه على السمع، ويسمى هذا النوع في علم البديع «الجناس غير التام».

إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ
ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

***

استماع القرآن، ويتباعدون عنك يا محمد ﴿وإنْ يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرونَ﴾ وما يُهْلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم، وما يدرون بهذا الهلاك والعطب ﴿ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا على النار﴾ ولو ترى حال المشركين حين حُبسوا في النار، وشاهدوا ما فيها من الأغلال والأهوال ﴿فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكذِّب بآياتِ رَبِّنَا﴾ يا ليتنا نردُّ إلى الدنيا حتى نتوب، ولا نكذب بآيات الله، ونكون من المصدّقين بالله ورسله ﴿بل بَدَا لهم ما كانوا يُخْفون من قبلُ﴾ بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمالهم السيئة ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبونَ﴾ ولو رُدُّوا إلى الدنيا لرجعوا إلى الكفر والجحود، والعمل بما يسخط الله، وإنهم لكاذبون في دعواهم ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ وقالوا ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ولو ترى إذ حُبسوا أمام ربهم للحساب ﴿قَالَ أَلَيْس هَذَا بالْحَقِّ﴾ أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقاً؟ ﴿قالوا بلى وَرَبِّنا﴾ قالوا: بلى والله إنه لحقٌّ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا عذاب جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم في الدنيا ﴿قَدْ خَسِر الذينَ كَذَّبُوا بلِقَاءِ الله﴾ قد خسر الذين أنكروا البعث بعد الممات ﴿حتى إذا جاءتهم الساعةُ بَغْتَةً﴾ حتى إذا جاءتهم ساعة البعث فجأة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فيها﴾ يا ندامتنا على ما ضيَّعنا في حياتنا الدنيا من صالح الأعمال ﴿وهم يحملونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهم يحملون آثامهم وذنوبهم على ظهورهم ﴿أَلَا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ ساء الإثم الذي ارتكبوه ﴿وما الحياةُ الدنيا إلَّا لعبٌ وَلَهْوٌ﴾ وما هذه الحياة الدنيا التي يستمتع الناس بنعيمها وملاذها إلا كاللاّعب اللاّهي، عمَّا قليلٍ تزول فلا تغتروا بها، فإنَّ المغترَّ بها نادم ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وللآخرةُ والاستعداد لها بصالح الأعمال، خيرٌ للذين يخشون الله بطاعته والمسارعة إلى رضاه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس لكم عقلٌ حتى تعلموا أن الباقي خيرٌ من الفاني؟

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

***

﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ نحن نعلم يا محمد أنه يؤلمك قول المشركين عنك: إنه كذَّاب **﴿فإنهم لا يكذّبونكَ﴾** فإنهم لا يكذبونك على الحقيقة[1]، لأنهم يعلمون أنك صادقٌ **﴿ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ الله يَجْحدون﴾** ولكنَّ المشركين بحجج الله وآيات كتابه يجحدون **﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا﴾** تسليةٌ للرسول ﷺ، وتعزيةٌ له عمَّا ناله من المساءة يقول: لا يحزنك تكذيب هؤلاء المشركين، وما تلقاه منهم من الأذى، فقد كُذّب رسلٌ قبلَكَ، فصبروا على تكذيب قومهم لهم **﴿وأُوذُوا حتَّى أتاهم نَصْرُنا﴾** وأوذوا في سبيل الله، فلم يثنهم ذلك عن المضيّ في دعوتهم، حتى جاءهم نصرنا **﴿ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ اللهِ﴾** لا مغيِّر لوعدِ الله الذي وعد به رسله **﴿ولقد جاءك من نَبَإِ المرسلين﴾** ولقد جاءك يا محمد من خبر الرسل، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، لمَّا تمادوا في غيِّهم وضلالهم **﴿وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهُمْ﴾** إن كان عظم عليك إعراض هؤلاء المشركين، وعدم تصديقهم لك **﴿فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِي نَفَقاً في الأرْضِ﴾** فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض فتذهب فيه **﴿أو سُلَّماً في السَّماءِ﴾** أو مصعداً تصعد فيه إلى السماء **﴿فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ﴾** فتأتيهم بمعجزة أفضل مما أتيناهم به فافعل **﴿وَلَوْ شَاءَ الله لجمعهم على الهدى﴾** لو شاء الله الهداية لهم جميعاً لفعل[2] **﴿فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾** فلا تكوننَّ ممن لا يعلم حكمة الله في أنه يريد إيمان الناس اختياراً لا اضطراراً **﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾** لا يستجيب لدعائك يا محمد، إلَّا الذين فتح الله أسماعهم للحقِّ والرشد **﴿والموْتى يَبْعَثُهُمُ الله﴾** والكفارُ في عِداد الموتى[3]، لا يسمعون، ولا يعقلون، ولا يفقهون **﴿ثم إليهِ يُرْجَعون﴾** ثم إليه مرجع المؤمنين

---

(١) روي أن الأخنس بن شريق خلا بأبي جهل فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامنا، فقال أبو جهل ويحكَ والله إن محمداً لصادقٌ وما كذب قطُّ، ولكنْ إذا ذهب بنو قصيّ باللّواء، والحجابة، والسقاية، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية.

(٢) قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبقت له من الله السعادة في الذكر الأول. ا هـ مختصر ابن كثير ١ / ٥٧٦

(٣) شبه تعالى الكفار بالموتى، لأنهم موتى القلوب، قال قتادة: الآية مثل المؤمن والكافر، فالمؤمن سمع كلام الله فانتفع به وعقله، =

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ

***

والكافرين، فيثيب المؤمن، ويعاقب الكافر ﴿وقالوا لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربه﴾ وقال كفار مكة هلاَّ نُزِّل على محمد علامة ومعجزة من ربه؟ ﴿قُلْ إنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيةً﴾ قل لهم: إن الله قادر على أن يُنزِّل حجة وآيةً كما سألوا ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ لا يعلمون ما عليهم من البلاء إن نزلت ﴿وما من دابةٍ في الأرضِ﴾ ما من شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير ﴿ولا طائر يطير بجناحيهِ﴾ ولا طائر طار بجناحيه في الهواء ﴿إلَّا أممٌ أمثالكُمْ﴾ إلا أصناف مصنفة أمثالكم أيها الناس ﴿ما فَرَّطْنَا في الكتاب من شيءٍ﴾ ما ضيَّعنا إثبات شيءٍ من ذلك في اللوح المحفوظ ﴿ثم إلى ربهم يُحشرون﴾ ثم إلى ربهم مرجعهم بعد الفناء. فالرب الذي لم يُضيِّع حفظ أعمال البهائم والدواب والطير، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحَشَرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، كيف يضيِّع أعمالكم ويُفرِّط في حفظها؟ ويترك جزاءكم في الآخرة، مع أنه خصَّكم بالعقل والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير؟ ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صمٌّ وبُكمٌ في الظُّلُماتِ﴾ والذين كذبوا بحجج الله وأدلته هم مرتطمون في ظلمات الكفر، لا يبصرون آيات الله، ولا يعتبرون بها، فهم صمٌّ عن سماع الحق، خرسٌ عن القول به. **قال قتادة**: هذا مَثَل الكافر، أصمُّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به ﴿من يشأ الله يُضلِلْهُ﴾ من شاء الله إضلاله عن الإيمان أضلَّه ﴿ومَنْ يَشَأْ يجعَلْهُ على صِراطٍ مُسْتقيم﴾ ومن أحبَّ هدايته وفَّقه بفضله إلى الإيمان، وهداه إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام ﴿قُلْ أرأيتكم إن أتاكم عَذَابُ اللهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني أيها القوم إن جاءكم عذابُ اللهِ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف الحساب ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كنتمْ صَادقين﴾ أتفزعون إلى غير الله لينجيكم من عظيم البلاء، إن كنتم صادقين أن آلهتكم تضرُّ وتنفع؟ ﴿بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تدعون هناك ربكم وإليه تفزعون، دون غيره من آلهةٍ ووثنٍ وصنم ﴿فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إليهِ إنْ شَاءَ﴾ فيفرِّج عنكم عظيم البلاء إن شاء أن يفرِّج

=والكافر أصمُّ أبكم لا يبصر هدى ولا ينتفع به.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾

***

ذلك عنكم لأنه القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء ﴿وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾ وتنسون ما تشركونه مع الله من وثن وصنم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ من قَبْلِكَ﴾ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فامتحناهم بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضرَّاء وهي الأمراض والأسقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا إلى الله، ويخلصوا له العبادة بالذلة والاستكانة ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تَضَرَّعُوا﴾ فهلَّا حين جاءهم العذاب تضرعوا لربهم، وخضعوا له بالطاعة حتى يصرف عنهم العذاب؟ ﴿ولكنْ قَسَتْ قلوبُهم﴾ ولكن أصرُّوا على تكذيبهم للرسل، استهانة بعقاب الله واستخفافاً بعذابه، لقساوة قلوبهم ﴿وزيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾ وحسَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، التي يكرهها ويسخطها الله منهم ﴿فلما نسوا ما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فلما تركوا العمل الذي أمرنا هم به على ألسن رسلنا ﴿فتحنا عليهم أبوابَ كل شيءٍ﴾ فتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة، والصحة في الأجسام، وبدلناهم مكان البأساء والضراء السَّعة والرخاء استدراجاً منَّا لهم ﴿حتَّى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ حتى إذا فرحوا بذلك النعيم ﴿أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسونَ﴾ أخذناهم بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون، فإذا هم هالكون، نادمون على ما سلف منهم[1] ﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا﴾ استؤصلوا فلم يُفلت أحد منهم من العذاب ﴿والحمدُ للهِ رب العالمين﴾ والثناء الكاملُ لله رب العالمين، على انتقامه من أعداء رسله ﴿قُلْ أرأيتُمْ إنْ أخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصَارَكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بك: أخبروني إن أصمَّكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم ﴿وخَتَمَ على قلوبكم﴾ وطبع على قلوبكم، فلم تفهموا قولاً، ولم تُبصروا حجة ﴿مَنْ إِلَهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم به﴾ من يردُّ عليكم ما ذهب من الأسماع، والأبصار، والأفهام؟ وأيُّ إله غير الله يقدر على ذلك[2]؟ ﴿انْظُرْ كيف

---

(١) أصل الإبلاس: السكوتُ وانقطاع الحجة، ويأتي بمعنى اليأس والقنوط.

(٢) في الآية تعليمٌ من الله لرسوله ﷺ لإقامة الحجة على المشركين، يقول له: قل لهم إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا يستحق العبادة إلا الذي بيده الضر والنفع، والقبضُ والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء فلو أراد الله إذهاب أسماعكم وأبصاركم لا تقدر الأصنام على ردها عليكم.

ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾
وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

***

نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ انظر يا محمد كيف نضرب لهم الأمثال والعِبر، ليعتبروا ويتذكروا فينيبوا **﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾** ثم هم ـ مع تنبيهنا إياهم بالعبر ـ يعرضون عن التذكر والاعتبار **﴿قل أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ اللهِ بغتَةً أو جَهْرَةً﴾** قل لهؤلاء المكذبين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله وعقابه فجأةً على حين غرة، أو جاءكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه **﴿هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون﴾** هل يُهلك الله منا ومنكم، إلا الظالم الفاجر؟ **﴿وما نُرْسِلُ المرسلينَ إلاَّ مبشِّرينَ ومنذرينَ﴾** وما نرسل الرسل إلا ببشارة المتقين بالجنة والفوز المبين، وبإنذار العصاة المجرمين بالنار والعذاب المهين **﴿فمنْ آمَنَ وأَصْلَحَ﴾** فمن صدَّق رسلنا، وعمل صالحاً في الدنيا **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** فلا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم في الدنيا **﴿والذينَ كذَّبوا بآياتنا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** وأما الذينَ كذَّبوا بحججنا وآياتنا، فسينالهم عذابنا وعقابنا، بسبب كذبهم وخروجهم عن طاعة الله إلى معصيته **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائنُ اللهِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لنبوتك: لستُ أقول إني أنا الربُّ الذي له خزائن السمواتِ والأرض **﴿ولا أعلم الغيب﴾** ولستُ أعلم غيوب الأشياء الخفية، التي لا يعلمها إلا الله جل وعلا، الذي لا يخفى عليه خافية **﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾** ولا أدَّعي أني مَلَكٌ، لأنه لا ينبغي للمَلَك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر، لا أقول لكم ذلك حتى تجحدوا نبوتي **﴿إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوْحَى إليَّ﴾** ما أَتَّبع إلا وحي الله وتنزيله الذي أنزله عليَّ **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ﴾** قل لهم: هل يستوي الكافر الذي قد عمي عن الحق، والمؤمن الذي قد أبصر آيات الله وحججه، فاهتدى بها واستضاء بضيائها؟ **﴿أفلا تتفكرونَ﴾** أفلا تتفكرون فيما أدعوكم إليه، فتعلموا صحة ما أقول؟ **﴿وأَنْذِرْ به الَّذينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ﴾** وأنذر بالقرآن الذين يُصدِّقون بوعد الله ووعيده، ويعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، فهم مشفقون من عذابه **﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ﴾** ليس لهم ناصرٌ ينصرهم فيستنقذهم منه، ولا شافع يشفع لهم عند الله فيخلصهم من عقابه **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** أنذرهم كي يتقوا الله

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

***

في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويجتنبوا معاصيه ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاة والْعَشِيِّ﴾ ولا تطرد يا محمد هؤلاء المؤمنين الضعفاء، الذين يذكرون ربهم بالصباح والمساء[1] ﴿يريدون وجهه﴾ يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنوَّ من رضاه ﴿ما عليكَ من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ ما عليك من حساب ما رزقتهم من شيء، وما عليهم من حساب ما رزقتك من شيء ﴿فتطردهم فتكونَ من الظالمين﴾ فإن طردتهم وأقصيتهم عنك، تكون ظالماً لنفسك ﴿وكذلكَ فَتَنَّا بعضهم ببعضٍ﴾ وكذلك ابتلينا واختبرنا بعض الناس ببعض، بالغنى والفقر، والقوة والضعف، والعز والذل، والهدى والضلال ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا﴾ كي يقول من أضلَّه الله وأعماه عن سبيل الحق: أهؤلاء تفضَّل الله عليهم دوننا بالهدى والرشد وهم فقراء ضعفاء، ونحن أغنياء أقوياء؟ قالوا ذلك استهزاءً وسخريةً بالمؤمنين ﴿أليس الله بأعلمَ بالشاكرينَ﴾ أليس الله أعلم بمن كان في خلقه شاكراً، فيمنَّ عليه بالهداية والإيمان جزاء شكره نعمة ربه!! ﴿وإذا جاءك الذينَ يؤمنون بآياتنا﴾ وإذا جاءك القوم الذين يُصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، مسترشدين عن ذنوبهم التي سلفت منهم ﴿فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمةَ﴾ فلا تؤيسهم وقل لهم: سلامٌ من الله عليكم، قضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ﴾ أن من اقترف منكم ذنباً فجهل بسببه[2] ﴿ثُمَّ تاب مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ﴾ ثم تاب من ذنبه، وأصلح عمله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رحِيمٌ﴾ فأن الله ساترٌ لذنبه إذا تاب وأناب، رحيمٌ بعباده لا يعاقبهم بعد التوبة ﴿وكذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ نبيّن الحجج والأدلة، ونوضّحها حتى يظهر الحق من الباطل ﴿ولِتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمينَ﴾ ولتتضح طريق المجرمين ﴿قل إني نُهيتُ أن أعبد الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

---

(١) روي أن المشركين مرُّوا بالنبيﷺ وعنده صهيبٌ، وعمَّار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: رضيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك!! فنزلت الآية، قال ابن كثير: معنى الآية لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك.

(٢) قال مجاهد: «بجهالةٍ» أي من جهلٍ، لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر.

قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ
مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى
مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ
إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

***

الله﴾ قل لهم: إن الله نهاني أن أعبد الأوثان والأنداد التي عبدتموها من دون الله ﴿**قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ**﴾ لن أتبعكم إلى ما تدعونني إليه، ولا أعطيكم هواكم فيه ﴿**قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين**﴾ إني إن فعلت ذلك، فقد سلكت غير الهدى، وصرت ضالاً مثلكم ﴿**قُلْ إنّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي**﴾ إني على بيانٍ وبرهان، من توحيد ربي ﴿**وَكَذَّبْتُمْ بِهِ**﴾ وكذَّبتم أنتم بربكم ﴿**مَا عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ**﴾ ليس عندي ما تستعجلون به من عذاب الله، ولستُ بقادرٍ عليه ﴿**إنِ الْحُكْمُ إلاّ لله**﴾ ما الحكمُ ـ فيما تستعجلون به من عذاب الله ـ إلا للهِ الذي لا يجور في حكمه، وبيده الخلق والأمرُ ﴿**يَقُصُّ الحقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾ يقضي الحقَّ بيني وبينكم، ويفصل بين المحق والمبطل، وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه ﴿**قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ قل لهم يا محمد: لو أن ما تستعجلون به من العذاب بيدي، لعاجلتكم بالذي تسألوني من ذلك، ولكنه بيد الله ﴿**وهو أعلم بالظالمين**﴾ وهو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، والانتقام منهم ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغيب لا يعلمها إلاّ هو**﴾ وعند الله خزائن الغيب، وعلم ما غاب عن خلقه فلم يدركوه، مما استأثر الله بعلمه، لا يعلم ذلك إلاهو﴿**ويعلم ما في البرّ والبحر**﴾ويعلم أيضاً كل ماحواه البرُّوالبحر، لا يخفى عليه شيء منه ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا**﴾ وما تسقط ورقة في الصحارى والبراري، ولا في القرى والأمصار، إلا الله يعلمها﴿**وَلَا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رطب ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين**﴾ ولا شيءٍ مما هو موجود أو سيوجد، إلا وهو مثبتٌ في اللوح المحفوظ مكتوب فيه ﴿**وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم، ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وفي الآية احتجاجٌ على المشركين، الذين ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم، فإن الذي يقبض أرواحهم في المنام ويبعثهم في النهار، قادرٌ على إحيائهم بعد مماتهم ورد أرواحهم إلى أجسادهم ﴿**ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمّى**﴾

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم

***

ثم يوقظكم من منامكم في النهار، لتبلغوا المدة التي حدَّدها الله لحياتكم **﴿ثم إليه مرجعكم﴾** ثم إليه معادكم ومصيركم **﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾** ثم يخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾** وهو الغالب على خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور المعلوُّ عليه لذلَّته، كأوثانهم وأصنامهم **﴿ويُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً﴾** ويرسل عليكم ملائكة يتعاقبونكم ليلاً ونهاراً، يحفظون أعمالكم ويحصونها **﴿حتى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطونَ﴾** حتى إذا حان أجل أحدكم وحضرت وفاتُه، توفته ملائكتنا الموكلون بقبض الأرواح، وهم لا يفرّطون في حفظ ذلك ولا يُضيّعون. **قال ابن عباس**: لِمَلَك الموتِ أعوانٌ من الملائكة **﴿ثم رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾** ثم ردتهم الملائكة الذين قبضت أرواحهم، إلى الله سيِّدهم الحقِّ **﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾** ألا لله الحكم والقضاء، وهو أسرع من أحصى أعمالكم وآجالكم، وعرف مقاديرها وأحوالها **﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ﴾** قل يا محمدلهؤلاء المشركين: من الذي ينجيكم غير الله إذا ضللتم في البرّ فأخطأتم الطريق، أو ركبتم في البحر فأظلم عليكم السبيل؟ **﴿تدعونه تضرعاً وخفيةً﴾** تدعونه جهراً وسرّاً قائلين **﴿لئن أنجانا من هٰذِهِ لَنكونَنَّ من الشَّاكرينَ﴾** لئن أنجيتنا يا رب من هذه الشدة، لنكونن ممَّن يوحّدك ويشكرك، ويخلص لك الطاعة والعبادة **﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا ومِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾** قل لهم: الله وحده القادر على تفريج الكرب عنكم، ينجيكم من كل شدَّة وهول، لا آلهتكم التي تشركونها مع الله **﴿ثم أنتم تشركونَ﴾** ثم أنتم ـ بعد تفضله عليكم بكشف الكرب ـ تشركون معه آلهتكم وأصنامكم **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾** قل لهم: إن الله قادر على إرسال عذاب عليكم ـ بسبب شركم وكفرانكم نِعَمه ـ من فوقكم بالرجم أو الطوفان، أو من تحت أرجلكم بالخسف والزلزال **﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعاً ويُذيقَ بعضكم بَأْسَ بعضٍ﴾** أو يخلطكم فيجعلكم فرقاًوأحزاباً، يقتل بعضكم بعضاً(١). **قال ابن عباس**: يُسلِّط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب **﴿انظر كيف نُصَرِّفُ لهمُ الآياتِ**

---

(١) روي أنه لما نزلت ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك﴿أو من تحت=

بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا
عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن
تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

***

لعلَّهم يفقهونَ﴾ انظر يا محمد كيف نبيّن ونوضّح لهم الحجج، ليفهموا ويتدبروا آيات الله وحججه وبراهينه **﴿وكذَّب به قومك وهو الْحَقُّ﴾** وكذَّب بالقرآن(١) قومك ـ كفار مكة ـ وهو الحقُّ الذي لا شك فيه **﴿قل لستُ عليكم بوكيلٍ﴾** قل لهم: لستُ عليكم بحفيظٍ ولا رقيب، وإنما أنا مبلِّغ **﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** لكل خبرٍ نهاية ينتهي إليها، فيتبين حقه وصدقه، من باطله وكذبه، وسوف تعلمون حقيقته عند حلول العذاب بكم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا﴾ وإذَا رأيت المشركين الذين يخوضون في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾** فلا تجلس معهم حتى يأخذوا في حديث آخر، غير الاستهزاء بآيات الله **﴿وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ﴾** وإن أنساك الشيطان نهينا عن الجلوس معهم، ثم ذكرت ذلك **﴿فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾** فلا تقعد بعد التذكر معهم **﴿وَمَا عَلَى الَّذينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيءٍ﴾** وليس على من اتقى الله فأطاعه، شيء من التَّبعة والإثم، إذا اجتنبهم وأعرض عنهم **﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقونَ﴾** ولكنْ أمرناهم بالإعراض عنهم تذكيراً لهم، ليتقوا الخوض فيها ويتركوا ذلك، **قال السدي**: إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم فكفُّوا عن ذلك **﴿وذر الذينَ اتخذوا دينهم لَعِباً وَلَهْواً﴾** اترك هؤلاء الذين اتخذوا دين الله سخريةً واستهزاءً **﴿وَغرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾** وخدعتهم زينة الحياة الدنيا، حتى نسوا المعاد والمصير **﴿وَذَكِّرْ به أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ﴾** وذكر بالقرآن كيلا ترتهن نفس بذنوبها، فتُسلَم للهلاك **﴿لَيْس لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وليٌّ ولا شَفيعٌ﴾** ليس لها أحد ينصرها فينقذها من الله، ولا شفيع يشفع لها عنده **﴿وإنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخذ منها﴾** وإن تفتد نفسها بكل فداءٍ لا يُقبل منها، **قال قتادة**: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها **﴿أولئك الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا﴾**

= أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ: هذه أهون، أو أيسر» رواه البخاري.

(١) هذا قول السُّدي.

يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

***

أسلموا لعذاب الله، بسبب ما اجترحوا من الأوزار والآثام ﴿لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم﴾ لهم ماءٌ حار في جهنم لا يروي عطشهم ولهم مع الحميم العذابُ الأليم، والهوانُ المقيم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ بسبب كفرهم في الدنيا، وعبادتهم غير الله ﴿قل أَنَدْعُوامِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا﴾ قل لهم: أنعبد من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، وندع عبادة الله الذي بيده النفع والضر، والحياةُ والموت؟ ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ ونردُّ من الإسلام إلى الكفر، بعد أن وفقنا الله له؟ ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرضِ حيران﴾ فيكون مثلنا مثل الرجل الذي أغوته الشياطين وأضلته، حتى لم يهتد للمحجة، وجعلته حيران في الأرض ﴿له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ له أصحاب يدعونه إلى طريق الهدى، يقولون له: ائتنا فكن معنا على الدين الحقِّ، وهو يأبى ذلك ويتَّبع داعي الشيطان[1]. وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتَّبع الشياطين من أهل الشرك والضلال، وترك أصحابه الذين كان معهم على الهدى والاستقامة ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ قل لهم: إن الهدى هو طريق الله الذي بيَّنه وأوضحه لنا، لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿وأُمرنا لنسلم لربِّ العالمينَ﴾ وأمرنا ربنا أن نخلص له العبادة، ونخضع له بالذلة والطاعة ﴿وأَنْ أَقيمُوا الصَّلاة واتَّقوه﴾ وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وهو الذي إليه تُحشرون﴾ وربكم هو الذي تجمعون إليه يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ بالحقِّ﴾ وهو تعالى المنفرد بخلق السموات والأرض، خلقها حقاً وصواباً، لا باطلاً وخطأ كقوله تعالى «وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً» ﴿ويوم يقول كُنْ فيكونُ﴾ ويوم يقول للأرض كن فتكون الأرضُ غير الأرض، وتُبدَّل السموات غير السموات ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وعده الحقُّ الذي لا شك فيه ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في

---

(١) قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضلَّ عن الطريق وتاه فيه، وناداه منادٍ يا فلان: هلمَّ إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول ألقاه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق.

وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ
فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ
هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

***

الصُّورِ﴾ وله الملك يومئذٍ، لا منازع له فيه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ عالمُ ما يغيبُ عن حواسكم وأبصاركم، وما تعاينونه فتشاهدونه أيها الناس ﴿وهو الحكيمُ الخبيرُ﴾ وهو الحكيم في تدبيره وتصريفه، الخبيرُ بأعمال وأفعال عباده. أخبر تعالى أنه المنفرد بخلق السموات والأرض، دون ما سواه من الأوثان والأصنام، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة، وليعرّفهم خطأ ما هم مقيمون عليه من عبادة ما لا يضر ولا ينفع

﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأبِيهِ آزَرَ أتتخذ أصناماً آلهةً﴾ واذكر يا محمد لقومك حين قال خليلي إبراهيم لوالده «آزر»(١) عائباً عبادته الأصنام: أتتخذ آلهةً من الأصنام تعبدها وتتخذها رباً، دون الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟ ﴿إني أراكَ وَقَوْمَكَ في ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ إني أراكَ يا آزرُ، وقومَك الذين يعبدون معك الأصنام، في ضلالٍ واضح، وزوالٍ عن محجة الطريق القويم ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السَّموَاتِ والأَرْض﴾ وكما أرينا إبراهيم البصيرة في الدين، نريه مُلْك السموات والأرض، وما فيهما من مخلوقات الله من الشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، وغير ذلك من عظيم سلطان الله فيهما ﴿وليكون من الموقنينَ﴾ وليكون ممن يوقن بوحدانية الله، ويعلم حقيقه ما هداه الله إليه من أمر الإيمان ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾ فلما واراه الليلُ وغيَّبه، أبصر كوكباً حين طلع ﴿قَالَ هٰذَا رَبّي﴾ قال: هذا ربي(٢)، معارضة لقومه ـ لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة غير الله ـ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحبُّ الآفلينَ﴾ فلما غاب الكوكب وذهب، قال: لا أحبُّ من يغيب ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ فلما رأى القمر طالعاً قال هذا ربي ﴿فلما أفل قال لئن لم يهدِني ربي لأكوننَّ من القوم الضَّالِّينَ﴾ فلما غاب قال لئن لم يوفقني ربي لمعرفة

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن «آزر» ليس اسم والد إبراهيم، وإنما هو اسم عمه، وبعضهم إلى أنَّ «آزر» اسم صنم، والصحيح أنه اسم أبيه كما ذهب إليه الجمهور وكما هو ظاهر الآية الكريمة.

(٢) إنما قال ذلك إبراهيم على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، ولإقامة الحجة على قومه المشركين في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسنَ وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، لأنها آفلة زائلة غير دائمة، فالأصنام التي هي دونها في الحسن، وأصغر منها في الجسم، لا يصح أن تكون معبودةً ولا آلهة، ومما يدل على أن المراد إقامة الحجة على قومه قوله تعالى بعد سرد هذه القصة﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه. .﴾الآية وقيل: إن ذلك كان منه حال الطفولة. وهذا ضعيف أيضاً لقوله تعالى﴿ولقد آتينا إبراهيم رشدَه من قبلُ. . .﴾

فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

***

الحق في توحيده، لأكونن من القوم الذين أخطأوا فلم يصيبوا الهدى ﴿فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ﴾ هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فلما غابت الشمس قال إبراهيم يا قوم: إني بريء من عبادة الآلهة والأصنام ﴿إني وَجَّهْتُ وجهي للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ﴾ إني وجهت وجهي للدائم الذي يبقى ولا يفنى، الذي ابتدع خلق السموات والأرض ﴿حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق، ولستُ ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وجادله قومه في توحيد الله ﴿قَالَ أتحاجُّوني في اللهِ وقد هَدَانِ﴾ قال أتجادلونني في توحيدي لربي، وقد وفقني لمعرفة وحدانيته وبصَّرني طريق الحق؟ ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربي شيئاً﴾ ولا أرهب من آلهتكم أن تنالني بسوء ومكروه، إلا إذا شاء ربي شيئاً من ذلك ﴿وَسِعَ ربي كلَّ شيءٍ علماً﴾ وسع علمُ ربي كل شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ ﴿أَفَلَا تتذكَّرون﴾ أفلا تعتبرون خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادة خشبة منحوته لا تقدر على نفع ولا ضر؟ ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وكيف أرهب آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، وهي لا تضر ولا تنفع(1) ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزّل به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ ولا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتشركون به ما ليس لكم به حجة ولا برهان؟ ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْن أَحَقُّ بالأَمْن﴾ فأينا أحقُّ بالأمن من عذاب الله، من يعبد رباً واحداً، أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ ﴿إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني؟ ﴿الَّذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ﴾(2) الذين صدَّقوا الله، وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا إيمانهم وعبادتهم بشرك ﴿أولئك لهم الأمنُ﴾ أولئكَ لهم الأمن من عذاب الله ﴿وهم مهتدونَ﴾ وهم السالكون طريق الرشاد

(١) خوفه قومه أن تمسه آلهتهم بسوء، لنيله منها فأجابهم بذلك.

(٢) المراد بالظلم في الآية «الشرك» ويدل عليه ما روي في الصحيحين أن الآية لما نزلت شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس بذلك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ !؟

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

***

والنجاة **﴿وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِهِ﴾** وهذه حجتنا الدامغة أعطيناها لإبراهيم على قومه قطعاً لعذرهم **﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾** رفعنا بها درجته عليهم، وشرَّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة **﴿إن ربك حكيمٌ عليمٌ﴾** حكيمٌ في تدبير شئون خلقه، عليمٌ بأحوالهم.

﴿ووهبنا له إسحٰقَ ويعقوبَ﴾ وهبنا له ذريةً شرَّفناهم بالكرامة، وخصصناهم بالنبوَّة، منهم ابنه إسحٰق، وابن ابنه يعقوب **﴿كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبلُ﴾** هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، كما هدينا نوحاً لمثل ذلك **﴿وَمِنْ ذُرّيتِهِ دَاوُدَ وسُلَيْمانَ وأَيُّوب ويُوسُفَ وَمُوسى وهَارُونَ﴾** وهدينا أيضاً من ذرية نوح[١] هؤلاء الأنبياء الكرام «داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون» **﴿وكذلكَ نجزي المحسنينَ﴾** وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن تقيّ **﴿وزَكَريَّا ويَحْيى وعِيسى وإلْيَاس كلٌ من الصَّالِحينَ﴾** وهدينا كذلك من ذريته «زكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس» وكلٌ من هؤلاء المذكورين، من عباد الله الصالحين **﴿وَإسْماعِيلَ والْيَسَعَ ويونس ولوطاً وكلاً فضَّلنا على العالمينَ﴾** وهدينا أيضاً من ذرية نوح «إسماعيل، والْيسع، ويونس، ولوطاً» وكلاًّ من نوح وأولاده الأنبياء وفقناهم للخير، وفضلناهم جميعاًعلى عالِمَي أزمانهم **﴿ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم﴾** وهدينا من آباء هؤلاء، ومن ذرياتهم، وإخوانهم، آخرين سواهم لم نذكرهم **﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم﴾** واخترناهم لإبلاغ رسالاتنا، وأرشدناهم إلى طريقٍ مستقيم لا عوج فيه، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لأنبيائه **﴿ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** هذا الهدى الذي هديتُ إليه الأنبياء والرسل، هو توفيقُ الله ولطفه الذي يوفّق به من يشاء من عباده **﴿ولو أشركوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْملونَ﴾**

---

(١) اختار ابن جرير عود الضمير في قوله﴿ومن ذريته﴾على نوح لأنه أقرب المذكور، ولأن «لوطاً» لم يكن من ذرية إبراهيم، واختار بعض المفسرين أن الضمير يعود على إبراهيم، لأنه الذي سيق الكلام من أجله، ويكون ذكر لوط بين الذرية من باب التغليب، ولعله الأرجح والله أعلم.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى
جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ
ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ

***

ولو أشرك هؤلاء الأنبياء[1]، فعبدوا مع الله غيره، لبطل أجر أعمالهم، لأن الله لا يقبل مع الشرك عملاً **﴿أُولَئِكَ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾** هؤلاء الذين اختارهم الله لرسالته، هم الذين أعطيناهم الكتب المنزَّلة، والفهم بالكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام، وأعطيناهم النبوَّة **﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾** فإن يجحد بآيات كتابي هؤلاء المشركون من قومك **﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾** فقد استحفظناها واسترعينا القيامَ بها رسلنا وأنبياءنا، الذين لا يجحدون بل يؤمنون ويصدّقون **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾** هؤلاء هم الذين وفَّقهم الله لدينه الحقِّ، والعمل بشريعته، فاقتد بمنهجهم يا محمد، واتخذهم لك أسوة **﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: لا أطلب منكم على تبليغي لكم القرآن أجراً آخذه منكم **﴿إنْ هو إلاَّ ذكرى للعالمينَ﴾** ما هذا إلا تذكيرٌ لكم ولجميع الخلق، لتتذكَّروا وتنزجروا **﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾** وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه **﴿إِذْ قَالُوا ما أَنْزَلَ الله على بشرٍ من شيءٍ﴾** حين قالوا: لم ينزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً **﴿قل من أنزل الكتابَ الذي جَاءَ بِهِ موسى﴾** قل لهم: من أنزل التوراة التي جاء بها موسى **﴿نوراً وهدى للنَّاس﴾** ضياءً من ظلمة الضلالة، وبياناً للناس يبيّن لهم الحقَّ من الباطل **﴿تَجْعَلونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كثيراً﴾** تجعلونه يا معشر اليهود مكتوباً في قراطيس - صحف - تظهرونها للناس، وتكتمون كثيراً منها ممَّا فيها أمر محمد ﷺ ونبوتّه **﴿وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكُمْ﴾** وعلِّمتم يا معشر العرب ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من أخبار الأمم السابقين **﴿قلْ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** قل لهم في الجواب الله أنزله، ثم اتركهم فيما يخوضون فيه من الباطل يستهزءون ويسخرون وفيه وعيدٌ للمشركين وتهديدٌ لهم **﴿وهذا كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾** وهذا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد، كثير النفع والبركة **﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** صدَّق ما قبله من كتب الله **﴿وَلِتُنْذِرَ**

(١) هذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو فُرض وحدث هذا لأحبط الله أعمالهم، وفي هذا تنبيهٌ للناس إلى خطر الشرك، فإن الأنبياء على جلالة قدرهم لو حصل منهم ذلك لبطل عملهم، فكيف بعامة الناس؟!

وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ
إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ

***

﴿أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَها﴾ ولتنذر بهذا القرآن أهل مكة، ومن حولها من الكفار الجاحدين برسل الله ﴿والذينَ يؤمنونَ بالآخرة يؤمنونَ به﴾ والذين يصدِّقون بالمعاد والثواب والعقاب، يصدِّقون بهذا الكتاب المنزل عليك يا محمد ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ ويحافظون على الصَّلوات المفروضة، التي أمر الله بإقامتها ﴿ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾ ومن أظلم ممن اختلق الكذب على الله؟ ﴿أو قال أُوحِي إليَّ ولم يُوْحَ إليه شيءٌ﴾ أوزعم أن الله أوحى إليه، فبعثه نبياً وأرسله نذيراً، وهو مبطلٌ كاذب، كمسيلمة الكذّاب والعنسيّ؟ ﴿ومَنْ قالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ﴾ ومن زعم أنه لو شاء لقال مثل ما قال الله[1]؟ ﴿وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ الْمَوْتِ﴾ ولو ترى الظالمين وقد غشيتهم سكراتُ الموتِ ﴿والملائكةُ بَاسِطُوا أيديهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ والملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم قائلين لهم: أخرجوا أرواحكم من أجسامكم[2] إلى سخط الله ولعنته ﴿اليومَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ﴾ فإنكم اليوم تُثابون على كفركم، بعذاب يهينكم ويذلُّكم، وهو عذاب جهنم ﴿بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحقِّ﴾ بقولكم على الله الباطل ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ واستكباركم عن الخضوع لأمره، والانقياد لطاعته ﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرَّة﴾ يقول الله يوم القيامة لهؤلاء المشركين: لقد جئتمونا وُحْداناً كما خلقناكم أول مرة، لا مال معكم ولا شيء، ممَّا كنتم تتباهون به في الدنيا ﴿وتركتُمْ مَا خوَّلناكم وراء ظهوركم﴾ وتركتم أيها القوم ما أعطيناكم من المال والخدم في الدنيا ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم

---

(١) هذا كقول المشركين ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾

(٢) قال ابن كثير: إن الكافر إذا احتضر، بشَّرته الملائكةُ بالعذاب والنكال، والحميم والجحيم، وغضب الرحمن الرحيم، فتفرق روحه في جسده وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

***

يشفعون لكم عند ربكم ﴿**لقد تقطَّع بينكم**﴾ لقد تقطعت بينكم الأرحام فلا تواصل ولا تناصر ﴿**وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمونَ**﴾ وغاب عنكم الشركاء والشفعاء.

﴿**إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ**﴾ الله جل وعلا هو الذي شقَّ الحبَّ فأخرج منه الزرع، وفلَق النَّوى فأخرج منه الشجر. **قال السدي**: فلق الحبَّ عن السنبلة، وفلَق النواةِ عن النخلة ﴿**يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ومخرِجُ الميِّت من الحيِّ**﴾ يخرج السنبل الحي من الحبِّ الميّت، ويخرج الحبَّ الميت من السنبل الحي، والشجر الحيَّ من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي، **وقال ابن عباس**: يخرج النطفة الميتة من الحيّ، ثم يخرج من النطفة بشراً حياً ﴿**ذَلِكُمُ اللهُ**﴾ فاعل ذلك كله اللهُ جل جلاله ﴿**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ فكيف تُصرفون عن الحقّ، وتعبدون ما لا ينفع ولا يسمع؟ وتتركون عبادة من أخرج لكم الزروع والحروث والثمار؟ ﴿**فالِقُ الإصباحِ**﴾ هو الذي شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل حتى أضاء ﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً**﴾ وجعلَ الليل للراحة، يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيستقر في مكانه ومأواه ﴿**والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْباناً**﴾ وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب ويدوران لمصالح الخلق، ليعرفوا بهما الأيام والشهور والسنين ﴿**ذلك تقديرُ العزيزِ العليم**﴾ هذا الفعل العظيم هو تقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه ﴿**وهو الذي جعلَ لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحرِ**﴾ وهو تعالى الذي خلق لكم النجوم، لتهتدوا بها إلى الطريق إذا ضللتم، وتحيرتم في ظلمة الليل في البر والبحر[1] ﴿**قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقومٍ يعلمونَ**﴾ قد بيَّنا الحجج والأدلة ووضحناها، ليتدبرها أولو العلم والفهم ﴿**وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ**﴾ ابتدأ خلقكم فأوجدكم من آدم عليه السلام ﴿**فمستقرٌّ ومستودَعٌ**﴾ فمستقرٌّ في الأرحام، ومستودع في الأصلاب[2] ﴿**قد فصَّلنا الآيات لقومٍ يفقهون**﴾ قد بينا

---

(١) عنى بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة الضلال، وظلمة الماء في البحر.

(٢) هذا ما رجحه ابن كثير، وقيل: المستقرُّ ظهر الأرض، والمستودع بطنُها، فإن الإنسان يعيش على ظهرها ثم يموت فتكون الأرض مستودعاً له، وذكر الطبري أقوالاً عديدة عن السلف واختار عمومها.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

***

الحجج والأدلة، لقوم يفهمون الآيات والعبر ﴿وهو الذي أنزل من السماءِ ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيءٍ﴾ أخرجنا بالماء جميع أنواع النبات، مما يتغذى به الناسُ والأنعام والطير والوحش ﴿فَأَخْرَجْنَا منهُ خَضِراً﴾ فأخرجنا من الماء زرعاً رطباً أخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَراكباً﴾ نخرج منه حباً يركب بعضه بعضاً كالسنابل ﴿ومن النخل من طَلْعِها قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ومن شجر النخيل عذوقٌ ـ عناقيد ـ قريبة متهدّلة ﴿وجناتٍ من أعنابٍ﴾ وبساتين من أعناب ﴿والزيتونَ والرمان مشتبهاً وغير متشابهٍ﴾ وشجر الزيتون والرمان، متشابهاً في الورق، مختلفاً في الطعم والثمر ﴿أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعِهِ﴾ انظروا إلى ثمر هذه الأشجار إذا أثمرت ونضجت، نظر اعتبار ﴿إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ إنَّ فيما ذكر من إنزال الماء وإخراج النبات، لبراهين ساطعة لقوم يصدّقون بوحدانية الله وقدرته

﴿وَجَعَلُوا للهِ شُركَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ وجعل الكفار الجنَّ شركاء لله، والله خلقهم منفرداً بخلقهم ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بنينَ وبَنَاتٍ بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ واختلقوا ونسبوا له البنين والبنات، جهلاً منهم بالله وبعظمته ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يصفونَ﴾ تنزَّه الله وترفَّع عما يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه ﴿بَدِيعُ السَّموات والأَرْضِ﴾ مبتدعهما ومحدثهما بعد أن لم يكونا، هو جل جلاله الذي ابتدع خلقهما ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ كيف يكون له ولدٌ، والولد إنما يكون من الزوجة؟ ﴿ولم تكنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ وليس له تعالى زوجة، حتى يكون له منها الولد؟ ﴿وخَلَقَ كلَّ شيءٍ﴾ وهو تعالى خالقُ كل شيء وبارئه وصانعه ﴿وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾ عالمٌ بكلِ شيء، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبكُمْ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحقٍ سواه، فهو ربكم لا هذه الآلهة التي لا تملك نفعاً ولا ضراً ﴿فاعبدوه﴾ فاخضعوا له وحده، وذلُّوا له بالطاعة والعبادة والخدمة ﴿وهو على كل شيءٍ وكيلٌ﴾ هو الرقيب والحفيظ على كل ما خلق، يقوم بتدبيره وتصريفه بقدرته ﴿لا

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟
ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

***

تُدركه الأَبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبصارَ﴾ لا تحيطُ به الأبصارُ، وهو يُحيط بها[1] **﴿وهو اللَّطِيفُ الخبيرُ﴾** وهو اللطيف بعباده، العليمُ بتدبير شؤونهم ومصالحهم **﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جاءكم حججٌ بيِّنةٌ من ربكم، تبصرون بها الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر **﴿فَمَنْ أَبْصَر فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِي فَعَلَيْهَا﴾** فمن تبيَّنها واهتدى بها فلنفسه بغى الخير، ومن عمي عن دلالتها ولم يُصدِّق بها فلنفسه أساء **﴿وَمَا أَنَا عليكُمْ بِحَفيظٍ﴾** ولستُ برقيبٍ عليكم أُحصي عليكم أعمالكم، وإنما أنا مبلِّغ **﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيات﴾** وكذلك نبيِّن الحجج والبراهين **﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾** وليقول المشركون: قرأتَ وتعلمتَ من أهل الكتاب **﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾** ولنبيِّن الحقَّ لقومٍ يفهمون ويعقلون **﴿اتَّبِعْ ما أُوحي إليكَ من ربكَ﴾** اتَّبعْ يا محمد ما أمرك به ربك، ودعْ ما يدعوك إليه المشركون من عبادة الأوثان والأصنام **﴿لا إله إلا هوَ﴾** لا معبود يستحق العبادة إلا الله **﴿وأعرضْ عن المشركينَ﴾** واترك جدال المشركين وخصومتهم **﴿ولو شاءَ اللهُ ما أشركوا﴾** لو أراد الله لهداهم فلم يشركوا **﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾** ولم نبعثك حافظاً تحصي عليهم أعمالهم، وإنما بعثناك رسولاً مبلِّغاً **﴿وما أنتَ عليهم بوكيلٍ﴾** ولست موكلاً عليهم، تقوم بحفظهم وأرزاقهم وأقواتهم **﴿ولا تسبُّوا الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ﴾** ولا تسبُّوا آلهة المشركين وأوثانهم **﴿فيسبُّوا اللهَ عَدْواً بغَيْرِ عِلْمٍ﴾** فيسبُّوا الله اعتداءً وجهلاً، **قال ابن عباس:** قالوا يا محمد: لتنتهيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجوَنَّ ربك فنزلت[2] **﴿كذلكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾** مثل ذلك التزيين للمشركين، زيَّنا لكل جماعة عملهم، من طاعة الله ومعصيته **﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فينبئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ثم مصيرهم إلى

---

(١) فسَّر المعتزلة الإدراك بالرؤية فقالوا: لا تراه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا خطأ واضح، وتأويل باطل، من حيث اللغة والشرع، فإن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك معناه الإحاطة بالشيء من جميع جهاته، وأما الرؤية فهي ثابتة بالنصوص الواضحة ففي الصحيحين (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر .) الحديث.

(٢) قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسبُّ الكفارُ الله عدواً بغير علم، فنزلت الآية.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

***

ربهم، فيجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ **﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهِمْ﴾** حلف المشركون أوكد الأيمان وأشدَّها **﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها﴾** لئن جاءتهم معجزة تصدِّق ما تقول يا محمد، ليؤمنن بأن ما جئت به حقٌّ، وأنك لله رسول **﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾** قل لهم: الله هو وحده القادر على إتيانكم بها **﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** وما يُدريكم ـ أيها المؤمنون ـ لعلَّ الآيات إذا جاءتهم لا يُصدِّقون بها، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب!! **﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كما لم يُؤْمنوا به أَوَّل مَرَّةٍ﴾** ونصرِّف قلوب هؤلاء المشركين فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحقّ، كما لم يؤمنوا بالله ورسوله من قبلُ **﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** ونتركهم في تمردهم على الله، واعتدائهم على حدوده يتردَّدون تحيراً، لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صواباً **﴿ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة﴾** لو نزلنا على المشركين الملائكة حتى رأوهم عياناً **﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾** وأحيينا لهم الموتى، حتى كلّموهم إظهاراً لنبوتك **﴿وحَشَرْنَا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً﴾** وجمعنا عليهم كل شيءٍ مقابلةً ومعاينةً **﴿ما كانوا ليؤمنوا إلاَّ أَنْ يشاءَ اللهُ﴾** ما آمنوا ولا صدَّقوك إلاّ أن يشاء الله ذلك **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ﴾** يحسبون أنَّ الإيمان إليهم، متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا، وليس ذلك إلا بيدي **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لكل نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والْجِنِّ﴾** تسليةً للنبي ﷺ أي كما ابتليناك يا محمد بهؤلاء الأعداء من مشركي قومك، كذلك ابتلينا من قبلك من الرسل، بأن جعلنا لهم أعداء يؤذونهم من مردة الإنس والجن **﴿يُوْحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾** يلقي بعضهم ما زيَّنه وحسَّنه بالباطل إلى صاحبه، ليغترَّ به من سمعه فيضلَّ عن سبيل الله **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾** ولو أراد اللهُ لدفع غوائلهم وأذاهم عن رسله **﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾** فدعهم وما يختلقون من إفك وزور، واصبر عليهم فإن عقابهم عليَّ **﴿وَلِتَصْغَى إليهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**

---

(١) قال ابن كعب: كلَّم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا يا محمد: آتنا بشيء من الآيات حتى نصدِّقك! فقال النبي ﷺ: أيَّ شيء تحبون أن آتيكم به! قالوا تجعل لنا الصَّفا ذهباً، فنزلت الآية.

بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا
ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ

***

بالآخِرَةِ﴾ ولتميلَ إلى باطلهم قلوب الكفار، الذين لا يصدقون بالآخرة **﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هم مُقْتَرِفُونَ﴾** وليحبوا ذلك، وليكتسبوا من الأعمال ما هم مكتسبون **﴿أفغير اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أأطلب حَكَماً أعدلَ من الله؟ **﴿وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إليكم الكتابَ مُفَصَّلاً﴾** أنزل إليكم القرآن مبيَّناً فيه الحكم واضحاً **﴿والَّذينَ آتيناهُمُ الكِتاب يَعْلَمون أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾** وأهل التوراة والإنجيل، يعلمون أن القرآن منزَّل من عند الله بالحقِّ **﴿فلا تكونَنَّ منَ الممترينَ﴾** فلا تكونن في شكٍ مما قصصنا عليك **﴿وتمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾** وكملت آيات القرآن، صدقاً في أخباره، وعدلاً في أحكامه **﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾** لا مغيِّر لما أخبر في كتابه **﴿وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ﴾** وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم **﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرْض يُضلُّوكَ عَنْ سبيل اللهِ﴾** يضلوك عن دين الله وطريق الحقِّ **﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلَّا يَخرُصُونَ﴾** ما يتبعون إلا الظنَّ وإن كان خطأً في الحقيقة، وما هم إلا متخرصون، يظنون الظنون دون علمٍ ويقين **﴿إنَّ ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾** هو جلَّ وعلا أعلم بالضَّالِ عن دينه، والمهتدي من خلقه **﴿فكلوا ممَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه﴾** فكلوا ـ أيها المؤمنون ـ ممَّا ذكيتم من ذبائحكم وذبائح أهل الكتاب، دون ذبائح أهل الأوثان **﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾** إن كنتم حقاً مؤمنين بآيات القرآن **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلوا ممَّا ذُكر اسم الله عليه﴾** وأيُّ شيءٍ يمنعكم أن تأكلوا ممَّا ذكر اسم الله عليه؟ **﴿وَقَدْ فصَّل لكُمْ مَا حَرَّمَ عليكُمْ إلَّا ما اضْطُررْتُمْ إليهِ﴾** وقد بيَّنَ لكم ربكم ما حرَّمه عليكم من المطاعم، إلا ما كان حال الضرورة **﴿وإن كثيراً لَيُضِلُّونَ بأهوائهم بغير علم﴾** وإن كثيراً من الناس المجادلين بالباطل، لَيُضلون

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ
لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ
فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ

***

أتباعهم بأهوائهم من غير حجة ولا برهان بما يجادلون فيه **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين﴾** أعلم بمن جاوز حدوده فخالفها، وهو لهم بالمرصاد **﴿وذَرُوا ظَاهِرَ الإثم وباطنه﴾** اتركوا أيها الناس كل معصيةٍ لله، سرّاً كانت أو علانية **﴿إِنَّ الَّذينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بما كانوا يَقْتَرِفُونَ﴾** إن الذين يأتون ما حرَّم الله، سينالون يوم القيامة جزاء ما اكتسبوا من الآثام **﴿ولا تَأْكُلُوا مما لم يذكر اسْمُ اللهِ عَلَيهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾** ولا تأكلوا ممَّا مات فلم تذبحوه، أو يذبحه من يدين بكتاب، فإن أكله معصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله **﴿وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾** وإن المردة من شياطين الإنس والجن، ليلقون إلى نصرائهم وأعوانهم بالوساوس والأوهام ليخاصموكم في تحريم أكل الميتة، **قال ابن عباس**: قال المشركون للمسلمين: ما قتل ربكم فلا تأكلونه، وما قتلتم أنتم تأكلونه!! فإن ما قتل ربكم ـ يعنون الميتة ـ خيرٌ مما تذبحون أنتم بسكاكينكم فنزلت **﴿وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنكم لمشركونَ﴾** وإن أطعمتموهم في أكل الميتة، فقد صرتم مثلهم مشركين **﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾** أوَمنْ كان كافراًـ بمنزلة الميت ـ فهديناه للإيمان، ووفقناه لطريق السعادة **﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في النَّاس﴾** وجعلنا له نوراً يبصر به الحقَّ، وضياء يستضيء به قصد السبيل بين الناس **﴿كمنْ مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها﴾** كمن هو في ظلمات الكفر، لا يُبصر رشداً، ولا يعرف حقاً؟! وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن في الهداية، والكافر في الضلالة **﴿كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾** مثل ذلك التزيين، زيِّنت للكافرين سوء أعمالهم حتى رأوها حسنة **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِر مُجْرِميهَا﴾** وكذلك جعلنا بكل قريةٍ عظماءها مجرميها، وهم أهل الشرك بالله والعصيان **﴿ليمكروا فيها﴾** ليخدعوا ويغرُّوا بالباطل من القول والفعل الناس **﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرونَ﴾** ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، لأن الله لهم بالمرصاد، وما يدرون ما أعدَّ الله لهم من أليم عقابه **﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾** وإذا جاء هؤلاء

صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ

***

المشركين حجة من الله، على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ قالوا: لن نصدّق برسالته حتى نُعْطى من المعجزات مثل ما أُعطي الرسل ﴿اللهُ أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ الله أعلم بمن هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه ﴿سَيُصيبُ الَّذينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ الله وَعَذابٌ شَديدٌ﴾ سينال المجرمين ذلةٌ وهوان بتكذيبهم رسوله، ولهم مع الصَّغار عذابٌ شديدٌ عند ربهم ﴿بِمَا كانوا يمكرون﴾ بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلامِ﴾ فمن يرد الله هدايته يفسح صدره للإسلام، حتى يستنير به قلبه، ويتّسع له صدره[1] ﴿ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يجعل صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ ومن أراد إضلاله عن سبيل الهدى، يجعل صدره ضيقاً، لا يدخله نور الإيمان، ولا تصل إليه موعظة ﴿حَرجاً﴾ شديد الضّيق، لغلبة الشرك عليه ﴿كأنّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ كأنما يصعدُ في السّماء من ضيق صدره[2] وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب الكافر في شدة تضييقه إياه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء ﴿كذلِكَ يجعَلُ اللهُ الرِّجس على الَّذينَ لا يُؤْمِنُون﴾ كذلك يسلط الله الشيطان على من أبى الإيمان، فيغويه ويصدُّه عن سبيل الحق ﴿وهذا صِراطُ ربك مُستقيماً﴾ وهذا دين الله الذي ارتضاه لعباده، لا اعوجاج فيه ﴿قد فصَّلنا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرون﴾ قد بينا الحجج والبراهين لمن تذكَّر واعتبر، وخصَّ «الذين يتذكرون» لأنهم أهل التمييز والفهم ﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عند رَبِّهِمْ﴾ لهم الجنة التي أعدَّها الله لأوليائه في الآخرة ﴿وهو وَلِيُّهُمْ بما كانوا يعملون﴾ والله ناصرهم ومعينهم جزاء طاعتهم لله، واتّباعهم رضوانه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يا مَعْشَر الجنِّ قَد استكثرتُمْ مِنَ الإِنْس﴾ ويوم يحشر المشركين مع أوليائهم من الشياطين، فيجمعهم جميعاً في موقف القيامة، ثم يقول: يا معشر الجنّ لقد أضللتم كثيراً من الإنس ﴿وَقالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْس رَبَّنَا استمتَعَ بَعضُنا ببعضٍ﴾ وقال أنصارهم من الإنس: يا ربنا استمتع

---

(١) سأل الصحابة النبي ﷺ عن هذه الآية فقالوا: كيف يُشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

(٢) في الآية الكريمة «إعجاز علميٌ» كشفه العصر الحديث، فإنّ من علا في أجواء السماء يشعر بعوارض الاختناق، وكلما ازداد الإنسان علواً وارتفاعاً شعر بضيق التنفس لقلة «الأكسجين» وهذا ما تنبه إليه ركاب الطائرة، ولهذا ينصحونهم باستعمالها عند اللزوم

خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا
عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ
ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ

***

بعضنا ببعض في الدنيا[١] ﴿**وَبَلَغْنَا أَجَلَنا الَّذي أَجَّلْت لَنَا**﴾ وبلغنا الوقت الذي حدَّدته لموتنا[٢] ﴿**قَالَ النَّارُ مثواكم خالدين فيها**﴾ قال الله لهم: نار جهنم مكانكم الذي تقيمون فيه، ماكثين فيها أبداً ﴿**إلَّا ما شاء الله**﴾ إلا مدة ما بين مبعثهم من قبورهم، إلى مصيرهم إلى جهنم ﴿**إنَّ ربك حكيمٌ عليمٌ**﴾ حكيمٌ في تدبير شؤون خلقه، عليمٌ بأحوالهم ﴿**وكذلكَ نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**﴾ وكذلك نسلّط بعض الظَّلمة على بعض، بسبب ما كسبوا من المعاصي

﴿**يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكُم يَقُصُّونَ عليكم آياتي**﴾ قد أتاكم رسلٌ منكم، ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه ﴿**وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾ ويحذّرونكم لقاء عذابي على معصيتكم، فلم تتذكَّروا ولم تعتبروا ﴿**قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾ قالوا: أقررنا واعترفنا بأن رسلك قد أتتنا وبلَّغتنا رسالاتك ﴿**وَغرَّتهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ وخدعتهم زينة الحياة الدنيا ﴿**وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ وأقرُّوا على أنفسهم، أنهم كانوا في الدنيا كافرين بالله وبرسله ﴿**ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهلُها غافِلُونَ**﴾ إنما أرسلنا الرسل، من أجل أنَّ ربك لم يكن ليهلكهم بشركهم بغير تذكير وتنبيه ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**﴾ ولكل عامل مراتب ومنازل من عمله يجازى بها، إن خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ ﴿**وَمَا رَبُّكَ بغافل عمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ والله يحصي عليهم أعمالهم ليجازيهم عليها ﴿**وربُّك الغنيُّ ذو الرحمة**﴾ وربك يا محمد الغنيُّ عن عباده، ذو الرأفة والرحمة بهم ﴿**إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ**﴾ لو شاء لأهلككم وأتى بخلقٍ غيركم يخلفونكم في الأرض ﴿**كما أنشأكم من ذرية قومٍ**

---

(١) المراد بالاستمتاع الإنتفاع أي انتفع الإنس بالجنّ بتزيين الشهوات لهم وأصناف المحرمات، والجنُّ بطاعة الإنس لهم والانقياد لحكمهم، حتى صار الجن كالرؤساء للإنس، والإنس كالأتباع.

(٢) قالوا ذلك تحسراً على حالهم بطاعة الشياطين.

مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

***

آخرين﴾ كما أحدثكم من بعد خلقٍ آخرين، كانوا قبلكم قد أهلكوا ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ إنَّ ما وُعدتم به من العقاب واقعٌ بكم، ولن تعجزوا ربكم لأنكم في قبضته ﴿قُلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ﴾ قل لكفار قريش: اعملوا على ناحيتكم وطريقتكم، إني عاملٌ بما أمرني به ربي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ من تكون له عاقبةُ الدَّارِ﴾ فسوف تعلمون عند معاينتكم العذاب، من تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ﴿إنه لا يُفلح الظالمون﴾ لا يفوز ولا ينجح الظالمون ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ والأَنْعَام نَصِيباً﴾ وجعل المشركون لربهم ممَّا خلَقَ من الزرع والأنعام قسماً وجزءاً مقدَّراً ﴿فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ فجعلوا للهِ بزعمهم[1] من ثمراتهم ومالهم نصيباً، وللشيطان والأوثان نصيباً ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان للهِ فهو يصل إلى شركائهم﴾ فما كان لأصنامهم حفظوه وأحصوه، فإن سقط من نصيبها شيء في نصيب الله ردُّوه إلى الأوثان، وإن سقط من نصيب الله شيء تركوه وقالوا: إن الله غني عن هذا ﴿سَاءَ ما يَحْكُمونَ﴾ بئس حكمهم هذا ﴿وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وكذلك حسَّن لكثيرٍ من عبَدة الأوثان والأصنام ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ حسَّن لهم شركاؤ هم من الشياطين وأد البنات ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ليهلكوهم وليخلطوا عليهم دينهم، حتى يلتبس فيضلوا ويهلكوا ﴿ولو شَاءَ الله ما فَعَلُوهُ﴾ ولو شاء الله لهداهم للحق، فلم يقتلوا أولادهم، ولكنهم أطاعوا الشياطين التي أغوتهم ﴿فذرهم وما يَفْترون﴾ فدعهم يا محمد وما يتقوَّلون على الله من الكذب والزور ﴿وقالوا هذه أنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلاَّ مَنْ نَشَاءُ بزَعْمِهِمْ﴾ وقال هؤلاء الجهلة: هذه أنعام وزرع حرام، لا يأكلها إلا من نشاء من الرجال بزعمهم الباطل ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأنعام لا يركبون ظهورها ﴿وأنعامٌ لا يذكرون اسم اللهِ عليها افتراءً عليه﴾ وأنعامٌ لا يحجُّون عليها، ولا يذكرون

(١) إنما قال « بزعمهم » للتنبيه على أن الله لم يأمرهم به، وإنما هو مجرد اختراع منهم

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ
وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً
عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

***

اسم الله عليها إن حلبوها أو حملوا عليها، كذباً على الله ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ سيجازيهم ربهم على كذبهم وافترائهم ﴿وَقَالُوا ما في بُطُونِ هذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصةٌ لذكورنَا ومُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وقالوا إنَّ ما في بطون هذه الأنعام، من اللَّبن والأجنَّة، حلالٌ للرجال دون الإناث ﴿وإن يكنْ مَيْتَةً فهم فيه شُرَكَاءُ﴾ وإن كان ما في بطونها ميتةٌ، فالرجال والنساء شركاءُ في أكله ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ سيجازيهم على افترائهم على الله، في تحريم ما لم يحرّمه ﴿إنه حكيمٌ عليمٌ﴾ حكيمٌ في تدبيره، عليمٌ بمصالح عباده ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قد خسر الذين وأدوا بناتهم، جهلاً ونقص عقل منهم بغير حجة. قال قتادة: هذا صنيع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السِّباء والفاقة ويغذو كلبه[1] ﴿وَحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ﴾ وحرَّموا ما أحلَّ الله لهم من الأنعام، كذباً على الله ﴿قَد ضَلُّوا وما كانوا مُهْتَدِينَ﴾ وقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح، وما كانوا من المهتدين للحق، ونزلت هذه الآية في الذين كانوا يحرّمون البحائر، ويسيّبون السَّوائب، ويئدون البنات.

﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ﴾ وربكم هو الذي أحدث وابتدع بساتين مرفوعات، مما يعرش الناس من الكروم[2]، وغير مرفوعات ممَّا ينبت في البر والجبال من الثمرات ﴿والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُه﴾ وخلق النخل والزرع مختلف الثمر والحب ﴿والزيتونَ والرمَّانَ متشابهاً وغير متشابِهٍ﴾ متشابهاً في المنظر، وغير متشابهٍ في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمزُّ ﴿كلوا من ثمره إذا أثمرَ﴾ كلوا من رطبه ما دام ثمرُه رطباً ﴿وآتُوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾ وادفعوا زكاته يوم جَذِّه وقطعه ﴿ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المسرفينَ﴾ ولا تُسرفوا في العطاء فتـغدو فقراء، فإن الله لا يحب المسرفين ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ وخلق من الأنعام «حمولة» كالإبل والخيل والبغال «وفرشاً» وهي صغارُ الإبل التي

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ ..﴾ الآية.

(٢) وقيل: المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر كالقرع والبطيخ، وغير معروشات ما قام على ساق كالزرع والنخل

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

***

لا يُحمل عليها ﴿كُلُوا ممَّا رزقكم اللهُ ولا تتبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ كلوا ممَّا أحلَّ الله لكم من الثمرات والزروع ولحوم الأنعام، ولا تُحرّموا على أنفسكم طيّب رزق الله، فتطيعوا بذلك الشيطان ﴿إنه لكم عَدُوٌّ مبينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، يبغي هلاككم وصدَّكم عن سبيل الله ﴿ثمانيةَ أزواجٍ﴾ خلق لكم ثمانية أصناف من الأنعام، أربعةُ ذكور من كلٍ من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وأربعة إناث كذلك، ثم فصَّلها بقوله ﴿من الضأن اثنين﴾ الكبش والنعجة ﴿ومن الْمَعْز اثْنَيْن﴾ التَّيْسُ والعنزُ ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْن حَرَّمَ أم الأُنْثَيَيْن﴾ قل يا محمد لهؤلاء ـ الذين حرَّموا ما حرَّموا من الحرث والأنعام، وزعموا أن الله حرَّم ذلك عليهم ـ هل حرَّم ربكم الذكرين من الضأن والمعز؟ أم حرَّم الأنثيين منهما؟ ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عليهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْن﴾ أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن، وأنثى المعز؟ وفي ذلك فسادُ دعواهم وتكذيبُ قولهم، فإنهم كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره[١] ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إنْ كنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خبروني بعلم ذلك، إن كنتم صادقين في دعواكم أن ربكم حرَّم هذا ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْن ومِنَ الْبَقَر اثْنَيْن﴾ وخلق لكم من الإبل اثنين، ذكراً وأنثى، ومن البقر اثنين، ذكراً وأنثى، فذلك ثمانية أزواج ﴿قلْ آلذكَرين حرَّمَ أم الأنثيين أمَّا اشتملتْ عليه أرحام الأنثيين﴾ كرَّر اللفظ تكذيباً لهم، وتهكماً بهم، في نسبتهم تحريم ذلك إلى الله ﴿أم كنتم شهداءَ إذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بهذا﴾؟ أم شهدتم ربكم فرأيتموه ووصَّاكم بهذا الذي تفترون؟ فإن هذا الذي تزعمونه، لا يُعلم إلاَّ بوحي من عنده، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أن الله حرَّم ذلك؟ برسولٍ أرسله إليكم، أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك؟ ﴿فمنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاس بِغَيْر عِلْمٍ﴾ فمن أشد ظلماً لنفسه، ممن تقوَّل على الله الكذب، ليصدَّ الناس عن دين الله بجهله وسفهه؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمينَ﴾ لا يوفّق للرشد من كان ظالماً، جاحداً لنبوة نبيه محمد

(١) الغرض من الآية بيان كذب المشركين على الله، واتباعهم في ذلك خطوات الشيطان ومخالفتهم أمر الرحمن، والاستفهام للإنكار والمعنى: من أين جاء هذا التحريم؟ فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام، أو من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام، فمن أين جاء التخصيص؟

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ
أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى
ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم
بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

***

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً﴾ قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المشركين. إني لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ في كتابه، شيئاً محرماً على آكل يأكله مما تزعمون تحريمه، إلا أن يكون المطعوم ميتةً ماتت بغير تذكية، أو دماً منصباً مُهْراقاً ﴿أَوْ لَحْم خِنْزِير فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجاسة ﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَير الله بِهِ﴾ وإلاَّ أن يكون مذبوحاً للأوثان والأصنام، فإنَّ ذلكَ الذبحَ فَسقٌ نهى الله عنه وحرَّمه ﴿فمن اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ﴾ فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيءٍ مما ذُكر، غير باغٍ في أكله تلذذاً، ولا متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿فإن رَبَّكَ غفور رحيمٌ﴾ غفورٌ لذنوب العباد، رحيم بهم حيث أباح لهم أكل المحرمات عند الضرورة ﴿وَعَلَى الَّذينَ هَادُوا حَرَّمنا كُلَّ ذِي ظُفُر﴾ وحرمنا على اليهود كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل، والنعام، والبطِّ ﴿ومن البَقَر والغَنَم حَرَّمْنَا عليهمْ شُحُومَهُمَا﴾ وحرمنا عليهم أيضاً شحوم البقر والغنم ﴿إلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أوِ الحَوَايَا﴾ إلاّ الذي حملته الأمعاء من الشحم فإنه غير محرم ﴿أوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وإلا ما اختلط بعظم، كشحم الألية والجنب، فإنه أيضاً لهم حلال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ ذلك التحريم عليهم، بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق، من قتل الأنبياء، واستحلال أموال الناس بالباطل ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في خبرنا هذا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، فهم مقتدون به ﴿إن كَذَّبُوكَ فَقُلْ ربُكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود، فقل إن رحمة الله تسع جميع خلقه، ولا يعاجل من كفر به بالعقوبة ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرمينَ﴾ ولا يُردُّ سطوته وعذابُه عن الذين أجرموا باكتساب السيئات

﴿سَيقولُ الَّذينَ أَشْرَكُوا لَوْشَاءَ اللهُماأَشْرَكْنَا ولا آباؤُنا ولا حرمنا من شيءٍ﴾ سيقول المشركون: لو أراد الله منا الإيمان لآمنا، وما جعلنا له شريكاً، ولأفردناه بالعبادة دون الأوثان، ولا حرَّمنا هذه الأشياء، ولكنه رضي منا ذلك. قال الله مكذباً لهم: ﴿كَذَلِكَ كذَّب الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّب هؤلاء المشركون بما جئتهم به من الحق والبيان، كذلك كذَّب أسلافهم من قبلهم ﴿حتى ذاقوا بَأْسَنا﴾ حتى

ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ * قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟

***

أحللنا بهم عذابنا ونقمتنا ﴿قُلْ هَلْ عندكم مِنْ عِلْمٍ فتخرجوه لنا﴾ قل لهم هل لديكم حجة، توجب لنا اليقين من العلم فتظهروها لنا؟ ﴿إنْ تَتَّبعونَ إلا الظنَّ وإنْ أنتم إلا تَخرُصُونَ﴾ ما تتَّبعون إلا ظناً وحسباناً، وما أنتم إلَّا تفترون الباطل على الله، بغير يقين ولا برهان ﴿قل فللَّهِ الحجةُ البالغة﴾ له جل وعلا الحجة التامة على عباده، التي تقطع عذر المحجوج ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو شاء لوفقكم للإيمان أجمعين ﴿قل هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المفترين: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا الذي تزعمونه محرماً عليكم ﴿فإن شَهِدُوا فلا تشهد معهم﴾ فإن جاءوا بالشهداء فلا تصدِّقهم فإنهم كذبة وشهود زور ﴿ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ كَذَّبوا بآياتِنَا﴾ ولا تتابعهم على أهوائهم في التحليل والتحريم ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ والذين لا يصدقون بالبعث ﴿وهم بربهم يَعْدِلون﴾ وهم مع تكذيبهم بالبعث، يعبدون الأوثان والأصنام ويُشركونها مع الله، فيجعلونها له نِدّاً.

﴿قل تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّمَ ربكم عليكم﴾ قل لهؤلاء المشركين: تعالَوْا أقرأ ما حرَّم ربكم عليكم حقاً ويقيناً ﴿ألَّا تُشْركوا به شيئاً﴾ ألّا تشركوا به أحداً من خلقه، ولا تعبدوا شيئاً سواه ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وأوصى بالوالدين إحساناً ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيَّاهم﴾ ولا تقتلوا أولادكم بالوأد خشية الفقر، فإن الله رازقكم وإيَّاهم ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ﴾ ولا تقربوا الأمور المحرَّمة علانيتها وسرَّها[1] ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما أباح الله لكم، كالقصاص، والردَّة عن الدين، ورجم المحصن ﴿ذلكم وصَّاكم بِهِ لعلكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلكم المذكور هو الذي وصَّاكم به ربكم من الأمور لتعقلوا وتتدبَّروا ﴿ولا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إلاَّ بالَّتي هِيَ أَحْسنُ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره ﴿حتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ قوة شبابه

(١) قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسا في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّم الله الزنى في السرِّ والعلانية. اهـ أقول: الآية على العموم في كل منكر وفاحشة، فإن الله حرَّم الفواحش كلها ما ظهر منها وما خفي، والمعاصي كلها يجب اجتنابها

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

***

بالاحتلام، ويصل إلى حدّ الرجال ﴿وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ﴾ وأوفوا الكيل والميزان بالعدل، ولا تبخسوا الناس حقوقهم ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ لا نكلف نفساً إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذا قُرْبَى﴾ وإذا حكمتم بين الناس فقولوا الحق، واعدلوا ولا تجوروا، ولو كان المحكوم عليه ذا قرابة لكم ﴿وبعهد اللهِ أوفوا﴾ وأوفوا بوصية الله وأوامره التي أمركم بها ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكَّرون﴾ هذه الأمور هي التي وصاكم بها الله لتتذكروا وتتعظوا، وتُنيبـوا إلى طاعة ربكم ﴿وأنَّ هذا صِرَاطي مستقيماً فاتَّبعوه﴾ وأن هذا الذي وصيتكم به، ديني قويماً لا اعوجاج فيه، فاعملوا به واجعلوه منهاجاً لكم ﴿ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيلِهِ﴾ ولا تسلكوا طرق الضلالة[1] كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، فتميل بكم عن طريقه ودينه الذي ارتضاه لكم وهو الإسلام ﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ذلكم وصاكم به ربكم، لتحذروا سخطه وعذابه. وبعد أن قصَّ ما حرم عليهم وأحل، ذكر ما أعطاه لنبيه موسى عليه السلام فقال ﴿ثم آتينا موسى الكتابَ﴾ أعطيناه التوراة ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذي أَحْسنَ﴾ تمـامـاً لِنِعَمِنَـا عنـده على إحسـانـه في الـدنيـا، وقيـامـه بمـا كلَّفـه ربه به من شرائع دينه ﴿وتفصيلاً لكل شيءٍ﴾ وبياناً لكل شيء من أمر الدين﴿وهُدَىً وَرَحْمَةً﴾ وهداية لهم إلى سبيل الرشاد، ورحمة منا بهم لننجيهم من الضلالة ﴿لَعَلَّهُمْ بلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ليصدِّق بنو إسرائيل بلقاء ربهم، فيرتدعوا عن الكفر، ويُصدِّقوا بما جاءهم به موسى عليه السلام ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ كتابٌ مباركٌ ﴿فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فاجعلوه إماماً لكم، واحذروا أن تضيّعوا العمل به وتستحلوا محارمه، لكي ترحموا فتنجوا من عذاب الله وأليم عقابه ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ لئلا تقولوا يا معشر المشركين لم ينزل علينا كتابٌ فنتَّبعه، ولا رسول يأمرنا ويرشدنا، وإنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ﴿وإنْ كنا عن

---

(١) عن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال: هذا سبيلُ الله، ثم خطَّ عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله خطوطاً فقال هذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتَّبِعُوا السبُل فتفرَّق بكم عن سبيله. .﴾

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا
مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

***

دراستهم لغافلين﴾ وقد كنا عن قراءة الطائفتين غافلين، لا ندري ما يقرأون وما يقولون، لأنه ليس بلساننا، فقطع الله بإنزاله القرآن حجتهم **﴿أَوْ تَقُولُوا لو أَنَّا أُنزلَ علينا الكتابُ لكُنَّا أَهْدَى منهم﴾** ولئلا تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنَّا أشدَّ استقامة على الحق، وتمسكاً بالكتاب **﴿فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من ربكُمْ وَهُدَى ورحْمَةٌ﴾** فقد جاءكم حجةٌ واضحة من ربكم، وبيانٌ للحق، ورحمة لمن عمل به واتَّبعه **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بآيات الله وصدَفَ عنها﴾** فمن أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن كذَّب بحجج الله وأدلته، وأعرض عنهافلم يؤمن بها، ولم يُصدِّق بحقيقتها؟ **﴿سنجزي الذين يَصْدِفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾** سنثيب الذين يعرضون عن آيات الله شديد العقاب، جزاء إعراضهم في الدنيا **﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكةُ﴾** هل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن **تأتيهم** الملائكة لقبض أرواحهم **﴿أو يأتي ربك أو يأتي بعضُ آياتِ ربكَ﴾** أو يأتي ربك في موقف القيامة، أو تأتي بعض أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها[1] **﴿يومَ يأْتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً﴾** لا ينفعها الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها، لعظيم الهول الوارد عليهم، فقد عاينوا من أهوال ذلك اليوم، ما يرتفع معه الحاجة إلى الفكر والاعتبار، فلا ينفع من كان بالله مشركاً، ولفرائض الله مضيّعاً إيمانُه، لتفريطه الذي سلف منه **﴿قُل انتظِرُوا إنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾** انتظروا ما يحيق بكم من عذاب الله وأليم نكاله، إنا منتظرو ذلك **﴿إنَّ الَّذينَ فرَّقُوا دينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لست منهم في شيءٍ﴾** إن الذين اختلفوا في الدين، وتفرَّقوا فيه فأصبحوا فِرَقاً وأحزاباً ـ وهم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة ـ أنت يا محمد بريءٌ منهم، وكل من فارق دينك الحق من مشرك، ووثني، ويهودي، ونصراني، ومرتد، لست منهم ولا هم منك **﴿إنَّما أَمْرُهُمْ إلى الله﴾** إنما أمر عقابهم وجزائهم إلى ربهم **﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾** ثم يخبرهم في الآخرة بأعمالهم، ويجازيهم عليها،

(١) في الحديث الصحيح: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناسُ آمنَ مَنْ عليها، فذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ رواه البخاري.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى
رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى
وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى
رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

***

المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** من وافى ربه يوم القيامة بحسنةٍ، فله ثواب عشر حسناتٍ أمثال حسنته **﴿وَمَنْ جَاءَ بالسيِّئةِ فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا﴾** ومن جاء بسيئةٍ واحدة فلا يجازى إلا مثلها من غير زيادة **﴿وهم لا يُظلمون﴾** ولا يظلمُ الله الفريقين: المحسنين والمسيئين شيئاً من أعمالهم، لأنه حكيم لا يجازي أحداً إلا بما يستحقُّ **﴿قُلْ إنَّنِي هَدَاني ربِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾** قل يا محمد: إن ربي أرشدني إلى طريق قويم، هو الإسلام دين الحنيفية المسلمة **﴿ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيم حَنيفاً﴾** ديناً مستقيماً ملّة إبراهيم خليل الرحمن، المائل عن الشرك والأوثان **﴿وَمَا كَانَ مِنَ المشركينَ﴾** وما كان إبراهيم مشركاً يعبد الأصنام، ولكنه كان مسلماً لله **﴿قُلْ إنَّ صَلاَتي وَنُسُكي ومَحْيَايَ وَمَمَاتي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قل يا محمد: إن صلاتي وذبحي، وحياتي ووفاتي، كل ذلك لله جل وعلا، خالصاً له، دون ما أشركتم به من الأوثان **﴿لا شريكَ لَهُ وَبذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمينَ﴾** ليس له مشارك من خلقه، وبذلك أمرني ربي، وأنا أول من أقرَّ وأذعن وخضع **﴿قل أَغير اللهِ أبغي رباً﴾** أأطلب غير الله رباً وسيّداً يسودني؟ **﴿وهـو رَبُّ كل شيءٍ﴾** وهو سيّد كل شيء ومدبّره ومصلحه **﴿ولا تكسب كلُّ نفس إلاَّ عليها﴾** كل مجترح إثماً، فإنه معاقبٌ بإثمه ومؤاخذ بذنبه **﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾** ولا تحمل نفس إثم نفسٍ أخرى، ولكنها تعاقب بإثمها دون إثم غيرها **﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** ثم مصيركم ومنقلبكم أيها الناس إلى ربكم، فيخبركم بما اختلفتم به في الدنيا من الملل والأديان! ويجازيكم على أعمالكم **﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾** والله جلَّ وعلا أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية، واستخلفكم في الأرض، تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم **﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾** وخالف بين أحوالكم، فبسط لهذا في الرزق وقتَّر على هذا **﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾** ليختبركم فيما منحكم من رزقه، فيعلم المطيع من العاصي **﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** سريع العقاب للمجرمين، غفور رحيمٌ للمؤمنين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

(٧) سورة الأعراف مكية
وآياتها ست ومائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

***

﴿الٓمٓصٓ﴾ هي حروف هجاء مقطعة، وقال ابن عباس: معناه أنا اللهُ أفصل[1] **﴿كتابٌ أُنزِلَ إليكَ﴾** هذا كتابٌ أنزله الله إليك يا محمد **﴿فلا يكنْ في صدركَ حَرَجٌ منْهُ﴾** فلا يضقْ صدركَ عن تبليغه للناس. **﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾** لتنذر بهذا الكتاب المشركين، وتذكّر به المؤمنين **﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربكم﴾** اتَّبعوا أيها الناسُ ما جاءكم من عند ربكم من البيِّنات والهدى **﴿ولا تتَّبعوا من دونه أولياءَ﴾** ولا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم **﴿قليلاً ما تَذَكَّرون﴾** قليلاً ما تتَّعظون وتعتبرون **﴿وكم من قريةٍ أهلكناها﴾** وكثيراً ما أهلكت من أهل القرى الذين عصوا أمر ربهم وكذبوا رسله **﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أو هم قائلون﴾** فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلاً أو نهاراً وقت القيلولة **﴿فما كانَ دعواهم إذ جاءهم بأسنا﴾** فلم يكن دعاء أهل القرية حين جاءهم عذابنا وسطوتنا **﴿إلاَّ أنْ قَالُوا إنَّا كنا ظالمينَ﴾** إلاَّ اعترافهم بأنهم كانوا مسيئين لأنفسهم، مخالفين أمر ربهم **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذين أُرْسِلَ إليهِمْ﴾** فلنسأَلنَّ الأمم مـاذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل **﴿ولنسأَلَنَّ المرسلين﴾** ولنسأَلنَّ الرسل هل بلَّغوهم رسالاتي **﴿فلنقصَّنَّ عليهمْ بِعِلْمٍ وما كنَّا غائبينَ﴾** فلنخبرنَّهم بما عملوا في الدنيا عن علم ويقين،

(١) الراجح من الأقوال في الحروف المقطعة، أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وانظر أقوال المفسرين في أول سورة البقرة.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ
السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾
قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن

***

وما كنا غائبين عن أفعالهم. وسؤال الأمم سؤال توبيخ وتقريع، لا سؤال استفهام **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾** والوزن يوم القيامة كائن بالحق والعدل **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هم المفلحونَ﴾** فمن ثقلت موازين أعماله الصالحة، فأولئك هم الفائزون بجنات الخلد والنعيم **﴿وَمَنْ خَفَّتْ موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾** ومن خفَّت موازين أعماله الصالحة، فأولـئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها، من ثواب الله وكرامته، بجحودهم باللّهِ وأدلته.

﴿ولقد مكَّنَّاكم في الأرضِ﴾ ولقد جعلنا الأرض لكم أيها الناس قراراً تستقرون فيها، ومهاداً تمتهدونها **﴿وجعلنا لكم فيها معايشَ﴾** وجعلنا لكم فيها مطاعم ومشارب تعيشون بها **﴿قليلاً ما تشكرونَ﴾** قليلاً شكركم على نعم ربكم **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾** خلقنا أباكم آدم أيها الناس، ثم صورناكم بتصويرنا آدم **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فَسَجَدُوا إلَّا إبليس لم يكُنْ من السَّاجِدينَ﴾** فسجد الملائكة إلا إبليس لم يكن من الساجدين لآدم **﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتُكَ﴾** أيُّ شيءٍ منعك أن تدع السجود لآدم حين أمرتك؟ **﴿قَالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ﴾** قال إبليس: أنا أفضل من آدم **﴿خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾** لأنني مخلوقٌ من نار، وهو مخلوقٌ من طين، وجوهرُ النار أفضلُ من جوهر الطين[1] **﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾** قال الله لإبليس: اهبط من الجنة، فإنه لا يسكنُ الجنة متكبرٌ عن أمر الله. **﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾** فاخرج منها ذليلاً مهاناً. **﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** أخّرني وأجّلني إلى يوم يُبعث الخلقُ **﴿قال إنَّك مِنَ**

---

(١) جهل عدوُّ الله ـ لشقاوته وخسرانه ـ وجه الصواب وأخطأ القياس، فظنَّ أنَّ النار أفضل من الطين، لأن النار لطيفة والطين كثيف، وما درى الأحمق أن الفضل ليس بالعنصر والجوهر، وإنما هو بالطاعة والانقياد ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ثم إن جوهر النار فيه الخفة والطيش والاضطراب، وجوهر الطين فيه الأناة والحلمُ والرزانة، فقد أخطأ إبليس أيضاً في القياس، ويا له من شقيٍّ غبي!!

بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا
مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا
مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ
إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

***

المُنْظَرِينَ﴾ إنك من المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم يُنفخ في الصُور. سأل ربه أن يمهله إلى يوم يُبعث فيه الخلق، ولو أُعطي ذلك لأُعطي خلوداً وبقاءً لا فناء معه، لأنه لا موت بعد البعث، فأخبره تعالى كما في الآية الأخرى «إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» وذلك إلى اليوم الذي كتب عليه فيه الهلاك والموت، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير ربنا الحي الذي لا يموت **﴿قال فبما أغويتني لأقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ المستقيم﴾** قال إبليس: فبسبب ما أضللتني، لأصدَّنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأضلنَّهم كما أضللتني، والمراد بالصراط المستقيم: دينُ اللهِ الحق وهو الإسلامُ وشرائعُه **﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾** ثم لآتينهم من جميع وجوه الحقّ والباطل، فأصدَّهم عن الحقّ، وأحسِّن لهم الباطل **﴿ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾** ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لنعمتك، ولا مطيعين لأمرك. **﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾** قال الله لإبليس: اخرج من الجنة معيباً، مطروداً من رحمتي **﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمعينَ﴾** وأُقسمُ أَنَّ من أطاعك من بني آدم، أن أملأ جهنم من أتباعك الكفار، ومن ذريتك الجن أجمعين **﴿ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُكَ الجنَّةَ﴾** وقال الله لآدم: اسكنْ في الجنة أنتَ وزوجتك حواء **﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾** كُلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما منها **﴿ولا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فتكونا من الظَّالمينَ﴾** ولا تأكلا من ثمرشجرةٍ معينة، فتكونا ممن خَالَف أمر الله **﴿فوسوس لهما الشيطانُ﴾** فوسوس إليهما الشيطان بطريق الخديعة والمكر. **﴿لِيُبْدِيَ لهما ما وُوريَ عنهما من سوآتِهما﴾** ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس، ويُظهر لهما عوراتهما. **﴿وقالَ ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدينَ﴾** وقال الشيطان لآدم وحواء: مَا نهاكما ربكما أن تأكلا من ثمر هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكَيْن، أو تكونا من الماكثين في الجنة أبداً فلا تموتا **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لكُمَا لَمِنَ النَّاصِحينَ﴾** وحلف لهما بالله إني لناصحٌ لكما في مشورتي. **﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾** فخدعهما بزخرفٍ من القول باطل وغرَّهما. **﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهما سَوْآتُهُمَا﴾** فلمَّا طَعِمَا من ثمر الشجرة، انكشفت لهما عوراتهما. **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَان عَلَيْهِمَا مِنْ**

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ
أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ

***

﴿وَرَقِ الجنَّةِ﴾ وجعلا يأخذان من ورق الجنة ليسترا عوراتهما[1] ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشيطَانَ لكما عدوٌّ مبينٌ﴾ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن أكل ثمر الشجرة، وأعلمكما أنَّ الشيطان لكما عدوٌّ ظاهر العداوة ﴿قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال آدم وحواء: يا ربنا ظلمنا أنفسنا بمعصيتنا أمرك. ﴿وإنْ لم تغفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لنكوننَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإن لم تستر ذنْبنا، وتتداركنا برحمتك، لنكونن من الهالكين. ﴿قال اهبطوا بعضُكم لبعض عدوٌّ﴾ قال تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم أعداءٌ لبعض ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مستقرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾ ولكم في الأرض قرار تستقرون فيه على ظهرها، واستمتاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا ﴿قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قال في الأرض حياتكم، وفي الأرض وفاتكم، ومن الأرض يخرجكم ربكم للبعث والجزاء. ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يا أبناء آدم قد رزقناكم ما تلبسونه من الثياب، التي تستر عوراتكم عن الناس ﴿وريشاً﴾ ورزقناكم مالاً مع رفاهة العيش[2] ﴿ولباسُ التَّقْوى ذلكَ خيرٌ﴾ واستشعارُ النفوس تقوى الله، بالانتهاء عن محارمه، والعمل بطاعته، خيرٌ لكم من لباس الثياب التي تَسْتر عوراتكم[3] ﴿ذلكَ من آياتِ اللهِ﴾ ذلك اللباسُ والرياش من حجج الله وأدلته. ﴿لعلَّهم يَذَّكَّرونَ﴾ ليعتبروا وينيبوا إلى الحق وترك الباطل ﴿يا بني آدمَ لا يفتننكم الشيطانُ﴾ لا يخدعنكم الشيطان ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةَ﴾ كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما بخداعه ومكره من الجنة. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُما لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ ونزع عنهما ما ألبسهما الله

---

(١) قال ابن كثير في رواية وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما

(٢) قال ابن جرير: «الريشُ» المتاعُ والأموال، وربما استعملوه في الثياب والكسوة وذهب ابن كثير إلى أن الريش هو ثياب الزينة، فالثياب لستر العورات، والريش للزينة والجمال، والأول من الضروريات والثاني من الكماليات، ولعل هذا القول أرجح.

(٣) قال الشاعر:

وخيرُ ثياب المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟
وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ
رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾
* يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

***

من اللباس، ليكشف عورتهما ويظهرها لأعينهما[1] ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**﴾ إن الشيطان يراكم هو وجماعته من حيث لا ترونهم أنتم ﴿**إِنَّا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذينَ لا يُؤمنون**﴾ جعلنا الشياطين نصراء للكافرين، الذين لا يوحّدون الله ولا يُصدّقون رسله. ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**﴾ وإذا فعل هؤلاء الكافرون قبيحاً، كتعرّيهم للطواف بالبيت، وتجردهم من الثياب، فعوتبوا ﴿**قالوا وجدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا واللهُ أَمَرَنَا بها**﴾ قالوا: نحن نقتدي بهدي آبائنا ونستنُّ بسنّتهم، والله أمرنا بذلك. ﴿**قل إنَّ اللهَ لا يأمر بالفحشاء**﴾ قل لهم يا محمد: إن الله لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساويها[2] ﴿**أَتَقُولونَ على الله ما لا تَعْلَمون**﴾ أتفترون على الله أنه أمركم بالتعري من الثياب، وأنتم لا تعلمون ذلك؟ ﴿**قُلْ أَمَرَ ربِّي بالقِسْطِ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين: أمر ربي بالعدل والاستقامة. ﴿**وَأَقِيمُوا وجوهَكُمْ عِنْدَ كل مَسْجِدٍ**﴾ توجهوا بصلاتكم إلى الله، لا إلى الأوثان والأصنام. ﴿**وادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ واعملوا لربكم مخلصين له العبادة والطاعة. ﴿**كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُونَ**﴾ كما خلقكم من العدم، يعيدكم بعد الفناء، ويحشركم يوم القيامة. ﴿**فَريقاً هَدَى وفريقاً حَقَّ عليهِمُ الضَّلالَةُ**﴾ هدى الله منكم فريقاً فوفقهم لصالح الأعمال، ووجب على فريق منهم الضلالة ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلياءَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله ﴿**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ ويظنون أنهم على هدى وصواب. ﴿**يا بني آدَمَ خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ**﴾ تزينوا بالكساء واللباس عند الطواف[3] ﴿**وكلوا واشربوا ولا تُسْرفوا**﴾ وكلوا من طيباتِ ما

---

(١) هذا هو غرض إبليس اللعين «كشفُ السوآت»و «هتكُ العورات»، وهو ما يروّج له تلامذة إبليس في زماننا، حيث يدعون المرأة الى التعري والتكشف والاختلاط، والخروج على الأداب الإسلامية، باسم «الحضارة والمدنية» والهدفُ معروفٌ من وراء كشف الجلباب ونزع الحجاب، وهو «إفسادُ المجتمع» بإثارة الشهوات الجنسية وهتك الأعراض، وويلٌ للمجرمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون!! ويلٌ لهم من عذاب يوم عظيم!!

(٢) كان أهل الجاهلية إذا أرادوا الطواف بالبيت، تجردوا من الثياب، يقولون: لا نطوفُ في ثيابٍ عصينا فيها الله، فنزلت الآية ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ قال ابن عباس: الفاحشةُ طوافهم بالبيت عراةً، الرجال بالنهار، والنساءُ بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... فما بدا منه فلا أُحلّه

فقال الله: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي عند كل طواف، وهذا على رأي الإمام الطبري

(٣) وقيل: المراد بالمسجد الصلاة أو المسجد نفسه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

***

رزقتكم ،واشربوا من حلال الأشربة، ولا تُسْرفوا في التحريم[١]، فتحرّموا ما أحلّ الله لكم. **﴿إنَّهُ لا يُحبُّ المسرفينَ﴾** إن الله لا يحب المتعدين حدوده في الحلال والحرام. **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينة اللهِ التي أخْرَجَ لِعبَادِهِ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين يحرّمون ما أحل الله لهم: من حَرَّم عليكم زينة الله أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله في المطاعم والمشارب؟ **﴿قل هي للذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾** قل لهم: هذه الزينة هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، **قال الضحاك**: المشركون يشاركون المؤمنين في الدنيا، في اللباس، والطعام، والشراب، ويوم القيامة يخلص خير الآخرة للمؤمنين، وليس للمشركين من ذلك نصيب. **﴿كذلكَ نفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمونَ﴾** كما بينتُ لكم الأحكام في الحلال والحرام، كذلك أبيّن جميع أدلتي وحججي، لقوم يفقهون ما يُميِّز لهم. **﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحِشَ ما ظهر منها وما بطنَ﴾** قل لهم: إنما حرَّم ربي القبائح من الأشياء، ما كان منها علانيةً، وما كان منها سرّاً في خفاء. **﴿والإثْمَ وَالْبَغْيَ بغَيْر الحقِّ﴾** وحرَّم المعاصي والاستطالة على الناس بالبغي والعدوان. **﴿وأنْ تُشْركُوا باللهِ مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾** وحرَّم عليكم أن تعبدوا مع الله إلّهاً غيره، بدون حجة أو برهان **﴿وَأنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** وأن تفتروا على الله، فتضيفوا إليه ما لم يُحرِّمه.

﴿وَلِكُلِّ أمةٍ أَجَلٌ﴾ ولكل جماعة من المكذبين لرسل الله، وقتٌ لحلول العقوبات بهم. **﴿فإذَا جَاءَ أجلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدمون﴾** فإذا جاء وقتُ هلاكهم، لا يتأخرون ساعةً من الزمان، ولا يتقدمون على الوقت المحدّد لهلاكهم[٢]. **﴿يا بني آدمَ إمَّا يأتينَّكُمْ رسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي﴾** يا

---

(١) وقيل: المرادُ الإسراف في الطعام والشراب،ويؤيده ما ورد «ما لم يكن سرفٌ أو مخيلة» أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال، وهذا المعنى أظهر.

(٢) هذا كقوله تعالى ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

***

أبناء آدم إنْ يجئكم رسلي الذين أرسلتهم إليكم، يتلون عليكم آيات كتابي ويدعونكم إلى توحيدي(١) **﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** فمن آمن منكم، وخاف الله واتقاه، وأصلح أعماله، فلا خوفٌ عليهم يوم القيامة من عقاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا **﴿والذينَ كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾** وأما من كذب بآيات الله، وجحد وكفر بما جاءت به الرسل، واستكبر عن الإيمان بها **﴿أولئكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾** فهم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبداً. **﴿فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾** فَمَنْ أسفه وأجهل ممن اختلق على الله زوراً؟ **﴿أو كذَّبَ بآياتِهِ﴾** أو كذَّب بأدلة الوحدانية والنبوة فجحدها؟ **﴿أولئك ينالُهُمْ نصيبُهُم منَ الكتاب﴾** أولئك المجرمون ينالهم ما قُضي لهم في الدنيا، من خير وشر، ورزقٍ وعملٍ وأجل(٢). **﴿حَتَّى إذا جاءَتْهُم رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾** حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم. **﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾** قالت لهم الملائكة: أين الذين دعوتموهم وعبدتموهم من دون الله؟ هلاَّ يغيثونكم وينقذونكم من عذاب الله؟ فأجابهم الأشقياء، **﴿قالوا ضَلُّوا عنا﴾** قالوا: غابوا وذهبوا عنا، وتركونا فلم ينفعونا عند حاجتنا إليهم **﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾** وشهد القوم واعترفوا أنهم كانوا جاحدين بوحدانية ربهم. **﴿قالَ ادخلوا في أمم قد خلَتْ من قبلكم من الجنِّ والإنس في النَّار﴾** قال الله لهم حين وردوا عليه يوم القيامة: ادخلوا في نار جهنم مع جماعات أمثالكم، من الأمم السالفة الكافرة. **﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها﴾** كلما دخلت جماعةٌ النار، شتمت الجماعة الأخرى، من أهل ملتها ودينها. **﴿حتَّى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً﴾** حتى إذا اجتمعوا في النار كلهم **﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلُّونا﴾** قال آخرهم دخولاً النار، لمن

---

(١) هذه الآية تعريفٌ من الله جل وعلا لخلقه، بما أعده لحزبه وأوليائه المتقين، وما أعده لحزب الشيطان وأوليائه الكافرين

(٢) هذا ما اختاره الطبري وهو الراجح الذي يدل عليه سياق الآية، أنهم ينالهم ما كُتب لهم في الدنيا من سعادةٍ وشقاوة، ورزقٍ وعملٍ الخ. وقيل: ينالهم نصيبهم من العذاب، ولا يوافقه السياق لأن الله تعالى قال بعدها ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ فأخبر أن ذلك محدود إلى وقت مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، وعذاب الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، والله أعلم.

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

* * *

تقدمهم من أئمة الكفر والضلالة: يا ربنا هؤلاء الذين أضلونا عن سبيلك، وزيَّنوا لنا طاعة الشيطان. **﴿فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً من النَّار﴾** فضاعفْ لهم العذاب في نار جهنم. **﴿قال لكلٍ ضعفٌ ولكنْ لا تعلمونَ﴾** قال: العذابُ مضاعفٌ لكلكم، ولكنكم يا معشر أهل النار لا تعلمون قدر هذا العذاب، ولذلك تسألون مضاعفته **﴿وَقَالَتْ أُوْلَاهُمْ لأُخرَاهُمْ فَمَا كَانَ لكم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** وقال المتبوعون للأتباع الذين سلكوا سبيلهم واستنُّوا بسُنَّتهم: لقد علمتم ما حلَّ بنا من عقوبة الله بكفرنا بآياته، فهل أنبتم إلى طاعة الله وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم[1]؟ **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبونَ﴾** فذوقوا[2] أيها الكفرة عذاب جهنم، بما اكتسبتم من المعاصي والآثام **﴿إنَّ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا واستكبروا عنها﴾** كذبوا بحججنا وأدلتنا ولم يُصدّقوا بها، وتكبَّروا عن اتباعها والانقياد لها. **﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبْوابُ السَّماءِ﴾** لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم أبواب السماء، ولا يُرفع لهم منها عملٌ صالحٌ ولا دعاء. **﴿ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سم الخِيَاطِ﴾** ولا يدخل هؤلاء الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين، حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة[3] **﴿وَكَذَلِكَ نجْزي الْمُجْرمينَ﴾** وكذلك نكافىء المجرمين في الآخرة. **﴿لهمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْغَوَاشٍ﴾**لهؤلاءالمكذبينبآيات الله فُرشٌ من تحتهم في نار جهنم، ومن فوقهم لُحُفٌ من النار تتغشاهم وهم بين ذلك. **﴿وكذلكَ نجزي الظالمين﴾** وكذلك نكافىء من ظلم نفسه، بكفره بربه وتكذيبه لأنبيائه. **﴿والذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحات﴾** والذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم به ربهم فأطاعوه، وتجنبوا ما نهاهم عنه **﴿لا نُكَلِّفُ نفساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾** لا نكلّف أحداً إلاَّ بقدر وسعه دون حرج[4]

---

(١) قال السُّدي: «فما كان لكم علينا من فضل» فقد ضللتم كما ضللنا.

(٢) هذا من قول الله لأهل جهنم.

(٣) هذا من باب التمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة، كما يستحيل دخول «البعير» من ثقب الإبرة، فكما يستحيل هذا كذلك يستحيل دخولهم الجنة، وقيل المراد بالجمل: الحبلُ الغليظ، والأول أليق بالمعنى المقصود والله أعلم.

(٤) كل التكاليف الشرعية في وسع الإنسان وطاقته، فلا حجة لمقصّر ولا عذر لمتخلف. وهل هناك مشقة على من قصد المسجد، فتوضأ وصلَّى، وابتهل إلى ربه منيباً ضارعاً طالباً لمرضاته. أتراه خسر من ماله وصحته شيئاً؟ مثل من قصد حانة الخمر فأضاع ماله وشبابه، وخسر صحته وحياته؟ أي الطريقين أيسر وأرخص وأهدى سبيلاً، طريق الجنة أم طريق النار؟ وقد قامت الحجة على العباد بقوله تعالى **﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾**

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ﴾

* *

﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدونَ﴾ هؤلاء هم أهل الجنة، ماكثون فيها أبداً لا يُخرجون منها ولا يُسْلبون نعيمها. ﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أذهبنا ما في صدور أهل الجنة من حقد وعداوة ﴿تجري من تحتهم الأنهارُ﴾ تجري من تحتهم أنهار الجنة. ﴿وقالوا الحمدُ لله الذي هَدَانا لهذا﴾ وقالوا حين رأوا كرامة الله لهم: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الصالح، الذي دخلنا بسببه الجنة، وصرف عنا عذاب النار. ﴿وما كنا لنهتدي لولا أَنْ هَدَانا اللهُ﴾ وما كنا نهتدي إلى نعيم الجنة لولا أن أرشدنا الله له، ووفقنا إليه بمنّه وفضله ﴿لقد جاءتْ رسلُ ربنا بالحقِّ﴾ والله لقد أتتنا الرسلُ في الدنيا بالحقِّ من الأخبار. ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُموهَا بِمَا كنتم تَعْملونَ﴾ وتناديهم الملائكة هذه الجنة التي أورثكم الله إيّاها، بطاعتكم ربكم وتصديقكم رسله ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّة أَصْحَاب النَّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً﴾ ونادى أهلُ الجنة أهل النار فقالوا: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا من النعيم والكرامة حقاً. ﴿فَهَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقاً﴾ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقاً؟ ﴿قالوا نعم﴾ فأجابهم أهل النار: نعم لقد وجدنا ذلك ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّن بينهم أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فنادى منادٍ بين أهل الجنة والنار، أنَّ غضب الله وسخطه على من كفر به. ثم فصَّلهم بقوله: ﴿الذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ اللهِ﴾ الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الله. ﴿وَيَبْغونَهَا عِوجاً﴾ ويطلبون أن يغيّروا الدين ويبدّلوه عن استقامته ﴿وهم بالآخرة كافرونَ﴾ وهم بلقاء الله وثوابه وعقابه جاحدون ﴿وَبَيْنَهُمَا حجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حاجزٌ وسور[1] ﴿وعَلَى الأَعْرَاف رجَالٌ يَعْرفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلى السور رجالٌ[2] يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمتم من عقاب الله وأليم

---

(١) هذا السور هو المذكور في قوله تعالى﴿فضُربَ بينهم بسورٍ له باب باطنُه فيه الرحمةُ وظاهره من قِبَلِه العذابُ﴾وهو المسمَّى بـ «الأعراف» لأنه مرتفع عن الأرض كعرف الديك..

(٢) قيل إن هؤلاء الرجال من الملائكة، والصحيح كما رجح الطبري أنهم من البشر، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا على السور حتى يقضي الله فيهم.

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ
هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

* * *

عذابه. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ لم يدخلوا الجنة بعدُ، وهم يطمعون في دخولها. ﴿وإذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وإذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم. ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ لا تجعلنا مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا دخول النار. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ ونادى أهل الأعراف رجالاً من أهل النار، يعرفونهم بعلامتهم. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عنكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قالوا: ماذا نفعكم ما كنتم تجمعونه من الأموال في الدنيا؟ وتكبركم الذي كنتم تتكبرون فيها؟ ﴿أهؤلاء الذينَ أقسمتم لا ينالُهم اللهُ برحمةٍ﴾ أهؤلاء الضعفاءُ الذين كنتم في الدنيا تحلفون أن الله لن يكرمهم؟ قد غفرتُ لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي. ﴿أُدْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عليكُمْ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ادخلوا يا عبادي المؤمنين الجنة، لا خوف عليكم من العقاب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم في الدنيا. ﴿ونَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ﴾ ينادونهم من شدة العطش والجوع: اسكبوا علينا من الماء، أو أطعمونا من الطعام الذي رزقكم الله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾ أجابهم[1] أهل الجنة إن الله حرَّم الماء والطعام على الجاحدين لوحدانيته. ﴿ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ﴾ هم الذين كفروا بالله، واتخذوا دينهم سخرية ولعباً ، قال ابن عباس كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سخروا ممَّن دعاهم إليه وهزءوا به. ﴿ وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وخدعتهم زينة الدنيا وزخرفها ، عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة. ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ ففي هذا اليوم - يوم القيامة - نتركهم في العذاب جياعاً عطاشاً ، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ وكما كانوا

(١) روي أن أهل النار، ينادي الرجل منهم أخاه وأباه فيقول: قد احترقتُ؛ فأفضْ عليَّ من الماء! فيجيبهم أهل الجنة﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً

* * *

يكذّبون في الدنيا بآيات الله ورسله. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وأقسمُ لقد جئنا هؤلاء الكفرة، بهذا القرآن المبين مفصَّلاً فيه الحقُّ من الباطل، على علمٍ منَّا بما فُصِّل فيه. ﴿هدى ورحمةً للمؤمنينَ﴾ لينقذ من الضلالة إلى الهدى، ويرحم به قوماً يصدِّقون به. ﴿هل يَنْظُرون إلاّ تأويلَهُ﴾ هل ينتظر هؤلاء المشركون، ، إلا ما يئول إليه أمرهم، من ورودهم على العذاب، وصليّهم جحيمه؟ ﴿يوم يأتي تأويلُهُ﴾ يومَ يجيء عقابُ الله ﴿يَقُولُ الَّذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول الذين تركوا العمل به في الدنيا ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ لقد أتتنا الرسلُ بالإنذار، وبلغتنا رسالة ربنا ونصحتنا. ﴿فهَلْ لنا من شُفَعَاءَ فيشفعوا لنا﴾ هل لنا اليوم من أصدقاء، فيشفعوا لنا عند ربنا؟ ﴿أو نُرَدُّ فنعملَ غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو نُرَدُّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل بما يرضي الله؟ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أنفسهم﴾ ببيعهم نعيم الآخرة الدائم، بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ﴿وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وغاب عنهم آلهتهم الذين عبدوهم من دون الله، وزعموا كذباً أنهم أرباب ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرض في سِتَّةِ أيَّامٍ﴾ إن ربكم ـ أيها الناسُ ـ الخالقُ المبدع، الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ﴾ علا فوق العرش علواً يليق بجلاله[1] ﴿يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ يورد الليل على النهار حتى يُذهب نضرته ونوره، يطلبه سريعاً. ﴿والشَّمْس والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بأمرِهِ﴾ وخلق الشمس والقمر والنجوم، كلُّها تحت قهره وتسخيره ومشيئته. ﴿ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ﴾ له جل وعلا الخلق كلُّه، وله الأمر كلُّه، لا يُخالف ولا يُردُّ أمرُه، دون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالمينَ﴾ تعالى اللهُ وتمجَّد، ربُّ الإنس والجن والملائكة، الذي له عبادة كل شيء. ﴿ادْعُوا ربكم

(١) قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء﴾ والأمر كما قال شيخ البخاري نعيم بن حماد: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآيات على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى» مختصر ابن كثير ٢ / ٢٥

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

* * *

تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ أخلصوا الدعاءَ لربكم، تذللاً واستكانةً لطاعتهِ، لا جهاراً ومراءاةً. **﴿إنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ﴾** لا يحب المجاوزين الحدَّ في الدعاء، برفع الصوت والصياح **﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ بَعْدَ إصْلَاحِهَا﴾** ولا تُفسدوا في الأرضِ بالإشراك والعصيان، بعد إصلاح الله لها ببعثة الأنبياء والرسل **﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً﴾** وادعوا ربكم بإخلاص الدعاء والعمل، خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه **﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحْسِنينَ﴾** إنَّ ثوابَ الله الذي وعد به المحسنين قريبٌ منهم. **﴿وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمتِهِ﴾** وهو تعالى الذي يرسل الرياح تُبشِّر بالمطر، أمام نزول غيثه على خلقه **﴿حتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً﴾** حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء. **﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ ميِّتٍ﴾** سقناه لإحياء بلدٍ ميِّت، أجدب أهلُه. **﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** فأنزلنا في ذلك البلد الميت المطر، فأخرجنا بذلك الماء من جميع أنواع الثمرات **﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتى﴾** كما نحيي هذا البلد الميِّت بإنزال الماء بعد موته وجدبه، كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعد فنائهم ودروسهم. **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** لتعتبروا وتتذكروا فتعلموا قدرة الله. **﴿والبَلَدُ الطيِّبُ يخرج نباتُه بإذنِ ربه﴾** والبلدُ الطيبةُ تربتُه يخرج نباته بإذن الله، طيِّب الثمر في وقته وحينه. **﴿والَّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلَّا نَكِداً﴾** والذي خبثت تربتُه لا يخرج نباته إلا بعسرٍ ومشقة. **﴿كَذَلِكَ نُصرِّفُ الآياتِ لقومٍ يشكرونَ﴾** كذلك نبيِّن الحجج ونضرب الأمثال، لقوم يشكرون الله على إنعامه. وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن وعمله الطيب، والكافر وعمله الخبيث، فالبلد الطيبُ مثلٌ للمؤمن، والذي خَبُث مثلٌ للكافر.

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم من إلَهٍ غيرُهُ﴾ أقسم الله أنه أرسل نوحاً إلى قومه لينذرهم بأسه، ويخوّفهم سخطه على عبادتهم غيره، فقال يا قوم: اعبدوا الله وحده، ودَعُوا عبادة ما سواه من الأصنام والآلهة، فليس لكم معبود غيرُه **﴿إني أَخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم﴾** إني أخاف

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

عليكم - إن لم تؤمنوا - عذاب يومٍ يعظم فيه بلاؤكم، بسخط ربكم عليكم. ﴿قال الملأ من قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال رؤساؤهم وأشرافهم - حين دعاهم إلى عبادة الله وحده - إنَّا لنراكَ يا نوحُ في ذهابٍ عن الحقِّ، وضلالٍ عن سبيل الصواب، ظاهرٍ واضح. ﴿قَالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بي ضَلَالَةٌ ولكنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال لهم نوح: ليس بي ما تظنون من الضلال، ولكنِّي مرسلٌ إليكم من رب العالمين، لدعوتكم إلى الإقرار بوحدانية الله، والبراءة من الأنداد والآلهة﴿أبلِّغكم رسالاتِ ربي وأنصح لكم﴾ أبلِّغكم أوامر ربي، وأنا لكم ناصح أمين. ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمونَ﴾ وأعلم أن عقاب الله لا يردُّ عن القوم المجرمين. وقد ردَّ قومه عليه النصيحة، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبياً فقال لهم: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبكُمْ عَلَى رَجُلٍ منكُمْ﴾ أتعجبون أيها القوم أن يأتيكم عظةٌ من الله وتذكير مع رجلٍ منكم؟ ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ﴾ ليخوِّفكم بأس الله، وكي تتقوا عقابه، وليرحمكم ربكم إن خفتموه وأطعتموه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذينَ مَعَهُ في الْفُلْكِ﴾ فكذبوا نوحاً ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في السفينة ومن معه من المؤمنين، وما آمن معه منهم إلا قليل[1]. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأغرقنا المكذبين بآياتنا بالطوفان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ كانوا عُمياً عن الحقِّ، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

﴿وإلى عَادٍ أخاهُمْ هُوداً﴾ ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قال لهم هود: يا قوم أفردوا العبادة للهِ، ولا تجعلوا معه إلٰهاً غيره، فإنه ليس لكم إلٰهٌ غيره. ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم غيره؟ وهو خالقكم ورازقكم دون من سواه؟ ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ في سَفَاهةٍ﴾ قال أشراف قومه وسادتهم الذين أنكروا رسالته: إنا لنراكَ يا هود في ضلالةٍ عن الحق والصواب، بتركك ديننا وعبادة آلهتنا. ﴿وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾ وإنا لنعتقد أنك من

(١) قال الطبري: وكان مع نوح في السفينة أنفساً عشرة.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ
وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ
رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

* * *

الكاذبين في دعواك الرسالة. ﴿قَالَ يا قَوم لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ﴾ ليس بي ضلالة عن الحق والصواب. ﴿ولكنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولكنَّ الله أرسلني إليكم لهدايتكم ﴿ أبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وأنَا لكم نَاصِحٌ أمينٌ﴾ أبلغكم ما أمرني به ربي، وأنا لكم ناصح - في دعوتكم إلى عبادة الله - فاقبلوا نصيحتي، وأنا أمين على ما ائتمنني الله من الوحي، لا أكذب ولا أزيد فيه ولا أبدِّل. ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رِبكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ أتعجبون أن يأتيكم عظةٌ من الله وتذكيرٌ، مع رجلٍ منكم لينذركم بأس الله، ويخوِّفكم عقابه؟ ﴿واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ﴾ واذكروا ما حلَّ بقوم نوحٍ من العذاب حين عصوا رسولهم، وجعلكم بدلاً منهم تخلفونهم في الأرض، فاتقوا أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلككم الله ويستبدل غيركم. ﴿وَزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وزادكم عِظَماً في الأجسام، وقوةً في الأبدان على قوم نوح. ﴿فاذكُروا آلاَءَ الله لعلكُمْ تُفْلِحونَ﴾ فاذكروا نعم الله وفضله عليكم، واشكروه بإخلاص العبادة، لكي تنعموا في الآخرة، وتنجحوا بنيل السعادة الأبديَّة. ﴿قَالُوا أَجئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذر ما كان يعبدُ آباؤُنَا﴾ قالوا له: أجئتنا تتوعَّدنا بالعقاب، كي نعبد الله وحده، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي عبدها آباؤ نا؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ من الصَّادِقينَ﴾ فأتنا بالعذاب إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قال لهم هود: قد حلَّ بكم عذابٌ وغضبٌ من الله، قال ابن عباس: الرجسُ: السَّخطُ. ﴿أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أتخاصمونني في هذه الأصنام، التي سميتموها أنتم وآباؤ كم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع؟ ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ بهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما جعل الله لكم في عبادتها حجة ولا دليلاً، لأن العبادة لمن ضرٌّ ونفع، لا للجماد من الحجارة والنحاس والحديد!؟ ﴿فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرينَ﴾ فانتظروا حكم الله وقضاءه فينا وفيكم، إني من المنتظرين لذلك[1] ﴿ فَأَنجيناه والَّذينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فأنجينا هوداً وأتباعه المؤمنين من العذاب

(١) في هذا وعيدٌ وتهديد من نبي الله «هود» لقومه، ولهذا عُقِّب بقوله تعالى ﴿فأنجيناه والذين معه﴾

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

* * *

برحمتنا. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وأهلكنا المكذبين بآياتنا من قوم هود، فلم نبق منهم أحداً، لأنهم لم يكونوا مصدِّقين بالله ولا برسوله هود.

﴿وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً(١). ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فقال لهم صالح: يا قوم اعبدوا الله وحده، فما لكم إلَهٌ يجوز أن تعبدوه غيره. ﴿قد جاءتكم بيِّنَةٌ من ربكم﴾ قد جاءتكم حجة وبرهان من عند ربكم، على صدق ما أقول، وحجتي إليكم. ﴿هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً﴾ هذه الناقة التي أخرجها الله من صخرةٍ صمَّاء، هي معجزتي لكم لا يقدر على مثلها أحدٌ إلا اللهُ. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ اللهِ﴾ اتركوها تأكل في أرض الله. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليمٌ﴾ ولا تمسُّوا ناقة الله بعقرٍ ولا نحر، فيأخذكم عذابٌ موجع. ﴿واذكروا إِذْ جعلكم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ واذكروا نعمة الله عليكم، حين جعلكم تخلفون عاداً من بعد هلاكهم. ﴿وَبَوَّأَكُمْ في الأرضِ تتخذونَ من سهولها قصوراً﴾ وجعل لكم في الأرض مساكن، تبنون في سهولها القصور المشيدة. ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ وتنقبون في الجبال البيوت. ﴿فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ فاذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم. ﴿ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تسيروا في الأرض بالإفساد ﴿قَالَ الملأُ الذينَ استكبروا من قومِهِ﴾ قال الجماعة الذين استكبروا عن الإيمان بالله من قوم صالح. ﴿للذينَ اسْتُضْعِفُوا لمن آمنَ منهم﴾ للمستضعفين من المؤمنين ـ أهل المسكنة ـ من أتباع صالح. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أتعلمون أن صالحاً نبيٌ أرسله الله إلينا وإليكم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال المستضعفون: إنا بما أرسل الله به صالحاً من الحقِّ والهدى مصدِّقون ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ قال المتكبرون عن الإيمان: إنَّا بالذي صدَّقتم به من نبوَّة صالح جاحدون منكرون

(١) كانت مساكنهم «الحِجْر» بين الحجاز والشام، وقد مرَّ على ديارهم رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، ونهى أصحابه أن يدخلوا على المعذَّبين إلا أن يكونوا باكين، كما في المسند

فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم
مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فقتلوا ناقة[1] صالح، وتكبَّروا واستعلوا عن الحقّ واتّباع أمر الله. **﴿وقالوا يا صالح آئتنا بما تعدنا إن كنتَ من المرسلينَ﴾** ائتنا بالعذاب إن كنت رسولاً حقاً **﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾** فأخذتهم الصيحةُ التي زعزعتهم وأهلكتهم. **﴿فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾** فأصبحوا ساقطين صرعى لا يتحركون. **﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبلغتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** فأدبر صالح عنهم خارجاً من بين أظهرهم، وقال لقومه: لقد بلَّغتكم ما أمرني به ربي، ونصحتكم في التحذير من عذابه بعبادتكم الأوثان. **﴿وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم، الناهين لكم عن شهوات النفس.

﴿ولوطاً إذْ قال لقومِهِ أتأتون الفاحشة﴾ واذكر لوطاً حين قال لقومه: أتأتون الفعل القبيح، وهو إتيان الذكور في أدبارهم؟ **﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾** ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحدٌ من الناس، قال ابن دينار: ما رؤي ذكرٌ على ذكر حتى كان قوم لوط. **﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾** إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوةً منكم لهذا الفعل القبيح، دون ما أحله الله لكم من النساء **﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾** بتجاوزكم الحدَّ في العصيان والطغيان. **﴿وما كان جواب قومه إلاَّ أَنْ قالوا أَخرجُوهم من قريتكم﴾** وما كان جواب قومه له، حين وبخهم على فعلهم القبيح، إلا أن قال بعضهم لبعضَ: أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من بلدتكم **﴿إنهم أناسٌ يتطهَّرون﴾** يتنزهون عن إتيان الرجال في الأدبار، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمُّوهم بغير ذمٍّ **﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابرينَ﴾** فأنجينا لوطاً وأهله المؤمنين، إلاَّ امرأته الكافرة كانت من الهالكين، الباقين في العذاب. **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾** وأمطرنا على قوم لوط حجارةً من سجِّيل منضود. **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾**

---

(١) الناقة: أنثى الجمل، وإنما أضيفت إلى الله﴿هذه ناقةُ الله﴾تشريفاً لأن الله خلقها بقدرته من صخر أصم معجزة لصالح عليه السلام.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

* * *

فانظر يا محمد إلى عاقبة هؤلاء المكذبين، الذين ركبوا الفواحش واستحلوا المحارم، كيف كانت؟ وماذا صارت؟ هل كانت إلا البوار والدمار؟

﴿وَإِلى مدينَ أخاهُمْ شُعَيْباً﴾ ولقد أرسلنا إلى قبيلة مَدْين أخاهم شعيب بن ميكيل. **﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلَهٍ غيرُهُ﴾** ليس لكم إلّه يستوجب العبادة، غير الإلّه الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضركم. **﴿قَدْ جَاءَتكُمْ بيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جاءتكم حجةٌ وعلامة من الله، على صدق رسالتي إليكم **﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ﴾** فأتموا للناس حقوقهم بالكيل والميزان. **﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشياءهُمْ﴾** ولا تُنقصوا الناس حقوقهم. **﴿ولا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** ولا تعملوا في الأرض بمعاصي الله، بعد أن أصلحها الله ببعثة الأنبياء والمرسلين. **﴿ذلكم خيرٌ لكُمْ إن كنتم مؤمنين﴾** هذا الذي أمرتكم به ـ من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم في الكيل والوزن ـ خيرٌ لكم عند الله إن كنتم مصدقين لما أقول. **﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِ صِرَاطٍ﴾** ولا تجلسوا بكل طريق. **﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾** تتوعدون المؤمنين بالقتل، وتردُّون عن دين الله من صدَّق بالله ووحَّده، **قال ابن عباس**: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من مرَّ عليهم أن شعيباً كذاب، ويتوعَّدون ويُخوّفون من أراد الإيمان به **﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾** وتلتمسون لمن سلك طريق الله العوجَ عن الحق، إلى الزيغ والضلال. **﴿واذكروا إذْ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾** اذكروا حين كنتم قليلي العدد، فكثَّر جماعتكم ورفعكم من الذلة والخسَّة، فاشكروا الله على نعمه، وأخلصوا له العبادة. **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** وانظروا ما حلَّ بالأمم المفسدين من العذاب والنكال. **﴿وإنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ به وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾** وإن كانت جماعة منكم صدَّقوا بما جئتهم به، وجماعة أخرى لم يصدّقوا بذلك ولم يتَّبعوني **﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾** فانتظروا حتى يفصل الله بيننا وبينكم بحكمه العادل، وهو خير من يفصل ويقضي

* قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

* * *

لأنه لا محاباة عنده لأحد. ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قال الرؤساء والأشراف من قومه، الذين تكبروا عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لنخرجنك[1] وأتباعك المؤمنين من بلدتنا، أو لَترجعُنَّ إلى ديننا. ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارهينَ﴾ أتخرجوننا من قريتكم، وتصدوننا عن دين الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾ قد اختلقنا على الله كذباً وباطلاً، إن رجعنا إلى دينكم، بعد أن هدانا الله إلى الإيمان، وبصَّرنا طريق الهدى والصَّواب. ﴿وما يكونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فيها إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ وما ينبغي ولا يصح لنا أن نرجع إلى ملتكم، إلاّ أن يسبق في علم الله ذلك، فيمضي فينا قضاءُ الله، وتنفذ مشيئته. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيءٍ عِلْماً﴾ أحاط علم الله بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء مما كان أو يكون. ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ على الله وحده اعتمدنا في جميع أمورنا. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بيننا وبين قومنا بالحقّ﴾ ربنا احكم بيننا وبين هؤلاء الكافرين بحكمك العادل[2]. ﴿وأنتَ خيرُ الفاتحينَ﴾ وأنت خيرُ الحاكمين ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ قال الرؤساء والأشراف من كفرة قوم شعيب: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ لئن أجبتم شعيباً إلى ما يدعوكم إليه، من توحيد الله، وأقررتم بنبوَّته، إنكم حينئذٍ لهالكون ومغبونون في فعلكم هذا. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثمينَ﴾ فأخذتهم الصيحة والزلزلة، فأصبحوا موتى صَرْعى جاثمين على ركبهم. ﴿الذينَ كذَّبوا شعيباً كأنْ لم يَغْنَوْا فيها﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم منعمين ﴿ الذين كَذَّبوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخَاسِرين ﴾ لم يكن أتباع

(١) المرادُ بالإخراج الطردُ والإبعاد من بلده الذي يسكنه كما قال تعالى لرسوله﴿وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..﴾ الآية.

(٢) لما يئس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إيمانهم، وخاف على نفسه والمؤمنين منهم، دعا عليهم ﷺ فاستجاب الله دعاءه.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

* * *

شعيب الخاسرين، كما قالوا للمؤمنين «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون» بل الذين كذبوه كانوا هم الخاسرين، بحلول العذاب عليهم ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فأدبر شعيب عنهم خارجاً من بين أظهرهم، وقال حزناً عليهم لما أيقن نزول العذاب عليهم: لقد أديت إليكم رسالة ربي، ونصحتكم بطاعة أمره ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ على قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فكيف أحزن وأتوجَّع على قوم جحدوا وحدانية ربهم، وكذَّبوا رسوله؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساءِ والضَّرَّاءِ﴾ وما أرسلنا في قرية نبياً قبلك يا محمد، إلا أخذنا أهلها بضيق العيش وسوء الحال[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا إلى ربهم، وينيبوا إليه من ذنوبهم. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئةِ الْحَسَنَةَ حتى عَفَوْا﴾ ثم بدَّلنا أهل القرية مكان الشدَّة والبلاء النعمةَ والرخاءَ، حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم[2]. ﴿وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾ وقالوا: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافنا، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم من الشدَّة والرخاء. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأخذناهم بالعذاب فجأةً، وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا﴾ ولو أن أهل المدن صدَّقوا بالله ورسله، واتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المحرمات[3]. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ﴾ لأغدقنا عليهم القطر من السماء، وأخرجنا لهم نبات الأرض، فجمعنا لهم بين خيرات السماء وخيرات الأرض. ﴿ولكنْ كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ ولكنهم كذَّبوا رسلهم فأهلكناهم بذنوبهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وهم نَائمونَ﴾ هل أمنَ المكذبون أن يأتيهم عذابنا ونكالنا ليلاً وهم نائمون؟

(١) البأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من الأمراض والأسقام، والضَّراء: الفقر والجوع.

(٢) هذا بيان لسنة الله في المكذبين، أنه يأخذهم بالشدَّة وضيق العيش حتى يتوبوا ويرجعوا، ثم يغيِّر حالهم إلى السعة والرخاء ليشكروا النعمة، فإذا أصرُّوا على الكفر والتكذيب أخذهم بغتةً وهم لا يشعرون.

(٣) اقتبسنا تفسير الآيات الثلاث من تفسير ابن كثير وغيره لعدم وجودها في الطبري.

أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا
ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ
عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

* * *

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون﴾ أو هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا في حال شغلهم وغفلتهم وهم لاهون؟ **﴿أفأمنوا مكرَ اللهِ﴾** أفأمنوا استدراج الله لهم، برخاء العيش وصحة الأبدان؟ **﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكرَ اللهِ إلَّا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾** فلا يأمن ذلك إلَّا القوم الهالكون، الذين خسروا سعادتهم وأنفسهم **﴿أو لم يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾** أو لم يتبيَّن ويظهر للذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاك أهلها. **﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بذنوبهِمْ﴾** أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فعجلنا لهم العقاب؟! **﴿وَنَطْبَعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾** ونختم على قلوبهم، فلا يسمعون ـ سماع انتفاع ـ موعظة ولا تذكيراً. **﴿تلك القُرَى نَقُصُّ عليكَ من أَنْبَائِهَا﴾** هذه القرى التي قصصتُ عليك أمرها يا محمد ـ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ـ نخبرك عن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رسلهم، لتعلم أن النصرة لرسلنا على أعدائنا. **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** ولقد جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات. **﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾** فما كان أولئك المشركون ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، لسبق علمه تعالى[1]. **﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾** كما طبع على قلوب الأمم الماضية، كذلك يطبع على قلوب الكافرين من قومك. **﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ﴾** وما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكناها، وفاءً بما وصَّيناهم به، من توحيد الله والعمل بطاعته. **﴿وإنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾** ولقد وجدنا أكثرهم فَسَقة، خارجين عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بآياتِنَا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ثم أرسلنا من بعد الرسل المذكورين «موسى بن عمران» بحججنا وأدلتنا البيِّنة إلى فرعون وقومه، فكفروا بها. **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** فانظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء المفسدين ـ فرعون وقومه ـ ألم نغرقهم في البحر

(١) هذا ما رجحه الطبري أن المراد أنَّ من سبق في علم الله تعالى أنه لا يؤمن فلن يؤمن أبداً، واختار ابن كثير أن الباء في قوله﴿بما كذبوا﴾سببيّة أي فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم بالحقّ أول ما ورد عليهم، ولكلٍ وجهةٌ، ورأيُ ابن كثير اظهر والله أعلم.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

* * *

جميعاً؟ ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال موسى لفرعون: إني مرسل من ربّ العالمين، أرسلني اللهُ إليك. ﴿حقيقٌ على أن لا أقولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ﴾ حقيقٌ بأن لا أقول على الله إلا الحق. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ ببيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قد جئتكم ببرهان من ربكم يشهد بصدق رسالتي. ﴿فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائيلَ﴾ فأطلقهم من أسرك وقهرك وأرسلهم معي. ﴿قال إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ فَأْت بِهَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال فرعون: إن كنتَ جئتَ بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول، فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً في دعواك. ﴿فألقَى عَصَاهُ فإذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ فألقى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة ظاهرة لمن يراها[1] ﴿ونَزَعَ يَدَهُ فَإذَا هِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرِينَ﴾ وأخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء تلوح لمن نظر إليها، من غير برص ولا مرض. ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال السادة والأشراف من قوم فرعون: إن موسى لساحرٌ كبير، يخدع الناس بسحره. ﴿يُريدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ يريد أن يخرجكم من أرض مصر معشر الأقباط ﴿فماذا تأمرون﴾ بأيِّ شيءٍ تشيرون فيه؟ وهذا من قول فرعون للملأ. ﴿قالوا أَرْجِهْ وأخاهُ﴾ أخِّره وأخاه. ﴿وَأَرْسِلْ في الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وأرسل في مدائن ملكك، من يحشر السحرة فيجمعهم إليك، قال ابن عباس: أي أرسلْ الشُّرَط. ﴿يأتوكَ بكل ساحر عليم﴾ يجمعون لك كل ساحر عليمٍ بالسِّحر. ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نحنُ الْغَالِبِينَ﴾ قال السحرة: إنَّ لنا لثواباً وعطاءً إن نحنُ غلبْنا موسى؟ ﴿قَالَ نعمْ وَإِنَّكُمْ لَمنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قال: نعم لكم ذلك، وإنكم ممَّن أقرِّبُه وأدنيه مني. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ قال السحرة:

---

(١) قال ابن عباس: ألقى عصاه فتحولت حية عظيمة، فاغرةً فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها مقبلةً نحوه، رمى بنفسه عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه، فأخذها موسى بيده فعادت عصا كما كانت. اهـ، والثعبانُ: الذَّكر من الحيَّات.

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ
وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا
تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

* * *

اختر يا موسى إمَّا أن تُلقي عصاك، أو نلقي نحنُ قبلك؟ **﴿قال أَلْقُوا﴾** قال لهم موسى: ألقُوا ما أنتم ملقون! **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاس﴾** فلما ألقوا ذلك، خيِّلوا إلى أعين الناس أنها حياتٌ تسعى، حتى خافوا من العصي والحبال **﴿واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾** وأخافوا الناس فأدخلوا عليهم الفزع، وجاءوا بسحرٍ عظيم، بطريق الخداع والتخييل. **﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾** فألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع ما يسحرون كذباً وباطلاً. **﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾** فظهر الحقُّ، وبطل إفكُ السَّحرة وكذبُهم. **﴿فَغُلِبوا هُنَالِكَ وانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾** فغلب موسى فرعونَ وجموعه عند ذلك، وانصرفوا مقهورين ذليلين. **﴿وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدِينَ﴾** ووقع السحرة سُجَّداً لله جل وعلا **﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾** يقولون: صدَّقنا بالله رب العالمين، ربِّ موسى وهارون، لا فرعون، قال ابن عباس: لما رأت السحرة ما رأتْ عرفت أن ذلك من السماء وليس بسحر، فخرُّوا سجداً لله. **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾** قال فرعونُ للسحرة حين آمنوا بالله: أصدَّقتم بموسى وأقررتم بنبوَّته قبل أن آذن لكم بالإيمان به؟ **﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** إن هذه لخدعةٌ خدعتم بها مَنْ في مدينتنا لتخرجوهم منها، فسوف تعلمون ما أفعل بكم على صنيعكم هذا. **﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** لأقطعنَّ من أحدكم يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، ثم لأصلبنكم على جذوع النخل أجمعين حتى تموتوا[1]. **﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾** قال السحرة حين توعَّدهم فرعون: إنا راجعون إلى الله، ومصيرنا إليه فلا نخشاك. **﴿وما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لمَّا جاءتنا﴾** وما تُنكر علينا إلاَّ من أجل أن صدَّقنا بحجج ربنا وأدلته، ، التي لا يقدر على مثلها إلا الله. **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾** ربنا أنزل

(١) أول من سنَّ هذا القطع والقتل، قال ذلك عندما رأى خذلان الله له، وغلبة موسى وقهره له.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ
وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ
رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟
بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

* * *

علينا صبراً عند تعذيب فرعون لنا، واقبضنا على الإسلام دين خليلك إبراهيم، **قال ابن عباس**: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بررة. **﴿وَقَالَ المَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهَ لِيُفسِدُوا في الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وآلِهتَكَ﴾** وقال الأشرافُ من جماعة فرعون لفرعون: أتترك موسى وقومه، كي يفسدوا خدمك وعبيدك في أرض مصر، وقد تركك وترك عبادتك وعبادة آلهتك؟ **﴿قالَ سَنُقَتِّلُ أبناءهم ونَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ وَإنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** قال فرعون: سنقتل الذكور من أولاد بني إسرائيل، ونستبقي الإناث، ونحن عالون فوقهم بالقهر والسلطان. **﴿قال موسى لقومه استعينوا باللهِ واصْبِرُوا﴾** قال موسى لبني إسرائيل: استعينوا بالله على فرعون وقومه، واصبروا على ما ينالكم منهم من المكاره. **﴿إنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ﴾** لعل الله أن يورثكم أرض مصر إن صبرتم واستقمتم، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده. **﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** والعاقبةُ المحمودة لمن اتقى الله وراقبه. **﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تأتينا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا﴾** قال بنو إسرائيل، لموسى: لقد أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة، ومن بعد ما جئتنا برسالة الله[1] **﴿قال عَسَى ربكم أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾** لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه!! **﴿ويَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْملونَ﴾** ويجعلكم تخلفونهم بعد هلاكهم، فيرى ما تعملون بعدهم، من طاعته أو عصيانه. **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمرَاتِ﴾** ولقد اختبرنا قوم فرعونَ بالقحط والجدب، وبذهاب الثمار والغلَّات **﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم. **﴿فَإِذَا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾** فإذا أصاب آلَ فرعون الرخاءُ والخِصْبُ وكثرةُ الثمار، قالوا نحن أَحَقُّ بها، ونحن نستحق هذا الإنعام. **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ﴾** وإن نالهم جدب وقحطٌ وبلاء، تشاءموا بموسى ومن معه، يقولون: هذا بسبب شؤم هؤلاء **﴿أَلا إنَّما طَائِرُهُمْ عِنْدَ**

---

(١) كان فرعون يقتل أولادهم الذكور قبل بعثة موسى، وأراد تجديد العذاب لهم بعد إيمان السَّحرة.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

* * *

الله ﴿ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يعلمُون﴾(١) ما يصيبهم من خير أو شر فبتقدير الله لا بشؤم موسى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنَا بها فما نَحْنُ لَكَ بمؤمنين﴾ وقال آل فرعون لموسى: مهما جئتنا به من معجزة لتصرفنا بها عن دين فرعون فما نحن لك بمصدّقين. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجراد والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ﴾ فأرسلنا عليهم المطر الشديد المغرق للزروع والثمار، والجراد المتلف للزرع، والقُمَّل ـ السُّوس ـ الذي يخرج في الحبوب، والضفادع تسقط في أطعمتهم وأشربتهم، والدَّم يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم ﴿آياتٍ مفصَّلاتٍ﴾ واضحة دالة على صدق نبوة موسى، يتبع بعضها بعضاً(٢) ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ فاستكبروا عن الإيمان بالله، وتصديق موسى ﷺ، وكانوا قوماً عتاةً متمردين على الله، يعملون بالفسق والمعاصي. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عليهمُ الرِّجْزُ قَالُوا يا موسى ادْعُ لنا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ولما نزل بهم عذاب الله وسخطه، فزعوا إلى موسى فقالوا يا موسى: ادع لنا ربك بما أوصَاك وأمرك به، ليكشف عنا العذاب، ثم أقسموا فقالوا. ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لنؤمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إسْرَائيلَ﴾ والله لئن رفعتَ عنا العذاب الذي نحن فيه، لنصدّقَنَّ برسالتك، ولنخلينَّ بني إسرائيل يذهبوا معك حيث شاءوا. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إلى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ فلما كشفنا عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه لا محالة، هو وقت هلاكهم ﴿إذا هُمْ يَنْكُثون﴾ إذا هم ينقضون عهودهم، ويقيمون على كفرهم وضلالهم. ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم فأغْرَقْنَاهُمْ في اليَمِّ﴾ فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر. ﴿بأنهم كَذَّبُوا بآياتِنَا وَكَانُوا عنها غَافِلِينَ﴾ بسبب تكذيبهم

---

(١) قال ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ مصائبهم عند الله، والمعنى الأول رواية عنه، والمراد أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم الذي يعملونه.

(٢) روي أنهم لما كذبوا موسى، سلَّط الله عليهم ألوان البلاء والعذاب، فأرسل عليهم الطوفان المدمِّر، والجراد بتلف الزروع، والسُّوس ينخر الحبوب، والضفادع تملأ البيوت، فلم يبق لهم طعامٌ ولا شراب إلا وفيه الضفادع، وكانوا يستقون من الأنهار والآبار فيخرج لهم بدل الماء الدم، وفي كل مرة يعاهدون موسى ثم ينكثون العهد معه بعد أن يدعو الله لهم بكشف البلاء، كما قال تعالى ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

* * *

بحجج الله وآياته، وغفلتهم عنها، حيث لم يؤمنوا بها ولم يقبلوها. ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فيها**﴾ وأورثنا بني إسرائيل ـ الذين كان يستضعفهم ويستخدمهم فرعون وقومه ـ مشارق الأرض ومغاربها، وهي بلاد الشام[1] التي جعلنا فيها الخير ثابتاً دائماً. ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنى على بني إسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ ووفَّى الله وعده لبني إسرائيل بتمكينهم في الأرض، ونصرهم على عدوهم بسبب صبرهم. ﴿**وَدَمَّرْنَا ما كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ وخرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، وما كانوا يبنونه من الأبنية والقصور. ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيلَ البحرَ**﴾ وقطعنا ببني إسرائيل البحر، بعد تلك الآيات والعبر التي شاهدوها، فلم تزجرهم تلك العبر والبيِّنات. ﴿**فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ**﴾ فمرُّوا على قوم يعبدون أصناماً على صور البقر. ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة**﴾ اجعلْ لنا صنماً نتخذه إلَهاً، كما لهؤلاء أصنامٌ يعبدونها[2] ﴿**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ قال لهم موسى: إنكم أيها القوم جهلة، تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنَزَّه عنه من الشريك والمثيل. ﴿**إنَّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون**﴾ إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالكٌ ما يعبدونه، وباطلٌ عملهم ومضمحلٌّ، لأنه لا ينفعهم ولا ينقذهم من عذاب الله. ﴿**قالَ أغيرَ اللهِ أبغيكم إلَهاً وهو فضَّلكم على العالمينَ**﴾ أألتمس لكم إلَهاً، وأطلب لكم معبوداً غير الله تعبدونه، وهو خالقكم الذي فضَّلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ إن هذا

---

(١) البلادُ التي بارك الله فيها هي الشامُ في قول الجمهور، وإنما قال «وأورثنا» لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بعد مهلك من كان فيها من العمالقة، وأما من قال إنها بلاد مصر فذلك ـ كما قال الطبري ـ قول بعيدٌ عن المفهوم، مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والتفسير.

(٢) ما أبشع طباع اليهود، وما أشدَّ طغيانهم!! فبعد أن ورَّثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ورفعهم من حضيض الذل إلى أوج العزِّ، وخلَّصهم من جبروت فرعون وطغيانه، عادوا إلى الإفساد والإجرام، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً يتخذونه إلَهاً، ويعبدونه من دون الله ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة﴾ فما أشدَّ حماقتهم وأسفه عقولهم!! وهؤلاء الأحفاد من سُلالة أولئك الأجداد، شتَّت الله شملهم وقطع دابرهم، وطهَّر الأرض من رجسهم.

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

* * *

منكم لجهلً.. ثم ذكَّرهم بنعمه تعالى عليهم لينزجروا عن طلبهم القبيح فقال **﴿وإذْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب﴾** واذكروا حين أنجاكم الله من قوم فرعون، يذيقونكم أشدَّ العذاب وأسوأه **﴿يُقَتِّلون أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحيونَ نساءَكُمْ﴾** يذبّحون الذكور ويستبقون الإناث **﴿وفي ذلكم بلاءٌ مِنْ ربكم عظيم﴾** وفي هذا الإنجاء اختبارٌ من الله لكم، ونعمة عظيمة منه عليكم. **﴿وَوَاعَدْنَا مُوسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾** وعدنا موسى لمناجاتنا ثلاثين ليلة، وأتممنا الثلاثين بعشر ليالٍ، **قال مجاهد**: هي ذو القِعدة وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعينَ ليلةً﴾** فكمل الوقت الذي وعد الله به موسى لمناجاته أربعين ليلةً[1] **﴿وَقَالَ موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾** وقال موسى لأخيه هارون: كن خليفتي على بني إسرائيل إلى أن أرجع إليهم. **﴿وَأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سبيلَ المُفْسِدينَ﴾** وأصلحهم بحملهم على طاعة الله، ولا تسلك طريق المفسدين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[2]. **﴿ولمَّا جَاءَ مُوسى لِميقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه أن يلقانا فيه، وناجاه ربه. **﴿قال رَبِّ أرني أَنْظُرْ إليكَ﴾** قال موسى لربه: يا ربِّ أرني نفسك لأنظر إليك **﴿قالَ لَنْ تَراني﴾** قال الله مجيباً له لن تراني في الدنيا. **﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الْجَبَلِ فَإنِ اسْتقرَّ مَكَانَهُ فَسوْفَ تَرَاني﴾** ولكنْ انظر إلى الجبل، فإنه أكبر منك وأشدُّ، فإن ثبت مكانه فسوف تراني. **﴿فَلَمَّا تَجلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾** فلما اطَّلع الرب للجبل صار الجبل تراباً مستوياً بالأرض[3] **﴿وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً﴾** وسقط موسى مغشياً عليه[4]. **﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبتُ إليك﴾**

(١) وعد الله موسى أن يكلمه وينزل عليه التوراة بعد ثلاثين ليلة، فصامها موسى فلما تمَّ الميقاتُ استاك بلحاء شجرة، فأمره تعالى أن يكملها بعشر، فكملت أربعون ليلة، وهذا هو السرُّ في زيادة المدة على موسى، لأن ـ خُلُوف ـ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، أي تغير رائحة الفم من أثر الجوع والعطش.

(٢) هذا تنبيه وتذكيرٌ، وإلا فهارون نبيٌ شريف كريم على الله.

(٣) روي عن ابن عباس أنه قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر.

(٤) فسَّر ابن عباس «صَعِقاً» مغشياً عليه، وفسره قتادة ميتاً، وما قاله ابن عباس أظهر لقوله تعالى ﴿فلما أفاق﴾ فإن الإفاقة لا تكون إلا عن الغشيّ لا عن الموت.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

* * *

فلما أفاق من غشيته، قال: تنزيهاً لك يا رب أن يراك أحدٌ في الدنيا، تبتُ إليك من سؤالي لك الرؤية. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنينَ﴾ وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل. ﴿قالَ يا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ برِسَالاَتي وَبكَلاَمِي﴾ اخترتك على الناس بالرسالة وبالمناجاة ﴿فَخُذْ ما آتيتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ﴾ فخذ ما أعطيتك من الشريعة، وكن من الشاكرين لله على الرسالة والمناجاة. ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ﴾ وكتبنا لموسى في الألواح كل ما يحتاج إليه من المواعظ والأحكام، موعظة لقومه، وتبييناً لكل شيء من الحلال والحرام. ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ﴾ فخذها بجد وعزم. ﴿وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بأَحْسَنِهَا﴾ وكلِّف بني إسرائيل أن يعملوا بأحسن ما يجدون[1] فيها. ﴿سَأُورِيكُمْ دارَ الْفَاسِقِينَ﴾ سأريكم في الآخرة ما يصير إليه حال[2] الفاسقين، بإدخالهم نار الله التي أعدها لأعدائه، وهذا على وجه «التهديد والوعيد» لمن عصى أمر الله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يتكبَّرون في الأرض بغير الحَقِّ﴾ سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، عقوبة لهم على تكبرهم، فهم عن الاعتبار والادِّكار مصروفون. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤْمِنُوا بهَا﴾ وإن ير هؤلاء المتكبرون عن الإيمان بالله ورسوله، كلَّ حجةٍ لله على ربوبيته ووحدانيته، لا يصدقوا بها، ويقولون: هي سحرٌ وكذبٌ ﴿وَإنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتَّخِذُوهُ سبيلاً﴾ وإن يروا طريق الهدى والسداد، لا يسلكوه ولا يتخذوه طريقاً لهم. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً﴾ وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه ﴿ذلك بأنهم كَذَّبوا بآيَاتِنا﴾ صرفناهم عن أن يعقلوا آياتنا، ويفهموها ويعتبروا بها فيُنيبوا، عقوبةً لهم منا على تكذيبهم. ﴿وكانُوا عنها غَافِلين﴾وكانوا عن آياتنا لاهين، لا يتفكرون فيها

(١) المراد أن فيها الحسن والأحسن، كالقصاص مثلاً والعفو، فالعفو أحسن من القصاص.

(٢) هكذا فسرها الطبري، وقال غيره من المفسرين المعنى: سأريكم دار فرعون وقومه ـ وهي مصر ـ كيف أقفرت منهم لما هلكوا، وهذا ما اختاره في التسهيل وهو الأظهر والأرجح.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ
بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ

* *

ولا يعتبرون. ﴿والَّذِينَ كَذَّبوا بآياتِنَا ولقاء الآخرة﴾ والذين جحدوا حججنا وأدلتنا، وأنكروا لقاء الله في الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ﴾بطلت أعمالهم وذهبت، وصارت عليهم وبالاً ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ هل نجازيهم إلاَّ بأعمالهم التي أسلفوها ؟ فقد كانت أعمالهم في طاعة الشيطان ، فصار جزاؤ هم الخلود في النيران ﴿ واتّخذ قومُ موسى من بَعْدِه ﴾ واتخذ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى لمناجاة ربه ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ اتخذوا من الحليّ عجلاً ـ ولد البقرة ـ جسداً لا روح له فعبدوه ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ له صوتُ البقر ، وهذا خبرٌ من الله بأنهم ضلوا بما لا يضلُّ بمثله أهل العقل ، فإن الربَّ جل وعلا لا يجوز أن يكون جسداً له خوار[١] بل هو الربُّ الذي له ملك السموات والأرض ، ومدبّر الكون ﴿ ألم يَرَوْا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ألمْ ير هؤلاء الذين عبدوا العجل ، أنه لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى طريق ؟ فكيف يكون إلّهاً وهو أبكم لا يتكلم ؟ ﴿ اتخذوه وكانوا ظالمينَ ﴾ اتخذوا العجل إلّهاً ، وكانوا ظالمين لأنفسهم ، باتخاذهم إياه رباً معبوداً ﴿وَلَمَّا سُقِطَ في أيديهِمْ﴾ ولما ندموا على جنايتهم ،واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل سفهاً وجهلاً ﴿وَرَأَوْا أنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وعرفوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل ، وكفروا بربهم. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ قالوا تائبين إلى الله منيبين : لئن لم يتغمدنا ربنا بالرحمة والتوبة ، لنكونن من الهالكين

﴿وَلَمَّا رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً﴾ ولما رجع موسى إلى بني إسرائيل، غضبانَ شديد الغضب، لعبادتهم العجل. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ بئس الفعل الذي فعلتمـوه بعد فراقي لكم، حيث خلفتموني في قومي بشرٍّ ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أعجلتم عن أمر ربكم؟ بانتظار نبيكم حتى يرجع من الطور؟ ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِليْهِ﴾ وطرح الألواح غضباً على قومه لعبادتهم العجل، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، خوفاً من أن يكون قد قصَّر في نهيهم ﴿قَالَ ابنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ

(١) إني لأعجب من سخافة عقول هؤلاء الجهلاء «اليهود» فقد تركوا عبادة الربّ الحقّ، القادر على كل شيء، وعبدوا عجلاً من البقر، له صورة البقر وعجْلاً جسداً» أي لا روح فيه وإنما هو في الشكل يشبه العجل وله صوت كخوار البقر، فعبدوا العجل من دون الله، لصوته الرخيم، فما أضلهم وما أشقاهم؟

وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾
إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن
مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ
سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

* * *

استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ قال هارون: يا ابن أمّاه[1] - أي يا أخي - إن الذين عكفوا على عبادة العجل استضعفوني وقاربوا أن يقتلوني. **﴿فلَا تُشْمِتْ بي الأعداء﴾** فلا تجعل الأعداء يُسرُّون بي ويفرحون بإهانتي. **﴿ولا تَجْعَلْني مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾** لا تجعلني من جملة الظالمين - أصحاب العجل - الذي عبدوا غير الله. ولـمّا تبيَّن له عذر أخيه، **﴿قالَ ربِّ اغفرْ لي وَلأخِي﴾** استر ذنبي بفضلك وكرمك، واعف عمَّا سلف مني ومن أخي. **﴿وأَدْخِلْنَا في رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ﴾** وارحمنا برحمتك الواسعة، فإنك أرحم الراحمين. **﴿إنَّ الذينَ اتَّخذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** إن الذين عبدوا العجل وجعلوه إلَهاً، سيلحقهم غضبٌ من الله، وذلة وهوان في الدنيا قبل الآخرة. **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرينَ﴾** وكذلك نجزي كل من كذب على الله، فعبد غيره بعد إقراره بوحدانية الله. **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾** والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم تابوا وأنابوا بعدها وصدَّقوا بالله. **﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾** إن ربك ساتر لذنوبهم، رحيمٌ بهم وبالتائبين **﴿ولما سكتَ عن موسى الغضبُ﴾** ولما سكن غضب موسى وهدأ. **﴿أخذ الألواحَ وفي نسختها هدىً﴾** أخذ الألواح بعدما ألقاها، وفيما كُتب فيها بيانٌ للحق، وهداية من الضلالة. **﴿ورحمةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾** ورحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه. **﴿واختَارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتِنَا﴾** واختار موسى من قومه سبعين رجلاً، للوقت الذي وعده الله فيه، للتوبة والإعتذار مما فعله سفهاؤهم في عبادتهم العجل **﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾** فلما أخذتهم الرجفة عقاباً لهم على قولهم: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» وماتوا بتلك الرجفة[2] **﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وإيَّايَ﴾** قال موسى: يا رب لو

---

(١) دعاه بأمه مع أنه أخوه الشقيق لأنه أدعى إلى العطف والحنو.

(٢) في رواية السُّدي: إن السبعين الذين اختارهم موسى، ليعتذروا إليه من عبادة العجل، لما أتوا المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم! لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي!! فما زال يتضرع حتى أحياهم الله له وذلك قوله تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾

ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ
مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾
ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ

* * *

شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك، قال ذلك على وجه التضرع والرغبة. **﴿أتهلكنا بما فعلَ السُّفَهَاءُ منَّا﴾** أتهلكنا يا رب بذنوب من عبد العجل؟ **﴿إنْ هي إلَّا فتنتُكَ﴾** ما هذا إلَّا ابتلاءُ واختبارٌ منك. **﴿تُضِلُّ بها من تَشاءُ وَتَهْدي مَنْ تَشاءُ﴾** ابتليتهم بها ليتبيَّن الذي يضل عن الحق والذي يهتدي إليه. **﴿أنتَ ولينا فاغفر لنا وارحمنا﴾** أنت ناصرنا ومتولي أمرنا، فاستر ذنوبنا، وتعطَّف علينا برحمتك **﴿وأنتَ خيرُ الغافرينَ﴾** وأنت خير من صفح وستر. **﴿واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنَّا هُدْنا إليكَ﴾** اجعلنا ممن كتبتَ له في الدنيا الصالحات من الأعمال، وفي الآخرة المغفرة من الذنوب، إنَّا تبنا إليك. **﴿قالَ عَذَابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيءٍ﴾** قال الله لموسى: عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، ورحمتي عمَّت خلقي كلهم. **﴿فسأكتبها للذينَ يتقون ويؤتون الزكاة﴾** فسأكتب رحمتي وأجعلها للذين يخافون الله، ويجتنبون معاصيه، ويؤدون زكاة أموالهم لمستحقيها. **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** والذين هم بآياتنا يُقرّون ويُصدِّقون. ثم بيَّن وفصَّل هؤلاء فقال: **﴿الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾** الذين يتبعون الرسول محمداً ﷺ النبي الأميَّ[١] المبشَّر به، **قال ابن عباس:** هم أمة محمد ﷺ **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** الذي يجدون نعته وصفته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾** يأمر هذا النبي أتباعه بالإيمان بالله وطاعته، وينهاهم عن الشرك بالله والمعاصي. **﴿ويُحلُّ لهم الطيبات ويُحرِّم عليهم الخبائث﴾** ويحل لهم الطيبات التي أحلها الله، ويُحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير والخمر[٢] **﴿وَيَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ﴾** ويضع عنهم العهد[٣] الذي كان أُخذ على بني إسرائيل، بالعمل بما في التوراة

(١) الأميُّ: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ. وليس معناه الجاهل الذي لم يتعلم، فتنبه لهذا هداك الله

(٢) المراد بالطيبات والخبائث: الحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وهذا مذهب مالك، وقال الشافعي: الطيبات المستلذات، والخبائث المستقذرات كالخنافس والعقارب.

(٣) تفسير الإصر بالعهد منقولٌ عن ابن عباس ورجحه الطبري، وقال بعض المفسرين: الإصرُ الأحكام الشاقة والتكاليف التي يضعف عن حملها الإنسان كقوله تعالى ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ وهذا هو الأظهر والأرجح

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

* * *

من الأعمال الشديدة. ﴿والأغلال التي كانتْ عليهمْ﴾ والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم ثم نسخها القرآن، كتحريم الغنائم، وقتل النفس في التوبة. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي وأقرُّوا بنبوته. ﴿وعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ ووقَّروه وعظَّموه، ونصروا دينه بجهادهم معه أعداء الله. ﴿واتَّبعوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَه﴾ واتبعوا القرآن الذي أنزله الله عليه. ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أولئك هم الناجحون الظافرونَ بما طلبوا. ﴿قُلْ يَا أيُّها النَّاسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾ قل يا محمد للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم كما كان من قبلي من الرسل. ﴿الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ﴾ الذي له سلطان السموات والأرض وما فيهما وتدبير ذلك وتصريفه. ﴿لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ يُحْيِي ويُميتُ﴾ لا معبود بحقٍ إلا هو جل ثناؤه، القادر على الخلق والإفناء. ﴿فآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النبيِّ الأُمِّيِّ﴾ فصدِّقوا بوحدانية الله، وبرسالة رسوله محمد ﷺ النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿الَّذي يُؤْمِنُ باللهِ وكلماته﴾ الذي يُصدِّق بالله وآياته[1] ﴿واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ اسلكوا طريقه، واقتدوا به لكي تهتدوا. ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْـدُونَ بِالْحَقِّ﴾ ومن بني إسرائيل جماعة يتَّبعون الحقَّ ويستقيمون عليه. ﴿وبه يَعْدِلُونَ﴾ وبالحقِّ يُنصفون فلا يجورون. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ وفرَّقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتَّى، اثنتيْ عشرة قبيلةً[2] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ﴾ وأوحينا إلى مُوسَى حين كان بنو إسرائيل في التيه، واستسقوا موسى من العطش، أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قد علم كل جماعة من الأسباط مكان شربهم. ﴿وظللنا عليهم الغَمامَ﴾ يسترهم من حرّ الشمس وأذاها. ﴿وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى﴾ طعاماً لهم. ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ وقلنا لهم:

---

(١) فسَّر الطبري «الكلمات» و«كلماته» بالآيات، وفسَّرها غيره بأنها التي أنزلها الله على أنبيائه.

(٢) إنما فرَّقهم قبائل لاختلافهم في دينهم، كما حكم عليهم بالتيه﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

* * *

كلوا من حلال ما رزقناكم وطيَّبناه لكم. ﴿وما ظَلَمُونا ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلِمونَ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره: فكرهوا ذلك وملُّوا منه وقالوا «لن نصبر على طعام واحد» فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وما ظلمونا بفعل ذلك، ولكن ظلموا أنفسهم لاستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل. ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ واذكر أيضاً من عصيانهم لأمر نبيِّهم موسى، حين قال لهم الله: اسكنوا قرية بيت المقدس، وكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها، من أين شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وقولوا: حُطَّ عنا ذنوبنا ـ أي اغفرها لنا ـ ﴿وادخلوا البابَ سُجَّداً﴾ ادخلوا باب «بيت المقدس» ساجدين لله، شكراً على نعائمه ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ نعفو لكم عما سلف من ذنوبكم، فلا نؤاخذكم بها ﴿سنزيدُ المحسنينَ﴾ سنزيد المطيعين لله تعالى ـ على ما وعدتهم من غفران الخطايا ـ الأجر والمثوبة. ﴿فبدَّل الذينَ ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به فقالوا بدل حِطَّة «حنطةٌ في شعيرة»[١] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بعثنا عليهم عذاباً من السماء أهلكناهم به، بسبب ما كانوا يُغيِّرون أوامر الله، ويفعلون غير ما يؤمرون ﴿وَاسْأَلْهُمْ عن الْقَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ اسأل اليهود يا محمد ـ سؤال تقرير وتوبيخ ـ عن أمر القرية[٢]، التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ في السَّبْتِ﴾ إذ يعتدون أمر الله يوم السبت، ويتجاوزونه إلى ما حرَّم الله فيصطادون فيه السمك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ حين تأتيهم الأسماك، يوم السبت الذي نهوا عن العمل فيه[٣]، ظاهرةً على الماء من كل مكان. ﴿ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأْتِيهِمْ﴾ وفي غير يوم السبت لا تأتيهم الحيتان. ﴿كذلكَ نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ كذلك نختبرهم ـ بإظهار السمك على ظهر الماء، في اليوم المحرَّم عليهم صيدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المحلَّل صيدُه ـ بسبب فسقهم عن طاعة الله،

(١) قالوا ذلك استهزاءً وسخرية بأمر الله، لعنهم الله وشتَّت شملهم.

(٢) قال ابن كثير: هذه القرية هي «أيلة» وهي على شاطىء بحر القلزم، وقيل هي مدين.

(٣) كانت الأسماك تخرج من البحر يوم السبت، وتظهر قريبةً منهم كثيرة ابتلاءً لهم، إذ كان صيدها عليهم حراماً، وتغيب عنهم سائر الأيام.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

* * *

وخروجهم عنها[١] ﴿وإذْ قالَتْ أمةٌ منهم لم تعظونَ قوماً اللهُ مهلكهم أوْ معذبُهم عذاباً شديداً﴾ واذكر حين قالت جماعة منهم للجماعة الأخرى التي نهتهم عن معصية الله: لم تنصحون قوماً الله سيهلكهم في الدنيا بعصيانهم أمره، أو يعذبهم عذاباً شديداً في الآخرة؟ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إلى رَبكُمْ﴾ قالوا: إنما نعظهم لنعذر عند الله، بأداء ما فرض علينا، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولكي يتوبوا من معصيتهم، وينزعوا عمَّا هم عليه. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّروا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ فلمّا ضيَّعوا أمر الله، واستحلوا ما حرَّم الله عليهم، أنجينا الذين ينهون منهم عن معصية اللَّهِ ﴿وَأخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وأهلكنا الذين ظلموا بعذاب أليم شديد. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عمَّا نُهُوا عنه﴾ فلما تَمردُوا عن طاعة الله، وتكبروا عمَّا نُهوا عنه. ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ مسخناهم قردة[٢] ذليلين حقيرين مهانين، قال قتادة: لما أصرَّ القوم على المعصية، صاروا قردة تَعاوى لها أذناب، بعد أن كانوا رجالاً ونساءً. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ واذكر حين أعلم ربك. ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليسلطنَّ على اليهود إلى يوم القيامة ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ من يذيقهم أسوأ أنواع العذاب[٣]، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله، واحتيالهم على المحارم. ﴿إنَّ رَبكَ لَسَريعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحيمٌ﴾ لمن تاب وأناب، ورجع إلى طاعة الله. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أمَماً﴾ وفرَّقناهم في الأرض جماعات شتَّى[٤] ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ومنْهُمْ دُونَ

(١) هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله فعاقبهم تعالى بأنواع العقاب الأليم.

(٢) مسخهم الله حقيقة إلى قردة وخنازير، بسبب طغيانهم كما قال تعالى ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾

(٣) هذا حكمٌ من الله تعالى قاطعٌ، بقهر اليهود وإذلالهم في الأرض، عقوبة لهم على إجرامهم، وقد أذلهم الله فسلّط عليهم «الملوك» من اليونانيين والكلدانيِّين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية، ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان.

(٤) المراد أن الله فرقهم في البلاد، فليس لهم إقليمٌ يملكونه، وفي كل بلدة فرقة منهم، وإنما تجمَّعوا في فلسطين اليوم ليذبحوا بأيدي المسلمين إن شاء الله كما وعد رسول الله ﷺ.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

* * *

ذَلِكَ﴾ من بني إسرائيل الصالحُ، ومنهم دون الصالح، وهذا قبل كفرهم وارتدادهم عن دينهم. **﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** واختبرناهم بالسَّعة والضيق، والرخاء والشدَّة في العيش، لينيبوا إلى ربهم، ويرجعوا إلى طاعته. **﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ﴾** فحدث من بعد هؤلاء القوم الذين قصَّ الله قصصهم، خَلْفَ آخر لا خير فيهم، ورثوا التوراة وضيَّعوا العمل بها. **﴿يأخذون عَرَضَ هَذَا الأَدْنى﴾** يأخذون عَرَض الدنيا القريب العاجل، فيرتشون في حكم الله. **﴿ويقولونَ سيُغْفَر لنا﴾** ويقولون ـ تمنياً على الله الأباطيل ـ سيغفر الله لنا ذنوبنا. **﴿وَإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾** وإن جاءهم مال حرام من الرشوة أخذوه واستحلوه، **قال مجاهد**: لا يُشرف لهم شيءٌ من الدنيا إلَّا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنَّون المغفرة[1] **﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ﴾** ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين عهدُ اللهِ، بإقامة التوراة والعمل بما فيها، وألَّا يكذبوا على الله[2]؟ **﴿وَدَرَسُوا مَا فيهِ﴾** والحال أنهم قرأوا ما في الكتاب ودرسوه؛ ولكنهم تركوا العمل به وضيَّعوه، وخالفوا عهد الله. **﴿والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ أفلا تعقلونَ﴾** وما أعدَّ الله لأوليائه في الآخرة، خير من هذا الحُطَام العاجل، للذين يراقبون الله في أمره ونهيه، أفلا تعقلون ذلك؟ **﴿ والَّذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَاب وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾** والذين يعملون بما في كتاب الله ويعتصمون به، وأقاموا الصلاة بحدودها وفي أوقاتها. **﴿إنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحينَ﴾** إني لا أضيع أجرعملهم الصالح[3] **﴿وَإذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** واذكر يا محمد حين اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظُلَّة سحاب فوقهم. **﴿وَظَنُّوا أنَّهُ واقعٌ بِهِمْ﴾** وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم ينفّذوا أمر الله[4]. **﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾** وقلنا لهم: خذوا ما ألزمناكم من أحكام كتابنا فاقبلوه، واعملوا باجتهادٍ منكم وعزم، واذكروا ما فيه من العهود

(١) قال الطبري: أخبر تعالى أنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة.

(٢) في الآية إشارة إلى كذبهم في قولهم﴿سيُغفر لنا﴾فإن هذا قول على الله بغير الحق.

(٣) أقامَ ذكر المصلحين مقام الضمير فقال﴿أجر المصلحين﴾إشادةً بفضل من يستمسك بكتاب الله من جميع الأمم.

(٤) كان بنو إسرائيل قدرفضوا العمل بالتوراة، فأمر الله جبريل أن يقتلع الجبل ويرفعه فوق رؤوسهم، وقال لهم: لتقبلنَّ التوراة بما فيها أو لأرمينكم بهذا الجبل!! قال الحسن البصري: لمَّا نظروا إلى الجبل انقادوا خوفاً من أن يسقط عليهم فكذلك اليوم لا تجد يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ
بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي
آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

* * *

والمواثيق. ﴿لعلكم تتَّقونَ﴾ كي تتقوا ربكم وتخافوا عقابه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ﴾ اذكر يا محمد حين استخرج ربك وَلَدَ آدم من أصلاب آبائهم. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض بذلك، وقال لهم: ألست ربكم وخالقكم؟ قالوا: بلى شهدنا على ذلك[1] ﴿أَنْ تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين﴾ كي لا تقولوا يوم القيامة لقد كنا عن التوحيد والإيمان غافلين لا نعلم ذلك ﴿أو تقولوا إنَّما أشرك آباؤنا منْ قبلُ وكُنَّا ذُرِّيةً من بعدهم﴾ أو تقولوا إنما أشرك آباؤ نا قبلنا، فاتبعنا منهاجهم على جهلٍ منا بالحقِّ. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أفتهلكنا بإشراكِ من أشرك من آبائنا الضالين، في دعواهم إلٰهاً غير الله؟! ﴿وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾وكماوضَّحناما فعلنا بالأمم السابقة، وأحللنا بهم من العقوبات بكفرهم وإشراكهم، كذلك نبيِّن ونوضِّح الآيات لقومك، لينزجروا ويرتدعوا عن الكفر والشرك، ويرجعوا إلى التوحيد والإيمان. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ واتل يا محمد على قومك، خبر وقصة الرجل الذي أعطيناه آياتنا[2]، فخرج من الآيات وتبرأ منها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فلحقه الشيطان فصار من الهالكين لضلاله ومخالفته أمر ربه. ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ ولو شئنا لرفعنا منزلته بالآيات التي كانت عنده. ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها، وآثر لذتها وشهوتها على الآخرة، واتبع هوى نفسه ورفض

---

(١) اختار بعض المفسرين أن هذا على الحقيقة، واستدلوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: إن الله مسح صلب آدم، فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفَّل لهم بالأرزاق. واختار ابن كثير أن ذلك على سبيل التمثيل، وأن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما فسره بذلك الحسن البصري، واستدل على ذلك بقوله تعالى﴿من بني آدم﴾ولم يقل من آدم، وقال﴿من ظهورهم﴾ولم يقل من ظهره. ثم قال: وما روي عن ابن عباس فهو موقوف لا مرفوع، ومما يدل على أن المراد ما ذكرنا أن الله جعل هذا الإشهاد حجةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع كما قاله من قال، لكان لكل أحد أن يذكره ليكون حجة عليه. ا هـ ابن كثير ٢ / ٦٤

(٢) كان رجل في بني إسرائيل يسمى « بلعم بن باعوراء » أعطاه الله العلم والحكمة فمال إلى الدنيا وخلد إلى نعيمها، وباع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، وهو مَثَلٌ لعلماء السُّوْء الذين يختلون الدنيا بالدين، ويسايرون أهواء الحاكمين تملقاً وتزلفاً، فما أسوأ مصيرهم، وما أبشع حالهم حين صورهم القرآن بصورة الكلب اللاهث ﴿فمثله كمثل الكلب﴾!!

كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ
يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ
كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ

* * *

طاعة مولاه. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحملْ عليهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ فمثل هذا الشخص كمثل الكلب، إن طردته لهث أو تركته لهث، فإنه لا يدع اللهث سواء طُرد، أم لم يُطرد[1] ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا﴾ هذا المثل الذي ضربتُه هو مثل القوم الذي كذبوا بحججنا وأدلتنا، وسلكوا سبيل الضلال. ﴿فاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاقصص يا محمد على قومك هذه الأخبار، ليتفكروا فيعتبروا ويُنيبوا. ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا وأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمونَ﴾ بئس مثل القوم المكذبين بآياتنا، وما ظلموا إلا أنفسهم بتكذيبهم بآيات الله. ﴿مَنْ يَهْدِ الله فهو المهتدي﴾ المهتدي من هداه الله فوفقه في دينه. ﴿ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ والضالُّ من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، فهو الخاسر الهالك. ﴿ولقد ذَرَأْنَا لجهنَّمَ كثيراً من الجنّ والإنس﴾ ولقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ـ وهم الذين علم الله دخولهم النار بكفرهم ـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بهَا﴾ لهم قلوبٌ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون في أدلة وحدانية الله. ﴿ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها﴾ لا ينظرون بها إلى آيات الله[2]. ﴿ولهم آذانٌ لا يسمعون بها﴾ لا يسمعون بها ـ سماع تدبر وتفكر ـ القرآن. ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه الخير من الشر، ولا تفهم النافع من الضار، بل هم أضلُّ من البهائم، لأن البهائم لا عقل لها ولا تمييز، وهؤلاء ـ مع ما أعطوا من العقول والأفهام ـ لا يميزون بين المصالح والمضارّ ﴿أُولئكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ عن آيات الله وحججه.

﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا﴾ وللهِ أشرف الأسماء وأحسنها فسمُّوه بها. ﴿وَذَرُوا الذينَ

---

(١) هذا من النوع الذي يسمى في البلاغة «التشبيه التمثيلي» وهو تمثيل في غاية الخسة والدناءة، فإن مَثَل هذا الذي ترك دينه من أجل دنياه، ورضي بحطام الحياة الفاني عن النعيم الباقي، كمثل الكلب الذي يلهث، سواء طردته أو تركته على حاله، لأن ذلك طبعه، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر الإعجاز.

(٢) ليس المراد نفي العقل والسمع والبصر بالكلّية وإنما المراد نفيها عمّا ينفعهم في دينهم وآخرتهم، وهذه الحواسُّ جعلها الله سبباً للهداية والسعادة، فمن لم يستفد منها كان كالبهائم بل شراً منها، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾

يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

* * *

يُلحدون في أسمائِهِ﴾ وَدَعُوا المشركين الذين يُلحدون في أسماء الله ويكذبون بها. قال مجاهد: اشتقوا «اللات» من الله، «والعُزَّى» من العزيز، وأصل الإلحاد العدولُ عن القصد، والميلُ والجورُ **﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة، وفي الآية وعيدٌوتهديد[1] **﴿وَمِمَّنْ خلقنا أمةٌ يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلون﴾** ومن الخلق الذين خلقناهم، جماعةٌ يهتدون بالحق، وبه يقضون ويُنصفون الناس. **﴿والّذينَ كذَّبوا بآياتِنا﴾** كذبوا بأدلتنا وحججنا **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمونَ﴾** سنمهلهم ونستنزلهم بإحسانٍ منا ولطف من حيث لا يشعرون، ليغتروا ويظنوا أنهم على حقٍّ، ثم نعاقبهم على أعمالهم السيئة. **﴿وأمْلي لهم إن كيدي متينٌ﴾** وأؤخر هؤلاء المكذبين فلا أعجّل لهم العقوبة، إن مكري بهم قويٌ شديد[2] **﴿أوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ﴾** أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون ويتدبَّروابعقولهم ،أن محمداً ﷺ الذي أرسلناه لهم، ليس به خَبَل ولا جنون، وأن ما دعاهم إليه هو الدينُ القويم والحقُّ المبين؟ **﴿إن هو إلّا نذيرٌ مبينٌ﴾** ما هو إلا منذر، ينذركم عقاب الله وعذابه إن لم تنيبوا إلى الإيمان **﴿أوَ لَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض﴾** أو لم ينظر هؤلاء المكذبون في ملك الله، وسلطانه الواسع في السموات والأرض؟ **﴿وما خلق الله من شيءٍ﴾** وفيما خلق الله فيهما، ليعتبروا ويعلموا أن ذلك من فعل الله جلَّ وعلا؟ **﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَب أَجَلُهُمْ﴾** وأن يحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيموتوا على الكفر. **﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾** فبأي كلام وبأي تخويف وترهيب يصدِّقون،إن لم يصدقوا بهذا الكتاب؟**﴿من يُضْلِلِ اللّهُ فلا هَادِيَ لَهُ﴾**من أضله الله عن الرشاد فلا هادي له. **﴿ويذرهم في طغيانهم يَعْمهون﴾** ويتركهم في كفرهم يترددون حيارى. **﴿يَسْألونَكَ عَن السَّاعةِ أَيَّانَ**

---

(١) روي أن أبا جهل لعنه الله، سمع بعض الصحابة يقرأ فيذكر الله مرة والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإلّه واحد وها هو يعبد آلهة كثيرة فنزلت الآية الكريمة مبيِّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمّى واحد.

(٢) سمّى فعله بهم كيداً تشبيهاً بالكيد في أن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان.

عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ
حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا
مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا
صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

* * *

﴿مُرْسَاهَا﴾ يسألك القوم عن الساعة[1] متى قيامُها؟ **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبي﴾** قل لهم: علمها عند الله. **﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ﴾** لا يُظهرها لوقتها ولا يعلم زمنها غيره جلَّ ذكره. **﴿ثَقُلَتْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾** ثقل علمها على أهل السموات والأرض، لأن الله أخفاها عن خلقه، فلا يعلمها مَلَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسل. **﴿لا تأتيكم إلاّ بغتةً﴾** لا تجيء إلا فجأةً **﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾** يسألونك كأن عالم بها ومهتمّ بالسؤال عنها فتعلمها. **﴿قُلْ إنَّمَا علمها عند اللهِ﴾** ليس لي علم بوقتها، وإنما علمها عند عالم الغيب. **﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾** لا يعلمون أن ذلك مختص بالله **﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾** لا أقدر على جلب نفع لنفسي، ولا دفع ضر عنها **﴿إلاّ ما شاء اللهُ﴾** إلا بعون الله وقوته. **﴿ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ منَ الخير﴾** ولو كان لي علمٌ أمر الغيب، لأعددتُ الكثير من الخير، قال مجاهد: لاستكثرتُ من العمل الصالح. **﴿وما مَسَّني السُّوءُ﴾** وما أصابني الضُّر. **﴿إنْ أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ﴾** ما أنا إلا رسول، أخوِّف الناسَ من عقاب الله، وأبشرهم بثوابه وكرامته. **﴿لقوم يؤمنون﴾** يصدّقون بأني رسول من عند الله **﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾** خلقكم من آدم عليه السلام. **﴿وجعل منها زوجها﴾** وخلق من النفس الواحدة حواء. **﴿ليسكن إليها﴾** ليأوي إليها لقضاء لذته وحاجته. **﴿فلما تَغَشَّاها حملت حملاً خفيفاً﴾** فلما تدثرها[2] وقضى حاجته منها، حملت في رحمها ماءً خفيفاً منه وهو النطفة **﴿فمرَّتْ به﴾** فاستمرَّت بالحمل وقامت وقعدت به. **﴿فلما أثقلتْ﴾** فلما صار ما في بطنها من الحمل ثقيلاً ودنت ولادتها **﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** ناديا ربهما قائلين: يا ربنا لئن أعطيتنا غلاماً بشراً سوياً، لنكونن ممن يشكرك على نعمائك. **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾**

(١) الساعة المراد بها القيامة، سميت ساعة لأنها تأتي في ساعة من الزمن.

(٢) فسَّر الطبري «تَغَشَّاها» بمعنى تدثرها والمراد به جامعها، والكنايات في مثل هذه المواطن أدبٌ من الآداب الرفيعة التي نبهنا عليها القرآن. ولهذا قال ابن عباس: إن الله حييٌّ ستِّير يكني.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

* * *

فلما رزقهما ولداً صالحاً، جعلا لإبليس فيه شِركاً بتسميته «عبد الحارث» بالإسم لا في العبادة(١). ﴿فتعالى الله عمَّا يُشركون﴾ فتنزّه وتعظَّم اللّهُ عما يقول فيه المبطلون من مشركي العرب، وما يدّعون معه من الآلهة والأوثان. ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقونَ﴾ أيشركون فيعبدون معه حجراً أو خشباً أو نحاساً، ممَّا لا يخلق شيئاً، والله يخلقها وينشئها؟ ﴿ولا يَسْتَطِيعُونَ لهم نَصْراً﴾ ولا تملك هذه الآلهة لعابديها أن تنصرهم إن أراد الله بهم سوءاً. ﴿ولا أنفسَهُمْ يَنْصرون﴾ ولا تملك أن تجلب إلى نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضراً وفي هذا تعجيبٌ من عظيم خطأ هؤلاء المشرلاكين ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إلى الهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وإن دعوتَ الأصنام إلى خيرٍ أو رشاد لا تسمع، لأنها جمادات لا تَفْقَهْ ولا تعقل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ يتساوى دعاؤكم لها وسكوتكم، في عدم الإفادة ﴿إِنَّ الَّذِين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ إن الذين تعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام، مخلوقاتٌ مثلكم بل أنتم أكمل منها(٢). ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادقين﴾ فادعوهم لجلب نفع أو دفع ضرّ، إن كنتم صادقين في دعوى إنها آلهة ﴿ألهم أرجلٌ يمشون بها﴾ ألهذه الأصنام أرجلٌ يمشون بها في حوائجكم؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ فيدفعون عنكم من يقصدكم بشرٍّ ومكروه؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أعينٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ فيعرِّفونكم ما يغيب عنكم؟ ﴿أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيخبِّرونكم ما لم تسمعوه؟ فإذا كانت آلهتكم ليس فيها شيء من هذه الآلات، فما وجه عبادتكم لها؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُهَدَاءكُمْ ثُمَّ كيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا آلهتكم واستنصروا بها

---

(١) روي أن حواء كان لا يعيش لها ولد، فلما حملت أتاها إبليس فقال: «سمّيه «عبد الحارث» فإنه يعيش، فسمّته «عبد الحارث» فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» رواه أحمد والترمذي قال ابن كثير: وهذا الحديث معلول وهو موقوف على الصحابي، والصحيح في الموضوع ما رُوي عن الحسن البصري أن هذا كان في أهل الملل «اليهود والنصارى والمشركين» رزقهم الله أولاداً فهوّدوهم ونصّروهم بدليل قوله تعالى ﴿فتعالى الله عما يُشركون﴾ لأن المراد بالصيغة ذرية آدم **أقول**: هذا هو الراجح والصحيح، لأن نسبة الشرك إلى آدم ـ الذي اصطفاه الله بنص الكتاب ـ لا يصح، لأنه من الأنبياء الكرام، وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالفخر الرازي والزمخشري وابن كثير.

(٢) الغرض بيان أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، بل الإنسانُ أكمل منها وأشرف، لأنه يسمع ويبصر ويعقل، وهذه دُمَى لا يرجى منها شيء من الخير فكيف تكون آلهة مع الله؟!

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ
وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ
ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ
فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

* * *

عليَّ، فلا تؤخروني بالكيد والمكر طرفة عين، فإن الله قد عصمني منكم. ﴿إنَّ وَلِيِّي اللهُ الَّذِي نَزَّل الكتابَ﴾ إنَّ نصيري ومعيني عليكم، اللهُ الذي نزل القرآن عليَّ بالحقِّ ﴿وهو يتولّى الصالحينَ﴾ وهو وليُّ كل صالح. ﴿والذين تدعون من دونه﴾ والذين تعبدونهم من الآلهة ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لا يقدرون على نصركم ولا على نصر أنفسهم، فأيُّ هذين أحقُّ بالعبادة؟ من ينصر وليَّه، أم من لا يستطيع أن ينصر نفسه ووليه؟ ﴿وإنْ تَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ وإن تدعوا آلهتكم إلى الإستقامة والسَّداد لا يسمعوا دعاءكم. ﴿وتراهم ينظرونَ إليك وهم لا يُبصرونَ﴾ وترى يا محمد آلهة المشركين، ينظرون[1] إليك وهم لا يبصرونك، لأنه لا أبصار لهم ﴿خذ العَفْوَ﴾ خذ يا محمد بالعفو والصفح عن المشركين، واترك الغلظة عليهم ﴿وَأْمُرْ بالعُرْفِ﴾ وأمر بالمعروف من كل قولٍ وعمل، دعا الله له أو ندب إليه. ﴿وَأَعْرِضْ عن الجاهِلينَ﴾ وأعرضْ عمن جهل عليك باحتمال الأذى منه[2] ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ﴾ وإما يغضبنَّك من الشيطان غضبٌ، يصدُّك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته. ﴿فاستعذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ﴾ فاستجر بالله من نزغه[3] ووساوسه، إن الله سميعٌ لجهل الجاهل، عليمٌ بما يُذهب عنك نزغ الشيطان. ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا﴾ إن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، إذا ألمَّ بهم لممٌ من الشيطان، تذكَّروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده. ﴿فإذا هم مبصرونَ﴾ فإذا هم منتهون عن معصية الله، مبصرون هدى الله. ﴿وإخوانهم يَمُدُّونهم في الغيِّ﴾ وإخوان الشياطين من المشركين، تزيدهم الشياطين غياً وضلالاً ﴿ثم

---

(١) يريد أنهم يقابلونك بعيون مصوَّرة، كأنها ناظرة لأنها جماد، على صور بني آدم.

(٢) روي أن الآية لما نزلت سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال له: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك» رواه ابن أبي حاتم.

(٣) أصل النزغ الفسادُ، يقال: نزغ الشيطان بين القوم إذا أفسد بينهم.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩

* * *

لا يُقْصِرون﴾ ثم لا يكفُّون ولا يرعوون عن تماديهم في الغيّ والضلال. أخبر سبحانه عن فريق أهل الإيمان أنهم إذا استزلهم الشيطان، تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفتهم رهبته عن معاصيه، وردتهم إلى التوبة والإنابة، وأهل الكفر يزيدهم الشيطان غياً إلى غيهم، فهم دائماً في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيدهم ضلالاً أبداً **﴿وإذَا لم تَأتِهِمْ بآيَةٍ﴾** وإذا لم تأت المشركين بمعجزة من عند الله، وخارقٍ من العادة. **﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَها﴾** قالوا: هلاَّ أحدثتها من قِبَل نفسك؟ **﴿قل إنما أَتَّبعُ ما يُوحى إليَّ من ربي﴾** قل لهم يا محمد: إنما أنا عبدٌ للهِ، أتَّبع ما يوحيه إليَّ ربي. **﴿هذا بصائر من ربكم﴾** هذا القرآن حججٌ وبيان لكم من عند ربكم. **﴿وهدى ورحمة﴾** وهداية للمؤمنين إلى الطريق المستقيم، ورحمة لعباده أنقذهم به من الهلاك والضلالة **﴿لقومٍ يؤمنون﴾** يصدقون بالقرآن ويعملون بما فيه **﴿وإذا قُرِئ القرآن فاستمعوا له﴾** وإذا قرىء عليكم ـ أيها المؤمنون ـ القرآنُ فاصغوا لتلاوته، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه[1] **﴿وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** واسكتوا ولا تلغوا عند قراءته، ليرحمكم ربُّكم بتأدبكم بآدابه **﴿واذكر ربك في نفسك﴾** اذكر ربك أيها السامع للقرآن في سِرِّك. **﴿تَضَرُّعاً وخِيفَةً﴾** تخشعاً وتواضعاً لله، وخوفاً من عقابه. **﴿وَدُونَ الجَهْرِ من القَوْلِ﴾** وليكن دعاؤك باللسان في سرٍّوخفاء،لاجهاراً**﴿بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾** في أول النهار وآخره **﴿وَلا تكن من الغافلين﴾** ولا تكن من الساهين اللاهين عن عِبَر القرآن وعظاته **﴿إنَّ الَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾** إن الملائكة الأبرار **﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾** لا يستكبرون عن التواضع والعبادة والخشوع لله سبحانه. **﴿ويسبحونه وله يسجدون﴾** ويعظمون ربهم وله تعالى يصلّون، فعظموا ربكم بالعبادة كما تفعله الملائكة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

***

(١) أمر المؤمنون بالإنصات والسكوت عند تلاوة القرآن، إعظاماً له واحتراماً، ومخالفة للمشركين الذين قالوا﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾

(٨) سورة الأنفال مدنية
وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

* * *

﴿يسألونك عن الأنفالِ﴾ يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم لمن هي؟ **﴿قل الأنفالُ للهِ والرسولِ﴾** قل لهم: هي لله ولرسوله دونكم، يجعلها حيث شاء **﴿فاتقوا الله﴾** فخافوا الله واتقوه بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه **﴿وأصلحوا ذاتَ بينكم﴾** وأصلحوا الحال التي بينكم **﴿وأطيعوا اللَّهَ ورسوله﴾** انتهوا إلى أمر الله وأمر رسوله. **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** إن كنتم مصدّقين بما جاءكم من عند ربكم **﴿إنَّما المُؤْمِنونَ الَّذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ﴾** ليس المؤمن الذي يترك اتباع ما أنزله الله في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن الذي إذا ذُكر الله خاف قلبه، وخضع لذكره، خوفاً منه وفَرَقاً من عقابه. **﴿وإذَا تُليتْ عليهم آياتُه زَادتهم إيماناً﴾** وإذا قرئت عليهم آيات القرآن، صدَّقوا بها وأيقنوا أنها من عند الله، فازدادوا بذلك إيماناً. **﴿وعلى ربهم يتوكلونَ﴾** وعلى ربهم يعتمدون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه. **﴿الذين يقيمون الصلاة﴾** يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها **﴿وممَّا رزقناهم ينفقون﴾** وينفقون مما رزقهم الله في وجوه البر: من زكاة، وجهاد، وحج، وعمرة، ونفقةٍ، فيؤدون حقوقهم على من تجب عليهم نفقتُه **﴿أولئك هم المؤمنونَ حقاً﴾** هؤلاء هم الذين استحقوا الإيمان بحق، لا الذين

---

(١) عن عبادة بن الصامت قال: نزلت فينا أصحاب بدر، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسوله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء. «رواه أحمد»

لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾
وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ

* * *

يقولون بألسنتهم آمنا، وقلوبُهم منطويةٌ على النفاق. ﴿لهم درجاتٌ عند ربهم﴾ لهم مراتب رفيعة عند الله ﴿ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾ وعفوٌ عن ذنوبهم، ورزق كريم في الجنة، وهو ما أعده الله لهم، من المآكل والمشارب وهنيء العيش.

﴿كما أخرجكَ ربُّك من بيتكَ بالحقِّ﴾ على كرهٍ من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحقِّ بعدما تبيَّن. ﴿وإنَّ فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ وإن جماعة من المؤمنين كارهون للقاء أعدائهم. ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ هو قولهم: إنما خرجنا للعير، ولم تخبرنا بأننا سنلقى عدونا حتى نستعدَّ لقتالهم. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إلى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرونَ﴾ كأن هؤلاء المجادلين يُساقون إلى الموت، وهم ينظرون أهواله. ﴿وإذْ يعدكم اللهُ إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ واذكروا أيها القوم حين يعدكم الله إحدى الفرقتين: فرقة أبي سفيان والعير، وفرقة المشركين الذين نفروا لمنع عيرهم، أن ما معهم غنيمة لكم ﴿ وتودُّونَ أنَّ غير ذاتِ الشوكةِ تكون لكم ﴾ وتحبون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال ﴿ ويريدُ الله أنْ يُحقَّ الحقَّ بكلماتِه ﴾ ويريد الله أن يُعلي الإسلام بقتالكم الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة والمال. ﴿ ويقطع دابر الكافرينَ ﴾ ويستأصل جماعة الجاحدين بالله ورسوله، فلا يبقي منهم أحداً. ﴿ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل﴾ يريد أن يقطع دابر الكافرين، كي يُعبد اللهُ وحده ويعز الإسلام، ويبطل عبادة الآلهة والأصنام. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولو كره الذين أجرموا ذلك ﴿إذْ تَسْتغيثُونَ ربكُمْ﴾ حين تستجيرون بربكم من عدوكم، وتَدعونه أن ينصركم عليهم[1] ﴿فَاسْتَجابَ لَكُمْ أني ممدكم بألفٍ من الملائكةِ مُرْدِفينَ﴾ فأجاب دعاءكم بأني معينكم بألفٍ من الملائكة، يتلو بعضُهم بعضاً ﴿وما جعله اللهُ إلاَّ بشرى ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة إلاَّ بشارة

(١) روي أن النبي ﷺ نظر إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين وهم يزيدون على ألف، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فنزلت ﴿إذ تستغيثون ربكم. . ﴾ الآية.

قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟
فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾

* * *

لكم بالنصر ﴿ولتطمئنَّ بهِ قلوبكم﴾ ولتسكن قلوبكم وتوقن بنصر الله لكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْد اللهِ﴾ وما النصر على الحقيقة إلا من عند الله، فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم ﴿إنّ الله عَزيزٌ حَكيمٌ﴾ لأن الله عزيز لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب، حكيم في تدبيره وصنعه. ﴿إذْ يُغشِّيكُمُ النُّعَاس أَمَنَةً مِنْهُ﴾ اذكروا حين يُلقي عليكم النعاس أماناً من الله لكم. ﴿ويُنَزِّل عليكم من السَّماءِ مَاءً ليطهِّركم بِهِ﴾ وينزّل عليكم المطر من السماء، ليطهّركم من الأحداث والجنابات. ﴿ويُذهِبَ عنكم رجْس الشَّيْطانِ﴾ ويدفع عنكم وسوسة الشيطان، وتخويفه إياكم من العطش(١) ﴿ولِيَرْبِطَ على قُلوبِكُمْ﴾ وليقوي قلوبكم بالثقة بنصر الله. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ويثبّت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ فيها. ﴿إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أَنّي معكم﴾ بأني معكم أنصركم. ﴿فثبِّتوا الذين آمنوا﴾ فقوُّوا عزائم المؤمنين في قتال المشركين. ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ﴾ سأرعب قلوب الكفار، واملأها خوفاً حتى ينهزموا. ﴿فاضربوا فوقَ الأعناقِ واضربوا منهم كل بنان﴾ فاضربوا رؤوس المشركين وأيديهم، واضربوا منهم كل طرف ومفصل ﴿ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه﴾ذلك الجزاء لهم بمخالفتهم وعصيانهم أمر الله ورسوله. ﴿ومن يُشاقِق اللهَ ورسولَه فإن اللهَ شديدُ العقاب﴾ ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله، فإن عذاب الله شديدٌ له، في الدنيا بالنقم، وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم. ﴿ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذابَ النَّار﴾ هذا العقاب الذي عجلته لكم فذوقوه يا معشر الكفار، واعلموا أن للكافرين في الآخرة عذاب النار. ﴿يا أيها الذينَ آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ إذا لقيتم أعداءكم في القتال زاحفين نحوكم، دانين متقاربين منكم. ﴿فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ﴾ فلا تنهزموا أمامهم ولكن اثبتوا لهم.

---

(١) روي أن المسلمين نزلوا في كثيب ـ رمل ـ تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم بعضهم، فوسوس إليهم الشيطان: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلُّون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم، وأذهب الله عنهم وسوسة الشيطان.

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

* * *

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ ومن يولِّهم يوم اللقاء ظهره منهزماً، إلا مستطرداً لقتال عدوه يريد العودة، يفرُّ خداعاً لعدوه ليكرَّ عليه. ﴿أو متحيزاً إلى فئةٍ﴾ أو منضماً إلى جماعة المسلمين ليقاتل معهم. ﴿فقد باءَ بغضب مِنَ الله﴾ فقد رجع بغضبٍ من الله. ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبئس المصيرُ﴾ ومصيره يوم القيامة جهنم، وبئس الموضع والمآل. ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ فلم تقتلوا المشركين ـ أيها المؤمنون ـ بقوتكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ وما رميتَ أنت يا محمد، حين حصبتَ أعين المشركين[١]، ولكنَّ الله رمى بإيصال ذلك إليهم، فالأمر من الله، لأنه تعالى هو الموصل ذلك إليهم،والمسبّب الرمية لرسوله ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾ وكي يُنعم على المؤمنين بالظفر والغنيمة، ويكتب لهم أجور أعمالهم وجهادهم مع رسول الله ﷺ ﴿إنَّ الله سَميعٌ عَلِيم﴾ سميعٌ لدعاء النبي ﷺ ولقول جميع خلقه،عليمٌ بما فيه صلاح عباده ﴿ ذلكم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كيدِ الكافرينَ﴾ذلك الذي حدث ـ من قتل المشركين، ورميهم حتى انهزموا، ونصر المؤمنين عليهم ـ حقٌّ فعلناه[٢]، واعلموا أن الله مع ذلك مضعف مكر الكافرين، حتَّى يذلوا فينقادوا للحق، أو يهلكوا. ﴿إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُم الْفَتْحُ﴾ إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين، وتطلبوا حكم ربكم، فقد جاءكم حكم الله وهو نصره المظلوم على الظالم، والمحقَّ على المبطل[٣] ﴿وإنْ تنتهوا فهو خيرٌ لكم﴾ وإن تكفُّوا يا معشر قريش، عن حرب الرسول والكفر بالله ورسوله، فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ وإن تعودوا لحربه وقتاله، نعد للانتقام منكم كما فعلنا ببدر. ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شَيْئاً ولو كَثُرَتْ﴾ ولن تدفع عنكم جماعتكم شيئاً من عذاب الدنيا، مهما كثر الأعوان والأنصار، كما لم تنفعكم يوم بدر. ﴿وأنَّ الله مع المؤمنين﴾ بالنصر والتأييد.

---

(١) عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية، فولّوا مدبرين.

(٢) اسم الإشارة «ذلكم» مبتدأ حُذف خبره تقديره: ذلكم الذي حدث حقٌّ.

(٣) روي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحنه ـ أهلكه ـ اليوم!! فكان أبو جهل هو المستفتح، فأنزل الله﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾وهو على سبيل التهكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾

* * *

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَه﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به ونهاكم عنه. **﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾** ولا تُعْرضوا عن رسول الله، مخالفين أمره ونهيه، وأنتم تسمعون أمره ونهيه[١]. **﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾** ولا تكونوا في الإعراض عن رسول الله ﷺ كهؤلاء المشركين، الذين يسمعون مواعظ القرآن بآذانهم ولا ينتفعون بما سمعوا **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ الله﴾** إن شرَّ من دبَّ على الأرض، وشرَّ الخلق عند الله. **﴿الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾** الصمُّ الذين يصمُّون عن الحق لئلا يستمعوه، الخُرْس الذين ينكصون عن النطق به، الذين لا يعقلون أمر الله ونهيه[٢]، ولا يتبعون ما جاءهم به الرسول **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾** ولو علم الله في هؤلاء المشركين خيراً، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبره. **﴿ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضونَ﴾** ولو أفهمهم ذلك[٣]، لتولَّوْا وهم معرضون عن الإيمان، معاندون للحقِّ بعد العلم به. **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾** أجيبوا دعاء رسوله، إذا دعاكم للإيمان والحقِّ، الذي به تحيا النفوس، **قال قتادة**: هو القرآن فيه الحياةُ، والثقةُ، والنجاةُ، والعصمةُ في الدنيا والآخرة. **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾** واعلموا أن الله تعالى هو المالك والمتصرف في الأشياء، يُصرِّف القلوب كيف يشاء، فهو أملك لقلوب عباده منهم يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. **﴿وأنه إليه تُحشرونَ﴾** إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفيكم جزاء أعمالكم. **﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلموا منكم خاصة﴾** احذروا أيها المؤمنون فتنةً، إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة، بل تعمُّ الصالح والطالح، يحذرهم أن يركبوا معصية، أو يأتوا مأثماً يستحقون به العقوبة. **﴿واعلموا أنَّ الله شديدُ**

---

(١) قال بعض المفسرين: ﴿وأنتم تسمعون﴾ القرآن والمواعظ، وهذا القول أظهر.

(٢) نزلت في جماعة من بني عبد الدار، كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء به محمد، وفي الآية غاية الذم للمشركين، فقد أخبر بأنهم شر من يدب على وجه الأرض، فهم شر من الكلاب والخنازير والحمير، ! لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم وهذا منتهى الذم والتقبيح.

(٣) هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي لو فرض أن الله أسمعهم ـ وقد علم أن لا خير فيهم ـ لكفروا وجحدوا، وفي الآية تسليةٌ للنبي ﷺ على عدم إيمان المشركين، لئلا يتفجع عليهم.

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

* * *

العقاب﴾ واعلموا ان الله شديدٌ عقابه لمن خالف أمره ، وهو تحذيرٌ ووعيد **﴿واذكروا إذْ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأَرْضِ﴾** اذكروا نعمة الله عليكم ، وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار ، يفتنونكم عن دينكم ، وينالونكم بالمكروه والأذى في أنفسكم **﴿تخافون أن يتخطفكم النّاسُ﴾** تخافون المشركين أن يتخطفوكم فيقتلوكم. **﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدكُمْ بِنَصْرِهِ﴾**فجعل لكم المدينة مأوى تتحصّنون بها من أعدائكم، وقوّاكم بالأنصار حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر **﴿ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾** وأطعمكم غنيمتهم حلالاً طيّباً ، لتشكروا ربكم على ما رزقكم **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾** لا تخونوا الله ورسوله بإطلاع المشركين على عورات المؤمنين ، وإخبارهم عن أسراركم[1] **﴿وتخونوا أماناتِكُمْ وأنتم تعلمونَ﴾** وتخونوا ما ائتمنكم الله عليه من الفرائض والتكاليف الشرعية ، وأنتم تعلمون أنها لازمة عليكم بالحجج الواضحة **قال ابن عباس** خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات هي الأعمال ـ الفرائض ـ التي ائتمن الله عليها العباد **﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾** واعلموا أيها المؤمنون أن أموالكم وأولادكم اختبارٌ وبلاء ، ليختبركم بها فينظر كيف تعملون ، من أداء حق الله ، والانتهاء إلى أمره ونهيه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عنده أجرٌ عظيم﴾** وأن الله عنده خير وثواب عظيم ، فأطيعوا الله تنالوا الجزيل من الثواب **﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تتقوا اللَّهَ﴾** إن تتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه **﴿يجعل لكم فرقاناً﴾** يجعل لكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، **قال ابن عباس** « فرقاناً » مخرجاً في الدنيا والآخرة كقوله تعالى « ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً » **﴿ويُكَفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾** ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ، ويغطيها فيسترها عليكم **﴿واللَّهُ ذو الفضل العظيم﴾** والله ذو الفضل العظيم على خلقه **﴿وإذْ يمكرُ بِكَ الذين كفروا﴾** اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون بمكة في دار الندوة **﴿لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو**

---

(١) كان المنافقون يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه إلى المشركين، وروي أن الآية نزلت في «أبي لبابة» بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة حين طلبوا الصلح، فاستشاروه هل ينزلون على حكم سعد؟ فاشار إلى حلقه يعني الذبح، ففيه نزلت الآية.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ
إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ
ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

* * *

يُخْرِجُوكَ﴾ ليحبسوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك من وطنك **﴿ويمكرون ويمكر اللهُ﴾** ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبّر لك ربك ما يُبطل مكرهم(١) **﴿واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾** وربك خير الماكرين بمن كفر به، وعبد غيره، وخالف أمره. **﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثلَ هَذَا﴾** وإذا قرئت على هؤلاء الكافرين، آيات كتاب الله الواضحة، قالوا جهلاً منهم وعناداً: قد سمعنا ما تقول، ولو أردنا لقلنا مثل هذا الذي تُلي علينا. **﴿إنْ هَذَا إلاّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلينَ﴾** ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد، إلا ما كتبه الأولون وسطّروه من أخبار الأمم، وليس بوحي من الله **﴿وإذْ قَالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾** واذكر حين قال رؤساء قريش: اللهم إن كان ما يقوله محمد هو الحقُّ من عندك(٢) **﴿فَأَمْطِرْ علينا حِجَارَةً من السَّمَاءِ﴾** فأنزل علينا حجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط. **﴿أوِ آئْتِنَا بعذابٍ أليمٍ﴾** أو آئتنا ببعض ما عذبت به الأمم قبلنا. **﴿وما كان اللهُ ليعذبهم وأنت فيهم﴾** وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم بين أظهرهم إكراماً لك. **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** وما كان الله معذّبهم لو استغفروا، **قال ابن عباس**: كان فيهم أمانان: نبي اللهِ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة. **﴿وما لهم ألّا يعذبهم اللهُ﴾** وما يمنعهم أن يعذبهم الله، وهم لا يتوبون من كفرهم!! **﴿وهم يصدُّون عن المسجد الحرام﴾** وهم يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام(٣)! **﴿وما كانوا أولياءَه﴾** ولم يكونوا أولياء الله، وليسوا أهلاً لذلك **﴿إنْ أولياؤُهُ إلاّ المُتَّقُونَ﴾** ما أولياء الله إلاّ المتقون، الذين يؤدون فرائضه ويجتنبون معاصيه. **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾** يحسبون أنهم أولياءُ الله. **﴿وما كان صلاتُهم عند البيتِ إلاّ مُكَاءً وتصديةً﴾** وما كان صلاة المشركين عند البيت العتيق، إلا

(١) نزلت الآية تذكّر الرسول ﷺ بنعمة الله عليه، حين اجتمع رؤساء قريش بدار الندوة بمكة وتآمروا على الرسول عليه السلام بحبسه، أو قتله، أو طرده من مكة، وحضر معهم إبليس بصورة شيخ ناصح، وانظر تفصيل القصة في الطبري.

(٢) هذا قول «النضر بن الحارث» وسفهاء قريش، وهذا يدل على مدى طغيانهم وجبروتهم، ولو كانوا عقلاء لقالوا: اللهم اهدنا إلى الحقّ، ولكنهم قوم سفهاء آثروا الضلالة على الهدى.

(٣) كما صدُّوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عام الحديبية عن أداء العمرة واضطروهم إلى العودة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ

* * *

صفيراً وتصفيقاً. قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عُرَاة يصفِّرون ويصفِّقون[1] ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فذوقوا عذاب القتل والأسر، بجحودكم وحدانية ربكم ورسالة نبيكم. قال الضحَّاك: عذبهم الله يوم بدر بالقتل والأسر. ﴿إِنَّ الَّذينَ كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيلِ اللهِ﴾ يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام[2] ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حَسْرةً﴾ فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامةً عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يؤملون، من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر. ﴿ثم يُغلبونَ﴾ ثم يغلبهم المؤمنون، فأعظمْ بها حسرةً وندامة لمن عاش منهم وهلك! أما الحيُّ فحرم مالَه، ورجع مقهوراً مغلوباً في غير نفع، وأما الهالك فقُتل وسُلب، وعُجِّل به إلى نار الله المؤبدة. ﴿والذينَ كفروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ﴾ والذين جحدوا بوحدانية الله يُساقون إلى جهنم ليكونوا وقوداً لها. ﴿لِيَميزَ اللهُ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يحشر هؤلاء إلى جهنم، ليفرق بين الكافرين وهم أهل الخبث، وبين المؤمنين وهم الطيبون، فيسكن المؤمنين جناته، والكافرين نار الجحيم. قال ابن عباس: ليميِّز أهل السعادة من أهل الشقاوة. ﴿ويجعل الخبيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض. ﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ فيجعلهم رُكاماً بعضهم فوق بعض لشدة الزحام، فيقذف بهم في نار جهنم جميعاً. ﴿أولئكَ هم الخاسرونَ﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم شروا بأموالهم عذاب الآخرة، وتعجلوا فيما أنفقوا الخزيَ والذل. ﴿قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن ينتهوا عن كفرهم وقتالهم للنبي والمؤمنين، يغفر لهم ما قد خلا من الذنوب والآثام ﴿وإن يعودوا فقد مضتْ سُنَّةُ الأولينَ﴾ وإن يعودوا لقتالك، فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لرسلي، فكذلك أحلُّ بهؤلاء عاجل النِّقم. ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾ قاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده، فترتفع الفتنة ـ البلاء ـ عن عباد الله ﴿ويكونَ الدين كلُّه للهِ﴾ وتكون العبادة والطاعة خالصة لله دون غيره ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ فإن انتهوا عن الشرك بالله،

(١) الطبري ٩/٥٢٤

(٢) لما أصيب كفار قريش ببدر، ورجع الفارون منهم إلى مكة، قالوا يا معشر قريش: إن محمداً قد قتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، فنزلت الآية.

ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

* * *

وصاروا إلى الدين الحقِّ **﴿فإنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** لا تخفى عليه أعمال العباد، ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء. **﴿وَإنْ تَوَلَّوْا﴾** وإن أبوا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ﴾** فقاتلوهم وأيقنوا أن الله ناصركم ومعينكم عليهم. **﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** نعم المعينُ ونعم الناصر **﴿واعْلَمُوا أنَّما غنمتم من شيءٍ﴾** واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن ما غنمتموه من غنيمة، قليلاً كان أو كثيراً، حتى الخَيْط والمِخْيط. **﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَه وللرسول﴾** فأن للرسول ولمن ذكر الله تعالى الخمس منه، والباقي يُوزَّع على الغانمين، واسمُ الله مفتاح كلام لأن لله الدنيا والآخرة وما فيهما[١] **﴿ولذي القربى﴾** وهم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. **﴿واليتامى﴾** أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم **﴿والمساكين﴾** أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، **﴿وابن السبيل﴾** المنقطع في سفره، **﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾** إن كنتم أقررتم بوحدانية الله **﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾** وبما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ يوم بدر، يوم فرق الله بين الحق والباطل **﴿يَوْمَ الْتَقى الْجَمْعَانِ﴾** جمع المؤمنين وجمع الكافرين. **﴿واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ﴾** لا يمتنع عليه شيء أراده. **﴿إذْ أنتم بالعُدْوةِ الدنيا﴾** حين أنتم بناحية الوادي القريب إلى المدينة **﴿وهم بالعُدْوَةِ القُصْوَى﴾** وأعداؤكم بناحية الوادي الأقصى إلى مكة **﴿والرَّكْبُ أسفلَ منكم﴾** والعيرُ التي فيها أبو سفيان وأصحابُه، في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر[٢] **﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعادِ﴾** ولو كان اجتماعكم عن ميعادٍ منكم ومنهم، لاختلفتم في الميعاد لكثرتهم وقلتكم. **﴿وَلَكِنْ ليقضيَ اللهُ أمراً كَانَ مَفْعُولاً﴾** ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعادٍ، ليقضي ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه. **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بيِّنةٍ﴾** فعل

---

(١) اتفق العلماء على أن الغنيمة تقسم خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين، ويقسم الخمس خمسة أسهم، سهم للرسول، وسهم لذوي القربى. الخ وإنما ذكر اسم الله على جهة التعظيم، فهو افتتاح كلام كما رجح الطبري لأن لله الدنيا والآخرة.

(٢) انظر إلى الوصف الدقيق والتصوير الشامل للمعركة، وتمعَّن دقة القرآن في تصوير جوّ المعركة، وما يُحيط بها من أحداث عجيبة، كأن السامع ينظر إليها رأي العين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

* * *

ذلك، ليموت من مات عن حجةٍ لله وعبرةٍ[١] قد عاينها، وليعيش من عاش عن حجةٍ لله ظهرت له. **﴿وإنَّ الله لسَميعٌ عليمٌ﴾** سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم. **﴿إذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قليلاً﴾** إذْ يُريك الله عدوك في نومك قليلاً، حتى تقوى قلوب أصحابك على حربهم. **﴿ولَو أَرَاكَهم كثيراً لَفَشِلْتُمْ ولتنازعتم في الأمر﴾** ولو أراك ربك عدوك كثيراً، لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك[٢] **﴿ولكنَّ اللهَ سَلَّم﴾** ولكنَّ الله سلَّمهم من ذلك. **﴿إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدُور﴾** عليمٌ بما تُخفيه الصدور وتضمره القلوب، قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لقلوبهم. **﴿وَإذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذِ التقيتُمْ في أعينكُمْ قَليلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنِهِمْ﴾** واذكروا حين التقيتم في المعركة فقلَّل الله عدوكم في أعينكم، لتهون شوكتهم عليكم، وقلَّلكم في أعينهم ليتركوا الاستعداد لكم. **﴿ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً﴾** حتّى يقضي الله بينكم وبينهم، بإظهار المؤمنين على المشركين، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلى. **﴿وإلى اللهِ تُرْجع الأمورُ﴾** مصير الأمور كلها إلى الله في الآخرة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا﴾** إذا لقيتم جماعة من الكفار في الحرب، فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا أمامهم **﴿واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحونَ﴾** أكثروا من ذكر الله بقلوبكم وألسنتكم، كيما تنجحوا وتفوزوا بالظفر بعدوكم. **﴿وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ ولا تنازعوا فتفشلوا﴾** وأطيعوا ربكم ورسولكم فيما أمركم ونهاكم، ولا تختلفوا فتضعفوا وتجبُنوا **﴿وتذهب ريحكم﴾** وتذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخلل. **﴿واصبروا إنَّ الله مع الصابرينَ﴾** واصبروا عند لقاء عدوكم فإني معكم. **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ**

---

(١) قال في تفسير الجلالين: المعنى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان، ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان، وهذا أظهر مما قاله الطبري والله أعلم.

(٢) انظر إلى محاسن القرآن فقد كان الخطاب موجهاً إلى الرسول ﷺ ﴿إذْ يريكهم الله﴾ ولمّا جاء الحديث عن الفشل والنزاع لم يسنده إليه ﷺ لأنه معصوم وإنما قال ﴿لفشلتم﴾ إشارةً إلى اصحابه، وهذا أدبٌ رفيعٌ يعلمنا إيَّاه القرآن لنعرف كيف نخاطب الرسول ونتأدب في خطابه ﷺ

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

* * *

النَّاس﴾ ولا تكونوا كجيش أهل الكفر، الذين خرجوا من منازلهم علواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء[١] **﴿ويصدُّون عن سبيلِ الله﴾** ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام **﴿واللهُ بما يعملون محيطٌ﴾** والله عالم بجميع أعمالهم وسيجازيهم عليها. **﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾** واذكر حين حسَّن لهم الشيطان خروجهم لحرب الرسول ﷺ والمؤمنين. **﴿وقَالَ لا غالِبَ لكمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ﴾** وقال لهم: لن يغلبكم أحد فاطمئنوا وأبشروا. **﴿وإني جارٌ لكم﴾** وإني أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوا محمداً وأصحابه. **﴿فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتَان نَكَص عَلَى عَقِبَيْهِ﴾** فلما تلاقى الفريقان؛ جند الله وجند الشيطان، ونظر بعضهم إلى بعض، رجع الشيطانُ القهقرى مدبراً هارباً. **﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ منكُمْ﴾** بريءٌ من عهد جواركم **﴿إني أرى ما لا تَرَوْنَ﴾** إني أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين، وأنتم لا ترون ذلك **﴿إني أخَافُ اللَّهَ﴾** إني أخاف عقاب الله **﴿وَاللَّهُ شَديدُ العِقاب﴾** شديدٌ عقابُه لمن عصاه **﴿إذْ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾** حين قال المنافقون، والذين في قلوبهم شك في الإسلام **﴿غَرَّ هؤلاء دينُهم﴾** اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، فقدموا للحرب مع قلة عددهم وكثرة عدوهم **﴿ومَنْ يتوكلْ عَلَى الله فإنَّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ﴾** ومن يُسلم أمره إلى الله ويثق به، فإن الله حافظه وناصره، لأنه عزيزٌ لا يغلبه غالب ولا يقهره أحد، حكيم في تدبير أمر خلقه.

﴿ولَوْ تَرى إذْ يَتَوفَّى الذين كفروا الملائكةُ﴾ ولو تُعاين يا محمد، حين تتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتنزعها من أجسامهم[٣]!! **﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾** تضربهم الملائكة على وجوههم وأستاههم[٤] بمقامع من حديد **﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحريق﴾** ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم

(١) أشارت الآية إلى خروج كفار قريش إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين، وإلى قول أبي جهل: «والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا.

(٢) في الحديث «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ من يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزع الملائكة» «رواه مالك» ومعنى «يَزَعُ» أي يصفُّ الملائكة قال في لسان العرب أي يرتِّبهم ويسوِّيهم ويصفُّهم للحرب

(٣) جواب «لَوْ» محذوف للتهويل تقديره: لرأيتَ أمراً فظيعاً، وشأناً هائلاً لا يكاد يوصف.

(٤) المراد بالأدبار الأستاهُ ـ مقعد الإنسان ـ قال مجاهد ولكنَّ الله كريمٌ يكني، ولو شاء لقال: أستاههم.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

* * *

في جهنم. ﴿ذلكَ بما قَدَّمتْ أيديكم﴾ هذا العذاب بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار. ﴿وأنَّ الله ليس بظلَّامٍ للعبيدِ﴾ وبأن الله لا يعذب أحداً بغير ذنب، لأن الظلم لا يجوز أن يقع منه ﴿كدأب آلِ فرعونَ والذينَ من قبلهم كفروا بآياتِ اللهِ﴾ فعَل هؤلاء المشركون، كصنيع وفعل من سبقهم، من قوم فرعون والأمم الخالية، جحدوا بحجج الله ورسله ﴿فأخذهم اللهُ بذنوبهم﴾ فعاقبهم الله بمعصيتهم وتكذيبهم ﴿إنَّ اللهَ قويٌ شديد العقاب﴾ قويٌ لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب، شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فعلنا ذلك بهم بسبب أنهم غيَّروا ما أنعم الله به عليهم، فغيَّرنا نعمتنا عليهم بإهلاكهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم، ممن طغى وعصى أمرنا ﴿وأنَّ الله سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لما يقولون، عليمٌ بما تضمره صدورهم. ﴿كدأب آلِ فرعونَ والذينَ من قبلِهم كَذَّبُوا بآياتِ رَبِّهِمْ﴾ شأنُ وعادة هؤلاء المشركين، كشأن آل فرعون وعادتهم، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبين لرسلهم. ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أهلكناهم بسبب ذنوبهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالريح. ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ في البحر. ﴿وكلٌ كانوا ظالمينَ﴾ وكل هؤلاء الأمم الذين أهلكناهم، كانوا ظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسل الله، وجحودهم لآياته. ﴿إنَّ شرَّ الدَوَابِّ عند اللهِ﴾ إن شر من يدبُّ على الأرض عند الله[1] ﴿الذين كفروا فهم لايؤمنونَ﴾ الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا غيره، فهم لا يصدِّقون بوحي الله وتنزيله، ثم وضَّحهم بقوله ﴿الذين عاهدت منهم﴾ الذين أخذتَ عهودهم ومواثيقهم ألَّا يحاربوك. ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ في كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقونَ﴾ ثم كلما عاهدوك نقضوا العهد، وهم لا يتقون الله ولا يخافون عذابه. ﴿فَإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ فإن ظفرت بهم في الحرب بالأسر، فنكّل بهم تنكيلاً شديداً، يُشرِّد غيرهم من المجرمين، حتى

---

(١) نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم «كعب بن الأشرف» وأصحابه، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه، فنقضوا العهد ومالئوا على محمد ﷺ أعداءه يوم الخندق.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟
إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن
دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ

* * *

لا يجترئوا على مثل ما اجترأ عليه هؤلاء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ كي يتعظوا فيحذروا نقض العهد. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وإن خفت يا محمد من عدو بينك وبينه عهد، أن يغدر بك وينقض العهد. ﴿فانْبِذْ إليهِمْ على سَوَاءٍ﴾ فناجزهم الحرب، وأعلمهم أنكَ قد فسخت العهد، حتى تصير أنتَ وهم على سواءٍ في العلم، وتبرأ من الغدر(١) ﴿إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين﴾ الغادرين. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ ولا يظنن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله سبقونا بأنفسهم ففاتونا ﴿إِنَّهُمْ لا يُعجزونَ﴾ إنهم لا يعجزون ربهم، ولا يقدرون على الهرب منه. ﴿وَأَعِدُّوا لهم ما استطعتم منْ قوةٍ﴾ وأعدوا لهؤلاء الكفار، ما أطقتم أن تُعدوه لهم من الآلات والسلاح. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ ومن الخيل التي تُربط في سبيل الله. ﴿تُرْهبونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ تخيفون بتلك القوة أعداء الله، وأعداءكم من المشركين. ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم﴾ وتُرهبون آخرين ـ وهم المنافقون(٢) ـ لا تعرفونهم، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ويغزون معكم، ولكنَّ الله يعلمهم، ويعلم ما انطوت عليه قلوبهم من النفاق. ﴿وما تُنْفِقُوا مِنْ شيءٍ في سبيلِ اللهِ﴾ وما أنفقتم أيها المؤمنون من شيءٍ من النفقات، في جهاد أعداء الله من المشركين. ﴿يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمونَ﴾ يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدّخر لكم أجوركم، فلا يضيع لكم شيء منها يوم القيامة. ﴿وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ وإن مالوا إلى الصلح والمسالمة، فمل إليها وابذل لهم ما طلبوا(٣)، وفوِّضْ أمرك إلى الله. ﴿إنَّه هو السميعُ العليمُ﴾ إن ربك الذي تتوكل عليه، هو السميع لأقوالكم، العليم بنيّاتكم، وبما يضمره كل فريق منكم للآخر. ﴿وإنْ يُريدُوا أنْ يخدعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ وإن يرد هؤلاء بالصلح خداعك والمكر بك، فإن الله يكفيك شرهم وخداعهم، وهو متكفل

(١) قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى إن خفت من قومٍ بينك وبينهم عهدٌ خيانةً، فانبذ إليهم العهد أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواءً، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد فيكون ذلك خيانة وغدراً، فاختصر ذلك كلّه بقوله ﴿فَانْبِذْ إليهم على سَوَاءٍ﴾

(٢) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة، والأول أرجح لقوله تعالى ﴿لا تعلمونهم﴾.

(٣) هذا السَّلْمُ مشروطٌ بكون العزة والسيادة فيه للمسلمين، وأن يكون فيه مصلحة ظاهرة، وإلاّ فيحرم الصلح والمهادنة لقوله تعالى ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ وقال قتادة: هذا كان قبل نزول الجهاد وقبل آية براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ
يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

بإظهار دينك على الأديان. **﴿هو الذي أَيَّدَكَ بنصره وبالمؤمنينَ﴾** هو الذي قوَّاك بنصره، وشدَّ أزرك بالأنصار. **﴿وألَّفَ بين قلوبهم﴾** وجمع بين قلوب الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ بعد التفرق والتشتت، فجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً. **﴿لو أنفقتَ ما في الأَرْضِ جميعاً ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم﴾** لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة ومتاع، ماجمعت أنت بين قلوبهم. **﴿ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم﴾** ولكنَّ الله جمعها على الهدى تأييداً لك، وعوناً لكَ على عدوك. **﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حكِيمٌ﴾** عزيزٌ لا يقهره شيء، حكيم في تدبير خلقه. **﴿يا أيها النبيُّ حسبُكَ اللهُ ومن اتَّبعَكَ من المؤمنينَ﴾** كافيك اللهُ وكافي من اتبعك من المؤمنين[1]، فلا يهولنكم كثرةُ الأعداء، فإن الله مؤيدكم بنصره. **﴿يا أيها النبيُّ حرِّضِ المؤمنينَ على القتال﴾** حُثَّ المؤمنين على قتال المشركين **﴿إِنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** إن يكن منكم عشرون رجلًا يثبتون عند لقاء العدو، يغلبوا مائتين من عدوهم بعون الله **﴿وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾** وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الكفار **﴿بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾** من أجل أن المشركين جهلة يقاتلون على غير رجاء ثواب، فهم لا يثبتون عند اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم، لأنهم لم يعرفوا ما أعدَّ الله للمجاهدين. ثم خفَّف تعالى عن المؤمنين فقال: **﴿الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم وَعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً﴾** الآن رفع الله عنكم المشقة وعلم ضعفكم فرحمكم، **قال ابن عباس**: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شقَّ ذلك عليهم نُسخ وأصبح ثبات الواحد للإثنين فرضاً[2] **﴿فإن يكن منكم مائة صابرةٌ يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله﴾** يغلبوهم بمعونة الله وتيسيره.

---

(١) وقال الحسن: المعنى كافيك الله والمؤمنون، وما ذكره الطبري أرجح لأن الله وحده يكفي عبده ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾؟!

(٢) قال ابن جرير: وهذه الآية ﴿إن يكن منكم عشرون..﴾ وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر بدليل قوله تعالى ﴿الآن خفَّف الله عنكم﴾ فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة غير فرضٍ لم يكن للتخفيف وجه.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ

* * *

﴿والله مع الصابرين﴾ بالحفظ والنصرة على الأعداء. **﴿مَا كَانَ لنبيٍّ أَنْ يكونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ في الأرْضِ﴾** لا ينبغي لنبي وقع تحت يديه أسرى، أن يأخذ منهم الفداء[١]، حتى يبالغ في قتل المشركين، ويقهرهم غلبةً وقسراً!! يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم ثم إطلاقهم. **﴿تُريدونَ عَرَضَ الدنيا﴾** تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وحطامها الزائل؟ **﴿واللهُ يريدُ الآخرةَ﴾** والله يريد لكم زينة الآخرة، وما أعدَّ لأوليائه في جناته، فاطلبوا ما يريد الله لكم، لا ما تدعوكم إليه أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها. **﴿واللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾** عزيزٌ لا يُقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير شؤون خلقه **﴿لولا كتابٌ من الله سَبَقَ﴾** لولا قضاءٌ من الله سابق، بإحلال الغنائم، وألَّا يُعذِّب أحداً شهد[٢] بدراً. **﴿لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُمْ عذابٌ عظيم﴾** لنالكم من الله ـ بأخذكم الغنيمة والفداء ـ عذاب عظيم[٣] **﴿فكلوا ممَّا غنمتم حلالاً طيباً﴾** فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين، حلالاً بإحلال الله لكم، طيباً لأنه ثمرة جهادكم[٤] **﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾** وخافوا الله أن تخالفوا أمره، كما فعلتم بأخذ الفداء، إن الله غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيمٌ بهم. **﴿يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾** قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر يوم بدر من أسرى المشركين **﴿إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبكم خيراً﴾** إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمـــان **﴿يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم﴾** يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء **﴿ويغفر لكم﴾** يمحو عنكم ما سلف من الذنوب **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رحِيمٌ﴾** غفور لذنوب عباده إذا تابوا، رحيم بهم، وكان العبَّاس يقول: فيَّ والله نزلت هذه الآية[٥] **﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾** وإن يرد هؤلاء

---

(١) في الآية عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء يوم بدر، لكنه عتاب لطيف رقيق.

(٢) اختار الإمام الرازي أن المعنى: لولا كتاب من الله سابق بألا يعذِّب المخطىء في اجتهاده.

(٣) روي أن الآية لمَّا نزلت قال ﷺ: لو نزل عذابٌ من السماء لما نجا منه غير عمر.

(٤) في الصحيح «وجُعل رزقي تحت ظل رمحي».

(٥) قال البيضاوي: نزلت هذه الآية في العباس رضي الله عنه، حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابنيْ أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد: لقد تركتني أتكففُ قريشاً ما بقيتُ! فقال ﷺ له: أين الذهب الذي دفعته إلى «أم الفضل» ـ زوجة العباس ـ وقت خروجك =

فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

* * *

الأسرى الغدر والخداع بك، بإظهارهم لك خلاف ما في نفوسهم، فقد خالفوا أمر الله تعالى قبل وقعة بدر. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك الله منهم. ﴿وَاللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بما يضمرونه في نفوسهم، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه. ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وهجروا قومهم وعشيرتهم حباً في الله ورسوله، وجاهدوا أعداء الله بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله[١] ﴿والذين آوَوْا ونصروا﴾ والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه فأسكنوهم في منازلهم[٢] ﴿أولئكَ بعضهُمْ أولياءُ بعضٍ﴾ هؤلاء المهاجرون والأنصار بعضهم إخوان وأنصار لبعض، وهم أعوان على من سواهم، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وقيل عنى به الإرث، فورَّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة، دون القرابة والأرحام، ثم نسخ ذلك[٣] ﴿وَالَّذينَ آمَنُوا ولم يُهَاجِرُوا﴾ والذين آمنوا ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام. ﴿ما لكم من وَلَايتِهِمْ من شيء حتَّى يُهاجروا﴾ ليس لكم من نصرتهم وميراثهم شيءٌ، حتى يهاجروا من بلد الكفر إلى دار الإسلام. ﴿وإنِ استنصروكم في الدِّين فعليكم النَّصرُ﴾ وإن طلبوا منكم النصرة على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، فعليكم نصرتهم لأنهم إخوانكم. ﴿إلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثاق﴾ إلا أن يستنصروكم على قومٍ بينكم وبينهم عهدٌ فلا تعينوهم عليهم. ﴿واللَّهُ بما تعملون بصيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. ﴿وَالَّذينَ كفروا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والذين كفروا بعضهم أعوانُ بعضٍ وأنصاره فلا يتولاهم مؤمن. ﴿إلَّا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير﴾ إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين، يحدث في الأرض بلاءٌ

وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في خروجي هذا، فإن أصابني حَدَث ـ قتلٌ أو أسرٌ ـ فهو لكِ ولعيالك!! فقال العباس: ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي، قال: فأشهد أنك صادق وأنك رسول الله، والله لم يطَّلع عليه أحد ولقد دفعته إليها في سواد الليل، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني زمزم، وأنا أنتظر المغفرة من ربي» تفسير البيضاوي ١ / ٢١٧

(١) المراد بهم المهاجرون.

(٢) المراد بهم الأنصار.

(٣) قال ابن عباس: جعل الميراث للمهاجرين والأنصار، دون ذوي الأرحام، ثم صار الميراث لذوي الأرحام.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

* * *

عظيم وفساد كبير بسبب[١] ذلك ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله**﴾ وهم المهاجرون أصحابُ السبق إلى الإسلام. ﴿**والذينَ آوَوْا ونصروا**﴾ آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه وهم الأنصار. ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ هم أهل الإيمان حقاً، لا من أقام بين أظهر أهل الشرك، ولم يغز مع المسلمين. ﴿**لهم مغفرةٌ ورزق كريمٌ**﴾ لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق هنيء في الجنة. ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾ والذين آمنوا بعد الهجرة الأولى، وهاجروا من دار الكفر، وجاهدوا معكم أعداء الله، فأولئك يجب عليكم نصرتهم وموالاتهم لأنهم منكم. ﴿**وأولواالأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله**﴾ وأصحاب القرابة بعضُهم أحقُّ ببعض في الميراث، في حكم اللّهِ وقضائه. ﴿**إنَّ الله بكلِ شيءٍ عليمٌ**﴾ عالمٌ بما يُصلح عباده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء[٢].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

***

(١) ذلك لأنه يترتب عليه قوة الكفار وضعف المسلمين، فلا بدَّ من اعتبار الولاية بأخوة العقيدة والإيمان، لا بوحدة الديار والأوطان.

(٢) هذا ختم للسورة في غاية البراعة، ببيان أن كل هذه الأحكام قد شرعها الحكيم العليم، الذي يعلم مصالح العباد ولا تخفى عليه خافية من شئونهم، فهو يشرّع لهم ما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة

(٩) سورة التوبة مدنية
وآياتها تسع وعشرون ومائة

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾

***

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذه براءة من الله ورسوله ، من عهود المشركين التي عاهدهم عليها رسول الله[١] ﷺ **﴿فسيحوا في الأرضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾** فسيروا في الأرض آمنين غير خائفين أربعة أشهر **﴿واعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾** واعلموا أيها المشركون أنكم لا تفوتونه تعالى ـ وإن أمهلكم هذه المدة ـ لأنكم في قبضته وسلطانه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾** مذلُّ الكافرين في الدنيا بالأسر والقتل ، ومورثهم النار في الآخرة **﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يومَ الحجِّ الأكبر﴾** وإعلامٌ من اللهِ ورسولِهِ إلى جميع الناس في يوم « الحج الأكبر » يوم عرفة[٢] . **﴿أَنَّ اللَّهَ بريءٌ من المشركين ورسولُهُ﴾** إن اللّه بريء من عهد المشركين ، ورسوله بريءٌ منهم أيضاً **﴿فإنْ تُبْتُمْ فهو خيرٌ لكم﴾** فإن تبتم من كفركم ، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فهو خيرٌ لكم من الإقامة على الشرك **﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله﴾** وإن أعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلاَّ الاستمرار على الشرك ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله بإنزال عقابه الشديد بكم . **﴿وَبَشِّرِ الذينَ كفروا**

(١) أخذت العرب تنقض عهودها مع رسول الله ﷺ ، فأمره الله أن ينبذ إليهم عهودهم، وأن يمهلهم مدة أربعة أشهر ثم يحاربهم ، وهذا من محاسن دين الإسلام ألا يقاتل قوماً إلا بعد الإنذار .

(٢) قال مجاهد : الحج الأكبر هو الحج ، والحج الأصغر هو العمرة ، لأن عملها أقل من الحج

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا

***

بعذاب أليم﴾ وبشر الكافرين بعذاب موجع يحلُّ بهم ﴿إلاَّ الَّذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المشركين ثم لم يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد ، ولم ينقصوا من شروطه شيئاً ﴿ولم يُظَاهِرُوا عليكُمْ أَحداً﴾ ولم يُعينوا عليكم أحداً من عدوكم بسلاحٍ أو رجال ﴿فأتِمُّوا إليهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِم﴾ فوفُّوا لهم العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إنَّ اللَّهَ يحبُّ المتقينَ﴾ يحبُّ الموفِّين بعهدهم فقد أُمر أن يؤدي إليهم عهدهم ويفي به ﴿فإذا انسلخ الأَشْهُرُ الحُرُمُ﴾ فإذا انقضت الأشهر الحُرُم الثلاثة ـ ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرَّم ـ ﴿فاقْتُلُوا المشركين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ اقتلوهم حيث لقيتموهم في حلٍ أوحرم ، في الأشهر الحُرُم أوغيرها ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وأسروهم وامنعوهم من التصرف في البلاد ، واقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه لقتلهم أو أسرهم ﴿فإنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ﴾ فإن تابوا عن الشرك وجحود نبوة محمد ﷺ ، وأدّوا ما فرض عليهم من الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَخَلُّوا سبيلَهُمْ﴾ فدعوهم يتصرفون في البلاد ، ويدخلون البيت الحرام ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ غفور لمن تاب وأناب ، رحيم بالعباد ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يسمع كلامَ اللَّهِ﴾ وإن استأمنك أحدٌ من المشركين ليسمع كلام الله منك ، فأمِّنه حتى يسمع القرآن ويتدبره[1] ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم ردَّه إلى حيث يأمن منك ـ إن أبى الإسلام ـ حتى يلحق بقومه المشركين ﴿ذَلِكَ بأنهُمْ قومٌ لا يعلمونَ﴾ ذلك الأمان لسماع القرآن ، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون حجة ، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان ﴿كيف يكونُ للمشركينَ عَهْدٌ عند الله وعند رسولِه﴾ بأي معنى يكون للمشركين عهد وذمة عند الله يوفَّى لهم به ، ويُتركوا من أجله آمنين يتصرفون بالبلاد ؟! بمعنى لا عهد لهم والواجب قتلهم أينما وُجدوا ﴿إلاَّ الذينَ عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ إلا الذين أعطيتموهم العهد عند المسجد الحرام ـ وهم قبائل بني بكر ـ فما داموا

---

(١) هذا غايه في كرم الأخلاق وحسن المعاملة ، لأن الغرض من الدعوة الهداية والإرشاد لا النيل من الكفار بالقتل والأسر، بل إقناعهم وهدايتهم ثم ترك الخيار لهم أن يُسلموا أو يكفروا ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاءفليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ فللّه ما أسمى تعاليم الإسلام!!

﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا
ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ
إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ
بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

***

مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿إنَّ الله يحب المتَّقين﴾ يحب من اتَّقى ربه ، ووفَّى عهده ، وترك الغدر بمن عاهده ﴿كيفَ وإنْ يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّاً ولا ذِمَّةً﴾ كيف يكون لهؤلاء المشركين عهدٌ وذمة ، وهم إن يغلبوكم لا يراعوا فيكم عهداً ، ولا قرابةً ولا ميثاقاً !! ﴿يُرْضونكُمْ بأفواهِهِمْ﴾ يعطونكم بألسنتهم من الكلام الجميل ، خلاف ما في نفوسهم من العداوة والبغضاء ﴿وتأبى قلوبُهم﴾ وتمتنع قلوبهم أن يُذعنوا للوفاء بما أظهروه لكم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ وأكثرهم ناقضون للعهد ، كافرون بربهم ، خارجون عن طاعته يحذِّر جل ثناؤه المؤمنين أمرهم ، ويحثهم على قتلهم واجتياحهم حيثما وُجدوا في أرض الله ﴿اشتَرَوْا بآيَاتِ الله ثَمَناً قليلاً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِهِ﴾ اشتروا بالقرآن قليلاً من عَرَض الدنيا الخسيس ، فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام ﴿إنَّهُمْ ساء ما كانوا يعملونَ﴾ ساءَ عملهم القبيح باشترائهم الكفر بالإيمان ، والضلالة بالهدى ، وصدِّهم عن سبيل الله ﴿لا يَرْقُبُونَ في مُؤْمِنٍ إلّاً ولا ذِمَّةً﴾ لايتقون في قتل مؤمن ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة ، فلا تُبقوا عليهم ، كما لا يُبقون عليكم لو غلبوكم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ المتجاوزون فيكم الأمر الى حدِّ الظلم والإعتداء ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاةَ﴾ فإن تابوا عن الكفر ، وأدوا الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأعطوا الزكاة المفروضة لأهلها(١) ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوتكم في الإسلام ﴿ونُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يَعْلَمُونَ﴾ ونبين حجج الله وأدلته ، فنشرحها مفصلة لأهل العلم والفهم ، دون الجهال الذين لا يعقلون بيان الله ﴿وَإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا في دِينِكُمْ﴾ وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم معكم ، وقدحوا في الإسلام فعابوه وثلموه ﴿فقاتلوا أئمةَ الكفر إنهم لا أيمانَ لهم﴾ فقاتلوا رؤساء الكفر ، فإنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ﴿لَعَلَّهم يَنْتَهُونَ﴾ لكي ينتهوا عن

---

(١) انظر إلى السرّ الدقيق في قرن الصلاة مع الزكاة، فإن الصلاة حقُّ الله ، والزكاة حقُّ العبد، ولا يمكن للمجتمع أن يسعد ويهنأ إلَّا إذا أدّى الإنسان فيه حق الخالق والمخلوق ، ولهذا قال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يُفرِّق بينهما ، وقرأ الآية ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !!

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

***

الطعن في الإسلام ، ويكفُّوا عن الإجرام **﴿ألا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بإخراج الرَّسُولِ﴾** هذا حضٌ على جهاد الأعداء أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد ، وطعنوا في دينكم ، وظاهروا عليكم أعداءكم ، وهمُّوا ـ عزموا ـ على إخراج الرسول من وطنه فأخرجوه !! **﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** وهم بدءوكم بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، فما يمنعكم من قتالهم ؟ **﴿أتخشونهم فاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تخشوه إن كنتم مؤمنينَ﴾** أتخافونهم فتتركوا قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ، فالله أحقُّ أن تخافوا عقوبته ، إن كنتم مصدِّقين بذلك **﴿قاتلوهم يُعذِّبهم اللَّهُ بأيديكُمْ ويُخزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾** قاتلوهم يا معشر المؤمنين يقتلهم الله بأيديكم ، ويذلهم بالأسر والقهر ، ويعطيكم الظفر والغلبة عليهم **﴿وَيَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مؤمنينَ﴾** ويشف داء صدور المؤمنين بقتلهم ، لما كانوا ينالونه من الأذى والمكروه منهم **﴿ويُذهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾** ويُذهب ما في قلوبهم من الغمِّ والكرب **﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشاءُ﴾** ويمنُّ الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام ، وهو كلامٌ مستأنف ولذلك رفع الفعلُ ولم يجزم **﴿واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** عليمٌ بسرائر العباد ، حكيمٌ في تصريف أحوال عباده وأمورهم

﴿أم حسبتم أَنْ تُتْرَكوا﴾ أحسبتم يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بغير محنة واختبار ، فيعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب ؟ **﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الذين جاهدوا منكم﴾** ولمَّا يتبيَّن منكم[1] المجاهدون في سبيله ، من المضيّعين المفرِّطين في دينه **﴿ولم يتخذوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾** ولم يتخذوا بطانة من المشركين ، يوالونهم ويُفشون إليهم أسرارهم[2] **﴿واللَّهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيجازيكم عليها **﴿مَا كَانَ للمشركينَ أَنْ يَعْمُروا مَساجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ﴾** ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله ، وهم مقرُّون على أنفسهم

---

(١) المراد معرفة المؤمنين لذلك ، لأن الله عالم أزلاً بالمؤمن والمنافق ، ولهذا قال الطبري : ولما يعرف أهل ولايته المجاهدين منكم ، وقيل : المراد بالعلم هنا علم الظهور لا علم الخفاء ، أي ولما يُظهر تعالى علمه للناس بالمجاهد والمنافق.

(٢) الغرض من الآية بيان أن الله تعالى لا يترك الناس دون اختبار وتمحيص ، يظهر فيه الطيبُ من الخبيث

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ

***

بالكفر ،لأن من كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله[١] **﴿أولئك حبطتْ أعمالُهم وفي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾** بطلت وذهبت أجورها لأنها كانت للشيطان ، وهم ماكثون في النار أبداً **﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخرِ﴾** لا يعمر مساجد الله إلا المصدِّق بوحدانية الله وباليوم الآخر . **﴿وأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ولم يَخْشَ إلاَّ اللَّهَ﴾** وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة الواجبة في ماله ، ولم يرهب أحداً سوى الله **﴿فَعَسَى أولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** فخليقٌ بأولئك أن يكونوا ممن هداهم الله للحق ، قال ابن عباس كل « عسى » من الله فهي واجبة[٢] ، قال الله لنبيه «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » يقول إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ في سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ وهذا توبيخٌ لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت ، فأعلمهم تعالى أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله[٣] . **﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾** لا يستوي هؤلاء المشركون مع المؤمنين ،ولا تعتدل أحوالها ومنازلها عند الله . **﴿ وَاللَّهُ لا يهدي القوم الظالمينَ﴾** لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافراً . **﴿الَّذينَ آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهِمْ وأنفسهم أعظمُ درجةً عند اللهِ﴾** الذين صدَّقوا بوحدانية الله ، وهجروا أوطانهم ، وجاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم لإعزاز دين الله ، هؤلاء أرفع منزلة عند الله ، من سقاة الحجيج ، وعُمَّار المسجد الحرام ، وهم مشركون بالله **﴿وأولئِكَ هم الفائزونَ﴾** وهؤلاء هم الفائزون بالجنة ، الناجون من النار **﴿يبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ﴾** يبشرهم ربهم برحمته لهم ، ورضوانه

---

(١) كان المشركون يقولون في تلبيتهم :« لبيك لا شريكَ لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَكَ» يعنون الأصنام ، فذلك شهادتهم على أنفسهم بالكفر، وقال السدي: إذ سئل النصراني ما دينك؟ فيقول نصراني، واليهود يقول: يهودي، والمشرك يقول: مشرك،فذلك إقرارهم بالكفر.

(٢) الطبري ١٠/ ٩٤.

(٣) روي أن العباس لما أسر مع أصحابه يوم بدر، أقبل المسلمون عليهم يعيِّرونهم بالشرك ، فقال العباس :أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونفك العاني ـ الأسير ـ ونسقي الحاج ، فأنزل الله **﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾** الآية .

أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ٤
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

* * *

عليهم(١) ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فيهَا نعيمٌ مقيمٌ﴾ وبساتين ناضرة لهم فيها نعيمٌ ثابت دائم، لا يزول ولا يفنى. ﴿خالدينَ فيها أبداً﴾ ماكثين في تلك الجنات إلى ما لا نهاية ﴿إن اللَّهَ عنده أجرٌ عظيم﴾ عنده في الآخرة ثواب عظيم للمؤمنين، على طاعتهم لربهم، وأدائهم صالح الأعمال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أصدقاء تفشون إليهم أسراركم . ﴿إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمانِ﴾ إن اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله ﴿ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ومن يتخذهم بطانة ويُؤثر المُقام معهم ، فأولئك هم الظالمون الذين خالفوا الله وعصوا أمره ، قال ابن عباس هو مشركٌ مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك .﴿قُلْ إنْ كانَ آباؤُكم وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخْوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرتُكُمْ﴾ قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إن كان المُقامُ مع آبائكم ، وأبنائكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وقبيلتكم التي تستنصرون بها ﴿وأموالٌ اقترفتموها﴾ وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وتجارة تخافون عدم نفاقها بفراقكم بلدكم ﴿ومساكنُ تَرْضونها﴾ ومنازل سكنتموها تعجبكم الإقامة فيها ﴿أحبُّ إليكم منَ اللَّهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سبيلِهِ﴾ إن كانت هذه الأمور أحبُّ إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله من دار الشرك ، ومن الجهاد لنصرة دين الله ﴿فتربصوا حتَّى يأتي اللَّهُ بأمره﴾ فانتظروا حتى يأتي الله بفتح مكة(٢) ﴿واللَّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾ لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته تعالى

﴿لقد نصركم اللَّهُ في مواطنَ كثيرةٍ﴾ نصركم في مشاهد كثيرة وحروبٍ عديدة ﴿ويومَ حنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾ ونصركم في يوم حنينٍ أيضاً ـ وهو وادٍ بين مكة والطائف ـ حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم لن نغلب اليوم من قلة ـ وكنتم اثنيْ عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ـ فلم

---

(١) أعظم نعيم أهل الجنة رؤية الباري جل وعلا ونيل رضوانه كما جاء في الصحيح «أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

(٢) هذا وعيدٌ شديد لمن آثر أهله ، أوماله ، أوولده ، أووطنه على الهجرة والجهاد، وقد فسّر الطبري أمر الله بفتح مكة ، وقال غيره من المفسرين المراد به العقوبة العاجلة أو الآجلة ، وهو الأظهر لأن الآية وردت مورد التهديد والوعيد، لا مورد الإخبار.

مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

* * *

تدفع عنكم كثرتكم شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾ وضاقت عليكم الأرض على رحبها وكثرة اتساعها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مدبرينَ﴾ وليتم الأدبار منهزمين يخبرهم تعالى أن النصر من عند الله وبيده ، وليس بكثرة العدد ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سكينتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمنينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَ وْها﴾ ثم كشف الله البلاء عنكم ، بإنزال الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وإنزال الملائكة الذين لم تروهم ﴿وَعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ وعذَّب الكافرين بالقتل والأسر ، والذلة وسلب الأموال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرينَ﴾ وهذا عقوبة الكافرين بالله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ من بعدِ ذلكَ على مَنْ يَشاءُ﴾ ثم يتفضل الله على من يشاء من الأحياء ، فيوفقه للتوبة والإنابة ويتوب عليه ﴿واللَّهُ غفور رحيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده ، رحيمٌ بهم ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنوا إنَّما المُشْرِكُون نَجَسٌ﴾ ما المشركون إلا قذر ورجسٌ ، لخبث باطنهم ومعتقدهم[1] ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فلا تَدَعوهم يدخلوا الحرم ، بعد سنة تسع من الهجرة ، وهو العام الذي حجَّ فيه أبو بكر بالناس ، ونزلت فيهِ سورة براءة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إن شاءَ﴾ وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً وفاقةً ، بمنع المشركين من دخول الحرم ، فإن الله سيغنيكم من فضله وعطائه عما فاتكم منهم ، مما هو خير لكم بإرادته ومشيئته ﴿إنَّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره . ﴿قاتلوا الذينَ لا يؤمنون باللَّهِ ولا باليوم الآخرِ﴾ قاتلوا أيها المؤمنون اليهود والنَّصارى ، الذين لا يؤمنون بالله ولا يُصدِّقون بجنة ولا نار . ﴿ولا يُحرِّمونَ ما حَرَّم اللَّهُ ورسولُه﴾ ولا يُحرمون ما حرَّمه الله في كتابه ، ولا رسولُه محمد ﷺ ، بل يأخذون ما شرعه لهم الأحبارُ والرهبان ﴿ولا يَدينُونَ دينَ الحقِّ﴾ ولا يطيعون طاعة أهل الإسلام ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ من الذين أعطوا التوراة والإنجيل وهم « اليهود والنصارى » ﴿حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرونَ﴾ حتى يدفعوا لكم الجزية بأيديهم طائعين أو كارهين ، وهم أذلاء

(١) وقيل: إنهم نجسٌ لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون، ورُوي عن ابن عباس قال: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، والصحيحُ أن المراد نجاسة الباطن والمعتقد ، فكفرهم بالله منزَّل منزلة النجس ، كما أشار الإمام الطبري، والله أعلم

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

***

مقهورون ﴿وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابن اللَّهِ وقالت النصارى المسيحُ ابن اللَّهِ﴾ نسب اليهود اللعناء إلى الله الولد ، فقالوا عُزيرٌ ابن الله ، وزعم النصارى ـ أعداء الله ـ أن المسيح ابن الله كذباً وزوراً ﴿ذلكَ قولُهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا من قبلُ﴾ ذلك القول الشنيع مجرد دعوى بألسنتهم ، يشابهون قول أهل الأوثان ، الذين قالوا اللاَّت والعُزَّى آلهتنا قال ابن عباس قالوا مثل ما قال أهل الأوثان ﴿قَاتَلَهُمُ الله أنَّى يُؤْفكون﴾ أهلكهم الله ولعنهم ، كيف يحيدون عن الحقِّ ويصدُّون عنه ؟ والصيغة للتعجب ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونِ اللَّهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ﴾ اتخذ اليهود علماءهم ، والنصارى رهبانهم ـ وهم أهل الصوامع المترهبون ـ أرباباً من دون[1] الله ، يطيعونهم فيما يحلِّلون ويُحرِّمون ، واتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً ﴿وَمَا أُمروا إلاَّ ليعبدوا إلَهاً واحداً﴾ وما أُمر اليهود والنصارى ، إلاَّ أن يعبدوا ويطيعوا رباً واحداً ، لا أرباباً شتَّى ، وهو الله المستحقُّ على جميع خلقه الإقرار له بالوحدانية والربوبية ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً لله ، وتطهيراً له عمَّا يُشرك به هؤلاء ، القائلون عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ﴿يُريدون أنْ يُطفئوا نورَ اللَّهِ بأفواههم﴾ يريد هؤلاء الكفار ، أن يطفئوا نور الإسلام بأفواههم ، بتكذيبهم به ، وصدِّهم الناس عنه ، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً[2] ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ أنْ يُتمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرونَ﴾ ويأبى الله إلا أن يعلو الدينُ ، ويتم الحقُّ ، ولو كره الجاحدون ذلك ﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدين الْحَقِّ﴾ الله الذي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة ، والدين الحقُّ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾

---

(١) عن عدي بن حاتم قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب ، فقال يا عدي : اطرح هذا الوثن من عنقك ، فطرحته وانتهيتُ إليه وهو يقرأ في سورة براءة ، فقرأ هذه الآية. ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله: إنَّا لا نعبدهم ، فقال: أليس يُحرِّمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتحلّونه ؟ قلت : بلى ، قال: فتلك عبادتهم». الطبري ١٠/١١٤ .

(٢) انظر إلى روعة التمثيل وجمال البيان في آيات القرآن، فقد مثَّل لهؤلاء السفهاء الذين يكيدون للإسلام،بالإنسان الذي يريد أن يطفىء نور الشمس بفمه الحقير ، فهو بنفخةٍ يريد أن يطمس نور الشمس ويُذهب ضياءها عن الخلق ، وأين نور الله من نور الشمس !! وهذا من أعظم البشائر بأن دين الإسلام سيعلو ويظهر، وينتشر في الآفاق والبلاد، انتشار الشمس في الكائنات .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

***

ليُعليَ الإسلام على الأديان كلها ، ولو كره المشركون ظهوره **﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ ليأكلون أموال النَّاسِ بالباطل﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن كثيراً من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » يأخذون الرشاوَى في أحكـامهم ،ويُحرِّفون كتاب الله ، ليأخذوا به ثمناً قليلاً من سَفَلتهم **﴿وَيَصُدُّونَ عن سبيلِ اللَّهِ﴾** ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه

﴿والذينَ يكنزونَ الذَّهبَ والفضة ولا يُنفقونها في سبيل اللَّهِ فبشّرهم بعذاب أليم﴾ والذين يجمعون الأموال الكثيرة ، ولا يؤدون زكاتها فبشرهم[1] بعذاب أليم موجع يوم القيامة **﴿يَوْمَ يُحْمَى عليها في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بها جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهم وظهورُهم﴾** يوم يوقد على الأموال التي كنزوها في نار جهنم ، فتحرق بها الجباه ، والجنوبُ ، والظهور[2] ، بكيِّها بها ويُقال لهم **﴿هَذَا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزونَ﴾** هذا ما ادَّخرتم لأنفسكم في الدنيا من الأموال ، فذوقوا عذاب ما كنتم تكنزونه منها مكاثرةً ومباهاةً . **﴿إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً في كِتَابِ اللَّهِ يومَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ﴾** إنَّ عدد شهور السنة عند الله تعالى اثنا عشر شهراً ، في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن ، يوم خلق السمواتِ والأرضَ . **﴿منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾** من هذه الشهور أربعة أشهر حُرُم ، يحرم القتال فيهن ، وهنَّ ـ رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرَّم ـ كانت الجاهلية تعظِّمهنَّ وتُحرِّمهنَّ . **﴿فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾** فلا تعصوا الله فيها ، ولا تُحلّوا ما حرَّم الله ، فإن الله عظَّمها وعظَّم حرمتها **﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلونَكُمْ كَافَّةً﴾** وقاتلوا المشركين جميعاً مجتمعين غير متفرقين ، كما يقاتلونكم

---

(١) وضع البشارة موضع الإنذار للسخرية والتهكم، وانظر كيف قرن القرآن بين جريمة الأحبار والرهبان . وبين جريمة مانع الزكاة لأن الجميع يشتركون في أكل المال الحرام ، نعوذ بالله من سخطه.

(٢) إنما ذكرت هذه الأعضاء «الجباه ، والجنوب، والظهور» لأن البخيل يرى الفقير فيقطِّب جبهته فيه ، فإذا وصل إليه أعرض عنه بجانبه ، فإذا مدَّ يده إليه بالإحسان ولاَّه ظهره ومشى ، فعوقب بكيِّها في نار جهنم

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

***

جميعاً ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقينَ﴾ إذا اتقيتم الله كان الله معكم ، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء ﴿إنَّمَا النَّسيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ﴾ إنما تأخير حرمة شهر لشهرٍ آخر ، زيادة في كفر المشركين[1] ﴿يُضَلُّ به الذينَ كفروا﴾ يُضِلُّ الله بما ابتدعوه وأحدثوه هؤلاء الكفار ﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً ويُحَرِّمونه عاماً﴾ يُحلُّون الشهر المحرَّم عاماً ويحرمونه عاماً ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا بتحليلهم وتحريمهم عدة الأشهر الأربعة الحرم ﴿فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فيستحلوا ما حرَّمه الله تعالى ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ حَسَّنَ وحبَّبَ إليهم الشيطان قبيح أعمالهم ﴿واللَّهُ لا يهدي القوم الكافرينَ﴾ لا يوفق لمحاسن الأفعال ، الجاحدين توحيده ، المنكرين لنبوَّة رسوله محمد ﷺ

﴿يا أيها الذينَ آمنوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أيُّ شيءٍ جعلَكُمْ إذا قال لكم رسول الله ﷺ اخرجوا غُزاة في جهاد أعداء الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ﴾ تثاقلتم إلى الجلوس في مساكنكم ؟ ﴿أرضيتُم بالحياة الدنيا منَ الآخرةِ﴾ أرضيتم بحظ الدنيا والدَّعة فيها ؛ عوضاً من نعيم الآخرة ﴿فما مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا قليلٌ﴾ فما الذي يستمتع به المتمتعون من عيش الدنيا ولذَّاتها في نعيم الآخرة إلَّا يسير والآية حثٌّ من الله تعالى للمؤمنين على غزو الروم في تبوك ﴿إلَّا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَليماً﴾ إن لم تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ يعذبكم الله عذاباً موجعاً في الدنيا ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل الله بكم قوماً غيركم ، يطيعون الله ورسوله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ ولا تضروا الله بترككم النفير ، لأنه لا حاجة به إليكم ﴿واللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على كل ما يشاء ، ومنه إهلاككم واستبدال قومٍ غيركم ﴿إلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلَّا تنفروا مع رسوله فتنصروه ، فالله ناصره ومعينه على عدوه ، ومغنيه عن نصرتكم ومعونتكم ﴿إذْ

---

(١) كان العرب أهل حروب وغارات ، لا ينفكُّون عن الإغارة ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقَّ عليهم ترك القتال، فاستقرضوا حرمة شهر لشهرٍ آخر، فيقولون مثلاً: حرمنا صفر وأخرنا المحرم ، حتى يكملوا أربعة أشهر محرمة فذلك هو النسيء الذي ذكره القرآن الكريم

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

***

أَخْرَجَهُ الذين كفروا﴾ كما نصره حين أخرجه كفار قريش من داره ووطنه ﴿ثَانِيَ اثنين﴾ هو أحد الاثنين : رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا في الغَارِ﴾ حين كانا مختبئين في النقب العظيم في جبل ثور . ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ حين قال الرسول لأبي بكر لا تخف فاللَّهُ معنا روي أن أبا بكر قال وهو في الغار يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه أبصرنا ، فقال يا أبا بكر : ما ظنُّك باثنين اللَّهُ ثالثهما ؟ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فانزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله(١) ﴿وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقوّاه بجنودٍ من الملائكة لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ وأبطل كلمة الشرك ومحق أهلها ، لأنها قُهرت وأُذلَّت ، وكل مقهور ومغلوب فهو ذليل ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا﴾ وكلمة التوحيد « لا إلَهَ إلا اللَّهُ » ودينُه وتوحيدُه ، هو الغالبُ على الشرك وأهله ﴿واللَّه عزيزٌ حكيمٌ﴾ والله قاهر لا يغلبه غالبٌ ، حكيم في تدبير شؤون خلقه ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً﴾ إنفروا أيها المؤمنون لجهاد أعداء الله ، شباباً وشيوخاً ، ركباناً ومُشاةً ، أغنياء وفقراء ، أصحاء وضعفاء(٢) ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللهِ﴾ وجاهدوا الكفار بالأموال والأنفس ، لإعلاء دين الله .﴿ذلكمخيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ هذا النفير والجهاد ، خيرٌ لكم من التثاقل إلى الأرض ، إن كنتم من أهل العلم بفضل الجهاد في سبيل الله ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ﴾ لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك غنيمةً حاضرة ، وموضعاً قريباً سهلاً ، لنفروا معك طمعاً في الغنيمة لا لوجه الله ، والآيةُ نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عليهمُ الشُّقَّةُ﴾ ولكنك كلفتهم سفراً شاقاً ، واستنهضتهم في زمن الحر ، ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وَسَيَحْلِفُونَ باللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وسيحلف لك هؤلاء المعتذرون بالباطل لتقبل منهم عذرهم قائلين: لو أطقنا الخروج بوجود المراكب والظهور ، لخرجنا معكم إلى عدوكم ﴿يُهْلِكُونَ أنفسهم﴾ يوجبون لأنفسهم الهلاك والعطب ، بحلفهم بالله كاذبين ، لأنهم يكسبونها سخط الله وأليم

(١) وقيل: على «أبي بكر» وما ذكره الطبري أرجح لقوله تعالى بعده ﴿ وأيده بجنود لم تروها﴾

(٢) اختار الطبري العموم أي أنفروا في جميع الأحوال والظروف، شيباً وشباباً، أصحاء وضعفاء، الخ وهو الأرجح .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ

***

عقابه ﴿والله يعلم إنَّهمْ لكاذبونَ﴾ والله يعلم أنهم كاذبون في دعواهم ، لأنهم كانوا مستطيعين للخروج بصحة الأبدان ، وقوى الأجسام ﴿عَفَا الله عنك لم أذنت لهم﴾ عفا الله عنك يا محمد ، لأي شيءٍ أذنت لهؤلاء المنافقين[١] ؟ ﴿حتّى يتبيَّنَ لكَ الذينَ صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبين﴾ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف ، حتى تعرف من له عذر منهم ، ومن لا عذر له ، وتعرف الكاذب المتخلف منهم نفاقاً ، وشكاً في دين الله ﴿لا يستأذنك الذين يُؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ لا يستأذنك يا محمد عن التخلف عن الجهاد في سبيل الله ، من يصدّق بالله ووحدانيته ، ويُقرُّ بالبعث والدار الآخرة . ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يستأذنوك في ترك الغزو ، وجهاد أعداء الله بالمال والنفس ﴿واللّهُ عليمٌ بالمتقينَ﴾ والله عالم بمن خافه واتقاه ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿إنما يستأذنكِ الذينَ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إنما يستأذنك في ترك الجهاد ، الذين لا يصدِّقون بالله ، ولا يُقرّون بتوحيده . ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فهم في رَيْبِهِمْ يتردَّدونَ﴾ وشكّت قلوبهم في وحدانية الله ، وثوابه وعقابه ، فهم في شكهم متحيرون ، لا يعرفون حقاً من باطل . ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأعدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ ولو أرادوا الخروج معك لجهاد أعدائك ، لتأهبوا للسفر ولقاء العدو ، وأعدُّوا للخروج العُدَّةَ بالسلاح والعتاد ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ ولكنَّ الله تعالى كره خروجهم معك . ﴿فَثَبَّطَهُمْ وقيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ﴾ فثقَّل عليهم الخروج حتى تركوه ، وقيل لهم اقعدوا مع المرضى والضعفاء ، ومع الصبيان والنساء ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خَبَالاً﴾ لو خرج هؤلاء المنافقون معكم ، ما زادوكم إلا فساداً وضرّاً ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ﴾ ولأسرعوا بالإفساد بينكم ﴿يبغونكم الفتنةَ﴾ يطلبون لكم الفتنة بتثبيطكم عن الجهاد . ﴿وفيكم سَمَّاعونَ لهم﴾ وفيكم عيونٌ لهم ، يسمعون لحديثكم ليبلِّغوه لهم[٢] ﴿واللّهُ عليمٌ

(١) هذا عتابٌ لطيف رقيق من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، وفيه تكريمٌ ظاهر حيث قدم العفو على العتاب له عليه السلام . فقد وجَّهه تعالى الى الأفضل في معاملة المنافقين بالعتاب اللطيف الرقيق الذي ينمّ عن لطف الله ورحمته برسوله .

(٢) هذا الذي اختاره الطبري قول مجاهد ، واختار ابن كثير أن المعنى : وفيكم من يسمع ويصغي إلى قولهم ويطيعهم ، وهذا المعنى أظهر وهو قول قتادة لأن الغرض عتاب بعض المؤمنين على طاعتهم وإصغائهم لأعدائهم الكافرين .

ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا
تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ
يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ

***

بالظالمينَ﴾ عالمٌ بالمنافقين لا يخفى عليه شيء من سرائرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنةَ من قَبْلُ﴾ لقد التمس المنافقون الفتنة لأصحابك من قبل هذا ، كفعل عبد الله بن أُبيٍّ « يوم أحد » حين انصرف عنك بقومه ﴿وقلَّبوا لكَ الأمورَ﴾ وأجالوا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحقُّ﴾ حتى جاء نصر الله ﴿وظهر أمرُ الله وهم كارهونَ﴾ وظهر دين الله ـ وهو الإسلام ـ وهم كارهون لظهوره ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي﴾ ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ، ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر ، قال مجاهد قال رسول الله ﷺ أغزوا تغنموا بنات الأصفر ـ يعني الروم ـ فقال « الجدُّ بن قيس » ائذن لنا ولا تفتنا بالنساء فنزلت ﴿ألَا في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة ؛ بتخلفهم عن رسول الله ﷺ ، فما وقعوا فيه من الإثم أعظم ﴿وإنَّ جهنمَ لمحيطةٌ بالكافرين﴾ وإن النار لمحدقة بالكافرينَ بالله وآياته ، جامعةٌ لهم يوم القيامة ﴿إنْ تُصِبْكَ حسنةٌ تسؤهم﴾ إن أصابك يا محمد سرورٌ ، بفتح اللّهِ عليك أرض الروم ، ساء المنافقين ذلك ﴿وإن تُصبْكَ مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبلُ﴾ وإن تصبك مصيبة بهزيمة جيشك ، يقول المنافقون قد أخذنا حذرنا بتخلفنا عن محمد ، من قبل هذه المصيبة ﴿ويتولَّوْا وهم فرحونَ﴾ وينصرفوا عن محمد ، وهم فرحون بما أصابه من انهزام أصحابه ، وقتل من قُتل منهم ﴿قُلْ لَنْ يُصيبنا إلاَّ ما كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين لن يصيبنا إلا ما كتبه الله وقضاه علينا في اللوح المحفوظ ﴿هو مولانا﴾ هو ناصرنا على أعدائنا ﴿وَعَلى اللّهِ فَلْيَتوكَّلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ، حتى يكفيهم أمورهم ، وينصرهم على من بغى عليهم ﴿قُلْ هل تَرَبَّصُونَ بنا إلاَّ إحدى الحُسْنَيَيْنِ﴾ قل لهمْ يا محمد هل تنتظرون بنا إلاَّ إحدى الخلَّتين الحميدتين إما الظفر بالعدو وفيه الأجر والغَنيمة ، وإما قتلنا وفيه الشهادة والفوز بالجنة !! ﴿ونحنُ نتربصُ بكم أن يُصيبكم اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بأيْدينا﴾ ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعقوبة عاجلة من عنده فتهلككم ، أو بأيدينا فنقتلكم ﴿فتربصوا إنَّا معكم متربصونَ﴾ فانتظروا إنَّا معكم منتظرون ما الله فاعلٌ بنا وبكم ، وما يصير إليه أمر كل فريق منا ومنكم ﴿قل أَنْفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً﴾ قل

إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ

* * *

لهم أنفقوا يا معشر المنافقين أموالكم كيف شئتم ، وعلى أي حالٍ شئتم من حال الطوع والكره ﴿لَنْ يُتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقينَ﴾ فإنكم إن تنفقوها لن يتقبلها الله منكم ، لشكِّكم في دينكم ، وخروجكم عن طاعة ربكم. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ منهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلاّ أنهم كفروا باللّهِ وبرسوله﴾ ومامنع من قبول النفقات منهم ، إلاّ كفرهمْ بالله وبرسوله ﴿ولا يَأْتونَ الصَّلاةَ إلاَّ وهم كُسَالَى﴾ لا يأتونها إلا متثاقلين ، مخافةً على أنفسهم من المؤمنين ، لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ، ولا يخافون بتركها عقاباً ﴿ولاَ يُنْفقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ولا ينفقون من أموالهم شيئاً ، إلاّ وهم كارهون إنفاقه ، ممَّا فيهِ تقويةٌ للإسلام وأهله ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾ فلا تُفْتنْ بما أُوتوا من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بإلزامهم ما أوجب عليهم من حقوقه وفرائضه ، بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله ، وهذا من عظيم العذاب عليهم ، لأنها تؤخذ منهم من غير طيب النفس ، على ضجرٍ منهم وكُره[1] ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ويموتوا على كفرهم وضلالهم ﴿وَيَحْلِفُونَ باللهِ إِنَّهُمْ لمنكم﴾ ويحلف هؤلاء المنافقون بالله كذباً وباطلاً ، إنهم منكم في الدين والملَّة ﴿وما هم منكم﴾ وليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شكٍ ونفاق ﴿ولكنَّهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ولكنهم قومٌ يخافون منكم أن تقتلوهم، فلذلك يقولون بألسنتهم إنَّا منكم ليأمنوكم. ﴿لو يجدون ملجأً﴾ حصناً ومعقلاً يتحصنون به منكم. ﴿أو مَغَاراتٍ أو مُدَّخلاً﴾ أو مغاراتٍ في الجبال، أو سَرَباً في الأرض يدخلون فيه ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ لأقبلوا إليه وهم يُسرعون هرباً منكم[2] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ﴾ ومن المنافقين من يعيبك يا محمد ، ويطعن عليك في أمر

---

(١) فإن قيل كيف يعذبهم الله بأموالهم في الدنيا، وهي لهم فيها سرورٌ ومتْعة ؟ فالجوابُ أن همَّ الكافر في جمع المال وتكديس الثروات ، من أعظم العذاب له ، فإنه كلما زاد مالُه زاد تكالبه على الدنيا ، فلا يزال في همّ وغمّ ، وإذا نقص شيء من ماله أقلق ذلك مضجعه ، ثم إن الكفار بهذه الأموال يسعون إلى إفناء بعضهم بعضاً ، بالأسلحة الفتاكة والقنابل الذرية والهدروجينية وكفى بذاك عذاباً لهم ، ويتحقق بذلك صدق القرآن في قوله تعالى ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾.

(٢) شبههم تعالى بالفرس الجموح ﴿وهم يجمحون﴾ لأنهم في شرودهم عن الإيمان والحق ، يشبهون الفرس الجموح التي تضطرب في مشيها ، والغرضُ من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن هؤلاء المنافقين لو استطاعوا الهرب منهم ، ولو في شرّ الأمكنة وأخسِّها لفعلوا ، لشدة بغضهم لهم ، فلا يغتروا بأيمانهم الكاذبة .

أَعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ
عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

الصَّدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا منها رَضُوا﴾ فإن أنت أعطيتهم منها ما يُرضيهم رضوا عنك ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطوا مِنْها إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وإن أنتَ لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك(١) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ولو أن هؤلاء الذين عابوك ، رضوا بما قَسَم الله لهم من قَسْم وعطاء ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وقالوا كافينا اللَّهُ ﴿سيؤتينا اللَّهُ من فضلِهِ ورسولُهُ﴾ سيعطينا الله من خزائن فضله ، ورسولُه من الصَّدقة ﴿إنَّا إلى الله راغبون﴾ إنا نرغب إلى الله أن يوسّع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقات وغيرها من الصِّلات

﴿إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين﴾ لا تُنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ، ومن سمَّاهم الله تعالى في هذه الأصناف الثمانية ، والفقيرُ هو المحتاج المتعفف ، والمسكينُ هو المحتاج الذي يسأل الناس ﴿والعاملين عليها﴾ والسُّعاة « الجُباة » الذين يجمعونها من أهلها ، أغنياء كانوا أو فقراء . ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلوبُهُمْ﴾ الذين يُتألفون على الإسلام نصرةً للدين ، واستصلاحاً به نفسه وعشيرَته(٢) ﴿وَفي الرِّقاب﴾ وهم المكاتبون يُعطون لفكّ رقابهم ﴿والغارمينَ﴾ والمديونون الذين استدانوا في غير معصية الله ، ثم لم يجدوا قضاءً لدينهم ، قال مجاهد : هم قوم ركبتهم الديون في غير فسادٍ ولا تبذير ﴿وفي سبيلِ الله﴾ وفي غزو الكفار ، قال ابن زيد هو الغازي في سبيل الله ﴿وابنِ السبيل﴾ الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضة من الله﴾ قسمةً فرضها الله وأوجبها في أموال الأغنياء ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بمصالح خلقه ، حَكيمٌ في تدبير شؤونهم

﴿ومنهم الذينَ يُؤْذونَ النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ﴾ ومن هؤلاء المنافقين أُناسٌ يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ، ويقولون هو أذن(٣) سامعة ، يسمع من كل أحدٍ فيقبله

---

(١) نزلت الآية في رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة » قال للرسول اعدل يا محمد الخ وانظر قصته في الطبري ١٠ / ١٥٧

(٢) قال ابن جرير : إن الله جعل الصدقة في معنيين : ١ ـ أحدهما سدُّ خلَّة المسلمين ٢ ـ والآخر معونة الإسلام وتقويته ، فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه ، فإنه يُعطاه الغنيُّ والفقير ، كالمجاهد في سبيل الله ، يعطى للغزو لا لسدّ خلَّته ، غنياً كان أو فقيراً ، وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء ، استصلاحاً لأمرهم ، وطلباً لتقوية الإسلام وتأييده ، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم ، بعد أن فتح الله عليه الفتوح ، وفشا الإسلام وعزّ أهله ؛ فلا حجة لمن يقول ، لا يتألف اليوم على الإسلام أحد اهـ ، وهو رأي وجيه

(٣) يقال : رجل أُذُنٌ إذا كان يسمع مقال كل واحد ، قال الشاعر : « قد صرتَ أذناً للوشاة سميعةً » .

مِنكُمْۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ

* * *

ويُصدِّقه ﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم﴾ قل لهم هو أذن خيرٍ لا أذن شرٍّ. ﴿يؤمنُ باللَّهِ ويُؤمنُ للمؤمنينَ﴾ يُصدِّق بالله ويُصدِّق المؤمنين، لا أهل النفاق والكفر بالله، وهذا تكذيبٌ للمنافقين الذين قالوا إن محمداً أذن، نقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدِّقنا ﴿ورحمةٌ للذينَ آمنوا منكم﴾ وهو رحمةٌ للمؤمنين، الذين اتبعوه واهتدوا بهداه، لأنه أنقذهم من الضلالة ﴿والذينَ يؤذون رسولَ اللَّهِ لهم عذابٌ أليمٌ﴾ والذين يعيبون الرسول ﷺ ويقولون فيه الهُجْر والباطل، لهم عذاب موجع في نار جهنم ﴿يحلفون باللَّهِ لكم ليُرْضوكم﴾ يحلف لكم هؤلاء المنافقون الأيمان الفاجرة، أنهم ما فعلوا ذلك، يبتغون بذلك رضاكم ﴿واللَّهُ ورسولهُ أحقُّ أن يُرْضوه إن كانوا مؤمنين﴾ واللَّهُ ورسوله أحقُّ بالإرضاء، بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا، إن كانوا مصدِّقين بتوحيد الله، ووعده ووعيده ﴿ألم يعلموا أنَّه من يحادِدِ اللَّهَ ورسولَه فأنَّ له نارَ جهنم خالداً فيها﴾ ألم يعلم هؤلاء المنافقون، أنه من يحارب الله ورسوله ويخالفهما، فأن له في الآخرة نار جهنم، مقيماً فيها إلى غير نهاية؟ ﴿ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ﴾ ذلك هو الهوان والذل العظيم ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أنْ تُنَزَّل عليهمْ سورةٌ تُنَبِّئُهُمْ بما في قلوبهم﴾ يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة، تُطلع المؤمنين على ما في قلوبهم ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ قل لهم متهدداً متوعداً استهزئوا بدين الله، إن الله مظهرٌ ما تخفونه من النفاق وفاضحكم، فكانت هذه السورة تُدعى الفاضحة ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولئن سألت هؤلاء المنافقين عمَّا قالوا من الكذب والباطل، ليقولنَّ لك إنما قلنا ذلك لعباً وهُزُواً ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وآياتِهِ ورسولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[١] قل يا محمد أتستهزئون بالله، وآيات كتابه، ورسوله؟ ﴿لا تَعْتَذروا قد كفرتم بعدإيمانكُمْ﴾ لا تعتذروا بالباطل، فقد جحدتم الحقَّ بالطعن في رسولكم، بعد تصديقكم ﴿إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم﴾ إن نعف عن طائفةٍ منكم

(١) روي أن الرسول ﷺ بينا كان يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناسٌ من المنافقين، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات، فنزلت الآية.

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

***

لتوبتهم ﴿نعذِّبْ طائفةً﴾ نعذِّب طائفةً بترك التوبة ﴿بِأَنَّهُمْ كانوا مجرمينَ﴾ لاكتسابهم الجرم بكفرهم بالله ، وطعنهم في رسول الله ﷺ ﴿المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم من بعضٍ﴾ المنافقون والمنافقاتُ صنفٌ واحد ، في إعلان الإيمان ، واستبطان الكفر ﴿يَأْمُرُونَ بالمُنْكر وَيَنْهَوْنَ عَن الْمَعْرُوفِ﴾ يأمرون بالكفر بالله ورسوله ، وينهون الناس عن الإيمان بالله ورسوله ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله ، فتركهم من رحمته وهدايته ﴿إِنَّ المُنافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إن المنافقين هم الخارجون عن طاعة الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وعد الله أهل النفاق والكفر بالله ، نار جهنم يصلونها جميعاً ﴿خالدينَ فيها﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ هي كافيتُهم عقاباً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم الله من رحمته. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مقيمٌ﴾ ولهم عذاب دائم لا ينقطع ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ منكُمْ قُوَّةً﴾ كالذين من قبلكم من الأمم ، الذين فعلوا فعلكم فأهلكهم الله ، فاحذروا أن يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم ، فإنهم كانوا أشدَّ منكم قوةً وبطشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ وأكثر منكم أموالاً وأولاداً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ﴾ فتمتعوا بنصيبهم وحظِّهم من الدنيا ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ﴾ وقد سلكتم سبيلهم في استمتاعكم بالدنيا ، وفعلتم كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم منها ﴿وَخُضتمْ كَالَّذي خاضوا﴾ وخضتم في الكذب والباطل ، كخوض تلك الأمم قبلكم ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ذهبت أعمالهم باطلاً ، فلا ثواب لها إلا النَّارُ ، لأنها كانت فيما يُسخط الله ﴿وَأُولَئِك هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ لبيعهم نعيم الآخرة ، باليسير الزهيد من الدنيا ﴿أَلَمْ يأتِهِمْ نَبَأُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثَمودَ﴾ ألم يأتِ هؤلاء المنافقين خبر « قوم نوح » ألم أغرقهم بالطوفان ؟ وخبر عادٍ ألم أهلكهم بريح صَرْصرٍ عاتيةٍ ؟ وخبر ثمود ألم أهلكهم بالرجفة ؟ ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

***

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وخبر قوم إبراهيم ألم أسلبهم النعمة وأهلكْ ملكهم نمرود ؟ وخبر أصحاب مدين ألم أهلكهم بعذاب يوم الظُّلة ؟ وخبر المنقلبة بهم أرضهم - قوم لوط - ألم أجعل عاليها سافلها ؟ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ لِيَظْلِمَهُمْ ولكنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فما أهلكهم الله ظلماً ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم من الأمم ؟!

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بعضُهم أنصار بعضٍ وأعوانُهم . ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، وينهونهم عن الكفر بالله ورسوله(١) ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ويؤدون الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل ، ويعطون الزكاة لمستحقيها ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمرٍ ونهي ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ هؤلاء سيرحمهم الله ، فينقذهم من عذابه ويدخلهم جنّته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيزٌ في انتقامه ممَّن عصاه ، حكيمٌ في جميع أفعاله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُـؤْمِـنَـاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ وعد الله هؤلاء المؤمنين من الرجال والنساء ، بساتينَ تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فيها﴾ مقيمين فيها أبداً ، لا يزول عنهم نعيمُها ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عدْنٍ﴾ ومنازل يسكنونها طيبة ، في جنات خلدٍ وإقامة(٢) ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ورضى الله عنهم أكبرُ من ذلك كلِّه ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذا هو الظفر العظيم ، الذي لا شيء أعظم منه

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ﴾ جاهد أهل الكفرِ والنفاق بالسيف

(١) هؤلاء المؤمنون على عكس المنافقين ، الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، والفرق بينهم كالفرق بين النور والظلام

(٢) سميت ﴿جنات عدنٍ﴾ لأنها جناتُ الخلد والإقامة ، من دخلها لم يخرج منها ، يقال : عدن فلان بأرض كذا إذا أقام بها ، وقال أبو الدرداء هي دار الله التي لم ترها عينٌ ، لا يسكنها إلا النبيّون والصدّيقون والشهداء وقال الحسن هي قصورٌ من اللؤلؤ والياقوت الأحمر .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ * وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

***

والسلاح ، واشدُدْ عليهم بالجهاد والقتال[١] **﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** ومسكنهم جهنَّمُ ، وبئس المكانُ الذي يصيرون إليه **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾** يحلف المنافقون كذباً أنهم ما قالوا كلمة الكفر **﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾** ولقد قالوا كلمة الكفر وهي قول ابن سلول « لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ »[٢] **﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾** وكفروا حقاً بعد إظهارهم الإسلام **﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾** وهمُّوا بالفتك بالنبي ﷺ **﴿وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ﴾** وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلاَّ أنَّ الله تعالى أغناهم من فضله **﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾** فإن يرجعوا عن النفاق يكن رجوعهم خيراً لهم **﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾** وإن يُصرّوا على الكفر ، يعذبهم الله عذاباً شديداً موجعاً **﴿فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾** في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بعذاب النار **﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾** وليس لهم من ينقذهم في الدنيا من عقاب الله وأليم عذابه **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ﴾** ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهداً بقوله لئن رزقنا مالاً ، ووسَّع علينا من فضله **﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** لنعملنَّ فيه بعمل أهل الصلاح ، من صلة الرحم ، والإنفاق في سبيل الله[٣] **﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾** فلمَّا رزقهم الله من فضله ، بخلوا فلم يتصدقوا ، ولم ينفقوا منه **﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾** أدبروا عنِ العهد ، وهم معرضون عن طاعة الله **﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾** فجعل الله في قلوبهم النفاق ، إلى يوم مماتهم **﴿بِمَا أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ**

---

(١) قال ابن عباس جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان، واختار الطبري العموم للفريقين وهو الأرجح

(٢) اقتتل رجلان : جهنيٌ وغفاريٌ ـ وكانت جهينة حلفاء الأنصار ـ وغلبَ الغفاري الجهني،فقال ابن سلول: انصروا أخاكم، والله ما مثلنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل «سَمِّنْ كلبك يأكلْك»، وقال الخبيث عدوُّ الله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ ثم حلف أمام الرسول ﷺ أنه لم يقلها

(٣) روي أنها نزلت في «ثعلبة» وهو غير «ثعلبة بن حاطب» الصحابي المشهور، فإن هذا من المؤمنين، وذاك من المنافقين، بدليل أن الآية وردت في سياق أوصاف المنافقين.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ
لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

***

﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ببخلهم وإخلافهم الوعد الذي وعدوا به الله ، وبكذبهم في قولهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ألم يعلم هؤلاء المنافقون ، أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم من الكفر بالله ورسوله ، وما يتناجون به بينهم من الطعن في الإسلام وأهله ؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعلم ما غاب عن أسماع خلقه ، وأبصارهم ، وحواسّهم ؟ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِين من المؤمنين في الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبون المتطوعين في صدقاتهم من المؤمنين ، ويطعنون فيهم بقولهم إنما تصدَّقوا به رياءً وسمعة ، ولم يريدوا وجه الله[1] ﴿والَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرون مِنْهُمْ﴾ ويطعنون في الذين لا يجدون إلا طاقتهم ،فيقولون: لقد كان الله غنياً عن صدقة هؤلاء، سخريةً بهم ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جازاهم على سخريتهم بما يستحقون ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلمٌ موجع ﴿آسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ادع لهم يا محمد بالمغفرة أو لا تدع لهم ، إن سألت الله لهم العفو والغفران سبعين مرة ، فلن يعفو الله عنهم ، بل سيفضحهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بالله وَرَسُولِهِ﴾ ترك العفو عنهم ، من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة نبيِّه ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يوفّق للإيمان من خرج عن طاعته ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فرح الذين تخلفوا عن الجهاد ، بجلوسهم في منازلهم خلافاً لأمر الرسول ﷺ ، حيث أمرهم بالنفر فخالفوا أمره ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وكرهوا أن يغزوا بأموالهم وأنفسهم نصرةً لدين الله ، إيثاراً للراحة ، وشُحّاً بالمال ﴿وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وقال بعضُهم لبعض: لا تخرجوا للغزو في الحرّ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَراً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ قل لهم يا محمد : نار جهنم أشد حراً من هذا الحرّ ، لو كانوا يفهمون وعظ الله ، ويتدبرون آيات كتابه

---

(١) روي أن رجلاً من الأنصار تصدّق بمال كثير، فقال المنافقون: إنه مراءٍ، وتصدّق رجل بصاع من تمر، فقالوا : إن الله غنيٌّ عن صدقة هذا ، فنزلت الآية، «أخرجه البخاري».

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ
ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

***

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فليضحكوا قليلاً في هذه الدنيا الفانية ، فإنهم سيبكون طويلاً في جهنم ﴿جَزاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جزاءً بما كانوا يجترحون من الذنوب ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إلى طَائفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ فإن ردَّك الله من غزوة تبوك ، إلى جماعة من هؤلاء المنافقين ، فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلوا مَعِي عَدُوّاً﴾ فقل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ، ولن تقاتلوا معي أحداً من الأعداء ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ فاقعدوا مع المتخلفين عن الجهاد من الضعفاء والنساء ﴿وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبداً﴾ ولا تصلِّ على أحد مات من هؤلاء المنافقين أبداً[1] ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تتولَّ دفنه وتقبره[2] ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة نبيِّه ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وماتوا وهم خارجون من الإسلام ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾ ولا تعجبك أموال هؤلاءالمنافقين وأولادهم .﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بها في الدنيا﴾ فإني إنما أعطيت المنافق ذلك ، لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم ، والرزايا والمصائب ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهم كافرون﴾ وليموت فيفارق المال والولد ، فيكون ذلك حسرةً ووبالاً عليه ﴿وإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمنوا بالله وجاهدوا مع رسولِهِ﴾ وإذا أُنزلت عليك يا محمد سورة من القرآن ، بأن آمنوا بالله واغزوا مع رسوله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ استأذنك أصحاب الغنى والمال في التخلف عن الجهاد ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مع القاعدين﴾ وقالوا دعنا نكن مع ضعفاء الناس ومرضاهم ، ممن لم يخرج معك في السفر ﴿رَضُوا بأَنْ يكونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يكونوا مع الذين تخلفوا في البيوت ، من النساء والمرضى ، والعَجَزة

---

(١) نزلت في عبد الله بن سلول ، رأس المنافقين ، حين طلب ابنه من رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه ، وأن يصلي عليه ، فقال عمر : يا رسول الله أتصلي على رجلٍ من المنافقين ؟ فنزلت الآية . (٢) أي لا تشهد جنازته ولا تحضر دفنه .

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا

***

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ على قُلُوبهمْ فهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ وختم الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون مواعظ الله فيتعظون بها، **﴿لَكِنِ الرَّسُولُ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ﴾** لكنْ محمد ﷺ والذين صدَّقوا الله ورسوله، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فبذلوا أموالهم، وأتعبوا أنفسهم نصرةً لدين الله **﴿وأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾** هؤلاء لهم خيراتُ الآخرة، نساؤها، وجناتها، ونعيمها، وهم المخلدون في الجنات، الفائزون بها **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لهم جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾** أعد الله لرسوله وللمؤمنين معه، بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار **﴿خَالِدِينَ فيها ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** لابثين فيها أبداً، ذلك النجاءُ العظيم، والحظُّ الجزيل **﴿وَجَاءَ المُعَذِّرونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾** وجاء المعتذرون من الأعراب رسول الله ﷺ، ليأذن لهم في التخلف عن الجهاد **﴿وَقَعَدَ الَّذينَ كَذَبُوا الله وَرَسُولَهُ﴾** وقعد عن المجيء إلى الرسول ﷺ والجهاد معه، الذين قالوا الكذب واعتذروا بالباطل **﴿سَيُصِيبُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** سينال هؤلاء المتخلفين الجاحدين توحيد الله، عذابٌ مؤلم موجع **﴿لَيْس عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى المَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذينَ لَا يَجدُون ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾** ليس على أهل العجز عن الجهاد، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقةً للغزو، إثمٌ في التخلف عن الجهاد **﴿إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ﴾** إذا أخلصوا لله ولرسوله **﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سبيلٍ﴾** ليس على من أحسن عمله فتخلَّفَ لعذر، طريقٌ إلى عقابه(١) **﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾** غفورٌ لذنوبهم، رحيمٌ بهم حيث لا يعذبهم **﴿وَلَا عَلَى الَّذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾** ولا سبيل أيضاً على النَّفر الذين جاءوا يسألونك أن تحملهم لجهاد أعداء الله **﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأعينهم تفيضُ من**

---

(١) هذا من بليغ الكلام، وهو جارٍ مجرى المثل، لأن معناه لا سبيل لعاتبٍ عليهم لأنهم محسنون

يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

***

الدَّمعُ حَزَناً﴾ قلت لهم لا أجد حمولةً أحملكم عليها ، أدبروا عنك وهم يبكونَ من شدة الحزن[١] ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه للجهاد في سبيل الله ﴿إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ ليس الإثم على أهل العذر ، ولكنَّ الإثم على الذين يستأذنونك في التخلف وترك الجهاد ، وهم أهل غنى وطاقة للغزو . ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يجلسوا مع النساء في البيوت ، ويتركوا الغزو معك ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب ، فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رجعتم إليهم﴾ يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون من المنافقين ، إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ قل لهم يا محمد لا تعتذروا فلن نصدِّقكم فيما تقولون ﴿قَدْ نَبَّأنا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ قد أخبرنا الله وأعلمنا بكذبكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عملكم ورسولُهُ﴾ وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي يعلم السرَّ والعلانية ، فيجازيكم بأعمالكم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ سيحلف هؤلاء المنافقون لكم ، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم ، لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فَدَعُوا تأنيبهم ، وخلُّوهم وما اختاروا من الكفر والنفاق ، لأنهم نجسٌ ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مصيرهم ومسكنهم جهنمُ ، جزاءً على معاصيهم ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يحلفون لكم باللَّهِ ، اعتذاراً بالباطل والكذب لترضوا عنهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم ، فإن رضاكم لا ينفعهم عند الله ،لأنهم كافرون بالله ، خارجون عن طاعته

(١) نزلت الآية في «البكّائين»، وهم سبعة من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولَّوْا وهم يبكون .

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ
سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

***

إلى معصيته ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً﴾ الأعرابُ ـ أهل البَدْو ـ أشدُّ جحوداً لتوحيد الله ، وأشدّ نفاقاً من أهل الحضر والأمصار ، لجفائهم[1] وقسوة قلوبهم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وأخلقُ بألَّا يعلموا سُنَنَ الرسول عليه السلام قال قتادة هم أقلُّ علماً بالسُّنَنِ ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بخلقه ، حكيمٌ في صنعه وتدبيره ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾ ومن الأعراب من يَعُدُّ نفقته التي يُنفقها غرماً لزمه ، لا يرجو له ثواباً ، ولا يدفع به عقاباً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ وينتظر بكم مصائب الدهر ، وما تدور به الليالي والأيام من المكروه ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جعل الله نزول المكروه عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لأقوالهم ، عليمٌ بتدبيرهم ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾ ومن الأعراب من يُصدِّق بوحدانية الله ، وبالبعث بعد الموت ، والثواب والعقاب ﴿وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ وينوي بما ينفقُ ما يُقرِّبه من رضى الله ،ومن دعاء الرسول واستغفاره له ﴿أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ ألا إن دعاء الرسول قربةٌ لهم عند الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ في رَحْمَتِهِ﴾ سيدخلهم الله الجنة . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لما اجترموا ، رحيمٌ بهم مع توبتهم ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان من المهاجرين والأنصار ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحسانٍ﴾ والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة ، طلب رضى الله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضي الله عنهم جميعاً لطاعتهم ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب ﴿وَأَعَدَّ لهم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأنهارُ﴾ وأعدَّ لهم بساتين تجري من تحتها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ مقيمين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يُخرجون منها ﴿ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ هذا هو الظفر بالمطلوب ، والنَّجاء

(١) إنما وُصفوا بذلك لأنهم عاشوا بعيدين عن مشاهدة العلماء ، ومخالطة الأتقياء ، ونشأوا بلا مربٍّ ولا مؤدب ، ولهذا ظهرت فيهم الغلظةُ والجفاء .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم
مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ
عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ
ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

***

العظيم ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن أهل المدينة أيضاً أقوام منافقون أمثالُهم ، مَرَنوا على النفاق وتدرَّبوا عليه . ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعلمهم أنت يا محمد ، ولكنَّا نحن نعلمهم ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثم يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين بالأسر ، وعذاب القبر ، ثم يُردُّون في الآخرة إلى عذاب جهنم ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً﴾ ومنهم آخرون أقرُّوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيىء ، فتابوا من ذنوبهم بعد تخلفهم عن الجهاد[1] ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عليهم﴾ لعلَّ الله أن يتوب عليهم ، و« عسى » من الله واجبة بمعنى سيتوب الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عفوٌّ عن ذنوب من تاب ، رحيمٌ بالعباد ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، صدقةً تطهرهم بها من دنس الذنوب ، وترفعهم بها عن خسيس منازل أهل النفاق ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وادع لهم بالمغفرة واستغفر لهم ، لأن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لكلامهم ، عليمٌ بأحوالهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَاده وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد ، أن الله هو الذي يقبل توبة التائب أو يردُّها ، ويأخذ صدقة المتصدِّق أو يردُّها عليه ؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هو التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾ ويعلموا أن الله هو الذي يعفو عن عباده ، ويرحمهم إذا أنابوا ؟ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ﴾ قل لهم يا محمد اعملوا بما يُرضي الله ، فسيرى الله إن عملتم عملكم ، ويراه رسولهُ والمؤمنون في الدنيا ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(١) هم قوم تخلَّفوا عن غزوة تبوك ، لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ، وكان منهم «أبو لبابة» الذي ربط نفسه بسارية ، وحلف ألا يفكَّ نفسه حتى يتوب الله عليه .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ

* * *

وستُردّون يوم القيامة إلى من يعلم سرَّكم وعلانيتكم ، فيخبركم بما عملتم ، ويجازيكم عليها ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ ومن هؤلاء المتخلفين آخرون مؤخرون لأمر الله وقضائه(١) ، أرجأ الله أمرهم إلى أن صَحَّت توبتُهم ، فتاب عليهم وعفا عنهم ﴿إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إمَّا أن يُعذبهم بذنوبهم ، وإما أن يوفقهم للتوبة فيغفر لهم ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليمٌ بما يصلح شؤون العباد ، حكيمٌ في تدبيره وصنعه ، لا يدخلُ حكمَه خَلَل

﴿وَالَّذينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ والذينَ ابتنوا مسجداً ضِراراً لمسجد رسول الله(٢) ﷺ ﴿وَكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنينَ﴾ وكفراً بالله لمحادَّتهم رسوله ، وليفرِّقوا به جماعة المؤمنين ﴿وَإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وإعداداً وانتظاراً لمن قاتل رسول الله من قبل ، وهو « أبو عامر الفاسق » الذي حزَّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ ، ثم لحق بالروم وكتب إلى أهله يأمرهم ببناء مسجد الضِّرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا إلاَّ الحُسْنَى﴾ وليحلفنَّ ما أردنا ببنائه إلا المنفعة والتوسعة على المسلمين ﴿والله يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلمُ كذبهم في حلفهم ذلك . ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ لا تُصلِّ يا محمد في هذا المسجد ، الذي بناه المنافقون أبداً ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّل يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والله لمسجد الرسول(٣) ، الذي بُني على تقوى الله وطاعته ، من أول يوم ابتدىء في بنائه ، أولى أن تقوم فيه مصلياً من مسجد الضرار ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ في هذا المسجد رجالٌ ، يحبُّون أن يتنظفوا بالماء ، إذا أتوا الغائط ﴿واللَّهُ

---

(١) هؤلاء هم الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذينَ خُلِّفوا﴾ وقد كانوا شهدوا بدراً ، وتخلفوا عن غزوة تبوك ، فنهى النبي ﷺ عن الكلام معهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى ، وستأتي قصتهم في آخر السورة .

(٢) هم قوم من المنافقين بنوا مسجداً بجانب مسجد قُباء ، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه ، وأرادوا بينائه أن يكون وكراً لهم ليتآمروا على الإسلام والمسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ بهدمه وإحراقه ، وانظر تفصيل القصة في كتابنا «صفوة التفاسير» ج ١ ص ٥٥٧

(٣) رجح الطبري أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو «مسجد الرسول» وهو قول ابن عمر وسعيد بن المسيِّب ، ورجح ابن كثير أنه «مسجد قباء» وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي ، ولعل هذا القول أرجح ، والله أعلم .

مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم
بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ

* * *

يحبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ واللّهُ يحب المتطهرين بالماء **﴿أَفَمَنْ أَسَّس بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ورِضْوَانٍ خيرٌ أَمَّنْ أَسَّس بُنْيَانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ﴾** هل من ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله ، واللّهُ عنه راض خيرٌ أمَّنْ ابتدأ أساس بنائه على طرف حفرةٍ هائرة ؟ أي الفريقين خيرٌ ، وأيُّ البناءين أثبت ؟ **﴿فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ﴾** فسقط به البناء في نار جهنم[١] **﴿والله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** لا يوفق الظالمين ولا يرشدهم إلى طريق السعادة **﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبهمْ﴾** لا يزال بنيان هؤلاء المنافقين لمسجد الضِّرار ، شكاً ونفاقاً في قلوبهم ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين **﴿إلاَّ أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهمْ﴾** تتصدَّع قلوبهم فيموتوا **﴿والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** عليمٌ بأفعال خلقه ، حكيم في تدبير شؤونهم

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنَّةَ﴾ إن الله ابتاع أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة **﴿يُقَاتِلُونَ في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾** فيقتلون الكفار نصرةً لدين الله ، ويُقْتلون في سبيل الله **﴿وَعْداً عَلَيْه حَقاً في التَّوْرَاةِ والإِنْجيلِ وَالقُرْآنِ﴾** وعدهم وعداً حقاً أن يوفّي لهم به في كتبه المنزَّلة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن » إذا هم وَفَوْا عهدهم **﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾** ومن أحسنُ وفاءً بما شَرَط من الله ؟ **﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾** فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع ، الذي بعتموه من ربكم **﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** وذلك الفوز الذي لا فوز أعظم منه ثم وضَّح تعالى أوصاف هؤلاء المؤمنين فقال **﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾** التائبون من الذنوب ، العابدون لربهم ، الحامدون لله في السَّراء والضَّراء **﴿السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾** الصائمون[٢] ، المصلُّون الراكعون في صلاتهم ، والساجدون فيها **﴿الآمرون بالمعروف**

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله عز وجل لعمل أهل الإخلاص والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال، وياله من مثل رائع ، يصوِّر عملَ المؤمن بالبناء المشيَّد على أرضٍ صلبة ، وقد أُتقن الأساس والبناء ، وعمل المنافق الذي أسس بنيانه على طرف حفرة متصدِّعة فانهار به البناء في هاوية الجحيم

(٢) فسَّر الطبري «السائح» بالصائم وهو قول ابن عباس ومجاهد، وقد روي عن عائشة أنها قالت: «سياحة هذه الأمة الصيام» وذهب =

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

* * *

والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾ الذين يأمرون الناس باتباع الرُّشد والهدى ، وينهونهم عن كل فعلٍ أو قولٍ قبيح نهى الله عباده عنه ، والمحافظون على فرائض الله المتمسكون بشريعته **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** وبشِّر المصدّقين بوعد الله بجنات النعيم

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبى﴾ لا ينبغي للنبي محمد ﷺ والمؤمنين ، أن يدعوا بالمغفرة للمشركين ، ولو كانَ المشركون ذوي قربى لهم . **﴿مِنْ بَعْدِ مَا تبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيم﴾** من بعد ما ظهر لهم أنهم من أهل النار ، وقد نزلت في «أبي طالب» (١) **﴿وما كان اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾** ما أقدم إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، إلاَّ من أجل موعدةٍ كان قد وعده بها وهي قوله « سأستغفر لك ربي » **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾** فلما ظهر لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر ، ومات على شركه تبرأ منه **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾** إن إبراهيم كثير التضرع والدعاء إلى الله مع الحزن والإشفاق ، حليمٌ عمن سبَّه وسَفِه عليه **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾** ما كان الله ليقضي على قومٍ بالضلال ، بعد أن رزقهم الهداية ووفقهم للإيمان **﴿حَتَّى يُبيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾** حتى يُبيِّن لهم ما يجتنبوه **﴿إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** عالم بجميع الأشياء ، يعلم سرائر أموركم وظواهرها **﴿إِنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرض يُحْيي ويُميتُ﴾** إن الله له سلطان السمواتِ والأرض وملكهما ، وكلُّ الخلق عبيدُه ، بيده حياتهم وموتُهم ، يُحيي من يشاء منهم ويميتُ من يشاء منهم **﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** وما لكم أحد غير الله يستنقذكم من عقابه ، ولا نصيرٌ ينصركم منه إن أراد بكم سوءاً ،

= الإمام الفخر إلى أن المراد به المسافر للغزو أو طلب العلم وهو قول عطاء ، وهذا قول أرجح لأن معنى السياحة السفر في المدن والقفار للعظة والاعتبار ويؤيده ما رواه أبو داود في سُنَنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سياحةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله» والله أعلم

(١) لما حضرت أبا طالب الوفاةُ ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش ، فقال يا عم قل « لا إله إلا الله » كلمةً أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» **فنزلت**

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن
رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا

***

فبالله فثقوا ، وإيَّاه فارهبوا ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِي والمُهاجِرينَ والأَنْصَار الَّذين اتَّبَعُوهُ في سَاعَة العُسْرَةِ﴾ تاب على نبيه محمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار ، الذين رافقوه في «غزوة تبوك» ، على عُسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعُسرة الماء[١] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ من بعد ما كادت قلوب بعضهم تشكُّ في الدين وترتاب لما نالهم من الشدة والمشقة في سفرهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم رزقهم الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لطيفٌ رحيم بالمؤمنين ، لا ينزع منهم الإيمان ، بعدما أبلوا في الله ما أبلوا ، وصبروا على البأساء والضراء .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَة الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو وهم « كعب ، وهلال ، ومُرارة »[٢] ﴿حتَّى إذاضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ضاقت عليهم الأرض بسعتها ، ندما على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ضاقت أنفسهم بما اعتراها من الهمِّ والغمِّ ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا ملجأ من اللَّهِ إلَّا إِلَيْهِ﴾ وأيقنوا أنه لا شيء ينجيهم من عذاب الله ، إلَّا بالرجوع والإنابة إلى الله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ ثم رزقهم الإنابة والرجوع إلى ما يرضيه ، لينيبوا ويرجعوا إلى طاعته ﴿إنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾ إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة ، الرحيمُ بهم ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقينَ﴾ راقبوا الله بأداء فرائضه وتجنب محارمه ، وكونوا في الدنيا من أهل طاعته ، لتكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، الذين صدقوا اللَّهَ في إيمانهم ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ لم يكن لأهل المدينة المنورة ، ومن حولهم من سُكّان البوادي ، أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِهِ﴾ ولا أن يرغبوا عن صحبته في سفره ، ومشاركته فيما يُعانيه في

(١) سميت غزوة«العسرة» لأنها كانت في حر شديد، مع قلة الظهر، وقلة الزاد والماء ، حتى أصابهم جهد شديد، كما قال عمر خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر يا رسول الله . إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحبُّ ذلك؟ قال نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر اهـ ، الطبري ١١/٥٥ .

(٢) المتخلفون عن غزوة تبوك هم « كعب بن مالك » و« هلال بن أمية » و « مُرارة بن ربيعة » وقد تاب الله عليهم ، وانظر قصتهم في رياض الصالحين ١ / ٢١

يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ
مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ
وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ

***

غزوه ، **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلاَ نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ﴾** لم يكن لهم أن يتخلفوا ، بسبب أنهم لا يصيبهم في سفرهم عطشٌ ، ولا تعبٌ ، ولا مجاعةٌ ، في سبيل نصرة دين الله **﴿وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ﴾** ولا يطئون أرضاً يغيظ الكفار وطؤهم لها **﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾** ولا يُصيبون من عدوهم شيئاً في أموالهم وأنفسهم ، إلاَّ كُتب لهم به عمل صالح . **﴿إنَّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾** لا يترك محسناً أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على عمله . **﴿ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾** وذلك بأنهم لا ينفقون شيئاً في سبيل الله ، ولا يقطعون مع رسول الله في غزوة وادياً ، إلا كُتب لهم أجر عملهم بأحسن الجزاء **﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ليجزيهم الله على أعمالهم الصالحة ، أحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم . **﴿وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾** لا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده[١] . **﴿فلولا نَفَرَ من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ﴾** فهلاَّ نفر من كل جماعةٍ كثيرةٍ فئةٌ وطائفةٌ قليلة **﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ﴾** ليتفقه الخارجون للجهاد ، بما يعاينون من نصر الله ، لأهل دينه وأصحاب رسوله[٢] . **﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** وليحذّروا قومهم أن ينزل بهم عذاب الله كما نزل بالمشركين ، لعلهم يؤمنون بالله ورسوله . **﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ﴾** ابدأوا بقتال الكفار الأقربَ فالأقرب إليكم داراً ، دون الأبعد فالأبعد . **﴿وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً﴾** وليجدْ هؤلاء الكفار منكم شدةً عليهم . **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ المتَّقِينَ﴾** وأيقنوا أن الله معكم وناصركم ، إن اتقيتم ربكم بأداء فرائضه ، واجتناب نواهيه . **﴿وَإِذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فمنهُمْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾** وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه عليه السلام ، فمن هؤلاء المنافقين من يقول

---

(١) نهى الله المؤمنين أن يخرجوا في غزوٍ وجهادٍ ، ويتركوا رسول الله ﷺ وحيداً ، لئلا يطمع في الاعتداء عليه أحد من الكفار ، قال ابن عباس : لما شدد تعالى على المتخلفين ، قالوا : لن يتخلف منا أحدٌ عن جيش أوسرية أبداً ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الجهاد وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية .

(٢) هكذا اختار الطبري في تفسير الآية الكريمة ، واختار غيره أن المعنى : ليتفقه القاعدون من النبي ﷺ أمور الدين ، ليعلّموا المجاهدين إذا رجعوا إليهم ما تفقهوه من رسول الله ، وهذا اختيار ابن كثير وجمهور المفسرين وهو الأرجح .

هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

***

استهزاءً: أيكم أيها الناسُ زادته هذه السورة تصديقاً باللّهِ وآياته؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فأما المؤمنون فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وأمّا الذين في قلوبهم نفاقٌ وشكٌ في دين الله. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم، وشكاً فوق شكهم، فازدادوا بذلك نَتْناً فوق نَتْن نفاقهم. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهلكوا وهم جاحدون بالله وآياته. ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أوَلا يرى هؤلاء المنافقون، أن الله يختبرهم في كل عامٍ مرةً أو مرتين، بالجوع والقحط، والبلاء والعذاب؟ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم هم مع البلاء والاختبار الذي يعرض لهم، لا يُنيبون في نفاقهم ولا يتعظون ويعتبرون، وهذا تعجيبٌ للمؤمنين، وتوبيخٌ للمنافقين بقلّة تذكرهم وسوء تنبههم لمواعِظ الله. ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ وإذا أُنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين، وهم في مجلس الرسول ﷺ نظر بعضهم إلى بعض بالإيماء والتنبيه، هل يراكم أحدٌ من المسلمين، ثم قاموا فانصرفوا من عند الرسول ﷺ ولم يستمعوا قراءة السورة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ صرف الله قلوب هؤلاء المنافقين عن الخير والتوفيق، من أجل أنهم قوم لا يفقهون مواعظ الله استكباراً ونفاقاً ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ لقد جاءكم أيها القومُ رسولُ الله، من أنفسكم لا من غيركم، لئلا تتهموه في النصيحة لكم، يشق عليه عنتكم، وهو المكروه والأذى والمشقة. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حريصٌ على هدايتكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ رفيقٌ بالمؤمنين، رحيمٌ بهم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن أدبروا عنك، ولم يقبلوا النصيحة، وما جئتهم به من النور والهُدى، فقل: يكفيني ربي وهو حسبي. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت، وبه وثقت، وإلى نصره استندت، وهو ناصري ومعيني ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهو سبحانه مالِكُ كل شيء وخالقُه، الملوكُ كلهم عبيده، وهو ربُّ العرش العظيم، وكل من دونه في سلطانه ومُلكه

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

***



بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴿١﴾ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴿٢﴾
إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع
إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴿٣﴾

***

﴿الر﴾ قال بعضهم: تأويله أنا الله أرى[١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هذه آيات القرآن المحكم، الذي أحكمه وبيّنه الله لعباده ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ هل كان عجباً للناس، إيحاؤ نا القرآن على رجلٍ منهم، لينذرهم ويخوفهم عقاب الله؟ تعجبوا من وحينا إليه، كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى إلى مثله من البشر. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾وأن بشّرالمؤمنين بالله ورسوله، بأن لهم أجراً حسناً، على ما قدّموا من صالح الأعمال. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مبينٌ﴾ فلما بشرهم وأنذرهم، قال المنكرون توحيد الله: إن محمداً لساحرٌ مبينٌ، يظهر أنه مبطلٌ فيما يدّعيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في ستة أيامٍ﴾ انفرد بخلقهما في ستة أيام، بغير شريكٍ ولا ظهير ﴿ثُمَّ اسْتَوَى على العرش﴾ ثم استوى على عرشه[٢]، مدبّراً أمورخلقه ﴿يُدَبِّرُ الأمر﴾يدبّر الأمور، لا يتعقّب تدبيره متعقب﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدَ إِذْنِهِ﴾لا يشفع عنده

(١) هذا القول مرويٌ عن ابن عباس والضحاك، وقد ذكرنا في أول سورة البقرة أن الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وهو قول جمع من المحققين، وانظر تفصيل البحث هناك والله يرعاك.

(٢) استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله، دون تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وهذا مذهب السلف الصالح، نؤمن بها كما أخبر القرآن، دون تأويلٍ للصفات، ولا تمثيلٍ وتشبيهٍ بالمخلوقات.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧﴾

***

يوم القيامة شافع، إلاّ من بعد أن يأذن له في الشفاعة. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه﴾ هذا هو ربكم، فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالربوبية، لا من لا يسمع، ولا يُبصر، ولا يُدرك. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون وتعتبرون؟ ﴿إليه مَرْجِعكُمْ جَمِيعاً﴾ إلى ربكم معادكم يوم القيامة جميعاً. ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾ وعدكم به الله وعداً حقاً. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه﴾ إن ربكم يُنشىء الخَلْقَ، ثم يُعيده بعد فنائه وبلائه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالقِسْطِ﴾ ليثيب المؤمنين الذين عملوا ما أمرهم اللهُ به بالعدل والإنصاف، ويجازيهم أحسن الجزاء في الآخرة. ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَميمٍ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله لهم في جهنم شَرَابٌ قد اشتد حرُّه(١) ﴿وَعَذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ ولهم مع ذلك عذاب موجع بسبب كفرهم بالله ورسوله.. أخبر تعالى أن إعادتهم ليجزي كل فريقٍ بما عمل، المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ﴿هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً﴾ إن ربكم هو الذي أضاء الشمس، وأنار القمر. ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ﴾ وسوّى القمر منازل(٢) لا يُقصِّر دونها ولا يجاوزها، لتعلموا دخول السنين وانقضاءها وحساب أيامها. ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بالْحَقِّ﴾ لم يخلق الله الشمس والقمر عبثاً، وإنما خلقهما بالحقِّ ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يُبيِّنُ الحجج والأدلة، لقوم يتدبرون وحدانية الله. ﴿إِنَّ في اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهار﴾ إن في تعاقب الليل والنَّهار، إذا جاء هذا ذهب هذا، وبالعكس. ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ في السَّموَاتِ والأَرْضِ ﴾ وفيما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق، الدالة على أن لها صانعاً(٣). ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لأدلة وحججاً واضحة، لقوم يخافون وعيد الله ويخشون عقابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يكذِّبون بالثواب والعقاب ولا يخافون لقاءنا ﴿وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا

---

(١) وفي الصحيح «أنه إذا أُدني منه ذلك الشراب تتساقط فروةُ وجهه» كما وصفه تعالى بقوله ﴿كالمهل يشوي الوجوه﴾
(٢) إنما وحَّد الضمير وأعاده للقمر، لأن بالأهلَّة يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، فتدبرْ سرَّ القرآن
(٣) ذكر تعالى في هذه الآيات دلائل القدرة والوحدانية، لينبّه العباد على ربوبيته، وأنه خالق كل شيء، ويقيم الحجة على المشركين في عبادتهم لغير الله.

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن
لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ

* * *

﴿بِهَا﴾ ورضوا بهذه الحياة الدنيا عوضاً عن الآخرة، وسكنوا إلى زينتها وزخارفها. **﴿والَّذينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾** والذين هم عن أدلة وحدانية الله وحججه معرضون لاهون. **﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾** مصيرهم في الآخرة نار جهنم **﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** بما اجترحوا في الدنيا من الآثام والإجرام. **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾** يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الجنة. **﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جَنَّاتِ النَّعِيم﴾** تجري أمام هؤلاء المؤمنين أنهارُ الجنة، في بساتين النعيم التي نعَّمهم الله بها. **﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾** دعاؤ هم فيها سبحانك اللهم أي تنزيهاً لك يا رب عن السوء **﴿وتَحِيتُهُمْ فيها سَلامٌ﴾** وتحية بعضهم بعضاً في الجنة سلامٌ أي سلمتَ وأمنتَ مما ابتُلي به أهلُ النَّار **﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾** وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمدُ لله رب العالمين.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ولو يعجل الله إجابة دعاء الناس، فيما عليهم فيه مضرَّة في نفس أو مال، كاستعجاله بالإجابة لهم في الخير إذا دعوه، لهلكوا وعُجِّل لهم الموتُ[1] **﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** فندع الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور في تمردهم وعتوِّهم يتردَّدون حيارى. **﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائماً﴾** وإذا أصاب الإنسانَ الشدَّةُ والجُهْدُ، استغاثَ بنا في كشف ذلك عنه، مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً، أو قائماً[2] **﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾** فلما فرَّجنا عنه ما أصابه، نسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك شكر مولاه، وعاد للشرك والضلال. **﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفينَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾** كما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على الكفر بعد كشف الضُر، كذلك زُيِّن للذين أسرفوا في الكذب على الله، ما كانوا يعملون من معاصي الله. **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾** ولقد

---

(١) قال مجاهد: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه.

(٢) يريد أنه استغاث بربه على الحال التي كان عليها عند نزول الضُرِّ، مضطجعاً على جنبه، أوواقفاً على قدميه، أو جالساً على الأرض، فلما كشف الله عنه ضُرَّه رجع إلى كفره وضلاله.

وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ
غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ
عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ
عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ

* * *

أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسلها قبلكم أيها المشركون، لمَّا كفروا وخالفوا أمر الله ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وجاءتهم رسلهم بالحجج والآيات البينات، التي تُظهر صدقهم. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فلم تكن هذه الأمم ليصدِّقوا رسلهم، إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما أهلكناهم بتكذيبهم الرسل، كذلك أفعل بكم أيها المجرمون لتكذيبكم رسولي محمداً ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم جعلناكم ـ أيها الناسُ ـ تخلفونهم في الأرض من بعد هلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لينظر ربكم عملكم، أتحذون مثالهم فتستحقون العقاب، ! أم تخالفون سبيلهم فتستحقون الثواب؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرىء على المشركين آيات القرآن، بيِّناتٍ واضحات، دالاتٍ على الحقِّ. ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ قال الذين لا يصدِّقون بالبعث: ائتنا يا محمد بقرآنٍ غير هذا القرآن، أو غيِّره فاجعل الحرامَ حلالاً ،والحلال حراماً ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ قل لهم: ما يكون لي أن أغيِّره من عندي، وليس ذلك إليَّ، وإنما هو بيد من لا يُردُّ حكمُه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحَى إِلَيَّ﴾ قل لهم: ما اتَّبع إلا ما يُنزله إليَّ ربي ويأمرني به ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفتُ أمر الله، وبدَّلتُ وحيه، عذاب يوم عظيم هولُه ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ قل لهم: لو شاء الله ما تلوتُ هذا القرآن عليكم، ولا أعلَمكم وأشعَركم ربكُم به. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ فقد مكثتُ فيكم أربعين سنة، من قبل أن يوحيه إليَّ ربي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني لو كنت متنحلاً ذلك، لانتحلته في أيام شبابي[1]؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أيُّ إنسان أشرُّ وأوضعُ ممن اختلق الكذب على الله،

---

(١) الغرض من الآية بيان صدقه ﷺ، فقد عاش ﷺ بين أظهر المشركين أربعين سنة عَلَماً بارزاً وطوداً شامخاً، يُشار إليه بالبنان في صدقه، وأمانته، وعقله، وسمو نفسه، فكيف يكذب على الله بعد بلوغه هذا السنَّ من العمر؟ إن هذا مستحيل، ولا يمكن لعاقلٍ أن يصدِّقه، ولهذا قال «هرقل» ملك الروم لأبي سفيان حين سأله: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: ما كان لِيَدَع الكذب على الناس ويكذب على الله، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ
إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ
بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

* * *

وافترى عليه باطلاً، أو كذَّب بحججه وآيات كتابه؟ فما وصفتموني به ليس بأعجب من كذبكم على ربكم، وافترائكم عليه. ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لا ينجح ولا ينال الفلاح، من اجترم الكفر في الدنيا. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ ويعبد المشركون الأصنام التي يعبدونها، وهي لا تضرُّ ولا تنفع. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ ويقولون: إنما نعبدها رجاء شفاعتها لنا عند الله. ﴿قل أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ في السَّمَواتِ وَلاَ في الأَرْضِ﴾ قل لهم: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن شركهم وكفرهم ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ وما كان الناس إلا أهل دين واحد، فاختلفوا في دينهم وتفرَّقت بهم السُّبُل. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولولا أنه سبق من الله، ألاَّ يُهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم، لَفَصَلَ بينهم، بأن يهلك أهل الباطل، ويُنجي أهل الحقِّ. ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول المشركون: هلاَّ أُنزل على محمد آية ـ معجزة ـ نعلم بها أنه محقٌّ فيما يقول؟ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إني مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فقل لهم يا محمد: لا يعلم ذلك إلا اللهُ، فانتظروا قضاءَ الله بتعجيل العقوبة للمبطل منا، فإني ممن ينتظر ذلك. ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رحمةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ إذا أصابهم فرجٌ بعد كرب، ورخاء بعد شدة. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ في آيَاتِنَا﴾ استهزأوا وكذَّبوا. ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: اللهُ أشدُّ استدراجاً لكم، وعقوبة منكم لمكركم[1].
﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إن حفظتنا ـ الملائكة ـ يكتبون أعمالكم، واستهزاءكم بآياتنا. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والْبَحْرِ﴾ اللهُ جل وعلا يسيّركم في البرّ على الإبل، وفي البحر على السُّفن ﴿حَتَّى

(١) الغرض بيان أن الله يمهل المجرم والظالم استدراجاً له، حتى يظهر أنه ليس بمعذَّب، ثم يأخذه على حين غِرَّة منه، كما قال ﷺ: «إنَّ الله ليُمْلي للظالم ـ يُمهله ـ حتى إذا أخذه لم يُفلته» رواه البخاري ومسلم.

وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ
أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ
زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ
بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

***

إِذَا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ حتى إذا كنتم في السُّفن، وجرت بهم في البحر بالريح الطيبة، وفرح الركبان بتلك الريح. **﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ من كُلِّ مَكَانٍ﴾** جاءت السفنَ ريحٌ شديدة، وجاء ركبانَ السفينةِ الموجُ من كل مكان. **﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾** وأيقنوا أن الهلاك أحاط بهم. **﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** أخلصوا الدعاء لله قائلين. **﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** لئن أنقذتنا من هذه الشدة التي نحن فيها، لنشكرنك على نعمك بإخلاص العبادة لك. **﴿فلما أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾** فلما أنجاهم الله من الجُهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الوعد، وبَغَوْا في الأرض، بالكفر والعمل بمعاصي الله. **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** إنما اعتداؤكم على أنفسكم مدة استمتاعكم في الحياة الدنيا. **﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** ثم مصيركم إلينا بعد الممات، فنخبركم بأعمالكم ونجازيكم عليها. **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أنزلناه من السَّمَاءِ﴾** إنما مثل ما يتفاخرون به من زينة الدنيا وأموالها، كمطر أنزلناه من السماء إلى الأرض. **﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾** فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض، مما يأكله الناس من بقولٍ وثمار، وما تأكله البهائم من حشيش ومرعى. **﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾** حتى إذا ظهر حسن الأرض وبهاؤ ها وتزيَّنت **﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾** وظنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ على ما أنبتت **﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾** جاءها قضاؤ نا بالهلاك، إما ليلاً أو نهاراً، فجعلناها محصودة مقطوعة من أصولها. **﴿كَأَنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ﴾** كأن تلك الزروع والنباتات، لم تكن بالأمس نابتةً ظاهرة على ظهر الأرض. فكما أهلكنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، فكذلك يأتي الفناءُ على الدنيا وزخارفها فيُفْنِيها ويُهلكها[1]. **﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ**

(١) نبَّه تعالى عباده ألا يطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناء وزوال، كما مصير النبات إلى هلاك وبوار وأن يطلبوا الآخرة فإنها باقية.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كذلك نبيِّن حججنا وأدلتنا، لقوم يتفكرون ويعتبرون. ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتقيم﴾ والله يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدَّها لأوليائه، وما فيها من النعيم والكرامة، ويوفّق من يشاء من خلقه إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا الجنةُ، والنظرُ إلى وجه الله الكريم. قال قتادة: «الحُسْنى» الجنة، وأما «الزيادة» فالنظر إلى وجه الرحمن[1] ﴿وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ﴾ ولا يغشى وجوههم غبارٌ ولا هوان، ولا كآبة ولا كسوف. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ ماكثون فيها أبداً، لا يُخرَجون منها فتنغّص عليهم لذتهم. ﴿والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ والذين عملوا السيئات في الدنيا، فلهم جزاء السيئة بمثلها من عقاب الله، وتغشاهم ذلةٌ وهوان. ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما لهم مانعٌ يمنعهم من عقاب الله. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ كأنما أُلبست وجوههم قِطعاً من الليل المظلم ﴿أولئِكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ هؤلاء أهل النار، ماكثون فيها أبداً ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً ﴿ثم نقول للذين أشركوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ثم نقول للذين أشركوا بالله: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، مع شركائكم الذين عبدتموهم من الآلهة والأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرَّقنا بين المشركين وشركائهم وبين غيرهم. ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾وقالت آلهتهم: لا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فواللهِ ما كنا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل. ﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ حسبُنا الله شاهداً بيننا وبينكم أيها المشركون. ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ما كنا نشعر بعبادتكم ولا نعلم بها، قال مجاهد: تُنْصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها، فيقال هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله، فتقول الآلهة، والله ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى قد كنا نعبدكم، فتقول لهم الآلهة «فكفى

(١) قال ابن كثير: روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم الجمهور من السلف والخلف، وقد رُوي هذا مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

***

بالله شهيداً بيننا وبينكم[١]» ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ عند ذلك تختبر كل نفسٍ بما قدَّمت من خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ ورجعوا إلى ربهم ومالكهم الحقّ، دون ما كانوا يزعمون أنهم أرباب ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾ وبطل عن المشركين ما كانوا يدعون معه من الألهة والأنداد[٢] ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي ينزل لكم القطر من السماء، ويُخرج لكم أقواتكم وغذاءكم. ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾ من الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، فيزيد في قواها أو يسلبكم إياها، فيجعلكم صماً وعمياً لا تسمعون ولا تبصرون؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ من الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ ومن يُخرج الشيء الحيَّ من الميِّت، ويُخرج الشيء الميت من الحيّ؟ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ ومن يُدبِّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمرَ الخلق؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ فسيجيبونك بقولهم: اللهُ يفعل ذلك كله. ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم: أفلا تخافون عقاب الله على كفركم، وعبادتكم من لا يرزقكم شيئاً، ولا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ ﴿فذلكم اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، هو ربكم الحقُّ الذي لا شك فيه. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فأيُّ شيء سوى الحقِّ إلا الضلالُ؟ فادعاؤكم غيره إلٰهاً ورباً هو الضلال، والذهابُ عن الحق. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فكيف تُصرفون عن الهدى والحق؟ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كلمةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ كذلك وجب قضاء الله وحكمُه، على الذين كفروا به وخرجوا عن طاعته، لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ولا بنبوة رسوله ﷺ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُم يُعيدُهُ﴾ قل يا محمد: هل من الأوثان والأصنام، من يقدر على خلق شيءٍ ابتداءً، ثم إفنائه بعد إنشائه، ثم إعادته كما كان[٣]؟ ﴿قل اللهُ يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده

---

(١) الطبري ١١ / ١١١

(٢) في هذه الآيات تبكيتٌ وتوبيخٌ عظيم للمشركين، في عبادتهم لغير الله، حيث تتبرأ منهم الآلهة وقت الضيق والشدة.

(٣) في الآية الكريمة إقامة حجة على المشركين، فإنهم لا يقدرون على دعوى أن الأوثان تخلق شيئاً من العدم، ثم تفنيه ثم تعيده كما كان، وفي ذلك الحجة القاطعة والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى أن هذه الأصنام أرباب كاذبون مفترون.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ
إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن

* * *

﴿فَأَنَّى تؤفكون﴾ قل لهم: الله يقدر على ذلك، فأيَّ وجهٍ عن طريق الرشد تصرفون وتُقْلبون؟ **﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقِّ﴾** قل لهم: هل من آلهتكم وأوثانكم من يرشد ضالاً، أو يهدي حائراً إلى الطريق المستقيم، **﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾** قل لهم: الله يهدي الضَّال إلى الحقِّ. **﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَىٰ﴾** أفمن يهدي ضالاً إلى الرشد، أحقُّ أن يُتَّبع إلى ما يدعو إليه، أم من لا يهتدي إلى شيء إلاَّ أن يُهْدى[1]؟ **﴿فما لكم كيف تحكمونَ﴾** ما لكم كيف سوَّيتم بين الله وخلقه؟ وهلَّا أخلصتم العبادة لله وحده؟ **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً﴾** وما يتَّبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا حقيقة له ولا صحة **﴿إِنَّ الظنَّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئاً﴾** إن الشَّكَّ لا يغني من اليقين شيئاً **﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** إن الله عالم بما يفعله هؤلاء المشركون، وهو لهم بالمرصاد. **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ﴾** ما ينبغي لهذا القرآن أن يختلقه أحد، لأن ذلك لا يقدر عليه أحدٌ من الخلق. **﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يديهِ﴾** ولكنَّه أنزله الله مصدِّقاً لما سبقه من الكتب، كالتوراة والإنجيل وغيرهما. **﴿وَتَفْصِيلَ الكِتَاب لا رَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ العَالمينَ﴾** وتبيان الفرائض التي فرضها الله على المؤمنين، لا شك فيه أنه من عند رب العالمين، بلا افتراء ولا اختلاق. **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾** أم يقول هؤلاء المشركون: اختلق محمد هذا القرآن من نفسه. **﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾** قل لهم يا محمد: جيئوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، إن كان كما تزعمون أني اختلقتُه وافتريتُه. **﴿وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** وادعوا من قدرتم عليه من أوليائكم وشركائكم من دون الله ليعينوكم، إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه. **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾** بل كذَّب هؤلاء بالقرآن، ولمَّا يأتهم ما يئول إليه ذلك

---

(١) قال ابن كثير: المعنى: أفيَتَّبعُ العبدُ الذي يَهْدي إلى الحقِّ ويُبصِر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلَّا أن يُهدى لعماه وبكمه؟

قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ
تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

* * *

الوعيد الذي توعدهم به القرآن. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ﴾ كذلك كذبت الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عاقبة من كفر بالله؟ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ومن قومك من يُصدِّق بالقرآن، ومنهم من لا يُصدِّق ولا يُقرُّ به أبداً. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالْمُفْسِدينَ﴾ واللهُ أعلم بالمكذبين به، لا يخفى عليه أحدٌ منهم. ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وإن كذبك هؤلاء المشركون، وردُّوا عليك دعوتك، فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم. ﴿أَنْتُم بريئُونَ ممَّا أعملُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْملونَ﴾ لا تؤاخذون بجريرة عملي، ولا أؤاخذ بجريرة عملكم، وإنما يُجازى كلُّ عاملٍ بعمله. ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ﴾ ومن المشركين من يستمع إلى قولك. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ فهل أنت تخلق لهم السمع ولو كانوا لا يعقلون؟ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إليكَ﴾ ومن المشركين من ينظر إليك يا محمد، ويرى أعلام نبوتك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ ولو كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ أفانت تُحدث لهؤلاء أبصاراً، ولو كانوا عُمياً لا يُبصرون[1]؟ وهذا تسليةٌ للنبي ﷺ عمن كفر وكذَّب من قومه، وتعزيةٌ له برفع طمعه من إيمانهم ﴿إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ لا يظلم أحداً من خلقه بعقابه بذنبٍ لم يفعله ﴿وَلَكنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنَّ النَّاس هم الذين يظلمون أنفسهم، بارتكابهم ما يورثها غضب الله وسَخَطه. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ويوم نجمع المشركين في موقف الحساب، كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار[2]، يتعارفون فيما بينهم، ثم انقضت تلك الساعة وانقطعت المعرفة. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بلِقَاءِ اللهِ ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قد هلك الذين جحدوا ثو ب الله وعقابه،

---

(١) هذا إرشادٌ من الله لعباده، أن التوفيق للإيمان بيده سبحانه، لا إلى أحدٍ سواه، فكما لا يقدر محمد ﷺ على خلق السمع للأصم، والبصر للأعمى، فكذلك لا يقدر أن يبصرهم سبيل الرشاد إلا بمشيئة الله عزَّ وجل

(٢) هذا دليل على قصر الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة كما قال تعالى ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ﴾.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

***

وما كانوا موفقين لإصابة الرشد. ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وإمَّا نرينَّك يا محمد بعض الذي نعد هؤلاء المشركين به من العذاب، أو نتوفينَّك قبل أن نريك[1] ذلك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فمصيرهم بكل حالٍ إلينا. ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى ما يَفْعَلُونَ﴾ أنا شاهد على أفعالهم ومجازيهم بها، لا يخفى عليَّ شيء منها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ ولكل أمةٍ خَلَتْ رسولٌ يدعو إلى دين الله وطاعته. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ﴾ فإذا جاء رسولهم في الآخرة[2]، قُضي حينئذٍ بينهم بالعدل. ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ من جزاء أعمالهم شيئاً. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المشركون[3]: متى قيام الساعة الذي تعدونا به، إن كنتم صادقين في ذلك؟ ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ قل لهم يا محمد: لا أقدر لنفسي على ضُرٍّ ولا نفع، إلا بإذنه تعالى، فكيف أقدر على الوصول إلى علم الغيب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء أجلهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء وقتُ فناء أعمارهم، لا يُمهلون فيؤخرون ساعة ـ برهةً من الزمن ـ ولا يتقدمون ذلك قبل الحين، الذي قدَّره الله وقضاه. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعة. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لماذا يستعجل من نزول العذاب المجرمون الذين كفروا بالله ورسوله؟ وهم الذين يَصْلون حرَّه دونَ غيرهم، أيقدرون على دفعه عن أنفسهم؟ ﴿أَثُمَّ إِذَامَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أهنالك إذا

---

(١) الغرضُ تسلية الرسول ﷺ لتكذيب قومه والمعنى إما أن ننتقم منهم في حياتك لنقرَّ عينك، أو نترك عقابهم إلى الآخرة لننتقم منهم أشد الإنتقام.

(٢) كل أمةٍ تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها، وحفظتُهم من الملائكة كذلك شهود، وهذه الأمة ـ وإن كانت آخر الأمم في الخلق ـ إلا أنها أول الأمم يُقضى لهم يوم القيامة، وقد حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله عليه.
« مختصر ابن كثير ٢ / ١٩٦ »

(٣) يريد بهم كفار مكة، فقد كانوا لفرط إنكارهم يقولون متى القيامة التي يعدنا بها محمد وأصحابه؟!

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾

* * *

وقع عذابُ الله بكم صدَّقتم به، في حالٍ لا ينفعكم التصديق. ﴿الآنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويُقال لكم: الآن تُصدِّقون به، وقد كنتم قبل الآن تكذّبون بنزوله؟ فذوقوا ما كنتم به تكذّبون. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ﴾ تجرَّعوا عذاب الله الدائم، الذي لا فناء له ولا زوال. ﴿هَلْ تُجْزَونَ إلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ انظروا هل تُثابون إلا بما كنتم تعملونه في حياتكم من معاصي الله؟ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ ويستخبرك هؤلاء المشركون فيقولون: أحقٌّ ما تَعِدنا به من عذاب الله؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ قل نعم وربي، إنه لحقٌّ لا شك فيه. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تفوتون ربكم، وأنتم في قبضته وملكه وسلطانه. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولو أنَّ لكل نفس عبدتْ غير الله، وتركت طاعته، ما في الأرض من قليلٍ وكثير، لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينَتْه. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأخفى رؤساهم الندامة، حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ وحكم الله بين الأتباع والرؤساء بالعدل، ولا يُظلم أحد فيعاقب بذنب غيره، ولا يُعذّب إلا بعد الإعذار والإنذار. ﴿أَلَا إِنَّ للهِ ما في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كلُّ ما في السموات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيه لأحدٍ سواه، فليس للكافر شيءٌ يملكه حتى يفتدي به من عذاب الله ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عذابُهُ الذي أوعد به المشركين حقٌّ لا شكَّ فيه، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة الأمر، فهم من أجل ذلك مكذّبون. ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ اللهُ هو المحيي المميت، وإليه مرجع الخلق بعد مماتهم، فيلقون ما كانوا به مكذبين من عذاب الله وعقابه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يا أيها الناس قد جاءكم القرآن ذكرى من عند ربكم، يذكّركم عقاب الله ويخوّفكم وعيده. ﴿وَشِفَاءٌ لما في الصُّدُورِ﴾ ودواءٌ لما في الصدور من الجهل. ﴿وَهُدىً ورحمة للمؤمنينَ﴾ وبيان للحلال والحرام، ورحمة يرحم الله به من شاء من خلقه، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى[1]، وينجيهم من الهلاك والرَّدى. ﴿قُلْ بفَضْلِ اللهِ وَبرَحْمَتِهِ فبذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قُلْ:

(١) القرآن علاج للأمراض، وشفاء من الأسقام، يشفي الله به جهل الجهال فيبرىء داءهم، وينقذهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والعرفان، ويهدي به من شاء من خلقه، قال القرطبي شفاء من الشك والنفاق، والخلاف والشقاق

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ
أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا
عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ
مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

* * *

بالإسلام وبالقرآن فبذلك فليفرحْ هؤلاء المشركون ﴿هُوَ خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هو خير مما يجمعون من حُطام الدنيا وكنوزها. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لكم من رزقٍ﴾ قل يا محمد: أرأيتم أيها الناس ما خلق الله لكم من الرزق والأطعمة. ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً﴾ فحلَّلتم بعضه وحرَّمتم بعضه، كالبحيرة والسائبة ونحو ذلك. ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أم عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ قل لهم: هل الله أذن لكم بأن تُحرِّموا ما حرَّمتم منه، أم على الله تقولون الباطل وتكذبون؟ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وما ظنُّ الذين يتخرصون الكذب على الله، أنه فاعلٌ بهم يوم القيامة؟ أيظنون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلَّا بل يصليهم سعيراً. ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ ذو تفضل على خلقه بترك معاجلة عقوبتهم، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على نعمه. ﴿وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ﴾ وما تكون يا محمد في عملٍ من الأعمال. ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وما تقرأ من كتاب الله من قرآن. ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ ولا تعملون من عملٍ من خير أو شرّ، إلا ونحن شهود على أعمالكم وشؤونكم، نعلمها ونحصيها عليكم حين تعملونها وتأخذون فيها. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّمَاءِ﴾ وما يغيب عن ربك يا محمد ولا يخفى عليه، أصغرُ الأشياء ولا أكبرها، من زنة نملةٍ[1] صغيرةفي الأرض ولا في السماء. ﴿وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منها، إلا هو في كتابٍ عند الله واضح هو اللوح المحفوظ. أخبر تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن، ولا أكبرها وإن ثَقُلَ وزنهُ، وأنه لا يغيب عن اللهِ علمُ شيء من خلقه، حيث كان من سمائه وأرضه. ﴿أَلَا إِنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ألا إن أنصار الله وأحبابه، لا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

(١) وقيل: المراد بها الذرة من التراب أو الهباءة التي تدخل من كوة النافذة مع شعاع الشمس، وهو الأرجح والأظهر.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ
قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ
وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ بِهَـٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى

* * *

﴿يَتَّقُونَ﴾ الذين صدَّقوا الله ورسوله، واتَّقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه(١) ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهم البشارة من الله في الدنيا، بالرؤيا الصالحة، وتبشير الملائكة له عند قبض روحه برحمة الله ورضوانه. ﴿وفي الآخرةِ﴾ وفي الجنة(٢) ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ لا خُلْف لوعد الله ولا تغيير. ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ ذلك هو الظفر العظيم ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين في ربهم القول الباطل، وإشراكهم معه الأصنام والأوثان. ﴿إنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾ هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، المنتقم من هؤلاء المشركين. ﴿ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ السميع لأقوالهم، العليم بنيَّاتهم، وهو لهم بالمرصاد ﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، فكيف تكون الأصنام آلهةً وهي لله ملك؟ وإنما العبادةُ للرب دون المربوب ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ وأيُّ شيء يتَّبع من يقول: لله شركاءُ في سلطانه وملكه كاذباً؟ والله المنفرد بملك كل شيء. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما يتَّبعون في دعواهم إلَّا الشَّكَّ، وما هم إلا يتقوَّلون الباطل، تخرصاً عن غير علم بما يقولون. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ربكم هو الربُّ الذي خلق لكم الليل، لتسكنوا فيه من التَّعب والنَّصَب، وجعل النهار مضيئاً لمعاشكم ومصالحكم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون ويتَّعظون.. فهذا الذى يفعل ذلك هو ربكمُ الذي خلقكم وما تعبدون، لا ما لا ينفع ولا يضرُّ. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ قال المشركون من قومك: الملائكةُ بناتُ الله. ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ تنزيهاً للهِ عما يقولون، فإن الله غنيٌّ عن خلقه، لا حاجة به إلى ولد. ﴿لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

---

(١) هذا هو القول الفصل في تعريف الولي، وهو المؤمن المتقي لله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ فكلُّ مؤمن تقي هو وليٌّ لله، وفي الحديث «إنَّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يَغْبطهم الأنبياءُ والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا يا رسول الله: أخبرنا مَن هم؟ وما أعمالهم؟ قال: هم قوم تحابُّوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ الآية ﴿ألا إن أولياء الله..﴾ الآية، الطبري ١١ / ١٣٢.

(٢) وقيل المراد بالآخرة هنا القبر، لأنه أول منازل الآخرة، وفيه يُبشِّر المؤمن برضوان الله عند سؤال الملكين، والله أعلم

ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن
كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

* * *

له جلَّ وعلا ملك جميع ما في السموات والأرض، فكيف يكون له ولد مما خلق وكلّ شيء عبدٌ مملوكٌ له؟ أفلا تعقلون خطأ ما تقولون؟ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ ما عندكم من حجة تحتجون بها. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أتضيفون إلى الله ما لا يجوز إضافته بغير حجة ولا برهان؟ وتقولون قولاً لا تعلمون صحته؟ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ قل لهم يا محمد: إن الذين يقولون على الله الباطل، ويزعمون له ولداً، لا يبقون في الدنيا ولا يُخلَّدون. ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ لهم متاعٌ في الدنيا، يتمتَّعون به إلى انقضاء آجالهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم إذا انقضى أجلهم، فإلينا مصيرهم ومنقلبهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ثم نُصليهم جهنم، بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ واقصص على هؤلاء المشركين خبر نوحٍ عليه السلام. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ﴾ حين قال لقومه: إن كان عَظُمَ عليكم مقامي بين أظهركم، ووعظي إياكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ فاعزموا أمركم، وادعوا شركاءكم ـ آلهتكم وأوثانكم ـ ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ لا يكن أمركم مستوراً، بل مكشوفاً مشهوراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ أنفذوا ما تحدِّثون به أنفسكم ولا تؤخرون.. وهذا خبرٌ من الله عن نوح أنه بنصر الله واثق، ومن كيدهم غير خائف، وأن آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع، وفيه حثٌّ لنبيه محمد ﷺ على التأسي به عليه السلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فإن أعرضتم عمَّا دعوتكم إليه من الحقِّ، فإني لم أسألكم عليه أجراً، ولا طلبت منكم ثواباً ولا جزاءً. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ ما جزائي وثوابي إلا على ربي. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المنقادين لأمره، المتذللين له بالخشوع

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ

***

والطاعة ﴿فَكَذَّبُوهَ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ﴾ فكذبوا نوحاً فنجيناه ومن ركب معه في السفينة. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ وجعلنا الذين ركبوا في السفينة خلائف في الأرض. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأغرقنا الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عاقبة تكذيبهم لرسولهم، ألم نهلكهم حين تمادوا في كفرهم وطغيانهم؟ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ﴾ ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم. ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فأتوهم بالحجج والأدلة الدالة على صدقهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فما كانوا ليصدِّقوا بما جاءتهم به رسلهم، بما كذَّب به قوم نوح والأمم الخالية قبلهم[١] ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوب الْمُعْتَدِينَ﴾ كما طبعنا على قلوب أولئك، وختمنا عليها بما اجترموا من الذنوب والآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى فجاوز أمر الله، وخالف رسله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهَرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا﴾ ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل موسى وهارون، إلى فرعون مصر وأشراف قومه وسادتهم، بحججنا وبراهيننا الدالة على صدقهما. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرمينَ﴾ فاستكبروا عن الإقرار بدعوة موسى وهارون، وكانوا آثمين بكفرهم بربهم. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فلما أتتهم الحجج من عند الله، قالوا: إنَّ هذا لسحرٌ ظاهر، يبين لمن عاينه أنه سحر. ﴿قَالَ موسى أتقولون للحقِّ لَمَّا جاءكم أسحرٌ هذا﴾ قال لهم موسى: أتقولون للآيات التي جاءتكم من عند الله أنها سحر؟ أسحرٌ هذا الحقُّ الذي ترونه[٢]؟ ﴿ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا يفوز بالمطلوب ولا ينجح من تعاطى السحر ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتلويَنا عن الدين الذي كان

(١) هكذا فسره الطبري، وقال ابن كثير: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرسلوا إليهم. ولعل هذا المعنى أظهر والله أعلم.

(٢) نبه الشيخ الطبري على أن في الآية محذوفاً، حُذف اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، تقديره: أتقولون إنه سحر، فحذف لدلالة قوله ﴿أسحرٌ هذا﴾؟ وهو كلام وجيه.

لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ
إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

* * *

عليه آباؤ نا. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ في الأَرْضِ﴾ وتكون لكما العظمة والسلطان في الأرض ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمقرين بنبوتكما. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وقال فرعون لقومه: ائتوني بكل ساحرٍ عليم بالسحر ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ فلما ألقوا حبالهم وعصيَّهم قال لهم موسى: إن الذي جئتم به أيها السحرة هو السِّحرُ بعينه، وإن الله سيذهبه. ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ﴾ لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد، وعمل فيها بمعاصي الله ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ ويُثبت اللهُ الحقَّ ويُعليه على الباطل بأمره، ولو كره المجرمون ذلك. ﴿فما آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ فلم يؤمن لموسى - مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة - إلاَّ فئة قليلة من بني إسرائيل[1] خوفاً من بطش فرعون وأشراف قومه، وخشية أن يفتنوهم عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ جبار مستكبر على الله في أرضه. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم بِاللَّهِ﴾ إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدَّقتم بربوبيته. ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فبالله فثقوا، ولأمره فسلِّموا، إن كنتم مذعنين له بالطاعة. ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فقالوا على الله اعتمدنا، وإليه فوضنا أمرنا. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تجعلنا محنةً لقوم فرعون وبلاءً، قال مجاهد: لا تُسلِّطهم علينا فيفتنونا ويُضلُّونا[2]. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وخلِّصنا يا ربنا من

---

(١) هذا هو الظاهر أن الضمير «قومه» يعود على موسى أي قوم موسى وهو اختيار الطبري، وذهب ابن كثير إلى عود الضمير على فرعون أي من قوم فرعون، والأول أظهر والله أعلم.

(٢) هذه إحدى الروايتين عن مجاهد، والأخرى: ربنا لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كانوا على حق ما =

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا
ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا
فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ
بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾
ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

* * *

أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْر بُيُوتاً﴾ اتَّخذا لقومكما بمصر بيوتاً. ﴿واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ واجعلوا بيوتكم مساجد تُصلُّون فيها. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدُّوا الصلاة بحدودها في أوقاتها. ﴿وَبَشِّرِ المؤمنينَ﴾ بالثواب الجزيل والنصر المبين ﴿وقالَ مُوسَى رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم. ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينة من أثاث الدنيا ومتاعها، وأموالاً من الذهب والفضة في هذه الحياة. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سبيلِكَ﴾ ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم، كي يُضِلُّوا عبادك عن دينك. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ربنا أهلكْ أموالهم ودمِّرها، واطبع على قلوبهم حتى لا تلين، ولا تنشرح بالإيمان. ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا الغرق[1] ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ أجيبت دعوتكما على فرعون وأشراف قومه، فامضيا لأمري، واثبتا على دعوة فرعون وقومه، إلى أن يأتيهم عقابُ الله[2] ﴿ولا تَتَّبِعَانِّ سبيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولا تسلكان طريق الجهلة فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا يُخلف. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيلَ البَحْرَ﴾ وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ فتبعهم فرعون وجنوده، ظلماًواعتداءً عليهم. ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكهُ الغَرَقُ﴾ حتى إذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلاك. ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمينَ﴾ قال فرعون: آمنتُ بالله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المعترفين له بالعبودية، المنقادين له بالطاعة[3]. ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسدينَ﴾ الآن تُقِرُّ لله بالعبودية، وتُخلص له الألوهية،

=عُذِّبوا ولا سُلِّطنا عليهم فيفتنوا بنا، وهذه أظهر.

(١) هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، حيث تبيَّن له انه لا خير فيهم، ولا يُرجى منهم الإيمان، وخشي إن استمروا على طغيانهم أن يضلوا بني إسرائيل، ولذلك دعا عليهم.

(٢) قال ابن جريج: مكث فرعون بعد هذه الدعوة أربعين سنة، حتى أهلكه الله.

(٣) آمن فرعون حين لا ينفعه الإيمان، وقد كان قبل ذلك طاغياً متمرداً على الله، وقد بلغ ذروة الجبروت والطغيان حين قال «أنا ربكم=

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

* * *

وقد عصيته قبل ذلك، وكنت من المفسدين في الأرض؟ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ فاليوم نجعلك ناجياً بجسدك، ينظر إليك هالكاً من كذَّب بهلاكك، لتكون لمن بعدك عبرةً، **قال ابن عباس**: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يُلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون﴾ وإن كثيراً من الناس، عن حججنا وأدلتنا لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق ـ مصر والشام ـ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقناهم من الرزق الحلال. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر نبوة محمد، إلَّا من بعد ما جاءهم كتابُ الله الذي أنزله[١] ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ اعتداءً بينهم أهلِ الأهواء. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر محمد ﷺ فيدخل المؤمنين الجنة، والمكذبين النار. ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ فإن كنت يا محمد في شكٍ[٢] من حقيقة ما أخبرناك به ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاسأل أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب، ممن أدرك حياتك كعبد الله بن سلام ونحوه. ﴿لقد جاءك الحقُّ من ربكَ﴾ والله لقد جاءك الحقُّ اليقين من الخبر، بأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يجدون نعتك في كتبهم. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ من الممترينَ﴾ فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك. **قال قتادة**: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فتكون ممن

= الأعلى» فلما علته أمواج البحر وغشيته كرب الموت آمن بالله ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ وروي عن ابن عباس أن جبريل كان يدسُّ في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه رحمة الله

(١) كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، للوصف الذي يجدونه عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

(٢) هذا من أساليب العرب في التفنن في تفهيم المخاطب، لإقامة الحجة عليه والبرهان، يقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فلا تعص أمري، وهو لا يشك أنه ابنه، فكذلك رسول الله ﷺ لم يكن شاكاً في حقيقة خبر الله، وإنما خاطبه ربه بلسان قومه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا
كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ
مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ
مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ

***

خسر آخرته، لأنه باع رحمة الله ورضاه بسخطه وعقابه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إن الذين وجبت عليهم لعنة الله وسخطه، لا يصدّقون بوحدانية ربهم، ولا يُقرّون برسالتك. ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأليم﴾ ولو أتتهم كل موعظةٍ وعبرة، حتى يعاينوا العذاب الموجع، كما لم يؤمن فرعون وقومه حتّى عاينوا العذاب الأليم. ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب، فنفعها إيمانها في ذلك الوقت، إلا قوم يونس خاصةً فقد نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة من بين سائر الأمم. ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لمَّا صدَّقوا رسولهم وأقرُّوا بما جاءهم به، كشفنا عنهم عذاب الهوان والذل في حياتهم الدنيا. ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ وأخرنا في آجالهم، يستمتعون في الدنيا إلى حين مماتهم، وفناء أعمارهم. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ ولو شاء ربك يا محمد لآمن جميعُ أهل الأرض، ولكن لم يشأ ذلك، لأنه سبق في قضاء الله، أنه لا يؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الكتاب الأول ـ اللوح المحفوظ ـ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أفأنت تلزمهم أن يؤمنوا بك بالإكراه؟ ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بقضاء الله، فلا تُجهدنَّ نفسك في طلب هداهم. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ ويجعل الله سخطه وغضبه، على الذين لا يعقلون حجج الله ومواعظه، الدالة على توحيده، ونبوة رسوله محمد ﷺ ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: انظروا ماذا في السموات، من الآيات الدالة على توحيد الله، من شمسها وقمرها، وليلها ونهارها، ونزول غيثها من سحابها؟ وماذا في الأرض، من جبالها وأنهارها، وتصدّعها بنباتها، وسائر عجائبها؟ فإن في ذلك لكم ـ إن عقلتم وتدبرتم ـ موعظةً ومعتبراً. ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُر عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وماذا تغني الحجج والعبر، والرسل المنذرة عقاب الله، عن قومٍ قد سبق لهم من الله الشقاء، فهم لا يؤمنون ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ

ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا
نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ
ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن
يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ

* * *

﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فهل ينتظر هؤلاء المشركون، إلا يوماً يعاينون فيه عذاب الله، مثل وقائع أسلافهم الذين مضوا قبلهم، كقوم نوح، وعادٍ، وثمود؟ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ قل لهم: انتظروا عقاب الله، إني من المنتظرين هلاككم وبواركم. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم نُنجّي هناك رسولنا محمداً ﷺ، ومن آمنَ به وصدَّقه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا، فأنجيناهم من عذابنا. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك نُنجي المؤمنين حقاً من غير شك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن كنتم في شكٍّ من ديني الذي أدعوكم إليه. ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فإني لا أعبد الآلهة والأوثان، التي تعبدونها من دون الله، التي لا تسمع ولا تُبصر(١) ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم، فيميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المصدِّقين بما جاءني من عنده. ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ وأمرني أيضاً بأن أستقيم على دين الإسلام، غير معوجّ إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونن ممن أشرك في عبادة ربه غيره. ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولا تعبدَ غير الله، ممَّا لا يضر ولا ينفع كالآلهة والأصنام. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن فعلت ذلك فعبدتها من دون الله، فقد ظلمت نفسك بتعريضها لعذاب الله. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وإن يُصبك الله بشدةٍ أو بلاء، فلا كاشف لذلك إلَّا ربك، دون الألهة والأنداد. ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وإن يردك بنعمةٍ ورخاء، فلا يقدر أحدٌ أن يحول بينك وبين ذلك ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يصيب بالرخاء والبلاء، والسَّراء والضرَّاء، من يريد من عباده

---

(١) في الآية الكريمة منزَعٌ لطيف، وتعريضٌ بالمشركين ظريف، في غاية الحسن والجمال، فكأنه يقول: إن كنتم في شكٍّ في ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، وإنما ينبغي أن تشكُّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، التي لا تسمع ولا تضر ولا تنفع، فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الخالق القادر الرازق، الذي يحيي ويميت، وينفع ويضرُّ، وهو القاهر فوق عباده، وأما أنتم فتعبدون ما لا يسمع ولا ينفع، وهذا ما يهدف اليه النص الكريم

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

* * *

﴿وهوالغفُورُالرحيمُ﴾وهو الغَفُورُلذنوب من تاب وأناب، الرحيمُ بمن آمن وأطاع. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءكم الحقُّ من ربكم﴾ قد جاءكم القرآن فيه الهدى والبيان. ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ فمن سلك سبيل الحق واستقام، فإنما بغى الخير لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن اعوجَّ عن الحقِّ وزاغ، فإنما جنى على نفسه لا على غيرها. ﴿وَمَا أنا عليكم بوكيلٍ﴾ ولست بمسلَّط على تقويمكم، وإنما أنا رسول مبلِّغ. ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ تمسَّك يا محمد بما أوحاه الله إليك وأنزله عليك، واصبر على ما نالك من الأذى والمكاره، حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خيرُ الحاكمين﴾وهو خير الفاصلين بين عباده، يقضي بالحق، ويحكم بالعدل.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى
فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

***

﴿الٓر﴾ تقدم تفسيره[١] ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه﴾ هذا القرآن كتابٌ أُحكمت آياتُه من الخلل والباطل[٢] ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ﴾ ثم بُيِّنَتْ ووضّحت بالحلال والحرام، والأمر والنهي، من عند الله الحكيم بتدبير الأمور، الخبير بمصالح العباد. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله وحده، وتخلعوا عبادة الآلهة والأنداد. ﴿إِنَّني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إني لكم نذير من عند الله، أنذركم عقابه على معاصيه، وأبشركم ثوابه على طاعته ﴿وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وأن استغفروا ربكم من الشرك والمعاصي ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حسناً إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ يمتعكم في الدنيا بالأرزاق، والنِّعم، والخيرات، ويُؤخِّرْ لكم في آجالكم إلى الموت. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطي كل محسنٍ متفضلٍ بماله ومعروفه، أجزل الثواب وأفضله في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وإن أعرضوا عمَّا دعوتهم إليه، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم

---

(١) التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز، الذي أفحم العلماء والأدباء، والفصحاء والبلغاء، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

(٢) أحكم الشيء: أصلحه وأتقنه، وفصَّله: بيَّنه ووضحه،قال قتادة: أحكم الآيات من الباطل، ثم فصَّلها بعلمه، فبيَّن حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ * وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ

***

الهول، كبير الشأن. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى الله مصيركم فاحذروا عقابه، وهو القادر على ما يشاء، من الإحياء والإفناء، والثواب والعقاب. ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ألا إن المشركين يحنون صدورهم جهلاً منهم بالله، وظناً أن الله يخفى عليه ما تضمره نفوسهم، ليستخفوا من الله[١]. ﴿أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ألا حين يتغطى هؤلاء الجهلة بثيابهم، فإن الله لا يخفى عليه حالهم، سواءً تغشَّوا بالثياب أو ظهروا بالعراء، لأنه تعالى يعلم سرائر العباد وعلانيتهم، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فاحذروا أن تضمروا في صدوركم الشك والنفاق فتهلكوا. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ وما من دابة تدبُّ على الأرض - إنسان أو حيوان - إلا وقد تكفَّل الله برزقها، وقوتها، وغذائها. قال الضحاك: كلُّ دابة تدب على الأرض، والنَّاسُ منهم. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ويعلم مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً، وموضعها الذي تُودع فيه بعد موتها، قال ابن عباس: المستقر حيثُ تأوي، والمستودع حيثُ تموتُ. ﴿كُلٌّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلُّ ذلك مثبتٌ مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلق الخلائق ويوجدها. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ اللهُ جل وعلا هو الذي خلق السمواتِ والأرض في ستة أيام، أفيعجز أن يُعيدكم أحياء بعد أن يُميتكم؟ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ وكان عرشه على الماء[٢] قبل أن يخلق السمواتِ والأرض. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ليختبركم أيكم أحسنُ له طاعة[٣] ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ﴾ ولئن قلت لهؤلاء المشركين: إنكم ستبعثون أحياء بعد مماتكم. ﴿لَيَقُولَنَّ

---

(١) الضمير في «منه» يعود إلى الله أي ليستخفوا من الله، وهذا ما رجحه الطبري، وهو الظاهر، وروي أن المنافقين كان أحدهم إذا مرَّ بالنبي ﷺ ثنى صدره، وتغطى بثوبه، كي لا يراه النبي ﷺ فالضمير على هذا يعود على النبي ﷺ، وما ذكره الطبري أرجح لأن ما بعده يدل عليه ﴿يعلم ما يسرون﴾ فإن الضمير ههنا يعود على الله عز وجل، والتناسق بين الكلام أنسب والله أعلم.

(٢) في الآية دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق الأرض والسماء.

(٣) قال ابن كثير: لم يقل: أيكم أكثر عملاً بل ﴿أحسنُ عملاً﴾ ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد واحداً من الشرطين حبط العمل وبطل. المختصر ٢ / ٢١٢

هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ
مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ
بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

***

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مبينٌ﴾ ليقولُنَّ: ما هذا الذي تتلوه علينا إلَّا سحرٌ، ظاهرٌ أنه سحرٌ لسامعه. **﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾** ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين العذاب إلى وقت محدود **﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾** ليقولن: أيُّ شيء يؤخّر هذا العذاب عنّا يقولونه سخريةً واستهزاءً، وتكذيباً منهم بوعيد الله. **﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾** ألا يوم يأتيهم العذاب الذي يكذبون به، فلن يصرفه عنهم صارف، ولن يدفعه عنهم دافع. **﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** ونزل بهم وأصابهم العذاب، الذي كانوا يسخرون منه بقولهم «ما يحبسه»؟ **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾** ولئن بسطنا على الإنسان الرزق، والرخاء، وسعة العيش. **﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾** ثم سلبناه ذلك. **﴿إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾** فإنه يظلُّ قانطاً من رحمة الله، يائساً من الخير، قليل الشكر لربه، جاحداً لنعمه. **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاه نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾** ولئن رزقناه رخاءً في العيش، ووسَّعنا عليه في الرزق، بعد العسرة وضيق العيش. **﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾** ليقولَنَّ عند ذلك: زالت الشدائد والمكاره عني. **﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** فرحٌ بالنِّعم[1]، فخورٌ بمال نال، غيرُ شاكر لله. **﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾** إلا الذين صبروا عند البلاء والشدَّة[2]، وعملوا الصالحات في الرخاء والعافية أولئك لهم مغفرةٌ لذنوبهم، وجزاء عظيم على أعمالهم الصالحة **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾** فلعلك يا محمد تاركٌ تبليغ بعض ما أوحاه الله إليك. **﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾** ويضيق صدرك عن تبليغه[3] **﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عليه كَنْزٌ﴾** مخافة أن يقولوا: هلاَّ أُنزل على محمد كنزٌ؟ **﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾** مصدقٌ له بأنه رسول الله. **﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾** ليس عليك إلا البلاغ

---

(١) المراد بالفرح فرح الأشر والبطر، والآية ذمٌّ لمن يقنط عند الشدائد، ويتكبر عند النعم.

(٢)«ال» في الإنسان للجنس ولهذا صحَّ الاستثناء﴿إلا الذين صبروا﴾لأن الجنس فيه معنى الجمع.

(٣) المقصود بالآية تسلية النبي ﷺ عن قول المشركين، حتى يبلِّغ الرسالة ولا يبالي بهم، وإنما قال «ضائق» ولم يقل: ضيِّق، ليدل على اتساع صدره عليه السلام وقلة ضيقه.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن
قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ

***

والإنذار. ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بيده تدبير كل شيء، فبلِّغ ما أُمرتَ به. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أيقول المشركون: اختلق محمد هذا القرآن ونسبه إلى الله؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ قل لهم: إن كان ما أتيتكم به من القرآن مفترى، فأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مختلقاتٍ[1] ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ واستعينوا بمن شئتم من الخلق سوى الله، إن كنتم صادقين في دعواكم. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ فإن لم تُطيقوا أنتم وأعوانكم على ذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أُنزل من السماء على محمد ﷺ بعلم الله وإذنه، وأن محمداً لم يفتره ولا يقدر أن يفتريه. ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأيقنوا أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة؟ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها﴾ من كان يقصد بعمله الصالح نعيم الدنيا فقط، ولا يعتقد بنعيم الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فيها وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ نوفِّ إليهم أجور أعمالهم فيها، ولا يُنقصون شيئاً منها. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ هؤلاء ليس لهم إلا نار جهنم يصلونها ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذهب ما عملوه في الدنيا، فأبطله الله وأحبط أجره، لأنهم كانوا يعملون لغير الله. ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أفمن كان على برهانٍ من ربه وهو محمد ﷺ ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ ويتلو القرآن عليه شاهدٌ من الله وهو جبريل[2] عليه السلام. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ ومن قبل القرآن كتاب

---

(١) كفى حجة على صدق محمد وصحة نبوته هذا القرآن المعجز، إذ هو ﷺ رجل واحد منهم، وقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور، ثم بسورة من مثل القرآن، فعجزوا وانقطعوا، ومُحالٌ في العقل أن يقدر رجلٌ على أن يختلق مائة وأربع عشرة سورة، وهو واحد منهم، ولا يقدروا بأجمعهم أن يفتروا سورة من مثل القرآن مع التحدي لهم، ولا سيما وهم أرباب الفصاحة والبيان، فسبحان من أنزل هذا القرآن معجزةً لمحمد عليه السلام.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره الطبري، وقيل المعنى: ويتبع ذلك البرهان شاهد من الله وهو القرآن واختاره صاحب التسهيل

فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا
كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

***

موسى ـ التوراة ـ إماماً لبني إسرائيل يأتمُّون به، ورحمةً من الله تلاه على موسى. . وفي الكلام محذوفٌ تقديره «أفمن كان على بيِّنةٍ من ربه» كمن هو في الضلالة متردِّد؟ ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هؤلاء يُصدِّقون ويُقرّون بالقرآن. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ومن يجحد بهذا القرآن، من المشركين الذين تحزَّبوا على الباطل، فإنه يصير إلى النار بتكذيبه. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ فلا تك في شكٍ من هذا القرآن. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ إنه حقٌ من الله لا شك فيه، ولكنَّ أكثر الناس لا يصدِّقون بذلك. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أيُّ النَّاس أشدُّ عذاباً ممن اختلق الكذب على الله؟ ﴿أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليسألهم عمَّا عملوا في الدنيا. ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وتقول الملائكة والأنبياءُ[1] الذين شهدوا أعمالهم: هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا على ربهم ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ألا غضب الله على الكافرين. ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ الذين يردُّون النَّاس عن الإيمان ويفتنونهم عن دينهم، ويلتمسون أن تكون سبيل الله ـ الإسلام ـ زيغاً وميلاً عن الاستقامة. ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم جاحدون بالبعث بعد الموت، منكرون له. ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ هؤلاء المشركون في قبضة الله وملكه، لا يعجزون ربهم هرباً، ولا يفوتونه طلباً، إذا أراد عقابهم والانتقام منهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وليس لهم أنصار ينصرونهم من الله، ويحولون بينهم وبين عقابه. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يُزاد في عذابهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا الحقَّ سماع منتفع، ولا يُبصرونه إبصار مهتدٍ[2]، لاشتغالهم بالكفر عن طاعة الله. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

---

(١) هذا قول مجاهد والضحاك واختاره الطبري، وقيل: الأشهاد الخلائق كلهم

(٢) قال ابن كثير: إن الله جعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما قالوا﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ مختصر ابن كثير ٢ / ٢١٦

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ
هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

***

يفْتَرُونَ﴾ هؤلاء الذين خسروا أنفسهم، لأنهم أدخلوها ناراً حامية، وذهبت عنهم الأنداد والأصنام فلم تُغن عنهم شيئاً، وبطل كذبهم وإفكهم على الله، بادعائهم له شركاء. **﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾** حقاً إن هؤلاء القوم هم الأخسرون، لأنهم باعوا منازلهم في الجنان بمنازل أهل النار **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾** إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وخشعوا وأنابوا إلى ربهم. **﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾** هؤلاء هم سكان الجنة، لابثون فيها إلى غير نهاية. **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كالأعمى وَالأَصَمِّ﴾** مثلُ فريقيْ أهل الكفر وأهل الإيمان: كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأصم الذي لا يسمع شيئاً، فكذلك فريق أهل الكفر، لا يبصرون الحق، ولا يسمعون داعي الله إلى الرشاد، **﴿والبصِير والسَّمِيع﴾** فكذلك فريق أهل الإيمان، أبصروا حجج الله، وسمعوا داعي الله فأجابوه وعملوا بطاعة الله. **﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾** هل يستوي هذان الفريقان؟ فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله[1]. **﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** أفلا تعتبرون وتتفكرون؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إني لكم نذير من الله، أنذركم بأسه وعقابه. **﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾** بأن تخلصوا له العبادة، فإني أخاف عليكم عذاب يوم مؤلم عقابُه[2] **﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾** فقال الأشراف والكبراء من قومه، الذين جحدوا نبوة نوح: أنتَ آدميٌ مثلنا في الخَلْق، والصورة، والجنس. **﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾** وما نرى أتباعك إلّا السَّفلة[3]، دون الكُبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر[4] لنا. **﴿وَمَا نَرَى لكم علينا مِنْ فَضْلٍ﴾** وما نرى لكم من مزية وشرف علينا فنتبعكم من أجله

---

(١) قال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصمٌ عن الحق فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يُبصره، وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فحفظه وعمل به.

(٢) وصف اليوم بالأليم على وجه المجاز، لوقوع الألم فيه، فهو من باب المجاز العقلي.

(٣) إنما وصفوهم بذلك لفقرهم، جهلاً منهم وسفهاً، حيث اعتقدوا أن الشرف بالمال والجاه.

(٤) فسَّر الطبري «باديَ الرأي» فيما نرى ويظهر لنا، وفسَّره غيره بمعنى أول الرأي من غير نظرٍ ولا تدبُّر، فكأنهم قالوا: اتبعك الأرذال =

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

* * *

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ بل نظنك يا نوح كاذباً في دعوى النبوَّة ـ أنت وأتباعك ـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال لهم نوح: أخبروني إن كنت على علمٍ ومعرفة وبيانٍ من الله، يوجب عليَّ إخلاص العبادة له. ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ ورزقني منه النبوَّة والحكمة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فعمي عليكم إبصارُ الحقِّ. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أنجبركم على الدخول في الإسلام، وأنتم كارهون لذلك. ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ لا أسالكم على نصيحتي أجراً فتتهموني في ذلك ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللهِ﴾ ما ثوابي على نصيحتي إلا على الله، فهو الذي يجازيني ويثيبني عليه ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إنهم مُلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾ ولستُ بمقصٍ ومبعدٍ[1] من آمن بالله، إنهم صائرون إلى الله فسائلهم عن أعمالهم، لا عن شرفهم وحسبهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ولكني أراكم قوماً جهلة ولذلك سألتموني طردهم ﴿وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ ويا قوم من يمنعني من الله، إن عاقبني على طرد المؤمنين الموحِّدين؟ أفلا تتفكرون فيما تقولون فتعلمون خطأه؟ ﴿ولا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ولا أقول لكم عندي خزائن الله، التي لا يُفنيها شيء فتتَّبعوني عليها. ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ولا أعلم ما خفي من سرائر العباد، فأدعي الربوبية ﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا أقول إني مَلَك أرسلتُ إليكم، بل أنا بشر مثلكم. ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ ولا أقول للذين آمنوا بالله، واحتقرتموهم فقلتم إنهم أراذلكم، لن يعطيهم الله الإيمان. ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ اللهُ أعلم بضمائر صدورهم، وهو وليُّ أمرهم ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إني إن طردتهم أكون من المعتدين لأوامر الله. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتِنا بالعذاب الذي وعدتنا به، إن كنت صادقاً في

= من غير فكر ولا نظر، ولعل هذا القول أرجح والله أعلم.

(١) هذا يقتضي أنهم طلبوا من نوح طرد الضعفاء، وقالوا: إن أحببت أن نتَّبعك فاطردهم، كما طلب كفار مكة من رسول الله ﷺ طرد المؤمنين، فنزل قوله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه﴾.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا
مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

***

دعواك ﴿قالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قال لهم نوح: إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء، ولستم بفائتيه هَرَباً، لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ ولا يفيدكم نصحي في تحذيركم من عقابه، لأن نصحي لا تقبلونه. ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو مالككم والمتصرف في شؤونكم، وإليه تُردُّون بعد الهلاك. ﴿أم يقولون افتراه﴾ أم يقول المشركون من قومك: اختلق محمد هذا القرآن[1]؟ ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ قل لهم: إن اختلقته وافتريته، فعليَّ إثمي في هذا الافتراء، ولا تؤاخذون بذنبي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأنا بريءٌ من إجرامكم، لا أؤاخذ بذنبكم. ﴿وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أوحى الله ذلك إليه بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك، والمعنى: لن يُصدِّق بك ويتَّبعك على دعوتك، إلا من قد آمن من أتباعك. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تأس ولا تحزن عليهم، فإني مهلكهم ومنقذك منهم. ﴿وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ واصنع السفينة كما نأمرك بعين[2] الله ووحيه. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني العفو عن هؤلاء الظالمين، إنهم مغرقون بالطوفان. ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ويصنع نوحٌ السفينة، وكلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزأوا منه، يقولون له: تحوَّلت نجاراً بعد النُبوَّة؟ ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فيقول لهم نوح: إن تهزأوا منا اليوم، فإنا نهزأ منكم في الآخرة[3] كما

---

(١) الآية جيء بها اعتراضاً في ثنايا قصة نوح، للتنبيه على أنَّ ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، وما فيه من قصص الأنبياء، إنما هو بطريق الوحي من عند الله لا من وضع محمد كما زعموا.

(٢) معنى قوله﴿بأعيننا ووحينا﴾أي تحت نظرنا وحفظنا، وبتعليمنا لك كيف تصنعها.

(٣) هكذا فسَّرها الطبري، والظاهر أن المعنى فسنسخر منكم بعد قليل، حين نركب في السفينة فننجو وتغرقون بالطوفان، بدليل قوله بعدها﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا
ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ
ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ
لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

***

تهزأون منا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فسوف تعلمون إذا عاينتم عذاب الله من الذي كان مسيئاً إلى نفسه، ومن الهالكُ الذي يأتيه عذابٌ يهينه ويُذلّه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وينزل به في الآخرة عذابٌ دائم لا انقطاع له. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ حتى إذا جاء وعدنا بالطوفان، وفار تنور الخبز[١]، الذي جعلنا فَوَرانه علامةً على مجيء عذابنا ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قلنا له: احمل في السفينة من كل صنفٍ من صنوف المخلوقات، زوجين ذكراً وأنثى. ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ واحمل أهلك أيضاً ـ أولادك ونساءك وأزواجك ـ إلَّا من قضيتُ عليه بالهلاك منهم. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ واحمل معك من صدَّقك واتَّبعك من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وما أقرَّ بوحدانية الله، وآمن مع نوح إلا قليلٌ من قومه[٢]. ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾وقال نوح: اركبوا في السفينة، بسم الله حين تجري، وحين تقف. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفورٌ لذنوب من تاب رحيمٌ بهم. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ والسفينة سائرة بنوح والمؤمنين، وسط أمواج كالجبال. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ اركبْ مَعَنَا ولا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ ونادى نوح ابنه« يام»[٣] وكانفي معزلٍ عنه يا بُنيَّ اركب معنا السفينة، ولا تكن مع الكافرين المغرقين. ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قال ابن نوح: سأصير إلى جبل أتحصن به، فيمنعني من الغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لا مانع يعصم[٤] اليوم من الغرق والهلاك، إلَّا اللهُ إذا رحمنافأنجانا من عذابه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتنور وجهُ الأرض، وهذا القول مرويٌ عن ابن عباس، واختار الطبري أن المراد به التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو الأغلب الأشهر عند العرب، فقد جعله الله علامة على هلاكهم، ويشهد للأول قوله تعالى﴿وفجرّنا الأرض عيوناً﴾ والله أعلم.

(٢) روي عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانين نفساً، وقيل: عشرة، واختار الطبري عدم التحديد.

(٣) المشهور عند المفسرين أن اسمه «كنعان» فهو الذي لم يؤمن وكان من المغرقين.

(٤) وقيل:﴿لا عاصم﴾أي لا معصوم إلا من رحمه الله تعالى.

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

***

﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ وحال بين نوح وابنه الموج، فكان ممن أهلكه الله بالغرق. ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابلعي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعي﴾ وقال الله للأرض بعد هلاك قوم نوح: اشربي ماءك، ويا سماءُ أمسكي عن المطر. ﴿وَغِيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ ونشف الماءُ، وقُضِي أمرُ الله بهلاك قوم نوح. ﴿واستَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وأرست السفينة على جبل الجودي[1] ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ هلاكاً وخساراً للقوم الظالمين، الذين كفروا بالله من قوم نوح. ﴿وَنَادَى نوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إنَّ ابني مِنْ أَهْلِي﴾ إنَّ ابني من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمينَ﴾ ووعدك الحقُّ الذي لا يُخلف، وأنت الحاكم بالحقّ، فاحكم لي بما وعدتني من نجاة أهلي. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِح﴾ إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، إنه عمِلَ عملاً غير صالح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ أخبرتك عن سبب إهلاكي ابنك، فلا تسألن بعدها عمَّا قد طويت علمه عنك، إني أعظك أن تكون من الجاهلين في سؤالك ذلك. ﴿قَالَ ربِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ﴾ أستجير بك أن أتكلّف مسألتك مما قد استأثرت بعلمه. ﴿وَإلَّا تَغْفِرْ لي وَتَرْحَمْني أكنْ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ وإن لم تغفر لي زلتي، وتنقذني من غضبك، أكن من الهالكين. ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ قال الله لنوح: اهبط من السفينة إلى الأرضِ بأمن منا، وببركاتٍ عليك وعلى قرونٍ تجيء من ذرية من معك، ممن سبقت لهم من الله السعادة. ﴿وَأُمَمٌ سَنُمتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرونٌ وجماعة سنمتّعهم في الحياة الدنيا، ونرزقهم فيها إلى انتهاء آجالهم، ثم نذيقهم في الآخرة عذاباً مؤلماً موجعاً، وهم الذين سبق لهم في علم الله وقضائه الشقاوة ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ هذه

---

(١) هو جبلٌ بناحية الموصل في العراق كذا ذكر المفسرون.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ
قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

***

القصة هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها، نوحيها إليك يا محمد. ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها، من قبل هذا الوحي الذي أوحيناه إليك. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصبر يا محمد على ما تلقى من مشركي قومك، فإن العاقبة لمن اتقى الله.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده، فليس لكم معبود يستحق العبادة غيره. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ما أنتم في إشراككم الأوثان مع الله، إلا أهلُ فِرية، تختلقون الباطل على الله. ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ لا أسألكم على ما أدعوكم إليه جزاءً وثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ما ثوابي وجزائي إلا على الذي خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُون﴾ أني لو كنت أبتغي غير النصيحة لكم، لالتمستُ بعض أعراض الدنيا؟ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ استغفروا ربكم من الإشراك، ثم توبوا إليه من سالف الذنوب. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يرسل عليكم المطر متتابعاً، تحيا به بلادكم من القحط والجدب. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ ويزدكم شدةً فوق شدتكم، وقوةً مع قوتكم ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ولا تدبروا عما أدعوكم إليه كافرين بالله ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ما أتيتنا ببيانٍ وبرهانٍ، حتى نُقرَّ لك بالنبوة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ ولسنا بتاركي آلهتنا من أجل قولك. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولسنا بمصدقين لك بما تدَّعي من النبوة والرسالة. ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ﴾ ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا ـ يعنون الأوثان ـ بجنونٍ وخَبَلٍ في عقلك، بسبب ذمك لها ونهيك عن عبادتها. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ قال لهم هود: إني أُشهد الله على نفسي[1] وأشهدكم أيضاً أني بريءٌ من آلهتكم وأوثانكم، التي تعبدونها من دون الله. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا

(١) انظر إلى المغايرة اللطيفة في «الأسلوب القرآني» البديع، فإن اللفظ قد جاء في غاية الدقة في التعبير ﴿إني أُشهد الله واشهدوا﴾ ولم يقل: إني أُشهد الله وأُشهدكم، حتى لا يساوي بين شهادة الله وشهادة الخلق، ويا لها من لفتةٍ عجيبة نبَّه عليها القرآن!!

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن
تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ

***

﴿تُنْظِرُونِ﴾ فاحتالوا أنتم وآلهتُكم في إيذائي وضُرّي، ثُمّ لا تؤخّرون إن قدرتم. ﴿إنّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إني اعتمدت على الله، مالكي ومالككم، من أن تصيبوني بسوء. ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بنَاصِيَتِهَا﴾ ما من شيءٍ يدبُّ على الأرض، إلا واللهُ مالكُه، وهو في قبضته وسلطانه ذليلٌ خاضع ﴿إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إن ربي على طريق الحقِّ، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم أحداً. ﴿فَإنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فإن أعرضتم عن دعوتي، فقد أبلغتكم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قوماً غَيْرَكُمْ﴾ يهلككم ثم يستبدل ربي قوماً غيركم، يوحدونه ويُخلصون له العبادة. ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ ولا تضرون ربكم إذا أهلككم. ﴿إنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ حافظٌ لجميع خلقه، وهو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولمَّا جاء أمرنا بالعذاب، نجينا منه هوداً والذين آمنوا بالله، بفضل منَّا عليهم ونعمةٍ ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غليظٍ﴾ ونجيناهم من السَّخط والعذاب النازل بعاد. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ وهؤلاء عادٌ الذين أحللنا بهم نقمتنا وعذابنا، جحدوا بحجج الله الدالة على وحدانيته، وعصوا رسل الله[1] ﴿واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ واتبعوا أمر كل مستكبر على الله، مشركٍ معاندٍ لربه. ﴿وأُتْبِعُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وتبعهم سخطٌ من الله ولعنةٌ في الدنيا والآخرة. ﴿أَلَا إنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوا وحدانية الله. ﴿أَلَا بُعْداً لعادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أبعدهم الله من الخير.

﴿وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هو ابتدأ

---

(١) إنما قال ﴿وَعَصَوْا رسله﴾ بصيغة الجمع، لأن من كفر بنبيٍّ فقد كفر بجميع الأنبياء.

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا
لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي
مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ
ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ
غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

***

خلقكم من الأرض، وأسكنكم فيها. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ استغفروا ربكم واتركوا ما يكرهه، فإنه قريبٌ ممن أخلص له العبادة، مجيبٌ له إذا دعاه. ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾ قالوا لنبيّهم: كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً، قبل هذا القول الذي قلته. ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كانت تعبدها آباؤنا؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا لفي شكٍ من صحة ما تدعونا إليه موجبٍ للتهمة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال لهم صالح: أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وبيانٍ من الله، قد علمتُه وأيقنتُه. ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وأعطاني منه النبوة والإسلام. ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فمن يخلّصني من عقاب الله إن عصيتُ أمره؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فما تزيدونني بعذركم، غير تخسير لكم من رحمة الله[1] ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ ويا قوم هذه الناقة حجة ودلالة، على حقيقة ما أدعوكم إليه ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ اتركوها فليس عليكم رزقها ولا مؤنتها، ولا تعقروها فيصيبكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فكذبوه فعقروها فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في الدنيا ثلاثة أيام. ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ هذا وعدٌ صادقٌ لم أكذبكم فيه. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فلما جاء أمرنا بعذابهم، نجينا صالحاً والمؤمنين معه، بنعمةٍ وفضلٍ منا. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ونجيناهم من ذل العذاب وهوانه في ذلك اليوم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القويُّ في بطشه، العزيز في انتقامه، لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب. ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وأصاب من عقر الناقة صيحة

---

(١) ما فسّره به الطبري هو قول مجاهد حيث قال: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، وذهب ابن كثير إلى أن المعنى: لو تركت دعوتكم إلى الحق لما نفعتموني ولما زدتموني غير خسارة، وهذا المعنى أرجح والله أعلم.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ
سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ
ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

* * *

العذاب، فأصبحوا هالكين بأفنيتهم. ﴿كَأَنْ لم يَغْنَوْا فيها﴾ كأن لم يعيشوا فيها. ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ ألا إن ثمود جحدوا بآيات ربهم، ألا فأبعدهم الله من رحمته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ جاءت الملائكة إبراهيم بالبشارة، تُبشِّره بإسحاق[1] ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ فسلَّموا عليه سلاماً، قال: عليكم السلام. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما تأخر حتى جاءهم بعجل - ولد البقرة - مشوي نضيج ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فلما رأى أنهم لا يأكلون من الطعام الذي قُدِّم اليهم، أنكر ذلك عليهم. ﴿وَأَوْجَس مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وأحسَّ منهم في نفسه خوفاً. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قالت الملائكة: لا تخف منَّا فإنَّا ملائكة ربك، أرسلنا الله إلى قوم لوط لإهلاكهم. ﴿وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ومِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب﴾ وامرأته «سارة» قائمة من وراء الستر، تسمع كلامهم، فضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط، وقد أحاط بهم العذاب[2]، فبشرناها بإسحاق ولداً لها[3]، ومن خلْف إسحاق يعقوب ابن ابنها. ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ قالت تعجباً ممَّا قيل لها: يا ويلتا كيف يكون لي ولدٌ وأنا عجوز، وزوجي هذا شيخ كبير؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إن الولد من مثلي ومثل بعلي، على السنِّ التي نحن بها لأمرٌ عجيب، وكانت سارة لما بُشِّرتْ بإسحاق ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن عشرين ومائة سنة. ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ قالوا: أتعجبينَ من أمر أَمَرَ الله به، وقضاء قضاه؟ ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ رحمةُ الله وإنعامُه عليكم أهل بيت إبراهيم. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ إن الله محمودٌ ممجَّد في صفاته

---

(١) وقيل: تبشِّره بهلاك قوم لوط.

(٢) ضحكت استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وقيل: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسنّ زوجها، وقيل: ضحكت بمعنى حاضت، وهو ضعيف لأنه لا معنى لمجيء الحيض ههنا.

(٣) في هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا إسحاق، لأن البشارة كانت بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغيرٌ، ولم يولد له بعد يعقوب، ووعدُ الله حقٌ لا يُخلف!؟

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ
مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً

***

وأفعاله ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عن إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ﴾ فلما ذهب عن إبراهيم الخوف، وجاءته البشرى بإسحٰق، ظلَّ يُخاصمنا في قوم لوط، يقول للملائكة: أتهلكون قريةً فيها خمسون من المؤمنين؟ قالوا: لا حتى بلغ إلى العشرة فقال: ما قومٌ لا يكون فيهم عشرة من المؤمنين فيهم خيرٌ. ﴿إِنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ إن إبراهيم «لحليمٌ» عمَّن سفه عليه «أوَّاه» كثير التضرع لربه «مُنيب» رجَّاع إلى طاعته. ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا إبراهيم دع عنك الجدال في أمرهم، فقد جاء أمر ربك بعذابهم. ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وإن قوم لوط نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفوع. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ ولمَّا جاءت ملائكتنا لوطاً ساءه مجيئُهم، وضاقت نفسه غمّاً بمجيئهم، خوفاً على ضيوفه من قومه[1] ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وقال: هذا يوم بلاء وشدة، شديدٌ شرُّه وبلاؤه. ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إليهِ﴾ وجاء قوم لوط يُسرعون إليه ويهرولون طلباً للفاحشة. ﴿وَمِنْ قَبْلُ كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبل ذلك كانوا يأتون الذكران في أدبارهم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤلَاءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال لهم لوط: يا قوم هؤلاء النساء[2] انكحوهن فهنَّ أطهر لكم. ﴿فَاتَّقُوا الله ولا تُخْزُونِ في ضَيْفي﴾ فاخشوا الله وخافوا عقابه، ولا تذلوني في ارتكاب الفاحشة في ضيوفي. ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أليس فيكم أيها القوم رجل فيه رشدٌ ينهى عن المنكر؟! ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا في بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لقد علمت أنه لا رغبة لنا في النساء، ولا مطمع لنا فيهنَّ. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وإنك لتعلم أن حاجتنا في غير النساء، وأننا نريد الرجال. ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً﴾ قال لهم لوط حين أبوا إلا الفاحشة:

---

(١) خاف على ضيوفه من قومه الفُجَّار أن يفحشوا بهم، لأنه لم يعرف أنهم ملائكة.

(٢) لم يرد بقوله «بناتي» بناته من صلبه، وإنما أراد بهم نساء أمته، لأن كل نبيّ كالوالد لأمته.

أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا
يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

***

لو أن لي أنصاراً وأعواناً يعينونني عليكم ﴿أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شديدٍ﴾ أو أنضمُّ إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم(١). . وجواب «لو» محذوفٌ تقديره: لحلت بينكم وبين ما تريدونه في أضيافي. ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قالت الملائكة: يا لوط إنا رسل ربك، أُرسلنا لإهلاك قومك، وإنهم لن يصلوا إليك ولا إلى ضيفك بمكروه، فهوِّن عليك الأمر. ﴿فَأَسْرِ بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ فاخرجْ من بين أظهرهم ببقيةٍ من الليل أنت وأهلك. ﴿ولا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ ولا ينظر منكم أحد وراءه، إلا امرأتك فلا تخرج بها(٢) ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ إنَّ امرأتك سيصيبها ما أصاب قومَك من العذاب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ إن موعد هلاكهم الصبحُ ﴿أَلَيْس الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أليس الصبح قريباً(٣)؟ ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ولما جاء أمرنا بالعذاب والهلاك، جعلنا عالي قريتهم سافلها(٤). ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ وأرسلنا عليها حجارة من طينٍ مصفوفة، قد نُضِد بعضُها على بعض. ﴿مُسَوَّمَةً عَنْدَ رَبِّكَ﴾ معلَّمة عند الله عز وجل. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ بِبَعِيدٍ﴾ وما هذه الحجارة من مشركي قومك يا محمد، ببعيدة أن يُمطروها إن لم يتوبوا من شركهم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً. ﴿قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أطيعوه وتذلَّلوا له بالطاعة، فما لكم معبودٌ سواه يستحق العبادة. ﴿وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان. ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ إني أراكم في سعةٍ ونعمة، وإني أخاف عليكم بمخالفتكم أمر الله، عذاباً شديداً يحيط بكم

(١) في الصحيح «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد» يريد أن الله ناصره ومؤيده فهو ركنه الشديد.

(٢) قال الطبري: قراءة النصب «إلا امرأتك» على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك، فقد نُهي أن يسرى بها، وأُمر أن يخرج بأهله سوى زوجته، وقرىء بالرفع بمعنى ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك.

(٣) حين قالت الملائكة: موعدُ هلاكهم الصبح، استبطأ لوطٌ ذلك وقال لهم: بل عجِّلوا لهم الهلاك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟

(٤) أي قلبنا بهم القرية فجعلنا أعلاها أسفلها، ودمرناها ومن فيها.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

***

من كل جانب. ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ﴾ أوفوا الناس الكيل والميزانَ بالعدل، بغير بخسٍ ولا نقصٍ ﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تُنقصوا الناس حقوقهم. ﴿ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين﴾ ولا تسيروا في الأرض بالفساد. ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ما يبقى لكم من الربح[1] ـ بعد وفاء الكيل والميزان ـ خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، من المال الحرام بظلمكم الناس. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وما أنا عليكم برقيب، أرقبكم هل توفُّون أم تظلمون؟ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قالوا يا شعيبُ: أصلاتُك ودينك[2] يأمرك أن نترك عبادة الأوثان؟ ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في أموالنا ما نَشَاءُ﴾ ودينك يأمرك أن نترك تطفيف الكيل والميزان؟ ﴿إنك لأنت الحليمُ الرشيدُ﴾ أأنت الحليمُ الرشيدُ؟ قالوا ذلك استهزاءً به[3]. ﴿قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ أرأيتم إن كنت على بيانٍ وبرهانٍ من ربي، فيما أدعوكم إليه وأنهاكم عنه، ورزقني الله رزقاً حلالاً طيباً. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ ما كنت لأنهاكم عن أمرٍ وأفعل خلافه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا إصلاحكم ما قدرتُ، لئلا ينالكم من الله عقوبة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ﴾ وما توفيقي في إصابة الحق، إلا بعون الله تعالى. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ على الله اعتمادي، وإليه أرجع بالتوبة. ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ ويا قوم لا تحملنكم عداوتي وبغضي، على الإصرار على الكفر بالله، فيصيبكم من النقمة والعذاب مثل ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هود أو قوم صالح! ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وليس هلاك قوم لوطٍ ببعيدٍ أمرهم عنكم، أفلا تتَّعظون

(١) وقيل معنى «بقية الله خيرٌ لكم» أي طاعة الله خير لكم، وهو قول مجاهد.
(٢) عبَّر عن الدين بالصلاة أي دينك وإيمانك يأمرك بذلك، لأن الصلاة عماد الدين، فعبَّر عن الشيء بأهم أركانه.
(٣) قالوا ذلك على سبيل التهكم والسخرية بشعيب عليه السلام.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾



وتعتبرون؟! ﴿واستغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه﴾ استغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم ارجعوا إلى طاعته وأمره ونهيه. ﴿إنَّ ربِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ إن ربي رحيم بعباده، ذو محبةٍ لمن تاب وأناب. ﴿قالُوا يا شعيبُ مَا نَفْقَهُ كَثيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ ما نفهم كثيراً من قولك. ﴿وَإِنَّا لنراكَ فينَا ضعيفاً﴾ ضعيفاً بيننا[١] لا حول لك ولا طوْل. ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولولا جماعتك وعشيرتك لرجمناك بالحجارة[٢] ﴿وما أنتَ علينا بعزيزٍ﴾ ولست بمكرَّم عندنا فيعظم علينا هوانك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ﴾ قال لهم شعيب: أقومي تُعزونهم أكثر من الله؟ ﴿واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ واستخففتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم[٣]، لا تُعظِّمونه ولا تخافون عقابه!! قال ابن عباس: كان قوم شعيب ورهطُه أعزَّ عليهم من الله، وصغُر شأن الله عندهم، عزَّ ربنا وجلَّ ﴿إنَّ رَبِّي بِمَا تعْمَلُون مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من عملكم، وهو مجازيكم عليه. ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ﴾ اعملوا على تمكنكم من العمل، إني عامل على تُؤَدةٍ من عملي[٤] ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخزيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ سوف تعلمون أيُّنا الجاني على نفسه والمخطىء؟ ومن يأتيه عذابٌ يذله ويهينه، ومن هو الكاذب منا ومنكم؟ ﴿وارْتقبُوا إنِّي معكُمْ رَقِيبٌ﴾ وانتظروا بمن ينزل به العذابُ، إني منتظر لذلك. ﴿ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولما جاء أمرنا بهلاكهم، نجينا شعيباً والذين آمنوا معه من عذابنا، رحمة منَّا بهم. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وأخذت الظالمين صيحةٌ من السماء أخمدتهم فأهلكتهم. ﴿فَأَصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ جاثمين على ركبهم، هامدين لا حراك بهم. ﴿كَأَنْ لم يَغْنَوْا فيهَا﴾ كأن لم يعيشوا ويُقيموا في ديارهم. ﴿أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ألا أبعدهم الله من رحمته،

(١) الظاهر أن المراد ضعف القوة والمنعة، وقيل: كان ضرير البصر، وقد ردّه المحققون من المفسرين.

(٢) أي قتلناك رمياً بالحجارة، وقيل «رجمناك» أي سببناك وشتمناك والأول أظهر.

(٣) يقال لمن استخفَّ بأمرٍ ولم يلتفت له: جعله وراء ظهره، وإذا اهتم به يُقال: جعله نُصْب عينيه.

(٤) قال ابن كثير: أي اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، وهذا المعنى أظهر.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ
وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

***

كما بعدت قبلهم ثمود من رحمة الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسى بآياتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أرسلناه بأدلتنا وحجتنا الظاهرة. ﴿إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى أشراف جنده وأتباعه، فأطاعوا أمر فرعون وكذبوا موسى. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ برشيدٍ﴾ وليس في قول فرعون ولا عمله رُشْدٌ ولا هُدى. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يقود فرعون قومه فيمضي بهم إلى النار، حتى يدخلهم فيها ويصليهم سعيرها. ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ وبئس الدخول الذي يدخلونه نار جهنم. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ وأتبعهم الله في هذه الدنيا مع العذاب لعنته. ﴿ويومَ القيامةِ﴾ ويوم القيامة يُلعنون لعنةً أخرى، قال مجاهد: زيدوا لعنة أخرى فتلك لعنتان ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العون المُعان[1]، لعنةُ الدنيا والآخرة. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ هذا القصصُ الذي أنبأناك عنه يا محمد، من أخبار القرى المهلكة نقصُّه عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها بنيانه عامرٌ، ومنها خراب داثر، قال قتادة: منها قائم يُرى مكانه، ومنها حصيدٌ لا يُرى له أثر. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما عاقبناهم بغير استحقاق للعقوبة، فنكون قد ظلمناهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم ومعصيتهم لله، فأوجبوا لها العقوبة والعذاب. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فما دفعت عنهم آلهتهم من عقاب الله وعذابه شيئاً. ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لما جاء قضاؤه بعذابهم. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب﴾ وما زادوهم غير تخسير وتدمير. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكما أخذتُ أهل تلك القرى بالعذاب، فكذلكَ أخذي أهل القُرى إذا أخذتهم بعقابي وهم ظلمة. ﴿إنَّ أخذه أليمٌ شديدٌ﴾ إن عقابه موجعٌ شديد الإيجاع. وهذا تحذيرٌ لهذه الأمة، أن يسلكوا طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة، فيحلَّ بهم ما حلَّ بهم من العقوبات. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ إن في ما ذُكر لعبرةً وعظةً، لمن خاف عقاب الله وعذابه في الآخرة.

---

(١) الورِدُ: الدخول، والرِّفدُ: العونُ، فقد أصابتهم لعنتان، لعنةٌ في الدنيا، ولعنةٌ في الآخرة، رَفَدت إحداهما الأخرى.

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟
فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً
غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ
نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ

***

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وهذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يومٌ حقّ، يجمع له الناسُ للجزاء والثواب والعقاب، وهو يوم تشهده الخلائق كلهم، لا يتخلف منهم أحد ﴿وما نؤخره إلاّ لأجلٍ مَعْدُودٍ﴾ وما نؤخر مجيئه إلاّ لزمنٍ معيَّن، لا يتقدم مجيئه ولا يتأخر. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يوم يجيء يوم القيامة، لا تتكلم نفسٌ إلاّ بإذنِ ربها. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمن هذه النفوس نفسٌ شقيةٌ ،ونفس سعيدة.﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففي النَّارِ لَهُمْ فيها زَفيرٌوَشَهيقٌ﴾فأما الذين شقوا فهم في نار جهنم، لهم فيها «زفيرٌ» وهو أوّلُ نُهاق الحمار «وشهيقٌ» وهو آخرُ نهيقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ﴾ لابثين في النار أبداً، دوام السمواتِ والأرض [1] ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إلاّ ما شاء ربك من أهل التوحيد والإيمان، فإنهم يُتركون في النّار، ثم يخرجهم اللّهُ فيدخلهم الجنة[2]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يفعل ما يشاء في خلقه، لا يمنعه مانع من الانتقام ممن عصاه. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّموَاتِ والأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وأما الذين سُعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها على الأبد، دوام السمواتِ والأرض، سوى ما زادهم من الخلود والأبد. ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ عطاءً دائماً غير مقطوع. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ فلا تكن في شكٍ مما يعبد هؤلاء المشركون أنه باطل وضلال. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ما يعبدون الأوثان إلاّ اتباعاً لآبائهم، واقتفاءً بآثارهم. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ وإنّا لموفوهم ما قُدِّر لهم من الخير والشر، على التمام والكمال. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ آتيناه التوراة فصدَّق بها بعضهم، وكذَّب بها بعضهم، كما فعل قومك بالقرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ولولا أنه سبق من

---

(١) قال الطبري: العربُ إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالوا: هذا دائمٌ دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم ابدا، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون ،وانظر تفصيل القول في كتابنا« صفوة التفاسير» ٢ /٣٤

(٢) هذا ما رجحه ابن جرير أن الاستثناء في أهل التوحيد فإنهم يُطهَّرون من الذنوب ثم يُخرجون من النار فيدخلون الجنة، وليست في الكفار أهل الشرك والضلال، وهذا القول هو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون، وهو الأظهر والأرجح

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ
مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا

***

الله، ألا يعجّل العذاب على خلقه، لأهلك المكذبين منهم. **﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾** وإنهم لفي شكٍ من هذا القرآن، أهو أحقٌ أم باطل؟ **﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾** وإنَّ كلَّ هؤلاء ـ الذين قصصنا عليك يامحمد قصصهم ـ لمن[1] ليوفينَّهم ربك أعمالهم، فيعطيهم بالصالح الثواب، وبالطالح العقاب **﴿إنه بما يعملون خبيرٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من عملهم **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾** فاستقم على ما أمرك به ربك، أنت وأتباعك. **﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** ولا تخالفوا أمره بارتكاب معاصيه، إن ربكم مطّلعٌ على أعمالكم، وهو لكم بالمرصاد. **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾** ولا تميلوا إلى قول هؤلاء الكفار، فترضوا أعمالهم وتقبلوا منهم فتمسّكم النار. **﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾** وليس لكم ناصرٌ ينصركم إن خالفتم أمره، ولا وليٌّ يتولّى أموركم. **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾** وصلِّ يا محمد بالغداة والعشيِّ[2]. **﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾** وساعاتٍ من الليل وهي صلاة العشاء. **﴿إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ﴾** إنَّ الصلوات الخمس[3] يُذهبن آثام الذنوب. **﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾** ذلك تذكرة للمتقين الذين يرجون ثواب الله، ويخافون عقابه[4]. **﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجر المحسنينَ﴾** واصبرْ على ما تلقي من الأذى في الله، فإن الله لا يضيع أجر من أطاعه وأحسن عمله. **﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾** فهلاّ كان من الأمم السابقة، ذَوُو بقيةٍ من العقل والفهم، ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم. **﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾** إلاّ قليلاً منهم كانوا ينْهون عن الفساد في الأرض، وهم أتباع الرسل، فنجّاهم الله من

---

(١) هذا على قراءة التخفيف «لَمَا» أما على قراءة التشديد فمعناه: وإن كلًّا من هؤلاء المكذبين لَمَّا يوفيهم الله جزاء أعمالهم، وسيوفيهم جزاءهم في الآخرة، أفاده صاحب البحر.

(٢) آي في الصباح والمساء، صلاة الفجر وصلاة المغرب، فهما طرفا النهار.

(٣) هذا أرجح الأقوال عند الطبري، أن المراد بالحسنات الصلوات الخمس المكتوبات، واختار ابن كثير أن المراد بالحسنات الأعمال الصالحة.

(٤) روي أنها نزلت في رجل قبَّل امرأة ثم ندم، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يطهره من الذنب فنزلت الآية.

فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

***

عذابه. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ واتَّبع الظالمون من كل أمة لذَّات الدنيا وشهواتها، فاستكبروا عن أمر الله وتجبَّروا، وكانوا مجرمين بكفرهم بالله. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ما أهلك ربك قرية ظلماً، وأهلها مصلحون في أعمالهم، ولكنه أهلكها بكفر أهلها، وتكذيبهم رسله. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس كلهم على دين واحد. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتَّى، من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، إلَّا أهل الإيمان فإنهم غير مختلفين. **قال قتادة**: أهل رحمة الله أهلُ جماعة وإن تفرَّقتْ دورهم وأبدانُهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم. ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وعلى ذلك خلقهم(١)، شقيٌّ وسعيد، ومؤمنٌ وكافر، **قال مالك**: خلقهم ليكونوا فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير(٢)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ إنما قصصنا عليك يا محمد كل هذا القصص، من أخبار الرسل وأخبار أممهم، لتعلم ما لقيت الرسل قبلك، فلا تجزع من تكذيب من كذَّبك. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ وجاءك في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، الحقُّ من ربك. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وموعظة وتذكرة للمؤمنين، كي لا يغفلوا عن طاعة الله. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وقل للذين لا يصدقون بوحدانية الله! اعملوا على هيئتكم(٣) وتمكنكم ما تريدون. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ فإنَّا عاملون ما أمرنا به الله. ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

---

(١) قال الطبري: اللام بمعنى على كقول الرجل: أكرمتك لبرّك بي، وعلى برّك بي.

(٢) قال الطبري: علم الله نافذ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم أنه يكون فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وقد خلقهم على ذلك، فلا ينبغي أن يُقال: إن المختلفين غير ملومين على اختلافهم.

(٣) قال ابن كثير: المعنى: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهذا المعنى أوضح والله أعلم.

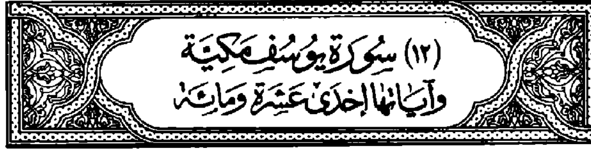
وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

***

وانتظروا ما يحلّ بنا وبكم، إنَّا منتظرون لذلك. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله ملك كل ما غابَ وخفي في السموات والأرض، كلٌّ ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيءٌ. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ وإلى الله معاد كل عامل، فيقضي بينهم بحكمه العادل. ﴿فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فاعبد ربك وفوِّض أمرك إليه، فإنه كافي من توكل عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون، وهو لهم بالمرصاد.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

***



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ
لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ
رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

* * *

﴿آلر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة بما أغنى عن إعادته. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذه آيات الكتاب الواضح لمن تدبره وتلاه، الواضح في حلاله، وحرامه، وسائر معانيه. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنَاً عَرَبِيّاً﴾ أنزلناه عربياً بلسان العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ليعقلوه ويفقهوا ما فيه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة، والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بوحينا إليك هذا الكتاب المعجز ﴿وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقد كنت قبل أن نوحيه إليك، لا تعلمه ولا شيئاً منه

ثم شرع في ذكر قصة يوسف فقال ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ حين قال يوسف لأبيه يعقوب ﴿يَا أَبِتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْس وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِينَ﴾ إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً والشمس والقمر[1] رأيتهم سجوداً لي ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك، فيحسدوك ويُناصبوك العداوة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان عدوٌ لآدم وبنيه، ظاهر العداوة، فاحذر أن يُغري إخوتك بك،

(١) قيل إن رؤيا الأنبياء كانت وحياً، وروي عن قتادة قال: الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

* * *

إن قصصت عليهم رؤياك. ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ربك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ ويعلمك تعبير الرؤيا(١) ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آل يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَقَ﴾ ويتم اختياره وتعليمه لك تأويل الأحاديث، وعلى ذرية يعقوب، كما أتمها على إبراهيم وإسحاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليمٌ بمن هو أهل للإجتباء ، حكيم في تدبير خلقه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائلينَ﴾ لقد كان في يوسف وإخوته الأحد عشر، عِبَر وعظاتٌ للسائلين عن قصصهم وأخبارهم(٢). ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ حين قال إخوة يوسف والله ليوسفُ وأخوه « بنيامين » أحبُّ إلى أبينا منا ونحن جماعة ذوو عددٍ كبير. ﴿ إِنَّ أَبَانا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ إنَّ أبانا يعقوب لفي خطأٍ واضح(٣) ، في إيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبّة. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ قال بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو اطرحوه في مكان من الأرض. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يخل لكم وجهه الذي صُرف عنا من شُغله بيوسف. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ وتتوبون مما صنعتم بيوسف، فتكونون قوماً صالحين ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ قال واحد من إخوة يوسف(٤): لا تقتلوا يوسف وألقوه في قعر الجبِّ يغيب فيه. ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يأخذه بعض المارَّة المسافرين، إن كنتم فاعلين ذلك. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسفَ﴾ لماذا لا تأمننا على يوسف، فنتركه معنا إذا خرجنا إلى الصحراء. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ نحوطه ونحفظه.

---

(١) الرؤيا : بالألف المقصورة الحُلُم ويُراد بها الرؤيا المنامية ، وبالتاء المربوطة الرؤية بالعين.

(٢) قال الطبري: هذه تسلية للنبي ﷺ أراد تعالى أن يطلعه على ما لقي يوسف من إخوته من الأذى والحسد، ليتأسى به النبي ﷺ.

(٣) قصدوا بالضلال هنا الخطأ ﴿ لفي ضلال ﴾ أي لفي خطأٍ واضح ، ولو قصدوا الضلال في الدين لكفروا

(٤) كان اسمه «روبيل» وقيل اسمه «شمعون»

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ
وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن
يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾
قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾
وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا

* * *

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أرسل يوسف معنا غداً إلى الصحراء، نلهو ونلعب وننعم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونحن حافظوه مما يكرهه ويؤذيه. ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ قال لهم يعقوب: إنني ليشقُّ عليَّ أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء. ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ مخافة أن يأكله الذئب، وأنتم لا تشعرون[١] ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ قالوا: لئن أكل الذئب يوسف، ونحن أحد عشر رجلاً معه نحفظه، إنَّا إذاً لَعَجَزَةٌ هالكون. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فأرسله معهم، فلما ذهبوا به وعزموا على أن يجعلوه في قعر البئر. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا، وهم لا يعلمون ولا يدرون أنك يوسف. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ جاءوا أباهم في ظلمة الليل ـ بعدما ألقوا يوسف في الجب ـ يبكون[٢]. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق في الرمي، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، فأكله الذئب. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ولست بمصدِّق لمقالتنا ولو كنَّا من أهل الصدق، لسوء ظنِّك بنا وتُهْمتك لنا. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بدَم كَذِبٍ﴾ بدم مكذوب لم يكن دم يوسف، وإنما كان دم سخلة[٣] ذبحوها ثم لطخوا بدمها القميص[٤]. ﴿قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفسكم أمراً﴾ ليس الأمر كما تقولون، بل زيَّنتْ وحسَّنتْ لكم أنفسكم أمراً، ففعلتموه في يوسف. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

(١) كأنَّ يعقوب عليه السلام بقوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ نبَّههم إلى شيءٍ كانوا عنه غافلين، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما صنعوا به، وربَّ كلمةٍ نبَّهت غافلاً!!

(٢) إنما جاءوا أباهم في ظلمة الليل ليكون ذلك أستر لمؤامرتهم ودموعهم الكاذبة التي سكبوها وفي المثل «الليلُ أخفى للويل»

(٣) السَّخلة: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى.

(٤) لما جاءوا بقميص يوسف إلى أبيهم، نسوا أن يخرقوه، فجعل يقلِّبه ويقول لهم: ما أرحم هذا الذئب؟ أكل ولدي ولم يخرق قميصه؟ فاستدل بذلك على كذبهم، وحبلُ الكذب قصيرٌ.

تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن
مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

* * *

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فصبري صبرٌ جميل، لا شكوى فيه ولا جزع، وأستعينُ اللهَ على كفايتي من شر ما صنعتم.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ ومرَّت جماعة من المسافرين بالطريق، فأرسلوا واردهم ـ وهو الذي يطلب الماءلإخوانه ـ فأرسل دلوه في البئر، فتعلَّق به يوسف فخرج. ﴿قَالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلَامٌ﴾ قال المُدْلي: يا بشرايَ[1] هذا غلامٌ. ﴿وَأَسَرُّوه بِضَاعَةً﴾ وأخفوه من الرفقة مخافة أن يشاركوهم فيه، وقالوا: هذا بضاعة أرسلها معنا أهل الماء لنبيعه لهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالمٌ بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم. ﴿وَشَرَوْه بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهم مَعْدُودَةٍ﴾ وباع إخوة يوسف أخاهم يوسف[2] بثمن قليل ناقص، دراهم معدودة[3] غير موزونة. ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وكانوا من الزاهدين في يوسف، لا يعرفون كرامته ومنزلته عند الله. ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وقال عزيز مصر[4] ـ قطفير ـ الذي اشترى يوسف من بائعه لامرأته: أكرمي منزلته ومُقامه. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ عسى أن يكفينا أمورنا إذا كبر أو نتبنَّاه[5] ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما أنقذناه من إخوته حين همُّوا بقتله، كذلك مكنَّا له في أرض مصر فجعلناه على خزائنها، مع الكرامة والمنزلة الرفيعة. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ولنعلِّمه تعبير الرؤيا. ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والله فعَّال لما يشاء، يدبِّر أمر يوسف ويسوسه ويحوطه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله وتدبيره.

---

(١) نادى البشرى على عادة العرب كما تنادى الحسرة﴿يا حسرة على العباد﴾وأضافها الى نفسه، وكأنه يقول: يا بشرايَ ويا سعادتي بهذا الغلام.

(٢) هذا ما رجحه الطبري أن المراد باعه إخوته بثمن بخس، ورجح غيره أن الذين باعوه هم المارَّة باعوه بمصر بثمن قليل وهذا القول أظهر.

(٣) قيل: كانت عشرين درهماً وقيل: أربعين، واختار الطبري عدم التحديد.

(٤) قال ابن عباس: كان اسمه «قطفير» وكان على خزائن مصر والملك يومئذٍ «الريَّان بن الوليد».

(٥) قال هذا القول لامرأته لأنه لم يكن له ولد، وكانت امرأته حسناء ناعمة طاعمة في مُلكٍ ودنيا.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ
وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

* * *

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه آتَيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً﴾ ولمَّا بلغ منتهى شدته وقوته في شبابه، أعطيناه حينئذٍ العلم والفهم(١). ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وكذلك نجزي من أحسن عمله، وأطاع ربه ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ﴾ وراودت امرأة العزيز يوسف الذي كان في بيتها عن نفسه، وطلبت منه أن يُواقعها(٢) ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ وغلَّقت أبواب البيوت عليه، باباً بعد باب. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ وقالت: هلُمَّ لك، أدْنُ وتقرَّبْ، قال ابن عباس: تدعوه إلى نفسها. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قال يوسف: أعتصمُ وأستجير بالله، إن صاحبك وزوجك سيِّدي، أحسن منزلتي، وأكرمني وائتمنني، فلا أخونه في أهله. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يفوز ولا ينجح من ظلم وخان سيِّده. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولقد همَّتْ امرأة العزيز بيوسف، فجعلت تذكر له محاسنها، وتشوِّقه إلى نفسها ليضاجعها، وهمَّ يوسف بها لولا أنَّ الله أراه آيةً من آيات الله زجرته عن فعل الفاحشة، قيل: نودي يا يوسف: أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء!! وقيل: إنه رأى أباه يعقوب عاضاً على أصابعه، فاستحيا(٣) منه ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ كما

---

(١) قال مجاهد: أعطيناه العقل والعلم قبل النبوَّة، وقال ابن كثير: المراد بالحكمة النبوَّة.

(٢) أحبته لجماله وشبابه وطلبت منه أن يُجامعها، ولم تراع حرمة زوجها بصيانة شرفه، وهكذا شأن الحب يُعمي ويُصمُّ.

(٣) غفر الله للشيخ ابن جرير هذه الزلَّة، فقد ذكر بعض الروايات التي لا يصح الاستشهاد بها، لأنها تُعارض وتُصادم ما اتفق عليه أئمة العلم من «عصمة الأنبياء» فيوسف الصدِّيق نبيٌّ كريم لا يجوز أن يُنسب إليه أمثال هذه الروايات الضعيفة التي لا زمام لها ولا خطام، ومنها أنه جلس بين رجليها وحلَّ ثيابه، ثم رأى صورة أبيه يعقوب على الجدار يعض على أصابعه، فقام عنها حياءً منه الخ. والصحيح أن هذا من باب المشاكلة ـ وهي الاتفاق في اللفظ فقط مع الاختلاف في المعنى ـ فالهمُّ منها غير الهمِّ منه، فقد كان همُّها عزماً وتصميماً، غلَّقت الأبواب ودعته إلى نفسها، بالترغيب تارةً والتخويف أخرى، وكان همُّه خطراتٍ جالت بذهنه، وحديث نفسٍ، حدثته بذلك نفسه بمسايرتها، ولكنْ سرعان ما عاد عن هذا الخاطر ورجع، وتاب وأناب، مِمَّا ألمَّ به من الميل النفسي، متذكراً عظمة الله وجلاله وهيبته﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾ومثل هذه الخواطر لا تُنقص من قدره، ولا تحطُّ من شأنه، ومثالُه في ذلك مثال المؤمن الصائم، في اليوم الشديد الحر، يرى الماء البارد أمامه، فتحدِّثه نفسُه بالشرب منه، ويمنعه خوف الجبار من الإفطار. فهذا مأجورٌ مثابٌ، لأنه يغالب نفسه وهواه طلباً لرضى مولاه، وفي الحديث: «من همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كُتبت له حسنة» فهذا الذي همَّ به يوسف من هذا الباب هو حديثُ نفس من غير عزم ولا تصميم، بدليل أنه آثر السجن على عمل الفاحشة﴿قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾أو نقول كما قال أبو حيان في البحر المحيط: إنَّ جواب «لولا» مقدَّمٌ عليها كقول القائل: قارفتَ الذنبَ لولا أن عصمكَ الله، ويكون المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، وهذا قول حسنٌ، وانظر القول مفصلاً في كتابنا الجديد «صفوة التفاسير» حيث بيَّنا من عشرة وجوه عصمته عليه السلام، وكلها من القرآن الكريم.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ
مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾
فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ
وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

* * *

أريناه برهاننا كذلك نقيه السوء والفحشاء، ونطهِّره من دَنَس المعصية. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوَّتنا. ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ استبق يوسف وامرأة العزيز باب البيت، يوسفُ هَرَباً وفراراً، وامرأة العزيز طلباً لقضاء حاجتها منه، وشقَّت قميصه من خلف، لأنه كان الهارب، وكانت هي الطالب. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَها لَدَى البَابِ﴾ وصادفا زوجها عند الباب. ﴿قَالَتْ ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ قالت امرأة العزيز لزوجها مخافة أن يتهمها بالفجور: ما جزاء من أراد بأهلك الزنا. ﴿إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلا أن يُحبس في السجن، أو يناله عذاب مؤلمٌ موجع[١] ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْني عَنْ نَفْسي﴾ قال يوسف مكذباً لها: بل هي راودتني عن نفسي. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وشهد شاهد من أهل المرأة ـ وكان طفلاً في المهد[٢] ـ فقال. ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن كان قميصه ـ ثوبُه ـ شُقَّ من أمام فصدقت في قولها وهو كاذب، لأن الشقَّ لو كان من الأمام لم يكن هارباً ولكن كان طالباً. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإن كان ثوبُه شُقَّ من خلف، فكذبت في قولها وهو صادقٌ، لأن الإنسانَ إذا كان هارباً، فإنما يؤتى من قبل دبره. ﴿فَلَمَّا رأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فلمَّا رأى زوجها ثوب يوسف قد شُقَّ من خلف، قال: إن هذا من صنيع النساء ومكرهن، إن كيدكن يا معشر النساء عظيم. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يا يوسف أعرضْ عن هذا فلا تذكره لأحد. ﴿وَاسْتَغْفِري لِذَنبِكِ﴾ توبي من مقارفة هذا الذنب القبيح ﴿إنك كنتِ مِنَ الخاطِئِينَ﴾ [٤] إنك كنت من المذنبين في مراودة

(١) لما شعرت بالفضيحة عكست القضية، فادَّعت أن يوسف راودها لتوقع به العقاب وتدفع التهمة عن نفسها، وهكذا ببراعةٍ ومكر يفوق مكر إبليس، أصبح البريء متهماً والمتهم بريئاً ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أنْ يُسجن أو عذاب أليم﴾

(٢) الرواية الشهيرة أنه كان طفلاً صغيراً في المهد، ويؤيده ما روي مرفوعاً «تكلم أربعة وهم صغار» وذكر منهم شاهد يوسف، وكونه طفلاً في المهد تكلم، وكونه من أهلها أوجبُ للحجة عليها، وأوثقُ في براءة يوسف.

(٣) قال ابن كثير: كان زوجها ليِّن العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأن رأت ما لا صبر لها عنه.

(٤) هذا من باب التغليب، تغليب الذكور على الإناث، ولم يقل من الخاطئات مراعاة لرؤوس الآيات.

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

* * *

يوسف. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ في الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وتحدَّث النساء في مدينة مصر، لما شاع أمرهما فلم ينكتم، قلن: امرأة الملك تُراوِدُ عبدها عن نفسه. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ وقد وصل حبُّ يوسف إلى شغاف قلبها ـ وهو غلافه ـ حتى غلب على قلبها. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إنا لنراها في مراودتها لعبدها، لفي خطأ وجور عن قصد السبيل واضح. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكرِهِنَّ﴾[١] فلما سمعت امرأة العزيز بقولهن. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً﴾أرسلت إلى النسوة، وهيأت لهنَّ مجلساً للطعام، وما يتَّكئن عليه من الوسائد والنمارق. ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ وأعطت كل واحدة من النسوة سكيناً لتقطع به الطعام. ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وقالت امرأة العزيز ليوسف: اخرج عليهنَّ فخرج عليهن[٢] ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾فلما رأين يوسف، أعظمْنه وأجللْنه لحسنه وجماله، وحززْن أيديهنَّ بالسَّكاكين وهنَّ لا يشعرن. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لله مَا هَذَا بَشَراً﴾ وقلن: معاذ الله وتنزيهاً له، ما هذا من البشر. ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ما هذا إلا مَلَك من الملائكة، لأنهن لم يرين في حسن صورته من البشر أحداً. ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمتُنَّنِي فيهِ﴾ قالت امرأة العزيز: هذا الذي لمتنني في حبي إياه، فقلتن ما قلتنَّ عنِّي[٣]، ثم أقرَّت بمراودتها له فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ولقد طلبتُ منه مواقعتي فامتنع ﴿وَلَئِنْ لم يَفْعَلْ ما آمُرُهُ ليسجنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِين﴾ ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه، لَيُحْبَسَنَّ في السجن، وليكوننَّ من الذليلين، تريد لأحبسنَّه ولأهيننَّه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يا ربِّ الحبسُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه من الفاحشة. ﴿وَإِلاَّ تصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

(١) سمّى حديثهنَّ مكراً لأنه كان في خفية، وقيل: استكتمتهنَّ سرَّها فأفشينه.

(٢) إنما أطاعها يوسف لأنه كان عبداً مملوكاً لزوجها وهي سيدته، ولم يدر في خُلده أنهن يتآمرن عليه

(٣) لما رأينه جعلن يحززن بالسكاكين أيديهن، فلما أحسَسْن بالألم رفعن أصواتهن فقالت: أنتنَّ من نظرةٍ واحدة فعلتنَّ هذا، فكيف ألام أنا؟فقلن عند ذلك ﴿حاش لله ما هذا بشراً﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا اهـ،من مختصر ابن كثير ٢ / ٢٤٨

إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ
إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا

* * *

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ وإن لم تدفع عني يا ربِّ شرهُنَّ، أمِلْ إليهنَّ وأتابعهنَّ على ما يَهْوَيْنَ، وأكنْ جاهلاً إذا ركبت معصيتك. **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عنه كَيْدهُنَّ﴾** فاستجاب الله ليوسف دعاءه[1]، فنجَّاه من كيد النسوة. **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** السميعُ لدعاءِ خلقه، العليم بحوائجهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ ثم ظهر لعزيز[2] مصر ـ ومن استشارهم من خاصته ـ من بعد ما رأوا الأدلة على براءة يوسف **﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾** ليحبسنَّه إلى الوقت الذي يرونه، وكانت تلك الآيات في شق القميص، وخمش الوجه ،وتجريح الأيدي. **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾** ودخل مَع يوسف السجنَ غلامان: أحدهما صاحب شراب الملك، والآخر صاحب طعامه. **﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾** في الآية محذوف تقديره: فلما أُدخل السجن سألوه عن عمله فقال: إني أُعبِّر الرؤيا، فقال أحدهما: إني أرى في نومي أني أعصر عنباً[3] **﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾** وقال الفتى الآخر: إني أرى في منامي أني أحمل على رأسي خبزاً تأكل منه الطير. **﴿نَبِّئْنَا بتأويلِهِ إِنَّا نَرَاكَ من المحسنينَ﴾** أخبرنا بتأويل رؤيانا، فإنا نراك محسناً في معاملتنا. **قال الضحاك**: كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا احتاج جمع له، وإذا ضاق عليه المكانُ أوسع له. **﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتأْويلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾** قال لهما: لا يأتيكما طعام في المنام[4]، إلا

---

(١) قال ابن كثير: إن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمةً عظيمة وحماه فامتنع منها أشدَّ الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. وذلك من عصمة الله له عليه السلام.

(٢) قال الطبري: بدا للعزيز وهو واحد وقيل﴿بَدَا لَهُمْ﴾ لأنه لم يقصد بعينه نظير قوله﴿قال لهم النَّاسُ﴾ وكان القائل واحداً.

(٣) سمي العنب خمراً﴿أعصر خمراً﴾ باعتبار ما يئول اليه، ففيه مجاز مرسل. .

(٤) وصف لهما نفسه بكثرة العلم ـ ولا سيما في تفسير الرؤيا ـ ليجعل ذلك طريقاً لدعوتهما لتوحيد الله.

ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

* * *

أخبرتكما بتفسيره في اليقظة، قبلَ أن يظهر تأويله في الدنيا[1] ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَني رَبِّي﴾ هذا الذي أخبرتكم عنه من تعبير الرؤيا، ممَّا علمني ربي إيَّاه. ﴿إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون باللهِ﴾ لأني اجتنبت ملة من لا يُصدِّق بالله ولا يُقر بوحدانيته ﴿وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم جاحدون بالبعث والمعاد، والثواب والعقاب. ﴿واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إبْراهيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوب﴾ واتبعتُ دين آبائي، لا دين أهل الشرك. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْركَ باللهِ مِنْ شَيءٍ﴾ ما جاز لنا أن نجعل لله شريكاً في عبادته وطاعته. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا ممَّا أكرمنا الله به، وتفضَّل به علينا وعلى سائر الناس. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون الله على نعمه. ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأَرْبَابٌ مُتفرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ يا من هما في السجن[2]: أعبادة أرباب شتَّى، لا تضرُّ ولا تنفع، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد؟ الذي قهر كل شيء فأطاعه؟ ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ما تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام، إلا مسمَّيات لا تستحق الألوهية سميتموها أرباباً وآلهة. ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله بها من حجة، ولكنها اختلاق منكم وافتراء. ﴿إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ﴾ ما الحكم والتصرف إلا لله وحده. ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاه﴾ أمر عباده بألاَّ يعبدوا إلاَّ إياه. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكنَّ أكثرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا هو الدين القويم، الذي لا اعوجاج فيه، ولكنَّ أكثر الناس يجهلون ذلك فلا يعلمون حقيقته ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ أمَّا الذي رأى أنه يعصر خمراً، فيسقي الملك الخمر ويكون صاحب شرابَه. ﴿وأمَّا الآخرُ فَيُصْلَبُ فتأكلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأمَّا الذي رأى أن على رأسه

(١) هذا ما اختاره الطبري، وذهب غيره إلى أن المراد أنه يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام، قبل أن يأتيهما ذلك، وهذا من الإخبار بالغيوب التي هي من خصائص الأنبياء كما قال عيسى﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم﴾

(٢) نسبهما إلى السجن﴿يا صاحبي السجن﴾ لأنهما سكناه، كما سمَّى الله سُكَّان الجنة أصحابها فيقوله ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ لأنهم سكان الجنة.

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ
أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى
سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

* * *

خبزاً، فيصلب فتأكل الطير من رأسه. ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الذي فيه تستفتيانِ﴾ فُرغ من الأمر الذي استفيتما فيه[1] ﴿وقال لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وقال يوسف للذي أيقن أنه ناج من صاحبيه: اذكرني عند الملك، وأخبره أني محبوس بغير جُرم. ﴿فَأنساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ في السِّجنِ بِضْعَ سنين﴾ فأنسى الشيطان الساقي[2] ذكر ذلك للملك، فمكث يوسف في السجن سبع سنين. ﴿وقالَ المَلِكُ إني أرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَاف﴾ وقال ملك مصر: إني أرى في المنام سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهُزال. ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخر يَابِسَاتٍ﴾ وأرى كذلك في منامي سبع سنبلات خضر، وسبعاً أخرى يابسات. ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُوني في رُؤْيَايَ﴾يا أيها الأشراف من رجالي، عبروا لي هذه الرؤيا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤيَا تَعْبُرُون﴾ إن كنتم تعرفون تأويلها[3]. ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ قالوا: هذه أخلاط رؤيا كاذبة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ وما نعرف تأويل الأحلام الكاذبة ﴿وقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُما وَادَّكَر بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وقال الذي نجا من القتل ـ ساقي الملك ـ وتذكَّر بعد حينٍ ما كان نسي من أمر يوسف ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أنا أخبركم بتعبير هذه الرؤيا فأرسلوني الى السجن ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وأُخَر يَابِساتٍ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأرسلوه فأتى يوسف فقال له يا يوسف يا أيها الصدِّيق، أفتنا في هذه الرؤيا، في سبع بقراتٍ سمان، رئين في المنام يأكلهن سبعٌ منها عجاف، وفي سبع سنبلاتٍ خضر رئين أيضاً قد التفَّت بها سبع

(١) ذُكر أنه لما عبَّر لهما الرؤيا قال له: ما رأينا شيئاً فقال لهما﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾

(٢) وقيل الضمير يعود ليوسف والمعنى: نسي يوسف أن يذكر الله واعتمد على غيره، فعاقبه الله على ذلك بأن مكث في السجن بضع سنين، والأول أظهر وأرجح وهو الذي رجحه الطبري واختاره جمهور المفسرين

(٣) قال السدي: رأى الملك في منامه رؤيا هالته، رأى سبع بقراتٍ سمان يأكلهن سبع ضعاف، وسبع سنبلات خضرٍ وأُخر يابساتٌ، فجمع السحرة والكهنة فقصها عليهم فقالوا له: ﴿أضغاث أحلام﴾

يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

* * *

أُخر يابسات[1] ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كي أرجع إلى الناس فأخبرهم، ليعلموا تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ قال يوسف تزرعون هذه السنين السبع ، على عادتكم كما كنتم تزرعون من قبل ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قليلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فما حصدتم من الزرع ، فاتركوه في سنبله ليبقى محفوظاً من التلف ، إلا المقدار الذي تأكلونه[2] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ثم يأتي من بعد تلك السنين الخِصبة ، سبع سنين ذات قحطٍ وجدب . ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قليلاً مما تُحْصِنُونَ﴾ تأكلون[3] فيها ما أعددتم في السنين الخِصْبة من الأقوات ، إلا يسيراً مما تخزنون . ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ثم يجيء بعد الجدب ، عامٌ فيه يُغاث الناس بالمطر، وفيه يعصرون الزيتون والعنب وسائر الثمرات ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ وقال الملك ـ بعد سماعه تأويل الرؤيا ـ ائتوني بيوسف، فلما جاءه رسول الملك يدعوه إليه، قال: ارجع إلى سيِّدك. ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فسله ما شأن النسوة اللاتي جرحْنَ أيديهنَّ[4]؟ وما شأن المرأة التي سُجنتُ بسببها؟ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إنَّ الله تعالى عالمٌ بصنيعهن ومكرهنَّ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ قال الملك ما كان شأنكن حين راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ قلن: تنزَّه الله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ الآن تبيَّن الحق وانكشف ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ

---

(١) قال الطبري: أما السمان من البقر فهي السنون المخصبة، وأما العجاف فهي السنون المجدبة.

(٢) علَّمهم عليه السلام طريقة يحفظون بها الحبَّ، من السنين المخصبة إلى السنن المجدبة، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها حُفظت من التسوس.

(٣) وصف السنين بأنهن يأكلن، والمرادُ يأكل أهلها بطريق المجاز، ففيه مجاز عقلي.

(٤) أبى يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد أن تنزَّه ساحته من التهمة التي رمي بها، وهذا من كمال عفته ونزاهته عليه السلام.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

***

عَنْ نَفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنا دعوته إلى نفسي، وإنه لصادقٌ في قوله «هي راودتني عن نفسي» **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ﴾** لم أخرج من السجن، ذلك ليعلم العزيز بأني لم أخنه في حال غيبته[1] **﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** وأن الله لا يرشد إلى الخير والسداد من كان خائناً. **﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾** يقول يوسف: وما أُبرِّىء نفسي من الخطأ والزَّلل فأزكّيها، فإنَّ النفس تأمر باتّباع الهوى. **﴿إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** إلَّا من رحمه الله من خلقه، فأنجاه من اتّباع الهوى. **﴿إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** يصفح عن ذنوب التائبين، رحيم بعباده المؤمنين. **﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُوني بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾** ائتوني بيوسف أجعله من خلصائي وخاصّتي. **﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** فلما كلَّمه الملِك، وعرف براءته وعظم أمانته، قال له: إنك اليوم عندنا متمكنٌ من كل شيء، أمينٌ على كل ما ائْتُمنتَ عليه. **﴿قَالَ اجْعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾** ولِّني على خزائن أرض مصر. **﴿إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾** إني حافظٌ لما استودعتني، عالمٌ بما أوليْتني[2] **﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأَرْضِ﴾** وهكذا وطَّأنا ليوسف في أرض مصر. **﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾** يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الحبس والضيق. **﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾** نصيب برحمتنا من نشاء من خلقنا، كما مكَّنا ليوسف بعد العبودية والإلقاء في الجبِّ. **﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** ولا نُبطل جزاء من أحسن فأطاع ربه **﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾**

---

(١) اختار الطبري أن هذه الآية والتي بعدها من كلام يوسف وهو قول ابن عباس، ورجح ابن كثير وبعض المفسرين أنها من كلام امرأة العزيز نظراً لسياق الكلام، وما اختاره الطبري هو الأظهر والأرجح، إذ كيف يصح لامرأة العزيز أن تقول﴿ذلك ليعلم أني لم أخُنْه بالغيب﴾ وقد عزمت على خيانة زوجها في غيبته بكل طرق الفتنة والإغراء وبجميع الوسائل، ولولا حفظ الله وعصمته ليوسف لوقع في شباكها، وأما قول يوسف﴿وما أُبرِّيء نفسي﴾ فإنما قال ذلك على سبيل التواضع والاعتراف بفضل الله ورحمته، وهكذا شأن الأنبياء يعلمون أن كل شيء من الله وبفضله، فلا ينسبون شيئاً من الفضل إلى أنفسهم.

(٢) ليس هذا من باب التزكية للنفس، وإنما هو ـ كما يقول الطبري ـ إعلامٌ بأن عنده المعرفة التامة والخبرة الكافية، في إدارة الشؤون الإقتصادية والمالية.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

***

ولثواب الله في الآخرة ـ للذين صدَّقوا الله ورسوله، وكانوا يخافون عقابه فيطيعونه ـ خيرٌ مما أعطى يوسف في الدنيا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ جاءوا فدخلوا على يوسف[١]، فعرفهم وهم لا يعرفونه ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ ولما جهَّزهم بالطعام وملأ لكل رجلٍ منهم بعيره، قال لهم: ائتوني بأخيكم من أبيكم[٢]، كيما أحمل لكم بعيراً آخر. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ألا ترون أني لا أبخس الناس شيئاً، وأنا خير من أكرم الضيف في هذه البلدة؟ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فإن لم تأتوني بأخيكم، فليس لكم عندي طعام أكيله لكم، ولا تقربوا بلادي. ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قالوا: سنسأل أباه أن يُخلّيه معنا ونجتهد في ذلك. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف لغلمانه: اجعلوا ثمن الطعام الذي أخذتموه منهم في أمتعتهم[٣] من حيث لا يشعرون. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ لعلَّهم يعرفونها إذا عادوا إلى أهلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا إلينا. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، قالوا يا أبانا: مُنع منا الكيل[٤] فوق الكيل الذي أخذناه على عددنا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فأرسلْ معنا أخانا «بنيامين» يكتلْ

(١) كان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم، فخرجوا إلى مصر ليشتروا منها الطعام.

(٢) إنما قال ﴿من أبيكم﴾ لأن يوسف لم يكن أخاهم الشقيق، وروي أنهم لما دخلوا عليه قال كالمنكر عليهم: من أنتم؟ وما الذي أقدمكم بلادي؟ فقالوا: قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون ـ جواسيس ـ قالوا معاذ الله، وأخبروه بأنهم أولاد يعقوب وحدثوه بقصتهم، فقال لهم عند ذلك ائتوني بأخ لكم من أبيكم.

(٣) قصد من وراء ذلك الكرم والتفضل عليهم، ليكون ذلك أدعى إلى العود والرجوع إليه.

(٤) في قوله ﴿مُنِع منا الكيلُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ فهو خوف من المنع في المستقبل، وإلى هذا ذهب ابن كثير وهو الأرجح.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ
بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

* * *

لنفسه كيل بعير زيادةً على كيلنا، ونحن نحفظه من أن يناله مكروه. ﴿قال هَلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ على أخيه مِنْ قبل﴾ هل أئتمنكم على أخيكم «بنيامين» إلاَّ كما أمنتكم على أخيه «يوسف» من قبل؟ ﴿فالله خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ فالله خيركم حفظاً، وهو أرحم بخلقه، وسيرحم ضعفي وكبري، فلا يُضيِّعه ولكن يحفظه. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُم وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليهم﴾ ولمَّا فتحوا متاعهم الذي حملوه من مصر، وجدوا ثمن الطعام الذي اكتالوه رد اليهم. ﴿قَالُوا يا أبانا ما نَبْغِي هَذِهِ بضاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا﴾ قالوا لأبيهم: ماذا نبغي بعد هذه الكرامة[1]؟ فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا. ﴿وَنَمِيرُ أهلنا ونحفظُ أخانا﴾ ونشتري لأهلنا الطعام، ونحفظ أخانا بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ونزداد حمل بعيرٍ فوق أحمالنا. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فهذا حمل يسيرٌ لا يكلفنا إلاَّ أن ترسل معنا أخانا[2] ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَه مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُون مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ قال لهم يعقوب: لن أرسل معكم أخاكم إلى مصر، حتَّى تعطوني عهداً ويميناً بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لتأتنني بأخيكم إلاَّ أن تُغْلبوا، وتُصابوا بأمرٍ يذهب بكم جميعاً. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فلما أعطوه عهودهم قال: الله شهيد علينا جميعاً[3] ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وقال يعقوب لبنيه: لا تدخلوا مصر من طريقٍ واحد، وادخلوا من طرقٍ متفرقة، قال الضحاك: خاف عليهم العين. ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله شيئاً. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ﴾ ما القضاءُ والحكمُ إلاَّ للهِ، يحكم بما يشاء في خلقه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على الله اعتمدتُ وبه وثقتُ في حفظكم، وعلى الله فليعتمد

---

(١) «ما» في قوله ﴿ما نبغي﴾ استفهامية أي ماذا نطلب بعد هذه الكرامة؟ وقالوا ذلك لأبيهم تطييباً لنفسه حتى يرسل معهم أخاهم.
(٢) كان يوسف عليه السلام يعطي كل رجل حمل بعير، فلذلك طلبوا أن يرسل معهم أخاهم.
(٣) قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بُدّاً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾

* * *

المتوكلون. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ ولما دخل أولاد يعقوب من الطرق المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ من اللهِ مِنْ شَيْءٍ إلَّا حاجةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ما كان دخولهم ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً، إلا خشية العين عليهم، وهي حاجةٌ[1] اطمأنت بها نفس يعقوب. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وإنه لعالمٌ بتعليمنا له، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله في فعله. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ولما دخل إخوته عليه ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال: إني أنا أخوك يوسف[2] ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا تحزن على ما فعلوا بك وبأخيك. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ولمَّا قضى حاجتهم وأخذوا ميرتهم، جعل السِّقاية ـ الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام ـ في متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ثم نادى منادٍ: يا أيتها القافلة إنكم لسارقون[3]. ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ قالوا وأقبلوا على المنادي: ما الذي تفقدونه حتى اتهمتمونا بالسرقة؟ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾ قال لهم القوم: نفقد مَشْربة الملك، قال ابن عباس: الصُّواع: إناءٌ من فضة كان الملك يشرب فيه. ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ولمن جاء بالصُّواع[4] حمل بعيرٍ من الطعام، وأنا ضامنٌ وكفيل بذلك. ﴿قَالُوا تاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قالوا: واللهِ ما جئنا لنعصي اللهَ في أرضكم، ولو كنا سُرَّاقاً لم نردَّ عليكم البضاعة التي وجدناها في

---

(١) الحاجة هنا هي شفقته عليهم، ووصيتُه لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفاً عليهم من العين.

(٢) لما قدموا على يوسف ومعهم أخوهم «بنيامين» أدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فاطلعه على شأنه وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه يوسف، وقال له: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك، وتواطأ معه أنه سيحتال على إبقائه عنده. ا هـ مختصر ابن كثير ٢ / ٢٥٦

(٣) إنما استحلَّ أن يرميهم بالسرقة، لما فيه من المصلحة بإمساك أخيه بنيامين.

(٤) السقاية والصُّواعُ شيء واحد، يسمَّى سقايةً لأنه يشرب به، وصاعاً لأنه يُكال به.

قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ
أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

* * *

رحالنا. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إنْ كُنْتُم كاذِبِينَ﴾ قالوا ما جزاء آخذ الصُّواع إن كنتم كاذبين في قولكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال إخوة يوسف: جزاء السارق أن يُسلَّم إلى من سرق منه ليسترقَّه ويستعبده[1] ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمينَ﴾ كذلك نصنع بمن سرق منا. أخبروا بما يُحكم في بلادهم أنه من سَرَق أُخذ عبداً. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته، فجعل يفتّشها وعاءً وعاءً، ثم فتّش وعاء أخيه الشقيق آخرها[2]، فاستخرج الصواع من وعاء أخيه بنيامين ﴿كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ هكذا صنعنا ليوسف ليحتبس أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ﴾ ما كان ليأخذ أخاه في حكم الملك وسلطانه، لأنه لم يكن في شريعة الملك أن يُسْتعبد السارقُ، ولكن هذا الحكم كان في شريعة يعقوب ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ لكنْ صنعنا له ذلك بإرادتنا. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ نرفع مراتب ومنازل من نشاء بالعلم، كما رفعنا مرتبة يوسف على إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وفوق كل عالم مَنْ هو أعلمُ منهُ، حتى ينتهي إلى الله عزَّ وجل. ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ قالوا: إن يسرق «بُنْيامين» فقد سرق أخوه يوسف من قبلُ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فأضمر يوسف في نفسه تلك الكلمة، ولم يظهرها لهم. ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قال يوسف: أنتم شرٌّ منزلةً عند الله ممن وصفتموه بالسرقة، والله أعلم بما تكذبون في شأن يوسف وأخيه، **قال ابن عباس**: أسرَّ في نفسه هذه الجملة «أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون»

---

(١) معنى ﴿فهو جزاؤه﴾ أي فنفسه مسترقةٌ بالسرقة، وهكذا أفتى إخوة يوسف أن جزاء السارق أن يستعبد ويؤخذ في سرقته عملاً بشريعة يعقوب، وقد نسخ الحكم بقطع اليد في شريعتنا.

(٢) هذا تمكينٌ للحيلة ودفعٌ للتهمة، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه.

(٣) قصدوا بذلك رفع التُهمة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه، وهذا تهمةٌ للبريء وكذبٌ صريح، مِمَّا يُثبت أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء على الصحيح، لأنهم فعلوا ما يتنافى مع النبوة، كالإقدام على القتل، والحسد، والكذب وغيرها.

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن
نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ
يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا
عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

* * *

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ قالوا يا أيها الملِكُ إنَّ أباه شيخ كبيرٌ[1] وهو يحبه حباً شديداً، يتسلَّى به عن ولده الذي فقده. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فخـذ واحداً منا بدلاً من بنيامين، إنا نراك محسناً في أفعالك، أحسنت إلينا فيما فعلت معنا ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ قال يوسف: نستجير بالله أن نأخذ بريئاً بمتهم، وأن نأخذ غير من وجدنا متاعنا عنده. ﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ إنا إن فعلنا ذلك نكون ظالمين ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ فلما يئسوا من تخليص أخيهم «بنيامين» خَلاَ بعضُهم ببعض يتناجوْن بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قال كبيرهم في السنِّ[2] - روبيل - ألم تعلموا أيها القوم، أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم العهـد والميثاق أن تأتوا بأخيكم، ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حتَّى يَأْذَنَ لي أَبي﴾ فلن أفارق أرض مصر، حتى يأذن لي أبي بالخروج منها. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمينَ﴾ أو يقضي ربي لي بالخروج منها، وهو خير من فصل وحكم بين الناس. ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ ارجعوا إلى أبيكم يعقوب، فقولوا له: إن ابنك «بنيامين» سَرَق وأُخذ بسرقته. ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ وما شهدنا بأن ابنك سرق، إلا برؤيتنا للصُّواع في وعائه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما كنا نظن أنه سيسرق، ويصير أمرنا إلى هذا ﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ التي كُنَّا فيها﴾ واسأل أهل القرية - مصر - التي كنا فيها. ﴿وَالْعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ والقافلة التي كنَّا معها. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك عنه من أمر بنيامين. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُم أَمْراً﴾ قال: بل زيَّنت لكم أنفسكم أمراً أردتموه. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فصبري صبرٌ جميلٌ، لا جزع فيه ولا شكاية ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ لعلَّ الله يردُّ أولادي عليَّ جميعاً. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(١) هذا استعطافٌ منهم ليوسف من أجل ان يرقّ قلبه فلا يحتجزه عنده.
(٢) وقيل كبيرهم في الرأي، واختار الطبري الأول وهو الأرجح لأنه الظاهر والمتبادر عند الإطلاق.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن
رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ
مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ

* * *

العالم بأمري، الحكيمُ في تدبيره. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وأعرض عن أولاده وقال: يا حزنا على يوسف[١] ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ﴾ وابيضَّتْ عينا يعقوب من شدة الحزن ففقد بصره ﴿فهو كظيمٌ﴾ مملوءُ القلب بالحزن والكمد ﴿قَالُوا تالله تَفْتأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قالوا: نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أو تكونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ حتَّى تكون ضعيف الجسم، مخبول العقل[٢]، أو تكون من الهالكين بالموت.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال لهم يعقوب: لا أشكو همّي وحزني إلّا إلى الله وحده، وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فتحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخيهِ﴾ اذهبوا إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم، وتعرَّفوا[٣] خبر يوسف وأخيه بنيامين. ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله، أن يردَّ علينا يوسف. ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ من رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا يقنط من فرجه ورحمته، إلا القوم الجاحدون بقدرته. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عليه قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ فلمَّا دخلوا على يوسف قالوا له: يا أيها العزيزُ أصابنا وأهلنا الشدة من القحط والجدب. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ وجئنا ببضاعةٍ رديئةٍ[٤] لا تصلح ثمناً. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصدَّقْ عَلَيْنَا﴾ فأعطنا بهذا الشيء الرديء ما كنت تعطينا بالثمن الجيد، وتفضَّل علينا بإحسانك، فلا تُنقصنا الكيل لرداءةِ بضاعتنا. ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصدِّقِينَ﴾ إن الله يثيب المتفضّلين على أهل الحاجة[٥]. ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قال لهم: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه!

---

(١) هيَّج عنه فقدُ «بنيامين» حزنه على يوسف، وذكَّره بمصابه الأول، كما قيل: «إن الأسى يبعثُ الأسى».

(٢) أصل الحَرَض: الفسادُ في الجسم والعقل من الحزن أو العشق. ا هـ الطبري ١٣ / ٤٢

(٣) التحسُّس طلب الشيء بالحواس كالسمع والبصر ويكون في الخير، والتجسُّس يكون في الشر.

(٤) المزجاة: الرديئة وهذا قول ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: القليلة اليسيرة.

(٥) لمّا شكَوْا إليه حالهم، وما أصابهم من الجهد والبلاء، رقَّ لهم وأخذته الرحمة والشفقة على أبيه، وباح لهم بالسرِّ وأخبرهم بانه أخوهم يوسف.

وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن
يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ
لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ
فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

* * *

حين فرَّقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم، في حال جهلكم بقبح فعلكم؟ ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قالوا: هل أنت يوسف؟ ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ قال نعم: أنا يوسف، وهذا أخي «بنيامين» قد جمع الله بيننا بعدما فرَّقتمونا ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إنه من يتَّق ربه، ويصبر فيكفَّ نفسه عما حرَّم الله، فإن الله لا يُبطل ثواب إحسانه ﴿قَالُوا تاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ قالوا: والله لقد فضَّلك الله علينا بالعلم والحلم والفضل. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1] وما كنا في صنيعنا إلاَّ مخطئين ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ قال لهم يوسف: لا تأنيب عليكم اليوم فيما صنعتم. ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ عفا الله عن ذنبكم، وهو أرحم الراحمين بعباده. وهذا دعاءٌ من يوسف لإخوته بالمغفرة. ﴿إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ إذهبوا بهذا القميص، فألقوه على وجه أبي يعد بصيراً. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وجيئوني بجميع أهلكم ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ ولمَّا خرجت العير ـ القافلة ـ من مصر متوجهةً إلى يعقوب. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال يعقوب إني لأجد ريح ولدي يوسف، لولا أن تسفِّهون[2]. ﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قالوا: نقسم بالله إنك لفي خطئك[3] القديم، بحبك ليوسف لا تنساه ولا تَسْلاه. ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ فلما جاء المبشِّر[4] برسالة يوسف. ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ ألقى القميص على وجه يعقوب،

---

(١) قوله (لخاطئين) الخاطىء: العاصي المتعمد للإثم، والمخطىء الذي لا يتعمد الإثم، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ ولم يقل المخطئون، فتدبره فإنه دقيق.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل المعنى: لولا أن تلوموني أو تكذبوني، وأصل الفند: ذهاب العقل والخرَف.

(٣) أرادوا بقولهم ﴿في ضلالك القديم﴾ خطئك القديم بحبك يوسف، ولو أرادوا حقيقة الضلال لكفروا.

(٤) المبشِّر هو «يهوذا بن يعقوب» قال لإخوته: أنا ذهبت اليه بالقميص ملطخاً بالدم، وأنا اليوم أذهب إليه بقميصه مبشراً فأفرحه كما أحزنته.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ
وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ
ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ

* * *

فعاد مبصراً بعدما عمي. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال يعقوب لمن بحضرته: ألم أقل لكم إن الله سيردُّ عليَّ يوسف، ويجمع بيني وبينه؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قالوا يا أبانا: سل لنا ربك أن يعفو عن ذنوبنا، فلا يعاقبنا بها في القيامة. ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ مخطئين وقد اعترفنا بذنوبنا. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال: سوف أسأل لكم ربي المغفرة، قال ابن مسعود: أخَّرهم إلى السحر[1] ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الساتر لذنوب التائبين، الرحيم بالمؤمنين. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ فلما دخل يعقوب وأولاده على يوسف، ضمَّ إليه أبويه. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْر إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وقال لهم: ادخلوا بلدة مصر[2] آمنين إن شاء الله من كل مكروه. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ورفع أباه وأمه[3] على سرير المُلْك. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ وخرَّ يعقوب وأولاده وأمه ليوسف سجوداً، سجود تحية[4] لا سجود عبادة. ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقال يوسف: يا أبتِ هذا تفسير ما رأيته في منامي، حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ قد حقَّقها ربي على وجه الصحة. وكان بين الرؤيا وتأويلها أربع وأربعون سنة، وقال الحسن: أُلقي يوسفُ في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان بين فراق يوسف ليعقوب أربعون سنة، لم يفارق الحزنُ قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض يومئذ عبدٌ أحبُّ إلى اللهِ من يعقوب. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وقد أحسن الله بي في إخراجي من السجن، الذي كنت محبوساً فيه. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وفي مجيئه بكم من البادية ـ بادية فلسطين ـ قال ابن جريج: كانوا أهل بادية وماشية[5] ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوتِي﴾ من بعد أن أفسد الشيطان وأغوى بيني وبين إخوتي. ﴿إِنَّ رَبِّي

---

(١) إنما أخرهم لوقت السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب كما في الصحيح «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل»

(٢) قال لهم ذلك قبل دخولهم مصر، حين تلقَّاهم تكرمة لهم، فآوى اليه أبويه ثم قال لهم ذلك.

(٣) هذا هو الصحيح أن المراد بأبويه أباه وأمه، وقيل: خالته لأن أمه قد ماتت، وقد ردَّه ابن جرير.

(٤) كان ذلك السجود تشرفة وتكرمة ليوسف، كما سجدت الملائكة لآدم تشرفة، وكان ذلك مباحاً في شريعتهم.

(٥) أي كانوا أصحاب إبل وغنم يسكنون البادية، فعدَّ مجيئهم إلى الحاضرة من النعم الكبيرة.

هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

* * *

﴿لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطيف التدبير لما يشاء، لَطَفَ بيوسف فأخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه تحريش الشيطان. ﴿إنه هو العليمُ الحكيمُ﴾ العليمُ بمصالح خلقه، الحكيمُ في تدبيره ﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ﴾ هذا من دعاء يوسف الصدِّيق، حين اشتاق إلى لقاء ربه، وأحبَّ أن يلحق بآبائه الصالحين[١] والمعنى: يا رب قد أعطيتني من ملك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ وعلمتني تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ يا خالق السموات والأرض وبارئها. ﴿أَنْتَ وَلِيِّ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنت ناصري ومتولي أمري في دنيايَ وآخرتي﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحينَ﴾ اقبضني إليك مسلماً، وألحقني بالصالحين من أنبيائك ورسلك[٢]

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ﴾ هذا الخبر من أخبار الغيب التي لم تشاهدها[٣] يا محمد، نوحيها إليك ونعرِّفك بها. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرونَ﴾ وما كنتَ حاضراً معهم، حين أجمع إخوةُ يوسف وعزموا على إلقائه في الجبِّ. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنينَ﴾ وما أكثر المشركين من قومك، بمصدّقيك ولا متبعيك، ولو حرصت على إيمانهم ﴿وما تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولستَ تسألهم أجراً على الإيمان ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِمينَ﴾ ما هذا إلَّا عظةٌ وتذكيرٌ للعالمين. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وكم من حجة وعبرة للهِ في السموات والأرض، كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عنها مُعْرِضُونَ﴾ يعاينونها فلا يعتبرون بها ولا يُفكِّرون. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وما يؤمن أكثر هؤلاء الكفار بالله، إلَّا وهم يعبدون

---

(١) قال ابن كثير: هذا دعاء من يوسف الصدِّيق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت نعمته عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والمُلْك، سأل ربه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين.

(٢) قال ابن عباس: اشتاق إلى لقاء ربه، وأحب أن يلحق بآبائه، فدعا ربه أن يتوفاه، ولم يسأل نبي قطُّ الموت غير يوسف.

(٣) في الآيات احتجاجٌ على صحة نبوّة محمد ﷺ بإخباره بالغيوب، حيث لم يشهدها وأخبر عنها.

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ
إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا
رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

* * *

الأوثان، يُقرُّون بالله ويعبدون معه غيره، قال عطاء: يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يُشركون[١] به. **﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾** أفأمن هؤلاء المشركون أن تأتيهم عقوبة من عذاب الله تغشاهم. **﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾** أو تأتيهم القيامة فجأةً وهم لا يدرون بمجيئها، فيخلَّدون في نار جهنم. **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾** قل يا محمد هذه طريقتي ودعوتي، أدعو بها إلى الله عزَّ وجلَّ، على يقينٍ وحجةٍ واضحة. **﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾** أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من صدَّقني واتبعني وآمن بي. **﴿وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** وأقول تنزيهاً وتعظيماً لربي «سبحان الله» أن يكون له شريك في ملكه، وأنا بريءٌ من أهل الشرك، ولستُ منهم وليسوا مني. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ـ لا نساءً ولا ملائكة ـ أوحينا إليهم آياتنا، من أهل المدن دون أهل البوادي[٢]. **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** أفلم يسافر هؤلاء المشركون، المكذبون لرسالتك، فينظروا في آثار الأقوام المهلكين، ماذا حلَّ بهم من العقوبة، فيعتبروا ويتفكروا؟ **﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾** وللآخرةُ خيرٌ للذين اتقوا ربهم، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** أفلا تعقلون الحقيقة؟ **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾** حتى إذا يئس الرسلُ من إيمان قومهم **﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبوا﴾** وظنَّ الأقوام أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم[٣]. **﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾** جاء نصرنا لرسلنا وأتباعهم، فنجينا من نشاء من عبادنا المؤمنين. **﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾** ولا تُردُّ عقوبتنا وعذابنا عن القوم الذين

---

(١) كان المشركون في تلبيتهم يقولون: «لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

(٢) لم يبعث الله رسولاً من أهل البادية لجفائهم، لأنهم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً.

(٣) هكذا فسره الطبري فأعادا الضمير إلى الأقوام، والراجح أن الضمير يعود الى الرسل، ويصبح المعنى: وأيقن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم، ولم يعدلهم أملٌ بإيمانهم، جاءهم النصر والفرج، ففي الآية إشارة إلى أن الفرج يأتي بعد الضيق والشدة والله أعلم.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

* * *

أجرموا، فكفروا بالله وخالفوا رسله. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لقد كان في قصة يوسف وإخوته، عبرةٌ وعظة لأهل العقول يتّعظون بها. ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى﴾ ما كان هذا القرآن حديثاً يُختلق ويُكذب. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بين يَدَيْهِ﴾ ولكنه تصديق كتب الله التي قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، يشهد لها ويُصدِّقها. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفيه تفصيل كل ما يحتاج العباد إليه، من حلال وحرام، وأمرٍ ونهي. ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهدىً ورشاد لمن جهل سبيل الحق، ! ورحمة لمن آمن به وعملَ بما فيه، من وعدٍ ووعيد، وأمرٍ ونهي، لقومٍ يُصدِّقون بالقرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

* * *

﴿الٓمٓر﴾ بينَّا القول في حروف المعجم بما فيه الكفاية[1] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكتابِ﴾ هذه آيات الكتاب الذي أنزلتُه إليك. ﴿والَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وهذا القرآن هو الحقُّ، فاعمل بما فيه واعتصمْ به. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ولكنَّ مشركي قومك لا يُصدِّقون بهذا القرآن ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الله هو الذي رفع السموات السبع بغير عَمَد، ترونها كذلك بغير أعمدة، وجعلها للأرض سقفاً. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ ثم علا على العرش[2]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وذلَّل الشمس والقمر، يجريان في السماء لمصالح الخلق ومنافعهم، لوقت فناء الدنيا. ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يقضي أمور الدنيا وحده، بلا ظهير ولا معين. ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يُبيِّن لكم آيات كتابه ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لتوقنوا بلقاء الله ووحدانيته، وتصدّقوا بوعده ووعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾ والله سبحانه بسط الأرض طولاً وعرضاً، وجعل فيها جبالاً ثابتة وأنهاراً من ماء. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فيها زوجين اثنين﴾ وجعل فيها نوعين[3] اثنين من كل

(١) قدمنا في أول سورة البقرة أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن

(٢) علا على العرش علواً يليق بجلاله، من غير تجسيم ولا تشبيه ولا تعطيل، والحقُّ أن نؤمن بما أخبر به القرآن، من غير تكييف ولا تشبيه كما قال الإمام مالك رحمه الله: الإستواء معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب

(٣) المراد أنه خلق من كل الثمرات صنفين من الثمر: كالأسود والأبيض، والحلو والحامض، وقيل المرادُ بالزوجين الذكر والأنثى

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ

* * *

الثمرات. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ يجلّل الليلَ النهار فيُلبسه ظلمته ويجلّل النهارَ الليل بضيائه. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفكَّرُونَ﴾ إن في عجائب خلق الله وعظيم قدرته، لدلالات وعظات لقومٍ يتفكرون فيعتبرون، ويعلمون أن القدرة التي أبدعت ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّر عليها إحياء من هلك وإعادة من فني ﴿وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ﴾ وفي الأرض قِطَع متقاربات، وتختلف بالجودة والرداءة، فمنها سَبْخة لا تنبت شيئاً، بجوار قطعة طيبة تنبت وتنفع[1] قال ابن عباس: يعني الأرض السبخة، والأرض العذبة وهما متجاورتان. ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وفي الأرض - مع اختلافها بالملوحة والعذوبة، والخبيث والطيِّب، وتجاورها وتقاربها - بساتينُ من أعنابٍ، وفيها أيضاً زرعٌ ونخيلٌ مجتمعٌ ومفترقٌ، منه ما هو صِنْوَان - وهو النخلتان أو النخلات أصلها واحد - وغير صنوان وهي النخلة الواحدة قال ابن عباس: عنى بالصِّنوان النخلة يخرج من أصلها النخلات، فأصلها واحد ورءوسُها متفرقة، وغير صنوان النخيلُ المتفرّق فرداً فرداً ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ يُسقى الزرعُ والنخيلُ والأعناب بماءٍ واحدٍ عذب، ونخالف بين طعومها، فهذا حلوٌ وهذا حامضٌ[2]. قال ابن جبير الأرضُ الواحدة يكون فيها الخوخ والكمّثر، والعنب الأبيض والأسود، بعضه حلو وبعضه حامض، وبعضُه أفضل من بعض. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في اختلاف هذه الثمار والجنات، لدليلاً واضحاً وعبرة ظاهرة لقوم يعقلون قدرة الله ﴿وَإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئِذَا كُنَّا تُراباً أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جديدٍ﴾ وإن تعجب يا محمد من هؤلاء المشركين، الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، فاعجب من قولهم: أئـذا عُدمنا وبلينا، هل سنعود خلقاً جديداً كما كنا قبل وفاتنا؟ تكذيباً بقدرة الله، وجحوداً للثواب والعقاب ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هؤلاء المنكِرون للبعث، هم الذين جحدوا قدرة ربهم ﴿وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ في أَعْنَاقِهِمْ﴾ وهم الذين في

(١) في هذه الآيات الدلائل والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، فإن الصنعة تدل على الصّانع

(٢) هذا أعظم برهان على قدرة الرحمن جل وعلا، فإن الماء واحد، والأرض واحدة، والأشجار متقاربة، فهذه ثمرةٌ حلوة، وهذه مُرّة، وتلك بيضاء، وأخرى حمراء أو سوداء، فاختلاف المذاق والأشكال والألوان، مع اتفاق الماء الذي تسقى به دليلٌ على القدرة الباهرة.

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

* * *

أعناقهم الأغلال يوم القيامة ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ وهم سكان النار ، ماكثون فيها أبداً ، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قبل الحسنَةِ﴾ ويستعجلك المشركون بالبلاء والعقوبة ، قبل الرخاء والعافية[(١)] ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ وقد مضت عقوبات من قبلهم ، من الأمم التي عصت ربها وكذّبت رسلها ، وما حلَّ بهم من عظيم بلائه[(٢)] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ على ظُلْمِهِم﴾ وإن ربك يا محمد لذو ستر وصفح ، على ذنوب من تاب من الناس ﴿وَإِنَّ ربك لشديد العقَابِ﴾ لمن هلك مصراً على معاصيه[(٣)] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول الكافرون من قومك : هلَّا أُنزل على محمد حجةٌ وعلامة تدل على نبوته !! ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ما أنت يا محمد إلا منذر ، تنذرهم بأس الله ، ولكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرحَامُ وما تَزْدَادُ﴾الله يعلم ما تحمل كلُّ أُنثى من خلق الله أذكرٌ هو أم أنثى ، وما تنقصه الأرحام من حملها في الأشهر التسعة ، وما تزداد على الأشهر التسعة[(٤)] ﴿وَكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وكل شيء عند الله تعالى بقدرٍ محدَّد، لا يجاوزه ولا يقصر عنه. ﴿عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ عالم ما خفي عن الأبصار ، وما تشاهدونه ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الكبير الذي كل شيء دونه ، المستعلي على كل شيء بقدرته. ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يتساوى عند الله من أخفى القول منكم ، ومن جهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ ومن هو مستخفٍ بمعصية الله في ظلمة الليل ، وظاهر بالنهار في ضوئه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، قال مجاهد : السرُّ والجهر عنده سواء ،

(١) طلب كفار مكة العذاب على وجه الاستخفاف فقالوا «أمطرْ علينا حجارة من السماء» وهذا من سفههم وطغيانهم

(٢) فمنهم من أُهلك بالرجفة، وبالخسف، وبالمسخ، وغير ذلك من عقوبات الله

(٣) قال الطبري : وهذا الكلام ظاهره خبرٌ، وحقيقته وعيدٌ وتهديد للمشركين إن لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم .

(٤) الظاهر أن المراد بالغيض السِّقط والولادة لأقل من تسعة أشهر، والزيادة إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس .

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ
لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾

* * *

والمستخفي في بيته، والخارجُ بالنهار عنده سواء. ﴿له مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ للإنسان حرسٌ من الملائكة، يتعاقبونه[1] من أمامه ومن وراء ظهره. ﴿يَحْفَظُونَهُ من أمر اللَّهِ﴾ يحفظونه بأمر الله، قال ابن عباس: مع الإنسان ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء القَدَر تخلَّوْا عنه[2] ﴿إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يُزيل ما بقوم من عافيةٍ ونعمة، حتَّى يَغيِّروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض، فتحلُّ بهم عقوبةُ الله ﴿وَإذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَومٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ وإذا أراد الله بقومٍ خزياً وهلاكاً، فلا يقدر على ردّ ذلك عنهم أحد غير الله. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وليس لهؤلاء القوم من يليهم، ويلي أمرهم غير الله تعالى.. أخبر تعالى أن حرسه لا يغني عنه شيئاً إذا جاء أمر الله. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمعاً﴾ الله جلّ ثناؤه هو الذي يُري عباده البرق، خوفاً للمسافر من أذاه[3]، وطمعاً للمقيم في منفعته بالمطر. ﴿وَيُنْشِيءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ويُبدىء ويُثير السُّحب المثقلة بالماء. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ ويُمجِّد ويعظِّم الرعد ربه، وينزِّهه عن صفات النَّقص، وتسبِّح الملائكة ربها من خيفته ورهبته. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويُرسل الصواعق المحرقة، فينتقم بها ممن يشاء. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ في اللَّهِ﴾ وهؤلاء الكفار يخاصمون[4] في الله عزَّ وجل وفي صفاته ﴿وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾ والله جلَّ وعلا شديد العقوبة والقوة، وشديد الأخذ لمن طغى وتمادى في كفره ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لله جلَّ وعلا دعوة التوحيد «لا إلـه إلا الله» وهي دعوة الحقّ ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ والآلهة التي يدعوها المشركون أرباباً من دون الله، لا تجيب من دعاها، ولا تنفع في جلب نفع، أو دفع ضُرٍّ. ﴿إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى

---

(١) وفي الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر..» الحديث أخرجه الشيخان
(٢) وهؤلاء الملائكة للإنسان كالحرس للسلطان، يحفظونه بتكليف الله تعالى، فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه.
(٣) الخوف من البرق يكون من الصواعق والأمور الهائلة، ولهذا كان ﷺ إذا سمع الرعد قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»والطمع يكون في المطر الذي معه
(٤) روي أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى شخص من فراعنة العرب، فقال: اذهب فادعه لي، فذهب إليه فقال له يدعوك رسول الله ﷺ فقال: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة أم من نحاس؟. الحديث. وانظر كتابنا صفوة التفاسير ٧٦/٢

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

* * *

الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ لا تنفعه إلا كما ينفع الرجل العطشان ، يَمدُّ يده إلى البئر ، ويدعوه بلسانه ويُشير إليه بيده ليرتفع الماء إلى فمه فلا يصل إليه وهذا مثلٌ ضربه الله لمن يدعو من دونه آلهة لا تضر ولا تنفع . **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** وما دعاءُ الكافرين بالله ، إلَّا في غير استقامة ولا هُدى **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾** ولله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام ، ومن في الأرض، المؤمنون طوعاً، والكافرون يسجدون للّهِ كَرْهاً[1] **﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾** وتسجد أيضاً ظلالُهم[2] في أول النهار وآخره[3] **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السمواتِ والأرضِ ومنشئُها ومدبِّرُها ؟ قل لهم : الله الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادة إلَّا له **﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِم نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾** قل لهم أعبدتم من دون الله خالق السموات والأرض آلهة ، لا تضر ولا تنفع ، وتركتم عبادة من بيده النفع والضُرُّ، والحياة والموت ؟ ثم ضرب تعالى لهم مثلاً فقال: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾** قل لهم هل يستوي الكافر الذي لا يُبصر الرُّشْد، والمؤمن الذي يبصر الحقَّ فيتَّبعه ؟ أم هل يستوي الكفر والإيمان ، والهدى والضلالة ؟ **قال مجاهد** :أما الأعمى والبصير فالكافرُ والمؤمن، وأما الظلمات والنور فالهدى والضلالة **﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾** هل خلقت الأوثان كخلق الله ، حتى اشتبه عليكم أمرها ، فجعلتموها شركاء مع الله من أجل ذلك[4] ؟ **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ قل لهم** الله خالقكم وخالق كل شيء، وهو

---

(١) المؤمن يسجد طائعاً باختياره ، والكافر يسجد لله مكرهاً وقت الضيق والشدَّة فإنه يلجأ إلى الله ويعترف بوجوده ، عندما تدهمه كارثة أو تصيبه حادثة كما قال تعالى ﴿وإذا غشيهم موجٌ كالظلل دعوا اللهَ مخلصين له الدين ﴾ الآية

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه ، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ، وظلالهم كذلك تسجد بالغدوِّ أي البكور ، والآصال وهو آخر النهار

(٣) وقيل إن سجود الأشخاص وظلالها هو انقيادها للتصرف بمشيئة الله سبحانه وتعالى

(٤) في هذا سخرية وتهكم بالمشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام، وهو من قبيل الأسلوب «التهكمي اللاذع» الذي يزيد الكلام جمالاً وبياناً، فإنه لا يشكل على ذي عقل أن الله خالق كل شيء، وأن الأصنام لا تسمع ولا تنفع فكيف تخلق وتبدع ؟ ﴿هذا خَلْقُ الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾؟

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

* * *

الفرد الذي لا ثاني له ، القهَّار الذي لا يقهره شيء ، لا الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ثم ضرب تعالى مثلاً للحقِ والباطل ، والإيمان والكفر فقال **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾** مثل الحقّ في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثل ماءٍ أنزله الله من السماء إلى الإرض ، فاحتملته الأودية بملئها ، الكبيرُ بكبره ، والصغيرُ بصغره[١] **﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابياً﴾** فحمل السيل الذي حدث من الماء ، زبداً عالياً منتفخاً فوق ذلك السيل فهذا مَثَل الحقِّ والباطل ، فالحقُّ هو الماء الباقي ، والزَّبَدَ الذي لا يُنتفع به هو الباطل ، ثم ذكر تعالى مثلاً آخر فقال **﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّار ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾** ومَثَلٌ آخر للحق والباطل ، مثل فضةٍ أو ذهبٍ ، يُوقد الناس عليها في النار ، طلب حليةٍ يتخذونها ، أو متاع ينتفع به ، زبدٌ مثل زَبَد السيل ، لا ينتفع به ويذهب باطلاً **﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والْبَاطِلَ﴾** كذلِكَ يُمثّل اللَّهُ للحقّ والباطل **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾** فَأَمَّا الزَّبَدُ الذي علا السيل ، والذهب والفضة ، والنحاس والرصاص ، فيذهب متلاشياً لا يبقى منه شيءٌ ، بدفع الرياح وقذف الماء **﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاس فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ﴾** وأما ما ينفع الناس من الماء ، والذهب ، والفضة ، والنحاس ، فيمكث في الأرض لمنفعة النَّاس **﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾** كما مثَّل هذا المثل للإيمان والكفر ، كذلك يبيِّن اللَّهُ الأمثال **﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى﴾** للذين أطاعوا الله ورسوله[٢] ، وصدَّقوا ما جاءهم به من عند الله ، فإنَّ لهم الجنة **﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾** والذين لم يطيعوا الله ورسوله **﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا في الأَرْض جَمِيعاً ومثْله مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾** لو كان لهم ملك الأرض جميعاً ، ومثله معه ، لافتدوا به أنفسهم من عذاب الله ، ولكنْ لا يُتقبَّل منهم **﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسَابِ﴾** بأن يأخذهم الله بذنوبهم كلها ، ويعذبهم على جيعها[٣]. **﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْس المِهَادُ﴾**

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله للحقّ وأهله، والباطل وحزبه ، فمثَّل للحقّ وأهله بالماء النازل من السماء ، فتسيل به الأودية، وينتفع به أهل الأرض، ومثَّل للحق أيضاً بالذهب والفضة والحديد والنّحاس ، وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبَّه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله ، بالزبد الذي يقذف به السيل، وبالخبث الذي يطفو فوق المعادن إذا أذيبت، وليس في الزبد منفعة وليس له دوام لأنه غثاء، كذلك مثل الباطل مع الحقّ

(٢) الذين استجابوا لربهم هم المؤمنون ، والذين لم يستجيبوا له هم الكافرون .

(٣) قال ابن كثير :﴿سوء الحساب﴾ أي يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذِّب .

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ
عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

* * *

ومسكنهم يوم القيامة جهنم ، وبئس الفراش نار جهنم ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾ هل الذي يعلم أنَّ ما أنزله الله عليك يا محمد حقٌّ ،فيؤمن به ويعمل بما فيه، كالذي هو أعمى عن الخير فلا يُبصره[1] ؟ ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله أهل العقول ثم نبَّه إلى أوصافهم الحميدة فقال ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ**﴾ الذين يوفون بوصية الله ، ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله عليه ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ**﴾ والذين يصلون الرحم فلا يقطعونها ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ**﴾ ويخافون الله ويحذرون مناقشته لهم في الحساب ، فهم لرهبتهم جادُّون في طاعته ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ صبروا على الوفاء بعهد الله ، طلب تعظيم الله ومرضاته ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾ وأدَّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها بحدودها ﴿**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً**﴾ وأدَّوا زكاة أموالهم في الخفاء والعلانية ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾ ويدفعون إساءة من أساء بـالإحسان إليهم[2] ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ هؤلاء المتصفون بالصفات الحسنة ، لهم دار الجنان على طاعتهم ربهم ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**﴾ جنات إقامة يدخلونها ، هم ونساؤ هم وأهلوهم وذُرِّياتهم ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ**﴾ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبوابها يقـولون: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ سلامٌ عليكم بما صبرتم على طاعة ربكم في الدنيا ﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ نعمت الجنة داراً للأبرار بدل النار ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ والَّذين ينقضون عهد الله ، من بعد ما عاهدوه على الطاعة ﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها ﴿**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾ بالعمل بمعاصي الله ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ الطرد من رحمته ﴿**وَلَهُم سُوءُ**

(١) قيل إن الآية نزلت في « حمزة » عم الرسول ، و « أبي جهل » لعنه الله ، وهي على العموم

(٢) إذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً وصفحاً وعفواً .« مختصر ابن كثير ٢ / ٢٧٩ » .

سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ
مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ
ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ
قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

* * *

﴿الدَّار﴾ ولهم ما يسوءهم في الآخرة **﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** الله يوسع الرزق على من يشاء من خلقه ، ويُضيِّق الرزق على من يشاء حسب المصلحة **﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** وفرحوا بما بُسط لهم من الدنيا على كفرهم[1] ، وجهلوا ما عند الله لأهل طاعته من الكرامة والنعيم **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾** وليس ما بُسط لهم من الرزق ورغد العيش في الدنيا ، إلا قليلٌ وشيء حقير بالنسبة للآخرة **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** ويقول مشركو مكة هلاَّ أُنزل على محمد مَلكٌ أو كنزٌ ؟ **﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾** قل لهم إن الهداية والإضلال بيد الله ، يُضلُّ من يشاء عن الإيمان ، ويهدي من أناب فرجع إلى طاعة الله ، وليس الضلال والهداية بإرسال آية **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** الذين آمنوا وتسكن قلوبهم ، وتستأنس بذكر الله **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** ألا بذكره تعالى تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين **﴿الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات طوبى لهم﴾** فرحٌ وقرةُ عين لهم ، ونعم مالهم ، وقيل « طوبى » اسم شجرة في الجنة **﴿وَحُسْنُ مَآب﴾** وحسن منقلب **﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾** هكذا أرسلناك يا محمد إلى جماعة من الناس ، قد مضت من قبلها جماعاتٌ من الأمم **﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** لتبلِّغهم ما أرسلتك به من وحي. **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرحْمن﴾** وهم يجحدون بوحدانية الله **﴿قُلْ هُو رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** قل لهم اللهُ ربِّي ، لا معبود بحقٍ سواه **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** عليه اعتمدتُ ، وإليه مرجعي وأوبتي **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾** ولو أن قرآناً سوى هذا القران ، سيرت به الجبال[2] عن أماكنها ، أو قُطِّعت به الأرض فكانت

(١) إخبارٌ في ضمنه ذمٌ وتسفيه لمن فرح بالدنيا واغترَّ ببهرجها الخادع ، ولذلك حقَّرها بقوله ﴿وما الحياةُ الدنيا في الآخرة إلَّا متاع﴾.

(٢) قال المشركون للنبي ﷺ إن كنت صادقاً فسيِّر عنا هذه الجبال ، واجعل بلادنا سهولاً كأرض مصر والشام ، وابعث لنا موتانا حتى يخبرونا عما جرى لهم ، فنزلت الآية

أَن لَّوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

***

سهولاً ، أو قام به الناسُ من قبورهم فتكلموا ، لكان هذا القرآن[١] ، ولو فُعِل بقرآنٍ قبل هذا لفُعل بهذا القرآن ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ أفلم يتبيَّن ويعلم[٢] المؤمنون أن الأمر كله بيد الله ، يهدي من يشاء فيوفقه ، ويُضلُّ من يشاء فيخذله ؟ وأنه لو شاء لهدى أهل الأرض جميعاً ؟ ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ولا يزال كفار قريش ، يصيبهم البلاء والعذاب والنِّقم ، بالقتل أحياناً ، والقحط أحياناً ، بكفرهم وتكذيبهم ، وإخراجهم لك من بين أظهرهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ أو تنزل أنت يا محمد[٣] ، بجيشك وأصحابك قريباً من دارهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ حتى يأتي فتح مكة الذي وعدك الله به ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعادَ﴾ لا يخلف وعده ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولقد استهزأ أقوام من قبلك برسلهم ، وسخروا منهم ، كما استهزأ هؤلاء المشركون بك يا محمد ، فاصبر على أذاهم ﴿فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتم﴾ فأمهلتهم ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي ، حين تمادوا في الغيِّ والضلال ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكيف كان عقابي لهم ؟ ألم أذقهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولي الألباب ؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هل الربُّ الدائم الذي لا يهلك ، القائم بحفظ أرزاق جميع الخلق ، العالم بما يكسبونه من الأعمال ، كمن هو هالك[٤] بائد ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يدفع عن نفسه ، ولا عن عابده ضُرّاً ؟ هل كلاهما سواءٌ ؟ ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وجعلوا للّهِ شركاء من خلقه ، قل لهم سمُّوا هؤلاء الذين أشركتموهم مع الله !! فإن قالوا آلهة ، فقد كذبوا لأنه لا إلّه إلّا الواحد القهّار ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ أم تخبرونه بأن في الأرض إلَهاً ، ولا إلَهَ غيرُه ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ القَوْلِ﴾ أم بظاهرٍ من القول مسموع ، وهو في الحقيقة[٥] باطل ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ ولكنْ زيِّن للمشركين كذبهُم

---

(١) جوابُ « لو » محذوف تقديره كما ذكره الطبري « لكان هذا القرآن » وقيل جوابه لم يؤمنوا

(٢) هكذا فسّره الطبري، وقيل: المعنى أفلم ييأس المؤمنون من إيمان الكافرين، ويعلموا أن الهداية والإضلال بيد الله وحده ؟ ! وهذا أرجح

(٣) وقيل الضميرُ يعود على القارعة والمعنى اما أن تصيبهم القارعة أو تقرب منهم ، وهو الأظهر

(٤) أشار الطبري إلى أن الجواب محذوف اكتفاءً بعلم السامع ، والمعنى هل من هو قائم على كل نفس ،حفيظ رقيب على كل أحد ، أحقُّ أن يعبد أم هذه الشركاء ؟ ويدل على ذلك قوله ﴿وجعلوا لله شركاء﴾

(٥) المراد أتسمونهم شركاء بظاهر اللفظ من غير أن يكون له حقيقة ؟

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا
عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

* * *

وافتراؤهم على الله ﴿وَصُدُّوا عن السَّبِيل﴾ وصُدُّوا عن طريق الإيمان والهدى بكفرهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن أضلَّه الله عن الحق والهدى ، فليس له أحد يهديه ﴿لهم عَذَابٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهؤلاء الكفار عذابٌ في الدنيا بالقتل والأسر ﴿ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ولعذابهم في الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا ﴿وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وليس لهم حميمٌ ولا نصيرٌ ، يقيهم من عذاب الله ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفةُ الجنة التي وعد بها المتقون ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾ أنها تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّها﴾ ما يؤكل فيها من الثمراتِ دائم لا ينقطع ، وظلُّها أيضاً دائمٌ لا ينقَطع ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ هذه عاقبة الذين اتقوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وعُقبى الكافرينَ النَّارُ﴾ وعاقبة الكافرين بالله نارُ جهنم ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيك﴾ والذين أنـزلنا إليهم الكتاب ، ممن آمن بك واتَّبعك[1] ، يفرحون بكتاب الله المنزل عليك يا محمد ﴿ومِنَ الأَحْزَابِ مِنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ ومن أهل الملل ـ اليهود والنصارى ـ من ينكر بعض القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا أشرِكَ به﴾ قل لهم يا محمد إنما أمرني ربي أن أعبده وحده دون ما سواه ، ولا أجعل له شريكاً من الآلهة والأصنام ﴿إليه أدعُوا وَإِلَيْهِ مَآب﴾ إلى عبادته أدعو الناس ، وإليه مصيري ومرجعي ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً﴾ وكذلك أنزلنا الكتاب حكماً عربياً على نبيٍّ عربي ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ ولئن سايرتهم على أهوائهم وآثرت رضاهم ومحبتهم ، وانتقلت إلى دينهم ، بعد الحق الذي جاءك من الله ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ليس لك من يقيك من عذاب الله ، ولا من ينصرك إن هو عاقبك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) هذا قول قتادة أنهم أصحاب رسول الله الذين آمنوا به واتبعوه ، واختاره الطبري ، وقيل : هم من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام والنجاشي ، وهو قول ابن زيد ، وهو الأظهر لأن المتبادر عند إطلاق «أهل الكتاب» انهم اليهود والنصارى

يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ

* * *

﴿وَجَعَلْنَا لهم أزواجاً وَذُرِّيَّةً﴾[1] ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً إلى أممهم ، فجعلناهم بشراً مثلك ، لهم أزواجٌ ينكحون وينسلون ، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما كان لرسول أن يأتي بآيةٍ ـ معجزة ـ كتسيير الجبال ، وإحياء الموتى ، إلا بأمر الله له بذلك ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل أمر قضاه الله كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ ﴿يَمْحُو الله ما يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ يمحو الله من أمور عباده ما يشاء فيغيّره ، ويُثبت ما يشاء فلا يمحوه ولا يُغيّره[1] ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ وعنده أصل الكتاب وجملتُه ، وهو اللوح المحفوظ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وإن أريناك يا محمد بعض العقاب الذي وعدناهم به ، أو قبضناك قبل أن نريك ذلك ﴿فإنَّما عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾ فإنما عليك تبليغهم رسالة ربك ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أولم ير المشركون أنا نفتح للمسلمين أرض الكفار ، أرضاً بعد أرض ، حتى يقهروا أهلها ، أفلا يعتبرون بذلك ويتعظون ؟ ﴿واللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّب لحكمه﴾ واللَّهُ يحكم ويقضي ، لا رادَّ لحكمه ﴿وَهُوَ سرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يُحصي الأعمال لا يخفى عليه منها شيءٌ ﴿وَقَدْ مَكَر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهَمْ فَللَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ وقد مكر الأمم قبل هؤلاء المشركين بأنبياء الله ورسله ، فللَّه أسباب المكر كلها ، لا يضر مكرهم أحداً إلا إذا أراد الله ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ﴾ يعلم جميع أعمال الخلق ، وما يسعى إليه المشركون من المكر بك ﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ﴾ وسيعلم الكفار ـ إذا قدموا على ربهم ـ لمن تكون له العاقبةُ الحسنة ﴿وَيقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ ويقول كفار مكة من قومك : لست يا محمد مرسلاً من عند

---

(١) هذا ردٌّ على المشركين الذين اعترضوا على الرسول ﷺ وقالوا : ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾؟ فأخبره تعالى أنه ليس ببدع في ذلك ، بل هو كبقية الرسل

(٢) اختلف المفسرون في معنى « المحو والإثبات » اختلافاً كبيراً ، فقيل : يمحو ما يشاء من الأحكام ويثبت ما يشاء منها ، وقيل : يمحو ما يشاء من أمور العباد إلا الشقاوة والسعادة ، والأجل والموت ، فقد فُرِغ منها ، وقيل : إنه يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد ، فقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه واجعله سعادة ومغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . ويظهر لي والله أعلم ـ أن المحو والإثبات عامٌ ولكن من صحف الملائكة ، فيمحو ما يشاء فيها ويثبت ما يشاء ، وعنده اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ، وفيه علمه الذي لا يتغير .

وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

***

الله ﴿قُلْ كَفَى باللهِ شَهيداً بيني وبينكم﴾ قل لهم حسبي أن يكون ربي ، شاهداً بيني وبينكم على صدق رسالتي . ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ومن عنده علم الكتاب شاهداً بصدقي أيضاً ، كعبد الله بن سلام ومن أسلم من اليهود والنصارى ، الذين يجدون نعت محمد ﷺ في كتبهم ، قال ابن عباس : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى(١)

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد »

***

(١) أمر الله رسوله ﷺ أن يستشهد على صحة نبوته ، بشهادة الله تعالى له بذلك ، بما أظهره على يديه من المعجزات وخوارق العادات ، وبعلماء اليهود والنصارى ممن أسلموا بعد رؤية الحق ، كعبد الله بن سلام وأصحابه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

***

﴿الَر﴾ مضى تفسيره[1] **﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾** هذا القرآن أنزلناه إليك يا محمد. **﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾** لتخرج الناس من ظلمات الضلال والكفر، إلى نور الإيمان وضيائه. **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** بتوفيق ربهم ولطفه. **﴿إِلَى صِرَاطِ الْعزيزِ الْحَمِيدِ﴾** إلى طريق الله المستقيم، وهو دين الإسلام. **﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا في السَّمواتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾** تدعوهم الى عبادة الله الذي له ملكُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وأن يتركوا عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، من الآلهة والأوثان. **﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾** وويلٌ لمن جحد وحدانية الله وعَبَدَ غيره، من عذاب الله الشديد. **﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾** يختارون الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، على الآخرة وما يُقربهم من رضى الله. **﴿وَيَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللَّهِ﴾** ويمنعون من أراد الإيمان، عن دين الله الذي ابتعث به رسوله. **﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾** ويلتمسون لدين الله، التحريف والتبديل بالكذب والزور. **﴿أُوْلَئِكَ في ضَلَالٍ بَعيدٍ﴾** هؤلاء الكفار في ذهاب عن الحق بعيد. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾** وما أرسلنا رسولاً إلاّ بلغة قومه **﴿لِيُبَيِّنَ لهم﴾** ليفهمهم أمر الله ونهيه، لتقوم عليهم الحجة. **﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ**

(١) قد وضّحنا فيما سبق، أن الحروف المقطّعة للتنبيه على «إعجاز القرآن» وأنَّ هذا الكلام الذي أفحم العلماء، والفصحاء، والبلغاء، منظومٌ من أمثال هذه الحروف، وهو قول المحققين من أئمة التفسير.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

***

﴿يَشَاءُ﴾ ثم التوفيق والخذلان بيد الرحمن، فيخذل من شاء منهم، ويوفّق من شاء منهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيزُ في مُلْكه، الحكيمُ في صُنْعه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسى بِآيَاتِنَا﴾ أرسلناه بأدلتنا وحججنا الباهرة، وهي الآياتُ التسع. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أخرج قومك من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وعظهم بنعم الله عليهم، في الأيام التي خلت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن فيما ذُكر لعبراً ومواعظ، لكلصابرعلى طاعة الله، شاكر لنعمه. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اذكروا نِعمه التي أنعم بها عليكم. ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين أنجاكم من أهل فرعون ـ الأقباط ـ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يذيقونكم أشدَّ أنواع العذاب. ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وهذا العذاب[1] أنهم كانوا يذبّحون الذكور، ويبقون الإناث على قيد الحياة فيتركون قتلهنَّ ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفيما يصنع بكم آل فرعون، ابتلاءٌ واختبارٌ لكم من ربكم عظيم. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ واذكروا حين أعلم ربكم: لئن شكرتموني لأزيدنكم من نعمي. ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولئن كفرتم نعمتي وركبتم معصيتي، فإن عذابي شديد. ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ إن تجحدوا نعمة الله أنتم وأهل الأرض جميعاً. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن الله غنيٌّ عن خلقه، لا حاجة به إليهم، وهو المحمود في عباده بما أنعم به عليهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ألم يأتكم يا قوم خبر الذين من قبلكم، من الأمم الماضية، قوم نوح، وعادٍ وثمود، والذين بعد هؤلاء الأقوام. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا

---

(١) إنما أدخلت الواو في هذا الموضع ﴿ويذبّحون﴾ للتنبيه على أنهم كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع كثيرة من العذاب، ومنها التذبيح، وإذا حذفت الواو كان تفصيلاً للعذاب، فالآية هنا دلت على معنى زائد وهو تنوع العذاب وكثرته

أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا
لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

* * *

اللَّهُ﴾ لا يُحْصي عددهم، ولا يعلم مبلغهم إلا الله تعالى. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم، بالحجج الواضحات، والدلائل الظاهرات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فردُّوا أيديهم في أفواههم، وعضوا عليها غيظاً على الرسل[1] ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وقالوا لرسلهم: إنا كافرون برسالتكم وبمن أرسلكم. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ونحن في شكٍّ ممَّا تدعوننا إليه من توحيد الله، موجب للريبة والتُّهمة. ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ أفي وجود الله، وأنه المستحق للعبادة شكٌّ؟ ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق السموات والأرض. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يدعوكم إلى توحيده، ليستر عليكم بعض ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ويؤخركم إلى الوقت الذي كُتب لكم لانتهاء آجالكم. ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا.[2] ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ تريدون أن تصرفونا بقولكم هذا عن عبادة الأوثان، التي كان يعبدُها آباؤنا. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ فأتونا بحجةٍ واضحة على صحة ما تقولون. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قالت لهم الرسل: ما نحن إلا بشرٌ من بني آدم مثلكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولكنَّ الله يتفضَّل على من يشاء من خلقه، فيوفقه للحقِّ ويهديه إليه. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وليس لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان إلَّا بأمر الله. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وباللَّهِ فليثق المؤمنون. ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وما لنا لا نثق بكفاية اللَّهِ ودفاعه عنَّا، وقد بصَّرنا طريق النجاة من عذابه؟ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ولنصبرنَّ على ما نلقاه منكم من المكروه، بسبب دعائنا لكم إلى توحيد الله. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى الله

(١) هذا ما رجحه الطبري وهو مرويٌّ عن ابن مسعود، وقال بعضهم المعنى ردُّوا عليهم قولهم وكذبوهم وهو قول مجاهد
(٢) هذا استبعادٌ منهم لتفضيل بعض البشر على بعضٍ بالنبوَّة

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن
كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

* * *

فليعتمد من كان واثقاً به من خلقه. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ وقال الكافرون لرسلهم الذين دعوهم إلى توحيد الله. ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ لنطردنكم(١) من بلادنا إلاّ أن تعودوا إلى ديننا وتعبدوا الأصنام. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمينَ﴾ فأوحى الله إلى الرسل، أنه سيهلك أعداءهم الكافرين. ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ولنسكننكم ديارهم من بعد إهلاكهم. ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامي﴾ ذلك فعلي بمن خافَ مقامه بين يديَّ فاتَّقاني ﴿وَخَافَ وعيدِ﴾ وخاف سخطي وعقابي. وهذا وعدٌ من الله بنصر رسله على الكفرة، وتهديدٌ لمشركي قريش على كفرهم بالله وجراءتهم على نبيِّه، وتعريفٌ للرسول ﷺ أن عاقبته النصرُ، وعاقبة من كفر به الهلاكُ. ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ﴾ واستنصرت الرسل بربها على قومها، وهَلَكَ كلُّ متكبر حائدٍ عن الحق، لا يُقرُّ بوحدانية الله. ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ من أمام كل جبَّار جهنم يَرِدُهَا ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صديدٍ﴾ ويسقى من القيح والدم الذي يسيل منه. ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يتحسَّاه - يشربه قهراً - ولا يكاد يزدرده(٢) من شدَّة كراهته. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بميِّتٍ﴾ ويأتيه الموت من كل موضع من أعضاء جسده، ولكنه لايموتُ فيستريح، قال ابن عباس: أنواع العذاب يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، لو كان يموت لمات ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَليظٌ﴾ ومن وراء هذا العذاب، عذاب شديد أدهى منه وأمرُّ. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ مَثَلُ أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا، ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يومٍ عَاصِفٍ﴾ كمثل رمادٍ عصفت به الريح، في يوم ريحٍ شديدة، فنسفته وذهبت به، فكذلك أعمال الكفار يوم القيامة ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عند الله، لأنهم لم يكونوا يعملونها للهِ خالصاً، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ البعيد

---

(١) توعَّد الكفار الرسل، بالطرد والإخراج من الأوطان والديار، إن لم يكفُّوا عن دعوتهم، وهكذا شأن كل طاغيةٍ في كل عصر وزمان، وللدعاة أسوةٌ بالرسل الكرام.

(٢) أي يبتلعه وفي الحديث «يُقرَّب إليه فيتكرَّهه، فإذا أُدني منه شُوي وجهه ووقعت فروة رأسه» أخرجه أحمد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾
وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى
فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ

* * *

عن الهدى والاستقامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ألم تر بعين قلبك فتعلم، أن الله أنشأ السموات والأرض، بغير ظهير ولا معين(١)؟ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لو شاء لأفناكم وأتى بخلقٍ آخر مكانكم. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وليس إفناؤكم وإنشاء خلقٍ سواكم، بممتنع ومتعذّر على الله، لأنه القادر على ما يشاء.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ وظهر هؤلاء الكفار أمام الله يوم القيامة كلهم ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ فقال الأتباع للمتبوعين، الذين استكبروا عن اتّباع الرسل: إنا كنا لكم أتباعاً، نأتمر بأمركم، وننتهي بنهيكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهل أنتم دافعون عنا من عذاب الله شيئاً؟ ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ قال القادة: لو بيَّن الله لنا ما ندفع به عنا العذاب، لبيَّنا لكم(٢) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ يستوي علينا الجزع والصبر(٣) ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ليس لنا من منجى ولا مهرب. ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وقال إبليس لما فُرِغ من الأمر، فأُدخِلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النّار(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعدكم وعد الحق بإدخال الكفار النار، فوفّى لكم بوعده. ﴿ووعدتكم فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ووعدتكم النصرة فأخلفتكم وعدي. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وما كان لي عليكم حجة تثبت صدق قولي، ولكنْ دعوتكم إلى معصية الله فاستجبتم لدعائي ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تلوموني على إجابتكم إيَّايَ ولوموا أنفسكم عليها. ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ما أنا بمغيثكم ومنجيكم من عذاب الله، ولا أنتم بمغيثيَّ من

---

(١) الآية كبرهان على إمكان البعث والمعاد، فإن الذي خلق السموات في اتساعها وعظمتها، وما فيها من الآيات الباهرة، لا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان

(٢) قال ابن عباس أي لو أرشدنا الله لأرشدناكم، يعني لو هدانا الله طريق النجاة لهديناكم إليه؛ وهذا القول أرجح والله أعلم

(٣) يريدون أن الحزن لا ينفع، والصبر لا يرفع عنهم شيئاً من العذاب

(٤) هذا إنما يكون عند استقرار أهل النار في النار، فيقوم إبليس فيهم خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وهذه هي الخطبة البتراء التي يُعلن فيها إبليس لأتباعه حقيقة الأمر، ويصدقهم فيها بأنه كان لهم مخادعاً في الدنيا ليزيدهم حسرة وألماً

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

* * *

عذابه. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ إني جاحد بإشراككم لي في الدنيا مع الله. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن الكافرين بالله لهم عذاب موجع. ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وأُدْخل المؤمنون الذين عملوا بطاعة الله، بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة. ﴿خَالِدِينَ فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ماكثين فيها أبداً بأمر الله لهم بدخولها. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلَامٌ﴾ تسلّم عليهم الملائكة في الجنة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كشجرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ألم تعلم كيف مثّل اللهُ مثلاً وشبّه شبهاً، كلمةً طيبة وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» كشجرةٍ طيِّبة الثمرة[1] ﴿أصلُها ثابتٌ وفرعها في السَّماء﴾ أصل الشجرة راسخ في الأرض، وأعلاها مرتفعٌ نحو السَّماء ﴿تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ تُطعم من ثمرها كل وقتٍ بأمر ربها ﴿ويَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاس﴾ ويُمثّل اللهُ ويُشبِّه الأشباه للنّاس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتذكروا حجة الله فيعتبروا ويتّعظوا بها. ﴿وَمَثَلُ كلمةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ومَثَل الشركِ بالله كشجرة الحَنْظل الخبيثة ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ استؤصلت من فوق الأرض ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ليس لها أصلٌ ولا ثبات، فكذلك الكافر لم يجعل الله فيه بركة ولا منفعة، ولا يصعد له عمل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ﴾ يُثبِّتُ الله المؤمنين بالإيمان في الحياة الدنيا، وفي قبورهم حين يُسألون عن التوحيد والإيمان، كما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ[2] ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوفّق الكافر والمنافق عند السؤال في القبر إلى ما وفق له

(١) هذا مثلٌ ضربه الله للإيمان والمؤمن، فالإيمان هو الشجرة الطيبة أصلها راسخ في قلب المؤمن، وفرعها في السماء وهو العمل الصالح يرفعه الله إليه ويتقبّله

(٢) في صحيح البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى﴿يثبّتُ الله الذين آمنوا...﴾الآية، قال ابن كثير: وكذا روي عن غير واحدٍ من السلف، أن تثبيتهم في الدنيا على العمل الصالح وقول «لا إله إلا الله» وفي الآخرة عند السؤال في القبر، وفي سنن أبي داود عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل».

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

* * *

المؤمن ﴿ ويَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشَاءُ ﴾ وبيده تصريف أمور خلقه ، يفعل بهم ما يشاء ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً** ﴾ ألم تنظر يا محمد إلى الذين غيَّروا نعمة الله ؟ وهم كفار قريش[1] ، أنعم الله عليهم بمحمد فكفروا به وكذبوه ﴿ **وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ** ﴾ وأنزلوا قومهم دار الهلاك ﴿ **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْس القَرَارُ** ﴾ جهنم يذوقون حرَّها ، وبئس المستقر جهنم ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾ وجعلوا لربهم شركاء عبدوهم معه ، كي يضلوا النَّاس عن دين الله ﴿ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾ قل لهم يا محمد استمتعوا في الحياة الدنيا ، فإنها سريعة الزوال ، وعمَّا قريبٍ تصيرون إلى النار ، وهو وعيدٌ وتهديد

﴿ **قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ قل لعبادي الذين صدَّقوا ما جئتهم به من عندي فلْيقيموا الصلوات المفروضة عليهم بحدودها ﴿ **وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وعَلَانِيَةً** ﴾ ولْينفقوا مما أعطيناهم من فضلنا سِرّاً وإعلاناً ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خِلالٌ** ﴾ من قبل أن يجيء يومٌ لا يقبل اللهُ فيه الفدية والعوض ، وليس هناك صداقة خليل ، فيدفع عقاب الله عمن استوجب العقوبة ، بل هناك العدلُ والقسطُ ، **قال قتادة** لينظرْ رجلٌ من يصاحب ، فإن كان للهِ فلْيداومْ ، وإن كان لغير الله فإنها ستنقطع ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ** ﴾ أنشأهما من غير شيءٍ ﴿ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ من الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لكُمْ** ﴾ وأنزل من السماء غيثاً ، أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت رزقاً لكم تأكلونه ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ** ﴾ وسخَّر لكم السفن ﴿ **لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بأَمْرِهِ** ﴾ لتسير بإذنه تعالى ، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهارَ** ﴾ وسخر لكم الأنهار ، ماؤها شرابٌ لكم ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَين** ﴾ يتعاقبان عليكم بالليل والنهار ، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ** ﴾ الليل للسكن تسكنون فيه ، والنهار لمعاشكم فالذي

(١) هذا قول ابن عباس وعطاء ورجحه الطبري

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ
ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ
مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

* * *

يستحق العبادة من هذه صفتُه، لا من لا يقدر على ضَرٍّ ولا نفع من الأوثان والآلهة ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ وأعطاكم من كل شيءٍ سألتموه ورغبتم فيه[١] ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ وإن تعدُّوا نعم الله التي أنعمها عليكم ، لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ظالمٌ لنفسه بعبادة غير الله ، جاحدٌ نعمة الله

﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمناً ﴾ اذكر يا محمد حين قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا الحرم ، بلداً آمناً أهلُه وسكانُه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ وأبْعدني وأبنائي عن عبادة الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾ إن الأصنام أضلَّت كثيراً من النَّاس عن طريق الهدى والحقِّ ، حتى عبدوها وكفروا بك ﴿ فَمَنْ تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ فمن تبعني على الإيمان وترك عبادة الأوثان ، فإنه على سنتي وطريقتي ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رحيمٌ ﴾ ومن خالف أمري ، فإنك غفور لذنوب المذنبين ، رحيم بعبادك ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتي بِوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عند بيتِكَ المحرَّم ﴾ أسكنتُ إسماعيل وأمه هاجر في مكة ، بوادٍ ليس به ماءٌ ولا زرع ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ فعلتُ ذلكَ كي يؤدوا الصلاة في بيتك المحرم ﴿ فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ فاجعل قلوب بعض خلقك تحجُّ إلى البلد الحرام[٢] ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وارزقهم من ثمرات الأشجار ، ما رزقت سكان الأرياف والأمصار ، ليشكروك على نعمك ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أنت يا رب تعلم قصدي في دعائي ، وهو رضاك والإخلاص لك ، وتعلم ما تخفي قلوبنا ، وما يظهر من أعمالنا ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ في الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ وكلُّ شيءٍ في الأرضِ

---

(١) المراد من كل ما سألتموه بلسان الحال أو المقال ، فالشمس والقمر والكواكب والأنهار خلقها لنا وإن لم نسأله إياها لحاجتنا إليها .

(٢) إنما قال﴿ أفئدةً من الناس﴾ ولو قال : « أفئدةَ النَّاس » لحجت اليهود والنصارى وفارس والروم وازدحموا عليه ، كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، ومعنى ﴿تهوي﴾ تطير وتسرع نحوهم شوقاً إليهم ، فتدبَّر أسرار القرآن

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ
وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ
غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

* * *

والسماء ظاهرٌ بادٍ لك، لأنك خالقه ومدبره، فكيف يخفى عليك؟ ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ الحمد لله الذي رزقني على كبر سنّي ولداً إسماعيلَ وإسحاق . ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ إن ربي لسميعٌ لدعائي ﴿ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** ﴾ اجعلني مؤدياً للصلاة مقيماً لحدودها ، واجعل أيضاً من ذريتي من يقيم الصلاة ﴿ **رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** ﴾ تقبَّلْ عملي وعبادتي ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ** ﴾ وهذا استغفارٌ منه لأبيه ، قبل أن يتبيَّن له أنه عدوٌ لله « فلمَّا تبيَّن له أنه عدوٌ للهِ تبرأ منه »[1] ﴿ **وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** ﴾ واغفر لمن تبعني على الدين الـذي أنا عليه ، يوم يقوم النَّاس للحساب

﴿ **ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ ولا تظنن يا محمد الله ساهياً عمَّا يعمل المشركون من قومك[2] ﴿ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** ﴾ إنما يؤخر عقابهم ، إلى يوم تشخص[3] فيه أبصار الخلق ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ** ﴾ مسرعين رافعي رءوسهم ﴿ **لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم لشدة النظر ، قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ وقلوبهم خالية ليس فيها شيء من الخير ، ولا تعقل شيئاً ﴿ **وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ** ﴾ وأنذر الناس ما هو نازل بهم ، يوم يأتيهم العذاب في القيامة ﴿ **فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾ فيقول الكفار ربنا أمهلنا إلى حدٍّ من الزمان قريب ﴿ **نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ** ﴾ نؤمن بك ، ونُصدِّق رسلك ﴿ **أَوَلَمْ تَكُـونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ** ﴾ أقسمتم أنكم لا تنتقلون من الدنيا إلى الآخرة ، وأنكم تموتون ثم لا تُبعثون ؟ وهذا تقريع من الله

---

(١) سورة التوبة آية « ١١٤ » .

(٢) الآية عامة في كل كافرٍ وظالم ، فهي وعيدٌ للظالم ، وتسليةٌ للمظلوم

(٣) شَخَصَ البصر : إذا سَكَن من شدة الهول والحيرة فلم تطرف عين الإنسان

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

* * *

﴿ وَسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وسكنتم في مساكن الذين كفروا بالله، من الأمم التي كانت قبلكم[1] ﴿ وتبيَّن لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بهم ﴾ وعلمتم كيف أهلكناهم حين تمادوا في طغيانهم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ ومثَّلنا لكم الأشباه فلم تُنيبوا ولم تتوبوا ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ وقد أشرك هؤلاء الظالمون، وافتروا على الله أعظم الفِرى ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ وعند الله علم ذلك، وهو معاقبهم عليه ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وما كان شركهم لتزول منه الجبال[2]، فما ضرُّوا بذلك إلاَّ أنفسهم ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ فلا تظننَّ أن الله مخلف رسله وعده، بإهلاك من كذَّبهم وجحد رسالتهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عزيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ غالبٌ لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، منتقمٌ من أعدائه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ و السَّموات ﴾ يوم تتبدَّل الأرض غير هذه الأرض، وتتبدَّل السمواتُ كذلك[3] ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وظهروا من قبورهم أحياء لموقف القيامة، لِلَّهِ المنفرد بالربوبية، الذي قهر كل شيءٍ وغلبَه ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ في الْأَصْفَادِ ﴾ وترى المجرمين يوم القيامة مقيَّدين بالقيود، قد قُرنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ ثيابهم التي يلبسونها من قطران[4]، وهو الذّيُّ تُطلى به الإبل ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ وتحرق وجوههم[5] النار ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ فعل الله ذلك بهم،

---

(١) المراد كما قال قتادة سكنتم في مساكن قوم نوحٍ وعاد وثمود من الأمم الطاغية، فلم تعتبروا ولم تتعظوا

(٢) أي محال أن تزول الجبال بمكرهم، وهو تمثيل لشرائع الله وآياته البيِّنات بالجبال الراسخات الثابتة على حالها أبد الدهر، فكما لا تزول الجبال بالأعاصيف، فكذلك لا يزول الإسلام بالأراجيف، وقيل المعنى: وإن كان مكرهم من القوة والتأثير بحيث يؤدي إلى زوال الجبال.

(٣) تبديل الأرض بتسيير جبالها وتفجير بحارها، حتى لا يرى فيها عوجٌ ولا أمتٌ، وتبديل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها وانشقاقها، وفي الصحيحين «يُحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراء كقرصة النقيّ، ليس فيها مَعْلم لأحد»

(٤) لا يُستغرب أن تكون الثياب من قطران، ففي عصرنا الحديث ظهرت أنواع من الملابس والأقمشة هي من مواد بترولية، فلا غرابة أن تكون ثياب أهل النار من نار كما قال تعالى: ﴿ فالذين كفروا قطِّعت لهم ثيابٌ من نار ﴾ والقطران أسود اللون منتن الريح، يحرق الجرب بحرِّه، فيجمع عليهم اللذع والحرقة والاشتعال والنتن، وروي عن ابن عباس أنه قال القطران نحاس مذاب حار قد انتهى حرُّه

(٥) خصَّ الوجه بالذكر لأنه أعز موضع وأشرفه في البدن، فعبَّر بالوجه عن الكل، وهو مجاز مشهور يسمى «المجاز المرسل»

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

* * *

جزاءً لهم بما كسبوا في الدنيا من الآثام ، كيما يُثيب كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ وشر ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ سريعٌ حسابهُ لأعمالهم ، لأنه يعلم كل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم إلى معاناة ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ هذا القرآن تذكيرٌ للناس بمواعظه وعِبَره ، وليحذروا عقاب الله ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وليعلموا أن الله واحد أحد ، لا آلهة شتّى كما يقول المشركون ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ وليتّعظ وينزجر بحججه أصحاب العقول فإنهم أهل الاعتبار ، دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام ، فهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً !!

« تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟
وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ

* * *

﴿الر﴾ تقدم بيانه(١)﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ هذه الآيات آيات الكتاب التي كانت قبل القرآن(٢). ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾وقرآن واضحٍ رُشدُه وهداه، لمن تأمله وتدبَّره ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما تمنَّى الذين جحدوا وحدانية الله، لو كانوا في دار الدنيا مسلمين(٣). قال ابن عباس: ذلك يوم القيامة يتمنى الكفار لو كانوا موحِّدين، وذلك أن ناساً من أهل «لا إله إلا الله» يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم قولكم «لا إله إلا الله» وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم منها، فعند ذلك يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ اتركهم يأكلوا في هذه الدنيا(٤)، ويتمتعوا من لذَّاتها وشهواتها ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ ويشغلهم الأمل عن التزود لمعادهم، والأخذ بحظِّهم من طاعة الله. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فسوف يعلمون حين يعاينون عذاب الله ـ أنهم كانوا في تمتعهم باللذات والشهوات في خسار وتباب ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وما أهلكنا من أهل قريةٍ من القرى التي أهلكناها ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ إلا ولها أجل موقَّتٌ لإهلاكها(٥). ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ

---

(١) أسلفنا بيان أرجح الأقوال في الحروف المقطعة، وأنها للتنبيه على إعجاز القرآن

(٢) هذا قول قتادة ومجاهد ولم يذكر الطبري غيره، ورجح غيره من المفسرين أن الكتاب والقرآن المبين شيء واحد، وهو الكتاب الذي وعد الله محمداً ﷺ والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل الذي أنزل عليك يا محمد، وهو الأظهر.

(٣) قال ابن كثير والآية إخبار عنهم، أنهم سيندمون علىَ ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين

(٤) الآية وردت بأسلوب الوعيد والتهديد، وفيها تنبيه على أن إيثار التلذذ والتمتع ليس من صفات المؤمنين

(٥) كقوله تعالى﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ سورة الكهف آية ٥٩.

مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

* * *

أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل أجلها ولا يتأخر[١]. **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾** وقال المشركون يا أيها الذي نُزِّل عليه القرآن[٢]. **﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** في دعائك إيَّانا إلى اتباعك. **﴿لَوْ ما تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾** هلَّا تأتينا بالملائكة شاهدة على صدقك، وآيةً على نبوتك !! **﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** إن كنت صادقاً في أنَّ الله بعثك إلينا رسولاً **﴿مَا نُنَزِّلُ الْملاَئكةَ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾** ما ننزّل ملائكتنا إلا بالرسالة إلى رسلنا ، وبالعذاب لمن أردنا تعذيبه. **﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِين﴾** ولو أرسلنا إليهم ما طلبوا ثم كفروا ، لم نمهلهم ولم نؤخرهم ، بل عاجلناهم بالعذاب ، كما فعلنا بمن قبلهم من الأمم **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾** نزلنا القرآن **﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** وإنا لحافظون له من الزيادة والنقصان، والتغيير والتبديل[٣]. **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾** ولقد أرسلنا قبلك رسلاً في أمم الأولين **﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** وما يأتيهم رسولٌ من الله ، يدعوهم إلى توحيده وطاعته ، إلا كانوا يسخرون بالرسول، عتواً وتمرداً **﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُه فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾** كما سلكنا[٤] الكفر والاستهزاء بالرسل في قلوب الأولين، كذلك نفعل في قلوب مشركي قومك المجرمين **﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** لا يُصدّقون بالقرآن المنزل عليك **﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين﴾** وقد مضت طريقة أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله **﴿ولو فَتَحنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾** ولو فتحنا على هؤلاء المشركين باباً من السَّماء. **﴿فَظَلُّوا فيه يَعْرُجُونَ﴾** فظلُّوا يصعدون فيه ويرقون[٥] **﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾** لقالوا إنما

(١) في الآية تنبيه وإرشاد لأهل مكة أن يقلعوا عن كفرهم وعنادهم ، فإنَّ إمهال الله لهم لا ينبغي أن يغتروا به ، لأن لكل أمةٍ وقتاً معيناً لنزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر

(٢) قولهم﴿يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر﴾ إنما هو على سبيل الاستهزاء والتهكم، لأنهم لا يصدّقون بنبوَّته.

(٣) في الآية نكتة هي أنه سبحانه تولى حفظ القرآن ولم يكله إلى غيره، فبقي محفوظاً على مر الدهور ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيّين والأحبار ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ فاختلفوا فيما بينهم ووقع التحريف والتبديل.

(٤) السَّلْكُ: إدخالُ الشيء في الشيء كالخيط في الإبرة

(٥) المراد لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله وقدرته وسلطانه، لتشككوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم ، كما جحدوا سائر المعجزات كانشقاق القمر، وقيل الضمير في «ظلُّوا» يعود إلى الملائكة والأول أظهر .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ
ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

* * *

أُخذت أبصارنا وسُحرت ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد بمكره ، فلا نبصر الشيء على حقيقته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر تنزل فيها ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وحفظنا السماء من كل شيطان لعين، قد رجمه الله ولعنه .﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾لكن من استرق من الشياطين السمع[1] ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فأدركه ولحقه شهاب من النار فأحرقه ، قال ابن عباس الشهب لا تقتل ولكن تُحرق وتجرح . ﴿والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ والأرض بسطناها . وَأَلْقَيْنَا فيها رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت . ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ وأنبتنا في الأرض من كل شيء من الفواكه والثمار والنبات ، مقدّر بمقدار الحاجة وبحدٍ معلوم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعَايِشَ﴾ وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به . ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ وللعبيد والإماء، والدواب والأنعام.﴿وَإِن مَنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُه﴾وما من شيء من الأمطار إلاّ عندناخزائنه .﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ بقدرٍ محدَّد ، عندنا حدُّه ومبلغه ، قال ابن مسعود ما من عامٍ بأمطر من عام ، ولكنَّ الله يصرفه عمن يشاء ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وأرسلنا الرياح تُلقّح السحاب والشجر ﴿فأنزلنا من السَّماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكموه﴾ فأنزلنا مطراً من السماء لشرب أرضكم ومواشيكم ، وجعلناه لكم سقيا ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ولستم بخازنين للماء ، فتمنعوه من أسقيه ، لأن ذلك بيدي أسقيه من أشاء ، وأمنعه من أشاء[3] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نُحيي الميِّت ونميتُ الحيَّ ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ نحن الباقون بعد هلاك الخلق « نَرث الأرض وَمَن عليها وإلينا يُرْجعون » ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مَنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ علمنا الأموات والأحياء ، من مضى من الخلق ، ومن هو حيٌّ[4] ومن سيخلق

---

(١) المراد من استراق السمع الخطفة اليسيرة لقوله تعالى﴿إلاَّ من خطِفَ الخَطْفَةَ﴾وهو قول ابن عباس.

(٢) أراد ولمن لستم له برازقين ، وهم العيال والمماليك والخدم والدواب والأنعام ، الذين رازقهم في الحقيقة هو الله تعالى لا الآباء والسادات .

(٣) هكذا فسّره الطبري وقال غيره المعنى نحن الخازنون للماء نحفظه في ينابيع الأرض وفي العيون والآبار والأنهار، ولوشئنا لجعلناه غائراً فهلكتم عطشاً، وهذا أظهر

(٤) قال ابن كثير: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وهذا قول ابن=

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ
خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ
أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾

* * *

بعد ، وأحصينا جميع ذلك ﴿وإنَّ رَبَّكَ هو يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿إنَّه حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حَكيمٌ في تدبيره ، عليمٌ بأعمال خلقه

﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ خلقنا آدم من طينٍ يابس[1] ، إذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتاً ﴿مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ من طينٍ متغيرٍ إلى السواد ، قال ابن عباس « مسنون » منتن ، وقال قتادة قد تغيَّر وأنتن ﴿والجَانَّ خلقناهُ من قبلُ﴾ وخلقنا إبليس من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من لهب النار وهي نار السموم التي تقتل ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ اذكر حين قال ربك للملائكة ﴿إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ إني سأخلق إنساناً من طينٍ متغيِّرٍ منتن ﴿فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فإذا صوَّرتُه وعدَّلتُ صورته ، ونفخت فيه من روحي[2] ، فصار بشراً حياً ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فاسجدوا له ، سجود تحيةٍ وتكرمة لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فسجدت الملائكة لآدم كلهم جميعاً[3] ﴿إلاَّ إبْليس أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم تكبراً وحسداً ﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ما منعك من أن تكون مع الساجدين ؟! ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ قال إبليس لا يصح لي أن أسجد لبشر ، خلقته من طين يابس متغيِّر ، وأنا من نار والنارُ تأكل الطين ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإنَّكَ رَجِيمٌ﴾ اخرج من السماء فإنك مشتومٌ

=عباس واختيار الطبري.

(١) هذه إحدى الأطوار التي مرَّ بها خلق «آدم» فإن الله سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم من طين ، ثم من حمأ مسنون ، ثم من صلصال كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح وجعله بشراً سوياً ، وخلقه بهذه الأمور أظهر في الإعجاز.

(٢) الإضافة ﴿ من روحي ﴾ للتشريف والتكريم مثل ناقة الله ، وبيت الله

(٣) قوله «أجمعون» توكيدٌ بعد توكيد ، وأما قوله ﴿إلا إبليس﴾ فإنه استثناء منقطع ، أي لكنْ إبليس لم يسجد ، وليس إبليس من الملائكة ، لأن الملائكة لا يعصون أمر الله ، وإنما توجَّه له الخطاب بأمرٍ خاصٍ بالسجود لآدم ، والدليل قوله تعالى في تقريعه وتوبيخه : ﴿قال ما مَنَعَكَ ألَّا تسجد إذْ أمرتك﴾ ؟ وقد سبق التحقيق في موضوع إبليس هل هو من الملائكة أم من الجن ؟ والأدلة الظاهرة القاطعة على ذلك في أول سورة البقرة

وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

* * *

ملعون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّين﴾ وإنَّ غضب الله عليك إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس رَبِّ فأخّرني إلى يوم تبعث فيه الخلق من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين﴾ قال اللَّهُ له فإنك ممن أُخّر هَلاَكُه ﴿إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُوم﴾ إلى يوم هلاك جميع الخلق[1] ، وذلك حين لا يبقى على الأرض ديَّارٌ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرْض﴾ قال إبليس ربِّ بإغوائك لي ، لأحسِّننَّ لهم معاصيك ، ولأحبِّبنها لهم في الأرض ﴿ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأضلنَّهم جميعهم عن سبيل الرشاد ﴿إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصين﴾ إلاَّ من عصمته بتوفيقك فهديته ، فإنه لا سلطان لي عليه ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال الله هذا طريق إليَّ مستقيم ، ومرجعكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم ﴿إِنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي ليس لك عليهم حجة[2] ﴿إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ إلاَّ من اتبعك في الضلالة ممن غوى وهَلك ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمعِين﴾ وإن جهنم موعد جميع من اتبعك ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ لها سبعة أطباقٍ ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ لكل طبقة من أتباع إبليس نصيبٌ مقسوم ، قال علي إن أبواب جهنم هكذا أطباقٌ بعضها فوق بعض ، فيمتلىء الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلىء كلها ، وقال ابن جريج أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ﴿إِنَّ المتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إن الذين اتقوا ربهم بطاعته واجتناب معاصيه ، في بساتين وعيون الماء ، يُقال لهم ﴿أُدْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ سالمين من الآفات ، آمنين من عقاب الله ﴿ونَزَعْنَا مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ وأخرجنا ما في صدور أهل الجنة من شحناء وضغائن ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلينَ﴾ إخواناً في الله ، على سررٍ من ذهب مكللة بالدُرِّ والياقوت ، يقابل

---

(١) طلب اللعين أن يؤخره الله ﴿إلى يوم يُبعثون﴾ حتى يتخلص من الموت ، فأجابه الله ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي الذي يموت فيه الخلائق كلهم ، فظهر من هذا أن الموت سيشمل إبليس كما يشمل سائر الخلق ، بعد أن تنتهي مهمته في الدنيا.

(٢) فسَّر الطبري السلطان بالحجة وهو صحيح من حيث اللغة ، وفسَّره غيره بأنه لا قدرة ولا طاقة له على إغوائهم وهو أظهر

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾

* * *

بعضهم وجه بعض ، لا يستدبره فينظر في قفاه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ﴾ لا يصيبهم في الجنة تعبٌ ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وهم دائمون فيها أبداً ، لا يُخرجون من الجنة ونعيمها ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر يا محمد عبادي[1] أني أنا الساتر لذنوبهم إذا تابوا ، الرحيم بهم فلا أعذبهم بعد توبتهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن عصاني هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب وهذا تحذيرٌ للخلق وأمرٌ لهم بالتوبة والإنابة

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إبراهيمَ﴾ وأخبرهم عن الملائكة ضيوف خليل الرحمن إبراهيم ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ حين دخلوا عليه فسلَّموا بقولهم السلام عليكم ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ قال إبراهيم إنَّا منكم خائفون[2] ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ قال الضيوف لا تخفْ إنا نبشِّرك بولدٍ عالم ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾ قال متعجباً أبشرتموني لأن مسَّني الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأيِّ شيء تبشرونني[3] ؟ عَجِب من كبَره وكبر امرأته ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ قالوا بشرناك بيقينٍ وعلمٍ منا بأن الله قد وهب لك غلاماً ، فلا تكن ممَّن ييأسون من فضل الله ، ولكنْ اقبل البشرى ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ قال إبراهيم ومن ييأس من رحمة الله ، إلا الذين أخطأوا سبيل الصواب ، فضلُّوا بذلك عن دين الله ؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها الْمُرْسَلُونَ﴾ قال فما شأنكم أيها الملائكة[4] ؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ قالت الملائكة إنَّ الله أرسلنا إلى قوم كفار لنهلكهم

(١) الآية تدل على مقامَيْ «الرجاء والخوف» وفيها وعدٌ ووعيد ، وترغيبٌ وترهيب ، وهي تشير إلى أن جانب الرحمة أغلب كما ورد في الصحيح «إن رحمتي سبقت غضبي»

(٢) خافهم لامتناعهم من الأكل . ولم يكن يعرف أنهم ملائكة لا يأكلون حتى أخبروه

(٣) استفهم منكراً للولادة في حالة الشيخوخة والهرم ، لأنها أمرٌ عجيب في العادة ،لا شكاً في قدرة الله ،فلذلك قال : ﴿ فبم تبشرون ﴾ كأنه يقول : فبأي أعجوبة تبشرونني ؟

(٤) الخطب :الشأن العظيم وإنما سألهم عن سبب مجيئهم لأنه عرف أن الغرض لو كان مجرد البشارة بالغلام لكان الملك الواحد كافياً ، فلما جاءوه جماعة عرف أنهم جاءوا لأمرٍ خطير ، فلذلك أنكرهم لوط عليه السلام

إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ
بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

***

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلَّا أتباع لوطٍ المؤمنين ، فإنا لن نهلكهم بل ننجّيهم أجمعين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ إلَّا امرأة لوطٍ ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قضى الله وحكم أنها من الهالكين ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ فلما أتت الملائكة أهل لوط ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ إنكم جماعة ننكركم ولا نعرفكم ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ جئنا بالعذاب الذي كان يشكُّ فيه قومك ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ وجئناك بالخبر اليقين من عند الله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من هلاكهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلُك ﴿بِقِطْعٍ من اللَّيْلِ﴾ ببقيَّةٍ من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وسِرْ خلف أهلك واجعلهم أمامك ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا ينظر أحد منكم وراءه ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وسيروا حيث يأمركم الله ﴿وقضَيْنا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ وأوحينا إليه ذلك الأمر ﴿أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أن آخر قومك وأولهم مستأصلون بالهلاك حين يصبحون ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وجاء أهل مدينة «سدوم» مستبشرين بنزول الضيوف ، طمعاً بركوب الفاحشة ﴿قَالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ قال لهم لوط هؤلاء ضيوفي فلا تفضحوني[1] بالتعرض لهم بالمكروه ﴿واتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ﴾ وخافوا الله أن يحل بكم عقابُه ، ولا تهينوني بتعرضكم لهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم ننهك أن تُضيف أحداً ؟ ﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ تزوجوا النساء ولا تفعلوا ما حرَّم الله عليكم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وحياتك يا محمد إن قومك لفي ضلالتهم وجهلهم يتردَّدون[2] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فأخذتهم الصاعقة عند شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فجعلنا عالي أرضهم سافلها

---

(١) الضيف يجب إكرامه ، فإذا أسيء إليه في دار المُضيف، كان ذلك إهانة وفضيحة للمضيف

(٢) قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ ،وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد غيره يقول ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، وقد أعاد الطبري الضمير «إنهم» على أهل مكة ، والراجح أنه يعود على قوم لوط

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ
أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

* * *

﴿وأمْطَرْنا عَلَيْهِم حِجَارةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ حجارة من طين ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمَتوسِّمينَ﴾ إن فيما أحللنا عليهم من العذاب ، لدلالات وعلامات للمعتبرين ﴿وإنّها لَبِسبيلٍ مُقِيم﴾ وإن هذه المدينة لبطريقٍ واضح ، يراها المجتازون في أسفارهم ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنينَ﴾ إن في إهلاكنا لهم ، لدلالة بيِّنة لمن آمن بالله ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لظَالِمينَ﴾ وقد كان أصحاب الشجر الملتف[١] ـ وهم قوم شعيب ـ ظالمين لأنفسهم بكفرهم بالله ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمَا لبإمامٍ مُبين﴾ وإن المدينتين لبطريقٍ ظاهر يهتدون به في سفرهم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾ ولقد كذب سُكَّان الحِجْر ـ مدينة ثمود ـ رسولهم صالحاً عليه السلام[٢] ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آياتِنا فكانوا عَنْهَا مُعْرِضينَ﴾ وأريناهم حججنا وأدلتنا[٣] على صدق صالح ، فلم يعتبروا ولم يتّعظوا ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ وكان قوم صالح ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين من عذاب الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع ، كما توعدهم نبيهم صالح « قال تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام » ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم عذاب الله[٤] ، ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثة

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وما خلقنا الخلائق كلها ، سماءها وأرضها وما فيهما ، إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فلم نهلك أحداً ظلماً بغير استحقاق ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتيةٌ﴾ وإن القيامة لكائنة لا محالة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عن المشركين إعراضاً جميلاً ،

---

(١) الأيكة: الشجر الملتف وهم قوم شعيب

(٢) قال ابن كثير: إنما قال « المرسلين» لأن من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين

(٣) أراد بالآيات «الناقة» لأن فيها آيات باهرة، منها خروجها من صخرة صمَّاء بدعوة صالح ، وعظم خلقها، وكثرة لبنها إلى غير ذلك

(٤) المراد لم يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يعدونه من بناء البيوت الوثيقة ومن جمع الأموال والعُدَد .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾
كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

* * *

واعف عنهم عفواً حسناً ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ إن ربك هو الذي خلقهم ، وهو عالمٌ بهم وبتدبيرهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثاني وَالْقُرآنَ الْعَظِيم﴾ ولقد أعطيناك يا محمد سبع آياتٍ هي فاتحة الكتاب[١] ، وسائر القرآن العظيم ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِه﴾ لا تتمنينَّ ما جعلناه متاعاً للأغنياء الكفار من زينة هذه الدنيا ، فإن من ورائهم عذاباً غليظاً ﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن على ما مُتِّعوا به ، فإن لك في الآخرة ما هو خيرٌ منه ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمنينَ﴾ وألِنْ جانبك وارفق بالمؤمنين ، ولا تغلظ عليهم ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ وقل للمشركين أنا المنذر لكم من عقاب الله ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمينَ﴾ أنذركم مثل الـذي أنزلنا من البلاء والعقاب على الذين اقتسموا القرآن ﴿الَّذِينَ جَعلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ فجعلوه أجزاء متفرقة ، بالإقرار بالبعض والتكذيب بالبعض ، وهم اليهود والنصارى آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وقيل هم المشركون[٢] عضهوا كتاب الله أي فرَّقـوه ، فزعم بعضهم أنه سحر ، وزعم بعضهم أنه شعر ، وزعم بعضهم أنه كهانة ، وروي عن ابن عباس أنهم المشركون ، اقتسموا طرق مكة ومداخلها أيام الموسم ـ وكانوا قريباً من أربعين ـ فقعدوا في كل مدخل متفرقين ، لينفرّوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله ، يقول بعضهم إنه ساحر ، ويقول الآخر كـذّاب ، والآخر شاعر ، فأهلكهم الله يوم بدر ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعينَ﴾ فوربك يا محمد لنسألنَّ جميع الخلق ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلون﴾ في الدنيا من الأعمال ، وعن أمر التوحيد والإيمان ، **قال ابن عباس** لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم لِمَ عملتم كذا وكذا ؟ ﴿فَاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ فامض يا محمد لما تؤمر به من تبليغ القرآن ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ المشرِكينَ﴾

---

(١) أكثر المفسرين على أن المراد بالسبع المثاني «فاتحة الكتاب» فهي سبع آيات تثنى أي تكرَّر في كل صلاة، لأنها جمعت أصول الشريعة ومقاصدها الأساسية كما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. .ثم قال له ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، الحديث وقيل: هي السبع الطوال سميت بالمثاني لما فيها من تكرار القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، والقول الأول أرجح والله أعلم .

(٢) هذا القول اختاره الطبري ورجحه، لأن ما قبل هذه الآيات وما بعدها في مشركي قومه وليس في أهل الكتاب، ولأن المشركين لم يكن فيهم من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض ؛ وإنما كان منهم مؤمن بجميعه أو كافر بجميعه ، فالصحيح من القول أن المعنى أنهم فرقوا القرآن فقال بعضهم هو شعر ، وقال بعضهم هو سحر ، وقال بعضهم هو كهانة ، وهذا القول هو قول عطاء ومقاتل وهو الأظهر والله أعلم

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

* * *

واكفف عن حرب المشركين ، ثم نُسخ بقتالهم ، **قال ابن عبيدة** : ما زال النبي ﷺ متخفياً حتى نزلت « فاصدعْ بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ كفيناك يا محمد الساخرين منك ، الذين استهزأوا بكتاب الله ونبيِّه[1] ﴿الَّذين يَجْعَلُون مَع الله إلهاً آخر﴾ الذين يجعلون شريكاً لله في عبادته ﴿فَسَوْفَ يعلمون﴾ ما يلقون من عذاب الله ، وما يحل بهم من البلاء ، وهو وعيدٌ من الله وتهدُّد للمستهزئين ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يقُولُونَ﴾ يضيق صدرك باستهزائهم وتكذيبهم لك ﴿فَسبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الشكر لله ، فيما نابك من أمرٍ تكرهه ﴿وكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ لربك يكفك الله ما أهمك ، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ واعبد ربك حتى يأتيك الموت[2]

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »

* * *

(١) المستهزئون خمسة من أشراف قريش وصناديدها، وكانوا يهزأون من الرسول ويسخرون وهم «الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، والحارث بن الطلاطلة» وقد أهلكهم الله جميعاً .

(٢) سمي الموت يقيناً لأنه أمر متيقن من نزوله لا مفر منه﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقد أرشدت الآية الكريمة لدفع ما ناب الإنسان من ضر ومكروه بأربعة أشياء: بالتسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة حتى الموت . وهي بلسمٌ لكل مكروب ومهموم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

***

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قَرُب أيها الناس ودنا عذابُ الله فلا تستعجلوا وقوعه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزَّه الله وعلا عن الشرك ، الذي كانت قريش تدين به ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يُنزِّل الله ملائكته[1] بالوحي والرحمة ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من يشاء من رسله ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ بأن أنذروا عبادي عقابي ، فإنه لا يصلح أن يعبد شيءٌ سواي ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فاحذروني بأداء فرائضي ، وإفراد العبادة لي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق ربكم السمواتِ والأرض بالعدل ، لم يشركه في خلقها وإنشائها شريك ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تمجَّد وارتفع عن أن يكون له مثيلٌ أو شريك ، وهو الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ خلق الناس من ماء مهين ، خلقاً عجيباً في ظلمات ثلاث ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا هذا الإنسان يخاصم ربه بمنطقه ويجادله بلسانه ، بعد أن خلقه خلقاً سوياً من ماء مهين ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ وخلق الأنعام فسخَّرها لكم ـ وهي الإبل والبقر والغنم ـ ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ لكم من أصوافها وأوبارها ملابس تدفأون بها ﴿وَمَنَافِعُ﴾ من ألبانها وركوب ظهورها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لحومها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ولكم في الأنعام زينةٌ

---

(١) أراد بالملائكة ههنا «جبريل» لأنه هو المختص بنزول الوحي على الرسل الكرام ، وسمَّى الوحي «روحاً» لأنه به تحيا القلوب الميتة من الجهل بإشراق أنوار العرفان.

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

***

وجمال ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وقت تردُّونها إلى منازلها بالمساء[١] ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ووقت خروجها صباحاً للمرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وتحمل هذه الأنعام أمتعتكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتبلغوه ﴿إِلاَّ بِشِقِ الْأَنْفُس﴾ إلا بجهدٍ شديد ، ومشقةٍ عظيمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إنَّ ربكم لذو رأفةٍ ورحمةٍ بكم ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ وخلق الخيل والبغال والحمير لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ لتركبوا ظهرها ، وجعلها زينة لكم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ويخلق لكم ربكم في الجنة[٢] ، ما لم تره عينٌ ولا يخطر على قلب بشر ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وعلى الله بيانُ طريق الحق المستقيم وهو الإسلام ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومنها طريقٌ معوجةٌ كاليهودية والنصرانية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو شاء الله لوفقكم جميعكم للإيمان ، وهداكم قصد السبيل ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو تعالى الذي أنزل لكم مطراً[٣] ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ لكم من ذلك الماء شرابٌ تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه شربُ أشجاركم ، وحياةُ غروسكم ونباتها ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ في الشجر والنبات ترعون أنعامكم ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ ينبت لكم ربكم بالماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ومن كل الفواكه أرزاقاً لكم وأقواتاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ﴾ إن في إخراج ذلك لكم لدلالة واضحة ، وعلامة بيِّنة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعتبرون بمواعظ الله ، ويتفكرون في حججه ، فيتذكَّرون وينيبون ﴿وَسَخَّرَ لَكم اللَّيْلَ والنَّهارَ﴾ يتعاقبان عليكم ، هذا لسكنكم وهذا لتصرفكم في معاشكم ﴿والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمعرفة أزمنتكم وشهوركم وصلاح معايشكم ﴿ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ والنجوم

---

(١) الإراحة ردُّ الإبل إلى مكانها الذي تأوي إليه ليلاً ، والسَّرحُ إخراجها في الصباح للمرعى

(٢) لقد جدَّت في عصرنا وسائل للنقل في غاية السرعة كالقطارات ، والسيارات ، والطائرات النفَّاثة وهي بخلق الله تعالى لأنها بتعليمه سبحانه للإنسان ، وقد فسر الطبري بأن ذلك في الجنة، والصحيح أنها في الدنيا لأنه تعالى عطفها على المركوبات التي خلقها فدل على أن ذلك في الدنيا

(٣) لما استدل على وجود الخالق الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات ، أراد أن يستدل بغرائب أحوال النبات ، فذكر إنزال الأمطار وخروج النبات والثمار ،وكلها دلائلُ باهرة على قدرة الواحد القهار !!

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

***

تجري في فلكها بأمر الله ، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ**﴾ لدلالات واضحات ﴿**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ حجج الله ويفهمون تنبيهه ﴿**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار ﴿**مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ**﴾ مختلفة الأشكال والألوان ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً**﴾ حجةً وعلامةً واضحة ﴿**لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ يتذكرون نعم الله فيشكرونه عليها ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ**﴾ ذلَّله لكم ويسَّره لركوبكم ﴿**لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً**﴾ لتأكلوا السمك الذي يُصطاد منه ﴿**وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**﴾ وتستخرجوا منه اللؤلؤ والمرجان ﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾ وترى السفن تشق الماء في البحر مقبلةً ومدبرة ﴿**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**﴾ ولتتصرفوا بالتجارة في طلب معايشكم ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ**﴾ جعل في الأرض جبالاً ثوابت ﴿**أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ لئلا تميل وتضطرب بكم[1] ﴿**وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ وجعل فيها أنهاراً وطرقاً تسلكونها ، لكي تهتدوا بها إلى الأماكن التي تقصدونها ﴿**وَعَلَامَاتٍ**﴾ ومعالم للطرق تستدلون بها نهاراً في أسفاركم ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ وبالنجوم تهتدون بها ليلاً في سبلكم ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ**﴾ أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة[2] ، ويُنعم عليكم بهذه النعم العظيمة ، كالأصنام التي لا تخلق شيئاً ؟ ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ أفلا تتذكرون قدرة الله وعظيم سلطانه ، فتعرفوا خطأ عبادتكم لها[3] ؟ ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ**﴾ وإن تعدُّوا نِعم الله عليكم ﴿**لَا تُحْصُوهَا**﴾ لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ يصفح عن تقصيركم ، ويرحمكم فلا يعذبكم ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ ما تخفونه في

---

(١) الميْد الاضطراب يقال مادت السفينة ميداً إذا مالت واضطربت باهلها

(٢) لما عدَّد الآيات الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ، أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾؟ وهو سخرية وتهكم بمن عبد الأوثان والأصنام

(٣) في الآية مزيد توبيخ وتجهيل لهم في عبادتهم مالا يضر ولا ينفع ، فإن الأمر لوضوحه وجلائه يدركه من له أدنى عقل أو حسّ، ولهذا قال «أفلا تذكَّرون» ؟

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ۙ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ

***

أنفسكم ، وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وأصنامكم التي تدعونها آلهة من دون الله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة ، فكيف تكون آلهة وهي مصنوعة ؟ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ وهذه الأصنام أموات لا أرواح فيها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما تدري أصنامكم متى تُبعث[١] ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ معبودكم الذي يستحق العبادة معبودٌ واحد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فالذين لا يصدّقون بوعد الله ووعيده ، ولا يُقرّون بالمعاد بعد الممات ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ لقدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق والإقرار بالوحدانية ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ما يخفون من الاستكبار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرونه من الكفر والافتراء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن توحيده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المشركين أيَّ شيء أنزله ربكم ؟ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قالوا أحاديث الأولين وما سطّروه من الأباطيل ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ ليحملوا ذنوبهم التي اقترفوها ﴿كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ تامةً يوم القيامة من غير أن يُخفَّف من عقابهم شيء[٢] ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن ذنوب الذين يصدُّونهم عن الإيمان[٣] جهلاً منهم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس الإثم الذي يتحملون ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين ، فراموا مغالبة الله ببناء بنوه[٤] يريدون الارتفاع إلى السماء لحرب من فيها ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيهِمُ السَّقْفُ﴾ فسقط عليهم السقف من فوقهم ، وانقلبت بهم منازلهم ﴿وَأَتَاهُمُ

---

(١) وقيل الضمير يعود على الكفار والمعنى وما تدري أصنامكم متى تبعثون من قبوركم ، فكيف يرتجى منها النفع والثواب ؟ وفي الآيات تعريضٌ وتوبيخ للمشركين من وجوه **الأول**: أن الإلّه يجب أن يكون عالماً بالسرِّ والعلن ، والأصنام التي عبدوها جمادات لا شعور لها. **الثاني**: أنهم أعجز من عبدتهم لأنهم لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون. **الثالث** أنهم أمواتٌ غير أحياء لأنهم من الحجارة التي لا تقبل الحياة أصلاً. الرابع أن الآلهة لا تدري متى يبعث عابدوها فكيف يرجى خيرها ؟

(٢) قال مجاهد يحملون ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً

(٣) في الحديث الصحيح «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء»

(٤) قيل إنه «النمرود» بنى صرحاً عظيماً ورام الصعود إلى السماء فأهلكه الله

ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ
قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ
فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ
فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى
هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

***

العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ وأتاهم عذاب الله من حيثُ لا يدرون **﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾** يذلهم بعذابٍ أليم **﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِم﴾** ويقول لهم توبيخاً أين الآلهة الذين عبدتموهم من دوني وخالفتموني فيهم[1] ؟ ما لهم لا يحضرونكم فيدفعوا عنكم العذاب ؟ **﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ اليَوْمَ والسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** قال العلماء إن الذلة والهوان وعذاب الله في هذا اليوم ، على من كفر بالله وجحد وحدانيته ، ثم بينهم تعالى بقوله **﴿الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** الذين تقبض أرواحهم الملائكة وهم على كفرهم وإشراكهم بالله **﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾** فاستسلموا لأمر الله وانقادوا له حين عاينوا الموت قائلين **﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾** ما كنا نعمل شيئاً من المعاصي والمنكرات ، قال الله مكذباً لهم : **﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** بلى قد كنتم تعملون السوء ، والله عالم بما كنتم تعملونه من المعاصي **﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾** فادخلوا طبقات جهنم **﴿خَالِدِينَ فيها﴾** ماكثين فيها أبداً **﴿فلبئس مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾** بئس جهنم منزل من تكبّر ، ولم يصدّق بوحدانية الله **﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾** وهم فريق أهل الإيمان وتقوى الرحمن **﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾** أيّ شيء أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا أنزل خيراً[2] **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾** للذين أطاعوا الله في الدنيا كرامةٌ على إحسانهم **﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾** من دار الدنيا ، وكرامتُه لهم فيها أعظم **﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾** ونعمت الآخرة داراً للمتقين ، الذين أطاعوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾** بساتين إقامة يدخلونها **﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** تجري من تحت أشجارها الأنهار **﴿لَهُمْ فِيهَا ما يَشَاءُونَ﴾** ممّا تشتهيه أنفُسهم وتلذُّ به أعينهم **﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المتَّقِينَ﴾** كما جزى المحسنين في الدنيا ، كذلك يجزي الله الذين اتقوه بأداء فرائضه

(١) معنى الشقاق المخالفة ، وأصله أن يفعل كل واحد بصاحبه ما يشقُّ عليه

(٢) قولهم هذا بمقابلة قول الكفرة الفجّار عن القرآن إنه أساطير الأولين.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم

***

واجتناب نواهيه ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ تقبض أرواحهم الملائكة وهم طيِّبون بنظافة الإيمان وطُهر الإسلام ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تقول لهم السلام عليكم[1] ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ادخلوا جنة الخلد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من طاعة الله وطلب مرضاته ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ هل ينتظر هؤلاء المشركون إلّا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ؟ ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو يأتي أمر الله بحشرهم لموقف القيامة ؟ ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذلك فعل أسلافهم من الكفرة المجرمين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإحلال سخطه بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به ، فجعل لهم عقابه ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فأصابهم عقوبة ذنوبهم التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ونزل بهم من عذاب الله ما كانوا يسخرون به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال الذين عبدوا الأوثان والأصنام ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لو أراد الله ما عبدنا هذه الأصنام ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ لا نحن ولا آباؤ نا ، وما عبدناها إلا لأن الله قد رضي بذلك ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولا حرمنا البحائر والسوائب إلا بمشيئته تعالى ورضاه تحريمها[2] ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾) كذلك سلك من قبلهم في تكذيب رسل الله ، واتباع آبائهم الضالين ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فهل على رسلنا إلا تبليغ رسالتنا، وإنذار عقوبتنا على الكفر ؟ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ولقد أرسلنا لكل أمة سلفت رسولاً ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ بأن اعبدوا الله وحده ، وابتعدوا من

---

(١) هذه البشارة للمؤمنين بجنات النعيم ، تكون لهم عند الاحتضار ووقت الوفاة ، تبشرهم بذلك الملائكة كما أخبر تعالى بقوله ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ قال ابن عباس الملائكة يأتونه بالسلام من قبل الله ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين

(٢) أرادوا بذلك الاحتجاج بالقضاء والقدر ، وأن إشراكهم واقع بإرادة الله ، وأنه تعالى لو كان كارهاً لفعلهم لعجَّل لهم العقوبة ، وهو احتجاج باطل، لأن الله تعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين .

مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾
إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا
يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

***

الشيطان ، احذروا أن يصدكم عن سبيل الله ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾فمن هؤلاء الأمم من هداه الله ، ووفقه للإيمان ففاز وأفلح ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ ومنهم من كفر وكذَّب ، واتَّبع الطاغوت فهلك ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ فسيروا ـ أيها المكذبون ـ في البلاد التي كانوا يسكنونها ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فانظروا ماذا حلَّ بهم من سخط الله وعقابه[1] ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء المشركين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ فلا تُجهد نفسك في أمرهم ، فمن أضلَّه اللهُ فلا هادي له ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ليس لهم ناصر ينقذهم من عقاب الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾حلف المشركون باللّه أغلظ الأيمان[2] ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ لا يحيي الله من يموت بعد مماته ﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾ بلى سيبعثهم الله ، وعد بذلك عباده وعداً حقاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن الله يُحييهم بعد مماتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ليبيِّن لهؤلاء ـ الذين يزعمون أن الله لا يبعث من يموت ـ ما كانوا يختلفون فيه من إحيائهم بعد فنائهم[3] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وليعلم الذين أنكروا حقيقة البعث، أنهم كانوا كاذبين في قولهم لا بعث بعد الموت ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ إنَّا إذا أردنا خلق شيءٍ أو إنشاءه[4] ﴿أَنْ نَقُولَ له كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإنما نقول له كن فيكون بلا معاناةٍ ولا كلفة ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ فارقوا ديارهم وأوطانهم في سبيل الله ﴿مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوا﴾ من بعدما نالتهم المكاره والشدائد ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنسكننهم في الدنيا مسكناً صالحاً

---

(١) الغرض الاعتبار بما حلَّ بالسابقين من الأمم الكافرة ، وتحقق صحة ما أخبرهم به محمد ﷺ.

(٢) معنى «جهد الأيمان» أغلظها وآكدها ، وهي أن يقسم قسماً مؤكداً بالله تعالى بأغلظ اليمين

(٣) المعنى أن الله يبعث كل من يموت من المؤمنين والكافرين ، ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه بياناً عيانياً لا يشتبه فيه المطيع بالعاصي ، والمحق بالمبطل ، والمظلوم بالظالم

(٤) الآية كالبرهان على إمكان البعث ، فإنه سبحانه لا يعجزه شيء ، ولا تتوقف آثار قدرته إلا على مجرد الإرادة والمشيئة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو أهون من الإبداء والإنشاء !!

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾
أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾
أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾
أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

***

يرضونه ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ولثواب الله لهم على هجرتهم في الآخرة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لأن ثوابه الجنة التي يدوم نعيمها ولا ينقطع ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما نالهم في الدنيا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وبالله يثقون في أمورهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة ﴿نوحي إليهم﴾ ننزل عليهم وحينا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ فاسألوا أهل الكتب الماضية ـ التوراة والإنجيل ـ هل كانت الرسل بشراً أم ملائكة ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أن الرسل إنما تكون من البشر ﴿بالبيِّنات﴾ أرسلناهم بالحجج الشاهدة على نبوَّتهم ﴿والزُّبر﴾ والكتب السماوية ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن، تذكيراً للنَّاس وعظةً لهم ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ لتبيِّن الأحكام والشرائع للناس ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وليتفكروا ويعتبروا بما فيه ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أفأمن كفار قريش الذين آذوا الرسول وأصحابه ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ على كفرهم وشركهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم عذاب الله من مكانٍ لايدرون به ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ﴾ أو يهلكهم في أسفارهم وقت تصرفهم في البلاد ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فإنهم لا يعجزون الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو يهلكهم بطريق التنقُّص شيئاً فشيئاً في ديارهم وأموالهم، حتى يهلكهم جميعاً ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رحِيمٌ﴾ بخلقه، ولذلك لم يعجّل لهم العذاب ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أو لم ينظر هؤلاء المشركون ـ نظر اعتبار ـ إلى ما خلق الله من شجر أو جبل أو غير ذلك ﴿يَتفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينَ وَالشَّمَائِلِ﴾ يرجع ظله من موضع إلى موضع، ويتقلص ثم يعود إلى حال أخرى، في أول النهار وآخره ﴿سُجَّداً لِلَّهِ﴾ تميل من جانب إلى جانب[1] ﴿وهم داخرون﴾ وهم صاغرون

---

(١) سجودها ميلانها ودورانها من ناحية إلى ناحية، وانقيادُها لأمر الله من غير امتناع

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَٰئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم
مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩ * وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ
فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

***

ذليلون[1] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله يخضع ويستسلم لأمره كل ما في السموات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الدواب التي تدب على الأرض[2] ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ والملائكة يخضعون لأمره ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن التذلل له بالطاعة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافون عذاب الله إن عصوا أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ويفعلون ما أمرهم الله به ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقال الله لعباده لا تجعلوا لي شريكاً ، ولا تعبدوا معبودين اثنين ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إنما إلهكم معبودٌ واحدٌ ﴿فَإِيَّايَ فارهَبُونِ﴾ فإيَّاي فاتقوا ، وخافوا عقابي إن عصيتموني وعبدتم غيري ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله مُلك جميع ما في السموات وما في الأرض ، لا شريك له، هو خلقهم وهو رزقهم ، وبيده حياتُهم وموتُهم ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ وله الطاعة دائمة ثابتة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أفترهبون وتحذرون غير الله ؟ وما لكم نافعٌ سواه !؟ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وما يكن بكم من عافية وصحة ونماءٍ في المال ، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ ثم إذا أصابكم السقم والمرض وشدة العيش ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فإلى الله تصرخون بالدعاء ، ليكشف عنكم الضر ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا رفع الشدة ، وفرَّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ إذا جماعة منكم يجعلون للَّهِ شريكاً في عبادتهم ،فيعبدون الأوثان شكراً لغير من أنعم عليهم بالفرج ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ليجحدوا نعمة الله بكشف الضر عنهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فتمتعوا في هذه الدنيا إلى انتهاء آجالكم ، فستصيرون إلى ربكم، وتعلمون وبال ما كسبت أيديكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم وهذا من الله وعيدٌ وتهديدٌ لهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ويجعل المشركون للأصنام جزءاً مما

(١) إنما جمعت الظلال بالواو النون «وهم داخرون» لأنهم أشبهوا العقلاء من حيث طاعتها لله سبحانه

(٢) الوجه في تخصيص الدواب والملائكة بالذكر ، أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة أن الجمادات بأسرها منقادة له تعالى ، فذكر هنا أن الحيوانات بأسرها أيضاً منقادة له ، ثم عطف عليهم الملائكة لشرفها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ
عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

***

رزقناهم من الأموال ﴿**تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾ والله ليسألنكم الله يوم القيامة ، عما كنتم تختلقونه من الإفك والباطل ، بدعواكم لله الشريك ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ**﴾ ويجعل هؤلاء المشركون البنات لمن خلقهم وأنعم عليهم ، ولا ينبغي أن يكون له ولد ذكرٌ ولا أنثى[١] ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ تَنَزَّه جل جلاله عمَّا نسبوا إليه من البنات ﴿**وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ ولهم البنون الذين يشتهونهم ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى**﴾ وإذا بُشِّر أحد هؤلاء المشركين بولادة البنت ﴿**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً**﴾ صار وجهه مسوداً من كراهته لها ﴿**وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ وهو مملوءٌ غماً وحزناً ﴿**يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾ يستخفي من القوم من مساءته من الأنثى ﴿**أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ**﴾ أيمسكه على ذل وهوانٍ! ﴿**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾ أم يدفنه حياً في التراب فيئده[٢] !! ﴿**أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ساء الحكم الذي حكموا به ، حيث جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ**﴾ لهؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالمعاد، القبيحُ من المثل[٣] ، الذي يسوء صاحبه ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى**﴾ ولله جل وعلا الأفضل والأطيب ، والأحسنُ والأجمل من الأمثال وصفات الكمال ﴿**وَهُوَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ وهو العزيز الذي لا يُغالب ، الحكيمُ في تدبيره فلا يدخله خللٌ ولا خطأٌ ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ**﴾ ولويؤاخذ الله العصاة بمعاصيهم ﴿**مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**﴾ ما ترك على الأرض دابةً تدب عليها ﴿**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ ولكن يؤخر هؤلاء الظلمة إلى الوقت الذي حدَّده لهم ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ فإذا جاء وقت هلاكهم فلا يؤخر ساعةً ولا يُقدَّم ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم وهو البنات ﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى**﴾ وتفتري ألسنتهم الكذب بأن

(١) هذا نوع آخر من قبائح المشركين فقد قالوا الملائكةُ بناتُ الله ، فنسبوا للّهِ البنات وجعلوا لهم البنين وهذا منتهى السُّفه حيث جعلوا لله ما يكرهونه ولهم ما يحبونه

(٢) قال قتادة : كان أحدهم يغذو كلبه ، ويئد ابنته ، أقول يا لها من سفاهةٍ وحماقة !!

(٣) المراد أن للمشركين أسوأ الأوصاف وهي الضعف والعجز ، والحاجة إلى الذكور ، وكراهة الإناث ، ووأدهنَّ خشية الإملاق ، ولله صفات الكمال من الغنى والقدرة والقوة ، والعزة والحكمة ، وسائر صفات الكمال والجلال

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا
فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

***

لهم الذكور من الأولاد[١] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ حقاً إن لهؤلاء المفترين يوم القيامة النار ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ وأنهم متروكون في النار منسيُّون فيها ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ من قَبْلِكَ﴾ والله يا محمد لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم ، بمثل ما أرسلناك به فكذبوهم ، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عند الله ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فحسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فالشيطان ناصرهم في الدنيا وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذابٌ موجع ، فلم تنفعهم ولاية الشيطان في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وما أنزلنا عليك يا محمد كتابنا ، وبعثناك رسولاً إلى خلقنا ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إلَّا لتبيّن لهم ما اختلفوا فيه من الدين ، فتعرفهم الحقَّ من الباطل، وتقيم عليهم الحجة به ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وبياناً من الضلالة، وهدى لقوم يُصدِّقون بما فيه ويعملون به ﴿ وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً[٢] ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بعد مَوْتِهَا﴾ فأنبت بالماء الأرض الميتة ، التي لا زرع فيها ولا عشب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في إحياء الأرض لحجةً قاطعة ، لقوم يسمعون القول فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ وإن لكم ـ أيها الناس ـ في الإبل والبقر والغنم لعِظَةً ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا في بُطُونِهِ﴾ نسقيكم من بطون هذه الأنعام ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ من بين الروث والدم نسقيكم لبناً خالصاً ، لم يخالط الدم والفرث[٣]. ﴿سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ لا يغصُّ به شاربه ﴿وَمِنْ ثمراتِ النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب كذلك عبرةَ لكم ، تتخذون منه النبيذ[٤] والخلَّ ، والزبيب والتمر ﴿إِنَّ في

(١) هكذا فسَّر الطبري «الحسنى» بأنها الذكور من الأولاد ، وفسَّرها غيره بأنها الجنة أي أنهم مع ضلالهم حكموا لأنفسهم بالجنة ورضوان الله ، وهذا أقرب

(٢) الآيات الكريمة سيقت لإثبات دلائل القدرة والوحدانية

(٣) الفرثُ الفضلات التي تخرج من الحيوان وتسمى الروث والثفل

(٤) رجح الطبري أن المراد بالسَّكر النبيذُ والخلُّ وأن الآية غير منسوخة ، ورجح غيره أن المراد السكر الخمر ، وبالرزق الحسن التمر والزبيب ، وأن الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وهذا قول ابن عباس وهو الأظهر

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم

***

﴿ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن فيما ذكر لدلالة واضحة ، لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون مواعظه ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وألهم ربك النحل ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ومن الشَّجرِ﴾ بأن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر(١) ﴿وَمِمَّايَعْرِشُونَ﴾ومِمَّا يبنون من السقوف ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم كلي من كل ثمرةٍ تشتهينها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ فاسلكي طرق ربك مذللة ، لا يتوعر عليك سبيل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يخرج من بطون النحل عَسَلٌ مختلف الألوان ، منه الأبيض والأصفر والأحمر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ﴿إِنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكَّرون﴾ إن فيما ذكر لدلالة وحجة واضحة ، لقوم يتفكرون في عظمة خالقها وبديع صنعه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم يقبضكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ ومنكم من يهرم فيصير إلى أردأ العمر. قال علي هو سنُّ خمس وسبعين ﴿لِكَيْ لاَيَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه ، وينسى ويضعف عقله من الكبر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عليم بكل مايكون ، قديرٌ لا يعجزه شيء أراده ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ في الرِّزْقِ﴾ والله فضَّل بعض الناس على بعض ، في الرزق في الدنيا ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فليس السادة بمشركي مماليكهم في أموالهم حتى يستووا في ذلك، فإذا كانوا لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء، فكيف جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أيجحدون نعمة الله التي أنعمها عليهم، بإشراكهم مع الله غيره في سلطانه وملكه ؟ وهذا مثلٌ ضربه الله للمشركين يقول كيف ترضون لي ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ

(١) مملكة النحل مملكة عجيبة، فإنها تبني بيوتاً مسدسة من الأضلاع المتساويات ، التي لا يمكن للعقلاء تركيب أمثالها إلا بالمساطر والأشكال الهندسية، ومن عجائب أمرها أن لها رئيساً هو أعظم جثة من الباقين ، وهي تخدمه وتتبع أمره ونهيه ، ومن كان عاطلاً عن العمل قتله النحل ، وربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد من أجل الطعام ثم ترجع دون أن تضل الطريق ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !!

مِنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ
ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

***

لكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ خلق لكم من آدم وحواء أزواجاً لتسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بنينَ وَحَفَدَةً﴾ وجعل لكم من أزواجكم أولاداً وأولاد أولاد[1] وأصهاراً ،يُسرعون في خدمتكم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقكم من حلال الأرزاق والأقوات ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أفيصدقون بالباطل الذي أحله لهم الشيطان من البحائر والسوائب ، ويكفرون بما أحله الله لهم من المطاعم والمشارب ؟ ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً﴾ ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً ، لا تملك لهم رزقاً من السموات بإنزال القطر والمطر ، ولا من الأرض بإخراج الزرع والثمر ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا تقدر على شيء من ذلك أصلاً ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ فلا تُمثِّلوا لله الأمثال ، فإنه تعالى لا مِثْل له ولا شَبَه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعلم خطأ ما تُمثِّلون ، وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ شبَّه تعالى مثلاً للكافر من عبيده والمؤمن منهم، فأما مَثَل الكافر فإنه كالعبد المملوك الذي لا يَقْدِرُ على شيء فينفقه ، فهو لا يعمل بطاعة الله ، ولا يفعل خيراً ، ولا ينفق شيئاً في سبيل الله ، لخذلان الله له ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فهو يُنْفِقُ منه سِرّاً وَجَهْراً﴾ وأمّا المؤمن فإنه يعمل بطاعة الله ، وينفق ماله في سبيله، كالحر الذي آتاه الله مالاً فهو ينفقه في السِّر والعلن[3] ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ هل يستوي العبد الذي لا يملك شيئاً ، والحر الذي ينفق ماله في سبيل الله ؟ فكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن[4] !! ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحمد لله على ظهور الحق ووضوحه ، بل أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون ، فهم بجهلهم يجعلون الأوثان شركاء الله في العبادة

---

(١) الحَفَدة جمع حفيد وهو ولد الولد ، ويطلق في اللغة على الخادم والصهر أيضاً واختار الطبري العموم

(٢) معنى﴿فلا تضربوا للَّهِ الأمثال﴾أي لا تشبِّهوه بخلقه ، فإن ضارب المثل مشبِّه حالاً بحال

(٣) قال ابن عباس وقتادة هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ، فالكافر رزقه الله مالاً فلم يقدّم فيه خيراً ، ولم يعمل فيه بطاعة الله ، والمؤمن أعطاه الله مالاً فعمل بطاعة الله فيه وشكر ربه، فأثابه الله الرزق المقيم الدائم في الجنة

(٤) توضيح المثل أننا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق ، فصريح العقل يشهد بأن لا يجوز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء ؟

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى
هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ
ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

***

﴿وَضَرَب اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللآلهة التي تُعبد من دونه ، يقول شبَّه الله لكم أيها الناس مثلاً برجلين ، أحدهما أخرس لا يسمع شيئاً ولا ينطق ، وهو مثل للصنم ، لأنه إما خشبٌ منحوتٌ ، أو نحاسٌ مصنوع ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يقدر على نفع من يخدمه ولا دفع ضر عنه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ وهو عيال على من يلي أمره ، فكذلك الصنم يحتاج إلى من يحمله ويضعه ويخدمه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يوجهه ويبعثه لا ينجح في مسعاه، لأنه لا يفهم ما يُقال له ، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه بما يريد لخرسه وبكمه ، فكذلك الصنم لا يعقل ولا ينطق ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾والآخر إنسان ناطق متكلم يدعو إلى الحق والرشاد ، هل يستوي الأبكم الذي لا يأتي بخير حيث توجَّه ، ومَنْ هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه ؟ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو على طريق مستقيم غير معوج لا يزول عنه ؟ وهو الله الواحد القهار ، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته[١] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله ملك ما غاب عن أبصاركم أيها الناس في السموات والأرض ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِأوهو أَقْرَبُ﴾ وما أمر القيامة إلا كطرف العين ، أو هو أقرب من ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾لا يمتنععليهشيءأراده﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾أخرجكم من بطون الأمهات لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فرزقكم السمع الذي تسمعون به الأصوات ، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص ، والقلوب التي تعرفون بها الأشياء وتفكّرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ ألم ير المشركون إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعلها تطير بجناحين في هواء السماء ؟ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما تطير إلاَّ بتسخيره تعالى ، ولو سلبها القدرة لم تقدر على النهوض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في تمكينها من الطيران في جو السماء ، لعلامات

(١) المراد أنه كما لا يتساوى الأبكم من الناس، الذي لا ينجح في مطلبه أينما توجّه ، مع الإنسان الناطق السميع البصير ، الداعي إلى الهدى والرشاد ، فكذلك لا يتساوى الصنم الأجوف ، مع الإله الحق والقدير

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

***

ودلالات على وحدانية الله ، لقوم يُصدِّقون بقدرة الله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ والله جعل لكم من الحجر والمدر ، سكناً تسكنون فيه أيام مقامكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وجعل لكم بيوتاً من الأنطاع والفساطيط[1] ، تستخفون حملها يوم سفركم ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً﴾ وجعل لكم من أصواف الضأن ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز متاعاً للبيت كالطنافس والبسط والثياب ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ وبلاغاً لكم إلى حين الموت ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً﴾ ومن نعمه عليكم أن جعل لكم من الأشجار ظلالاً ، تستظلُّون بها من شدَّة الحرِّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ وجعل لكم ثياباً من القطن والكتان والصّوف تحفظكم من الحر والبرد[2] ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ تقيكم الحرب ﴿ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ كما أنعم عليكم بهذه الأشياء ، فكذلك يتمُّ نعمته عليهم ، لكي تخضعوا لله بالطاعة، وتُخلصوا له العبادة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن لم يستجيبوا لك وأعرضوا عنك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ فما عليك لومٌ لأنك بلّغت الرسالة بوضوح ﴿يَعْرِفُونَ نَعْمَةَ اللَّهِ ثم يُنْكِرُونَهَا﴾ يعرفون نعمة الله عليهم ببعثة محمد ﷺ إليهم ، ثم ينكرون نبوَّته عناداً ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وأكثر قومك جاحدون لنبوَّتك[3] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ ويوم نبعث من كلّ أمةٍ نبيَّها ، ليشهد عليها بما أجابت به داعي الله ﴿ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يُؤذن لهم في الاعتذار فيعتذروا[4] ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُترك لهم الرجوع إلى الدنيا لينيبوا ويتوبوا

(١) الأنطاع : جمع نِطع وهو الجلد الرقيق ، والفساطيط جمع فسطاط وهو الخيمة المضروبة كالقبة ، وهي للمسافر كالبيت للمقيم

(٢) ذكرُ الحرّ دون البرد من باب الاكتفاء ، والأصل أن يُقال «تقيكم الحرَّ والبرد» فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر

(٣) هذا ما رجحه الطبري في تفسير الآية ، لأن ما قبلها وما بعدها خبر عن الرسول ﷺ ، واختار ابن كثير العموم في النعمة فقال: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره

(٤) لأنه لا حجة لهم ولا عذر .

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى
ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ
بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

***

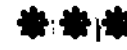
كقوله تعالى «هذا يومُ لا يَنْطقون . ولا يُؤْذن لهم فيعتذرون» ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ وإذا عاين المشركون عذاب الله ﴿فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ فلا يُخفَّف عنهم العذاب بالاعتذار ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يُؤخر عنهم العقاب ، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ وإذا رأى المشركون يوم القيامة، الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، من الآلهة والأوثان ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ هؤلاء الآلهة الذين كنا نعبدهم من دونك ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ فقالت لهم الآلهة[1] ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إنكم كاذبون أيها المشركون ، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ واستسلموا يومئذٍ لله وذلُّوا لحكمه ، ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم ما كانوا يؤمِّلونه من شفاعة الآلهة لهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين جحدوا نبوتك يا محمد ، ومنعوا الناس عن الإيمان بالله وبرسوله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ زدناهم في جهنم عذاباً فوق العذاب الذي هم فيه[2] ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بعصيانهم أمر الله وأمرهم الناس بمعصيته ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ نبعث في كل أمة نبيّها الذي بعثناه إليهامن نفسها أي منها ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وجئنا بك يا محمد شاهداً على أمتك[3] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ونزَّلنا عليك القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ بياناً لكل ما لهم به حاجة ، من معرفة الحلال والحرام ، والثواب والعقاب ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ وهدى من الضلالة ، ورحمةً لمن صدَّق به ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وبشارةً لمن أطاع الله وخضع لحكمه، يبشره بجزيل الثواب وعظيم الكرامة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ إن الله

(١) قال الطبري العرب تقول: ألقيتُ إليه كذا ، تعني بذلك قلتُ له

(٢) العذاب الأول بسبب ضلالهم ، وزيادة العذاب بسبب الإضلال ، وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في درجاتهم ومنازلهم في الجنة

(٣) قال ابن كثير المعنى اذكر ذلك اليوم وهوْله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾



يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله عليك يا محمد بالقسط والإنصاف ، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ بأداء فرائض الله في الشدة والرخاء ، والمنشط والمَكْره ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وإعطاء القريب الحقَّ الذي أوجبه الله عليك ، بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وينهى عباده عن الزنى ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وعن المنكر الذي تنكره العقول ، ولا يُعرف في شريعةٍ ولا سنة[1] ﴿وَالْبَغْيِ﴾ وعن التعدّي والظلم ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يوصيكم ربكم لتتذكَّروا فتنيبوا ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أوفوا بكل عهدٍ أوجبتموه على أنفسكم ، حقاً لمن عاقدتموه عليه ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تنقضوا الأيمان بعد توثيقها باسم الله وبعد إبرامها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وقد جعلتم الله شاهداً ورقيباً عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ يعلم أتبرُّون في العقود أم تنقضونها ؟ وسيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ ولا تكونوا في نقضكم العهود مثل التي غزلت ثم نقضت غزلها أنقاضاً من بعد إبرامه وهذا مثلٌ ضربه الله لمن نقض العهد[2] ، وكل شيءٍ نُقض بعد الفتل فهو أنكاثٌ ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها لمن عاقدتموه خديعةً وغروراً ، وأنتم تضمرون له الغدر وترك الوفاء ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أن يكون قومٌ أعزَّ وأكثر من قوم[3] ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ إنما يختبركم الله بأمره لكم بالوفاء بالعهد ليظهر المطيع من العاصي ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وليبيننَّ لكم ربكم في القيامة جزاء كل فريق منكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته[4] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ ولو شاء ربكم لوفقكم أيها الناس، فصرتم جميعاً أهل ملةٍ واحدة ، لا تختلفون ولا تفترقون ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكنه تعالى جعلكم أهل مِلَل شتَّى مؤمنين وكافرين ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وليسألنكم الله جميعاً عن

(١) قال قتادة لو سمعتم بامرأةٍ نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم ما أحمق هذه ؟ وهذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده.

(٢) نزلت في قوم بايعوا النبي ﷺ على الإسلام ، ثم أرادوا أن ينقضوا البيعة لكثرة المشركين

(٣) قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ، ثم يجدون من كان أعزَّ منهم وأشرف ، فينقضون حلف الأولين ويحالفون الذين هم أعزُّ وأمنع

(٤) المراد باختلافهم هو اختلافهم في الإيمان والكفر

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ
بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

***

أعمالكم يوم القيامة ، ثم يجازيكم عليها جزاء المطيع بطاعته ، والعاصي بمعصيته ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ ولا تتخذوا أيمانكم خديعةً بينكم تغرُّون بها النَّاس ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكون بعد أن كنتم آمنين من الهلاك[1] ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عن سبِيلِ اللَّهِ﴾ وتذوقوا عذاب الله الذي يُعذِّب به أهل المعاصي ، بسبب ما فتنتم الناس عن الإيمان بالله ورسوله[2] ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكم في الآخرة نار جهنم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا﴾ ولا تنقضوا عهودكم تطلبون بذلك عرضاً من الدنيا قليلاً ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فإنَّ ما عند الله لكم من الثواب على الوفاء بالعهد هو خيرٌ لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما تملكونه أيها الناس من الدنيا فانٍ ، وما عند الله فهو الباقي ، فاحرصوا على الباقي الذي لا يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسنِ ما كانوا يَعْمَلُونَ﴾ ولنثيبنَّ الصابرين على طاعتهم لله ، بأحسن الأعمال التي عملوها في الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ من عمل من بني آدم بطاعة الله ، ذكراً كان أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهو مصدِّقٌ بثواب الله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة[3] ، بالرضى بما قسم الله له وبالقناعة ، فلا يتكدَّر عيشه ولا يكثر تعبه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة إذا صاروا إلى الله جازاهم بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وإذا أردت يا محمد قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير وأحتمي بالله من شرّ الشيطان المرجوم أن يصدني عن الهدى[4] ﴿إِنَّهُ لَيْس لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الشيطان ليس له

---

(١) هذا مَثَلٌ يضرب لمن وقع في بلاء بعد عافية ، أو سقط في ورطةٍ بعد سلامة فيقال : زلَّت قدمُه

(٢) إنما سمي هذا صدّاً عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصده ذلك عن الدخول في الإسلام

(٣) اختلف في الحياة الطيبة فقيل: هي في الجنة وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة، لأن الإنسان في الدنيا لا يخلو من مشقة وأذية ومكروه ، وأما الآخرة فحياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا مرض، وملك بلا زوال، وسعادة بلا انتقال، والأكثرون على أنها في الدنيا لقوله بعده ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وهو اختيار الطبري وهو الأرجح ، والحياة الطيبة أن يعيش سعيداً ، هنيئاً في حياته ولو كان قليل الزاد .

(٤) قال الطبري : وليست الاستعاذة بالأمر اللازم ، وإنما هي إعلام وندب ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع أن من قرأ ولم يستعذ =

إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾



تسلُّطٌ ولا حجة على الذين صدَّقوا بالله ورسوله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيما نابهم من مهمات الأمور ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ إنما حجته وتسلُّطه على الذين يطيعونه ويعبدونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ والذين هم يشركون بالله(١) ، ويعدلون الشيطان برب العالمين ، قال ابن عباس: السلطان على من تولَّى الشيطان وعمل بمعصية الله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ وإذا نسخنا حكم آية ، فأبدلناه بحكم أخرى ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ والله أعلم بما هو أصلح لخلقه من الأحكام ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ قال المشركون: ما أنت يا محمد إلَّا كاذب ، تتقوَّل على الله الباطل(٢) ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أكثر هؤلاء جُهَّال ، لا يعلمون حقيقة الأمر ﴿قُلْ نَزَّلَه رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قل لهم يا محمد جاء بالقرآن جبريل من عند ربي بالحقّ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تثبيتاً للمؤمنين ، وتقويةً لإيمانهم بناسخه ومنسوخه ﴿وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وهداية لهم من الضلالة ، وبشرى للذين استسلموا لأمر الله ، وانقادوا لحكمه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ نحن نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلاً منهم إنما يُعلِّم محمداً هذا القرآن بشرٌ ، وما هو من عند الله ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ لسانُ الرجل(٣) الذي يميلون إليه ، ويزعمون بأنه علَّم محمداً القرآن أعجميٌ(٤) ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا القرآن لسانٌ عربيٌ ظاهر، ذو بيانٍ وفصاحة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إن الذين لا يصدّقون بحجج الله وأدلته ، لا يوفقهم الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم لسبيل الرشد ﴿وَلَهُمْ

=بالله ، لم يضيّع فرضاً واجباً ، وإنما ذلك بطريق الندب

(١) الضمير في قوله ﴿والذين هم به﴾ يعود على الله تعالى وهو ترجح الطبري ، وقيل يعود على الشيطان والمعنى والذين هم بسبب الشيطان يشركون بالله

(٢) قال ابن عباس كان إذا أُنزلت آية فيها شدة ، ثم نزلت آية ألينُ منها ، قال كفار قريش إن محمداً يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه ، فنزلت الآية «غرائب القرآن للنيسابوري ج ١٤ ص ١١٦».

(٣) المراد باللسان اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾ أي بلغة قومه

(٤) كان المشركون يزعمون أن محمداً ﷺ يتعلم القرآن من «جبر الرومي» وهو غلام نصراني ، كان يجلس عنده ﷺ في بعض الأحيان ، وقد ردَّ القرآن عليهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع فقال: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ فكيف يعقل للعجمي أن يعلم العربية وهو لا يعلمها ؟!

إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ
إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ

***

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب موجع ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إنما يتقوَّل الكذب والباطل ، الذين لا يُصدّقون بحجج الله وأدلته ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وهؤلاء هم أهل الكذب لا المؤمنون ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ من أشرك بالله وارتد عن دينه من بعد إيمانه[١] ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ إلا من أُكره على الكفر ، فنطق بلسانه بكلمة الكفر ، وقلبه موقن بالإيمان ، لينجو بذلك من عدوه فلا حرج عليه ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ لَكِنْ من اختار الكفر وآثره على الإيمان طائعاً ﴿فعليهم غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فعليهم سخطٌ من ربهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ ذلك العذاب ، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة ﴿وأن اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يوفقهم للإيمان ولا إلى طريق الجنة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أولئك الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يؤمنون ، وأصمَّ أسماعهم فلا يسمعون الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يرون حجج الله ، رؤية معتبر ومتّعظ ﴿وأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ السّاهون عمَّا أعدَّ الله لهم من العذاب[٢] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حقاً إنهم في الآخرة هم الهالكون ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ ثم إن ربك يا محمد للذين هجروا ديارهم ومساكنهم ، من بعد ما فتنهم المشركون ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ ثم

(١) نزلت هذه الآية ـ كما قال ابن عباس وغيره في «عمَّار بن ياسر» وذلك أن المشركين بمكة أخذوه وأباه «ياسراً» وأمه «سُمَيَّة» فعذبوهم ليفتنوهم عن الدين ، فأما «سميَّة» فإنها ربطت بين بعيرين ، ووجىء قُبُلُها ـ فرجها ـ بحربة وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال وماتت تحت العذاب ، وقتل زوجها «ياسر» وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، وأُخبر رسولُ الله بأن عماراً كفر فقال كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فقال كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . فقال ﷺ إن عادوا فعد ، وفي بعض الروايات أنه سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم شكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت

(٢) المراد أنهم الكاملون في الغفلة ، إذ غفلوا عن تدبر العواقب

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ

***

جاهدوا بالسيف واللسان ، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لهم ما كان منهم ، رحيم بهم أن يعاقبهم مع توبتهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أنذرهم يوم تأتي كلُّ نفسٍ تخاصم وتحتج عن نفسها ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ وتنال كلُّ نفسٍ جزاءها كاملاً، على ما عملت في الدنيا من طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينالون إلاَّ ما يستوجبونه من خير أو شر ، فلا يُبخس محسنٌ جزاء إحسانه ، ولا يُثاب مسيءٌ إلاَّ بعمله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ ومثَّل الله مثلاً لمكة وأهلها المشركين بالله ، وهي البلدة التي كانت آمنةً مطمئنَّةً لا يغار عليها أحد ، ولا يُحاربون في بلدهم[1] ، والعربُ يقتل بعضهم بعضاً ،ويسبي بعضهم بعضاً ﴿يأتيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ تأتيها المعايش والأرزاق واسعة كثيرة من كل ناحية ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ فكفر أهل هذه القرية بنعم الله ، التي أنعم بها عليهم ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فأذاقهم الله جوعاً خالط أذاه أجسامهم[2] ، وخوفاً شديداً ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بكفرهم بنعم الله ، وجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ ولقد جاء أهل مكة رسولٌ من أنفسهم ، يعرفون نسبه وصدقه ، وهو محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فلم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فأخذهم الله بالجوع والخوف ، وسلبهم الأمن والطمأنينة ، وهم مشركون قد قُتل عظماؤ هم يوم بدر وهم على الشرك ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فكلوا أيها الناسُ من بهائم الأنعام ، التي أحلَّها الله لكم ﴿حَلالاً طَيِّباً﴾ مُذكَّاة غير محرَّمة عليكم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ واشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تعبدون ربكم ، بطاعته فيما أمركم ونهاكم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الْخِنْزِير﴾ ما حرَّم

---

(١) هذا مثل ضربه الله لأهل مكة ، كانوا في الأمن والطمأنينة ، والخصب والسعة ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظمى وهي بعثة محمد ﷺ فكفروا بها وبالغوا في إيذائه ، فسلط الله عليهم البلاء ، وعذبهم بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والوبر.

(٢) قال الطبري سلَّط الله عليهم الجوع سنين متوالية ، بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، حتى أكلوا الجيفَ والعِلْهز - الوبر يعجن بالدم - والقُراد ، وأما الخوف الذي أصابهم فهو خوفهم من سرايا رسول الله ﷺ التي كانت تطيف بهم

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

***

الله عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وما ذبح للأنصاب وسمي عليه غير اسم الله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فمن احتاج إلى أكل شيء من ذلك، لمجاعةٍ حلَّت به ، فأكله غير باغٍ في أكله ، ولا متعدٍ الحلال إلى الحرام[1] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله حال الضرورة ، رحيم به فلا يعاقبه عليه ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ ولا تقولوا فيما رزق الله عباده من المطاعم هذا حلالٌ وهذا حرام ، لوصف ألسنتكم الكذب على الله[2] ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ كي تفتروا بقولكم ذلك الكذبَ على الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ إن الذين يختلقون الكذب على الله ، لا ينجحون في الدنيا ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لهم متاعٌ قليلٌ في الدنيا ، ولهم عند معادهم ومصيرهم إلى الله عذاب موجعٌ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وعلى اليهود حرمنا ما أنبأناك عنه من قبلُ في سورة الأنعام[3] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمناهم بتحريمنا ذلك عليهم، ولكنْ جازيناهم فعاقبناهم ببغيهم وظلمهم أنفسهم بالمعاصي ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ إن ربك للذين عصوا الله ، وجهلوا بركوبهم معصية الله[4] ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم ندموا وتابوا من بعدما سلف منهم من المعاصي ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ فعملوا بما يحبه الله ويرضاه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربك من بعد توبتهم ، ساترٌ لذنوبهم، رحيم بهم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنَّ إبراهيم خَلِيلُ الله ، كان معلِّماً للخير ، وإماماً يأتم به أهل الهُدى ﴿قَانِتاً

---

(١) الباغي من يأكل فوق حاجته ، والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد غيرها

(١) معناه لا تحرّموا ولا تحلّلوا لأجل قولٍ تنطق به ألستكم من غير حجة ولا دليل ، وقال﴿تصف ألسنتكم﴾ولم يقل تقول ألسنتكم ، فإن التعبير من فصيح الكلام وبليغه ، كأنَّ ماهية الكذب مجهولة وكلامهم يكشف عن حقيقته ، ونظيره قولهم وجههُ يصف الجمال، وعينُه تصف السحر ،وهذا في ذُروة الحسن والجمال

(٣) وهي قوله تعالى﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما . .﴾الآية،الأنعام آية ١٤٦

(٤) قوله﴿عملوا السوء بجهالة﴾أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه ، أو غير متأملين في وخامة عاقبة الأمر.

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

***

﴿لِلَّهِ﴾ مطيعاً للّهِ ﴿حَنِيفاً﴾ مستقيماً على دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما كان مشركاً بالله[1] ﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾شاكراً لله فيما أنعم عليه ، يخلص الشكر لله ﴿اجتباه﴾ اصطفاه واختاره لخلته ﴿وَهَدَاهُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ وأرشده إلى الطريق المستقيم، وهو دين الإسلام، لا اليهودية والنصرانية ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وأعطيناه في الدنيا على شكره ، وإخلاصه العبادة لله ذكراً حسناً ، وثناءً جميلاً باقياً على الأيام ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهو يوم القيامة، ممن علَتْ منزلته وكرامته عند الله ، وصلح أمره وشأنه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ ثم أوحينا إليك يا محمد بأن تتّبع الملّة الحنيفة ، مسلماً على الدين الذي كان عليه إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكين﴾ بريئاً من الأوثان والأنداد ، كما كان بريئاً منها إبراهيم ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ما جعل الله تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه ـ وهم اليهود ـ اختاروا السبت[2] وتركوا يوم الجمعة ، الذي فرض الله عليهم تعظيمه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإن ربك يا محمد ليفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العادل ، فيجازي كلاً بما هو أهلهُ ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أدع يا محمد الناس إلى شريعة ربك ، التي شرعها لخلقه وهي الإسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ بالكتاب الذي أنزله عليك ـ الذي هو الحكمةُ[3] ، والحجج والعبادات الجميلة ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وخاصمهم بالطريقة التي هي أحسن من غيرها ، بأن تصفح عمَّن آذاك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سبِيلِهِ﴾ أعلم بمن جار عن قصد السبيل ، وحادَّ الله ورسوله ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وهو أعلم بمن سلك محجة الحق

---

(١) وفي الآية تنبيهٌ للمشركين ولليهود والنصارى أن إبراهيم بريءٌ منهم ، لأنه كان مسلماً ولم يكن مشركاً﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً﴾فهو رئيس الموحدين ، وقدوة أكابر النبيّين ، فمن انحرف عن ملته غوى وهوى

(٢) إنما اختار اليهود السبت ليكون عيداً لهم ، لأنه ـ على زعمهم يوم استراحة الرب ـ حيث قالوا إن الله فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثم استراح يوم السبت، فنحن نعظم هذا اليوم لأنه يوم استراحة الرب جل وعلا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

(٣) فسَّر الطبري الحكمة بأنها الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وأرى أن المراد بالحكمة هنا ، الطريقة الحكيمة التي يعرضها الشخص لإقناع خصمه ، ولا شك أن طريقة القرآن هي الطريقة المثلى في الإقناع.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

***

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وإن عاقبتم من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما نالكم من العقوبة[1] ﴿ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرينَ﴾ ولئن صبرتم واحتسبتم ما نالكم من الظلم، ابتغاء ثواب الله، كان ذلك خيراً لكم ﴿واصْبِرْ وماصَبْرُكَ إلاّ بِاللَّهِ﴾ واصبر يا محمد على الأذى في سبيل الله، وما صبرك إلا بمعونته وتوفيقه ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عليهم﴾ ولا تحزن على إعراض المشركين عن دعوتك ﴿وَلاَ تَكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون﴾ ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، وبما يحتالون في الصدّ عن سبيل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إن الله مع المتقين والمحسنين، بالنصر والتأييد، وهم الذين اتقوا محارم الله، وأحسنوا القيام بطاعته

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

***

(١) روي أن المشركين لما مثّلوا بقتلى المسلمين في أُحد، قال المسلمون لئن أظفرنا الله عليهم لنفعلنّ ولنفعلنّ، فنزلت الآية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

***

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ تنزيهاً لله وتعظيماً له ، مما نسبه إليه المشركون من الصاحبة والولد ، الذي سار بعبده محمد في الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ من بيته الحرام إلى مسجد بيت المقدس ، أسرى به يقظةً لا مناماً ، بجسده وروحه[1] ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الذي جعلنا البركة حوله لسكانه ، في معايشهم وغروسهم ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ كي نري محمداً ﷺ من عجائب العبر والمواعظ ﴿إِنَّهُ هو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إن الله هو السميع لأقوال الكفار ، البصير بأعمالهم ، وهو لهم بالمرصاد ﴿وَآتَيْنَا مُوسى الْكِتَابَ﴾ أعطيناه التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدَىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب هداية لبني إسرائيل على محجة الصواب ، يخرجهم من الظلماتِ إلى النور ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ بألَّا تتخذوا يا بني إسرائيل شريكاً لله في ملكه . قال مجاهد « وكيلاً » شريكاً ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) اتفق العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد ، يقظةً لا مناماً ، هذا هو الصحيح الذي ذهب اليه الطبري وجمهور المفسرين ، والذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ، ونذكر هنا أدلة الجمهور بإيجاز فنقول أولاً إن بدء السورة بالتسبيح يدل على أن الأمر كان خارقاً وعجيباً . ثانياً : إن الله قال ﴿أسرى بعبده﴾ والإسراء هو السيرُ ليلاً وقطع المسافات فعلاً ولفظ « العبد » مجموع للروح والجسد ، فلم يقل بروح عبده . ثالثاً ركوبه ﷺ على البُراق كما في صحيح البخاري ، والدابةُ تحمل الجسد لا الروح . رابعاً لو كان الإسراء بالمنام لما كذبته قريش ، فإن أمر المنام ليس فيه شيءعجيب ، وكل واحدنا يرى أشياء وأشياء لا تخطر على البال . خامساً ذكر الله الزمان فقال « ليلاً » والمكان فقال ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ والحكمة والغاية فقال ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي من عجائب قدرتنا ، فلا بدَّ إذاً أن تكون رؤ ية الآيات حقيقية ، وأنها وقعت فعلاً باليقظة لا بالمنام ، وأن الإسراء كان بالجسد والروح ، وذلك ما تدل عليه نصوص القرآن

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ

***

نُوحٍ﴾ يا ذرية من حملنا في السفينة مع نوح **﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾** إن نوحاً كان شاكراً للّهِ على نعمه **﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾** وأعلمنا بني إسرائيل وأخبرناهم وقلنا لهم في التوراة **﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾** لتفسدن في أرض مصر مرتين[١] **﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾** ولتستعلن على الناس علواً كبيراً بالبغي والتسلط **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾** فإذا جاء وعد أولى المرتين **﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لنا﴾** سلطنا عليكم عباداً لنا **﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾** ذوي بطش في الحروب شديد **﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾** فترددوا بين الدور والمساكن ، ذاهبين وجائين **﴿وَكَانَ وَعْداًمَفْعُولاً﴾** محققاً لا محالة ، لأن الله لا يخلف الميعاد **﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾** رددنا لكم الدولة والغلبة على أعدائكم **﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾** ورددنا ما أعطيناكم من الأموال والبنين **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾** وجعلناكم أكثر عدداً منهم **﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم﴾** إن أحسنتم يا بني إسرائيل فأطعتم ربكم ، وأصلحتم أمركم ، نفعتم أنفسكم **﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾** وإن عصيتم ربكم فإنما تسيئون لأنفسكم **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾** فإذا جاء وعد المرّة الآخرة ، من إفسادكم في الأرض **﴿لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ﴾** ليسوء العباد وجوهكم فيقبّحوها **﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** وليدخل أعداؤكم مسجد بيت المقدس ، كما دخلوه أول مرة حين أفسدتم في الأرض **﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾** وليدمّروا بلادكم تدميراً **﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾** لعلَّ ربكم يرحمكم بعد انتقامه منكم **﴿وَإِنْ عُدْتُّمْ عُدْنَا﴾** وإن عدتم لمعصيتي وقتل رسلي ، عدنا عليكم بالقتل والأسر ، وإحلال الذل والصَّغار **﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾** مهاداً وفراشاً للكافرين[٢] **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي**

---

(١) كان أول الفسادين قتلهم نبي الله « زكريا » فبعث الله لهم ملك فارس « بختنصّر » فقتلهم وخرَّب بيت المقدس ، والفساد الثاني قتلهم « يحيى بن زكريا » عليه السلام ، فسلط الله عليهم من قتلهم وشرَّدهم ، وأسر منهم ما يزيد على سبعين ألفاً ، بقوا في الذل والهوان ، إلى أن قيَّض الله لهم من نجَّاهم ، وكلُّ ذلك بسبب الكفر والعصيان ، والمقصود الأصلي من الآيات أنهم كلما عصوا وأفسدوا ، سلَّط الله عليهم أعداءهم ، وفيه تحذيرٌ للعقلاء من عصيان أوامر الله وارتكاب محارمه

(٢) هذا قول الحسن واختاره الطبري ويشهد له قوله تعالى ﴿لهم من جهنم مهادٌ﴾ وقال ابن عباس أي سجناً يسجنون فيها ويُحصرون

أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ
شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾
ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

***

هِيَ أَقْوَمُ﴾ إنَّ هذا القرآن يرشد ويسدِّد للطريق التي هي أقوم الطرق ، وهو الإسلام الذي بعث الله به أنبياءه **﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾** ويُبشِّر ـ مع هدايته ـ أهل الإيمان والعمل الصالح **﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾** بأنَّ لهم ثواباً عظيماً وجزاءً جزيلاً ، وهو الجنة التي أعدها الله لأوليائه **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾** وأن الذين لا يصدِّقون بالثواب والعقاب ولا بالمعاد إلى الله **﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾** أعددنا لهم يوم القيامة عذاباً موجعاً في جهنم **﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾** ويدعو الإنسان على نفسه وولده عند غضبه ، كدعائه بالخير فيلعن نفسه وولده ، ولو استجيب له بالشر كما يُستجاب له بالخير لهلك **﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾** ضجراً لا صبر له على سرَّاء ولا ضرَّاء **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾** جعلنا الليل والنَّهار علامتين دالتين على كمال قدرتنا **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾** فطمسنا علامة الليل فجعلنا الليل مظلماً ، وجعلنا علامة النهار منيرة مضيئة **﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾** لتسكنوا في الليل ، وتتصرفوا في النَّهار طلباً لرزق الله **﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾** ولتعلموا باختلافهما دخول السنين وانقضاءها ، وحساب ساعات الليل والنهار **﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾** وكل شيء بيَّناه بياناً شافياً[١] **﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** وكل إنسان ألزمناه عمله ، وما قُدِّر له من خير أو شر[٢] **﴿وَنُخْرِجُ له يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾** ونخرج له إذا وافاناكتاباً ، يصادفه منشوراً بأعماله التي عملها في الدنيا ، قد أحصى عليه كل ما سلف **﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ﴾** يُقال له إقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا **﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** حسبُك أن تكون نفسك اليوم شاهداً على أعمالك.قال **الحسن** عَدَل واللَّهِ من جعلَك حسيب نفسك **﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾** من استقام على طريق الحق واتَّبعه ، فليس ينفع غير نفسه **﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾** ومن جار عن قصد السبيل وكفر بالله

---

(١) المراد أن كل ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ، بيَّنه تعالى بياناً واضحاً شافياً حتى تزول الأعذار

(٢) قال الطبري هذا مثل لما كانت العرب تتفاءل أو تتشاءم به من الطير ، فأعلمهم جل وعلا أن كل إنسان قد قلَّده ربه طائره في عنقه ، نحساً كان ذلك يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنات عدن

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا
مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾
كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

***

ورسوله ، فليس يضرُّ غير نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى **قال قتادة** والله ما يحمل عبدٌ ذنب غيره ، ولا يُؤاخذ إلاَّ بعمله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وما كنا لنهلك قوماً ، إلاَّ بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا أردنا أن نهلك أهل بلدةٍ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فيها﴾ أمرنا مترفيها بالطاعة[1] ، فعصوا وفسقوا فيها بمخالفتهم أمر الله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها وعيد الله بالهلاك ، بعد الإعذار إليها والإنذار ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ فخربناها تخريباً ، وأهلكنا أهلها إهلاكاً﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكم أهلكنا قبلكم أيها القوم أمماً كثيرين ، من بعد نوح إلى زمانكم ، كذَّبوا رسلهم كما كذبتم رسولكم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ وحسبك يا محمد أن الله عالمٌ بذنوب خلقه ، ومطَّلع على أعمالهم لا يخفى عليه منها شيءٌ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ لمشركي قريش ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ من كان طلبه الدنيا ، لها يعمل وإيَّاها يبتغي ، لا يرجو ثواباً ولا عقاباً ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ عَجَّلنا له في الدنيا ما شئنا من بسط النعيم ، لمن نريد أن نفعل به ذلك[2] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ ثم أصليناه في الآخرة جهنم ، مذموماً على قلة شكره ، مبعداً مقصيًّا في النار ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ومن طلب الآخرة ، وعمل له عملها ، وذلك بطاعة الله وما يرضيه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهو مصدِّقٌ بثواب الله وعظيم جزائه ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ فهؤلاء يجزيهم الله أحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة ، ويتجاوز لهم عن سيِّئها برحمته ﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾ كلا الفريقين نزيدهم من عطائنا ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾

(١) هذا ما رجحه الطبري وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهو الصحيح لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، ففي الكلام محذوف تقديره أمرناهم بطاعة اللهِ فعصوا وفسقوا فيها ، وقيل إن المراد أكثرنا مترفيها أي جبابرتها ، وقرىء بالتشديد « أمَّرنا » أي جعلناهم أمراء وسلَّطنا أشرارها فعصوا فيها ، والقول الأول هو الراجح وهو الصحيح

(٢) قيِّد المعجِّل بقيدين أولاً المشيئة الإلّهية « ما نشاء » فكثيراً ما يتمنَّى أرباب الدنيا شيئاً ولا يحصل لهم أو يعطون بعضه ، فليس كل ما يتمناه الإنسان يناله ، والثاني الإرادة « لمن نريد » ولهذا ترى كثيراً منهم يتمنون البعض اليسير من الدنيا ولا يؤتونه ، فيجتمع عليهم فقر الدنيا وحرمان الآخرة

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ
أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل
رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

***

مريد العاجلة ، ومريد الآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ نرزقهما جميعاً من رزقنا إلى بلوغ أجلهما ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحدٍ من خلقه. **قال قتادة** قسم الله الدنيا بين البرِّ والفاجر ، وجعل الآخرة خصوصاً للمتقين ﴿أنْظُرْ كَيْفَ فضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أنظر يا محمد كيف فضَّلنا أحد الفريقين على الأخر ، فبصَّرنا هذا بالطريق الأقوم ، وخذلنا هذا فأضللناه عن طريق الحق والرشد[1] ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ ولتفاوتُهم في الآخرة أكبر من الدنيا ، لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة ، بتفضيل الله بعضهم على بعض ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ لا تجعل مع الله شريكاً في ألوهيته وعبادته ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ فتصير ملوماً على إشراكك ، مخذولاً من ربك ، قد أسلمك إلى من لا ينصرك ويدفع عنك ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وحكم ربك وأمر ، بألَّا تعبدوا إلا الله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً وأن تبرُّوهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إن أدركا سنَّ الشيخوخة والكبر ، أو صار أحدهما عاجزاً هرماً[2] ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ فلا تغلظ لهما القول فتقول « أفٍّ » تقذرهما ، ولكنْ اصبرْ على ذلك منهما ، واحتسب الأجر كما صبرا عليك في صغرك[3] ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ وقل لهما قولاً جميلاً حسناً ﴿واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ كن لهما ذليلاً رحمةً بهما ، ولا تخالفهما فيما أحبَّا ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ ادع لهما بالرحمة وقل يا رب ارحمهما وتعطَّف عليهما ، كما رحماني في صغري ، وربياني صغيراً حتى استغنيتُ عنهما ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من تعظيم أمر الآباء والأمهات والبرِّ بهم ، أو الاستخفاف بحقوقهم والعقوق لهم ، وهو مجازيكم على ذلك ﴿إِنْ

(١) جعل الشيخ الطبري التفضيل بين الفريقين في الدين ، وذهب غيره من المفسرين إلى أن التفضيل في الدنيا ، حيث أغنى هذا وأفقر هذا ، وأعزَّ هذا وأذلَّ ذاك ، وهو اختيار ابن كثير وهو الأرجح لأن سياق الآية في إمداد الرزق، والله أعلم

(٢) قال في الكشاف معنى « عندك الكِبرُ » هو أن يكبرا ويعجزا ، ويكونا كلًّا على ولدهما لا كافل لهما غيره

(٣) قال مجاهد : ﴿لا تقل لهما أفٍّ﴾ حين ترى الأذى منهما ، وتميط عنهما الخلاء والبول ، كما كان يميطانه عنك صغيراً ، وقال ابن كثير لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ، أقول وهذا أبلغ أنواع التحذير ، فإذا نهي الإنسان عن التأفف ، فكيف بالضرب والشتم واللعن !!

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

***

تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ إن أصلحتم نياتكم ، وأطعتم الله بالبِرّ بهم ثم فرطت منكم بادرة في حقهم ، فأنبتم واستغفرتم منها **﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾** يغفر زلّات التائبين ، الراجعين عن معصيته إلى طاعته **﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾** وأعط قرابتك حقهم من الصلةِ والبِرّ ، وكذلك ذا الحاجة المسكين ، والمسافر المنقطع في سفره **﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾** ولا تنفق المال وتفرّقه في معصية الله[1] **﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾** إن المنفقين أموالهم في غير طاعة الله ، كانوا أولياء الشياطين[2] **﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾** جاحداً لنعمة ربه **﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾** وإن تعرض بوجهك عن هؤلاء الذين أمرتك بالإحسان إليهم **﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾** انتظار رزقٍ من الله يأتيك **﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾** قولاً ليناً سهلاً بأن تقول سيرزق الله فأعطيكم **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾** ولا تُمسك يدك بخلاً عن الإنفاق ، كالمغلولة يده إلى عنقه لا يستطيع بسطها ولا قبضها[3] **﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾** ولا تبسطها بالعطاء كلَّ البسط ، وتبذِّر المال **﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾** فتبقى ملوماً عند الناس ، منقطعاً لا شيء عندك تنفقه ، نادماً على ما فرط منك **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** يوسّع الرزق على من يشاء من عباده ، ويُضيِّق على من يشاء منهم[4] **﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾** عالمٌ بمن تُصلحه السَّعة ومن يصلحه الإقتار ، بصيرٌ بتدبير شئون الخلق **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾** خوف الفاقة والفقر **﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾** فإن رزقكم ورزق أولادكم على الله **﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ**

---

(١) قال قتادة التبذيرُ النفقة في معصية الله ، وفي غير الحقّ ، وفي الفساد

(٢) قال الطبري العرب تقول لكل ملازم سنة قوم ، وتابع لأثرهم هو أخوهم

(٣) هذا مثل ضربه الله للبخل كالمشدودة يده إلى عنقه ، بحيث لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء ، ومثل للإسراف كالذي ينفق كل ما في يديه من أموال ويبذرها ثم يتحسر ويتألم

(٤) نبَّه تعالى إلى أن البسط والتضييق ، إنما هو لرعاية المصلحة ، وأنه تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة كما قال تعالى ﴿ولو بسط الله الرزقَ لعباده لبغوا في الأرض ، ولكنْ يُنزِّل بقدرٍ ما يشاء ، إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ﴾.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

***

﴿كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ إن قتلهم إثمٌ وخطيئةٌ عظيمة ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ولا تقربوا أيها الناس الزنى[1] ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ متناهياً في القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ وساء طريقاً ، لأنه يورد صاحبه نار جهنم ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق ، وذلك إذا كفرت بعد إيمان ، أو زنت بعد إحصان ، أو قتلت نفساً ، فتقتل بها قصاصاً[2] ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ فقد جعلنا لولي المقتول سلطاناً على القاتل ، إن شاء اقتصَّ ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية ﴿فَلاَ يُسْرِفْ في الْقَتْلِ﴾ فلا يقتل غير القاتل[3] ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ الولي هو المنصور حيث سلطناه على القاتل ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تأكلوا مال اليتيم ﴿إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلاَّ بالطريقة التي هي أحسن ، وذلك بالتثمير والإصلاح ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ باكتمال عقله وتدبير ماله وصلاح حاله ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ﴾ وأوفوا بالعقود في البيوع والإجارات والصلح وغيرها ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ مطلوباً يُسأل ناقض العهد عنه ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ وأوفوا الكيل إذا كلتم للناس حقوقهم ، ولا تبخسوهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وزنوا بالميزان العدل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ ذلك الوفاء بالكيل والوزن خيرٌ من التطفيف ، وأحسن ثواباً وعاقبة ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا تقل في الناس[4] ما لا علم لك به ، فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ إنَّ الله سائل هذه الأعضاء عمَّا قال صاحبها ﴿وَلاَ تَمْشِ في الأَرْضِ مَرَحاً﴾ مختالاً مستكبراً

(١) قوله « ولا تقربوا الزنى » آكد وأبلغ من قوله ولا تزنوا ، لأنه نهي عن الزنى وعن مقدماته من النظر والاختلاط ومحادثة النساء

(٢) أشار إلى الحديث الشريف « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »

(٣) نهى تعالى الوليَّ أن يقتل غير القاتل ، فقد كانوا في الجاهلية يقتلون بالرجل رجالاً ، وكانوا يعتدون بقتل غير القاتل من أخ وأب وقريب

(٤) وقيل المعنى ولا تتبع ما ليس لك به علم ، من قولك قفوت فلاناً أي اتبعت أثره ، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به ، قال ابن عباس لا تشهد إلا بما رأته عيناك ، وسمعته أذناك ، ووعاه قلبك

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ
قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ
كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ

***

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ لن تثقبها بشدة وطأتك ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ بفخرك وكبرك[1] ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ كل هذا الذي ذكرناه مكروه عند الله ، يكرهه ولا يرضاه ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، من الحكمة التي أوحيناها إليك في القرآن ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ لا تجعل مع الله شريكاً في عبادتك[2] ، فتلقى في جهنم ملوماً يلومك الناس ، مبعداً مقصياً في النار ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً﴾ أفخصكم ربكم أيها المشركون بالذكور من الأولاد ، واختار لنفسه البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ؟ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ بنسبتكم البنات إليه وافترائكم عليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد بيَّنا في هذا القرآن الحجج والآيات[3] ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليتذكروا ويعتبروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ وما يزيدهم تذكيرنا إلاّ بعداً عن الحق ، وهرباً منه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قل لهم لو كان الأمر كما تقولون من أن معه آلهة أخرى ﴿إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ إذاً لطلبت تلك الآلهة القرب من الله ، والتمست الزلفى إليه ، وما يقرّبهم منه[4] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ تنزيهاً لله وعلواً عما يصفه به المشركون من الكذب والبهتان ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ تُنَزِه اللَّهَ إعظاماً له وإجلالاً السمواتُ السبع والأرضُ ، ومن فيهنَّ من الملائكة والإنس والجن[5] ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وما من شيء من خلقه إلا

(١) في الآية نهي عن التكبر والخيلاء ، فالإنسان مخلوق ضعيف لا يقدر على خرق الأرض ، ولا على الوصول إلى رؤوس الجبال ، فلا يليق به أن يتكبر ، وكيف يتكبر من أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة« قذرة »

(٢) بدأ سبحانه هذه التكاليف بالنهي عن الشرك ، وكذلك ختمها به لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، فإذا فقده الإنسان لم ينفعه شيء

(٣) المراد بقوله « صرَّفنا » أي بيَّنا أحسن بيان ، لان من أراد بيان شيء فإنه يصرِّف كلامه من مثال إلى مثال ، ومن نوع إلى نوع ، حتى ينتهي به إلى مراده من الإيضاح

(٤) وقيل المراد لطلبوا مغالبة ذي العرش ، كما يفعل الملوك بعضهم ببعض ، وانظر الكشاف ٢/٥٢٨

(٥) قال ابن كثير : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه ، وتشهد له بالوحدانية في ألوهيته =

كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ
نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

* * *

يسبح بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولكن لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف ألسنتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ لا يعجل العقوبة لخلقه الذين يخالفون أمره ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ جعلنا بينك وبين هؤلاء المشركين ، الذين لا يصدّقون بالبعث ، ولا يقرُّون بالثواب والعقاب ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ حجاباً مخفياً عن أبصارهم فلا يرونه[1] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أغشية وأغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ صمماً عن سماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ وإذا قلت « لا إلّه إلا الله » وأنت تتلو القرآن ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ انفضوا ونفروا عنك نفوراً ، استكباراً واستعظاماً من توحيد الله ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ نحن يا محمد أعلم بما يستمع به هؤلاء المشركون من قومك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ حين يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب الله ، ويتشاورون في أمرك سراً في دار الندوة ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ حين يقول المشركون ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، سُحِر فاختلط عقله وزال ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ انظر يا محمد واعتبر كيف مثّلوا لك الأمثال ، فقالوا شاعر ، ساحر ، مجنون ، فضلوا عن قصد السبيل ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فلا يهتدون لطريق الحق ، لضلالهم وبعدهم عنه ، ولا يقدرون على المخرج من الكفر ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وقال المشركون أئذا متنا وصرنا عظاماً وتراباً في قبورنا[2] ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ هل سنبعث ونعاد خلقاً جديداً ، كما كنا قبل الممات ؟ قالوا ذلك إنكاراً منهم للبعث ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ قل لهم يا محمد كونوا كما تشاءون من الحجارة أو الحديد[3]

= وربوبيته ، وما من شيء إلا يسبح بحمده ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وقيل ما كان فيه روح من حيوان ونبات

(١) عن ابن عباس أن النضر بن الحارث ، وأبا سفيان ، وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون الرسول ﷺ ويسمعون حديثه ، فقال النضر يوماً ما أدري ما يقول محمد ؟ غير أني أرى شفتيه تتحركان بشيء ، وقال أبو سفيان إني أرى بعض ما يقوله حقاً ، وقال أبو جهل هو مجنون ، فنزلت ﴿وإذا قرأت القرآن ﴾ الآية

(٢) الرُفات الأجزاء المفتّتة من كل شيء كالرُضاض والفتات

(٣) هذا الأمر يُراد به التعجيز والتبكيت

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

***

﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أو كونوا خلقاً آخر يعظم في صدوركم كالسماء، والأرض، والجبال، فإني أُحييكم، وأبعثكم قال ابن عباس لو كنتم الموت لأحييتكم(٢) ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ فسيقولون من يعيدنا خلقاً جديداً، إذا كنا حجارة أو حديداً؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل لهم يعيدكم الذي خلقكم أول مرة، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ فسيهزُّون إليك رءوسهم، ويحركونها سخريةً واستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ ويقولون متى البعث؟ ومتى يعيدنا الله خلقاً جديداً؟ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ قل لهم هو قريب كما في الحديث «بُعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى(٣)» ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ يوم يدعوكم ربكم لموقف القيامة، فتستجيبون لأمره ودعائه، حامدين الله في كل حال ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وتحسبون من هول ما تشاهدون، أنكم ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً(٤) ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقل لعبادي المؤمنين يقولوا في خطابهم الكلام الأحسن كقوله يرحمك الله، يغفر الله لك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ إن الشيطان يفسد بينهم، ويُهيج بينهم الشر ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ ظاهر العداوة، بحسده لآدم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ربكم أيها القوم أعلم بكم(٥) ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ إن يشأ يرحمكم بتوفيقه لكم للهداية والتوبة، أو إن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ وما أرسلناك يا محمد عليهم رقيباً، وإنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ

---

(١) ذكر الحجارة والحديد لأنهما أبعد شيء من الحياة، وأشد امتناعاً من الرفات والعظام، وهذا على الفرض والتقدير أي لو فرض وصرتم من مادة صلبة كالحجارة والحديد فإن الله سيبعثكم

(٢) المعنى لو صارت أجسامكم نفس الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله، وهذا إنما يحسن على سبيل المبالغة

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم

(٤) كقوله تعالى ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشيةً أو ضحاها﴾.

(٥) أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن يستحق الضلالة

بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

***

﴿أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وربك أعلم بخلقه وما يُصلحهم ، فإنه خالقهم ورازقهم ومدبرهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ على بَعْضٍ﴾[1] برفع بعضهم على بعض درجات[2] ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ وأعطينا داود الزبور[3] كما أعطيناك القرآن ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ادعوا الذين زعمتم أنهم أرباب من الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ﴿فلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ لا يقدرون على دفع الضُّرِّ عنكم ، أو تحويله إلى غيركم ، حتى تدعوهم آلهة ؟ وإنما يقدر على ذلك الله وحده ، الذي له الخلقُ والأمرُ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم أرباباً يطلبون الزلفة والقربة من الله ﴿أَيُّهُمْ أقربُ﴾ أيهم بطاعته أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ويرجون بطاعتهم وعبادتهم رحمته ، ويخافون من عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ جديراً بأن يُتَّقى ويُحذر منه ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وما من أهل قرية من القرى ، إلا نحن مهلكوها بالفناء أو عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ أو معذبوها بالقتل والسبي وأنواع العذاب ، إذا تركوا أمر الله وكذَّبوا رسله[4] ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك مكتوباً في اللوح المحفوظ ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ وما منعنا أن نأتي بالآيات التي سألها قومك ﴿إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ إلاَّ تكذيب من سبقهم من الأمم ، فلو أعطينا قومك ما اقترحوا ثم كذبوا ، لسلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم[5] ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ وأعطينا ثمود الناقة ـ كما سألوا ـ حجةً بيِّنة أنها من عند الله ﴿فَظَلَمُوا

(١) الآية ردٌّ على أهل مكة ، في إنكارهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً مفضلاً على الخلائق ، دون صناديد قريش وأكابرهم
(٢) كما رفعنا درجتك يا محمد بإرسالك للناس كافة ، وجعلناك خاتم الأنبياء ، وأمتك خير الأمم
(٣) التفضيل ليس بالمال والملك ، وإنما هو بالعلم والدين ، فإن داود كان ملكاً عظيماً ولم يذكره الله سبحانه إلا بمزية إيتاء الكتاب
(٤) إنما يكون هلاكهم بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال عبد الرحمن بن عبد الله إذا ظهر الزنا والربا في أهل قرية أذن الله في هلاكها ، ويؤيده قوله تعالى ﴿وكأيِّنْ من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُكراً﴾.
(٥) قال ابن عباس سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يُنحّي عنهم الجبال فيزرعوا ، فأخبره ربه أنهم لو أعطوا =

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ

***

بِهَا﴾ فقتلوها وعقروها **﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾** وما نرسل بالعبر إلَّا تخويفاً للعباد ، لعلهم يعتبرون ويذكَّرون **﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾** واذكر يا محمد حين قلنا لك إنا سنمنعك من الناس فلا تتهيَّب منهم في تبليغ رسالتنا ، فهم في قبضتنا ومشيئتنا(١) **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾** وما جعلنا ما شاهدتَه ليلة الإسراء(٢) من الآيات والعبر ، إلَّا ابتلاءً واختباراً للناس **﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾** وكذلك شجرة الزقوم جعلناها فتنة للناس ، أما فتنتهم في الرؤ يا فارتداد من ارتد عن الإسلام ، واستهزاء المشركين حين أخبرهم عما رآه في إسرائه ، وأما فتنتهم في الشجرة فقولهم كيف تنبت شجرةٌ في النار ، والنارُ تأكل الشجر(٣) ؟ **﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾** ونخوِّف المشركين بالعقوبات ، فما يزيدهم تخويفنا إلَّا تمادياً وغيَّاً في كفرهم **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾** اسجدوا لآدم سجود تحيةٍ وتكريم **﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾** أبى السجود حسداً واستكباراً(٤) **﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾** قال أأسجد لمن خلقته من طين ؟ **﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾** أرأيت « آدم » الذي كرَّمته عليَّ فأمرتني بالسجود له **﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** فأقسمُ لئن أخَّرت إهلاكي إلى يوم القيامة **﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾** لأستولينَّ عليهم ولأستأصلنهم إلا قليلاً منهم **﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾** قال الله لإبليس اذهب فقد أخَّرتك ، فمن أطاعك من ذرية آدم **﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾** فإن جزاءهم عذاب جهنم على معصيتي ، جزاءً وافراً مكمَّلاً **﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ**

= ما سألوا ثم كذبوا ، لأهلكهم الله بعذاب الاستئصال

(١) هذا وعدٌ من الله بنصرة رسوله على المشركين ، وعصمة له من شرهم وكيدهم كقوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس قال هي رؤ يا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به

(٣) هذا إشارة إلى ما قاله أبو جهل اللعين يزعم صاحبكم أن في النار شجرة ، والنارُ تأكل الشجر ، وكان يدعو بالتمر والزبد ، ويأكل هذا بهذا ويقول هذا الزقوم الذي أوعدكم به محمد فتزقموا

(٤) انظر التحقيق العلمي في أن إبليس من الجن وليس من الملائكة والأدلة على ذلك في أول سورة البقرة

(٥) هذا ما رجحه الطبري أن المراد بالصوت كل داع إلى معصية الله ، وقيل المراد به اللهو والغناء

ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي
لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ
إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ
عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ

***

﴿اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ استخفَّ من استطعت منهم بدعائك لهم إلى معصية الله ﴿وَأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واجمع عليهم كل ما تقدر من جندك من الركبان والمشاة(١) ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾ وشاركهم في كل ما اكتُسب من حرام ، أو أُنفق في حرام ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالنصرة على الأعداء ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ ما يعدهم إلا الباطل والخديعة ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إنَّ عبادي المؤمنين الذين أطاعوا أمري ، ليس لك عليهم حجة ﴿وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ حافظاً ومؤيداً ونصيراً ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ ربكم أيها القوم هو الذي يسيِّر لكم السفن في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتلتمسوا من رزقه بالتجارة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رحِيماً﴾ وذلك من رحمته بكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ وإذا نالتكم الشدَّة والجهد في البحر ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ فقدتم من تدعون من الأنداد والآلهة ، ولم تجدوا مغيثاً يغيثكم غير الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فلما أغاثكم ونجَّاكم من هول البحر ، أعرضتم عن دعائه كفراً لنعمته ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ جاحداً لنعم ربه ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أفأمنتم أيها الناس أن يخسف بكم ربكم ناحية البر ، وقد كفرتم نعمته ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أو يمطركم حجارةً من السَّماء تقتلكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ ثم لا تجدوا لكم مانعاً ولا ناصراً ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أم أمنتم أن يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ فيرسل عليكم ريحاً قاصفاً تكسر ما مرت به وتحطمه ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ فيغرقكم بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ مطالباً يأخذ بثأركم ، ويتبعنا بما فعلنا(٢) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بتسخيرنا لهم سائر المخلوقات ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على ظهور

---

(١) الرَّجِل بكسر الجيم جمع راجل وهو الماشي ، وهو تمثيل لجند الشيطان من الركبان والمشاة
(٢) تبيعاً بمعنى تابعاً يتبعنا بما فعلنا، قال ابن عباس : نصيراً. وقال مجاهد نصيراً ثائراً

وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ
فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ
فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ
وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

***

الدواب والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيِّبَاتِ﴾ من طيبات المطاعم والمشارب ، الحلالِ اللذائذ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ وفضلناهم على سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، بأن خلقنا للإنسان يدين يأكل بهما[١] ، ويأخذ بهما الأطعمة والأشربة ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ بإمامهم الذي كانوا يقتدون[٢] به ، ويأتمُّون به في الدنيا ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ليسرُّوا بما فيه من العمل الصالح ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم قدر الخيط الذي في شقّ النواة ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله ، وآياته ، وعجائبه ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ فهو في أمر الآخرة[٣] التي لم يعاينها أعمى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وأضلُّ طريقاً منه في أمر الدنيا ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ كاد المشركون أن يفتنوك يا محمد عن بعض ما أوحاه الله إليك[٤] ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتعمل بغير ما أوحيناه إليك ﴿وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك صديقاً ووليّاً ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِليهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لقد كدت تميل إليهم ميلاً قليلاً ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ إذاً لأذقناك ضعف عذاب الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ ثم لا تجد من ينقذك ويمنعك من عذابنا ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وإن كاد المشركون ليستخفونك[٥] من أرض مكة لإخراجك منها ﴿وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولو أخرجوك

(١) وقيل التفضيل بالعقل ، والنطق ، والتمييز ، وحسن الصورة ، وانتصاب القامة ، والأكل بيديه الخ وهذا أظهر

(٢) هذا ما رجحه الطبري لأنه الأشهر في معنى الإمام ، ورجح ابن كثير أن الإمام هو كتاب أعمالهم لقوله تعالى﴿ وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين﴾ ويؤيده ما بعده ﴿ فمن أوتي كتابه﴾

(٣) وقيل فهو في الدار الآخرة كذلك يكون أعمى كقوله تعالى﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾

(٤) طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يكف عن عيب دينهم وشتم آلهتهم ، وأن يطرد الفقراء من مجلسه فنزلت الآية.

(٥) فسَّر الطبري الاستفزاز بمعنى الاستخفاف ، والأظهر أن معناه الإزعاج حتى يخرج من بلده.

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ
وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾
وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

***

لم يمكثوا بعدك إلا زمناً قليلاً ، حتى أهلكهم بعذاب عاجل[١] ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ هكذا نفعل بالأمم إذا خرجت رسلهم من بين أظهرهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تبديل لسنة الله ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أقم يا محمد الصلاة المفروضة حين تميل الشمس عن كبد السماء لوقت الظهر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى ظلمة الليل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ وصلاة الفجر[٢] ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ إن ما تقرأه في صلاة الفجر من القرآن ، تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فتهجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ ومن الليل فاسهر بالقرآن خالصة لك دون أمتك.قال ابن عباس كُتب عليه قيام الليل خاصةً ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تُحمد فيه وتُغبط ، وهو مقام الشفاعة[٣] ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أدخلني المدينة مدخل صدق[٤] ، وأخرجني من مكة مخرج صدق ﴿واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ واجعل لي ملكاً وعزاً تنصرني بهما على جميع من خالفني ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وقل يا محمد جاء الإسلام واضمحلَّ الشرك[٥] ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ إن الباطل ذاهب غير ثابت ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ وننزِّل عليك يا محمد من القرآن ، ما فيه شفاء من الجهل والضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونعمةٌ ورحمة للمؤمنين ، يبصِّرهم به من العمى ، وينجيهم من عذاب الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ ولا يزيد الكافرين به إلَّا هلاكاً ودماراً ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان فنجيناه من الكرب

(١) لم يبقوا بعد إخراجه ﷺ من مكة إلا مرة يسيرة حتى أهلكهم الله ببدر ، وصدق الله وعده

(٢) قال ابن كثير : دلوكُ الشمس زوالها ، وهذه الآية دخلت فيها الصلوات الخمس ، فدلوك الشمس يدخل فيه الظهر والعصر ، وغسق الليل يدخل فيه المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر هي صلاة الفجر

(٣) المقام المحمود هو « الشفاعة العظمى » لرسول الله ﷺ يحمده عليها الخلائق كلهم يوم القيامة ،كما صحت بذلك الأحاديث

(٤) وصف الإدخال والإخراج بالصدق للمبالغة كأنه يقول أدخلني إدخالاً ليس فيه شيء من المكروه ، والمراد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، وذلك حين آذاه المشركون وأمره ربه بالهجرة إلى المدينة المنورة

(٥)) حين فتح رسول الله ﷺ مكة كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فحطَّمها رسول الله وهو يقرأ هذه الآية الكريمة .

يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ
ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ
بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ
عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾

***

والشدة ، وغير ذلك من نعمنا ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أعرض عن ذكرنا ، وبَعُد منا بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ وإذا أصابته الشدَّة كان قنوطاً من الفرج[١] ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل يا محمد للناس كلكم يعمل على ناحيته وطريقته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ فربكم أعلم بمن هو أهدى منكم طريقاً إلى الحق ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ويسألك أهل الكتاب[٢] عن الروح ما هي ؟ ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قل لهم الروح مما استأثر الله بعلمه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وما أعطيتم أيها الناس من العلم إلا قليلاً ممَّا يعلمه الله[٣] ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لو أردنا يا محمد لسلبنا هذا الذي أعطيناك من القرآن فلا تعلمه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ ثم لا تجد لك ناصراً ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما نريد بك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لكنه تعالى لم يشأ ذلك تفضلاً منه عليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ باصطفائه لك بالرسالة ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ قل يا محمد للذين يزعمون أنهم يأتون بمثل هذا القرآن لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لعجزوا ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ولو كان بعضهم عوناً لبعض ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد بيَّنا للناس في القرآن الأمثال ، تذكيراً لهم وتنبيهاً على الحق ليتبَّعوه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ جحوداً للحق ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ وقال المشركون لن نصدقك يا محمد حتى تخرج لنا من أرضنا هذه عيناً تنبع بالماء[٤] ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أو يكون لك بستان من النخيل والكروم

(١) الآية للتنبيه على ضعف الإنسان وعجزه وإنكاره للفضل ، فإنه إن ظفر بالمطلوب نسي المنعم الحقيقي ، وإن فاته شيء من النعم استولى عليه الأسف والندم حتى كاد يتلف .

(٢) قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت الآية

(٣) الإنسان وإن أوتي حظاً من العلم وافراً فإنه قليل جداً بالنسبة إلى علم علام الغيوب جل وعلا

(٤) الينبوع العين الغزيرة التي تنبع بالماء من غير انقطاع

أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ
فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾
وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ
يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

***

﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴾ فتفجرّ الأنهار بين أصول الأشجار تفجيراً(١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أو تسقط السماء علينا قِطَعاً ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أو تأتي بالله والملائكة عياناً ، نعاينهم ونقابلهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أو يكون لك يا محمد بيتٌ من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أو تصعد في سُلَّم إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ ولن نصدقك من أجل صعودك إلى السماء ، حتى تنزّل علينا كتاباً منشوراً نقرؤه ، فيه أمرُنا باتباعك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ قل لهم يا محمد تنزيهاً لله عمّا تقولون من الإتيان به وملائكته ﴿هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ هل أنا إلاّ عبدٌ من عبيده ، فكيف أقدر أن أفعل هذه الأمور ؟ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وما منع المشركين من الإيمان بالله وبما جئتهم به من الحق ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَىٰ﴾ إذ جاءهم البيان من عند الله بصدق ما جئتهم به ﴿إلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ إلاّ قولهم جهلاً منهم أبعث الله رسولاً من البشر ؟ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قل لهم يا محمد لو كان سكان الأرض ملائكة(٢) ، يمشون عليها ساكنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ، فإن البشر لا يقدرون على رؤية الملائكة ، فكيف يبعث إليهم الرسل من الملائكة ؟ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ كفى أن يكون الله شاهداً على صدق رسالتي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ إنه عالم بشئون العباد ، بصيرٌ بتدبير أمورهم وأحوالهم ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان ، فهو الرشيد المصيب للحق ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ ومن يضلله الله ويخذله عن إصابة الحق ،

(١) المراد تدفق مياه الأنهار بين الأشجار ، لأن بلاد الحجاز ليس فيها أنهار جارية

(٢) اجتمع كفار مكة وطلبوا من الرسول ﷺ ان يخرج لهم عيوناً دافقة من الماء ، أو يجري لهم الأنهار ، أو يسقط عليهم السماء قطعاً قطعاً ، أو يأتي لهم بالله والملائكة ليشهدوا بصدق نبوته وأن يروهم عياناً ، فنزلت الآية

(٣) في الآية ردٌّ على المشركين ، حيث طلبوا أن يكون الرسول من الملائكة لا من البشر ، فأخبرهم تعالى أنه لو كان أهل الأرض من الملائكة لبعث الله لهم رسولاً من الملائكة ، حتى يمكنهم رؤيتهم والأخذ عنهم

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

***

فلن تجد لهم من ينصرهم وينقذهم من عقابه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ونجمعهم بموقف القيامة ونسوقهم على وجوههم ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ لا يرون شيئاً يَسرُّهم ، ولا ينطقون بحجة ، ولا يسمعون شيئاً يسرهم[١] ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مصيرهم ومسكنهم في جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ كلما سكن لهبها زدناهم تأججاً ولهيباً في أجسامهم ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بأنهم كفروا بآياتنا﴾ ذلك الجزاء الذي وصفناه ، بسبب أنهم جحدوا بأدلتنا وحججنا الدالة على صدق رسلنا ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وبقولهم إذا دُعوا إلى الإيمان بالمعاد هل إذا صرنا عظاماً بالية ، ورفاتاً أي تراباً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ هل سنبعث بعد ذلك مرةً أخرى ، كما كنا في الدنيا ؟ استنكاراً واستعظاماً لذلك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ﴾ أو لم ينظر هؤلاء المنكرون بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الذي ابتدع خلق السموات والأرض من غير شيء ، وأقامها بقدرته ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قادرٌ على أن يخلق أمثالهم وأشكالهم بعد فنائهم ؟ ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وجعل لهلاكهم وعذابهم وقتاً لا شك فيه ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ فأبى الكافرون إلا جحوداً بوعيده تعالى ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين لو كنتم تملكون خزائن أموال ربي ﴿إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ إذاً لبخلتم فلم تجودوا على غيركم خشية الفقر ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ وكان الإنسان بخيلاً ممسكاً ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولقد أعطينا موسى تسع حجج واضحات ، شاهدة على صدقه وحقيقة نبوته ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فاسأل يا محمد بني إسرائيل حين جاءهم موسى

(١) السبب في حشرهم يوم القيامة «عمياً وبكماً وصماً»، أنهم كانوا في الدنيا متعامين عن الحقِّ لا يسمعونه ، ولا ينطقون به ، فجوزوا على ذلك جزاءً وفاقاً ، وإنما فسَّر الشيخ الطبري الآية بذلك ، جمعاً بين النصوص الكريمة ، فإن الله قد أخبر بأنهم يرون وينطقون ويسمعون حيث قال ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وقال ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ففسره الطبري بأنهم لا يسمعون شيئاً يسرهم

(٢) الآيات التسع هي كما قال ابن عباس « اليد ، والعصا ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور » وعن الحسن الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور ، وهي آيات باهرات ظهرت تأييداً من الله لرسوله الكريم موسى الكليم .

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ
أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا
فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن
قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ
لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ۩ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ

***

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ فقال فرعون لموسى إني أراك تتعاطى السحر ، وهذه العجائب التي تفعلها من سحرك ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ قال له موسى لقد علمتَ يا فرعون أنَّ هذه الآيات التسع التي رأيتها آيات معجزات ، لا يقدر عليهن سوى رب السموات والأرض ، وهنَّ بصائر لمن استبصر بهن ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ وإني لأظنك يا فرعون هالكاً ملعوناً ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرضِ﴾ فأراد فرعون أن يستخفَّ بني إسرائيل فيخرجهم من أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جميعاً﴾ فأغرقناه ومن معه من جنده ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وقلنا لبني إسرائيل من بعد هلاك فرعون اسكنوا أرض الشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ فإذا جاءت القيامة حشرناكم من قبوركم جميعاً ، مختلطين قد التف بعضكم على بعض ﴿وَبِالْحَقِّ أنزلناه وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وبالحق أنزلنا هذا القرآن ، نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة ، وبذلك نزل من عند الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلاّ مبشراً لمن أطاعنا بالجنة ، ومنذراً لمن عصانا بالنار ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ وقرآناً فصَّلناه وبيَّناه ، لتقرأه على الناس على تؤدةٍ ومُهل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تنزيلاً﴾ وأنزلناه شيئاً بعد شيء ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين آمنوا بهذا القرآن أولا تؤمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ فإن المؤمنين من أهل الكتاب ، الذين قرأوا التوراة والإنجيل من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ إذا يُتلى عليهم هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ يخرون على وجوههم سجداً لله ، تعظيماً له وتكريماً ، لعلمهم أنه من عند الله ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ويقولون : تنزيهاً لربنا ، ما كان وعده بالثواب والعقاب إلا حقاً يقيناً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ ويخرُّون ساجدين على وجوههم يبكون ، ويزيدهم ما في القرآن من مواعظ خضوعاً لله ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

***

المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن(١) ادعوا الله أيها القومُ ، أو ادعوا الرحمن ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ بأيّ أسمائه جلَّ وعلا تدعو ربكم فإنما تدعون إلٰهاً واحداً ، له الأسماء الحسنى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك فيؤذيك المشركون(٢) ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ واطلب طريقاً وسطاً بين الخفض والإعلان ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وقل يا محمد الثناء الكامل لله ، الذي لم يكن له ولد(٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزاً محتاجاً إلى معين ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ ولم يكن له حليف ولا ناصر يحتاج إلى نصرته ، فيكون ذليلاً مهيناً ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وعَظِّم ربك تعظيماً يليق بجلاله

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

***

---

(١) سمع أبو جهل الرسول ﷺ يدعو في صلاته : يا الله ، يا رحمن ، فقال : إن محمداً ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰهاً آخر ، فنزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . .﴾ الآية

(٢) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ، فنزلت ﴿ولا تجهر بصلاتك . .﴾ الآية

(٣) نبهت الآية إلى صفات ذي العظمة والجلال ، فالذي يكون له شريك في الملك قد يمنعه من فعل الخير ، والذي يكون له وليّ من الذل يكون محتاجاً إليه ، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وعن الناصر كان مستوجباً للمحامد

فهرس

انتهى بتوفيق الله تعالى ومنّه الجزء الأول من مختصر تفسير الطبري

ويليه الجزء الثاني من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس



دار القرآن الكريم

بيروت ص . ب . ٧٤٩٢

من ذخائر التراث الإسلامي

مختصر

تفسير الطبري

للإمام المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله المسمى

« جامع البيان عن تأويل آي القرآن »

مع تحقيقات علمية هامة

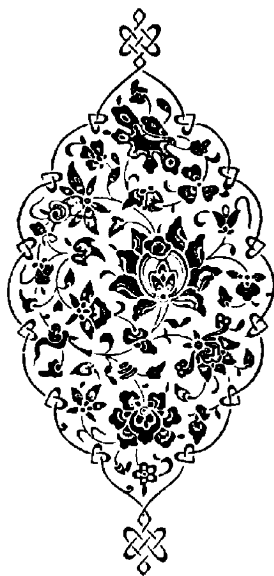
اختصار وتحقيق

الشيخ محمد علي الصابوني
أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

الدكتور صالح أحمد رضا
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

المجلد الثاني

دار القرآن الكريم
بيروت



مختصر
تفسير الطبري

الطبعة الأولى

بيروت - لبنان
١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

***

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الحمد لله الذي خصَّ برسالته محمداً ﷺ ، فابتعثه إلى خلقه نبياً مرسلاً ، وأنزل عليه كتابه ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ لا عوج[1] فيه ، ولا ميل عن الحقّ ﴿قَيِّماً﴾ مستقيماً لا اختلاف فيه ، ولا تفاوت ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ لينذركم - أيها الناس - عذاباً عاجلاً ، ونَكالاً حاضراً ، شديداً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويبشِّر الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ الذين يقومون بما أمر الله به ، وينتهون عما نهى عنه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ أنَّ لهم ثواباً جزيلاً من الله على إيمانهم ، وعملهم ، وهو الجنة ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ لا ينتقلون عن الجنة ، ولا ينتقلون منها . ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ ويحذِّر محمد القوم - الذين نسبوا لِلَّهِ الولد من مشركي قومه وغيرهم - بأسَ الله ، وعاجلَ نقمته ، وآجل عذابه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس للمشركين من علمٍ بالله وعظمته ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ عظمت الكلمة التي تخرج من أفواه هؤلاء القوم ، بنسبة الولد لله ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ ما

---

(١) العِوجُ : بكسر العين إنما يكون في الأمور المعنوية كالعوج في الدين والعقل ، وما كان في الأمور الحسية فبفتح العين كالعوج في الخشبة والقناة ، وأشار بقوله « قيماً » إلى أنه مستقيم كامل ، لا اختلاف فيه ولا تفاوت بل بعضه يصدّق بعضاً .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ
وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ
لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ

***

يقولون إلَّا فرية افتروها على الله ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ فلعلك يا محمد قاتلٌ نفسك ومهلكها ، على آثار قومك ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ إن هم لم يصدقوا بهذا الكتاب المنزل عليك ﴿أَسَفاً﴾ حزناً وتلهفاً بإدبارهم عنك ، وإعراضهم عما أتيتهم به ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ جعلنا كل ما على الأرض من شيء زينةً لها، فالدنيا خضرة حلوة ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ لنختبر عبادنا أيهم أترك لهذه الدنيا، وأتبع لأمرنا، ونهينا، وأكثر عملاً فيها بطاعتنا ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ وإنا لمخربوها بعد عمارها ، فمصيِّروها مستوية لا نبات عليها ، ولا منفعة فيها ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ أم حسبت يا محمد أن أهل الكهف الذين رقم خبرهم[١] ، وكُتب في كتاب ، وأُخفي عن الناس ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ كانوا عجباً ؟ فإنَّ ما خلقتُ من السموات والأرض ، وما فيهن أعجبُ من أمر هؤلاء[٢] ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ حين لجأ الفتية إلى كهف الجبل ، هرباً بدينهم إلى الله ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ فقالوا - إذ أووا إلى الكهف - ربنا أعطنا رحمة من عندك ﴿وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ ويسِّرْ لنا بما نبتغي ، وما نلتمس من رضاك سداداً إلى العمل بالذي تحب ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ فألقينا عليهم النوم ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ سنين معدودة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ ثم أيقظناهم من رقدتهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ لينظر عبادي فيعلموا بالبحث ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مكث الفتية في كهفهم ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ أصوب عدداً لقدر لبثهم ، ومعرفةٍ لغايته ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ نحن نقص عليك خبرهم بالصدق واليقين ، الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إن أصحاب الكهف الذين سئلت عنهم ، فتيةٌ أذعنوا لربهم بالإيمان ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ وزدناهم إلى إيمانهم إيماناً ، وبصيرةً بدينهم ، حتى صبروا على هجران دار قومهم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى

(١) الرقيم: لوح من الحجارة أو الخشب، كتب فيه أسماء أهل الكهف وخبرهم، وجعل على باب الكهف على المشهور من الأقوال.

(٢) نبهت الآية إلى أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - ليست أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف .

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم
مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا

***

قُلُوبِهِمْ﴾ وألهمناهم الصبر ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من لين العيش إلى خشونة المكث في جبل الغار ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حين قاموا بين يديْ الجبار « دقيانوس » فقالوا له ـ إذ عاتبهم على ترك عبادة آلهته ـ ربنا ملك السموات والأرض ، وما فيهما من شيء ، وآلهتك مربوبةٌ لا تملك شيئاً ﴿لَنْ نَدْعُوَ مَنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾ لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلَهاً ، لأنه لا إله غيره ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ ولئن دعونا إلَهاً غيره ، لقد قلنا قولاً مجاوزاً الحدَّ في البطلان والغلو ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ هؤلاء قومنا عبدوا من دون الله آلهة ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ هلاّ يأتون على عبادتهم بحجة واضحة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ فمن أشد اعتداء ، وإشراكاً بالله ، ممن اختلق الكذب على الله ، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه ؟ ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وقال بعض الفتية لبعض : وإذ فارقتم أيها الفتية قومكم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ واعتزلتم ما يعبدونه من الآلهة سوى الله ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ فصيروا إلى غار الجبل ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يبسط لكم ربكم من رحمته ، فييسّر لكم المخرج من فتنة الملك الكافر ﴿وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾ وييسر لكم من الغم والكرب الذي أنتم فيه ، ما ترتفقون به من أسباب العيش . ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ وترى الشمس حين طلوعها ، تميل عن كهفهم فتطلع عليهم من جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وإذا غربت تتركهم بذات الشمال ، فلا تصيبهم[1] ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ والفتيةُ في متسع من الكهف ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ما فعلنا بالفتية من حجج الله ، وأدلته على عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شيء أراده ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

---

(١) المشهور أن هذا الملك الجبار ، الذي دعا الناس إلى عبادة الأوثان اسمه « دقيانوس » كما ذكره الطبري ، وكان يقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الفاجرة ، حتى عظمت المحنة على أهل الإيمان ، ففرَّ هؤلاء الفتية الشباب بدينهم إلى الله ، خوفاً من بطشه وجبروته .

(٢) قال ابن عباس : لو أن الشمس تطّلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقلّبون ذات اليمين وذات الشمال لأكلتهم الأرض .

مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ
لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

***

من يوفقه الله للإهتداء بآياته فهو الذي أصاب سبيل الحقّ ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ ومن لم يوفقه الله للاستدلال بآياته على طريق الحق ، فلن تجد له خليلاً يرشده لإصابتها ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وتحسب هؤلاء الفتية لو رأيتهم في حال نومهم - أيقاظاً وهم نيام ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ونقلبهم في رقدتهم ، مرةً للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وكلبهم باسط ذراعيه بفناء الكهف ، يحفظ عليهم الباب ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ لو اطلعت عليهم يا محمد في رقدتهم ، لأدبرت عنهم هارباً ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ ولملئت نفسُك فزعاً منهم ، لما ألبسهم الله من الهيبة ، كي لا يصل إليهم واصل ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ كما حفظناهم في الكهف فكذلك أيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عجيب فعلنا في خلقنا ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فتساءلوا فقال أحدهم لأصحابه : كم مكثتم(١) ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأجابه الآخرون : لبثنا يوماً أو بعض اليوم ولم نتمه ، ظناً منهم أنه كذلك ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فقال الفتية : ربكم أعلم بذلك فسلّموا العلم إلى الله ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَةِ﴾ فأرسلوا واحداً منكم بالنقود الفضية إلى مدينتنا التي خرجنا منها ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ فلينظر أيُّ أهل المدينة أحلُّ ، وأطهر طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ فليأتكم بقوت منه تأكلونه(٢) ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليترفق في شرائه ، وفي طريقه ودخوله المدينة ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ ولا يُعلمنَّ بكم أحداً من الناس ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ إن الملك وأصحابه إن يعلموا مكانكم يؤذونكم شتماً بالقول(٣) ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يردوكم في دينهم فتصير واكفاراً ﴿وَلَنْ

(١) استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم ، وظنوا أنها يوم أو بعض اليوم ، ثم ردوا العلم إلى الله ، ولكنهم لم يدر في خلدهم أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ، وذكر بعض المفسرين أنهم شابوا وهرموا ، والصحيح أنهم لم يشيبوا ولم يهرموا على مر الدهور والأزمان ، آية باهرة تدل على قدرة الواحد الأحد .

(٢) لما هبوا من النوم شعروا بالجوع فلذلك طلبوا الطعام .

(٣) فسر الطبري « يرجموكم » بالشتم بالقول ، والإيذاء باللسان ، وفسره غيره بالرجم بالحجارة أي يقتلوكم رجماً بالحجارة وهو أظهر =

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟
عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ
كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ
ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

***

تُفْلِحُوا إِذاً أَبداً﴾ ولن تدركوا الخلود في الجنان إن عدتم في ملتهم **﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾** كما بعثناهم من نومهم ، كذلك أطلعنا عليهم الفريق الذين شكّوا في قدرة الله **﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** ليعلموا أن وعد الله بقيام الحساب حقٌّ لا شك فيه **﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** ويوقنوا أنَّ الساعة آتية لا ريب فيها **﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾** حين يتنازع القوم بينهم أمرهم ، فيما يفعل الله بمن أماته فأفناه ، أينشئهم أم لا ؟ **﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾** فقال الذين عثروا عليهم : ابنوا عليهم بنياناً **﴿رَبُّهُم أَعْلَمُ بِهِمْ﴾** رب الفتية أعلم بهم وبشأنهم **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أمرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾** قال الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف : نبني عليهم مسجداً نصلي فيه ، ونعبد الله فيه . **﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف : هم ثلاثةٌ ، ورابعهم الكلب الذي لحقهم فكان معهم **﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** ويقول بعضهم هم خمسة سادسهم كلبهم **﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾** قذفاً بالظنّ عن غير يقين **﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** ويقول بعضهم إنهم سبعة ثامنهم كلبهم **﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾** ربي أعلم بعددهم **﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾** ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه **﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظَاهِراً﴾** فلا تجادل أهل الكتاب في عدة أهل الكهف ، إلا بما قصصناه عليك **﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾** ولا تسأل عن عدتهم أحداً من أهل الكتاب ، لأنهم يعلمون عدتهم **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾** ولا تجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة **﴿إِلا أن يشاء الله﴾** إلا أن تقول « إن شاء الله » لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته سبحانه(١) **﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾** واذكر ربك إذا تركت ذكره (٢) . **﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾** لعل الله يهديني

= لأنه هو المتبادر في اللغة .

(١) قال ابن جرير : وإنما قيل له ذلك من أجل أنه وعد سائليه عن المسائل الثلاث التي سألوه عنها وهي « خبر أهل الكهف ، وخبر الخضر ، وخبر ذي القرنين » أن يجيبهم عنهن غداً ولم يستثن ، فاحتبس عنه الوحي من أجل ذلك ، ثم أنزل الله عليه الجواب في هذه السورة .

(٢) هكذا اختار الطبري ، واختار بعض المفسرين أن المعنى : إذا نسيت أن تقول « إن شاء الله » ثم تذكرتها فقلها ، وهو قول الحسن .

وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

***

فيسددني لما هو أصلح مما أخبرتكم عنه هو ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ ولبث أصحاب الكهف نياماً في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قل يا محمد : الله أعلم بما مكثوا بعد قبض أرواحهم إلى يومهم هذا ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لله علم غيب السموات والأرض ، لا يغيب عنه علم شيء منه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ليس للخلق دون ربهم وليٌّ يلي أمرهم وتدبيرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ ولا يجعل الله شريكاً له في قضائه وحكمه في خلقه ، بل هو المنفرد فيهم بما شاء ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ واتَّبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنَّ تلاوته فتكون من الهالكين ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً﴾ولن تجد من دون الله ملجأً تلجأ إليه ، إن خالفت أمره ، لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه/﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ احبس نفسك مع أصحابك ، الذين يذكرون ربهم بالصباح والمساء بأنواع الذكر ، بالأعمال الصالحة ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يريدون بفعلهم ذلك وجه الله ، لا عَرَضاً من الدنيا ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرف عيناك عنهم إلى غيرهم من الكفار ، ولا تجاوزهم إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تريد بتركهم مجالسة الأشراف من قومك ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ولا تطع من شغلنا قلبه عن ذكرنا ، بالكفر وغلبة الشقاء عليه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وآثر هوى نفسه على طاعة ربه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ فكان أمره في احتقار أهل الإيمان ، ضياعاً وهلاكاً ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقل يا محمد : الحق من عند ربكم ، بيده الهدى والضلال ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا[1] ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾فإن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربكم على كفركم ناراً ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

(١) الآية لم يقصد بها التخيير بين الكفر والإيمان ، وإنما وردت مورد الوعيد والتهديد كقوله تعالى ﴿اعملوا ما شئتم﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ * وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

* * *

أحاط بكم سورها يطيف بكم ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ وإن يطلب الظالمون الماء في النار ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ يغاثوا بماء قد انتهى حرُّه ﴿يشوي الوجوه﴾ يشوي من حره لحوم وجوههم ﴿بئس الشراب﴾ بئس الشراب هذا الماء ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وساءت هذه النار متكأ لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بطاعة الله ، وأمره ونهيه ﴿إنا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملاً ، فأطاع الله واتبع الأمر والنهي ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ لهؤلاء بساتين إقامة في الآخرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ تجري من دونهم ، ومن بين أيديهم الأنهار ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يلبسون فيها - من الحليّ - أساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضراً مِنْ سُندُسٍ﴾ ويلبسون ثياباً خضراً ممَّا رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وممَّا غلظ منه[1] ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الآرَائِكِ﴾ متكئين في الجنات على السرر[2] ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ نعم الثواب جنات عدن ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وحسنت هذه الأرائك في هذه الجنات متكأ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثلاً رَجُلَيْنِ﴾ واضرب للمشركين مثل رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ جعلنا للكافر منهما بستانين من عنب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وأحطناهما بشجر النخيل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ وأنبتنا وسطهما أنواعاً من الزرع ﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها﴾ كلا البستانين أخرج ثمره ، وما فيه من الغروس ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾ وأسلنا بين أشجار البستانين نهراً ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وكان للكافر أنواع من الثمار من جنتيه ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ فقال لصاحبه المؤمن ، الذي لا مال له ، وهو يخاطبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أنا أغنى منك ، وأعز عشيرة ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ودخل بستانه مع صاحبه ، وهو ظالم لنفسه بالكفر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ قال ـ لما عاين خيرات جنته - ما

(١) الاستبرق : الغليظ من الحرير ، والسندس : الرقيق من الحرير ، هذا هو المشهور .
(٢) هي سرر ذهبية مزينة بالثياب والستور ، ومكللة بالدر والياقوت كما روي عن ابن عباس .

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ

***

أظن أن تفنى هذه ولا تخرب ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أظن القيامة التي فيها الحشر تقوم فتحدث ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي﴾ ولئن رجعت إلى ربي - وهو غير موقن أنه راجع ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ لأجدن خيراً من جنتي هذه عند الله ، عند رجوعي إليه ، لأنه لم يعطني هذه في الدنيا ، إلاَّ ولي عنده أفضل منها في المعاد ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ قال له صاحبه الفقير المؤمن وهو يخاطبه ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ أكفرت بالذي خلق أباك آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ ثم أنشأك من نطفة الرجل والمرأة ، ثم عدلك بشراً سوياً ، ذكراً لا أنثى ؟ فمن فعل بك هذا ، يعيدك خلقاً جديداً بعد ما تصير رُفاتاً ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أما أنا فلا أكفر بربي ، ولكن أنا أقول[١] : هو الله ربي ، ولا أشرك بربي احداً .

﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ باللَّهِ﴾ وهلاَّ إذ دخلت بستانك فأعجبك ، قلت : ما شاء الله كان ، لا قوة لنا على طاعته إلاَّ به ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ إن كنت أقل منك مالاً وولداً في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ لعل ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل على بستانك عذاباً من السماء ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ فتصبح جنتك أرضاً ملساء ، قد عادت خراباً لا غرس فيها ولا نبات ، لا يثبت عليها قدم ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أو يغور ماؤ ها في الأرض ولا تلحقه الرشاء ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ فلا تطيق أن تدرك الماء ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وأحاط الهلاك بثمار جنته ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ فأصبح يقلب كفيه ظهراً لبطن[٢] تلهفاً وأسفاً على ذهاب ما أنفقه في جنته ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وهي خالية من نباتها وبيوتها[٣] ﴿وَيَقُولُ

---

(١) أصل لكنَّا : لكنْ أنا حذفت الهمزة ، وأدغمت النون بالنون فصارت لكنَّا .

(٢) هكذا شأن النادم يقلّب كفيه غالباً ، كما قد يعضُّ بعض أنامله ، فهو تصوير لحالته النفسية .

(٣) معنى خاوية أي ساقطة ، قد سقطت سقوفها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم ، والمراد أنها تخربت بما فيها من زروع .

أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ
هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ
نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ
لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾



﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ يتمنى - بعدما نزلت به المصائب - أنه لم يكن كفر بالله ، ولا أشرك به شيئاً ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن لصاحب الجنتين جماعة يمنعونه من عقاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ ولم يكن ممتنعاً من عذاب الله ﴿هُنَالِكَ الوَلَايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ﴾ هنالك في القيامة ، الانفرادُ بالملك والسلطان[1] لله الحق وحده ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً﴾ هو خير ثواباً للمنيبين إليه في العاجل ، وهو خير عاقبة في الآجل ، إذا صار المطيع إليه ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ واضرب لهؤلاء المستكبرين الذين طلبوا طرد الفقراء من مجلسك - شبهاً بالمطر الذي أنزلناه من السماء ، فاختلط بالماء نبات الأرض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فأصبح النبات يابساً متفتتاً ، تطيره الرياح وتفرِّقه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً﴾ وكان الله على إزالة دنيا الكافرين قادراً لا يعجزه شيء ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المال والبنون التي يفخر بها بعض الناس ، مما يتزين به في الحياة الدنيا ، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ وأعمال الآخرة خير من المال والبنين ، التي تفنى ولا تبقى لأهلها ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ﴾ نسيّرها عن الأرض ، ونجعلها هباء منبثاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾وترى الأرض ظاهرة لعين الناظرين ، من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ وجمعناهم إلى موقف الحساب ، فلم نبق منهم أحداً ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾ وعُرض الخلق على ربك يا محمد صفوفاً ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويقال لهم : لقد جئتمونا أحياء كهيئتكم ، حين خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ بل زعمتم أيها المكذبون أن لن نجعل لكم وقتاً لبعثكم بعد الممات .

---

(١) الوَلاية : بالفتح النصرةُ والتولي لشئون الغير ، وبالكسر السلطانُ والملك ، وقد اختار الطبري قراءة الكسر ، ولذلك فسّرها بالملك والسلطان .

(٢) هكذا حال الدنيا تظهر في غاية الحسن والنضارة ، ثم تنتهي إلى الزوال والفناء .

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

***

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾ ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم ، فواحد أخذه بيمينه وواحد بشماله **﴿فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾** فترى المشركين بالله ، خائفين مما كتب فيه من أعمالهم السيئة **﴿وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا﴾** ونادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله **﴿مَا لِهذَا الْكِتَاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كبيرة إلَّا أَحْصَاهَا﴾** ويقولون : ما شأن هذا الكتاب لا يُبقي صغيرة من ذنوبنا وأعمالنا ، ولا كبيرةً منها إلَّا حفظها **﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾** ووجدوا ما عملوا في الدنيا من عمل مكتوباً مثبتاً ، فجوزوا بالسيئة مثلها **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** ولا يجازي ربك أحداً بغير ما هو أهله ،وذلك هو العدل **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إبْلِيسَ﴾** واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، لم يسجد له استكباراً على الله ، وحسداً لآدم **﴿كَانَ مِنَ الجِنّ ففَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾** كان من الجن فخرج عن أمر ربه[1] **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾** أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده ، وتطيعونه وذريته من دون الله ، مع عداوته لكم قديماً وحديثاً **﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾** بئس البدل للكافرين ، اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله **﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، فأستعين بهم على خلقها **﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾** ولا أشهدت بعضهم خلق بعض منهم ، فأستعين بهم على خلقه ، بل تفردت بخلق الجميع بغير معين ولا ظهير **﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾** وما كنت متخذ من يضلون بخلق بني آدم عن الحق أعواناً وأنصاراً **﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾** ويوم يقول الله تعالى للمشركين : ادعوا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في العبادة ، لينصروكم ويمنعوكم مني **﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُمْ﴾** فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم **﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾** وجعلنا بين العابدين ومعبوديهم مهلكاً **﴿وَرأَى المجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾** وعاين المشركون يومئذ النار ، فعلموا أنهم داخلوها **﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾**

---

(١) الآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة ، وانظر التحقيق العلمي في الموضوع في سورة البقرة .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

***

ولم يجدوا عن النار معدلاً يعدلون إليه ، ولا عن مواقعتها بداً ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِ مَثَلٍ﴾ ولقد مثّلنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ، ليتذكروا فيتعظوا وينزجروا﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ وكان الإنسان أكثر شيء خصومة ، لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ وما منع هؤلاء المشركين الإيمان بالله حين جاءهم بيان الله ، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ، والاستغفار مما هم عليه ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا مجيء سنتنا في أمثالهم من الأمم المكذبة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أو إتيانهم العذاب عياناً(١) ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان بجزيل الثواب ، ولينذروا أهل الكفر عظيم العقاب ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ويخاصم الذين كذبوا الله ورسوله بالباطل تعنتاً ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ ليزيلوا الحق الذي جاء به الرسول ويبطلوه ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾ واتخذ الكافرون حججي التي أحتج بها عليهم ، وكتابي الذي أنزله إليهم ، سخريةً يسخرون بها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾وأيُّ الناس أظلم ممن ذكَّره الله بأدلته التي بها نجاته ، فأعرض عنها ؟ ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب منها ؟ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ إنَّا جعلنا على قلوب المعرضين أغطيةً ، لئلا يفقهوا آيات الله ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ وفي آذانهم ثقلاً لئلا يسمعوها فينتفعوا بها ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ وإن تدعهم إلى الإستقامة على محجة الحق والإيمان فلن يستقيموا إذاً أبداً ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ وربك الساتر لذنوب عباده إذا تابوا ، ذو الرحمة بهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ

---

(١) معنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار ، إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي أوعدهم به الرسل عياناً ومواجهة ، كقول كفار مكة ﴿فامطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم﴾ .

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ
ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ

***

الْعَذَابَ ﴾ لو يعاقبهم بما اقترفوا من الآثام ، لأنزل بهم العذاب ، ولكنه لرحمته بخلقه لا يفعل ذلك بهم ﴿**بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً**﴾ لكن لهم ميقات لعذابهم ، ولن يجدوا من دون الموعد ملجأ ومنجى[١] ، ينجيهم من عذاب الله ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾ وتلك القرى من « عاد وثمود . . »أهلكنا أهلها لما ظلموا ، فكفروا بالله وآياته ﴿**وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً**﴾ وجعلنا لهلاكهم ميقاتاً[٢] ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ واذكر حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لا أزال أسير حتى أبلغ اجتماع بحر فارس والروم﴿**أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً**﴾ أو أسير زماناً طويلاً ﴿**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين ، تركا حوتهما هناك ﴿**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً**﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا**﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين ،قال موسى أعطنا غداءنا ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً**﴾ لقد وجدنا في هذا السفر عناءً وتعباً ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**﴾ فأجابه فتاه : أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت هنالك ﴿**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾ وما أنساني الحوت إلَّا الشيطان ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾ واتخذ الحوت طريقه في البحر ، وكان أمره مما يعجب[٣] منه ﴿**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**﴾ قال موسى لفتاه : نسيانك الحوت هو الذي كنا نلتمس ونطلب ، لأنه علامة على المكان الذي نلقى فيه الرجل الصالح ﴿**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً**﴾ فرجعا في الطريق يتتبعان آثارهما التي كانا سلكاها ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**﴾ فوجد موسى وفتاه عند الصخرة عبدنا الخضر ، وهبناه نعمة من عندنا ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً**﴾ وعلمناه من عندنا علماً ﴿**قَالَ لَهُ**

---

(١) الموئل : الملجأ يقال : وَأَلَ إذا نجا ، ووأل إليه إذا لجأ إليه .

(٢) الموعد قيل : هو يوم بدر ، وقيل : هو يوم القيامة ، والأظهر أن الله جعل لكل أمة ظالمة وقتاً لهلاكهم في الدنيا .

(٣) لأن الحوت كان ميتاً فدبت فيه الحياة ، وفي الحديث « كان للحوت سَرَباً ولموسى وفتاه عَجَباً » رواه البخاري .

هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا
تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

***

مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ قال موسى للعالم : هل اتبعك على أن تعلمني من العلم الذي علمك الله ، ما فيه رشاد إلى الهدى ؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال : إنك لن تطيق الصبر معي ، لأنني أعمل بباطن العلم ولا علم لك إلا بالظاهر﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني ، ولا علم لك بالحادث لأنها غيب ، ولا تحيط بعلم الغيب علماً ؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾ قال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً على ما أرى ﴿ ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾وأنتهي إلى أمرك ، وإن لم يكن موافقاً هواي ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ قال الخضر : فإن اخترت اتباعي الآن ، فلا تسأل عن شيء أعمله مما تستنكره ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ حتى أبيّن لك شأنه﴿فَانْطَلَقَا. حَتَّى إذا رَكِبَا في السفينَةِ خَرَقَهَا﴾ فانطلقا يطلبان سفينة يركبانها ، حتى إذا أصاباها ركبا فيها ، فخرق العالم السفينة﴿قَالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قال موسى : أخرقت السفينة بعد ما لجحنا في البحر لتغرق من فيها ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ لقد فعلت فعلاً منكراً عظيماً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾) قال : ألم أقل لك يا موسى : إنك لن تصبر على ما ترى من أفعالي ؟ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال موسى : لا تؤاخذني في نسياني العهد ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ ولا تضيِّقْ عليَّ أمري معك ، وصحبتي إياك ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ﴾ فسارا حتى إذا وجدا غلاماً صغيراً فقتله العالم﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قال موسى : أقتلت نفساً تائبة لم تذنب قط ، بغير قصاص ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ لقد فعلت فعلاً منكراً غير معروف ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال : ألم أقل لك يا موسى ، إنك لن تصبر على ما ترى من أفعالي ؟ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ قال موسى : إن صدر عني سؤال بعد هذه المرة ، ففارقني ولا تكن لي

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ
لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

***

مصاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّيَ عُذْراً﴾ قد بلغت العذر في شأني ، مخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ فسارا حتى أتيا أهل قرية ، فطلبا الطعام منهم ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما[١] ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ فوجدا في القرية حائطاً ، قد قارب أن يقع ويسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فعدل ميله حتى عاد مستوياً[٢] ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ قال موسى :لو شئت لم تُقم لهؤلاء القوم جدارهم ، حتى يعطوك أجراً عليه ! ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قال : هذا الذي قلته يا موسى ، فرقةُ ما بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ سأخبرك بعاقبة أفعالي ، التي لم تستطع الصبر عليها ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أما السفينة التي خرقتها ، فكانت لقوم ضعفاء ، يعيشون من عملهم في البحر ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأردت بخرقها عيبها ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان أمامهم ملك غاشم ، يغتصب كل سفينة صحيحة ، ويدع المعيبة ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وأما الغلام الذي قتلته ، فإنه كان كافراً ، وكان أبواه مؤمنين ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ فعلمنا أنه إذا كبر ، يُغْشيهما استكباراً وكفراً بالله ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ فأردنا أن يبدل الله والديه ، خيراً من الغلام الذي قتلته ، صلاحاً وديناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ وأقرب أن يرحم والديه فيبرهما ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وأما الجدار الذي أقمته بغير أجر ، فكان يملكه غلامان يتيمان في المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ وكان تحت الجدار مال مخبوءٌ لهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ وكان أبوهما معروفاً بالصلاح والتقوى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فأراد ربك أن يدرك الغلامان قوتهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ ويستخرجا حينئذ مالهما المكنوز تحت الجدار ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ رحمة من ربك لليتيمين ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ وما

(١) قال قتادة : شرُّ القرى التي لا تُضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقه .
(٢) وروي عن ابن عباس أنه قال : هدمه ثم قعد يبنيه .

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾
فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾

***

فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته من تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ هذا الذي ذكرت لك، هو تفسير الأفعال التي لم تستطع الصبر عليها[١] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ﴾ ويسألك يا محمد المشركون عن «ذي القرنين»[٢] ما كان شأنه؟ وما هي قصته؟ ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ فقل لهم: سأقصُّ عليكم من خبره ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وطأنا له في الأرض، ويسَّرنا ملكه فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كل شَيْءٍ سَبَباً﴾ وآتيناه علماً من كل شيء يوصله إليه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ فسلك في الأرض طريقاً ومنزلاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ حتى إذا وصل ذو القرنين المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وجد الشمس تغرب في عين ماء، ذات حمأةٍ وطين ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ ورأى هناك قوماً من الناس ﴿قُلْنَا يَاذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ قلنا له: إما أن تقتلهم إن لم يؤمنوا، ويذعنوا لطاعة الله ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ وإما أن تعلِّمهم الهدى، وتبصرهم الرشاد ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قال: أما من كفر فسوف نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾ ثم يرجع إلى الله تعالى فيعذبه في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وأما من صدَّق الله وعمل بطاعته ﴿فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ فله عند الله الجنة، ثواباً على إيمانه وطاعته ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ وسنعلِّمه في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى الله، ونُلين له من القول ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ ثم سلك طرقاً ومنازل ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ حتى إذا بلغ مشرق الشمس[٣] ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ وجد الشمس تطلع على قوم، لا جبل في أرضهم ولا شجر، وإنما يدخلون في

(١) قال الإمام الطبري: وهذه القصص التي أخبر الله عز وجل نبيه محمداً - ﷺ - عن موسى وصاحبه تأديب منه له بترك الاستعجال بعقوبة المشركين المكذبين المستهزئين بكتابه.

(٢) ذو القرنين كان ملكاً مؤمناً عادلاً، ولم يكن نبياً، وقد مكَّن الله له في الأرض فعدل وأصلح، وسمي «ذا القرنين» لأنه ملك مشرق الأرض ومغربها، وأما ما يقال إنه كان له قرنان في رأسه فغير صحيح.

(٣) هذا حسب ما شاهد وأبصر لا حسب الحقيقة، فإن الشمس أكبر من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض، كما يرى راكب البحر الشمس كأنها تغيب في البحر.

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ
لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

***

الأسراب [١] ﴿كَذَلِكَ﴾ كذلك سلك طرقاً ومنازل ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ وقد أحطنا علماً بما عند مطلع الشمس ، من أحوال الخلق وأسبابهم ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ ثم سار طرقاً ومنازل ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ حتى إذا وصل إلى الجبلين، الحاجزين مَنْ وراءهما ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ وجد دون الجبلين الحاجزين ، قوماً لا يكادون يعرفون سوى كلامهم ﴿قَالُوا يَاذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ قال القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج[٢] - وهما أمتان من وراء الجبلين - سيفسدون في الأرض ، إن تركوا وشأنهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سدّاً﴾ هل نعطيك من أموالنا ، لتبني حاجزاً يمنعهما من الخروج إلينا ؟ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ قال ذو القرنين : الذي مكنني وقوّاني عليه ربي في عمل السد ، خيرٌ من الأجرة التي تعرضونها عليَّ ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فأعينوني بعمال وصُناع يحسنون البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ أجعل بينكم وبين القوم سدّاً منيعاً ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ جيئوني بقطع الحديد ، فأتوه بها ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ حتى إذا ساوى بين ناحيتي الجبلين ، بما جعل بينهما من الحديد ﴿قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ قال للفَعَلة : انفخوا فنفخوا ، حتى إذا جعل الحديد ناراً[٣] ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ قال : أعطوني نحاساً أصب عليه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلو السدَّ ، فيكونوا فوقه ، وينزلوا منه إلى الناس ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قال : هذا الحاجز الذي سويته نعمة من الله ، رحم بها الناس ، ليكف غائلة هذه الأمة

(١) قال قتادة : كانوا في مكان لا يثبت عليه البناء ، فكانوا يدخلون في أسراب لهم إذا طلعت عليهم الشمس ، فإذا زالت عنهم خرجوا الى معايشهم.

(٢) يأجوج ومأجوج : قبيلتان من بني آدم ، في خلقهم تشوية، منهم مفرطٌ في الطول، ومنهم مفرطٌ في القصر، وهم من أكلة لحوم البشر، كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وقد دفع الله شرهم عن الناس ببناء السدّ، الذي بناه ذو القرنين .

(٣) أي جعل الحديد كالنار بقوة الإحماء ففيه تشبيه بليغ .

رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾

***

عنهم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا جاء ميقات ظهور هذه الأمة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ سوّى السد بالأرض وجعله مدكوكاً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ وكان وعد ربي في دك هذا السد، وخروج يأجوج ومأجوج، حقاً لأنه لا يخلف الميعاد ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وتركنا عبادنا يوم قيام الساعة، يختلط جنّهم بأنسهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ونفخ في الصور النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ فجمعنا جميع الخلق حينئذ لموقف الحساب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ وأبرزنا جهنم فأظهرناها للكافرين حتى يروها ويعاينوها كهيئة السراب ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله، ولا يفكرون فيها ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله، لغلبة الشقاء عليهم، وشغلهم بالكفر وطاعة الشيطان ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظن الَّذِينَ كفروا بالله فعبدوا غيره ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أن يتخذوا عبادي الذين عبدوهم أولياء؟! كلا بل هم لهم أعداء ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ إنا هيأنا لمن كفر بالله جهنم، منزلاً ينزلون بها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ قل يا محمد: هل نخبركم أيها القوم، بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ربحاً، فنالوا به عطباً وهلاكاً[1]؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة، بل كان على جور وضلالة، لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وهم يظنون أنهم لله مطيعون، وفيما ندب عباده إليه مجتهدون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ هؤلاء الذين ذكرناهم، هم الذين كفروا بحجج ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب، بل لهم منها عذاب ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ ليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة، فتثقل به موازينهم

(١) قال الضحاك: هم القسس والرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع، وقال الحسن: هم اليهود والنصارى، واختار الطبري أن الآية عامة تشمل أهل الضلال وكل مجتهد في بدعته وضلالته.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا
لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ
أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾



﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ وباتخاذهم آيات كتابه سخرية ، واستهزائهم برسل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بطاعته ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ كانت لهم بساتين الفردوس[1] ، التي هي أفضل درجات الجنة ، منازل ومساكن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ لابثين في الجنة أبداً ، لا يريدون عنها تحولاً ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قل : لو كان ماء البحر ، مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات ربي ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لنفد ماء البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربي ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قل يا محمد : إنما أنا بشر من بني آدم ، لا علم لي إلاّ ما علمني الله ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يوحى إليّ أنّ معبودكم الذي يجب أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، معبودٌ واحد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن كان يخاف ربه يوم لقائه ، ويراقبه ويرجو ثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكاً في عبادته .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »



---

(١) عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعلاها الفردوس ، ومنها تفجّر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » ونحوه عن أبي هريرة ومعاذ بن جبل غيرهم من الصحابة . والحديث وارد في الصحيحين .

(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ
الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

***

﴿كهيعص﴾[١] ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا ، نقصُّه عليك يا محمد ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حين دعا ربه بصوت خفي ، كراهةً منه للرياء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ قال : رب إني ضَعف ورقَّ عظمي من الكِبَر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ وانتشر الشيب في رأسي ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ ولم أشْقَ يا رب بدعائك ، لأنك لم تخيب دعائي فيما مضى ، بل كنت تقضي حاجتي ، فاقضها الآن ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ وإني خفت بني العم والعصبة من بعدي ، أن يرثوني فلا يحسنوا العمل ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ وكانت زوجتي عاقراً لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ فارزقني من عندك ولداً وارثاً ومعيناً ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرثني من بعد وفاتي ، ويرث النبوة[٢] من أجداده آل يعقوب ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ واجعل الولي ممن ترضاه ديناً وخُلُقاً ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ فاستجاب له ربه فقال له : إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه يحيى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ لم نجعل أحداً مسمى باسمه قبله[٣] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ قال

(١) قال ابن جرير : والقول في ذلك عندنا نظير القول في (الٓمٓ) وسائر فواتح سور القرآن التي افتتحت أوائلها بحروف المعجم ، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى . أقول : التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وانظر أول سورة البقرة .

(٢) قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال .

(٣) وقال مجاهد : ليس له شبيه في الكمال والفضل .

وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾

***

زكريا : ومن أي وجهٍ يكون لي ذلك(١)؟! ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ وزوجتي لا تحبل ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ وقد صرت من كبر سني ، ناحل العظام يابسها !! ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قال : هكذا الأمر كما تقول ، وخلق هذا الغلام هيِّنٌ عليَّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ وليس خلق الغلام من زوجتك العاقر ، بأعجب من خلقك بشراً سوياً ، ولم تك شيئاً ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال زكريا : يا رب اجعل لي علامة على ذلك ، ليطمئن إليه قلبي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ قال : علامتك أن لا تستطيع تكليم الناس ثلاث ليال ، وأنت سويٌّ صحيحٌ ، لا علة بك من خرس ، ولا مرض .

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ فخرج زكريا على قومه من مصلَّاه ، حين حبس لسانه عن كلام الناس ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ فأشار إليهم بيده أن اذكروا الله صباحاً ومساءً(٢)﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ فلما ولد يحيى وشبَّ قال الله له : خذ التوراة بجدّ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ وآتيناه الفهم لكتاب الله ، قبل بلوغه سنَّ الرجال ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ ورحمة منَّا به ، ومحبة له آتيناه ذلك ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾ وطهارة من الذنوب ، وكان لله خائفاً ، مسارعاً لطاعته ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ وكان مسارعاً في طاعة والديه ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه ،وطاعة والديه ، ولكنه كان متواضعاً متذللاً ، لا يعصي ربه ولا والديه ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ وأمانٌ له من الله يوم ولادته أن يناله الشيطان بالسوء ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ وأمان من الله له من فتنة القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ ويوم الفزع الأكبر(٣) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ واذكر في كتاب الله المنزل مريم ابنة عمران ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ حين انفردت

---

(١) الاستفهام للتعجب والسرور لا للإنكار ، أي كيف يكون لي غلام وهذه حالي ؟ قال الطبري : يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون منه الولد ،لا إنكاراً منه للوعد الذي بُشر به .

(٢) أمرهم بالتفرغ لذكر الله في طرفي النهار ، وقيل : أمرهم بالصلاة أي صلُّوا بكرة وعشياً ، وهذا قول قتادة .

(٣) حيَّاه تعالى في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة والافتقار إلى الله .

فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن
كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ
قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ
بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ

***

واعتزلت عن أهلها، في موضع قبل مشرق الشمس ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ فاتخذت من دون أهلها، ستراً يسترها عن الناس ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ فأرسلنا إليها جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ فتشبه لها في صورة آدمي ، معتدل الخلق ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ قالت : إني أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرَّمه الله عليك[١] ، إن كنت تتقي محارم الله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك يا مريم أرسلني إليك ﴿لأهب لَكِ غلاماً زَكياً﴾ لأمنحك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ قالت : من أي وجه يكون لي غلام ؟ ولم يمسسني بشر بنكاح حلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ ولم أكن حملته من زنى من الوجه الحرام ؟ ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قال جبريل : هكذا الأمر كما ذكرت ، ولكن ربك قال : خلق الغلام من غير زوج لا يتعذر عليَّ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ولكي نجعل الغلام حجة على الناس ، ورحمة منا لك ولمن آمن به ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله ، ومضى في حكمه ، فليس منه بدٌّ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ فحملته فتنحت به عن الناس ، مكاناً نائياً عنهم .

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فألجأها، ألم الوضع إلى ساق نخلة ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ فقالت : يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه ، وكنت شيئاً نسي فترك طلبه ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فناداها المولود الذي تحتها أن لا تحزني يا أمه[٢] ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ قد أجرى لك ربك تحتك جدولاً ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وحرِّكي جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ يتساقط عليك منها رطبٌ طريٌّ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ فكلي من الرطب ،

---

(١) خافت مريم منه وظنته رجلاً يريدها على نفسه لفعل الفاحشة .

(٢) اختلف المفسرون في فاعل ناداها فبعضهم قال «جبريل» وبعضهم قال «عيسى ابن مريم» ورجح ابن جرير القول الثاني ، والقول الأول أظهر ، لأن جبريل هو الذي بشرها وهو الذي أخبرها بما منحها الله من الكرامات الباهرات .

لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ
فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ
سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

***

واشربي من ماء الجدول ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ وطيبي نفساً بولادتك ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ فإن رأيت أحداً من بني آدم ، يسألك عن شيء من أمرك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِياً﴾ فقولي : إني أوجبت على نفسي لله صمتاً ، فلا أكلم أحداً من بني آدم ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فحملته حتى أتت به قومها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ فلما رأوها وما معها ، قالوا لها : يا مريم لقد جئتِ بأمر عجيب ، وأحدثتِ حدثاً عظيماً ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ نسبت إلى رجل صالح من قومها(١) ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَءَ سَوْءٍ﴾ ما كان أبوك يعمل الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ وما كانت أمك زانية ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيهِ﴾ أشارت لهم أن كلموا عيسى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ قالوا لها : كيف نكلم من كان رضيعاً في حَجْر أمه ؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ قال عيسى لهم : إني عبد الله ، وقد قضى ربي أن يؤتيني الكتاب ، ويجعلني نبياً ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وجعلني معلماً للخير ، نفّاعاً حيثما كنت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ﴾ وقضى أن يوصيني بالمحافظة على الصلاة ، وأداء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ ما كنت في الدنيا موجوداً ﴿وَبَرّاً بَوَالِدَتِي﴾ وجعلني باراً بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ ولم يجعلني مستكبراً فيما أمرني به ، ونهاني عنه ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ والأمان من الله عليَّ من الشيطان وجنده ، أن ينالوني بأذى يوم ولادتي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ والأمان عليَّ يوم أموت ، من هول المطلع ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ ويوم القيامة ، أن ينالني الفزع الأكبر ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ هذا عيسى ابن مريم ، وما قصصتُه عليكم قول الله وخبره هو الحقُّ ، لا ما قالته اليهود والنصارى ، فاختلفوا في شأنه واختصموا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ، ولا يصلح ذلك له ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزَّه الله عما يقوله الكافرون ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

(١) قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ، مشهوراً بالتقى والصلاح فشبهوها به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام .

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ
يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا﴾

***

فَيَكُونُ﴾ إذا قضى الله خلق شيء أو إنشاءه قال له : « كن فيكون » موجوداً حادثاً ، لا يعظم عليه خلقه لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وإنا جميعاً عبيد لله ، فإياه فاعبدوا دون غيره ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا هو الطريق المستقيم ، لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه .

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فاختلف قوم عيسى في شأنه ، وصاروا أحزاباً متفرقين ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فوادي جهنم الذي يدعى « ويلاً »[١] للذين كفروا بالله ، من شهودهم يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة ، وما أبصرهم يومئذ للحق ، حين لا ينفعهم الإبصار والسماع !؟ ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لكن الكافرون الذين افتروا الكذب في الدنيا ، في ذهاب عن سبيل الحق ، واضح لمن تأمله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ﴾ وأنذر يا محمد المشركين يوم حَسرتهم وندمهم ، على ما فرطوا في جنب الله ، وأُدخلوا النار وأيقنوا بالخلود فيها ، فيا لها من حسرة[٢] وندامة !! ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ حين قضى الله بين الخلق ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ والمشركون غافلون عن أهوال يوم القيامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ إنا نحن الوارثون للأرض ومن عليها من الخلق ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازي كل عامل بعمله ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واذكر في القرآن « إبراهيم » خليل الرحمن ، واقصص على هؤلاء قصصه ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ إنه كان من أهل الصدق قد نبأه الله وأوحى إليه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ حين قال : يا أبت ما تصنع بعبادة الوثن ، الذي لا يسمع ولا يبصر ، ولا يدفع عنك الضُرّ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

(١) إن الإمام الطبري فسر الويل حيث وقع في القرآن باسم واد في جهنم يسمى ويلاً والويل يأتي بمعنى الحسرة والهلاك والقبح . قال الراغب : ومن قال : «ويل وادٍ في جهنم فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا ، وإنما أراد أن من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق قعراً من النار وثبت ذلك له . » مفردات القرآن ص ٥٣٥

(٢) يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة ، لأن الموت يذبح فيه ثم ينادى : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، كما صحت بذلك الأحاديث الشريفة .

سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ
مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو
رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ

***

﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ فاقبل مني نصيحتي ، أبصِّرك دين الله ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يا أبت لا تطع الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرحْمٰنِ عَصِيّاً﴾ إن الشيطان كان عاصياً لله ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ يا أبت إني أعلم أنه سينالك عذاب الله ، إذا متَّ على عبادة الشيطان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ فتكون له ولياً من دون الله فتهلك ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قال له أبوه : أراغبٌ أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم ؟ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لئن لم تكفَّ عن ذكر الآلهة بسوء ، لأرجمنَّك بالكلام القبيح والسبّ[1] ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ واجتنبني سليماً من عقوبتي إياك[2] ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ قال إبراهيم : أمانٌ لك أن ينالك مني مكروه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ سأسأل ربي أن يستر ذنوبك بعفوه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ إن ربي لطيفٌ بي ، يجيب دعائي ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وأجتنبكم وما تعبدون من دون الله ، من الأوثان والأصنام ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ وأدعوا ربي مخلصاً له العبادة ، عسى أن لا أشقى بدعائه ، فيعطيني ما أسأله ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فلما اعتزل إبراهيم قومه ، وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ آنسنا وحشته من فراق قومه ، فوهبنا له ابنه إسحٰق ، وابن ابنه يعقوب ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ وجعلناهم كلهم - إبراهيم وإسحٰق ويعقوب - أنبياء ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ ورزقنا جميعهم من فضلنا، ما بسطنا لهم من سعة الرزق ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾ ورزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل عند الناس ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى﴾ واذكر في القرآن المنزل إليك « موسى بن عمران » وخبره ﴿إِنَّهُ

---

(١) الرجم : الأصل فيه الرمي بالحجارة ، ويستعار للرمي بالظن ، والشتم ، والطرد كقوله تعالى ﴿رجماً بالغيب﴾ والإمام الطبري فسر الرجم حيث ورد في كتاب الله بالشتم والسب ، وفسر الراغب الآية بقوله « لأقولن فيك ما تكره » ونقله ابن كثير عن ابن عباس وغيره وقال في الصفوة : لأرجمنك بالحجارة .

(٢) رجح الإمام الطبري هذا المعنى ورجح غيره أن المراد هو المدة الطويلة .والمعنى : اهجرني دهراً طويلاً .

كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ

***

﴿كَانَ مُخْلَصاً﴾ قد أخلصه الله من خلقه ، واصطفاه لرسالته[1] ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ وكان من الأنبياء المرسلين ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ وناديناه من ناحية الجبل الذي على يمين موسى ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ وأدنيناه للمناجاة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ ووهبنا لموسى أخاه هارون ، رحمة منا به ، أيَّدناه وأعنَّاه بنبوته .

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ واذكر في القرآن « إسماعيل بن إبراهيم » واقصص على قومك خبره ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ كان لا يكذب في وعده ، ولا يخلفه ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ وكان إسماعيل نبياً مرسلاً إلى قومه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ﴾ وكان يأمر أهله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ وكان عمله محموداً عند ربه ، غير مقصِّر في طاعته ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ واذكر في القرآن إدريس فقد كان صادقاً لا يقول الكذب ، وكان نبياً أوحى الله إليه ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ ورفعناه إلى مكان عال مرتفع ، ذكر أنه رفع وهو حيٌّ إلى السماء الرابعة[2] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ هؤلاء الذين ذكرتهم في هذه السورة ، هم الذين أنعم الله عليهم فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ وهو إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن الذين حملنا في السفينة مع نوح وهو إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم إسحٰق ، ويعقوب ، وإسماعيل ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ ومن ذرية يعقوب : موسى ، وهارون ، وزكريا ، وعيسى ، وأمه مريم[3] ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ وممن هدينا للإيمان بالله ، واصطفينا لرسالتنا ووحينا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ إذا تتلى عليهم آيات الله التي أنزلها عليهم في كتبه ، سجدوا لله خضوعاً وتذللاً ، وهم باكون ﴿فَخَلَفَ مِنْ

---

(١) فسر الإمام الطبري الآية على القراءتين بكسر اللام من الإخلاص وبفتحها بمعنى الإصطفاء ، وكذا فعل ابن كثير .

(٢) قال بعض المفسرين معناه : رفعنا ذكره وأعلينا قدره بشرف النبوة والرسالة .

(٣) ذكر الإمام ابن جرير « مريم » في جملة الأنبياء ، والعلماء على أنها صدِّيقة ، وليست نبية ، فإن المرأة لا تكون نبية قط لقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم . . ﴾ وهذا هو الصحيح .

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ
مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا
مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾



﴿بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فحدث من بعد هؤلاء الأنبياء خلْف سوء، خلفوهم في الأرض ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشهواتِ﴾ تركوا الصلاة ، ولم يؤدوا الزكاة ، وآثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله ﴿فَسَوفَ يَلْقَونَ غَيّاً﴾ فسوف يلقى هؤلاء خسراناً وشراً[1] ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ إلا من تاب من ذنوبه ، وآمن بالله ورسوله ، وأطاع الأوامر واجتنب المحارم ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ فهؤلاء يدخلون الجنة ، ولا يُبخسون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يدخلون بساتين إقامة ، التي وعدهم الرحمن بها ولم يروها ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ إن موعوده بالجنة حقٌّ لأهل طاعته ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً﴾ لا يسمع أهل الجنة الباطل من القول والكلام ، ولكن يسمعون تحية الملائكة لهم بالسلام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ ولهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب ، في قدر وقت الصباح والمساء ، لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار ﴿تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ هذه الجنة الموصوفة ، هي التي نورثها لعبادنا من كان متقياً الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وما ننزل إلى الدنيا إلا بأمر الله[2] ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لله ما بين أيدينا من أمر الآخرة ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وما بين وقتنا هذا إلى قيام الساعة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ ولم يكن ربك ذا نسيان فيتأخر نزولي إليك ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مالك السموات والأرض وما بينهما ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ فالزم طاعته ، واصبر نفسك على العمل بطاعته تفز برضاه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ هل تعلم يا محمد لربك مثلاً[3] في كرمه وجوده ، فتعبده رجاء

---

(١) وقد روى ابن جرير أن « الغيّ » وادٍ أو بئرٌ في جهنم من قيح ودم أهل النّار .

(٢) احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن ، واشتاق الرسول إليه ، فلما جاءه جبريل قال له : ما جئت حتى اشتقت إليك فنزلت الآية .

(٣) قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً ؟

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا
وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ

***

فضله ؟ ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ يقول الكافر بالبعث : هل سأبعث بعد الممات والفناء ؟ ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ أو لا يذكر المتعجب المنكر ذلك فيعتبر ، ويعلم أن من أنشأه من غير شيء ، لا يعجز عن إحيائه بعد مماته؟﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المنكرين ، مقرَّنين بأوليائهم من الشياطين ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ ثم لنحضرنهم قعوداً حول جهنم ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيّاً﴾ ثم لنأخذن من كل جماعة منهم ، أشدهم على الله عتواً وتمرداً ، فلنبدأن بهم بالعذاب ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً﴾ ثم لنحن أعلم بمن هم أحقُّ بعظيم العقوبة ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وليس منكم أحد أيها الناس إلا وارد جهنم[1] ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ كان ورودهم جهنم قضاءً لازماً ، أوجبه الله في أم الكتاب ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ثم بعد ورود الجميع ، ننجي الذين خافوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ وندع الظالمين الذين عبدوا غير الله في النار ، قعوداً على ركبهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرئت على الناس آياتنا التي أنزلناها على رسولنا ، واضحات لمن تأملها وفكّر فيها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً﴾ قال كفار قريش لأصحاب محمد : أينا أوسع عيشاً ، وأنعم بالاً ، وأفضل مسكناً ؟ ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ وأحسن مجلساً ، وأجمع عدداً في المجلس ، نحن أم أنتم ؟! ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ وكم أهلكنا من أهل الكفر ، من هم أكثر متاعاً من هؤلاء المشركين ، وأحسن منهم منظراً ، وأجمل صوراً ؟ أهلكنا أموالهم ، وغيَّرنا صورهم ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِفَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدّاً﴾ قل يا محمد للمشركين : من

(١) اختلف السلف في معنى الورود ، فذهب البعض إلى أنه الدخول ، وذهب البعض الآخر إلى أنه المرور على الصراط الكائن على متن جهنم كما وردت الأحاديث بذلك ، وكان المرور أولى بالقبول وهو ما رجحه الطبري ، وهو قول ابن مسعود وقتادة .

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ
أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

***

كان منا ومنكم جائراً عن طريق الهدى ، فليطوّلْ الله له في ضلالته ، ولْيمهله فيما هو فيه ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ إلى أن يأتيهم أمر الله ، إما عذاب عاجل ، أو يلقوا ربهم عند قيام الساعة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ فسيعلمون حينئذ من هو شر مكاناً ، منكم ومنهم ، وأضعف أنصاراً ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ ويزيد الله من آمن به ، وصدق بآياته ، هدى على هداه ، بما يتجدد له من الإيمان والعمل الصالح ﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ والأعمال الصالحات ، خير عند ربك جزاء لأهلها ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ وخير رجوعاً وعاقبة ، من مقامات هؤلاء المشركين ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ أفرأيت الذي لم يصدق بحججنا ، وأنكر وعيدنا « وهو العاص بن وائل »[1] ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ وقال : لأوتين في الآخرة مالاً وولداً ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾ هل علم الغيب ، فعلم أن له في الآخرة مالاً وولداً ؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ أم آمن بالله ، فكان بذلك له عهد عند الله أن يؤتيه ما يقول ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ليس الأمر كذلك ، بل كذَّب وكفر، وسنكتب قول هذا الكافر ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً﴾ ونزيده من العذاب بقوله الباطل في الدنيا ، زيادةً على عذاب الكفر ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ ونسلبه ماله وولده ، ويأتينا يوم القيامة وحده لا مال معه ولا ولد ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ واتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله ، لتكون هذه الآلهة عزاً لهم تمنعهم من عذاب الله ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ليس الأمر كما أمّلوا ، ولكن ستكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ ويكونون عليهم بلاء ، حيث يتبرأون منهم يومئذ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ ألم تر يا محمد أنّا سلّطنا الشياطين على أهل الكفر ، تحركهم بالإضلال ، وتغريهم بالمعاصي حتى يواقعوها ، إزعاجاً وإغواء شديداً ﴿فَلَا تَعْجَلْ

---

(١) نزلت الآية في « العاص بن وائل » جاءه « خباب بن الأرتّ » يتقاضاه دينه فقال له : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقال له خباب : لا أكفر حتى تموت ثم تبعث أمامي ، فقال له : إني إذا متُّ سأبعث ؟ إذاً فانتظرني إلى ذلك اليوم ، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك ، فنزلت الآية .

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا
مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾
إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

* * *

عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ فلا تعجل على هؤلاء بطلب العذاب لهم والهلاك ، إنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثماً

﴿يَومَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً﴾ يوم نجمع الذين خافوا عقاب الله في الدنيا ، ركباناً إلى ربهم[1]﴿وَنَسوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ ونسوق الكافرين الذين أجرموا في الدنيا ، عطاشاً إلى جهنم ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لا يملك هؤلاء الكافرون الشفاعة لأحد ، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ لكن يملك الشفاعة ، من اتخذ عند الرحمن عهداً بالإيمان به ، وتصديق رسوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾ وقال الكافرون :الرحمن له ولد ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ لقد جئتم ـ أيها المشركون ـ شيئاً عظيماً منكراً ﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ تكاد السموات يتشقّقن قِطعاً من هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾ وتكاد الأرض تتصدع ، والجبال يسقط بعضها على بعض ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾ أن جعلوا لله ـ سبحانه ـ ولداً ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ وما يصلح لله أن يتخذ ولداً ، لأنه ليس كالخلق الذين تغلبهم الشهوات ، وتضطرهم اللذات إلى جماع الإناث ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ جميع من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الإنس والجن ، يأتون ربهم مقرّين له بالعبودية ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم ، وعدَّهم عداً فلا يخفى عليه منهم أحد ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَومَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم القيامة ، وحيداً لا ناصر له ، فيقضي الله فيه ما هو قاض ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدقوا بما جاءهم من الله ، فعملوا به ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ

---

(١) المراد أنه تعالى يحشر المتقين يوم القيامة معزّزين مكرّمين ، راكبين على الخيول والنوق كما يفد العظماء على الملوك ، ويسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً إذلالاً لهم واحتقاراً .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

***

وُدّاً﴾ سيحدث لهم الرحمن حباً ومودة ، في صدور عباده المؤمنين[١]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾ فإنما يسرنا القرآن بلسانك يا محمد تقرؤه ، لتبشر به المتقين بالجنة ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ وتنذر بالقرآن من عذاب الله قومك أهل الجدل بالباطل .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وكثيراً أهلكنا قبل قومك من مشركي قريش جماعة من الناس إذ سلكوا مسلكهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هل تحس منهم أحداً ، فتراه وتعاينه ؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أو تسمع لهم صوتاً ؟ بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم ، فكذلك هؤلاء المشركون نهلكهم كما أهلكنا من قبلهم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم »

***

(١) هذا وعدٌ من الله تعالى لعباده المتقين ، بأنه سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة ، ومصداقه ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة : « إنَّ الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال له : إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه ، فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء : إن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه ، فيحبُّه أهل السماء ، ثم وُضع له القبولُ في الأرض » جعلنا الله من عباده الصالحين . !



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ

* * *

﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ يا رجل[١] ما أنزلنا القرآن عليك ، لنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل ﴿**إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى**﴾ وما أنزلنا القرآن إلا تذكرة لمن يخاف عقاب الله ﴿**تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَوَاتِ العُلَى**﴾ هذا القرآن تنزيل من الربّ ، الذي خلق الأرض والسموات العالية ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**﴾ الرحمن على عرشه ارتفع وعلا[٢] ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ لله ملك جميع الأشياء التي في السموات ، والتي هي في الأرض وما بينهما ﴿**وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**﴾ وله ما تحت التراب ، كل ذلك ملكٌ له ، وهو مدبره ﴿**وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ**﴾ وإن تجهر يامحمد بالقول أو تُخفه ، فسواءٌ عند ربك ﴿**فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ**﴾ فإن الله لا يخفى عليه ما أسررته في نفسك ، ولم تنطق به ﴿**وَأَخْفَى**﴾ ويعلم ما هو أخفى من السر ، ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾ الله هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ، لا معبود سواه ، ذو الأسماء الحسنى ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً**﴾ وهل جاءك يا محمد حديث موسى حين رأى ناراً ، وكان قد أضل الطريق ؟ ﴿**فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا**

---

(١) ذكر ابن جرير اختلاف العلماء في (طه) ثم رجح أن معناها يا رجل والصحيح الذي عليه أهل التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه كلام الله تعالى المعجز ، وليس من وضع البشر . (٢) علوّاً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تشبيه .

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾



إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ فقال لأهله: امكثوا إني وجدت ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ لعلي أجيئكم بشعلة، لتصطلوا بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو أجد على النار دلالة، تدل على الطريق الذي أضللناه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فلما أتى موسى النار ناداه الرب ـ سبحانه ـ: ياموسى إني أنا ربك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ وأمره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ نحن اجتبيناك لرسالتنا، فاستمع لما نوحيه إليك، واعمل به ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ إنني أنا المعبود، الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، فلا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ وأقم الصلاة لتذكرني فيها ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ إن الساعة التي يبعث فيها الخلائق جائية، أكاد أسترها من نفسي[1]، لئلا يطلع عليها أحد ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ لتثاب كل نفس بما تعمل من طاعة ومعصية ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فلا يردّنك عن التأهب للساعة، من لا يصدِّق بالبعث بعد الموت، واتّبع هوى نفسه فخالف أمر الله ﴿فَتَرْدَى﴾ فتهلك بذلك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ وما هذه التي في يمينك يا موسى؟! نبَّهه بهذا السؤال إلى أنها خشبة ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها، وأضرب بها الشجر اليابس لترعاه غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ولي فيها حوائج أخرى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ قال الله تعالى لموسى: ألق عصاك التي بيمينك ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فألقاها فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة ﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾

(١) هذا قول مجاهد، وقال ابن عباس المعنى: لا أظهر عليها أحداً غيري، واختار الطبري رأي مجاهد.

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ
فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ
فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ

***

قال الله تعالى لموسى : خذ الحية ولا تخف منها ، فإننا سنعيدها لهيئتها التي كانت عليها ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ﴾ واضمم يدك فضعها تحت عضدك ، تخرج بيضاء من غير برص ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ علامة أخرى على حقيقة ما بعثناك به ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَىٰ﴾ كي نريك من أدلتنا الكبرى ، على عظيم قدرتنا ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَونَ إِنَّهُ طَغَى﴾ اذهب يا موسى إلى فرعون ، إنه تجاوز قدره ، وتمرد على ربه ، فادعه إلى توحيد الله وطاعته ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ اشرح لي صدري لأجترىء على خطاب فرعون ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسهِّل عليَّ القيام بما تكلفني به من الرسالة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وأطلق لساني بالمنطق[1] ، ليفهموا عني ما أخاطبهم به ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي﴾ واجعل لي عوناً من أهل بيتي أخي هارون ﴿آشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ قوِّ به ظهري وأعني به ، واجعله نبياً مثل ما جعلتني ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ كي نعظمك بتسبيحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً فنحمدك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ فإنك لا يخفى عليك من أفعالنا شيء ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ قال الله له : قد أعطيت ما سألت يا موسى ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ولقد أنعمنا وتفضَّلنا عليك يا موسى قبل هذه المرة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ حين أوحينا إلى أمك ـ وكان فرعون يقتل كل مولود ذكر من قومك ـ ما أوحيناه إليها ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ في التَّابُوتِ﴾ أن ضعي ابنك في التابوت[2] ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فاقذفي التابوت في النيل ، يلقه النيل بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يأخذه فرعون الذي هو عدوٌّ لله ولموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ حبَّبتك إلى «آسية» امرأة فرعون حتى تبنَّتك وربَّتك ، وإلى

(١) الحكمة في طلب حل العقدة كي لا يقع في أداء الرسالةالخلل . روي أنه كان بلسان موسى عجمة لأنه كان ذات مرة في حجر فرعون فأخذ بلحيته ، فغضب فرعون وأراد قتله فقالت له زوجته : إنه صغير لا يعقل ثم أشارت عليه بأن يمتحنه فوضع له جمرة فالتقطها بفمه فكانت بلسانه عقدة ، والرواية ذكرها الطبري عن مجاهد وابن جبير .

(٢) التابوت : الصندوق من خشب ونحوه .

عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن
يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

***

فرعون حتى كفَّ عنك شره ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتُربَّى على مرأى مني ومحبة[1] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ حين تمشي أختك تتبعك حتى وجدتك ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ فتقول : هل أدلكم على من يَضُمُّه إليه فيرضعه ويربّيه ؟ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فرددناك إلى أمك كيما تقرّ عينها بسلامتك من الغرق ،وكيْ لا تحزن عليك من الخوف ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ وقتلت القبطي حين استغاثك الإسرائيلي ،فخلّصناك منهم حتى هربت إلى أهل مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ وابتليناك بلاءً بعد بلاء ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فخرجت من مصر خائفاً إلى أهل مدين ، فمكثت فيهم سنين .

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾ ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك فيه إلى فرعون ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واخترتك واصطفيتك لتبليغ رسالتي ، نعمةً مني عليك ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ إذهب يا موسى أنت وأخوك هارون بأدلتي وحججي ، ولا تضعفا في ذكري ، فإن ذكركما لي يثبّت أقدامكما ، ويقوّي عزائمكما ﴿إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ إذهبا إلى فرعون ، إنه تمرّد في ضلاله وغيّه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فأبلغاه رسالتي ، وعِظاه ليتذكر فيرجع عن غيّه ، أو يخشى ربه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ قالا ربنا : إنا نخاف فرعون أن يعجل علينا بالعقوبة إن دعوناه ، أو يعتدي علينا بتمرده وطغيانه ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ قال : لا تخافا فرعون فإني أعينكما عليه ، وأنا أسمع وأرى ما يجري بينكما ، لا يخفى عليّ شيء ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ فأتياه فقولا له إنا رسولا

---

(١) من عجائب صنع الله أن موسى تربى في قصر فرعون معززاً مكرماً ، وكان هلاك فرعون على يديه ، وهذا من عناية الله بموسى ورعايته له ، فسبحان من يربي حبيبه في حجر عدوه .

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ
شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

* * *

ربك ، أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل ، فأرسلهم ولا تعذبهم بما تكلفهم به من أعمال رديئة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ قد جئناك بمعجزة ظاهرة على إرساله لنا إليك ، فإن لم تصدقنا أريناك إياها ﴿والسَّلَامُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى﴾ والسلامة لمن اتبع بيان الله ﴿إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ إننا قد أوحي ربنا إلينا ، أن عذابه على من كذب بما ندعوه إليه من التوحيد ، وأدبر معرضاً عن الحق ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ فقال فرعون : فمن ربكما يا موسى ؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُم هَدَى﴾ أجابه موسى : ربنا الذي أعطى كل شيء نظير خلقه ، في الصورة والهيئة ، ثم هداه لسائر منافعه(١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى﴾ قال فرعون : فما شأن الأمم الخالية ، التي لم تقرَّ لله بالوحدانية ؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ قال موسى : علم هذه الأمم التي مضت ، في أم الكتاب لا علم لي بأمرها ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ لا يخطىء ربي في تدبيره ، ولا ينسى فيترك فعله ، فكل فعله حكمة وصواب ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ مهّد الأرض لمنفعتكم ﴿وسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً﴾ وجعل لكم في الأرض طرقاً ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ وأنزل من السماء مطراً ، فأخرجنا به ألواناً من نبات ، مختلفة الطعوم والرائحة والمنظر ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ كلوا من طيب ما أخرجنا لكم من الغذاء ، وارعوا بهائمكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى﴾ إن فيما وصفتُ من قدرة الله ، لدلالات على وحدانية ربكم ، لأهل العقول لأنهم أهل التفكر والاعتبار ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ من الأرض خلقناكم ، وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ومن الأرض نخرجكم أحياء بعد مماتكم ، مرة أخرى كما أخرجناكم منها أول مرة

---

(١) قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجه ثم هداه لمنكحه ، ومطعمه ، ومشربه . قال الطبري : كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها أزواجاً ، فلم يزوج الإنسان بالإناث من البهائم ، ولا البهائم بالإناث من الإنس . أقول : وهذا الجواب من موسى في غاية البلاغة والحسن والبيان ، لاختصاره ودلالته على جميع المخلوقات ، ومعنى الآية : ربنا الذي أبدع كل شيء خلقه ، ثم هداه لمنافعة ومصالحه ، فأعطى العين الهيئة التي توافق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق السماع ، وكذلك اللسان ، والفم ، واليد ، والرجل .

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ
وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟
صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ولقد أرينا فرعون حججنا كلها ، فأبى أن يقبل الحق استكباراً وعتواً ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ قال فرعون : أجئتنا يا موسى بسحرك ، لتخرجنا من منازلنا ودورنا ؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ فلنأتينك بسحر مثل الذي جئتنا به ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ﴾ فاجعل بيننا موعداً لا نتعداه ، ولا نخلف ذلك الموعد نحن ولا أنت ﴿مَكَاناً سُوًى﴾ بمكان عدل ووسط بيننا وبينك ، فننظر أينا يغلب صاحبه ؟ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ قال موسى : موعدكم للاجتماع ، يوم عيدكم الذي تتزينون فيه ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ وأن يساق الناس من كل فج وناحية وقت الضحى ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ فأعرض فرعون عن الحق ، فجمع سحرته ثم جاء للموعد معهم ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ قال موسى للسحرة : لا تختلقوا على الله الكذب ، فيستأصلكم بهلاكٍ فيبيدكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ ولم يظفر بحاجته من اختلق الكذب على الله ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تخاصم السحرة أمرهم بينهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ وتناجوا فيما بينهم سراً ﴿قَالُوا : إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ قالوا في مناجاتهم : إن موسى وهارون لساحران ، يريدان إخراجكم من منازلكم بسحرهما ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم[1] ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً﴾ فأحكموا أمركم ومكركم ، واعزموا عليه ، وجيئوا صفوفاً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ قد ظفر بحاجته اليوم ، من غلب صاحبه فقهره ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أتى السحرة صفاً ثم قالوا لموسى : إما أن تلقي ما معك قبلنا ، وإما أن نلقي نحن قبلك؟ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ قال موسى للسحرة : بل ألقوا ما معكم قبلي ﴿فَإِذَا

(١) هذا قول مجاهد والسدي ، وقال ابن زيد : المراد يذهبا بطريقتكم الحسنة التي هي أفضل الطرق ، وهذا القول أظهر .

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ

***

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ فألقوا ما معهم من الحبال والعصي ، وسحروا أعين الناس ، فخيل إلى موسى أن الحبال والعصي تتحرك ﴿فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فأضمر موسى في نفسه خوفاً ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ قلنا لموسى حينذاك : لا تخف إنك أنت الغالب على فرعون وجنده ، والقاهر لهم ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ وألق عصاك تبتلعْ حبالهم ، وعصيَّهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ إن الذي صنعه السحرةُ مكرٌ من ساحر ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ولا يظفر الساحر بما يطلبه أين كان ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ فألقى موسى عصاه ، فابتلعت العصيَّ والحبال فآمن السحرة ، وسجدوا لله ربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون .

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة : أقررتم لموسى بما دعاكم إليه ، من قبل أن أطلق ذلك لكم ؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى لعظيمكم في السحر ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين القطع ، في اليمين واليسار[١] ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ ولأصلبنكم على جذوع شجر النخل[٢] ، ولتعلمن ـ أيها السحرة ـ أينا أشد عذاباً لكم وأدوم ، أنا أو موسى ؟ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ﴾ قال السحرة لفرعون : لن نتبعك ، ونكذِّب ما جاء به موسى من الحجج والأدلة ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ ولن نؤثرك على الذي خلقنا[٣] ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فاعمل بنا ما بدا لك[٤]

---

(١) وذلك بأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو بالعكس .

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال: كانوا في أول النهار سَحَرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة .

(٣) وقال بعض المفسرين : هذا قسم والمعنى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات واللّهِ الذي خلقنا ، وهذا أوضح وأظهر

(٤) قال الحسن : سبحان الله ، قومٌ كفار ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين ، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا في ذات الله :﴿فاقض ما أنت قاض﴾والله إن أحدهم ليصحب القرآن ستين عاماً ثم يبيع دينه بثمن غبن .

مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾
وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾
وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن

***

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تعذبنا في هذه الحياة الفانية ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ إنا صدَّقنا بربنا ، ليعفو لنا عن ذنوبنا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وليغفر لنا عملنا بالسحر الذي أكرهتنا عليه ﴿واللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والله خير منك يا فرعون، وأبقى عذاباً لمن عصاه ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ إنه من يأت ربه مكتسباً الكفر ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى﴾ فإن له جهنم مأوى ومسكناً ، لا تَخْرُج نفسه فيموت ، ولا تستقر في مقرها فتطمئن[1] ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ ومن يأته موحداً لا يشرك به شيئاً قد عمل ما أمره به ربه ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى﴾ فأولئك لهم درجات الجنة العالية ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة لا ظعن عنها ، ولا فناء لها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ وذلك ثواب من تطهر من الذنوب ، ولم يدنس نفسه بالمعصية ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيَ﴾ ولقد أوحينا إلى نبينا موسى ، أن سر ليلاً بعبادي من بني إسرائيل ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً﴾ فاتخذ لهم في البحر طريقاً يابساً ﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده ، ولا تخشى غرقاً ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر ، فعلاهم من البحر ما علاهم ، فغرقوا جميعاً

﴿وأَضلَّ فِرْعَونُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ فسلك بهم فرعون طريق النار ، فلم يهدهم ولم يهتدوا ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وقلنا : يا بني إسرائيل قد أنقذناكم من عدوكم فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ وعدناكم يا بني إسرائيل جانب جبل الطور لإنزال التوراة عليكم ، كما أنعمنا عليكم بالمنّ والسلوى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ كلوا يا بني إسرائيل من شهيّات رزقنا وحلاله ﴿وَلَا تَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ولا تعتدوا فيظلم بعضكم بعضاً ،

---

(١) معنى الآية أن المجرم لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا في جهنم الحياة الطيبة الهنيئة .

يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ
بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا
أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

***

فتنزل عليكم عقوبتي ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ومن ينزل عليه غضبي ، فقد تردَّى وشقي ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ وإني لذو سترٍ لمن رجع عن شركه ﴿وَآمَنَ﴾ وأخلص في عبادته ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وأدى فرائضي ، واجتنب معاصيَّ ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم لزم ذلك فاستقام عليه ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ أيُّ شيء أعجلك عن قومك يا موسى ، حتى تقدمتهم[1] وخلفتهم وراءك ؟ ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ قال : قومي على أثري يلحقون بي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ وعجلت أنا فسبقتهم ، كيما ترضى عني ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ قال الله : فإنا قد ابتلينا قومك بعبادة العجل ، بعد فراقك إياهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ودعاهم السامري إلى عبادة العجل ، فأضلهم عن الحق ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ فانصرف موسى إلى قومه متغيظاً حزيناً ، لما أحدثوا بعده من الكفر بالله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ قال موسى : ألم يعدكم ربكم أنه غفار ، وينزل عليكم المن والسلوى ؟ ﴿أَفَطَالَ عليكُمُ الْعَهْدُ﴾ أفطال عليكم العهد بي ، وبجميل نعم الله عندكم ، وأياديه لديكم ؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عليكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم أردتم أن ينزل عليكم غضب من ربكم بكفركم بالله؟ ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوعِدِي﴾ فلم تسيروا على أثري ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ قالوا : ما أخلفنا عهدك بقدرتنا وطاقتنا ، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الفتنة ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ ولكنا حملنا أثقالاً من حلي آل فرعون ، فرميناها في الحفرة .

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ وكذلك صنع السامري ، ألقى ما معه من أثر حافر فرس جبريل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ فأخرج لهم السامري ـ مما قذفوه ومما ألقاه ـ عجلاً له صوت البقرة[2] ﴿فَقَالَ هَذَا إِلَهُكُمْ وإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ فقال لهم السامري : هذا معبودكم ومعبود موسى ، وقد

(١) تعجَّل موسى وتقدَّم على قومه شوقاً إلى كلام ربه .

(٢) قال ابن كثير : دعا السامري أن يكون عجلاً ، فكان عجلاً له صوت استدراجاً وإمهالاً واختباراً ، وعكف بنو إسرائيل على عبادة العجل .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى
نَفْسِى ﴿٩٦﴾

***

نسي موسى ربه أنه العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم ، لا يكلمهم ولا يردُّ عليهم جواباً ؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يقدر على ضر ولا نفع ، فكيف يكون إلهاً ؟ ! ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ولقد قال هارون لعبدة العجل : يا قوم إنما اختبر الله إيمانكم بهذا العجل ليعلم به الصحيح الإيمان من الشاك في دينه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ وإن ربكم الرحمن الذي عمَّ جميع الخلق برحمته ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فاتبعوني في عبادة الله ، وأطيعوا أمري في إخلاص العبادة له ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فقالوا له :لن نزال مقيمين على عبادة العجل ، حتى يرجع موسى إلينا ﴿قَالَ يَاهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ قال : يا هرون أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله وعبدوا العجل ، أن لا تتبعني بالسير بالمؤمنين من ذلك المكان ؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أفعصيت أمري بذلك ؟ ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه ، فقال: يا ابن أمي[١] لا تفعل ذلك ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إني خفت إن فعلت ذلك أن تقول : فرَّقت بين جماعتهم ، فتركت بعضهم وجئت ببعضهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تحفظ قولي ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ قال: ما شأنك يا سامريُّ ، وما الذي دعاك إلى ما فعلته ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ قال : علمت ما لم يعلموه[٢] ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ فأخذت بكفي تراباً من أثر حافر فرس جبريل ، فألقيتها على الحلية ، فصارت عجلاً له خوار ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ وكذلك زينت لي نفسي .

---

(١) خاطبه بقوله﴿يا ابن أمَّ﴾أي يا أخي لاستدرار الشفقة والعطف ، فإن ذكر الأم هنا أرقُّ وأبلغ في العطف والحنان .

(٢) هكذا فسره الطبري وهو قول لابن عباس ، وقال ابن كثير : أي رأيت ما لم يروه ، رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون راكباً على فرسه ، فقبضت من أثر حافر فرس جبريل .

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾

* * *

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ قال موسى : فاذهب فإن لك في أيام حياتك ، أن تقول لا أَمَسُّ أحداً ولا يَمَسُّني أحد[١] ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وإن لك موعداً لعقوبتك على إضلال القوم ، لن يخلفه الله لك ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ وانظر إلى معبودك الذي أقمت تعبده ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً﴾ لنحرقنه بالنار ، ثم لنلقينَّ رماده في البحر ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ما لكم أيها القوم معبود إلا الله الذي لا تنبغي أن تكون العبادة إلاّ له ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أحاط بكل شيء علمه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ كما قصصنا عليك أخبار بني إسرائيل ، كذلك نخبرك بأنباء الأشياء الماضية التي لم تشاهدها ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ وقد آتيناك يا محمد قرآناً من عندنا ، يتَّعظ به أهل الفهم ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً﴾ من ولّى عنه ولم يصدِّق به ، فإنه يحمل يوم القيامة إثماً عظيماً ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في النار بأوزارهم ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ وساء ذلك الحمل من الذنوب ، فقد أوردهم مهلكة لا منجى منها ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم ينفخ إسرافيل في الصور ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ ونسوق أهل الكفر إلى القيامة ، زرقاً من شدة العطش[٢] ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾ يتهامسون بينهم ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم منهم عند إسرارهم بما يقولون ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ حين يقول أوفاهم عقلاً : ما عشتم في الدنيا إلا يوماً واحداً[٣] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾

---

(١) روي أن موسى أمر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه .

(٢) قال ابن كثير : قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ، وقال الراغب : أي عمياً لا نور لعيونهم .

(٣) قال الطبري : ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة ، ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذات ، حتى يخيّل إلى أعقلهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا يوماً واحداً .

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ
لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى
ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

***

ويسألك قومك يا محمد عن الجبال فقل يذريها ربي ويطيّرها بقلعها من أصولها ، ودكّ بعضها على بعض ، فيجعلها هباءً منبثاً ﴿**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً**﴾ فيدع الأرض ملساء مستوية ، لا نبات فيها ولا ارتفاع ﴿**لَا تَرى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً**﴾ لا ترى في الأرض ميْلاً ،ولا ارتفاعاً ،ولا انخفاضاً ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**﴾ يومئذٍ يتبع الناس صوت داعي الله ، إلى موقف القيامة لا انحراف لهم عنه .

﴿**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً**﴾ وسكنت أصوات الخلائق للرحمن ، فلا تسمع لناطق منهم منطقاً **قال مجاهد** : لا تسمع من يحرك شفتيه ولسانه[1] ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ يوم القيامة لا تنفع الشفاعة من أحد ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضي قوله فتقبل شفاعته ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ يعلم ربك ، ما يصيرون إليه من الثواب والعقاب ، ويعلم ما خلّفوه وراءهم من أمر الدنيا ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ ولا يحيط خلقه علماً بربهم ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾واستسلمت وجوه الخلق وذلّت للحي الذي لا يموت ، القائم على خلقه بتدبيره شئونهم ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**﴾ ولم يظفر بحاجته من كفر بالله ، وعمل بمعصيته ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ من يعمل صالحات الأعمال ، وهو مصدّق بالله ﴿**فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً**﴾ فلا يخاف من الله أن يظلمه فيعاقبه على سيئات غيره ، ولا يُنقصه ثواب حسناته ﴿**وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً**﴾ وكذلك أنزلنا هذا القرآن عربياً إذ كانوا عرباً ﴿**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ وخوّفناهم فيه بضروب الوعيد ، كي يتقوا عذابنا ﴿**أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾ أو يحدث لهم تذكرة ، فيتعظوا وينزجروا ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ تعالى الله الذي قهر سلطانه كل ملك وجبار ، عما يصفه به المشركون ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾

(١) قال الراغب : الهمس : الصوت الخفي ، وهمس الأقدام أخفى ما يكون من صوتها ، وقد ذكر المفسرون في الآية قولين : هما وطء الأقدام ، والصوت الخفي .

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

***

فلا تعجل بقراءة القرآن على أصحابك ، من قبل أن يُوحى إليك بيانُ معانيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ إلى ما علمتني ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ ولقد وصينا آدم بعدم طاعة الشيطان ، فترك عهدي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ولم نجد له عزم قلب على حفظ العهد

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ فسجد الملائكة كلهم ، إلا إبليس أبى أن يسجد ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾فقلنا يا آدم إن إبليس عدو لكما ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ فلا يخرجنكما بمعصيتكما من الجنة ، فتشقى يا آدم لأن عيشك يكون من كدِّ يمينك ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إن لك أن لا تعرف الجوع في الجنة ولا العري ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ وأنك لا تعطش في الجنة ما دمت فيها ، ولا يؤذيك حرُّ الشمس ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ فألقى الشيطان[1] إلى آدم وحدثه ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خُلِّدت ، وملكت ملكاً لا ينقضي ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فأكل آدم وحواء من الشجرة ، التي نُهيا عن الأكل منها ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ فانكشفت لهما عوراتهما ، وكانت مستورة عن أعينهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ﴾ وأقبلا يوصلان على جسديهما من ورق الجنة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فخالف آدم أمر ربه ، وتعدى إلى الأكل من الشجرة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ثم اصطفاه الله فهداه إلى التوبة ، ووفقه لها ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الله لآدم وحواء : اهبطا جميعاً إلى الأرض ، أنتما عدوٌّ لإبليس وذريته ، وإبليس

---

(١) يظهر خطأ اعتقاد النصرانية في أن الشيطان وسوس لحواء ، وحواء أغرت آدم، مما جعلهم ينظرون إلى المرأة على أنها دنس لا يدخل ملكوت الله إلا من تطهر منها ، فيبين القرآن أن الشيطان وسوس لآدم وفي آية أخرى﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ
كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ



عدوُّكما، وعدوُّ ذريتكما ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدى﴾ فإن يأتكم بيان لديني ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ فمن اتبع بياني وعمل به ، فلا يزيغ عن محجة الحق ، ولا يشقى بعقاب الله(١) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ومن تولى ولم يستجب لأمري ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ فإن له عيشاً ضيقاً شديداً في القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ونحشره في القيامة أعمى عن الحجة والرؤية ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ قال : رب . لِمَ حشرتني أعمى عن رؤية الأشياء ، وقد كنت في الدنيا مبصراً ؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ قال: حشرتك أعمى لأنك أعرضت عن أدلتي وحججي ، فتركتها في الدنيا ولم تؤمن بها ﴿وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسى﴾ وكذلك اليوم ننساك فنتركك في جهنم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وكذلك نثيب من عصى ربه ، ولم يؤمن بآياته ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ ولعذاب الله في الآخرة ، أشدُّ لهم من عذاب القبر وأدوم ، لأنه إلى غير نهاية .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ﴾ أفلم يبين للمشركين، كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم ؟ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يمشون في مساكنهم ودورهم ، ويرون آثار عقوبتنا بهم على كفرهم، فيتعظوا ويعتبروا؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ إن في تلك الآثار ،لدلالات وعبراً وعظات لأهل العقول ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ولولا ما سبق أن الله قضى لهم أجلاً ، وسمَّى لهم وقتاً في أم الكتاب هم مستوفوه ، للازمهم الهلاك عاجلاً ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ﴾ فاصبر يا محمد على أذى قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصلِّ حامداً لربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة

---

(١) قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه ، عصمه الله من الضلالة ، ووقاه من هول يوم القيامة ، وتلا الآية﴿فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى﴾.

فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

***

الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وفي ساعات الليل صلاة العشاء ﴿وأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ صلاة الظهر والمغرب ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كي يرضيك الله ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تنظر ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ إلى ما جعلنا لأصناف هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعةً في حياتهم الدنيا ، يتمتعون بزهرتها ونضرتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم في ذلك ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ورزق ربك في الآخرة ، خير مما متعناهم به وأدوم ، لأنه لا انقطاع له ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وأمر يا محمد أهلك بالصلاة، واصطبر على القيام بها ، وأدائها بحدودها ﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ لانسألك مالاً ﴿نحن نرزقك﴾ نحن نعطيك المال ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ والعاقبة الصالحة لأهل الخشية من الله ﴿وَقَالُوا لَولاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقال المشركون : هلاَّ يأتينا محمد بآية من ربه ، كما أتى الأنبياء أقوامهم !! ﴿أَوَ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل القرآن ، من أنباء الأمم ، أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها !؟ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين بعذاب، من قبل تنزيل القرآن وبعثة الرسول ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَينَا رَسُولاً﴾ لقالوا يوم القيامة : ربَّنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً ، يدعونا إلى طاعتك !! ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ فنتبّع أمرك ونهيك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ من قبل أن نذل بتعذيبك ونُهانَ به ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ قل يا محمد: كلكم أيها المشركون منتظر ، ينتظر دوائر الزمان ، وما يئول إليه أمر الآخر ، فترقبوا وانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ فستعلمون إذا قامت القيامة ، من أهل الطريق المستقيم ، ومن المهتدي إلى الطريق العادل ، أنحن أم أنتم ؟؟

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طــه»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

***

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ دنا حساب الناس على أعمالهم في الدنيا[١] ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم في الدنيا في سهو وغفلة ، عمَّا الله فاعلٌ بهم يوم القيامة ، قد تركوا الفكر فيه ، والاستعداد له جهلاً منهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ما يُحدِث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن ، يذكِّر الناس به ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلا استمعوا لتلاوته ، وهم يلهون ويلعبون ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ غافلة عنه قلوبهم ، لا يتدبرون ولا يتفكرون فيما فيه من الحجج ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأخفى المعرضون عن ذكر الله ، الظالمون لأنفسهم ، المناجاةَ بينهم ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فقالوا لبعضهم : أتقبلون السحر وتصدّقون به ، وأنتم تعلمون أن القرآن سحر ؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال محمد : ربي يعلم قول كل قائل في السماء والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو السميع لقولهم ، العليم بصدقي وحقيقة ما أدعوكم إليه ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بل قال بعضهم : هو أهاويل[٢] رؤ يا رآها في النوم ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ وقال بعضهم : هو اختلاقٌ ، افتراه من قبل نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وقال بعضهم : بل محمد شاعر ، جاءكم بشعر ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ

---

(١) في ذكر اقتراب القيامة تنبيه للغافلين ، وزجرٌ للمذنبين وإيقاظ لجميع المكلفين إلى أهوال القيامة .
(٢) أهاويـل : بمعنى رؤى منامية مخيفة رآها في نومه .

﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ
فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ
قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا
زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

***

الأَوَّلُونَ﴾ فليجئنا محمد ـ إن كان صادقاً ـ بحجة على حقيقة ما يقوله ، كما جاءت به الرسل الأولون من قبله **﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾** لم يؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية ، التي أهلكناها مع مجيء رسلها بالآيات المعجزات **﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾** أفهؤلاء المكذبون يصدّقون إن جاءتهم آية ؟! **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِليهِمْ﴾** وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم ، إلا رجالاً مثلهم لا ملائكة، نوحي إليهم ما نريد ، فلماذا أنكروا إرسالك ؟ **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** فاسألوا أهل التوراة والإنجيل عن الرسل ما كانوا ؟ يخبرونكم عنهم **﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾** وما جعلنا الرسل خلقاً لا يأكلون الطعام ، بل جعلناهم أجساداً مثلك **﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾** ولا كانوا أرباباً لا يموتون

﴿ثُمّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ﴾ ثم صدقنا رسلنا ما وعدناهم به ، من هلاك قومهم المكذبين ، بعد مجيء آيات الله **﴿فَأَنْجَينَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾** فأنجينا الرسل ، وأتباعهم الذين صدَّقوهم **﴿وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفينَ﴾** وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم **﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِليكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرِكُمْ﴾** لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه **﴿أَفَلاَ تَعْقِلونَ﴾** أفلا تعقلون آياته ؟ **﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾** وكثيراً أهلكنا من أهل قرية ، كانت كافرة بالله ، مكذّبة رسله **﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾** وأحدثنا بعد إهلاك أهل هذه القرية سواهم **﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾** فلما عاينوا عذابنا قد حلّ بهم ، ورأوه ووجدوا مسّه **﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾** إذا هم يهربون من قريتهم سراعاً منهزمين **﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾** لا تهربوا وارجعوا إلى ما نُعّمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم **﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾** لعلكم تُسألون من دنياكم شيئاً . . وهذا بطريق الاستهزاء[1] **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** قالوا : يا ويلنا إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بربنا **﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾** فما زالوا يدعون بالويل **﴿حَتّى**

---

(١) قال الطبري : وهذا على وجه السخرية والاستهزاء كما نقل عن قتادة

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا
فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ

***

جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ حتى قتلهم الله وحصدهم بالسيف ، وأصبحوا هالكين قد انطفأت شرارتهم ، وسكنت حركاتهم ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بينَهُمَا لاَعِبينَ﴾ وما خلقنا السماء والأرض عبثاً ولعباً ، وإنما خلقناهما حجة على الناس ، ليعتبروا فيعلموا أن العبادة لا تصلح إلاَّ له ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لو أردنا أن نتخذ زوجة وولداً ، لاتخذنا ذلك من عندنا ، ولكنا لا نفعل ذلك ، لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولدٌ ، ولا صاحبة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ بل ننزل كتاب الله الحق ، على الكفر وأهله ، فيهلكه ﴿فَإذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فإذا هو هالك مضمحل ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ولكم الويل من وصفكم ربكم بالقول الباطل ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله ملك جميع من في السموات والأرض ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ والملائكة الذين عند ربهم ، لا يستنكفون عن عبادتهم له ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون ولا يملُّون من طول خدمتهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ تسبّح ملائكته ربهم بالليل والنهار ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ لا يسأمون من تسبيحهم إياه ﴿أَم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ هل هذه الآلهة التي اتخذها المشركون ، يحيون الأموات ، وينشرون الخلق ؟! ﴿لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لو كان في السموات والأرض آلهة ، تصلح لهم العبادة سوى الله ، لفسد أهل السموات والأرض ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتنزيهاً لله وتبرئة له ، مما يفتري عليه هؤلاء المشركون ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لا سائل يسأل رب العرش ، عن الذي يفعل بخلقه لأنهم عبيده ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ وجميع العباد مسؤولون عن أفعالهم ، ومحاسبون على أعمالهم ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾أم اتخذالمشركون من دون الله آلهة ، تنفع وتضرُّ ، وتحيي وتميت ؟! ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قل لهم : هاتوا بيِّنتكم التي تدل على صدقكم فيما تزعمون .

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ هذا القرآن خبر من معي مما لهم من ثواب الله أو عقابه ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾

فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟
ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن
دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ

***

وخبر من قبلي من الأمم ، وما الله فاعل بهم في الآخرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون الصواب فيما يأتون ويذرون ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهم معرضون عن الحقّ ، جهلاً منهم به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ، إلى أمة من الأمم ، إلا نوحي إليه أنه لا معبود تصلح العبادة له سواي ، فأخلصوا لي العبادة ، وأفردوا لي الألوهية ﴿وَقَالُوا اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ وقال الكافرون اتخذ الرحمن ولداً من ملائكته ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ما الملائكة إلا عباد أكرمهم الله ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يعملون عملاً إلا بأمره ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعلم ما بين أيدي ملائكته مما هم فيه قائلون وعاملون ﴿وما خلفهم﴾ ويعلم ما مضى من الأزمان وما عملوا فيه ، لا يخفى عليه شيء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمَنِ ارْتَضَى﴾ ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم من خوف الله حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ ومن يقل من الملائكة إني إله من دون الله ، نثيبه على قوله ذلك جهنم ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ كذلك نجزي جهنم كل من ظلم نفسه فكفر ، وعبد غير الله ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أو لم ينظر هؤلاء الكفار بأبصار قلوبهم ، فيعلموا أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، فصدعناهما وفرجناهما، فتقنا السماء بالغيثِ ، والأرض بالنبات[1] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أفلا يصدقون بذلك ، ويقرون بألوهية من فعل ذلك ، ويفردونه بالعبادة ؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتة ، لئلا تتكفأ بالناس ،

(١) يجب التنبيه إلى أن هذه الآية الكريمة ليس فيها أي دليل للنظرية القائلة بأن الكون كان سديماً غازياً ثم تفرق إلى كواكب ونجوم ، وذلك لأن مراد تلك النظرية إثبات أن لا خالق فاعل في هذا الكون ، والآية الكريمة تثبت أن الله هو الفعال الوحيد في هذا الوجود .

بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن
قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ

***

وليثبتوا على ظهرها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وجعلنا في الأرض أعلاماً طُرُقاً ، ليهتدوا إلى السير فيها ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ وجعلنا السماء سقفاً للأرض ، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وهؤلاء المشركون يعرضون عن تدبر ما فيها من الحجج ، ودلالتها على وحدانية خالقها ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ﴾ والله الذي خلق لكم ـ أيها الناس ـ الليل والنهار ، نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وخلق الشمس والقمر ، كلٌّ منهما يدور ويجري في فلكه ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ﴾ وما خلدنا أحداً من بني آدم قبلك يا محمد في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ أفهؤلاء المشركون هم الخالدون بعدك ؟! ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ كل نفس معالجةٌ غصص الموت ، ومتجرعةٌ كأسها ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ونختبركم بالشدة وبالرخاء ، فنفتنكم به ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وإلينا تردون فتجازون على أعمالكم ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ وإذا رآك يا محمد الذين كفروا ما يتخذونك إلا سخرية ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يقول بعضهم لبعض : أهذا الذي يعيب آلهتكم ، ويذكرها بسوء ؟! يتعجبون من عيبك الآلهة ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم كافرون بالذي خلقهم وأنعم عليهم ، لا يذكرونه بما هو أهل به[1] ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ خلق الإنسان على عجل وسرعة ، ولذلك يستعجل ربَّه العذاب ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ سنأتيكم بآياتنا فلا تستعجلوا ربكم بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول الكافرون : متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب ، إن كنتم صادقين بهذا الوعد ﴿لَو يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ لو يعلم الكفار ماذا لهم من البلاء ،

---

(١) أشارت الآية إلى أن المشركين يغضبون إذا ذكرت آلهتهم بسوء ويتألمون لذلك ، وأما الرحمن الذي منه جميع النعم فهم يجحدون وحدانيته وينكرون فضله وهذا من العجائب .

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

***

حين تلفح وجوههم النار فلا يدفعونها عن وجوههم ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يدفعونها عن ظهورهم ، ولا ناصر لهم يستنقذهم من عذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ بل تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها ، فتغشاهم معاينة كالحيران المبهوت ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فلا يطيقون دفعها عن أنفسهم ، ولا هم يؤخرون بالعذاب ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ولقد سخر المشركون برسل من قبلك يا محمد ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فنزل بالمستهزئين البلاء والعذاب ، الذي كانت تخوفهم به رسلهم ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ قل من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم ، من أمر الرحمن إن نزل بكم ؟ ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بل هم عن ذكر حجج ربهم معرضون لا يتدبرونها ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ ألهؤلاء المشركين آلهة تمنعهم منا، إن أحللنا بهم عذابنا؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ لا تستطيع الآلهة أن تنصر أنفسها فكيف تستطيع أن تمنعهم منا ؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ولاهم يُجارون من عذابنا ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ بل متعنا الكفار بهذه الحياة الدنيا ، وآباءهم من قبلهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ حتى امتدت أعمارهم وهم على كفرهم مقيمون ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أفلا يرى المشركون ، أنا نأتي الأرض نخربها من نواحيها ، بقهرنا أهلها ، وإجلائهم عنها ؟ ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أفيظنون أنهم يغلبون محمداً ، ويقهرونه ؟! بل نحن الغالبون[١] .

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ قل يا محمد : إنما أُخوفكم أيها القوم بكلام الله ، الموحى من عنده ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولا يُصغي الكافر إلى وحي الله وما فيه من المواعظ ، فيتذكر ما فيه ويفهم آياته ، ولكنه يعرض عنه فعل الأصمّ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولئن أصابهم نصيب

(١) قال الطبري : وهذا تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين والمعنى ليسوا بغالبين ولكن رسول الله هو الغالب.

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ
بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ
وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ
مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

***

من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ليقولن: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين في عبادتنا الآلهة، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ونضع الموازين العدل لأهل القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فلا يعاقب إنسان بذنب لم يعمله، ولا يُبخس ثواب عملٍ عمله ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وإن كان وزن حبة من خردل، جئنا بها فأحضرناها ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وكفى أن نكون نحن المحاسبين لهم على أعمالهم، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم منا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ آتيناهما الحق الذي فرق بينهما وبين فرعون ﴿وَضِيَاءً﴾ وآتيناهما التوراة التي أضاءت أمر دينهم ﴿وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ وتذكيراً لمن اتقى الله بطاعته، وأداء فرائضه ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ الذين يخافون ربهم في الدنيا، أن يعاقبهم في الآخرة ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم حذرون أن تقوم عليهم القيامة، وقد فرطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم بما لا قِبل لهم به ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وهذا القرآن مباركٌ، أنزلناه موعظةً لمن اتعظ به ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أفأنتم منكرون لهذا الكتاب الذي أنزلناه؟ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ﴾ ولقد أعطى الله إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ الرشد من قبل موسى وهرون، ووفقناه للحق، وأنقذناه من عبادة الأوثان ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ وكنا نعلم أنه ذو يقينٍ وإيمانٍ بالله ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التي أَنْتُمْ لها عَاكِفُون﴾ حين قال لهم: أيُّ شيءٍ هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لها عَابِدِينَ﴾ قالوا لإبراهيم: وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان، فنحن على ملة آبائنا نعبد ما يعبدون ﴿قَالَ لقدْ كنتُمْ أَنتُمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لقد كنتم في ذهاب عن سبيل الحق، وجور عن قصد السبيل، ظاهرٍ لمن تأمله ﴿قالوا أَجِئْتَنا بالحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ قالوا: أجئتنا يا إبراهيم بالحق فيما تقوله لنا؟ أم أنت هازل لاعب؟ ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ قال إبراهيم: بل جئتكم بالحق لا اللعب، ربكم الذي خلق

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا
بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

***

السموات والأرض ﴿وَأَنَا عَلَى ذلكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا شاهد على أن ربكم الخالق ، دون كل شيء سواه ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ وأقسم الخليل على أذى الأصنام ، وتكسيرها بعد أن يخرجوا عنها إلى عيد لهم[1] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ فجعل الأصنام قطعاً مكسورة ﴿إلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إليهِ يَرْجِعُون﴾ إلا صنماً عظيماً لم يكسره ، ليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها الشر ، فهي من أن تدفع عن غيرها السوء أبعد ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لمنَ الظَّالِمينَ﴾ قالوا : إن الذي كسر الآلهة ، لمن الظالمين المعتدين .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ﴾ قال الذين سمعوه يذكر الآلهة : سمعنا فتى يعيبهم يقال له إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قالوا أحضروه بمجمع من الناس ، لعلهم يشهدون عقوبتنا له ﴿قَالُوا أأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إبْرَاهِيمُ﴾ قالوا له بعد أن جاءوا به : أأنت الذي كسرت آلهتنا يا إبراهيم ؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْألوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فأجابهم : بل فعله عظيمهم هذا فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك ، إن كانت تنطق أو تعبر عن نفسها ؟ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إنكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فرجعوا إلى عقولهم فقالوا : إنكم معشر القوم الظالمون بسؤالكم له ، وآلهتكم حاضرة فاسألوها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ ثم غلبوا في الحجة ، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ لقد عرفت يا إبراهيم أن هؤلاء الأوثان لا ينطقون ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرّكُمْ﴾ قال إبراهيم : أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، وقد علمتم أنها لم تمنع نفسها من أرادها بسوء ، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا ؟ ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قُبحاً لكم وللآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبح

(١) لم يذكر ابن جرير تفسير هذه الآية ، وإنما ذكر ما روي في ذلك .

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

***

ما تفعلون ؟ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ قالوا : حرِّقوا إبراهيم بالنار ، نصراً لآلهتكم ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم ناصريها ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فأوقدوا له ناراً ليحرقوه ، ثم ألقوه فيها فقلنا للنار : كوني برداً وسلاماً عليه فلا تضرِّيه[1] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ وأرادوا بإبراهيم الأذى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ فجعلناهم الهالكين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ونجينا إبراهيم ولوطاً من أعدائهما ـ نمرود وقومه ـ من أرض العراق إلى أرض الشام ، التي باركنا فيها للعالمين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولداً ،ويعقوب ولد ولده ، فضلاً من الله وهبةً له ﴿وَكلًّا جَعَلْنَا صَالِحينَ﴾ وجعلناهم جميعاً عاملين بطاعة الله ، مجتنبين محارمه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أئمة يؤتم بهم في الخير ﴿وَأَوحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَات وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وإيتاءَ الزَّكَاةِ﴾ وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ وكانوا لله خاشعين ، لا يستكبرون عن طاعته ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ وآتينا لوطاً فصل القضاء بين الخصوم ، وعلماً بأمر دينه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ﴾ ونجيناه من العذاب الذي أحللناه بأهل القرية ، التي كانت تعمل المنكر ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَومَ سَوءٍ فَاسِقِينَ﴾ إنهم كانوا قوماً مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخلنا لوطاً في رحمتنا ، لأنه من الذين يعملون بطاعتنا ، ولا يعصوننا في أمر .

﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ واذكر نوحاً حين سأل ربه ـ من قبل إبراهيم ـ إهلاك قومه المكذبين ، فاستجبنا له دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ ونجيناه وأهل الإيمان به ، من الذي

---

(١) روي عن ابن عباس أنه قال . لو لم يقل « وسلاماً » لأهلكته ببردها .

وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ
إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم
مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ
وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا

***

حل بالمكذبين من الطوفان والغرق ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذبوا بحججنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَومَ سَوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن قوم نوح كانوا يعصون الله ، ويخالفون أمره ، فأغرقناهم جميعاً ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ واذكر يا محمد داود وسليمان حين يحكمان في الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَومِ﴾ حين دخلت في هذا الزرع غنم الآخرين ليلاً ، فرعته وأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وكنا لحكم سليمان وداود شاهدين ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ففهمنا القضية سليمان[1] ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وكلاً من داود وسليمان آتيناه النبوة ، وعلماً بأحكام الله ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وسخرنا مع داود الجبال والطير ، يسبّحن معه إذا سبَّح ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قضينا ذلك في أم الكتاب ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وعلمنا داود صنعة سلاح لكم وهي الدروع ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ لتحفظكم من القتل إذا لقيتم أعداءكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ فهل أنتم شاكرون ربكم على نعمته عليكم ؟ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ تجري بسليمان حيث شاء ، ثم تعود به إلى بلاد الشام المباركة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ ونحن عالمون بكل شيء ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من البنيان ، والتماثيل ، والمحاريب ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين ﴿وأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ واذكر أيوب حين دعا ربه ، وقد مسَّه الضُّر والبلاء ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قائلاً : يا رب إني مسني الضر ، وأنت أرحم من رحم ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

(١) والقصة أن زرعاً دخلت فيه غنم لقوم ليلاً فأكلته وأفسدته ، فجاء المتخاصمون إلى داود وعنده سليمان ، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً ، فقال سليمان : غير هذا كان أرفق ، تدفع بالغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان ، ثم يترادان بعد ذلك فيعود لأهل الغنم غنمهم ، ولأهل الحرث حرثهم ، فكان هذا الحكم فقهاً من سليمان أقرّه عليه القرآن .

مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ
وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ
مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾

* * *

﴿فَكَشَفْنَا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ فاستجبنا لأيوب دعاءه ، فكشفنا ما به من ضر ، وبلاء ، وجهد ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ وآتينا أيوب في الدنيا أهله الذين هلكوا ، وآتيناه مثل أهله معهم[١] ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ فعلنا ذلك بهم رحمة منا لأيوب ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ وتذكرةً للعابدين ليعتبروا ويعلموا أن الله قد يبتلي أحب عباده ، من غير هوانٍ به عليه .

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ﴾ واذكر إسماعيل بن إبراهيم ، وإدريس ، وذا الكفل الذي تكفل بعمل فوفَّى به ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ كلهم من أهل الصبر ، فيما نابهم في الله ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهمْ مِن الصَّالِحينَ﴾ وأدخلنا المذكورين في رحمتنا ، إنهم ممن صلح فأطاع الله وعمل بأمره ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ واذكر صاحب الحوت « يونس بن متَّى » حين ذهب مغاضباً لربه[٢] ﴿فَظَنَّ أَنْ لنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فظن يونس أن لن نحبسه ، ونضيِّق عليه[٣] عقوبةً له ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فنادى يونس وهو في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ نادى بهذا القول ، معترفاً بذنبه ، تائباً من خطيئته ﴿إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ﴾ في معصيتي لك ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ فاستجبنا ليونس دعاءه ، ونجيناه من غم الحبس في بطن الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما أنجينا يونس من الكرب ، كذلك ننجي المؤمنين إذا استغاثوا بنا ودعونا ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ واذكر زكريا حين دعا ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾ قال : رب لا تتركني وحيداً لا ولد لي وارزقني وارثاً ،

---

(١) هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، والإمام الطبري لم يذكر رأيه فيها وإنما ذكر قولين، الأول : أن أهله الذين هلكوا لم يحيهم الله له ، وإنما أعطاه مثل أهله في الدنيا وهو قول مجاهد ، والثاني : أن الله أحيا أهله بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم وهو قول ابن عباس والحسن ، ولعل هذا القول هو الأرجح .

(٢) ما ذهب إليه ابن جرير أن « يونس » ذهب مغاضباً لربه قول مرجوح ، والصحيح أنه ذهب مغاضباً لقومه لا لربه ، وهو قول ابن عباس والضحاك ، وذلك أنه أنذر قومه وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، فتمادوا في الكفر والضلال ، فلما تأخر عنهم العذاب ضاق صدره ، فخرج من بين أظهرهم غضبان عليهم لانتهاكهم حرمات الله ، فعاتبه ربه على قلة صبره الخ . وهذا هو الصحيح المعتمد .

(٣) هذا هو الصحيح في معنى قوله ﴿فظنَّ أن لن نقدر عليه﴾ أي ظنَّ أن لن نضيِّق عليه ، فهو كما قال ابن عباس من القَدْر لا من القدرة ، فتدبره فإنه نفيس .

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ
شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

***

وأنت خير الوارثين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ فاستجبنا لزكريا دعاءه ، ووهبنا له يحيى ولداً ووارثاً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ وجعلنا زوجته ولوداً حسنة الخُلُق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ إن زكريا وزوجه ويحيى ، كانوا يسارعون في طاعتنا ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ ويعبدوننا رغبة فيما يرجون ، ورهبة من عذاب الله ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وكانوا لنا متذللين متواضعين ﴿والتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ واذكر « مريم بنت عمران » التي حفظت فرجها من الفاحشة ، فنفخنا في جيب درعها من روحنا بواسطة جبريل ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وجعلنا«مريم» و«عيسى» عبرة للخلق ، في الدلالة على الله ، وعلى عظيم قدرته ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ إن هذه ملتكم ملة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدوني دون الآلهة والأوثان ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وتفرّق الناس في دينهم ، فصاروا أحزاباً من اليهود ، والنصارى ، وعبدة الأوثان ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ ومرجع جميع أهل الأديان إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فمن عمل من الناس بما أمره الله ، وهو مقرٌ بوحدانية الله ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ فإن الله يشكر له عمله ، ويثيبه ولا يجحده ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ ونحن نكتب أعماله الصالحة لنجزيه عليها ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ وحرام على أهل قرية أهلكناهم إذ صدوا عن سبيلنا ، أن يتوبوا ويرجعوا إلى الإيمان بنا والعمل بطاعتنا(١) ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ حتى إذا فتح سدُّ « يأجوج ومأجوج » ، وهم من كل شَرَف وأكَمة يخرجون مشاةً مسرعين .

﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ واقترب بخروجهم يوم البعث للجزاء ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإذا أبصار الكفار قد شخصت(٢) من هول ذلك اليوم ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وهم

(١) توضيح معنى الآية : وممتنع على أهل قرية عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها أن يرجعوا ويتوبوا إلى أن تقوم الساعة .
(٢) معنى شاخصة أي أبصارهم واقفة لا تتحرك من هول يوم القيامة .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ
وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى
هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

***

يقولون : يا ويلنا قد كنا في الدنيا في غفلة ، ممَّا نرى ونعاين من عظيم البلاء ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا ، وطاعتنا إبليس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أنتم أيها المشركون العابدون للأوثان ، وما تعبدون من الآلهة ، حطب جهنم ووقودها الذي يُرمى فيها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أنتم داخلون عليها وإليها ﴿لَو كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ لو كان ما تعبدون آلهة ، ما وردوا جهنم بل كانت تمنع ذلك عن نفسها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والآلهة ومن عبدها ماكثون في النار أبداً ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لهم في جهنم زفير[1] ، وهم في النار لا يسمعون شيئاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى﴾ إن الذين سبقت لهم السعادة من الله ، وهم المطيعون ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ هم عن جهنم مبعدون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لا يسمعون حسَّ جهنم ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وهم فيما تشتهيه نفوسهم ، من نعيمها ولذاتها ماكثون أبداً ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ لا تفزعهم النفخة الآخرة ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلَائِكَةُ﴾ وتستقبلهم الملائكة يهنئونهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يقولون : هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الكرامة من الله على طاعته ﴿يَومَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يوم نطوي السماء كطي الصحيفة على المكتوب فيها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ نعيد الخلق عراة حفاة يوم القيامة ، كما بدأناهم أول مرة من بطون أمهاتهم ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وعدناكم ذلك إنا كنا فاعلين لما وعدناكم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ ولقد قضينا في الكتب من بعد اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أن أرض الجنة[2] يرثها عبادي العاملون بالطاعة ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَومٍ عَابِدِينَ﴾ إن في القرآن لبلاغاً إلى رضوان الله ، لمن عبد الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي . فالمؤمن رحم

---

(١) الزفير : خروج النَّفَس من الصدر ، والشهيق : ولوج النَّفَس . (٢) وقيل : المراد أرض الدنيا يستحقها المؤمنون الصالحون .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ
أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

***

بالإيمان، والكافر دفع عنه عاجل البلاء ﴿قل إِنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قل يا محمد : ما يوحي إليَّ ربي ، إلَّا أنه لا إله لكم إلا إله واحد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم مذعنون له ، ومتبرئون من عبادة غيره ؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ فإن أدبر هؤلاء المشركون عن الإيمان ، فأعلمهم أن لا صلح بينكم ولا سِلْم ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعدُونَ﴾ وما أدري متى الوقت الذي يحل بكم عقاب الله ، أقريب نزوله لكم أم بعيد ؟! ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القَولِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ إنه يعلم ما تجهرون به من القول ، ويعلم ما تخفونه ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وما أدري السبب الذي من أجله يؤخر عنكم عقابه ، لعل ذلك لفتنة يريدها بكم إلى أجل تبلغونه ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ﴾ قل يا محمد : يا رب افصل بيني وبين المكذبين ، بإحلال نقمتك بهم ﴿وَرَبُّنَا الرحْمنُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وربنا الذي أستعينه عليكم ، فيما تقولون عني ، هيِّنٌ عليه تعجيل العقوبة لكم .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء»

***

(٢٢) سُورَةُ الحَجِّ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن

* * *

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يا أيها الناس احذروا عقاب الله بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصوه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فإن زلزلة الأرض يوم القيامة أمر عظيم[١] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يوم ترون الزلزلة تنسى وتترك كل والدة من ترضعه ، من هول الساعة ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتُسقط كل حامل حملها ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ وترى الناس سكارى من شدة الفزع ، وما هم بسكارى من شرب الخمر ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكنهم صاروا سكارى من كرب ذلك اليوم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن الناس من يخاصم في الله وصفاته ، جهلاً منه بما يقول ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ويتبع في جداله كل شيطان مريد[٢] ﴿كُتِبَ عَلَيهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ قضي على الشيطان أنه يضل أتباعه ، ولا يهديهم إلى الحق ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ويسوق أتباعه إلى عذاب جهنم الموقدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ﴾ يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإن في

(١) الزلزلة : الحركة العنيفة والهزّة الشديدة ، ترج الأرض بأهلها رجاً فذلك زلزلة الساعة .

(٢) المريد والمارد في اللغة : العاري من الخيرات من قولهم شجرٌ أمرد إذا تعرّى من الورق، والمراد هنا العاتي المتمرد على طاعة ربه .

مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾

***

ابتدائنا خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم إنشائكم من نطفة آدم معتبراً ومتعظاً لكم ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصريفكم أحوالاً من نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ، مخلّقة خلقاً سوياً ﴿وَغيرِ مخلّقةٍ﴾ السقط قبل تمام خلقه ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ قدرتنا على ما نشاء ، ونعرّفكم ابتداءنا خلقكم ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فمن كنا كتبنا له حياة ، فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم أطفالاً صغاراً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ ثم لتبلغوا كمال عقولكم ، ونهاية قواكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ ومنكم من يموت قبل ذلك ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ومنكم من يُؤخر في أجله فيعمّر حتى يهرم ، ويعود كهيئته في حال صباه لا يعقل شيئاً .

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وترى الأرض يابسة من النبات والزرع ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عليها الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر ، تحركت بالنبات ، ونمت وزادت بمجيء الغيث ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وأخرجت هذه الأرض من كل نوع حسن ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ذلك المذكور من الأمور العجيبة ، لتصدّقوا بأن الذي فعل ذلك ، هو الله الحق لا شك فيه ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأنه لا يتعذر عليه إحياء الموتى بعد فنائها ، وأنه تعالى قادر على كل ما أراد من شيء ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن القيامة التي وعدتكم بها آتية لا محالة ، لا شك في حدوثها ومجيئها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وأن الله يبعث من في القبور حينئذ أحياء ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن الناس من يخاصم في توحيد الله ، وإفراده بالألوهية ، بغير علم منه ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وبغير بيان ولا برهان ، ولا كتاب من الله ينير له عن حجته ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مستكبراً في نفسه لاوياً عنقه ، يجادل معرضاً عن الحق ، ليصدّ المؤمنين عن دينهم ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ له في الدنيا القتلُ والذلُّ والمهانة ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ونحرقه يوم القيامة بالنار

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ
ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ
ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ
ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ
فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

* * *

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ يُقال له : هذا العذاب الذي تذوقه ، بما قدمت يداك في الدنيا من الذنوب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وأن الله لا يظلم أحداً من عباده ، فلا يعذب أحداً على ذنب غيره ، ولا يعاقب أحداً إلا على جرمه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ومن الناس من يعبد الله على شك(١) ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فإن أصابه سعة من العيش ، استقر بالإسلام وثبت عليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وإن أصابه ضيقٌ بالعيش ، انقلب إلى الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ خسر دنياه لأنه لم يظفر بحاجته ، وخسر الآخرة لأنه معذب فيها ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ذلك هو الهلاك الواضح ، لمن فكر فيه وتدبره ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَضُرُّهُ وَمَالاَ يَنْفَعُهُ﴾ يعبد من دون الله آلهة لا تضره ولا تنفعه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ ارتداده إلى عبادة الآلهة ، هو الذهاب بعيداً عن دين الله ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يعبد آلهة ضرُّها في الآخرة أسرع من نفعها ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ لبئس الناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ ولبئس المعاشر والصاحب هذا الوثن .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الله يدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بأوامره وانتهوا عن نواهيه ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يدخلهم بساتين تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيعطي ما شاء من كرامته أهل طاعته ، وما شاء من الهوان أهل معصيته ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ من كان يحسب أن لن يرزق(٢) الله محمداً ﷺ وأمته في الدنيا والآخرة ، فيوسع عليهم من فضله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فليمدد بحبل إلى

---

(١) قال الطبري : نزلت في أقوام من الأعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ مهاجرين ، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام ، وإلا ارتدوا على أعقابهم .

(٢) فسر الطبري النصر هنا بالرزق ، والظاهر أنه على حاله من النصرة على الأعداء .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۩
۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾

* * *

سماء البيت ، ويعلق الحبل بالسقف ، ثم ليختنق به حتى يموت ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ فلينظر هل يذهب غيظه من محمد؟! ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وكذلك أنزلنا هذا القرآن دلالات واضحات ، يهدين من أراد الله هدايته إلى الحق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ولأن الله يوفق لسبيل الحق من أراد ، أنزل هذا القرآن ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا﴾ إن الذين صدقوا بالله ورسله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ واليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ والذين عبدوا الملائكة ﴿وَالنَّصَارَى﴾ والذين آمنوا بالإنجيل ﴿والمجوس﴾ والذين عبدوا النيران وعظموها ﴿والَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ﴾ من كان على دين من هذه الأديان[1] ، سيفصل الله بينهم يوم القيامة ، بقضائه العادل ، فيدخل الأحزاب النار ، ويدخل المؤمنين الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عنه شيء من أعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الخلق ﴿والشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ في السماء ﴿وَالجِبَالَ والشَّجَرُ وَالدَوَّابُّ﴾ في الأرض ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ويسجد كثير من بني آدم لله ، وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ وكثير من الناس وجب عليه عذاب الله بكفره ، وإبائه السجود ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ومن يهنه الله بالشقاوة فما له من يسعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يفعل في خلقه ما يشاء ، من إهانة وإكرام ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ هذان خصمان : أهل الكفر وأهل الإيمان ، عادى كل فريق منهم الآخر وحاربه على دينه ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ فأما الكافر بالله فيقطع له قميص من نحاس من نار ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾ يُصبُّ على رؤوسهم ماء مغليٌّ ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ﴾ يذيب الحميم ما في

(١) قال قتادة : الأديان ستة ، خمسة للشيطان وواحد للرحمن .

وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ
وَلُؤْلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ
بِظُلْمٖ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـٔٗا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾

* * *

بطونهم ، وتشوى جلودهم فتتساقط ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ وتضرب الخزنة رؤوسهم بمقامع الحديد ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ كلما أراد هؤلاء الكفار الخروج من النار ، ـ مما نالهم من الغم ـ رُدُّوا إليها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدقوا بالله ورسوله وأطاعوهما ، فإن الله يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ ويحليهم الله فيها من أساور من ذهب ، ويحليهم باللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وألبستهم فيها ثياب الحرير ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَولِ﴾ وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة « أن لا إله إلا الله » ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحمِيدِ﴾ وهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الإسلام ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين جحدوا ما جاءهم من ربهم ، ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله ﴿وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ ويمنعون الناس عن المسجد الحرام ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ﴾ الذي جعله الله للمؤمنين كافَّة يستوي في ـ تعظيم حرمته ، والطواف به ، وقضاء المناسك ، والنزول فيه ـ المقيمُ به والقادم إليه من غيره ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم ، فيعصي الله فيه ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ﴾ واذكر حين وطّأنا(١) لإبراهيم مكان الكعبة ﴿أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ في عبادتك إياي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وطهر بيتي من عبادة الأوثان ، للطائفين به ﴿وَالقَائِمِينَ﴾ والمصلين الذين هم قيام في صلاتهم ﴿والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ في صلاتهم حول البيت ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ﴾ وناد في الناس : أن حجُّوا بيت الله الحرام ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ يأتون البيت مشاةً على أرجلهم

(١) أي يسرنا وبيَّنا له مكان البيت ليقوم الخليل ببنائه .

لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ
ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ
وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

***

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ويأتون ركباناً على الإبل[١] ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ تأتي هذه الإبل من كل طريق ومكان بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ليشهدوا ما ينفعهم من العمل الذي يرضي الله ، والتجارة ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وكي يذكروا اسم الله تعالى في أيام التشريق ، على ما رزقهم من الهدايا والبدن ، التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ فكلوا من بهائم الأنعام[٢] ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ وأطعموا مما تذبحون أو تنحرون ، البائس الذي به ضر الجوع والحاجة ، والفقير الذي لا شيء له ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليقضوا ما عليهم من مناسك حجهم ، من الحلق ، والرمي ، والطواف ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وليوفوا الله بما نذروا من هدي وغيره ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ﴾ وليطوفوا طواف الإفاضة ببيت الله القديم[٣] ﴿ذلك﴾ هذا الذي أُمرتم به من الوفاء بالنذور والطواف ، هو الواجب عليكم أيها الناس ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه ، تعظيماً منه لحدود الله ، فهو خير له عند ربه في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عليكم﴾ وأحل الله لكم الأنعام أن تأكلوها إذا ذكيتموها ، إلا ما يتلى عليكم من تحريم شيء منها ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوثَانِ﴾ فاتقوا عبادة الأوثان ، فإنها رجس[٤] ﴿واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ واتقوا قول الكذب ، والفرية على الله ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئاً من دونه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ ومن يشرك بالله فمثله كمثل من خرَّ من السماء ، فهلك واختطفته الطير ﴿أَو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أو هوت به الريح في مكان بعيد

(١) الضامر : وصف للإبل الهزيلة التي ضمرت بطونها وهزلت لطول السفر .

(٢) الأمر هنا كما قال الطبري أمر إباحة لا أمر إيجاب .

(٣) قد ذكر ابن جرير أقوالاً في « البيت العتيق » واختار القول المذكور ، ومن ذلك أن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه ، وقيل سمى بالعتيق لأنه لم يملكه أحد من الناس .

(٤) قال الإمام الطبري : فإن قال قائل : وهل من الأوثان ما ليس برجس ؟ قيل : كلها رجس ، ومعنى الكلام فاجتنبوا الرجس الذي يكون من الأوثان أي عبادتها .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى
ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ
وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟

***

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ هذا الذي أمرتكم به ، ومن يعظم ما جعله الله أعلاماً من مناسك الحج ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمه لها من خشية الله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لكم في هذه الشعائر منافع ، من شرب ألبانها وركوب ظهورها إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ثم محل الشعائر إلى أرض الحرم .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ ولكل جماعة من أهل الإيمان ، جعلنا ذبحاً يهريقون دمه ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ ليذكروا اسم الله بذلك ، على ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فإلهكم واحد لا شريك له ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فاخضعوا له بالطاعة والعبودية ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وبشر الخاضعين لله ، المنيبين إليه بالتوبة ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين تخشع قلوبهم لذكر الله ، خوفاً من سخطه وعقابه ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ والصابرين على ما نزل بهم من شدة ، ونالهم من مكروه في جنب الله ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ والذين يقيمون الصلاة المفروضة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وينفقون فيما يجب عليهم الإنفاق فيه ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والإبل العظام جعلناها لكم أيها الناس من أعلام دين الله ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ لكم الأجر في الآخرة بنحرها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ فاذكروا اسم الله على البدن ، وهي مصطفة عند النحر ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت جنوبها إلى الأرض بعد النحر ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ فقد حلَّ لكم الأكل منها ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وأطعموا السائل ، والمعترض للعطاء ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هكذا سخرنا البدن لكم ، لتشكروني على ذلك ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ لن يصل إلى الله لحم بدنكم ، ولا دماؤها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يناله اتقاؤكم إياه ، وتعظيمكم حرماته ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾

ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم
بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ
وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن
مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

* * *

هكذا سخر الله لكم البدن ﴿**لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ**﴾ كي تعظموا الله على توفيقه إياكم لدينه ﴿**وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾ بالجنة الذين أحسنوا في طاعة الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ إن الله يدفع غائلة المشركين ، عن الذين آمنوا بالله وبرسوله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾ لا يحب الذي يخون ربه فيخالف أمره ونهيه ، الجحود لنعمه عنده ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ أذن الله للمؤمنين بقتال المشركين في سبيله بسبب أن المشركين ظلموهم بقتالهم ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ وإن الله على نصر المؤمنين لقدير ، وقد نصرهم فأعزهم ، وأهلك عدوهم .

﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ الذين أخرجهم كفار قريش من ديارهم بمكة بغير حق ﴿**إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ لم يخرجوهم إلاّ لقولهم : ربنا الله وحده لا شريك له ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**﴾ ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين ، وكفُّه ببعضهم التظالم ﴿**لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ**﴾ لتظالموا فهدم القاهرون صوامع الرهبان ، وكنائس النصارى ، ومعابد اليهود ﴿**وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً**﴾ ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**﴾ وليعينن الله من يقاتل في سبيله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ قويٌّ على نصر أهل ولايته ، منيعٌ في سلطانه لا يقهره قاهر ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾ هم أصحاب محمد ﷺ الذين إن نصرناهم على أعدائهم ، فقهروا المشركين أطاعوا الله بإقامة الصلاة بحدودها ﴿**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**﴾ وأعطوا زكاة أموالهم ﴿**وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ**﴾ ودعوا الناس إلى توحيد الله ، والعمل بطاعته ﴿**وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ ونهوا عن الشرك بالله ، والعمل بمعصيته ، الذي ينكره أهل الحق والإيمان ﴿**وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ ولله مصير أمور الخلق ، في الثواب والعقاب ﴿**وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مَدْين وكُذِّب موسى**﴾ وإن

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

***

يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون ، فذلك سنة إخوانهم من الأمم المكذبة لرسل الله ، فقد كذب كل هؤلاء الأمم رسلهم ، وكذّب فرعونُ وقومُه موسى ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ ثم أحللت بهم العقاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فانظر كيف كان تغييري[1] ما كان بهم من نعمة ؟ ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكم من قرية أهلكت أهلها ، وهم يعصون أمر الله ويعبدون غيره ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ فباد أهلها ، وخوت من سكانها ، وتساقطت جدرانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ وكم من بئر عطلناها بإفناء أهلها ، وهلاك وارديها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وكم من قصر رفيع ، قد خلا من سكانه ، بما أذقناهم من العذاب ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أفلم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد ، فينظروا مصارع المكذبين ، فيعتبروا بها ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يعقلون بها حجج الله على خلقه وقدرته ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أو آذان تُصغي لسماع الحق ، وتُميِّز بينه وبين الباطل ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ فإنها لا تعمى أبصارهم عن رؤية الأشخاص ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم ، عن إبصار الحق ومعرفته ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويستعجلك مشركو قومك بما تعدهم من عذاب الله ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ والله لا يخلف ما وعدك من إحلال عذابه بهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وإن يوماً من الأيام عند الله ، كألف سنة من عددكم ، وليس ذلك عنده ببعيد ، فلذلك لا يعجل بعقوبة من أراد عقوبته .

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكم من أهل قرية أمهلتهم ، وأخرت عذابهم وهم بالله مشركون ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ثم أخذتها بالعذاب ، وإليَّ مصيرهم بعد هلاكهم ،

---

(١) النكير : بمعنى الإنكار يعبر به عن الهلاك العاجل لأنه يستلزمه ، أو هو بمعنى التغير وهذا ما اختاره الطبري لأنه أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة دماراً ، وبالعمران خراباً .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا
تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾
لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

* * *

فيلقون عذاباً لا انقطاع له ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : إنما أنذركم عقاب الله ، لتنيبوا من شرككم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالذين صدَّقوا بالله ورسوله ، وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لهم من الله ستر لذنوبهم ، ورزق حسن في الجنة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين صدُّوا عن إتباع رسولنا ، والإقرار بكتابنا مغالبين لرسولنا ليقهروه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ هم سكان جهنم يوم القيامة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ ولم يرسل الله رسولاً أو نبياً إلى أمة ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّتِهِ﴾ إلا إذا تلا كتاب الله ، وتكلم ألقى الشيطان في حديثه الذي حدَّث ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيذهب الله ما يُلْقِي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حكِيمٌ﴾ والله عليم بما يحدث في خلقه ، حكيم في تدبيره ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ كي يجعل ما يلقي الشيطان من الباطل ، اختباراً يختبر به الذين في قلوبهم مرض النفاق ﴿وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وللذين قست قلوبهم عن الإيمان ، وهم المشركون ﴿وَإِنَّ الظَّالمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بعيدٍ﴾ وإن المشركين لفي خلافٍ لأمر الله ، بعيد عن الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ وكي يعلم أهل العلم بالله ﴿أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن المنزل إليك هو الحق من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فيصدقوا به فتخضع للقرآن قلوبهم بالتصديق بما فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِين آمَنُوا إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإن الله لمرشد المؤمنين إلى الحق الواضح ، بنسخ ما ألقى الشيطان ﴿وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ ولا يزال الكفار في شكٍ من أمر هذا القرآن ﴿حَتَّى تأتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ إلى أن تأتيهم ساعة الحشر للحساب فجأة ﴿أَو يأتِيَهُمْ عَذَابُ يَومٍ عَقِيمٍ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا خير فيه ، لا يُؤخرون فيه ولا يُنظرون .

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ
بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ

***

﴿المُلْكُ يَومَئِذٍ لِلَّهِ﴾ السلطان لله وحده ، لا ينازعه يومئذ منازع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يفصل بين المشركين والمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فالذين آمنوا بالقرآن وعملوا بما فيه في جنات النعيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ والذين كفروا بالله ، وكذبوا بآيات كتابه ﴿فَأُولئِكَ لهمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهم يوم القيامة عذاب مذل في جهنم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم ، فتركوا ذلك في رضاء الله وطاعته ﴿ثم قُتِلُوا أَو مَاتُوا﴾ وهم مهاجرون ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ليرزقنهم الله يوم القيامة الثواب الجزيل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لهو خَيْرُ الرَازِقينَ﴾ وإن الله يبسط فضله على أهل طاعته ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَونَهُ﴾ ليدخلنهم الجنة التي يرضونها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ والله عليم بمن يهاجر في سبيله ، حليمٌ عن عصاة خلقه ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ذلك الذي قصصناه عليك ، ومن انتقم ممن بدأه بالظلم ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ ثم بُدىء بالقتال وهو له كاره لينصرنه الله . . وهذا وعد من الله للمهاجرين بالنصر على المشركين، الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عفوٌّ لمنْ انتصر ممن ظلمه، غفور لما فعل ﴿ذَلِكَ بأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ﴾ هذا النصر الذي أنصره على الباغي ، لأني القادر على ما أشاء ، فأدخل ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ﴾ وأدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ لا يغيب عنه شيء فيه ، وهو الحافظ له ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ذلك الفعل لأني أنا الحق ، الذي لا مثل لي ولا شريك ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾ وأن ما يدعوه المشركون إلَهاً هو الباطل ، الذي لا يقدر على شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ وأن الله هو العظيم الذي لا شيء أعظم منه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ألم تعلم يا محمد أن الله أنزل المطر من السماء ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بما ينبت فيها من النبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لطيفٌ في أفعاله ، خبير

خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ

***

بأعمال خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ له ملك ما في السموات وما في الأرض ، والكلُّ عبيده ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ والله هو الغني عنهم ، الحميد في إفضاله عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا في الأَرْضِ﴾ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، من الدواب والبهائم لحوائجكم ﴿وَالفُلْكَ تَجْرِي في البَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وسخر لكم السفن تجري في البحر بقدرته ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ ويمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض إلا بمشيئته ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ إن الله لذو رحمة بالناس ورأفة ولذلك سخّر لهم ما سخّر ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الله الذي أحياكم ثم يميتكم عند مجيء آجالكم ، ثم يحييكم عند قيام الساعة ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ جاحد لنعم الله ، بعبادته غيره من الآلهة .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهَ﴾ لكل جماعة خلت ، جعلنا مكاناً يعتادونه لعبادة الله فيه ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ في الأَمْرِ﴾ فلا ينازعك المشركون في ذبحك ومنسكك ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادعهم إلى اتباع أَمْرِ رَبِّكَ ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ إنك لعلى طريق مستقيم ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلونَ﴾ إن جادلك المشركون في نسكك[1] ، فقل : الله أعلم بما تعملون ونعمل ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَومَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الله يقضي بينكم يوم القيامة ، فيما اختلفتم فيه من أمر دينكم ، فتعلمون حينئذٍ أيها المشركون المحقَّ من المبطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كل ما في السموات والأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وسيجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ في كِتَابٍ﴾ إن علمه ذلك في أم الكتاب ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وأمره بكتابة ذلك هيِّنٌ على الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ

---

(١) كان مجادلة المشركين هو قولهم : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله ؟

يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

* * *

﴿يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ ويعبد المشركون من دون الله ، ما لم ينزل لهم به حجة من السماء **﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾** ويعبدون ما لا علم لهم بأنها آلهة **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾** وما للكافرين من ناصر ينصرهم يوم القيامة ويرفع عنهم عقاب الله **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾** وإذا تُقرأ على المشركين آيات القرآن واضحة الأدلة ، تتبين في وجوههم ما ينكره أهل الإيمان[1] **﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَليهِمْ آيَاتِنَا﴾** يكادون يبطشون بأصحاب النبي - ﷺ - الذين يتلون عليهم آيات القرآن **﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾** قل : أفخبركم أيها المشركون ، بأكره إليكم من هؤلاء الذين تكرهون قراءتهم القرآن عليكم ؟! هي النار . **﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** وعدها الله المشركين ، وبئس المكان الذي يصيرون إليه **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** يا أيها الناس جعل المشركون لله شبهاً ، وذكروا له مثلاً وهي هذه الأصنام التي عبدوها فاستمعوا لحال ما مثَّلوه وجعلوه لي **﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾** إن جميع ما تعبدون من الآلهة لو جمعت ، لم يخلقوا ذباباً في صغره وقلته **﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾** وإن يسلب الذباب الآلهة شيئاً مما عليها ، لا تقدر أن تستردَّه منه **﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾** عجزت الآلهة عن الاستنقاذ ، وعجز الذباب ، يقول تعالى : كيف يُجعل لي مثل في العبادة ، ويشرك معي ما لا قدرة له على خلق ذباب ، وأنا الخالق لما في السموات والأرض ؟!**﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**ما عظَّم المشركون ربهم حق عظمته، حين أشركوا به غيره ، ولا عرفوه حق معرفته**﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** قويٌ على خلق ما يشاء، منيعٌ في ملكه .

---

(١) المنكر : الغيظ والكلاحة في وجوه الكفار ، والمراد أنهم كرهوا القرآن مع وضوح دلائله وحججه .

(٢) قال الطبري : كان المشركون يقولون : والله إن محمداً وأصحابه لشرُّ خلق الله ، فقال الله لهم : أنتم أشرار الخلق لا محمد وأصحابه .

(٣) قال ابن عباس ضعفت آلهتهم وهي الطالب ، وضعف الذباب وهو المطلوب ، ورجحه الطبري

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

* * *

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَة رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ الله يختار رسلاً من الملائكة ، ورسلاً من الناس **﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** سميعٌ لما يقوله المشركون في محمد ، بصيرٌ بمن يختاره لرسالته **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾** يعلم ما بين أيدي ملائكته قبل أن يخلقهم ، وما هو كائن بعدهم **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾** وإلى الله في الآخرة تصير أمور الخلق وإليه تعود **﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾**يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، اركعوا لله في صلاتكم واسجدوا للّه فيها **﴿واعبدوا ربكم﴾** وذلُّوا لربكم ، واخضعوا له بالطاعة **﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** وافعلوا الخير الذي أمركم به الله ، لتفلحوا بذلك فتدركوا به طلباتكم **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾** واستفرغوا طاقتكم في الجهاد في سبيل الله **﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾** هو اختاركم لدينه **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** وما جعل عليكم في الدين من ضيق وشدة بل وسَّع عليكم ، فكل ذنب للمؤمن مخرج منه في دين الإسلام **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾** وذلك كدين إبراهيم عليه السلام **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾** الله[1] سماكم يا معشر من آمن بمحمد المسلمين ، من قبل أن ينزل القرآن **﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾** ليكون محمد ﷺ شهيداً عليكم يوم القيامة ، بأنه بلغكم الرسالة **﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** وتكونوا أنتم شهداء على الرسل أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ﴾** فأدوا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة **﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾** وثقوا بالله ، وتوكلوا عليه **﴿هُوَ مَولَاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** فنعم الولي الله ، ونعم الناصر له على من بغاه بسوء .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج »

---

(١) وقيل الضمير يعود إلى إبراهيم أي إبراهيم هو الذي سمَّاكم المسلمين من قبل نزول القرآن ، والأرجح ما ذكره الطبري وهو قول ابن عباس



(٢٣) سورة المؤمنون مكية وآياتها ثماني عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

***

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ قد فاز بالخلود في الجنات، الذين صدقوا الله ورسوله، وأدركوا ما يطلبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾هم المتذلّلون لله في صلاتهم، بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته[1]﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ والذين هم عن الباطل، وما يكرهه الله من خلقه معرضون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ والذين هم لزكاة أموالهم مؤدُّون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ والذين هم يحفظون فروجهم من الزنى ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم﴾ إلا من أزواجهم بالنكاح، أو إمائهم بملك اليمين ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فإنهم غير موبَّخين على ذلك، ولا مذمومين﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فمن التمس لفرجه منكحاً، سوى زوجته وملك يمينه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ فأولئك هم المجاوزون ما أحلَّ الله لهم، إلى ما حرَّم عليهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والذين هم لما ائتمنوا عليه، ولما عاقدوا الناس عليه، حافظون لا يضيّعون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والذين هم على أوقات صلاتهم يحافظون، حتى يؤدوا

(١) الخشوع في الصلاة يكون بأمرين: بأفعال القلب كالخوف والرهبة واستحضار عظمة الله، وبأفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والنظر إلاّ إلى موضع سجوده، روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» ورأى الحسن رجلاً يعبث بالحصى وهو يقول: اللهم زوّجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت.

أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ
مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا
ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ
ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ
غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾
فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾

* * *

الصلاة في أوقاتها فلا يضيّعونها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ هؤلاء الذين هذه صفتهم ، يرثون يوم القيامة منازل أهل الجنة ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ﴾ يرثون البستان أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكثون فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ولقد خلقنا ابن آدم ، من صفوة ماء استُلّت من آدم ، وآدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ثم جعلنا الإنسان نطفة ، في رحم المرأة ليستقر فيه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم صيّرنا النطفة قطعةً من الدم ﴿فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فجعلنا ذلك الدم قطعة من اللحم ﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً﴾ فجعلنا قطعة اللحم عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحماً﴾ فألبسنا العظام لحماً ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ثم أنشأنا هذا الإنسان بنفخ الروح فيه خلقاً آخر(١) ، غير النطفة التي بدأ خلقه منها ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ فتبارك الله خير الصانعين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ثم إنكم ـ أيها الناس ـ بعد إنشائكم عائدون تراباً ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَومَ القِيَامَةِ تُبعَثُونَ﴾ ثم بعد موتكم مبعوثون من التراب خلقاً جديداً .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سموات ، بعضُهن فوق بعض ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وما كنا غافلين عن خلقنا الذين هم تحتها ، بل كنا لهم حافظين ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ وأنزلنا من السماء ماءً بمقدار يوافق حاجاتهم ، فأسكناه في الأرض ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وإنا لقادرون أن نذهب بالماء فتهلكوا عطشاً ، وتهلك مواشيكم وزروعكم ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فأحدثنا لكم بالماء ،

(١) هذه الأطوار التي مر بها الإنسان ، هي ما يثبته علم التشريح ، وعلم الأجنة في عصرنا الحديث ، فمن أين لمحمد ﷺ أن يعرف هذه الأدوار ، في عصر لم تكتشف فيه الأشعة ولا المجاهر الدقيقة ، لو لم يكن هذا القرآن تنزيل الحكيم العليم ؟!

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾

* * *

بساتين من نخيل وأعناب[1] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لكم في البساتين فواكه متنوعة تأكلون منها ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وأنشأنا لكم أيضاً شجرة الزيتون ، تخرج من جبل مبارك ينبت الأشجار ، وهو الذي نودي منه موسى عليه السلام ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ تنبت بثمر الزيتون ، وبصبغ يأتدم به الآكلون ويصطبغون به وهو الزيتُ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ وإن لكم ـ أيها الناس ـ لعظةً في الأنعام ، تعتبرون بها وتعرفون قدرة الله ونعمه عليكم ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من اللبن الخارج من بين الفرث والدم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من الحمل والركوب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن لحومها تأكلون ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الأنعام تُحملون في البر ، وعلى السفن في البحر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ ولقد أرسلنا نوحاً ليدعو قومه إلى طاعتنا وتوحيدنا ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فقال لهم : ذلوا يا قوم لله بالطاعة ، فما لكم من معبود يجوز لكم عبادته غيره ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخشون عقابه بعبادتكم غيره ؟ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فقال أشراف قوم نوح ، الذين جحدوا توحيد الله لقومهم : ما نوحٌ إلا إنسان مثلكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيصير متبوعاً وأنتم له تبع ﴿وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ولو شاء الله أن لا نعبد شيئاً سواه ، لأرسل ملائكة تؤدي إليكم رسالته ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ما سمعنا بما يدعونا إليه نوح من التوحيد في القرون الماضية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ما نوح إلا رجل به جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فتلبثوا به إلى وقتٍ من الزمان ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قال نوح داعياً ربه لمَّا تمادوا في غيهم : رب

(١) قال ابن جرير : « وخص جل ثناؤه الجنات بأنها من نخيل وأعناب دون وصفها بسائر ثمار الأرض لأن هذين النوعين من الثمار كانا أعظم ثمار الحجاز ، وما قرب منها ، فكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من ثمارها .

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى
ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ

***

انصرني على قومي بتكذيبهم إياي ﴿فَأَوْحَيْنَا إليهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فقلنا له : اصنع السفينة بمرأى منا ، وبتعليمنا إياك صنعتها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فإذا جاء قضاؤنا في قومك بهلاكهم وفار التنور[1] ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوجَينِ اثْنَيْنِ﴾ فأدخل في السفينة من كل زوجين من المخلوقات اثنين ـ ذكراً وأنثى . ﴿وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيهِ القَولُ مِنْهُمْ﴾ وأولادك ونساءهم ، إلاّ من سبق عليه القول بأنه هالك لكفره فلا تحمله معك ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تسألني أن أنجي الذين كفروا ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فإني قد حكمت عليهم بالغرق جميعاً ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ﴾ فإذا اعتدلت راكباً في السفينة ، أنت ومن معك ممن حملته من أهلك ﴿فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ فاحمد الله على نجاتك من المشركين ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ وقل إذا سلمك الله فنزلت من السفينة : رب أنزلني إنزالاً مباركاً ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ﴾ وأنت خير من أنزل عباده المنازل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ إن فيما فعلنا بقوم نوح ، لعبراً لقومك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح ، قوماً آخرين هم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ، داعياً لهم إلى توحيد الله وطاعته دون الآلهة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ليس لكم معبود يصلح أن تعبدوه سواه ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم غيره ؟ ﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَومِهِ﴾ وقال الأشراف من قوم صالح ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بلقاء الله في الآخرة ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي

---

(١) قال ابن جرير: هو التنور الذي يخبز فيه الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا لهلاك قومه ! وقيل : المراد بالتنور وجه الأرض لقوله تعالى ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ .

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم
بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾

***

﴿الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونعَّمناهم في حياتهم ، بما وسَّعنا عليهم وبسطنا لهم من الرزق ، حتى بطروا وعتوا على ربهم **﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾** ما صالح الذي خصه الله بالرسالة إلا إنسانٌ مثلنا ، يأكل من الذي نأكل منه من الطعام ، ويشرب من الذي تشربون منه **﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾** ولئن صدقتموه إنكم إذاً لمغبونون حظوظكم ، من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه **﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وكنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً﴾** أيعدكم «صالح» أنكم إذا كنتم تراباً في القبور ، وذهبت لحوم أجسادكم **﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾** أنكم مخرجون من قبوركم أحياء ، كما كنتم قبل مماتكم ؟ **﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾** بعيدٌ بعيدٌ ما توعدون أيها القوم **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** ما حياتنا إلا هذه الحياة الدنيا، تموت الأحياء منا ويولد آخرون ، وما نحن بمبعوثين بعد الممات **﴿إِنْ هُوَ إلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** ما صالح إلا رجل اختلق على الله كذباً في دعوته **﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾** وما نحن له بمصدِّقين فيما يعدنا من البعث بعد الممات **﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾** قال : رب انصرني على هؤلاء القوم ، بتكذيبهم إياي **﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾** قال : عن قليل ليصبحن نادمين ، حين نُنزل بهم نقمتنا **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾** فأرسلنا عليهم صيحة العذاب بالحق **﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾** فصيرناهم بمنزلة الغثاء(١) ، الذي لا منفعة فيه **﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسله .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ ثم أحدثنا بعد هلاك ثمود ، أقواماً آخرين **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** ما يتقدم هلاك أمة قبل الوقت الذي أجلنا لهلاكها ، ولا يستأخر عن

(١) الغثاء : هو ما يحمله السيل على وجه الماء من أوراق يابسة وعيدان مما لا ينتفع به .

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

***

وقته[1] ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾ ثم أرسلنا إلى الأمم رسلنا ، يتبع بعضهم بعضاً ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ كلما جاء أمةً من تلك الأمم رسولُهم ، كذبوه فيما جاء به ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ فأهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وجعلناهم للناس مثلاً يتحدث بهم[2] ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ، ولا يصدّقون برسوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ثم أرسلنا بعد أولئك الرسل ، موسى وهارون ، بحججنا وبرهانٍ واضح على توحيدِ الله ﴿إِلَى فِرْعَونَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ إلى فرعون وأشراف قومه من القبط ، فاستكبروا عن اتباعها ﴿وَكَانُوا قَوماً عَالِينَ﴾ وكانوا قوماً عالين قاهرين على من في بلادهم بالظلم ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ فقال فرعون وملؤه : أنتبّع بشرين مثلنا وقومهما من بني إسرائيل ، مطيعون لنا متذللون ؟ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ فكذبوا موسى وهارون ، فكانوا ممن أهلكهم الله ، كما أهلك من قبلهم .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ولقد آتينا موسى التوراة ، ليهتدي بها قومه من بني إسرائيل ، ويعملوا بما فيها ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه، حجة على قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أهل ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ وصيّرناهما إلى مكان مرتفع على الأرض ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ذات مكانٍ مستوٍ ، وماء ظاهر جار ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ وقلنا : يا أيها الرسل كلوا من الحلال الطيب ، واعملوا بصالح الأعمال ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ إني عالمٌ بأعمالكم لا يخفى عليَّ منها شيء ﴿وَإِنَّ هذه أمتكم أمة واحدة﴾ وقلنا

---

(١) قال الطبري : وهذا وعيد من الله لمشركي مكة ، وإعلامٌ لهم أن تأخيره في آجالهم مع تكذيبهم للرسول كسنته فيمن سبقهم .

(٢) « أحاديث » : جمع أحدوثة كالأضحوكة والأعجوبة لا جمع حديث أي جعلناهم أخباراً يسمعونها ويتعجب منها ، لأنه لم يبق فيهم عين ولا أثر .

وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ
لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ
فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

* * *

للرسل : إن دينكم دينٌ واحد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وأنا ربكم ومولاكم ، فاتقوا عقابي ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ فتفرق القوم في دينهم مذاهب شتَّى ، فدان كل فريق منهم بكتاب ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كل فريق منهم معجبون بما اختاروه من الدين ، لا يرون أن الحق سواه ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ فدعهم في غيِّهم إلى أجل سيأتيهم عنده عذابي ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ﴾ أيظن هؤلاء أن الذي نعطيهم ، في عاجل الدنيا من مال وبنين ، نبادر لهم في خيرات الآخرة ؟! ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بل لا يعلمون أنه إملاءٌ لهم واستدراج .

﴿إِنَّ الذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ ربِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إن الذين هم من عذاب الله خائفون ، فلذلك هم في طلب مرضاته جادُّون ﴿وَالذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدِّقون ﴿وَالذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ والذين يخلصون عبادتهم لربهم ، فلا يراؤون بها أحداً من خلقه ﴿وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ والذين يؤدون حقوق الله عليهم في أموالهم ، وقلوبهم خائفة من المرجع إلى الله[١] ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ هـؤلاء الذين هذه صفاتهم ، يبادرون في الأعمال الصالحة ، ويطلبون القرب عند الله بطاعته ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ وقد سبقت لهم من الله السعادة ، قبل مسارعتهم في الخيرات ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ولا نكلف نفساً إلَّا ما يصلح لها من العبادة ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ﴾ وعندنا كتاب أعمال الخلق ينطق[٢] بما عملوا من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يزاد على سيئات

---

(١) عن عائشة أنها قالت يا رسول الله : « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ! قال : لا يا بنت الصدِّيق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدَّق وهو يخاف الله عز وجل» رواه أحمد،وفي رواية للترمذي : هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يتقبل منهم .

(٢) المراد بنطقه إثبات كل عمل في سجل صحائف أعمالهم .

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم
بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم

***

المسيء ، أو ينقص المحسن من إحسانه ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ولكن قلوبهم في عمى عن هذا القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ ولهؤلاء الكفار أعمال لا يرضاها الله من المعاصي ، من دون أعمال أهل الإيمان ، لا بدَّ أن يعملوها ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ حتى إذا أخذنا أهل النعمةوالبطر بالعذاب، ضجُّوا واستغاثوا ممَّا حلَّ بهم ﴿لَا تَجْأَرُوا اليَوْمَ﴾ لا تضجُّوا وتستغيثوا اليوم وقد نزل بكم العذاب ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ فإنكم من عذابنا لا تستنقذون ولا يخلصكم منه شيء ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ فقد كانت آيات كتابي تُقرأ عليكم ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ فكنتم تكذِّبون بها ، وترجعون مولّين عنها عند سماعها ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ مستكبرين بحرم الله تقولون : لا يغلبنا أحد فيه،، لأنا أهل الحرم ﴿سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ تسمرون بالليل تقولون في القرآن أفحش الكلام ، معرضين عن القرآن وعن الرسول عليه السلام

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ﴾ أفلم يتدبر هؤلاء المشركون كلام الله ، فيعلموا ما فيه من العبر ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أم جاءهم أمر لم يأت من قبلهم فأعرضوا ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أم لم يعرف المشركون محمداً ، وأنه من أهل الصدق والأمانة فأنكروا قوله لذلك[١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أم يقولون بمحمد جنونٌ ، فهو يتكلم بما لا معنى له[٢] ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالحَقِّ﴾ بل جاءهم محمد ﷺ بالحكمة والحق الذي لا تخفى صحته﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأكثرهم لاتّباع محمد ساخطون ، حسداً منهم وبغياً ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ولو عمل الربُّ بأهوائهم ،وأجرى الأمور على مشيئتهم لفسد نظام العالم ، ولم

(١) نبّه تعالى إلى أنهم عرفوا الرسول ﷺ وعرفوا صدقه وصحة رسالته ، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على أنه الصادق الأمين ؟!

(٢) هذا هو الأمر الرابع من أسباب كفرهم وسفاهتهم وهو نسبتهم الرسول إلى الجنون مع أنه أرجحهم عقلاً

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ
وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾
حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

* * *

تستقر السموات والأرض ، ومن فيهن من خلق الله ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بل جئناهم ببيان ما يحتاجون إليه من أمر دينهم ، وبما فيه شرفٌ لهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهم عن هذا البيان والشرف معرضون لا يلتفتون إليه ﴿أم تسألهم خَرْجاً﴾ أم تسأل يا محمد هؤلاء المشركين أجراً ، على ما جئتهم به من النصيحة والحق، فلذلك لم يؤمنوا برسالتك ؟ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ فأجر ربك خيرٌ لك من ذلك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ والله خير من أعطى ورزق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإنك لتدعو المشركين إلى دين الإسلام ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وإن الذين لا يصدقون بقيام الساعة ، لعادلون عن دين الله الذي ارتضاه لعباده ﴿وَلَو رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ ولو رحمنا هؤلاء ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجوع والهزال ﴿لَلَجُّوا في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] لتمادوا في عتوّهم وجرأتهم على ربهم يترددون ، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ ولقد أنزلنا بالمشركين بأسنا وسخطنا ، وأجدبنا بلادهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما خضعوا لربهم وأنابوا إلى طاعته ، وما يتذللون له ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ حتى إذا فتحنا عليهم باب المجاعة والقحط ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ إذا هم نادمون على ما سلف منهم[2]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ والله هو الذي أعطاكم السمع الذي تسمعون به ، والأبصار التي تبصرون بها ، والقلوب التي تفقهون بها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون الله على ما أعطاكم قليلاً ﴿وَهُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ والله خلقكم في هذه الأرض[3] ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد الممات والبعث ﴿وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلقهم أحياء بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً،

(١) العَمَهُ للقلب كالعمى للبصر ، يقال : رجل أعمه إذا كان أعمى البصيرة والقلب .
(٢) الإبلاس : اليأس من كل خير أو السكوت مع التحير ، وفسَّره الطبري بالندم على ما سلف .
(٣) هذه دلائل أخر على الوحدانية بعد أن ذكر في أول السورة طائفة من الدلائل والبراهين .

وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ
ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

* * *

ويميتهم بعد أن أحياهم ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وجعل الليل والنهار مختلفين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله[١] ؟ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ بل قالوا مثل ما قال أسلافهم من الأمم المكذبة ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قالوا : أئذا بليت أجسامنا ، أئنا لمبعوثون أحياء كهيئتنا قبل الممات ؟! ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد وعدنا هذا الوعد ، ووُعد آباؤ نا من قبلنا فلم نره حقيقة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا إلا خرافات الأولين سطّروها في كتبهم ، لا صحة لها ولا حقيقة .

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قل لهؤلاء المكذبين : لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق ؟ إن كنتم تعلمون من مالكها ؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرّون بأنها لله ملكاً ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فقل لهم : أفلا تتذكرون فتعلمون أن من قدر على الخلق ، فهو قادر على الإحياء ؟ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قل لهم يا محمد : من ربُّ السموات السبع ، وربُّ العرش المحيط بذلك كله ؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقولون : ذلك كله لله ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم : أفلا تتقون عقابه على كفركم به ؟! ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قل لهم : من بيده خزائن كل شيء ؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ وهو يجير[٢] من أراد ممن قصده بسوء ، ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء فيرفع عنه عذابه ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صفته التي هو عليها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنهم سيقولون : إن خزائن كل شيء ، والقدرة على الأشياء ، كلها لله ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فقل لهم : من أي وجهٍ تُصرفون عن التصديق بآيات الله ؟ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ جئناهم بالإسلام الحق اليقين ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وإن المشركين لكاذبون ، فيما يضيفون إلى الله من الولد والشريك

(١) هذا توبيخٌ لهم على كفرهم بعد مشاهدتهم دلائل قدرته الباهرة .

(٢) يجير : أي يغيث ويحمي ومنه الجوار لمن يدخل في حمى غيره .

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا

***

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ ليس لله ولد ﴿وما كان معه من إلَه﴾ ولا كان معه في القديم ، ولا حين ابتدع الأشياء إلهٌ تصلح عبادته ﴿إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لو كان معه إلَه ، إذاً لانفرد كلُّ إلَه منهم بما خلق ، ولتغالبوا فغلب القويُّ منهم الضعيف والضعيفُ لا يصلح أن يكون إلَهاً[١] ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ هو عالم ما غاب عن الخلق ، فلم يروه ولم يشاهدوه وما رأوه وشاهدوه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء ، وعن وصفهم إياه بما يصفون .

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ قل يا محمد: يا رب إن تريني في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ربِّ فلا تهلكني معهم ، واجعلني ممن رضيت عنه ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ وإنا على أن نريك يا محمد ، ما نعدهم من تعجيل العذاب لهم لقادرون ، فلا يحزنك تكذيبهم ﴿إدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ إدفع بالخصلة التي هي أحسن من الصفح والإغضاء أذى المشركين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ نحن أعلم بما يصفون به الله ، وبما يقولون فيك من قبيح القول﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وقل يا محمد : ربِّ أستجير بك من خنق[٢] الشياطين ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ وأستجير بك أن يحضروني في أموري ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ حتى إذا جاء الموت أحد المشركين قال ـ لعظيم ما يعاين ـ : رب ردّوني[٣] إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ لكي أعمل صالحاً فيما

(١) قال ابن جرير : سبحان الله ، ما أبلغها من حجة ، وأوجزها لمن عقل وتدبَّر !؟ فإنه لو كان هناك إلَه غير الله لتغالبوا ، فغلب القوي منهم الضعيف ، لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، فيقع التغالب والتنازع.

(٢) فسَّر ابن جرير ﴿همزات الشياطين﴾ بأنها خنقه وهو مروي عن ابن زيد ، وفسَّرها غيره بأنها وساوسه وإيحاءاته ، وأصل الهمز في اللغة : النخسُ ومنه المهماز ، فإن الشيطان يحث الناس على المعاصي بأنواع الوساوس كما يحث الرائض الدابة بالمهماز .

(٣) إنما جاء بصيغة الجمع ﴿ ارجعون ﴾ للتعظيم .

وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

* * *

ضيَّعت قبل اليوم ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ليس الأمر كما قال المشرك ، فلن يرجع إلى الدنيا ، وهذه الكلمة لا بدَّ أن يقولها ﴿وَمِنَ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ومن أمامهم حاجزٌ ، يحجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق وهي النفخة الأولى[١] ، وقيل هي الثانية ﴿فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فلا أنساب يومئذ يتواصلون بها ، ولا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فمن ثقلت موازين حسناته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فأولئك هم الخالدون في جنات النعيم ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن خفت موازين حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ هم في نار جهنم ، يلفح وجوههم لهب النار فتحرقها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وقد تقلّصت شفاههم وبدت أسنانهم[٢] من إحراق النار ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يقال لهم : ألم تكن آيات القرآن تقرأ عليكم في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ولا توقنون بما فيها ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قالوا : ربنا غلب علينا ما سبق لنا في أم الكتاب من الشقاء ﴿وَكُنَّا قَوماً ضَالِّينَ﴾ ضللنا عن سبيل الرشاد وقصد الحق ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ربنا أخرجنا من النار ، فإن عدنا لما تكره منا ، فإنا ظالمون لأنفسنا ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ قال الرب : أقعدوا في النار[٣] ولا تكلمونِ أبداً

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ إنه كان أهل

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال ابن مسعود : هي النفخة الثانية التي يخرج الناس فيها من القبور ، ولم يرجح الطبري أحد القولين .
(٢) ورد أنه تتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته ، فهذا هو الكلوح .
(٣) قال ابن جرير : فعند ذلك أيسوا من الفرج وكانوا طامعين فيه

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

* * *

الإيمان يقولون في الدنيا : ربنا آمنا بك وبرسلك ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ فاتخذتموهم في الدنيا هزواً ، تسخرون منهم حتى أنساكم ذلك ذكري ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وكنتم من عبادتهم لله تضحكون ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ إني جزيت أهل الإيمان الجنة ، بما صبروا في الدنيا على أذاكم ، أنهم اليوم هم الفائزون بالنعيم الدائم ، والكرامة الباقية ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ قال الله لهؤلاء الأشقياء وهم في النار : كم مكثتم في الأرض من السنين ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوماً أَو بَعْضَ يَوم فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ قالوا : مكثنا في الدنيا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل الذين يعدُّون الشهور والسنين ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَو أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الله لهم : ما لبثتم في الأرض إلاَّ يسيراً ، لو أنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم فيها لعرفتم الحقيقة .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أفظننتم أنما خلقناكم لعباً وباطلاً ؟ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ وأنكم بعد مماتكم لا تُبعثون أحياء ، فتجزون على أعمالكم ؟ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ فتقدس الله عما يصفه المشركون ، وأنه يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ لا معبود إلاَّ الله ، ربُّ العرش المحيط بجميع المخلوقات ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ومن يعبد مع الله معبوداً آخر ، لا بيّنة له بما يقول ولا حجة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما حساب عمله السيء عند ربه ، وهو موفيه جزاءه يوم يقدم عليه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده ، ولا يدركون الخلود في النعيم ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ وقل يا محمد : ربِّ استر عليَّ ذنوبي بعفوك عني ، وارحمني بقبول توبتي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأنت خير من رحم ذا ذنب ، فلم يعاقبه .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

* * *

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ هذه السورة أنزلناها ، وأوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم ، وبينا ذلك لكم ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وأنزلنا في هذه السورة علامات على الحق ، واضحات لمن تأملها ، وفكر فيها بعقله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لتتذكروا بهذه الآيات التي أنزلناها ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ من زنا من الرجال أو من النساء ـ وهو حر بكر غير محصن ـ فاجلدوه ضرباً مئة جلدة ، عقوبة لما صنع ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ولا تأخذكم بالزاني والزانية رحمة ، في طاعة الله ، بترك إقامة الحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إن كنتم تصدقون بالله ربكم ، وباليوم الآخر وأنكم فيه مبعوثون ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليحضر جلدهما طائفة ، من أهل الإيمان بالله ورسوله[١] ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الزاني لا يطأ إلا زانية تستحل الزنى ، أو مشركة زانية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والزانية من أهل الاسلام ، لا تزني إلا بزان مثلها من أهل القبلة[٢] أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وحرم الله الزنى على المؤمنين بالله ورسوله

---

(١) رجح الطبري ان الطائفة تصدق على الواحد فصاعداً ، واستحب أن لا يقصر عن أربعة أنفس ، عدد من تقبل شهادته على الزنا .

(٢) أراد به المسلم الفاسق ، والمراد بالزنى هنا الوطء لا العقد ، قال ابن عباس : لا يزني الزاني إلا بزانية مثله أو مشركة .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ
أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

* * *

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والذين يرمون العفائف من حرائر المسلمين بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ثم لم يأتوا على ما رموهن به ، بأربعة شهداء عدول ، يشهدون عليهن أنهن يفعلن ذلك ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾فاجلدوا الذين رموهن ثمانين جلدة ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ جزاء شتمهم للعفيفات ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله ، وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها ﴿إِلاَّ الذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلا الذين تابوا من جرمهم بقذف المحصنات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الله ساتر على ذنوبهم بعفوه لهم عنها ، رحيم بهم بعد التوبة فاقبلوا شهادتهم ولا تسمُّوهم فسقة[1] .

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ﴾ والرجال الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة فيقذفونهن بالزنا ، ولم يكن لهم أحد يشهد لهم بصحة ذلك ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيحلف أحدهم أربع أيمان بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى زوجته به ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه حالًة ، إن كان فيما رماها به من أهل الكذب والافتراء ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحد ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إنه لمن الكاذبين﴾ أن تحلف بالله أربع أيمان ، أن زوجها الذي رماها بالفاحشة ، لمن الكاذبين فيما رماها به ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما رماها به من الزنا ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم ، وأنه عوَّاد على خلقه بلطفه ، حكيم في تدبيره إياهم ،

(١) هذا القول قال به الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء في الآية إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق ويبقى القاذف مردود الشهادة لقوله تعالى ﴿ أبداً ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ
وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ
إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ
بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم

***

لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم وفضح أهل الذنوب .

﴿إِنَّ الذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعةٌ منكم(١) ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك، شراً لكم عند الله وعند الناس ، بل ذلك خير لكم عند الله وعند المؤمنين ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ لكل واحد منهم جزاء ما اجترم من الإثم ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ والذي تحمَّل معظم الإثم منهم ، وبدأ بالخوض فيه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ له عذاب عظيم يوم القيامة ﴿لَولاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ هلاَّ حين سمعتم ما قاله أهل الإفك في عائشة ، ظننتم بمن رمي بذلك منكم خيراً(٢) !! ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ وقالوا : هذا الذي سمعناه من رمي عائشة كذبٌ وبهتان ﴿لَولاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هلاَّ جاء هؤلاء العصبة بأربعة يشهدون على مقالتهم فيها !! ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ على حقيقة ما رموها به ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ فيما جاءوا به من الإفك ﴿وَلَولاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾ ولولا فضل الله عليكم ـ أيها الخائضون في أمر عائشة ـ بتركه تعجيل عقوبتكم ، ورحمته إياكم بقبول توبتكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمسَّكم عاجلاً عذاب عظيم ، بسبب ما تكلمتم فيه من أمرها ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ حين تتلقون خبر الإفك من أهله ، فتقبلونه على أنه حقيقة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وتتكلمون بألسنتكم بما لا علم لكم به ، ولا تعلمون حقيقة ما تروونه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ وتظنون أن روايتكم له وتلقِّيه سهل ، لا إثم عليكم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وروايتكم له أمر عظيم عند الله ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء زوجته ﴿وَلَولاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا

---

(١) هذه الآيات بدء « حديث الإفك » الذي اتهمت به عائشة الصدّيقة رضي الله عنها ، وما قذفها به أهل النفاق « عبد الله بن سلول » وجماعته ، وفي هذه الآيات تبرئة لها من البهتان ، وتحذير للمؤمنين عن الخوض في أعراض المسلمات .

(٢) ذلك لأن المؤمن فيه من نور الإيمان والعقل والدين ، ما يميز به بين الصحيح والقبيح ، والصادق والكاذب .

مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

***

يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ هلاّ حين سمعتموه قلتم : ما يحل ولا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا **﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾** تنزيهاً لك يا رب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء ، فهذا القول بهتان عظيم **﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾** ينهاكم الله ويذكّركم بآي كتابه ، لئلا تعودوا لمثل فعلكم في أمر عائشة أبداً **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن كنتم تتعظون بعظات الله ، وتنتهون عما نهاكم عنه **﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾** ويفصّل الله لكم حججه **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** والله عليم بأفعالكم ، حكيم في تدبير خلقه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الذين يحبون أن ينتشر الزنى ويظهر في الذين صدقوا بالله ورسوله **﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾** لهم عذاب وجيع في الدنيا بالحدّ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** والله يعلم كذب أهل الإفك ، وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب ، فلا تتحدثوا بما لا علم لكم به من الإفك فتهلكوا **﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾** ولولا أن الله تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأن الله ذو رحمة بخلقه ، لهلكتم فيما أفضتم فيه **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** ومن يقتف آثار الشيطان ، فإنه يأمر بالزنى والمنكر من القول **﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾** ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ، ما تطهر منكم أحد أبداً من دنس ذنوبه وشركه **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾** ولكنَّ الله يطهّر من يشاء من خلقه **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** والله سميع لما تقولونه بأفواهكم عليم بكل أموركم ، ومحصيها عليكم **﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾** ولا يحلف بالله من كان ذا فضل من مال وسعة منكم[1] **﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي**

(١) كان مسطح بن أثاثة قريباً لأبي بكر ـ رضي الله عنه ، وكان في عياله ، وكان ممن تكلم بالإفك فحلف أبو بكر أن لا ينيله خيراً أبداً =

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ
عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ
مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ

* * *

الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ والْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن لا يعطوا ذوي قرابتهم ، وذوي الحاجة ، والذين هجروا ديارهم وأموالهم في جهاد أعداء الله **﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾** وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليتركوا عقوبتهم على ذلك **﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** ألا تحبون أن يستر الله ذنوبكم ، بإفضالكم عليهم !! **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** والله غفور لذنوب من أطاعه ، رحيم بهم أن يعذبهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إن الذين يتهمون بالزنى العفيفات ، الغافلات عن الفواحش ، المؤمنات بالله ورسوله **﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾** أُبعدوا من رحمة الله ، في الدنيا ويوم القيامة **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** ولهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد ، إلا أن يتوبوا قبل وفاتهم **﴿يومَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** يوم القيامة حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدنيا من الذنوب يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بآثامهم **﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾** في ذلك اليوم يوفيهم الله حسابهم ، وجزاءهم الحق على أعمالهم **﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾** ويعلمون أن ما وعدهم الله به في الدنيا من العذاب حقٌّ ، ويزول حينئذ الشك **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾** القبيح من القول للخبيثين من الرجال ،والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، هم بها أولى لأنهم أهلُها **﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾** والحسن من القول للطيبين من الناس والطيبون من الناس للطيبات من القول ، لأنهم أهلها وأحق بها[1] **﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾** الطيبون من الناس مبرءو ن من خبيثات القول **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، ولهم الجنة عطية كريمة من الله **﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى**

= فنزلت الآية ، فأعاده أبو بكر إلى عياله وضاعف له العطية .

(١) قال المفسرون في معنى هذه الآية « الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء » وهو أظهر مما فسّره به الطبري .

تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ
أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ
مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ

* * *

تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله ، لا تدخلوا بيتاً من البيوت غير بيوتكم ، حتى تسلموا على أهل ذلك البيت ، وتستأذنوا بالدخول **﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** الاستئذان قبل الدخول خير لكم ، لتتذكروا أمر الله عليكم **﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾** فإن لم تجدوا في البيوت أحداً من أهلها يأذن لكم ، فلا تدخلوها لأنها ليست لكم ، فإن أذن لكم أربابها بالدخول فادخلوها **﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾** وإن لم يأذن لكم أهل البيوت وقالوا : ارجعوا فلا تدخلوها ، فارجعوا عنها ولا تدخلوها **﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾** رجوعكم عند عدم الإذن ، أطهر لكم عند الله **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** والله عالمٌ بطاعتكم له فيما أمركم ونهاكم **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾** ليس عليكم إثم ، أن تدخلوا بيوتاً لا ساكن بها بغير استئذان ، إن كان لكم فيه متاع **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** والله يعلم ما تظهرون بألسنتكم ، وما تضمرونه في صدوركم .

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قل للمؤمنين بالله يكفُّوا عن النظر إلى ما يشتهون مما نهوا عن النظر اليه **﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾** أن يراها من لا يحل له رؤيتها ، بلبس ما يسترها عن أبصارهم[1] **﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾** الغضّ والحفظ أطهر لهم عند الله وأفضل **﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** إن الله مطّلع على ما تصنعون من غضّ البصر ، وحفظ الفروج **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾** وقل للمؤمنات من أمتك ، يغضضن من أبصارهن عما يكره الله النظر إليه **﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾** عن أن يراها من لا يحل له رؤيتها ، بلبس ما يسترها **﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾** ولا يظهرن زينتهن للناس ، الذين ليسوا لهن بمحرم **﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾** إلّا الوجه والكفين[2] **﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾** وليلقين

---

(١) قول ابن جرير هذا مستلزم لحفظ الفروج من الزنى ، لأن من سترها عن النظر سترها عما هو أبعد منه ، وقد رجح القرطبي أن المراد بالآية ستر الفروج عن الأبصار وحفظها من الزنى لعموم اللفظ .

(٢) رأي ابن جرير هذا مبناه على أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، والصحيح الذي تؤيده النصوص ، ويتمشى مع روح الإسلام أن =

زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

***

خمرهن على جيوبهن[١] ، ليسترن بذلك شعورهن ، وأعناقهن[٢] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ولا يظهرن الزينة الخفية غير الظاهرة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلا لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباء بعولتهن أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ أو لأحد من هؤلاء المذكورين ﴿أَو نِسَائِهِنَّ﴾ أو نساء المسلمين[٣] ﴿أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء المشركات ﴿أَو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أو الذين يتبعونكم لطعام يأكلونه عندكم ،ممن لا حاجة له في النساء﴿أَو الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أو الطفل الذين لم يكشفوا عن عورات النساء لصغرهن ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يجعلن في أرجلهن من الحلي[٤] ما إذا مشين ، أو حركنهن علم الناس ما يخفين من ذلك ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله ، فيما أمرـم ونهاكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه ، بطاعتكم لأوامره ونواهيه .

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ وزوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وزوِّجوا أهل الصلاح من عبيدكم وإمائكم ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إن يكن هؤلاء أهل فاقة وفقر ، فإن الله يغنيهم[٥] من فضله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله واسع الفضل يوسع

= الوجه من العورة التي يجب سترها ولا يجوز إبداؤ ها إلا لضرورة أو حاجة كما بينه العلماء ، لأن الوجه أصل الجمال ومصدر الفتنة والإغراء ، وأن المراد بالآية : ما ظهر من غير قصد ، وليس الإظهار بكشف الوجه .

(١) جيوبهن : صدورهن وأصل الجيب في اللغة فتحة الثوب من جهة الصدر .

(٢) في هذه الآية دليل على تغطية الوجه لأن الخمار هو الذي تغطي به المرأة رأسها فإذا أنزلته على صدرها لتغطيه ، غطت ما بينهما وهو الوجه .

(٣) هذا قول ابن عباس ، وقال آخرون : إن المراد جميع النساء ، وقول السلف محمول على الأولى والأحب .

(٤) كالخلخال الذي يوضع في القدم .

(٥) الأصح أن هذا ليس وعداً من الله بإغناء كل متزوج حتى لا يقع فيه خُلْف ، فربّ غني يفقره النكاح ، ولكن المعنى لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم ، ففي فضل الله ما يغنيهم ، والمالُ غادٍ ورائح ، وقيل : إنه وعد .

وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ

* * *

عليهم ، عالمٌ بأحوال خلقه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ وليكفَّ الذين لا يجدون ما ينكحون به النساء ، عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى أن يغنيهم الله من سعة فضله ، ويوسع عليهم من رزقه ، فيتمكنوا من الزواج ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ والذين يلتمسون المكاتبة(١) من مماليككم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم قوة على الإحتراف والإكتساب ، ووفاءً بما أوجبوا على أنفسهم ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ وأعطوهم سهمهم من مال الصدقة المفروضة ، الذي أعطاكم الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ ولا تكرهوا إماءكم على الزنى ، إن أردن تعففاً ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنى زينة الدنيا وأموالها ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والذي يكره فتياته على الزنى فإن الله غفور لهن ، رحيم بهن ، ووزر ذلك عليهم دونهن(٢).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ دلالات توضح الحق من الباطل ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وذكر لكم الأمثال لتتعظوا بمن سبق من الأمم ﴿وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخافون عقاب الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الله هادي من في السموات والأرض إلى الحق ، فهم بنوره يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد في قلوب المؤمنين ـ مثل عمود القنديل الذي فيه السراج ﴿المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ السراج في القنديل ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الزجاجة في صفائها وضيائها وحسنها تشبه الدر(٣) ﴿يُوقَدُ مِنْ

---

(١) المكاتبة : هي أن يدفع العبد لسيده شيئاً من المال يتفقان عليه من أجل عتقه ليصبح حراً

(٢) نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ كان له جوار يأمرهن بالزنى ليستدر من ورائهن المال خسة منه ودناءة ، وهن لا يردن ذلك فنهى الله عن ذلك .

(٣) قال ابن جرير : وذلك مثل للقرآن في قلب أهل الإيمان ، يقول تعالى « القرآن الذي في قلب المؤمن ، الذي أنار الله قلبه في صدره ، ومثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله ، واستنارته بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه ومواعظه بالكوكب الدري ، فقال : الزجاجة =

زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ
لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

* * *

﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة ، تشرق الشمس عليها وتغرب عليها ، فيصيبها ضوء الشمس بالغداة والعشي **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾** يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه ، وحسن لمعانه ولو لم تمسسه النار ، فكيف إذا مسته نار !! فحجج الله تعالى على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها ، تضيء لمن فكر فيها ولو لم يزدها الله بياناً بهذا القرآن **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾** نور فوق نور ، يقول : هذا القرآن نور من عند الله أنزله إلى خلقه ، فوق الحجج التي قد نصبها لهم قبل إنزال القرآن **﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** يوفّق الله لاتباع القرآن من يشاء من عباده **﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾** ويمثل الله الأمثلة للناس ليعتبروا **﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** والله ذو علمٍ بكل الأشياء .

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ في مساجد أمر الله أن تبنى ، وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها **﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾** يصلي له في هذه البيوت بالصباح والمساء **﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** رجال لا يشغلهم عن عبادة الله شاغلٌ ، من تجارةٍ أو بيع **﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾** ولا يشغلهم شيءٌ عن إقام الصلاة ، بحدودها في أوقاتها **﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾** ولا يشغلهم أيضاً عن دفع ما فرض عليهم في أموالهم لمن يستحقه **﴿يَخَافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾** يخافون يوماً تتقلب القلوب من هوله[1] ، بين طمعٍ بالنجاة ، وحذرٍ من الهلاك ، وتتقلب فيه الأبصار ، من أي ناحيةٍ يُؤخذ بهم ؟ ومن أين يؤتون كتبهم ؟ **﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾** كي يثيبهم الله بأحسن أعمالهم ، التي عملوها في الدنيا **﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** ويزيدهم بما أحب من كرامته **﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ**

= وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه ـ كأنها كوكب دري في صفائها ، وضيائها وحسنها ، وإنما يصف صدره بالنقاء من كل ريب وشك في أسباب الإيمان ، وبعده من دنس المعاصي كالكوكب الذي يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن .

(١) إنما تضطرب القلوب من أهوال يوم القيامة لما يصيبها من الهول والفزع ، وتقلب الأبصار شخوصها ، وهو أن أبصارهم تقف عن الحركة دهشة وحيرة كما قال تعالى ﴿ إنما يؤخرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ
ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا

* * *

حِسَابٍ﴾ والله يتفضل على من شاء من طَوله وكرامته ، مما لم يبلغه بطاعته ، بغير محاسبة على ما بذله وأعطاه **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾** والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذَّبوا بهذا القرآن ، مَثَل أعمالهم التي عملوها كسراب في قاع[١] **﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾** يظن العطشان السراب ماء ، حتى إذا جاء السراب ملتمساً ماءً يستغيث به عطشه **﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾** فكذلك الكافر يحسب أعماله تنجيه من عذاب الله ، حتى إذا هلك لم يجد عمله ينفعه شيئاً ، لأنه كان على كفر بالله **﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾** ووجد الكافر ربه بالمرصاد **﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾** فوفَّاه يوم القيامة حساب أعماله ، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه **﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾** حسابه سريع لعباده **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾** ومثل أعمال الكفار ، كمثل ظلماتٍ في بحر عميق كثير الموج **﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوجٌ مِنْ فَوقِهِ سَحَابٌ﴾** يغشى البحر موجٌ ، من فوق الموج موجٌ آخر يغطّيه ، ومن فوق الموج الثاني سحاب وهكذا قلب الكافر قد غمره الجهل ، وتغشَّته الضلالة والحيرة **﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوقَ بَعْضٍ﴾** فقد ختم الله على قلبه ، فلا يعقل عن الله أمراً ، وعلى سمعه فلا يسمع مواعظ الله ، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر حجج الله ، فتلك ظلماتٌ بعضها فوق بعض **﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾** إذا أخرج يده أمامه ، لم يرها من شدّة الظلمة **﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** ومن لم يرزقه الله إيماناً وهدى ومعرفةً بكتابه ، فما له إلى ذلك من سبيل .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ألم تعلم يا محمد أن الله يصلي[٢] له من في السموات والأرض ، من مَلَك وإنس وجنّ ؟ **﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾** والطير في الهواء تسبّح لله أيضاً في طيرانها **﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾** كل مصلٍّ منهم ومسبّح ، قد علم الله صلاته وتسبيحه **﴿وَاللَّهُ**

---

(١) القاع : الأرض المنبسطة المتسعة ، والسراب : ما يتراءى للعين في الصحراء شبيهاً بالماء الجاري ، وليس بماء وإنما هو خيال ، حتى إذا جاءه تلاشى السراب فلم يجد شيئاً ، فكذلك الكافر يظن عمله نافعه وليس له عمل مقبول عند الله ، قال قتادة : هذا مثلٌ ضربه الله لعمل الكافر .

(٢) الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء ، ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة ، وقيل : إن الصلاة لبني آدم ، والتسبيح لغيرهم من الخلق وهو مروي عن مجاهد .

يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ
ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي
الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

* * *

﴿عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والله ذو علم لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيهم على ذلك **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ولله سلطان السموات والأرض وملكُها ، دون من هو دونه **﴿وَإِلى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾** ومصيركم أيها الناس إليه بعد وفاتكم ، فقدّموا الصالحات من أعمالكم **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾** ألم تر أن الله يسوق سحاباً حيث يريد ؟ **﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾** ثم يجمع بين متفرق السحاب **﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾** ثم يجعله متراكماً بعضُه على بعض **﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾** فترى المطر يخرج من بين السحاب **﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾** فيعذّب بما ينزل من السماء(١) من برد من يشاء فيهلكه ، أو يهلك زروعه وماله ، ويصرفه عمن يشاء من خلقه **﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾** تكاد شدة ضوء برق السحاب ، يذهب بأبصار من لاقى بصره **﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾** يصرّف الله الليل والنهار ، ويعاقب بينهما إذا ذهب هذا جاء هذا والعكس **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾** إن فيما ذكر من آيات الله ، لعظةً لمن اعتبر ، ممن له فهمٌ وعقل ، لأن ذلك يدل على أن له مدبراً ومصرِّفاً لا يشبهه شيء **﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾** والله خلق كل ما يدب على الأرض من نطفة **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾** فمن الدواب من يزحف على بطنه كالحيّات **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾** ومنها من يمشي على رجلين كالطير والإنسان **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾** كالبهائم **﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾** يحدث الله ما يشاء من الخلق **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** إن الله ذو قدرة ، لا يتعذر عليه شيء أراده

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ لقد أنزلنا علامات واضحات ، دالات على طريق الحق والرشاد **﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه ، فيهديه إلى دين الإسلام

(١) قوله ﴿وينزل من السماء من جبال﴾ المراد بالجبال هنا الكثرة كما يقال : فلان يملك جبالاً من ذهب ، وقيل : إن في السماء جبالاً من برد خلقها الله كما خلق في الأرض جبالاً من حجر ، والقول الأول أظهر

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾
أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

* * *

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ويقول المنافقون : صدقنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله ، وأطعنا الرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم تُعرض كل طائفة منهم من بعد ما قالوا هذا القول عن رسول الله ﷺ وتتحاكم إلى غيره ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس أولئك بالمؤمنين ، لتركهم الإحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وإذا دعي المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ، ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبول الحق ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيهِ مُذْعِنِينَ﴾ وإن يكن الحق لهؤلاء المنافقين يأتوا إلى رسول الله - ﷺ - منقادين لحكمه ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ أفي قلوب هؤلاء شك في رسول الله ﷺ أنه رسول ، فيمتنعون من الإجابة ؟! ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أم يخافون أن يجور عليهم رسول الله في حكمه عليهم ، إذا احتكموا إلى كتاب الله وحكم رسوله ؟ ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولكنهم ظالمون لأنفسهم بمعصيتهم لربهم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أن يقولوا : سمعنا ما قيل لنا ، وأطعنا من دعانا إلى ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الناجحون ، المخلدون في جنات الله ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهاه ، ويُسلِّم لحكمهما ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ويخف عاقبة معصيته لله ، ويتق عذاب الله ، بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة ، ويأمنهم من عذابه .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وحلف هؤلاء المنافقون أغلظ الأيمان وأشدها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ لئن أمرتهم بالخروج إلى جهاد الأعداء ليخرجن ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قل : لا تحلفوا فإن هذه طاعة معروف منكم فيها التكذيب ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إن الله ذو خبرة بما تعملون ،

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ

***

لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيكم بكل ذلك ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ قل للمقسمين بالله : أطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فإن طاعته طاعةٌ لله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ فإن تُعرضوا عما أمركم به رسول الله ﷺ وتأبوا الإذعان لحكمه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ فإنما عليه فعل ما أُمر بفعله ، وعليكم أن تفعلوا ما أُوجب عليكم ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وإن تطيعوا رسول الله ، فيما يأمركم وينهاكم ، ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ولا يجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة ، إلا أن يبلغهم رسالته ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وعد الله المؤمنين بالله ورسوله ، المطيعين لأمره ونهيه ليورثنهم أرض المشركين فيجعلهم ملوكها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما فعل مِنْ قبلهم ببني إسرائيل ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وليوطئن لهم ملتهم التي ارتضاها لهم ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْناً﴾ وليغيرن حالهم من الخوف الذي هم فيه إلى الأمن ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ يخضعون لي بالطاعة ، ويتذللون لأمري ، ولا يشركون في عبادتهم شيئاً غيري ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ ومن كفر بهذه النعمة ، فأولئك هم الخارجون عن أمر ربهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأقيموا الصلاة بحدودها فلا تضيّعوها ﴿وآتوا الزكاة﴾ التي فرضها الله عليكم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وأطيعوا رسول ربكم ، فيما أمركم ونهاكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كي يرحمكم ربكم ، فينجيكم من عذابه .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تظنن الذين جحدوا وحدانية الله ، معجزين ربهم في الأرض ، إذا أراد إهلاكهم ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ومأواهم بعد هلاكهم نار جهنم ، ولبئس المصير الذي يصيرون إليه ذلك المأوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ
طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ

***

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم **﴿وَالذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنكُمْ﴾** وليستأذنكم الذين لم يحتلموا[1] من أحراركم **﴿ثلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ ثَلاَثُ عَوراَتٍ لَكُمْ﴾** ثلاث مرات ، في ثلاث أوقات ، من ساعات ليلكم ونهاركم قبل الفجر ، ووقت الظهر ، وبعد العشاء **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾** فلا حرج على الناس من دخول المماليك والصبيان عليهم بغير إذن ، بعد هذه الأوقات الثلاث **﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** يدخلون عليكم ويخرجون غدوة وعشية بغير إذن **﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾** كذلك يبيّن الله لكم شرائع دينه ، كما بيّن لكم أحكام الإستئذان **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** والله عالم بما يصلح عباده ،حكيم في تدبيره **﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الحُلُمَ﴾** وإذا بلغ الصغار من أولادكم الإحتلام **﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** فلا يدخلوا عليكم إلا بإذن ، كما استأذن الكبار من الأحرار **﴿كَذَلِكَ يُبِّينُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾** هكذا يبين الله أحكامه وشرائع دينه ، كما بيَّن لكم أمر هؤلاء الأطفال **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** والله عليم بما يصلح خلقه، حكيم في تدبيره **﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾** واللواتي قد قعدن عن الولد من الكبر ، فلا يطمعن في الأزواج ، ولا يطمع الأزواج فيهن **﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾** فليس عليهن إثم أن يضعن جلابيبهن عند الغرباء **﴿غَيْرَ مُتَبرِّجاتٍ بِزِينَةٍ﴾** إذا لم يردن بذلك أن يبدين ما عليهن من الزينة للرجال **﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾** وأن يلبسن أرديتهنَّ خيرٌ لهنَّ **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** سميع لما تنطقون به ، عليم بما تضمره صدوركم ، فاحذروا أن تضمروا ما قد كرهه لكم ، فتستوجبوا بذلك عقوبة منه .

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لا ضيق على هؤلاء

---

(١) المراد بهم الذين لم يبلغوا سنّ التكليف ، وهو سنّ العقل والرشد .

أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا
مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ

* * *

الأعمى والأعرج والمريض ﴿وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ولا عليكم أن تأكلوا من بيوتِ أنفسكم ﴿أو بُيوتِ آبَائِكُمْ أو بُيوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أو بُيوتِ إِخْوَانِكُمْ أو بُيوتِ أَعْمَامِكُمْ أو بُيوتِ عَمَّاتِكُمْ أو بُيوتِ أَخْوَالِكُمْ أو بُيوتِ خَالاَتِكُمْ أو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أو صَدِيقِكُمْ﴾ أو من بيوت من ذُكر ، إذا أذن لكم أصحابها ، عند مغيبهم ومشهدهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَو أَشْتَاتاً﴾ ليس عليكم إثم ولا حرج ، أن تأكلوا جميعاً إذا شئتم ، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين ، فليسلم بعضكم على بعض تحية من عند الله ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ لما فيها من الأجر الجزيل ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هكذا يفصّل الله لكم معالم دينكم ، لكي تفقهوا عن الله أمره ونهيه وأدبه ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ما المؤمنون حق الإيمان ، إلاّ الذين صدقوا الله ورسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر يجمع جميعهم ، لم ينصرفوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ فإذا استأذنك هؤلاء لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم ، فأْذن لمن شئت منهم لقضائها ، وادع الله لهم بالعفو ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بعضاً﴾ احذروا دعاءه عليكم ، بأن تفعلوا ما يسخطه ، لأن دعاءه ليس كدعاء غيره ، فإن دعاء الرسول ـ ﷺ ـ موجب[1] ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً﴾ إن الله يعلم الذين ينصرفون عن رسول الله ﷺ تستراً

(١) أي موجب لعذاب الله. وهذا التفسير للآية هو ما ارتضاه الإمام ابن جرير ، وقال بعض المفسرين : المعنى لا تنادوه=

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

* * *

وخفية ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فليتق الذين يخالفون أمر الله ، في الإنصراف عن رسوله ـ ﷺ . ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أن يفتنهم الله فيطبع على قلوبهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أو يصيبهم في عاجل الدنيا ، عذاب من الله موجع على صنيعهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ألا إن لله ملك جميع السموات والأرض وما فيهن ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيهِ﴾ قد علم الله ما أنتم عليه من طاعتكم إياه ، فيما أمركم ونهاكم ﴿وَيَومَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ ويوم القيامة يرجع المخالفون إلى بارئهم ، فيخبرهم حينئذ بما عملوا في الدنيا ثم يجازيهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله عالمٌ بكل شيء عملتموه ، وغير ذلك من الأمور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النور »

* * *

= باسمه ولا تقولوا يا محمد ، ولكنْ قولوا يا نبي الله ، ويا رسول الله مع التعظيم والتوقير ، قال مجاهد : أمرهم أن يدعوا رسول الله في لين وتواضع ولا يقولوا يا محمد في تجهم وغلظة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

***

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ تقدّس الذي نزل الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، سورة بعد سورة ، على عبده محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ليكون لجميع الجن والإنس ، مخوّفاً لهم من عذاب الله ، إن لم يوحّدوه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الّذي له سلطان السموات والأرض ، ينفذ فيها أمره ، وتمضي فيها أحكامه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ ولم يكن له ولد ، فمن أضاف إليه الولد فقد افترى على ربه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾ وما كان لله أحد يشركه في ملكه ، فيصلح أن يعبد من دونه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والأشياء كلها خلقه وملكه ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ فسوّاه وهيأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله أصناماً ، صنعوها بأيديهم يعبدونها ، لا تَخلق شيئاً وهي تُخْلق ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ ولا تملك هذه الآلهة لأنفسها نفعاً تجره إليها ، ولا ضرّاً تدفعه عن نفسها ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾ ولا تملك إماتة حي ، ولا إحياء ميت ، ولا بعثه من بعد مماته ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ وقال هؤلاء الكافرون : ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان اختلقه محمد ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وأعانه على هذا الإفك اليهود ﴿فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً﴾ فقد أتوا في قولهم هذا كذباً محضاً

وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا
مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ
سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

***

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ وقالوا : هذا الذي جاء به محمد أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم اكتتبها من يهود ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ فهي تُقرأ عليه غدوة وعشياً ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ قل يا محمد : بل هو الحق أنزله الرب ، الذي يعلم سر من في السموات والأرض ، لا يخفى عليه شيء ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ إنه يصفح عن خلقه ، ويرحمهم فيتفضل عليهم بعفوه .

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ وقال المشركون : ما لمحمد يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في أسواقنا كما نمشي ؟ ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ هلاَّ أُنزل إليه ملك من السماء ـ إن كان صادقاً ـ فيكون معه منذراً للناس ، مصدقاً له على ما يقول ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب فلا يحتاج معه إلى التصرف في طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو يكون له بستان يتخير من ثماره لطعامه ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ وقال المشركون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلاً به سحر ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين ، الذين شبَّهوا لك الأشباه بقولهم : هو مسحور ﴿فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فضلوا وأخطأوا طريق الهدى والرشاد ، فلا يجدون سبيلاً إلى الحق ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ تقدَّس الذي لو شاء ، لجعل لك خيراً مما قاله المشركون ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ ويجعل لك بيوتاً مبنية ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ ما أنكر المشركون ما جئتهم به لأنك بشر ، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد ، ولا يصدّقون بالثواب والعقاب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ وأعددنا لمن أنكر قيام الساعة ناراً متَّقدة ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ إذا رأت النار المكذبين ، من مكان بعيد سمعوا

وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾
قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ
نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ

***

صوت غليانها ، وسمعوا لها زفيراً من شدة التلهب والتوقد ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِين﴾ وإذا أُلقي المكذبون بمكان ضيّق ، في نار جهنم ، وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً﴾ نادوا هنالك بالهلاك والويل على أنفسهم ، لانصرافهم في الدنيا عن طاعة الله ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبوراً كَثِيراً﴾ لا تدعوا اليوم بالندم والهلاك مرة واحدة ، ولكن ادعوا ذلك كثيراً ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ قل للمكذبين : أهذه النار التي وصفت خيرٌ ، أم بستان الخلد الذي يدوم نعيمه ولا يبيد ؟ ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدها الله لمن اتقاه في الدنيا ، بطاعته فيما أمره ونهاه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ كانت الجنة للمتقين ثواب تقواهم ويصيرون إليها في الآخرة ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ للمتقين في جنات الخلد ما يشاؤون ، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ماكثين فيها أبداً ، لا يزولون عنها ، ولا يزول عنهم نعيمها ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وعداً مَسْئُولاً﴾ كان إعطاؤ هم الجنة وعداً وعدهم إياه في الدنيا ، وأعطاهم ما سألوا .

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويوم القيامة نحشر العابدين للأوثان ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، من الملائكة والإنس والجن ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُم عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ فيقول الله للمعبودين : أأنتم أزلتم عبادي عن طريق الهدى ، ودعوتموهم إلى الغي والضلالة حتى تاهوا ؟ أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق ؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال المعبودون : تنزيهاً لك يا ربنا ، وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ، ما يصح لنا أن نتخذ من دونك من نواليه ، أنت ولينا من دونهم ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ ولكن متعتهم يا ربنا بالمال والصحة ، حتى نسوا ذكرك ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ وكانوا قوماً هلكى ، قد غلب عليهم الشقاء ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ فقد كذبكم من زعمتم أنهم أضلوكم ، في دعواكم أنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصراً﴾ فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف العذاب عن أنفسهم ، ولا نصرها من

نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

***

الله ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ ومن يشرك بالله ، نذقه عذاباً شديداً في جهنم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين ، إلا وهم مثلك يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، فلماذا أنكر المشركون عليك ذلك ؟ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وامتحنا بعضكم ببعض ، لنختبر كلاً من الغني والفقير ، الفقير بصبره على ما حُرِم ، والغنيَّ بصبره على ما أُعطي[1] ، هل تصبرون ؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ بمن يجزع ، ومن يصبر على المحن .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقال المشركون الذين لا يخافون عقابنا ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ هلاَّ أنزل الله علينا ملائكة ، فتخبرنا أن محمداً محقٌ،وأنما جاءنابه صدق!! ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك حين نراه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ لقد تعظم هؤلاء في أنفسهم ، وتجاوزوا في الاستكبار حده بقولهم ذلك ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يوم يرى هؤلاء المجرمون الملائكة ، فلا بشرى لهم يومئذٍ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ وتقول الملائكة للمجرمين : حراماً محرماً[2] أن تكون لكم البشرى اليوم من الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ وعمدنا إلى أعمال المجرمين التي عملوها في الدنيا ، فجعلناها باطلاً كالهباء ، لأنهم عملوها للشيطان لا لله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً﴾ موضع أهل الجنة يوم القيامة ومنازلهم في الجنة ، خير من مستقر المشركين في الدنيا وخير من مستقرهم في الآخرة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وهم أحسن

---

(١) قال الحسن : يقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير : لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان .

(٢) أي جعل الله عليكم الجنة حراماً محرماً ، والقائل هم الملائكة ، وقيل هم الكفار يقولون ذلك عند رؤ يتهم للملائكة فزعاً منهم ، ولفظة ﴿ حِجْراً مَحْجوراً ﴾ كالاستعاذة تقال عند كل شدة ونازلة .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾
وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا
هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

***

قراراً في الجنة **﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ﴾** ويوم تتشقق السماء عن الغمام **﴿وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾** إلى الأرض **﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾** المُلْك الحق يومئذ ، خالص للرحمن دون كل ما سواه **﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً﴾** وكان ذلك اليوم على أهل الكفر ، يوماً صعباً شديداً **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾** ويوم يعض من ظلم نفسه على يديه ، ندماً وأسفاً على ما فرَّط في جنب الله ، **﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾** يقول : يا ليتني اتخذت في الدنيا مع رسول الله ، طريقاً إلى النجاة من عذاب الله **﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾** يا هلاكي . ليتني لم أصادق هذا الإنسان(١) **﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾** فقد أضلني عن الإيمان بعد أن جاءني من عند الله ، فصدني عنه **﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾** يُسلمه للبلاء ، فلا ينقذه ولا ينجيه .

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وقال الرسول : يا رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لا يريدون سماع هذا القرآن، ويبعدون عنه **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ﴾** كماجعلنا لك يا محمد أعداء من المشركين ، كذلك جعلنا لكل الأنبياء قبلك عدواً من مشركي قومهم ، فاصبر لما نالك منهم **﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾** وكفاك يا محمد أن يهديك ربك إلى الحق ، ويبصرك الرشد ، وأن يكون ناصراً لك على أعدائك ، فاصبر لأمر الله ، وامض لتبليغ رسالته **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عليْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾** وقال الكافرون : هلاَّ نزل القرآن على محمد ﷺ مجتمعاً جملة واحدة ، كما أنزلت التوراة على موسى !! **﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾** كذلك لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك ، نزلناه عليك آية بعد آية ، وشيئاً بعد شيء **﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾** وأنزلناه شيئاً بعد

---

(١) نزلت في « عقبة بن أبي معيط » كان يكثر مجالسة النبي ﷺ ، فاتخذ ضيافة ودعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن يأكل من طعامه حتى يشهد له بالرسالة ففعل ، وكان « أبيّ بن خلف » صديقه فسخط عليه وقال : وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر بمحمد وترد عليه دعوته ففعل الشقيُّ ذلك ، وارتدَّ عن الإسلام فنزلت .

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ
شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

***

شيء لتعلمه وتحفظه[1] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ ولا يأتيك المشركون بمَثَل يضربونه ، إلَّا جئناك من الحق بما نبطله ، وأحسن مماجاءوا به من المثل بياناً وتفصيلاً ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ﴾ هؤلاء المشركون الذين يحشرون يوم القيامة على وجوههم ، فيساقون إلى جهنم ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ هم شرٌّ مستقراً في الدنيا والآخرة من أهل الجنة ، وهم أضل منهم في الدنيا طريقاً .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، كالذي آتيناك من الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً﴾ وجعلنا أخاه معيناً له وظهيراً ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقلنا لهما : إذهبا إلى فرعون وقومه ، الذين كذبوا بأدلتنا وحججنا ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ فكذبوهما فدمرناهم حينئذٍ تدميراً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ وقوم نوح لما ردوا على رسلنا ماجاءوهم به من الحق ، أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ وجعلنا إهلاكنا لهم عظة وعبرة ، لمن جاء بعدهم من الناس يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وأعددنا للكافرين في الآخرة ، عذاباً مؤلماً لهم ، سوى العذاب في الدنيا ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ ودمرنا أيضاً هذه الأقوام عاداً وثمود والذين رسُّوا نبيهم في حفرة ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ ودمرنا بين هذه الأمم أمماً كثيرة ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ وكل هذه الأمم التي أهلكناها مثّلنا لهم الأمثال ، ونبهناهم بالعبر والمواعظ ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ وكل أولئك استأصلناهم فأهلكناهم جميعاً ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ ولقد أتى المشركون على قرية قوم لوط ، التي أمطرها الله بالحجارة فأهلكهم بها ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أولم يروا تلك القرية ، وما نزل بها من عذاب الله ، فيعتبروا ويتذكروا ؟ ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل لا يوقنون

(١) قال ابن جرير : وقيل معنى الترتيل : التبيين والتفسيرُ أي فسرناه تفسيراً ، وهو قول ابن زيد .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

***

بالعقاب والثواب ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ وإذا رآك المشركون ، ما يتخذونك يا محمد إلاّ سخرية يسخرون منك ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ يقولون : هذا الذي اختاره الله من بين خلقه ، فبعثه إلينا رسولاً ؟ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لقد كاد هذا الرجل يصدنا عن عبادة الآلهة ، لولا صبرنا عليها وثبوتنا على عبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ سيظهر لهم حين يعاينون عذاب الله ، من السالك طريق غير الهدى أنت أم هم ؟

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أرأيت يا محمد من اتخذ شهوته التي يهواها إلهاً له ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أأنت تكون حفيظاً على أفعاله مع عظيم جهله ؟ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم تحسب يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ، يسمعون فيعون ، أو يعقلون حجج الله فيفهمون ؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ بل هم أضل طريقاً من الأنعام ، لعدم طاعتهم لربهم وشكرهم لمن أنعم عليهم ، أما البهائم فتهتدي لمراعيها ، وتنقاد لراعيها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ألم تر يا محمد[1] كيف مد ربك الظلَّ ، بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ ولو شاء لجعله دائماً لا يزول ، ممدوداً لا تُنقصه الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ ثم دللناكم بنسخ الشمس له أَنَّ ربكم يوجده ويفنيه إذا أراد ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ ثم قبضنا ذلك الظل قبضاً خفياً ، شيئاً بعد شيء بالظلام الذي يعقبه[2] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ وهو الذي جعل لكم الليل ستراً تستترون به ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ وجعل لكم النوم

---

(١) لقد اعتبر الإمام الطبري الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ لأنه المتلقي له ، ولا شك أنه خطاب لأمته أيضاً ولكل سامع عاقل ، لأن الغرض منه التذكر والاعتبار بقدرة العزيز الجبار .

(٢) معنى الآية : ألم تر إلى عجيب صنع ربك ، كيف جعل الظلَّ ممتداً منبسطاً على الأجسام ، ولو شاء لجعله ساكناً لاصقاً بكل مُظل ، ثم جعلنا الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوء الشمس على الأجرام لما عُرف أن للظل وجوداً ، ثم أزلنا الظل يسيراً يسيراً لا دفعة واحدة ، فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل ، فالآية من أدلة التوحيد .

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا
خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي
كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ
وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾

***

راحة ، تستريح به أبدانكم ، وتهدأ به جوارحكم ﴿وجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ وجعل النهار يقظة وحياة ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ والله الذي أرسل الرياح الملقحة حياةً ، أمام الغيث الذي ينزله على عباده[1] . ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وأنزلنا من السحاب الذي أنشأناه ، ماء طاهراً مطهراً ﴿لِنُحيِيَ بِهِ بَلدَةً مَيْتاً﴾لنحيي بالمطر أرضاً قحطةلا تنبت ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ ونسقيه لمخلوقاتنا ، أنعاماً من البهائم ، وبشراً كثيرين هم في حاجة إليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد قسمنا هذا الماء بين العباد ، ليتذكروا نعمي عليهم ، ويشكروا إحساني إليهم ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ فأبى أكثرهم إلا جحوداً لنعمي عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ ولو شئنا لأرسلنا في كل مدينة من ينذرهم بأسنا ، ولكنّا كلفناك إنذارهم لتستوجب ما أعد الله لك من الكرامة ﴿فَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ﴾ فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ وجاهدهم بهذا القرآن جهاداً واسعاً ، حتى يذعنوا للعمل بما فيه طوعاً أو كرهاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ﴾ والله الذي خلط البحرين ، وأفاض أحدهما في الآخر ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا عذبٌ شديدُ العذوبة ، وهذا مرٌّ لا يشرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ وجعل بينهما حاجزاً يمنع من إفساد الآخر ، وجعل كل واحد منهما حراماً محرماً على صاحبه أن يغيره ويفسده ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ والله الذي خلق من النطفة إنساناً ، فقرب بينهم بالنسب والمصاهرة ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ وربك ذو قدرة على خلق ما يشاء ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويعبد المشركون من دون الله آلهة ، لا تجلب إليهم نفعاً إذا عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوها ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ وكان الكافر معيناً للشيطان على

(١) هذا التفسير عند ابن جرير على القراءة بالنون ، بينما هي « بشراً » بالباء ، ولم يشر ابن جرير إلى وجود قراءتين في هذا الحرف من القرآن ، ويكون تفسيرها على قراءة الباء « مبشرة بمجيء السحاب بعدها » .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ
قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ۞ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا
مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

***

ربه ، مظاهراً له على معصيته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالثواب الجزيل من آمن وصدق ، ونذيراً بالعذاب لمن كذب وتولى ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل لهؤلاء : ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به أجراً ، فتقولون إنما يطلب محمد أموالنا فلا نتبعه ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه طريقاً ، بإنفاقه في سبيل الخير ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وتوكل على ربك الذي له الحياة الدائمة ، فثق به ، وفوض إليه ، واستسلم له ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ واعبده شاكراً له على ما أنعم ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ وحسبك يا محمد بالحي خبيراً بذنوب خلقه ، لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيهم عليها ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وتوكل على الحي الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من الخلق من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ ثم علا على العرش الرحمن ، المتصف بالرحمة العامة لخلقه ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ فاسأل يا محمد الرحمن ، فإنه خبير بخلقه ، لا يخفى عليه ما خلق .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ وإذا قيل للمشركين : اجعلوا سجودكم لله خالصاً ، دون الآلهة والأوثان ﴿قَالُوا أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ قالوا : أنسجد لما تأمرنا يا محمد بالسجود له ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ وزادهم ما تدعوهم إليه فراراً ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ تقدس الرب الذي جعل في السماء قصوراً[1] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ وجعل في السماء شمساً ، وقمراً مضيئاً ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يخلف أحدهما صاحبه ، إذا ذهب هذا جاء الآخر ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ لمن أراد أن يتذكر أمر الله ، فينيب إلى الحق ، أو أراد شكر نعمة الله عليه .

---

(١) رجح الإمام ابن جرير ذلك لأنه يتمشى مع كلام العرب ، بينما رجح غيره أنها الكواكب العظام ، قال ابن كثير : اللهم إلا أن تكون الكواكب العظام قصوراً للحرس فيجتمع القولان . .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ
سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ
ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ
حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

* * *

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ وعباد الرحمن الذين يمشون في الأرض بالحلم والسكينة والوقار ﴿وَإِذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾ وإذا خاطبهم الجاهلون بما يكرهون ، أجابوهم بالمعروف والسداد من الخطاب ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ والذين يبيتون لربهم يصلون ، يراوحون بين سجود وقيام ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عقابه ، حذراً منه ووجلاً ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ إن عذاب جهنم كان عقاباً لازماً ، لا يفارق من عُذِّب به ﴿إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ ساءت جهنم منزلاً وإقامة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يجاوزوا الحد الذي أباحه الله لعباده ، ولم يقصروا عما أمر الله به ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ وكان إنفاقهم وسطاً معتدلاً ، لا مجاوزة فيه ولا تقصير ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ والذين لا يعبدون مع الله إلَهاً آخر ، ولكنهم يفردونه بالعبادة والطاعة ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ولا يقتلون نفساً حرَّم الله قتلها إلا بالحق ، إما بكفرٍ أو زناً أو قتل نفس ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ فيأتون ما حرم الله من الفروج ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ ومن يأت هذه الأفعال ، يلق عقوبة ونكالاً ﴿يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ يعاقب على الشرك والمعاصي ويبقى في العذاب إلى ما لا نهاية له ، مع الهوان والذلة ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ إلا من راجع طاعة الله ، وصدَّق بما جاء به محمد رسول الله ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾ وعمل بما أمره الله ، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فهؤلاء يبدّل الله أعمالهم السيئة[1] ، حسنات في الإسلام ، فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى عفةً وإحصاناً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعفو عن الذنوب ، ويرحم العباد بعد توبتهم .

(١) هذا التبديل إنما يكون في الدنيا ، يبدّل الله أعمالهم السيئة إلى أعمال حسنة ، وهذا ما رجحه الطبري وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد ، وقيل : التبديل في الآخرة يمحو الله ذنوبهم فيجعلها حسنات .

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

* * *

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ ومن تاب من المشركين فآمن بالله ، وعمل بما أمره الله ، فإن الله يفعل به مثل ذلك ، يقبل توبته ويمحو زلته ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل[١] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ والذين إذا مروا بالباطل فسمعوه ، مرُّوا معرضين عنه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ والذين إذا ذكَّرهم مذكّر بحجج الله ، لم يكونوا صُمّاً لا يسمعون وعُمياً لا يبصرون ، ولكنهم أيقاظ القلوب يفهمون ويعون ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ، فيقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرُّ به أعيننا ، يعملون بطاعتك ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ واجعلنا للذين يتقون معاصيك ، ويخافون عقابك ، إماماً يأتمون بنا في الخيرات ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ هؤلاء يثابون على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا ، منزلة من منازل الجنة رفيعة ، بصبرهم على هذه الأفعال ، ومقاساة شدتها ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ وتتلقاهم ملائكة الرحمن فيها بالتحية والسلام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثون في الغرفة إلى غير أمد ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ حسنت تلك الغرفة قراراً لهم ، ومكان إقامة ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : أي شيء يصنع بكم ربي ، ويَعُدُّكم لولا عبادة من يعبده منكم ، وطاعة من يطيعه منكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ فقد كذبتم أيها القوم رسولكم ، وخالفتم أمر ربكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ فسوف يكون هذا التكذيب عذاباً لكم ملازماً ، قتلاً بالسيوف ، وهلاكاً مضنياً

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

* * *

(١) قال أبو جعفر ـ رحمه الله تعالى ـ « وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته ، حتى يخيل إلى من يسمعه أنه خلاف ما هو به ، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله وهو باطل ، ويدخل فيه « الغناء » لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيع الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه « والكذب » ـ أيضاً ـ قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور ». اهـ


(٢٦) سورة الشعراء مكية
وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

***

﴿طسٓمٓ﴾[١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذه الآيات التي في السورة ، آياتُ الكتاب المنزل الى محمد ، الواضح لمن تدبره أنه من عند الله ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك ، إن لم يؤمن قومك بما جئتهم به[٢] ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ لو نشاء لأنزلنا آية ، تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فظلَّت أعناقُ المشركين ، ذليلة لتلك الآية ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ وما يجيء هؤلاء المشركين من تذكيرٍ من عند ربك ، دالٍ على صدقك ، مما يُحدثه الله إليك ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا أعرضوا عن استماعه ، وتركوا إعمال الفكر فيه ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذي جاءهم من عند الله ، فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون ، ويحل بهم عقاب الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أولم ير المشركون إلى الأرض ، كم أنبتنا فيها من كل صنف حسن ، بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إحياء الأرض ، لدلالة

---

(١) انظر الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة

(٢) هذه تسلية للرسول ﷺ في عدم إيمان قومه .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾

***

للمكذبين بالبعث على أن الذي أنبت الأرض لا يعجزه إحياء الأموات ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أكثرهم لا يؤمنون بك يا محمد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو العزيز في انتقامه ممن أراد عقوبته ، ذو الرحمة بمن تاب من خلقه .

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى ، أن ائت القوم الكافرين ﴿قَومَ فِرْعَونَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فقل لهم : ألا يتقون عقاب الله على كفرهم به ؟ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال موسى يا رب : إني أخاف أن يكذبوني بقولي لهم : إنك أرسلتني إليهم ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بالعبارة للعلة التي بلساني ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَٰرُونَ﴾ فاجعل أخي رسولاً معي ليعينني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ ولقوم فرعون عليَّ دعوى قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ فأخاف أن يقتلون قصاصاً بالنفس التي قتلتها ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ قال الرب سبحانه : لن يقتلك فرعون ، فاذهب أنت وأخوك بحججنا التي أعطيناك ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ما يجيبكم به قوم فرعون ﴿فَأْتِيَا فِرْعَونَ﴾ فأت أنت يا موسى وأخوك هرون فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقولا إنا أُرسلنا إليك من رب العالمين ، بأن ترسل معنا بني إسرائيل ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ في الكلام محذوف أي فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة الله ، فقال فرعون لموسى : ألم نربّك صغيراً في بيتنا وعلى فراشنا ، ومكثت عندنا مدة من السنين !! ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقتلت النفس من القبط ، وأنت من الكافرين نعمتنا عليك ، وإحساننا إليك ، فهذا الذي كافأتنا به أن قتلت منا نفساً ، وكفرت نعمتنا[1] ؟! ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال موسى : قتلت تلك النفس ، وأنا من الجاهلين ، قبل أن يأتيني

---

(١) ليس المراد من الكفر جحود وحدانية الله ، فإن فرعون ما كان مؤمناً بالله ، حتى يعيِّر موسى بالكفر ، وإنما مراده كفر النعمة والإحسان كما قال الطبري .

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾

***

الوحي[1] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ ففررت منكم لمَّا خفت أن تقتلوني بالقتيل ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ فوهب لي ربي النبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وألحقني في عداد رسله إلى خلقه .

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهل هذه نعمة تمنُّ بها عليَّ ، أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً لك[2] ، وتركتني فلم تستعبدني ؟! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال فرعون : وأيُّ شيء ربُّ العالمين ؟! ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قال موسى : هو مالك السموات والأرض ، ومالك ما بينهما من شيء ﴿إن كنتم مُوقِنِينَ﴾ إن كنتم موقنين بما تعاينونه ، فأيقنوا بوجود الله ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ قال فرعون لقومه : ألا تستمعون لما يقول موسى ؟ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ قال موسى لهم : الذي دعوتكم إلى عبادته ، هو ربكم الذي خلقكم ، وخلق آباءكم الأولين ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيكُم لَمَجْنُونٌ﴾ قال فرعون : إن رسولكم هذا ، الذي يزعم أنه أرسل إليكم مجنونٌ ، قد غُلب على عقله ، لأنه يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قال موسى : الذي أدعوكم إلى عبادته هو ربُّ المشرق والمغرب ، أي ملك مشرق الشمس ومغربها ، وما بينهما من شيء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقول تعقلون بها ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ قال فرعون : لئن أقررت بمعبودٍ سواي ، لأسجننك مع من في السجن ﴿قَالَ أَوَلَو جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ قال : أتسجنني ولوجئتك بشيء يظهر لك صدق ما أقول ؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال فرعون : فأت بالشيء المبين ، إن كنت صادقاً فيما تخبر وتقول .

---

(١) أي قبل أن ينعم الله عليَّ بالنبوة والرسالة .

(٢) غرض موسى التهكم والإستهزاء بفرعون ، يقول له : تجعل بني إسرائيل عبيداً لك ، ثم تمتنُّ عليَّ بذلك ؟ فهذه نقمة وليست نعمة .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ

***

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ فألقى موسى عصاه ، فتحولت ثعباناً واضحاً لمن يراه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ وأخرج يده من جيبه ، فإذا هي بيضاء تلمع لمن يراها ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه : إن موسى لذو علم بالسحر ، وبصرٍ به ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر بالسحر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فما تشيرون به من الرأي فيه ؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ قالوا : أَنْظِر موسى وأخاه ، وابعث في بلادك ، يجمعون لك كل عليم بالسحر . ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوم مَعْلُومٍ﴾ فجمع الملأ السحرة ، للوقت الذي واعد فيه فرعون موسى ، للاجتماع من يوم الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ودُعي الناس للاجتماع ، لينظروا لمن تكون الغلبة ؟ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ كي نتبع السحرة إن غلبوا موسى .

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَونَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فلما جاء السحرة للموعد قالوا لفرعون : ستعطينا أجر سحرنا إن غلبنا موسى ؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قال فرعون : نعم لكم الأجر ، وإنكم لمن المقربين منا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فقال السحرة لموسى : إما أن تلقي أو نكون نحن الملقين قبلك ، فقال لهم موسى : ألقوا ما تريدون إلقاءه ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فألقى السحرة حبالهم وعصيهم من أيديهم ، وأقسموا بقوة فرعون ، وشدة سلطانه ، إنا لنحن الغالبون لموسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فألقى موسى عصاه ، فإذا عصاه تزدرد[١] ما يأتون به من الفرية ، والسحر الخادع ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ

---

(١) اي تبتلع .

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾
* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

***

سَاجِدِينَ﴾ فخرَّ السحرة لوجوههم سجَّداً للهِ ، مذعنين له بالطاعة **﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهْرُونَ﴾** قائلين : آمنا برب العالمين ، الذي دعانا موسى إلى عبادته .

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة : آمنتم أن ما جاء به موسى حقٌّ ، قبل أن آذن لكم في الإيمان به ؟ **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾** إن موسى لرئيسكم في السحر **﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** عقابي لكم وبال ما فعلتم **﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾** مخالفاً في قطع ذلك منكم بأن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى **﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** غير مستبقٍ منكم أحداً **﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾** قالوا : لا ضرر علينا من فعلك ، إنا راجعون إلى ربنا ، وهو مجازينا على صبرنا **﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ﴾** إنا نرجو أن يصفح ربنا عن خطايانا فلا يعاقبنا بها ، لأن كنا أول من صدَّق بموسى ، وبما جاء به من توحيد الله **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾** وأوحينا إلى موسى : أن سِرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ، إن فرعون وجنوده متَّبعوك وقومك ، ليحولوا بين خروجكم من أرضهم .

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فأرسل فرعون في البلاد من يجمع له جنده ، ويقول لهم : إن بني إسرائيل لطائفة قليلة(١) **﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾** وإن هؤلاء الشرذمة لغائظون لنا بأخذهم الحليّ ورحيلهم **﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾** وإنا ذو قوة وسلاح ، قد جمعنا أمرنا(٢) **﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾** فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء ،

---

(١) قال مجاهد : كان بنو إسرائيل يومئذٍ ستمائة ألف ، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون .

(٢) قرىء « حَاذِرون » أي كاملو السلاح مجمعون لأمرنا ، وقرىء « حَذِرون » أي متيقظون متنبهون .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾

***

وكنوز ذهب وفضة ، ومقامٍ كريم قيل هي المنابر[1] ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهكذا أخرجناهم مما وصفنا ، وأورثنا تلك الجنات بهلاكهم بني إسرائيل ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فلحقوهم حين أشرقت الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فلما تناظر جمع موسى وجمع فرعون ، ورأوا بعضهم ، قال بنو إسرائيل : الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى ليس الأمر كما ذكرتم ، فلن تُدركوا ، إن معي ربي سيهديني لطريق النجاة من فرعون ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ فكان كل طائفة[2] من البحر ـ لما ضربه موسى ـ كالجبل العظيم ، انفلق اثنتي عشرة فلقة ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ وقربنا هنالك آل فرعون من البحر ، وأغرقناهم فيه

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وأنجينا موسى ومن معه من بني إسرائيل من الغرق ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أغرقنا آل فرعون وقومه من القبط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن فيما فعلت بفرعون وقومه ، لدلالة بينة لقريش ، على أن ذلك سنتي فيمن كذب رسلي ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر قومك يا محمد بمصدقين ، بما جاءك من الحق المبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه ممن كفر به ، الرحيم برسله .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ واقصص على قومك خبر إبراهيم[3] ، حين قال لأبيه وقومه ، أيَّ شيءٍ تعبدون[4] ؟! ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ قالوا : نعبد أوثاناً

---

(١) هكذا فسر الطبري المقام الكريم بقوله : قيل هي المنابر ، وهو قول الضحاك ، والراجح أنها المنازل الحسنة والمجالس البهية وهو قول جمهور المفسرين .

(٢) الفِرقُ في اللغة : الجزءُ والطائفة .

(٣) هذه هي القصة الثانية من قصص الأنبياء في هذه السورة ، وهي قصة الخليل إبراهيم عليه السلام

(٤) كان يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم للإلزام والتبكيت .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾
قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى
فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ
صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى
يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

***

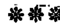
فنظل لها خدماً ، مقيمين على عبادتها وخدمتها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال إبراهيم لهم : هل تسمع الآلهة دعاءكم حين تدعونهم ؟ ﴿أَو يَنْفَعُونَكُمْ أَو يَضُرُّونَ﴾ أو تنفعكم هذه الأصنام ، فيرزقونكم على عبادتكم إياها ، أو يعاقبونكم على ترككم عبادتها ؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قالوا : ما ينفعوننا ، بل وجدنا آباءنا يعبدونها فنحن نقتدي بهم ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وآبـاؤُكُـم الأَقدَمُونَ . فَإِنَّهُم عَدُوٌ لي إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ قال : أرأيتم أيها القوم كل معبود لكم ولآبائكم ، فإني منه بريءٌ لا أعبده ، غير رب العالمين[١] ﴿الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الذي خلقني وهو يهديني للصواب، ويسددني للرشاد ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ والذي يغذوني بالطعام والشراب ، ويرزقني الأرزاق المختلفة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وإذا سقم جسمي واعتلَّ ، فهو يبرئه ويعافيه[٢] ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ والذي يميتني إذا شاء ، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ والذي أرجو أن يستر لي خطئي يوم الحساب .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ هب لي نبوة واجعلني رسولاً إلى خلقك ، لأكون ممن اصطفيته لنفسك ، وائتمنته على وحيك ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ واجعل لي ذِكْراً جميلاً ، وثناء حسناً باقياً ، فيمن يجيء بعدي[٣] ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ وأورثني يا رب منازل الجنة ، واسكني فيها ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ واصفح لأبي ولا تعاقبه ، إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى[٤] ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تذلني بعقابك ، يوم تبعث عبادك لموقف القيامة .

---

(١) ﴿إلا ربَّ العالمين﴾ هذا من الاستثناء المنقطع أي لكنْ رب العالمين حبيبٌ لي فأنا أعبده .
(٢) لم يقل « وإذا أمرضني فهو يشفين » رعايةً للأدب في مقام المدح والثناء والتذكير بالنعم .
(٣) أعطاه الله ذلك فإن جميع أهل الأديان يحبونه ويعظمونه ويدَّعون متابعته ، ولم يصدق في ذلك إلا المسلمون .
(٤) إنما استغفر إبراهيم لأبيه طمعاً في إيمانه ، لأنه كان قد وعده بذلك كما قال تعالى ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ =

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟
فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾



﴿يَومَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يوم لا ينفع من كفر بك وعصاك ، مالٌ ولا أبناء ، فيدفعون عنه عقاب الله **﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** لا ينفع إلا القلب السليم من الشك في توحيد الله[١] **﴿وَأُزْلِفَت الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** وقُرِّبت الجنة للذين اتقوا عقاب الله ، بطاعتهم إياه في الدنيا **﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾** وأُظهرت النار للذين غوَوا ، فضلوا عن سواء السبيل **﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** وقيل للغاوين : أين الأنداد الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ **﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾** هل ينقذونكم اليوم من عذاب الله ؟ أو ينتصرون لأنفسهم فينجونها مما يراد بها ؟ **﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ﴾** فرُمي ببعضهم على بعض في الجحيم ، منكبين على وجوههم **﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾** وجنودُ إبليس الذين تبعوه من ذريته[٢]

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال أهل جهنم وهم يختصمون فيها : والله لقد كنا في ذهاب عن الحق ، ظاهر لمن تأمله أنه باطل **﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾** حين نعدِلكم بالله ، فنعبدكم من دونه **﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا المُجْرِمُونَ﴾** وما أضلنا عن الحق إلا إبليس ، وابن آدم الذي سنَّ القتل[٣] **﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾** فليس لنا شافع يشفع لنا عند الله ، فيعفو عنا **﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾** ولا نسيب من الأقارب **﴿فَلَو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾** فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا ، فنؤمن بالله **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن فيما احتج به إبراهيم على قومه ، لدلالةً واضحة لمن اعتبر وما كان

= وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه ﴾ وهذا هو الصحيح في استغفار الخليل لأبيه المشرك .

(١) قال مجاهد : سليم من الشك في الحق ، وقال قتادة : سليم من الشرك

(٢) المراد أتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن .

(٣) قصره الطبري على هذا ، ولا شك أن الآية الكريمة تشمل كل مجرمٍ ، يمنع من فعل الخير ، ويشجّع الشر وينشره ، ويُيَسِّر سبله في الأرض .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا

***

أكثر الناس في سابق علم الله مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ شديد العقاب بمن كفر به ، الرحيم بمن تاب من عباده . ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ﴾ كذَّب قوم نوح رسل الله[١]

﴿إِذْقَالَ لَهُمْ أَخُوهُم نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ لمَّا قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ربكم ، فتحذروا عقابه على كفركم وتكذيبكم لرسله ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أمينٌ على وحيه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله ، وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما أطلب على نصيحتي لكم ثواباً ولا جزاء ، ما أجري إلا على رب العالمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله على تكذيبكم لرسله ، وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ قالوا أنقرُّ بتصديقك فيما تدعونا إليه ، وإنما اتبعك الأرذلون[٢] دون ذوي الشرف ؟ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال : إني لم أُكلَّف علم باطنهم ، وإنما كُلِّفت الظاهر ، فمن أظهر لنا حسناً قبلناه ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ ما حساب باطن أمرهم إلا على ربي ، لو تشعرون فإنه يعلم سر أمرهم وعلانيته ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ﴾ وما أنا بطارد من آمن بالله ، واتبعني بما جئت به من عند الله ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما أنا إلا نذير ، أبيّن لكم إنذاري ، ولا أكتمكم نصيحتي ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ قال قوم نوح : لئن لم تكفَّ يا نوح عن عيب آلهتنا لنشتمنَّك[٣] ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ كذبوني فيما أتيتهم به من الحق ، وردُّوا علي نصيحتي ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ

---

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء وهي قصة نوح عليه السلام ، وإنما قال « المرسلين » بالجمع لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل .

(٢) مرادهم اتبعك الفقراء والضعفاء والسَّفلة .

(٣) الإمام ابن جرير يفسر الرجم دائماً بالشتم ، لا بالرجم بالحجارة ، والصحيحُ قول المفسرين أن المراد به الرجم بالحجارة ، فهو تهديدٌ له بالقتل .

وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾

***

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فاحكم بيني وبين قومي حكماً من عندك ، تهلك به المبطل ، وتنتقم به ممن كفر بك ، ونجني من ذلك العذاب ، ومن معي من أهل الإيمان ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ فأنجينا نوحاً ومن معه في السفينة المملوءة ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ﴾ من قومه الذين كذبوه ﴿إِنَّ فِي ذلكَ لآيَةً﴾ إن فيما فعلنا بنوح ومن معه ، لآيةً على سنتنا في تنجية رسلنا وأتباعهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يكن أكثر قومك بمصدقين ، فقد سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الرحيم بالتائب منهم بعد توبته .

﴿كَذَّبَتْ عَادُ المُرْسَلِينَ﴾ كذبت عادٌ رسل الله [1] إليهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ حين قال لهم هود : ألا تتَّقون عقاب الله على كفركم به ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إني لكم رسول من ربي ، أمينٌ على وحيه ورسالته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا الله بطاعته ، وأطيعوني فيما آمركم به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عليه مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على أمري لكم بتقوى الله ، جزاءً ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ما جزائي على نصيحتي لكم إلا على الله ﴿أتبنون بكل رِيع آية تعبثون﴾ أتبنون بكل مكان مشرفٍ بنياناً تلعبون[2] ؟ ! ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وتتخذون قصوراً وحصوناً مشيَّدة ، كأنكم تبقون في الأرض وتخلدون ؟ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وإذا سطوتم على أحد فعلتم فعل الجبارين ، قتلاً بالسيوف ، وضرباً بالسياط ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله بطاعتكم إياه ، وانتهوا عن اللهو ، واللعب ، وظلم الناس ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وأعطاكم وأعانكم به من

(١) هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « هود » عليه السلام ، وقد أسلفنا أن تكذيب رسولٍ هو تكذيب لجميع الرسل .

(٢) قال ابن كثير : كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً ، لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة .

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا
خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾

***

المواشي ، والبنين ، والبساتين ، والأنهار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخاف أن تذوقوا عذاب يوم هائل .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ﴾ قالوا : يستوي عندنا وعظك إيانا ، وتركك الوعظ[١] ، فلن نصدّقك على ما جئتنا به ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ما هذا الذي نفعله ، إلّا عادة الأولين قبلنا ، وما الله معذبنا عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فكذبت عاد رسولهم هوداً ، فأهلكناهم بتكذيبهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إهلاكنا لهم ، لعبرةً وموعظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر من أهلكنا ، بالذين يؤمنون في سابق علمنا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بالمؤمنين .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كذبت ثمود رسل الله[٢] ، حين دعاهم صالح إلى الله ، فقال لهم : ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم إياه ؟! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إني لكم رسول من الله ، أحذركم عقوبته ، وأنا أمين على رسالته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا ربكم ، واحذروا عقابه ، وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم جزاء ولا ثواباً على نصحي ﴿إِنْ أَجْرِيَ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ما جزائي وثوابي إلا على رب جميع الخلق ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ﴾ أيترككم ربكم في هذه الدنيا ، لا تخافون شيئاً ؟ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ متنعمين في بساتين ، وعيون ماء ، وزروع مختلفة ، ونخل طلعها يتكسر من لينه ورطوبته[٣] ؟

---

(١) جعلوا نصحه لهم وعظاً على سبيل الاستخفاف ، إذ لم يكترثوا بنصحه وإرشاده .

(٢) هذه هي القصة الخامسة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « صالح » عليه السلام مع ثمود .

(٣) كانت أرض ثمود كثيرة الحدائق والبساتين ، والماء والنخيل ، فذكّرهم صالح بنعم الله الجليلة عليهم ليشكروا ربهم ، ومعنى « الهضيم » الرطب الليّن ، وقيل : هو اليانع النضيج .

وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾

***

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ وتتخذون بيوتكم من الجبال ، حاذقين بالنحت[1] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله ، وأطيعوني في نصيحتي ترشدوا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمرَ المُسْرِفِينَ﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين في معصية الله

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الرهط التسعة ، الذين يسعون في أرض الله بمعاصيه ، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعة الله ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ قالوا : إنما أنت من المخلوقين[2] الذين يُعلَّلون بالطعام والشراب مثلنا ، ولست رباً ولا ملكاً فنطيعك ، ونصدقك فيما تقول ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ما أنت يا صالح إلا من البشر مثلنا تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأت بدلالة وحجة على أنك محقٌ وأنك رسولٌ إلينا ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَومٍ مَعْلُومٍ﴾ قال صالح هذه ناقةٌ أخرجها الله لكم من صخرة ، لها حظٌ من الماء ولكم مثله ، لا تشرب في يومكم ، ولا تشربون في يومها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ ولا تمسوها بما يؤذيها ، فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فخالفوا الأمر وعقروا الناقة ، فأصبحوا نادمين على قتلها ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ﴾ فأخذهم عذاب الله فأهلكهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إهلاكهم لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولن يؤمن أكثر قومك ، في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بمن آمن به من خلقه

﴿كَذَّبَتْ قَومُ لُوطٍ المُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كذبت قوم لوط[3] رسولهم ،

---

(١) هذا على قراءة « فارهين » وقرىء « فرهين » أي أشرين بطرين ومعنى الآية : تبنون بيوتاً في الجبال أشرين بطرين من غير حاجة لسكانها ؟

(٢) هكذا فسّر الطبري « المسحَّرين » بالمخلوقين الذين يأكلون ويشربون ، من السَّحر بمعنى الرئة ، والراجح أن المعنى من المسحورين الذين سُحروا حتى غلب على عقولهم ، والمسحَّر مبالغة من المسحور .

(٣) هذه هي القصة السادسة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « لوط » عليه السلام .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ
لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

***

حين قال لهم لوط : ألا تتقون الله أيها القوم ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إني لكم رسول من ربكم ، أمينٌ على وحيه ، فاتقوا الله أن يحل بكم عقابه ، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على نصيحتي جزاءً ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما جزائي على دعوتكم ونصحي لكم ، إلاّ على الله رب العالمين ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أتنكحون الذكور من بني آدم في أدبارهم ؟ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وتَدَعُون الذي خلق لكم ربكم ، وأحلَّه لكم من فروج أزواجكم[1] ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ بل أنتم قومٌ معتدون ، تتجاوزون المباح إلى المحرَّم !!

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ قالوا لئن لم تكفَّ يا لوط عن نهينا لنخرجنك من بلدنا ﴿قَالَ : إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قال : إني لعملكم هذا من المبغضين المنكرين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ رب أنقذني وأهلي من عقوبتك لهم على ما يعملون ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ فنجيناه وأهله من عقوبتنا ، إلا عجوزاً هرمة أهلكت من بين أهل لوط ، لأنها كانت تدل قومها على الأضياف ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أهلكنا الآخرين بالتدمير ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ وأرسلنا عليهم حجارة من سجيل كالمطر ، فبئس ذلك مطر القوم الذي أنذرهم نبيهم فكذبوه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في إهلاكنا قوم لوط ، لعبرة لقومك يا محمد يتعظون بها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه ، الرحيمُ بمن آمن به .

(١) قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال !! أقول : وفي الآية أبلغ الزجر والتوبيخ لهم ، كأنه يقول : خرجتم أيها القوم بفعلكم هذا عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية ، فالذكر من الحيوان يستنكف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ، فأنتم أحطُّ مرتبة من الحيوان .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ
رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا

***

﴿كَذَّبَ أَصحَاب لَئيْكَةِ المُرْسَلِينَ إذ قَال لَهُم شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ كذَّب أهل مدين[١] المرسلين ، حين قال لهم شعيب : ألا تتقون عقاب الله ، على معصيتكم ربكم ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إني رسول لكم من الله ، أمين على وحيه ، فاتقوا الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما أسألكم على نصحي لكم جزاء ولاثواباً،فما جزائي إلا على الله رب العالمين ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ﴾ أوفوا الناس حقوقهم في الكيل ، ولا تكونوا ممن ينقص حقوق الناس ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ﴾ وزنوا بالميزان المستقيم الذي لا بخس فيه ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تكثروا في الأرض الفساد ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ واتقوا عقاب ربكم ، الذي خلقكم وخلق الخلق الأولين ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ قالوا : إنما أنت يا شعيب بشرٌ ، تُعلَّل بالطعام والشراب مثلنا ، ولست مَلَكاً[٢] ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ وما أنت إلَّا بشر مثلنا تأكل وتشرب ، وما نحسبك فيما تخبرنا به إلا ممن يكذب في قوله ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن كنت صادقاً في أنك رسول الله ، فأسقط علينا قِطَعاً من السماء ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال شعيب : ربي بأعمالكم محيطٌ ، لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيكم بها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَومِ الظُّلَّةِ﴾ فكذبه قومه ، فأخذهم عذاب يوم السحابة التي أحرقتهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يومٍ عَظِيمٍ﴾ إن عذاب ذلك اليوم ، كان عظيماً على قوم شعيب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ

(١) الأيكة : الشجر الكثير الملتف ، وهؤلاء هم أهل مدين قوم شعيب ، وهذه هي القصة السابعة في هذه السورة الكريمة . وهي آخر قصة من قصص الأنبياء التي ذكرت تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام .

(٢) هكذا فسَّره الطبري ، وقد قدَّمنا أن ما اختاره الطبري قول مرجوحٌ ، والصحيح أن معناه : ما أنت إلا من المسحورين الذين سحروا فغلبوا على عقلهم ، وهو رأي الجمهور .

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ
يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن
مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

***

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن في تعذيبنا قوم شعيب ، لعبرة لمن اعتبر ، وما كان أكثرهم مؤمنين في سابق علمنا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن تاب من خلقه .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وإن هذا القرآن ، نزّله عليك يا محمد ربُّ العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ على قلبك﴾ نزل به جبريل فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ لتكون من رسل الله فتنذر قومك ، بلسان عربي واضح ، يبين لمن سمعه أنه عربي ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ وإن ذكر هذا القرآن وخبره ، في بعض ما نزل من الكتب على رسل الله ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أو لم يكن لهؤلاء المعرضين ، دلالة على أنك رسول رب العالمين ، أن يعلم صحته علماء بني إسرائيل ؟ ﴿وَلَو نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ولو نزّلنا هذا القرآن على بعض من لا يفصح بلسانه ، فقرأه على كفار قومك ، لم يكونوا ليؤمنوا به ، لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء[1]

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ، ترك الإيمان بهذا القرآن ، لئلا يصدقوا به حتى يروا العذاب الأليم في الدنيا ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فيأتيهم العذاب فجأة ، وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ فيقولوا : هل نحن مؤخرٌ عنا العذاب ، لنتوب ونؤمن ؟ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أفيستعجلون عذابنا بقولهم : لن نؤمن لك حتى تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أفرأيت إن أحييناهم سنين ،ثم جاءهم العذاب الذي كانوا يوعدون به ؟

(١) قال ابن جرير : وهذا تسلية من الله الى نبيه محمد ﷺ عن قومه لئلا يشتد وجده بإدبارهم عنه ،وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن ، لأنه كان ﷺ شديداً حرصه على قبولهم منه ، والدخول فيما دعاهم إليه .

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾

***

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أيُّ شيء أغنى عنهم التأخير والمتاع هل زادهم تمتيعنا إلا إثماً وإجراماً ؟ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ وما أهلكنا أمة من الأمم إلا بعد أن أرسلنا إليهم رسلاً ، ينذرونهم بأسنا على كفرهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تنبيهاً لهم ، وتذكيراً على ما فيه النجاة ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وما كنا ظالمين لهم بتعذيبنا إياهم ، لأنه حل بهم بعد الإعذار إليهم ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن ، ولا يصلح لهم ذلك ولا يستطيعونه ﴿إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إن الشياطين لممنوعون عن سماع القرآن في السماء ، فكيف يستطيعون التنزل به ؟ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ فلا تعبد مع الله معبوداً غيره ، فينزل بك من العذاب ما نزل بالمكذبين [١] ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وحذِّر عشيرتك الأقربين إليك من عذابنا ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وألن جانبك وكلامك ، لأتباعك المؤمنين ﴿فَإِنْ عَصَوكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإن عصتك عشيرتك ، فقل لهم : إني بريء من عملكم .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وتوكل على القويّ العزيز في نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن أناب إليه ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك ، ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك ، حين تقوم وتركع وتسجد [٢] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إن ربك هو السميع لتلاوتك وذكرك ، العليمُ بما تعمل أنت ومن معك ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هل أخبركم على من تتنزّل الشياطين من الناس ؟ ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ تتنزّل على كل كذابٍ ، بهّاتٍ ، آثم

---

(١) هذا من باب التحذير للأمة من الشرك ، قال ابن عباس : يُحذِّر به غيره يقول : أنتَ أكرم الخلق عليَّ ، ولو اتخذت من دوني إلٰهاً لعذبتك . اهـ من صفوة التفاسير ٢ / ٣٩٦ .

(٢) المراد أنه تعالى يراك وحدك ويراك في الجماعة .

يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

***

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يلقي الشياطين ما يسمعون مما استرقوا سمعه ، إلى أوليائهم من بني آدم ، وأكثر هؤلاء كاذبون في خبرهم ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ والشعراء يتبعهم غواة الناس ومردة الشياطين ، لا أهل الرشاد والهدى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أن الشعراء[١] يذهبون في كل واد ، كالهائم على وجهه على غير قصد ، فيمدحون بالباطل قوماً ، ويهجون آخرين بالكذب والزور ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ وأن أكثر قولهم كذبٌ وباطلٌ ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلا شعراء رسول الله ﷺ ، ومن كان بالصفة التي وصفه الله بها ، من الإيمان ، والعمل الصالح ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ وهم يذكرون الله كثيراً في كل أحوالهم ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وانتصروا بشعرهم ممن هجاهم من شعراء المشركين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وسيعلم الذين ظلموا بإشراكهم بالله ، أيَّ معادٍ وأيَّ مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم ، فإنهم يصيرون إلى نار لا يطفأ سعيرها ، ولا يسكن لهبها[٢] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »

* * *

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الذم في شعراء المشركين ، والصحيح أنه عامٌ في جميع الشعراء بدليل الاستثناء ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

(٢) هذا وعيدٌ عامٌ في كل ظالم ، تتفتّت له الأكباد وتتصدع له القلوب ، أجارنا الله من الظلم والظالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

* * *

﴿طسٓ. تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هذه الآيات[1] التي أنزلتها إليك يا محمد ، آيات القرآن وكتابٍ واضح ، يُبين لمن تدبره وفكر فيه ، أنه من عند الله ﴿هُدَىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ من الله لطريق الحق والرشاد، وبشارةٌ لمن آمن به بالفوز العظيم في المعاد ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هدى وبشارة لمن أقام الصلاة بحدودها ، وأدى الزكاة[2] المفروضة عليه ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهم بالمعاد بعد الممات يوقنون ، رجاء ثواب الله الجزيل ، وخوف عقابه العظيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ حبَّبنا إليهم قبيح أعمالهم ، وسهَّلنا ذلك عليهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى ، يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ هؤلاء لهم سوءالعذاب في الدنيا ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ وهم يوم القيامة الأخسرون تجارةً ، باشترائهم الضلالةَ بالهدى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ وإنك يا محمد لتُعلَّمُ القرآنَ وتُحفَّظه ، من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم

(١) تقدم القول على الحروف المقطعة في أوائل السور ، والرأيُ الراجح فيها أنها لبيان إعجاز القرآن .

(٢) هذا هو الراجح من معنى الزكاة ، وقال الطبري : وقيل معناه يطهرون أجسادهم من دنس المعاصي .

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

* * *

بمصالحهم ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ حين قال موسى[١] لأهله ، وهو في مسيره من مدين إلى مصر ـ وقد آذاهم البردُ ـ إني أبصرت ناراً ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَو آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فامكثوا مكانكم سآتيكم من النار بخبر ، أو آتيكم بشعلة نار أقتبسها منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ كي تستدفئوا بها من البرد ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَولَهَا﴾ فلما جاء موسى النار ، نودي أن قُدِّس من في النار[٢] ، ومن حول النار ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وتنزيهاً لله رب العالمين ، ممَّا يصفه به الظالمون.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ يا موسى إنه أنا الله ، العزيزُ في نقمته من أعدائه ، الحكيمُ في تدبير خلقه ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال له ربه : وألق عصاك ، فألقاها فصارت حية ﴿فَلَمَّا رآها تهتز كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فلما رآها تهتز كحيةٍ عظيمة ، ولَّى موسى هارباً خوفاً منها ولم يرجع[٣] ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنَّهُ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يا موسى لا تخف من هذه الحية ، إني لا يخاف عندي رسلي وأنبيائي ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ إلَّا من ظلم منهم ، فعمل بغير الذي أُذن له ، ثم تاب من بعد إساءته ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإني ساترٌ على ذنبه ، بعفوي عنه وتركِ عقوبته ، رحيمٌ به ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأدخل كفك في جيبك[٤] ، تخرج اليد بيضاء بغير لون جلدك ، من غير برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ هي آيةٌ من آياتٍ تسعٍ[٥] ، مرسلٌ أنت بهن إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً فَاسِقِينَ﴾

(١) هذه هي القصة الأولى من قصص الأنبياء في هذه السورة وهي قصة موسى عليه السلام .

(٢) المراد بمن في النار موسى ، ومن حولها الأنبياء الأطهار ، وفيه تبشيرٌ لموسى وتأنيس له استعداداً للمناجاة .

(٣) معنى « ولم يعقّب » أي لم يلتفت ولم يرجع .

(٤) الجيبُ : فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس ، وليس الجيب المعروف في الاصطلاح .

(٥) الآيات التسع يراد بها : اليد ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس على الأموال ، والحجر الذي كان يضرب عليه موسى ، وهي التي ذكرت في سورة الأعراف .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

* * *

كافرين بالله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فلما جاءتهم أدلتنا وحججنا الواضحة ، قالوا : هذا الذي جاءنا به موسى سحرٌ ظاهرٌ ، يبين للناظرين أنه سحر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ وكذَّبوا بالآيات التسع ، وقد علموا يقيناً أنها من عند الله ، فعاندوا بها اعتداء وتكبراً على الحق ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، كيف كان عاقبة تكذيب هؤلاء الجاحدين ؟ .

﴿وَلَقَد آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ ولقد أعطينا داود وسليمان ، علم كلام الطير والدواب ، وغير ذلك مما خصصناهم بعلمه ﴿وَقَالاَ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال داود وسليمان : الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين ، بما خصَّنا به من العلم ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وورث سليمان[1] أباه « داود » في العلمِ والملك ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ وقال سليمان يا أيها الناس : فهَّمنا ربنا كلام الطير ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ووهب لنا كل شيء من الخيرات ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ أن هذا العطاء لهو الفضل الواضح ، الذي فضّلنا الله به ، على جميع أهل دهرنا ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ وجُمع لسليمان جنوده من جميع الأجناس في مسيرٍ لهم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فهم يُكفُّون لئلا يتقدموا في المسير ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ﴾ حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادِ للنمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ قالت نملةٌ : التجئوا إلى بيوتكم ، لا يقتلنَّكم سليمان وجنوده بأقدامهم ، وهم لا يعلمون بكم ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ فتبسم سليمان ضاحكاً من قول النملة ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ

(١) هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء وهي قصة « سليمان » عليه السلام .

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

* * *

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ قال : رب ألهمني شكر نعمتك ، وأن أعمل بطاعتك وبما ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخلني في الجنة مع عبادك الصالحين ، الذين اخترتهم لرسالتك

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ﴾ وتفقد سليمان أنواع الطير فقال : ما الذي جعلني لا أرى الهدهد ؟ أأخطأه بصري فلا أراه وقد حضر ؟ أَمْ هو غائب لم يحضر ؟﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ فلما أخبر أنه غائب أقسم سليمان ليعذبنَّ الهدهد عذاباً شديداً أو ليقتلنه ﴿أولَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أوليأتيني بحجة واضحة ، تُبين لسامعها صحتها ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فمكث سليمان غير طويل ، حتى جاء الهدهد ، فسأله سليمان عن تخلفه وغيبته ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بما لَم تُحِطْ بِهِ﴾ فقال : أحطت بعلم لم تحط به أنت ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وجئتك من سبأ بخبر يقين[١] ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إني وجدت امرأة تملك سبأ ، وقد أوتيت كل شيءٍ في الدنيا من العتاد والآلة ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولها كرسي[٢] عظيمٌ قدرُه و﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وجدتُ هذه المرأة وقومَها ، يعبدون الشمس فيسجدون لها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وحسَّن لهم إبليس عبادتهم هذه ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحقّ ، فهم لا يهتدون له ولا يسلكونه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ زيَّن لهمُ الشيطان

---

(١) قال الطبري وإنما صار هذا الخبر عذراً للهدهد ، لأن سليمان كان رجلاً حبب إليه الجهاد والغزو ، فلما دله الهدهد على قوم كفرة يعبدون غير الله ، له الأجر الجزيل في جهادهم ، حقت للهدهد المعذرة ، وصحت له الحجة في غيابه .

(٢) تفسير الطبري للعرش بالكرسي غريب ، والراجح أن المراد به السرير العظيم المرصّع باللؤلو والجوهر ، وهو قول الجمهور ، وقد نقل الطبري عن ابن عباس أنه قال : عرشها سريرٌ من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ وهذا هو الأرجح .

تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ
إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ

* * *

أعمالهم ، لئلا يسجدوا لله(١) ، الذي يخرج المخبوء في السموات والأرض ، من الغيث والنبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم السر من أمور خلقه والعلانية

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الله الذي لا معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلَّا له ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ مالك العرش العظيم ، الذي كل عرش ـ وإن عَظُم ـ فدونه ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ قال سليمان للهدهد : سننظر فيما جئتنا به من الخبر ، أصدقتَ فيه أم أنت كاذب ؟ ﴿إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَـذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِـمْ ثُـمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ خـذ كتابي هذا ، واذهب فألقه إلى مِلكتهم ، وكن قريباً منهم فانظر ماذا يردُّون من الجواب ؟ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ قالت ملكة (٢) سبأ لأشراف قومها : يا أيها القوم لقد أُلقي إلي كتابٌ كريم من مَلِكٍ عظيم ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا الكتاب من سليمان ، ومبدوءٌ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلَـوْا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن لا تتكبروا عما دعوتكم إليه ، وأقبلوا إليَّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليَّ في الأمر ، الذي قد حضرني من صاحب هذا الكتاب ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنت قاضية أمراً في ذلك ، حتى أشاوركم فيه ﴿قَالُـوا نَحْنُ أُولُـوا قوَّةٍ وأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال الملأ نحن أصحاب القوة على القتال ، والبأس الشديد في الحرب ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ والأمر في القتال إليك ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فانظري من الرأي ما ترينه صواباً فمرينا به ؟ ﴿قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

(١) هكذا فسَّره الطبري ، وقيل : إن « لا » مزيدةٌ والتقدير فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا لله ، وقيل المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا ، وهذا على قراءة التخفيف « ألا يسجدوا » وقد انقدح في ذهني معنى للآية غير هذه الأقوال ، وهو أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا وكل خبيئةٍ في السموات والأرض ؟ ولعل هذا المعنى هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني ، فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ! والله أعلم وكتبه محمد الصابوني

(٢) اسمها « بلقيس بنت شراحيل » ملك اليمن ، ورثت الملك عن أبيها ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس ، وسبأ مدينةٌ باليمن قريبة من صنعاء .

أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾
قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا

***

﴿قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قالت لهم : إن الملوك إذا دخلوا قرية ، عُنوةً وغلبةً خرَّبوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ واستعبدوا الأحرار واسترقوهم ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال تعالى : وكما قالت ملكة سبأ تفعل الملوك ، إذا دخلوا قرية عنوة[1] ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ وإني سأرسل إلى سليمان هدية أختبره بها ، فإن كان نبياً لم يقبل الهدية ، وإن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ﴾ فأنظر بأيّ شيء ترجع رسلي ، أبقبول أم برد ؟

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ فلما جاء الرسول سليمان مع الهدية قال : أتمدونني بمال ؟ ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ فما أعطاني ربي من المال والدنيا ، أكثر مما أعطاكم منها وأفضل ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ﴿إرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ ارجع إلى أهل سبأ ، فلنأتينهم بجنود لا طاقة ولا قدرة لهم على دفعهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ولنخرجنهم من أرضهم أذلة حقيرين ، إن لم يأتوني مسلمين ﴿قَالَ يا أَيُّهَا المَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال سليمان لأشراف من حضره : أيكم يأتيني بسريرها قبل أن يأتوني طائعين[2] ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قال ماردٌ من الجن : أنا آتيك بعرشها ، قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، الذي جلست فيه للحكم ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ وإني لقويٌ على ذلك ، أمينٌ على ما فيه من الجواهر ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾قال الذي عنده علمٌ من كتاب[3] الله ، أنا آتيك

---

(١) ظاهر الآيات أنه من كلام ملكة سبأ ، تقول : هذه عادة الملوك وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهراً ، ورجح الطبري أنه من كلام الله وهو مروي عن ابن عباس ، والأول أظهر .

(٢) قال الطبري : السبب الذي من أجله أمر سليمان بإحضار عرش هذه المرأة ، دون سائر ملكها ، ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته ، ويعرفها بذلك قدرة الله ، وعظيم شأنه ، أنها خلفته في بيت مغلق مقفل فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلاق ، وأقفال ، حتى أوصله إلى وليه من خلقه ، فكان لها في ذلك أعظم حجة على حقيقة ما دعاها إليه سليمان ، وعلى صدقه .

(٣) هذا الرجل من الأولياء الصالحين ، واسمه « آصف بن برخيا » وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب وهو قول مجاهد .

مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن

* * *

بالعرش ، قبل أن يرجع إليك طرفك ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ﴾ فلما رأى سليمان عرش ملكة سبأ حاضراً لديه ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ قال : هذا التمكن والملك والسلطان من فضل ربي ﴿لِيَبْلُوَنِي أأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ليختبرني أأشكر فضله وإحسانه عليَّ، أم أكفر نعمته بترك الشكر له ؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن شكر نعمة الله عليه ، فإنما يشكر لنفع نفسه﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ومن كفر إحسانه فلنفسه ظلم ، والله غنيٌّ عن شكره ، لا يضرُّه كُفْرُ من كفر ، كريمٌ يتفضل بنعمه على خلقه .

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُر أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ قال سليمان : غيِّروا لهذه المرأة سريرها ، لننظر أتهتدي فتثبت عرشها أنه هو، أم لا تهتدي إليه[١]؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيل أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولما جاءت أخرج لها عرشها ، وقال لها : أهكذا عرشك ؟ قالت ـ وشبَّهته به ـ كأنه هو[٢] ﴿وَأُوْتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال سليمان : وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وقدرته ، وكنا مسلمين قبلها ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومنع هذه المرأة عبادتها للشمس والقمر ، أن تعبد الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوم كَافِرِينَ﴾ إنها كانت كافرة ، من قوم لا يؤمنون بالله ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ قيل لها : ادخلي الصرح ـ وهو الذي بناه لها سليمان ليختبر عقلها ـ فلما رأت الصرح[٣] ، حسبتْه لبياضه لجة[٤]

---

(١) أراد بذلك اختبار عقلها وذكائها .

(٢) لم تقل : نعم هو ، أو ليس هو ، وإنما قالت ﴿كأنه هو﴾ وهذا غاية في الذكاء والحزم ،حيث شبهته به ولم تجزم بنفي او إثبات .

(٣) الصَّرح : القصر قال أهل اللغة : وكلُّ بناء مرتفع يسمى صرحاً ، ومنه قول فرعون ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ قال الطبري في روايته عن وهب : أمر سليمان بالصرح وقد عملتـه الشياطين له من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته وجلس على سريره ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال لها : ادخلي الصرح ليريها ملكاً أعز من ملكها ، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها .

(٤) لجة : أي ماءً غامراً

قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾
وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

بحرٍ ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ قال لها سليمان : إن هذا ليس ببحر ، إنما هو بناءٌ مشيَّدٌ من زجاج ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظلمت نفسي في عبادتي للشمس ، وسجودي لغيرك ، وانقدت مذعنةً لك بالتوحيد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً[1] ، يدعوهم إلى التوحيد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تجعلوا معه إلٰهاً غيره ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فلما أتاهم صالح داعياً إلى الله ، صار قومه فريقين : فريقٌ مؤمنٌ وفريق كافر ، مختلفون في أمر رسالته ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال صالح لقومه : يا قوم لأي شيءٍ تستعجلون عذاب الله قبل الرحمة؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هلاَّ تتوبون إلى الله من كفركم ، ليرحمكم باستغفاركم إياه ؟! ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ قالوا تشاءمنا بك وبمن معك ، وستصيبنا بسببكم المكارهُ والمصائب[2] ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ما يصيبكم علمه عند الله ﴿بَلْ أَنْتُم قوم تفتنون﴾ يختبركم ربكم أتطيعونه أم تعصونه ؟

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وكان في مدينة صالح[3] تسعة أنفس ، يفسدون في الأرض بكفرهم بالله ، ومعصيتهم إياه ولا يصلحون ، فلذا تحالفوا على قتل صالح ، وعقر الناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ قالوا : ليحلفْ بعضكم لبعض ، لنقتلنَّ صالحاً وأهله في بيوتهم ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَاشَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ثم لنقولن لوليه : ما رأينا مهلك أهله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بذلك﴿وَمَكَرُوامَكْراً ومَكَرْنَا مَكْراً﴾ وغدر هؤلاء التسعة بصالح ، بمسيرهم

---

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة « صالح » عليه السلام .

(٢) كانوا قد أصابهم جدب وقحط .

(٣) هي « الحِجر » بين المدينة والشام .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

* * *

إليه ليلاً ليقتلوه وأهله ، وصالحٌ لا يشعر بذلك ، فأخذناهم بعقوبتنا[1] إياهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا ﴿فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، إلى مكر ثمود بنبيهم كيف كانت عاقبتها ؟ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنا دمرنا التسعة وقومهم ، فلم نبق منهم أحداً ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ فتلك مساكنهم ، خالية منهم ، أبادهم الله وأهلكهم بشركهم بالله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوم يَعْلَمُونَ﴾ إن في قصة ثمود ، وما فعلنا بهم لعظةً لقومك المكذبين ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وأنجينا من نقمتنا وعذابنا ، رسولَنا صالحاً والمؤمنين به ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وأرسلنا لوطاً[2] إلى قومه فقال لهم : أتأتون الفاحشة[3] ، وأنتم تبصرون أنها فاحشة ؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أئنكم لتأتون الرجال شهوة منكم بذلك ، من دون فروج النساء ، التي أباحها الله لكم بالنكاح ؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ بل أنتم قَوْم سفهاء جهلة بعظيم حق الله .

﴿فَما كَانَ جَوَابَ قومِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ فلم يكن لقوم لوط جواب له ، إلا قول بعضهم لبعض : أخرجوا أهل لوط من قريتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عما نفعله نحن ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قدرناها من الغابرين﴾ فأنجينا لوطاًوأهلهمن عذابنا،أما امرأتهفقدجعلناهابتقديرنا من الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيهِمْ مطراً﴾ وأمطرنا عليهم من السماء حجارة من سجيل ﴿فَساءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ﴾ فبئس مطرُ القوم الذين أنذرهم الله عقابه ، على معصيتهم إياه ﴿قُلِ الحَمدُ لِلَّهِ﴾

---

(١) سمّى عقوبته لهم مكراً لأنها جاءتهم بغتةً من حيث لا يشعرون .

(٢) هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة وهي قصة « لوط » عليه السلام .

(٣) المراد بالفاحشة الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواطة التي اشتهر بها أهل سدوم .

ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا

* * *

قل يا محمد : الحمد لله على نعمه[١] ، وتوفيقه إيانا للهداية ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ وأمنةٌ من الله من عقابه ، على الذين اجتباهم لنبيه من أصحابه[٢] ووزرائه ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل الله خيرٌ ، أمَّا تشركون به من أوثانكم ، التي لا تنفعكم ولا تضركم ؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هل عبادةُ الأوثان خيرٌ ، أم عبادةُ منْ خلق السموات والأرض[٣] ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وأنزل لكم من السماء مطراً ، فأنبتنا بالماء حدائق ذات منظر حسن ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لم يكن لكم طاقة أن تنبتوا شجر هذه الحدائق لولا الماءِ ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبودٌ مع الله ـ أيها الجهلة ـ خلق ذلك ؟ !﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بل هؤلاء المشركون قوم ضلَّال ، يعدلون عن الحقِّ على عمدٍ منهم[٤]

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ هل عبادة الأوثان خيرٌ ، أم عبادة الذي جعل لكم الأرض مستقرة[٥] ﴿وَجَعَلَ خلالَهَا أنهاراً﴾ وجعل لكم فيها أنهاراً ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ وجعل للأرض ثوابت من الجبال ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ وجعل بين الماء العذب والملح ، حاجزاً أن يُفسد أحدهما صاحبه ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبودٌ مع الله سواه ، فعل هذه الاشياء ؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أشركاؤكم خيرٌ أم الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف ما ينزل بكم من سوء[٦] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ ويستخلف بعد أمرائكم ، خلفاء يخلفونهم في الأرض[٧] ﴿أَإِلَهٌ

(١) هذا شروع في ذكر دلائل القدرة والوحدانية ، رداً على عبدة الأوثان في كل زمانٍ ومكان .

(٢) رجح الطبري أن المراد بـ﴿الذين اصطفى﴾ أصحاب محمد ﷺ ورجح غيره أن المراد به الرسل أي وسلام على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته .

(٣) هذا برهان أول على وحدانيته جل وعلا .

(٤) هكذا فسَّره الطبري ، وفسَّره غيره بأن معناه : بل هم قوم مشركون ، يجعلون لله عديلاً ومثيلاً ، وهو أظهر .

(٥) هذا برهان آخر على وحدانية الله جلَّ وعلا

(٦) برهان ثالث على وحدانيته جل وعلا

(٧) الراجح أن معناه : يجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة .

مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

* * *

﴿مَعَ اللَّهِ﴾ أإله سوى الله يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟! **﴿قليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾** لا تعتبرون بحجج الله إلا قليلاً ، فلذلك أشركتم به **﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** أشركاؤكم خيرٌ ، أم اللهُ الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر ، إذا ضللتم الطريق[١] ؟ **﴿وَمَن يرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ﴾** والذي يرسل الرياح نُشْراً[٢] أمام الغيث ، الذي يُحيي مَوات الأرض **﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** أإله سوى الله يفعل بكم شيئاً من ذلك ، فتعبدونه من دونه ؟ **﴿تَعَالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** للَّهِ العلوُّ والرفعة عن شرككم ، وعبادتكم ما تعبدون معه **﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الخَلق ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** هل شركاؤكم خيرٌ [٣]،أم الذي ينشىء الخلق ويبتدعه ، ثم يغنيه إذا شاء ، ثم يعيده إذا أراد؟ **﴿وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾**والذي يرزقكم بإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات من الأرض ، لأقواتكم وأقوات أنعامكم ؟ **﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** أإله سوى الله يفعل ذلك ؟ **﴿قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ﴾** قل لهم : فإن زعمتم هذا ، فهاتوا حجتكم على أن شيئاً سوى الله يفعل ذلك **﴿ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في دعواكم .

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قل يا محمد : لا يعلم أحد الغيب الذي استأثر الله بعلمه إلا اللَّهُ، ومن ذلك الساعةلايعلم وقتها إلا اللَّهُ **﴿وَمَايَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾** وما يدري أحدٌ من خلقه ، متى هم مبعوثون من قبورهم **﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾** لم يتتابع علمهم بالآخرة، بل غاب فلم يدركوه[٤] **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾** بل هؤلاء المشركون في شك من قيام

(١) برهانٌ رابع على وحدانيته جل وعلا .

(٢) هكذا ذكر ابن جرير الآية بالنون ، وهي في المصاحف بالباء ، ثم فسّرها بأنها نشراً لميت الأرض ، أي إحياءً للأرض الميتة ، وتفسيرها على الباء : يرسل الرياح مبشرةً بقدوم المطر بعدها .

(٣) برهانٌ خامس على وحدانيته جل وعلا .

(٤) توضيح معنى الآية : هل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ولهذا قال بعدها ﴿ بل هم في شكٍ منها﴾ وقرىء « بل أدرَك » ومعنى الآية على هذه القراءة : بل وصل إليهم وتناهى علمُ الساعة في الآخرة حين يبعثون فلا ينفعهم علمهم بذلك .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

* * *

الساعة لا يوقنون بها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ بل هم في عمى عنها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وقال الكفار : هل سنُخرج من قبورنا أحياء بعد مماتنا ، بعد أن كنا فيها تراباً قد بلينا ؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحنُ وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد وُعدنا هذا من قبل محمد ، فلم نر لذلك حقيقة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الوعد إلاّ أكاذيب الأولين ، سطروها وأثبتوها في كتبهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المكذبين : سيروا في الأرض فانظروا إلى ديار المكذبين ومساكنهم ، ألم يخربها الله ، ويهلك أهلها عاقبة إجرامهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا تحزن على تكذيبهم لك[1] ، ولا يضقْ صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المكذبون : متى يكون هذا العذاب الذي يحِلُّ بنا ، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به[2] ؟ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قل لهم يا محمد : عسى أن يكون قد اقترب لكم بعض الذي تستعجلون به من عذاب الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وإن ربك يا محمد لذو إحسان على الناس ، بتركه معاجلتهم بالعقوبة على معاصيهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على ذلك .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإن ربك ليعلم مكنون أنفسهم ، وعلانية أمورهم ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وما من أمرٍ خفي ، يغيب عن

(١) هذا تسليةٌ للرسول ﷺ ووعدٌ له بالنصر على الأعداء .
(٢) هذا على سبيل السخرية والاستهزاء من المشركين .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

* * *

الناظرين من أهل السموات والأرض ، إلا في اللوح المحفوظ ، أثبته فيه ربنا جل وعلا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بني إسرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد ، يقصُّ على بني إسرائيل الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ من الله للحق ، ورحمةٌ لمن صدَّق به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ إن ربك يفصل بين المختلفين بحكمه فيهم ، فينتقم من المبطل ويجازي المحسن ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه،العليـمُ بالمحقّ منهم والمبطل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوِّضْ إلى الله أمورك ، وثق به ، فإنه كافيك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إنك على الطريق الواضح ، دون ما عليه اليهود والنصارى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوتَى﴾ لا تقدر أن تُفهم الحقَّ من طبع الله على قلبه فأماته ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ولا تقدر أن تُسمع من أصمَّ الله سمعه عن قبول الحق ، لغلبة الكفر على قلوبهم ، فهم يدبرون معرضين عنه ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِـمْ﴾ ولست يا محمد بهادي من أعماه الله عن الهدى والرشاد ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ما تقدر أن تُفهم الحق ، وتوعيه سمع أحد ، إلاّ سمع من يُصدِّق بأدلتنا وحججنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يسمعون ويتدبرون ما تقول.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دابةً مِنَ الأَرْضِ﴾ وإذا وجب عذابُ الله عليهم، أخرجنا لهم دابةً من الأرض[1] ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تحدثهم الدابة أن الناس كانوا لا يوقنون بآيات الله وحججه ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فوجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ ويوم نجمع من كل قرنٍ وملة ، جماعة منهم ممن يكذب بأدلتنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا ثم يُساقون إلى النار ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ أكذبتم بحججي

(١) خروج الدابة من علامات قيام الساعة الكبرى ، قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ٢ / ٦٨٢

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

* * *

وأدلتي ، ولم تعرفوها حق معرفتها ؟ ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من تكذيب أو تصديق ؟! ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُم لاَ يَنْطِقُونَ﴾ ووجب الغضب من الله على المكذبين بآياته ، فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم العذاب ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون تقليبنا الليل والنهار ، يهدأون في الليل لراحة أبدانهم ﴿ وَالنَّهارَ مُبْصِراً ﴾ والنهار مضيئاً يبصرون فيه الأشياء لمعايشهم ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ لدلالة لقوم يؤمنون على قدرة الله ، وحجة لهم على توحيده ﴿وَيَومَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور[1] ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ﴾ من الجن والإنس والشياطين من هوْل ما يعاينون ﴿إلاَّ من شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿وكلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ والجميع أتوا ربهم صاغرين مطيعين .

﴿وَتَرَى الجِبَال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وترى الجبال تحسبها قائمة ثابتة ، وهي تسير سيراً سريعاً كمرِّ السحاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذلك صنعُ الله ، الذي أحكم كل شيءٍ خلقه ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ إنه عالمٌ بما يفعل عباده من خير وشر وهو مجازيهم على ذلك ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ من جاء الله بتوحيد الله موقناً به قلبه ، فله عند الله الجنة يوم القيامة ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ وهم آمنون من فزع الصيحة الكبرى ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُم فِي النَّارِ﴾ ومن جاء بالشرك بالله ، فكبت وجوههم في نار جهنم ﴿هَل تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم : هل تجزون إلا جزاء عملكم السيء ؟ ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ قل يا محمد : إنما أمرني ربي أن أعبد رب مكة ، التي حرمها على خلقه ، أن

(١) هذه النفخة هي نفخة الفزع ، وهناك نفخة الصَّعق ، ثم نفخة الإحياء .

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

* * *

يسْفكوا فيها دماً حراماً ، أو يظلموا فيها أحداً ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وله الأشياء كلها ملكاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أسلم له وجهي ، فأكون من المسلمين ﴿وَأَن أَتْلُوَا القُرْآنَ﴾ وأُمرت بقراءة القرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن آمن بي فإنما يسلك سبيل الصواب لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المُنْذِرِينَ﴾ ومن جار عن طريق الحق ، فقل : إنما أنا منذرٌ ، أنذركم عذاب الله ﴿وَقُلِ الْحَمدُ لِلَّهِ﴾ وقل يا محمد للمشركين : الحمد لله على نعمته علينا بتوفيقه إيانا للحق ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ فتعرفون بها حقيقة نصحي لكم ، وصدق ما دعوتكم إليه من الرشاد ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُون ﴾ فلا يحزنك تكذيبهم ، وأيقن بالنصر على أعدائك .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

* * *

﴿ طسٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذه آيات الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد ، المبين أنه من عند الله ، وأنك لم تتقوله ﴿ نَتْلُواعَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ نقرأ عليك في هذا القرآن خبر موسى مع فرعون بالحق القاطع . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون بهذا الكتاب ﴿ إِنَّ فِرْعونَ عَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ إن فرعون تجبَّر في أرض مصر وتكبَّرَ ، وقهر أهلها حتى أقروا له بالعبودية ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ وجعل أهلها من بني اسرائيل فِرَقاً ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يستعبد طائفة من بني إسرائيل ، فيذبّح الذكور ، ويبقي النساء ﴿ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِين ﴾ بتكبره على ربه ، وتجبّره على أهل الأرض ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ ﴾ ونريد أن نُنعم على الذين استضعفهم فِرْعون من بني إسرائيل ﴿ ونَجْعَلهم أَئِمَّةً ﴾ ونجعلهم ملوكاً وولاةً ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾ يرثون الأرض بعد مهلك آل فرعون ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُم في الأَرْضِ ﴾ ونوطىء[1] لهم في أرض الشام ومصر ﴿ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُم مَا كانُوا يَحْذَرُون ﴾ ونُري هؤلاء ما كانوا يخشونه من بني اسرائيل ، من هلاكهم وذهاب ملكهم على يد رجل منهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا

(١) المراد بالتوطيء التمليك أي نملكهم أرض الشام ومصر ، وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة قصة موسى الكليم موضحة مفصلة من حين الولادة إلى حين الرسالة ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يبهر العقول .

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

***

خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ﴾ وأوحينا إلى أم موسى حين ولدته أن أرضعيه ، فإن خفت عليه من عدو الله فرعون وجنده ، فألقيه في النيل ﴿ ولا تَخافِي ولا تَحْزَنِي ﴾ ولا تخافي على ولدك من الهلاك ، ولا تحزني لفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ إنا سنردُّ ولدك إليك ، ونبعثه رسولاً إلى الطاغية فرعون الذي تخافين عليه أن يقتله ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فأخذه آل فرعون فكانت عاقبة[1] ذلك أن صار لهم عدواً وحَزَناً ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُما كَانُوا خاطِئِينَ ﴾ إن هؤلاء كانوا آثمين ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ هذا الغلام قرةُ عينٍ[2] لي ولك يا فرعون ﴿ لا تَقْتُلُوه عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ لا تقتلوه لعله ينفعنا إذا كبر ، أو نجعله ولداً لنا ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بما هو كائن من هلاكهم على يديه .

﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ فرغ فؤادها من كل شيء إلا من همِّ موسى وذكره ﴿ إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِها ﴾ إن قربت أن تظهر أن موسى ابنها ، لولا أن عصمناها من ذلك ، بتثبيتنا لها بالسكوت عنه ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ بوعد الله ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ قالت أم موسى لأخته إتَّبعي أثره ، فاتَّبعته فبصرت بموسى عن بُعْدٍ لم تدن منه ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وقوم فرعون لا يشعرون بها أنها أخته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ومنعنا موسى أن يرتضع من المراضع من قبل أمه ﴿فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَه لَكُم﴾ فقالت أخت موسى هل أدلكم على أهل بيت يضمنونه لكم ؟ ﴿وَهُم لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وهم لمنزلته مراعون ، ولمسرَّة الملك محافظون ، قالوا

(١) هذه اللام تسمى لام العاقبة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكانت عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً ومصدر حزن وألم ، وهذا كقول الشاعر ودورنا لخراب الدهر نبنيها .

(٢) أي فرحة ومسرة لي ولك ، روي أنها لما قالت ذلك قال لها فرعون : أمَّا لكِ فنعم ، وأما لي فليس بقرة عين ، ولو قال نعم لهداه الله به إلى الإيمان .

فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

***

هاتي ﴿فرددناهُ إلى أمِّه كَيْ تقرَّ عَيْنُها ولاَ تحْزَنَ﴾ فأعدنا موسى إلى أمه كي تقر عينها بابنها ، ولاتحزن على فراقه إياها ﴿وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ﴾ ولتعلم أن وعد الله بإعادة ولدها حقٌّ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يصدقون بأن وعد الله حق ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكماً وَعِلْماً﴾ ولما تناهى شبابُهُ وتمَّ خَلْقُه ، آتيناه فهمًا ومعرفة بالدين﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ كذلك نجزي كل من أحسن من عبادنا ، فصبر على أمرنا وأطاعنا ﴿ وَدَخَلَ المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ودخل موسى المدينةعند القائلة[1] نصف النهاروأهلها في غفلة ﴿فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْن يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾فوجد رجلين يقتتلان ، هذا من أهل دين موسى من بني إسرائيل ، وهذا من القبط من قوم فرعون ﴿فاسْتَغَاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَه مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فاستغاث الإسرائيلي موسى على القبطي ، فلكزه موسى في صدره بِجُمْع كفه فقتله ﴿قالَ هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ قال موسى : هذا القتل من تسبّب الشيطان ، فقد هَيَّج غضبي حتى ضربت الرجل ﴿إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ عدوٌّ لابن آدم ظاهر العداوة ، مضلٌّ له عن سبيل الرشاد ﴿قَالَ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْ لِي﴾ قال موسى : رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس ، التي لم تأمرني بقتلها ، فاعفُ عن ذنبي واستره علي﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ فعفا الله لموسى عن ذنبه ﴿إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الساتر على المنيبين ذنوبهم ، الرحيم بالناس أن يعاقبهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قال موسى : رب بإنعامك عليَّ بالعفو عن قتل النفس ، فلن أكون معيناً للمشركين .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ فأصبح موسى خائفاً من جنايته ، ينتظر ما الذي يصنعه به الناسُ ؟ ﴿ فإذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ فإذا الإسرائيلي الذي استنصر موسى بالأمس ، يقاتله قبطيٌّ آخر ، فاستغاث بموسى على الفرعوني ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فقال موسى له :

(١) القائلة أي وقت القيلولة بعد الظهيرة لأنها وقت النوم والراحة ،قال تعالى ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ .

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ
قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

***

إنك لذو غواية وضلال ، بقتالك كل يوم رجلاً ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ فلما أراد موسى أن يقتل الفرعوني ، الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ قال الإسرائيلي ـ وظن أنه إياه يريد قتله ـ أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس ؟ ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾ ما تريد بفعلك إلا أن تكون من الجبابرة ، الذين يقتلون النفوس بغير حق ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ ﴾ وما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها من طاعة الله !! سمع القبطي ذلك ، وأشاع الخبر في المدينة ، فبعث فرعون يطلب موسى ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ وجاء رجل من أبعد أطراف المدينة يُسرع في مشيه ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ قال الرجل : يا موسى إن أشراف قوم فرعون ، يتآمرون ويتشاورون على قتلك ﴿ فاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾فاخرج من هذه المدينة، فأنا لك ناصح ﴿ فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ فخرج موسى من مدينة فرعون ، ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ولما توجّه بوجهه نحو أرض مدين[1] ماضياً إليها ، قال : عسى ربي أن يبين لي الطريق المستقيم إلى مدين ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وجد جماعة من الناس عليها يسقون مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَان ﴾ ووجد امرأتين تحبسان غنمهما عن غنم الناس ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ قال ما شأنكما ؟ هلاّ تسقون ماشيتكما مع مواشي الناس ! ؟ ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾[2] قالتا : لا نسقي أغنامنا حتى ينصرف الرعاة ويفرغوا من سقي مواشيهم ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ

(١) مدين : هي بلدة شعيب عليه السلام ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام .
(٢) الرعاء : جمع راع مثل صاحب وصِحاب وهو الذي يرعى الغنم .

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى
ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ

***

كَبِيرٌ ﴾ لا يستطيع أن يسقي ماشيته من الكبر والضعف ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما ، ثم ذهب إلى ظل شجرة يستريح من عناء السفر ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فقال موسى ـ وهو مُجْهَدٌ ـ يا ربِّ إني محتاج لما أنزلت إليَّ من خير(١) ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ فجاءت إحدى المرأتين تمشي ، ويعلوها الحياء وقد سترت وجهها بثوبها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قالت له : إن أبي يطلبك ليثيبك على سقيك لغنمنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ فمضى موسى معها ، فلما جاء أباها وأخبره بقصصه مع فرعون وقومه ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال : لا تخف فقد نجوت من فرعون وقومه ، لأنه لا سلطان لهم بأرضنا

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ استأجر هذا الرجل ليرعى ماشيتك ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ إن خير من تستأجره للرعي ، القويُّ على حفظ الماشية وإصلاحها ، الأمينُ الذي لا تخاف خيانته(٢) ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ قال الأب لموسى : إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتيَّ اللتين أمامك ، على أن ترعى غنمي ثماني سنين ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ فإن أتممتها فجعلتها عشراً فإحسانٌ من عندك ، وليس مما اشترطته عليك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وما أريد أن أوذيك بجعلها عشراً ، ستجدني بإذن الله من الصالحين في الوفاء بما قلت لك ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ قال موسى : هذا الذي قلت من الزواج والمؤاجرة ، واجبٌ بيني وبينك ، على كل واحد منا الوفاء لصاحبه به ﴿ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ

---

(١) يريد أنه محتاج إلى الطعام ، قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما إلاّ بقل الأرض .

(٢) نقل عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنها عرفت ذلك فراسةً ، ونقل عن غيره أنها عرفت ذلك مما رأته منه ، فعرفت قوته من رفعه الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وعرفت أمانته لأنه أمرها أن تسير خلفه لا أمامه لتدله على الطريق .

قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن
جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ
فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

***

﴿ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوانَ عَلَيَّ ﴾ أي المُدَّتين وفَّيتك إياها ، فليس لك أن تطالبني بأكثر منها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وكِيلٌ ﴾ والله على هذا القول شهيدٌ وحفيظ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ فلما وفى موسى لصاحبه الأجل الذي كان بينهما ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ مسافراً بهم إلى مصر ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أبصر من جانب الجبل ناراً تتَّقد ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ انتظروا إني أبصرت ناراً ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ لعلي آتيكم من النار بخبر عن الطريق الذي أضللناه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها النار ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون بها من البرد ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ ﴾ فلما وصل موسى النار ، ناداه الله تعالى من جانب الوادي الذي هو عن يمين موسى ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ في ذلك المكان المبارك عند الشجرة ﴿ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ربُّ العَالَمِينَ ﴾ نودي بأنني أنا الله رب العالمين ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ اطرح عصاك التي تحملها ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ فلما رآها تتحرك كأنها جان من الحيات ، ولَّى موسى هارباً منها ولم يرجع على عقبه ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ ونودي أقبل ولا تخف من الذي تهرب منه فإنك في أمانٍ من أن يضرك ﴿ اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أدخل يدك في جيب قميصك ، تخرج بيضاء تلمع من غير برص ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ واجمع إليك يدك ، من الخوف الذي نالك من مشاهدة الحية ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ فهذان اللذان أريتك إياهما ، حجتان إلى فرعون وأشراف قومه ، على حقيقة نبوتك ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ إن فرعون وملأه كانوا قوماً كافرين

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُم نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ قال موسى رب إني قتلت من قوم فرعون

وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

***

نفساً ، فأخاف إن أتيتهم أن يقتلون ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ وأخي هارون أحسن مني بياناً عما يريد ، فأرسله معي عوناً يبيّن لهم عني ما أخاطبهم به ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إني أخاف أن لا يصدقوني أني رسول إليهم . ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ قال الله لموسى : سنعينك ونقويك بأخيك ﴿ وَنَجْعَلُ لكُمَا سُلْطَاناً فلا يَصِلُونَ إليكُمَا ﴾ ونجعل لكما حجة فلا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء ﴿ بآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبعَكُمَا الغَالِبُونَ ﴾ أنتما ومن آمن معكما ، الغالبون فرعون وملأه بحجتنا[1] وسلطاننا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّناتٍ ﴾ فلما جاء موسى فرعون بأدلتنا وحججنا ، شاهدةً بحقيقة ما جاء به من عند ربه ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾ ما هذا الذي جئتنا به ، إلاَّ سحرٌ افتريته من قبلك كذباً وباطلاً ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ وما سمعنا بالذي تدعونا إليه ، في أسلافنا الذين مضوا قبلنا

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ قال موسى لهم : ربي أعلم بالمحق منا من المبطل ، وبمن جاء بالرشاد والبيان من عند الله ! ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ومن الذي تكون له العقبى المحمودة في الدار الآخرة ؟ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إنه لا ينجح الكافرون ولا يصلون إلى مرادهم ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي ﴾ وقال فرعون لأشراف قومه : لا أعلم لكم من إلَهٍ غيري فتعبدوه . ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى ﴾ فاعملْ لي يا هامانُ آجراً ، وابن لي بناء شامخاً ، لأنظر إلى معبود موسى الذي يعبده[2] ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ وإني لأظنه فيما يقول كاذباً ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

(١) هكذا فسّر الإمام ابن جرير الآية ، وقطع ما بين قوله (إليكما) وقوله (بآياتنا) وهو جائز من حيث المعنى ، بينما قال ابن كثير : ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، وهذا هو الأظهر .

(٢) يقول فرعون ذلك على سبيل التهكم ، و « هامان » هو وزير فرعون الذي أعان الطاغية على فجوره وضلاله .

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

***

واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر ، عن تصديق موسى ، والإقرار بالعبودية لله ، تعدياً وعتواً على ربهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ، وأنه لا ثواب ولا عقاب ، فركبوا أهواءهم ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ فجمعنا فرعون وجنوده من القبط ، فألقيناهم في البحر وأغرقناهم جميعاً ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ؟ ألم نهلكهم فنورث ديارهم المؤمنين بعد أن كانوا مستضعفين ؟ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ وجعلنا فرعون وقومه ، أئمة يأتم بهم أهل الكفر ؟ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ويوم القيامة لا ينصرهم من الله ناصر

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ وألزمناهم في هذه الدنيا خزياً وغضباً منا عليهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ من الذين قبّحهم الله ، فأهلكهم وجعلهم عبرةً للمعتبرين ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، بعدما أهلكنا الأمم التي كانت قبله ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً ﴾ ضياء لبني إسرائيل وبياناً لهم ، ورحمة لمن عمل بما فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ وما كنت يا محمد بجانب غربي الجبل ، إذ ألزمنا موسى وقومه أمر الوحي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وما كنت حاضراً لذلك شاهداً له ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ ولكنا خلقنا أمماً من بعد ذلك وقد تطاول عهدها فحرَّفوا وبدَّلوا الشرائع ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وما كنت مقيماً في أهل مدين تقرأ عليهم كتابنا لتعرف خبرهم ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ولكن كنا نحن نرسل الرسل ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ وما كنت يا محمد بجانب الجبل إذ نادينا موسى ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ولكن عرفناك ، وابتعثناك رسولاً إلى الخلق ، رحمة منا بهم ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لتنذر قوماً لم يأتهم قبلك رسولٌ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا فينيبوا إلى

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ
مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

***

الله ، ويتركوا كل ما سواه من الآلهة ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولئلا يكون لقومك حجةٌ لوحلَّ بهم عذابنا ، قبل أن نرسلك إليهم ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ فيقولوا ربنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً من قبل أن ينزل بنا عذابك ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فنتبع آيات كتابك ، ونكون من المصدّقين بألوهيتك ورسولك . . ولولا ذلك لعاجلناهم العقوبة[١]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ فلما جاءهم محمد بالرسالة من عند الله ، قالوا : هلاَّ أوتي محمد مثل ما أوتي موسى من الكتاب ؟ ﴿ أَو لَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أولم يكفر اليهود بما أوتي موسى من قبلك ؟ ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قالوا عن التوراة والقرآن سحران[٢] تعاونا ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ وقالت اليهود[٣] : إنا بكل كتاب في الأرض كافرون ﴿ قُلْ فَأْتُوابِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : ائتوني بكتاب من عند الله ، هو أهدى من القرآن والتوراة لطريق الحق ﴿ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أن الكتابين سحران ، وأن الحق في غيرهما ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فإن لم يأتك هؤلاء بكتاب من عند الله ، فاعلم أنهم يتركون الحق اتباعاً لأهوائهم ، وأن الذي ينطقون كذبٌ وباطلٌ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَى مِنَ اللَّهِ ﴾ ومن أضل عن طريق الرشاد ممن اتبع هوى نفسه ، بغير بيانٍ من عند الله ؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفق لإصابة الحق ، القوم الذين كذبوا رسوله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ولقد فصّلنا لقومك ولليهود القول بأخبار الماضين ، وما أحللنا بهم حين كذبوا رسلنا

---

(١) أشار إلى أن جواب « لولا » التي في أول الآية محذوف قدره الطبري لعاجلناهم العقوبة ، وقال القرطبي : وجواب « لولا » محذوف تقديره لما بعثنا الرسل ١٣ /٢٩٣

(٢) وقرىء ساحران تظاهرا وعلى هذه القراءة يكون المعنى : قالوا عن موسى ومحمد ساحران تعاونا .

(٣) هذا ما رجحه الطبري ، واستظهر أبو حيان في البحر أن الضمير يعود على كفار قريش حتى تتناسق الضمائر ، ولعل هذا القول أرجح .

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا

***

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا فيعتبروا ويتعظوا ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الذين أعطيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن ، يقرُّون أن القرآن حق من عند الله . نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا ﴾ وإذا يتلى عليهم القرآن يقولون : صدَّقنا به ، إنه الحق نزل من عند ربنا ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ إنا كنا بكتب الله مصدِّقين قبل نزول القرآن ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ هؤلاء يؤتيهم الله ثواب عملهم مرتين ، بصبرهم على اتباع كتاب ربهم ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ويدفعون بحسنات أفعالهم السيئات ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وينفقون مما رزقناهم من الأموال في طاعة الله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ وإذا سمع هؤلاء الباطل لم يصغوا إليه ولم يستمعوه ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾(١) وقالوا لأهل الباطل لنا أعمالنا التي رضينا بها لأنفسنا ، ولكم أعمالكم التي رضيتم بها لأنفسكم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ سلام عليكم منا(٢) ، لا نريد محاربة أهل الجهل ، ومسابتهم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إنك يا محمد لا تهدي من أردت هدايته ، ولكن الله يهدي من يشاء من خلقه ، بتوفيقه للإيمان(٣) ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ والله أعلم بمن سبق له الهدى ، فيسدِّده ويوفِّقه .

﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ قالت قريش : إن نتبع الحق الذي جئتنا به يا محمد ، يتخطفنا الناس من أرضنا ، باجتماعهم على حربنا ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ قل لهم يا محمد : أو لم نجعل لهم بلداً آمناً ، حرمنا فيه سفك الدماء ، وأمَّنا أهله من الغارة والقتل والسبي ؟ ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ﴾ يحمل إليه ثمرات كل بلد ، رزقاً من عندنا ﴿ وَلَكِنَّ

(١) وقيل المعنى : لنا طريقتنا ولكم طريقتكم في هذه الحياة .
(٢) السلام هنا سلام مباعدة ومتاركة ، لاسلام تحية ومحبة .
(٣) جاء في الصحيحين أن هذه الآية نزلت في عم رسول الله ـ ﷺ ـ « أبي طالب » حيث مات كافرا

مِن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

***

أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعلمون أنا فعلنا هذا ، فلجهلهم يكفرون ولا يشكرون ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴾ وكم أهلكنا من قرية أبطرتها معيشتُها ، فطغت وكفرت بربها ﴿ **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً** ﴾ فتلك دورهم ومنازلهم ، خربت فلم يُعمر إلاَّ أقلها ﴿ **وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ** ﴾ وعادت لا مالك لها إلا نحن ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ وما كان ربك مهلك القرى التي حول مكة ، حتى يبعث في مكة رسولاً يتلو عليهم كتابنا ﴿ **وَمَا كُنَّا مُهْلكِي القُرَى إلاَّ وأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ولم نكن لنهلك قريةً وهي مؤمنة ، إنما نهلكها بظلمها وكفرها ﴿ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا** ﴾ وما أعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع لكم في الدنيا ، لا يغني عنكم شيئاً عند الله ﴿ **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ وما عند الله من نعيم خيرٌ مما أوتيتم في الدنيا ، وأبقى لأهله لأنه لا نفاد له ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ أفليس لكم عقول تتدبرون بها ، فتؤثرون الدائم على الفاني ؟ ﴿ **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ** ﴾ أفمن وعدناه الجنة ، فاستحق بطاعته ذلك الوعد ، فهو صائر إليه ﴿ **كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ كمن تمتع بالحياة الدنيا ، وآثر لذة عاجلة على آجلة ﴿ **ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ** ﴾ ثم هو من المشهدين عذاب الله .

﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ ويوم ينادي رب العزة الذين أشركوا به فيقول لهم : أين الذين كنتم تزعمون أنهم لي في الدنيا شركاء ؟ ﴿ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ** ﴾ قال الشياطين الذين كانوا يغوون بني آدم ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُم كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إليكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** ﴾ تبرأنا إليك من ولايتهم ونصرتهم ، لم يكونوا يعبدوننا وإنما دعوناهم فاستجابوا ﴿ **وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** ﴾ وقيل للمشركين : نادوا شركاءكم لينصروكم ، فدعوهم

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

***

فلم يجيبوهم ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ وعاينوا العذاب ، فودُّوا لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ويوم ينادي الله المشركين فيقول لهم : ماذا أجبتم رسلنا فيما أرسلناهم به ؟ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ فخفيت عليهم الحجة ، فلم يدروا ما يحتجون به ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فلا يسأل بعضهم بعضاً بالأنساب والقرابة ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ فأما من رجع إلى الحق ، وأخلص لله وصدَّق بنبيه ، وعمل بما أمره الله ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ فهو عند الله تعالى من الناجحين ، الخالدين في جناته ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار للهداية والإيمان من شاء من خلقه ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ لم يكن لهم اختيارُ ما شاءوا من الأمر ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً لله ، وتبرئةً له ، عن شرك المشركين ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وربك يعلم ما تخفي صدور خلقه ، وما يبدونه بألسنتهم وجوارحهم ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وربك المعبود ، الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ له الحمد في الدنيا والآخرة ، وله القضاء بين خلقه ، وإليه تردون بعد مماتكم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قل يا محمد : أرأيتم أيها القوم إن جعل الله عليكم الليل دائماً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ مَنْ معبودٌ غير الله يأتيكم بضياء النهار تستضيئون به ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ أفلا تفكرون به فتتعظون ؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار دائماً أبداً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ مَنْ معبودٌ غير الله يأتيكم بليل تهدأون فيه ؟ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار ، رحمة من الله لكم ، ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ

وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾
* إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ
إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ
إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ

***

اللَّيْلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ومن رحمة الله بكم أن جعل الليل ظلاماً ، لتستقروا فيه لراحة أبدانكم من تعب التصرف نهاراً ، وجعل النهار ضياءً ، تتصرفون فيه لمعايشكم وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم **﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** لتشكروه على إنعامه عليكم .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ويوم ينادي الله المشركين فيقول لهم : أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي ؟ ! **﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾** وأحضرنا من كل جماعةٍ نبيَّها ، الذي يشهد عليها **﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾** هاتوا حجتكم على إشراككم **﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لِلَّهِ ﴾** فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم **﴿ وَضَلَّ عَنهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾** واضمحل الذي كانوا يشركون بالله في الدنيا ، فلم ينفعهم هنالك بل ضرهم **﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾** إن قارون كان من عشيرة[1] موسى ، فتجاوز حده في التجبر عليهم **﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ ﴾** وأعطيناه من الكنوز والأموال ، ما تثقل مفاتح خزائنه على الجماعة أولي الشدة ، عند حملها لكثرتها **﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾** لا تبطر فرحاً بمالك **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾** لا يحب الأشرين البطرين **﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾** والتمسْ فيما أعطاك الله من الأموال ، خيراتِ الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله **﴿ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾** ولا تترك حظك من الدنيا فتعمل بما ينجيك غداً من عقاب الله **﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾** وأحسن بإنفاق مالك في وجوهه ، كما أحسن الله إليك فوسع عليك **﴿ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾** ولا تلتمس البغي على قومك ، إن الله لا يحب المفسدين في الأرض بالمعاصي **﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾** قال قارون : إنما أعطيت هذه الكنوز ، على فضل علم عندي ، فضلني الله به عليكم **﴿ أَوَ لَمْ**

(١) قيل : إنه كان ابن عم موسى وهو قول قتادة .

جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ
ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

***

يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ أولم يعلم قارون ، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هو أشد منه بطشاً ، وأكثر جمعاً للأموال ؟ ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ ﴾ لا يُسألون عن جرائمهم بل يدخلون النار بغير حساب ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ فخرج قارون على قومه في ثياب زينته ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ قال الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ يا ليتنا أُعطينا مثل ما أعطي قارون، من الزينة والمال ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ إنه لذو نصيبٍ من الدنيا عظيم

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله ، وجزاؤه لمن آمن به وعمل بما جاءت به الرسل ، خيرٌ مما أوتي قارون من زينة ومال ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ولا يوفق إلى ذلك إلا الذين آثروا ما عند الله على لذات الدنيا وشهواتها ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ فخسفنا بقارون وأهلِ داره الأرضَ ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فلم يكن له جندٌ ينصرونه ممَّا نزل به من سخط الله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ ﴾ ولا كان ممن يمتنع من نقمة الله لقوته ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ ﴾ وأصبح الذين طلبوا مكان قارون من الدنيا وغناه . ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يقولون : ألم تر يا هذا[1] أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء من عباده لا لهوانه عليه ؟ ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لولا أن تفضَّل الله علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه ، لخسف بنا الأرض ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ ألم تعلم أنه لا يفوز الكافرون بطلباتهم !! ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ﴾ نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبراً عن الحق في الأرض ، ولا

(١) ويكأنَّ كلمة تفيد التعجب مكونة من « وَيْ » بمعنى أعجب و « كأنَّ » التي هي للتشبيه ومعناها اعجب يا هذا

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ
عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا
ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

***

يعملون بمعاصي الله فيها ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والجنة للذين اتقوا الله ، وأدوا فرائضه .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ من جاء يوم القيامة بإخلاص التوحيد ، فله النعيم الدائم في الجنة(١) ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ومن جاء بالشرك فلا يثاب الذين أشركوا ، إلا جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد ، لرادك إلى مكانك حيث ولدت في مكة المكرمة(٢) ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قل يا محمد للمشركين : ربي أعلم بمن سلك طريق الهدى فنجا ، ومن هو في جور عن قصد السبيل ظاهر !! ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وما كنت يا محمد تأمل أن يُنزل عليك ربك هذا القرآن فتعلم ما فيه ، لكنَّ ربك رحمك فأنزله عليك ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ فاحمد ربك ، ولا تكن عوناً لمن كفر بالله ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ ولا يصرفنك هؤلاء المشركون عن تبليغ آيات الله ، بعد أن أنزلها إليك ربك ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ ولا تتركن تبليغ رسالته ، فتكون ممن فعل فعل المشركين ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ ولا تعبد يا محمد معبوداً آخر سواه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح العبادة له إلا لربك ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ كل شيء هالك لا محالة ، إلَّا هو سبحانه ﴿ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ له الحكم بين خلقه ، وإليه تردون بعد مماتكم ، فيجازي كلًّا بعمله بالعدل .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص »

---

(١) أوَّل الإمام ابن جرير الحسنة بالإيمان ، والسيئة بالشرك ، لأنها أساس قبول العمل ، فلا تقبل الحسنات ولو كثرت إذا كان صاحبها مشركاً ، والأولى أن تحمل الآية على عمومها أي ثواب الله خير من حسنة العبد مهما كانت هذه الحسنة فإن الله يضاعف الحسنات ، ويجازي على السيئات بالمثل دون زيادة .

(٢) في هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله برده إلى مكة التي هاجر منها ، وقيل : المراد بالمعاد الرد إلى الآخرة بعد الموت



(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

* * *

﴿الٓمٓ ﴾[١] ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ أظنَّ أصحابك أن نتركهم بلا ابتلاء وامتحان ، بأن قالوا آمنا بك وصدقناك ؟ ! كلا سنختبرهم ليتبين الصادق منهم من الكاذب ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . ولقد اختبرنا من قبلهم من الأمم ، ممن أرسلنا إليهم رسلنا ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ فليُظهِرنَّ اللهُ صدق الصادق منهم ، من كذب الكاذب بابتلائه ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أم ظن الذين يعبدون غير الله ، أن يُعجزونا فلا نقدر عليهم ، فننتقم منهم ! ؟ ﴿ سَاءَ مَايَحْكُمُون ﴾ بئس حكمهم ذلك ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ ﴾ من كان يرجو الله يوم لقائه ، ويطمع في ثوابه ، فإن أجل الله للجزاء والعقاب لقريب ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ السميعُ لقول القائل ، العليمُ بصدق قوله ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ومن جاهد عدوه فإنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله ، والهرب من عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ مستغنٍ عن جميع خلقه ، لا حاجة له إلى فعل عبد ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُو الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدقوا بالله وبرسوله وعملوا الصالحات ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ التي سلفت منهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن
جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ
مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

* * *

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولنثيبنهم على صالحات أعمالهم ، أحسن ما كانوا يعملونه .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حسناً ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وإن جاهدك والداك لتشرك بربك ، وتجعل له شريكاً ما ليس بشيء ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك ابتغاء مرضاتهما ولكن خالفهما﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] إلي مصيركم يوم القيامة ، فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا ، ثم أجازيكم المحسن بالإحسان ، والمسيء بما هو أهله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ والذين أدوا فرائض الله واجتنبوا محارمه ، لندخلنهم الجنة مدخل الصالحين ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ فإذا آذاه المشركون في إقراره ، جعل أذى الناس له في الدنيا كعذاب الله في الآخرة ، فارتد عن إيمانه راجعاً إلى الكفر ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ ليقولن إنا كنا معكم ﴾ ولئن نصر الله أهل الإيمان، ليقولن المرتدون كذباً وإفكاً : إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أوليس الله بأعلم بما في صدور جميع خلقه ، فكيف يخادَع من لا يخفى عليه خافية ؟ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وليُعلمن اللّهُ أولياءه أهلَ الإيمان[2] وأهل النفاق ، بالمحن والابتلاء ، حتى يميزوا كل فريق عن الآخر ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ولنحمل خطاياكم ﴾ وقال الكفار للمؤمنين كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالآخرة ، فإنكم إن اتبعتم سبيلنا ، فبعثتم بعد الممات ، فإنا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ما هم بحاملين من آثام خطاياهم

(١) نزلت في قصة إسلام « سعد بن أبي وقاص » مع أمه المشركة

(٢) نبه الطبري إلى أن معنى يعلم الله المؤمن والمنافق ، إنما هو إعلام المؤمنين وإطلاعهم على ذلك، لا أنه يعلمهم بعد الابتلاء

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا
عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

* * *

من شيء ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا لهم ، ووعدوهم به من حمل خطاياهم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وليحملنَّ هؤلاء المشركون آثام أنفسهم ، وأوزار من أضلوهم مع أوزارهم ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عما كانوا يكذبونهم من الأباطيل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ يدعوهم إلى التوحيد وفراق الأوثان ، فلم يقبلوا منه ، ولم تزدهم دعوته إلا فراراً[1] ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمونَ ﴾ فأهلكهم الله بالغرق بالماء الكثير ، وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم ﴿ فَأَنْجَيناهُ وأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فأنجينا نوحاً وأصحاب سفينته ، وجعلنا السفينة ومن فيها عبرة للعالمين ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ واذكر يا محمد ايضاً إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله ، واتقوا سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُم ﴾ إن فعلتم ذلك حصل لكم الخير ﴿ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما هو خير لكم مما هو شر لكم ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً ﴾ إنما تعبدون أيها القوم من دون الله أصناماً لا آلهة ﴿ وتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ وتصنعون كذباً وباطلاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ إن أوثانكم التي تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ﴿ فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ ﴾ فالتمسوا الرزق عند الله ، تُدركوا ما تبتغون ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ وذلوا للّهِ، واشكروه على رزقه ونعمه ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى الله تردون بعد مماتكم ، فيسألكم عن أعمالكم ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وإن تكذبوا رسولنا محمداً ﷺ فقد كذبت جماعاتٌ من قبلكم رسلها ، فنزلت بهم عقوبة الله ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ وما على محمد إلاَّ أن يبلغكم رسالة الله ، بلاغاً يُبين لمن سمعه

(١) قال الإمام ابن جرير : وهذا وعيد من الله تعالى ذكره للمشركين يقول لنبيه محمد ﷺ «لا يحزننك يا محمد ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فإني وإن أمليتُ لهم فإن مصير أمرهم إلى البوار ، ومصير أمرك وأمر أصحابك إلى العلو والظفر بهم ، والنجاة مما يحل بهم من العقاب كفعلنا ذلك في نوح وقومه »

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن
قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ

* * *

ما يراد به ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء ، طفلاً صغيراً ، ثم غلاماً ، ثم رجلاً ، ثم كهلاً ، ثم يُعيده من بعد فنائه ، كما بدأه أول مرة خلقاً جديداً ! ! ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إنه ذلك على الله سهل ، لا يتعذَّر عليه إعادة الخلق ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ﴾ قل يا محمد للمنكرين للبعث : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الله خلق الأشياء ، وكيف أنشأها ابتداء !! ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ البدأة الآخرة بعد الفناء ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادرٌ لا يعجزه شيء أراده ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعذب من يشاء من خلقه ، على ما أسلف من جرمه ، ويرحم من يشاء منهم ، ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ وإلى الله ترجعون وتردون ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ وما أنتم أيها الناس بمعجزين الله في الأرض ، ولا مَنْ في السماء معجزين الله إن هم عصوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وليس لكم أيها الناس ، من دون الله وليٌّ يلي أموركم ، ولا نصيرٌ ينصركم من الله إن أحلَّ بكم عقوبته ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ والذين كفروا بحجج الله ، وأنكروا أدلته ،وجحدوا لقاءه ، ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ يئسوا من رحمة الله في الآخرة ، حين عاينوا العذاب ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهم عذاب موجع .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ فلم يكن جواب قوم إبراهيم له ، إلاَّ أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو حرقوه بالنار ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ فأضرموا له النار ، فأنجاه الله منها ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن في إنجاء الله لإبراهيم ،لحججاً لقوم يصدقون بالأدلة إذا رأوها ﴿ وقال إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً ، تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، ثم هي بعد الحياة منقطعةٌ

ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

* * *

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ثم يوم القيامة يتبرأ بعضكم من بعض ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ ويسبُّ بعضكم بعضاً ، لأن كل خلة تصير يوم القيامة عداوة على أهلها ، إلَّا خلةَ المتقين ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ومصير جميعكم النارُ ، وليس لكم من أنصار ، ينصرونكم من الله ، فينقذونكم من عذابه ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ فصدَّق إبراهيمَ لوطٌ ، وقال إبراهيم[1] : إني مهاجر من دار قومي إلى الشام من أجل ربي ﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ العزيزُ الذي لا يذل من نصره ، الحكيمُ في تدبير خلقه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ ﴾ ورزقناه من لدنا « إسحٰق » ولداً ، و « يعقوب » من بعده ولد ولد ، وجعلنا في ذريته النبوة ، والكتب المنزَّلة . ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأعطيناه ثواب بلائه فينا في الدنيا ، وله في الآخرة أيضاً جزاء الصالحين .

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحدٍ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ واذكر لوطاً حين قال لقومه : إنكم لتأتون الذكران ، ما سبقكم بهذه الفاحشة أحدٌ من العالمين قبلكم ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أئنكم لتأتون الرجال في أدبارهم ؟ ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ وتقطعون طريق المسافرين عليكم بفعلكم الخبيث ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنْكَرَ ﴾ وتحذفون في مجالسكم المارة وتسخرون منهم[2] ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فلم يكن جواب قوم لوط إلا قولهم : ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا به ، إن كنت صادقاً فيما تقول ، ومنجزاً لما تعد ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي

---

(١) الضمير يحتمل العود إلى لوط لأنه أقرب مذكور وهو قولٌ لبعض المفسرين ، ولكن سياق الآيات يتحدث عن إبراهيم عليه السلام ، فلذلك اختار الإمام ابن جرير عود الضمير إليه ، والمعروف كما ورد في السنة أن الشام مهاجر إبراهيم عليه السلام .

(٢) الآية عامة في كل منكر ، ولكن الإمام ابن جرير ذهب إلى هذا لأنه مروي عن رسول الله ﷺ، قالت ام هانيء :سألت رسول الله ـ ﷺ عن قوله تعالى﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » والحديث رواه الإمام ابن جرير والإمام أحمد والترمذي وابن أبي حاتم .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾

* * *

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فدعا لوط ربه أن ينصره على قومه **﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى ﴾** ولما جاءت الملائكة إبراهيم ، بالبشارة من الله بإسحٰق ، ومن ورائه يعقوب **﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾** قالت رسل الله لإبراهيم إنا مهلكوا أهل قرية قوم لوط **﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾** لأنفسهم بمعصيتهم اللّهِ ، وتكذيبهم لرسوله **﴿ قَالَ إِنَّ فيهَا لُوطاً ﴾** قال إبراهيم إن فيها لوطاً ، وليس من الظالمين **﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بمنْ فِيهَا ﴾** فقالت الرسل : نحن أعلم بمن فيها من الكافرين ، وإن لوطاً ليس منهم بل هو من أولياءِ الله **﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾** لننجينَّ لوطاً وأهله من الهلاك ، إلاَّ امرأته كانت ممن أبقتهم الدهور والأيام ، وإنها هالكة مع قومها **﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لوَطاًسِيءَ بهِمْ وَضَاقَ بهِمْ ذَرْعاً ﴾** ولما جاءت الملائكة لوطاً ساءه مجيء الملائكة ضيوفاً عليه ، وضاق ذرعه بضيافتهم [1] ، لما علم من خبث فعل قومه **﴿ وَقَالُوا لاَ تَخَفْ ولاَ تَحزَنْ ﴾** قالت الرسل : لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك ، ولا تحزن مما أخبرناك من هلاكهم **﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرينَ ﴾** إنا منجوك من العذاب الذي هو نازل بقومك ، ومنجوا أهلك معك ، إلا امرأتك فإنها هالكة فيمن هلك **﴿ إِنَّا مُنْزِلونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مَنْ السَّماءِ ﴾** إنا منزلون على أهل هذه القرية عذاباً من السماء **﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾** بما كانوا يأتون من معصية الله ، ويركبون الفاحشة **﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾** ولقد أبقينا من فعلتنا عبرة بينة **﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾** عن الله حججه ، ويتفكرون في مواعظه

﴿ وَإِلَى مَدْينَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ، فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحده ، واخضعوا له **﴿ وارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ ﴾** وارجوا بعبادتكم إياه ، جزاء اليوم الآخر **﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾** ولا تكثروا في الأرض بمعصية الله ، ولكن توبوا إلى الله منها

---

(١) معنى ﴿ضاق بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره من مجيئهم خوفاً عليهم من الأخباث ، فقد جاءوه بصورة شباب مرد ، فظنهم من البشر

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ
ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

* * *

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ فكذبوا شعيباً فأخذتهم رجفةُ العذاب ، فأصبحوا موتى بعضهم على بعض ﴿ **وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ واذكروا أيها القوم عاداً وثمود ، وقد تبيَّن لكم خراب مساكنهم ، وخلاؤها منهم ، بحلول سطوتنا بهم ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ وحسَّن لهم الشيطان كفرهم ، فردَّهم عن الإيمان بالله ﴿ **وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾ يحسبون أنهم على هدى وصواب ، وهم على ضلال[1] ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ** ﴾ واذكر يا محمد « قارون وفرعون وهامان » ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بالبيِّنَاتِ** ﴾ ولقد جاءهم موسى بالواضحات من الآيات ﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ فاستكبروا في الأرض عن التصديق بآيات الله﴿ **وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** ﴾ وما كانوا ليفوتونا ، بل كنا مقتدرين عليهم ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ** ﴾ فأخذنا جميع هؤلاء المذكورين بعذابنا ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حاصِباً** ﴾ كقوم لوط أرسلنا عليهم حجارة من سجيل منضود ﴿ **ومنهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾ وهم ثمود ومدين ﴿ **ومنهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ** ﴾ وهو قارون ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ وهم قوم نوح ، وفرعون وقومه ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمهُمْ** ﴾ لم يكن الله ليهلك هذه الأمم بذنوب غيرهم فيظلمهم بذلك ، ﴿ **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ وإنما أهلكهم بكفرهم وجحودهم ، فظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم ، وعبادتهم غيره ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ مثل الكفار الذين اتخذوا الآلهة والأوثان أولياء ، يرجون نصرها ونفعها ، في سوء اختيارهم ، وضعف احتيالهم ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً** ﴾ كمثل العنكبوت في ضعفها وقلة احتيالها ، اتخذت لنفسها بيتاً فلم يغن عنها شيئاً ﴿ **وإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ** ﴾ إن أضعف البيوت لبيتُ العنكبوت ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾

---

(١) هكذا فسّرها الطبري، وقال غيره من المفسرين « وكانوا مستبصرين يملكون التبصر لأن لهم عقولاً ومدارك يميزون بها بين الخير والشر، والهدى والضلال ، وهذا المعنى أدق

(٢) هذا مثل ضربة الله للكفار في عبادتهم للأوثان والأحجار ، بمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً تحتمي به من الأهوال والأخطار ، ولكنه =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

* * *

ولكنهم يجهلون ذلك فيحسبون أنهم ينفعونهم ، ويقربونهم إلى الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يعلم حال ما تعبدون من الأوثان ، وأن ذلك لا ينفعكم ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾العزيزُفي انتقامه ممن كفربه ، الحكيم في تدبيره خلقه

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ وهذه الأمثال نمثّلها ونحتج بها للناس ﴿ وَمَا يَعْقِلُها إِلاَّ العَالِمونَ ﴾ وما يعقل أنه أريد بهذه الأمثال الحق ، إلا العالمون بالله وآياته . ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ خلقهما منفرداً لا يشركه في خلقهما شريكٌ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إن في ذلك لحجة ، لمن صدَّق بالحجج والآيات إذا رآها﴿ آتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾إقرأ يا محمد ما أنزل إليك من هذا القرآن ، وأدِّ الصلاةَ التي فرضها الله عليك بحدودها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ إن الصلاة تحول بين المصلي وبين إتيان الفواحش ، ففي إقامة المرء الصلاة ، مزدجرٌ عن الفحشاء والمنكر ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولذكر الله إياكم ، أفضلُ من ذكركم إيّاه[1] ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ لا تخفى عليه أحوالكم وأموركم ، وهو مجازيكم على ذلك . ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولا تجادلوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى ، إلا بالجميل من القول ، بالدعاء لهم إلى الله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ ﴾ إلا الذين امتنعوا عن أداء الجزية ، ونصبوا الحرب فجالدوهم بالسيف ، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيكُمْ ﴾ وإذا حدثكم أهل الكتاب فقولوا لهم : آمنا بالذي أنزل إلينا من القرآن ، وبالذي أنزل إليكم في التوراة والإنجيل ﴿ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ومعبودنا ومعبودكم واحد ، ونحن خاضعون للَّهِ ،

= ضعيف واهٍ في غاية الوهن والضعف .

(١) هكذا فسره الطبري وهو منقول عن ابن عباس فقد سأله رجل عن معنى الآية فقال : ذكرُ الله العبادَ أكبر من ذكر العباد له ، وقال بعض المفسرين المعنى : ذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، فتذكره في صلاتك ، وفي بيعك وشرائك ، وفي جميع شئون حياتك ، ولا تغفل عنه في ليل ولا نهار ، وهو تفسير بديع .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا
يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ
مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

***

متذللون له بالطاعة

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ ﴾ وكما أنزلنا الكتب على الرسل ، أنزلنا إليك هذا القرآن ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ فالذي آتيناهم الكتاب من بني إسرائيل يؤمنون بالقرآن ، ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك من يؤمن به ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ ﴾[1] وما ينكر أدلتنا إلَّا الذي يجحد ربوبيتنا عناداً منه ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ وما كنت يا محمد تقرأ قبل هذا القرآن من كتاب ، ولا تكتب بيمينك شيئاً لأنك أميٌّ ﴿ إِذاً لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ إذاً لشك في أمرك المبطلون ، القائلون إنه كهانةٌ وأساطير الأولين ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ بل العلم بأنك ما كنت قارئاً ولا كاتباً، آياتٌ واضحات في صدور الذين أوتوا لعلم من أهل الكتاب[2] ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ وما يجحد نبوة محمد ﷺ ، إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وقال المشركون : هلَّا أنزل على محمد آية من ربه ، تكون حجة لله علينا ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قل لهم يا محمد إن الآيات عند الله ، لا يقدر على الإتيان بها غيره ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أنذركم بأس الله وعقابه ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهِمْ ﴾ أو لم يكف هؤلاء المشركين ، أنَّا أنزلنا هذا القرآن يقرأ عليهم[3] ؟ ! ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن في هذا الكتاب لرحمة للمؤمنين به، وعظةً وعبرة يتذكرون بما فيه

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ قل يا محمد : كفى الله شاهداً بيني وبينكم ، يعلم المحقَّ

(١) قال العلماء : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وعند ابن جرير أنه لا تعارض بينها وبين آية السيف ، فالجدال لمن دفع الجزية وبقي في أرض الإسلام ، والسيف لمن أبى حكم الإسلام .

(٢) يريد أن أهل الكتاب يعلمون صفة النبي ﷺ وأنه أمي مما قرأوه في كتبهم ، لأنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ومن المفسرين من جعل الضمير للقرآن ، قال ابن كثير : أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق يحفظه العلماء

(١) وفي الحديث « ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أعطي من الآيات ، ما مثلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان .

وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى
لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾
يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ
لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

* * *

منا من المبطل ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه شيء فيهما ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ والذين صدَّقوا بالشرك ، وجحدوا بالله ، أولئك هم المغبونون في صفقتهم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب[١] ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ ﴾ ولولا وقتٌ سميته لهم ، فلا أهلكهم حتى يبلغوه ، لجاءهم العذاب عاجلاً ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وليأتينهم العذاب فجأة ، وهم لا يشعرون بوقته ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لمحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ ﴾ يستعجلك المشركون يا محمد بمجيء العذاب ، والنار محيطة بهم لم يبق لهم إلا أن يدخلوها ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يوم يغشى[٢] الكافرين العذاب من فوقهم في جهنم ، ومن تحت أرجلهم ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويقول الله لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ يا عبادي الذين آمنوا بي وبرسولي ، إن أرضي واسعة ، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم ، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خلقي ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ كل نفسٍ حيةٍ ذائقة الموت ، ثم إلينا بعد الموت تُردُّون .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً ﴾ والذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله ، لننزلنَّهم من الجنة علالي[٣] ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ نعم هذا الجزاء ، جزاءُ العاملين بطاعة الله ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الذين صبروا على أذى المشركين ، وعلى ربهم

---

(١) استعجالهم بالعذاب هو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .
(٢) أي يجلِّلهم ويغطيهم ويحيط بهم العذاب من جميع الجهات
(٣) المراد يسكنهم أعالي الجنة .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

* * *

يعتمدون في جهاد أعدائهم ، فلا ينكلون ثقةً منهم بنصر الله ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ وكم من دابة ، ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب ، لا تحمل غذاءها فترفعه في يومها لغدها ، لعجزها عن ذلك(١) ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ الله يرزقها ويرزقكم يوماً بيوم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ السميعُ لأقوالكم ، العليم بما في أنفسكم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولئن سألت المشركين مَنْ خلق السموات والأرض فسوَّاهن ﴿وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ﴾ يجريان دائبين لمصالح خلق الله ؟! ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ليقولن ـ مقرين ـ الله خلق ذلك وفعله ﴿ فأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فأنّى يصرفون فيعدلون عن إخلاص العبادة له ؟

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ الله يوسع رزقه لمن يشاء من خلقه ، ويضيِّق فيقتِّر لمن يشاء منهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليم بمصالحكم ، وما يصلح لكم من البسط والتقتير ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ ولئن سألتهم من نزَّل من السماء المطر ، فأحيا النبات فيها ، بعد جدوبها وقحوطها ؟ ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ليقولن : الذي فعل ذلك هو الله تعالى ﴿ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إذا قالوا ذلك ، فقل الحمد لله ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون ما فيه النفع وما فيه الضر ، فيحسبون لجهلهم أنَّ عبادتهم للأوثان تقرِّبهم إلى الله

﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا تعليل النفوس بما تلتذ به ، ثم ينقضي عن قريب لا بقاء له ولا دوام ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة ، التي لا زوال لها ولا موت معها ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لو كان المشركون يعلمون ذلك ، لقصَّروا

---

(١) أشار تعالى إلى أنه قد تكفل برزق جميع الخلق ، فالدابة الضعيفة التي لا تقدر على الكسب يرزقها مع ضعفها ، والغرضُ تقوية قلوب المؤمنين ألا يخافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقهم إذا هاجروا

(٢) إنما أمر بحمد الله على ظهور الحجة ، واستبانة المحجة في بطلان عبادة غير الله تعالى

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

***

عن تكذيبهم وإشراكهم[1] ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فإذا ركب المشركون السفينة في البحر ، وخافوا الهلاك فيه ، أخلصوا الدعاء لله عند الشدة ، واستغاثوا به ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فلما سلَّمهم الله وصاروا إلى البر ، إذا هم يدعون الآلهة والأوثان معه أرباباً ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ليجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليهم ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ وكي يتمتعوا آتيناهم ذلك فليكفروا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ماذا يلقون من عذاب الله بكفرهم ؟ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ أولم ير هؤلاء المشركون ، أنَّا جعلنا بلدهم حرماً آمناً ، يأمن فيه من سكنه ؟ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ وتُسلب الناس من حولهم قتلاً وسباءً ؟ ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أفبالشرك بالله يؤمنون بالأوثان ، وبنعمة الله يجحدون ؟ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذباً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أو كذَّب بما بعث به رسوله محمداً ﷺ ، من توحيده والبراءة من الآلهة ، لمَّا جاءه الحق من عند الله ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أليس في النار مسكن ومنزلٌ ، لمن كفر بالله وكذَّب رسوله ؟ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ والذين قاتلوا هؤلاء المفترين، مبتغين بقتالهم نصرة ديننا ، لنوفقنَّهم لإصابة الطرق المستقيمة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ مع من أحسن فجاهد وصدق ، بالعون له والنصرة على أعداء الله .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »

(١) وقيل : المعنى لو كان عندهم فهمٌ وعلمٌ ، لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء .

(٣٠) سورة الروم مكية وآياتها ستون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ
مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ
لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى

***

﴿الٓمٓ﴾[١] ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ غلبت فارسُ الرومَ في أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والروم من بعد ذلك سيغلبون فارس في بضع سنين ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ لله الأمر من قبل غلبتهم فارس وَمن بعد ذلك يقضي في خلقه ما يشاء ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ ويوم تغلب الروم فارس ، يفرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ينصر الله من يشاء من خلقه على من يشاء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشديد في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بمن تاب من خلقه ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعد الله المؤمنين بغلبة الروم فارس ، لأنه ليس في مواعيده خلف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر المشركين لا يعلمون الحقيقة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعلمون ظاهراً من حياتهم الدنيا ، وتدبير معايشهم وما يصلحهم فيها[٢] ﴿وَهُمْ عَنِ الأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم عن أمر آخرتهم غافلون لا يفكرون فيه ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أو لم يتفكر المكذبون بالبعث ، خلق الله إياهم من عدم ، ثم صرفهم أحوالاً ،

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) قال ابن عباس : يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون ؟ وهم عن الآخرة ساهون غافلون .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

* * *

فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على إعادتهم بعد الفناء ؟ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ما خلقهما الله إلا بالعدل ، وإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وأجل مؤقت ﴿وَإِنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ وإن كثيراً من الناس جاحدون منكرون ، جهلاً منهم بأن معادهم إلى الله

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أو لم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد التي يسلكونها للتجارة فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرها في التكذيب ؟ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ كانوا أشد منهم قوة ، واستخرجوا الأرض وحرثوها ، وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء ، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم ، فما أغنت عنهم قوتهم وعمارتهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسل الله بالواضحات من الآيات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فما كان ليظلمهم بعقابه ، على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته ، ولكنهم أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى[١]﴾ ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء ، الخَلَّة التي هي أسوأ من فعلهم ، الهلاك في الدنيا والنار في الآخرة ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأنهم كذبوا بآيات الله ، وكانوا بحجج الله يسخرون ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الله تعالى يبدأ إنشاء جميع الخلق ، ثم يعيده خلقاً آخر بعد إعدامه ﴿ثُمَّ إِلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى الله يُردّون ، لفصل القضاء بينهم

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ويوم تجيء الساعة ييأس[٢] الذين أشركوا بالله ، ويكتئبون ويتندّمون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شفعَاءُ﴾ ولم يكن لهؤلاء المجرمين شُفعاء يشفعون لهم عند الله ،

---

(١) السُّوأى : أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم كما قال ابن عباس وقتادة.

(٢) هكذا فسره الطبري وهو منقول عن ابن عباس ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجلُ إذا سكت وانقطعت حجته .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

***

فيستنقذونهم من عذابه ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وكانوا بشركائهم في الضلالة ، يجحدون ولايتهم ويتبرأون منهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ويوم تجيء ساعة الحساب ، يتفرق أهل الإيمان وأهل الكفر ، فيؤخذ بأهل الإيمان إلى الجنان ، وبأهل الكفر إلى النار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ فأما أهل الإيمان فهم في الرياحين وبين أنواع الزهر في الجنان ، يُسرُّون ويُلذَّذون ، بالسماع وطيب العيش الهني ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وأما الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا رسله وأنكروا البعث والنشور ، فأولئك قد أحضرهم الله النار ، فجمعهم فيها ليذوقوا العذاب ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حَينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ فسبّحوا الله أيها الناس أي صلُّوا له حين تمسون بصلاة المغرب ، وحين تصبحون بصلاة الفجر ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ويحمده وحده جميع خلقه ، من سكان السموات من الملائكة ، وأهل الأرض من أصناف الخلق فيها ﴿وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وسبِّحوه أيضاً في صلاة العصر[1] ، وحين تدخلون وقت الظهر ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ يخرج بقدرته الإنسان الحيَّ من الماء الميت ، ويخرج الماء الميت من الإنسان الحي ﴿وَيُحْيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وينبت الأرض فيخرج زرعها ، بعد خرابها وجدوبها ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وكما يحيي الله الأرض كذلك يحييكم بعد مما تكم ، فيخرجكم أحياء إلى موقف الحساب .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إذا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ومن حججه على قدرته على الإنشاء والإفناء ، خلقه لأبيكم آدم من تراب ، ثم أنتم يا معشر ذريته بشرٌ تتصرفون ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

(١) ذهب ابن جرير الى أن العَشِي من زوال الشمس إلى الغروب ، والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة كما قاله الراغب في المفردات ، وقال ابن كثير : العشاء هو شدة الظلام ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى الصلوات الخمس كما قال ابن عباس :﴿حين تمسون﴾ المغرب والعشاء ، ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة الصبح ﴿وعشياً﴾ صلاة العصر ﴿وحين تظهرون﴾ صلاة الظهر

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم
مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

* * *

﴿أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ومن حججه وأدلته على قدرته أيضاً خلقه لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها[١] ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وجعل بينكم بالمصاهرة مودة تتوادون بها ، ورحمكم بها فعطف بذلك بعضكم على بعض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في ذلك لعبراً لقوم يتفكرون في أدلة الله ، فيعلمون أنه الإلّه الذي لا يعجزه شيء ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومن حججه على قدرته ، خلقهُ السموات والأرض من غير شيء ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ واختلاف لغاتكم وألوان أجسامكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ لعبراً وأدلة لخلقه ، الذين يعقلون أنه لا يعييه شيء ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ومن حججه عليكم مخالفتُه بين الليل والنهار ، فجعل الليل تنامون فيه ، وجعل النهار مضيئاً ، لتصرفكم في معاشكم ، والتماسكم فيه من رزق ربكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في فعل الله ذلك لذكرى ، لقوم يسمعون مواعظ الله فيتعظون بها ﴿وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوفاً وَطَمَعاً﴾ ومن حججه يريكم البرق ، خوفاً لكم إذا كنتم سفراً أن تمطر فتتأذوا به ، وطمعاً لكم إذا كنتم في إقامة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا﴾ وينزل من السماء مطراً ، فيحيي به الأرض الميتة ، فتنبت بعد دروسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لعبراً وأدلة ، لقوم يعقلون عن الله حججه .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ومن حججه على قدرته قيام السماء والأرض ، خضوعاً له بالطاعة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ تخرجون من الأرض مستجيبين لدعوته[٢] ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله جميع ما في السموات والأرض ، من مَلَك ، وجن ،

(١) قال ابن كثير : «أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم ، وهذا القول أظهر والله أعلم .

(٢) المراد إذا دعيتم إلى الخروج من القبور للحساب والجزاء ، وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ، يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة إلا قامت تنظر .

وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

* * *

وإنس مِلْكٌ وعبيدٌ ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل له مطيعون في الحياة والبقاء ،والموت والفناء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يبدأ الخلق من غير أصل ، فينشئه بعد أن لم يكن ثم يفنيه ، ثم يعيده كما بدأه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو أيسرُ عليه[١] ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله المثل الأعلى ، وهو أنه ليس كمثله شيء ، في السموات والأرض ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مارَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ مثَّل الله لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم أيها الناس من عبيدكم ومماليككم ، من شركاء فيما رزقناكم من المال ، فأنتم وهم فيه سواء ؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ تخافون أن يقاسموكم ذلك المال ، كخوف بعضكم بعضاً أن يقاسمه شريكه المال ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء لي في ملكي ، وأنتم وهم عبيدي ومماليكي ؟ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما بينا لكم حججنا على قدرتنا ، كذلك نبين حججنا لقوم يعقلون فيتعظون بها ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولكنَّ الكافرين اتبعوا أهواءهم ، جهلاً منهم بحقِّ الله ، فأشركوا في عبادته الأوثان ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فمن يوفق للإسلام ، من أضله الله عن الاستقامة والرشاد ؟ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وليس لمن أضله الله ، ناصرٌ ينصره فينقذه من الضلال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فسدِّدْ وجهك نحو الإسلام الذي وَجَّهَكَ إليه ربك ﴿حَنِيفاً﴾ مستقيماً لطاعته ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ صنعة[٢] الله التي خلق الناس عليها ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لدين الله ، ولا ينبغي أن يفعل ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ ذلك هو الدين المستقيم ، الذي لا عوج فيه عن الاستقامة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لا يعلمون أن الإسلام هو الدين الحق ، دون سائر الأديان ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين

---

(١) هذا بالنسبة إلى الخلق كما قال الطبري ، وإلاَّ فالكل على الله هيِّنٌ ، وإنما خاطب تعالى العباد ، بما يعقلون .

(٢) فسر الطبري «الفطرة» بمعنى الصنعة ، وقال غيره من المفسرين أي خلقة الله التي خلق الناس عليها ، وهي فطرة التوحيد التي خلقهم الله عليها ، كما في الحديث الصحيح «كلُّ مولود يولد على الفطرة..»

وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

* * *

إلى الله مقبلين إليه[٢] ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وخافوا الله ، وراقبوه أن تركبوا معصيته ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونوا من أهل الشرك بالله بتضيعكم فرائضه وارتكابكم معاصيه

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ من الذين بدَّلوا دينهم وخالفوه ، وكانوا فرقاً وأحزاباً كاليهود والنصارى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كل طائفة من هؤلاء متمسكون بما أحدثوه ، مسرورون بما هم عليه من الدين ، يحسبون الصواب معهم ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وإذا أصاب هؤلاء المشركين شدةٌ وَقحطٌ ، أخلصوا لربهم التوحيد ، وأفردوه بالدعاء والتضرع ، واستغاثوا به ، تائبين إليه من شركهم وكفرهم ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر ، وفرَّجه عنهم ، إذا جماعة منهم يعبدون معه الأوثان ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ كي يجحدوا النعمة التي أنعمتها عليهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوفَ تَعْلَمُونَ﴾ فتمتعوا[٢] بما آتيناكم في هذه الدنيا ، فسوف تعلمون عظيم عقابه ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً بتصديق ما يقولون ، فذلك الكتاب ينطق بصِحة شركهم ؟! ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ وإذا أصاب الناس منا خصبٌ ، ورخاءٌ ، وعافيةٌ فرحوا بذلك ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وإن تصبهم شدةٌ وبلاء ، بما أسلفوا من سيء الأعمال وركبوا من المعاصي ، إذا هم ييأسون من الفرج ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أو لم ير هؤلاء المشركون بعيون قلوبهم ، أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيِّق على من أراد ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في البسط والتضييق ، والغنى والفقر لدلالة واضحة ، لمن صدَّق بحجج الله وأقرَّ بها

(١) الخطاب للنبي ﷺ ولأمته والمعنى أقم وجهك يا محمد للدين الحنيف أنت وأمتك
(٢) هذا على وجه الوعيد والتهديد لا على سبيل الإباحة والأمر

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ
ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ
سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى
عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

* * *

﴿فَآتِ ذَا القُرْبى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فأعط يا محمد قريبك حقه من الصلة والبر ، وأعط المسكين والغريب المنقطع في سفره ، ما فرض الله لهما من الإحسان ﴿ذَلِكَ خَيرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ إيتاء هؤلاء حقوقهم ، خيرٌ للذين يريدون ثواب الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بما ابتغوا

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباًلِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواعِنْدَ اللَّهِ﴾ . وما أعطيتم من عطيَّة ، لتزداد في أموال الناس فلا يزداد عند الله ، لأن صاحبه لم يبتغ في عطائه وجه الله ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُونَ﴾ وما أعطيتم من صدقة ، ملتمسين بذلك وجه الله ، فأولئك هم الذين لهم الضعف ، من الأجر والثواب(١) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ الله الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم رزقكم ولم تكونوا تملكون شيئاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم هو يميتكم ، ثم يحييكم بعد مماتكم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل من آلهتكم التي تجعلونهم لله شركاء ، من يقوم بالخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ؟! فكيف تعبدون من لا يفعل شيئاً من ذلك ؟! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً وعلواً لله ، عن شرك هؤلاء المشركين ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ظهرت المعاصي في كل مكان ، من برِّ الأرض وبحرها ، وانتشر الظلم فيها ، بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كي ينيبوا إلى الحق ، ويتركوا المعصية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قل للمشركين : سيروا في البلاد ، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلكم كيف كان عاقبة كفرهم وتكذيبهم ؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لمن بعدهم ؟ ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أهلكناهم لأن

(١) نبَّه تعالى إلى أن الصدقة يتضاعف أجرها ، وأن الربا يمحقه الله كما قال تعالى ﴿يمحق الله الربا ويُربي الصدقات﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

* * *

أكثرهم كانوا مشركين بالله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ﴾ فوجِّهْ وجهك يا محمد نحو الملة[1] المستقيمة ، التي لا اعوجاج فيها عن الحق ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَمَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ من قبل مجيء يوم عصيب ، لا محالة من مجيئه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ في ذلك اليوم يتفرق الناس فرقتين فريق في الجنة ، وفريق في السعير ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ من كفر بالله ، فعليه أوزار كفره ، وآثام جحوده ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ومن أطاع الله ، فعمل بما أمره وانتهى عما نهاه عنه ، فلأنفسهم يسوُّون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ليجزي الله الذين آمنوا وعملوا بما أمرهم الله ، من فضله الذي وعد به من أطاعه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ لا يحب أهل الكفر به ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ ومن أدلته على وحدانيته وحججه عليكم ، أن يرسل الرياح مبشراتٍ بالغيث والرحمة ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ولينزل عليكم الغيث ، الذي يُحيي بهالبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ ولتجري السفن في البحار بأمره تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ولتلتمسوا من أرزاقه التي قسمها بينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا ربكم على ذلك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً إلى قومهم الكفرة فجاءوهم بالواضحات من الحجج الدالة على صدقهم، فكذبوهم كما كذبك قومك ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فانتقمنا من الذين أجرموا واكتسبوا السيئاتِ ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين على الكافرين ، ونحن ناصروك ومن آمن بك ، على من كفر بك[2] ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الله يرسل الرياح فتنشىء[3] سحاباً ، فينشره الله ويجمعه في السماء كيف يشاء ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ ويجعل

(١) المراد بها ملة الإسلام التي وجهه إليها ربه بقوله ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾.
(٢) الآية تسلية للنبي ﷺ ووعدٌ له بالنصر والظفر على الأعداء .
(٣) فسر ابن جرير «فتثير» بمعنى تنشىء، وقال غيره تحرك السحاب وتسوقه أمامها وهو أظهر .

وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

* * *

السحاب قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ﴾ فإذا صرف ذلك المطر، إلى أرض من أراد من خلقه، رأيتهم يفرحون به ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ وكان هؤلاء قبل أن ينزل عليهم المطر، مكتئبين حزنين باحتباسه عنهم ﴿فَانْظُرْ إِلى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا﴾ فانظر يا محمد إلى آثار الغيث الذي أنزله الله، كيف يحيي الأرض الميتة فينبتها ويعشبها؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ان الذي يحيي الأرض بعد موتها بهذا الغيث، لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو قادر على كل شيء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوهُ مُصْفَراً﴾ ولئن أرسلنا ريحاً مفسدة فرأوا ما أنبته الغيث مصفراً، قد فسد بتلك الريح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ لظلوا من بعد فرحتهم، يكفرون بربهم ﴿فَإِنَّكَ لاتُسْمِعُ المَوتَى﴾ فإنك يا محمد لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين، الذين قد ختم الله على أسماعهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾ كما لا تقدر أن تسمع الصمَّ، الذين سُلبوا السمع الدعاء، إذا هم ولوا عنك مدبرين فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء، لسماع آيات الكتاب، وفهمه ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ﴾ وما أنت يا محمد بمرشد من أعماه الله عن الاستقامة، فصارفُه عن ضلالته التي هو عليها[1] ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ ما تسمع - سماع انتفاع - إلاّ من يصدّق بآياتنا ﴿فهم مُسْلِمُونَ﴾ فهم خاضعون لله، متذللون لمواعظ كتابه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الله الذي خلقكم من نطفة وماء مهين، ثم جعل لكم قوة من بعد ضعفكم بالطفولة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ ثم جعل لكم الضعف بالهرم والكبر، بعد أن كنتم أقوياء في شبابكم، وأحدث لكم الشيب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يخلق ما يشاء من ضعف، وقوة، وشباب، وشيب ﴿وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ وهو العليمُ بتدبير خلقه، والقديرُ على ما

---

(١) هذا مثل ضربه الله للكفار في عدم انتفاعهم بالمواعظ، فشبههم بالموتى وبالصمّ والعمي.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ
لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

***

يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ويوم تجيء ساعة البعث ، يحلف الكفار بأنهم لم يلبثوا في قبورهم ، غير ساعةٍ واحدة ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ كذلك كانوا في الدنيا ، يصرفون عن الصدق إلى الكذب ، كما كذبوا في قولهم : ما لبثنا غير ساعة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُم فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَومِ الْبَعْثِ﴾ وقال أهل العلم والإيمان: لقد مكثتم فيما كتب الله لكم في سابق علمه ، إلى يوم البعث الموعود ﴿فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ﴾ فهذا يوم البعث من القبور ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كنتم في الدنيا لا تعلمون أنكم مبعوثون ولذلك كنتم تكذّبون ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فيوم البعث لا ينفع المكذبين اعتذارهم وقولهم : ما علمنا أنا نبعث ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترجعون عما كانوا يكذبون به في الدنيا[1] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد مثّلنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال احتجاجاً عليهم ، وتنبيهاً لهم على وحدانية الله ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ ولئن جئتهم بدلالة على صدقك ﴿ليقولَنَّ الذين كفروا﴾ ليقولن الذين جحدوا رسالتك ﴿إن أنتم إلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ما أنتم أيها المصدقون لمحمد ، إلَّا مبطلون في هذه الأمور ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كذلك يختم الله على قلوب الكفرة ، الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد ، فلا يفقهون ولا يفهمون ما يتلى عليهم ، فهم في طغيانهم يترددون ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم ، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم ، وتمكين أصحابك حقٌّ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا يستخفن حلمك ورأيك ، هؤلاء المشركون الذين لا يوقنون بالمعاد ، فيثبطوك عن أمر الله ، وتبليغ رسالته .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »

***

(١) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره : لا يطلب منهم الرضا ، فلا يقال لهم : أرضوا ربكم بطاعة أو توبة ، لأنه قد فات أوان التوبة ، وهو الأرجح



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

* * *

﴿ **الٓم . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ** ﴾ هذه آيات القرآن الحكيم[١] ﴿ **هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ بياناً وتفصيلاً من الله ، ورحمة للذين أحسنوا عملهم بما في هذا الكتاب ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ الذين يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها ، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم ﴿ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ وهم بجزاء الله ، وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ هؤلاء على نورٍ من ربهم ، وهم المدركون ما رَجَوا وأمَّلوا من الثواب يوم القيامة ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ يشتري ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله ، ممَّا نهى الله عن استماعه أو رسوله ، ليصدَّ عن دين الله وطاعته ﴿ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ جهلاً منه بما له عند الله ، من الوزر والإثم ﴿ **وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً** ﴾ ويستهزىء بطاعة الله ودينه ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ هؤلاء لهم عذابٌ مذلٌ مخزٍ في نار

---

(١) إنما ناسب وصف الكتاب هنا بوصف « الحكيم » لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة الكريمة الحكمة التي منحها الله لعبده « لقمان » والحِكَم التي نطق بها في وصاياه ، وهي دُرر ثمينة .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

* * *

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وإذا قرئت عليه آيات كتاب الله ، أدبر عنها واستكبر ، كأنه لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ كأنَّ في أذنيه ثقلاً ، فلا يطيق من أجله سماع الحق ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فبشِّر هذا المعرض ، بعذاب موجع له يوم القيامة[١] ﴿ إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إن الذين آمنوا بالله فوحَّدوه ، وصدَّقوا رسوله واتَّبعوه ، وأطاعوا أمر الله ، وانتهوا عمَّا نهاهم عنه ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لهؤلاء بساتين يُنعَّمون فيها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حقاً ﴾ وعدهم الله بذلك وعداً لا شك فيه ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ الشديدُ في انتقامه من الصادِّين عن سبيله ، الحكيمُ في تدبير خلقه .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ومن حكمته أنه خلق السموات السبع ، بغير أعمدة ترونها[٢] ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، لئلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ وفرَّق في الأرض من كل أنواع الدواب ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ وأنزلنا من السماء مطراً ، فأنبتنا بذلك المطر من كل نوع من النبات الحسن ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ هذا الذي خلقته ، هو خلق الله الذي له ألوهية كل شيء ، فأروني ـ أيها المشركون ـ أيَّ شيء خلقته آلهتكم حتى استحقت العبادة ؟ ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ولكنَّ المشركين في عبادتهم للأوثان في جورٍ عن الحق ، وذهابٍ عن الاستقامة ، ظاهر لمن تأمله .

---

(١) نزلت هذه الآيات في « النضر بن الحارث » كان يشتري المغنِّيات ، فلا يسمع بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قينته المغنِّية . فيقول لها : اسقيه خمراً وغنِّيه . ويقول له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصوم والصلاة والقتال بين يديه .

(٢) هذه الجملة الفعلية في موضع نصب على الحال ، أي حال كونكم تشاهدونها بغير أعمدة ، وليست صفة للأعمدة حتى يتوهم وجودها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ ولقد أعطينا لقمان[1] الفقه في الدين، والعقل، والإصابة في القول ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن احمد الله، على ما آتاك من فضله ﴿وَمَنْ يشكر فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن يشكر الله على نعمه، فإنما يشكر لنفسه، لأن الله يجزل له الثواب ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ومن كفر نعمة الله عليه أساء إلى نفسه، لأن الله معاقبه على كفره، واللهُ غنيٌّ عن شكره لا حاجة له إليه، وهو محمودٌ على كل حال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ واذكر يا محمد قول لقمان لابنه وهو ينصحه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ لا تشرك بالله أحداً من خلقه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إن الشرك لخطأ من القول عظيم.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ وأمرنا الإنسان ببر والديه، حملته أمه ضعفاً على ضعف، وشدةً على شدة[2] ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وفطامه في انقضاء عامين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وعهدنا إليه أن أشكر لله على نعمه، ولوالديك على تربيتهما إياك، حتى استحكمت قواك ﴿إِلَيَّ المَصِيرُ﴾ إلى الله مرجعك أيها الإنسان، وهو سائلك عن ذلك ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وإن جاهدك والداك، على أن تشرك في عبادتك إياي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فيما أراداك عليه من الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ وصاحب والديك في الدنيا بالطاعة لهما، فيما لا تبعةَ عليك فيه ولا إثم[3] ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ واسلك طريق من تاب ورجع إلى الإسلام، واتبع محمداً ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) الصحيح الراجح من أقوال المفسرين أنَّ « لقمان » لم يكن نبياً وإنما كان حكيماً، منَّ الله عليه بالحكمة، فكان ينطق بها ويعلّمها الناس، وقد ذكر الله تعالى لنا بعض هذه الحِكَم في هذه السورة الكريمة.

(٢) أوصى تعالى بالوالدين ثم خصَّ الأم بالذكر لبيان ما تقاسيه وما تكابده في سبيل الولد، ولذلك كان حقها أعظم وأكبر من حق الأب.

(٣) لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ
عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم

* * *

فإن مصيركم ومعادكم بعد مماتكم إليَّ ، فأخبركم بجميع ما كنتم تعملونه من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ يا بنيَّ إن الأمر إن تك وزن حبة من خردل ، من خيرٍ أو شرٍ ، فتكن في صخرة ، أو في السموات أو في الأرض ، يأت بها الله يوم القيامة ، حتى يوفيك جزاءه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لطيف باستخراج الحبة من موضعها ، خبير بمخبئها[١] ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ يا بني أقم الصلاة بحدودها ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وأمر الناس بطاعة الله ، واتباع أمره ﴿ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وانْه الناس عن معاصي الله ومحارمه ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ واصبر على ما يصيبك في ذات الله من الأذى[٢] ، ولا يصدّنك عن ذلك ما ينالك منهم ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ممَّا أمر الله به من الأمور عزماً منه ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ولا تعرض بوجهك عمن كلَّمته ، تكبراً واستخفافاً له ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾ ولا تسِرْ في الأرض مختالاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ إن ربك لا يحب كل متكبر ذي فخر ، لا يشكر ربه ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ وتواضعْ واتَّئد في مشيك إذا مشيتَ ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ واخفض من صوتك ، فاجعله قصداً إذا تكلمت ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ إن أقبح الأصوات لصوت الحمير .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ألم تروا ـ أيها الناس ـ أن الله سخر لكم ما في السموات من شمسٍ ، وقمرٍ ، وسحابٍ ، وما في الأرض من دابةٍ ، وشجرٍ ، وماءٍ ،

---

(١) الأولى في تفسير الآية أن يقال: إن الله لطيفٌ بعباده ، خبيرٌ ببواطن الأمور .

(٢) قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره .

(٣) قال قتادة : أقبح الأصوات صوتُ الحمير، أوله زفيرٌ وآخره شهيق .

﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

* * *

وبحرٍ، وفلك يجري ذلك كله لمنافعكم وملاذكم ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ وأسبغ عليكم نعمه ، ظاهرةً على الأبدان والجوارح ، وباطنةً في القلوب ، اعتقاداً ومعرفة[١] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ ومن الناس من يخاصم في توحيد الله ، بغير علمٍ عنده بما يخاصم ، ولا بيانٍ بصحة ما يقول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ولا تنزيلٍ من الله ، ببيان حقيقةِ دعواهِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدِّقوا به ، فإنه يفرق بين المحقِّ والمبطل ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان ، فإنهم كانوا أهل حق ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب النار الملتهبة ، بتزيينه لهم سوء أعمالهم وكفرهم بالله ؟ ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ومن يتذلل للهِ بالعبودية ، مقراً له بالألوهية ، وهو مطيع لله في أمره ونهيه ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ فقد تمسَّك بالطرف الأوثق، الذي لا يخاف انقطاعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وإلى الله مرجع كل أمر فيسأل أهله عنه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ فلا يحزنك يا محمد كفر من كفر، ولا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ[٢] ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ فإن مصيرهم يوم القيامة إلينا، ونحن نخبرهم بأعمالهم الخبيثة ثم نجازيهم عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالمٌ بما تكنّه صدورهم من الكفر ؛ وإيثار طاعة الشيطان ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾نمهلهم في

---

(١) المراد بالنعم الظاهرة النعم الحسِّية كنعمة السمع ، والبصر ، والصحة ، والإسلام ، والمراد بالباطنة النعم المعقولة الخفية كنعمة العقل، والفهم، والمعرفة وما أشبه ذلك .

(٢) في الآية تسلية للنبي ﷺ لكفر من كفر ، وضلال من ضل ، ببيان أن الله سينتقم منهم عاجلاً أو آجلاً

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

* * *

هذه الدنيا قليلاً ثم نوردهم على كُرهٍ منهم عذاب النار الشديد ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق هذه السموات والأرض ؟ ! ليقولنَّ خلقهنَّ الله ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فإن قالوا ذلك، فقل : الحمد لله الخالق ، بل أكثر المشركين لا يعلمون مَنْ الذي له الحمد ؟وأين موضع الشكر ؟ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ للَّهِ كل ما في السموات والأرض من شيء ، ملكاً لا يشركه فيه أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ إن الله هو الغني عن عبادة هؤلاء المشركين ، وعن جميع خلقه ، وهو المحمود على نِعَمه ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ﴾ ولو أن شجر الأرض كلها بُرِيت أقلاماً ﴿وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحر مدادٌ لها ، ومن بعده سبعةُ أبحر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وكُتب كلامُ الله بتلك الأقلام وذلك المداد ، لتكسرت الأقلام ، ولنفد ذلك المداد ، ولم تنفد كلماتُ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن الله ذو عزٍ في انتقامه ممن أشرك به ، حكيمٌ في تدبير خلقه ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ما خلقكم ـ أيها الناس ـ ولا بعثكم على الله ، إلا كخلق نفس واحدةٍ وبعثها ، لأنه يقول للشيء كن فيكون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميعٌ لما يقوله المشركون ، بصيرٌ بما يعملونه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ألم تر يا محمد بعينك، أن الله يزيد من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار ، ويزيد من ساعات النهار في ساعات الليل[١] ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وسخَّر «الشمس والقمر» لمصالح خلقه ، كلٌّ ذلك يجري بأمره إلى وقتٍ معلوم ، وأجلٍ محدود ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وأن الله بأعمالكم ذو

(١) في هذه الآيات أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق ، بعد ذكر دلائل قدرته في الأنفس

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

* * *

خبرةٍ وعلم ، لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيكم على جميع ذلك ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ما أخبرتك من فعل الله تعالى حقاً ، دون ما يدعوه به هؤلاء المشركون، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ البَاطِلُ﴾ وبأن الذي يعبد المشركون من دون الله ، هو الباطل الذي يضمحل فيفنى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ وبأن الله ذو العلو على كل شيء، وكلُّ شيء لـه متذلِّلٌ منقاد ، الكبيرُ الذي كلُّ شيءٍ دونه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ ألم تر أن السفن تجري في البحر، نعمةً من الله على خلقه ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ ليريكم من عِبَره وحججه عليكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍشَكُورٍ﴾إن في جري الفلك في البحر، لدلالةعلى قدرةالله، لكل من صبر نفسه عن محارم الله ، وشكره على نعمه ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وإذا غشي المشركين موج كثير كالظلل ، وخافوا الغرق ، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة ، لا يدعـون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البرِفَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ فلما نجاهم من الغرق، إلى البر الآمن ، فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه ، وهو مع ذلك مضمر الكفر به[١] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ وما يكفر بأدلتنا إلا كل غدَّار بعهده، جحودٍ للنعم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ وخافوا أن يحل بكم سخط الله ، يوم لا تنفع الوسائل إلا وسيلة من صالح الأعمال ﴿إِنَّ وَعـدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن مجيء هذا اليوم حق ، لأن الله قد وعده عباده ، ولا خُلْف لوعده ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذَّاتها ، فتميلوا إليها وتَدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصكـم من عقاب الله ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ ولا يخدعنكـم بالله خـــادع

(١) هكذا فسَّره الطبري وقال غيره المعنى : فمنهم مقتصد في العمل، ومنهم جاحد ، ففي الآية حذفٌ دل عليه قوله (وما يجحد بآياتنا) والمقتصد: هو المتوسط في العمل وهو غير الكافر .

(١) المراد «الغرور» الشيطان لأنه يغرُّ الإنسان ويخدعه، حتى يصرفه عن طاعة الله

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

* * *

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إن الله وحده الذي يعلم الساعة، التي تقوم فيها القيامة، لا يعلم ذلك أحد غيره[1] ﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ وينزل المطر من السماء، لا يقدر على ذلك غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ والله يعلم ما في أرحام الإناث ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ وما تعلم نفسُ حيٍ ماذا تعمل في غد ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وما تعلم نفس حيٍّ بأيِّ أرضٍ تكون منيَّتُها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ إن الذي يعلم ذلك كله هو الله ، دون كل أحد سواه لأنه عالمٌ بكل شيء ، خبير بما هو كائن وما قد كان

« تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمـان »

* * *

(١) هذه هي المغيَّبات الخمس التي استأثر الله عز وجل بعلمها ففي الحديث الصحيح «مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله . . وتلا الآية ، أخرجه البخاري» .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

* * *

﴿ الٓمٓ ﴾ أسلفنا الكلام على الحروف المقطعة بما أغنى عن إعادته ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ هذا الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ ، لا شك فيه أنه منزَّل من رب « الثَّقَلين » الإنس والجن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أم يقول المشركون : اختلق محمد هذا الكتاب من قِبَل نفسه ﴿ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ليس كما يزعمون ، بل هو الحق والصدق من عند ربك ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أنزله إليك لتنذر قوماً بأس الله وسطوته ، أن يحل بهم على كفرهم ، ولم يأتهم نذير قبلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ليتبيَّنوا سبيل الحق فيتَّبعوه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ المعبود الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من خلق ، في مقدار ستة أيام ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ثم علا ـ بعد خلقه السموات والأرض ـ على العرش[1] ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ما لكم ـ أيها الناس ـ دون الله وليٌّ يلي أمركم ، وينصركم ممَّا أراده بكم ، ولا شفيعٌ يشفع لكم عنده إن عاقبكم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون ،فتفردوا له الألوهية ، وتخلصوا له العبادة ؟ ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ هو الذي يدبر أمر خلقه ، من السماء إلى

(١) علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ، ولا تكييفٍ ، ولا تشبيهٍ ، ولا تعطيل كما هو مذهب السلف الصالح .

إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ
ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

* * *

الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره في عروج ذلك الأمر إليه ، ونزوله إلى الأرض(١) ، ألف سنة من أيامكم ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾هذا الفاعل لما ذُكِرهو عالمِما يغيبعن أبصاركم ، وما شاهدته الأبصار ، الشديدُ في انتقامه ممن كفر به ، الرحيمُ بمن تاب من ضلالته ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الذي أحكم كل مخلوقٍ له ، وأتقن صنعته(٢) ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ وبدأ خلق « آدم » من طين ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ ثم سوَّى الإنسان خَلْقاً معتدلاً ، ثم نفخ فيه من روحه ، فصار حيّاً ناطقاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ وأنعم عليكم بأن أعطاكم ما تسمعون به الأصوات ، وما تُبصرون به الأشخاص ، وما تعقلون به الخير والسوء ، لتشكروه على ما وهبه لكم ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ وأنتم تشكرون ربكم قليلاً على نعمه ﴿ وَقَالُوا أَئِذَاضَلَلْنَافِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقال المكذبون : إذا هلكت أجسادنا في الأرض ، أئنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ ! ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ بل هم كافرون بالله ، يجحدون لقاء ربهم حذر عقابه ، وخوف مجازاته ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ قل يا محمد : يستوفي ملك الموت عددكم ، بقبض أرواحكم الذي وُكِّل بقبضها ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم إلى ربكم تردون أحياء يوم القيامة ، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين ، إذْ هم مطرقو رؤوسهم عند ربهم حياءً منه ، للذي سلف منهم من معاصيه في الدنيا ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

---

(١) قال ابن عباس : ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، وينزل ما دبَّره وقضاه ، ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ، ومعنى العروج : الصعود .

(٢) المعنى أنه تعالى أتقن وأحكم كل شيء خلقه وأوجده،قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنةٌ محكمة .

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ۩ تَتَجَافَىٰ
جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن
قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾

* * *

﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ يقولون : يا ربنا أبصرنا ما كنا نكذِّب به من عقابك ، وسمعنا منك تصديق رسلك ، فارددنا إلى الدنيا نعمل فيها بطاعتك ﴿ إِنَّامُوقِنُونَ ﴾ إنا قد أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ولو شئنا لأعطينا هؤلاء المشركين رشدهم ، ووفقناهم للإيمان ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي ﴾ ولكن وجب مني العذاب لهم ﴿ لأَمْـلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ لأملأن جهنم من أهل المعاصي ، والكفر بالله من الجنِّ والإنس جميعاً ﴿ فَذوقُوا بِمَانَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسينَاكُمْ ﴾ يقول الله لهم إذا دخلوا النار : ذوقوا عذاب الله ، بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنَّا تركناكم اليوم في النار ﴿ وَذُوقُواعَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويقال لهم أيضاً : ذوقوا عذاباً دائماً إلى غير نهاية ، بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله

﴿ إِنَّما يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ﴾ ما يصدِّق بحججنا وأدلتنا ، إلا القوم الذين إذا وعظوا بها ، خرُّوا لله سجداً لوجوههم ، تذللاً لعظمته ، وإقراراً له بالعبودية ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ وسَبَّحُوا الله في سجودهم ، متبرئين مما يصفه أهل الكفر ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وهم لا يستنكفون عن التذلل له ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ﴾ تتنحى جنوب هؤلاء عن مضاجعهم في الليل ، لا ينامون[١] ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً ﴾ يدعون ربهم خوفاً من عقابه ، وطمعاً في عفوه ورحمته ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وينفقون مما رزقهم الله في سبيله ، ويؤدون منه الحقوق الواجبة عليهم ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيِنٍ ﴾ فلا تعلم نفسٌ ما أخفى الله لهؤلاء يوم القيامة ، ممَّا تقرُّ بهأعينهم في جناته ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُوايَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً لهم على أعمالهم في الدنيا ﴿ أَفَمنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ﴾ أفهذا الكافر المكذب بوعد الله ووعيده ، المخالف أمر الله ونهيه ، كهذا المؤمن المطيع لله ، المصدِّق

(١) الغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم لعبادة الله كقوله تعالى ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾.

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ
عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

* * *

بوعده ووعيده ؟ ! ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ كلا ، لا يعتدل الكفار بالله والمؤمنون به يوم القيامة[١] ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوَىٰ ﴾ أما الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمروا به ، فلهم بساتين المساكن التي يأوون إليها في الآخرة ، ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أنزلهم الله إياها نزلاً ، جزاء لهم بما كانوا في الدنيا يعملون بطاعته ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ وأما الذين كفروا بالله ، وفارقوا طاعته ، فمساكنهم التي يأوون إليها في الآخرة النار ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ لا يخرجون من النار أبداً ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ويقال لهم : ذوقوا لهب النار ، الذي كنتم كذبتم في الدنيا أن الله أعدها للمشركين ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَىٰ ﴾ ولنعذبنَّهم في الدنيا بالبلاء ، والشدائد ، والمصائب ﴿ دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قبل عذاب يوم القيامة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ كي يرجعوا ويتوبوا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وأيُّ الناس أظلم لنفسه ، ممن وعظه الله بحججه ، وآي كتابه ، ثم أعرض عن ذلك كله فلم يتعظ ؟ ﴿ إِنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ إنا منتقمون من الذين اكتسبوا الآثام ، واجترحوا السيئات ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، فلا تكن في شك من لقائه ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وجعلنا موسى[٢] رشاداً لبني إسرائيل ، يرشدون باتباعه ، ويصيبون الحق بالاقتداء به ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ وجعلنا من « بني إسرائيل » قادةً في الخير ، يُؤتَمُّ بهم ، ويُهتدى بهديهم ، بإذننا لهم بذلك ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ لصبرهم عن الدنيا وشهواتها ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وكانوا أهل يقين ، بما

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه ، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة ، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسله . المختصر ٣/ ٧٦

(٢) أعاد الإمام ابن جرير الضمير إلى موسى ، والظاهر أن الضمير يعود إلى التوراة أي وجعلنا التوراة هداية ورشاداً لبني إسرائيل من الضلالة ، وهذا هو الذي رجحه البيضاوي وأبو السعود .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

* * *

دلَّهم عليه من حججنا ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ إن ربك يا محمد هو يُبين[1] يوم القيامة لجميع خلقه ، ما كانوا فيه في الدنيا يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب ، والعقاب، فيفرق بين أهل الحق، وأهل الباطل ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ أو لم يظهر لهم كثرة إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم ، يمشون في بلادهم وأرضهم ؟ ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ** ﴾ إن في إهلاكنا سكانها ، لما كذبوا رسلنا ، لآيات لمشركي قومك يتعظون بها ﴿ **أَفَلَا يَسْمَعُونَ** ﴾ عظاتِ الله ، وتعريفهم مواضع حججه ؟

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ** ﴾ أو لم ير هؤلاء المكذبون بالبعث أنا بقدرتنا نسوق الماء ، إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ؟ ﴿ **فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ** ﴾ فنخرج بذلك الماء زرعاً خضراً ، تأكل منه مواشيهم ، وتتغذَّى به أبدانهم وأجسامهم ، فيعيشون به ؟ ! ﴿ **أَفَلَا يُبْصِرُونَ** ﴾ أفلا يرون ذلك بأبصارهم ، فيعلموا قدرة الله على إحيائهم بعد الموت ؟ ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** ﴾ ويقولون : متى يجيء العذاب، إن كنتم صادقين أنا معاقبون على عبادتنا الأوثان ، وتكذيب محمدٍ عليه الصلاة والسلام ؟ ﴿ **قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَروا إِيمَانُهُمْ** ﴾ قل يا محمد لهم : يوم مجيء العذاب، لا ينفع من كفر بالله وبآياته إيمانهم في ذلك الوقت ﴿ **وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** ﴾ وهم لا يؤخرون للتوبة والمراجعة ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين ، وانتظر ما الله صانع بهم ، إن المشركين منتظرون ما تعدهم من العذاب ، ومجيء الساعة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »

---

(١) الأظهر أن معنى « يفصل » يقضي ويحكم، وقول الطبري : يُبين بعيد .

(٢) فسَّر الطبري « يوم الفتح » بيوم مجيء العذاب ، وقال غيره من المفسرين : يوم الفتح هو يوم النصر والغلبة ، فقد كان المشركون يقولون للمسلمين سخرية واستهزاء : متى ستنصرون علينا ، ويكون لكم الغلبة والفتح علينا ؟ فأخبرهم تعالى أن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي ، لأن الله يفصل فيه بين المؤمنين والمشركين ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ
فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم

***

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ يا أيها النبي اتق الله بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء عن محارمه، ﴿وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولا تطع الكافرين الذين يطلبون طرد أتباعك من الضعفاء، ولا تطع الذين يظهرون لك الإيمان بالله، والنصيحة لك، وهم لا يألونك، وأصحابك، ودينك خبالاً، فلا تقبل منهم رأياً، ولا تستشرهم فإنهم لك أعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ إن الله عالمٌ بما تضمره نفوسهم، وما يقصدون بنصيحتهم لك، حكيمٌ في تدبير أمرك، وأمر جميع خلقه ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ واعمل بما ينزل الله عليك من وحيه، وآي كتابه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ إن الله بما تعمل به أنت وأصحابك، ذو خبرة، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوِّضْ إلى الله أمرك، وثقْ به ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ وحسبك الله حفيظاً لك يا محمد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ ليس لأحد من خلق الله قلبان، يعقل بهما في جوفه[1] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يجعل الله نساءكم اللائي تقولون لهن: «أنتنَّ علينا كظهور أمهاتنا» أمهاتكم حقيقة ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ولم يجعل الله من

---

(١) في الآية ردٌّ على كفار قريش حيث كانوا يعتقدون بأن الشخص اللبيب الأديب له في صدره قلبان، حتى اشتهر عندهم «جميل بن مَعْمر» بأنه ذو القلبين لشدة دهائه، وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد!! فنزلت الآية.

بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

* * *

ادَّعيتَ أنه ابنك(١) وهو ابن غيرك ـ ابنك بدعواك ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ هذا الادعاء كلام لا حقيقة له ، لا يثبت به نسب ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ ﴾ والله هو الصادق الذي يقول الحق ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ والله يبين لعباده سبيل الحق، ويرشدهم إليه ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم ، هو أعدل عند الله وأصدق، وأصوب من ادعائهم أبناء ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فإن لم تعلموا آباء أدعيائكم لتنسبوهم إليهم ، فهم إخوانكم في الدين ، إن كانوا من أهل ملتكم، ومواليكم إن كانوا محرريكم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ ولا حرج عليكم ولا وزر ، في خطأ يكون منكم ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم والحرج فيما تعمدت قلوبكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وكان الله ساتراً على ذنوب عباده إذا تابوا، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد التوبة ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ محمدٌ ﷺ أحقُّ بالمؤمنين من أنفسهم، أن يحكم فيهم بمايشاء﴿ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ وحرمة أزواجه كحرمة أمهاتهم عليهم ، فيحرم نكاحهن من بعد وفاته ﷺ(٢) ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ﴾ وأولوا الأرحام أحق بميراث بعض ، من المؤمنين والمهاجرين أن يرث بعضهم بعضاً بالهجرة والإيمان دون الرحم(٣) ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ إلا أن تقدِّموا إلى أوليائكم ـ الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبينكم ـ معروفاً، من الوصية لهم ،والنصرة،والعقل عنهم، وما أشبه ذلك ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك الحكم في اللوح المحفوظ مكتوباً

(١) الأدعياء : جمع «دَعِيّ» وهو الولد المتبنَّى المنسوب إلى غير أبيه ، كذا في لسان العرب .

(٢) هذا في تحريم النكاح ، فقط،فلا تجوز الخلوة بهن ، أو رؤيتهن من غير حجاب كالأمهات، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن ، وأخواتهن بالإجماع .

(٣) وهذه الآية ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

* * *

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ واذكر حين أخذنا من النبيين عهدهم ، ومنك يا محمد وسائر الأنبياء المذكورين(١) ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً ، أن يصدِّق بعضهم بعضاً ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، فيما أبلغوهم عن ربهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وأعدَّ الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ يا معشر المؤمنين اذكروا نعمة الله التي أنعمها على جماعتكم ، حين حوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق(٢) ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ حين جاءتكم جنود الأحزاب «قريش ، وغطفان، ويهود بني النضير» ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ فارسلنا عليهم ريح «الصَبا» حتى كفأت قدورهم ، ونزعت خيامهم ، وأرسلنا عليهم الملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ وكان الله بأعمالكم يومئذ بصيراً ، لا يخفى عليه شيء ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ حين جاءتكم جنود الأحزاب «قريظة» من فوقكم، و «قريش وغطفان» من أسفل منكم ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ وإذ عَدَلت الأبصارُ عن مقرها وشَخَصتِ طامحة ، ونَبتْ القلوبُ عن أماكنها من الرعب، فبلغت إلى الحناجر ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ وتظنون بالله الظنون الكاذبة ، وأيقن المؤمنون بوعد الله لهم بالنصر ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ عند ذلك اختُبر إيمانُ المؤمنين ، ومُحِّص القومُ ، فعُرف المؤمن

(١) هؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل الكرام ، وهم خمسة «نوح، إبراهيم ، موسىٰ ، عيسىٰ ، محمد» صلوات الله عليهم أجمعين، وخصّهم بالذكر لأنهم قادة الرسل، وقدَّم نبينا عليه السلام تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على أنه سيِّد الرسل .

(٢) هذه الآيات تتحدث عن «غزوة الأحزاب » التي تجمعت فيها القبائل على المسلمين، وتعاونوا على حربهم مع يهود «بني قريظة» ويهود «بني النضير» وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، ولهذا سميت غزوة الأحزاب، كما تسمى «غزوة الخندق» لأن الرسول ﷺ أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة المنورة.

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

***

والمنافق، وحُرِّكوا بالفتنة تحريكاً شديداً[١] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وإذ يقول الذين نافقوا والذين في قلوبهم شك في الإيمان ، وضعف في اعتقادهم بالله ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ ما وعدنا الله ورسوله بالنصر إلا غروراً[٢] ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وإذ قال بعضهم: يا أهل المدينة لا مكان لكم تقومون فيه ، فارجعوا إلى منازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ويطلب بعضهم من رسول الله ﷺ الإذن بالإنصراف إلى منزله ، لأنها خالية ليس هناك ما يحجبها من العدو ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وليست بيوتهم خالية ضائعة ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّافِرَاراً﴾ ولكنهم يريدون الفرار والهرب، من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ ولو دخلت المدينةُ على هؤلاء من جوانبها، ثم سئل هؤلاء الرجوع من الإيمان إلى الشرك لفعلوا[٣] ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ وما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلا قليلاً ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ولقد كان المستأذنون بالانصراف، عاهدوا الله من قبل ذلك ، أن لا يولوا عدوهم الأدبار فينهزموا ، إن لقوهم في مشهدٍ لرسول الله ﷺ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ وسيسألهم الله عزّ وجل عن ذلك العهد

---

(١) انظر إلى تصوير المعركة حيث يصوّرها القرآن بأدقّ صورة وأوضح بيان ، حيث تألبت قوى الشر والعدوان على المؤمنين «قريظة، وقريش، وغطفان، وبنو النضير» فأحكموا الخناق حول المدينة المنورة ، وجاءوهم من كل الجهات ، حتى زاغت أبصار المسلمين من كثرة الأعداء ، وحتى كادت القلوب تصل إلى الحناجر من شدة الهول والفزع ، وهناك كان الابتلاء الشديد بالخوف والجوع ، والقتال والنزال ، ونجم قرن النفاق حتى قال المنافقون﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾في ذلك الوقت العصيب من الزلزلة والاضطراب، والكرب يأخذ بالأنفاس والخناق، جاء النصر والمدد للمؤمنين،فأرسل الله الريح الشديدة على الأعداء ، وأنزل الملائكة الأشداء لعون المؤمنين ، ولهذا ذكرهم تعالى بنعمته العظيمة عليهم في هذه الغزوة .

(٢) هذا قول المنافق «معتب بن قشير» الذي قال: يعدنا محمد كنوز «كسرى» و «قيصر» وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ليتبرز ، ما هذا إلا وعد غرور يعدنا به محمد !!

(٣) معنى الآية أنه لو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ، ثم طلبوا منهم أن يكفروا وأن يقاتلوا معهم المسلمين ، لفعلوا ذلك مسرعين ، وذلك لنفاقهم وضعف إيمانهم.

قُلْ لَن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ

* * *

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ؛ لأن ما كتب الله واصلٌ إليكم بكل حال ﴿ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ولن يزيد الفرار في أعماركم إذا فررتم ، إنما تمتعون في هذه الدنيا ، إلى الوقت الذي كُتِب لكم ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ وقل لهم : من الذي يمنعكم من الله ، إن هو أراد بكم سوءاً في أنفسكم ، من قتلٍ أو بلاء ، أو أراد بكم رحمةً من عافيةٍ وسلامة ؟! ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ ولا يجد هؤلاء المنافقون من دون الله ، ولياً يليهم بالكفاية ، ولا نصيراً ينصرهم ، فيدفع عنهم ما أراده الله بهم من سوء .

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ قد يعلم الله الذين يعوِّقون الناس[1] منكم عن رسول الله ﷺ فيصدونهم عن شهود الحرب معه ، نفاقاً منهم ، وتخذيلاً عن الإسلام وأهله ﴿وَالقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ والقائلين لإخوانهم تعالوا إلينا ودَعُوا محمداً ، فلا تشهدوا معه مشهده ، فإنا نخاف عليكم الهلاك ﴿وَلاَ يَأْتُونَ البَأْس إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولايشهدون الحرب والقتال ـ إن شهدوا ـ إلاّ تعذيراً[2]، ودفعاً عن أنفسهم من المؤمنين ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء على المؤمنين في الخير ، والغنيمة ، والنفقة في سبيل الله ،لِما في أنفسهم من العداوة والضغن ﴿فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فإذا حضر الناس، وجاء القتال، خافوا الهلاك والقتل ، رأيتهم يا محمد ينظرون إليك لواذاً بك ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾ تدور أعينهم ، خوفاً من القتل وفراراً منه، كدوران عين الذي يغشاه الموت النازل به ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فإذا انقطعت الحرب واطمأنوا ،رمَوْكم بألسنة

---

(١) المعوِّق : المثبِّط للهمم والعزائم، الذي يعوِّق الناس عن الجهاد وفعل الخير .
(٢) التعذير: أن يفعل ما يُعذر به وأن يُقدم معذرته أمام خصمه .

سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾
يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

* * *

ذرية مؤذية **﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾** بخلاء على الغنيمة ، إذا ظفر المؤمنون **﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾** أولئك لم يصدِّقوا الله ورسوله ، فأذهب الله أجور أعمالهم وأبطلها **﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾** وكان إحباط أعمالهم يسيراً على الله **﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾** يحسب المنافقون «قريشاً وغطفان» لم ينصرفوا من جبنهم وهَلَعهم منهم ، وإن كانوا قد انصرفوا **﴿وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾** وإن يأت الأعداء لحرب المؤمنين ، يتمنوا ـ من الخوف والجبن ـ أنهم غائبون عنكم في البادية مع الأعراب خوفاً من القتل **﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾** يستخبرون عن أخباركم الناس بالبادية : « هل هلك محمد وأصحابه؟ » **﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾** ولو كانوا أيضاً فيكم ما نفعوكم ، وما قاتلوا المشركين إلا تعذيراً **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** لقد كان لكم في رسول الله ﷺ قدوة حسنة ، أن تتأسوا به ، وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه **﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾** فإنَّ من يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة ، لا يرغب بنفسه عن رسول الله ﷺ **﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾** وأكثر ذكر الله في الخوف ، والأمن ، والشدة والرخاء **﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** ولما عاين المؤمنون جماعات الكفار، قالوا ـ تسليماً منهم لأمر الله ـ هذا ما وعدنا الله به ورسوله من الابتلاء والمحنة **﴿وَصَدَقَ اللَّهُ ورسوله﴾** وصدق الله في وعده، ورسوله فيما بشَّرنا به **﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾** وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم ، إلا إيماناً بالله ، وتسليماً لقضائه وأمره **﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾** من المؤمنين رجالٌ أوفوا بما عاهدوا الله عليه ، من الصبر على البأساء والضراء ، وحين البأس **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾** فمنهم من فرغ من نذره فاستشهد ، ومنهم من ينتظر قضاءه على الوفاء بالعهد،

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾
وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ
ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ
إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

* * *

والظفر على عدوه[١] ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ وما غيروا العهد كما فعل المعوِّقون ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ليثبِّت الله أهل الصدق، بصدقهم الله ما عاهدوه عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعذِّب الله المنافقين بكفرهم ونفاقهم، بأن لا يوفقهم للتوبة حتى يموتوا على كفرهم، فيستوجبوا بذلك العذاب، أو يتوب عليهم فيهديهم للإيمان فلا يعذبهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ساتراً لذنوب التائبين، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد التوبة.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ وردَّ الله الكافرين من قريش وغطفان، بغمِّهم وخيبتهم لم يصيبوا من المسلمين مالاً ولا إساراً ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ وكفى الله المؤمنين الحرب، بجنودٍ من الملائكة والريح، بعثها على الأحزاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِياً عَزِيزاً﴾ والله قويٌّ على فعل ما يشاء، شديدٌ في انتقامه من أعدائه ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ وأنزل الله «بني قريظة» الذين أعانوا الأحزاب على رسول الله ﷺ من اليهود من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وألقى في قلوبهم الخوف ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ تقتلون رجالهم، وتأسرون نساءهم وذراريّهم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ وملَّككم-بعد مهلكهم- مزارعهم، ومساكنهم، وأموالهم، ويورثكم أرضاً لم تطئوها، ممَّا يفتح الله عليكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ وكان الله ذا قدرة على نصره إياهم، لا يتعذر عليه شيء أراده ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ قل يامحمد لأزواجك: إن كنتنَّ تردن الدنيا وزينتها، فإني أمتعكن بما أوجب الله من المتعة عند الفراق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ وأطلقكنَّ على ما أذن الله به، وأدَّب به عباده ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ وإن كنتن

(١) الظاهر في معنى الآية- والله أعلم - أن منهم من نال مراده فاستشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله.

وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

* * *

تردن رضا الله ورضا رسوله وطاعتهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عظيماً﴾ فإن الله أعد للعاملات منكن بأمر الله ، وأمر رسوله ، أجراً عظيماً[1] ﴿يَانِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنْ﴾ يا نساء النبي من يقترف منكن إثماً ، يُضاعف لها العذاب في الآخرة ضعفين[2] ، على أزواج غيره من الناس ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ وكانت مضاعفة العذاب سهلة على الله ، على من فعل ذلك منهن ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ ومن يطع الله ورسوله منكن ، وتعمل بما أمر الله به ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعطها الله ثواب عملها ، مثلي ثواب عمل غيرها من سائر نساء الناس ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ وهيأنا لها في الآخرة ، عيشاً هنيئاً في الجنة ﴿يَانِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ لستن كأحد من نساء هذه الأمة ، إن اتقيتن الله ، فأطعتنَّه فيما أمركنَّ ونهاكنَّ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فلا تلنَّ بالقول للرجال، فيطمع الذي في قلبه ضعف إيمان ، إما لنفاقٍ فيستخفُّ بحدود الله، أو لتهاونٍ بإتيان الفواحش ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ وقلن قولاً قد أذن الله لكم به وأباحه ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ واقررن في بيوتكن ، ولا تُبْرزن محاسنكنَّ للرجال، كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولى قبل الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأقمن الصلاة المفروضة ، وآتين الزكاة الواجبة عليكن في أموالكن ، وأطعن الله ورسوله فيما أمرا ونهيا ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾ إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمد

(١) نزلت الآيات في تخيير رسول الله ﷺ لنسائه عندما طلبن منه التوسعة في النفقة ، وبدأ بالسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثم بقية نسائه فاخترن جميعاً الله ورسوله والدار الآخرة ، رضي الله عنهن وأرضاهن ، وانظر قصتهن في تفسير ابن كثير ٩٢/٣
(٢) لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة، قال ابن عباس يعني النشوز وسوء الخُلق .

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ
وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ
وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ
وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

* * *

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ويطهركم من الدنس الذي يكون في أهل المعاصي تطهيراً ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ﴾ واذكرن نعمة الله عليكن ، بأن جعلكنَّ في بيوت تُقرأ فيها آيات كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ،فاشكرن الله على ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ إن الله كان ذا لطف بكنَّ،حين جعلكن في تلك البيوت ، خبيراً بكنَّ حين اختاركنَّ أزواجاً لرسوله ﷺ .

﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ﴾ إن المتذللين لله بالطاعة والمتذللات ﴿وَالمُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾ والمصدِّقين رسول الله فيما أتاهم به من عند الله والمصدقات ﴿وَالْقَانِتِينَ والقَانِتَاتِ﴾ والمطيعين الله فيما أمر ونهى والمطيعات ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصادقين الله فيما عاهدوه عليه والصادقات ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصابرين لله في البأساء والضراء ، على الثبات على دينه والصابرات ﴿وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ﴾ والخاشعة قلوبهم وَجَلاً من الله ومن عقابه ، والخاشعات ﴿وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والمؤدِّين حقوق الله من أموالهم ، والمؤديات ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ والصائمين شهر رمضان الذي فرض الله صومه ، والصائمات ﴿وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ﴾ والحافظين فروجهم عن المحارم إلا على أزواجهم،أوما ملكت أيمانهم ، والحافظات ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ والذاكرين الله بقلوبهم ، وألسنتهم،وجوارحهم، والذكرات كذلك ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم ، وثواباً عظيماً في الآخرة هو الجنة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ لم يكن لمؤمنٍ بالله ورسوله ، ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم بحكم ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا الأمر والقضاء[١] ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾ ومن يعص الله ورسوله

(١) نزلت الآية حين خطب رسول الله ﷺ السيدة «زينب بنت جحش» لمولاه ومتبنَّاه «زيد بن حارثة» فكرهت ذلك وكره أخوها لنسبها من قريش ، واستنكفت وأبت وقالت : أنا خير منه حسباً، فلما نزلت الآية رضيت وأذعنت،قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا رأي ولا اختيار لأحد .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ
وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ

* * *

فيما أمرا أو نهيا فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وأَنْعَمتَ عَلَيْهِ﴾ واذكر يا محمد حين تقول للذي أنعم الله عليه بالهداية، وأنعمت عليه بالعتق، وهو «زيد بن حارثة» عندما أراد فراق زوجه «زينب بنت جحش» ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أمسك عليك زوجك ، وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها لتتزوجها ، إن هو فارقها ، والله مظهرٌ ما تخفي في نفسك من ذلك[1] ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وتخشى مقالة الناس في تزوجك مطلقة متبنَّاك، واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلما قضى «زيد بن حارثة» من زينب حاجته ، زوجناك «زينب» بعد ما طلقها «زيدٌ» وبانت منه ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ لكي لا يكون حرج على المؤمنين في نكاح نساء من تبنوا وليسوا ببنيهم ولا أولادهم ـ إذا هم طلقوهـنَّ وفارقوهنَّ ، وقضـوا منهن حاجاتهم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ وكان ما قضى الله من قضاء كائناً لا محالة ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ما كان على النبي من إثم، فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه ، بعد فراقه إياها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مثل فعله تعالى بمن قبله من الرسل، في أنه لم يؤثِّمهم بما أحلَّ لهم[2] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ وكان أمر الله قضاء مقضياً ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ﴾ سنته تعالى في الرسل الذين يبلّغون رسالات الله ، إلى من أرسلوا إليه ، ويخافون الله في تركهم تبليغ

(١) هكذا قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى ـ وقد أورد رواية عن علي بن الحسين أنه قال : إن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ـ رضي الله عنه . ليشكوها إليه قال : اتق الله ، وأمسك، عليك زوجك. فقال الله له: قد اخبرتك اني مزوجها لك وتخفي في نفسك ما الله مبديه ؟ وقد ذكر هذه الرواية الإمام ابن كثير عن ابن أبي حاتم ، وهذه الرواية تتمشى مع ظاهر الآيات ، لأن الله تعالى لم يبد محبة الرسول لزينب ، وإنما أظهر أنه سيزوّجه إياها﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ والله أعلم . وانظر الردَّ على المستشرقين بالحجج الدامغة التي تقصم ظهر الباطل في كتابنا « صفوة التفاسير » ج٢ ص ٥٢٧ .

(٢) أي هذه سنته تعالى في جميع الأنبياء السابقين، حيث وسَّع عليهم فيما أباحه لهم، وقد سنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح ، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان عليهما السلام .

وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

* * *

ذلك، ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ وكفاك يا محمد بالله حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً لهم عليها.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ما كان محمد أبا «زيد بن حارثة» ولا أبا أحد من رجالكم، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنه رسول الله، وخاتم النبيين الذي ختم الله به النبوة، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ وكان الله عالماً بكل شيء من أعمالكم، لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، اذكروا الله بقلوبكم، وألسنتكم، وجوارحكم، فلا تخلو أبدانكم عن ذكره، في حالٍ من الأحوال ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وصلُّوا له «غدوةً» صلاة الصبح، و «عَشِياً» صلاة العصر[1] ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ ربكم الذي تذكرونه، يرحمكم إذا أنتم فعلتم ذلك، ويثني عليكم هو، وتدعو لكم ملائكته ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ليخرجكم من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإسلام ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ يرحمهم فيقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ تحية هؤلاء المؤمنين في الجنة أن يقول بعضهم لبعض: أمنةٌ لنا ولكم من الله ـ بدخولنا هذا المدخل ـ أن يعذبنا بالنار أبداً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ وأعدَّ لهم ثواباً على طاعتهم إياه، وهو الجنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك، بإبلاغك لهم الرسالة ﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ومبشرهم بالجنة إن صدَّقوك، وعملوا بما جئتهم به، ونذيراً من النار إن هم كذبوك، وخالفوا ما جئتهم به ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ وداعياً إلى توحيد الله، وإخلاص الطاعة لوجهه، بأمره تعالى ﴿وَسِرَاجاً

(١) هكذا قال الإمام الطبري، وقال غيره من المفسرين: سبحوا ربكم في الصباح والمساء، بالتهليل، والتحميد، والتمجيد، والتقديس، فالمراد به التسبيح حقيقة وهو الأظهر.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا
لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ
مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ

* * *

﴿مُنِيراً﴾ وضياء لخلقه ، يستضيء عباده بالنور الذي أتيتهم به من عند الله **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾** وبشر يا محمد أهل الإيمان، بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه ، تضعيفاً كثيراً **﴿وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾** ولا تطع قول كافر ولا منافق، فتقصِّر في تبليغ الرسالة، وأعرض عن أذاهم ، واصبر عليه **﴿وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾** وفوِّض إلى الله أمورك ، وثق به فإنه كافيك، وحسبك بالله قيِّماً بأمورك، وحافظاً لك **﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ، من قبل أن تُجامعوهن **﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾** فما لكم عليهن من إحصاء أقراء[1] ولا أشهر ، تحصونها عليهن **﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾** فأعطوهن ما يستمتعن به ، وخلوا سبيلهن بالمعروف **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾** يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي تزوجتهن بصداق مسمًّى، وأحللنا لك إماءك اللواتي ملكتهن بالسِّباء والفيء **﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾** وقريباتك المهاجرات أحللناهن لك ، دون من لم يهاجر منهن معك **﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾** وامرأة تؤمن بالله إن وهبت نفسها للنبي ﷺ بغير صَدَاق ، إن أراد النبي أن ينكحها فحلال له **﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** ولا يحل لأحد من أمتك أن يقرب امرأة بدون صَداق **﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ**

---

(١) الغرض من العدة هو معرفة براءة الرحم ، لئلا تختلط الأنساب ، فإذا طلَّق الرجل زوجته قبل الجماع ، فليس هناك احتمالٌ للحمل ، ولهذا لم يكن له حق في احتباسها من أجل استيفاء العدة ، التي تكون بالحيض أو بالأشهر .

ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ * تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ

* * *

﴿أَيْمَانُهُمْ﴾ قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم، إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك، وأحللنا لهم ما ملكت أيمانهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أحللنا لك يا محمد ما ذكرناه لكيلا يكون عليك إثمٌ وضيق، في نكاح من نكحتَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾غفوراً لأهل الإيمان، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تؤخر من تشاء ممن هنَّ في عصمتك فتجامعها أو تتركها بغير قسم، أو تضم إليك من تشاء من النساء، اللاتي أحللتُ لك[1] ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ ومن ابتغيت إصابته من نسائك، ممن عزلت عن ذلك منهن فلا حرج عليك ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ هذا الذي جعلت لك أقرب لنسائك، أن تقر أعينهن به، ولا يحزن ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ويرضين كلهن بما آتيتهن[2]، من تفضيل من فضَّلت من قَسم أو نفقة، و إيثار من آثرتَ منهن على غيرها من نسائك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والله يعلم ما في قلوب الرجال، من ميلها إلى بعض النساء، بالهوى والمحبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ وكان الله عالماً بأعمال عباده، حليماً فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ لا يحل لك أن تتزوج النساء، من بعد المذكورات اللواتي أحللتُهنَّ لك ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ولا أن تطلق أزواجك، اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فتستبدل بهن غيرهن أزواجاً، لإعجابك بحسن من أردت ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلا ما ملكتَ من الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ وكان الله على كل شيء حفيظاً، لا يغرب عنه علم شيء من ذلك. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، لا تدخلوا بيوت نبيِّ الله، إلا أن تدعوا

(١) روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أغارُ من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما نزلت﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء..﴾ الآية. قلت يا رسول الله: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»
(٢) لأنهن إذا علمن أن ذلك بأمرٍ من الله كان أطيب لأنفسهن، فترضى كل واحدة منهن بما قسم الله لها.

يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ

* * *

إلى طعام تطعمونه ، غير منتظرين إدراكه[1] ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إليه ، فتفرقوا واخرجوا من منزله ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا متحدثين بعد فراغكم من الطعام، إيناساً من بعضكم لبعض ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ إن دخولكم بيوت النبي ﷺ من غير إذنٍ، وجلوسكم للحديث بعد فراغكم من الطعام ، كان يؤذي النبي فيستحيي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ والله لا يستحيي أن يبيّن لكم الحق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين متاعاً، فاسألوهن من وراء سترٍ بينكم وبينهن، ولا تدخلـوا عليهن بيوتهنَّ ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ السؤال من وراء حجاب، أطهرُ لقلوب الرجال، وقلوب النساء ، من عوارض العين التي تعرض في صدور الرجال والنساء ، وأحرى أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله ، وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، لأنهن أمهاتكم ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ إن أذاكم للرسول ، ونكاحكم أزواجه من بعده، إثمٌ عظيم عند الله تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إن تظهروا أيها الناس شيئاً بألسنتكم ، أو تخفوا ذلك في أنفسكم ﴿فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ فإن الله بكل ذلك عليم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازيكم عليه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ لا حرج على أزواج رسول الله ﷺ ولا إثم ، في هؤلاء المسمَّيْنَ أن لا يحتجبن منهم ، ويأذنَّ لهم في الدخول عليهنَّ[2]، ولا جناح عليهن أيضاً أن لا يحتجبن من نساء المؤمنين ﴿ولا ما ملكت

---

(١) نزلت الآية الكريمة عندما تزوج ﷺ بالسيدة زينب رضي الله عنها ، ودعا الناس إلى طعام الوليمة ، فلما طعموا جلس منهم طوائف يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وأثقلوا عليه فنزلت الآية ترشد المسلمين إلى بعض الآداب الإجتماعية.

(٢) استثنى تعالى من أمر الحجاب « المحارم » فالأب ، والإبن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت ، كلُّ هؤلاء من المحارم الذين لا يجب على المرأة أن تحتجب منهم لضرورة المخالطة ، وأما قوله تعالى ﴿أو نسائهن﴾ فيراد منه نساء المؤمنين، قال ابن عباس :

وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

* * *

أيمانهن﴾ ولا يحتجبن من المماليك ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ وخفن الله أن تتعدين ما حدَّ لكنَّ، فتبدين زينتكنَّ، والزمن طاعة ربكنَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ إن الله شاهد على ما تفعلنه ، فلا تلقين الله وهو شاهد عليكن بمعصيته، فتهلكن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ إن الله وملائكته يُبرِّكون على النبي ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ يا أيها الذين آمنوا ادعوا لنبي الله[١] محمد ﷺ ، وحيُّوه بتحية الإسلام﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يؤذون ربهم بمعصيتهم له وركوبهم ما حرَّم عليهم ، ويطعنون على رسوله ﷺ فيما يفعل ، ومن ذلك زواجه بصفية رضي الله عنها ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أبعدهم الله من رحمته في الدارين ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ وأعد لهم في الآخرة ، عذاباً يهينهم بالخلود فيه ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ والذين يعيبون المؤمنين والمؤمنات طلباً لشينِهم ، بغير ما عملوا ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ فقد احتملوا زوراً وكذباً ، وفرية شنيعة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ﴾ يا أيها النبي قل لأزواجك ، وبناتك ونساء المؤمنين : لا تتشبَّهن بالإماء في لباسهنَّ ، إذا هنَّ خرجن من بيوتهن ، ولكنْ ليدنين عليهن من جلابيبهن[٢] ، لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من القول ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ﴾ إدناؤهن جلابيبهن أقرب أن يعلم الرجال أنهن لسن بإماء ، فيتنكبوا عن أذاهن ، بقول مكروه أو تعرض بريبة[٣] ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ غفورٌ لما سلف منهن ، رحيمٌ بهنَّ أن

=لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تبدي شيئاً منها أمام الكافرة . وانظر تفصيل البحث في كتابنا تفسير آيات الأحكام.

(١) الصلاة من الله على نبيه رحمتُه المقرونة بالتعظيم قال القرطبي : والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره . اهـ القرطبي ١٤/٢٣٢ .

(٢) الجلابيب : جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع بدن المرأة ، كالملاءة ـ الملحفة ـ في زماننا .

(٣) قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط عند قوله تعالى ﴿ أَدْنَى أن يُعْرَفنَ ﴾ أي يعرفن لتسترهن بالعفة ، فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر ، والانضمام لم يقدم عليها ، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها .

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ
ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا

* * *

يعاقبهن بعد توبتهن ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ لئن لم ينته أهل النفاق ، الذين يبطنون الكفر ، ويظهرون الإيمان ، والذين في قلوبهم ريبةٌ من شهوة الزنا ، وحب الفجور ، ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وأهل الإرجاف في المدينة بالكذب والباطل[1] ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لنسلطنَّكَ عليهم ، ثم لَنَنْفينَّهم عن المدينة فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً من الزمن ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ مطرودين منفيين من رحمة ربهم ، حيثما لقوا من الأرض ، أُخذوا وقُتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ سنة الله في الذين مضوا قبل هؤلاء المنافقين ، من أمثالهم أن يقتلهم ويلعنهم ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ ولن تجد يا محمد لسنة الله ، التي سنَّها في خلقه تغييراً ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يسألك يا محمد الناس عن الساعة : متى هي قائمة ؟! قل : لا يعلم وقت قيامها إلا الله ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونَ قَرِيباً ﴾ وما أشعرك يا محمد ، لعله قد اقترب وقت قيام الساعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ إن الله أبعد الكافرين من كل خير ، وأقصاهم عنه ، وأعد لهم في الآخرة ناراً تتقد ليصليهم إياها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ ماكثين في السعير أبداً ، إلى غير نهاية ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ لا يجدون ولياً يتولاهم فيستنقذهم من السعير ، ولا نصيراً ينصرهم فينجيهم من عقاب الله ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ يوم تتقلب وجوههم في النار حالاً بعد حال[2] ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ يقولون وهم في النار : يا ليتنا أطعنا الله في الدنيا ، وأطعنا رسوله ، فكنا مع أهل الجنة في الجنة ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَراءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ وقال الكافرون أيضاً :

= وهذا القول أوضح في حكمة « مشروعية الحجاب » بأنه لمعرفة عفة المرأة ، لا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير وغيره ، بأنه لمجرد الفرق بين الحرة والأمة ، والله أعلم .

(١) المرجفون : جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل ، وينشر الرعب والفزع في قلوب الناس .

(٢) يريد أن وجوههم تتقلب في النار من جهة إلى جهة كاللحم الذي يشوى بالنار .

سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾

* * *

ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة ، وكبراءنا في الشرك ، فصرفونا عن طريق الهدى ﴿ **رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ** ﴾ يا ربنا عذِّبهم مثلي عذابنا الذي تعذبنا به ﴿ **وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً** ﴾ واخزهم خزياً كبيراً ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى** ﴾ يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، لا تؤذوا رسول الله ﷺ بقولٍ يكرهه ، ولا تكونوا أمثال بني إسرائيل ، الذين آذوا نبيَّ الله « موسى » ، فرموه بعيب كذباً وباطلاً[١] ﴿ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ بما أظهر من البرهان على كذبهم ﴿ **وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً** ﴾ وكان موسى مشفعاً ، ذا وجه ومنزلة عند ربه ، بطاعته للّهِ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله خافوا الله أن تعصوه ، فتستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا قولاً قاصداً غير جائرٍ ولا باطل ﴿ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ يوفقكم لصالح الأعمال ، ويعف عن ذنوبكم ، فلا يعاقبكم عليها ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ ومن يعمل بما أمره الله به ، وينتهي عما نهاه عنه ، فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ إن الله عرض طاعته وفرائضه ، على السموات والأرض والجبال[٢] ، على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت ، وإن ضيَّعتْ عوقبت ، فأبت حملها خوفاً أن لا تقوم بالواجب عليها ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ وحملها ابن آدم ،

---

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : (إن موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً ، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برصٌ ، وإما أُدرةٌ ـ انتفاخ الخصيتين ـ وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجرُ ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عزَّ وجل ، وبرأه الله ممَّا قالوا ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فواللهِ إن بالحجر لندباً ـ أثراً ـ من أثر ضربه ثلاثاً ، أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى ﴿ لا تكونوا كالذين آذوا موسى . . ﴾ الآية .

(٢) الصحيح أن المراد بالأمانة « التكاليف الشرعية » التي كلَّف الله بها عباده ، من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، وأمثال ذلك ، ومن قصرها على الودائع فقد خالف القول الأشهر .

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

* * *

إنه كان ظلوماً لنفسه ، جهولاً بالذي فيه الحظُّ له ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ حمَّل بني آدم الأمانة كيما يعذب الله المنافقين ، الذين يظهرون أنهم يؤدون فرائض الله مؤمنين بها ، وهم مستسِرُّون بالكفر ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ويعذب المشركين بالله ، في عبادتهم الآلهة والأوثان ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ويرجع الله بالمؤمنين والمؤمنات إلى طاعته ، وأداء الأمانات التي ألزمهم إياها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ غفوراً لذنوب المؤمنين بستره عليهم ، رحيماً بهم أن يعذبهم عليها بعد توبتهم منها .

* * *



(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ مَكِّيَّة
وآياتها أربع وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

* * *

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشكر[1] الكامل ، والحمد التام كله للمعبود ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الذي هو مالك جميع ما في السموات وما في الأرضين ، لا مالك لشيء من ذلك غيره ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ وله الشكر الكامل في الآخرة ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الحكيم في تدبير خلقه ، الخبير بما يصلحهم ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ يعلم ما يدخل الأرض ، وما يغيب فيها من شيء ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ وما

(١) الإمام ابن جرير فسر الحمد بالشكر في جميع السور التي ورد فيها ذكر الحمد ، والصحيح الذي عليه المفسرون أن الحمد غير الشكر ، فالشكر ما كان مقابل النعمة تقول : شكرته لإحسانه ، وشكرتُه لجميله ، ولا تقول : شكرتُه لشجاعته ، وإنما تقول : حمدتُه لشجاعته ، فالشكر يكون مقابل النعمة ، وأما الحمد فهو الثناء بالجميل مع التعظيم والتبجيل .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

* * *

ينزل من السماء ، وما يصعد في السماء ، فهو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، ممَّا ظهر وما بطن ﴿ **وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ** ﴾ وهو الرحيم بعباده أن يعذبهم بعد توبتهم ، الغفور لذنوبهم إذا تابوا منها ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ** ﴾ وقال الكفار الذين جحدوا قدرة الله على إعادة الخلق بعد فنائهم استهزاء وتكذيباً : لا تأتينا الساعة ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ قل لهم : قسماً بربي لتأتينكم الساعة ﴿ **عَالِمِ الغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ** ﴾ عالم ما يغيب عن أبصار الخلق ، لا يغيب عنه شيء من زنة ذرة فما دونها في السموات ولا في الأرض ﴿ **وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ ولا يغيب عنه أصغر من وزن الذرة ، ولا أكبرمنه إلا وهو مثبت في كتاب مبين، قد أثبته الله وأحصاه ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ كي يثيب الذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله به ، على طاعتهم ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ لهؤلاء مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيشٌ هنيءٌ في الجنة ﴿ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ وليجزي الذين عملوا في إبطال حججنا ، جاهدين في إبطالها، ظنّاً أنّا لا نقدر عليهم ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾هؤلاء لهم عذابٌ شديد من العذاب الأليم ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوْتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ وليرى الذين أوتوا العلم بالتوراة ، أن الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق ﴿ **وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ** ﴾ ويرشد من اتبعه إلى سبيل الله ، العزيز في انتقامه ، الحميد عند خلقه .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾ وقال الكافرون بعضهم لبعض ـ متعجبين من البعث بعد الممات ـ هل ندلكم على رجل يخبركم ، أنكم بعد تقطعكم في الأرض ، وبعد مصيركم في التراب رفاتاً ﴿ **إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ إنكم عائدون

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ
ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ

* * *

كهيئتكم قبل الممات خلقاً جديداً ؟! ﴿ **أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ هل اختلق على الله باطلاً من القول ؟ أم هو مجنونٌ يتكلم بما لا معنى له ؟ ﴿ **بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ ليس الأمر كما ظنوا ، لكن الذين لا يصدّقون بالآخرة ﴿ **في العَذَابِ وَالضَّلَالِ البَعِيدِ** ﴾ في عذاب الله يوم القيامة ، وفي ذهاب عن الحق بعيد ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ أفلم ير الجاحدون إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، من السماء والأرض ، فيعلموا أنهم حيث كانوا ، فإن أرضي وسمائي محيطة بهم ، فينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا ؟ ﴿ **إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ** ﴾ فإن نشأ أن نأمر الأرض فتخسف بهم ﴿ **أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أو نأمر السماء فتسقط عليهم قطعاً ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب** ﴾ إن في ذلك لدلالة ، لكل عبد أناب إلى ربه بالتوبة ، ورجع إلى الإقرار بربوبيته ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ ولقد أعطينا داود منا فضلاً ، وقلنا للجبال سبِّحي معه إذا سبَّح ﴿ **وَالطَّيْرَ** ﴾ وسخرنا له الطير ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ** ﴾ وسخرنا له الحديد ليناً بين يديه ، يُصَرِّفه كيف يشاء ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ** ﴾ وعهدنا إليه أن اعمل الكوامل[1] من الدروع ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ وقدِّر المسامير في حلق الدروع بمقدار دقيق ، لا ينقص ولا يزيد ﴿ **وَاعْمَلُوا صَالِحاً** ﴾ واعمل أنت وآلك بطاعة الله ﴿ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ ذو بصر لا يخفى علي شيء .

﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾ وسخرنا لسليمان الريح ، تغدو في الصباح إلى انتصاف النهار مسيرة شهر ، وترجع من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ** ﴾ وأذبنا له عين النحاس ، وأجريناها له ﴿ **وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ ومن الجن من يطيعه ويأتمر بأمره ، فيعمل بين يديه ما يأمره به ، بتسخير الله ذلك له

(١) سابغاتٍ : صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات أي كوامل تغطي جسم لابسها .

عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

* * *

﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عنَ أَمْرِنَا ﴾ ومن يعدل من الجن ، عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِير ﴾ نذقه نار جهنم الموقدة ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وتمَاثِيلَ ﴾ يعمل الجن لسليمان ما يشاء من الأبنية[1] ، ويعملون له تماثيل[2] من نحاس وزجاج ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَات ﴾ وينحتون له ما يشاء من أحواض الماء ، وقدور ثابتات لا يحركن لعظمهنَّ ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود ، شكراً لِلّهِ على ما أنعم عليكم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقليل من عبادي الذين يخلصون في توحيدي وطاعتي ، وشكري على نعمتي ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ فلما حكمنا على سليمان بالموت فمات ، لم يدلَّ الجنَّ على موته إلاّ الأَرَضة ، تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ﴾ فلما سقط سليمان على الأرض ، بانكسار العصا ، تبيَّنت الجن أنهم لا يعلمون الغيب ، إذْ لو كانوا يعلمون الغيب ﴿ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ ﴾ ما مكثوا في العذاب المذل ، حولاً كاملاً بعد موته ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَـةٌ ﴾ لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة ، وحجة واضحة دالة على الله ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ بستانان بين جبلين عن أيمانهم وشمائلهم ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ كلوا مما رزقكم ربكم من هاتين الجنتين ، من زروعهما وأثمارهما ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ هذه بلدة طيبة،ليس فيها شيء مؤذٍ ، وربكم ربٌّ غفور لذنوبكم .

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ﴾ فأعرضت سبأ عن طاعة ربها ، وصدَّت عن اتباع وامر رسلها ، فثقبنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول ، فخرَّب ما أمامه ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بَجَنَّتَيْهِمْ

(١) المراد بالمحاريب هنا القصور الشامخة والأبنية الرفيعة .

(٢) قال الحسن البصري : لم تكن التماثيل يومئذٍ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سدّاً للذريعة .

وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

* * *

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار، بساتين من ثمر الأراك[1] ﴿ **وَأَثْلٍ وشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ ومن شجر الطرفاء، وقليلٍ من السدر ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا** ﴾ فعلنا بهؤلاء القوم ما فعلنا مكافأة لهم على كفرهم ﴿ **وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ** ﴾ وهل يجازي الله إلا الكافر لنعمته، الجاحد لفضله ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىً ظَاهِرَةً** ﴾ وجعلنا بين بلد قوم سبأ، وبين قرى الشام، قرى متصلة ﴿ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ** ﴾ وجعلنا بين قراهم سيراً مقدراً، لا ينزلون إلا في قرية، ولا يغدون إلا من قرية، وقلنا لهم: سيروا في هذه القرى ليالي وأياماً آمنين، لا تخافون جوعاً ولا عطشاً ولا ظلماً من أحد ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ اجعل بيننا وبين الشام فلواتٍ ومفاوزَ، لنركب فيها الرواحل ولنتزود ﴿ **وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ بما عملوا من معاصي الله، مما يوجب عقابه ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** ﴾ فصيرناهم أحاديث يضرب بهم المثل فيقال «تفرقوا أيديَ سبأ» ﴿ **وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾ وقطعناهم في البلاد كل مقطع ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ إن فيما فعلنا بهؤلاء لعظةً ودلالة، على حق الله على عبده من الشكر والصبر، لكل صبار شكور ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ** ﴾ ولقد ظن إبليس بأهل سبأ أنهم يتبعونه، ويطيعونه في معصية الله، فصَدَق ظنُّه عليهم بإغوائه إياهم، حتى أطاعوه وعصوا ربهم ﴿ **إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ** ﴾ فإنهم ثبتوا على طاعة الله ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ﴿ **إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** ﴾ إلا ليعلم أولياؤنا من يصدق بالبعث ممن لا يوقن بالمعاد، ولا يصدّق بثواب ولا عقاب

---

(١) الخَمْط: كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة، وقد فسره الطبري بالأراك وهو مرويٌ عن مجاهد والحسن، والراجح أن معنى الخمط المرُّ البشع كما قال أهل اللغة.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن
شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟
مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ
أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

* * *

﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾وربك يا محمد حفيظ لا يغيب عنه علم شيء، وهو مجازيهم يوم القيامة بما كسبوا .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ادعوا الذين زعمتم أنهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بعض أفعالنا ، فإن لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنهم مبطلون ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ لا يملكون وزن ذرة في السموات ولا في الأرض ، من خير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ وليس لهم في السموات والأرض ملك شيء ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ وليس لله معين من الآلهة ، على خلق شيء ولا على حفظه .

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ولا تنفع شفاعة شافع كائناً من كان ، إلا إذا أذن الله له بالشفاعة ، فكيف تعبدون من تزعمون أنه يقربكم إلى الله ، ويشفع لكم عند ربكم ؟ !﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ حتى إذا كشف عن قلوب الملائكة الخوف والفزع ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ قالت الملائكة بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾قالوا قال الله الحق ، وهو العلي على كل شيء ، الكبير الذي لا شيء دونه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قل يا محمد للمشركين : من يرزقكم من السموات بإنزاله الغيث عليكم ، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم ، وتسخيره الأرض بإخراجه منها أقواتكم ، وأقوات أنعامكم ؟ ﴿قُلِ اللَّهُ ﴾ فإن قالوا : لا ندري ، فقل : الله هو الذي يرزقكم ذلك ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وإنا لعلى هدى أو في ضلال ، أو إنكم على هدى أو في ضلال ظاهر[١] ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لا تسألون أنتم عما ركبنا من إثم وجرم ،

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم كأنه يقول أحد الفريقين منا أو منكم في ضلال بيّن ، وفيه تعريض بضلال المشركين بوجه أبلغ من التصريح ، كما يقول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، يريد أن صاحبه هو الكاذب .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

* * *

ولا نسأل نحن عما تعملون من عمل ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ قل لهم : يجمع بيننا ربنا عنده يوم القيامة ، ثم يقضي بيننا بالعدل ، فيتبين عند ذلك المهتدي من الضال ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ وهو القاضي الذي لا يحتاج إلى شهود ، العليم بالقضاء بين خلقه ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ) قل يا محمد أروني الذين صيرتموهم لله شركاء ، ماذا خلقوا من الأرض ؟ ﴿ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ كذبوا ليس الأمر كما وصفوا ، بل الله هو المعبود الذي لا شريك له في ملكه ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز في انتقامه ممن أشرك به ، الحكيم في تدبيره خلقه .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصة ، ولكنا أرسلناك للناس أجمعين ، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ بشيراً لمن أطاعك ، ونذيراً لمن كذبك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله أرسلك إلى جميع البشر ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ ﴾ ويقول المشركون : متى هذا الوعد؟ وفي أي وقت هو كائن ؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تعدوننا من ذلك ؟ ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً ﴾ قل لهم يا محمد : لكم ميعاد يوم هو آتيكم ، لا تستأخرون عنه إذا جاءكم ساعة فتنظروا للتوبة ﴿ وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ قبله بالعذاب لأن الله جعل لذلك أجلاً ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ وقال الكافرون : لن نصدق بهذا الكتاب الذي جاءنا به محمد ﷺ ﴿ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولا بالكتاب الذي جاء به غيره من الأنبياء ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يتلاومون يحاور بعضهم بعضاً ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول المستضعفون في الدنيا لولا أنتم أيها الكبراء ، لكنا مؤمنين بالله وآياته ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ قال الرؤساء الذين استكبروا في الدنيا للأتباع الذين

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا
وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ

* * *

استضعفوا فيها : أنحن منعناكم عن اتباع الحق ، بعد إذ جاءكم من عند الله ؟ ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ بإيثاركم الكفر على الإيمان ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قالوا : بل مكركم لنا بالليل والنهار ، صدَّنا عن الهدى ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أمثالاً وأشباهاً ، في العبادة والألوهية ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وندموا على ما فرَّطوا من طاعة الله ، حين عاينوا عذاب الله الذي أعده لهم ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وغُلَّت أيدي الكافرين إلى أعناقهم في نار جهنم ﴿ هَلْ يُجْزَوْن إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ما يفعل الله ذلك بهم ، إلا جزاءً لأعمالهم الخبيثة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ وما بعثنا في أهل قرية ، رسولاً ينذرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ إلا قال كبراؤها في الضلالة : إنا بما أرسلتم به من توحيد الله كافرون ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً ﴾ وقال الكبراء : نحن أكثر أموالاً ، وأولاداً من هؤلاء الفقراء ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ولن يعذبنا الله في الآخرة ، لأنه لو لم يكن راضياً عنا ، لم يبسط لنا في الرزق[1]

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ قل لهم يا محمد : إن ربي يوسّع الرزق في الدنيا من المعاش والرياش ، لمن يشاء من خلقه ، ويضيّق على من يشاء ، لا لمحبة لمن بسط له ، ولا لبغض لمن قدر عليه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يفعل ذلك اختباراً لعباده وابتلاءً ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ وما أموالكم التي تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم ، بالتي تقربكم منا قربة ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) قاس المشركون أمر الآخرة على الدنيا ، فظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا ، سيعطيهم ذلك في الآخرة وهو قياس باطل ، لأن الله قد يوسع الرزق على الكافر ، ويقتره على المؤمن ابتلاءً وامتحاناً ، وهذا ما بينته الآية التالية ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق . . . ﴾

لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ
فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن
شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾
قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾



صَالِحاً ﴾ إلا المؤمنين الصادقين فتقربهم أموالهم وأولادهم إلى الله ، بطاعتهم لله ، وأدائهم حقه ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فهؤلاء لهم من الله على أعمالهم الصالحة ، الضعفُ من الثواب بالواحد عشرة ﴿ وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ وهم في غرفات الجنات ، آمنون من عذاب الله ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ يبتغون إطفاء نورنا ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ويعجزوننا ﴿ أُوْلَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أولئك محضرون في عذاب جهنم يوم القيامة .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ قل : إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من خلقه ، ويضيق على من يشاء منهم ، محنةً واختباراً ، لا تكرمةً وإهانة ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وما أنفقتم من نفقة في طاعة الله ، فإنَّ الله يخلفها عليكم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهو خير من يرزق ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ويوم نحشر الكفار جميعاً ، ثم نقول للملائكة : أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا ؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ تتبرأ منهم الملائكة وتقول : تنزيهاً لك يا رب ، ممَّا أضاف إليك هؤلاء من الأنداد ، لا نتخذ ولياً دونك ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ بل كانوا يعبدون الشياطين ، أكثرهم يصدقون بأن الجن بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ فاليوم لا تملك الملائكة للذين كانوا يعبدونهم في الدنيا نفعاً ينفعونهم به، ولا ضراً ينالونكم به ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ونقول للذين عبدوا غير الله : ذوقوا عذاب جهنم ،

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟
مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم
مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ
وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

* * *

التي كنتم بها في الدنيا تكذبون ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تتلى على المشركين آيات كتابنا ، واضحات أنهن حق من عند الله ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ قالوا عند ذلك : لا تتبعوا محمداً ، فما هو إلا رجل يريد أن يمنعكم عما كان يعبد آباؤكم من الأوثان ، ويغيِّر دينكم ودين آبائكم ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرى ﴾ وقالوا : ما هذا الذي تتلوه علينا من القرآن ، إلا كذبٌ مختلقٌ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وقال المشركون لمحمد لمَّا بعثه الله نبياً[١] : ما هذا إلا سحر واضح لمن رآه تأمله ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ وما أنزلنا على أهل مكة ، كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركين قبلك ، من نبي ينذرهم بأسنا ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكذب أممٌ رسلنا وتنزيلنا من قبل قومك ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ولم يبلغ قومك يا محمد ، عشر ما أعطينا الذين من قبلهم من الأمم، من القوة ،والبطش، وغير ذلك من النعم ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾ فكذبوا رسلي فعاقبناهم ، بتغييرنا ما كنا آتيناهم من النعم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عقوبتي بهم ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أعظكم بطاعة الله وذلك ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ بأن تقوموا[٢] لله اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، وتتفكروا في أن محمداً ﷺ ليس بمجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ما محمد إلا نذير لكم ، ينذركم عقاب الله ، أمام عذاب

(١) فسر ابن جرير « الحقّ » بأنه محمد ﷺ ، والراجح أن المراد بالحق القرآن ، بدليل وصفهم له بأنه سحر ولم يقولوا ساحر ، والآية التي قبلها كذلك تتحدث عن القرآن فهو الأنسب للسِّياق والسِّباق .

(٢) قال القرطبي : هذا القيام هو القيام إلى طلب الحق ، لا القيام الذي هو ضد القعود ! ومعنى الآية إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة وهي أن تتحروا الحقّ لوجه الله مجتمعين ومنفردين لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون مجنوناً كما تزعمون .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ
بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ
عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ

* * *

جهنم ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ إني لم أسألكم على ذلك جُعْلاً أي « عطاءً » فتتهموني ، وتظنوا أني إنما دعوتكم لمالٍ آخذه منكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ ما ثوابي على دعوتي لكم إلا على الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ قل : إن الله ينزل الوحي من السماء ، فيقذفه إلى نبيه محمد ﷺ ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ عالم ما يغيب عن الأبصار ، مما لم يكن وهو كائن ﴿ قل جاء الحَقُّ ﴾ جاء القرآن ووحي الله ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ وما ينشىء إبليس[1] خلقاً ، وما يعيد حياً بعد فنائه ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ قل لهم : إن ضللت عن الهدى فسلكت غير طريق الحق ، فإن ضرره على نفسي ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ وإن استقمت على الحق ، فبهداية الله وتوفيقه ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سميعٌ لما أقول لكم ، قريب من كل متكلم ، يسمع كل ما ينطق به ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ﴾ ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين ، حين فزعهم من معاينتهم عذاب[2] الله ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ فلا سبيل حينئذٍ أن يفوتونا بأنفسهم ، أو يعجزونا هرباً وينجوا من عذابنا ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وأخذهم الله بعذاب من موضع قريب ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ وقالوا حين رأوا العذاب : آمنا بالله وبكتابه وبرسوله ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ومن أي وجه لهم التوبة والرجعة ، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيداً من الآخرة ؟[3] ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد كفروا بالله وبرسوله ، وبما جاءهم من عند الله ﴿ وَيَقْذِفُونَ

(١) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره المعنى : ذهب الباطل بالمرَّة فليس له بدءٌ ولا عود ، وهو مثل يضرب للهلاك كقوله : ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

(٢) جواب « لو » محذوف للتهويل والتفظيع أي لرأيت أمراً عظيماً هائلاً ترتعد له فرائص الإنسان .

(٣) التناوش : التناول لشيء سهلٍ قريب ، ومنه المناوشة في القتال ومعنى الآية : من أين لهم تناول الإيمان والتوبة ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟

بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

* * *

بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهم اليوم في الدنيا يرجمون بالظنون والأوهام ، فيقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار[١] ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وحيل بين المشركين ، وبين الإيمان الذي يشتهونه ، فلا سبيل لهم إلى ما يتمنونه ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ كما فعلنا بأمثالهم الكفار ، فلم نقبل منهم إيمانهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ إنهم كانوا في الدنيا في شك من نزول العذاب ، موجب لصاحبه ما يريبه من مكروه .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

* * *

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الشكر الكامل للمعبود الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ، خالق السموات السبع والأرض ﴿جَاعِلِ المَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾ جاعل الملائكة رسلاً إلى من يشاء من عباده ، في أمره ونهيه ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ملائكة أصحاب أجنحة ، منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يزيد في خلق الملك من الأجنحة ما يشاء[٢] ،وكذلك في جميع خلقه، له الخلق والأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

(١) قال القرطبي : العرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف : هو يقذف ويرجم بالغيب على جهة التمثيل .

(٢) في الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ،بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب « رواه مسلم » .

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا
يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

* * *

﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليه فعل شيء أراده ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ما يفتح الله للناس من خير، فلا مغلق له، فإن مفاتيح الخير كلها بيده ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وما يغلق من خير عنهم، فلا فاتح له سواه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز في نقمته، الحكيم في تدبير خلقه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اذكروا ما أنعم الله به عليكم من خيراته وبسط لكم من العيش ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وفكروا فانظروا، هل من خالق سوى فاطر السموات والأرض؟ ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها، يرزقكم من السماء والأرض، فتعبدوه دونه؟! ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود تنبغي له العبادة إلَّا له فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالألوهية ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن خالقكم ورازقكم؟ ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون، فلا يحزننك ذلك، ولا يعظم عليك، فإن ذلك سنة أمثالهم من كفرة الأمم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وإلى الله مرجع أمرك، وأمرهم فمعاقبهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعدكم الله به من إنزال عقوبته بكم، على إصراركم على الكفر به حقٌّ، فبادروا بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا يخدعنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا، عن اتباع محمد والإيمان به ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ولا يخدعنكم بالله الشيطانُ فيمنيكم الأماني الكاذبة، ويحملكم على الكفر بالله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ إن الشيطان لكم عدو، فاحذروه حذركم من عدوكم، فلا تطيعوه ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ إنما يدعو الشيطان أتباعه ومن أطاعه، ليكونوا من المخلدين في نار جهنم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الذين كفروا بالله ورسوله، لهم عذاب النار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا الله ورسوله،

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ
إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ
يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ

* * *

وعملوا بما أمرهم الله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، ولهم الجنة ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة ، من معاصي الله والكفر به ، فظنَّ القبيح حسناً ، تذهب نفسك عليهم حسراتٍ[1] ؟ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإنَّ الله يخذل من يشاء عن الإيمان ، فيضله عن الرشاد والهدى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ويوفق من يشاء للإيمان به ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فلا تُهْلك نفسك حزناً على ضلالتهم ، وتكذيبهم لك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ عالم بما يصنع هؤلاء ومجازيهم به.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ الله هو الذي يرسل الرياح ، فتثير السحاب للمطر والغيثِ ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فسقناه إلى بلدٍ مجدبٍ ، لا نبت فيه ولا زرع ، فأخصبنا تلك الأرض بعد المحل ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ هكذا يحيي الله الموتى بعد فنائهم ، كما أحيينا هذه الأرض بعد مماتها .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً﴾ من كان يريد العزة بعبادة الأوثان ، فليتعزز بالله ، فلله العزة جميعاً ، دون الآلهة والأوثان ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ إلى الله يصعد الذكر والثناء ، ويرفعه العمل الصالح[2] ، وهو العمل بطاعة الله وأداء فرائضه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والذين يكسبون السيئات ، لهم عذاب جهنم ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ

---

(١) أشار ابن جرير إلى أن جواب الشرط محذوف اكتفاءً بدلالة ما بعده﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ ﴾ وقدَّره غيره : أفمن زُيِّن له سوء عمله ، كمن اهتدى واستقام على شريعة الله ؟

(٢) قال ابن عباس : الكلامُ الطيبُ : ذكرُ الله ، والعملُ الصالح : أداء فرائضه ، فمن ذكر الله وأدى فرائضه صعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامه على عمله ، هذا ما رجحه الطبري وقال غيره معنى الآية : العمل الصالح يتقبَّله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه ، فمن قال وأحسن العمل قَبِل الله منه عمله .

هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ
وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ
مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾



﴿هُوَ يَبُورُ﴾ وعمل هؤلاء المشركين يبور فيبطل ، لأنه لم يكن لله ، فلم ينفع عامله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ والله خلق أباكم آدم من تراب ، ثم خلقكم من نطفة الرجل والمرأة ، ثم زوَّج منكم الأنثى من الذكر ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ وما تحمل من أنثى إلاَّ وهو عالم بحملها ووضعها ، وما هو ذكر أو أنثى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ وما يطول عمر معمَّر ، ولا ينقص من عمر آخر غيره ، إلا في كتاب مكتوب عنده ، لا يزاد فيما كتب له ولا ينقص ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن إحصاء أعمار خلقه عليه ، سهلٌ لا يتعذر ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وما يعتدل البحران فيستويان ، أحدهما حلوٌ كثير العذوبة ، والآخر ملحٌ مرٌّ شديد الملوحة ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً﴾ ومن كل البحار تأكلون السمك ، من المالح والعذب ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ وتستخرجون الدر والمرجان ، من الملح الأجاج ﴿وَتَرَى الْفُلْك فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وترى السفن في تلك البحار تشق الماء بصدورها ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا من معايشكم ، ولتتصرفوا في تجاراتكم ﴿ولعلكم تشكرونَ﴾ ولتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل الليل في النهار ، وذلك ما نقص من الليل أدخله في النهار ، وما نقص من أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل فأدخله فيه ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وأجرى لكم الشمس والقمر ، نعمةً منه عليكم ، ورحمةً بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل ذلك يجري لوقت معلوم ، وحدٍّ لا يتعداه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هذا معبودكم وهو الله ربكم ، له الملك التام ، الذي لا شيء إلا وهو في ملكه وسلطانه ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والذين تعبدون من دون ربكم ، ما يملكون قشر النواة .

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ
شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

* * *

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إن تدعوا الآلهة التي تعبدونها، لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جماد لا تفهم ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم، بأن جُعل لهم سمع يسمعون به، ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ويوم القيامة تتبرأ الآلهة التي تعبدنها، من أن تكون في الدنيا شريكاً لله ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك يا محمد عن الحقيقة، مثل الله[1] ذي الخبرة، الذي لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلىٰ اللَّهِ﴾ يا أيها الناس أنتم أُولو الحاجة والفقر إلى ربكم، فإياه فاعبدوا وفي رضاه فسارعوا ﴿وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ والله هو الغني عن عبادتكم، وهو المحمود على نعمه بكل حال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن يشأ ربكم يهلككم أيها الناس، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ﴿وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إذهابكم والإتيان بخلقٍ سواكم، على الله بشديد، بل ذلك عليه سهلٌ يسير ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم أخرى غيرها ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وإن تسأل ذات ثقل من الذنوب[2]، من يحمل عنها ذنوبها، لم تجد من يحمل عنها شيئاً ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان الذي سألته ذا قربة من أخ أو أب ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ إنما تنذر يا محمد الذين يخافون عقاب الله، من غير معاينة منهم لذلك، فهؤلاء ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب، فإنما يتطهر لنفسه، فيثيبها رضا الله، والفوز بجنانه ﴿وَإِلَى اللَّهِ المَصِيرُ﴾ وإلى الله مرجع كل عاملٍ منكم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدَّم من خيرٍ أو

(١) قال قتادة: اللهُ هو الخبير بما سيكون منهم يوم القيامة، فهو يخبر بما يكون من أمرها وأمر عبدتها.
(٢) قال ابن عباس: من كان عليه وزرٌ لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي
ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

* * *

شرٍ **﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾** وما يستوي الأعمى عن دين الله ، والبصيرُ الذي أبصر رشده ، فاتّبع محمداً وصدَّقه **﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾** وما تستوي ظلمات الكفر ، ونورُ الإيمان **﴿وَلاَ الظِّلُّ ولاَ الحَرُورُ﴾** وما تستوي الجنة ولا النار(١) **﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾** وما يستوي أحياء القلوب بالإيمان ، وأموات القلوب بالكفر **﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾** يسمع من يشاء هدايته آيات كتابه وحججه فيهديه إلى سبيل الرشاد **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ﴾** وأنت يا محمد لا تقدر أن تنفع بمواعظ الله ، وبيان حججه ، من كان ميت القلب من أحياء عباده **﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾** ما أنت يا محمد إلا نذير ، تنذر هؤلاء المشركين عذاب الله ، والهداية بيد الله لا بيدك .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ إنا أرسلناك يا محمد بالإيمان وشرائع الدين ، مبشراً بالجنة من صدَّقك ، ونذيراً تنذر بالنار من كذبك **﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾** وما من أمة من الأمم ، إلاَّ مضى فيها من قبلك نذير ، ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله **﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** وإن يكذبك يا محمد مشركو قومك،فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم **﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ﴾** جاءوهم بحجج واضحة من الله **﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المُنِيرِ﴾** وجاءتهم بالكتب من عند الله ، وجاءهم من الله الكتابُ المنير ، لمن تأمله وتدبره **﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالة رسلنا ، فانظر يا محمد كيف كان حلول عقوبتي بهم ؟ **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾** الم تر يا محمد أن الله أنزل من السماء مطراً فسقيناه أشجاراً في الأرض ؟ **﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها﴾** فأخرجنا بالمطر

---

(١) الحرور : الرياح الحارة التي تكون بالنهار من حرّ الشمس ، وقد نبه الطبري في تفسيره للظل والحرور بالجنة والنار ، على أنه قولٌ لبعض المفسرين بقوله : قيل : الجنة والنار وهناك قول آخر وهو أن المراد بهما الظل الذي يستظل به الإنسان وحرارة الشمس التي تُحرق بشدتها الأبدان .

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ
أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

* * *

من تلك الأشجار ، ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ، منها الأحمر والأسود والأصفر **﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾** ومن الجبال طرائق مختلفة الألوان ، بيض وحمر وسود شديدةُ السواد **﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾** كما اختلفت ألوان الثمرات والجبال ، اختلفت ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك **﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾** إنما يخاف الله(١) ، فيتقي عقابه ، العلماء العاملون بطاعتهم لله **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾** عزيز في انتقامه غفور لمن آمن به ، وأطاعه

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يقرأون كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، ويؤدون الصلاة المفروضة بحدودها **﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾** ويتطوعون بما أعطيناهم بالصدقة من الأموال ، بعد أداء الواجب **﴿سِرّاً وعَلاَنِيَةً﴾** في خفاءٍ وجهر **﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾** يرجون بفعلهم ذلك ، تجارةً لن تكسد ولن تهلك **﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾** كي يوفيهم الله ثواب أعمالهم ، التي عملوها في الدنيا **﴿وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** وكي يزيدهم من فضله ، ما هو أهلٌ له **﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾** غفور لذنوب هؤلاء شكور لحسناتهم **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ﴾** وهذا القرآن المنزل عليك يا محمد ، هو الحق الذي لا شك فيه ، عليك أن تعمل به وتتبع ما فيه **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** يصدق الكتب السابقة ، التي أنزلت على من قبلك من الرسل **﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾** إن الله بعباده لذو علم وخبرة ، بصيرٌ بما يصلحهم من التدبير **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبَادِنَا﴾** ثم أورثنا الإيمان بالكتب التي أنزلناها ،

---

(١) المراد بالخشية هنا خشية الهيبة والتعظيم لأمر الله ، لأن العلماء هم الذين عرفوا الله حق المعرفة فعظموه حقَّ التعظيم ، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . » الحديث .

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

* * *

الذين اخترناهم لطاعتنا واجتبيناهم[١] فهم مؤمنون بكل كتاب أنزله الله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فمن هؤلاء الذين اصطفيناهم من ظلم نفسه ، بركوبه المآثم ، واقترافه الفواحش[٢] ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ ومنهم المقتصد في طاعة ربه ، وغير المجتهد فيما كُلف فيه ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ومنهم المبرِّز الذي سبق المجتهدين بصالح الأعمال ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيق الله ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ سبْقُ هذا السابق هو الفضل الكبير ، الذي فضل به غيره ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بساتين إقامة يدخلها هؤلاء ، الذين اصطفيناهم من عبادنا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ يلبسون في الجنة أسورةً من ذهبٍ ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولباسهم في الجنة حرير ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وقالوا حين دخلوا الجنة : الحمد لله الذي أذهب عنا جميع أنواع الشدة ، فلا حزن علينا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن ربنا لساترٌ لذنوب عباده بعفوه عنها ، شكورٌ لهم على طاعتهم إياه ، ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ الذي أنزلنا الجنة دار الإقامة ، التي لا تحوُّل عنها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ فضلاً منه وإكراماً ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبنا فيها تعبٌ ولا وجع ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا يصيبنا فيها عناءٌ ولا إعياء .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ والذين جحدوا بالله ورسوله ، لهم نار جهنم مخلدين فيها ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ لا يكتب عليهم الموت ، فيستريحوا من العذاب[٣] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ هكذا يكافىء الله كل جحود لنعم ربه ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ وهؤلاء الكفار يستغيثون ويضجّون في النار

(١) الراجح أن هذه الأصناف الثلاثة من الأمة المحمدية « الظالم ، والمقتصد ، والسابق » والظاهر أن الظالم هو الذي غلبت سيئاته على حسناته، والمقتصد هو الذي تساوت حسناته وسيئاته ، والسابق هو الذي زادت حسناته على سيئاته ، وهناك أقوال أخرى والله أعلم بالصواب .

(٢) دخول هؤلاء الجنة لا يمنع أن ينالوا من العذاب على ما اقترفوا قبل ذلك ما شاء الله تعالى ، كما هو مقرر في علم التوحيد ، وهو مقتضى ما ورد من آيات الوعيد على ارتكاب المعاصي ، كما أن من العدل عدم تساوي هذه الأصناف الثلاثة في الإكرام .

(٣) قال أبو السوداء : مساكين أهل النار لا يموتون ، لو ماتوا لاستراحوا .

أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا
لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ
مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

* * *

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقولون: يا ربنا أخرجنا نعمل بطاعتك، غير الذي كنا نعمل قبل من معاصيك ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أولم نعمركم يا معشر المشركين من السنين ما يتذكر فيه من تذكر من ذوي الألباب والعقول ؟ ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وجاءكم من الله منذرٌ، ينذركم عذاب الله، فلم تتذكروا ؟ ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ فذوقوا نار جهنم، فما للكافرين الذين ظلموا أنفسهم، ناصرٌ ينصرهم من الله، ليستنقذهم من عقابه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إن الله عالم بما تخفون أيها الناس في أنفسكم، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم بما تضمرونه، فاتقوه أن يطلع عليكم، وانتم تضمرون الشك في وحدانية الله أو نبوة محمد ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ خلفاء من بعد من مضى من الأمم، تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فمن كفر منكم، فضرر كفره على نفسه ﴿وَلاَ يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً﴾ لا يزيدهم الكفر إلا بعداً من رحمة الله ﴿وَلاَ يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً﴾ ولا يزيدهم كفرهم بالله إلا هلاكاً

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أخبروني أيَّ شيءٍ خلقوا من الأرض ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات، إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئاً ؟ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ أم أنزلنا عليهم كتاباً من السماء، بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام ؟ ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ فهم على برهانٍ من الإشراك بالله ؟ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ ما يعد بعضهم بعضاً إلا خداعاً وغروراً، وذلك قولهم

* إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ

* * *

ما نعبد آلهتنا إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ إن الله يمسك السموات والأرض ، لئلا تزولا عن أماكنهما ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولو زالتا ما أمسكهما أحد سواه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ حليماً عمن كفر به من خلقه ، في تركه تعجيل العذاب ، غفوراً لذنوب من تاب منهم وأناب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأقسم المشركون بالله أشد الأيمان ، فبالغوا فيها ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم ، ليكونن أشد قبولاً لما يأتيهم به ، من إحدى الأمم[١] التي خلت من قبلهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ فلما جاءهم محمد ﷺ ينذرهم عقاب الله ، ما زادهم مجيء النذير ، إلَّا هرباً[٢] من الإيمان بالله ، وسلوك هدى الطريق ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ﴾ استكباراً وخدعة سيئة ، وذلك أنهم صدُّوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ولا ينزل المكر السيء إلا بالذين يمكرونه فيحل بهم مكروه مكرهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا سنة الله[٣] بهم ، بأن أحل بهم نقمتي على تكذيبهم رسولي ، مثل الذي أحللت بمن قبلهم من الأمم ؟ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ فلن تجد لسنة الله في خلقه تغييراً ولا تبديلاً[٤] ، فلن يغيِّر الله ذلك ولن يبدِّله ، لأنه لا مردَّ لقضائه .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أولم يسر هؤلاء المشركون في الأرض ، التي أهلكنا أهلها

---

(١) المراد بهم اليهود والنصارى ، فقد قال المشركون : لو جاءنا رسول لكنا أهدى من أهل الكتاب .

(٢) لما جاءهم النذير وهو محمد ﷺ بالمعجزات الباهرات ، ما زادهم مجيئه إلا نفورا عن الحق ، عناداً وكبراً ، كأنه صار سبباً في نفورهم عن الإيمان واتباع هداية الرحمن .

(٣) أشار الطبري إلى أن قوله﴿ سنة الأولين ﴾ على حذف مضاف أي سنة الله وطريقته في الأولين .

(٤) التبديلُ : تغيير الصورة مع بقاء المادة ، والتحويلُ : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر ، وقد بيَّن تعالى أن سنته في خلقه لا تتغير ولا تتحول لأن قضاءه مبرم .

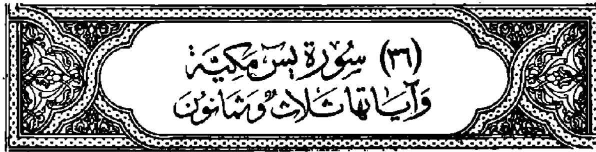
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

* * *

بكفرهم وتكذيبهم رسلنا ، فإنهم تجار يسلكون طريق الشام ؟ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي كانوا بها ، ألم نهلكهم ونخرِّب مساكنهم ، ونجعلهم مثلاً لمن بعدهم ؟ ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا أشدَّ من قومك قوة وبطشاً ، فلن يتعذر على الله أن يفعل بهؤلاء مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل العذاب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ ولن يعجزنا هؤلاء المشركون ، فيسبقونا هرباً في الأرض إذا أردنا إهلاكهم ، أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ عليماً بخلقه ، قديراً على الإنتقام ممن شاء منهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ ولو يعاقب الله الناس بما عملوا من الذنوب ، والمعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تَدبُّ عليها ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولكن يؤخر عقابهم بما كسبوا ، إلى أجل معلوم عنده محدود ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإذا جاء أجل عقابهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ من الذي يستحق العقاب ، ومَن الذي يستوجب الكرامة ، ومن كان منهم في الدنيا مطيعاً ، ومن كان فيها مشركاً ، لا يخفى عليه أحد من خلقه .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

***



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا

* * *

﴿**يسٓ . وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ**﴾ يقسم الله بوحيه وتنزيله المحكم ، بما فيه من الأحكام ، والبينات من الحجج ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ**﴾ إنك يا محمد لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده ﴿**عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ على طريق الإسلام ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿**تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ**﴾ هذا القرآن إرسال الرب ، العزيز في انتقامه من أهل الكفر ، الرحيم بمن تاب إليه وأناب ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾ لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم ، لأنهم كانوا في الفترة ﴿**فَهُمْ غَافِلُونَ**﴾ عما الله فاعل بأعدائه المشركين ، من إحلال نقمته ﴿**لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ**﴾ لقد وجب العقاب على أكثرهم ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ لأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب ، أنهم لا يؤمنون بالله ولا رسوله ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ**﴾ جعلنا أيمان هؤلاء الكفار مغلولةً إلى أعناقهم بالأغلال(١) ، فلا تُبسط بشيءٍ من الخيرات ﴿**فَهُمْ مُقْمَحُونَ**﴾ يرفعون رؤوسهم ، ويغضون أبصارهم ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً**﴾ وجعلنا من بين أيديهم حاجزاً ومن خلفهم حاجزاً، وعنى بالآية أنه

---

(١) هذا على قول الأكثرين من باب التمثيل ، فقد شبه تعالى الكفار في عدم إيمانهم وإقبالهم على فعل الخير ، بمن رُبطت يداه بسلاسل وقيود حديدية مع عنقه ، فأصبح مرفوع الرأس لا يستطيع أن يحرك يديه يمنة ولا يسرة ، وهو تمثيل رائع الصورة والبيان .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ
جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾

* * *

زين لهم سوء أعمالهم فهم يعمهون[1] ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فجعلنا على أبصارهم غطاءً ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا ينتفعون به ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ يستوي يا محمد على هؤلاء الكفار ، الإنذار وترك الإنذار منك إليهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا يؤمنون ، لأن الله قد حكم عليهم بذلك ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ إنما ينفع إنذارك يا محمد ، من آمن بالقرآن ، واتّبع ما فيه من أحكام الله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فبشره يا محمد بمغفرة من الله لذنوبه ، وثواب كريم في الآخرة وهو الجنة .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نحيي الموتى بعد فنائهم ، ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها ، وآثار خطاهم بأرجلهم[2] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وكل شيء كان أو هو كائن ، أثبتناه في أم الكتاب[3] الذي يُبين عن حقيقة جميع ما أثبت فيه[4] ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ومَثِّلْ يا محمد لمشركي قومك مثلاً ، أصحاب قرية « أنطاكية » إذ جاءها رسل الله ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ حين أرسلنا إليهم اثنين ، يدعوانهم إلى الله فكذبوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فقويناهما برسولٍ ثالث ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ فقالوا لأصحاب القرية : إنا إليكم أيها القوم مرسلون ،

---

(١) هذا تمثيل آخر للكافرين ، مثّل تعالى لهم بمن جعل أمامه حاجز يحجب الرؤية ، ومن ورائه حاجز كذلك وجعل على عينيه غطاءً ، فمن أين يبصر ويرى وقد سدُت عليه المنافذ ؟ فهو تمثيل لضلالهم .

(٢) نقل عن بعض المفسرين أن المراد بالآثار هي آثار خطاهم إلى المساجد، والتخصيص بالمساجد تخصيصٌ بلا مخصص، لأن المقصود أن الله يكتب أثر سير الإنسان في طاعة الله تعالى ، أو في معصيته .

(٣) اللوح المحفوظ .

(٤) قال ابن كثير عند هذه الآية : أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة . ا هـ أقول وهو الأنسب في السياق، فالله تعالى كتب ما قدموا وآثارهم في صحائف الأعمال ، ثم بين جل وعلا أن كل شيء محفوظ عنده في أم الكتاب ، سواء من الأعمال التي تكتب على ابن آدم ، أو من غيرها، والله أعلم .

قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ
لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ
قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾

* * *

بأن تخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ، وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ قال أصحاب القرية : ما أنتم إلا أناسٌ مثلنا ، ولو كنتم رسلاً كما تقولون لكنتم ملائكة ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما أنزل الرحمن إليكم من رسالةٍ ولا كتاب ، ولا أمركم فينا بشيءٍ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في قولكم إنكم إلينا مرسلون ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ قال الرسل : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون فيما دعوناكم إليه ، وإنا لصادقون ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله ، التي أرسلنا بها إليكم ، بلاغاً واضحاً أداءً لما علينا ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ قال أصحاب القرية : إنا تشاءمنا بكم ، فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لئن لم تكفُّوا عن البراءة من آلهتنا ، والنهي عن عبادتنا ، لنرجمنكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولينالنكم منا عذابٌ موجع ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرْتُمْ﴾ قال لهم الرسل : حظكم من الخير والشر معكم ، إن أصابكم سوء فبما كُتِب عليكم ، وما ذلك من شؤمنا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ بل أنتم قوم أهل معاصي وآثام .

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وجاء من أبعد المدينة رجل يسعى مسرعاً إليهم - وكان مؤمناً وعلم بعزمهم على قتل الرسل - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فقال لهم : يا قوم اتبعوا المرسلين الذين أرسلهم الله إليكم ، واقبلوا منهم ما أتوكم به ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ اتبعوا من لا يسألكم على نصيحتهم لكم أجراً ، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وهم على استقامة من طريق الحق ، فاهتدوا أيها القوم بهداهم ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وأيُّ شيءٍ يمنعني أن أعبد الرب الذي خلقني؟ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردون جميعاً ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أأعبد من دون الله معبوداً سواه؟ ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ إن مسني الرحمن بضر وشده ، لا تقدر على

إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

* * *

دفع ذلك الضر عني ﴿وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ ولا يخلصوني من ذلك الضر ﴿إني إذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ إني إن اتخذت آلهةً هذه صفتها ، لفي ضلال واضح ، يبين لمن تأمله ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إني آمنت بربكم الذي كفرتم به ﴿فاسْمَعُونِ﴾ فاسمعوا قولي ، فقتله قومه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾ قال الله تعالى حين قتلوه : ادخل الجنة ، فلما دخلها ، وعاين ما أكرمه الله به ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ قال يا ليت قومي يعلمون ، السبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾ وجعلني من الذين أكرمهم الله بإدخاله جنته ، فيؤمنوا بالله ، ويستوجبوا الجنة[1] ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن جنوداً من الملائكة نقاتلهم بها ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما كنا لننزل الملائكة لإهلاكهم ، بل الأمر أيسر علينا من ذلك .

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما كان إهلاكهم إلا صيحة واحدة ، أنزلها الله من السماء عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فإذا هم هالكون ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يا حسرة العباد على أنفسها ، وتندماً وتلهفاً في استهزائهم برسل الله الذين أرسلهم الله إليهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ﴾ ألم ير هؤلاء المشركون كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية ، بتكذيبهم رسلنا ، وكفرهم بآياتنا ؟ ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ ألم يروا أنهم إليهم لا يرجعون ؟ ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وإنَّ كل هذه القرون التي أهلكناها وغيرهم ، محضرون جميعهم عندنا يوم القيامة ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ ودلالة وعلامة لهؤلاء المشركين ، على قدرة الله على إحيائه من مات من خلقه ، وإعادته بعد فنائه ، إحياؤه الأرض الميتة، التي لا نبت فيها، ولا زرع بالغيث ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وإخراجه منها الحب،

(١) وهذه سنة أولياء الله ، والدعاة إلى سبيله ، يتمنون الرشاد للناس جميعاً ، ويرجون لهم الخير في حياتهم ، وحتى بعد موتهم، أما السبب لدخوله الجنة فهو إيمانه بالله ، وصبره على الأذى في سبيل الله حتى مات شهيداً .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ
وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

***

الذي هو قوتٌ لهم وغذاء ، فمنه يأكلون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وجعلنا في الأرض التي أحييناها ، بساتين من نخيل وأعناب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ﴾ وأنبعنا فيها عيون الماء ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ليأكل عبادي من ثمرات الجنات ، التي أنشأناها لهم ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ومن ثمر ما عملت أيديهم ، مما غرسوا وزرعوا ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكر العباد من أنعم عليهم بهذا الرزق ؟ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ تنزيهاً وتبرئةً ، للذي خلق الألوان المختلفة كلها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ من نبات الأرض ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن الأشياء التي لم يطلعهم عليها ، خلق كذلك أزواجاً(١)

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ودليل لهم أيضاً على قدرة الله على فعل كل ما يشـاء ، الليل ننزع عنه النهار ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ فإذا هم قد صاروا في ظلام الليل ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ والشمس تجري إلى موضع قرارها ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ ذلك الجري تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بمصالح خلقه ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وآيةٌ لهم تقديرنا منازل القمر ، بالنقصان بعد تناهيه وتمامه ﴿حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ﴾ حتى عاد كالعذق اليابس في انحنائه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ﴾ لا الشمس يصلح لها لحاق القمر ، فتكون الأوقات كلها نهاراً ، لا ليل فيها ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولا الليل بفائت النهار ، حتى تذهب ظلمته بضيائه ، فتكون الأوقات كلها ليلاً ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم ، تدور في فَلَك السماء ، بقدرة الواحد الأحد ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ ودليل لهم على قدرتنا على ما نشاء ، حملنا من نجا من ولد آدم في سفينة نوح المملوءة .

(١) ولعل من جملة ذلك ما استطاع العلم في هذا العصر أن يكتشفه من أن الذرة في تكوينها الداخلي تتألف من كهارب سالبة ، وكهارب موجبة ، كما أنه عرف منذ زمن أن الزوجية موجودة في النبات ، فضلاً عن سائر الحيوانات صغيرها وكبيرها ، فسبحان العليم القدير .

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ
مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ

* * *

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ وخلقنا للناس تفضلاً منا عليهم ، من مثل تلك السفينة ، ما يركبونه من المراكب[١] ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ وإن نشأ نغرق هؤلاء المشركين ، إذا ركبوا السفينة في البحر ، فلا مغيث لهم ينجيهم من الغرق ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ ولا ينقذهم من الغرق شيء ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ إلا أن ننقذهم نحن ، رحمة منا لهم ، فننجيهم من الغرق ، ونمتعهم إلى أجل هم بالغوه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المشركين : احذروا ما مضى من نقم الله بالأمم قبلكم ، أن يحل مثله بكم ! ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ واتقوا ما أنتم لاقوه بعد هلاككم على كفركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ليرحمكم ربكم بالتوبة والإيمان[٢] .

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله ، دالة على توحيده، وتصديق رسوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم ، فأدوا منه لأهل الحاجة ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الذين أنكروا وحدانية الله للذين آمنوا بالله ورسوله ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أنطعم أموالنا وطعامنا ، من لو يشاء الله أطعمه ؟! ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ما أنتم إلا في ذهاب عن الحق ، وجورٍ عن الرشد، واضح لمن تأمله وتدبره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ويقول المشركون ـ يستعجلون ربهم العذاب ـ متى هذا الوعد بقيام الساعة ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أيها القوم ؟! ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا صيحة واحدة ، وذلك نفخة الفزع[٣] تأتيهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ وهم يختصمون فيما بينهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾

---

(١) هذا هو الراجح ، وقيل المراد خلقنا لهم من سفينة نوح الإبل التي يركبونها لأن الإبل في البر مثل السفن في البحر ، والأرجح ما ذكره الطبري .

(٢) جواب الشرط محذوف تقديره : أعرضوا عن قبول النصيحة والإيمان ، دل عليه ما بعده ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾.

(٣) هذه هي النفخة الأولى في الصور « نفخة الفزع » ثم تأتي نفخة الصعق ، ثم نفخة الإحياء ، فالنفخات كما ذهب ابن جرير ثلاثة وهو الراجح ، وقيل نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة الإحياء .

أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن
بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ

* * *

فلا يستطيع المشركون عند النفخ في الصور، أن يوصوا في أموالهم أحداً ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يستطيع من كان خارجاً عن أهله ، أن يرجع إليهم ، لأنهم يُعجَّلون بالهلاك ولا يُمهلون ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ فإذا الناس من قبورهم يخرجون سراعاً إلى ربهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ قال المشركون: يا ويلنا من أيقظنا من منامنا ؟ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ﴾ فقال المؤمنون : هذا وعد الله ، وصدق المرسلون فيما أخبرونا عنه ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا بصيحة واحدة ، وهي النفخة الثالثة في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فإذا هم مجتمعون لدينا في موقف العرض والحساب ، لم يتخلف منهم أحد .

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فيوم القيامة يوفي الله كل نفس أجر ما عملت ، ولا يعاقبها إلا بما اجترمت ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا تُكافؤون إلا على أعمالكم ، التي كنتم تعملونها في الدنيا ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ في شغلٍ بنعم الله التي تأتيهم ، عما يلقى أهل النار[1] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ أصحاب الجنة وأزواجهم في ظلال الجنة ، لا تصيبهم الشمس كما تصيب أهل الدنيا ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ متكئون على السرر والفرش الوثيرة ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ لهؤلاء في الجنة فاكهة ، ولهم فيها ما يتمنون ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ تسليمٌ من الله عليهم ، وهو الرحيم بهم إذ لم يعاقبهم بما سلف منهم ﴿وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ﴾ وتميَّـــزوا عن المؤمنين اليوم أيها الكافرون ، فإنكم داخلون غير مدخلهم ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ

(١) قال ابن عباس : شغلهم فضّ الأبكار ، وضرب الأوتار ، عن النظر إلى أهل النار .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ
أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ
بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾
وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ
فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا

* * *

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ألم أوصكم وآمركم في الدنيا، أن لا تطيعوا الشيطان في معصية الله؟ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان لكم عدوٌّ ظاهر العداوة، فقد غرَّر أباكم حتى أخرجه وزوجته من الجنة ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وألم أوصكم بأن اعبدوني دون ما سواي من الآلهة والأنداد؟ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إخلاص عبادتي، وإفراد طاعتي، هو الدين الصحيح، والطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً﴾ ولقد صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي، حتى عبدوه ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم؟ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هذه النار التي وُعدتم بها في الدنيا ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ احترقوا بها يوم القيامة، بما كنتم تكذبون بها في الدنيا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ يوم القيامة نطبع على أفواه المشركين ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ بما عملوا من المعاصي ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وتشهد أرجلهم على ما فعلوه من الآثام ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لو نشاء لصيَّرناهم عُمياً، لا يبصرون طريقاً، ولا يهتدون له ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فابتدروا الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ فأي وجه يبصرون من الطرق، وقد طمسنا على أعينهم؟ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ ولو نشاء لأقعدنا هؤلاء المشركين من أرجلهم في منازلهم[1] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ومن نمدّ له في العمر، نرده إلى الهرم، والكبر، فيصير لا يعلم شيئاً ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقل هؤلاء قدرة الله على ما يشاء؟ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما علمنا محمداً الشعر، وما ينبغي له أن يكون شاعراً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما محمد

---

(١) وقال ابن عباس في تفسير الآية: ولو نشاء أهلكناهم في مساكنهم فلم يستطيعوا الحراك، وهو أظهر، والمعنى: لو نشاء مسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم فلم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا.

يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

* * *

إلا مُذَكِّرٌ لكم ، ذكّركم الله بإرساله إليكم ، ونبهكم على خطئكم ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ والذي جاءكم به قرآن ظاهر ، لمن تدبره أنه تنزيل من الله . ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ لينذر من كان منكم حي القلب[1] . يعقل ويفهم ﴿وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ويجب العذاب على أهل الكفر، المعرضين عما جاءهم من عند الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ أولم ير المشركون أنا خلقنا لهم الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، فسخرناها لهم ؟ ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ فهم لها مصرفون كيف شاءوا بالقهر والضبط ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ومِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ وذللنا هذه الأنعام[2] لهم ، فمنها ما يركبون ظهورها ، ومنها ما يأكلون لحومها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ ولهم في هذه الأنعام منافع ، في أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولهم منها الألبان يشربونها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكرون نعمتي وإحساني إليهم ؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ واتخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها ، طمعاً أن تنصرهم من عذاب الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من الله إن أراد بهم سوءاً ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا[3]، وهي لا تدفع عنهم سوءاً ، لأنها أصنام ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يحزنك يا محمد قول المشركين: إنك شاعر ، ولا تكذيبهم بآيات الله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ نعلم ما يسرون في صدورهم من معرفتهم الحقيقة ، وما يعلنونه من جحود ذلك بألسنتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أولم ير الإنسان الكافر أنا خلقناه من نطفة ، فسويناه خلقاً سوياً ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا هو مخاصمٌ

(١) المراد بالحيّ هنا من كان حيَّ القلب ، حيَّ البصر وهو المؤمن ، وأما الكافر فهو ميت القلب فلا يستفيد من هداية القرآن ، وهذا القول الذي اختاره الطبري هو قول قتادة وهو الصحيح .

(٢) أي جعلناها تحت قهرهم وتسلطهم منقادة لهم ، فالإبل على ضخامة جسمها يسيّرها الطفل الصغير كيف شاء، ويقيمها ويقعدها دون ممانعة منها ، وهذا من تذليل الله تعالى هذه الأنعام للإنسان .

(٣) في الآية تشبيه أي إن المشركين كالجند والخدم للأصنام ، يغضبون من أجلهم ، ويفدونهم بالروح والولد ، والأصنام لا تسوق لهم خيراً ، ولا تدفع عنهم ضرّاً ، فهم كالخُدّام للأصنام .

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ
أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

* * *

لربه الذي خلقه، ظاهر الخصومة[١] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ومثَّل لنا شبهاً بقوله «من يُحيي العظام وهي رميم» ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه، فلم يفكر في ذلك، فيعلم أن من خلقه من نطفة، حتى صار بشراً سوياً ناطقاً متصرفاً، لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة، ولم تكن شيئاً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وهو عليم بجميع خلقه، لا يخفى عليه شيء ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً﴾ الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر، ناراً تحرق الشجر ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ توقدون النار من الشجر الأخضر ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أوليس الذي خلق السموات السبع، والأرض التي هي أعظم من خلقكم، بقادر على أن يخلق مثلكم؟ ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم، وهو الخلاق لما يشاء، العليم بكل خلق، لا يخفى عليه خافية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنما أمر الله إذا أراد إيجاد شيء، أن يقول له: كن فيكون[٢]. ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فتنزَّه الله الذي بيده ملك كل شيء وخزائنه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردون وتصيرون بعد مماتكم.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يسٓ »

* * *

---

(١) نزلت في رجل من صناديد قريش هو «أبيُّ بن خلف» جاء إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ ففتَّه بين يديه ثم قال يا محمد: أتزعم أن الله يبعثنا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذه؟ فأنزل الله الآية.

(٢) هذا على سبيل التمثيل لسرعة الخلق والإيجاد، قال قتادة: هذا مثل ليس من كلام العرب شيء هو أخف من ذلك ولا أهون، فأمر الله كذلك.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ
مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ
خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

***

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً ﴾ أقسم الله تعالى بالملائكة ، الصافات لربها في السماء صفوفاً ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ﴾ فالملائكة تزجر السحاب تسوقه ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ فالملائكة القارئات كتاباً ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ إن معبودكم أيها الناس ـ الذي يستوجب عليكم العبادة ، وإخلاص الطاعة منكم ـ لواحدٌ لا ثاني له ولا شريك ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هو وحده خالق السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلائق ، والقيِّمُ على جميع ذلك ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ وهو مدبر مشارق الشمس ومغاربها ، في الشتاء والصيف ، والقيم على ذلك ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ إنا زينا السماء التي تليكم بالكواكب ﴿ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ حفظاً لها من كل شيطان عاتٍ خبيث [١] ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان ، لئلا يسمع إلى الملأ الأعلى ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ ويرمون من كل جانب من جوانب السماء ﴿ دُحُوراً ﴾ إبعاداً وطرداً لهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ وللشياطين عذاب يوم القيامة ، دائم خالص [٢] ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ إلا من استرق السمع منهم ، فلحقه شهابٌ مضيءٌ متوقد فأحرقه ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ

---

(١) قال قتادة : خلقت النجوم لثلاثٍ : رجوماً للشياطين ، ونوراً يُهتدى بها ، وزينةً للسماء الدنيا .

(٢) المراد بالواصب : الدائم الذي لاينقطع . « القرطبي ١٥/٦٤ »

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * احْشُرُوا
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

أشدُّ خلْقاً أمْ مَنْ خلَقْنَا ﴾ فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين ـ المنكرين للبعثِ والنشور ـ ، فسلْهم : أخلقُهم أشدُّ ، أم خلقُ من عددنا من الملائكة ، والشياطين ، والسموات ، والأرض ؟ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ إنا خلقنا الإنسان من طين لاصق [١] ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ بل عجبتَ يا محمد مما أعطاك الله من الفضل [٢] ، وسخر منه أهل الشرك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا ذُكِّرَ المشركون بحجج الله ، ليعتبروا ويتفكروا ، لاينتفعون بالتذكير ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ وإذا رأوا حجة ودلالة على نبوة محمد ﷺ يسخرون ويستهزئون ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وقال المشركون : ما هذا الذي جئتنا به يا محمد ، إلا سحرٌ واضحٌ لمن رآه وتأمله .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾أنبعث أحياء من قبورنا ، بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً ، قد ذهب عنها اللحوم ؟ ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أو يبعث آباؤنا الذين مضوا قبلنا ، فبادوا وهلكوا ؟ ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ قل لهم : نعم إنكم مبعوثون أحياء ، كما كنتم قبل مماتكم ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ وأنتم صاغرون ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فإنما هي نفخة واحدة في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ فإذا أبصارهم شاخصة ، ينظرون إلى ما كانوا يوعدون ، من قيام الساعة ﴿وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ وقال المشركون عندئذ : يا ويلنا [٣] هذا يوم الجزاء والمحاسبة ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يقال لهم [٤] : هذا يوم فصل الله بين خلقه بالعدل ، الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ إجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا ، وأشياعهم [٥] على الكفر ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

(١) خُلق ابنُ آدم من العناصر الآتية : « التراب، والماء ، والهواء ، والنار » والتراب إذا خُلط بالماء صار طيناً متلاصقاً متماسكاً ، وفي الآية تنبيهٌ على ضعف الإنسان فإنه خلق من الطين لا من الحديد .

(٢) هكذا فسره الطبري، وقال غيره المعنى: عجبت من إنكارهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله، ويسخرون من تعجبك وإقرارك بالبعث

(٣) معنى الويل : الهلاك والخسران .

(٤) أي تقول الملائكة لهم ذلك على سبيل التقريع والتوبيخ .

(٥) ليس المراد بالأزواج الزوجات ، وإنما المراد به أشباههم من المجرمين العصاة ، ولهذا فسره الطبري بالأشياع .

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ
ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل
لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ
مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

* * *

اللهِ ﴾ احشروهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِراطِ الْجَحِيمِ ﴾ فوجهوهم إلى طريق النار الموقدة ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ واحبسوهم إنهم مسئولون عن أعمالهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرونَ﴾ما لكم أيها المشركون لاينصر بعضكم بعضاً ؟ ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ بل هم اليوم لأمر الله وقضائه ، مستسلمون موقنون بعذابه ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وأقبل الإنس على الجن يتساءلون(١) ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ﴾ قالت الإنس للجن :إنكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق ، فتخدعوننا بأقوى الوجوه ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قالت الجن : بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين ، وكنتم للأصنام عابدين ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾وما كان لنا عليكم من حجة ، فنصدكم بها عن الإيمان ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ بل كنتم أيها المشركون متعدين إلى ما ليس لكم التعدي إليه ، من معصية الله ومخالفة أمره ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ فوجب علينا عذاب ربنا ، وإنا لذائقوه نحن وأنتم ، بما قدمنا من الذنوب والمعاصي ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ فأضللناكم عن سبيل الله ، إنا كنا ضالين ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فإن الجن الذين أغووا الإنس يوم القيامة ، مشتركون في العذاب جميعاً في النار ، كما اشتركوا في معصية الله .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ إنا هكذا نفعل بالذين اختاروا المعاصي والكفر بالله على الإيمان به ، فنجمع بينهم وبين قرنائهم في النار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إنهم كانوا في الدنيا إذا قيل لهم : قولوا « لا إله إلا الله » يتعظّمون عن قول ذلك ويتكبرون ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ ويقولون : أنترك عبادة آلهتنا ، لاتّباعِ شاعرٍ مجنون ؟ ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ

(١) أعاد الإمام الطبري الضمير على الجن ، والأظهر أن الضمير يعود على البشر والمعنى : أقبل الأتباع على الرؤساء يلوم بعضهم بعضاً ويتخاصمون ويتنازعون، وذلك لأن الخصومة في الآخرة إنما تكون بين الرؤساء والأتباع، الضالين والمضلّلين.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

المُرْسَلِينَ ﴾ بل جاءهم محمد بالقرآن الحق ، من عند الله ، وصدَّق المرسلين الذين كانوا قبله **﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ ﴾** إنكم لذائقوا العذاب الموجع في الآخرة **﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾** وما تثابون في الآخرة ، إلا جزاء ما كنتم تعملون من معاصي الله **﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ ﴾** إلا الذين كتب الله لهم السعادة ، فإنهم لايذوقون العذاب [١] ، لأنهم أهل طاعة الله **﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ ﴾** لهم الفواكه التي خلقها الله في الجنة[٢] **﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾** وهم مع الرزق المعلوم ، مكرمون بكرامة الله التي أكرمهم الله بها في بساتين النعيم **﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾** يقابل بعضهم بعضاً [٣] **﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾** يطوف الخدم عليهم بكأس بيضاء ، من خمر جارية ظاهرة لأعينهم ، يلتذُّ بها شاربوها **﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾** لا أذى فيها ولا مكروه على شاربيها ، في جسم ولا عقل ولا غير ذلك [٤] **﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾** ولا يسكرهم الشرب فيذهب بعقولهم [٥] **﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾** وعند هؤلاء في الجنة ، النساء اللواتي قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يمددن أبصارهن إلى غيرهم ، يتَّصفن بالعيون النجل الواسعة **﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾** كأنهن بياض البيض [٦] داخل القشر في بياضهن ، وأنهن لم يمسهنَّ قبل أزواجهنَّ إنسٌ ولا جان .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فأقبل بعضُ أهل الجنة على بعض ، يسأل بعضهم بعضاً

---

(١) الاستثناء منقطع أي لكنَّ عباد الله المخلصين فإنهم لا يذوقون العذاب .

(٢) لما ذكر تعالى أحوال المشركين وما أعدَّ لهم من العذاب الأليم ، ذكر هنا أحوال المؤمنين وما أكرمهم به من النعيم الدائم الخالد ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب .

(٣) قال مجاهد : لاينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحابياً .

(٤) عمَّ الإمام ابن جرير القول في الغول فقال : « الغول ما غال الإنسان فذهب به ، فذهاب العقل ، ووجع البطن والصداع ، والذي ناله مكروه كلهم قد غالته الغول » .

(٥) قال ابن عباس : في الخمر أربع خصال « السكرُ ، والصداعُ ، والقيءُ ، والبولُ » فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

(٦) هكذا فسره الطبري ، وقال ابن عباس : كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه واستشهد بقوله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ وهذا أظهر والله أعلم .

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾

* * *

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ قال قائل من أهل الجنة : إني كان لي صاحب يقول : أتصدق بأننا نبعث بعد مصيرنا عظاماً، ولحومنا تراباً ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تراباً وعظاماً أءنا لَمَدِينُونَ ﴾ سنبعث ونجزى بعملنا ، ونحاسب عليه (١) ؟ ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ قال المؤمن لأصحابه : هل أنتم مطلعون في النار ، لعلي أرى قريني المنكر للبعث ؟ فقالوا : نعم ، فاطَّلع فرآه في وسط جهنم ﴿قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ فلما رآه قال له : إن كدت في الدنيا لتهلكني ، بصدِّك إياي عن الإيمان ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ولولا أن الله أنعم عليَّ بهدايته ، والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت ، لكنت من المحضرين معك في عذاب الله ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يقول المؤمن ـ سروراً بكرامة الله تعالى ـ أفما نحن بميتين ، غير موتتنا الأولى في الدنيا ، وما نحن معذبين بعد دخولنا الجنة (٢) ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إن هذا الذي أعطانا الله إيَّاه ، من الكرامة في الجنة ، لهو النجاء العظيم ، بإيماننا وطاعتنا ربنا ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ لمثل هذا الذي أعطيت المؤمنين من الكرامة ، فليعمل العاملون في الدنيا ، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم (٣) ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أم شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ أهذا الذي أعطيتُ هؤلاء المؤمنين من الفضل خيرٌ ، أو ما أعددت لأهل النار من الزقوم ؟! ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ جعلنا شجرة الزقوم ابتلاءً للمشركين ، الذين قالوا : كيف ينبت الشجر في النار ، والنار

(١) يقول ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ، لأنه مشركٌ منكرٌ للبعث والجزاء .

(٢) هكذا فسَّره الطبري ، والظاهر كما قال غيره أن هذا على سبيل السخرية والاستهزاء يقول له المؤمن : هل لا تزال على اعتقادك أنه لابعث ولا جزاء ؟ وهو أسلوب ساخرٌ لاذع مع التهكم .

(٣) هذا حثٌ من الله تعالى للمؤمنين ليكون تنافسهم في هذه الدنيا في طاعة الله تعالى ، والتسابق إلى ما فيه مرضاته لايتنافسون في الدنيا ، وجمع حطامها ، فذلك شأن الكافر لضيق نظره ، وبعده عن التوفيق والسداد ، نسأله تعالى أن يجعلنا ممن يتنافس على منازل السعداء .

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾

* * *

تحرق الشجر ؟ ﴿ **إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ . طَلْعُها كأَنَّهُ رُءوسُ الشَّياطِينَ** ﴾ إنها شجرة نابتةٌ في أصل نار جهنم ، كأن طلعها في قبحه وبشاعته ، رؤوس الشياطين في قبحها ﴿ **فإنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْها فَمَالِئُون مِنْها البُطُونَ** ﴾ فإن هؤلاء المشركين لآكلون من شجرة الزقوم ، فمالئون من زقومها بطونهم ﴿ **ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ** ﴾ ثم إن لهم لخلطاً من الماء الساخن ، الذي انتهى حرُّه ، يُخلط به طعامهم ﴿ **ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإلَى الجَحِيمِ** ﴾ ثم إن مصيرهم لإلى نار جهنم ﴿ **إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضَالِّينَ** ﴾ إن المشركين وجدوا آباءهم ضُلَّالاً ، غير سالكين محجة الحق ﴿ **فَهُمْ عَلَى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ فهم يسرعون في طريقهم ، ليقتفوا آثارهم وسننهم.

﴿ **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِين** ﴾ ولقد ضل عن محجة الحق ، قبل مشركي قومك ، أكثرُ الأمم الخالية ﴿ **ولقد أَرْسَلْنا فِيهِم مُنْذِرِينَ** ﴾ ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت ، رسلاً تنذرهم بأسنا على كفرهم ، فكذبوهم ﴿ **فانظُرْ كيف كان عاقِبَةُ المُنْذَرِينَ** ﴾ فتأملْ وتبيَّنْ كيف كان مصير أمر الذين أنذرتهم أنبياؤ نا ، ألم نهلكهم فنصيِّرهم للعباد عبرة ، ولمن بعدهم عظة ؟ ﴿ **إلا عبادَ اللَّهِ المُخْلَصِين** ﴾ أهلكنا المنذَرين إلا عباد الله ، الذين أخلصناهم للإيمان بالله وبرسله ﴿ **ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ** ﴾ نادانا نوح لإهلاك قومه ، فلنعم المجيبون [1] كنا له ، أجبنا دعاءه فأهلكنا قومه ﴿ **ونَجَّيْناه وأهلَهُ من الكَرْبِ العظيم** ﴾ ونجينا نوحاً وأهله الذين ركبوا معه في السفينة ، من الغرق الذي هلك به القوم [2] ﴿ **وجعلنا ذُرِّيته هُمُ الباقِينَ** ﴾ وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض ، بعد مهلك قومه ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين . سلامٌ على نوح في العالمين** ﴾ وأبقينا على نوح ذكراً جميلاً ، وثناء حسناً ، فيمن تأخر بعده

(١) صيغة الجمع ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ للعظمة والكبرياء كقوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

(٢) ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص وهي : قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة إسماعيل ، وقصة موسى ، وقصة إلياس ، وقصة لوط ، وقصة يونس ، وكل هذه القصص تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وتحذيرٌ للمشركين الكفار .

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ
لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ
تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ
مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾
فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾

* * *

من الناس ، يذكرونه به ﴿ **إِنَّا كذلك نَجْزِي المحسنين** ﴾ كما فعلنا بنوح مجازاة له على طاعتنا ، وصبره على أذى قومه في رضانا ، كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا ، ويصبرون على الأذى فينا ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ إن نوحاً من عبادنا ، الذين آمنوا بنا ، وأخلصوا العبادة لنا ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ ثم أغرقنا من بقي من قومه .

﴿ **وإن من شِيعَتِهِ لإبراهيم** ﴾ وإن من أشياع نوح ـ على منهاجه وملَّته ـ لإبراهيم (١) ﴿ **إذ جاء ربَّهُ بقلبٍ سَليم** ﴾ حين جاء ربه بقلبٍ سليمٍ من الشرك ، مخلصٍ له بالتوحيد ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تَعْبُدون** ﴾ حين قال لأبيه وقومه : أَيَّ شيء تعبدون ؟ ﴿ **أئِفْكاً آلهةً دون الله تُريدون** ﴾ أكذباً معبوداً غير الله تريدون(٢)؟ ﴿ **فما ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين** ﴾ فأي شيء تظنون أن الله يصنع بكم ، إن لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟! ﴿ **فَنَظَر نَظْرَةً في النجوم . فقال إني سقيم . فتولَّوْا عنه مُدْبرين** ﴾ كان قومه أهل تنجيم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه ، وقال : إني مطعون ـ مريض ـ وأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم ، ليكسرها ، فتولوا عنه خشية العدوى ، لأنهم كانوا يهربون من الطاعون ﴿ **فَرَاغَ إلى آلهتهم** ﴾ فمال إلى آلهتهم ﴿ **فقال ألا تأكلون** ﴾ فقال لها : ألا تأكلون من هذا الطعام ؟ ﴿ **ما لكم لا تَنْطِقُون** ﴾ فلم يرها ترد على سؤاله ، فقال لها استهزاءً : ما لكم لا تنطقون ؟! ﴿ **فَرَاغَ عليهم ضَرْباً باليمين** ﴾ فمال على آلهة قومه ، ضرباً لها بفأس في يده . يكسرهن بقوة ﴿ **فأقبلوا إليه يَزِفُّون** ﴾ فأقبل القوم إلى « إبراهيم » يجرون مسرعين ﴿ **قال أتعبدون ما تَنْحِتُون . والله خلقكم وما تعملون** ﴾ قال إبراهيم : أتعبدون أيها القوم ما تنحتون بأيديكم من الأصنام ، والله خلقكم وعملكم ﴿ **قالوا ابنوا له بُنْياناً فألْقُوهُ في الجحيم** ﴾ قالوا :

(١) هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء وهي قصة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام.

(٢) الإفكُ : أسوأ الكذب وأشنعه ، وإنما قدّم المفعول لأجل التقبيح عليهم ، والأصل أتريدون آلهة دون الله إفكاً أي من أجل الإفك والكذب والزور .

فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ
فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾
وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

* * *

ابنوا له بنياناً ، فألقوه في جمر النار المتقد (١)

﴿ **فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين** ﴾ فأراد قوم إبراهيم إحراقه ، فجعلناهم الأذلين حجة ، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد ﴿ **وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سَيَهْدين** ﴾ فقال إبراهيم بعد نجاته : إني مهاجر من بلد قومي إلى الأرض المقدسة ، ومعتزلهم لعبادة الله تعالى ، ليثبتني على الهدى ويعينني عليه ﴿ **رب هب لي من الصالحين** ﴾ يا رب هب منك ولداً صالحاً ، من الذين يطيعونك ولا يعصونك ﴿ **فبشرناه بغلامٍ حليم** ﴾ فبشرنا إبراهيم بغلامٍ يكون حليماً في كبره (٢) ﴿ **فلما بلغ معه السَّعْيَ قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذْبَحُكَ فانظر ماذا تَرَى** ﴾ فلما بلغ الغلام الوقت الذي أطاق معونة أبيه على عمله ، قال إبراهيم لابنه : يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ما الذي تراه وما رأيك فيه (٣) ؟﴿ **قال يا أبتِ آفعل ما تُؤْمَرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ قال الولد لأبيه : يا أبت افعل ما يأمرك به ربك من ذبحي ، ستجدني إن شاء الله صابراً لأمر الله ﴿ **فلما أَسْلَمَا** ﴾ فلما أسلما أمرهما لله ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه ﴿ **وتَلَّهُ للجبين** ﴾ وصرعه للجبين ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم . قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا** ﴾ نادينا إبراهيم أنك قد صدقت الرؤ يا التي أريناكها في منامك ، وأمرناك فيها بذبح ابنك ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ كذلك نجزي الذين أحسنوا ، فأطاعوا أمرنا ، وعملوا في رضانا ﴿ **إنَّ هذا لهو البلاءُ المبين** ﴾ إن الأمر بذبح ابنك هو الاختبار الواضح ، لمن فكر فيه أنه بلاء شديد ، ومحنة

---

(١) هذه سنة الله في الخلق ، الدعاة إلى الله يبيِّنون حجتهم بوضوح وإشراق ، والطغاة يكتمون الأنفاس ، لايطلقون لهم الحرية في بيان آرائهم ، وإظهار دعوتهم ، لأنهم لا حجة لديهم يردون بها أقوال الدعاة ، فيلجأون إلى القوة والقهر ، والسجن والتعذيب ، والبطش والقتل .

(٢) رجح الإمام الطبري أن الذبيح هو « إسحق » بينما رجح جمهور المفسرين أنه « إسماعيل » وظاهر النصوص الكريمة في كتاب الله تعالى أنه إسماعيل عليه السلام ، ولهذا نرى في هذه الآيات الكريمة أنه بعد الإنتهاء من الحديث عن قصة إبراهيم مع إسماعيل ، بين الله تعالى بشراه له بإسحق في قوله ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً . . . ﴾ ولعل في طلب إبراهيم الولد من الله تعالى نوع تعلق بقلبه به ، فأراد الله أن يجرد قلبه له فأمره بذبحه ، وأما الذي أعطاه إياه من غير طلب فلم يكن فيه نوع تعلق لأنه غير منتظر . والله أعلم ـ وهناك وجوه أخرى للترجيح ذكرها المفسرون .

(٣) إنما أخبر ابنه بذلك ليختبر صبره على امتثال أمر الله ، ويوطِّن نفسه على الصبر على قضاء الله وحكمه .

وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

* * *

عظيمة ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عظيم ﴾ وجزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ، ذبح كبش عظيم ، وأنقذنا الغلام من الذبح ﴿ وتركنا عليه في الآخرين . سَلامٌ على إبراهيم ﴾ وأبقينا على إبراهيم - فيمن بعده إلى يوم القيامة - ثناء حسناً ، لايذكر من بعده إلا بالذكر الجميل ﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ كما جزينا إبراهيم على طاعته إيانا ، كذلك نجزي من أحسن في الطاعة .

﴿ وبشرناه بإسحٰق نبياً من الصالحين ﴾ وبشرنا إبراهيم بإسحٰق نبياً صالحاً ، شكراً له على إحسانه وطاعته ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحٰق ومن ذريتهما مُحْسن وظالم لنفسه مبين ﴾ وباركنا على إبراهيم وعلى إسحٰق ، ومن ذريتهما المؤمن المطيع لله ، والكافر بالله الذي قد بان ظلمه لنفسه واتضح ﴿ ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون ﴾ ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران ، فجعلناهما نبيين ﴿ ونجيناهما وقَوْمَهُما من الكرب العظيم ﴾ ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم فأنقذناهم من الغرق الذي حدث لفرعون وجنوده ﴿ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴾ ونصرنا موسى وهرون وقومهما ، على فرعون وآله بتغريقهم ، فكانوا هم الغالبين ﴿ وآتيناهما الكتاب المُسْتَبين ﴾ وآتينا موسى وهرون « التوراة » المتضح مافيها من الهدى ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ وأرشدناهما إلى الإسلام دين الله ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين . سَلامٌ على موسى وهٰرون ﴾ وتركنا عليهما فيمن بعدهم الثناء الحسن ، فيقال : سلام على موسى وهارون[1] ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ هكذا نجزي أهل طاعتنا ، والعاملين بما يرضينا ﴿ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ إن موسى وهارون من عبادنا المخلصين لنا الإيمان والطاعة ﴿ وإن إلياسَ لمن المرسلين ﴾ وإن إلياس [2] بن ياسين لمرسلٌ من المرسلين ﴿ إذ قال لقومه ألا

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة « موسى » و « هارون » عليهما السلام .
(٢) هذه هي القصة الرابعة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة إلياس عليه السلام .

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

* * *

تتّقون ﴾ حين قال لقومه بني إسرائيل (١) : ألا تتقون الله فتخافونه وتحذرون عقوبته ، على عبادتكم رباً غيره ؟ **﴿ أتدعون بَعْلاً وتَذَرُون أحسَنَ الخالقين ﴾** أتعبدون إلَهاً، وتَدَعون أحسن من قيل له « خالق »

﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وهو معبودكم الذي يستحق عليكم العبادة ، ربكم الذي خلقكم ، ورب آبائكم الماضين قبلكم **﴿ فكذبوه فإنهم لَمُحْضَرُون ﴾** فكذب القوم « إلياس » فإنهم سيحضرون عذاب الله تعالى **﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾** إلا عباد الله الذين أخلصهم من العذاب **﴿ وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على إلْ ياسينَ ﴾** وأبقينا عليه الثناء الحسن فيمن بعده من الأمم : أمنةٌ من الله لإلياس **﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾** هكذا نجزي أهل طاعتنا ، والمحسنين في أعمالهم **﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾** إن إلياس عبد من عبادنا الذين أطاعونا ، ولم يشركوا بنا شيئاً .

﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ وإن لوطاً (٢) لمرسل إلى قومه من عند الله **﴿ إذْ أنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾** حين أنجيناهم من العذاب الذي أحللناه بقومه ، فأهلكناهم به **﴿ إلا عَجُوزاً في الغابرين ﴾** إلا امرأة لوط كانت في الهالكين **﴿ ثم دَمَّرْنا الآخرين ﴾** قذفناهم بالحجارة من فوقهم ، فأهلكناهم بذلك **﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل ﴾** وإنكم ـ أيها المشركون ـ لتمرُّون على مكان قوم لوط، عند إصباحكم نهاراً وبالليل **﴿ أفلا تعقلون ﴾** أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون ، فيزجركم ذلك عن الشرك بالله ، وتكذيب رسوله محمد ﷺ ؟ **﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾** وإن يونس (٣) لمرسلٌ من عند الله ، أرسلناه إلى قومه **﴿ إذْ أَبَقَ إلى الفُلك المشحون ﴾** حين فرَّ إلى السفينة ، الموقرة من الحمولة **﴿ فساهم فكان من المُدْحَضِين ﴾** فقارع مع ركابها ، فكان ممن وقع عليهم السهم وغُلب (٤) **﴿ فالتَقَمَهُ**

---

(١) نقل ابن كثير عن قتادة ، والضحاك وابن مسعود قولهم : إن إلياس هو إدريس ، ثم نقل عن وهب ابن منبه أنه من بني إسرائيل كما ذكره ابن جرير ، وهو الذي ذكره فضيلة الشيخ الصابوني في كتابه «النبوة والانبياء» وقال :من المقطوع به أنه من أنبياء بني إسرائيل . ص ٣٠٩

(٢) هذه هي القصة الخامسة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة لوط عليه السلام .

(٣) هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة يونس عليه السلام .

(٤) وكان سبب المساهمة أن السفينة لعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الهلاك ، فساهموا على أن من تقع عليه القرعة =

فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
* فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾
وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

* * *

الحوت وهو مُلِيمٌ ﴾ فابتلعه الحوت ، وهو مكتسب ما يلام عليه من الذنب **﴿ فلولا أنه كان من المسبِّحِينَ ﴾** فلولا أن يونس كان من المصلِّين لله ، قبل البلاء الذي ابتلي به في بطن الحوت **﴿ لَلَبِثَ في بطنه الى يوم يُبعثون ﴾** لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ولكنه كان من الذاكرين لله ، فأنقذه الله ونجّاه **﴿ فَنَبَذْناه بالعَرَاء ﴾** فقذفناه بالفضاء من الأرض **﴿ وهو سقيم ﴾** وهو ضعيف البدن **﴿ وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطين ﴾** وأنبتنا على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق (١) **﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾** وأرسلنا يونس إلى مائة ألف من الناس ، أو يزيدون على ذلك (٢) **﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾** فوحَّدوا الله ، وصدَّقوا بحقيقة ما جاءهم به يونس ، فأخرنا عنهم العذاب ، ومتعناهم إلى بلوغ آجالهم من الموت .

﴿ فاسْتَفْتِهِمْ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ سل يا محمد مشركي قومك من قريش : ألربي البنات ، ولكم البنون (٣) **﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً ﴾** أم شهد هؤلاء المشركون خلقي الملائكة ، وأنا أخلقهم إناثاً ؟ **﴿ وهم شاهدون ﴾** فشهدوا بأن الملائكة إناث ؟ **﴿ ألا إنهم من إفْكِهِم ليقولون . ولد اللَّهُ وإنهم لكاذبون ﴾** إن هؤلاء المشركين من كذبهم ليقولون : لله ولدٌ ، وإنهم لكاذبون في قولهم ذلك **﴿ أَصْطَفَى البناتِ على البنين ﴾** هل اصطفى الله البنات على البنين ؟ **﴿ما لكم كيف تحكمون ﴾** بئس هذا الحكم الذي تحكمون به أيها القوم **﴿ أفلا تَذَكَّرون ﴾** أفلا تتدبرون ما تقولون لتعرفوا خطأه ، فتنتهوا عن قوله ؟ **﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾** أم لكم حجة واضحة بحقيقة ما تقولون ؟ **﴿ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾** فأتوا بحجتكم من كتاب الله ، إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة **﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنَّةِ**

= يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ ثلاث مرات كما ذكر المفسرون .
(١) هي شجرة القرع ذات الورق العريض .
(٢) « أو » بمعنى بل أي بل يزيدون وليست للشك .
(٣) كان مشركو قريش يقولون « الملائكة بنات الله » وكانوا يعبدونها بزعمهم ، لذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ بذلك

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

* * *

نَسَباً ﴾ وجعل المشركون بين الله تعالى ، وبين الجنِّ صلة نسب ، حيث قالوا إن أمهات الملائكة بنات الجن **﴿ ولقد عَلِمَتِ الجنة إنهم لمُحضَرُون ﴾** ولقد علمت الجنُّ أن المشركين سيحضرون العذاب في النار **﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾** تنزيهاً لله وتبرئةً له ، مما يُضيف إليه المشركون ويفترون عليه **﴿ إلاَّ عبادَ الله المخلصين ﴾** إلا عباد الله الذين أخلصهم الله لرحمته ، وخلقهم لجنَّته **﴿ فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين . إلاَّ من هُوَ صَالِ الجحيم ﴾** فإنكم أيها المشركون بالله ، وما تعبدون من الآلهة والأوثان ، ما أنتم بالذين تضلون بآلهتكم أحداً ، إلاَّ من سبق في علم الله أنه سيصلى نار جهنم **﴿ وما منا إلاَّ له مَقَامٌ معلوم ﴾** وليس منا معشر الملائكة ، إلاَّ من له مقامٌ معلوم في السماء **﴿ وإنا لنحن الصافُّون ﴾** وإنا لنحن الصافون لعبادة الله صفوفاً **﴿وإنا لنحنُ المسبحون﴾** وإنا لنحن المصلُّون لله **﴿ وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾** وإن كان المشركون ليقولون قبل أن نبعث إليهم محمداً ﷺ : لو أن عندنا كتاباً أُنزل من السماء ، كالتوراة والإنجيل ، أو أتانا نبيٌّ كما أتى غيرنا **﴿ لَكُنا عباد الله المخلصين ﴾** لكنا عباد الله ، الذين أخلصهم لعبادته ، واصطفاهم لجنته **﴿فكفروا به﴾** فلما جاءهم القرآن من عند الله كفروا به **﴿فسوف يعلمون﴾** ما لهم من العذاب بكفرهم .

﴿ ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَلين . إنهم لهم المنصورون ﴾ ولقد سبق القضاء والحكم في أم الكتاب ، أن لرسلنا النصرة والغلبة **﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾** وإن حزبنا وأهل ولايتنا ، لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر [1] بنا **﴿ فتولَّ عنهم حتى حين ﴾** فأعرض يا محمد عنهم إلى حين مجيء عذابنا ، ونزوله بهم **﴿ وأبصِرهم فسوف يبصرون ﴾** وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابِنا

---

(١) هذا وعدٌ من الله تعالى محققٌ ، بنصرة رسله وعباده المؤمنين لايُخلف ، فالنصر والغلبة للمؤمنين دائماً ، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب التقصير منهم ، أو ابتلاءً ومحنة ، وصدق الله **﴿ وإنا جندنا لهم الغالبون ﴾** .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

* * *

﴿ **أفبِعذابِنا يستعجلون** ﴾ أفبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يا محمد ؟ ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فَسَاءَ صباحُ المنذَرِين** ﴾ فإذا نزل بهؤلاء المشركين العذاب ، فبئس صباح القوم الذين أنذرهم رسولنا نزول العذاب بهم . ﴿ **وتولَّ عنهم حتى حين** ﴾ وأعرض عن هؤلاء المشركين، حتى يأذن الله بهلاكهم ﴿ **وأبْصِرْ فسوف يُبصرون** ﴾ وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا ، حين لا تنفعهم التوبة ﴿ **سبحان ربك ربِّ العِزة عما يَصفون** ﴾ تنزيهاً لربك وتبرئة له ـ ربِّ القوة والبطش ـ عما يصفه به هؤلاء المفترون من مشركي قريش ﴿ **وسلامٌ على المرسلين** ﴾ وأَمَنَةٌ من الله لمن أرسلهم الله إلى أممهم ، من فزع يوم العذاب الأكبر ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾والحمد لله رب الجن والإنس ، خالصاً دون ما سواه ، لأن كل نعمة لعباده فمنه وحده لاشريك له .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ
إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

* * *

﴿ صۤ(١) .وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بهذا القرآن ذي الشرف الرفيع ، الذي أنزله تذكيراً لعباده ﴿ بَلِ الَّذينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ بل الذين كفروا في حمية ومشاقة لمحمد ، وعداوة له ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ كثيراً أهلكنا من الأمم ، الذين كانوا قبلهم ، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسلهم ﴿ فنادَوا ولات حين مناصٍ ﴾ فعجُّوا وضجُّوا ، واستغاثوا بربهم حين نزل بهم بأس الله ، وليس ذلك حين هرب من العذاب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ وعجب هؤلاء المشركون أن جاءهم منذرٌ ، ينذرهم بأس الله تعالى على كفرهم هو محمد ﷺ، ولم يأتهم ملك من السماء ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وقال المنكرون لوحدانية الله إن محمداً ساحرٌ مفترٍ ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ أجعل محمد المعبودات كلها معبوداً واحداً ، يسمع دعاءنا جميعنا ؟ ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ إن هذا لشيءٌ عجيب(٢) ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ وانطلق الأشراف من قريش ، بأن امضوا فاصبروا على دينكم ، وعبادة آلهتكم ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إن ما يدعونا إليه محمد شيءٌ يريد به الشرف علينا ، وأن نكون له فيه أتباعاً

(١) ﴿ص﴾ من الحروف الهجائية ، وقد بيَّنا أن ابتداء بعض السور بأمثال هذه الحروف ، إنما هو للتنبيه على « إعجاز القرآن » وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فهو معجز للبشر بنظمه البديع

(٢) العُجَابُ أبلغ من العجيب وهو الذي بلغ الغاية في العجب ، يقال شيءٌ عجيبٌ وأمر عُجاب

يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

* * *

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد، في دين الآباء[1] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ما هذا القرآن إلا كذبٌ ، اختلقه محمد وتخرَّصه ﴿أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أأنزل على محمد القرآن من بيننا ، وليس بأشرفنا حسباً ؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ليس بالمشركين الشك في صدق محمد ﷺ ، ولكنهم في شك من وحينا إليه ، وفي هذا القرآن المنزل من عندنا ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لمَّا ينزل بهم بأسنا ، ولو ذاقوا العذاب لأيقنوا حقيقة ما هم به مكذِّبون

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أم عند هؤلاء المشركين مفاتيح رحمة ربك ؟ ﴿الْعَزِيزِ الوَهَّابِ﴾ العزيز في سلطانه ، الذي يهب لمن يشاء الملك والنبوة ، فيمنعوك يا محمد ما مَنَّ الله به عليك من الكرامة ، وفضَّلك به من الرسالة ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم لهؤلاء المشركين شيء من ملك السموات والأرض ؟ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها ، للإشراف على المُلْك ، وتفقده ، وتعهده ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ هؤلاء المشركون جندٌ من أحزاب إبليس وأتباعه ، مهزومون ببدر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ كذبت قبل مشركي قريش قومُ نوح ، وعادٌ ، وفرعونُ ذو الأوتاد[2] التي كان يعذب بها الناس ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ وكذبت ثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الشجر الكثير الملتف ـ قوم شعيب ـ وهؤلاء الجماعات المتحزبة على الكفر بالله ، ومن سلك سبيلهم سينالهم العذاب ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ كلُّ هذه الأمم كذَّبتْ رسل

---

(١) هكذا فسر الطبري الملة الآخرة بأنها دين الآباء ، وهو قول مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس يعنون دين النصرانية التي هي آخر الملل ، وهذا القول أظهر .

(٢) قيل له « ذو الأوتاد » لتعذيبه الناس بالأوتاد ، أو هو إشارة إلى الملك الواسع ، والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد ، وهذا المعنى أظهر لأنه قد اشتهر في زمانه بناء الإهرامات والمباني العظيمة والله أعلم .

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾
وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ
ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾

* * *

الله ، فوجب عليهم عقاب الله ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ﴾ وما ينظر مشركو قريش ، إلاَّ النفخة الأولى في الصور ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ما لها من فتور ولا انقطاع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ دعا المشركون ربهم أن يعجل لهم حظوظهم من الخير والشر ، استهزاءً منهم بوعيد الله تعالى .

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ اصبر يا محمد على ما يقول مشركو قومك لك ، فإنا جاعلو العلوَّ والرفعة ، والظفر لك على من كذَّبك ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ﴾ واذكر عبدنا داود ذا القوة والبطش الشديد ، في ذات الله ، والصبر على طاعته ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إنه رجَّاع إلى الله تعالى بما يرضيه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ إنا سخرنا الجبال يسبحن مع داود ﴿ بِالعَشِيِّ ﴾ من وقت العصر إلى الليل ﴿ وَالإِشْرَاقِ ﴾ ووقت الضحى ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ وسخرنا الطير له يسبحن معه مجموعة ، ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ كلُّ الطير له مطيعٌ ، رجَّاعٌ إلى طاعته وأمره ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وشددنا ملكه بالرجال ، والجنود ، والهيبة ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ وآتيناه النبوة ، وفصل الخطاب في القضاء ، والمحاورة ، والخطب ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ وهل أتاك يا محمد خبر الخصم ، إذْ دخلوا أشرف مكان في دار داود من غير بابه[1] ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ لمَّا دخلوا على داود ، فخاف من دخولهما عليه من غير المدخل ﴿ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ قال الداخلون لا تخف يا داود ، نحن خصمان تعدى أحدنا على صاحبه بغير حق ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ﴿ ولا تُشْطِطْ ﴾ ولا تسرف في حكمك ، بالميل مع أحدنا على صاحبه ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وأرشدنا إلى قصد الطريق المستقيم.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله تعالى : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ حديث يجب اتباعه ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن حق . المختصر٣ / ٢٠٠، وقد أطال الإمام ابن جرير في إيراد قصص كثيرة في هذا الموضوع ، وانظر تحقيق البحث في كتاب « صفوة التفاسير » ٣ / ٥٤ لفضيلة الشيخ الصابوني

إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ

* * *

﴿ **إِنَّ هٰذاأَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا** ﴾ وهذا مثل ضربه المتسوِّرون، فقال أحدهما: هذا أخي في الدين، له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال لي: انزل لي عنها وضُمَّها لي ﴿ **وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** ﴾ وغلبني في مخاطبته لأنه أبين مني وأشدُّ مني ﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ** ﴾ قال داود ـ عليه السلام ـ للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ وإن كثيراً من الشركاء ليتعدَّى بعضهم على بعض ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ إلَّا الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعته، وانتهوا إلى أمره ونهيه فلم يتجاوزوه ﴿ **وَقَلِيلٌ مَا هُمْ** ﴾ وقليل ما تجدهم ﴿ **وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ** ﴾ وعلم داود أنما ابتليناه ﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ** ﴾ فسأل داود ربه غفران ذنبه، وخرَّ ساجداً لله، وتاب من خطيئته ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى** ﴾ فعفونا عنه، وصفحنا له عن خطيئته، وإن له عندنا للقربة يوم القيامة ﴿ **وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ وحسن مرجع ومنقلب ينقلب إليه.

﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ** ﴾ يا داود إنا استخلفناك في الأرض، حكماً بين أهلها ﴿ **فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ فاحكم بينهم بالعدل والإنصاف ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ولا تُؤْثِرْ هواك في قضائك، فتجور عن الحق، ويميل بك الهوى عن العدل، فتكون من الهالكين ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** ﴾ إن الذين يميلون عن طريق الله، الذي شرعه لعباده، لهم في الآخرة عذاب شديد ﴿ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ بما تركوا القضاء بالعدل، نسياناً منهم ليوم يحاسبهم الله فيه على أعمالهم(١) ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا**

(١) قال الإمام ابن كثير: هذه وصية من الله ـ عز وجل ـ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده، ولا يعدلوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، ثم توعدهم إن هم فعلوا ذلك، ٣/ ٢٠١، فليتق الله من وسد إليه أمر الناس، فالعذابُ شديد، والموقف بين يدي الرب موقف عظيم تنخلع له القلوب.

ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ
رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ
كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

* * *

بَاطِلاً ﴾ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما عبثاً ولعباً ، ما خلقناهما إلا ليعمل بطاعتنا ، وينتهي إلى أمرنا ﴿ **ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ ذلك الظنُّ الباطل هو ظنُّ الذين لم يوحِّدوا الله ، ولم يعرفوا عظمته ، فويلٌ للذين كفروا من نار جهنم ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ هل نجعل الذين صدَّقوا الله تعالى ورسوله ، وعملوا بما أمرهم تعالى به ، كالذين يشركون بالله ، ويعصونه ، ويخالفون أمره ؟ ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ أم نجعل الذين اتقوا الله وراقبوه فحذروا معاصيه ، كالكفار المنتهكين حرمات الله عزَّ وجلَّ ؟! ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك ، ليتدبروا حجج الله تعالى التي فيه ، فيتعظوا ويعملوا به ﴿ **وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ وليعتبر أولو العقول بما في هذا الكتاب من الآيات ، فيرتدعوا عن الضلالة ، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد .

﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ ووهبنا لداود ، ابنه سليمان[1] ، نعم العبد سليمان ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ إنه رجَّاع إلى طاعة الله ، تواب إليه ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ** ﴾ إذ عرض على سليمان بالعشي الجياد ـ الخيل ـ تمشي على أطراف حوافرها ﴿ **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** ﴾ فلهى عن الصلاة[2] حتى فاتته ، فقال إني أحببت الخيل حتى سهوت عن ذكر ربي ﴿ **حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ حتى تغيبت الشمس في مغيبها ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ** ﴾ ردُّوا الخيل عليَّ التي شغلتني عن الصلاة ، فردُّوها عليه فجعل يمسح منها السوق والأعناق حباً لها ، وقيل : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف[3] ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾

---

(١) المراد بالهبة هنا هبة « النبوّة » لا هبة « البنوّة » فقد كان لداود أولاد كثيرون غيره ولكنَّ الله أكرم سليمان بن داود بالنبوة والملك .

(٢) القول بأنه التهى عن الصلاة ضعيف ، إذْ لا يُتصور من نبيّ أن يتشاغل عن الصلاة ، والصحيح أنه انشغل بها عن ورده كما ورد به النصُّ ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ ولم يقل عن الصلاة ، وهو ما رجحه السُّدّي

(٣) رجح الإمام ابن جرير القول الأول معتلاً له بقوله : «ولأن نبي الله ﷺ لم يكن ليعذب حيواناً ، ويهلك مالاً بغير سبب ، سوى أنه

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

***

ولقد ابتلينا سليمان ، وألقينا على كرسيه شيطاناً[1] متمثلاً بإنسان ، ثم رجع إلى ملكه ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ قال سليمان راغباً إلى ربه يا رب استر عليَّ ذنبي فلا تعاقبني به ، وهبْ لي ملكاً لا يسلبنيه أحد ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ فأنت المعطي بيدك خزائن كل شيء ، تهب ما تشاء لمن تشاء ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ فاستجبنا له دعاءه ، فسخرنا له الريح ، تجري بامره ليّنةً حيث أراد ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ وسخرنا له الشياطين منهم البناة ، يصنعون له المحاريب وينحتون له الجفان والقدور ، ومنهم الغواصون يستخرجون له الحلي من البحار ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ والمردة من الشياطين موثوقون في الأغلال ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا الذي أعطيناك من الملك ، لا تحاسب على ما أعطيتَ منه لمن تشاء ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ وإن لسليمان عند الله لقربةً ، بإنابته وطاعته لله ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وحسن مرجع في الآخرة

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّه أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ ﴾ واذكر أيضاً يا محمد عبدنا أيوب ، حين نادى ربه مستغيثاً به فقال : يا رب إني مسني الشيطان ﴿ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ببلاءٍ في جسدي ، وعذابٍ بذهاب مالي وولدي ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فقلنا له حرِّكْ الأرض وادفعها برجلِك ، يخرج منها ماء تغتسل به ، وتشرب منه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ فاغتسل وشرب ، ففرَّجنا عنه ما كان فيه من البلاء ، ووهبنا له أهله من زوجة وولد ، ومثلهم معهم ﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ فعلنا به ذلك ، رحمة منَّا له ورأفة ، وتذكيراً لأولي العقول ، ليعتبروا بها

= اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها . . الخ ورجح الإمام ابن كثير أنه قتلها وقال : ولهذا عوَّضه الله عزَّوجلَّ ماهو خير منها ﴿الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، غدوها شهرٌ ، ورواحها شهرٌ﴾ فهذه أسرع ، وخير من الخيل ، وما ذكره ابن كثير أرجح وأصح لأنه إنما ذبحها لتكون طعاماً للفقراءلا تعذيباً لها . وانظر كتاب « صفوة التفاسير » للشيخ الصابوني ٥٨/٣ .

(١) رويت روايات كثيرة عن فتنة سليمان ، كلها من الإسرائيليات التي لم يثبت منها شيء وانظر صفوة التفاسير ٥٩/٣ حول فتنة سليمان عليه السلام ، ففيه تحقيق نفيس ، وما ذكره الإمام ابن جرير من أنه شيطان مستبعد والله أعلم .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ
ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
* وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن

* * *

فيتعظوا ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وقلنا لأيوب : خذ بيدك حزمة من عيدانٍ ، فاضرب به زوجك ، ولا تحنث في يمينك[1] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ إنا وجدناه صابراً على البلاء ، فلا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ نعم العبد أيوب ، إنه مقبل على طاعة الله ، رجَّاع إلى رضاه ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰق وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ واذكر عبادنا - إبراهيم وإسحٰق ويعقوب - إنهم أصحاب القوة على عبادة الله ، وأصحاب العقول المبصرة ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ إنا خصصناهم بخاصة ، هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا وأطاعوا الله ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ وإن هؤلاء لمن الذين اصطفيناهم واخترناهم لطاعتنا ، ولرسالتنا إلى خلقنا

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وذا الْكِفْلِ ﴾ واذكر يا محمد « إسماعيل ، واليسع ، وذا الكفل » فتأس بهم ، واسلك منهاجهم في الصبر على ما نالك في الله ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾ وكلهم أخيار أبرار ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ هذا القرآن ذكرٌ لك ولقومك ، ذكرناك به ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وإن للذين اتقوا الله ، فخافوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لحسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ لهم بساتين إقامة ، مفتحةً لهم أبوابها ، بغير معاناة من قبلهم ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ متكئين في جنات عدن على السرر ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ يدعون فيها بثمار من ثمار الجنة ، وشراب من شرابها ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ وعند هؤلاء المتقين نساء سنُّهنَّ واحدة ، قد قصرن أطرافهن على أزواجهنَّ ، فلا يرين غيرهم ﴿هَذَامَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ هذا الذي يعدكم الله به أيها المؤمنون من الكرامة ، لمن أدخله الله الجنة في الآخرة ﴿ إِنَّ هَذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ

(١) كان أيوب - عليه السلام - غضب على زوجته في أمر فعلته ، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى وعافاه ، ما كان جزاؤ ها - مع خدمتها التامة له ورحمتها ، وشفقتها - أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ شمراخاً - قضيباً من النخل - فيه مائة عودٍ ، فيضربها به ضربة واحدة ، ويبرَّ في يمينه .

نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾

* * *

مِنْ نَفَادٍ ﴾ إن الذي أعطينا المتقين ، كرامةً منا لهم ، ليس له انقطاع ولا فناء ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ هذا وإن للذين تمرَّدوا وعصوا أمر الله ، مع إحسانه إليهم ، لشرُّ مرجع ومصير في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ مصيرهم إلى جهنم يذوقون حرَّها بعد وفاتهم ، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ هذا ماء حارٌّ قد أغلي حتى انتهى حرُّه ، وغسَّاقٌ وهو ما يسيل من صديدهم فليذوقوه ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ وعذاب آخر من نحو الحميم أنواعٌ وألوانٌ ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ هذه جماعة داخلة معكم النار أيها الطاغون ﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قال أهل النار للداخلين : لا اتَّسعت بهم المداخل ، إنهم واردوا النار ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ قالوا : بل أنتم لا اتَّسعت بكم أماكنكم ، أنتم قدمتم لنا سكن هذا المكان ، بدعائكم لنا إلى الكفر بالله حتى ضللنا باتباعكم ﴿ فَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ فبئس المكان جهنم نستقر فيه .

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعفاً فِي النَّارِ﴾ قال الأتباع: ربَّنا من قدَّم لنا هذا العذاب الذي وردناه ، فأضعفْ له العذاب في النار، على العذاب الذي هو فيه﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾ قال الطاغون : ما بالنا لا نرى معنا في النار رجالاً كنا نعدهم في الدنيا من أشرارنا ؟ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ أتخذناهم في الدنيا سخرياً نهزأ[١] بهم أم زاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم في النار وهم معنا ؟ ! ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ إن هذا الذي أخبرتكم عن تخاصم أهل النار، لحقٌّ يقين، فلا تشكُّوا فيه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾قل يا محمد لمشركي قومك : إنما أنا منذرٌ لكم ، أنذركم عذاب الله وسخطه ، أن يحلَّ بكم على كفركم ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وما من معبود تصلح له العبادة إلا الله ، الذي يعبده كل خلق ﴿الْوَاحِدُ﴾ الذي لا ينبغي أن يكون له في

---

(١) يقول الكفار ذلك على سبيل التأنيب لأنفسهم،والمعنى : أجعلنا هؤلاء المؤمنين سخرية وهزءاً نسخر منهم في الدنيا ، أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ وهذا يزيد في حسرتهم وألمهم ، حيث لاقوا نتيجة عملهم السّيء .

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ
لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾

* * *

ملكه شريك ﴿القهّارُ﴾ لكل ما دونه بقدرته ﴿رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ مالك السموات والأرض وما بينهما من الخلق ، «العزيز» في نقمته من أهل الكفر «الغفَّارُ» لذنوب من تاب من عباده ﴿قُلْ هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ قل يا محمد للمكذبين : هذا القرآن خبرٌ عظيم ، أنتم عنه منصرفون لا تعملون به ،ولا تصدِّقون بآياته ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ما كان عندي علم بالملائكة حين يختصمون في شأن آدم ، من قبل أن يوحي إليَّ ربي[١]، لأنكم تعلمون أن ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما يوحي الله إليَّ ذلك ، إلا لأني نذير لكم ، أبيِّن لكم إنذاري

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ حين قال ربك للملائكة : إني خالق آدم من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإذا سويتُ خلقه ، وعدَّلتُ صورته ، ونفخت فيه من روحي ، فاسجدوا له[٢] ﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فلما نفخ الروح في آدم سجد جميع الملائكة، الذين هم في السموات والأرض ﴿إِلاَّ إِبْلِيس اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾غير إبليس[٣] استكبر عن السجود لآدم تعظماً وتكبراً ، فكان بذلك ممن كفر في علم الله ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قال الله سبحانه لإبليس : أيُّ شيء منعك في السجود لمن خلقتهُ بيديَّ ؟ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ﴾ هل تعظَّمت عن السجود لآدم ، فتركته استكباراً عليه ، أم كنتَ ذا علوٍّ وتكبرٍ علىربك؟! ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال إبليس لربه : لم أسجد لآدم لأني أشرف منه ، لأنك خلقتني من نار، وخلقت آدم من طين، والنارُ تحرق الطين

---

(١) القصد الإحتجاج على نبوته ﷺ ، لأنه أخبر بأمورٍ لا يمكن أن تُعرف إلا بطريق الوحي .

(٢) سجود تحية لا سجود عبادة.

(٣) الصحيح الذي عليه المحققون أن إبليس من الجن لا من الملائكة ، فالاستثناء منقطع ، وانظرالأدلةفي أول سورة البقرة من هذا التفسير .

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

* * *

وتعلوه﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قال الله لإبليس : فاخرج من الجنة فإنك مشتوم ملعون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِينِ﴾ وإنَّ لك طردي من الجنة، إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس : يا رب فإذ لعنتني وأخرجتني من الجنة، فأخرني في الأجل إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال الله : فإنك يا إبليس من المؤخرين ، إلى الوقت الذي جعلته أجلاً لهلاكك[1] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال إبليس : بقدرتك يا ربِّ وسلطانك ، لأضلنَّ بني آدم أجمعين ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا من أخلصته منهم لعبادتك وعصمتَه مني ، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه ﴿قَالَ فَالحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الله تعالى لإبليس : حقاً - وأقول الحقَّ - لأملأن نار جهنم منك ، وممن تبعك من بني آدم أجمعين ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ما أسألكم على هذا القرآن ثواباً وجزاء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وما أنا ممن يتكلف تخرص القرآن وافتراءه[2] ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما هذا القرآن إلا تذكير من الله للإنس والجن ، ذكَّرهم به ربهم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ولتعلمن حقيقة ما في هذا القرآن ، من الوعد والوعيد ، بعد وقتٍ قريب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ »

* * *

(١) أراد اللعين أن ينجو من الموت بالكلية، فطلب تأخيره إلى يوم البعث ، فأجابه تعالى﴿إنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي إلى وقت هلاكك بعد النفخة الأولى لا إلى يوم البعث .

(٢) الغرض أنه عليه الصلاة والسلام ليس من الذين يتحيَّلون ويتصنَّعون ، حتى ينتحل النبوة ويفتري هذا القرآن ، وإنما هو رسول مبلّغ عن الله ، يبلّغ الناس ما يوحيه إليه ربه .



(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾
أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

* * *

﴿تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ هذا القرآن الذي نزلناه عليك يا محمد، تنزيلٌ من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبير خلقه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن يأمر بالحق والعدل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ فاخشع لله بالطاعة وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له شريكاً كما فعل عَبَدَةُ الأوثان ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ ألا لله وحده العبادةُ والطاعة، خالصة لا شريك لأحدٍ معه فيها ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ والذين عبدوا من دون الله الأوثان، يقولون لهم: ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله منزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب، الذين اتخذوا أولياء من دون الله، فيما يختلفون فيه بأن يصليهم جميعاً نار جهنم، إلا من أخلص الدين لله فوحَّده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ إن الله لا يرشد إلى الحق من هو مفترٍ على الله، يقول عليه الباطل كافر لِنعمه، جاحد لربوبيته. ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لو شاء الله اتخاذ ولد - ولا ينبغي له ذلك - لاختار من خلقه ما يشاء[1] ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ﴾ تنزيهاً لله عما أضاف إليه المشركون،

(١) هذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو أراد اختيار ولدٍ لاختاره من مخلوقاته، لأنه يستحيل أن يكون له ولدٌ بطريق التوالد =

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن

***

هو الله الذي يعبده كل شيء، فأنّى يكون له ولد ؟ ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه ، القهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل ، ومن سطوته خاشع ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ خلق السموات والأرض بالحق ، يغشي الليل على النهار ، ويغشي النهار على الليل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وذلَّلَ الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب لمصلحة معاشهم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والشمس والقمر، كُلٌّ يجري إلى قيام الساعة ﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ألا إن الله الذي أنعم على خلقه هذه النعم ، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين، بعفوه لهم عنها

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلقكم أيها الناس من آدم ، ثم جعل من آدم حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وجعل لكم الأنعام ثمانية أزواج من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين[1] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ الله تعالى يبتدىء خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم ، حيث يحدث فيها النطفة، ثم يجعلها علقة ، ثم يكوّنها عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم ينشئه خلقاً آخر ، فتبارك الخالق المبدع ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ في ظلمة البطن ، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[2] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هذا الذي فعل هذه الأفعال هو ربكم، له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا ينبغي أن يكون هناك معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلاَّ له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فأنى تذهبون عن عبادة ربكم إلى عبادة من لا يضرُّ ولا ينفع ؟ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ إن تكفروا أيها الناس فإن الله غني عن إيمانكم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده أن يكفروا به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه ،

= والتزاوج، لأنه واحد أحد، فرد صمد، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك لقوله﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾.

(١) المراد أنه تعالى خلق لنا من الأنعام المأكولة وهي «الإبل ، والبقر، والغنم، والماعز» ثمانية أزواج من كل نوع ذكراً وأنثى.

(٢) المشيمة : هي الكيس الذي يغلّف الجنين، وهذه الآية إحدى المعجزات العلمية التي اكتشفها علم الطب حديثاً، فقد اتضح للأطباء أن الجنين في بطن أمه تحيط به أغشية ثلاثة ، في ضمنها ينمو ويكبر﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾
أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

* * *

يرضى شكركم له بذلك ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا تُؤاخذ نفسٌ بذنب غيرها ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم، فيخبركم بما كنتم تعملون، فيجازيكم على ذلك، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بما يستحقه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله لا يخفى عليه شيء، فاتقوا الله في سر أموركم وعلانيتها ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ وإذا مسَّ الإنسان بلاءٌ في جسده، فكان في جهد، وضيق استغاث بربه الذي خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به، تائباً إليه مما كان عليه، راجعاً إلى طاعته ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم إذا كشف عنه ضره، فأبدله بالسقم صحةً، وبالشدة رخاءً، ترك دعاءه الذي كان في حال الضر ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ وجعل لله تعالى أمثالاً وأشباهاً، وأطاع الشيطان في عبادة الأوثان ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ليزيل من أراد أن يوحِّد الله عن توحيده، والدخول في الإسلام ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ قل لفاعل ذلك: تمتع[١] بكفرك بالله قليلاً، إلى إن تستوفي أجلك، وتأتيك منيتك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ إنك من أهل النار الماكثين فيها أبداً

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ هل الذي جعل لله أنداداً[٢]، كهذا القائم لله تعالى، مطيعاً له ساعات الليل ﴿سَاجِداً وَقَائِماً﴾ ساجداً أحياناً، وأحياناً قائماً؟ ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يحذر عذاب الله في الآخرة، ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ قل يا محمد للمشركين: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم من العقاب، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء؟ ما هذان بمتساويين ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

---

(١) الأمر للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ بنعيمها الزائل، فمصيرك إلى نار جهنم.

(٢) أشار الإمام ابن جرير إلى أن الجواب محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير: هل من يتعبد ربه في ساعات الليل، ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً.

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ
أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾
قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن
دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم
مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟

* * *

﴿الأَلْبَابِ﴾ إنما يعتبر بحجج الله ويتدبرها ، أهل العقول والحجى ، لا أهل الجهل ونقص العقول ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ قل يا عبادي الذين صدَّقوا الله ورسوله :اتقوا الله ربكم بطاعته ، واجتناب معاصيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ للذين أطاعوا الله في الدنيا ، لهم الجنة في الآخرة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وأرض الله فسيحة ، فهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إنما يعطي الله أهل الصبر، على مالاقوافي الدنيا ، ثوابهم في الآخرة بغير حساب ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ قل يا محمد : إن الله أمرني أن أعبده مفرداً له الطاعة ، دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي ـ جل ثناؤه ـ بذلك، لأكون أول من أسلم وأخلص له العبادة ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أخاف إن عصيت ربي ، فيما أمرني به من عبادته ، عذاب يوم القيامة ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ قل لهم : إني أعبد الله مفرداً له طاعتي وعبادتي ، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فاعبدوا أنتم ما شئتم من الأوثان والأصنام،فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ قل لهم : إن الهالكين الذين غبنوا أنفسهم ، وهلكت أهلوهم فلم يكن لهم في النار إذا دخلوها أهل ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم ، هو الهلاك الذي يظهر لمن عاينه أنه هو الخسران ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة كهيئة الظلل[1] من النار ، ومن تحتهم من النار ظلل أيضاً ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك العذاب تخويف من ربكم أيها الناس ، يخوفكم به لتحذروه فتجتنبوا معاصيه، وتنيبوا إلى الإيمان به ، وتصديق رسوله ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ يا عبادي فاتقوني

---

(١) المراد بالظلل ما يعلوهم ويحيط بهم من نار جهنم، فهي أطباق من النار تغشاهم وتحرقهم من فوقهم ومن تحتهم ، وتسميتها ظللاً تهكمٌ بهم لأنها محرقة لا تظلهم من الحر.

ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾
لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

* * *

بأداء فرائضي ، واجتناب محارمي ، لتنجوا من عذابي وسخطي **﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾** والذين اجتنبوا عبادة كل ما عبد من دون الله من شيء **﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾** وتابوا إلى الله ، ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده ، والعمل بطاعته ، **﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾** لهم البشرى في الدنيا بالجنة **﴿فبشر عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾** فبشر يا محمد عبادي ، الذي يستمعون القول فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق[1] ، وأدله على توحيد الله ، ويتركون ما سوى ذلك **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾** وفقهم الله للرشاد ، وإصابة الصواب **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾** وأولئك هم أولوا العقول، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون مالا يضر ولا ينفع .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أفمن وجبت عليه كلمة العذاب بكفره **﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾** أفأنت يا محمد تهدي من قد سبق له في علم الله ، أنه من أهل النار فتنقذه من النار بالإيمان ؟ ! **﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾** لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه **﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾** لهم في الجنة غرف عالية ، بعضها فوق بعض **﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** تجري من تحت أشجارها الأنهار **﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾** وعدالله المتقين هذه الغرف،والله يوفي بوعده **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾** ألم تر يا محمد، أن الله أنزل من السماء مطراً، فأجراه عيوناً في الأرض **﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾** ثم أنبت بذلك الماء ، أنواعاً مختلفةً من الزرع **﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾** ثم ييبس ذلك الزرع، فتراه من بعد خضرته أصفر[2] **﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾** ثم يجعل ذلك الزرع ، فُتَاتاً متكسّراً كفتات التبن والحشيش **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** إن في فعل الله

---

(١) هذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم بين الأحسن من كل شيء ،وإنما وضع الظاهر ﴿فبشر عباد﴾بدل الضمير «فبشرهم» تشريفاً لهم وتكريماً بإضافتهم إلى نفسه .

(٢) هذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للناس ، فمثّل لحياة البشر بالزرع ينزل عليه المطر فيصبح مخضراً زاهياً،ثم ييبس ويتحطّم ويتكسر فكذلك الإنسان بعد شبابه يعود هرماً مصفر اللون مُتحطم الأعضاء ، ثم تكون عاقبته الموت والفناء .

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾

* * *

ذلك لموعظة، لأهل العقول، يتذكرون بها فيعلمون قدرة الله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ على بصيرة من أمره ويقين، بتنوير الحق في قلبه، كمن أقسى الله قلبه، حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[1] ؟ ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فويل للذين جفَت قلوبهم، وأعرضت عن القرآن فلم تؤمن به، ولم تصدِّق بما فيه ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هؤلاء الذين قست قلوبهم في ضلال واضح، لمن تأمله وتدبره

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ الله نزَّل القرآن، يشبه بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً لا اختلاف فيه ولا تضاد ﴿مَثَانِيَ﴾ تثنى فيه الأنباء، والأخبار، والحجج والأحكام ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تقشعرُّ[2] من سماعه جلود الذين يخافون ربهم إذا تلي عليهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى العمل بما في كتاب الله، والتصديق به ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ هذا هو توفيقُ الله إياهم وفَّقهم له ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يخذله الله عن الإيمان بالقرآن، والتصديق بما فيه،فما له من موفق يسدده في اتباعه ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أفمن يُرمى به في جهنم، مكبوباً على وجهه، فيتقي به العذاب يوم القيامة خير أم من يُنَعَّم في الجنان[3] ؟ ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ويقال يومئذٍ للظالمين: ذوقوا اليوم وبال ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش رسلهم ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ﴾ فجاءهم عذاب الله، من الموضع الذي لا يعلمون بمجيئه منه ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعجَّل الله لهؤلاء الذين كذبوا رسلهم، الهوان في الدنيا، لم ينظرهم إذْ عتوا عن أمر

(١) نبه الإمام الطبري إلى أن الجواب متروك بدلالة ما بعده﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾.

(٢) أي تأخذهم قشعريرة وخشية عند تلاوة القرآن هيبة من الرحمن.

(٣) إنما يتقون بوجوههم النار، لأن أيديهم مغلولة يوم القيامة، فأول ما تمسُّ النار وجوههم، وخبره محذوف قدّره الطبري بما ذكر، وقدره غيره بقوله: كمن هو آمن من العذاب؟

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

* * *

ربهم ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ولعذاب الله لهم في الآخرة ، أكبر من العذاب الذي عذبهم به في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو علم هؤلاء المشركون ذلك ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون﴾ ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين ، من كل مثل من أمثال الأمم الخالية ، تخويفاً لهم وتحذيراً ، ليتذكروا فينزجروا عما هم عليه من الكفر ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ جعلناه قرآناً عربياً غير ذي لبس ، ليفهموا ما فيه من المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا ما حذرهم الله فيه من بأسه وسطوته ، فينيبوا إلى عبادته .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ مثَّل الله مثلاً للكافر الذي يعبد آلهةً شتَّى ، ويطيع جماعةً من الشياطين ، برجل بين جماعة مالكين متنازعين ، أخلاقهم سيئةٌ وكلُّ واحدٍ يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ وضرب مثلاً للمؤمن الموحّد ، الذي أخلص عبادته لله ، لا يدين بالربوبية لشيء سواه ، برجلٍ مملوك لرجل واحد ، خالصاً له لا شريك له فيه ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ هل يستوي مثل هذا الذي يخدم جماعة شركاء متنازعين ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه منازع ؟ فأيُّ هذين أحسن حالاً ، وأقل تعباً ونصباً ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد التام لله وحده ، دون كل معبودٍ سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحقَّ ، فهم بجهلهم يعبدون آلهة شتى من دون الله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إنك يا محمد ستموت عن قليل، وإنكم أيها الناس ستموتون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ثم إن جميع الناس يختصمون عند ربهم، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فمن أعظم فريةً ممن كذب على الله ، فادَّعى أن له ولداً وصاحبة ؟ ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ وكذَّب بكتاب الله ،حين أنزله على محمد وابتعثه رسولاً ؟﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ أليس في النَّار مأوىً ومسكنٌ ،لمن كفر بالله ؟ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ وكلُّ

(١) هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشرك الذي يعبد آلهة شتَّى،وللمؤمن الذي يعبد إلهاً واحداً، وهو مثلٌ في غاية الحسن في تقبيح الشرك والضلال .

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ
ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

* * *

من دعا إلى توحيد الله ، وصدَّق بالقرآن، وبرسل الله ، من جميع خلق الله[1] ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هؤلاء هم الذين اتقوا الله بتوحيده ، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم يوم القيامة ما تشتهيه أنفسهم، وتلذُّه أعينهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جزاء من أحسن في الدنيا ، فأطاع الله وانتهى عما نهاه عنه ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ جازاهم ربهم بإحسانهم ، كي يكفر عنهم أسوأ الأعمال، وما اجترحوه من السيئات في الدنيا ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويثيبهم ثواب أحسن ما كانوا يعملونه في الدنيا، ممَّا يرضى الله عنه .

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أليس الله بكافٍ عبده محمداً ﷺ ،والأنبياء من قبله مما خوّفهم أممهم ؟ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ويخوفك المشركون بالأوثان والآلهة ، أن تصيبك بسوء[2] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يضلله الله ، ويخذله عن طريق الحق والرشد، فما له من مرشد وموفق ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان، والعمل بكتابه ، فما له من مُزيغ يزيغه ويردُّه إلى الكفر ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أليس الله بعزيزٍ في انتقامه ، من أعدائه الجاحدين لوحدانيته ؟ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يعبدون الأوثان والأصنام، من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الذي خلقهنَّ هو اللهُ ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإذا اعترفوا بالخلق لله ، فقل : أفرأيتم أيها القوم، الذي تعبدون من دون الله ، من الأصنام والآلهة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ إن أرادني الله بشدة في معيشتي، هل هن كاشفات ما يصيبني من الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ

(١) قال بعض المفسرين : ﴿الذي جاء بالصّدق﴾ هو محمد ﷺ والذي صدَّق به هو «أبو بكر» رضي الله عنه ، والاختيار أن تكون الآية على العموم، لكل داع إلى الخير، وكل متبع له، وهو الذي رجحه الإمام الطبري، ودلّ عليه صيغة الجمع ﴿أولئك هم المتقون﴾

(٢) هذه تسلية للرسول ﷺ ، فقد خوَّفه المشركون من الأصنام وقالوا له : لتكفنَّ يا محمد عن شتم آلهتنا ، أو لنسلطنها عليك ، فيصيبك منها خبل أو جنون ؟ فنزلت الآية .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

* * *

رَحْمَتِهِ﴾ وإن أراد أن يصيبني بسعة في معيشتي، ورخاءٍ وعافيةٍ في بدني، هل هن ممسكات تلك الرحمة؟ فإنهم سيقولون لا **﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾** فقل حسبي الله فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع **﴿عَلَيْهِ يَتوكَّلُ المتوَكِّلُونَ﴾** على الله فليثق، ولْيتوكل من هو متوكل.

﴿قل يا قوم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إني عامل﴾ قل يا محمد للمشركين: اعملوا على تمكنكم من العمل الذي تعملون(١)، إني على عمل من سلف من أنبياء الله قبلي **﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** إذا جاءكم بأس الله، مَنْ المحق منا من المبطل، والرشيد من الغوي؟ **﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾** ومن يأتيه عذاب يذله ويهينه **﴿وَيَحِلُّ عَلَيهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾** وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه.

﴿إنَّا أنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أنزلنا عليك الكتاب تبياناً للناس بالحق **﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾** فمن عمل بما في الكتاب واتَّبعه، فإنما يبغي الخير لنفسه، لأنه أكسبها رضا الله، والفوز بالجنة **﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾** ومن ضلَّ عن قصدالمحجة،فإنمايجور على نفسه، ويسوق العطب والهلاك إليها،لأنه يكسبها سخط الله، وأليم عقابه **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾** وما أنت يا محمد برقيب على الناس، ترقب أعمالهم، وتحفظ أفعالهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب **﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾** ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد(٢) القهار،أنه يميت ويحيي، ويفعل ما يشاء فيقبض الأنفس عند فناء أجلها، وانقضاء مدة حياتها، ويقبض في المنام أرواح النفوس النائمة **﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾** فيمسك أرواح الأنفس التي كتب عليها الموت ويحبسها عنده، ويرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها عند اليقظة من نومها، إلى انقضاء مدة حياتها **﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** إن في قبض الله نفس النائم

---

(١) المكانة: الطريقة والمنهج، قال ابن كثير: المعنى اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي ومنهجي وهو أظهر مما فسره به الطبري.

(٢) الوفاة على نوعين: صغرى وكبرى، فالوفاة الصغرى تكون بالنوم لأن النائم كالميت لا يسمع ولا يبصر ولا يُحس بما حوله، ولهذا كان ﷺ إذا استيقظ من النوم يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» والوفاة الكبرى هي الوفاة الحقيقية بقبض الروح من الجسد بواسطة الملائكة كما قال تعالى: ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ والآية أشارت إلى النوعين.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ

* * *

والميت، لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهتهم التي يعبدونها ، شفعاء تشفع لهم عند الله؟ ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قل لهم يا محمد: أتتخذونها شفعاء ، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ولا يعقلون[1] شيئاً؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ قل لهم أفردوا الله بالألوهية، فإن الشفاعة لله وحده ، لا يشفع عنده إلا من أذن له ، ورضي قوله ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ للهِ سلطان السموات والأرض وملكها فاعبدوا المالك لا المملوك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى الله مصيركم ، وهو معاقبكم على إشراككم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وإذا أفرد الله وحده بالذكر ، وقيل : لا إله إلا الله ، نفرت قلوب المشركين من توحيد الله ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وإذا ذكرت الآلهة والأوثان التي يدعونها من دون الله ، إذا هم يفرحون بذلك[2].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قل يا محمد يا ألله، يا خالق السموات والأرض،يا عالم الغيب الذي لا تراه الأبصار، والشهادة الذي تراه الأبصار ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَاكَانُوافِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾أنت تفصل بين عبادك بالحق ، يوم تجمعهم للقضاء بينهم، فيما اختلفوا فيه في الدنيا ، من القول في الله وعظمته وسلطانه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ولو أن للمشركين يوم القيامة جميع ما في الأرض من أموال ، وزينة مضاعفاً ﴿لَا فْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ لفدوا أنفسهم بذلك كله ، لينجوا من سوء عذاب الله يومئذ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم يومئذٍ من أمر الله وعذابه، ما لم يكونوا قبل ذلك يظنونه ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ

---

(١) هذا ذم للمشركين في اتخاذهم الأصنام شفعاء ، وهي جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ، بل هي أحطُّ شأناً من الحيوانات ، فكيف يتخذونها شركاء وشفعاء عند الله ؟

(٢) هذا نوع من قبائح المشركين ، فإذا ذكر اسم الله أمامهم نفرت وانقبضت نفوسهم ، وإذا ذكرت الأوثان والأصنام فرحوا واستبشروا، وهذا نهاية الجهل والحماقة

مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ * قُلْ
يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

* * *

مَاكَسَبُوا﴾ وظهر لهم يوم القيامة سيئات ما كسبوا في الدنيا من الأعمال ، إذا أُعطوا كتبهم بشمائلهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأحاط بهم عذاب الله ، الذي كانوا يسخرون به ، إنكاراً أن يصيبهم ذلك . ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ فإذا أصاب الإنسان بؤسٌ وشدةٌ ،دعانا مستغيثاً بنا من الضر الذي أصابه ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ ثم إذا أعطيناه فرجاًوأبدلناه بالضر رخاء وسعة ، وبالسقم صحة وعافية ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾قال : إنما اعطيت ذلك ، على علم من الله تعالى ، بأني أهل لشرفي ورضاه بعملي(١) ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ بل هي بلاءٌ واختبارٌ ، اختبرناهم به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثرهم لجهلهم وسوء رأيهم ، لا يعلمون لأي سبب أعطوا ذلك ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قد قال هذه المقالة قبل مشركي قريش ،الأمم الخالية تكذيباً لرسلهم واستهزاءً بهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلم تنفعهم آلهتهم ولم تشفع لهم عند الله ، ولكنها تبرأت منهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فأصاب الأمم الخالية ، وبال ما كسبوا من الأعمال ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والذين كفروا بالله من قومك ، سيصيبهم أيضاً وبال ما كسبوا ، كما أصاب من قبلهم ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وما يفوتون ربهم ، ولا يسبقونه هرباً من عذابه

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أو لم يعلم هؤلاء أن الشدة ، والرخاء ، والسعة والضيق ، بيد الله جل ثناؤه يوسّع الرزق على من يشاء ، ويضيقه على من يشاء من عباده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في بسط الرزق وتقتيره ، لدلالاتٍ وعلامات لقوم يصدقون بالحق ، فيقرون به ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، فأصابوا شيئاً من الذنوب صغيراً أو كبيراً ، لا تيأسوا من رحمة الله تعالى(٢) ﴿إِنَّ

---

(١) هكذا فسره ابن جرير وقال غيره : على علمٍ مني بوجوه التجارة والكسب ، وهو أظهر .

(٢) قال الإمام ابن جرير : « عنى الله بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك ، لأن الله عمَّ بقوله ﴿ أسرفوا على =

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

* * *

اللَّه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إن الله يستر الذنوب كلها ، بعفوه عن أهلها إذا تابوا منها ﴿إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الرحيم بهم أن يعاقبهم عليها ، بعد توبتهم منها ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بإخلاص العبادة ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ﴾ واخضعوا له بالطاعة ، والإقرار بالدين الحنيفي من قبل أن يأتيكم العذاب من عنده ﴿ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ ثم لا ينصركم ناصر ، فينقذكم من عذابه ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ واتبعوا ما أمركم به ربكم في تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم عنه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيكُمُ العَذَابُ بَغتةً وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ من قبل أن يأتيكم عذاب الله فجأة ، وأنتم لا تعلمون به حين يغشاكم ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ لئلا تقول نفس : يا ندماً على ما ضيَّعتُ من العمل ، وقصَّرت في الدنيا في طاعة الله تعالى وأمره ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ وإن كنت لمن المستهزئين بأمر الله ، وكتابه ، ورسوله ﴿أَوْ تقول لو أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ ولئلا تقول نفسٌ يوم القيامة : لو أن الله هداني للحق ، فوفقني للرشاد ، لكنت ممن اتقى الله ، بطاعته واتباع رضاه ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ ولئلا تقول نفسٌ أخرى ، حين ترى عذاب الله فتعاينه : لو أن لي رجعةً إلى الدنيا ، فأكون من الذين أحسنوا في طاعة ربهم ، والعمل بأمر رسله

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ ليس القول كما تقولون ، بل قد جاءتك أيها المتمني حججي وكتابي ، وما فيه من الوعد والوعيد ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ فكذبتَ بآياتي ، واستكبرتَ

= أنفسهم ﴾ جميع المسرفين ، فلم يخصص مسرفاً دون مسرف ، ويغفر الله الشرك إذا تاب منه المشرك ، وأما ما عدا الشرك فإن صاحبه في مشيئة ربه ، إن شاء تفضل عليه فعفا عنه ، وإن شاء عدل فجازاه به . اهـ

(١) قال الإمام ابن جرير : فإن قال قائل : ومن القرآن شيء هو أحسن من شيء ؟ قيل له : القرآن كله حسن ، وليس معنى ذلك ما توهمتَ ، وإنما معناه : واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي ، والخبر والقصص ، والوعد ، والوعيد أحسنه ، وأحسنه أن تأتمروا لأمره ، وتنتهوا عما نهى عنه ، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه ، فذلك وجهه . اهـ .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا
ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

* * *

عن قبولها واتباعها ، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ، ويتبع منهاجهم ﴿ **وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** ﴾ ويوم القيامة ترى يا محمد ، هؤلاء الذين زعموا أن للّهِ ولداً وشريكاً ، وجوههم مسودة ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ أليس في جهنم مأوى ومسكن ، لمن تكبر على الله ، فامتنع عن طاعته وتوحيده ؟ ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ وينجي الله من جهنم وعذابها ، الذين اتقوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **بِمَفَازَتِهِمْ** ﴾ بفوزهم وفضائلهم ﴿ **لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ** ﴾ لا يمسُّ المتقين من أذى جهنم شيء ﴿ **وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ على ما فاتهم من الدنيا ، إذ صاروا إلى كرامة الله ، ونعيم الجنان ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ الله الذي لا تصلح العبادة إلا له ، هوخالق كل شيء ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ وهو على كل شيء قيم ، بالحفظ والكلاءة ﴿ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ له مفاتيح خزائن السموات والأرض ، يفتح منها على من يشاء ، ويمسكها عمن احب من خلقه ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ** ﴾ والذين كفروا بحجج الله ، فكذبوا بها وأنكروها ، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات ، لأنهم حرموها في الآخرة بخلودهم في النار ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُد أَيُّهَا الجَاهِلُونَ** ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : أفغير الله أيها الجاهلون بالله ، تأمرونني أن أعبد ، ولا تصلح العبادة لشيء سواه ؟ ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ ولقد أوحى إليك ربك يا محمد ، وإلى الرسل من قبلك ، لئن أشركت بالله شيئاً ليبطلن عملك ، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً ﴿ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ ولتكونن من الهالكين بإشراكك ﴿ **بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ** ﴾ لا تعبد ما أمرك به المشركون ، بل الله فاعبده ، دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان ﴿ **وَكُنْ مِنَ الشاكِرِينَ** ﴾ وكن من الشاكرين لله على نعمته عليك ، بالهداية لعبادته ، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ وما عظَّم المشركون الله حق عظمته ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ** ﴾ والأرض كلها قبضته في يوم القيامة ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ والسموات كلها مطويات بيمينه ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ تنزيهاً وتبرئةً لله ، عما يشرك به هؤلاء المشركون .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾

* * *

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ونفخ إسرافيل في القرن النفخة الأولى(١) ، فمات من في السموات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ثم نفخ في الصور نفخة أخرى ، فإذا جميع خلق الله الذين كانوا أمواتاً قيامٌ من قبورهم ، أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، ينظرون أمر الله فيهم ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وأضاءت الأرض بنور ربها ، حين برز لفصل القضاء بين خلقه ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ ووضع كتاب أعمال الناس لمحاسبتهم ومجازاتهم ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ وجيء بالأنبياء ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم ، وجيء بالشهداء وهم أمة محمد ﷺ يستشهدهم ربهم على الرسل ، من تبليغهم رسالة الله ، إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم الرسالة ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقضى الله بين النبيين ، وأممهم بالحق ، فلا يحمل أحد ذنب غيره ، ولا يعاقب إلا بما كسب ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ ووفَّى الله كل نفس جزاء عملها ، من خير وشر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من طاعةٍ ومعصية ، لا يغرب عنه علم شيء من ذلك ، وهو مجازيهم عليه يوم القيامة ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ وحشر الكفار إلى نار الله التي أعدها لهم يوم القيامة ، جماعات جماعات ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت لهم الأبواب السبعة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ وقال لهم قُوَّام الجنة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسل ربكم ، يتلون عليكم كتب الله المنزلة على رسله ، وحججه التي بعثوا بها إلى أممهم ؟ ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ويحذرونكم مصيركم في هذا اليوم ، وما تلقونه من العذاب ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

---

(١) وهذه هي نفخة الصَّعق « الموت » وقبلها نفخة الفزع ، وبعدهما نفخة الإحياء ، فالنفخات ثلاث إذاً « الفزع ، والصعق ، والإحياء » والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعالى ، والاستثناء ﴿إلا من شاء الله﴾ يراد به حملة العرش والحور العين والولدان ، كما قال تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾.

(٢) النار لها سبعة أبواب كما قال تعالى ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ والجنة أبوابها ثمانية لقوله عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخلها من أي باب شاء».

قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ
مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

***

قال الكفار : بلى قد أتتنا الرسل منا وأنذرتنا ، ولكن وجبت كلمة الله بعذابنا لكفرنا به ﴿ **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ تقول خزنة جهنم للكافرين : أدخلوا أبواب جهنم السبعة ، على قدر منازلكم فيها ، ماكثين فيها أبداً ، لا ينتقلون عنها إلى غيرها ﴿ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ فبئس مسكن المتكبرين عن الإيمان بالله ، جهنم يوم القيامة .

﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً** ﴾ وحشر الذين اتقوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، إلى الجنة راكبين على نجائب ، جماعات ، جماعات ، جماعات﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ** ﴾ حتى إذا جاءوا الجنة ، وفتحت أبوابها الثمانية ، وقال لهم خزنتها أمنة من الله لكم أن ينالكم بعد مكروهٌ أو أذى ﴿ **طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ طابت أعمالكم في الدنيا ، فطاب اليوم مثواكم ، فادخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ** ﴾ فدخلوها ، وقالوا : الشكر لله وحده ، الذي كان وعدنا في الدنيا على طاعته الجنة ، فحققه لنا اليوم ﴿ **وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ وجعل أرض الجنة التي كانت لأهل النار ، لو أطاعوا الله في الدنيا ميراثاً لنا عنهم ، نتخذ من الجنة بيتاً ، ونسكنُ منها حيث نحبُّ ونشتهي ﴿ **فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ فنعم ثواب المطيعين لله ، العاملين له في الدنيا ، الجنة ﴿ **وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ** ﴾ وترى يا محمد الملائكة ، محدقين حول عرش الرحمن ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ يصلُّون حول عرش الله ، شكراً له ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** ﴾ وقضى الله بين النبيين والشهداء والأمم ، بالعدل ، فأسكن الجنة أهل الإيمان بالله ، وأدخل النار أهل الكفر به ﴿ **وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وختمت خاتمة القضاء بينهم ، بالشكر لله الذي ابتدأ خلقهم ، وخلق جميع ما في السموات والأرض ، من مَلَك ، وجنٍ ، وإنسٍ ، وغير ذلك(١)

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر »

---

(١) قال قتادة : افتتح تعالى أول الخلق بالحمد لله فقال ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ واختتم بالحمد فقال ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا

* * *

﴿ حمٓ ﴾ حروفٌ مقطعة من اسم الله « الرحمن الرحيم » (١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ هذا الكتاب تنزيلٌ من الله ، العزيزِ في انتقامه ، العليمِ بما يعملون من الأعمال ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ يغفر ذنوب العباد ، ويقبل توبة من تاب منهم ﴿شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ عقابه شديدٌ لمن عاقبه من أهل العصيان ، فكونوا على حَذَرٍ منه بأداء فرائضه ، واجتِنَاب معاصيه ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ذي الفضل والنعم ، المبسوطة على من شاء من خلقه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح له العبادة إلَّا الله جلَّ وعلا ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ إلى الله مرجعكم أيها الناس فاعبدوه ، فإنه لاينفعكم شيءسواه ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ما يخاصم في حجج الله وأدلته ، بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده ﴿ فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلَادِ ﴾ فلا يخدعك يا محمد تصرفهم في البلاد مع كفرهم بربهم ، فإنما أُمهلوا لتحقَّ عليهم كلمة العذاب﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾كذَّبَ قبل قومك قوم نوح ، والأمم الذين تحزَّبوا وتجمعوا على رسلهم بالتكذيب ، كعادٍ وثمودَ وأشباههم ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ وهمت كل أمة من هؤلاء الأمم ، المتحزبة على أنبيائها ، برسولهم الذي أرسل إليهم ، ليأخذوه فيقتلوه(٢) ﴿ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ﴾ وخاصموا رسولهم بالباطل ، ليبطلوا

---

(١) ذكرنا فيما مضى أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وهو قول المحققين من أئمة علماء التفسير .

(٢) انظر إلى التعبير الرائع الذي عبَّر به القرآن﴿ وهمَّت كل أمةٍ برسولهم ليأخذوه ﴾وهذا في عصرنا ما يسمى بالخطف ، خطف =

بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

* * *

بجدالهم الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿ **فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ فأخذت الكفار بالعذاب،فكيف كان عقابي إياهم ؟ ألم أهلكهم ، فأجعلهم للخلق عبرة ، ولمن بعدهم عظة ؟ ﴿ **وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ وكما حق على الأمم عذابي ، كذلك وجب على الكفار من قومك عذاب النار ، الذي وعد الله به أهل الكفر .

﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ** ﴾ الملائكة الذين يحملون عرش الله ، ومن حول عرشه ممن يحفُّ به ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ يصلون لربهم ، بحمده وشكره ﴿ **وَيُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ ويقرُّون بالله أنه لا إله لهم سواه ﴿ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ويسألون ربهم أن يغفر للذين أقروا بتوحيد الله ذنوبهم ، فيعفوها عنهم ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً** ﴾ يقولون : يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك ، فلم يخف عليك شيء ﴿ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا** ﴾ فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك ، فرجع إلى توحيدك ﴿ **وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ** ﴾ وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه ﴿ **وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ واصرف عنهم عذاب النار يوم القيامة ﴿ **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ** ﴾ يا ربنا وأدخلهم بساتين إقامة ، التي وعدت أهل الإنابة أن تدخلهم إياها ﴿ **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** ﴾ وأدخــلْ مع هؤلاء من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فعمل بما يرضيك عنه من الأعمال الصالحة في الدنيا [1] ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ إنك أنت يا ربنا العزيزُ في انتقامه من أعدائه ، الحكيمُ في تدبيره خلقه ﴿ **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** ﴾ واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم ﴿ **وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه** ﴾ ومن تصرف عنه سوء عاقبة سيئاته يوم القيامة ، فقد رحمته ونجيته من عذابك ﴿ **وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ وذلك لا شك هو الفوز العظيم لأن من نجا من النار فقد فاز .

= الشخصيات و بخاصة الدعاة إلى الله للتنكيل بهم والقضاء عليهم .

(١) إن الله تعالى يجمع بين الآباء والأبناء والأزواج في مساكن متجاورة في الجنة لتقرُّ أعينهم فضلاً منه ورحمة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا
وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

* * *

﴿ إِنَّ الذينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ إن الذين جحدوا بالله ، يُنادون في النار يوم القيامة إذا دخلوها ، فمقتوا أنفسهم حين رأوا ما أعد الله لهم فيها من أنواع العذاب ، فيقال لهم : لبغضُ الله إياكم في الدنيا أكبر من بغضكم اليوم أنفسكم ، لما حلَّ بكم من سخط الله عليكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرونَ ﴾ حين كنتم تدعون إلى الإيمان بالله فتكفرون ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ ﴾ قالوا يا ربنا أمتّنا مرتين : حين كنا أمواتاً في أصلاب الآباء ، ثم بقبض أرواحنا بعد الحياة ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ وأحييتنا مرتين : بإنشائنا بشراً سوياً في الدنيا ، ثم بإعادتنا أحياء بعد الموت [1] ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ فأقررنا بما عملنا من الذنوب في الدنيا ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ فهل لنا طريق للخروج من النار ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها ؟ ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ ذلكم الذي نالكم من العذاب ، بسبب أنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ، فأنكرتم أن تكون له الألوهية خالصة ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ وإن يُجعل لله شريك ، تصدّقوا بذلك ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ ﴾فالقضاء اليوم لله العليّ على كل شيء ، الكبيرِ الذي كل شيء متصاغر له ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ الله الذي يريكم حججه وأدلته على ربوبيته ،هو الذي ينزّل لكم أرزاقكم[2]من السماء ، بإدرار المطر الذي يخرج به أقواتكم وغذاء أنعامكم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ ﴾ وما يتذكر حجج الله فيعتبر بها ويتعظ ، إلاّ من يرجع إلى توحيده وطاعته ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فاعبدوا الله أيها المؤمنون ، مخلصين له الطاعة ، غير مشركين به شيئاً ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ولو كره عبادتكم له المشركون بالله .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ ﴾ هو رفيع الدرجات ، ذو السرير المحيط بما دونه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ

---

(١) هذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون﴾ فهما موتتان وحياتان .

(٢) سمّى الله المطر رزقاً لأنه سبب الرزق ، فبالمطر تخرج الزروع والثمار ، وتكثر الأعشاب التي تتناولها الماشية والأبقار ، فهكذا يسوق الله الرزق .

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

* * *

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ينزل الكتاب والنبوة على من يشاء من عباده ﴿ **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** ﴾ لينذر عذاب يوم القيامة ، يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ﴿ **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ** ﴾ يوم يكون الناس ظاهرين للناظرين،لايحول بينهم جبلٌ ولا شجر ، ولايستر بعضهم عن بعض ساتر ﴿ **لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾ لايخفى على الله من أعمالهم التي عملوها في الدنياشيء﴿ **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ** ﴾ يقول الرب سبحانه : لمن السلطان اليوم ؟ فلا يجيبه أحد يوم القيامة ، ويجيب نفسه فيقول : ﴿ **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ لله الواحد الذي لا شبيه له ولا مثيل ، القهَّار لكل شيء بقدرته وعزَّته ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ اليوم يثاب كل عامل بعمله ، فيوفَّى أجر عمله ﴿ **لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾ لابخس على أحدٍ فينقص من أجر عمله إن كان محسناً ، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ ذو سرعةٍ في محاسبة عباده [1]

﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ** ﴾[2]وخوِّف يا محمد مشركي قومك ، أن يوافوا الله يوم القيامة بأعمالهم الخبيثة ، فيستحقوا من الله عقابه الأليم ﴿ **إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ** ﴾ إذ قلوب العباد من مخافة العقاب لدى حناجرهم ، قد شخصتْ من صدورهم فتعلقت بحلوقهم ﴿ **كَاظِمِينَ** ﴾ كاظمين لها يرومون ردَّها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع ، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ ما للكافرين يومئذ صديقٌ ، يدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله ، ولا شفيعٌ يشفع لهم عند ربهم ، فيطاع وتقبل شفاعته ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ يعلم ربكم ما خانت أعين[3] عباده ، وما أضمرته قلوبهم ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم ، حتى ما يحدِّث به نفسه ﴿ **وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** ﴾ والله تعالى يحكم بالعدل ، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم عن محارمه ، بالحسنى ، والذين رددوا النظر ، وعزموا على مواقعة الفواحش بالإساءة ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ** ﴾

---

(١) قال القرطبي يحاسب الخلائق جميعاً في ساعة واحدة ، كما يرزقهم في ساعة واحدة .

(٢) الآزفة : اسم من أسماء القيامة سميت بذلك لقرب وقوعها كما قال تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾.

(٣) قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع الناس ، فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها

* أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ

* * *

والآلهة التي يعبدها المشركون لا يقضون بشيء ، لأنها لا تعلم شيئاً ، ولا تقدر على شيء[١] ، فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ السميعُ لما تنطق به ألسنة الناس ، البصيرُ بما تفعلون ، ليجازيكم عليه يوم الجزاء

﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أو لم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد[٢] ، فيروا ما الذي كان خاتمة الأمم الذين كانوا قبلهم ، وسلكوا سبيلهم في الكفر والتكذيب ؟! ﴿ **كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثاراً فِي الْأَرْضِ** ﴾ كانت تلك الأمم أشد منهم بطشاً ، وأبقى في الأرض آثاراً ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، وعظم أجسامهم ، حين جاءهم أمر الله ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ فأخذهم الله بما أجرموا من معاصيه ، فأباد جمعهم ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** ﴾ وما كان لهم من دافع ، يدفع عنهم عذاب الله ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ هذا الذي فعلت بهؤلاء الأمم ، بسبب أنهم كانت تأتيهم رسل الله ، بالآيات الدالات على توحيد الله ، والإنتهاء إلى طاعته ﴿ **فَكَفَرُوا** ﴾ فجحدوا توحيد الله ، وأبوا أن يطيعوا الله ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ** ﴾ فأهلكهم الله بعذابه ﴿ **إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ إن الله ذو قوة لا يغلبه ، ولا يعجزه شيء أراده ، شديدٌ عقابُه لمن عاقب من خلقه ، فاحذروا أيها القوم أن ينزل بكم ما نزل بالقوم قبلكم ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا[٣] ، وحججنا المبينة لمن يراها أنها حجة ، محققة ما يدعو إليه موسى ﴿ **إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ** ﴾ فقال هؤلاء إن موسى ساحر يسحر العصا ، فيري الناظر إليها أنها حية ﴿ **كَذَّابٌ** ﴾ يكذب على الله فيزعم أنه أرسله إلى الناس رسولاً ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا** ﴾ فلما جاء موسى هؤلاء بتوحيد الله[٤] ، والعمل بطاعته ، مع إقامة الحجة عليهم ﴿ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الذِينَ**

---

(١) في الأسلوب القرآني تهكم بالمشركين ، فإن الذي لايقدر على شيء كيف يكون آلهاً؟

(٢) المراد من السير في الأرض السياحةُ والسفرُ ، بقصد الاتعاظ والاعتبار ، لابقصد التسلية والنزهة ، كما يفعل السياح في زماننا

(٣) لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار ، أردفه بقصة « موسى مع فرعون » بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين ، وتسلية لسيد المرسلين ﷺ لما يلقاه من قومه من الأذى والتكذيب ، فهذا هو وجه المناسبة .

(٤) المراد بالحق المعجزات الظاهرة ، وقد فسره الطبري بتوحيد الله .

وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ
وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ

***

آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ قالوا : اقتلوا أبناء المؤمنين من بني إسرائيل ، واستبقوا نساءهم للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ وما احتيال أهل الكفر إلا في جورٍ عن سبيل الحق ، وأخذٍ على غير هدى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وقال فرعون لأشراف قومه : دعوني أقتل موسى ، وليدع ربه حتى يمنعه منا ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ إني أخاف أن يغير موسى دينكم ، الذي أنتم عليه بسحره ، أو أن يظهر في أرض مصر عبادة ربه ، الذي يدعوكم إلى عبادته ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ وقال موسى : إني استجرت بربي وربكم أيها القوم ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ من كل من تكبر عن توحيد الله ، والإقرار بألوهيته وطاعته ، ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ لايصدّق بيومٍ يحاسب الله فيه خلقه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بما أساء [1]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وقال رجل من قوم فرعون [2] ، كان يسرُّ إيمانه خوفاً على نفسه من فرعون وقومه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أتقتلون ـ أيها القوم ـ موسى لأنه يقول : «ربي الله» ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقد جاءكم بالمعجزات الواضحات على حقيقة ما يقول ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ وإن يك موسى كاذباً في قوله : إن الله أرسله إليكم ، فإنما إثم كذبه عليه دونكم ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ وإن كان صادقاً في قوله ذلك ، أصابكم

---

(١) قال ابن جرير « وإنما خص موسى ﷺ الاستعاذة بالله ممن لايؤمن بيوم الحساب ، لأن من لم يكن بيوم الحساب مصدقاً ، لم يكن للثواب على الإحسان راجياً ، ولا للعقاب على الإساءة خائفاً ، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة . اهـ

(٢) الصحيح أن الرجل كان من آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون كما قال السدي ولم يكن إسرائيلياً ، ولذلك استمع فرعون له وأصغى لحديثه .

(٣) هذا هو الأسلوب الحكيم في معالجة الموقف ، فقد استدرجهم الرجل المؤمن بطريق النصح والملاطفة ، فلم يقل لهم أتقتلون نبيَّ الله ؟ أو أتقتلون رجلاً مؤمناً ؟ وإنما نكَّره « رجلاً » ليوهمهم أنه لايعرفه ، ثم قدَّم الكذب في خطابه وجاء بصيغة تدل على الشك ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ وذلك مراعاة لشعورهم ، لئلا يعتقدوا أنه متعصب له ، وقال ﴿بعض الذي يعدكم﴾ ولم يقل : كل ما يعدكم به ، وختم حديثه بما يفهم منه أنه ليس بمصدق له ﴿إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب﴾ وفيه تعريض بفرعون دقيق ، بكذبه وطغيانه ، وهذا من أسرار إعجاز القرآن .

اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ
اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ
يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى

* * *

الذي وعدكم من العقوبة ، فلا حاجة بكم إلى قتله ، فتزيدوا ربكم بذلك سخطاً عليكم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ إن الله لايوفق للحق ، من هو متعدٍ يكذب على الله ، ويقول عليه الباطل ، مسرفٍ في إشراكه ، وسفكه للدماء ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ يا قوم لكم السلطان اليوم والملك ، ظاهرين على بني إسرائيل ، في أرض مصر ﴿ **فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا** ﴾ فمن يدفع عنا بأس الله وسطوته وعقوبته إن حلّت بنا ؟ ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى** ﴾ قال فرعون : ما أُريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة ، إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحاً وصواباً ﴿ **وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب ، في أمر موسى وقتله ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ** ﴾ وقال المؤمن : يا قوم : إني أخاف عليكم ـ بقتلكم موسى ـ أن يهلككم الله هلاكاً مثل يوم الأحزاب ، الذين تحزَّبوا على رسل الله ﴿ **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ يهلككم مثل سنَّته في قوم نوح ، وعاد ، وثمود وقوم لوط ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ** ﴾ وما أهلك الله هذه الأحزاب بغير جرم ، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم بربهم ﴿ **وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ** ﴾ ويا قوم إني أخاف عليكم إن قتلتم موسى عقاب الله ، يوم ينادي الناس بعضهم بعضاً من هول ما قد عاينوا ، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم ﴿ **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ** ﴾ يوم يولون هاربين في الأرض ، حذر عذاب الله عند معاينتهم جهنم ﴿ **مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** ﴾ ليس لكم ناصر ، يمنعكم وينصركم من عذاب الله ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ ومن يخذله الله تعالى فلم يوفقه لرشده ، فما له من موفق يوفقه له

﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ ولقد جاءكم «يوسف بن يعقوب» من قبل موسى ، بالواضحات (١) من حجج الله ﴿ **فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ** ﴾ فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به

---

(١) المراد بها المعجزات الظاهرات التي أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام

إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ

* * *

يوسف ، غير موقنين بحقيقته ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ حتى إذا مات يوسف ، قلتم أيها القوم : لن يبعث الله من بعد يوسف رسولاً يدعوكم إلى الحق(١) ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ هكذا يصدُّ الله عن إصابة الحق من هو كافر به ، شاكٌّ في أخبار رسله ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يضل الله أهل الإسراف والغلو ، الذين يخاصمون في حجج الله التي أتتهم ليدحضوها بالباطل ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير حجة أتتهم من عند ربهم ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كبر ذلك الجدال في آيات الله ، بغضاً عند الله وعند المؤمنين ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ كما يطبع الله على قلوب المسرفين المجادلين ، كذلك يختم على قلب كل متكبر على الله ، متعظم على اتباع الحق ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ﴾ وقال فرعون لوزيره : يا هامان ابن لي بناء عالياً(٢) ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ لعلي أبلغ من السموات أبواباً وطُرقاً ، أتسبب بها إلى رؤ ية إلّه موسى ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً فيما يدَّعي ، من أن له في السماء رباً أرسله إلينا ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ وهكذا زُين لفرعون -حين عتا على ربه وتمرد- قبيحُ عمله،حتى سوَّلت له نفسه بلوغ السموات ليطلع إلى إلّه موسى ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ومُنع عن طريق الهدى ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ وما احتيال فرعون إلا في ضَلَال وخسران ، فقد ذهبت نفقته على الصرح باطلاً ، ولم ينل شيئاً مما أراده ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وقال مؤمن آل فرعون : يا قوم إن قبلتم ما أقول ، بينت لكم طريق الصواب .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ يا قوم ما هذه الحياة التي عُجلت لكم في هذه الدار ، إلا متاعٌ تستمتعون بها إلى أجل ، ثم تزول عنكم بالموت ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ وإن الآخرة هي

---

(١) إنما قالوا ذلك على سبيل الزعم والتمني من غير حجة ولا برهان ، ومرادهم لا رسول من عند الله يبعثه إلى الخلق .

(٢) لما خاف فرعون أن يتمكن كلام المؤمن في قلوب القوم، أراد أن يوهمهم أنهسيمتحن ما جاء به موسى من التوحيد والإيمان بالله ، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح وهو البناء الشامخ ، والقصر العالي المرتفع .

ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ

* * *

الدار التي تستقرون فيها ، فلا تموتون ولا تزول عنكم ، فاعملوا لها واطلبوها ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا** ﴾ من عمل بمعصية الله ، فلا يجزيه الله في الآخرة ، إلا أن يعاقبه بمثلها ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** ﴾ ومن عمل بطاعة الله في الدنيا ، فائتمر بأمره ، وانتهى عما نهاه عنه ، من رجل أو امرأة ﴿ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ وهو مصدِّقٌ بالله تعالى ﴿ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا** ﴾ فالذين يعملون ذلك من عباد الله ، يدخلون في الآخرة الجنة ، يرزقهم الله فيها من ثمارها وما فيها من نعيم ﴿ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ بغير مكيالٍ ولا ميزان ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ** ﴾ يا قوم : ما لي أدعوكم إلى النجاة من عـذاب الله ، بالإيمان بالله واتباع رسوله ، وتدعونني إلى عمل أهل النار باتباع دينكم ﴿ **تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** ﴾ تدعونني لأشرك بالله أوثاناً لاتصلح عبادتها ، لأن الله لم يأذن لي في ذلك ، بخبرٍ ولا عقل ﴿ **وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ** ﴾ وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته ﴿ **لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ** ﴾ حقاً إن الذي تدعونني إليه من الأوثان ، ليس له دعاء [1] في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنه جماد لاينطق ، ولا يفهم شيئاً ﴿ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ** ﴾ وأن مرجعنا بعد مماتنا إلى الله ﴿ **وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ وأن المشركين بالله المتعدين حدوده السفاكين للدماء بغير حق ، هم أصحاب جهنم ﴿ **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ** ﴾ فستذكرون ـ أيها القوم ـ إذا عاينتم عقاب الله ، صدق ما أقول ، وحقيقة ما أخبركم به عن أهل النار ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ وأسلِّم أمري إلى الله ، وأتوكل عليه ، فإنه الكافي من توكل عليه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾ إن الله عالم بأمور عباده ، المطيع منهم والعاصي ، والمستحق للثواب ، والمستوجب للعقاب ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** ﴾ فدفع الله عن هذا

---

(١) المراد بالآية أنه لايصلح أن يعبد ، لأنه لايستجيب للنداء ، ولايقدر على تفريج الكربة ، قال قتادة : لاينفع الوثن ولا يضر في الدنيا ولا في الآخرة ، وكذلك قال السُّدي .

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا
دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

* * *

المؤمن بإيمانه ، مكروه ما كان فرعون يريده من العذاب فنجاه منه (١) ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ ﴾ وحلَّ بأتباع فرعون الأشقياء ، ما ساءهم من عذاب الله ، وهو نار جهنم ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ تعرض أرواحهم على النار (٢) بعد غرقهم كل يوم مرتين، صباحاً ومساءً، إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ ويوم تقوم الساعة يقول الله لملائكته : أدخلوا قوم فرعون أشد العذاب ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ وإذ يتخاصم المشركون في النار ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ فيقول الأتباع لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة : إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً على الكفر ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ﴾ فهل تخففون عنا حظاً من النار ؟ فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا ، ولولا أنتم لكنا مؤمنين ﴿ قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ قال الرؤساء المتبوعون على الضلالة : إنَّا وأنتم في هذه النار ، مخلدون لاخلاص لنا منها ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ فصل بين العباد بقضائه ، فأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ وقال أهل جهنم لحراسها ، استغاثة بهم من عظيم ماهم فيه من البلاء ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العَذَابِ ﴾ أدعوا ربكم حتى يخفف عنا من العذاب ، قدر يوم واحد من أيام الدنيا ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ قالت خزنة جهنم لهم : ألم تأتكم رسلكم بالحجج على توحيد الله ، فتوحدوه ، وتؤمنوا به ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد أتتنا الرسل بذلك ﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ ﴾ قال الخزنة لهم : فادعوا إذاً أنتم ربكم (٣) ، وما دعاؤهم إلا في ضلال ، لأنه لاينفعهم ولا يستجاب لهم .

---

(١) لما تمَّم نصحه لهم وأظهر إيمانه ، قصدوا قتله فهرب منهم ونجاه الله ، وهذا قول مقاتل .

(٢) في الآية دليل على أن المراد بالنار نار القبر لا نار جهنم ، لأن الله تعالى قال بعدها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فدل هذا على أن المراد به عذاب القبر .

(٣) إنما يقولون لهم ذلك لا لرجاء المنفعة من الدعاء ، ولكن للدلالة على الخيبة ، ولهذا صرحوا بعد ذلك لهم بقولهم ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي لاينفع ولا يجدي .

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ

* * *

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إنا لننصر رسلنا والمؤمنين في الحياة الدنيا بقهرهم للكافرين ، أو بانتقامنا ممن حادهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ وننصرهم يوم القيامة ، يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون ، على الأمم المكذبة لرسلها ، بأن الرسل قد بلغوا أممهم رسالات ربهم ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ يوم لاينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم يعتذرون بالباطل ، ولا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ وللظالمين البعد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ولهم العذاب الأليم في الدار الآخرة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى ﴾ ولقد أعطينا موسى البيان للحق ، فكذّب به فرعون ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ وأورثنا بني إسرائيل التوراة ، وأنزلناها إليهم ، بياناً لأمر دينهم ، وتذكيراً منا لأهل العقول منهم ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فاصبر يا محمد لأمر ربك ، وبلّغ قومك ما أنزل إليك ، وأيقن بحقيقة وعد الله بنصرتك ، ونصرة من صدقك ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ وسل ربك غفران ذنبك ، وعفوه لك عنه (١) ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ وصلّ لربك (٢) من زوال الشمس إلى الليل ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ إن الذين يخاصمونك يا محمد ، فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير حجة جاءتهم من عند الله ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ ما في صدورهم إلا كبرٌ يتكبرون من أجله عن اتباعك ، حسداً منهم على الفضل والكرامة التي أكرمك الله بها من النبوة ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ وهو أمرٌ ليسوا بمدركيه ، لأن ذلك فضل يؤتيه الله من يشاء (٣) ﴿ فَاسْتَعِذْ

---

(١) المقصود من هذا الأمر تعليم الأمة الاستغفار من الذنوب ، ولهذا قال ابن كثير : وهذا تهييجٌ للأمة على الاستغفار . ا هـ ٢٤٨/٣ .

(٢) هكذا فسر ابن جرير الآية ووضح أن المراد من التسبيح الصلاة ، وقال غيره من المفسرين : المراد المواظبة على ذكر الله ، وألا يفتر اللسان عنه في صباح أو مساء .

(٣) وقيل المعنى : ما هم بواصلين إلى مرادهم من عداوتك وإطفاء نور الله ، فإن الله معك ، وهو الأظهر .

ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ
فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

* * *

بِاللَّهِ ﴾ فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ إن الله هو السميع البصير بما تعمله الجوارح ، لايخفى عليه شيء ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ لابتِداءُ السموات والأرض[1]، وإنشاؤ هامن غير شيء أعظم من خلق الناس،إن كنتم مستعظمي خلق الناس ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن خلق جميع ذلك هيِّنٌ على الله ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ** ﴾ كما لايستوي الذي لايبصر شيئاً، والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ، كذلك لا يستوي الكافر الذي لا يتأمل حجج الله ، فيتدبرها ، والمؤمن الذي يرى حجج الله ، فيتفكر فيها ويتعظ بها ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ**﴾ ولا يستوي كذلك المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم ، والكافرون بربهم ، العاصون له[2] ﴿**قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ ما تتذكرون حجج الله ، فتعتبرون وتتعظون بها إلا قليلاً

﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا** ﴾ إن الساعة[3] التي يحيي الله فيها الموتى ، لا شك في مجيئها ، فأيقنوا بذلك وتوبوا إلى ربكم ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ ولكن أكثر قريش لا يصدقون بمجيئها ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ ويقول لكم ربكم : أعبدوني وأخلصوا لي العبادة ، أُجب دعاءكم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ يتعظمون عن إفرادي بالعبادة والألوهية، سيدخلون جهنم صاغرين ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ الله الذي لا تنبغي العبادة لغيره ، هو الذي جعل لكم الليل لتهدأوا فيه من التصرف ، والاضطراب للمعاش ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** ﴾ وجعل النهار لطلب المعاش والحاجات ، نعمةً منه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** ﴾ إن الله لمتفضل عليكم

---

(١) في هذه الآيات الكريمة ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته ، وهذا من أعظم الأهداف في القرآن .

(٢) هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ،فالأعمى هو الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، والبصير هو المؤمن الذي يتفكر ويتعظ بما حوله من الحجج والآيات ، وهو قول ابن كثير وابن جرير

(٣) المراد بالساعة القيامة كما تقدم مراراً .

ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

* * *

أيها الناس ، بما لا مثيل له من الفضل ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يشكرونه بالطاعة له ، وإخلاص الألوهية والعبادة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الذي فعل هذه الأفعال هو الله ، خالقكم وخالق كل شيء ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح له العبادة غيره ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فأين تذهبون عنه وتعبدون سواه ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ كذهابكم عن الحق إلى الباطل ، والرشد إلى الضلال ، ذهب الذين كذبوا بحجج الله وآياته ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً ﴾ تستقرون عليها ، وتسكنون فوقها[1] ﴿ والسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ورفع السماء فوقكم لمصالحكم ، وقوام دنياكم ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وخلقكم فأحسن خلقكم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ورزقكم من حلال الرزق ، ولذيذات المطاعم والمشارب ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الذي فعل هذه الأفعال هو الله ربكم ، الذي لا تصلح الربوبية لغيره ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ فتبارك الله مالك جميع الخلق ﴿ هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هو الحي الذي لا يموت ، لا معبود بحقٍّ إلا الله ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فادعوه مخلصين له الطاعة ، ولا تشركوا في عبادته شيئاً سواه ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ الشكر [2] لله مالك كل شيء.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الآلهة والأوثان ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ لما جاءني من آيات كتاب الله الواضحات الذي أنزله الله إلي﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أذلَّ وأخضع له بالطاعة دون غيره ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

---

(١) هذا هو معنى القرار كما فسره الطبري وغيره من أئمة علماء التفسير ، وليس معناه عدم الحركة كما فهم البعض ، فإن الله تعالى بيّن لنا أنه جعل الأرض مستقراً لنا وسكناً وهذه نعمة جليلة ينبغي أن نشكر الله عليها ، ويؤيد هذا قول ابن عباس : جعلها منزلاً لكم في حياتكم وبعد موتكم ، فتنبه

(٢) معنى الحمد : الثناء التام الكامل ، فالله وحده هو الذي يستحق الحمد والثناء ، وتفسير الطبري له بالشكر قاصر عن المطلوب ، فإن الشكر أخص من الحمد ، لأنه يقابل النعمة

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا
أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ

* * *

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ خلق أباكم آدم من تراب ،ثم خلقكم من نطفة، ثم من علقة، بعد أن كنتم نطفاً **﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾** ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم صغاراً **﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾** ثم تتكامل قواكم، ويتناهى شبابكم ، فتهرموا وتصبحوا شيوخاً **﴿وَمِنكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾** ومنكم من يموت قبل أن يبلغ الشيخوخة **﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾** ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم لا تجاوزونه ، ولا تتقدمون قبله **﴿وَلَعلكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** ولكي تعقلوا حجج الله ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا أنه لا إله غيره **﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** ومن صفته ـ جل ثناؤه ـ أنه هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته **﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** وإذا قضى أمراً من الأمور ، يقول له : كن فيكون موجوداً بغير معاناةٍ ولا كلفة[1] **﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾** ألم تر[2] يا محمد هؤلاء المشركين ، الذين يخاصمونك في حجج الله وآياته **﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾** أي وجه يصرفون عن الحق ، ويعدلون عن الرشد ؟ **﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ﴾** وهم الذين كذبوا بهذا القرآن **﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾** وكذبوا أيضاً بالذي أرسلنا به رسلنا ، من إخلاص العبادة لله ، والبراءة من الآلهة والأنداد **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾** فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما تخبرهم به ، حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم **﴿يُسْحَبُونَ فِي الحَمِيمِ﴾** يسحبهم زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم الذي انتهى حره، وبلغ غايته **﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُون﴾** ثم يحرقون في نار جهنم فتوقد بهم **﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** ثم قيل لهم : أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم من آلهتكم وأوثانكم ، حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ؟ **﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾** فأجاب المساكين لقد عدلوا عنا ، وتركونا في هذا البلاء **﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾**

---

(١) في الآية تمثيل لعظمته تعالى ، وكمال قدرته ، فلا يحتاج ربنا في إيجاد شيء إلى زمن ولا يناله تعب ولا عناء ، وإنما يقول له كن فيكون .

(٢) الاستفهام هنا للتعجيب أي ألم تعجب يا محمد من حال هؤلاء المكابرين من قومك !!

يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

* * *

بل لم نكن نعبد في الدنيا شيئاً ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ ﴾ كما أضل الله هؤلاء ، يضل أهل الكفر عن عبادته ، فلايرحمهم ولا يغيثهم فيخفف عنهم البلاء ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ هذا العذاب الذي أنتم فيه ، بفرحكم في الدنيا بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصي ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وبأشركم وبطركم[1] فيها ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ يقول الله لهم : أدخلوا أبواب جهنم السبعة ، ماكثين فيها أبداً ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ﴾ فبئس منزل المتكبرين اليوم جهنم ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فاصبر يا محمد على هؤلاء المشركين ، فإن الله منجزلك ما وعدك من الظفر عليهم ، وإحلال العقاب بهم ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ فإما نرينك في حياتك[2] ، بعض الذي نعد هؤلاء المشركين ، من العذاب والنقمة تحل بهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أو نتوفينك قبل ذلك ، فإلينا مصيرك ومصيرهم ، فنحكم بينك وبينهم بالحق.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك ، رسلاً إلى أممهم ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَم نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ منهم من ذكرنا لك نبأهم وخبرهم ، ومنهم من لم نخبرك عنهم[3] ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾وما جعلنا لرسول ممن أرسلناه من قبلك ، أن يأتي قومه بآية فاصلة ، إلا بإذن الله له بذلك[4] ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالحَقِّ ﴾ فإذا جاء أمر الله قضي بالعدل ، فنجّى الله رسله والذين آمنوا معهم ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ ﴾ وهلك هنالك الذين أبطلوا أعمالهم ،بافترائهم على الله ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ الله هو الذي جعل

---

(١) المرح : البطر والأشر والفخر ، وقال ابن عباس : هو الخيلاء والعمل في الأرض بالخطيئة .

(٢) جواب « إنْ » محذوف تقديره : إن أريناك يا محمد بعض هذا العذاب لتقر به عينك فهو المطلوب أونتوفينك قبل إنزاله فننتقم منهم أشد الانتقام .

(٣) الآية فيها تسلية للنبي ﷺ ، ليقتدي بالأنبياء في الصبر على تحمل البلاء .

(٤) المراد بالآية المعجزة ، وفي هذا رد على كفار قريش حيث اقترحوا على النبي ﷺ أن يأتيهم ببعض الخوارق والمعجزات .

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

لكم الأنعام من الإبل والبقر والغنم والخيل ، وغير ذلك من البهائم ، لتركبوا بعضاً منها كالخيل والحمير ، وبعضاً تأكلون كالإبل والبقر والغنم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ وجعل لكم من جلودها بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ، ويوم إقامتكم « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ولتبلغوا بالحمولة على بعضها كالإبل حاجة في صدوركم ، لم تكونوا بالغيها لولاها إلا بشق أنفسكم ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وعلى الإبل نحملكم في البر ، وعلى السفن نحملكم في البحر ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ويريكم حججه ، فأيها تنكرون فتكذبون بوحدانية الله(١) ؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أفلم يسر هؤلاء المشركون في البلاد ، فينظروا في أسفارهم إلى وقائعنا وما أحللناه بالأمم قبلهم من بأسنا ، بتكذيبهم وجحودهم ؟ ! ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ كان أولئك أكثر عدداً من قريش ،وأقوى قوة وبطشاً ، وأبقى في الأرض آثاراً(٢) ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلما جاءهم بأسنا لم يغن عنهم ذلك شيئاً ، ولكنهم بادوا جميعاً ، فليعتبروا بذلك ، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ ﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات ،فرحوا ـ جهلاً منهم ـ بما عندهم من العلم، وقالوا لن نُبعث ولن يعذبنا الله ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وأحاط بهم من عذاب الله ما كانوا يستعجلون به رسلهم ، استهزاء وسخرية ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فلما حلَّ بهم عقاب الله ، قالوا : أقررنا بتوحيد الله ، وصدَّقنا أنه لا إله غيره ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ وجحدنا بالآلهة التي كنا نعبدها مع الله ، ونتخذها آلهة فتبرأنا منها.

(١) في الآية توبيخ للمشركين على إنكارهم لوحدانية الله تعالى مع ظهور الدلائل الساطعة الكثيرة .
(٢) المراد أن آثارهم لا تزال باقية بعدهم ، من الأبنية والقصور والجبال التي نحتوها ، وكان العرب في أسفارهم يرون ذلك .

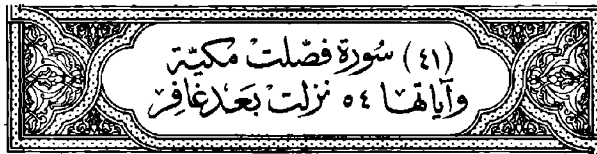
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

* * *

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ فلم يك ينفعهم تصديقهم، عند معاينة عذاب الله وعقابه قد حل بهم، لأنهم صدَّقوا حين لا ينفع التصديق ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ تلك هي سنَّة الله التي مضت في خلقه ، أنه من تاب بعد نزول العذاب لم تنفعه توبته ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ وهلك الجاحدون بتوحيد الله ، المتّخذون من دونه آلهة يعبدونهم عند مجيء بأس الله

« تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

* * *

﴿حمٓ﴾ تقدَّم القول عليه فيما مضى[1] ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هذا القرآن تنزيلٌ من عند الرحمن الرحيم ، نزَّله على نبيه محمد ﷺ ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ كتابٌ بُيِّنت آياته ﴿ قرآناً عربياً ﴾ جعلناه قرآناً عربياً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعلمون اللسان العربي ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يبشّر المؤمنين العاملين بما فيه بالجنة ، وينذر المكذبين به بالخلود في نار جهنم ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فاستكبر أكثر هؤلاء القوم ، عن تدبر ما فيه من حجج الله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ فهم لا يصغون له استكباراً وإعراضاً[2]

(١) ذكر الإمام الطبري أن « حمٓ » حروف مقطّعة من اسم الله « الرحمن الرحيم » ففيه الحاء والميم ، والصحيح ما أوضحناه سابقاً أن هذه الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن .

(٢) المراد بالسماع سماع التفكر والتدبر ، فقد جعل الله لهم آذاناً يسمعون بها الكلام ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعونه .

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

* * *

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾وقال المشركون من قريش : قلوبنا في أغطية مما تدعونا إليه يا محمد من توحيد الله ، لا نفقه ما تقول ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وفي آذاننا ثقل وصمم ، لا نسمع ما تدعونا إليه ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وبيننا وبينك ساتر ، لا نجتمع نحن ولا أنت من أجله ، وهو اختلاف ديننا ودينك[١] ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فاعمل بدينك إننا عاملون بديننا ، ودع ما تدعونا إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أنا إلا مثلكم ، بشر من بني آدم في الجنس والصورة ، ولست بملَك ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أوحى الله إليَّ ألا معبود لكم تصلح عبادته ، إلا معبودٌ واحد ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ فاستقيموا إليه بالطاعة ، ووجهوا وجوهكم إليه بالعبادة ، دون الآلهة والأوثان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ وسلوه العفو عن ذنوبكم يغفر لكم ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ وصديد[٢] أهل النار للمشركين العابدين للأوثان ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ الذين لا يؤدون زكاة أموالهم[٣] ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهم منكرون للبعث بعد الفناء ، وخروج الخلق من قبورهم أحياء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم به الله ورسوله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم أجرٌ غير منقوص .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أئنكم لتكفرون بالله ، الذي خلق الأرض في يومي الأحد والإثنين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ وتجعلون لله الأكفاء والأشباه من الرجـال ، تطيعونهم في معاصي الله ؟ ﴿ ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ذلك الفاعل هو الله ، مالك

(١) أرادوا بالحجاب اختلاف الدين بينهم وبين محمد ، فهم يعبدون الأوثان ، ومحمد يعبد الرحمن فكيف يمكن الاتفاق !!

(٢) لقد سار ا بن جرير في تفسيره على أن الويل هو : صديد أهل النار وما يسيل منهم ، وحيثما ذكر « الويل » في كتاب الله فسره بذلك ، وهذا بعض العذاب الذي يصيب أهل النار ، وأما الويل في اللغة فمعناه الدَّمار والهلاك وشدة العذاب ، وقد قال الراغب في مفرداته : ومن قال « ويل » واد في جهنم فإنه لم يرد أنه في اللغة موضوع لهذا وإنما أراد أنه يستحق مقراً في جهنم . اهـ.

(٣) وقيل : المراد تزكية أنفسهم من الشرك ، والصحيح ما قاله الطبري أن المراد به زكاة المال ، فإنه المتبادر ولو كانت السورة مكية ، فإن أصل الزكاة مشروعٌ كأصل الصلاة .

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾

* * *

جميع الإنس والجن وسائر الخلق ، فكيف يجوز أن يكون له شبيه ونظير ؟ ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا** ﴾ وجعل في الأرض جبالاً ثوابت على ظهرها ﴿ **وَبَارَكَ فِيهَا** ﴾ وبارك في الأرض فجعلها دائمة الخير لأهلها ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** ﴾ وقدَّر فيها أرزاق أهلها ومعايشهم ، وخصَّ كل بلدة منها ما لم يجعله في الآخر ، ليتصرفوا في البلاد بالتجارة ، فعل ذلك كله في أربعة أيام ، قال ابن عباس : فرغ الله من خلق الأرض وجميع أسبابها ومنافعها ، من الأشجار ، والماء ، والمدائن ، والعمران في أربعة أيام ، أولهن يوم الأحد ، وآخرهن يوم الأربعاء[1] ﴿ **سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ** ﴾ قسَّم فيها الأقوات ، للسائلين عما يصلحهم ، وما لهم به إليه الحاجة[2] ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ ثم ارتفع إلى السماء وهي بهيئة الدخان[3] ﴿ **فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** ﴾ فقال الله للسماء والأرض : جيئا بما خلقتُ فيكما طائعتين أو مكرهتين ، أمَّا أنت يا سماء فأطلعي الشمس والقمر والنجوم ، وأما أنت يا أرض فأخرجي الأشجار والنبات والثمار ، وتشققي عن الأنهار ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ قالتا : جئنا مستجيبين لأمرك ، لا نعصيك ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ ففرغ من خلقهن سبع سموات في يومي : الخميس والجمعة ﴿ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** ﴾ وألقى في كل سماء ما أراد من الخلق ﴿ **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾ وزينا السماء الدنيا بالكواكب ﴿ **وَحِفْظاً** ﴾ وحفظاً من الشياطين ﴿ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ هذا الذي ذكرتُ من الخلق والتزيين ، هو صنع الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بسرائر عباده ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا** ﴾ فإن أعرض هؤلاء المشركون فلم يؤمنوا ﴿ **فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ **فقل** لهم يا محمد : أنذرتكم عذاباً يهلككم ، مثل عذاب عاد

---

(١) فإن قيل : كيف ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، ثم قال هنا : في أربعة أيام ؟ فالجواب أن خلق الأرض وتقدير أرزاقها كان في أربعة أيام ، فخلقُ الأرض في يومين ، وتقدير الأقوات والأرزاق وسائر المنافع كان في يومين ، فالمجموع أربعة أيام ، ابتدأت بالأحد وانتهت بالأربعاء .

(٢) وقيل : المراد للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، واختار الطبري ما ذكرناه .

(٣) قال ابن كثير : المراد بالدخان بخار الماء المتصاعد من الأرض .

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

* * *

وثمود ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ حين جاءتهم الرسل الذين كانوا قبل « هود »، والرسل الذين كانوا بعده ، فكذبوهم فأهلكوا ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ فقالوا لرسلهم : لو شاء الله أن نوحّده ولا نعبد غيره ، لأنزل إلينا ملائكة رسلاً ، ولم يرسلهم بشراً ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فإنا جاحدون برسالتكم ، غير مصدقين لكم ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فأما قوم هود فاستكبروا على ربهم ، وتجبَّروا في الأرض تكبراً وعتواً ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وقالوا : من أقوى منا بطشاً ؟[1] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أولم يعلموا أن الله الذي أعطاهم عظم الخلق ، وشدة البطش ، هو أقوى منهم فيحذروا عقابه ، ويتقوا سطوته ؟ ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ وكانوا بحججنا وأدلتنا يكذّبون ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ فأرسلنا على عادٍ ريحاً شديدة[2] ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ في أيام مشئومات ، ليس فيها شيءٌ من الخير ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا ﴾ لكي نخزيهم بهذا العذاب في الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ ولعذابنا لهم في الآخرة ، أشد إهانة وإذلالاً لهم ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ولا ينصرهم يوم القيامة ناصر ، فينقذهم من عذاب الله

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ وأما ثمود فبيَّنا لهم سبيل الحق وطريق الرشد ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ فاختاروا طريق الضلال على طريق الهدى ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ فأهلكتهم بالعذاب المذلّ المهين[3] ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بما كانوا يكسبون من الآثام ، بكفرهم بالله وتكذيبهم

---

(١) الاستفهام هنا يراد به النفي أي لا أحد أقوى منا ، فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عنا بقوتنا ، قال المفسرون : كانوا ذوي أجسام طوال ، وخلق عظيم ، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل منهم كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده ، ولم يكن أحد أقوى منهم في البنية والجسم ، ولذلك اغتروا بقوّتهم فقالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟

(٢) الصرصر : صوت الريح العاصفة إذا هبت بشدة ، وهذا الذي رجحه الطبري وقيل : هي الباردة .

(٣) الهُوْن : الهوان وهو العذاب الذي معه ذل وإهانة .

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا
جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا
قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ
عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ
ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ
فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

* * *

رسله ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ونجينا من العذاب الذين صدَّقوا رسله ، وكانوا يخافون وعيد الله وعقابه ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ ويوم يُجمع المشركون أعداء الله إلى نار جهنم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم[1] ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ حتى إذا جاءوا النار ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ شهدت عليهم جوارحهم : سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الآثام ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وقال أعداء الله لجلودهم حين شهدت عليهم : لم شهدتم علينا بما كنا نعمله في الدنيا ؟ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فأجابتهم جلودهم لقد أنطقنا الله فنطقنا ، وهو الذي أنطق كل شيء ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والله خلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مصيركم من بعد مماتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ وما كنتم تستخفون[2] ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حذر أن يشهدعليكم[3]سمعكم وأبصاركم وجلودكم ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولكن حسبتم ـ حين ركبتم معاصي الله ـ أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم الخبيثة ، فلذلك لم تستتروا ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ وهذا الظن السيىء الذي ظننتم بربكم أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ فأصبحتم اليوم من الهالكين ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ فإن يصبر هؤلاء على النار ، فالنار مسكنٌ لهم ومنزل ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ ﴾ وإن يسألوا الرجعة إلى من يحبونهم ، فليسوا بالذين يُرجع بهم إلى الجنة ، فيخفف عنهم

(١) يوزعون : يحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا ، قال في لسان العرب :وزعتُ الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، وقيل : يكفون لئلا يتفرقوا .

(٢) وفي الحديث « فيختم على فيه ـ فمه ـ ثم يقال لجوارحه : انطقي ، فتنطق بأعماله . . » الحديث أخرجه مسلم .

(٣) وقيل : المراد وما كنتم تظنون أن تشهد عليكم أعضاؤكم ، وقد رجح الطبري أن المراد تستخفون منها لأن معنى الاستهتار هو الاستخفاء ، وهو الصحيح .

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

العذاب[١] ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ وبعثنا لهم قرناء من الشياطين ، يزينون لهم قبائح أعمالهم ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فحسَّنوا لهم أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة ، وحسَّنوا لهم ما بعد مماتهم ، حتى صدَّقوا أن لا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ ووجب لهم العذاب ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ مع أمم قد مضت قبلهم ، بعضُهم من الجنّ وبعضُهم من الإنس ، حقَّ عليهم العذاب ، مثل الذي حقَّ على هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ إنهم كانوا مغبونين ، ببيعهم رضا الله بسخطه وعذابه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ وقال مشركو قريش لأوليائهم : لا تسمعوا ولا تُصغوا لقارىء هذا القرآن ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ والغطوا بالباطل عند قراءته كيلا تسمعوه ، قال مجاهد : إذا قرأ محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالتخليط والتصفير ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ لعلكم تصدُّون من أراد استماعه ، فتغلبون بذلك محمداً[٢] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ فلنذيقنَّ هؤلاء الكفار في الآخرة عذاباً شديداً ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولنثيبنَّهم على أفعالهم ، بأقبح جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ هذا الجزاء للمشركين هو نار جهنم ، جزاء أعداء الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ لهم في جهنم دار المكث إلى غير نهاية ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ جزاءً لهم ، بجحودهم بآياتنا في الدنيا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ وقال الكفار بعدما أدخلوا جهنم : يا ربنا أرنا من أضلَّنا من خلقك ، من جنهم وإنسهم ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ نجعلهما أسفل[٣] منا ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ليكونا في أشد العذاب ، في الدرك الأسفل من النار

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري ، وفسره غيره بأن المعنى : وإن يطلبوا إرضاء الله فما هم من المرضي عليهم ، وهو الأظهر .

(٢) هكذا أوصى المجرمون بعضهم بعضاً بأن يرفعوا أصواتهم عند قراءة الرسول حتى لا يسمعه أحد ، قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول .

(٣) قال الطبري : أبواب جهنم بعضها أسفلُ من بعض ، وكلُّ ما سفل منها فعذاب أهله أشد وأغلظ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا
مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِين قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ آمنوا بوحدانية الله ، وبرئوا من الآلهة والأنداد ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على توحيد الله وطاعته[1] ، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ ﴾ تهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ بألا تخافوا بعد مماتكم ، ولا تحزنوا على ما تخلّفونه وراءكم من أهلٍ وولد ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وسُرُّوا بالجنة التي وُعدتم بها في الدنيا ، على إيمانكم واستقامتكم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ نحن أنصاركم في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة أيضاً ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ ولكم عند الله ما تشتهيه أنفسكم ، من الملذات والشهوات ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ولكم فيها ما تطلبون وتشتهون ﴿ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ ضيافةً من ربٍ غفور لذنوبكم ، رحيمٍ عن معاقبتكم .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ دعا الناس إلى الإسلام بقوله وعمله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ وخضع لله بالطاعة والعبودية ، والإيمان بالوحدانية[2] ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ﴾ ولا يستوي الإيمان بالله وطاعته ، والشرك بالله ومعصيته ﴿ آدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ آدفع بالحلم جهل الجاهل ، وبالعفو إساءة المسيء[3] ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فإذا فعلت ذلك يصير المسيء ، الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه ـ من ملاطفته وبره ـ صديق قريب[4] ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ وما يُعطى هذه المنزلة ، إلاّ الذين صبروا على المكاره والمشاقّ ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وما يُعطاها إلاّ ذو نصيب عظيم في المبرّات ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ وإمَّا يُلقينَّ

(١) هذه الآية عامة في كل من جمع الخصال الثلاث : الدعوة إلى الله ، وعمل الخير ، والاستقامة بعلمه وعمله .
(٢) قال ابن كثير : هذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدٍ ، فنفعهُ لنفسه ولغيره . اهـ .
(٣) قال ابن عباس : إدفع بحلمك جهل من يجهل عليك .
(٤) قال ابن كثير : إذا أحسنت إلى من أساء إليك ، قادته الحسنة إليه إلى مصافاتك وصحبتك ، حتى يصير كأنه قريب إليك .

فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا
عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا

***

الشيطان في نفسك وسوسة ، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ فاستجرْ بالله واعتصم من خطراته ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إن الله هو السميع لاستجارتك من نزغاته ، العليمُ بأمور خلقه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ ﴾ ومن حجج الله ودلائله على وحدانيته ، اختلاف الليل والنهار ، وخلق الشمس والقمر يجريان لمنافعكم ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ لا تسجدوا أيها الناس للشمس والقمر ، فإنهما لا يستطيعان لكم نفعاً أو ضراً ، وإنما الله مسخرهما لمنافعكم ومصالحكم ، فاسجدوا له وإيَّاه فاعبدوا ، فإنه لو شاء لطمس ضوءهما ، فترككم حيارى لا تبصرون شيئاً ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن كنتم تعبدون الله ، فأخلصوا له العبادة ، فإنها لا تصلح لغيره ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فإن استكبر المشركون عن السجود لله ، وتعظَّموا أن يسجدوا للَّهِ الذي خلقهم ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فالملائكة الذين هم عند ربك ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ لا يستكبرون عن عبادته ، ويصلّون له ليلاً ونهاراً ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ وهم لا يفترون عن عبادتهم ولا يملُّون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ ومن حججه تعالى وأدلته على البعث والنشور ، أنك ترى الأرض دارسةً غبراء ، لا نبات بها ولا زرع ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر ، تحركت بالنبات وانتفخت[1] ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ إن الله الذي أحيا هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات بالمطر الذي أنزله عليها ، لقادرٌ على أن يحيي الأموات بعد مماتهم ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء أراده ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ إن الذين يميلون عن آياتنا تكذيباً واستهزاءً ، ويعاندون فيها ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ نحن عالمون بهم ، وسيعلمون إذا وردوا علينا ،

(١) ما أروعها من صورة في منتهى الروعة والبيان ، فقد شبه الأرض القاحلة الجرداء ، بالرجل الخاشع الذليل الذي يكاد يهلك من شدة الجوع والعطش ، فإذا سُقي الماء دبَّت فيه الحياة وعادت إليه الروح ، فكذلك الأرض اليابسة تحيا بوابل المطر ، وجعل الله ذلك تمثيلاً لإحياء الموتى .

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

* * *

ماذا يلقون من أليم عذابنا ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ أفهذا الكافر الذي يُلقى في النار خيرٌ ، أم المؤمن الذي يأتي يوم القيامة ، آمناً من عذاب الله لإِيمانه بالله ؟ ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ اعملوا ما تريدون[١] أيها الناس ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إن الذين جحدوا هذا القرآن ، وكذَّبوا به لما جاءهم من عند الله ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ وإن هذا القرآن معزَّزٌ بإعزاز الله إياه ، وحفظه من كل تحريف وتبديل ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يستطيع مبطل تغييره وتبديله ، بزيادةٍ أو نقصان[٢] قال السدي : لا يستطيع الشيطان أن يزيد فيه حرفاً ، ولا ينقص منه حرفاً ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ تنزيل من إله حكيم بتدبير عباده ، محمودٍ على نعمه وأياديه ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ، إلا ما قد قاله الأمم لرسلهم من قبلك[٣] ، فاصبر كما صبر أولو العزم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إن ربك يا محمد لذو مغفرة لذنوب التائبين ، وذو عقاب مؤلم للمصرين على كفرهم وذنوبهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً﴾ ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد بلغة العجم ﴿لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ لقال المشركون : هلاَّ بُيِّنت أدلته لنفقهه ونعلم ما فيه ؟ ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أقرآن أعجميٌّ ومحمدٌ عربيٌّ ؟ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ قل يا محمد لهم : هذا القرآن للمؤمنين الذين صدَّقوا ما جاءهم من عند الله ، بيانٌ ونور وشفاء من الجهل ﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ والذين لم يصدِّقوا بما جاءهم من عند الله ، في آذانهم ثقلٌ عن استماع القرآن ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ فلا يبصرون حججه ومواعظه ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الكافرون كمن يُنادَىٰ من مكان بعيدٍ[٤] ، لا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به

---

(١) هذا تهديد من الله تعالى ملفَّع بظل الرعيد ، فالأمر خرج عن غرضه الأصلي إلى صفة الوعيد والتهديد

(٢) هذا وعدٌ من الله تعالى بحفظ كتابه من التحريف والتبديل كما قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

(٣) فيه تعزية وتسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى المشركين ، قال قتادة : يُعزِّي نبيه ﷺ كما تسمعون .

(٤) هذا على سبيل التشبيه والتمثيل كمن يُنادى من مكان بعيد فلا يفهم المراد ، قال ابن عباس : يريد أنه مثل البهيمة التي لا تفهم إلاّ دعاء ونداء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ
ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى
قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ
ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ولقد آتينا موسى التوراة ، كما آتيناك الفرقان ، فاختلف اليهود في العمل بما فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا قضاء الله بتأخير عذابهم ، لعُجّل الفصل بينهم بإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإن المبطلين لفي شك يريبهم ما قالوا في التوراة ، ظناً من غير تثبت ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ من عمل بطاعة الله في الدنيا فلنفسه أحسن ، لأنه يستوجب بعمله الجنة ، ومن عمل بمعصية الله في الدنيا فعلى نفسه جنى ، لأنه أكسبها العقاب الأليم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وربك يا محمد لا يعاقب أحداً بغير جرمه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى الله يُرد علم القيامة ، فإنه لا يعلمها غيره ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ وما تظهر ثمرة فتخرج بارزة من طلعها[١] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وما تحمل أنثى حملاً ، ولا تضع ولدها إلا بعلمٍ من الله ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ ويوم ينادي الله المشركين : أين شركائي الذين كنتم تشركونهم معي في عبادتكم[٢] ؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ قال المشركون : أعلمناك يا ربنا ما منا شهيد يشهد أن لك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ وغابت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ وأيقنوا حينئذٍ أنه ليس لهم ملجأ من عذاب الله يلجأون إليه ﴿لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ﴾ لا يملُّ الكافر[٣] من دعاء ربه بالخير ، كطلب المال وصحة الجسم ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ وإن ناله ضُرٌّ من سُقمٍ ، أو جُهدٍ ، أو احتباسٍ في رزقه ، فإنه يائس من فرج الله ، قانط من رحمته ﴿وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ ولئن كشفنا عن هذا الكافر ، ما أصابه من سُقم وضُرّ وشدة ، ووسعنا عليه في معيشته ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ ليقولن هذا بعملي ،

(١) الأكمام : جمع كُمّ وهو وعاء الثمرة وغلافها الذي تخرج فيه ، وفسره السُّدي بالطَّلع .
(٢) فيه تقريع وتهكم بهم حيث أشركوا مع الله من لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام .
(٣) المراد بالإنسان هنا « الكافر » كما قال الإمام ابن جرير ، بدليل إنكاره للبعث ﴿وما أظنُّ الساعة قائمةً﴾ وليس للعموم .

بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

* * *

وأنا مستحق لهذا لأن الله راضٍ عني ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أحسب القيامة تقوم ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ ولئن رددت إلى الله حياً بعد[1] مماتي ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ إن لي عنده غنى ومالاً ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فلنخبرنَّ هؤلاء الكفار، المتمنّين على الله الأباطيل، بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السّيئات ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولنخلّدنهم في نار جهنم.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ﴾ وإذا أنعمنا على الكافر، فكشفنا ما به من ضُرٍّ، ووهبنا له الرزق والصحة والعافية ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أعرض عن طاعة الله، وتباعد عن إجابتنا إلى ما دعوناه إليه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ وإذا مسَّته الشدَّة، فهو ذو دعاءٍ كثير[2] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد للمكذبين: أخبروني أيها القوم، إن كان هذا القرآن من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ ثم جحدتم وكذبتم به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ من أضل ممن سلك غير طريق الصواب؟ ألستم في فراقٍ لأمر الله بعيد عن الرشاد؟ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ سنري هؤلاء المكذبين وقائعنا، بما نفتح لك يا محمد من الآفاق ـ آفاق البلاد ـ وبفتح مكة[3] ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ حتى يظهر للمشركين حقيقة وعدنا لمحمدﷺ، بإظهار دينه على كل الأديان ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أولم يكف يا محمد أن ربك شاهد على كل شيء من أفعال خلقه؟ وهو مجازيهم على أعمالهم؟ ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا إن هؤلاء المشركين في شكٍ من البعث والمعاد ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ ألا إن الله قد أحاط علمه بكل شيء، لا يفوته شيء أراده.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصّلت»

---

(١) هذا على الفرض والتقدير، كأنه يقول: ليس هناك قيامة، وعلى فرض أن القيامة حاصلة فسيحسن إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في الدنيا، وهذا من تلبيس ابليس اللعين، يزيّن للكافر الضلال، ويمنّيه بالأماني الباطلة.

(٢) استعار العرض هنا للكثرة، وهكذا طبيعة الإنسان الكافر، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء.

(٣) ما رجحه الإمام الطبري من أن المراد رؤيتهم للوقائع بظهور دين محمد وفتح مكة قولٌ فيه نظر، فإن الله تعالى أخبرنا بأنه سيطلع الكفار على آياته، الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته في أقطار السموات والأرض، وفي آفاق النفس الإنسانية، بما يكتشفه الإنسان من أسرار الكون وأسرار الخليقة، وما فيهما من العجائب مما يحير العقول والأفكار، حتى يستدلوا على صدق القرآن، فإن هذا المعنى أظهر في الدلالة على عظمة الواحد القهار، ففي الكون وفي النفس البشرية من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ما اكتشفه العصر الحديث مما يبرهن على معجزة القرآن.

(٤٢) سُورَةُ الشُّورَىٰ مَكِّيَّة وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ
عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

* * *

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾[1] ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هكذا يوحي إليك يا محمد ، وإلى أنبيائه الذين مضوا قبلك ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الله العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لله ملك ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وهو ذو علو وارتفاع على كل شيء ،والأشياء كلها دونه ، لأنهم في سلطانه، جاريةً عليهم قدرته ، ماضيةً فيهم مشيئته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ تكاد السموات يشققن من فوق الأرضين، من عظمة الرحمن وجلاله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ والملائكة يصلون بطاعة ربهم ، وشكرهم له من هيبة جلاله وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ويسألون ربهم المغفرة لذنوب من في الأرض ، من أهل الإيمان به ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ألا إن الله هو الغفور لذنوب المؤمنين ، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ والذين اتخذوا من دون الله آلهة يتولونها ويعبدونها ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ الله يحصي عليهم أفعالهم ، ويحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ولست أنت يا محمد بـالوكيل عليهم وإنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما

---

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى
ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم
مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾
وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

* * *

عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً﴾ وهكذا أوحينا إليك يا محمد قرآناً بلسان العرب، ليفهموا ما فيه من حجج الله ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لتنذر أهل مكة، ومن حولها من سائر الناس ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وتنذرهم عقاب الله ، يوم يجمع عباده لموقف الحساب ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسوله ﷺ ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وفريق من الناس في نار الله الموقدة المسعورة، وهم الذين كفروا بالله ، وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى ، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ولكن الله يوفق من يشاء للدخول في دينه ، الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ برحمته ﴿وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ والكافرون بالله ما لهم ولي يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله ، فينقذهم من عذابه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾أم اتخذ هؤلاء المشركون، أولياء من دون الله يتولونهم ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾ فالله هو ولي أوليائه ، لا الآلهة والأوثان ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة ، وهو القادر على كل شيء ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وما تنازعتم أيها الناس فيما بينكم من شيء، فإن الله يقضي فيه بينكم، ويفصل فيه الحكم ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ هذا هو ربي ، لا الآلهة التي لا تقدر على شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت في أموري كلها ، وبه وثقت ﴿وَإليهِ أُنِيبُ﴾ وإليه أرجع في أموري، وأتوب من ذنوبي ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالق السموات السبع والأرض ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ زوَّجكم ربكم أزواجاً من أنفسكم ﴿وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ وجعل لكم من الأنعام أزواجاً ، ذكوراً

ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟
ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

* * *

وإناثاً[1] ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يخلقكم[2] فيما جعل لكم من أزواجكم ، ويعيِّشكم فيما جعل لكم من الأنعام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ليس هو تعالى كشيء من الأشياء[3] ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهو السميع لما ينطق به خلقه ، البصيرُ بأعمالهم ، لا يخفى عليه شيء ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له مفاتيح[4] خزائن السموات والأرض ، وبيده مغاليق الخير والشر ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يوسع رزقه على من يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقتِّر على من يشاء منهم فيفقره ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن الله بكل ما يفعل من التوسعة والتقتير ، وغير ذلك من الأمور ذو علم ، لا يخفى عليه صلاح تدبير خلقه ، فإليه فارغبوا وإياه فاعبدوا .

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ شرع لكم[5] ربكم من الدين ، ما وصَّى به نوحاً ان يعمله ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وشرع لكم من الدين ، الذي أوحينا اليك يا محمد فأمرناك به ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وشرع لكم من الدين ما وصَّى به الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدين الحق ، وعدم التفرق والاختلاف ، كما اختلف الأحزاب من قبلكم ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عظُم على المشركين ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله ، وإفراده بالألوهية ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحبَّ ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ويرشد التائب إليه إلى سبيل الحق ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ وما تفرق المشركون فصاروا أحزاباً ، إلا من بعدما جاءهم العلم، بأن ما أمرهم الله به ، هو إقامة الدين الحق ، ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ عدواناً من بعضهم على

---

(١) أي وخلق لكم الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً ، من كل نوع ذكراً وأنثى .

(٢) أي يخلقكم نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ، وهو قول مجاهد .

(٣) وجَّه الإمام الطبري الآية على وجهين : أحدهما : ليس هو كشيء ، والثاني : ليس مثله شيء، فالكاف هنا «كمثله» لتأكيد النفي ، قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول : مثلي لا يقال له ذلك .

(٤) مقاليد بمعنى مفاتيح جمع إقليد على غير قياس .

(٥) معنى شرع أي سنَّ لكم وبيَّن الحكم القاطع .

مُسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ
كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

* * *

بعض ، وحسداً وعداوة على طلب الدنيا ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ ولولا قولٌ سبق يا محمد من ربك ، أن لا يعاجلهم بالعذاب،ويؤخر ذلك إلى يوم القيامة ﴿ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ لفرغ ربك من الحكم بين هؤلاء المختلفين ، بإهلاكه أهل الباطل، وإظهاره أهل الحق ﴿**وَإِنَّ الذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ وإن الذين آتاهم الله من بعد هؤلاء المختلفين ، كتابه «التوراة والإنجيل» ﴿**لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**﴾ لفي شكٍّ من الدين الذي وصَّى به أنبياءه ، وأمرهم بإقامته ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ فإلى ذلك الدّين الذي شرع الله لكم ، فادع عباد الله ،واستقم على العمل به ، واثبت عليه كما أمرك ربك ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكوا في الحق ، فتشك كالذي شكوا فيه ﴿**وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ**﴾ وقل لهم : إني صدقت بما أنزل الله من كتاب ، توراةً كان أو إنجيلاً أو زبوراً ، لا أكذّب بشيءٍ من ذلك ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ**﴾ وأمرني ربي أن أعدل بينكم بالحق ، الذي بعثني به ﴿**اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**﴾ الله مالكنا ومالككم ﴿**لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**﴾لنا ثواب ما اكتسبنا من الأعمال ، ولكم ثواب ما اكتسبتم منها ﴿**لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ لا خصومة بيننا وبينكم ﴿**اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا**﴾ الله تعالى يجمع بيننا يوم القيامة، فيقضى بيننا بالحق ﴿**وَإِلَيْهِ المَصِيرُ**﴾ وإليه المعاد والمرجع بعد الممات

﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِمَا اسْتُجِيبَ لَهُ**﴾والذين يخاصمون في دين الله، من بعدما استجاب له الناس، فدخلوا في دينه ﴿**حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ خصومتهم باطلة عند ربهم ﴿**وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ وعليهم من الله غضب ، ولهم في الآخرة عذاب النار الشديد ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَالمِيزَانَ**﴾ الله الذي أنزل هذا القرآن بالحق ، وأنزل العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف ، ويحكم فيهم بحكم الله في كتابه ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾ وأي شيء يعلمك، لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريبة ؟ ﴿**يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا**﴾ يستعجلك

بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم
مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ

* * *

بمجيئها الذين لا يوقنون بها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ والذين صدقوا بمجيئها خائفون من قيامها ، لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ ويوقنون أن مجيئها الحق اليقين ، لا يمترون في ذلك ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة، لفي جورٍ عن طريق الهدى ، وزيغٍ عن سبيل الحق والرشاد ، بعيدٍ من الصواب ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ الله ذو لطف بعباده، يوسع على من يشاء الرزق ، ويقتر على من يشاء منهم ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ وهو القوي الذي لا يغلبه أحدٌ ، العزيز في انتقامه من أهل معاصيه .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ من كان يريد بعمله الآخرة ، نزدْ له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشراً ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن كان يريد بعمله الدنيا، نؤته ما قسمناه له(١) منها ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وليس له حظٌ في ثواب الله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أم لهؤلاء المشركين بالله ، شركاء في شركهم وضلالتهم ، ابتدعوا لهم من الدين ، ما لم يبح الله لهم إبتداعه(٢) ؟ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا الحكم السابق من الله ، في أنهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة ، لفُرغ من الحكم بتعجيل العذاب لهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين لهم يوم القيامة عذاب موجع ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ ترى الكافرين بالله يوم القيامة ، خائفين من عقاب الله، على أعمالهم الخبيثة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعذاب الله نازلٌ بهم ، وهم ذائقوه لا محالة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ والذين صدَّقوا بالله وأطاعوه ، هم في

(١) أصل الحرث : إلقاء البذور في الأرض ، ثم أطلق على الزرع الحاصل منه ، ثم استعير لثمرات الأعمال ونتائجها كما في الآية .

(٢) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى : ألهؤلاء المشركين آلهة من الأوثان شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟ وفيه تهكم لاذع بهم حيث إن هذه الأصنام جمادات لا تسمع ولا تنفع فكيف يجعلونها شركاء مع الله ؟

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل
لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ
ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ

* * *

الآخرة في روضات البساتين ونعيمها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ما تشتهيه أنفسهم ، وتلذُّه أعينهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الفضْلُ الكَبِيرُ﴾ هذا الذي أعطاهم الله من النعيم والكرامة ، هو الفضل الكبير من الله عليهم ، الذي يفضل كل نعيمٍ وكرامةٍ في الدنيا ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا الذي أخبرتكم من النعيم والكرامة للمؤمنين ، هو البشرى التي يبشر الله عباده، الذين صدَّقوا الله في الدنيا، وعملوا بطاعته فيها ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ قل لهم يا محمد: لا أسألكم أيها القوم ، على دعايتكم إلى الحق والنصيحة التي أنصحكم ، ثواباً وجزاء ، إلاَّ أن تودُّوني لقرابتي منكم ، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ ومن يعمل عملاً يطيع الله فيه ، نضاعف له عمله الحسن ، إلى ما شئنا من الجزاء والثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن الله غفور لذنوب عباده، شكور لحسناتهم وطاعتهم .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أم يقول هؤلاء المشركون : افترى محمد على الله كذباً ، فجاء بهذا القرآن اختلاقاً من قبل نفسه ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فإن يشإ الله يا محمد يطبع على قلبك ، فتنس هذا القرآن ، الذي أنزل إليك[1] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ويذهب الله الباطل فيمحقه، ويحق الحق فيثبته ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عالم بما في صدور خلقه ، وما تنطوي عليه ضمائرهم ، لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ والله الذي يقبل توبة العبد ، إذا رجع إلى الله وطاعته ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويعفو عن معاصيه التي تاب منها ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ويعلم ربكم ما تفعلون من خير وشر، وهو مجازيكم عليه ، فاحذروا أن تركبوا ما تستحقون به العقوبة ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ويجيب الله

---

(١) يقول الله لنبيه ﷺ: لو حدثت نفسك بالكذب على الله ـ كما يزعم المشركون ـ لختمت على قلبك فأنسيتك هذا القرآن ، وسلبته من صدرك، ولكنك لم تكذب ولهذا أيدتك .

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَمَآ
أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٤٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٤١﴾

* * *

دعاء المؤمنين بعضهم لبعض[1]، العاملين بما أمرهم الله ، المنتهين عما نهاهم عنه ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويزيدهم الله مع إجابته دعاءهم، بأن يعطيهم ما لم يسألوه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والكافرون لهم يوم القيامة عذاب شديد ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ولو وسَّع الله الرزق لعباده ، لتجاوزوا الحد بركوبهم المعاصي ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ ولكنه ينزِّل رزقهم ، بقدرِ الذي يشاء لكفايتهم ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ إن الله عالمٌ بما يصلح عباده من غنى وفقر، وسعةٍ وإقتار، بصيرٌ بتدبير شئونهم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والله الذي ينزل المطر من السماء ، فيغيثكم به أيها الناس ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ من بعد ما يئسوا من نزوله ومجيئه ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ وينزل المطر من السماء فينشره على عباده ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو الوليُّ بإحسانه وفضله ، الحميدُ بأياديه ونعمه عليكم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن حججه أنه القادر على إحيائكم بعد فنائكم ، وبعثكم من قبوركم من بعد بلائكم ، خلقُه السموات والأرض ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وما فرَّق في السموات والأرض من مخلوقات كثيرة ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ وهو على جمع خلقه بعد تفرق أوصالهم قادر ، فكما لم يتعذر عليه خلقهم، فكذلك لا يتعذر عليه حشرهم يوم القيامة . ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في أنفسكم ، وأهليكم ، وأموالكم ، فإنَّما يصيبكم ذلك بما اجترحتم من الآثام ﴿وَيَعْفُوعَنْ كَثِيرٍ﴾ ويعفو ربكم عن كثيرٍ من إجرامكم ، فلا يعاقبكم به[2]﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ وما أنتم بمعجزين ربكم،إذا أراد عقوبتكم فتفوتونه هرباً في الأرض، ولكنكم حيث كنتم في سلطانه وقبضته ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم وليٌّ يليكم بالدفاع عنكم ،

(١) الأصل: ويستجيب الله للمؤمنين ، وحذفت اللام كما حذفت من قوله ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم .
(٢) قال ابن عباس : يعجل الله للمؤمنين عقوبتهم في الدنيا بذنوبهم، ولا يؤاخذون بها في الآخرة .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟

* * *

إذا أراد عقوبتكم، وليس لكم من ينصركم، فاحذروا أيها الناس معاصيه، واتقوه أن تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ومن حجج الله على قدرته على كل ما يشاء السفن الجارية في البحر كالجبال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ إن يشأ الله ألا تجري هذه السفن، أسكن الريح ووقفن على ظهر الماء، لا تتقدم ولا تتأخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في جري السفن في البحر، لعظةً وعبرة على قدرة الله على ما يشاء، لكل ذي صبرٍ على الطاعة، شكورٍ لنعم الله(١) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أو يهلك هذه السفن بالغرق، بما كسب ركابها من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ويصفح عن كثير من ذنوبكم، فلا يعاقب عليها ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ويعلم الذين يخاصمون رسوله من المشركين، في آياته وأدلته على توحيده ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ما لهم من محيد من عقاب الله وليس لهم منه ملجأ ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فما أعطيتم أيها الناس من شيء من رياش الدنيا من المال والبنين ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو متاعٌ لكم في الحياة الدنيا، وليس مما ينفعكم في معادكم ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والذي عند الله لأهل طاعته، الذين يثقون به، وعليه يتوكلون، خيرٌ مما أوتيتموه في الدنيا من متاعها، وأبقى لأنه باقٍ غير نافد.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ والذين يجتنبون كبائر الذنوب والسيئات كالشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والفرار من الزحف(٢) ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ ويجتنبون الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وإذا أغضبهم أحد، هم يغفرون له ذنبه ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والذين

(١) قوله﴿صبَّار شكور﴾للمبالغة، لأن صيغة فعَّال وفعول من صيغ المبالغة، أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا.

(٢) وقد فصَّل الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى الكبائر في تفسير سورة النساء ج ٥ ص ٢٨

لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

* * *

أجابوا ربهم حين دعاهم الى توحيده ، والإقرار بوحدانيته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوا الصلاة المفروضة بحدودها ، في أوقاتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وإذا حَزَبهم أمرٌ تشاوروا بينهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ومن الأموال التي رزقناهم ينفقون في سبيل الله ، من زكاةٍ ، ونفقة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ والذين إذا بغى عليهم معتدٍ،ينتصرون ممن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وجزاء المسيء عقوبته بما أوجبه الله عليه ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فمن عفا عمن أساء إليه، فلم يعاقبه ابتغاء وجه الله ، فأجر عفوه على الله ، واللهُ يثيبه عليه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ إن الله لا يحب أهل الظلم، الذين يتعدون على الناس فيسيئون إليهم ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ولمن انتصر ممن ظَلَمه فلا سبيل عليه بعقوبة ،لأنه انتصر منه بحق ، ومن أخذ حقه ولم يتعدَّ لم يظلم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ إنما الطريق لكم أيها الناس، على الذين يتعدون على الناس ظلماً وعدواناً ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ويتجاوزون في أرض الله ، الحدَّ الذي أباح لهم ربهم ، فيفسدون فيها بغير الحق ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهؤلاء الناس ، لهم عذاب موجع في جهنم ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ ولمن صبر على الإساءة ، وغفر للمسيء فلم ينتصر منه ، ابتغاء وجه الله ، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فإن ذلك من عزم الأمور التي ندب الله إليها عباده ، وعزم عليهم العمل به[1] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ومن خذله الله عن الرشاد ، فليس له ولي يسدّده ويهديه ، من بعد إضلال الله إياه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وترى الكافرين لما عاينوا عذاب الله ، يقولون لربهم : هل لنا يا رب من رجوع إلى الدنيا ،

---

(١) فصَّل تعالى في هذه الآيات مكارم الأخلاق، من الحلم، والصبر، والعفو، وتحمل الأذى في سبيل الله ، وكلُّ هذه من الفضائل التي رغب فيها الإسلام .

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ
إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

* * *

لنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ ﴿وتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ وترى الظالمين يُعرضون على النار، خاضعين متذللين ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ينظرون إلى النار من طرف ذليل، حتى كادت أعينهم تغور(١) ﴿وَقَالَ الذِينَ آمَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ وقال المؤمنون: إن المغبونين الذين غُبنوا أنفسهم، وأهليهم يوم القيامة في الجنة ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ ألا إن الكافرين يوم القيامة ، في عذاب ثابت ، لا يزول ولا يخف ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن لهؤلاء الكافرين أولياء يمنعونهم من عذاب الله ، ولا ينتصرون لهم على ما نالهم من العذاب ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ومن يخذله الله عن طريق الحق، فما له من طريق إلى الوصول إليه ، لأن الهداية والإضلال بيده تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أجيبوا أيها الناس داعي الله واتبعوه ، على ما جاءكم به من عند ربكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يرد مجيئه شيء ، إذا جاء به الله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ ما لكم أيها الناس من معقل تلتجئون إليه ، فتعتصمون به من عذاب الله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ولا أنتم تقدرون على تغيير ما يحل بكم من عقابه(٢) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق والرشد، فلم يستجيبوا لك فدعهم ، فإنا لن نرسلك رقيباً عليهم ، تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البَلَاغُ﴾ ما عليك إلا أن تبلغهم الرسالة

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ إذا أغنينا ابن آدم سُرَّ بما أعطيناه من الغنى ، وكثرة المال ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وإن أصابتهم فاقة وفقر، وضيق عيش ، بما

(١) قال ابن عباس : ينظرون بطرف ذابل ذليل، وقال قتادة: يسارقون النظر خوفاً وفزعاً ، أقول: هذا كمن قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر بملء عينيه وإنما يسارق النظر من شدة الخوف .

(٢) هكذا فسره الطبري وقال غيره : المعنى ليس لكم منكر ينكر ما ينزل بكم من العذاب

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

* * *

سلفت أيديهم من معصية الله ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ فإن الإنسان جحود لنعم ربه ، يعدد المصائب ويجحد النعم ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾لله سلطان السموات السبع والأرضين ، يفعل في سلطانه ما يشاء، ويخلق ما يحب خلقه ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ يعطي الله من فضله ، لمن يشاء من خلقه ، الإناث دون الذكور، فلا تحمل زوجته إلا أنثى ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ويهب لمن يشاء منهم الذكور فقط دون الإناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ أو يجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ ويجعل من يشاء لا يُولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ إن الله عالم بما يخلق ، وقادرٌ على خلق ما يشاء، لا يعجزه شيء أراد خلقه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً﴾ وما ينبغي لبشرٍ من بني آدم أن يكلمه ربه ، إلا وحياً يوحي الله إليه كيف شاء،إلقاءً أو إلهاماً أو غيره ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه[١] ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل الله من ملائكته رسولاً، فيوحي إلى المرسل إليه بإذن الله ، ما يشاء ربه أن يوحيه إليه [٢] ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ إن الله ذو علو واقتدار ، وذو حكمة في تدبيره خلقه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ وكذلك أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن ، رحمة[٣] من أمرنا ووحياً ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ ما كنت تعرف يا محمد، أيَّ شيء هو القرآن ولا الإيمان ؟ ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ ولكن جعلنا هذا القرآن،ضياءً للناس يستضيئون بضيائه للنجاة من النار ﴿ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ نهدي بهذا القرآن من نشاء من عبادنا ، إلى سبيل الصواب وإلى الطريق المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإنك يا محمد لتهدي[٤] عبادنا

(١) كما كلّم موسى عليه السلام
(٢) كما أرسل جبريل بالوحي على رسول الله وهو الغالب .
(٣) سمى القرآن «روحاً» لأن فيه حياة النفوس كما يحيا الجسد بالروح .
(٤) المراد بالهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد، أما هداية التوحيد والإيمان فهي لله وحده كما قال تعالى لنبيه ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ فتنبه للفارق بين الهدايتين فإنه دقيق .

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

* * *

بالدعاء إلى الله، والبيان لهم إلى طريق مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ طريق الله تعالى الذي دعا إليه عباده ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الله الذي له ملك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض، لا شريك له في ذلك ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ألا إلى الله ترجع أموركم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل لأنه لا حاكم ولا سلطان غيره.

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الشورى »

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾

* * *

﴿حم[1] * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بهذا القرآن، الواضح لمن تدبره، وفكر في عبَره وعظاته، على أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنا أنزلناه قرآناً بلسان العرب، لتعقلوا معانيه، وما فيه من مواعظ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وإن هذا القرآن أصل الكتاب الذي نسخ منه، هو عندنا ذو علوٍ ورفعة وفضل وشرف، قد أحكمت آياته ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾ أفنترككم ـ أيها المشركون ـ فلا نذكّركم بعقابنا ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ من أجل أنكم قوم مشركون[2]؟! ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ وكثيراً من الأنبياء أرسلناهم في القرون الذي مضوا

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

(٢) هذا ما رجحه الطبري وهو قول مجاهد والسدي، وهناك قول آخر معناه: أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن، لأجل أنكم مسرفون في العصيان؟ وهو قول قتادة واختاره ابن كثير.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

* * *

قبل قرنك يا محمد ، كما أرسلناك في قومك من قريش ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ وما يأتيهم من نبي يدعوهم إلى الهدى ، إلا كانوا يسخرون به ويستهزئون ، كاستهزاء قومك بك يا محمد ، فلا يعظمنَّ عليك ذلك ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً** ﴾ فأهلكنا أشد من هؤلاء المستهزئين بطشاً فلم يعجزونا[1] ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا ﴿ **وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ** ﴾ ومضى لهؤلاء المشركين ، مثلنا الذي مثلناه لهم ، بإهلاك المكذبين الذين أهلكناهم ، فليتوقع هؤلاء عقوبة مثل أولئك.

﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك من خلق السموات السبع والأرضين ، فأحدثهن وأنشأهن ؟ ! ﴿ **لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ** ﴾ ليقولنَّ خلقهن الله العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم الذي لا يخفى عليه شيء ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً** ﴾ الذي مهَّد لكم الأرض ، فجعلها لكم وطاءً ، تمشون عليها بأرجلكم ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** ﴾ وسهَّل لكم فيها طرقاً ، لمعايشكم ، ومتاجركم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ لكي تهتدوا بتلك الطرق ، إلى حيث أردتم من البلدان ، والقرى ، والأمصار ﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ والذي نزَّل من السماء الأمطار ، بمقدار حاجتكم إليه ، فلم يجعله كالطوفان فيكون عذاباً ، ولا قليلاً لا ينبت به النبات والزرع ، ﴿ **فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** ﴾ فأحيينا به بلدة مجدبة ، لا نبات بها ولا زرع ، قد درست من القحوط ﴿ **كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾ كما أخرجنا النبات من الأرض المجدبة ، كذلك تخرجون أيها الناس من بعد فنائكم ﴿ **وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ والذي خلق كل شيء ، فجعل الذكور من الإناث ، والإناث من الذكور أزواجاً ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** ﴾ وجعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار ، ومن الأنعام ما تركبونه في البر ، إلى حيث أردتم من البلدان ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** ﴾ كي تستوا على ظهور ما تركبون ﴿ **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** ﴾ ثم تتذكروا نعمة الله التي أنعمها عليكم ، بتسخيره ذلك لكم ، إذا استويتم عليه فتعظموه وتمجدوه ﴿ **وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ**

(١) المراد أن الله أهلك قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة ، وأعتى منهم وأطغى ، فلا يغتر هؤلاء الجاهلون بقوتهم .

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

* * *

﴿لَنَا هَذَا﴾ وتقولوا : تنزيهاً للّهِ الذي سخر لنا ما نركبه من الفلك والأنعام ، عما يصفه به المشركون **﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾** وما كنا مطيقين لركوبه[١] **﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾** وإنا إلى ربنا لصائرون .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾ وجعل المشركون لله من خلقه نصيباً ، وذلك قولهم : الملائكة بنات الله **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾** إن الإنسان لجاحدٌ لنعم ربه ، ظاهر كفره لمن تأمله بفكر قلبه **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾** هل اتخذ ربكم أيها الجاهلون مما يخلق بنات؟ **﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾** وأخلصكم بالبنين فجعلهم لكم ؟ **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾** وإذا بُشر أحد المشركين ، بمامثَّل لله شبيهاً من البنات **﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾** ظلَّ وجهه مسوداً من سوء ما بُشر به **﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** وهو حزين[٢] **﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُ فِي الحِلْيَةِ﴾** أو جعلتم البنات اللواتي يزينَّ في الحلية جزءاً لله من خلقه؟[٣] **﴿وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** وهي عند الخصام لا تظهر حجتها لعجزها وضعفها[٤] ؟ **﴿وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾** وجعل المشركون ملائكته ، الذين هم خلقه وعباده ، بناتٍ لله فأنثوهم **﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾** أشهد المشركون خلق ملائكة الله إناثاً ، فوصفوهم بذلك لرؤ يتهم إياهم ؟ **﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾** ستكتب شهادة هؤ لاء القائلين **﴿وَيُسْأَلُونَ﴾** ويسألون عن شهادتهم في الآخرة **﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾** وقال المشركون : لو شاء الرحمن ما عبدنا أوثاننا ، فالله راضٍ عنا لعبادتنا إياها **﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾** ما لهم بحقيقة ما يقولون من علم ، وإنمايقولونه تخرصاً وكذباً **﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾** ما هم إلا متخرصون[٥] هذا القول الذي قالوه.

---

(١) قال ابن زيد : لولا الله ما قوينا عليها ولا أطقنا ركوبها .

(٢) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره : ﴿ وهو كظيم ﴾ أي ممتلىء غيظاً وغمّاً ، وهذا أظهر .

(٣) المقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، فإن من بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدّ كيف يصح للعاقل إثباته لله ؟

(٤) قال قتادة : قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها .

(٥) التخرص : الكذب الذي لايستند على دليل ، والخرَّاص : الكذاب ومنه قوله تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ أي الكذابون .

أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ
قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ

* * *

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أم آتينا هؤلاء المتخرصين، كتاباً بحقيقة ما يقولون، من قبل هذا القرآن ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ فهم بذلك الكتاب مستمسكون يعملون به، ويحتجون به عليك ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ ما آتيناهم كتاباً، ولكنهم قالوا وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا، على دين وملة(1) عبادة الأوثان، فنحن نعبدها مثلهم ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ ونحن متبعون لهم على منهاجهم

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهكذا لم نرسل قبلك يا محمد، إلى أهل قريةٍ رسلاً، تنذرهم عقابنا على كفرهم، فأنذروهم وحذَّروهم، إلا قال رؤساؤهم وكبراؤهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ إنا وجدنا آباءنا على ملةٍ ودين ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم، نعبد ما كانوا يعبدون ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ قل يا محمد للمشركين: أولو جئتكم بطريق أهدى وأدل لكم على سبيل الرشاد، مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فأجابوه قائلين إنا بما أرسلتم به جاحدون منكرون ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فانتقمنا من الأمم الكافرة بربها، بإحلال العقوبة بهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كان آخر أمرهم، ألم نهلكهم فنجعلهم عبرةً لغيرهم؟ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ واذكر يا محمد حين قال إبراهيم لأبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأوثان: إنني بريءٌ مما تعبدون من دون الله، فكذبوه فانتقمنا منهم ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إلَّا من الله الذي خلقني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ فإنه سيقوِّمني للدين الحق، ويوفقني لاتِّباع سبيل الرشد ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وجعل كلمة «لا إله إلا الله» كلمة باقية في ذريته، فلم يزل فيهم من يقول ذلك من

---

(١) الأمة: الدين والملة والطريقة، سميت أمة لأنها تؤم وتُقصد

(٢) جعل الشيخ الطبري الأمر موجهاً إلى الرسول ﷺ وهذا يصح على قراءة «قل» أما على القراءة المشهورة «قال» فالراجح كما قال المفسرون أن كل نبيٍ قال ذلك لقومه حين أنذرهم عذاب الله.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا

* * *

بعده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا إلى طاعة ربهم ، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بل متعتُ يا محمد هؤلاء المشركين من قومك ، وآباءهم من قبلهم بالحياة ، فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ حتى جاءهم القرآن ، وبعثت فيهم محمداً ﷺ يبيّن لهم بالحجج أنه رسول ، محقٌّ فيما يقول ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ ﴾ ولما جاءهم القرآن من عند الله ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ﴾ قالوا : هذا الذي جاءنا به محمد سحرٌ يسحرنا به، وليس بوحيٍ من الله ﴿ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وإنا به جاحدون ، ننكر أن يكون من عند الله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ وقال المشركون : إن كان هذا القرآن حقاً ، فهلاّ نزل على رجل عظيم ، من مكة أو الطائف[1] ؟ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أهؤلاء يقسمون رحمة ربك بين خلقه، فيجعلون كرامته وفضله لمن أرادوا ؟ أم الله يقسم ذلك ؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا ، كما قسمنا بينهم معيشتهم في حياتهم الدنيا،من الأرزاق والأقوات فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ؟ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ وجعلنا بعضهم في الدنيا أرفع من بعض درجة[2] ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخرِيّاً ﴾ ليكون كل منهم مسخراً للآخر ، يقوم بخدمته ويستعمله في أمور المعاش في الدنيا ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وإدخالهم الجنة خير مما يجمعون من الأموال في الدنيا ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ولولا أن يصير الناس جماعة واحدة

---

(١) تختلف أهواء الناس في العظمة وميزانها ، ونصب أعينهم الميزان المادي ، يجعلونه لها مقياساً فصاحب الشرف ، والمكانة والجاه والمال ، هو العظيم في نظرهم ، ولو كان حقيراً في نفسه ، والميزان الحق للعظمة هو الذي جعله الحق ـ سبحانه ـ فيختار لشرف الرسالة ، والدعوة إلى الله تعالى أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأطهرهم أصلاً وخلقاً ، فالأهلية للنبوة لا تأتي بالاكتساب ، وإنما هي عطاء رباني ، ومنحةٌ إلٰهيةٌ.

(٢) وهذا من حكمة الباري ـ جلَّ وعلا ـ إذ لا تقوم الحياة إلا على التفاوت بين الناس ، إذ لايمكن أن يكون الناس في هذه الدنيا في درجة واحدة ، يأكلون معاً ، ويشربون ، وينامون ، وفي نفس الوقت يؤدون أعمالاً مختلفة ، فالاختلاف في الأعمال هو نتيجة الاختلاف في المواهب والاستعدادات . ومن الظلم جعل المختلفين متساوين في كل شيء، ولهذا خابت وخسرت المجتمعات التي أرادت ـ بزعمها ـ إزالة الفروق الاجتماعية ، وعادت إلى الفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ !!

لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن
ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

* * *

ويصبحوا كفاراً ﴿ **لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ** ﴾ لجعلنا أعالي بيوت الكافرين من فضة[١] ﴿ **وَمَعَارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ** ﴾ وجعلنا لها مراقي ،ودرجاً عليها يصعدون إلى الغرف ﴿ **وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً** ﴾ وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة ﴿ **وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ** ﴾ وجعلنا لهم سرراً من فضة يتكئون عليها ﴿ **وَزُخْرُفاً** ﴾ وجعلنالهم مع ذلك كله ذهباً[٢]، يكون لهم غنى يستغنون به ﴿ **وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ وما كل هذه الأشياء ،إلّا متاعٌ يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا ﴿ **وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ وزينة الدار الآخرة وبهاؤها خاصة بالمتقين، الذين اتقوا الله ، فخافوا عقابه وجدُّوا في طاعته

﴿ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً** ﴾ ومن يعرض عن ذكر الله ، ولا ينظر في حججه إلا نظراً ضعيفاً ، كنظر من عشي بصره ، نجعل له شيطاناً ﴿ **فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ فيصير للشيطان ملازماً ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ وإن الشياطين ليصدون هؤلاء عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرّهون إليهم الإيمان ﴿ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ ويظن المشركون أنهم على الحق والصواب ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَنا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ** ﴾ حتى إذا جاء هذا الكافر قال لصاحبه : وددت أن بيني وبينك ، بعد ما بين المشرق والمغرب[٣] ﴿ **فَبِئْسَ القَرِينُ** ﴾ فبئس الصاحب أنت ﴿ **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ ولن يخفّف عنكم اليوم ، من عذاب الله اشتراككم فيه ، لأن لكل واحد منكم نصيبه من العذاب ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ أفأنت يا محمد تسمع من قد سلبه الله استماع حججه، فأصمّه عن السماع!! ﴿ **أَوْ تَهْدِي العُمْيَ** ﴾ أو تهدي إلى طريق الهدى من أعمى الله

(١) أخبر تعالى أنه لولا أن يختار الناس الدنيا على الآخرة ، ويرغبوا في الكفر ويصيروا جميعاً كفاراً ، لخصَّ هذه الدنيا بالكفار ، فجعل لهم القصور الشاهقة ، سقفها وأبوابها من فضة ، وذهب ، وجعل لهم المصاعد التي يرتقون عليها ، والسرر التي ينامون عليها من الذهب والفضة ولكنه تعالى يعلم أن في ذلك فتنة للناس بما فيهم المؤمنون ، ولذلك لم يفعل هذا رأفة بعباده .

(٢) الزخرف : الذهب وهو قول ابن عباس ، ومعنى الآية : لجعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسرراً من فضة وذهب ، وقال ابن زيد معنى الآية : لجعلنا لهم زينة من ستور ونمارق ونقوش .

(٣) قوله « المشرقين » أراد به المشرق والمغرب ، فهو من باب التغليب ، غلَّب ههنا المشرق على المغرب .

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ

* * *

قلبه عن إبصاره ، واستحوذ عليه الشيطان !! ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أو تهدي من كان في جور عن قصد السبيل ، سالك غير سبيل الحق!! ليس ذلك إليك، إنما ذلك إلى الله ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ فإن نخرجك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين ، فإنا منهم منتقمون ، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة رسلها . ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ أو نظفرك بهم ، بإعلائك عليهم كما وعدناهم ﴿ فَإِنَّا عليهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ فإنا مقتدرون أن نخزيهم بيدك ، وأيدي المؤمنين ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ فتمسَّكْ يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن ، الذي أوحاه إليك ربك ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ إنك على السبيل القويم وهو الإسلام ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وإن هذا القرآن ، لشرفٌ لك ولقومك من قريش ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ وسوف يسألك ربك ويسألهم عما عملتم بما أمركم به ربكم ، ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ واسأل يا محمد مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ هل أمرناهم بعبادة الآلهة من دون الله ؟ !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ ولقد أرسلنا موسى بحججنا ، إلى فرعون ، وأشراف قومه ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فقال لهم موسى : إنّي رسول رب العالمين إليكم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ فلما جاء موسى فرعون وقومه ، بحججنا وأدلتنا على صدق قوله فيما يدعوهم إليه ، إذا هم يضحكون من الآيات والعبر ، كما أن قومك مما جئتهم يسخرون[1]﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ومانريهم من حجة لنا ،إلا هي أعظم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وأنزلنا بهم العذاب ليرجعوا عن كفرهم ، من معاصيهم ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ وقال فرعون وقومه : يا أيها الساحر[2]

---

(١) هذه تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ عما كان يلقى من أذى المشركين .

(٢) قولهم ﴿يا أيها الساحر﴾ لم يكن على سبيل الذم والانتقاص ، وإنما هو تعظيم في زعمهم لأن السحر كان علم زمانهم فنادوه بذلك على سبيل التعظيم ، ولهذا قال ابن عباس معناه : يا أيها العالم .

بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

* * *

ادع ربك ، بعهده الذي عهد إليك أنا إن آمنا بك واتبعناك كشف عنا الرجز ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إنا لمتبعوك فمصدقوك فيما جئتنا به ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ فلما رفعنا عنهم العذاب، إذا هم يغدرون ويتمادون في غيهم ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ ونادى فرعون في القبط فقال : ألست ملكاً على مصر أملك ما عليها ؟! ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ وهذه الأنهار تجري من بين يديَّ في الجنان ؟ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أفلا ترون أيها القوم ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر وعي اللسان ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ولا يكاد يبين ﴾ هل أنا خير أم هذا الضعيف ، الذي لا شيء له من الملك والأموال ، مع العلة في لسانه ، حتى لا يكاد يُبين الكلام ؟

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ فهلاَّ أُلقي على موسى أسورة ذهبية يضعها في يده ، إن كان صادقاً أنه رسول رب العالمين ؟ ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أو هلاَّ جاء معه الملائكة متتابعين ، يشهدون بأنه رسولُ الله ؟ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ فاستخف فرعون بقوله عقول القبط ، فأطاعوه وكذَّبوا موسى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله ، بطبعه على قلوبهم ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما أغضبونا انتقمنا منهم بعاجل العذاب ، فأغرقناهم جميعاً في البحر ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ فجعلنا المغرقين يتقدمون كفار قريش إلى النار ، وهؤلاء لهم بالأثر ﴿وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ وجعلناهم عبرةً وعظةً ، يتعظ بهم من بعدهم من الأمم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ ولما شبَّه الله عيسى ـ في إحداثه وإنشائه من غير فحل[1]ـ بآدم الذي خلقه من غير أم ولا أب ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ إذا قومك يضجون من ذلك ويجزعون، ويقولون : ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهاً نعبده، كما عبدت النصارى المسيح[2]!! ﴿ وقالوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ وقال المشركون : آآلهتنا

(١) أشار إلى قوله تعالى ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .
(٢) هذا مافسره به الطبري وهو قول مجاهد وقتادة ، وقال غيره من المفسرين : المراد بالآية قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله =

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

* * *

التي نعبدها خير أم محمد ؟ فنعبد محمداً ونترك آلهتنا ؟ ﴿ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا** ﴾ ما مثَّلوا لك هذا المثل يا محمد ، إلا خصومةً يخاصمونك به ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ لا يريدون الحق ، بل هم قوم يلتمسون الخصومة بالباطل ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ** ﴾ ليس عيسى إلاّ عبد من عبادنا ، أنعمنا عليه بالتوفيق والإيمان ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل ، وليس هو كما تقول النصارى « ابن الله » ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ** ﴾ ولو نشاء أهلكناكم جميعاً ، وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلفونكم في الأرض بعبادتي ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ** ﴾ وإن ظهور عيسى عليه السلام ، علامة يُعلم بها مجيء الساعة ، لأن ظهوره من أشراطها ، ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا وإقبال الآخرة[1] ﴿ **فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ فلا تشكنَّ في مجيء الآخرة ﴿ **وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ وأطيعون فاعملوا بما أمرتكم به ، فاتباعكم لي طريق قويم لا اعوجاج فيه ﴿ **وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ** ﴾ ولا يعدلنَّكم[2] الشيطان عن طاعتي فتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا ﴿ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة ، يدعوكم إلى ما فيه هلاككم

﴿ **وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ ولما جاء عيسى بني إسرائيل ، بالواضحات من الأدلة ﴿ **قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ قال لهم : قد جئتكم بالنبوة من الله ﴿ **وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** ﴾ ولأبين لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه ، وأطيعون فيما أمركم به من قبول نصيحتي ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** ﴾ إن الله ربي وربكم جميعاً ، فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه في عبادته شيئاً ، فإنه لا يصلح ولا ينبغي أن يعبد سواه ﴿ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ الذي أمرتكم به هو الطريق المستقيم ، وهو دين الله ، الذي لا يقبل من أحد

= حصب جهنم ﴾ فلما نزلت قال المشركون قد رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة في النار ، وهو قول ابن عباس .

(١) قال الإمام ابن كثير : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة ، إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً . اهـ المختصر ٣/٢٩٤/

(٢) معناه ولا يصرفنكم ويصدنكم عن اتباع الحق .

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

* * *

غيره ﴿**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**﴾ فاختلفت الفرق من اليهود والنصارى ، المختلفون في شأن عيسى ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ فالوادي السائل من القيح والصديد[١] في جهنم ، للذين كفروا فقالوا في عيسى بخلاف ما وصف به نفسه ﴿**مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ من عذابٍ مؤلمٍ لهم يوم القيامة ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً**﴾ هل ينظر هؤلاء الأحزاب ، إلا الساعة أن تقوم فجأة ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ وهم لا يعلمون بمجيئها ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ الأصدقاء[٢] المتحابون على معاصي الله في الدنيا ، يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ﴿**إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ إلا الذين كانوا تحابوا فيها على تقوى الله ﴿**يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ يقال للمتقين : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي ، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا ، فإن الذي قَدِمْتُم عليه خيرٌ لكم مما فارقتموه ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ هم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله ، وكانوا أهل خضوع لله بقلوبهم ، على دين إبراهيم ، لا يهود ، ولا نصارى ، ولا أهل أوثان ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**﴾ آدخلوا الجنة أيها المؤمنون أنتم وأزواجكم ، مسرورين اليوم بكرامة الله ، وبما أعطاكم ربكم ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ**﴾ يطاف على المؤمنين في الجنة بالطعام في صحاف ـ قصاع ـ من ذهب ﴿**وَأَكْوَابٍ**﴾ ويطاف بالشراب عليهم في أكواب من ذهب ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ**﴾ ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم أيها المؤمنون ﴿**وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**﴾ ولكم فيها ما تلذ أعينكم ﴿**وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وأنتم ماكثون في الجنة ، لا تخرجون منها أبداً .

﴿**وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يقال لهم : وهذه الجنة التي أورثكم الله إياها ،

---

(١) قد سبق أن ذكرت أن معنى « الويل » الهلاك والدمار ، وأن الإمام ابن جرير يفسره بوادٍ في جهنم يسيل على أهل النار بالقيح والصديد ، وهو بعض ما يكون لأهل النار من العذاب والدمار .

(٢) قال ابن عباس : كل خُلَّة في الدنيا هي عداوة إلا خلَّة المتقين .

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

* * *

بما كنتم تعملون في الدنيا من الخيرات ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ لكم في الجنة فاكهة كثيرة من كل نوع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من الفاكهة تأكلون ما اشتهيتم ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[1] إن الذين اجترموا الكفر، ماكثون في عذاب جهنم أبداً ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يُخفف عنهم العذاب ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وهم في عذاب جهنم، آيسون من النجاة، مستسلمون للعذاب ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بتعذيبهم في نار جهنم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، بكفرهم بالله وجحودهم توحيده ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ونادى المجرمون وهم في جهنم مالكاً خازن جهنم: ليمتْنا ربك يا مالك لنستريح من العذاب ﴿قال إِنَّكُمْ ماكثون﴾ فأجابهم إنكم ماكثون في جهنم[2] ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ لقد أرسلنا إليكم يا معشر قريش[3]، رسولنا محمداً بالحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ولكن أكثركم لما جاءكم به محمد ﷺ من الحق كارهون ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً يكيدون به الحق، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم من النكال ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أم يظن هؤلاء المشركون أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم، وتشاوروا بينهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا؟ ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم، وأخفوه عن الناس من سر كلامهم، وحفظتنا عندهم يكتبون ما نطقوا به ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ قل يا محمد للمشركين الزاعمين أن الملائكة بنات الله: إن كان للرحمن ولد، فأنا أول من يعبده منكم، ولكنه لا ولد له، فأنا أعبده بأنه لا ولد له ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لمالك السموات والأرض، ومالك العرش

---

(١) لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحوال المتقين الأبرار، ذكر هنا أحوال الكفرة الفجار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

(٢) روي عن ابن عباس أن بين استغاثتهم وبين إجابتهم ألف سنة، يتركهم ألف سنة ثم يجيبهم بقوله «إنكم ماكثون» أي مقيمون أبداً في جهنم.

(٣) جعل الإمام ابن جرير الخطاب لكفار قريش، والظاهر أن الخطاب للكفار وهم في غمرات العذاب، وهو كالتعليل لاستحقاقهم ذلك العذاب الأليم.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

* * *

المحيط بذلك كله ، مما يصفه به هؤلاء المشركون من الكذب ، ويضيفون إليه من الولد مما لا ينبغي أن يضاف إليه .

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ اترك هؤلاء المفترين على الله ، يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في دنياهم ، حتى يلاقوا يوم القيامة ، يوم يصليهم الله نار جهنم ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ والله معبودٌ في السماء ، ومعبودٌ في الأرض ، لا شيء سواه تصلح عبادته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وهو الحكيمُ في تدبير خلقه ، العليمُ بمصالحهم ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وتمجد الله الذي له سلطان السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الأشياء كلها ، فكيف يكون له شريكاً من كان في سلطانه ؟ ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وعنده علم القيامة التي يحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردون بعد مماتكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ ولا يملك الذين يعبدهم المشركون من الملائكة وعيسى وعزير الشفاعة عند الله لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ إلا من أقرَّ بالتوحيد لله ، وأخلص له الوحدانية ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على علم منهم ويقين بذلك ، أنهم يملكون الشفاعة بإذن الله لهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ولئن سألت المشركين من خلقهم ، ليقولن خلقنا الله ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فأي وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم إلى عبادة غيره ؟ ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال محمد شاكياً إلى ربه قومه الذين كذبوه : يا ربِّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك ، قومٌ لايؤمنون ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ فأعرض عن أذاهم يا محمد ، وقل لهم : سلام عليكم [1] ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فسيعلمون في الآخرة ، ما يلقون من البلاء والعذاب على كفرهم

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف »

---

(١) قال ابن جرير : ثم نسخ الله جل ثناؤه هذه الآية ، وأمر نبيه ﷺ بقتالهم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

* * *

﴿ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أقسم جل ثناؤه بهذا الكتاب ، أنه أنزله في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ بهذا الكتاب خلقنا ، أن تحل بهم عقوبتنا إن لم يؤمنوا ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ في هذه الليلة المباركة ، يُقضى ويُفَصَّل كل أمرٍ محكم ، أحكمه الله تعالى في تلك السنة[1] ﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ جميع ذلك بأمرٍ من الله تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ رسولنا محمداً ﷺ إلى عبادنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لما يقوله المشركون ، العليمُ بما تنطوي عليه ضمائرهم ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مالك السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الأشياء كلها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم به ، أن القرآن تنزيله ، ومحمداً ﷺ رسوله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود لكم أيها الناس غير الله ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يحيي ما يشاء ، ويميت ما يشاء ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأولين ، فاعبدوه ، دون آلهتكم التي لا تضر ولا تنفع

(١) قال الحسن : في ليلة القدر يقضي الله كل أجلٍ ، وخَلْقٍ ، ورزقٍ إلى مثلها من العام المقبل .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا
عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا
مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

* * *

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ما هم بمؤمنين بحقيقة ما تخبرهم ، ولكنهم في شك منه ، يلهون بشكهم ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فانتظر يا محمد بهؤلاء المشركين ، يوم تأتيهم السماء من البلاء ، بمثل الدخان[١] المبين لمن تأمله أنه دخان ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يغطّي أبصارهم من الجهد الذي يصيبهم ، ويقولون من الكرب والجهد : هذا عذاب موجع ﴿ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ يا ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا بك ، وعبدناك من دون كل معبودٍ سواك ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ من أي وجه لهؤلاء المشركين التذكر ، من بعد نزول البلاء ؟ ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ وقد أتاهم رسولٌ بيِّن الرسالة وهو محمد ﷺ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ وقد تولوا عن رسولنا مدبرين ، لا يتذكرون بما يُتلى عليهم من كتابنا ، ولا يتعظون بما يعظهم به من حججنا ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ ويقولون : إنما هو مجنون عُلِّم هذا الكلام ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلًا ﴾ إنَّا سنكشف الضر النازل بكم ، بالخِصْب الذي نحدثه ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إنكم أيها المشركون عائدون في ضلالتكم وغيكم ، وما كنتم عليه قبل أن يكشف عنكم ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ إنكم إن نقضتم عهدكم ، انتقمت منكم يوم أبطش بكم بطشتي الكبرى ، فأهلككم في بدر[٢] ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ ولقد اختبرنا وابتلينا قبل مشركي قومك ، قوم فرعون من القبط ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وجاءهم رسول من عندنا كريمٌ علينا ، وهو « موسى بن عمران » ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ بأن ادفعوا إلي بني إسرائيل فأرسلوهم[٣] معي ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) روي عن ابن مسعود أن قريشاً لما عصت رسول الله ﷺ دعا عليهم ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخاناً من الجوع ، وقد مضت آية الدخان ، وهذا هو الأظهر الذي اختاره الطبري وكثير من المفسرين ، وروي عن ابن عباس أن الدخان من الآيات المنتظرة وهو من أمارات الساعة ورجحه ابن كثير والأول أظهر .

(٢) هكذا رجح الإمام الطبري أن البطشة الكبرى هي قتلهم بالسيف يوم بدر ، ورجح غيره أن المراد بها يوم القيامة ، لأنه لما وصفها بأنها « كبرى » وجب أن تكون أعظم أنواع البطش ، وذلك إنما يتحقق يوم القيامة وهو الأظهر .

(٣) هذه الآية كقوله تعالى ﴿ فأرسلْ معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ الآية .

أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

* * *

﴿أَمِينٌ﴾ إني رسول من الله أرسلني إليكم ، أمينٌ على وحيه ورسالته ﴿وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وبأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم ، فتكفروا به وتعصوا أمره ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إني آتيكم بحجة واضحة ، على صحة ما أقول لكم ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ وإني اعتصمتُ واستجرتُ بربي وربكم ، أن ترجموني بالحجارة أو بالقذف والشتم[1] ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ وإن لم تصدّقوني على ما جئتكم به ، فخلُّوا سبيلي ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ فدعا موسى ربه حين كذبه قومه وهمُّوا بقتله : إن فرعون وقومه قوم كافرون ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ فأجابه ربه : سِرْ بعبادي الذين صدّقوك واتبعوك - وهم بنو إسرائيل - بليلٍ قبل الصباح ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ إن فرعون وقومه متبعوكم في آثاركم ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكناً ، على حاله وهيئته التي كان عليها حين دخلته ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ إن فرعون وقومه جندٌ سيغرقهم الله في البحر ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كم ترك فرعون وقومه بعد غرقهم ، من بساتين ، وأشجار ، ومنابع مياه ؟ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وزروع قائمة في مزارعهم ، وموضع شريف كانوا يقومونه[2] ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ وأخرجوا من نعمة كانوا فيها ناعمين[3] متفكهين .

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ هكذا فعلنا بهؤلاء المكذبين ، وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم بعد هلاكهم بني إسرائيل ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ فما بكت على هؤلاء المغرقين السماء ، لأنه لم يكن لهم عمل صالح يصعد إلى الله ، ولا مسجدٌ في الأرض فتبكي عليهم

---

(١) قال القرطبي : كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله من شرهم . إهـ القرطبي ١٦/١٣٥

(٢) هو مقام الملوك والأمراء قال قتادة : هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن . . أقول : يعني القصور الشامخة التي كانوا فيها .

(٣) قال قتادة : إي والله ، أخرجه الله من جناته وعيونه وزروعه حتى غرَّقه في البحر . الطبري ٢٥/١٢٣

وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

* * *

الأرض[١] ﴿ **وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** ﴾ وما كانوا مؤخرين بالعقوبة ولكنهم عوجلوا بها ﴿ **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ** ﴾ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المذلّ لهم ، الذي كان فرعون وقومه يعذبونهم به ، وهو قتل الأبناء واستحياء النساء ﴿ **مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ** ﴾ نجَّيناهم من فرعون ، إنه كان جباراً مستعلياً مستكبراً على ربه ، من المتجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ** ﴾ ولقد اخترنا بني إسرائيل على علمٍ منّا بهم ، على عالمي أهل زمانهم ﴿ **وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ** ﴾ وأعطيناهم من العبر والعظات ، ما فيه اختبار ظاهر لمن تأمله أنه اختبار لهم بالرخاء والشدة ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى** ﴾ إن هؤلاء المشركين من قريش ليقولون : ما هي إلا الموتة الأولى التي نموتها[٢] ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ** ﴾ وما نحن بمبعوثين بعد موتتنا ، تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب ﴿ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا قبلنا ، إن كنتم صادقين أن الله محيينا بعد مماتنا ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أهؤلاء المشركون يا محمد خير ، أم قوم تبَّع الحميري ، والذين من قبلهم من الأمم الكافرة ؟ ﴿ **أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ أهلكناهم لإجرامهم ، وكفرهم بربهم، فليس هؤلاء بخير من أولئك فنصفح عنهم ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ** ﴾ وما خلقنا السموات السبع والأرضين ، وما بينهما من الخلق ، لعباً وعبثاً بدون امتحانٍ بالأمر والنهي ﴿ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ** ﴾ ما خلقناهما إلاّ بالحق الذي لا يصلح التدبير إلاّ به ، لنبتلي من أردنا امتحانه من خلقنا بما شئنا ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا**

---

(١) سئل ابن عباس : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء ينزل منه رزقه ويصعد فيه عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله ، بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض بكت عليه ، وقوم فرعون لم يكن لهم آثار صالحة فلم تبك عليهم السماء والأرض .

(٢) يقصدون أنهم لن يموتوا إلا موتة واحدة ، وهي الموتة الأولى في الدنيا ، ولا بعث ولا نشور ولا حياة بعد تلك الموتة .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّـٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾

* * *

يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون عقوبة، ولا يرجون ثواباً، لتكذيبهم بالمعاد.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إن يوم فصل الله القضاء بين خلقه، هو موعد اجتماعهم أجمعين **﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً ﴾** يوم لا يدفع قريب عن قريب، ولا صاحبٌ عن صاحبه شيئاً من عقوبة الله **﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾** ولا ينصر بعضهم بعضاً، كما كانوا يفعلون في الدنيا **﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾** إلا من رحم الله منهم، فإنه يشفع له عند ربه **﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾** العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه وأهل طاعته **﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾** إن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، طعام الكافر الفاجر **﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ. كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾** كالرصاص المذاب في النار، الذي تناهت حرارته، يغلي ذلك في بطون هؤلاء الأشقياء، كغلي الماء المسخن المحموم من شدة حره **﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ ﴾** خذوا هذا الأثم، فادفعوه دفعاً وسوقوه إلى وسط النار **﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ ﴾** ثم صبوا على رأس هذا الأثيم الماء المسخن، الذي «يُصهر به ما في بطونهم والجلود» **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾** ويقال لهذا الشقي[1]: ذق هذا العذاب الذي تعذب به اليوم، إنك أنت العزيز في قومك، الكريمُ عليهم **﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾** إن هذا العذاب الذي تعذبون به هو العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا، فقد لقيتموه فذوقوه.

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ إن الذين اتقوا الله، بأداء طاعته واجتناب معاصيه، في موضع إقامة آمنين فيه من الأوصاب والأحزان **﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾** في البساتين وعيون الماء في

(١) نزلت في «أبي جهل» الذي كان يقول: إن محمداً يتوعدني، ووالله إني لأعزُّ من مشى بين جبليها، وإنما يقال له في الآخرة ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ على سبيل السخرية والاستهزاء، فالأسلوب إذاً أسلوب سخرية وتهكم

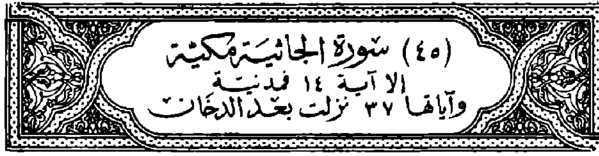
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

* * *

أصول الأشجار ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ يلبسون في هذه الجنات ، لباساً مما رقّ من الديباج ، وما غلظ منه ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ يقابل بعضهم بعضاً ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ وكذلك أكرمناهم بأن زوجناهم أيضاً الحور النقيات البياض ، الواسعات العيون ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ يدعو المتقون في الجنة بكل نوع اشتهوه من فواكه الجنة ، آمنين فيها من انقطاع ذلك عنهم ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ لا يذوقون في الجنة الموت ، بعد الموت الذي ذاقوه في الدنيا ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ونجاهم الله من عذاب النار ﴿ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ تفضلاً عليهم من ربك يا محمد ، وإحساناً منه إليهم بذلك ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ هذا الذي أعطينا المتقين من الكرامة ، هو الظفر العظيم باتقائهم ربهم فيما امتحنهم من الطاعات ، والفرائض ، واجتناب المحارم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن بلسانك يا محمد ، ليتذكر المشركون بعبره وحججه ، فيتعظوا بعظاته ، وينيبوا إلى طاعة ربهم ، ويذعنوا للحق ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ فانتظر يا محمد النصر على هؤلاء المشركين ، إنهم منتظرون قهرك وغلبتك ، بصدهم عن الحق من أراده .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الدخان »

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

* * *

﴿ حمٓ ﴾ (١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ هذا تنزيل القرآن من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره أمر خلقه ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إنَّ في السموات السبع التي منها نزول الغيث ، والأرض التي منها خروج الخلق ﴿ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأدلة وحججاً ، للمصدقين بحجج الله ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وفي خلق الله إياكم أيها الناس ، وخلقه ما تفرَّق من دابة ، تدبُّ عليها من غير جنسكم ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ حججٌ وأدلةٌ ، لقومٍ يوقنون بحقائق الأشياء ، ويعلمون صحتها ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وفي اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبهما عليكم ، هذا بظلمته ، وهذا بنوره ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ وما أنزل الله من السماء من المطر ، فأنبت به ميِّت الأرض ، حتى اهتزت بالنبات والزرع ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد جدوبها وقحوطها ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ وفي تصريفه الرياح لكم ، شمالاً مرة ، وجنوباً أخرى (٢) ، لمنافعكم ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ في ذلك أدلةٌ وحجج ، لقوم يعقلون عن الله حججه ، ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ ﴾ هذه الآيات والحجج من ربك ، نخبرك عنها يا

---

(١) تقدم الكلام على تفسير الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) وقيل : بتصريف الرياح أن يرسلها بالرحمة مرةً ، وبالعذاب أخرى .

بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْلِيَآءَۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

* * *

محمد بالحق لا بالباطل ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴾ فبأي حديث بعد حديث الله هذا ، وبعد حججه عليكم ، وأدلته على وحدانيته ، يصدِّق هؤلاء المشركون ؟ ﴿ **وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾ الوادي السائل من صديد أهل جهنم [١] لكل كذابٍ مفترٍ على الله ﴿ **يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً** ﴾ يسمع آيات كتاب الله تقرأ عليه، ثم يقيم على كفره وإثمه غير تائب منه ، مستكبراً عن الإذعان لأمر الله ونهيه ﴿ **كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا** ﴾ كأنه لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله ﴿ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ فبشر هذا الكذَّاب بعذاب موجع يوم القيامة ، في نار جهنم ﴿ **وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً** ﴾ وإذا علم هذا الأثيم شيئاً من آيات الله ، سخر منها [٢] ﴿ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ هؤلاء الذين يسخرون من آيات الله ، لهم يوم القيامة عذابٌ يهينهم ويذلّهم ، في نار جهنم ﴿ **مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ** ﴾ من بين أيدي هؤلاء المستهزئين ، نار جهنم هم واردوها ﴿ **وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً** ﴾ ولا يغني عنهم من عذاب جهنم ، ما كسبوه في الدنيا من مالٍ وولد شيئاً ﴿ **وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ ولا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ورؤ ساهم في الكفر الذين اتخذوهم نصراء ، شيئاً من عذاب جهنم ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ولهم يومئذ عذاب عظيم .

﴿ **هَذَا هُدىً** ﴾ هذا القرآنُ بيانٌ ودليلٌ على الحق ، يهدي من اتبعه إلى صراط مستقيم ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ والذين جحدوا ما في القرآن من الآيات ، ولم يصدِّقوا بها ، لهم عذابٌ [٣] موجع يوم القيامة ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ** ﴾ الله وحده هو الذي أنعم عليكم هذه النعم ، فسخر لكم البحر ، لتجري فيه السفن بأمره ، لمعايشكم ﴿ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ**

(١) معنى الويل في اللغة : الهلاك والدمار ، وقد جرى الإمام ابن جرير على تفسيره بالوادي السائل من صديد أهل النار في كل موطن من القرآن جرى ذكره ، وهو كما ذكرنا سابقاً تفسير ببعض الآثار .

(٢) كأبي جَهلٍ اللعين الذي كان يسخر من شجرة الزقوم التي أخبر عنها القرآن ويقول : هو الزبد مع التمر فتزقموا .

(٣) ذكر تعالى في هذه الآيات العذاب الأليم ، والعذاب المهين ، والعذاب العظيم ، الذي أعده لهؤلاء الطغاة المجرمين ، المكذبين بآيات الله ، لينبه إلى أنواع العذاب الذي يقاسونه يوم القيامة

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ

* * *

﴿ فَضْلِهِ ﴾ ولطلب فضله في البلاد **﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** ولتشكروا ربكم ، على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه **﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾** وسخر لكم ما في السموات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجوم **﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾** وسخر لكم ما في الأرض من دابةٍ ، وشجر ، وجبل ، وجماد ، وسفن ، كل ذلك لمنافعكم ومصالحكم **﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾** إن في تسخير الله لكم ذلك ، لعلامات على أنه لا إلّه لكم غيره ، لقومٍ يتفكرون في آيات الله وحججه ، فيعتبرون ويتعظون **﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾** قل يا محمد للذين صدَّقوا الله واتبعوك ، يغفروا للذين لايخافون بأس الله ونقمه ، إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه **﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾** ليجزي الله هؤلاء المشركين فيصيبهم عذابه ، بأذاهم أهلِ الإيمان بالله **﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾** من عمل بطاعة الله ، فقد عمل لنفسه ذلك الصالح **﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾** ومن أساء بمعصيته ربه ، فعلى نفسه جنى،لأنه أكسبها سخطه ، ولم يضر أحداً سوى نفسه **﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾** ثم إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ ﴾** ولقد أعطينا بني إسرائيل التوراة والإنجيل **﴿ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾** والفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً إلى الخلق **﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾** وأطعمناهم من طيبات أرزاقنا من المنِّ والسلوى ، وفضلناهم على عالمي أهل زمانهم .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ ﴾ وأعطينا بني إسرائيل واضحات من أمرنا ، بتنزيلنا إليهم التوراة فيها تفصيل كل شيء **﴿فَمَااخْتَلَفُواإِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾** فمااختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين ، طلباً للرياسات ، وتركاً منهم لبيان الله تبارك وتعالى في تنزيله **﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾** إن ربك يا محمد يفصل بين المختلفين من بني إسرائيل ، فيما كانوا يختلفون فيه بعد العلم والبيان الذي جاءهم **﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ**

ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا

* * *

فَاتَّبِعْهَا ﴾ ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ ومنهاجٍ من أمرنا ، فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون ، الذين لايعرفون الحق فتهلك إن عملت به ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ إن الجاهلين الذين يدعونك ، إلى اتباع أهوائهم ، لن يدفعوا عنك ـ إن أنت خالفت شريعة ربك ـ شيئاً من عقاب الله فينقذوك منه ﴿ وَإِنَّ الظَالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وإن الظالمين بعضهم أنصار وأعوان بعض ، على أهل الإيمان ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ والله وليُّ من اتقاه ، ينصره ويدفع عنه من أراده بسوء ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ هذا القرآن بصائر للناس ، يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به سبيل الرشاد ﴿ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وهو رشاد ورحمة لمن صدَّق وأيقن بحقيقة صحة هذا القرآن ، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أم ظن الذين اكتسبوا السيئات في الدنيا ، فكذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر ربهم ، وعبدوا غيره ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وأطاعوا الله ، وأخلصوا له العبادة ؟! كلا ما كان الله ليفعل ذلك ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أحسبوا أن نجعلهم والذين آمنوا سواءً(١) في المحيا والممات ؟ ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس الحكم الذي حسبوا أنا فاعلوه ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ خلقهما للعدل والحق ، لا للظلم والجور﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وليثيب كل عامل بما عمل ، المحسنَ بالإحسان ، والمسيءبما هو أهله ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ جزاء أعمالهم ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أفرأيت يا محمد من اتَّخذ معبوده هواه ، فيعبد الشيءالذي يهواه ، دونإلَهه الحق؟﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِـلْمٍ ﴾وخذله الله عن سبيل الرشاد في سابق علمه(٢) ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ وطبع على

(١) سواء أي متساوين في المحيا والممات ، فلا يمكن للعدالة الإلَهية أن تساوي بين الأبرار والفجار كقوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستون ﴾

(٢) هكذا فسره الإمام ابن جرير وقال غيره المعنى : وأضله الله حال كون ذلك الشقي عالماً بالحق غير جاهلٍ به ، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

* * *

سمعه فلا يعتبر بآيات القرآن ، ويعقل ما فيها من النور والبيان ، وطبع أيضاً على قلبه ، فلا يعقل به شيئاً ، ولا يعي به حقاً ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ وجعل على بصره غطاءً أن يبصر به حجج الله ، فيستدل بها على وحدانيته ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ فمن يوفقه لإصابة الحق ، وإبصار الرشد ، بعد إضلال الله إياه[1]؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تذكرون فتعلموا أن من فعل الله به ذلك فلن يهتدي أبداً ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ وقال المشركون : لا حياة إلا حياتنا الدنيا ، لا حياة سواها ، تكذيباً بالبعث بعد الممات ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ نموت نحن ويحيا أبناؤ نا بعدنا ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ وما يغنينا إلا مَرُّ الليالي والأيام ، وطول العمر [2] ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وليس لهم يقين علم ، وإنما يقولونه تخرصاً بغير خبر ولا برهان ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا في ظنٍ وشك ، وفي حيرة من اعتقادهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحاتٍ جليَّات ، على البعث بعد الممات ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ لم يكن لهم حجة على رسولنا إلا قولهم له : ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء ، وأنشرهم لنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنت صادقاً فيما تتلو علينا ، وتخبرنا به ، حتى نصدِّق بقولك .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : الله يحييكم ما شاء في الدنيا ، ثم يميتكم فيها إذا شاء ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثم يجمعكم جميعاً صغيركم وكبيركم أحياء ليوم القيامة ، الذي لاشك فيه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس ـ الذين هم أهل تكذيب بالبعث ـ لايعلمون حقيقة ذلك ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولله سلطان السموات السبع والأرض ، دون ما تدعونه شريكاً له ، وتعبدونه من دونه من الآلهة والأنداد ، فكيف تعبدونه ، وتتركون عبادة مالككم ؟ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ويوم تجي القيامة التي

---

(١) وصف الله الكفار بأربعة أوصاف : الأول عبادة الهوى ، والثاني الضلال على علم ، والثالث الطبع على الأسماع والقلوب ، الرابع جعل الغطاء على الأبصار ، فمن أين يهتدي هؤلاء الفجار ؟

(٢) إنه رأي الملاحدة في كل عصرٍ وأوان ، ينكرون فعل الله ـ عزوجل ـ وينسبون الخلق ، والإماتة إلى الدهر ، وإلى الطبيعة ، وما إلى هنالك ، وإنما يريدون بذلك الهرب من التكاليف الشرعية ، والأوامر الربانية ، وهم في حقيقة ذواتهم في حيرة وشكٍ واضطراب ، من هذه الفلسفة الفسفطائية .

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ

* * *

ينشر الله فيها الموتى من قبورهم ، يخسر المبطلون الذين أبطلوا في أقوالهم في الدنيا فدعوا لله شريكاً ، وعبدوا آلهة دونه ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ وترى أهل كل ملةٍ ودينٍ ، مجتمعةً مستوفزة على ركبها ، من هول ذلك اليوم [١] ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ كل أهل ملة تدعى إلى كتابها [٢] ، الذي أملت على حفظتها ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يقال لهم : اليوم تُثابون وتعطون ، أجور ما كنتم في الدنيا تعملون ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ ﴾ هذا الكتاب الذي سجلته الحفظة ، ينطق عليكم بالحق إن أنكرتموه ، فاقرؤ وه ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنا كنا نستكتب حفظتنا أعمالكم ، فتثبتها في الكتب عليكم .

﴿ فَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فأما الذين وحَّدوا الله ، ولم يشركوا به شيئاً ، وعملوا بما أمرهم الله به ، وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ فيدخلهم ربهم في جنته برحمته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ المُبِينُ ﴾ دخولهم الجنة هو الظفر بما كانوا يطلبونه ، وإدراك ما كانوا يسعون له في الدنيا ﴿ وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وأما الذين جحدوا وحدانية الله ، وأبوا إفراده بالألوهية ، فيقال لهم : ألم تكن آياتي في الدنيا تتلى عليكم ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فاستكبرتم عن استماعها والإيمان بها ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ وكنتم قوماً تكسبون الآثام ، ولا تصدقون بمعاد ، ولا بثوابٍ وعقاب ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وإذا قيل لكم : إن وعد الله الذي وعد عباده ، أنه محييهم من بعد مماتهم حقٌ ﴿ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ والساعة التي يقيمها لحشركم وجمعكم للحساب ، آتيةٌ لا شك في قيامها ، فاتقوا الله واعملوا لما ينجيكم من عقابه ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ كذبتم وقلتم : ما نعلم ما هي الساعة ؟ تكذيباً منكم ، وإنكاراً لقدرته تعالى على إحيائكم ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ ما نظن أن الساعة آتية إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين أنها كائنة ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا

---

(١) قال ابن كثير : وهذا إذاجيء بجهنم ، فإنها تزفر زفرة ـ أي تصيح صيحة ـ لايبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه .
(٢) المراد به صحائف الأعمال التي سجلتها الملائكة على بني آدم .

مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

* * *

عَمِلُوا ﴾ وظهر لهم هنالك قبائح أعمالهم ، لمَّا قرأوا كتب أعمالهم التي نسختها الحفظة ﴿ **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ وأحاط بهم من عذاب الله ،ما كانوا به يستهزئون في الدنيا .

﴿ **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ وقيل لهؤلاء الكفرة : اليوم نترككم في عذاب جهنم ، كما تركتم العمل للقاء ربكم يومكم هذا ﴿ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ** ﴾ ومأواكم التي تأوون إليها نار جهنم ﴿ **وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ ومالكم من مستنقذٍ ، ينقذكم اليوم من عذاب الله ﴿ **ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً** ﴾ هذا الذي حل بكم من العذاب ، بسبب أنكم في الدنيا اتخذتم آيات الله سُخريةً تسخرون منها ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ فآثرتموها على العمل لما ينجيكم اليوم ﴿ **فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا** ﴾ فاليوم لايخرجون من النار ﴿ **وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ﴿ **فَلِلَّهِ الحَمْدُ** ﴾ فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه ﴿ **رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ، ومالك جميع ما فيهن من أصناف الخلق ﴿ **وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ وله العظمة والسلطان في السموات والأرض ، دون ما سواه من الآلهة والأنداد ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ وهو العزيز في نقمته من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه كيف شاء .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية »

***

(٤٦) سُورَةُ الأحقافِ مكيّة وآياتها خمسٌ وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

* * *

﴿ حمٓ ﴾(١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ هذا تنزيل القرآن من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ ما أحدثنا وأوجدنا السموات والأرض ، وما بينهما من أصناف العالم ، إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وإلا بأجل معلوم عند الله(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله معرضون عن إنذار الله لهم ، لا يتعظون فيعتبرون ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل يا محمد للمشركين : أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدونها من دون الله ؟ ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أروني أي شيءٍ خلقوا من الأرض لتكون آلهة ؟! فإن ربي خلق الأرض كلها ، فابتدعها من غير أصل ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أم لآلهتكم شركة مع الله في خلق السموات السبع ، فيكون لكم حجة في عبادتكم إياها ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ ائتوني أيها القوم بكتابٍ جاء من عند الله ، من قبل هذا القرآن ، بتحقيق ما تدعون لآلهتكم(٣) ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أو ائتوني ببقيةٍ من علم ، يُوصَل بها إلى صحة ما تقولون ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم لها ما تدّعون

(١) تقدم الكلام على معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .
(٢) هو زمن فنائهما يوم القيامة .
(٣) هذا أمر تعجيز لأنه ليس هناك كتاب سماوي من الكتب المنزلة يدل على الإشراك بالله .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى

* * *

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وأيُّ عبدٍ أضل ممَّن عَبَد حجراً أو خشباً وجعلها آلهة ، وهي لا تجيب دعاءه أبداً إلى يوم القيامة ؟[1] ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وآلهتهم في غفلةٍ عن دعائهم واستغاثتهم عند المصائب ، لأنها لا تسمع ، ولا تنطق ، ولا تعقل ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ وإذا جمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب ، كانت هذه الآلهة أعداء لهم ، لأنهم يتبرؤ ون منهم ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ وكانوا جاحدين بعبادتهم لأنهم يقولون : يا ربنا ما أمرناهم بعبادتنا ، تبرأنا إليك منهم[2] ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تقرأ على المشركين حججنا ، التي احتججنا عليهم في كتابنا ، واضحاتٍ نيِّرات ﴿ قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا رسوله ، للقرآن لما جاءهم من عند الله ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ هذا القرآن خداعٌ ، يفعل بالقلوب فعل السحر ، ظاهر لمن تأمله أنه سحر .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أم يقول هؤلاء : اختلق محمد هذا القرآن ، وتخرصه كذباً ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ قل لهم يا محمد : إن تخرصته كذباً على الله ، فلا تغنون عني إن عاقبني الله شيئاً ، ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءاً ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ربي أعلم من كل شيء ، بما تقولون بينكم في هذا القرآن ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ كفى بالله شاهداً عليَّ وعليكم ، بما تقولون فيما جئتكم به من عند الله ﴿ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الغفور لذنوب عباده ، الرحيمُ الذي لا يعذب أحداً بعد توبته ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ما كنت أول رسل الله إلى خلقه ، فقد كان قبلي رسل كثيرون ﴿ وَمَا أَدْرِي

---

(١) وهذا توبيخ من الله للمشركين في سوء رأيهم وقبح اختيارهم ، في عبادتهم من لا يعقل ولا يفهم ، وتركهم عبادة الإلّه القادر ، السميع البصير .

(٢) يتبرءون من عبادتهم ويقولون ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ .

مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ

* * *

﴿ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ ولا أدري ما يُصنع بي ولا بكم في الدنيا[١] ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ما أتبع فيما آمركم به ، إلا وحي الله الذي يوحيه إلي ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وما أنا لكم إلا نذير ، أنذركم عقاب الله على كفركم به ، قد أبنتُ وأظهرت لكم دعائي إلى ما فيه نصيحتكم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أرأيتم أيها القوم ، إن كان هذا القرآن من عند الله ، أنزله عليَّ ، وكذبتم أنتم به ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ وشهد « عبد الله بن سلام » من بني إسرائيل على مثل القرآن ـ وهو التوراة ـ بأن محمداً مكتوبٌ في التوراة كما هو مكتوب في القرآن أنه نبيٌ ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فآمن وصدَّق بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ، واستكبرتم أنتم معشر اليهود عن الإيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفق لإصابة الحق ، وهدى الطريق المستقيم ، القوم الكافرين ، الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وقال الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ للمؤمنين: لو كان تصديقكم محمداً خيراً ، ما سبقتمونا إلى التصديق به ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ وإذ لم يُبَصَّروا ويُرشدوا بما جاءهم من عند الله من الهدى ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ فسيقولون : هذا القرآن أكاذيب قديمة ، من أخبار الأولين ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ ومن قبل هذا الكتاب أنزلنا التوراة ، إماماً لبني إسرائيل يأتمون به ، ورحمةً لهم

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وهذا القرآن كتاب أنزلناه ، يصدق كتاب موسى بأن محمداً نبيٌ مرسل ، وهو بلسانٍ عربي ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لينذر هذا القرآن الذين ظلموا

---

(١) هذا ما رجحه الطبري من الأقوال وهو قول الحسن ، وأما في الآخرة فقد أعلمه الله بأنه هو والمؤمنين في جنان النعيم ، وأن المشركين في دركات الجحيم ، ومعنى الآية على هذا القول : لا أعلم هل سأخرج من بلدي كما أخرج الأنبياء ، أم سأقتل كما قتل الأنبياء ؟

(٢) الراجح كما قال الطبري أن الشاهد هو « عبد الله بن سلام » رضي الله عنه ، وكان حبراً من أحبار اليهود ومن أعظم علمائهم ، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة جاء إليه ابن سلام وسأله عن أمور ثلاثة لا يعلمهن إلا نبي ، فلما أجابه ﷺ قال : أشهد أنك رسول الله حقاً ، وفيه نزلت الآية الكريمة .

لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

* * *

أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو بشرى للذين أطاعوا الله ، فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم ، فحسن جزاؤهم في الآخرة ﴿ إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قالوا : ربنا الله الذي لا إلّه غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم ، فلم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ هؤلاء هم أهل الجنة وسكانها ، ماكثين فيها أبداً ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً منّا لهم على أعمالهم الصالحة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ ووصينا ابن آدم بوالديه ، أن يحسن صحبتهما ، وأن يبرَّ بهما في حياتهما ، وبعد مماتهما ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ حملته أمه في بطنها مشقة ، وولدته بمشقة[١] ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ وحمل أمه له جنيناً في بطنها ، وفطمها له من الرضاع ثلاثون شهراً ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ حتى إذا بلغ السن التي تناهى فيها قوته[٢] ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾حين تكاملت حجة الله عليه ، وعرف الواجب لله في بر والديه ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ قال : رب ادفعني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي بتوحيدك ، وهدايتك لي للعمل بطاعتك، وعلى والديَّ من قبلي ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ ووفقني أن أعمل بطاعتك ، وطاعة رسولك ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ وأصلح لي أموري في ذريتي الذين وهبتهم لي ، بأن تجعلهم هداة للإيمان بك ، واتباع مرضاتك ، والعمل بطاعتك ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ إني تبت من ذنوبي التي سلفت مني ، وإني من الخاضعين المستسلمين لأمرك ونهيك .

(١) نبه تعالى على السبب الذي من أجله أمره ببرّ والديه ، وبخاصة الأم وذلك لما لاقت في حال حمله من التعب والمشقة ، وقاست من الألم والشدة وقت الوضع ، ثم لم تزل تعاني المتاعب والآلام في تربيته والسهر عليه حتى يصبح وليداً وناشئاً .

(٢) وهي كما قال مجاهد وقتادة : سن الثالثة والثلاثون من العمر ، وفي الأربعين يكون نهاية اكتمال العقل والرشد ، ولذلك لم يُبعث نبيٌ قبل الأربعين .

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ

* * *

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ هؤلاء هم الذين يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا في الدنيا ، من صالحات الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ ﴾ ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم فلا يعاقبهم عليها ، مثل فعلنا بأهل الجنة ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ وعدهم اللّهُ هذا الوعد الحق ، الذي لا شك فيه ، وهو الوعد الذي كان يعدهم به في الدنيا ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ وذلك الكافر العاق لوالديه ، الذي قال لهما ـ وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله ـ قَذَراً لكما ونتناً[1] ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أتعدانني أن أُبعث من قبري حياً من بعد فنائي وبــلائـي !! ﴿ وَقَـدْ خَلَتِ القُـرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ وقد مضت قرون من الأمم قبلي ، فلم يُبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثاً لبُعث من هلك قبلي من القرون[2] ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ ووالداه يستصرخان الله ويستغيثانه عليه ، أن يؤمن بالله ، ويقرّ بالبعث ويقولان له : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ويلك صدِّقْ بوعد الله ، وأقر بأنك مبعوث من بعد وفاتك ، فإن وعد الله ليوم الحساب لا شك فيه ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ فيقول عدو الله : ما هذا الذي تدعواني إليه ، إلاّ ما سطَّره الأولون من الأباطيل ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ ﴾ هؤلاء الذين وجب عليهم العذاب ، وحلَّت بهم عقوبته وسخطه ، فيمن حلَّ به عذاب الله من الأمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ قد مضوا قبلهم من الجن والإنس ، الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمر ربهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ إنهم كـانوا مغبـونين ، ببيعهم الهـدى بـالضـلال ، والنعيم بالعقاب ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ ولكل هؤلاء الفريقين ـ فريق الإيمـان وفريق الكفـر ـ منازل ومراتب عند الله يوم القيامة ، من عملهم الذي عملوه في الدنيا ، من صالحٍ وسيىء ، يجازيهم الله به

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري وقال غيره معنى ﴿ أفٍ لكما ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة ، وهذا المعنى أظهر .

(٢) قال بعض المفسرين : نزلت في ابنٍ لأبي بكر قبل إسلامه ، والصحيح أنها عامة في كل من اتصف بمثل هذا الوصف القبيح .

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَاذْكُرْ
أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ
عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا

* * *

﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وليعطي جميعهم أجور أعمالهم التي عملوها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ولا يظلمهم الله فيجازي المسيء منهم ويحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ويوم يعرض الذين كفروا بالله على نار جهنم ، يقال لهم : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بالطيبات فيها !؟[1] ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ فاليوم أيها الكافرون تثابون عذاب الهوان الذي يهينكم في جهنم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بما كنتم تتكبرون على ربكم ، فتأبون أن تذعنوا لأمره ونهيه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بغير ما أباح لكم ربكم ، وأذن لكم به ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ ربما كنتم تعصون أمر الله وتخالفون طاعته .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ واذكر يا محمد لقومك « هوداً » الذي بعثه الله إلى عادٍ ، فخوَّفهم أن يحل بهم نقمة الله على كفرهم ، وكانت منازلهم الرمال العالية المستطيلة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وقد مضت الرسل بإنذار أممها ، من قبل هودٍ ومن بعده ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ألا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إني أخاف عليكم أيها القوم ، عذاب الله في يوم عظيم يعظم هولُه ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ قالوا : أجئتنا يا هود ، لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ، إلى عبادة ما تدعونا إليه !؟ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ إن كنت من أهل الصدق في القول والوعد ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال هود : إنما العلم بوقت مجيء عذاب الله عند الله ، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ وإنما أنا رسول إليكم من الله ، مبلّغٌ ما أرسلني به ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون حظوظ نفوسكم ، فلا تعرفون المضرَّة بعبادتكم غير الله ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ فلما جاءهم

(١) يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، فالأسلوب أسلوب توبيخ وتأنيب .

هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا
لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

* * *

عذاب الله الذي استعجلوه ، فرأوه سحاباً عارضاً في ناحية السماء ، متجهاً نحو أوديتهم ، ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ قالوا : هذا هو الغيث الذي كان يعدنا به هود ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال لهم هود : ما هو غيثٌ ، ولكنه العذاب الذي استعجلتم به ، هو ريحٌ فيها عذابٌ موجع ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ تُخرِّب كل شيء أُرسلت بهلاكه ، وترمي بعضه على بعض فتهلكه ﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ فأصبح قوم هود وقد هلكوا ، فلا يرى إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كما جزينا عاداً بكفرهم فأهلكناهم ، كذلك نجزي القوم الكافرين إذا تمادوا في غيهم ، وطغوا على ربهم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ ولقد مكنا « عاداً » فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من الدنيا ، وأعطيناهم الذي لم نعطكم منها ، من كثرة الأموال ، وبسطة الأجسام ، وشدة الأبدان ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ وجعلنا لهم سمعاً يسمعون به المواعظ ، وأبصاراً يُبصرون بها حجج الله ، وأفئدةً يعقلون بها ما يضرُّهم وينفعهم ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فلم ينفعهم ما أعطاهم الله من السمع ، والبصر ، والفؤاد ، إذْ لم يستعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله[1] ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ حين كانوا يكذِّبون برسل الله ، وينكرون نبوتهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ونزل وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريتكم من القرى ، كسدوم ، ومأرب ، والحِجْر ، فخربنا ديارهم ، وجعلناها خاوية على عروشها ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ووعظناهم بأنواع العِظات ، وذكرناهم بضروبٍ من الذكر ، ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ﴾ فأبوا إلا الإقامة على كفرهم فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر ، فهلاَّ نصرتهم أوثانُهم وآلهتهم حين جاءهم

(١) وهذا وعيدٌ من الله جل ثناؤه لقريش ؛ يقول لهم : احذروا أن يحل بكم العذاب على تكذيبكم رسولي كما حلَّ بعاد قوم هود ، فتوبوا من ذنوبكم وأنيبوا .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

* * *

بأسنا ؟!(١) ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ بل تركتهم آلهتهم ، فلم تُجبْهم ولم تُغثْهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وهذا كذبهم حيث كانو يقولون : هؤلاء آلهتنا وهم شفعاؤ نا عند الله ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ﴾ واذكر حين صرفنا إليك يا محمد طائفة من الجن ، يستمعون تلاوتك للقرآن(٢) ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ فلما حضر هؤلاء النفر من الجن القرآن ، ورسول الله ﷺ يقرأ ، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنستمع القرآن ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ فلما فرغ رسول الله ﷺ من تلاوة القرآن ، انصرفوا إلى قومهم ينذرونهم عذاب الله ﴿ قَالُوا يا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ سمعنا كتاباً مجيداً منزَّلاً على رسولٍ من بعد موسى ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يصدّق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ﴿ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يرشد إلى الصواب ورضا الله وإلى طريق لا اعوجاج فيه ـ وهو الإسلام ـ دينُ الله المستقيم .

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ يا قومنا أجيبوا محمداً ﷺ ، إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ وصدقوه فيما جاءكم به من عند الله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ يستر الله ذنوبكم ، ولا يفضحكم بها في الآخرة ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أنتم تبتم وأنبتم من كفركم ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ ومن لا يجب محمداً رسول الله ﷺ ، فليس بمعجزٍ ربه بهربه من عقوبته ، لأنه في سلطانه حيث كان(٣) ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ وليس له من دون ربه ، نصراء ينصرونه من الله ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هؤلاء

(١) في الآية محذوف دل عليه السياق كما نبَّه عليه الطبري تقديره : فأبوا إلا الإقامة على الكفر فأهلكناهم ، فهلاّ نصرتهم آلهتهم كما يزعمون !!

(٢) هؤلاء من جنّ « نصيبين » وافوا رسول الله ﷺ ببطن نخلة عند رجوعه من الطائف ، فاستمعوا لقراءته ، وفي الآية توبيخ للمشركين حيث إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا ، وهؤلاء عنه معرضون .

(٣) هذا من باب الترهيب بعد الترغيب ، كما هو شأن القرآن في قرن الوعد بالوعيد ، والترغيب بالترهيب .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

* * *

الذين لم يجيبوا داعي الله ، في جورٍ عن قصد الطريق ، ظاهر لمن تأمله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أولم ينظر هؤلاءالمنكرون بأبصار قلوبهم ، فيعلموا أن الله الذي ابتدع السموات السبع ، والأرض ، من غير شيء ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يعجز عن إحداثهن ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ بقادرٍ على أن يخرجهم من قبورهم أحياء ، كهيئتهم قبل وفاتهم ؟ ﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بلى إن الذي خلق ذلك ، ذو قدرةٍ ، لا يعجزه شيء أراده ، وإلا كان ضعيفاً فلا ينبغي أن يكون إلهاً !!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ويوم يعرض المكذبون بالبعث ، على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يقال لهم توبيخاً : أليس هذا العذاب الذي تُعذبونه اليوم بالحق ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيجيب هؤلاء الكفرة : بلى هو الحقُّ واللهِ ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فيقال لهم : ذوقوا عذاب النار الآن ، بما كنتم تجحدونه وتنكرونه في الدنيا إذا دعيتم إلى التصديق به ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ فاصبر يا محمد على ما أصابك من أذى قومك، كما صبر أولوالعزم(١)من رسله ، على عظيم ما لاقوا من المكاره ، وما نالهم من الشدائد ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ولا تستعجل على المشركين بالعذاب ، فإن ذلك نازلٌ بهم لا محالة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ كأنهم يوم يرون عذاب الله ، الذي وعدهم به ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ، لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذاب الله مَبْلغ ما مكثوا في الدنيا، من السنين والشهور ﴿ بَلَاغٌ ﴾ هذا القرآن والتذكير بلاغٌ لهم ، لو اعتبروا فتذكَّروا ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ فهل يهلك الله بعذابه ، إلا القوم الذين خالفوا أمره ، وكفروا به ، وخرجوا عن طاعته !؟

---

(١) في الآية تسلية للرسول ﷺ ، وأمرٌ له بالاقتداء بمشاهير وقادة الرسل ، الذين سمَّاهم الله أولي العزم ، وهم « نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى » وهم الذين امتحنوا بالمحن الشديدة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ
ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ

* * *

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذين جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره ، وصدوا من أراد عبادته ، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الإسلام ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ جعل الله أعمالهم على غير هدى وغير رشاد ، لأنها عُملت في سبيل الشيطان ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدَّقوا الله ، وعملوا بطاعته ، واتَّبعوا أمره ونهيه ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وصدَّقوا بالكتاب الذي أنزله الله على محمد ، وهو الحق من عند ربهم ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ محا الله عنهم سيِّىء ما عملوا من الأعمال ، فلم يؤاخذهم به ، ولم يعاقبهم عليه ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ وأصلح شأنهم وحالهم ، في الدنيا وفي الآخرة ، بأن أورثهم نعيم الأبد ، والخلود الدائم في جنانه ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أضللنا أعمال الكافرين وجعلناها على غَيْر استقامة وهدى، بسبب أنهم اتبعوا الباطل، وهو الشيطان فأطاعوه ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وكفَّرنا عن المؤمنين سيئاتهم ،بسبب أنهم اتَّبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم ،وهو محمد ﷺ وماجاءهم به من النور والبرهان﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾كما بينت لكم فعلي بفريقي الكفر والإيمان ، كذلك نمثِّل للناس الأمثال ، ونشبِّه لهم الأشباه ، فنلحق بكل قوم أمثالهم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ فإذا لقيتم ـ أيها المؤمنون ـ الذين كفروا من أهل الحرب ، فاضربوا رقابهم ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ حتى إذا غلبتموهم وقهرتموهم ،

يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

* * *

فصاروا أسرى في أيديكم ، فشدُّوهم في الوثاق[1] ، كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ فإذا أسرتموهم ، فإمَّا أن تمنُّوا عليهم بإطلاقهم من الأسر ، بغير عوض ولا فدية ﴿ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وإما أن يفادوكم ، بأن يعطوكم عوضاً حتى تطلقوهم وتخلُّوا سبيلهم ﴿ حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ حتى تضع الحرب آثامها ، وأثقال أهلها المشركين ، بأن يتوبوا إلى الله من شركهم ، فيؤمنوا به وبرسوله ، ويأمنوا من القتل أو المنّ ، أو الفداء ، ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ هذا الذي أمرتكم به هو الحق الذي ألزمكم به ربكم ، ولو أراد الله لانتصر من هؤلاء المشركين ، بعقوبةٍ عاجلة ، وكفاكم ذلك كله ، ولكنَّه تعالى كره عقوبتهم ، إلّا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ولكن ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ويبلوهم بكم فيعاقب من شاء منهم بأيديكم ، ويتعظ من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ والذين قاتلوا أعداء الله الكفار وجاهدوهم في دين الله ، فلن يجعل الله أعمالهم ضلالاً عليهم ، كما أضلَّ أعمال الكافرين[2] ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ سيوفِّق الله الذين قاتلوا في سبيله للعمل بما يرضى ويحب ، ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لهم ﴾ ويدخلهم الله جنَّته وقد عرَّفها وبيَّنها لهم ، حتى إن الرجل ليأتي منزله في الجنة ، كما كان يأتي منزله في الدنيا ، لا يُشكل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن تنصروا الله ـ بنصركم رسوله محمداً ﷺ على أعدائه أهل الكفر ـ ينصركم عليهم ، فإنه ناصرٌ دينه وأولياءه ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ويثبتكم أمام أعدائكم ، ويجرِّئكم حتى لا تولُّوا عنهم وإن كثر عددهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ ﴾ والذين جحدوا توحيد الله ، فخزياً لهم ، وشقاءً وبلاءً ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وجعل أعمالهم على غير هدى ولا استقامة ، لأنها عُملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فعلنا بهم ذلك ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا ، الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ ، فكذبوا به ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فأبطل

(١) الوثاق : الحبل الذي يُربط ويُشد به الأسير ، وهو القيد المعروف .

(٢) فسَّر الإمام ابن جرير الآية حسب القراءة التي اختارها وهي ﴿والذين قاتلوا في سبيل الله﴾ وقراءة حفص ﴿ قُتِلُوا ﴾ فيكون المعنى والشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ، لن يجعل الله أعمالهم التي عملوها ضلالاً عليهم ، ولن يبطلها بل يكثِّرها وينمِّيها .

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ
أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ
مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن
كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا

* * *

أعمالهم التي عملوها فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أفلم يسافر المكذبون في الأرض ، فيروا نقمة الله التي أحلَّها بمن قبلهم من الأمم ، المكذبة لرسلها ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ألم ندمِّر عليهم منازلهم ونخربها ، فيتَّعظوا وينيبوا إلى طاعة الله ؟ ! ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ وللكافرين المكذبين لرسول الله ﷺ من العذاب ، أمثال عاقبة الأمم السابقةِ المكذبة لرسلهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الذِينَ آمَنُوا ﴾ ما فعلنا بالفريقين ، من أجل أن الله ولي من آمن به وأطاع رسوله ﴿ وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾ وبأن الكافرين لا ولي لهم ولا ناصر .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ إن الله يُدخل المؤمنين بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، تكرمةً لهم على إيمانهم به وبرسوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ﴾ والذين جحدوا توحيد الله وكذَّبوا رسوله ، يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ، وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها مثل البهائم المسخَّرة ، التي لا همة لها إلاَّ في الاعتلاف دون غيره[1] ﴿وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ﴾ ونار جهنم مسكن ومأوى لهم، يصيرون إليها من بعد مماتهم ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ وكثيرٌ يا محمد من أهل قرية، هم أشد بأساً ، وأكثر جمعاً من أهل مكة الذين أخرجوك ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ أهلكناهم بالعذاب ، فلا ناصر ينصرهم من عذاب الله ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أفمن كان على برهانٍ وحجة من أمر ربه ، فهو يعبده على بصيرة منه بأن له رباً ، يجازيه على طاعته وعلى إساءته ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله ، فرآه جميلاً ، فهو مقيم على العمل به ؟ ! ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسُهم ، من معصية الله ، وعبادة الأوثان ، من غير حجة ولا برهان ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ صفة الجنة التي وعدها الله المتقين ، الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه

(١) هكذا شأن الكافر يأكل كما تأكل البهيمة ، لا همَّ له إلا بطنه وفرجه ، غير مفكِّر في العاقبة ، كالبهيمة التي تسرح في المرعى غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح، ويـا له من تصوير رائع يصوره القرآن للكفرة الفجرة !!

أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

* * *

﴿ فِيها أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ في الجنة أنهار من ماء ، غير متغيِّر الرائحة ولا منتنٍ ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ وفيها أنهار من لبنٍ ـ حليب ـ لم يتغير طعمه ، لأنه لم يُحلب من حيوان بل خلقه الله في الأنهار ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ وفيها أنهار من خمرٍ ، يلتذ الشاربون بشربها[١] ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ وفيها أنهار من عسل قد صُفِّي من الأذى ، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية[٢] ﴿ وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة ، من جميع الثمرات التي تكون على الأشجار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وعفوٌ من الله لهم عن ذنوبهم ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أمَّن هو في هذه الجنة ، كمن هو خالد في نار جهنم ؟ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ وسقي هؤلاء ماءً قد انتهى حرُّه ، فقطَّع أمعاءهم من شدة حره ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ومن هؤلاء الكفار من يستمع إليك يا محمد ، فلا يعي ما تتلو ولا يفهمه ، تهاوناً منه بكتاب ربك ﴿ حَتَى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ماذا قال آنفاً ﴾ حتى إذا خرجوا من عندك ، قالوا لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم : ماذا قال لنا محمد آنفاً[٣] ؟ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ هؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ رفضوا أمر الله ، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم[٤] ، من غير حقيقة ولا برهان ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ وأما الذين شرح الله صدورهم للإيمان ، فإنَّ ما تلوتَه عليهم يا محمد ، زادهم الله به إيماناً إلى إيمانهم ، وأعطاهم الله تقواهم بطاعتهم إياه ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ فهل ينتظر هؤلاء

---

(١) إنما قيَّدها تعالى بقوله ﴿ للذةٍ للشاربين ﴾ لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا ، لا يلتذ بها إلا سقيمُ الذَّوقِ ، فاسد المزاج .

(٢) المراد أن في الجنة أنهاراً جاريات من عسل ، في غاية الصفاء وحسن اللون والريح ، لم يخرج من بطون النحل ، ولم يخالطه الشمع وفضلات النحل .

(٣) يعني الآن ، قال ابن زيد ، هؤلاء المنافقون ، و﴿الذين أُوتوا العلم﴾ هم الصحابة رضي الله عنهم .

(٤) جمع الله بين الكافرين والمنافقين وسوَّى بينهم ، في أن جميعهم قد اتبعوا أهواءهم فقال عن الكافرين ﴿كمن زُيِّن له سوءُ عمله واتَّبعوا أهواءهم﴾ وقال عن المنافقين ﴿طبع الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءهم﴾ وكفى باتباع الهوى ضلالاً للإنسان !!

فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ

* * *

المكذبون إلَّا الساعة ، التي وعد الله خلقه ببعثهم فيها ، أن تجيئهم فجأة وهم لا يشعرون بمجيئها ؟﴿ **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** ﴾ فقد جاءهم آياتها ومقدماتها ﴿ **فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** ﴾ فمن أيِّ وجهٍ لهؤلاء المكذبين ، ذكرى ما قد ضيَّعوا وفرَّطوا من طاعة الله، إذا جاءتهم الساعة ؟ وليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ؟!

﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ فاعلم يا محمد أنه لا معبود للخلق تنبغي عبادته ،إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيءٍ ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ وسَلْ ربك غفران ذنوبك وذنوب أهل الإيمان بك ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴾ فإن الله يعلم متصرفكم في يقظتكم للأعمال ، ومثواكم إذا ثويتم في مضاجعكم ليلاً للنوم .

﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ** ﴾ ويقول المؤمنون: هلاَّ نزلت سورة من الله، تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار ﴿ **فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ** ﴾ فإذا نزلت سورة محكمة بالبيان والفرائض ، وذكر فيها الأمر بقتال المشركين ﴿ **رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ رأيت الذين في قلوبهم شكٌّ في دين الله وضعف ﴿ **يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ ينظرون إليك يا محمد ، نظر الذي قد صُرع من خوف الموت ، خشية أن تأمرهم بالجهاد ﴿ **فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** ﴾ فأولى لهؤلاء أن يطيعوا الأمر[1]. .وهو وعيدٌ للمنافقين الذين شقَّ عليهم الجهاد وكرهوه ﴿ **فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ** ﴾ فإذا وجب القتال وفُرض عليهم ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** ﴾ فلو صدقوا الله ما وعدوه فوفوا بذلك ، لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم ، وآجل معادهم ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ فلعلكم أيها القوم ، إن أدبرتم عن محمد ﷺ وعمَّا جاءكم به ﴿ **أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ أن تعصوا الله في الأرض ، فتكفروا به وتسفكوا الدماء ﴿ **وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم ، من التشتُّت ، والتفرُّق ، بعدما قد جمعكم الله بالإسلام، وألَّف بين قلوبكم !! ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ هؤلاء المفسدون

---

(١) هكذا فسَّرها ابن جرير ، والأرجح ما قاله في التسهيل أن معنى « فَأَوْلَى لَهُمْ » فويلٌ لهم ، فهي كلمة تستعمل للدعاء والتهديد ، كقوله تعالى « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » وجملة « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » جملة مستأنفة حُذف منها الخبر ، والتقدير : طاعةٌ منهم لك يا محمد ، وقول جميلٌ طيِّب ، خيرٌ لهم عند الله وأفضل وأحسن ، وهو اختيار الإمام الرازي ، وانظر صفوة التفاسير ٣ / ٢١١

اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم
مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

* * *

الذين طردهم الله من رحمته ﴿ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾ فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله ، وسلبهم عقولهم فلا يتبيَّنون حجج الله ، ولا يتذكرون عِبَره وأدلته ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ أفلا يتدبر المنافقون مواعظ الله في آي القرآن ، ويتفكرون في حججه ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ؟ ! ﴿ **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون المواعظ والعبر؟! ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ** ﴾ إن الذين رجعوا على أعقابهم ، كفاراً بالله ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** ﴾ من بعد ما عرفوا واضح الحجة ، ثم آثروا الضلال على الهدى ، عناداً لأمر الله تعالى ، وهم المنافقون ﴿ **الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ** ﴾ الشيطان زيَّن لهم الارتداد على أدرباهم ﴿ **وَأَمْلَى لَهُمْ** ﴾ ومدَّ الله لهم في آجالهم مدة من الدهر[1] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** ﴾ لم يُوفقوا للهدى ، من أجل أنهم قالوا للمنافقين للذين كرهوا ما نزَّل الله من الأمر بقتال أهل الشرك ﴿ **سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾ سنطيعكم في بعض الأمر الذي هو خلاف أمرِ الله تبارك وتعالى ، وأمرِ رسوله ﷺ ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** ﴾ والله يعلم إسرار هذين الحزبين من أهل النفاق ، إذ يتسارُّون فيما بينهم ، بالكفر بالله ومعصية الرسول ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** ﴾ فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة، وهم يضربون وجوههم وأعجازهم!! ، فحالُهم أيضاً لا يخفى عليه في ذلك الوقت[2] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** ﴾ ذلك العذاب للمنافقين ، من أجل أنهم اتَّبعوا ما أغضب الله عليهم ، من طاعة الشيطان ﴿ **وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** ﴾ وكرهوا ما يرضيه عنهم ، من قتال الكفار ﴿ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ فأبطل الله ثواب أعمالهم ، لأنها عُملت في غير رضاه ، فلم تنفع عاملها .

﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ أحسب المنافقون الذين في قلوبهم شكٌّ في دينهم ،

---

(١) هكذا اختار الإمام ابن جرير أن فاعل « سوَّل » هو الشيطان ، وفاعل « أملى » هو الله تعالى ، بينما اختار الإمام ابن كثير أن الشيطان هو الفاعل في الفعلين ، فقال : (أملى لهم) أي غرهم وخدعهم ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) قال الإمام ابن كثير :أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف ، والقهر ، والضرب ا هـ المختصر ٣ /٣٣٦ .

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

* * *

وضعفٌ في يقينهم ، فهم حيارى في معرفة الحق ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ أن لن يخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان ـ الأحقاد ـ على المؤمنين ، فيظهره لهم حتى يعرفوا نفاقهم !! ، ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ ولو نشاء يا محمد لعرَّفناك هؤلاء المنافقين ، حتى تعرفهم ، وستعرفهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم ، في فحوى كلامهم ، وظاهر أفعالهم[١] ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ولتعرفنَّ المنافقين في فحوى قولهم ﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته ، والمخالف ذلك ، وهو مجازيكم عليها ﴿ولنبلونكم﴾ ولنختبرنكم أيها المؤمنون ، بالقتل ،وجهادِ أعداء الله ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ حتى يعلم حزبي وأوليائي[٢] ، أهل الجهاد منكم وأهل الصبر على القتال ، فيظهر ذلك لهم ، ويعرفوا أهل الإيمان من أهل النفاق ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ونختبر أعمالكم فنعرف الصادق منكم من الكاذب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدُّوا الناس عن دينه ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ وخالفوا رسوله محمداً ﷺ فحاربوه وآذوه ، من بعدما علموا أنه رسولٌ مرسل ، وعرفوا الطريق الواضح ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ﴾ لن يضروا الله بكفرهم لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا ويبطلها ، فلا تنفعهم شيئاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، في أمرهما ونهيهما ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ولا تبطلوا بكفركم بربكم ثواب أعمالكم ، فإن الكفر بالله يحبط العمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين أنكروا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك ، ففتنوهم عنه ﴿ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ فلن يعفو الله عما صنعوا ، بل يعاقبهم

---

(١) قال المفسرون : لم يتكلم بعد نزول هذه الآيات منافقٌ إلاّ عرفه ﷺ .

(٢) إنما فسَّره الإمام الطبري بذلك لأن الله تعالى عالمٌ بالسرائر والضمائر ، يعلم ما سيفعله العباد قبل أن يحصل منهم ، ولهذا قال المفسرون : المراد بعلمه تعالى « علم ظهور » للعباد لا علم بداء ، لأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها .

فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ
وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا
يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

* * *

ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ فلا تضعفوا أيهاالمؤمنون عن جهاد المشركين ، وتجبنوا عن قتالهم ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة[1] ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ وأنتم القاهرون لهم ، والعالون عليهم ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ بالنصر لكم عليهم ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها ﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ قاتلوا المشركين ولا تَدْعُكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، يضمحل فيذهب ويندرس ، أو إثمٌ يبقى على صاحبه عارُه وخزيُه ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا ﴾ وإن تؤمنوا بالله ، وتتقوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ يعوضكم ربكم ما هو خيرٌ لكم منه ، يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ولا يسألكم ربكم إنفاق جميع أموالكم ، ولكنه يكلفكم توحيده وطاعته ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ إن يسألكم ربكم أموالكم ، فيُجْهدكم بالمسألة ، تبخلوا بها وتمنعوها ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ ويخرج ما في نفوسكم من الأضغان[2] ـ الكراهية ـ ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ها أنتم أيها الناس تُدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ، ونصرة دينه ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فمنكم من يبخل بالنفقة ، ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله ، فإنما يبخل عن بخل نفسه[3] ، لأن نفسه كانت تجود بها ﴿ وَاللَّهُ الغَنِيُّ ﴾ ولا حاجة لله إلى أموالكم ، لأنه الغني عن خلقه ﴿ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ ﴾ والخلق هم الفقراء إليه ، وإنما حضّكم على النفقة ، ليكسبكم الجزيل من ثوابه ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ وإن تتولوا عن هذا الدين يهلككم ، ثم يجيء بقوم آخرين بدلاً منكم ، يعملون بشرائعه ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ يكونون خيراً منكم ، فلا يُضيِّعون شيئاً من حدود دينهم ، بل يقومون بكل ما يُؤمرون .

---

(١) ومايدعوا به بعضُ الحكام من الصُلح مع اليهود الغاصبين لأرض الله ـ بيت المقدس ـ فلأنهم لم يقرأوا كتاب الله ، ولم يكن الله معهم فيوفقهم ويسددهم ، بل كان الشيطان يزين لهم أعمالهم ، ويحسِّنها في قلوبهم ، فالمؤمن له العزة وله السيادة في الأرض ، وهو الأعلى والله عونه بنص القرآن ﴿وأنتم الأعلون والله معكم﴾ فكيف يقبل لنفسه الذل والهوان ، ويلقي بنفسه في أحضان اليهود ؟ ! اللهم ألطف بالمسلمين وردهم إلى دينهم رداً جميلاً (٢) المراد بالأضغان هنا : البخل وكراهية الإنفاق .

(٣) وقيل المعنى: ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله ، فإنما يعود ضرر بخله على نفسه ، لأنه يمنعها الأجر والثواب ، وهذا المعنى أظهر مما فسره به الطبري .



(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ
إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

* * *

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ إنا حكمنا لك يا محمد، وقضينا لك بالنصر والظفر على كفار قومك، فتحاً ظاهراً بيِّناً، والمراد به «صلح الحديبية»[1] ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لتسبِّح ربك وتستغفره، وتشكره، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك قبل الفتح، وما تأخر بعد الفتح ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ ويتم عليك نعمته بإظهارك على عدوك، ورفعه ذكرك في الدنيا، وغفرانه ذنوبك في الآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربك ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ وينصرك على سائر أعدائك، نصراً لا يغلبه غالب، بالظفر الذي يمدُّك به ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين، إلى الحق الذي بعثك الله به يا محمد ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ليزدادوا بتصديقهم ـ بما جدَّد الله من الفرائض ـ إيماناً مع إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله جنود السموات والأرض أنصارٌ، ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً

(١) هكذا رجح الإمام الطبري أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» وهو ما اختاره أيضاً ابن كثير، لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الهدنة بينه وبين المشركين، ومن دخول كثير من الناس في الإسلام. وذهب بعض المفسرين إلى أنه «فتح مكة» لأنه هو الفتح الأكبر، وأن المعنى سنفتح لك يا محمد فتحاً مبيناً، بانتصارك على الكفار بـ «فتح مكة» فهو وعدٌ له ﷺ بالفتح، جيء به بلفظ الماضي لتحقق وقوعه، على عادة الرب جل وعلا في الإخبار عن الأمور المستقبلة المتحقق وقوعها، بالخبر الماضي المقطوع به كقوله تعالى عن الساعة ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وهذا اختيار جمهور المفسرين والله أعلم.

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ

* * *

﴿حَكِيماً﴾ ولم يزل الله عالماً بخلقه ، حكيماً في تدبيره ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ليشكر المؤمنون ربهم على إنعامه عليهم ، فيدخلهم بذلك بساتين تجري من تحت غرفها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وليكفر عنهم سَيِّىء أعمالهم ، بالحسنات التي يعملونها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وكان ما وعدهم الله به ـ بإدخالهم الجنة ـ ظفراً عظيماً بما كانوا يأملون ، ونجاة مما كانوا يحذرون ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وليعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين كذلك والمشركات ، بفتح الله لك يا محمد ما فتح ، ونصرك على مشركي قريش ، فيكبتهم ويخيّب رجاءهم ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظانين بالله الظنَّ السيىء ، بأن الله لن ينصر رسوله ، ولن يُظهر كلمته ، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ على المنافقين والمشركين تدور دائرة العذاب ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ونالهم الله بغضب منه ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وأعدَّ الله لهم نار جهنم ، يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ وساءت جهنم منزلاً ، يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله جميع جنود السموات والأرض أنصارٌ على أعدائه ، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم ، طاعة منهم لربهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ ولم يزل الله ذا عزة ، لعظم سلطانه وقدرته ، وهو حكيم في تدبيره خلقه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك[1] ، بما أجابوك ممَّا أرسلتك به ﴿وَمُبَشِّراً﴾ تبشرهم بالجنة ، إن هم أطاعوك إلى الدين القيم ﴿وَنَذِيراً﴾ وتنذرهم عذاب الله ، إن هم تولوا عما جئتهم به ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لتصدقوا ـ أيها الناس ـ بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ

---

(١) الإمام ابن جرير خصَّ الشهادة بأمة محمد ﷺ ، والأولى جعلها على العموم فيكون المعنى : إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على الخلق يوم القيامة ، ومبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومنذراً للكافرين من عذاب النار .

﴿وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝﴾

* * *

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظِّموه ، وتُجلُّوهُ[1] ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وتسبحوا ربكم صباحاً ومساءً ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ إن الذين يبايعونك يا محمد بالحديبية من أصحابك ، إنما يبايعون الله ببيعتهم لك ، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ عند البيعة[2] ، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيَّه ﷺ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فمن نقض بيعته ، وخالف ما وعد ربه ، فلم يضرَّ بنقضِه البيعة غير نفسه ، لأنه بفعله يخرج من وعد الله له بالجنة ، فأما رسول الله ﷺ فإن الله تعالى ناصرُه على أعدائه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ ومن أوفى بما عاهد الله عليه ، من الصبر عند لقاء العدو ، ونصره نبيه ﷺ على أعدائه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ فسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة ، جزاءَ وفائه بعهده .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ سيقول لك يا محمد ، الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك إلى مكة ، إذا عاتبتهم على التخلف عنك ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ شغلتنا على الخروج معك ، إصلاح أموالنا ومعايشنا ، وشُغلنا بالأولاد فاستغفر لنا ربنا ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول هؤلاء المتخلفون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، بغير توبة منهم ولا ندم ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ قل يا محمد لهؤلاء الأعراب : من ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شر ، إن أراد الله هلاككم ، أو هلاك أموالكم وأهليكم ، أو أراد إصلاحها لكم ؟ ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ يعلم ما تعملون من خير وشر ، لا يخفى عليه

---

(١) الضمير على القول الراجح يعود على الرسول والمعنى لتعظموا وتفخّموا رسولكم محمداً ﷺ ، وتحترموا وتُجلُّوا أمره غاية الإجلال والإعظام ، وأما قوله تعالى ﴿وتسبحوه﴾ فالضمير يعود على الله عز وجل باتفاق أي ولتسبحوا الله بكرةً وأصيلاً ، فتنبَّه له.

(٢) في هذا تشريف عظيم للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ، لأن الرسول سفير معبِّر عن الله والمراد بالبيعة « بيعة الرضوان » بالحديبية ، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى البخاري ومسلم عن مسلمة بن الأكوع قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت» ، قال الطبري وفي قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وجهان من التأويل : أحدهما : يد الله فوق أيديهم عند البيعة ، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ والآخر : قوةُ الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ لأنهم بايعوا رسول الله على نصرته . ا هـ. وقال ابن كثير معنى الآية أنه تعالى حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ . ا هـ المختصر ٣٤٢/٣ .

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ
قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ

* * *

شيء من أعمال خلقه ، سرُّها وعلانيتها ﴿**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً**﴾ ما تخلفتم من أجل الأهل والأموال ، بل تخلفتم ظناً منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه ، سيهلكونَ فلا يرجعون إليكم أبداً ، باستئصال العدو لهم ﴿**وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم ، حتى قعدتم عن صحبته ﴿**وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾ وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وأصحابه ﴿**وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً**﴾ وكنتم قوماً هلكى ، لا يصلحون لشيء من الخير ﴿**وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ ومن لم يصدِّق بالله ورسوله ﴿**فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً**﴾ فإنا أعددنا للجاحدين بربهم سعيراً ، توقد عليهم في جهنم ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ ولله سلطانُ السموات والأرض ، وهو القادر على تعذيب من شاء ، وعفوه عمن شاء ، لا أحد يقدر على دفع ما أراد ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ عفواً عن عقوبة التائبين، رحيماً بعباده أن يعاقبهم بعد توبتهم ، فبادروا إلى التوبة من تخلفكم ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا**﴾ سيقول المخلفون عن صحبتك ، إذا انطلقت أنت وأصحابك إلى ما أفاء الله عليك من غنائم خيبر لتأخذوها ﴿**ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ**﴾ إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ**﴾ يريدون أن يغيِّروا وعد الله ، الذي وعد به أهل الحديبية ، بأن جعل غنائم خيبر لهم ، عوضاً من غنائم مكة . ﴿**قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا**﴾ قل لهم يا محمد : لن تتبعونا إلى خيبر ﴿**كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ**﴾ هكذا قال الله لنا ، من قبل مرجعنا إليكم ، أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ﴿**فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا**﴾ فسيقول المخلفون لكم : بل تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم ﴿**بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ بل كانوا لا يفقهون من أمر الدين إلا يسيراً ، ولو عقلوا لما قالوا ذلك ﴿**قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ**﴾ قل يا محمد للمتخلِّفين من الأعراب عن المسير معك ﴿**سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ**

شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

* * *

﴿شَدِيدٍ﴾ سَتُدعون إلى قتال قوم، أولي شدةٍ في القتال، ونجدةٍ في الحروب(١) ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ تُقاتلونهم أو يُسلمون من غير حربٍ ولا قتال ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً﴾ فإن تطيعوا الله، يعطكم على إجابتكم أجراً حسناً، هو الجنة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ وإن تعصوا ربكم فتتركوا قتال من دُعيتم إلى قتالهم، كما عصيتموه في أمره لكم بالمسير إلى مكة قبل ذلك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعذبكم الله عذاباً وجيعاً، على ترككم الجهاد مع المؤمنين.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على الأعمى ضيقٌ، ولا على الأعرج ضيقٌ، ولا على المريض ضيقٌ، أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، للعلل التي بهم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ومن يطع الله ورسوله، فيجيب إلى القتال مع المؤمنين، ابتغاء وجه الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يدخله الله يوم القيامة، جناتٍ تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن قتال أهل الشرك، يعذبه الله عذاباً موجعاً في جهنم ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ لقد رضي الله عن أصحابك المؤمنين، حين بايعوك يا محمد بالحديبية تحت الشجرة(٢)، على مناجزة قريشٍ الحربَ، وعلى أن لا يفرُّوا، ولا يولُّوهم الأدبار ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فعلم ربك ما في قلوب أصحابك، من صدق النية، والوفاء بالبيعة، والصبر معك ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ فأنزل الطمأنينة والثبات على قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾

(١) هم بنو حنيفة ـ قومُ مسيلمة الكذاب ـ أصحاب الردة الذين ارتدوا عن الإسلام، وقيل: هم هوازن وثقيف، وقيل: هم فارس والروم، واختار الطبري العموم، لأن الله تعالى لم يذكر قوماً معيَّنينَ، فيحتمل ان يراد بهم الجميع والله أعلم.

(٢) كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما وصل الحديبية، أرسل «عثمان بن عفان» إلى أهل مكة يخبرهم ان الرسول إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، فبايعه المسلمون على الموت في سبيل الله، وعلى أن يحاربوا قريشاً ويدخلوا مكة عنوة، فكانت هذه البيعة في الحديبية تحت شجرة سمرة، وسميت «بيعة الرضوان» فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب فأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ
أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾
سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

* * *

وعوَّضهم ـ عن غنائم أهل مكة ـ فتح « خيبر »[1] ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وجازاهم مع ما أكرمهم به من رضاه ، مغانم كثيرة يأخذونها ، من أموال يهود خيبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ عزيزاً في انتقامه من أعدائه ، حكيماً في تدبيره خلقه ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وعدكم الله ـ أيها المؤمنون ـ الغنائم الكثيرة التي ستأتيكم من المشركين ـ هوازن ، وغطفان ، وفارس ، والروم ـ وغيرهم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ فعجَّل لكم مغانم « خيبر » ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ وكفَّ الله أيدي المشركين عن المدينة المنورة ، حين سار المسلمون إلى الحديبية وإلى خيبر ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليكون كفُّه أيديهم عن عيالكم ، آيةً وعبرةً للمؤمنين ، فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم ، بالحفظ وحسن الولاية ، ما كانوا مقيمين على طاعته تعالى ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ ويُسدِّدكم ـ أيها المؤمنون ـ طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ ووعدكم ربكم « فتح مكة » التي لم تقدروا على فتحها ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد أحاط الله بها وبأهلها ، حتى يفتحها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ لا يتعذر عليه شيءٌ أراده ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ ولو قاتلكم أيها المؤمنون الكفار بمكة ، لانهزموا عنكم فولوكم الأدبار ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ ثم لا يجد هؤلاء الكفار من ينصرهم عليكم ، لأن الله تعالى معكم ، ولن يُغلب حزبُ اللهُ ناصرُه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ سننتُ فيهم الهزيمة والخذلان ، سنة أمثالهم من أهل الكفر ، الذين قاتلوا أولياء الله ، من الأمم الذين مضوْا قبلهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ ولن تجد يا محمد ، لسنة الله التي سنَّها في خلقه تغييراً ، بل ذلك دائم لا يتبدَّل ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الله الذي كفَّ أيدي هؤلاء المشركين ، الذين خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا منهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وكفَّ أيديكم عنهم بالحديبية ، فلم تقتلوهم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد أن أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم ، فمَنَّ الرسول ﷺ

(١) الصحيح كما قال الطبري هي غنائم خيبر ، لأنها هي التي كانت بعد صلح الحديبية ، والله تعالى يقول ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وأما فتح مكة فقد كان بعد مدة طويلة والله أعلم .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

* * *

عليهم ولم يقتلهم[١] ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد الله ، وصدُّوكم ـ أيها المؤمنون ـ عن دخول المسجد الحرام ، وصدُّوا الهدي[٢] محبوساً من دخول الحرم ، الذي يحل فيه نحره . ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولولا رجال من أهل الإيمان ، ونساء منهم ، ـ لم تعلموهم بمكة ـ وقد حبسهم المشركون بها ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ فتصيبكم منهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم وتقتلوهم ، فيلزمكم بذلك كفارة « قتل الخطأ » بغير علم منكم ، لأذن لكم أيها المؤمنون في دخول مكة[٣] ، ولكنه حال بينكم وبين ذلك ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ لو تميز المؤمنون عن مشركي مكة ، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم ، لقتلنا من بقي فيها بالسيف ، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ حين جعلوا الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، فامتنعوا أن يكتبوا في كتاب الصلح « بسم الله الرحمن الرحيم » ورفضوا أن يكتبوا فيه « محمد رسول الله » ومنعوا الرسول من دخول مكة ذلك العام ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وفعلهم هذا من أخلاق أهل الكفر ، وهو من العصبية الجاهلية ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار ، على رسوله وعلى المؤمنين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ وألزمهم قول « لا إله إلا الله » التي يتقون بها النار ، وأليم العذاب ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا

---

(١) روي أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين بالحديبية ليصيبوا منهم ، فأُخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، فكان ذلك سبب الصلح ، وفيهم نزلت الآية الكريمة .

(٢) كان ﷺ قد ساق معه حين خرج إلى مكة معتمراً في سفرته تلك سبعين بدنة .

(٣) أشار الإمام ابن جرير إلى أن جواب « لو » محذوف ، حُذف لدلالة الكلام عليه وتقديره : لأذن لكم بدخول مكة ومعنى الآية : لولا أولئك المؤمنون المستضعفون الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين أن تقتلوهم فيصيبكم بسبب قتلهم إثم وذنب ، دون علم منكم بإيمانهم ، لأذن لكم في دخول مكة ، ولسلطكم على المشركين .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى

* * *

﴿وَأَهْلَهَا﴾ وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون ، أهل كلمة التقوى، وأحقَّ بها من المشركين **﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾** ذا علم لا يخفى عليه شيء ممَّا هو كائن **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾** لقد صدق الله رسوله محمداً ﷺ رؤياه التي أراها إياه[1] ، أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام ، لا يخافون أهل الشرك **﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾** مقصِّراً بعضكم رأسه ، ومحلِّقاً بعضكم رأسه **﴿لَا تَخَافُونَ﴾** لا تخافون المشركين **﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾** فعلم الله ـ جل ثناؤه ـ بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين ، الذين لم يعلمهم المؤمنون **﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾** فجعل من دون تصديقه رؤيا رسول الله ﷺ « صلح الحديبية » و « فتح خيبر » **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ﴾** الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح ، ودين الإسلام وهو الدين الحق الذي أرسله داعياً إليه **﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾** ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها[2] **﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾** وحسبك بالله شاهداً **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾** محمدٌ رسول الله ، وأصحابه الذين هم معه على دينه **﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ﴾** غليظة قلوبهم على الكفار ، قليلة بهم رحمتهم **﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** رقيقة قلوب بعضهم لبعض ، هينة عليهم **﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾** تراهم في صلاتهم لله ركعاً أحياناً ، وسجداً أحياناً **﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ﴾** يلتمسون بركوعهم وسجودهم فضل الله ورحمته ، بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته **﴿وَرِضْوَاناً﴾** وأن يرضى عنهم ربهم **﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾** علامتهم في وجوههم من أثر السجود في الصلاة ،

---

(١) كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه ـ وهو بالمدينة المنورة ـ أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت آمنين مطمئنين ، ثم حلقوا وقصَّروا ، فحدَّث بذلك أصحابه ففرحوا واستبشروا فلما خرج معتمراً يريد مكة ، وصدَّه المشركون ووقع صلح الحديبية ، ارتاب المنافقون فقالوا : والله ما رأينا البيت ولا حلقنا ولا قصَّرنا ، فنزلت الآية .

(٢) ويبقى هذا الوعدِ من الله تعالى ، أملَ المسلمين في كل عصرٍ ومصر ، ومسؤوليتهم حتى يبلِّغوا دعوة الله تعالى إلى جميع الناس ، ويلتزموا في أنفسهم تقواه ، حتى ينصرهم ويعزهم، ويثبت أقدامهم في الأرض ، ويكونوا جند الله يحقق بهم وعده ، نسأله تعالى أن يجعلنا من جنده ، وينصرنا ويعزنا على عدونا وعدوه .

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾



وذلك في الدنيا الخشوعُ والزهدُ ، وهديُ الإسلام وسمْتُه ، وفي الآخرة التحجيلُ وبياضُ الوجوه من أثر السجود ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ هذه الصفة صفتهم في التوراة ﴿ومَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ وصفتهم في إنجيل « عيسى » كصفة زرعٍ أخرج أفراخه، فنما وكثر وازداد ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ فقوّى الزرعَ أفراخُه وشدَّه وأعانه ، فغلظ الزرع ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعجب الزراع من كثرته ، وحسن نباته ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ ليغيظ الله بهم الكفار ، فكذلك مثل محمد ﷺ وأصحابه ، اجتمعوا حتى كثروا ، ونموا ، وغلظ أمرهم كهذا الزرع[١] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم ربهم به، من الداخلين في الإسلام إلى يوم القيامة ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وثواباً جزيلاً ، هو الجنة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح »



(١) هذا مثلٌ في غاية الروعة والبيان ، ضربه الله عز وجل لمحمد ﷺ وأصحابه ، فالزرع محمد ﷺ ، والشطأ أصحابه ، كانوا قليلين فكثروا ، وضعفاء فقووا ، وحين بدأ صلوات الله عليه بالدعوة كان وحيداً ، فأجابه الواحد بعد الواحد ، حتى قوي أمره واشتدّ كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً ، فيقوى شيئاً بعد شيء ، حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فيصبح قد ازدهر واشتد واستقام ويا له من مثل رائع ؟!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا أيها الذين أقروا بوحدانية الله ، وبنبوّة محمد ﷺ ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا الله في قولكم ـ أيها المؤمنون ـ وراقبوه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لما تقولون ، عليمٌ بما تريدون ، لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله ، ولا تُغلظوا له في الخطاب ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً[١] يا محمد، يا محمد ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ مخافة أن تحبط أعمالكم ، فتذهب باطلة برفعكم أصواتكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وأنتم لا تدرون ولا تعلمون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إن الذين يكفُّون رفع أصواتهم عند رسول الله أي يخفضونها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ هؤلاء هم الذين اختبر الله قلوبهم، فأخلصها للتقوى، بأداء طاعته، واجتناب معاصيه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لهم من الله عفوٌ عن ذنوبهم، وصفحٌ عنها ،

(١) روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ ، فجعلوا ينادونه يا محمد، يا محمد أخرجْ إلينا . . فنزلت الآية .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ
مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ
اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

* * *

وثوابٌ جزيل هو الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إن الذين ينادونك يامحمد من وراء حجراتك ،أكثرهم جهَّالٌ بدين الله ، واللازم لهم من حقِّك وتعظيمك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ ولو أن هؤلاء الأعراب الجفاة صبروا ، فلم ينادوك حتى خرجت إليهم، لكان خيراً لهم عند الله ، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفورٌ لمن تاب ورجع إلى أمر الله، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته ﴿يَا أَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، إن جاءكم فاسقٌ بخبرٍ فتثبَّتوا[1] ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ لئلا تصيبوا قوماً برآء قُذفوا بجناية ، بجهالةٍ منكم ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ فتندموا على إصابتكم لهم بالجناية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن فيكم رسولالله ،يُعرِّفه الله أنباءكم فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّم﴾ لو كان الرسول يعمل بآرائكم، ويقبل منكم ما تقولون لَنالَكم بذلك الشدَّة والمشقةُ، في كثير من الأمور ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسوله ، وتأتمُّون به ، فيقيكم الله بذلك من المشقة ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وحسَّن الإيمان في قلوبكم، فآمنتم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ﴾ وبغَّض إليكم الكفر بالله ، والكذبَ ، وركوب ما نهى الله عنه ، وتضييعَ ما أمر الله به ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ هؤلاء هم السالكون طريق الحق ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ونعمةً﴾ فضلاً ، وإحساناً، ونعمةً من الله أنعمها عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عالمٌ بالمحسن منكم والمسيء ، ومن هو لنعم الله وفضله أهلٌ ، حكيمٌ في تدبير خلقه

(١) ذكر المفسرون أن النبي ﷺ بعث «الوليد بن عقبة» إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه ، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنهم منعوا الزكاة وهمُّوا بقتلي ، فأشار بعض الصحابة إلى الخروج لقتالهم فنزلت الآية

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي
حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ

* * *

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وإن جماعتان من أهل الإيمان اقتتلوا[١] ، فأصلحوا ـ أيها المؤمنون ـ بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ فإن أبت إحدى الطائفتين ، الإجابة إلى حكم الله، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ فقاتلوا التي تعتدي ، وتأبى الإجابة إلى حكم الله﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجع إلى حكم الله ، الذي حكم به في كتابه بين خلقه ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فإن رجعت الطائفة الباغية، إلى الرضا بحكم الله، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى، بالإنصاف بينهما والعدل ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ واعدلوا في حكمكم بين من حكمتم بينهم ، إن الله يحب العادلين[٢] في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالعدل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إنما المؤمنون إخوةٌ في الدين ، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا ، بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ليرحمكم ربكم ، فيصفح عن سالف إجرامكم، إذا أنتم أطعتموه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين ، عسى أن يكون المهزوء منهم خيراً من الهازئين ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ ولا يهزأ نساءٌ مؤمنات من نساءٍ مؤمنات ، عسى أن يكون المهزوء منهنَّ خيراً من الهازئات ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ولا يغتب

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيتَ «عبدالله بن أبي بن سلول»ـ وهو رأس المنافقين ـ فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما آتاه النبي ﷺ قال له : إليك عنيّ ـ أي تنحَّ وابتعدْ عني ـ فواللهِ لقد آذاني نتنُ حمارك ، فقال رجلٌ من الأنصار : واللهِ لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك !! فغضب لعبد الله بن سلول رجلٌ من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضربٌ بالأيدي والجريد والنعال ، فأنزل الله ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..﴾ الآية.

(٢) الله تبارك وتعالى قال «وأقسطوا إن الله يحب المُقْسطين» ولم يقل : يحب القاسطين لأن «المقسط» اسم فاعل بمعنى العادل، وماضيه أقسط أي عدل، وأما «القاسط» فهو الظالم الجائر﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ وماضيه قسط بمعنى ظلم .

بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

* * *

بعضكم بعضاً[١]، ولا يطعن على بعض ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَابِ﴾ ولا تدعوا إخوانكم بالألقاب البذيئة ، بما يكرهون مِنْ اسم أو صفة[٢] ﴿بِئْسَ الاَسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ ومن سخر من المؤمنين ، أو لمز أخاه المؤمن ، فهو فاسقٌ، فلا تفعلوا ما تستحقوا أن تُسموا به فُسَّاقاً[٣] ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ومن لم يتب من معصيته وسخريته، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم ، فأكسبوها عقاب الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا تقربوا كثيراً من الظن السيىء بالمؤمنين ، فتظنُّوا بهم سوءاً ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إن ظنكم بالمؤمن الشرَّ إثمٌ، لأن الله قد نهاكم عنه ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ ولا تقل في أخيك بظهر الغيب ما يكرهه[٤] ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتاً؟ فإذا لم تحبوا ذلك وكرهتموه، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه، فاكرهوا غيبته حياً ، كما كرهتم لحمه ميتاً[٥] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا عقوبة الله ، بانتهائكم عما نهاكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله راجع على عبده بما يحبه ، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) إنما قال﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ فجعل الطاعن على أخيه طاعناً نفسه، لينبهنا إلى أن المسلمين كرجل واحد، فيما يلزم بعضهم لبعض ، من إصلاح أمره ، وطلب نفعه ، ومحبته الخير له، كما قال ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد..» الحديث .

(٢) قال قتادة : لا تقل لأخيك المسلم: يا فاسقُ ، يا منافق، وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عصى ثم تاب، فتعيرّه بما سلف من عمله ، واختار الطبري أن اللفظ على العموم وهو أن يدعو الإنسان صاحبه بما يكرهه من اسم وصفةأقول: هذا كقولك لشخص يا قصير ، يا بليد، أو هذا فاسق منافق أو انظر إلى هذا الأشيمط أو إلى هذا القرد . . الخ

(٣) معنى الآية : بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً صالحاً ، فدل على أن التنابز بالألقاب ، يخرج الإنسان من دائرة الإيمان ، إلى دائرة الفسق والعصيان .

(٤) في الحديث الصحيح «إذا ذكرت أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» أي كذبت عليه وقذفته بما هو بريء منه وهو البهتان .

(٥) انظر إلى هذا التمثيل المفزع، الذي فاق في أسلوبه وبيانه كل تصوير وبيان، فقد مثّل لقبح الغيبة وشناعتها بمن جلس أمام جثة أخيه الميت ينهش منها ، فقد صوّره بما ينفر منه الطبع ، أولاً أنه لحم إنسان لا لحم حيوان، وثانياً : أن هذا الإنسان الذي ينهشه هو أخ له، وثالثاً : أن هذا اللحم لحم ميت ، ويا له من تمثيل فظيع يقطع أعناق المغتابين !!

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ
وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

* * *

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أنشأنا خلقكم من ماء ذكرٍ وماء أنثى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾ وجعلناكم من بطونٍ بعيدة وهي الشعوب، ومن أفخاذٍ قريبة وهي القبائل، كما يُقال: هو من مضر، أو ربيعة، وهو من قبيلة كذا ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً في النسب، والقرابة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ إن أكرمكم عند الله، أشدكم اتقاءً لله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليمٌ بأتقاكم وبأكرمكم عنده، خبيرٌ بكم وبمصالحكم، لا تخفى عليه خافية.

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قالت الأعراب صدَّقنا بالله ورسوله، فنحنُ مؤمنون ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ قل لهم يا محمد: لستم بمؤمنين حقيقة، فلا تقولوا: آمنا، ولكنْ قولوا: أسلمنا، لأن الإسلام قولٌ، والإيمان قولٌ وعملٌ[1] ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولمَّا يدخل العلم بشرائع الإيمان، وحقائق معانيه في قلوبكم ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وإن تطيعوا الله ورسوله - أيها الأعرابُ - فتأتمروا بأمره، وتنتهوا عما نهاكم عنه ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا يُنقصكم من ثوابها شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لمن تاب من سالف ذنبه وأطاع الله، رحيم بخلقه أن يعاقبهم بعد توبتهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إنما المؤمنون - الكُمَّل - الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ثم لم يشكُّوا في وحدانية الله، ولا في نبوة محمد ﷺ، ولا في فرائض الله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وجاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مهجهم، في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هؤلاء هم الصادقون في قولهم: إنا مؤمنون، لا من دخل في الملَّة

(١) هؤلاء قوم من الأعراب، قدموا المدينة في سنة مجدبة، وامتنوا على الرسول ﷺ بإسلامهم فقالوا: يا رسول الله جئناك مؤمنين، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، وأخذوا يمتنون عليه بالإيمان وعدم القتال فنزلت الآية، وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام.. لأن الإيمان اعتقادٌ، وقولٌ، وعملٌ، والإسلام هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، فأدبهم الله عز وجل ونبَّههم إلى أن المؤمن الحقيقي هو من صدَّق إيمانه بعمله، لا من انتحل الإيمان بالكلام، وامتن بإيمانه على الرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا وردت بعدها الآية ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

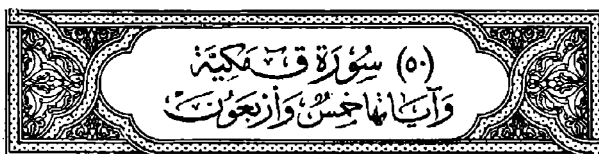
* * *

خوف السيف ، ليحقن دمَه ومالَه ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الأعراب: أتعلمون الله أيها القوم بدينكم، وبطاعتكم لربكم(١)؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والله علاّمُ الغيوب ، يعلم جميع ما في السموات والأرضين، لا يخفي عليه شيء ، فكيف تُعلّمونه بدينكم ؟ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالمٌ بكل ما كان ، وما هو كائن، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما في ضمائركم، فينالكم عقوبته ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ يمن عليك هؤلاء الأعراب يا محمد بأن أسلموا، فقل لهم : لا تمنّوا عليَّ إسلامكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ بل الله يمنُّ عليكم - أيها القومُ - أن وفّقكم للإيمان به وبرسوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم آمنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إن الله يعلم ما غاب عنكم في خبايا السموات والأرض ، لا يخفى عليه الصادق من الكاذب ، يعلم ما تكنّه صدوركم، وتحدّثون به أنفسكم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بصيرٌ بأعمالكم التي تعملونها جهراً أم سراً ، وهو مجازيكم على جميع ذلك .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

(١) الاستفهام في الآية ﴿أتعلّمونَ اللَّهَ بدينِكُمْ﴾؟ للإنكار والتوبيخ ، ومعنى الآية : أتخبرون اللّهَ بما في ضمائركم وقلوبكم من الإيمان والطاعة ، والله هو العالم بكل ما في الكون ، لا تخفى عليه خافية !!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا
بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

* * *

﴿قٓ﴾ قال بعضهم هو اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وقال آخرون : هو اسمٌ من أسماء القرآن[١] ﴿والقرآنِ المجيدِ﴾ والقرآن الكريم ﴿ بل عَجِبُوا أن جاءَهُمْ مُنْذِرٌ منهم﴾ كذبوك تعجباً من أن جاءهم منذرٌ، ينذرهم عقاب الله ، وهو بشرٌ من بني آدم ، ولم يأتهم مَلَكٌ برسالة من عند الله ﴿فقال الكافِرُونَ هذا شيء عجيب﴾ فقال المكذبون من قريش : مجيءُ رجلٍ من بني آدم برسالةٍ من الله شيءٌ يدعو للعجب، فهلاَّ أُنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً !؟ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً﴾ قالوا أئذا متنا وكنا تراباً نرى ما تعدنا على تكذيبك ؟! قال الضحاك : قالوا : كيف يحيينا اللَّهُ وقد صرنا عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ذلك غير كائن، ولسنا راجعين أحياء بعد مماتنا ﴿قد عَلِمْنَا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد مماتهم[٢] ﴿وَعِنْدَنا كتاب حَفِيظٌ﴾ وعندنا كتابٌ مكتوب فيه ما تُفني الأرضُ من أجسادهم ، حافظٌ لذلك كلِّه ، لا يتغَيَّر ولا يتبدَّل ﴿بَل كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ بل كذبوا بالقرآن لما جاءهم من الله ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ فهم في أمر مختلط ملتبس ، لا يعرفون حقَّه من باطله ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

---

(١) تقدم معنا القول الراجح في أوائل السور أنها لبيان إعجاز القرآن، فهذا الكتاب العجيب المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وهو قول المحققين من أئمة التفسير .

(٢) قال ابن عباس : قد علمنا ما تأكل الأرض من لحومهم، وأبشارهم، وعظامهم ، وأشعارهم.

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ
ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ

* * *

بَنَيْنَاهَا﴾ أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها فسويناها سقفاً محفوظاً!! **﴿وزيَّنّاها وما لها من فُرُوجٍ﴾** وزيناها بالنجوم ، ومالها من صدوع **﴿والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾** والأرض بسطناها **﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾** وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، رست في الأرض **﴿وأَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نباتٍ حسن **﴿تَبصرة وذكرى﴾** فعلنا ذلك تبصرةً لكم أيها الناس، نبصّركم بها قدرة ربكم، وتذكيراً بعظمته وسلطانه ، وتنبيهاً على وحدانيته **﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾** لكل عبد رجع إلى الإيمان والعمل بطاعة الله **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ﴾** ونزلنا من السماء مطراً مباركاً ، فأنبتنا به أشجاراً وبساتين، وحب الزرع المحصود من البرِّ وسائر الحبوب **﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾** وأنبتنا بالماء النخل الطّوال، لها طلع منضود بعضه على بعض **﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾** أنبتنا هذه الجنات، والحب قوتاً للعباد بعضها غذاءً ، وبعضها فاكهة **﴿وأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾** وأحيينا بهذا الماء بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت **﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾** كذلك نخرجكم يوم القيامة[1]، أحياء من قبوركم من بعد بلائكم **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ وثَمودُ. وعَادٌ وفِرْعَوْنُ وإِخْوانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾** كذبت قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمداً ـ ﷺ هذه الأقوام المذكورة **﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾** كل هؤلاء كذَّبوا رسل الله، فوجب لهم الوعيد وحلَّ بهم العذاب والنقمة **﴿أَفَعَيِينَا بالخَلْقِ الأَوَّلِ﴾** أفعجزنا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه؟! فنعيا بإعادتهم خلقاً جديداً بعد بلائهم وفنائهم ؟! **﴿ بل هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** بل هم في شك من قدرتنا على أن نخلقهم ، بعد فنائهم وبلائهم في قبورهم **﴿ ولقد خَلَقْنَا الإنسان ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾** ولقد

---

(١) هذا تمثيل للبعث بعد الموت والمعنى كما أحيا الله الأرض القاحلة الجرداء، التي لا نبات فيها ولا زرع ، بالماء ينزل من السماء، كذلك يحيي الله الموتى فيخرجهم أحياء من قبورهم بعد أن أصبحوا رُفاتاً ورمماً بالية .

بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ
هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾

* * *

خلقنا الإنسان ، ونعلم ما تحدث به نفسه ، فلا يخفى علينا سرائره ، وضمائر قلبه **﴿ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ﴾** ونحن أقرب للإنسان من عرق العنق[١]

﴿إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عن اليمين وعن الشِّمال قَعِيدٌ﴾ حين يتلقى الملكان ـ وهما المتلقيان ـ عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد[٢] **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾** ما يتكلم الإنسان من قول، إلا حافظٌ يحفظه عليه **﴿عَتِيدٌ﴾** معدٌّ مهيأً لكتابة ما أُمر به، **قال مجاهد** : مع كل إنسانٍ ملكان : ملك عن يمينه يكتب الخير ، وملك عن يساره يكتب الشر **﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوتِ بِالْحَقِّ﴾** وجاءت شدَّةُ الموت وغَلَبتُه ، بالحق من أمر الآخرة ، حتى تَتَبَّته الإنسـان وعَرَفه **﴿ذلك ما كُنْتَ منه تَحِيدُ﴾** هذا هو الشيء الذي كنت تهرب منه ، وعنه تروغ . **﴿ونُفِخَ في الصُّورِ ذلك يَوْمُ الوَعِيدُ﴾** ونفخ في الصور ـ نفخة البعث ـ وهي النفخة الثانية ، ذلك اليوم هو يوم الوعيد ، الذي وعد الله به الكفار **﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سائِقٌ وشَهِيدٌ﴾** وجاءت في ذلك اليوم كلُّ نفس ربَّها ، معها سائقٌ يسوقها إلى الله ، وشهيدٌ يشهد عليها بما عملت من خيرٍ أو شر **﴿لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾** لقد كنت أيها الإنسان في غفلة ، من هذا الذي عاينت اليوم من الأهوال والشدائد **﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾** فجلَّيناوأظهرنا ذلك لعينيك حتى رأيته، **قال ابن عباس** كُشف الغطاءُ عن البر والفاجر، فرأى كلَّ ما يصير إليه **﴿فَبَصرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** فأنت اليوم نافذ البصر، عالمٌ بما كنت عنه في الدنيا في غفلة **﴿وقال قَرِينُهُ هذا ما لديَّ عَتِيدٌ﴾** وقال قرين هذا الإنسـان هذا الذي هو عندي معدٌّ محفوظ **﴿أَلْقِيَا في جهنَّم كلَّ كَفَّارٍ**

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد : حبل الوريد هو الذي يكون في الحلق . . والمراد بالقرب قرب العلم أي نحن أعلم به وأعرف بأحواله، لا يخفى علينا شيء من خفياته، ففيه تصوير لفرط القرب لقول العرب : هو مني معقد الإزار قال ابن كثير : المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس . اهـ المختصر ٣٧٣/٣ .

(٢) هذا من باب الاكتفاء ، اكتفى بذكر الثاني عن الأول ، أي عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، ومعناه أن الله جل ثناؤه وكَّل بكل إنسانٍ ملكين مَلَك عن يمينه يكتب الحسنات وملك عن شماله يكتب السيئات .

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا
مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا
يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

* * *

عَنيدٍ﴾ يقال: ألقيا في جهنم كل جاحد وحدانية الله ، معاندٍ للحقِّ، وسبيل الهدى ﴿مَنَّاعٍ لِلخير﴾ يمنع كل حقٍّ لله أو لآدمي عليه ﴿مُعْتَدٍ﴾ معتدٍ على الناس ظلماً ، بلسانه وبيده ، بالفحش ، والسطوة والبطش﴿مُريبٍ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله ﴿الذي جعل مع اللهِ إلَهاً آخر﴾ الذي أشرك بالله معبوداً آخر من خلقه ﴿فألقِيَاه في العذابِ الشَّديدِ﴾ فألقياه في عذاب جهنم الشديد ﴿قال قَرِينُهُ ربَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾ قال شيطانه الذي كان موكلاً به في الدنيا ما أنا جعلته طاغياً متعدياً ﴿ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ﴾ ولكنْ كان في طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بالوَعِيدِ﴾ قال الله للمشركين لا تختصموا لديَّ اليوم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني ﴿ما يبدل القول لدي﴾ ما يُغيِّر القولُ الذي قلته : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ولا قضائي الذي قضيته ﴿وما أنا بِظَلَّامٍ للعَبيد﴾ ولا أنا بمعاقب أحداً بجرم غيره ، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مَزِيدٍ﴾ ويوم القيامة نقول لجهنم : هل امتلأت ؟فتقول :زدني يا رب ؟ هل من شيءٍ أزداده(١)

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأُدنيت الجنةُ وقُرِّبت للذين اتقوا ربهم، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غير بعيدةٍ منهم﴿هذا ما تُوعَدُونَ﴾ يقال لهم : هذا الذي وعدكم الله أن تدخلوها وتسكنوها ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لكل راجعٍ من معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه حافظٍ لكل الفرائض والطاعات ، التي تقرِّبه من ربه، قال قتادة: حفيظٍ على فرائض الله ، وما استودعه من حقه ونعمته . ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ من خاف الله في الدنيا ـ من قبل أن يلقاه فأطاعه واتَّبع أمره ﴿ وجاء بقلب مُنِيبٍ﴾ وجاء اللَّهَ بقلبٍ تائب من ذنوبه ، راجعٍ إلى ما يرضيه

---

(١) وفي الحديث الصحيح «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه فتقول: قطْ، قطْ وعزتك وكرمك ـ أي كفى كفى ـ وينزوي بعضها إلى بعض..» أخرجه الشيخان .

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

* * *

﴿ٱدْخُلُوها بسلام﴾ ادخلوا هذه الجنة بأمانٍ من الهمِّ ، والعذاب ، وما كنتم تلقونه في الدنيا من المكاره ﴿ذٰلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾ هذا هو يوم دخول الناس الجنة ، ماكثينَ فيها إلى غير نهاية ﴿لهم ما يَشَاءُونَ فيها﴾ لهؤلاء المتقين في الجنة، من كل ما تشتهيه نفوسهم ، وتلذُّه عيونهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وعندنا لهم[١] على ما أعطيناهم من الكرامة،مزيدٌ نزيدهم بها وهو النظر إلى وجه الله جلَّ ثناؤُه ﴿وكم أَهْلَكْنَا قبلهم من قَرْنٍ هم أشدُّ منهم بَطْشاً﴾ وكثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، هم أشدُّ بطشاً من قريش الذين كذَّبوا محمداً ﷺ ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ﴾ فخرقوا البلادَ فساروا فيها ، فطافوا وتوغَّلوا إلى الأقاصي منها ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ فهل لهم من معدلٍ عن الموت ، ومنجىً من الهلاك، إذْ جاءهم أمرنا ؟ ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ﴾ إن في إهلاكنا القرون الماضية ، لذكرى يتذكر بها من كان له عقلٌ[٢]، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه، من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بهم من العذاب ﴿أو أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أو أصغى بسمعه لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكناها ، فسمع الخبر عنهم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وهو متفهمٌ لما يُخبر به عنهم، شاهدٌ له بقلبه، غير غافلٍ عنه ولا ساهٍ ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ ولقد خلقنا السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلائق في ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنا مِن لُغوب﴾ وما مسنا من نصبٍ وإعياء ﴿فاصْبِرْ على مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود ، وما يفترون على الله ويكذبون عليه ، فإن الله لهم بالمرصاد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ وصلِّ لربك «صلاة الصبح» قبل طلوع الشمس ، و «صلاة العصر» قبل الغروب[٣] ﴿وَمِن الليل فَسَبِّحْهُ وأَدْبَارَ السجُودِ﴾ وصل المغرب والعشاء في الليل، وسبح بحمد

(١) هذا القول أن المزيد هو «النظر إلى وجه الله الكريم» هو قول إنسٍ وجابرٍ فقد قالا : المزيد هو أن يتجلى الله تعالى على عباده في الجنة حتى يرونه ، وذلك في كل جمعة» انظر روح المعاني ١٩٠/٢٦

(٢) المراد بالقلب العقل، قال ابن زيد: قلبٌ حيٌّ يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم ، كيف عذَّبهم الله وصنع بهم حين عصوا رسله .

(٣) خصهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما .

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

* * *

ربك أدبار السجود من صلاتك[١] ﴿وَاسْتَمِع يَوْم يُنَادِ المنَادِ مِنْ مَكَانٍ قرِيبٍ﴾ واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب[٢] ﴿يَوْم يَسْمَعُونَ الصَّيْحة بِالْحَقِّ﴾ يوم يسمع الخلائق صيحة البعث من القبور لموقف الحساب، بأمر الله عز وجل ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ ذلك هو يوم خروج أهل القبور من قبورهم ﴿إنَّا نحن نُحْيي وَنُمِيتُ وإلينَا المَصِيرُ﴾ إنا نحن نحيي الموتى ،ونميت الأحياء، وإلينا مرجع جميعهم يوم القيامة ﴿يَوْم تَشَقَّقُ الأَرْض عَنهُمْ سِرَاعاً﴾ يوم تتصدع الأرض عنهم، فيخرجون منها سراعاً ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ علينا يسير﴾ ذلك جمع في موقف الحساب علينا سهل ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون، من فريتهم على الله ، وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت ﴿وَمَا أَنْتَ عَليهم بِجَبَّار﴾ وما أنت عليهم بمسلط[٣] ﴿فذكِّرْ بالقرآن من يخاف وَعِيدِ﴾ فذكر يا محمد بهذا القرآن، الذي أنزلته إليك ، من يخاف الوعيد الذي أوعدته من عصاني ، وخالف أمري

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قٓ»

* * *

(١) المنقول عن السلف، انهما الركعتان بعد صلاة المغرب، وهذا ما رجحه الطبري ، وهناك رأيٌ لابن زيد وهو أن المراد به النوافل مطلقاً في أعقاب الصلوات المفروضة ، ولعل هذا الرأي أرجح لأن الآية عمَّمت ﴿وأدبار السجود﴾ أي في أعقاب الصلوات فتكون الآية قد حضت على الصلوات المفروضة وعلى النوافل والله أعلم .

(٢) المراد بها صيحة البعث ، وهي النفخة الثانية في الصور ، والمنادي: هو إسرافيل عليه السلام حين يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ويوم الحساب، ثم ينفخ النفخة الثانية في الصور ﴿ فإذا هم من الأَجْدَاثِ إلى ربهم ينسلون﴾.

(٣) أي لست يا محمد مسلطاً عليهم تجبرهم على الإسلام وإنما أنت رسول مذكّر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾

* * *

﴿ والذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ والرياح التي تذرو التراب ذرواً ﴿ فالحامِلاَتِ وِقْراً ﴾ فالسحاب التي تحمل وقرها من الماء ﴿ فالجارِيَاتِ يُسْراً ﴾ فالسفن التي تجري في البحار سهلاً يسيراً ﴿ فالمقسِّمات أَمْراً ﴾ فالملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه[1] ﴿ إنما تُوعَدون لَصَادِق ﴾ إن الذي توعدون أيها الناس ـ من قيام الساعة ، وبعث الموتى من قبورهم أحياء ـ لكائن حق يقين ﴿ وإن الدِّين لَوَاقِعٌ ﴾ وإن الحساب ، والثواب ، والعقاب ، لواجبٌ ، واللَّهُ مجازٍ عباده بأعمالهم ﴿ والسماء ذات الحُبُكِ ﴾ والسماء ذات الطرائق والخَلْق الحسن ﴿ إنكم لفي قول مختلِفٍ ﴾ إنكم ـ أيها الناس ـ في هذا القرآن لفي قول مختلف ، فمن مصدقٍ به ومكذب ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يُصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صُرف ، ويُدفع عنه من يُدفع ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ﴾ لُعن المتكهِّنون ـ أهل الظنون ـ الذين يتخرصون الكذب والباطل ﴿ الذين هم في غَمْرَةٍ سَاهُون ﴾ الذين هم في غمرة الضلالة ، متمادون ، وعن الحق الذي بعثاللَّهُ به محمداًﷺ ساهون ﴿ يسألون أيَّانَ يومُ الدين ﴾ يسأل هؤلاء الخراصون : متى يوم المجازاة

(١) هذه أقسام أربعة أقسم الله عز وجل بها ، أقسم بالرياح التي تذرو التراب فتفرقه ، وبالسحب التي تحمل أثقال الأمطار ، وبالسفن التي تجري على سطح الماء جرياً سهلاً يسيراً وهي تحمل ذرية بني آدم ، وبالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار وتدبرشئون الكون ، أقسم بهذه الأمور. على أن ما وعدهم به محمد ﷺ من الثواب والعقاب ، والجزاء والحساب أمرٌ صدقٌ محقق لا كذب فيه . والقسمُ بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على عجيب صنع الله وقدرته جلّ وعلا .

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

* * *

والحساب ؟ أجاب تعالى لهم بقوله ﴿ يوم هم على النار يُفْتَنُونَ ﴾ يوم هم على نار جهنم ، يُعذبون بالإحراق فيها ﴿ ذوقوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ يقال لهم : ذوقوا عذابكم وحريقكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ هذا العذاب الذي توفَّونه اليوم ، هو العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا ﴿ إن المتَّقين في جناتٍ وعيون ﴾ إن الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه ، في بساتين وعيون الماء في الآخرة ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه[1] ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مُحْسنين ﴾ إنهم كانوا ـ قبل أن تُفرض عليهم الفرائضُ ـ مطيعين ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يَهْجَعُون ﴾ كان هجوعهم من الليل قليلاً[2] ﴿ وبالأسْحار هم يَسْتغفِرُون ﴾ نشطوا في الصلاة ، وأخَّروا الاستغفار إلى السحر ﴿ وفي أموالهم حَقٌّ للسَّائل والمحروم ﴾ وفي أموال هؤلاء المحسنين ، حقٌّ للسائل المحتاج الذي يسأل الناس ، وللمحروم الذي قد حُرم الرزقَ واحتاج ﴿ وفي الأرض آيات للمُوقِنِينَ ﴾ وفي الأرض عِبَرٌ وعظاتٌ لأهل اليقين ، إذا ساروا في أرض الله ﴿ وفي أَنْفُسِكُم أفلا تُبْصرون ﴾ وفي أنفسكم أيضاً آياتٌ وعِبَر ، تدلكم على وحدانية صانعكم ، أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه ؟ ﴿ وفي السماء رزقُكُم وما تُوعَدون ﴾ وفي السماء « المطرُ » و « الثلج » اللذان بهما تُخرج الأرضُ رزقَكم ، وقوتكم من الطعام والثمار ، وما توعدون من خير أو شر[3] ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تَنْطِقُون ﴾ يقسم الله لخلقه بنفسه فيقول : فورب السماء والأرض إن الذي قلت لكم ـ أيها الناس ـ أن في السماء رزقكم لحقٌّ حقاً يقينياً ، كما حق أنكم تنطقون[4] .

---

(١) قال الإمام ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿في جنات وعيون﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم أي من السرور والنعيم والغبطة ، وقوله عز وجل ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا . ا هـ ٣ /٣٨٣ من المختصر .

(٢) معنى الهجوع : النوم أي كانوا لا ينامون من الليل إلا قليلاً لأنهم في طاعة ربهم بقيام الليل قال الحسن : كابدوا قيام الليل .

(٣) وقيل المعنى : وما توعدون به من الثواب والعقاب كذلك مكتوبٌ في السماء .

(٤) الآية وردت على سبيل التمثيل مع التدليل بالحجة والبرهان أي رزقكم مقسومٌ في السماء كنطقكم فكما لا تشكون في نطقكم فكذلك لا تشكوا في رزقكم ، فإن الخلّاق قد قسم الأرزاق وفي الحديث (لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت) .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ
بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥)

* * *

﴿ **هل أتاك حديث ضَيْف إبراهيم المكرَمِينَ** ﴾ هل أتاك يا محمد ، حديث ضيف إبراهيم « خليلِ الرحمن » الذين أكرمهم إبراهيم وزوجته ﴿ **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً** ﴾ حين دخل ضيف إبراهيم عليه فقالوا له : نسلِّم عليك سلاماً ﴿ **قال سلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرون** ﴾ قال إبراهيم لهم : سلام عليكم ، أنتم قومٌ لا نعرفكم ﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ فرجع إلى أهل بيته ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ فجاء ضيفه بعجل سمين(١) ، قد أنضجه شيّاً ، **قال قتادة** : كان عامَّةَ مال نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام البقرُ ، فلذلك جاءهم بعجلٍ مشوي ﴿ **فقربه إليهم قال ألا تأكلون** ﴾ فقربه إليهم ، فأمسكوا عن أكله ، فقال : ألا تأكلون ﴿ **فأوجس منهم خِيفَةً قالوا لا تخف** ﴾ فأضمر إبراهيم في نفسه من ضيفه خيفة قالوا : لا تخف ﴿ **وبشَّروه بغلام عليم** ﴾ وبشروه بإسحٰق(٢)، يكون عالماً إذا كبر ﴿ **فأقبلت امرأته في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وجهها** ﴾ فصاحت زوجه « سارة » فضربت بيدها جبهتها تعجباً ﴿ **وقالت عجوز عقيم** ﴾ وقالت : أتلد امرأةٌ عجوز ، وهي عقيمٌ لا تلد ؟ ﴿ **قالوا كذلِكِ قال ربكِ** ﴾ قالوا لها : هكذا قال ربك كما أخبرناك ﴿ **إنه هو الحكيم العليم** ﴾ الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ﴿ **قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون** ﴾ قال إبراهيم : فما شأنكم أيها المرسلون ؟ ﴿ **قالوا إنا أُرْسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ قالوا : إن الله أرسلنا لقومٍ قد أجرموا لكفرهم بالله ﴿ **لنُرْسِل عليهم حجارةً من طين** ﴾ لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين ﴿ **مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ معلَّمةً عند ربك ، للمتعدِّين حدود الله ، الكافرين به من قوم لوط ﴿ **فأخْرَجْنا من كان فيها من**

(١) العجل : ولد البقرة ، واختاره سميناً زيادة في إكرامهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة ولذلك أضمر في نفسه الخوف منهم ، وقد انتظمت هذه الآية آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعر الضيف بسرعة وخفاء ، ولم يسألهم أتأكلون ؟ أو هل نأتيكم بطعام ؟ بل جاءهم به بدون استئذان ، وأتى بأفضل ما وجد وهو العجل المشوي السمين ، ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً عنهم ثم يقول لهم اقتربوا ، ودعاهم إليه على سبيل العرض والتلطف ﴿ألا تأكلون﴾؟ فانظر رعاك الله إلى أدب الضيافة من الخليل إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم !!

(٢) الجمهور على أن المبشر به « إسحٰق » كما قال الطبري ، لأن الله تعالى قال في سورة هود ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحٰق يعقوب﴾ .

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ
أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾
فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا



المؤمنين ﴾ فأخرجنا من كان في قرية « سدوم » ـ قرية قوم لوطٍ ـ من أهل الإيمان بالله وهم لوط وابنتاه ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ فما وجدنا في تلك القرية غير بيت « لوط » من المسلمين ﴿ وَتَرَكْنَا فيها آية للذين يخافون العذابَ الأَليم ﴾ وتركنا في هذه القرية عظة وعبرةً ، للذين يخافون عذاب الله الأليم في الآخرة ﴿ وفي موسى إذ أَرْسَلناهُ إلى فرعون بِسُلطانٍ مبين ﴾ وفي « موسى بن عمران » حين أرسلناه إلى فرعون ، مصر ، بحجة واضحة على حقيقة ما يدعو إليه ﴿ فتولى بركنه ﴾ فأدبر فرعون بجنده وأصحابه ﴿ وقال ساحرٌ أو مجنون ﴾ وقال لموسى هو ساحرٌ يسحر عيون الناس ، أو رجل مجنون به جِنَّة ﴿ فأخذناه وجنوده فَنَبَذْناهم في اليَمِّ ﴾ فأخذنا فرعون وجنوده لمَّا أَغضبونا ، فألقيناهم فى البحر فغرَّقناهم فيه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وفرعون قد أتى ما يُلام عليه من الفعل ﴿ وفي عادٍ إذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ وفي عاد وما فعلنا بهم ، آيةٌ وعِبرة ، حين أرسلنا عليهم الريح التي ليس فيها بركة ولا تلقِّح الشجر ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ ما تترك من شيءٍ تصيبُه ، إلَّا جعلته كنباتِ الأرض اليابس ﴿ وفي ثمود إذ قِيل لهم تمتَّعوا حتى حِين ﴾ وفي ثمود أيضاً عبرةً ومتعظ ، إذ قال لهم ربهم : تمتعوا بالحياة حتى موعد العذاب[1] ﴿ فَعَتَوْا عن أمرِ ربهم ﴾ فتكبروا عن أمر ربهم ، وعلوا استكباراً عن طاعة الله ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة ، وهم ينتظرون حلوله بهم ﴿ فما استطاعوا من قِيَامٍ ﴾ فما استطاعوا من دفاعٍ لما نزل بهم من عذاب الله ، ولا قدر القوم نهوضاً لعقوبة الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ وما كانوا قادرين على أن ينتقموا ممن أحلَّ بهم العقوبة .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وأهلكنا قوم نوح من قبل هذه الأمم ، لمَّا كذبوا رسولنا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً فَاسِقِينَ ﴾ لأنهم كانوا مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ والسماء رفعناها

(١) موعدالعذاب هو ثلاثة أيام بعد عقرهم الناقة كما قال تعالى ﴿قال تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ .

بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

* * *

سقفاً بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ وإنا لذو سعة وقدرة بخلقها ، وخلق ما شئنا أن نخلقه ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ والأرض جعلناها فراشاً للخلق[1] ﴿ فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾ فنعم الباسطون لهم نحن ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ومن كل شيء خلقنا نوعين مختلفين ، كل واحد منهما زوجٌ للآخر ، مخالفٌ له في معناه ، كالشقاوة والسعادة ، والكفر والإيمان ، والليل والنهار ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ لتتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة ، هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك ﴿ فَفِرُّوا إلى الله ﴾ فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته ، بالإيمان به واتباع أمره ، والعمل بطاعته ﴿ إني لكم منه نذيرٌ مبينٌ ﴾ لكم من الله نذيرٌ ، أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلَهاً آخر ﴾ ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبوداً آخر سواه ، فإنه لا معبود تصلح العبادة غيره ﴿ إني لكم منه نذيرٌ مُبينٌ ﴾ نذيرٌ من عقابه ، قد أبان لكم النذارة ﴿ كذلك ما أتى الذين مِنْ قَبْلهم من رسُولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مَجْنون ﴾ كما كذبت قريش نبيها محمداً ﷺ وقالت : هو شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون ، كذلك فعلت الأمم المكذبة رسلها ، كقوم نوح وعادٍ وثمود ، الذين أحل الله بهم نقمته ، ما جاءهم رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أأوصى هؤلاء المكذبين من قريش أوائلُهم وآباؤُهم الماضون بتكذيب محمد ﷺ ! ؟ ﴿ بل هم قوم طَاغُونَ ﴾ ما أوصاهم أحد ، ولكنهم قوم طغاة ، لا يأتمرون لأمر ربِّهم ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ﴿ فَتَوَلَّ عنهم فما أنت بِمَلُومٍ ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين ، فإن الله لا يلومك فقد أنذرت ، وبلَّغت ما أُرسلتَ به ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ وعظْهم يا محمد ، فإن العظة تنفع أهل الإيمان ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ما خلقتهم إلا لعبادتنا ، والتذلل

(١) أي جعلناها ممهّدة كالفراش لتستقرّوا عليها ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوع به ، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة فسيحة ، فيها السهول الكثيرة ، والبقاع الممتدة الواسعة ، وفيها الوديان العريضة ، والجبال والهضاب ولهذا قال تعالى بعدها ﴿فنعم الماهدون﴾ أي نعم الباسطون الموسعون لها نحن .

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

* * *

لأمرنا ، قال ابن عباس : إلّا ليقرُّوا بالعبودية طوعاً أو كرهاً ، ﴿ ما أريدُ منهم من رِزْقٍ وما أريد أن يُطْعِمونِ ﴾ ما أريد ممن خلقتُ رزقاً يرزقونه خلقي ، وما أريد منهم طعاماً يطعمونه عبادي ﴿ إن اللّهَ هو الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ إن الله هو الرزاق لخلقه ، المتكفلُ بأقواتهم، ذو القوة الشديد[1] ﴿ فَإن للذين ظلمواذَنوباً مثلَ ذَنُوبِ أصحابهم ﴾ فإن للذين أشركوا من كفار قريش حظاً ونصيباً من عذاب الله ، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا قبلهم من الأمم ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلونِ ﴾ فلا يستعجلون به فإنه واقِعٌ لا محالة ﴿ فَوَيْلٌ للذين كفروا ﴾ فالوادي السائل في جهنم من قيح وصديد [2]، للذين كفروا بالله وجحدوا وحدانيته ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ من ذلك الذي وُعدوا فيه نزول عذاب الله ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد ؟ !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات »

* * *

(١) نبَّه تعالى عباده إلى أن شأنه معهم ليس كشأن السادة مع العبيد ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في أمورهم وتحصيل معاشهم ، والله غنيٌّ عن العالمين ، هو خالقهم وهو رازقهم ، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادة الله وتوحيده ، فما يريد الله منهم إلّا ذلك ، جعلنا الله من أهل العلم والفهم !!

(٢) هذا على طريقة الإمام الطبري في تفسيره « الويل » بأنه وادٍ في جهنم ، وقد تقدَّم معنا التحقيق في معنى « الويل » بأنه العذاب والهلاك والدمار ، فهو أشمل ممَّا فسَّره به الطبري والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ (٥) وَٱلْبَحْرِ
ٱلْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ
سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)
هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)

* * *

﴿ والطُّورِ ﴾ والجبل الذي يدعى الطور ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ وكتابٍ قد كتب ﴿ في رِقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ في ورق منشور ﴿ والبيتِ المَعْمُورِ ﴾ والبيت الذي في السماء بحيال الكعبة ، الذي يعمر بكثرة الملائكة[1] ﴿والسَّقْفِ المرفُوعِ ﴾ والسماء التي جعلت للأرض كالسقف ﴿ والبحر المَسْجُور ﴾ والبحر المملوء ، المجموعِ ماؤه بعضه في بعض[2] ﴿ إن عذابَ رَبِّك لَوَاقِعٌ ﴾ إن عذاب ربك يا محمد ، لكائنٌ يوم القيامة ، يحل بالكافرين ﴿ما له من دافع ﴾ ليس لذلك العذاب دافع يدفعه عنهم ، فينقذهم منه ﴿ يوم تَمُورُ السَّماء مَوْراً ﴾ يوم تدور السماء دوراً﴿ وتسير الجبال سَيراً ﴾ وتسير الجبال عن أماكنها سيراً ، فتصير هباء منبثاً﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ ﴾فالوادي[3] الذي يسيل من قيح وصديد أهل جهنمَ للكافرين يوم القيامة ﴿ الذين هم في خَوْضٍ يَلْعبون ﴾ الذين هم في فتنةٍ في الدنيا يلعبون ، غافلين عما هم صائرون إليه من عذاب الله ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلَى نارِ جَهَنَّم دَعًا ﴾ يومئذ يدفعون إلى نار جهنم دفعاً شديداً بإزعاجٍ وإرهاق ﴿ هذه النارُ التي كُنْتُم بِها تُكَذِّبونَ ﴾ يقال لهم : هذه النار التي كنتم تجحدون أن

(١) ورد في الصحيح « أنه يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه أبداً » أي من كثرتهم .

(٢) أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته وجليل نعمته ، ولتذكير الخلق على أن أهوال يوم القيامة شديدة ينخلع لها قلب الإنسان ، والمقسم عليه هو قوله ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ أي نازل بالمشركين لا محالة

(٣) هذا على طريقة الطبري في تفسيره الويل بالوادي في جهنم ، والراجح أن المراد به الهلاك والعذاب .

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

* * *

يعاقبكم ربكم بها ﴿ **أَفَسِحْر هذا أَمْ أنتم لا تُبْصِرُونَ** ﴾ أفسحر هذا الذي وردتموه الآن من عذاب جهنم ؟ أم أنتم لا تعاينونه ولا تبصرونه[١] ؟ ﴿ **اَصْلَوْها فاصْبِروا أو لَا تَصْبِروا** ﴾ ذوقوا حـرَّ هذه النار ، التي كنتم تكذبون بها ، فاصبروا على ألمها وشدتها ، أو لا تصبروا ﴿ **سَوَاءُ عليكم** ﴾ سواء عليكم صبرتم أو لم تصبروا ﴿ **إنَّما تُجْـزَوْنَ ما كُنتم تعملون** ﴾ فما تعاقبون إلا على كفركم ومعصيتكم لربكم ﴿ **إنَّ المتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** ﴾ إن الذين اتقوا الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، في بساتين ونعيم في الآخرة ﴿ **فَاكِهِينَ بِما آتاهُمْ ربهم** ﴾ عندهم فاكهة[٢] كثيرة بإعطاء الله إياهم ذلك ﴿ **وَوَقاهُمْ ربهم عَذابَ الجحِيم** ﴾ ورفع عنهم عقابه الذي عذَّب به أهل النار ﴿ **كُلُوا وَآشْرَبوا هَنِيئاً بما كنتم تَعْمَلُونَ** ﴾ يقال للمتقين في الجنات : كلوا مما آتاكم ربكم ، واشربوا من شرابها هنيئاً ، لا تخافون فيها أذى ولا غائلة ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ بما عملتم في الدنيا لله من الأعمال ﴿ **مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ** ﴾ متكئين على نمارقَ على سرر ، قد جُعلت صفـوفاً ﴿ **وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عينٍ** ﴾ وزوجنا هؤلاء المتقين أزواجاً من النساء ، شديدات بياض من مقلة العين ، في شدة سواد الحَلَقة ، مع عظم العين ، في حسنٍ وسعة ﴿ **والذين آمنوا وآتَّبَعَتْهُم ذُرِّيتهم بإيمانٍ** ﴾ والذين صدَّقوا بالله ورسوله ، واتَّبعتهم ذرياتهم بـإيمانٍ ، فآمنوا بالله ورسوله ﴿ **أَلْحقنا بهم ذُرِّيَّتَهُم** ﴾ ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم فجعلناهم معهم في درجاتهم ، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم ، تكرمةً منَّا لآبائهم[٣] ﴿ **وما أَلَتْناهم من عَمَلِهِمْ من شيء** ﴾ وما نقَّصنا الآباء من أجور أعمالهم شيئاً ، ولكنَّا وفَّيناهم أجور أعمالهم ، وألحقنا أبناءهم بدرجاتهم ، تفضلاً منّا عليهم ﴿ **كلُّ آمرِىءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ كل نفس مرتهنةٌ بما عملت من خير وشر ، لا يؤاخذ أحد منهم

---

(١) يقال لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتهكم، والمعنى هل هذا العذاب الذي ترونه وتذوقونه من قبيل السحر ، أم أنتم اليوم عميٌ كما كنتم عمياً في الدنيا عن الخير والإيمان ! ؟

(٢) هكذا فسرها الطبري وقال غيره : متنعِّمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الأجر والكرامة وأصناف المآكل والمشارب وهو الأرجح .

(٣) قال ابن عباس : إن اللّٰه عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة ، وإن كان لم يبلغها بعمله ، لتقرَّبهم عينه وتلا الآية .

وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ
فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾

* * *

بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه ﴿**وأَمْدَدْنَاهُمْ بفاكِهةٍ ولحمٍ مما يَشْتَهُونَ**﴾ وأمددنا هؤلاء المتقين بفاكهة ، ولحمٍ مما يشتهون من لحوم الجنة ﴿**يَتَنازَعُوَن فيها كَأْساً**﴾ يتعاطون فيها كأس الشراب ، ويتداولونها بينهم﴿**لَا لَغْوٌ فيها ولا تَأْثِيمٌ**﴾ لا باطل في الجنة ، ولا فعل فيها يُؤثم صاحبه(١)

﴿**ويَطُوفُ عليهم غِلْمَانٌ لهم كأنهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ**﴾ ويطوف بكؤوس الشراب على هؤلاء القوم ، غلمانٌ لهم ، كأنهم لؤلؤٌ في بياضه وصفائه مصونٌ في الصَّدف﴿**وأَقْبل بعضهُم على بَعْض يَتَساءَلونَ**﴾ وأقبل بعض هؤلاء المؤمنين على بعض ، يسأل بعضهم بعضاً في الجنة ﴿**قالوا إنَّا كُنا قَبْل في أَهْلِنا مُشفِقين**﴾ قال بعضهم : إنا كنا في الدنيا ، خائفين من عذاب الله ، وَجِلين أن يعذبنا ربنا اليوم ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ فمنَّ الله علينا بفضله ، فنجانا من عذاب النار ، وأدخلنا الجنة ﴿**إنَّا كنا من قَبْل نَدْعوهُ**﴾إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ، نعبده مخلصين له الدين ، لا نشرك به شيئاً ﴿**إنَّهُ هُوَ البَرُّ الرحِيمُ**﴾ إنه هو اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه أن يعذبهم بعد توبتهم ﴿**فَذَكِّرْ فما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ**﴾ فذكر يا محمد من أُرسلت إليه من قومك ، وعظْهم بنعم الله عندهم ،فلستَ بنعمة الله عليك بكاهنٍ تتكهن فتخبر قومك بما يخبرك به قرينك من الشياطين ، ولستَ بمجنون بحمد الله ، ولكنك رسول الله ﴿**أم يقولون شاعِرٌ نَتربَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ**﴾ بل يقول المشركون لك يا محمد : هو شاعر ، ننتظر به حوادث الدهر ، تكفينا إياه بموتٍ أو حادثة(٢) ﴿**قل تَرَبَّصُوا فإني معكم من المُتَرَبِّصينَ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء للمشركين : انتظروا وتمهَّلوا فإني معكم من المنتظرين ، حتى يأتي أمر الله فيكم ﴿**أم تأمرهم أَحْلامُهُم بهذا**﴾ أتأمر هؤلاء المشركين عقولُهم ، بأن يقولوا لمحمد ﷺ هو شاعر ، وما جاء به شعرٌ(٣)﴿**أم هم قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾بل هم قوم قد تجاوزوا ما أذن لهم ربهم، وأمرهم به من

(١) أخبر تعالى أنه لا يقع بينهم بشرب الخمر هذيان في الجنة ، ولا يلحقهم إثم ، لأن خمر الجنة من أجل اللذة فقط كما قال تعالى ﴿بيضاء لذةٍ للشاربين﴾ قال قتادة : نزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا ، فنفى عنها صُداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل ، والهذيان والفحش ، ووصفها بحسن المنظر وطيب الطعم

(٢) ريب المنون : حوادث الدهر وصروفه ، وغرض المشركين أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء .

(٣) هذا من باب السخرية والتهكم ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ فإن من له عقل لا يقول مثل هذا الكذب والبهتان في سيد ولدعدنان.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا

* * *

الإيمان إلى الكفر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أم يقول المشركون : أفترى محمد هذا القرآن ، وتخلَّقه من قِبَل نفسه ؟ ﴿ بل لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بل هم لا يصدقون بالحقِّ ، الذي جاءهم من عند ربهم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ فليأت قائلو ذلك بقرآن مثله ، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في قولهم : إن محمداً تقوَّله واختلقه .

﴿ أَمْ خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أَخُلق هؤلاء المشركون من غير آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يفهمون لله حجة ، ولا يتعظون بعظة ؟ ! ﴿ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ أم هم الخالقون هذا الخلق ؟ فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهي ؟ ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أخلقوا السموات والأرض ، فيكونوا هم الخالقين[1] ؟ ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بل لا يوقنون بوعيد الله ، وما أعدَّ لأهل الكفر من العذاب في الآخرة ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أعند هؤلاء المكذبين خزائن ربك ، فهم لاستغنائهم بذلك معرضون عن آيات الله ؟ ﴿ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ ﴾ أم هم الجبارون المتسلطون المستكبرون على الله ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أم لهم سلم يرتقون فيه إلى السماء ، يستمعون الوحي ، فيدَّعون أنهم على حق ، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه ؟ ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ فليأت من يزعم ذلك ، بحجة ظاهرة تُبين أنها حق ، كما أتى محمد ﷺ بما يظهر صدقه فيما جاءهم به من عند الله ؟ ﴿ أم له البنات ولَكُمُ البنونَ ﴾ ألربكم البنات أيها المشركون ، ولكن البنون ؟ ، تلك إذاً قسمة جائرة ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أتسألهم يا محمد من أموالهم ثواباً وعوضاً ، على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ؟ ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ فهم من ثقل ما حمَّلْتهم من الغُرم ، لا يقدرون على إجابتك ؟ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أم عندهم علم الغيب ، فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ؟ ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ أم يريد هؤلاء المشركون بك يا محمد ،

---

(١) في هذه الآيات على وجازتها حجة دامغة تقصم ظهر الباطل . . فالحقُّ جل وعلا يخاطب المشركين فيقول : ﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾ أي هل خُلقوا بدون خالقٍ أوجدهم وخلقهم ؟ وهذا بالعقل باطل ، لأن الصنعة لا بدَّ لها من صانع ، والخلق لا بدَّ له من خالق ﴿أم هم الخالقون﴾ أم هم الخالقون لأنفسهم ، وذلك في البطلان أشدُّ ﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ أم هم الذين خلقوا هذه السموات المحكمة البديعة وهذه الأرض بما فيها من أنواع المخلوقات الغريبة العجيبة ؟ وهذا لا يستطيع أن يدعيه أحد ، فإذا بطلت هذه الوجوه قامت الحجة عليهم بوجود الخالق المبدع الحكيم ، وهو الله جل وعلا ، فانظر رعاك الله كيف أفحمهم بهذا الأسلوب الحكيم !!

فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

* * *

وبدين الله مكراً يمكرونه؟ ! ﴿ فالذين كفروا هم **ٱلْمَكِيدُونَ** ﴾ فهم الممكور بهم دونك ، فثق بالله ، وآمض لما أمرك به ﴿ **أم لهم إلَٰهٌ غيرُ اللهِ** ﴾ أم لهم معبودٌ ، يستحق عليهم العبادة غير الله ، فيجوز لهم عبادته ؟ ﴿ **سُبْحان الله عما يُشْرِكُونَ** ﴾ تنزيهاً لله عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره ﴿ **وإن يَرَوْا كِسْفاً من السماءِ ساقِطاً** ﴾ وإن ير هؤلاء المشركون قِطْعاً من السماء ، ساقطاً عليهم ﴿ **يقولوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ** ﴾ يقولوا : إنما هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض ﴿ **فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ** ﴾ فدع يا محمد هؤلاء المشركين ، حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون ، وذلك عند النفخة الأولى ﴿ **يَوْمَ لا يُغْني عنهم كَيْدُهُمْ شيئاً** ﴾ يوم لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله شيئاً ﴿ **ولا هم يُنْصَرُونَ** ﴾ ولا ينصرهم ناصر ممن عذبهم وعاقبهم ﴿ **وإنَّ للذين ظَلَمُوا عَذاباً دونَ ذَلِكَ** ﴾ وإن للذين كفروا عذاباً في الدنيا والقبر ، قبل يوم القيامة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ لا يعلمون بأنهم ذائقوا ذلك العذاب ﴿ **وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ واصبر يا محمد لحكم ربك ، الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ، وبلِّغْ رسالته ﴿ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ فإنا نراك ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من المشركين سوءٌ ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّك حين تَقُومُ** ﴾ وصلِّ لربك الظهر ، حين تقوم من نوم القائلة[1] ﴿ **ومن الليل فَسَبِّحْهُ** ﴾ ومن الليل فعظِّمْ ربك يا محمد ، بالصلاة والعبادة ، بالمغرب والعشاء ﴿ **وإدْبارَ النجوم** ﴾ وصلِّ الفجر حين تدبر النجوم ، عند إقبال النهار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور »

* * *

(١) المراد بالقائلة : النوم وقت القيلولة أي « الظهيرة » وقد رجح الطبري بأن المراد بذلك صلاة الظهر ، وقال غيره : حين تقوم من منامك ، وذلك بصلاة الفجر ، وهو مروي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

* * *

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ والثريا إذا سقطت مع الفجر ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ، ولا صار غوياً ، ولكنه على استقامةٍ وسداد ورشد(١) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ما هذا القرآن إلا وحيٌ من الله ، أوحاه إليه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ علم جبريل ـ شديدُ القوة ـ محمداً ﷺ هذا القرآن ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ذو خَلْقٍ ومنظر حسن ، فارتفع واعتدل جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ وجبريل ومحمد عليهما السلام بمطلع الشمس الأعلى ، الذي يأتي منه النهار ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ثم دنا جبريل من محمد ﷺ فاقترب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فكان جبريل من محمد ﷺ على قدر قوسين أو أقرب منه(٢)

---

(١) وكأن الآية الكريمة تقول : إذا غابت الثريا عن الناس ، ولم يبق نجم في السماء ، فإن الناس يضلون عن معرفتهم الطريق في الأرض، ولكن الله تعالى الذي سيَّر النجوم في فلكها، هو المؤيد لرسوله محمد ﷺ ، فلذلك فإنه لا يضل ، ولا يزول عن الصراط المستقيم ، فالله معه دائماً. والله أعلم .

(٢) الآيات الكريمة تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام في صورته الحقيقية مرتين مرةً في الأرض ، ومرةً في السماء وذلك حين عُرِج برسول الله ﷺ إلى السموات العُلى . . فقد رُوي عن ابن مسعود أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كلُّ جناحٍ منها قد سَدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من الدُّرِّ والياقوت ما الله به عليمٌ » أخرجه الإمام أحمد . . وأما المرة التي رآه فيها في الأرض فمن جانب المشرق حين كان رسول الله ﷺ بحراء ، فطلع عليه جبريل وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب وإليه تشير الآية الكريمة ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ .

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ
وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

* * *

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ما كذب قلب محمد الذي رآه ، ولكنه صدقه ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ ﴾ أفتجادلون أيها المشركون محمداً على ما أراه الله من آياته ؟ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ولقد رأى محمدٌ جبريلَ مرةً أخرى[1] ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ عند الشجرة التي ينتهي إليها علم الخلائق ، وهي شجرة النبق ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ عند سدرة المنتهى جنة منازل الشهداء ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ حين يغشى السدرة ما يغشاها ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ما مالَ بصر محمد ﷺ يميناً ولا شمالاً عما رأى ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ولا جاوز ما أُمر به ، فارتفع عن الحد الذي حُدَّ له ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ لقد رأى محمد هنالك من أعلام ربه الأدلة الكبرى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ أفرأيتم ـ أيها المشركون ـ الزاعمون أن « اللاتَ والعُزَّىٰ ومناة الثالثة » بناتُ الله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ أتزعمون أن لكم الذكر الذي ترضونه، ولله الأنثى التي لا ترضونها ؟ ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ قسمتكم هذه قسمةٌ جائرة ، غير مستوية ، حيث آثرتم أنفسكم بما ترضونه ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ما هذه الأسماء إلاَّ أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤ كم من قبلكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لم يبح الله ذلك لكم ، ولا أذن لكم به ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ ما يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ،

---

(١) اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في الذي رآه محمد ﷺ هل هو جبريل ؟ أو هو ربُّ العزّة جل وعلا ؟ فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينيْ رأسه ، وكان ابن عباس يقول : « إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤ ية » وأنكرت ذلك عائشة وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفِريةَ على اللّه لأن الله تعالى يقول : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وكانت تقول : إنما رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين : مرةً في الأرض حين هبط من السماء ، وقد سدَّ عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى ، له ستمائة جناح .

أقول : الآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤ ية الرسول ﷺ لربه ، لأن الحديث فيها إنما جاء عن جبريل بدليل قوله ﴿علّمه شديد القوى﴾ وقوله ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ فالضمائر كلها تدل على أن المراد به جبريل ، وقد ختم الله هذه الآيات بقوله ﴿ لنريه من آياتنا الكبرى ﴾ فهذه هي دلالة الآيات وهذه فحواها. .ونحن مع أهل السُّنة والجماعة نقول: إنَّ الرسول ﷺ قد رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج كما هو مذهب الإمام أحمد ، والأدلة تؤخذ من السنة المطهرة ومن أقوال السلف لا من الآيات الكريمة فليس في السورة ما يشير إلى رؤ ية الرسول ﷺ لربه والله أعلم .

أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ
ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ
عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

* * *

وهوى أنفسهم ، لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ ولقد جاء المشركين من ربهم البيان ، أن عبادة هذه الأوثان لا تنبغي ، وأنه لا تصلح العبادة إلا للّهِ الواحد القهار ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أم اشتهى محمد ﷺ النبوة والرسالة ، وتمنّى ذلك فأعطاه ذلك ربه ؟![1] ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ فلله ما في الدار الآخرة والدنيا ، يعطي من شاء من خلقه ما شاء ، ويحرم من شاء منهم ما شاء .

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾ وكثير من ملائكة الله ، لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له أبداً ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ إلا من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة ، ومن بعد أن يرضى شفاعة ملائكته ، فتنفعه حينئذ شفاعتهم[2] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَىٰ ﴾ إن الذين لا يصدقون بالبعث ليسمّون ملائكة الله تسمية الإناث ، فيقولون : هم بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ وما لهم بما يقولون من حقيقة علم ، ما يتبعون في ذلك إلا الظن بغير علم ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ وإن الظن لا ينفع شيئاً ، فيقوم مقام الحق ﴿ فَأَعْرِضْ عن من تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ فدع يا محمد من أدبر عن ذكر الله ، ولم يؤمن به فيوحّده ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ولم يطلب ما عند الله ، ولكنه طلب زينة الحياة الدنيا ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ليس لهم علم ، إلا هذا الكفر والشرك ، بغير يقين علم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هو أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن طريق الإسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

---

(١) هكذا فسّر الإمام ابن جرير « الإنسان » في هذه الآية بمحمد ﷺ لأن سياق السورة في الحديث عن رسول الله ، ولكن الظاهر أن الآية الكريمة على عمومها أي « ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، وليس له كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة المقربين» ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

(٢) في الآية توبيخ للمشركين في اعتقادهم بشفاعة الأصنام والأوثان، فإذا كانت شفاعة الملائكة الأبرار الأطهار لا تنفع أحداً إلا بإذن الله ورضاه ، فكيف تنفعهم شفاعة الأصنام مع حقارتها ؟

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ
يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ
أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا
وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ
وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾

* * *

وهو أعلم بمن أصاب طريق الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ولله ملك ما في السموات وما في الأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو أعلم بعباده ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ ليجزي الذين عصوه من خلقه ، فيثيبهم النار ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنى ﴾ وليجزي الذين أطاعوه في الدنيا فيثيبهم الجنة ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ الذين يبتعدون عن كبائر الإثم ، التي نهى الله عنها وحرمها ، كالشرك وغيره ﴿ والفَوَاحِشَ ﴾ ويبتعدون عن الزنا وما أشبهه ﴿ إلا اللَّمَمِ ﴾ إلا أن يرتكبوا ذنباً دون الفواحش ، ودون كبائر الإثم الموجبة للحدود في الدنيا، قال عكرمة: كل ذنبٍ ليس فيه حدٌّ في الدنيا ، ولا عذابٌ في الآخرة ، فهو اللَّمم[١] ﴿ إن ربَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ ﴾ واسعٌ عفوه للمذنبين ﴿ هو أعلمُ بكم إذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ ربكم أعلم بالمؤمن والكافر ، والمحسن والمسيء ، حين ابتدعكم من الأرض ، فأحدثكم منها بخلق آدم ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وحين أنتم حمل لم تولدوا ﴿ فلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكيَّة ، بريئة من الذنوب والمعاصي ﴿ هُوَ أعلم بِمَنِ اتَّقى ﴾ هو أعلم بمن خاف عقوبة الله ، فاجتنب معاصيه .

﴿ أَفَرَأَيتَ الذي تَوَلَّى ﴾ أفرأيت يا محمد الذي أدبر عن الإيمان بالله ، وعن دينه ، بعد أن دخل فيه ﴿ وأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ وأعطى صاحبه قليلاً من ماله ، على أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ﴿ وأَكْدَى ﴾ ثم بخل عليه فلم يعطه ما كان وعده[٢] ﴿ أعنده علم الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أعند هذا علم الغيب ، فهو يرى حقيقة قوله ووفائه بما وعده ﴿ أَمْ لم يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ أم لم يخبر هذا المضمون له بالذي في صحف موسى بن عمران ؟ ﴿ وإبْرَاهِيمَ الذي وَفَّى ﴾ وإبراهيم الذي وفَّى جميع شرائع الإسلام ، وجميع ما أُمر به من الطاعة ؟ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ﴾ أن لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره .

---

(١) قال القرطبي اللَّمم : هي الصغائر من الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله ، كالقُبلة ، والغمزة ، والنظرة .

(٢) نزلت في « الوليد بن المغيرة » عاتبه بعض المشركين ـ وكان قد اتَّبع رسول الله ﷺ على دينه ـ فضمن له الذي عاتبه ـ إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى شركه ـ أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ففعل ، فأعطاه بعض ما كان ضمن له ثم بخل عليه ، ومنعه الباقي .

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾



﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنسان إلَّا ما سَعَى ﴾ وألا يُجازى عامل إلا بعمله، خيراً كان ذلك أو شراً ؟ ﴿ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ وأن كل عامل سوف يرى عمله يوم القيامة، ويُجازى عليه، لأن كل عامل مأخوذ بعمله ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾ ثم يُجزى بسعيه ذلك الثواب الأوفى[1] ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنْتَهَىٰ ﴾ وأن إلى ربك يا محمد انتهاء ومرجع جميع خلقه ، وهو المجازي لهم بأعمالهم ، محسنهم ومسيئهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ ﴾ وأن ربك هو أضحك أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار ، وأضحك من شاء من أهل الدنيا ، وأبكى من أراد أن يُبكيه منهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أمات من أمات من خلقه ، وأحيا من أحيا منهم ، بنفخ الروح في النطفة ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ وأنه ابتدع إنشاء الزوجين « الذكر والأنثى » ، فجعلهما زوجين ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ خلقهما من نطفة الرجل والمرأة ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ وأن على الله أن يخلق هذين الزوجين بعد موتهم ، وأن يعيدهم خلقاً جديداً ، كما كانوا من قبل مماتهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أغنى من أغناه من خلقه بالمال ، وجعل له المال قُنية[2] ـ أي غنى ـ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ وأن الله هو رب النجم « الشِّعرى » الذي يعبده بعضهم ، **قال ابن زيد** : الشِّعرى النجم الوقّاد الذي يتبع الجوزاء ، وكان يعبد في الجاهلية ، فقال الله : تعبدون هذه وتتركون ربها ؟ ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَىٰ ﴾ وأنه أهلك عاداً من الأمم الأولى بالريح الصرصر العاتية ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها وتمردها على ربها ، ولكنه عاقبها فأهلكها ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وأنه أهلك قوم نوح قبل عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أَظْلَمَ وأَطْغَىٰ ﴾ إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم ، وأعظم كفراً بربهم ، وأشد طغياناً وتمرداً على الله ، من غيرهم من الأمم ﴿ والمُؤْتَفِكَةَ

---

(١) أي يُجزى على عمله الجزاء الأتم الأكمل ، وفي الآية وعدٌ للمؤمن ، ووعيدٌ للكافر .

(٢) هكذا فسّره الإمام الطبري وهو قول السُّدي ، قال الجوهري : قنِيَ الرجل يَقْنى مثل غَنِيَ يَغْنى أي أعطاه الله ما يُقتنى من المال والنشب ، وأقناه الله رضّاه ، وقال بعض المفسرين المعنى : أغنى من شاء من عباده وأفقر من شاء ، وهو مروي عن ابن زيد ، ولعل هذا القول أظهر للمقابلة فيكون المعنى أغنى وأفقر ، كما قابل بين « أضحك وأبكى » و « أمات وأحيا » والله أعلم .

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ
لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ۩

* * *

أَهْوَى﴾ وقرية « سدوم » المقلوب أعلاها أسفلها هوت مقلوبة بقوم لوط ﴿ **فَغَشَّاها ما غَشَّى** ﴾ فغشَّاها الله من الحجارة المنضودة ما غشَّاها ، وأمطرها بحجارة من سجيل ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتمارَى** ﴾ فبأي نعم ربك يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب ، وتشك ، وتجادل ﴿**هَذَا نَذِيرٌ من النُّذُرِ الأُولى**﴾ هذا الذي أنذرتكم به أيها الناس من الوقائع ، من النُّذُر الأولى التي جاءت الأمم قبلكم[1] ﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ** ﴾ دنت القيامة القريبة منكم أيها الناس ﴿ **ليس لها من دون اللهِ كاشِفَةٌ** ﴾ ليس للساعة التي قد دنت من دون الله كاشف لها ، فلا تقوم إلا بإقامة الله إياها ﴿ **أَفَمِنْ هذا الحديثِ تَعْجَبُونَ** ﴾ أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون؟ أن نزل على محمد ﷺ ﴿**وتضحكون ولا تَبْكُونَ**﴾وتضحكون منه استهزاء به،ولا تبكون ممافيه من الوعيد لأهل المعاصي ﴿ **وأنتم سَامِدُون** ﴾ وأنتم لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته ﴿ **فاسْجُدوا لله** ﴾ فاسجدوا لله في صلاتكم دون من سواه من الآلهة والأنداد ﴿ **وآعْبُدوا** ﴾ وإياه فاعبدوا دون غيره فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلاّ له .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم »

* * *

---

(١) هذا التفسير الذي ذكره ابن جرير هو قول أبي مالك أن المراد بالنذير ما أنذرهم الله به من العذاب الذي حلَّ بالأمم المكذبين وروي عن قتادة أن المراد بالنذير محمد ﷺ والمعنى هذا محمد رسول منذر كسائر الرسل المنذرين قبله .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

* * *

﴿ ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة (١) ﴿ وَٱنْشَقَّ القَمَرُ ﴾ وانفلق القمر عندما سأل كفار مكة رسول الله ﷺ وهو بمكة آية ، فأراهم إنشقاق القمر ، حجةً على نبوته وصدقه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ وإن ير المشركون علامة ، تدلهم على حقيقة نبوة محمد ﷺ ، يعرضوا عنها ، فيولُّوا مكذبين منكرين أن تكون حقاً ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ويقولوا : هذا سحرٌ سَحَرنا به محمد ، حتى خَيَّل إلينا أنا نرى القمر منفلقاً فلقتين بسحره ، وهو سحرٌ ذاهب (٢) ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وكذَّب المشركون بآيات الله ، بعد ما عاينوا الدلالة على صحتها ، برؤ يتهم القمر منفلقاً فلقتين ، وآثروا اتِّباع ما دعتهم إليه أهواؤ هم ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ وكل أمرٍ من خير أو شرٍّ ، متناهٍ نهايته ، مستقرٌّ قراره ، فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنة ، والشر مستقرٌّ بأهله في النار ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ولقد جاء هؤلاء المشركين من الأخبار ، عن الأمم السالفة التي أهلكها الله ، ما يردعهم ويزجرهم عما هم مقيمون عليه من التكذيب بآيات الله ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ ﴾ هذا القرآن حكمة بالغة ، فليست تغني عنهم النذر

---

(١) قال الطبري : وهذا إنذار من الله تعالى لعباده بدنوِّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم وهم عنها ساهون .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : « إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾

* * *

ولاينتفعون بها ، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها [١] ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين من قومك ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شيءٍ نُكُرٍ ﴾ فإنهم يوم يدعو داعي الله إلى موقف القيامة [٢] ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ تكون أبصارهم ذليلة خاشعة ، لا ضرر بها ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ يخرجون من القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب ، جراد منتشر [٣] ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ مسرعين بنظرهم قِبَل داعيهم إلى ذلك الموقف ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يقول الكفار : هذا يوم صعب عسير ، لشدة أهواله وبَلْباله ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ كذَّب قبل هؤلاء الذين كذبوك يا محمد ، قوم نوح ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ فكذبوا عبدنا نوحاً إذ أرسلناه إليهم ، كما كذبتك قريش ، وقالوا : هو مجنون وزجروه وتوعَّدوه [٤] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ فدعا نوح ربه : إنَّ قومي قد غلبوني ، تمرداً وعتواً ، ولا طاقة لي بهم ، فانتصر لي منهم بعقاب من عندك ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ ففتحنا أبواب السماء بماءٍ متدفق ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ وأسلنا في الأرض عيون الماء ﴿ فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ فالتقى ماء السماء وماء الأرض ، على أمرٍ قضاه الله في اللوح المحفوظ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ومسامير ﴿ تجري بأعْيُننا ﴾ تجري هذه السفينة ، بمرأى منا ومنظر ﴿ جزاءً لمن كان كُفِرَ ﴾ فعلنا ذلك جزاءً وثواباً للذي جُحد وكُفر به،وهو نوح عليه السلام ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ ولقد تركنا سفينة نوح ، عبرةً وعظة للأمم ، ليعتبروا ويتعظوا ، فينتهوا عن أن يسلكوا مسلكهم في الكفر وتكذيب رسل الله ﴿ فهل

---

(١) هذا أحد وجهين ذكرهما الإمام الطبري أن « ما » للنفي ، والآخر أنها للإستفهام والمعنى : فماذا تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه وسمعه ؟ وماذا تنفعه المواعيد والإنذارات ؟

(٢) إنما وصف موقف القيامة بأنه﴿شيء نُكُر﴾ لأنه يوم فظيع ، شديد الهول ، تنكره النفوس لشدته وهوله ، لما ترى فيه من البلاء والأهوال ، وهو يوم صعبٌ على الكفار فقط ، كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾ وقال هنا ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عسر﴾ .

(٣) شبههم بالجراد المنتشر لكثرتهم وموج بعضهم في بعض ، فإن الجراد لا جهة له يقصدها ، وكذلك الناس يخرجون من قبورهم فزعين ليس لأحدٍ جهة يقصدها ، بل هم في فزع ، وهلع ، واضطراب ، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والفزع .

(٤) توعَّدوه بقولهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نوحُ لتكونَنَّ من المَرْجُومِينَ﴾ .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ

* * *

من مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من متذكر ، يعتبر بما فعلنا بقوم نوح ، فينيب إلى التوبة ؟! ﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾ فكيف كان عذابي لهؤلاء حين تمادوا في غيِّهم وضلالهم ؟ وكيف كان إنذاري بما فعلت بهم من العقوبة التي أحللت بهم ؟ ! ﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآن لِلذِّكْرِ ﴾ ولقد سهلنا القرآن ، وبيناه ، وفصَّلناه ، لمن أراد أن يتذكر ويتعظ ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من معتبر متعظ بما فيه من العبر والذكر ؟ ﴿ كذَّبَتْ عادٌ ﴾ كذبت أيضاً عاد[1] نبيهم « هوداً » فيما أتاهم به عن الله كما كذبت قريش محمداً ﷺ ﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾ فانظروا كيف كان عذابي إياهم وعقابي لهم ، على كفرهم وتكذيبهم ؟!

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً ﴾ إنا بعثنا على « عادٍ » ريحاً باردة شديدة العصوف ، لصوتها صريرٌ ﴿ في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌ ﴾ في يوم شرٍّ وشؤمٍ لهم ، استمرَّ بهم العذاب إلى أن وافَى بهم نار جهنم ﴿ تَنْزِعُ الناسَ كأنهم أعجاز نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ تقتلع الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتندق رقابهم ، فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر[2] ﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾ فانظروا معشر كفار قريش كيف كان عذابي لقوم عاد ، حين كفروا بربهم ، وكذبوا رسوله ؟ وكيف كان إنذاري بهم من أنذرتُ ؟ ﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآنَ لِلذِّكْرِ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن وهوَّناه، لمن أراد التذكر به والاتعاظ ، فهل من متَّعظٍ ، ومنزجرٍ بآياته ؟ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ ﴾ كذبت ثمود قوم « صالح » بنذر الله التي أتتهم من عنده ﴿ فقالوا أَبَشراً منا واحداً نَتَّبِعُهُ ﴾ فقالوا تكذيباً منهم لصالح : أبشراً من جنسنا نتبعه نحن الجماعة الكثيرة وهو واحد ؟! ﴿إنا إذاً لفي ضَلالٍ وسُعُرٍ﴾ قالوا : إنا إذا اتبعنا صالحاً ، لفي ذهاب عن الصواب ، وعناءوعذاب[3] ﴿ أَءُلْقِيَ الذكْر عليه من بَيْنِنا ﴾ أأنزل عليه الوحي ، وخُصَّ بالنبوة من بيننا ، وهو واحدٌ منا ؟ ﴿ بَلْ هُوَ

---

(١) في هذه السورة الكريمة ذكر الله تعالى بإيجاز قصص بعض الأنبياء ، تسلية لرسوله محمد ﷺ لما يلقاه من أذى المشركين ، وهذه هي القصة الثانية ، قصة « عادٍ » مع نبيهم « هود » بعد ذكر قصة نوح مع قومه .

(٢) أي تتركهم كأنهم أصول نخل انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، شبهوا بالنخل لضخامة أجسامهم وطولهم المفرط .

(٣) فسّر ابن جرير « السُّعُر » بأنه جمع سعير بمعنى العذاب وهو قول قتادة ، والأظهر أن المراد به الجنون كما قال ابن عباس ، مأخوذ من قولهم : ناقة مسعورة أي كأنها مجنونة من شدة نشاطها ومعنى الآية : إنا إذا اتبعنا صالحاً وهو واحد منا نكون في خطأ واضح ، وجنون دائم ، والله أعلم .

كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾

* * *

﴿ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ بل هو كاذب ، متكبر متجبر ﴿ سيعلمونَ غداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ سيعلمون غداً في القيامة من هو الكذاب الأشر ، ثمود أم رسولنا صالح ؟ ﴿ إنا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فتنةً لهم ﴾ إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود ، حجة لصالح على صدق قوله ، وابتلاءً لهم واختباراً ، هل يؤمنون بالله ، ويتبعون صالحاً ؟ ﴿فارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم يا صالح ، وتبصَّرْ ما هم صانعون بها ﴿ واصْطَبِرْ ﴾ ولا تعجل وانتظر ما يصنعون بناقة الله ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أن الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة ، يومٌ لهم ويومٌ لها ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ يحضرون يوم لا ترد لشرب الماء ، ويوم ورودها لشرب اللبن يحضرون اللبن [1] ﴿ فنادوا صَاحبهم ﴾ فنادت ثمود صاحبهم « قُدار بن سالف » عاقر الناقة ليعقرها ، وحضوه على ذلك ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ فتناول الناقة بيده فعقرها ﴿ فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾ فكيف كان عذابي إياهم ؟ ألم أهلكهم بالرجفة ؟ وكيف كان إنذاري من أنذرتُ من الأمم بعدهم ؟ ﴿ إنا أرسلنا عليهم صَيْحَةً واحدة ﴾ إنا أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل فيهم ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ فكانوا كيابس الشجر ، الذي جعلت منه الحظيرة ﴿ ولقد يسَّرْنا القرآنَ للذكرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد هوَّنا القرآن وبيَّناه ، لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ ، فهل من متعظ به ومعتبر ؟! ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُرِ ﴾ كذبت قوم لوط بآيات الله ، التي أنذرهم وذكَّرهم بها لوطٌ عليه السلام ﴿ إنا أرسلنا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ إنا أرسلنا عليهم حجارة ﴿ إلاّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ غير آل لوط الذين اتبعوه على دينه ، فإنا أنجيناهم من العذاب وقت السَّحر ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ نعمةً أنعمناها على « لوطٍ » وآله ، وكرامةً أكرمناهم بها من عندنا ﴿ كذلكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنا فأطاعنا ، من جميع خلقنا ﴿ ولقد أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بالنُّذُرِ ﴾ ولقد أنذر « لوطٌ » قومه بطشتنا قبل ذلك ، فكذبوا بإنذاره ولم يصدِّقوه ، شكاً منهم فيه .

---

(١) هكذا فسره الطبري وقال غيره : المعنى كل حصة ونصيب من الماء يحضرها من كانت نوبته ، فإذا كان يوم القوم حضروا شربهم ، وإذا كان يوم الناقة حضرت شربها ، قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا . اهـ القرطبي ١٤٠/١٧

وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى

* * *

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عن ضيفه ﴾ ولقد راود لوطاً قومه ، عن ضيفه الذين نزلوا به ، حين أراد الله إهلاكهم ﴿ فَطَمَسْنَا أعينهم ﴾ فطمسنا [1] على أعينهم ، حتى لا يُرى لها شقٌّ ، فلم يبصروا ضيفه ﴿ فَذُوقوا عذابي ونُذُرِ ﴾ فذوقوا عذابي الذي حل بكم ، وإنذاري الذي أنذرت به غيركم من الأمم ﴿ ولقد صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عذابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ ولقد صبح قومَ لوط عند طلوع الفجر ، حجارةٌ رُموا بها من السماء ، استقرَّ ذلك العذاب فيهم إلى يوم القيامة ، حتى يوافوا عذاب الله الأكبر في جهنم ﴿ فذوقوا عذابي ونُذُرِ ﴾ فذوقوا معشر قوم لوط عذابي الذي أحللته بكم ، وإنذاري بكم الأمم بما أنزلته بكم من العقاب ﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن لمن أراد التذكر به ، فهل من متعظ ومعتبر به ؟ ﴿ ولقد جاء آلَ فرعونَ النُّذُرُ ﴾ ولقد جاء أتباعَ فرعون وقومه ، إنذارُنا بالعقوبة بكفرهم بنا ، وبرسولنا موسى ﷺ ﴿ كذَّبوا بآياتنا كلِّها ﴾ كذب قوم فرعون بأدلتنا وحججنا التي جاءتهم من عندنا ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ فعاقبناهم بكفرهم عقوبة ربٍّ شديدٍ عزيز في نقمته ، غير عاجزٍ ولا ضعيف ﴿ أكفَّارُكُمْ خيرٌ من أُولئكم ﴾ أكفاركم يا معشر قريش خير من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح،وعادٍ، وثمود ؟! حتى تنجوا من عذابي ؟ ﴿ أمْ لَكُمْ براءَةٌ في الزُّبُرِ ﴾ أم لكم براءة من عقاب الله في الكتب ؟! ﴿ أم يقولون نحن جميعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أيقول كفار قريش : نحن جميعٌ منتصر ممن قصدنا بسوءٍ ومكروه ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ سيهزم جمع كفار قريش ، ويولون أدبارهم للمؤمنين ، وقد هُزموا يوم بدر[2] ﴿ بل الساعةُ موعِدُهُمْ ﴾ بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب ﴿ والساعة أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ والساعة أشدُّ عليهم من الهزيمة التي يهزمونها أمام المؤمنين ﴿ إن المجرمينَ في ضَلالٍ ﴾ إن المجرمين

---

(١) أي أعمينا أعينهم حتى لم يبصروا ، روي أن الملائكة لما دخلوا على لوط كانوا في صورة شبابٍ حسانٍ مُرْدٍ ، فجاء قومه يسرعون نحوهم لقصد الفاحشة بهم ، فأغلق لوط دونهم الباب فجعلوا يحاولون كسره ، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا فلم يبصروا ما حولهم فذلك قوله تعالى ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾.

(١) قال عمر لما نزلت ﴿سيُهزم الجمع﴾ جعلتُ أقول : أيُّ جمع سيهزم ؟ فلما كان يوم بدر ، رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول ﴿سيُهْزَمُ الجمع ويولون الدبر﴾ فعلمت أنه يوم بدر .

ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

* * *

في ذهاب عن الحق ، وأخذ على غير هدى ﴿ وسُعُرٍ ﴾ وهم في احتراق من شدة العناء ، والنصب في الباطل [١] ﴿ يوم يُسْحَبُونَ في النارِ عَلَى وُجُوهِهِم ﴾ يوم يسحب هؤلاء المجرمون على وجوههم في النار ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ يُقال لهم : ذوقوا مس جهنم ﴿ إِنَّا كل شيء خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ إنا خلقنا كل شيء ، بمقدارٍ قدَّرناه وقضيناه ﴿ وما أَمْرُنَا إِلاَّ واحدةٌ ﴾ وما أمرنا للشيء إذا أردنا أن نكوِّنه إلا قولةٌ واحدةٌ « كُنْ » فيكون ، لا مراجعة فيها ولا مرادَّة ﴿ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ ﴾ كسرعة اللمح بالبصر ، لايبطىء ولا يتأخر ﴿ ولقد أهلكنا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ ولقد أهلكنا أمثالكم من الأمم السالفة والقرون الخالية ، الذين كانوا على مثل الذي أنتم عليه ، من الكفر بالله وتكذيب رسله ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من متعظ بذلك منزجرٍ ينزجر به ؟ ﴿ وكل شيء فَعَلوه في الزُّبُرِ ﴾ وكل شيء فعله الذين مضوا قبلكم ، في كتب الحفظة التي كتبتها عليهم ﴿ وكل صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ وكلُّ صغير وكبير من الأشياء ، مثبتٌ في الكتاب مكتوب ﴿ إنَّ المتَّقِينَ في جناتٍ ونَهَرٍ ﴾ إن الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، في بساتين وأنهار يوم القيامة ﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مجلس حقٍّ ، لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿ عند مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ عند إلهٍ مقتدر على ما يشاء ، وهو الله ذو القوة المتين ، تبارك وتعالى .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر »

* * *

---

(١) وقال ابن عباس : في خسرانٍ وجنون ، وهذا كما تقدم أن السُّعُر عند ابن عباس معناه الجنون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

* * *

﴿ الرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن - أيها الناس - علمكم القرآن برحمته ، فأنعم بذلك عليكم ، إذ بصَّركم به ما فيه رضا ربكم ، وعرَّفكم ما فيه سخطه ، لتُطيعوه فتستوجبوا جزيل ثوابه ، وتنجوا من أليم عقابه ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ خلق آدم والناس ، وعلَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه ، من الحلال والحرام ، والمعايش والمنطق ﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل ﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ وما نجم من الأرض من نبات مما ينبسط عليها كالبقل ، ولم يكن له ساق[1] ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ وما قام على ساق من النبات ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ يسجدان لله ، فكل الأشياء المختلفة الهيئات تسجد لله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ والسماء رفعها فوق الأرض ﴿ وَوَضَعَ المِيزَانَ ﴾ ووضع العدل بين خلقه في الأرض ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ ﴾ ألَّا تظلموا وتبخسوا في الوزن[2] ﴿ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ وأقيموا لسان الميزان بالعدل ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ ولا تُنقصوا الوزن إذا وزنتم للناس وتظلموهم ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ والأرض وطَّأها - مهَّدها - للخلق ليعيشوا فوقها ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ في الأرض

(١) اختلف المفسرون في معنى « النجم » في هذه الآية ، فذهب ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي للذي اختاره ابن جرير ، بينما ذهب مجاهد والحسن وقتاده إلى أنه « النجم » الذي في السماء ، قال ابن كثير : وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم .

(٢) عن أبي المغيرة قال : سمعت ابن عباس يقول في سوق المدينة : يا معشر الموالي إنكم قد بُليتم بأمرين هلك بهما من كان قبلكم : المكيال ، والميزان .

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ

* * *

فاكهة كثيرة ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ والنخل ذات ليفٍ متكمِّمة به ، وذات طلعٍ ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ وفي الأرض حب البرِّ والشعير ، ذو الورق والتبن ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ وفيها الرزق المطعوم[1] الذي يُؤكل منه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟! ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ خلق الله « آدم » من الطين اليابس ، يسمع له صلصلة ـ صوت ـ كالفخار إذا يبس ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ وخلق الله الجانّ من لهب النار ، المختلط بعضُه ببعض ، من بين أحمر، وأصفر ، وأخضر ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان ؟! ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ذلكم رب مشرق الشمس ، ورب مغربها، في الصيف والشتاء ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ من تسخيره الشمس لكم تجري دائبة بمرافقكما ومصالحكما ؟ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ترك الله وأرسل بحر السماء ، وبحر الأرض يلتقيان[2] ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ بينهما حاجزٌ وبُعْدٌ، لا يفسد أحدهما صاحبه ، فيبغي بذلك عليه ، ولا يتجاوزان حدَّ الله الذي حدَّه لهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ يخرج من هذين البحرين ، اللؤلؤ الذي يخرج من أصداف البحر وهو الكبار ، وصغار اللؤلؤ وهو المرجان[3] ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ

(١) فسَّر ابن جرير « الريحان » بأنه الرزق المطعوم ، وفسره غيره بأنه كل مشموم طيب الريح من النبات ، كالورد ، والفُلّ ، والياسمين ، وهو قول ابن عباس والضحاك ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) قال ابن جرير رحمه الله تعالى : عنى به بحر السماء ، وبحر الأرض ، وذلك أن الله قال ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر السماء ، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض ، وبحر السماء . اهـ . وقال ابن كثير : وهذا لا يساعده اللفظ فإنه تعالى قد قال ﴿ بينهما برزخٌ لا يبغيان ﴾ أي وجعل برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، وما بين السماء والأرض لا يسمى « برزخاً » وحجراً محجوراً ، فالمقصود هنا بالبحرين « الحلو ، والمالح » وهو الأوضح ، لما ورد في سورة الفرقان ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فرات ، وهذا ملحٌ أُجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ .

(٣) رجح الإمام الطبري أن اللؤلؤ هو كبار الدُّر الذي يخرج من صدف البحر ، والمرجان هو صغار الدُّر ، وهذا قول قتادة ، ونقل الألوسي عن ابن عباس العكس أن اللؤلؤ صغار الدر ، وأن المرجان كباره والله أعلم .

فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي
شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾



الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ولله تعالى السفن الجارية في البحار ، المرفوعات القلاع، يقبلن ويدبرن كالجبال ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ كل من على ظهر الأرض ، من جنٍّ وإنسٍ فإنه هالك[١] ﴿ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام[٢] ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان ؟

﴿ **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ إليه يفزع بمسألة الحاجات، كلُّ من في السموات والأرض من مَلَك ، وإنس ، وجنّ وغيرهم ، لا غنى لأحد منهم عنه ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ هو كل يوم في شأن خلقه فيفرج كرب ذي كرب ، ويرفع قوماً ، ويخفض آخرين وغير ذلك من شئون خلقه ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ** ﴾ سنحاسبكم[٣] ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن ، فنعاقب أهل المعاصي ، ونثيب أهل الطاعة ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا** ﴾ يا معشر الثقلين إن استطعتم أن تهربوا من أطراف السموات والأرض ، فتخرجوا من سلطاني فاخرجوا ﴿ **لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** ﴾ لا تخرجون إلا بحجة وبيِّنة ، وليس لكم ذلك ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما تكذبان معشر الثقلين ؟ ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ** ﴾ يرسل عليكما يوم القيامة لهب من نار

(١) وجه النعمة في فناء الخلق ، أن الله عز وجل سوَّى فيه بين الغني والفقير ، والعظيم والحقير ، وبين الملوك وأفراد الناس ، فلا يموت الضعفاء ويبقى الأقوياء بل الكل فيه على سواء .

(٢) أي ذو العظمة والكبرياء ، والإفضال والإنعام .

(٣) هذا وعيدٌ من الله وتهديدٌ لعباده ، كما يقول القائل لمن يتوعده : سأتفرغ لك ، قال ابن عباس : هذا وعيد من الله للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾

***

ودخان ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ منه إذا هو عاقبكما هذه العقوبة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي آلاء ربكما من النعم تنكرانها ؟ ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فإذا تفطرت السماء يوم القيامة ، فكان لونها لون الورد الأحمر ، مشرقة صافية الحمرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ !﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ فيومئذ لا تسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم ، لأن الله قد حفظها عليهم ، ولا يسأل بعضهم عن ذنوب بعض ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ تعرف الملائكةُ المجرمين بعلاماتهم ـ من اسوداد الوجوه ، وزرقة العيون ـ فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يقال لهؤلاء المجرمين : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يطوف المجرمون بين أطباقها ، وبين ماء قد أسخن وأغلي حتى انتهى حره ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ولمن اتّقى الله وخاف مقامه بين يديه ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه بستانان يتنعم فيهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما أيها الثقلان التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ جنتان ذواتا ألوان(١) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان؟ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ في هاتين الجنتين عينا ماءٍ تجريان خلالهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الإنس والجن تكذبان ؟ ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ فيهما

(١) فسّر الطبري « الأفنان » بأنها الألوان من الفاكهة ، وقال غيره : هي الغصون أي ذواتا أغصان متفرعة وثمارٍ متنوعة ، وخصها بالذكر لأنها هي التي تورق وتثمر ، وهذا قول مجاهد وهو الأظهر والله أعلم .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾



من كل نوعٍ من الفاكهة ضربان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي آلاء ربكما التي أنعم بها عليكما أيها الثقلان تكذبان ؟ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ مضطجعين على فرشٍ بطائنُها من غليظ الديباج ﴿ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ وثمر الجنتين الذي يُجْتنى ، قريبٌ منهم يقطفونه بغير عناء ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكما تكذبان ؟

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ في هذه الفرش نساءٌ قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ لم يجامعهن إنس قبل أزواجهن ولا جانٌ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ ﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ ﴾ كأن هؤلاء النساء في صفائهن وحسنهنَّ الياقوت والمرجانُ ، أمَّا الياقوتُ فإنك لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت السلك من ورائه[١] ، فكذلك النساء يرى مُخُّ سُوقهنَّ من وراء أجسامهنَّ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم معشر الثقلين تكذبان ؟ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾ هل ثواب من أحسن في الدنيا عمله ، وأطاع ربه ، إلا أن يحسن ربه إليه في الآخرة ؟ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما تكذبان ؟ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ومن دون هاتين الجنتين[٢] الموصوفتين جنتان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الإنس والجن تكذبان ؟ ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ مسوادتان من شدة خضرتهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فيهما عينان تفوران بالماء ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) قال ابن مسعود : « إن المرأة من أهل الجنة لَيُرى بياضُ ساقها من وراء سبعين حلةً من حرير ، حتى يُرى مخُّها » أخرجه الترمذي .

(٢) أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان ، قال المفسرون : الجنتان الأوليان للسابقين ، والأخريان لأصحاب اليمين ، فمقام السابقين أعظم وأرفع ، اللهمَّ أدخلنا الجنَّة مع السابقين .

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

* * *

تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ في هاتين الجنتين فاكهةٌ، ونخلٌ[١] ، ورمانٌ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ في هذه الجنان الأربع ، نساءٌ خيِّراتُ الأخلاق ، حسانُ الوجوه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ هؤلاء الحسان بيض محبوسات في البيوت على أزواجهن ، فلا يردن غيرهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكما تكذبان ؟ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ لم يمسهنَّ بنكاحٍ فيدميهن إنس قبلهم ولا جانٌ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم عليكم بها تكذبان ؟ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ مستندين على مرافق خضرٍ[٢] ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ وطنافس ثخان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم معشر الإنس والجن تكذبان ؟ ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ تبارك ذكر ربك يا محمد ، ذي العظمة والكبرياء ، الذي له الإكرام من جميع خلقه .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن »

* * *

(١) إنما ذكر النخل والرمان ترغيباً لأهل الدنيا ، ثم إنَّ نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه ، فقد روي عن سعيد بن جبير أنه قال : نخل الجنة جذوعها من ذهب ، وعروقها من ذهب ، وعراجينها من زمرد ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، ورطبها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ا هـ . رزقنا الله الجنة ونعيمها .

(٢) المراد بها الوسائد الخضر من وسائد الجنة وقيل : هي رياض الجنة وأما العبقري فهو جمع عبقرية وهي الطنفسة ـ السجادة ـ فأهل الجنة يجلسون على طنافس ثخينة مزخرفة ، محلاَّة بأنواع الصور والزينة ، بلغت النهاية في الحسن .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾

***

﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ إذا نـزلت صيحة القيامة ، وذلك حين يُنفخ في الصور لقيام الساعة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كاذبة ﴾ ليس لوقعتها تكذيب ، ولا ارتداد ، ولا تثنية لصيحتها ﴿ خافِضَةٌ رافِعَةٌ ﴾ تخفض أقواماً كانوا في الدنيا أعزاء إلى نار الله ، وترفع أقواماً كانوا في الدنيا وضعاء إلى رحمة الله وجنته ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجّاً ﴾ إذا زلزلت الأرض فحُركت تحريكاً ، حتى اهتزت واضطربت ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً ﴾ وفتّتت الجبال فصارت كالدقيق المبلول ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ فكانت هباء متفرقاً ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً ﴾ وكنتم أيها الناس أنواعاً ثلاثة : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ فأصحاب اليمين الذين يُؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، أي شيء أصحاب اليمين ؟ يُعجِّبُ نبيه محمداً ﷺ منهم ﴿ وأصحابُ المشْأمِةِ ما أصْحابُ المشْأمَةِ ﴾ وأصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، ماذا لهم وماذا أعدَّ الله لهم ؟ ﴿والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وهم المهاجرون الأولون [١]. ﴿ أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ ﴾ أولئك الذين يقربهم الله منه يوم القيامة ، إذا أدخلهم الجنة ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ في بساتين النعيم الدائم ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري ، والظاهر أن المقصود بهم : المبادرون إلى فعل الخيرات من كل أمة ، الذين يسبقون غيرهم فيها ، كما قال ابن كثير : فمن سابَق في هذه الدنيا ، وسَبَق إلى الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل .

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾

* * *

جماعة من الأمم الماضية ، وقليل من أمة محمد ﷺ الذين هم آخر الأمم (١) ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ فوق سرر منسوجة بالذهب والجوهر ، قد أُدخل بعضها في بعض كحلق الدرع ، **قال عكرمة** : مشبَّكة بالدُّرِّ والياقوت ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ متكئين على السرر ،متقابلين بوجوههم ،لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ يطوف على هؤلاء السابقين ولدانٌ على سنٍّ واحدة ، لايتغيَّرون ولا يموتون ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ يطوفون عليهم بأكواب (٢) ـ أقداح ـ لا عُرى لها ، وأباريق يُصَبُّ لهم منها ، أكبر من الأقداح ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ وكأس خمر من شراب جارٍ ظاهر للعيون ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ لا تصدع رؤوسهم عن شربها فيسكرون ، ولا ينفد شرابهم (٣) ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ ويطوف الولدان عليهم بفاكهة من الفواكه التي يتخيرونها من الجنة لأنفسهم ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وبلحم طيرٍ مما تشتهيه نفوسهم من الطير (٤) ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ولهم نساء يتصفن بنقاء بياض العين ، مع سعة العين في حُسْن ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ وهنَّ في صفاء بياضهنَّ وحسنهنَّ ، كاللؤلؤ الذي قد صين في الصَّدف ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً ﴾ لا يسمعون فيها باطلاً من القول ، وليس فيها ما يؤثِّمهم ﴿إلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ لا يسمعون فيها من القول إلا قول « سَلَاماً سَلَاماً » أي اسلمْ مما تكره ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وأصحاب اليمين الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم أيُّ شيءٍ هم ؟ وماذا أُعدَّ لهم من الخير ؟ ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ هم في ثمر سدرٍ موقر حملاً ، قد ذَهَب شوكه(٥)

---

(١) قال الإمام ابن كثير : ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها . ثم أورد أحاديث تؤيد ذلك ثم قال: وهذه الأمة أشرف من سائر الأمم،والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها ، وعظم نبيها . ا هـ .

(٢) قال ابن عباس : الأكواب : الجرار من الفضة ، وقال مجاهد : الأكواب ما ليس لها آذان ، والأباريق ما كان لها آذان . ا هـ الطبري ٢٧/١٧٤

(٣) قال الضحاك وقتادة ﴿ولا يُنزفون﴾ لا تذهب عقولهم ، وفسَّره الطبري بأنه لا ينفد شرابهم .

(٤) روي في الحديث « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه ، فيخرُّ بين يديك مشوياً » أخرجه ابن أبي حاتم .

(٥) رُوي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال : وما هي ؟ قال : السِّدر فإن له شوكاً !! فقال له رسول الله ﷺ : أليس الله يقول ﴿ في سدرٍ مخضود ﴾ ؟ خضد الله شوكه ـ أي قطعه ـ فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، وإن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ، ما فيها لونٌ يشبه الآخر » أخرجه الحاكم والبيهقي .

وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ
مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ

* * *

﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ وموزٍ قد نُضِد بعضُه على بعضٍ وجُمع ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ وهم في ظلٍّ دائم ، لا تنسخه الشمس فتذهب به ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ وفيه أيضاً ماء مصبوب ، يجري في غير أخدود ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لاَ مَقْطُوعَةٍ ﴾ وفيها فاكهة كثيرة، لاينقطع عنهم شي منها في وقتٍ من الأوقات ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ ولا يمنعهم منها شوكٌ أوشيء كبعدها عنهم ، ولكنْ إذا اشتهاها أحدهم ، وقعت في فيه ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ ولهم فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض وفي الحديث « ارتفاعها كما بين السماء والأرض » .

﴿ إنّا أنشأناهنَّ إنشاء ﴾ إنا خلقنا نساء الجنة خلقاً فأوجدناهن ﴿ فجعلناهُنَّ أبْكاراً ﴾ فجعلناهن أبكاراً بعد أن كن عذارى ﴿ عُرُباً ﴾ متوددات متحبِّبات إلى أزواجهن ﴿ أتراباً ﴾ مستويات على سن واحدة [١] ﴿ ثُلَّةٌ من الأوَّلينَ ﴾ الذين لهم هذه الكرامة جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد ﷺ ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ وجماعة من أمة محمد ﷺ ﴿ وأصحاب الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ ﴾ وأصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم من موقف الحساب إلى النار ، ماذا لهم ؟ وماذا أُعدَّ لهم ؟ ﴿ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ هم في هواء جهنم الحار وسمومها ، وفي حميمها ـ مائها الساخن ـ ﴿ وظِلٍّ من يَحْمُومٍ ﴾ وظلٍّ من دخانٍ شديد السواد ﴿ لاَ بَارِدٍ ﴾ ليس ذلك الظل بباردٍ ، كَبَرْد ظلال سائر الأشياء ، لأنه دخانٌ من سعير جهنم حارّ ﴿ ولا كَريمٍ ﴾ وليس بكريم ، لأنه مؤلمٌ لمن استظل به ﴿ إنهم كانوا قبلَ ذلك مُتْرَفِينَ ﴾ إن هؤلاء كانوا منعَّمين في الدنيا ﴿ وكانوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظيم ﴾ وكانوا يقيمون على الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ﴿ وكانوا يقولون أئِذا مِتْنا وكنَّا تُراباً ﴾ وكانوا يقولون كفراً منهم بالبعث : أئذا كنا تراباً في قبورنا بعد مماتنا ﴿ وعظاماً أءِنَّا لمبعُوثونَ ﴾ وكنا عظاماً نخرة ، أئنا لمبعوثون أحياء كما كنا قبل الممات ؟ ﴿ أو أباؤنا الأولون ﴾ وكذلك آباؤ نا الذين كانوا قبلنا سيُبعثون ؟ ﴿ قل إن

---

(١) سألت السيدة أم سلمة الرسول ﷺ عن هذه الآية فقال : « هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز رُمْصاً شُمطاً ، خلقهن بعد الكبر فجعلهن عَذارى » ومعنى « عُرُباً » أي عاشقات لأزواجهن جمع عَرُوب وهي المحبة العاشقة لزوجها .

ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾
ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾

* * *

الأولين والآخرينَ. لمجمُوعُون إلى ميقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قل يا محمد لهم: إن الأولين من آبائكم، والآخرين منكم ومن غيركم. لمجموعون إلى يوم القيامة ﴿ **ثم إنكم أيها الضَّالُّونَ المكذِّبُونَ** ﴾ ثم إنكم أيها الضالون عن طريق الهدى، المكذبون بوعيد الله ووعده ﴿ **لآكِلُونَ من شَجَرٍ من زَقُّومٍ** ﴾ ستأكلون في جهنم من شجرٍ من زقوم ﴿ **فمالِئُونَ منها البُطُونَ** ﴾ فمالئون بطونهم من شجر الزقوم ﴿ **فَشَارِبُونَ عَلَيْه من الحميم** ﴾ فشاربون على الشجر، ماءً حميماً قد انتهى غليه وحرُّه ﴿ **فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ** ﴾ فشاربون شرب الإبل العِطاش، المصابة بداءٍ لا تَرْوى من الماء ﴿ **هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدينِ** ﴾ هذا هو نزلهم (١) الذي يُنزلهم ربهم، يوم يُدين الله عباده ﴿ **نَحْنُ خلقناكم** ﴾ نحن خلقناكم ـ أيها الناس ـ ولم تكونوا شيئاً، فأوجدناكم بشراً ﴿ **فلولا تُصَدِّقُونَ** ﴾ فهلا تصدِّقون من فعل ذلك بكم، في قوله لكم: إنه سيبعثكم بعد مماتكم؟ ﴿ **أَفَرَأَيتم ما تُمْنُونَ. أأنتم تخلُقُونه أم نحن الخالِقُونَ** ﴾ أفرأيتم أيها المنكرون قدرة الله: النُّطَف التي تُمنون ـ تصبُّون ـ في أرحام نسائكم؟ أأنتم تخلقون تلك النطف، أم نحن الخالقون؟ ﴿ **نحن قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الموْتَ** ﴾ نحن قدَّرنا بينكم الموت، فعجلناه لبعضٍ وأخرناه عن بعض ﴿ **وما نحن بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ وما نحن مُفتاتٌ علينا في الأمر الذي قدرناه لها من حياة وموت، بل لا يتقدم شيءٌ منها ولا يتأخر، ولسنا بعاجزين ﴿ **أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ** ﴾ على أن نبدل أمثالكم بعد مهلككم، فنجيء بآخرين من جنسكم ﴿ **ونُنْشِئَكُمْ فيما لا تَعْلَمون** ﴾ ونبدِّلكم فيما لا تعلمون منها من الصور ﴿ **ولقد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولى** ﴾ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكم إياها(٢)﴿ **فلولا تَذَكَّرُونَ** ﴾ فهلا تتذكرون أن الذي أنشأكم، لايتعذر عليه أن يعيدكم أحياء!؟ ﴿ **أفرأيتم ما تَحْرُثُونَ** ﴾ أفرأيتم أيها الناس الحرث ـ البذر ـ الذي تحرثونه ﴿ **أأنتم تزرعونه أم نحن الزَّارِعُونَ** ﴾ أأنتم تُصيِّرونه زرعاً، أم نحن

(١) النُّزُل: الضيافة التي تقدم للضيف أول قدومه، وتسمية «الزقوم» نُزُلاً إنما هو للتهكم والسخرية، لأن النُّزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

(٢) يريد خلقهم الأول في الدنيا كما قال تعالى ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مهين﴾؟

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم

* * *

نجعله كذلك ؟! ﴿ لو نشاءُ لجعلناه حُطَاماً ﴾ لو نشاء جعلنا ذلك الزرع هشيماً، لا يُنْتَفع به في مطعم وغذاء ﴿ فَظَلْتُمْ تَفكَّهُونَ ﴾ فأقمتم تتعجَّبون ممَّا نزل بزرعكم وتقولون : ﴿ إنا لَمُغْرَمُونَ ﴾ إنا لمعذبون (١) ﴿ بل نحن مَحْرُومُونَ ﴾ ولكننا قوم ليس لهم جَدٌّ - أي حظٌ -.

﴿ أفرأيتمُ الماءَ الذي تَشْرَبُونَ ﴾ أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربونه ؟ ﴿ أأنتم أَنْزَلْتُمُوهُ من المُـزْنِ أَمْ نحنِ المُنْزِلُـونَ ﴾ أأنتم أنـزلتمـوه من السحـاب إلى قـرار الأرض، أم نحن منزلوه لـكـم ؟ ﴿ لو نَشَاءُ جعلناه أُجاجاً ﴾ لو نشاء جعلنا ذلك الماء ملحاً شديد الملوحة ، فلم تنتفعوا به في شربٍ ، ولا غرسٍ ، ولا زرع ﴿ فلولا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون ربكم على إعطائه الماء العذب لشربكم ، ومنافعكم ؟! ﴿ أفرأيتم النارَ التي تُورُونَ ﴾ أفرأيتم النار التي تستخرجون من زندكم ؟ ﴿ ءأنتم أنشأتم شَجَرَتَهَا أم نحن المُنْشِئُونَ ﴾ أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها ، أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه ؟ ﴿ نحن جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ نحن جعلنا النار تذكرةً لكم ، تتذكرون بها نار جهنم ، فتعتبرون بها وتتعظون ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ وجعلناها متاعاً للمسافرين ،الذين لا زاد معهم ولا شيء ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظيم ﴾ فسبح يا محمد بذكر ربك العظيم ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فأقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء ﴿ وإنه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمون عظيم ﴾ وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته وقدره ؟ ﴿ إنه لَقُرآنٌ كريم ﴾ إن هذا القرآن لقرآن كريم ﴿ في كتاب مَكْنُونٍ ﴾ في كتاب مصون عند الله ، لايمسهشيءمن أذى ولا غيره ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُون ﴾ لا يمسُّ ذلك الكتابَ المصون ، إلا الذين قد طهرهم الله من الذنوب ، كالملائكة الأطهار ، والمؤمنين الأبرار ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين ﴾ هذا القرآن تنزيل من رب العالمين ، نزَّله من الكتاب المكنون ﴿ أَفَبِهذا

(١) هكذا اختار الطبري أن معنى « مغرمون » معذَّبون من الغرام بمعنى العذاب ، وهو منقول عن ابن عباس ، وقال غيره : هو من الغُرم بمعنى الغرامة ، والمُغْرَم : الذي ذهب ماله بغير عوض ، وهو منقول عن الضحاك ، والمعنى : إنا لحاملون الخسارة ومحرومون الرزق ، وهذا المعنى أظهر ، والله أعلم .

مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

* * *

الحديثِ أنتم مُدْهِنُونَ ﴾ أفبهذا القرآن تُلينون القول للمكذبين ، ممالأةً منكم لهم على التكذيب به والكفر[١] ﴿ وتجعلون رِزْقَكُمْ أنكم تُكَذِّبون ﴾ وتجعلون شكر الله على رزقه لكم التكذيب بالرازق[٢] ﴿ فلولا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم حلاقيمكم ﴿ وأنتم حينَئِذٍ تَنْظُرونَ ﴾ ومن حضرهم من أهليهم ينظر حينئذٍ إليهم ﴿ ونحن أَقْرَبُ إليْه منكم ولكن لا تُبْصِرُونَ ﴾ ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم ، ولكنكم لا تبصرونهم ﴿ فلولا إن كنتم غيرَ مَدِينِينَ ﴾ فهلاَّ إن كنتم أيها الناس غير محاسبين ومجزيين بأعمالكم ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ تردُّون تلك النفوس إلى مستقرها من الأجساد ، بعد مصيرها إلى الحلاقيم !؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إن كنتم صادقين بأنكم تمتنعون من الموت والحساب ﴿ فأما إن كان من المُقَرَّبينَ ﴾ فأما إن كان الميت ، من الذين قربهم الله من جواره في جناته ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ ﴾ فله الرحمةُ ، والمغفرةُ ، والرزقُ الطيب الهنيء، وله ريحانٌ يُتلقى به عند الموت ﴿ وجنةُ نَعيم ﴾ وله بستانٌ يتنعم فيه ﴿ وأما إن كان من أصحابِ اليَمين ﴾ وأما إن كان الميت من الذين يؤخذ بهم إلى الجنة ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ من أصحابِ اليَمِينِ ﴾ فسلمتَ من عذاب الله ، ومما تكره لأنك من أصحاب اليمين ﴿ وأما إن كان من المكذِّبين الضَّالِّينَ ﴾ وأما إن كان الميت من المكذبين بآيات الله ، الجائرين عن سبيله ﴿ فَنُزُلٌ من حَمِيمٍ . وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ فله ضيافةٌ من شرابٍ قد أُغلي حتى انتهى حرُّه ، وحريقُ النار التي يُحرق بها ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقين ﴾ إن هذا الذي أخبرتكم به ، عما هو صائر إليه أصناف الناس ، لهو الحقُّ من الخبر اليقين الذي لا شك فيه ﴿ فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العظيم ﴾ فسبح ربك العظيم بأسمائه الحسنى .

---

(١) هكذا فسره الطبري وهو رأي مجاهد ، وقال غيره المعنى : أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذّبون وتكفرون ؟ وهو قول ابن عباس ، وكلا القولين سديد ووجيه .

(٢) قال الحسن : خسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا

* * *

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ والأَرْضِ** ﴾ نزه الله من خلقه كل ما دونه تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ العزيزُ في انتقامه ممن عصاه ، الحكيم في تدبيره أمور الخلق ﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ له سلطان السموات والأرض ، لا يمتنع عليه شيء فيهن ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ يوجد من شاء من الخلق فيحييه ، ويميت من شاء من الأحياء فيفنيه ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ لا يتعذَّر عليه شيء أراده ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ** ﴾ هو الأول قبل كل شيء بغير بداية ، وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية ﴿ **والظَّاهِرُ والبَاطِنُ** ﴾ وهو العالي فوق كل شيء ، فلا شيء أعلى منه ، وهو الباطن فلا شيء أقرب إلى شيء منه[1] ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ وهو تعالى لا يخفى عليه شيءٌ ، في الأرض ولا في السماء ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبَّرهن وما فيهن في ستة أيام ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ** ﴾ ثم ارتفع على عرشه وعلا عليه ﴿ **يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَـا** ﴾ يعلم ما يدخل في الأرض ، وما يخرج منها ﴿ **وَمَا يَنْزِلُ مِنَ**

---

(١) هكذا فسرها الطبري ، وقال غيره من المفسرين (هو الظاهر والباطن) أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين ، الباطن الذي لا تدركه الأبصار ،وفي الحديث الذي رواه مسلم « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ومعنى الظاهر هنا : العالي الذي لا شيء أعلى منه ولا أكبر .

يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾
ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ
لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾

* * *

السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها ﴾ ويعلم ما ينزل من السماء إلى الأرض ، وما يصعد من الأرض إلى السماء ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ وهو شاهد عليكم أينما كنتم ، يعلمكم ويعلم أعمالكم ، ومتقلبكم ومثواكم ﴿ **وَاللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ** ﴾ والله بصيرٌ بأعمالكم محصٍ لها ، ليجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ** ﴾ له سلطان السموات والأرض ، نافذٌ أمره في جميعهن ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمورُ** ﴾ وإلى الله مصير أمور جميع خلقه ، فيقضي بينهم بحكمه ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ** ﴾ يدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار فيجعله زيادة في ساعاته[١]﴿ **وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ** ﴾ ويدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل ، فيجعله زيادة في ساعات الليل ﴿ **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ وهو ذو علم بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ﴿ **آمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ آمنوا أيها الناس بالله ، فأقروا بوحدانيته ، وبرسوله محمد ﷺ فصدّقوه فيما جاءكم من عند الله واتّبعوه ﴿ **وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ وأنفقوا في سبيل الله مما خوَّلكم الله من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم ، فجعلكم خلفاءهم فيه ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ فالذين صدقوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما رزقهم الله من المال في سبيله ، لهم ثواب عظيم ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ باللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ** ﴾ وما شأنكم أيها الناس لا تقرون بوحدانية الله ؟ ! ورسولُه محمد ﷺ يدعوكم إلى الإقرار بوحدانيته ، وقد أتاكم من الحجج على حقيقة ذلك ما قطع عذركم ، وأزال الشك من قلوبكم ﴿ **وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ**﴾ وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صلب آدم ، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين** ﴾ إن كنتم تريدون أن تؤمنوا بالله يوماً من الأيام ، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا ، لتتابع الحجج عليكم ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ الله الذي ينزل على عبده محمد آيات مفصلات ﴿ **لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ليخرجكم أيها الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ الله الذي أنزل الآيات لهدايتكم ،

(١) إيلاج الليل في النّهار ،من مظاهر قدرة الله الواحد القهار ،فإن الله تعالى هو المتصرف في الكون ، وهذا من أدلة قدرته ووحدانيته .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

* * *

لذو شفقة بكم ورحمة

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وما لكم أيها الناس أن لا تنفقوا مما رزقكم الله في سبيل الله؟﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وإلى الله ستصير أموالكم، إن لم تنفقوها في حياتكم في سبيل الله ، لأن له ميراث السموات والأرض ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح الحديبية[1] ، وقاتل المشركين ، بمن أنفق بعد ذلك وقاتل ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ هؤلاء الذين أنفقوا قبل الحديبية وقاتلوا ، أعظم درجة وأرفع مكانة عند الله في الجنة ، من الذين أنفقوا من بعد ذلك وقاتلوا ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ وكل هؤلاء المنفقين والمقاتلين، وعدهم الله الجنة ، بإنفاقهم في سبيله ، وقتالهم أعداءه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله عالمٌ بماتعملون،وهو مجازيكم على جميع ذلك يوم القيامة ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ من هذا الذي ينفق في سبيل الله في الدنيا محتسباً في نفقته ، مبتغياً ما عند الله تعالى ؟ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فيضاعف له ربه قرضه ذلك ، فيجعل له بالواحد سبعمئة ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وله جزاء كريم وهو الجنة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يمضي ثواب إيمانهم ، وعملهم الصالح بين أيديهم ، ويأخذون في أيمانهم كتب أعمالهم[2] ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ يقال لهم : بشارتكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فأبشروابها﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين في الجنات أبداً ، لا يتحولون عنها ولا ينتقلون ﴿ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ذلك هو النُجح العظيم

(١) جمهور المفسرين على أن المقصود بالفتح هنا هو « فتح مكة » ، وما رجحه الطبري منقولٌ عن قتادة ، ويستدل له بقول أنس « كان بين « خالد بن الوليد » وبين « عبد الرحمن بن عوف » كلامٌ ، فقال خالد له : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها !! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم » رواه الإمام أحمد ، ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين الحديبية وفتح مكة .

(٢) ذهب ابن جرير إلى تأويل النور هنا بالإيمان والهدى ، بينما ذهب غيره من المفسرين إلى أن المراد أن نور المؤمن يتقدمه على الصراط ، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقدُ مرةً ، ويُطفأ مرة ، وهذا هو الأظهر والله أعلم .

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

* * *

الذي كانوا يطلبونه ، بعد النجاة من عقاب الله ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ انتظرونا نستصبح من نوركم (١) ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ فيجابون : ارجعوا من حيث جئتم ، واطلبوا لأنفسكم هنالك نوراً ، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بحاجز (٢) ، لذلك الحاجز بابٌ ، باطنُه الجنة ، وظاهرُه النار ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ ينادي المنافقون المؤمنين ، وقد صاروا في الجنة : ألم نكن معكم في الدنيا نصلي ، ونصوم ، ونناكحكم ، ونوارثكم ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ قال المؤمنون : بلى كنتم كذلك ، ولكنكم نافقتم ، وانتظرتم بأهل الإيمان الدوائر ، وشككتم في توحيد الله ، وفي نبوة محمد ﷺ ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ وخدعتكم أمانيُّ نفوسكم ، فصدَّتكم عن سبيل الله وأضلَّتكم ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ حتى جاء قضاء الله بموتكم ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وخدعكم بالله الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة من عقوبة الله ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فاليوم ـ أيها المنافقون ـ لا يُؤخذ منكم عوض من عقابكم وعذابكم ﴿ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ولا تؤخذ الفدية أيضاً من الذين كفروا ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ مسكنكم الذي تسكنونه يوم القيامة النَّارُ ، هي أولى بكم من كل منزل ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وبئس مصيركم نار جهنم ، وبئس مصيرٌ من صار إلى النار .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ألم يَحِنْ للذين صدقوا الله ورسوله ، أن تلين قلوبهم لذكر الله فتخضع له ، وللقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ؟ ﴿ ولا يَكُونُوا

---

(١) أي نستضيء بنوركم لنرى الطريق ، وذلك حين يطفأ نور المنافقين .

(٢) هو حاجز يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ، في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين ، الرحمةُ وهي الجنة ، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذابُ وهو النار .

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِى ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

* * *

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وألاَّ يكونوا كالذين أوتوا التوراة والإنجيل من بني إسرائيل ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ فطال عليهم الزمان ما بينهم وبين موسى ، فقست قلوبهم عن الخيرات ، وسكنت إلى معاصي الله ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ﴿ **آعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ آعلموا أيها الناس أن الله يحيي الأرض الميتة ـ المجدبة ـ التي لا تُنْبِتُ شيئاً ، بعد دثورها ويبسها ، فكما نحيي هذه الأرض كذلك نهدي الإنسان الضال عن الحق ، فنوفّقه ونسدِّده للإيمان ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ قد بينا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ** ﴾ إن المتصدقين من أموالهم ، والمتصدقات ﴿ **وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً** ﴾ بالنفقة في سبيله ، وفيما أمر بالنفقة فيه ، أو فيما ندب إليه ﴿ **يُضَاعَفُ لَهُمْ** ﴾ يضاعف الله لهم قروضهم ،فيوفيهم ثوابها يوم القيامة ﴿ **وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ ولهم ثوابٌ من الله على صدقهم وإنفاقهم وهو الجنة ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ والذين أقروا بوحدانية الله فصدَّقوا الرسل ، وآمنوا بما جاؤوهم به من عند ربهم ،أولئك هم الصِّدِّيقون[١] ،لأنهم آمنوا بالله وصدَّقوا رسله ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أو هلكوا في سبيله ، لهم عند ربهم ثوابٌ ونورٌ عظيم ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ والذين جحدوا بالله ، وكذَّبوا بأدلته وحججه ، أولئك أهل جهنم ﴿ **آعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ** ﴾ آعلموا أيها الناس أن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم ، ما هي إلا لعب ولهوٌ ، تتفكهون به ، وزينة تتزينون بها ﴿ **وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ** ﴾ يفخر بعضكم على بعض بما أُعطي من رياشها ﴿ **وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** ﴾ ويباهي بعضكم بعضاً بكثرة الأموال والأولاد ﴿ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً** ﴾ كمثل غيث أعجب

(١) ذهب الإمام ابن جرير إلى أن الجملة تتم عند قوله تعالى ﴿ أولئك هم الصدِّيقون﴾ وأن قوله تعالى ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ جملة مستأنفة جديدة ، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك واختاره ابن كثير ، وذهب غيره من المفسرين إلى أن الجملة معطوفة على ما قبلها ﴿ أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ فيكونون قد جمعوا بين مرتبة الصدِّيقية والشهادة في سبيل الله ، وهذا القول منقول عن ابن مسعود والبراء بن عازب ومجاهد ، وهو الذي اخترناه في صفوة التفاسير والله أعلم .

حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ
ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا
فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

* * *

الزُّرَّاعَ نباتُه ، ثم ييبس فتراه مصفراً ، بعد أن كان أخضر نَضِراً ﴿ **ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً** ﴾ ثم يكون تبناً يابساً متهشماً ﴿ **وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ** ﴾ وفي الآخرة عذاب شديد للكفار ، ومغفرة من الله ورضوان لأهل الإيمان ، فالآخرة إمَّاعذابٌ،وإمَّا جنة ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ وما زينة الحياة الدنيا المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الغرور[1] وفي الحديث « موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها »[2] ﴿ **سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ** ﴾ سابقوا أيها الناس إلى عمل يوجب لكم مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴿ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ هيئت هذه الجنة ، للذين وحَّدوا الله ، وصدَّقوا رسله ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ هذه الجنة التي أعدها الله للمؤمنين ، فضل الله تفضَّل به على أهل طاعته ، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه ﴿ **واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ على المؤمنين بما بسط لهم من الرزق في الدنيا ، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ، بما وصف أنه أعدَّه لهم ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا** ﴾ ما أصابكم أيها الناس من مصيبة ، في الأرض بجدوبها ، وذهاب زرعها ، وفسادها ، ولا في أنفسكم بالأوصاب ، والأوجاع ، والأسقام ، إلا في«أم الكتاب» ـ اللوح المحفوظ ـ قبل أن نخْلقَ الأنفس ﴿ **إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يسِيرٌ** ﴾ إن خلق النفوس ، وإحصاء المصائب ، سهلٌ يسيرٌ على الله ﴿ **لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ** ﴾لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ، فلم تُدركوه منها ﴿ **وَلاَتفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ ولا تفخروا على الناس بما أعطاكم الله منها ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ والله لايحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا ، فخورٍ به على الناس.

﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** ﴾ هم الذين يبخلون بإخراج حق الله ، الذي أوجبه

---

(١) قال ابن كثير : أي هي متاع فانٍ ، يغتر بها من يعتقد أنه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . المختصر ٣/٤٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، والإمام أحمد في المسند .

ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا
ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

* * *

عليهم فيه ، ويشحُّون به ، وهم مع بخلهم يأمرون الناس أيضاً بالبُخْلِ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ومن يعرض عن موعظة الله ، تاركاً العمل بما دعاه إليه ، فإن الله هو الغني عن نفقته ، الحميدُ إلى خلقه ، بما أنعم به عليهم من نِعمه ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رسلنا بالْبَيِّنَاتِ ﴾ لقد أرسلنا رسلنا بالمفصَّلات [١] من البيان والدلائل ﴿ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ ﴾ وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع ، وأنزلنا الميزان بالعدل ، ليعمل الناس فيما بينهم بالعدل في المعاملات ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وأنزلنا لهم الحديد ، فيه قوة شديدة ، ومنافع لهم في السلاح عند لقاء العدو ، وفي حفر الأرض والجبال وغير ذلك ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بَالْغَيْبِ ﴾ أرسلنا رسلنا ليعدلوا ، وليعلم حزب الله [٢] من ينصر دين الله ورسله ،بالغيب عنهم [٣] ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ قويٌّ على الانتصار ممن عاداه ، وخالف أمره ونهيه ، عزيزٌ في انتقامه منهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ ﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم رسولَيْن إلى خلقنا ، وجعلنا النبوة في ذريتهما ، وعليهم أنزلت الكتب التوراة ، والإنجيل ، والزبور من الله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ﴾ فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وكثير من ذريتهما ضالُّون ، خارجون عن طاعة الله ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ﴾ ثم أتبعنا على آثار نوحٍ وإبراهيم ، برسلنا الذين أرسلناهم بالبينات ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾ وأتبعنا بعيسى ابن مريم ، وأعطيناه الإنجيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوا « عيسى » على منهاجه وشريعته ، شفقةً ورحمة شديدة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ ورهبانيةً أحدثوها من عند أنفسهم ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم ﴿ إلا ابْتِغَاءَ رِضْوانِ اللَّهِ ﴾ لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله

(١) يريد المعجزات والحجج والبراهين التي أيدهم بها الله جل وعلا .

(٢) إنما فسر الطبري ﴿ وليعلم الله . . . ﴾ وليعلم حزب الله ، لأن الله تعالى عالمٌ بكل ما في السموات والأرض ، وعلمه أزليٌّ ، ولا حاجة إلى هذا التأويل لأن المراد إظهار ذلك العلم للخلق والله أعلم .

(٣) قال ابن عباس : « بالغيب » أي دون أن يروا ربهم ، ينصرونه ولا يبصرونه .

مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن
رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

* * *

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها ﴾ فما قاموا بما التزموا به حق القيام[١]، ولكنهم بدَّلوا وخالفوا دين الله، ومنهم من قد رعاها ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسله منهم ثوابهم، على ابتغائهم رضوان الله، وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وكثير منهم أهل معاصٍ، وخروجٍ عن طاعة الله ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، من أهل التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعطكم الله ضعفين من الأجر، لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بالأنبياء قبله ﴿ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ويجعل لكم القرآن نوراً، يهتدي به من صدَّق به وآمن ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ويصفح لكم عن ذنوبكم فيسترها عليكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ والله ذو مغفرةٍ ورحمة ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ لكي يعلم[٢] أهل الكتاب ﴿ أَلَّا يَقدرون على شيءٍ من فضل الله ﴾ أنهم لايقدرون على شيء من فضل الله الذي آتاكم، وخصكم به دونهم[٣] ﴿ وأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ وليعلموا أن الفضل بيد الله دونهم، ودون غيرهم من الخلق ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعطي فضله من يشاء من خلقه، ليس ذلك إلى أحدٍ سواه ﴿ واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ والله ذو الفضل العظيم على خلقه، عظيم الفضل والإحسان

* * *

(١) هكذا يبيّن لنا تعالى بوضوحٍ أن « الرهبانية » لم يشرعها اللّهُ عزّوجلّ، ولكنَّ النَّصارى اخترعوها من تلقاء أنفسهم، تَعبُّداً وزهداً على زعمهم، ومع ذلك لم يلتزموا بها ولم يتقيدوا بموجبها كما ينبغي، بل تظاهروا بالتُّقى والصلاح، وأكلوا الحرام، واستباحوا الأعراض، ودنَّسُوا حرمة الدين ﴿فما رعوها حقَّ رعايتها﴾ فلعنة الله على القوم المجرمين . !

(٢) أشار الطبري رحمه الله أن « لا » في قوله ﴿ لئلا يعلم . . . ﴾ زائدة، زيدت لتأكيد الكلام وتقويته ولهذا فسرها بقوله « لكي يعلم » وهذا مشهور في اللغة ومستفيض .

(٣) كان أهل الكتاب يقولون : الوحيُ والرسالةُ فينا، والكتاب والشرع ليس إلاَّ لنا، والله خصَّنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع الخلق، فردَّ الله عليهم ذلك، وبيَّن تعالى أن فضله واسع لا يحجزه شيء، فقد أعطى أمة محمد ﷺ أفضل مما أعطاهم .



بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾
ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا
مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

* * *

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِها ﴾ قد سمع الله قول المرأة من الأنصار[1] ، التي كانت تراجعك يا محمد في أمر زوجها في قوله لها : « أنتِ عليَّ كظهر أمي » ﴿ وَتَشْتَكِي إلى اللَّهِ ﴾ وتشتكي إلى الله ما لديها من الهمِّ ، وتسأل الله الفرج ﴿ واللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما ﴾ والله يسمع تحاور[2] رسوله والمجادِلة خولة ﴿ إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصيرٌ ﴾ سميعٌ لكلام خلقه ، بصير بما يعملون ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِم ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ الذين يحرّمون نساءهم على أنفسهم ، بقولهم لهنَّ : أنتُنَّ علينا كظهور أمهاتنا ، ما نساؤهم اللائي يظاهرون منهنَّ بأمهاتهم ، بل هنَّ لهم حلال ﴿ إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلَّا اللَّائي وَلَدْنَهُمْ ﴾ ما أمهاتهم في الحقيقة إلا والداتهم ، لا اللائي قالوا لهن ذلك ﴿ وَإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ ﴾ وإن المظاهرين ليقولون منكراً من القول الذي لا تُعرف صحته ﴿ وَزُوراً ﴾ وكذباً ﴿ وَإنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ ذو صفحٍ عن ذنوب عباده ، غفورٌ لهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة ﴿ والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن

---

(١) هي « خولة بنت ثعلبة » امرأة « أوس بن الصامت » في أصح الأقوال ، وقيل : خويلة ، وهذا أول ظهارٍ في الإسلام كما ذكر الطبري ، فقد روي أن « خولة » جاءت إلى رسول الله ﷺ ، تشكو إليه ظلم زوجها ، فقالت يا رسول الله : أكلَ مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرتُ له بطْني ، حتى إذا كبِرَتْ سِنّي ، ظاهر منّي !! فجعل رسولُ اللّه ﷺ يقول لها : ما أراكِ إلاّ قد حرمتِ عليه ، فتقول يا رسول الله : ما طلقني واللّهِ ، وإنّ لي منه صبيةً صغاراً ، إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتُهم إلي جاعوا ، فماذا ترى ؟! وأخذت تجادله وتراجعه فنزلت الآية ﴿قد سمِعَ اللّهُ قول التي تجادلك في زوجها . . ﴾

(٢) التحاور : المراجعة في الكلام. قال عنترة : « لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى »

مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ
مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ
ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ

* * *

قالوا ، وفي نقض ما قالوا ، بعزمهم على غشيانهنَّ ووطئهنَّ ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ فعلى المظاهِر عتقُ رقبة ـ عبدٍ أو أمة ـ من قبل أن يجامع أو يمسَّ[1] امرأته التي ظاهر منها ﴿ ذَلِكُم تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ ذلك عظة لكم ، لتتعظوا وتنتهوا عن الظهار ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو مجازيكم عليها ، فانتهوا عن قول المنكر ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ فمن لم يجد منكم رقبةً يعتقها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، لا يفصل بينهما بإفطار إلا من عذر[2] ، من قبل أن يعاشرها ﴿ فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ فمن لم يستطع منهم الصيام ، فعليه إطعام ستين مسكيناً ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هذا الذي فرضته عليكم ، كي تُقِرُّوا بتوحيد الله ، ورسالة محمد ﷺ وتنتهوا عن قول الكذب والزور ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ وهذه الفروض التي بيَّنْتُها لكم ، حدود الله فلا تتعدوها أيها الناس ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ وللجاحدين لهذه الحدود عذابٌ مؤلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إن الذين يخالفون الله في فرائضه ، فيجعلون حدوداً غير حدوده[3] ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أُخزوا كما غيظ وأخزي الذين من قبلهم من الأمم المكذبين ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وقد أنزلنا دلالات وعلامات محكماتٍ ، على حقائق حدود الله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ ﴾ وللجاحدين لتلك الآيات البينات ،عذابٌ مذلٌ في جهنم﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ يوم يخرجهم الله جميعاً من قبورهم لموقف القيامة ، فينبئهم الله بما عملوا في الدنيا من المعاصي ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أحصى الله ما عملوا ، فأثبته وحفظه ، ونسيه عاملوه

---

(١) المسُّ هنا ﴿من قبل أن يتماسَّا ﴾ كناية عن الجماع ، فلا يحل للمظاهِر وطءُ امرأته قبل أن يكفِّر عن يمينه .

(٢) شرطت الآية التتابع ﴿ شهرين متتابعين ﴾ فلو أفطر يوماً منها انقطع التتابع ، ووجب عليه أن يستأنفها من جديد ، وهذا متفق عليه بين الفقهاء ، وأما إذا كان بعذر كمرضٍ وغيره فقد رجح الطبري أنه يتابع بعد شفائه ولا يجب عليه أن يبدأها من جديد .

(٣) إنما ذكر هنا المحادَّة ﴿ يحادُّون الله ورسوله ﴾ لمناسبة ذكر « حدود الله » فبينهما من حسن الموقع وجمال الاشتقاق ما يعرفه فرسان الفصاحة والبيان ، ومعنى محادَّة الله معاداته ومخالفة أمره ، لأن كلاً من المتعادين يكون في حَدٍّ وجهةٍ غير حدِّ الآخر وجهته ، ومثل المحادَّة المشاقَّة معناهما سواء .

وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾



المجرمون ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ من أمر خلقه ، لأنه محيطٌ بهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى أن الله يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض ،لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة، فكيف تخفى عنه أعمال هؤلاء الكافرين !؟ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ما يكون من نجوى - حديثٍ وسرٍّ - بين ثلاثةٍ من خلقه ، إلا هو مشاهدهم يسمع سرهم ونجواهم ، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ، ولا يكون من حديثٍ بين خمسةٍ إلا هو سادسهم ﴿ ولا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ولا أقل من ثلاثة ، ولا أكثر من خمسة ، إلا هو معهم إذا تناجوا ، في أيّ موضعٍ ومكانٍ كانوا ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم يخبر هؤلاء المتناجين ، بما عملوا مما يحبه أو يُسخطه يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إن الله عليمٌ بنجواهم ، وسرائر أعمالهم ، وسائر أمور عباده .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ألم تر إلى اليهود ، الذين نهاهم الله عن النجوى فيما بينهم، ثم يرجعون إلى ما نهاهم الله عنه ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ ويتحدثون بينهم بما حرَّم الله عليهم من الفواحش ، والعدوان ، ومعصية محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ وإذا جاءك يا محمد هؤلاء اليهود ، حيّوْك بغير التحية التي جعلها الله لك تحية[1] ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِم لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ويقولون هلاَّ يعاقبنا الله بما نقول لمحمد ، فيعجل عقوبته لنا على ذلك !؟ ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ كفاهم جهنم

(١) كان اليهود يقولون « السام عليك يا محمد » والسام معناه الموتُ ، وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بقوله « وعليكم » لا يزيد عليها ، وقد استأذنوا على رسول الله ﷺ ذات يوم فقالوا ذلك ، وسمعتهم السيدة عائشة فقالت : بل عليكم السَّامُ واللعنة ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش ، فقالت يا رسول الله : أما سمعتَ ما قالوا ؟ فقال لها : أما سمعتِ ما قلت لهم ؟ قلت : وعليكم ، فيستجيب الله لي فيهم ، ولا يستجيب لهم فِيَّ. أخرجه ابن أبي‌حاتم. وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٤٦٢ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ
ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن

* * *

يصلونها يوم القيامة ، فبئس المستقر جهنم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا تحدثتم سراً بينكم فلا تتحدثوا بالإثم ، والعدوان ، ومعصية الرسول ﴿ **وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ** ﴾ ولكن تناجوا بطاعة الله ، وما يقربكم منه ﴿ **وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ وباتقائه بأداء ما كلفكم من فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ وخافوا الله الذي إليه مصيركم ، أن يعاقبكم على تضييع فرائضه ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ إنما مناجاة المنافقين بينهم سرّاً ، بالإثم والعدوان من الشيطان ، ليُدخل الحزن على المؤمنين[1] ﴿ **وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ وليس التناجي[2] بضار المؤمنين شيئاً ، إلا بقضاء الله وقَدَره ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ وعلى الله وحده فليعتمدْ أهل الإيمان في أمورهم ، فتناجي المنافقين غير ضارهم ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا قيل لكم توسَّعوا في المجالس ، فوسِّعوا لإخوانكم ﴿ **يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ يوسِّع الله منازلكم في الجنة ﴿ **وإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا** ﴾ وإذا قيل لكم قوموا إلى خير ، أو تفرقوا من مجلسكم ، فقوموا ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ يرفع الله المؤمنين بطاعتهم لربهم ، ويرفع العلماء من أهل الإيمان ، على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجاتٍ يوم القيامة ﴿ **واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ لا يخفى عليه المطيع من العاصي ، وهو مجاز كلاً بعمله ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بالذي هو أهله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا ناجيتم رسول الله ، فقدِّموا أمام نجواكم صدقة ، تتصدقون بها على أهل المسكنة والحاجة ﴿ **ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ** ﴾ تقديمكم الصدقة خير لكم عند

---

(١) عن قتادة قال : كان المنافقون يتناجون بينهم ، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويشق عليهم فنزلت الآية .

(٢) التناجي : التحدث بين اثنين فأكثر سرّاً ، يقال : تناجى القوم إذا تكلموا فيما بينهم سراً .

لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا
غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ
إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

* * *

الله ، وأطهر لقلوبكم من المآثم ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإن لم تجدوا ما تتصدقون به ، فإن الله ذو عفوٍ عن ذنوبكم إذا تبتم ، رحيمٌ بكم أن يعاقبكم بعد التوبة ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أشق عليكم وخشيتم الفاقة بأن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة ؟ ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فأدوا فرائض الله التي أوجبها عليكم ، من الصلاة ، والزكاة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمركم به ، وفيما نهاكم عنه ﴿ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ والله ذو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالكم ، وهو مجازيكم بها .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ ألم تنظر بعين قلبك(١) يا محمد ، فترى إلى القوم الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم ﴿ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ ﴾ ما هؤلاء من أهل دينكم وملتكم ، ولا هم من اليهود الذين غضب الله عليهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ويحلفون على الكذب، فيقولون للرسول: نشهد إنك لرسول الله ، وهم كاذبون غير مصدقين به ، ولا مؤمنين ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ هيأ الله لهؤلاء المنافقين ، عذاباً شديداً في الآخرة ﴿ إِنَّهُمْ ساءَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إنهم بئس ما كانوا يعملون في الدنيا ، بغشّهم المسلمين ، ونصحهم لأعدائهم من اليهود ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ جعلوا حلفهم وأيمانهم وقايةً لأنفسهم من القتل ، يدفعون بها عن أنفسهم ، وأموالهم ، وذراريهم ، فصدُّوا بأيمانهم الكاذبة عن سبيل الله فيهم ، وحالوا دون قتل المؤمنين لهم(٢) ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فلهم عذاب مذلٌّ في النار .

---

(١) أشار الإمام الطبري إلى أن الرؤية قلبية وليست بصرية أي ألم تعلم حال هؤلاء المنافقين ، والاستفهام للتعجيب من حالهم فهم مع دعواهم الإيمان يصادقون اليهود أعداء الله .

(٢) جعل الإمام الطبري صدَّهم عن سبيل الله هو أن حكم الله في الكافر القتل ، وهم بأيمانهم الكاذبة الفاجرة حالوا دون قتل المؤمنين لهم ، والأظهر أن المعنى أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإسلام ، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء من الناس والله أعلم .

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

***

﴿ **لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُم وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** ﴾ لن تنفع المنافقين يوم القيامة أموالهم ، فيفتدوا بها من عذاب الله المهين لهم ، ولن تنفعهم أولادهم فينصرونهم ويستنقذونهم من الله إذا عاقبهم ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون** ﴾ هؤلاء المنافقون أهل النار ، ماكثون فيها إلى غير نهاية ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً** ﴾ يوم يبعثهم الله من قبورهم جميعاً للحساب ﴿ **فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ** ﴾ فيحلفون له كما يحلفون لكم ، كاذبين مبطلين ﴿ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ** ﴾ ويظنون أنهم في أيمانهم وحلفهم بالله كاذبين على شيءٍ من الحق ﴿ **أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ الا إن هؤلاء هم الكاذبون فيما يحلفون عليه ﴿ **اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ** ﴾ غلب عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ** ﴾ أولئك هم جندُ الشيطان وأتباعُه ﴿ **أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ الا إن جند الشيطان وأتباعه ، هم الهالكون المغبُونون في صفقتهم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَه** ﴾ إن الذين يخالفون الله ورسوله ويعادونه في حدوده ﴿ **أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ** ﴾ هؤلاء في أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ورسوله ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ قضى الله وحكم في أم الكتاب ، لأغلبنَّ أن ورسلي من حادَّني وشاقَّني ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ إن الله ذو قوةٍ وقدرة ، على إهلاك كل من حادَّه وحادَّ رسوله ، وذو عزة فلا يقدر أحد أن ينتصر منه ، إذا هو أهلكه أو عاقبه ﴿ **لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ لا تجد يا محمد قوماً يصدِّقون الله ، ويقرُّون باليوم الآخر ، يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله ، وخالف أمره ونهيه ﴿ **وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ ولو كان الذين حادُّوا الله ورسوله آباءهم، أوأبناءهم ، أو إخْوانهم ، أو عشيرتهم[١] ﴿ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ هؤلاء الذين لا يوادُّون من عادى الله ، قضى الله لقلوبهم الإيمان﴿ **وَأَيَّدَهُم بِـرُوحٍ مِنْهُ** ﴾ وقواهم ببرهان

(١) نبه تعالى إلى أن هؤلاء المنافقين ليسوا من أهل الإيمان ، لأن أهل الإيمان لا يصادقون أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليهم ، فكيف يوالي هؤلاء المنافقون اليهود ؟ ثم يزعمون أنهم مؤمنون !!

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

منه ، ونور وهدى ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ويدخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها أبداً ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا ، ورضوا عنه في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ هؤلاء جند الله وأولياؤه ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ الا إن جند الله وأولياءه ، هم الفائزون الناجحون بإدراكهم ما طلبوا بطاعتهم ربهم ، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا ، وطاعتهم ربهم .

* * *



(٥٩) سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ

* * *

﴿ سَبَّح لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض ﴾ صلَّى لله وسجد له جميع ما في السموات وما في الأرض من خلقه[١] ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز في انتقامه من خلقه ، الحكيم في تدبيره إياهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ اللهُ الذي أخرج الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ من يهود بني النضير ، من منازلهم ودورهم ، حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمّنهم على دمائهم ، ونسائهم ، وذراريهم ، وما أقلّت الإبل من أموالهم ﴿ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ لأول الجمع في الدنيا ، وذلك حشرهم إلى أرض الشام ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ ما ظننتم أن يخرج هؤلاء من مساكنهم ومنازلهم ، وظنَّ القوم أنَّ حصونهم تمنعهم من أمر الله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ

---

(١) الإمام ابن جرير ـ في الأحيان ـ يفسّر التسبيح بالصلاة، وينزّل المعنى على قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض . . ﴾ وذهب غيره إلى أن المعنى : نزّه اللهَ تعالى ومجّده وقدّسه جميعُ مخلوقاته لقوله تعالى ﴿ وإنْ من شيءٍ إلاّ يسبح بحمده ﴾ . وهو الأظهر لأنه المتبادر من معنى التسبيح، والله أعلم .

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

* * *

﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فأتاهم أمر الله من حيث لم يكن في حسابهم **﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾** وألقى في قلوبهم الرعب الشديد ، بنزول رسول الله ﷺ بهم في أصحابه **﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾** يخرب اليهود بيوتهم بأيديهم ، وذلك بأخذ ما يستحسنونه من أعمدةٍ وأبوابٍ من الداخل ، وبأيدي المؤمنين من الخارج[1] **﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾** فاتعظوا بما أحلَّ الله بهؤلاء اليهود يا معشر ذوي الأفهام ، واعلموا أن الله ناصرُ رسوله على كل من ناوأه **﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾** ولولا أن الله قضى على هؤلاء اليهود « بني النضير » في أم الكتاب ، الانتقال من أرضهم وديارهم إلى بلدةٍ أخرى **﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾** لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي **﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾** ولهم مع ما حلَّ بهم من الخزي ، عذاب النار يوم القيامة **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾** هذا الذي فعل الله بهم بسبب مخالفتهم الله ورسوله ، وعصيانهم ربهم ، فيما أمرهم به من اتّباع محمد ﷺ **﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾** ومن يخالف الله في أمره ونهيه ، فإن الله شديد العقاب **﴿ مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾** ما قطعتم من نخلةٍ[2] ، أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبأمر الله قطعتم ، وبأمره تركتم ليغيظ بذلك أعداءه **﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسِقِينَ ﴾** وليُذلَّ الخارجين عن طاعة الله عز وجل ، المخالفين أمره ونهيه من بني النضير **﴿ وَمَا أَفاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾** والذي ردَّه الله على رسوله من أموال بني النضير **﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾** فما أوضعتم[3] فيه من خيل ولا إبل ، إذ لم يلق المسلمون في ذلك حرباً ، ولا كُلِّفوا فيه مُؤْنة

---

(١) قال ابن زيد : هؤلاء بنو النضير ، صالحهم النبي ﷺ على ما حملت الإبل ، فجعلوا يقلعون الأوتاد يخربون بيوتهم ، وكان المسلمون يهدمونها من ظاهرها .

(٢) لما قطع ﷺ نخل بني النضير وحرّقها ، قالت بنو النضير : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد وتعيبه ، فما بالك تقطع نخلنا وتحرقها ؟ فنزلت الآية .

(٣) أي لم تسيِّروا إليه الخيل والركاب ، ولا تعبتم في تحصيله ، ومعنى « أوجفتم » أي أسرعتم، يقال : وجف البعيرُ إذا أسرع السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع .

يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾

* * *

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ﴾ كما سلَّط الله محمداً ﷺ على بني النضير ، كذلك يسلّط رسله على من يشاء ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والله على كل شيء أراده ، ذو قدرة لا يعجزه شيء ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الذي رد الله عزَّ وجل على رسوله من أموال مشركي القرى بدون قتال[١] ، فلله وللرسول ينفق منها على نفسه وأهله ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ ولأقرباء رسول الله ﷺ من بني هاشم ، وبني عبد المطلب ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ ولليتامى أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا مال لهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وللمساكين الذين يجمعون بين الفاقة وذل المسألة ﴿ وابْنِ السَّبِيلِ ﴾ والمنقطع في سفره في غير معصية الله عزَّ وجل ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ كيلا يكون ذلك الفيء متداولاً بين[٢] الأغنياء منكم ، يصرفونه في حاجاتهم ، ويجعلونه حيث شاءوا ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وما أعطاكم رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه فخذوه ، وما نهاكم عنه من الغلول ، وغيره من الأمور فانتهوا[٣] ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وخافوا الله ، واحذروا عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ شديدٌ عقابُه لأهل المعصية .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ فعلنا ذلك ليكون الفيء ـ الغنيمة ـ للفقراء المهاجرين من قريش[٤] ، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم من مكة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ يريدون من فضل الله ، ويطلبون رضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وينصرون دين الله ،

---

(١) لا تعارض بين هذه الآية ، وآية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال فتلك يؤخذ منها الخمس ، ويقسم الباقي على الغانمين ، وأما هذه ففي حكم الفيء وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال ، فلا تعارض بينهما ولا نسخ ا هـ . وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٨/٤ .

(٢) يريد بالتداول الاستئثار به والمعنى لئلا يستأثر بالمال الأغنياء دون الفقراء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس منها الربع لنفسه ـ وهو المرباع ـ ثم يفعل بها ما يشاء ، فقسم الله الغنائم بين المسلمين .

(٣) الآية وإن نزلت في الفيء ، وأحكامه ، إلا أنها عامة في كل ما أمر به رسول الله ﷺ وما نهى عنه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٤) قال قتادة : هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما فيه من الشدة ، حتى كان الرجل منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، ويتخذ الحفرة في الشتاء ما له دثار .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو
مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

* * *

الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ هؤلاء هم الصَّادقون فيما يقولون ﴿ **والَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ والإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ والذين اتخذوا مدينة الرسول ﷺ سكناً فابتنوها منازل من قبل المهاجرين ، وآمنوا بالله ورسوله وهم الأنصار ﴿ **يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾ يحبون المهاجرين الذين انتقلوا إليهم وتركوا منازلهم ﴿ **وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** ﴾ ولا يجد الأنصار في صدورهم حسداً ، ممَّا أُوتي المهاجرون من الفيء[1] ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ ويعطون المهاجرين أموالهم إيثاراً لهم بها على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى أموالهم ﴿ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ** ﴾ ومن وقاه الله البخل ، ومنع فضل ماله ﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ فأولئك هم الفائزون المخلدون في الجنة ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾ والذين جاءوا من بعد الأنصار والمهاجرين ، يقولون : ربنا اغفر لنا ، ولإخواننا الذين آمنوا قبلنا ﴿ **وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ولا تجعل في قلوبنا بغضاً وحسداً لأحدٍ من أهل الإيمان بك ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ ذو رأفةٍ بخلقك، وذو رحمة بمن تاب ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا** ﴾ ألم تنظر بعين قلبك يا محمد ، فترى إلى الذين نافقوا من أهل المدينة ؟ وهم « عبد الله بن أُبيّ بن سلول » وأتباعه المنافقون ﴿ **يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يقولون لبني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ** ﴾ لئن أُخرجتم من دياركم وأُجليتم عنها ، لنتركنَّ منازلنا وديارنا ونخرج معكم ﴿ **وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً** ﴾ ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم ، وترك نصرتكم ﴿ **وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ** ﴾ وإن قاتلكم محمد ومن معه ، لننصرنَّكم معشر بني النضير عليهم ﴿ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ والله يشهد أن هؤلاء المنافقين كاذبون في وعدهم ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ** ﴾ لئن

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم فطابت أنفسهم بتلك القسمة .

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

* * *

أُخرج بنو النضير من ديارهم فأُجلوا عنها ، لا يخرج معهم المنافقون ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ ولئن قاتلهم محمد ﷺ لا ينصرهم المنافقون ، الذين وعدوهم النصر ﴿ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ولئن نصر المنافقون بني النضير ، ليولن الأدبار منهزمين هاربين عنهم قد خذلوهم ، ثمَّ لا ينصر الله اليهود على محمد ﷺ وأصحابه بل يخذلهم ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ اللَّهِ ﴾ لأنتم أيها المؤمنون أشد رهبةً في صدور اليهود[1] من الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك من أجل أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله ، فهم لا يرهبون عقابه ، قدر رهبتهم منكم ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لا يقاتلكم اليهود مجتمعين ، إلا في قرى محاطة بالحصون المنيعة ، لا يبرزون لكم بالبراز ، أو من خلف حيطان ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ عداوة بعضهم بعضاً شديدة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ تظن المنافقين وأهل الكتاب مؤتلفين ، مجتمعةً كلمتهم ، وقلوبُهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضاً ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَعْقِلُونَ ﴾ ذلك من أجل أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ والنفع لهم ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ﴾ شَبه هؤلاء المنافقين واليهود ، كمثل وشَبه مشركي قريش ، ويهود بني قينقاع ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ نالهم عقاب الله على كفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهم في الآخرة ـ مع ما نالهم في الدنيا من الخزي ـ عذابٌ موجع ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَان اكْفُرْ ﴾ مَثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود بالنصرة ، كمثل الشيطان الذي غرَّ إنساناً ووعده النصرة على كفره بالله ، عند الحاجة إليه ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ ﴾ فكفر بالله واتَّبعه ، فلما احتاج إلى نصرته ، أسلمه وتبرأ منه ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ وقال له : إني أخاف الله رب العالمين في نصرتك ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيها ﴾ فكان عاقبة أمر الشيطان والإنسان ، الذي أطاعه فكفر بالله ، أنهما ماكثان في النار أبداً ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ وذلك ثواب كل كافرٍ بالله ، ظالمٍ لنفسه .

(١) أعاد الإمام الطبري الضمير على اليهود ، وقال غيره : الضمير يعود على المنافقين والمعنى : أنتم معشر المسلمين أشدُّ خوفاً وخشية في قلوب المنافقين من الله ، وهو الأظهر لأن الحديث عن المنافقين ، الذين وعدوا اليهود بالنُصرة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ

* * *

﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، اتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ ولينظر أحدكم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال ، أمن الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه ؟ ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ وخافوا الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو مجازيكم عليها ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله ، الذي أوجبه عليهم ، فأنساهم الله حظوظ أنفسهم من الخيرات ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ** ﴾ هؤلاء هم الخارجون عن طاعة الله إلى معصيته﴿**لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ**﴾ لا يعتدل[1] أهل النار وأهل الجنة ﴿**أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ**﴾أهل الجنة هم الفائزون بما طلبوا ، والناجون مما حذروا﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وهو حجر ، لرأيته يا محمد متذللاً متصدعاً من خشية الله على قساوته ، بينما ابنُ آدمَ معرضٌ لاهٍ عما فيه من العبر والذكر ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وهذه الأشياء نشبِّهها للناس ، ليتفكروا فيها ، فينيبوا وينقادوا للحق ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ هو الله المعبود ، الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلَّا له ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ عالم غيب السموات والأرض، وشاهد ما فيهما مما يُرى ويُحسُّ ﴿ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ هو رحمٰن الدنيا والآخرة ، رحيم بأهل الإيمان به ﴿ **هُوَ اللَّهُ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ** ﴾ هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ، الملك الذي لا مُلك فوقه ﴿ **القُدُّوسُ** ﴾ الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون ، ويصفونه به ممَّا ليس من صفاته ﴿ **السَّلَامُ** ﴾ الذي يسلم خلقه من ظلمه ﴿ **الْمُؤْمِنُ** ﴾ الذي يُؤمِّن خلقه من ظلمه[2] ﴿ **المُهَيْمِنُ** ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ﴿ **الْعَزِيزُ** ﴾ الشديد في انتقامه

---

(١) أي لا يتساوى الأبرار والفجار عند الله ، ولا يكونون بمنزلة واحدة يوم القيامة

(٢) وقال غيره المؤمن المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ، وهو الأظهر .

ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

* * *

ممن انتقم من أعدائه ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، يُصرِّفهم فيما فيه صلاحهم[1] ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي تكبر عن كل شر ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً لله ، وتبرئة له ، عن شرك المشركين ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ هو المعبود الخالق الذي لا معبود تصلح له العبادة غيره ، ولا خالق سواه ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ الذي صوَّر خلقه كيف شاء ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ لله الأسماء الحسنى ، وهي هذه الأسماء في هاتين الآيتين[2] ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يسبح له جميع ما في السموات والأرض ، ويسجد له طوعاً وكرهاً ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهو الشديد الانتقام من أعدائه، الحكيمُ في تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما فيه صلاحهم .

* * *



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ، لا تتخذوا عدوي من المشركين وعدوكم أنصاراً ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(١) وقال غيره : الجبار أي القهار العالي الجناب الذي يذل له من دونه .

(٢) الأسماء الحسنى المذكورة هنا وغيرها توقيفية ، يجب الاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة ، مما سمَّى الله به نفسه في كتابه ، أو سمَّاه بها رسوله ﷺ ، فلا يجوز أن نخترع أسماء كأن نقول : اللهُ مهندسُ الكون ، أو طبيب القلوب ، فتدبره .

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

* * *

تودونهم ، وقد كفروا بالله ورسوله ، وكتابه الذي أنزله على رسوله ﴿ **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ** ﴾ يخرجون رسول الله ﷺ ويخرجونكم أيضاً من دياركم وأرضكم ـ مكة ـ لأنكم آمنتم بالله ﴿ **إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي** ﴾ إن كنتم خرجتم من دياركم فهاجرتم ، في طريقي الذي شرعته لكم ، وديني الذي أمرتكم به ، والتماس مرضاتي ، فلا تتخذوهم أولياء [1] ﴿ **تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ** ﴾ تخفون مودتكم إلى المشركين ، وأنا أعلم منكم بما أخفى بعضكم من بعض ، وبما أعلنه بعضكم لبعض [2] ﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ ومن أسرَّ إلى المشركين بالمودة ، فقد جار عن قصد السبيل ، التي جعلها الله طريقاً إلى الجنة ﴿ **إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ** ﴾ إن يظفر بكم المشركون يكونوا لكم حرباً ، ويبسطوا إليكم أيديهم بالقتال ، وألسنتهم بالسبِّ والشتم ﴿ **وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴾ وتمنوا أن تكفروا بربكم فتكونوا مثلهم ﴿ **لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُمْ** ﴾ لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم ، الذين توالون الكفار من أجلهم ، فتدفع عنكم عذاب الله ، إن أنتم عصيتموه في الدنيا ﴿ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ** ﴾ يفصل ربكم يوم القيامة بينكم ، بأن يُدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معاصيه النار ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ والله بجميع أعمالكم محيط ، لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيكم بها فاحذروه ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ قد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوةً حسنةً في إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ تقتدون به ، والذين معه من أنبياء الله ﴿ **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ حين قالوا لقومهم ـ الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت ـ أيها القوم : إنا برآء منكم ، ومن الذين تعبدون من دون الله ، من الآلهة والأنداد ﴿ **كَفَرْنَا بِكُمْ** ﴾ أنكرنا ما كنتم عليه من

---

(١) هذا شرط حُذف جوابه كما نبه الإمام الطبري تقديره : إن كنتم خرجتم في سبيلي فلا تتخذوا أعدائي أحباء وأصدقاء ، فإن حب الله يقتضي معاداة أعدائه .

(٢) الآية وردت مورد التوبيخ والعتاب ، وقد نزلت في « حاطب بن أبي بلتعة » عندما كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول يريد أن يغزوهم ، وأرسله مع امرأة مسافرة ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك .. وانظر القصة في صفوة التفاسير ٣ / ٣٦٠

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ

* * *

الكفر ، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً ﴾ وظهر بيننا وبينكم العداوة ، والبغضاء أبداً على كفركم بالله ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ لا صلح بيننا ولا هوادة ، حتى تصدقوا بالله وحده ، فتوحِّدوه وتفردوه بالعبادة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ إلَّا في قول إبراهيم لأبيه «لأستغفرن لك» فإنه لا أسوة لكم فيه، لأن أباه كان عدواً لله، ولما تبين له ذلك تبرَّأ منه [١] ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال إبراهيم لأبيه : وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن عاقبك على كفرك ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ ربنا عليك توكلنا في أمورنا وإليك رجعنا بالتوبة مما تكره، إلى ما تحب وترضى من الأعمال الصالحة﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾وإليك مرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يا ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين جحدوا وحدانيتك ، وعبدوا غيرك ، بأن تسلِّطهم علينا فيروا أنهم على حق ، وأنَّا على باطل فيفتتنوا بذلك [٢] ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ واستر علينا ذنوبنا ، بعفوك لنا عنها ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يا ربنا إنك أنت الشديد الانتقام ممن تنتقم منه ، الحكيم في تدبيره خلقه.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ لقد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوة حسنة ، في المذكورين : « إبراهيم » والذين معه من الأنبياء والرسل ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ لمن كان منكم يرجو ثواب الله ، والنجاة في اليوم الآخر ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ومن يعرض عما أمره الله به ، فيوالي أعداء الله ، فإن الله هو الغني عنه وعن جميع خلقه ، الحميدُ عند أهل المعرفة ، بأياديه وآلائه ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾لعل الله[٣] أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين مشركي قريش محبة ومودة ، وقد فعل الله ذلك ، بأن أسلم كثير منهم ، فصاروا لهم أولياء

---

(١) أي فكذلك أنتم أيها المؤمنون تبرءوا من أعداء الله ، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده .

(٢) هذا القول الذي ذكره الطبري هو قول مجاهد ، وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لانطيقه ، وهذا القول هو الأرجح لأنه دعاء لهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم ، وهو اختيار ابن عطية .

(٣) قال ابن زيد : هؤلاء المشركون قد أدخلهم الله في الإسلام ، وجعل بينهم وبين المسلمين مودة حين كان فتح مكة ، وقال الرازي : « عسى » من الله وعدٌ ، وقد حقق الله ما وعدهم به ، من اجتماع كفار مكة بالمسلمين ومخالطتهم لهم ، وذلك حين فتح مكة . اهـ التفسير الكبير ٢٨ / ٣٠٣

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟
إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ

* * *

وأحزاباً . ﴿ **وَاللَّهُ قَدِيرٌ** ﴾ والله ذو قدرة على أن يجعل تلك المودة ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ والله غفورٌ لخطيئة من تاب ، رحيمٌ بهم أن يعذبهم بعد توبتهم ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** ﴾ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم من أجل دينكم ، من جميع أصناف الملل والأديان ، ولم يخرجوكم من بلادكم ﴿ **أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ أن تَصِلوهم وتعدلوا فيهم ، بإحسانكم إليهم ، وبرِّكم بهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ إن الله يحب المنصفين، الذين ينصفون الناس ، فيبرون من برَّهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم ﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ** ﴾ إنما ينهاكم الله ـ أيها المؤمنون ـ أن تكونوا نصراء ، للذين قاتلوكم في الدين ، من كفار مكة ، وأخرجوكم من بلادكم ، وعاونوا من أخرجكم من دياركم على إخراجكم ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ ومن يجعلهم أولياء منكم ، أو من غيركم ، فأولئك هم الذين وضعوا ولايتهم في غير موضعها ، فخالفوا أمر الله في ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا جاءكم النساء المؤمنات ، مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، فاختبروهن بأن يحلفن أنهن لم يخرجن إلا حباً لله ورسوله [1] ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** ﴾ الله أعلم بإيمان النساء المهاجرات ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** ﴾ فإن أقررن عند الاختبار بما يصح به إيمانهن ، فلا تردوهن عند ذلك إلى الكفار[2] ﴿ **لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾ لا المؤمنات حِلٌّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات ﴿ **وَآتُوهُم مَا أَنفَقُوا** ﴾ وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤ هم مؤمنات ،ما أنفقوا من الصداق في نكاحهم

(١) قال ابن زيد : كانت المرأة من المشركين إذا غضبت على زوجها قالت : واللهِ لأهاجرن إلى محمد ﷺ وأصحابه ، فأمر الله تعالى أن تمتحن ، فإن كان غضبها على زوجها أتى بها أن تُردَّ ، وإن كان الإسلام أتى بها فلا ترد . وقال قتادة : يحلفن أنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام ، وحباً لله ورسوله ا هـ الطبري ٢٨ / ٦٨

(٢) إنما أُمر المسلمون بذلك ، لأن العهد الذي كان قد جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش في « صلح الحديبية » أن يرد المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً ، فأبطل الله ذلك الشرط في النساء إذا جئن مؤمناتٍ مهاجراتٍ ، وأمر بامتحانهنَّ .

وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ

* * *

لهنَّ ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجورَهُنَّ ﴾ ولا حرج عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوا هؤلاء المهاجرات ، اللاتي لحقن بكم مفارقاتٍ لأزواجهن ، إذا أنتم أعطيتموهن مهورهن ﴿ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ولا تمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بحبال النساء الكافرات [١] ، وفارقوا من كنَّ عندكم منهنَّ ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ واسألوا ـ أيها المؤمنون ـ صداق أزواجكم اللواتي لحقن بالمشركين ممن تزوجها ، وليسأل المشركون صداق أزواجهم ، اللواتي تزوجن منكم بعد هجرتهن ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ هذا الحكم في النساء المؤمنات والمشركات ، حكم الله يحكم بينكم ، فلا تعتدوه فإنه الحق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عالمٌ بما يُصلح خلقه ، حكيمٌ في تدبيره إياهم ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌمِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ وإن فاتكم أيها المؤمنون شيءمن أزواجكم ، فلحق بالكفار فأصبتم منهم شيئاً ، غنيمةً أوغيرها [٢] ﴿ فَآتُوا الَّذِين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ فآتوا الذين ذهبت أزواجُهم منكم إلى الكفار ، مثل ما أنفقوا عليهن من الصداق ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وخافوا الله الذي أنتم به مصدِّقون ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ، يبايعنك على عدم الإشراك بالله شيئاً ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدهُنَّ ﴾ [٣] ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ولا يأتين بكذبٍ في مولود ، ويلحقن بأزواجهن غير أولادهم [٤] ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي

---

(١) قال ابن جرير : وهذا نهيٌ من الله للمؤمنين ، عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان ، وأمرٌ لهم بفراقهنَّ .

(٢) معنى الآية : إن فرَّتْ زوجة أحدٍ من المسلمين ولحقت بالكفار ، فغزوتم الكفار وأصبتم منهم غنيمة ، فأعطوا لمن فرَّت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر ، من الغنيمة التي بأيديكم ، قال ابن عباس : إن لحقت امرأة رجلٍ من المهاجرين بالكفار ، أمَر له رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة .

(٣) لم يفسر الإمام ابن جرير ذلك لأن السرقة ، والزنا، وقتل الأولاد ظاهرة المعنى لا تحتاج إلى بيان قال ابن كثير في قتل الأولاد : وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار ، ويعم قتله وهو جنين كما يفعله بعض النساء الجاهلات ، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه . المختصر ٣/٤٨٩.

(٤) المراد بالآية اللقيط وليس الزنى، لأن ذلك تقدم النهي عنه صريحاً ﴿ ولا يزنين ﴾ قال ابن عباس : لاتُلحق بزوجها ولداً ليس منه، وقد كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك !! .

فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

* * *

مَعْرُوفٍ ﴾ ولا يعصينك يا محمد في معروف من أمر الله عزَّ وجل تأمرهن به ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ فبايعهنَّ على ذلك ﴿ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ﴾ وسل لهن الله ، أن يصفح عن ذنوبهنَّ بعفوه عنها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ساترٌ لذنوب من تاب ، رحيمٌ به أن يعذبه بعد توبته منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يا أيها الذين آمنوا ، لا تُصادقوا اليهود الذين غضب الله عليهم ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قد يئس هؤلاء اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة ، كما يئس الكفار الذين مضوا قبلهم ، فكانوا من أصحاب القبور ، من ثواب الله وكرامته ، لأنهم على مثل الذي عليه هؤلاء من الكفر والتكذيب (١) .

***



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

* * *

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ نزَّه الله وقدَّسه جميع ما في السموات السبع ، وما في الأرض من الخلق ، مذعنين له بالألوهية والربوبية ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ وهو العزيز في نقمته ممن عصاه ، الحكيمُ في تدبيره إياهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله

(١) هكذا رجح الإمام الطبري ، ورجح البعض أن المعنى هو : « قد يئس الفجار من ثواب الآخرة ونعيمها ، كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من أمواتهم ، أن يعودوا إلى الحياة ثانية بعد أن يموتوا ، وهو قول ابن عباس ، ولعله الأظهر والله أعلم .

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

***

ورسوله ، لم تقولون القول الذي لا تصدِّقونه بالعمل ؟ فأعمالكم مخالفة لأقوالكم[١] ﴿ **كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلونَ** ﴾ عظم بغضاً[٢] وقولاً عند ربكم ، قولُكم ما لا تفعلون ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً** ﴾ إن الله يحب المؤمنين ، الذين يقاتلون في سبيل الله ، ومن أجل دينه الذي دعا إليه ، صفاً مصطفاً ﴿**كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ كأنهم في اصطفافهم حيطانٌ مبنية، محكمةُ البناء، قد رُصَّ فأُحكم وأُتقن ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِه يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**﴾ واذكر يا محمد حين قال موسى بن عمران لقومه : يا قوم لم تؤذونني ؟ وأنتم تعلمون حقاً أنّي رسول الله إليكم ؟ ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ فلمّا عدلوا وجاروا عن الطريق السَّويّ ، أمال الله قلوبهم عنه ﴿ **واللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ والله لا يوفق لإصابة الحق ، القوم الذين اختاروا الكفر على الإيمان ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ** ﴾ واذكر أيضاً يا محمد ، حين قال عيسى ابن مريم لقومه من بني إسرائيل : إني رسول الله أرسلني إليكم ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ** ﴾ مصدقاً لما تقدَّمني من التوراة التي أنزلت على موسى ﴿ **وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ وأبشِّركم برسول يأتي من بعدي آسمه أحمد ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ فلما جاءهم أحمد[١] بالدلالات والحجج على نبوته ﴿ **قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ** ﴾

---

(١) سبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين قالوا : لوعرفنا أحبَّ الأعمال إلى الله لعملنا به ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا !! فلما فرض الله الجهاد عليهم كرهه بعضهم، وضعفت نفوسهم عن مجابهة الأعداء فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ؟

(٢) (مقتاً) المقتُ : أشدُّ البغض وأفحشه .

(٣) رجح بعض المفسرين من المتأخرين كالألوسي ، والبيضاوي أن الضمير هنا يعود على «عيسى» عليه السلام، بينما يرى ابن جرير أن الضمير يعود على المذكور القريب وهو «أحمد»، والأظهر ما قاله المفسرون من أن الضمير يعود على «عيسى» لأنه هو المتحدث عنه والسياق يشهد لهذا القول والله أعلم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ

* * *

قالوا : ما أتى به سحرٌ بيّنٌ واضحٌ وهو ساحر ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ومنْ أشدُّ ظلماً وعدواناً ، ممن اختلق على الله الكذب بقوله عن نبي الله هو ساحر ، وما جاء به سحر ؟ ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ ﴾ إذا دعي إلى الدخول في الإسلام ، قال على الله الكذب ، وافترى عليه الباطل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق لإصابة الحق، القوم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ يريد هؤلاء الكافرون ليبطلوا الحق ،الذي بعث الله به محمداً ﷺ بأفواههم ، بقولهم : إنه ساحر ، وما جاء به سحر ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والله مظهرُ دينه ، وناصرُ رسوله ولو كره الكافرون بالله ذلك .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ ببيان الحق ، وبدين الحقّ ، وهو الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ليعلي دينه الحق على كل دين سواه ، ولو كره المشركون ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هل أدلكم أيها المؤمنون ، على تجارةٍ تنجيكم من عذاب جهنم الموجع ؟ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ تؤمنون بالله ورسوله(٢) ، وتجاهدون في دين الله وطريقه الذي شرعه لكم ، بأموالكم وأنفسكم ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إيمانكم وجهادكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه ، إن كنتم تعلمون مضار الأشياء ومنافعها ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ يستر عليكم ربكم ذنوبكم فيصفح عنكم ويعفو ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ ﴾ ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ ويدخلكم مساكن طيبة في

---

(١) الأسلوب هنا أسلوب تشويق وترغيب جيء بصيغة الاستفهام ﴿هل أدلكم﴾ للترغيب والتشويق إلى سماع الجواب .

(٢) هذا بيانٌ وتوضيحٌ للتجارة الرابحة التي تنجي من عذاب أليم ، فكأن سائلاً يقول: ماهي التجارة ؟ فجاءت الآية الثانية تبينها وتوضحها، وقد ذكر تعالى شرطين أساسيين وهما : الإيمان بالله ورسوله ،والجهاد في سبيله بالمال والنفس، والمراد بالإيمان هنا مع أن المخاطبين مؤمنون هو الإيمان الثابت الراسخ الذي ليس فيه شك وارتياب .

ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

* * *

بساتين إقامة ، لا انتقال عنها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ذلك النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ﴿ وأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ ولكم خصلةٌ أخرى في الدنيا تحبونها ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ نصر لكم من الله على أعدائكم ، وفتح قريب يعجِّله لكم ﴿ وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله لهم على عدوهم ، وفتح عاجل لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله كونوا أنصار الله[١] ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلى اللَّهِ ﴾ كما سأل عيسى ابن مريم أصحابه : من أنصاري منكم إلى نصرة الله لي[٢] ؟﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ فقالوا : نحن أنصار الله ، على ما بعث به أنبياءه من الحق ﴿فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ فآمنت جماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ، وكفرت جماعة أخرى منهم به[٣] ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ فقوَّينا الذين آمنوا من الطائفتين من بني إسرائيل على الذين كفروا منهم ببعثة محمد ﷺ الذي جاء مصدِّقاً بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ فأصبحت الطائفة المؤمنة منهم ، غالبين على عدوهم الكافرين

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف »

* * *

(١) المراد به نصرة دينه وشريعته كما قال تعالى ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

(٢) هكذا فسَّره الإمام ابن جرير ، فيكون «إلى» على تفسيره بمعنى «مع» أي من أنصاري مع الله ، وقال غيره المعنى : من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله ، ونصرة دينه !! وهذا المعنى أظهر والله اعلم .

(٣) قال ابن كثير : لما بلَّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاء به ، وضلَّت طائفة أخرى فجحدوا نبوَّته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم «اليهود» عليهم لعنة الله ، وغلت فيه طائفة من أتباعه ، فمنهم من زعم أنه ابن الله ، ومنهم من قال : إنه ثالث ثلاثة ـ الأب ، والابن ، وروح القدس ـ ومنهم من قال : إنه الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى .



(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

* * *

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ ينزه الله ويُعظّمه كل ما في السموات السبع ، وكل ما في الأرضين من خلقه ﴿الْمَلِكِ ﴾ الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما ،النافذ أمره في السموات والأرض ، ﴿الْقُدُّوسِ﴾ الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون ويصفونه به مما ليس من صفاته﴿الْعَزِيزِ ﴾ الشديد في انتقامه من أعدائه ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ في تدبيره خلقه ، وتصريفه لهم في مصالحهم ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ ﴾ الله الذي بعث في العرب ، رسولاً أمياً منهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يقرأ على هؤلاء الأميين العرب ، آيات الله التي أنزلها عليه ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ويطهّرهم من دنس الكفر ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ويعلمهم كتاب الله وشرائع دينه ، ويعلمهم السنن[١] ﴿ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ وقد كان هؤلاء الأميون ـ من قبل أن يبعث الله فيهم محمداً ـ في جورٍ عن طريق الرشد ، ظاهرٍ لمن تأمله أنه ضلال ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم ﴾ وبعث محمداً لكل لاحقٍ بالأميين من العجم وغيرهم ، لم يجيئوا بعدُ وسيجيئون ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الحكيم في تدبيره خلقه ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ هذا فضل الله ! تفضّل به على هؤلاء ، واللّهُ يؤتي فضله من يشاء من خلقه ، ﴿ واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ على عباده المحسن منهم

(١) أي السنة النبوية المطهرة ، فيجمع لهم ﷺ بين الكتاب المنير والسنة الهادية .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ
ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

* * *

والمسيء ، العظيم فضلُه كل ذي فضل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ مثل الذين أوتوا التوراة من « اليهود والنصارى » وأُمروا بالعمل بها ، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بمحمد ﷺ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً من العلم ،لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها[1] ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بئس هذا المثل ، مثل القوم الذين كذبوا بأدلة الله وحججه ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق للحق ، الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بآيات الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ قل يا محمد لليهود: إن زعمتم أنكم أولياء لله وأحباؤه من دون الناس ، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فتمنوا الموت إن كنتم محقين فيما تقولون أنكم أولياء الله ، كي تستريحوا من كرب الدنيا وهمومها فإن الله لا يعذب أولياء ه ، بل يكرمهم وينعمهم ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولا يتمنى اليهود الموت أبداً ، بما اكتسبوا في هذه الدنيا من الآثام ، واجترحوا من السيئات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ والله عالمٌ بمن ظلم نفسه ، فأوبقها بكفره بالله .

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ قل يا محمد لليهود : إن الموت الذي تكرهونه وتأبون أن تتمنوه ، فإنه نازل بكم وملاقيكم ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ثم يردكم ربكم بعد مماتكم ، إلى عالم غيب السموات والأرض ، وعالم ما ظهر لرأي العين مما هو مشاهد ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بأعمالكم سيئها وحسنها ، ثم يجازيكم على ذلك ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بما هو أهله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، إذا أُذِّن للصلاة من يوم الجمعة ، عند قعود الإمام على المنبر ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ فامضوا إلى

(١) أشنعُ وأقبح مثل ضربه القرآن الكريم ، لمن تعلَّم فلم ينتفع بعلمه ، فقد مثَّل له القرآن بالكلب والحمار ، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركهُ يَلْهَثْ . ﴾ وقال هنا ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ فقد شبَّه تعالى أحبار اليهود ، والتوراة في أيديهم يقرءونها ، بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب الضخمة النافعة ، ولكنه لا ينتفع منها ولا يناله إلا الشقاء والتعب ، وهذا منتهى التقبيح والتشنيع لهم .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

* * *

ذكر الله[١] ، ودعوا البيع والشراء عند الخطبة ﴿ **ذَلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ** ﴾ سعيُكم للصلاة وترككم للبيع ، خيرٌ لكم من التجارة ذلك الوقت ﴿ **إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ مصالح أنفسكم ومضارها ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ فإذا أديتم صلاة الجمعة ، فانتشروا في الأرض إن شئتم ذلك ﴿ **وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ والتمسوا من فضل الله ، الذي بيده مفاتيح خزائنه ، لدنياكم وآخرتكم ﴿ **واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ واذكروا الله بالحمد والشكر له ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد في جنانه ﴿ **وإذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إلَيْها** ﴾ وإذا رأى المؤمنون تجارة أو لهواً ، أسرعوا إليها وتفرقوا عنك ﴿ **وَتَركُوكَ قَائِماً** ﴾ وتركوك يا محمد قائماً على المنبر تخطب[٢] ﴿ **قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ** ﴾ قل لهم يا محمد : الذي عند الله من الثواب ، لمن جلس مُسْتمعاً لخطبة رسوله وموعظته يوم الجمعة ، خيرٌ له من اللهو ومن التجارة ، التي يسرعون إليها ﴿ **وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ والله خير رازق لعباده ، فإليه فارغبوا وإياه فاسألوا أن يوسِّع عليكم من فضله .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة »

* * *

---

(١) قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ : واللّهِ ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكنه سعيٌ بالقلوب والنية ، والخشوع . تفسير القرطبي ١٨ / ١٠٣ .

(٢) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما النبي ﷺ يخطب الجمعة قائماً إذ قدمت عير إلى المدينة ؛ فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً . . ﴾ الحديث رواه البخاري ومسلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا

* * *

﴿ إِذَا جَاءَكَ المنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ إذا جاءك المنافقون يا محمد ، قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ والله يعلم إنك لرسوله حقاً ،قال المنافقون ذلك أو لم يقولوه ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ والله يشهد بكذب المنافقين ، في إخبارهم أنك لرسول الله ، وذلك أنهم لا يعتقدون ذلك ، فهم كاذبون في خبرهم لأنهم أضمروا غير ما أظهوروا ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ اتخذ المنافقون حلفهم سترة[1] يستترون بها ، ليعصموا بها دماءهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فأعرضوا عن دين الله الذي بعث به محمداً ﷺ ، وعن شريعته التي شرعها لخلقه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ساء ما كانوا يعملون ، في اتخاذهم أيمانهم وقاية وسترة لكذبهم ونفاقهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ذلك الصنيع من أجل أنهم آمنوا بالله ورسوله ، ثم كفروا بشكهم وتكذيبهم بذلك ، فجعل الله على قلوبهم ختماً ، بالكفر عن الإيمان ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ صواباً من خطأ ، ولا حقاً من باطل ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ وإذا رأيت هؤلاء

---

(١) الجُنَّة : بضم الجيم الوقاية والسترة كما يستتر المقاتل في الحرب بالمجَن ـ الترس ـ وفي الحديث « الصوم جُنّة » أي وقاية وسترة من عذاب الله .

نَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

* * *

المنافقين يا محمد ، تعجبك أجسامهم ، لاستواء خلقها ، وحسن صورها ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ وإن يتكلموا تسمع كلامهم ، لأنه يشبه منطق الناس ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ كأنهم أخشابٌ مسنَّدةٌ إلى حائط ، لا فقه لهم ولا علم ، وإنما هم صورٌ بلا أحلام ، وأشباحٌ بلا عقول ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ يحسب المنافقون من خبثهم وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ، يخافون أن يُنزل الله فيهم أمراً يفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسلبهم ، فكلما نزل من الله وحيٌ على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطَبهم ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ هم العدو يا محمد فاحذرهم ، فإن ألسنتهم معكم ، وقلوبهم عليكم ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أخزاهم الله ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ إلى أيِّ وجه يصرفون عن الحق ؟ ﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءوسَهُمْ ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم ، حرَّكوا رؤوسهم وهزُّوها مِراراً ، استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره ﴿ وَرَأَيْتَهُم يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ورأيتهم يعرضون عما دعوتهم إليه ، وهم مستكبرون عن الرجوع إليك لتستغفر لهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ سواءٌ على هؤلاء المنافقين ، أستغفرت لهم من ذنوبهم أم لم تفعل ﴿ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم ، بل يعاقبهم عليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يوفق للإيمان القوم الخارجين عن طاعته .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ هم المنافقون الذين يقولون لأصحابهم : لا تنفقوا على أصحاب رسول الله ، الذين عنده من المهاجرين ، حتى يتفرَّقوا عنه ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ولله جميع ما في السموات والأرض ، وبيده مفاتيح خزائن ذلك ، لا يقدر أحدٌ أن يعطي أحداً شيئاً إلا بمشيئته ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فلذلك يقولون ما يقولون ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ ﴾ يقول المنافقون : لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ
وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

* * *

الأشدُّ والأقوى منها ، الأذلَّ فيها[1] ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولله الغَلَبةُ والقوة ، ولرسوله ، وللمؤمنين ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن العزة لله ولأوليائه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَاأَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله ، فأولئك هم المغبونون حظوظهم ، من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ وأنفقوا أيها المؤمنون من الأموال التي رزقناكم ، من قبل أن يحل الموت بأحدكم ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فيقول إذا نزل به الموت : يا رب هلَّا أخرتني إلى أجل قريب ، فأزكي مالي وأحجَّ بيتك الحرام ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأعمل بطاعتك ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ لن يؤخر الله في أجل أحد ، فيمدَّ له إذا حضر أجله ، ولكن يخترمه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ والله ذو علمٍ بأعمال عبيده ، لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيهم عليها ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

* * *

---

(١) هذا من كلام رأس المنافقين « عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول » ويريد بالأعزّ نفسه وأصحابه ، وبالأذل محمداً ﷺ وأصحابه ، وقد روي عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ، ﷺ : ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة : فقال عبد الله بن أبي بن سلول : وقد فعلوها . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » رواه البيهقي ، وللحديث روايات كثيرة عند البخاري ومسلم وأحمد وغيرهما .

(٢) حكَم تعالى بالخيبة والخسران على من شغلته الدنيا عن طاعة الله وعبادته، أما من استعان بالدنيا على طاعة الله ومرضاته ، فنعمت المطية ، ونعم المركب !!


(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ

* * *

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يسجد لله ما في السموات السبع وما في الأرض من خلقه ، ويمجّده ويعظّمه ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ له ملك كل ما فيها ، وحمد جميع ما فيها من خلق ، لأنه ليس لهم رازق سواه ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾ لايتعذر عليه شيء أراده ، لأنه ذو القدرة التامة ، التي لايعجزه معها شيء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ الله الذي خلقكم أيها الناس ، فمنكم كافرٌ بخالقه ، ومنكم مصدِّقٌ به ، موقنٌ بأن الله خالقه وبارئه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالمٌ بأعمالكم ، وهو مجازيكم بها ، فاتقوه أن تخالفوه في أمره أو نهيه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ خلق السموات السبع والأرض ، بالعدل والإنصاف ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ومثَّلكم (١) فأحسن مَثَلكم بخلقه أباكم آدم ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ وإلى الله مرجع جميعكم أيها الناس ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعلم ربكم جميع ما في السموات السبع ، وما في الأرض من شيء ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ويعلم ما تُسِرُّون من قولٍ وعمل ، وما تُظهرون من ذلك ﴿ وَاللَّهُ

---

(١) المراد بالآية أنه تعالى خلق البشر في أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقهم وتصويرهم كما قال تعالى ﴿ هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ .

عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

* * *

﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عالمٌ بضمائر عباده ، وما تنطوي عليه نفوسهم ، فاحذروا أن تُسِرُّوا غير الذي تعلنون ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ ألم يأتكم أيها الناس ، خبر الذين كفروا من قبلكم من الأمم ، فمسَّهم عذاب الله على كفرهم ؟! ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ولهم عذاب موجع في نار جهنم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ هذا الذي نالهم ، من أجل أنه كانت تأتيهم رسلهم ، بالواضحات من الأدلة والحجج ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ فقالوا لرسلهم : أبشر يهدوننا ؟ استكباراً منهم أن تكون رسل الله بشراً مثلهم(١) ، واستكباراً عن اتباع الحق ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ فكفروا بالله ، وجحدوا رسالة رسله استكباراً ، وأدبروا عن الحق فلم يقبلوه ﴿ واسْتَغْنَى اللَّه ﴾ استغنى الله عنهم وعن إيمانهم به وبرسله ﴿ واللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ والله غنيٌّ عن جميع خلقه ، محمودٌ عند جميعهم ، بجميل أياديه وكريم فعاله ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ زعم الذين كفروا بالله ، أن لن يبعثهم الله من قبورهم بعد مماتهم ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ قل لهم يا محمد : بلى وربي ، لتبعثن من قبوركم ، ثم لتخبرن بأعمالكم ، التي عملتموها في الدنيا ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وبعثكم بعد مماتكم ، سهلٌ هيِّنٌ على الله ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فصدِّقوا أيها المكذبون بالبعث بالله ورسوله ، وبإخباره أنكم مبعوثون بعد مماتكم ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ وآمنوا بالقرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله عالمٌ بأعمالكم ، لايخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيكم عليها ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ يوم يجمع الخلائق للعرض والحساب ، ذلك يوم غبن أهل الجنة أهل النار (٢) ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ،

(١) استنكروا أن يكون الرسول بشراً ، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً ، وذلك لقلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، ويا لها من مفارقةٍ عجيبة !!

(٢) أي ذلك اليوم الذي يظهر فيه غبنُ الكافر وخسارته بتركه الإيمان والعمل الصالح ، قال الخازن : وأصله من « الغبن » وهو =

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

* * *

يمح عنه ذنوبه ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ويدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ لابثين فيها أبداً ، لايموتون ولا يخرجون منها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ خلودهم في الجنات هو النجاء العظيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا بكتابه المنزل على محمد ﷺ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أولئك أهل النار ، ماكثين فيها أبداً لايموتون فيها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وبئس الشيء الذي يصار إليه جهنم ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لم يصب أحداً من الخلق مصيبة ، إلا بقضاء الله وتقديره ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ومن يصدِّق بالله ، فيعلم أن المصيبة بإذنه وتقديره تعالى ، يوفق الله قلبه ، بالتسليم لأمره والرضا بقضائه ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عالمٌ بما كان ، ويكون ، وما هو كائن.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وأطيعوا الله في أمره ونهيه ، وأطيعوا رسوله ﷺ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ فإن أدبرتم عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، فليس على رسولنا محمد ﷺ إلا البلاغ الواضح ، وقد أعذركم بالإبلاغ (١) ، والله ينتقم ممن عصاه ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ معبودكم أيها الناس المستحق للعبادة ، معبودٌ واحدٌ لا معبود لكم سواه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وعلى الله فليعتمدْ المصدِّقون بوحدانيته ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، يصدُّونكم عن سبيل الله ، ويثبطونكم عن طاعة الله ، فاحذروا أن تقبلوا منهم ذلك ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾ وإن تعفوا عمَّا سلف منهم ، من صدِّكم عن الإسلام والهجرة ،وتصفحواعن عقوبتكم لهم ، وتغفروا لهم ذلك ﴿ فَإِنَّ

=أخذالشيء بدون قيمته ، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان ، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان . وقال ابن عباس : يوم التغابن من أسماء يوم القيامة ، عظَّمه تعالى وحذَّره عباده .

(١) المعنى أنه ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة ، وقد أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة ، كما أمره الله تعالى ، فلا ضرر عليه ، وإنما الضرر عليكم بتكذيبه ، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره .

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟
خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ
لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

* * *

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفورٌ لذنوب من تاب من عباده رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ما أموالكم أيها الناس وأولادكم ، إلاّ بلاءٌ عليكم في الدنيا ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ والله عنده ثوابٌ عظيم لكم هو الجنة ، إذا أنتم خالفتم أولادكم وأزواجكم ، في طاعة ربكم ، وأدَّيتم حق الله في أموالكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فخافوا عقاب الله أيها المؤمنون ، وتجنبوا عذابه ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ بقدر ما أطقتم وبلغه وسعكم [1] ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ واسمعوا لرسول الله ﷺ وأطيعوه ، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ وأنفقوا مالاً لأنفسكم ، تستنقذوها من عذاب الله ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ومن يحفظه الله من هوى نفسه ، ويقه شحَّها ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ إن تنفقوا في سبيل الله ، فتحسنوا النفقة ، وتحتسبوا بإنفاقكم الأجر والثواب عند ربكم ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ يضاعف لكم الأجر ، فيجعل مكان الواحد سبعمائة ضعف ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم ، فيصفح عن عقوبتكم عليها ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ذو شكرٍ لأهل الإنفاق في سبيله ، بإحسانه لهم الجزاء ، حليمٌ عن أهل معاصيه ، بترك معاجلتهم بعقوبته ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ عالم ما يغيب عن أبصار العباد ، وما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الشديد في انتقامه ممن عصاه ، الحكيمُ في تدبير أمور خلقه فيما يصلحهم .

* * *

---

(١) قال المفسرون : هذا في المأمورات ، أما في المنهيات فتجتنب كلها لقوله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » رواه البخاري ومسلم .

(٢) فسَّر الإمام ابن جرير الشح باتباع هوى النفس فيما حرَّم الله ، وقال غيره : الشحُّ هو أشدُّ أنواع البخل ومعنى الآية : من يسلم من البخل والطمع وينفق في سبيل الله فقد فاز برضوان ربه .



بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ

* * *

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يا أيها النبي إذا طلقتم نساءكم ، فطلقوهنَّ لطهرهنَّ الذي يُحصينه من عدتهنَّ ، طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهنَّ بحيضهن ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ وأحصوا هذه العدة فاحفظوها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ وخافوا الله ربكم ، فاحذروا معصيته أن تتعدَّوا حدوده ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ لا تُخرجوا من طلَّقتم من نسائكم من بيوتهن ، التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، حتى تنقضي عدتهن ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ وليس لها أن تخرج بنفسها ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ إلا أن يأتين بمعصية الله كالزنى ، وبذاءة اللسان ، وخروجها من بيتها الذي تعتد فيه قبل انقضاء العدة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ وهذه الأمور التي بينتها لكم ، هي حدودُ الله التي حدَّها لكم فلا تعتدوها ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ومن يتجاوز حدود الله ، فقد أكسب نفسه وزراً ، فصار لها بذلك ظالماً ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ لا تدري ما الذي يحدث ، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة[1] ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ فإذا بلغ المطلقات قرب انقضاء عدتهن ، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فأمسكوهنَّ برجعة تراجعوهنَّ بها بالمعروف وذلك بإعطائها الحقوق التي

---

(١) قال ابن زيد : لعل الله يحدث في قلبك مراجعة زوجتك ، ومن طلّق للعدة جعل الله له في ذلك فسحة ، وجعل له ملكاً عليها بمراجعتها قبل أن تنقضي عدتها .

وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ
وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ

* * *

أوجبها الله لها ، من النفقة ، والكسوة ، والمسكن ، وحسن الصحبة ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهنَّ بعد إيفائها حقها من الصَّداق والمتعة ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وأشهدوا على الرجعة إن أمسكتموهن ، رجلين ترضون دينهما وأمانتهما ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ وأشهدوا على الحق ، إذا أنتم دعيتم للشهادة ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هذا الذي أمرتكم به ، عظةٌ نعظ به من كان يؤمن بالله ، ويصدِّق باليوم الآخر ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ومن يخف الله فيعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه ، يجعل له مخرجاً وسبيلاً إلى خطبتها ونكاحها ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ ويسبِّب له أسباب الرزق ، من حيث لا يشعر ولا يعلم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ومن يفوِّض أموره إلى الله ، فهو كافيه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ إن الله بالغ أمره بكل حال ، توكَّل عليه العبد أو لم يتوكل[1] ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ قد جعل الله لكل شيء حدّاً وأجلاً ينتهي إليه ﴿والـلاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ والنساء اللاتي ارتفع طمعهن عن المحيض ، فلا يرجون الحيض لكبر السنِّ أو غيره ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فعدتهن عند الطلاق ثلاثة أشهر ﴿وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وأجل النساء الحوامل في انقضاء عدتهن ، أن يضعن حملهن مطلقةً كانت أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ ومن يخف الله فيجتنب معاصيه ، فإنه يجعل الله له من طلاقه ما يسهل عليه الرجعة ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ هذا الذي بيَّنته لكم هو أمر الله أنزله إليكم ، لتأتمروا وتعملوا به ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه ، يمح عنه ذنوبه ، ويُجزل له الثواب بإدخاله جنَّته .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أسكنوا المطلقات من الموضع الذي سكنتم فيه ، مما تجدون من السعة ، حتى يقضين عُددهنَّ ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ولا تضيِّقوا عليهن في المسكن

(١) قال ابن مسعود : ليس بمتوكلٍ من قُضيت حاجتُه ، غير أن المتوكل يُكفِّر عنه سيئاته ، ويُعظم له أجراً .

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ
ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ
ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي

* * *

إضراراً بهن حتى يخرجن ، وأنتم تجدون سعة من المنازل ﴿وَإِنْ كُنَّ أولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وإن كان نساؤكم المطلقات حاملات ، وكنَّ بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن في عدتهن حتى يضعن حملهن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فإن أرضع لكم نساؤكم الأطفال بأجرة ، فآتوهن أجورهن على رضاعهن إياهم ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليقبل بعضكم من بعض ما أُمر به من معروف[١] ؛ **قال السُّدّي** : إصنعوا المعروف فيما بينكم ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ وإن تعاسر الرجل والمرأة في رضاع ولدها منه ، فامتنعت من رضاعه ، فليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبي مرضعة غير أمه المطلَّقة[٢] ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ لينفق الذي طلّق امرأته إذا كان ذا سعة وغنى ، من سعة ماله وغناه ، على امرأته وعلى ولده الصغير ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ ومن ضُيِّق عليه رزقه ، فلينفق مما أعطاه الله على قدر ماله ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ لا يكلف الله أحداً من النفقة ، إلا على قدر طاقته . **قال السدي** : لا يُكلَّف الفقير مثل ما يُكلَّف الغني ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ سيجعل الله للمضيَّق عليه رزقه ، بعد شدةٍ رخاءً ، وبعد ضيقٍ سعةً ، وبعد فقرٍ غنى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ وكثير من أهل قرية ، طغوا عن أمر ربهم وعن أمر رسله ، فتمادوا في طغيانهم وعتوهم ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ فحاسبناها حساباً شديداً ، استقصينا فيه كل شيء ، ولم نتجاوز فيه عنهم ، **قال ابن عباس** : لم نرحمهم ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾ وعذبناهم عذاب جهنم[٣]، العظيم المنكر ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ فذاقت هذه القرية ، عاقبة ما عملت من معاصي الله ، والكفر به ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾ وكانت عاقبة كفرهم الخسران ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بِخَسيسٍ من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ أعد الله لهؤلاء القوم ، عذاب النار الشديد ، الذي أعدَّه لهم في القيامة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولي الأَلْبَابِ﴾ فخافوا الله ، واحذروا سخطه ، يا أصحاب العقول

(١) قال القرطبي : والمعروف منها إرضاع الولد من غير أجرة ، والمعروف منه توفير الأجرة عليها للإرضاع ١٨ / ١٦٩

(٢) قال أبو حيان : وفيه عتاب لطيف للأم كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : « سيقضيها غيرك » تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم » البحر المحيط ٨ / ٢٨٥

(٣) هكذا فسره الإمام الطبري ، وقال غيره: المراد به عذاب الدنيا لا عذاب جهنم ، بدليل قوله بعده ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لهم عذاباً شديداً﴾ .

ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

* * *

﴿الَّذِينَ آمنوا﴾ الذين صدَّقوا الله ورسله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ قد أنزل الله إليكم ذكراًيذكِّركم به ربكم، وهو محمد ﷺ[1] ﴿رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه ، واضحات لمن سمعها وتدبرها ، أنها من عند الله ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىَ النُّورِ﴾ كي يخرج الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله به ربهم ، من الكفر إلى الإيمان ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾ ومن يصدِّق بالله ويعمل بطاعته ، يدخلْه بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ مقيمين في تلك البساتين التي تجري من تحتها الأنهار ، لا يموتون ولا يُخرجون منها أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ قد وسَّع الله له في الجنات من المطاعم ،والمشارب، فطيَّبه لهم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الله الذي خلق سبع سمواتٍ، لا ما يعبدُه المشركون من الآلهة والأوثان ، التي لا تقدر على خلق شيء ، وخلق من الأرض مثل ذلك[2] ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يتنزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كي تعلموا أيها الناسَ كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه أمر أراده ، ولكنه على ما يشاء قدير ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ ولتعلموا أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، فخافوا أيها الناس عقوبته، فإنه لا يمنعه من ذلك مانع ، وهو على ذلك قادر .

---

(١) رجح الطبري أن المراد بالذكر هو الرسول محمد ﷺ بدليل أنه أبدله منه في قوله ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً . رسولاً﴾ وإليه ذهب أبو السعود وبعض المفسرين ، وقال غيره : إن المراد بالذكر « القرآن الحكيم » وبالرسول محمد ﷺ وأنه منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل إليكم رسولاً وهو اختيار ابن عطية وأبي حيان ، وهو الأرجح والله أعلم .

(٢) لا خلاف بين العلماء أن السموات سبعٌ ، فذلك أمر مجمع عليه، وأما الأرض فقيل : إنها واحدة ، وقيل : إنها سبع أرضين لظاهر الآية الكريمة ﴿ومن الأرض مثلهنَّ﴾ وللحديث الصحيح « من ظلم قدر شبرٍ من أرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين » وقد اختار الطبري أنها سبع ، وهو الأظهر والأرجح والله أعلم ، وانظر صفوة التفاسير ٣ /٤٠٣



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ يا أيها النبي المحرِّم على نفسه ما أحلَّ الله له ، لم تحرم على نفسك الحلال الذي أحلَّه الله لك ؟ ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة أزواجك ؟ ! ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفور لذنوب التائبين من عباده ، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ قد بيَّن الله لكم أيها الناس ما تتحلَّلون به من أيمانكم ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ والله يتولاكم بنصره وتأييده ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ وهو العليم بمصالحكم ، الحكيم في تدبير أموركم ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ ذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجه حفصة حديثاً، عن تحريمه «مارية» على نفسه ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ فلما أخبرت بالحديث صاحبتها عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأظهر الله نبيه محمداً ﷺ على ذلك ﴿ عَرَّفَ بَعْضَه وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ أخبر النبي ﷺ « حفصةَ » بعض ما

---

(١) قد ذكر العلماء سببين لنزول الآيات وهما :

ـ أن رسول الله ﷺ حرَّم أمته « مارية القبطية » على نفسه .

ـ أنه حرم على نفسه ما كان يشربه عند زينب من العسل .

والأظهر ـ والله أعلم ـ هو الأول لأن تحريم بعض النساء هو ممَّا يبتغي به مرضاة بعض الزوجات ، لا شرب العسل ، ولهذا قال الحافظ ابن كثير : وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر . وانظر صفوة التفاسير ٣ /٤٠٦

ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

* * *

أظهره الله عليه من حديثها ، وترك أن يخبرها ببعض(١) ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ فلما أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ، من إفشائها سرَّ رسول الله ﷺ إلى عائشة ، قالت حفصة : من أخبرك بهذا الخبر ؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ قال لها : أخبرني به العليمُ بسرائر عباده ، الخبيرُ بأمورهم ، الذي لا يخفى عنه شيء ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلى اللَّهِ ﴾ إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان(٢) ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ ، من تحريم ما كان حلالاً له ﴿ وإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ وإن تتعاونا على معصية النبي ﷺ وأذاه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُو مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ ﴾ فإن الله هو وليُّه وناصره وجبريل الأمين ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وخيار المؤمنين(٣) أيضاً مولاه وناصره ﴿ والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله ﷺ أعوانٌ على من آذاه ، وأراد مساءته ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ ﴾ عسى رب محمد ، إن طلقكن نبيُّه يا معشر أزواج محمد ، أن يبدله أزواجاً خيراً منكنَّ ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ خاضعات لله بالطاعة ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات بالله ورسوله ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ مطيعات للَّهِ ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ راجعات إلى ما يحبه الله منهن ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ متذللات لله بطاعته ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات(٤) ﴿ ثَيِّباتٍ ﴾ وهن اللواتي قد ذهبت عذرتهن بالزواج ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ وهن اللواتي لم يُجَامعن(٥) ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، علموا بعضكم بعضاً ما تتقون به النار ، واعملوا أنتم بطاعة الله ، وعلموا أهليكم العمل بطاعة الله ، ليقوا أنفسهم من النار ﴿ وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ حطبها الذي يوقد على هذه

---

(١) عادة الفضلاء التغافل عن الزلات ، فلم يخبرها ﷺ ، بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً ولهذا قال الحسن : ما استقصى كريم قط .

(٢) هما عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) وقيل إن المراد بصالح المؤمنين هنا أبو بكر وعمر ، والدا عائشة وحفصة .

(٤) رجح الطبري أن معنى « سائحات » صائمات وهو قول ابن عباس ، وقال غيره : مهاجراتٍ إلى الله ورسوله ، وهو قول زيد بن أسلم ، وهذا هو الأرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي : السفر في الأرض .

(٥) قال ابن كثير : قسمهنَّ إلى نوعين « ثيبات ، وأبكار » ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنويع يبسط النفس ويبهجها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾

* * *

النار ، بنو آدم وحجارة الكبريت ﴿ **عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ** ﴾ على هذه النار ملائكة من ملائكة الله ، شدادٌ على أهل النار ،لا يرحمون أحداً[١]﴿ **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** ﴾ لا يخالفون الله في أمره ﴿ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ** ﴾ يا أيها الذين جحدوا وحدانية الله ، لا تطلبوا اليوم المعاذير من أعمالكم ﴿ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ** ﴾ إنما تثابون وتعطون اليوم جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون

﴿ **يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا تُوبُوا إِلى اللَّهِ** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، آرجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله ، وإلى ما يرضيه عنكم ﴿ **تَوْبَةً نَصُوحاً** ﴾رجوعاً[٢]لا تعودون فيه أبداً ﴿ **عَسَىَ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ لعل الله أن يمحو سيئات أعمالكم ، التي سلفت منكم ﴿ **وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ** ﴾ وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ﴾ يوم لا يخزي الله النبي محمداً ﷺ والذين آمنوا معه ﴿ **نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ يسعى نورهم أمامهم ﴿ **وَبِأَيْمَانِهِمْ** ﴾ وبأيمانهم كتبهم[٣] ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** ﴾ يقولون يا ربنا : أبق لنا نورنا فلا تطفئه ، حتى نجوز الصراط[٤] ﴿ **واغْفِرْ لَنَا** ﴾واستر علينا ذنوبنا بفضلك وكرمك،فلا تفضحنا بها﴿ **إِنَّكَ عَلَى**

---

(١) روي أن هؤلاء الملائكة من الزبانية ، سود الوجوه ، كالحة أنيابهم ، قد نزعت من قلوبهم الرحمة على أعداء الله . فليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة . انظر ابن كثير ٣ /٥٢٣

(٢) قال قتادة : التوبة النصوح : هي الصادقة الناصحة، وقال عمر : أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه أبداً .

(٣) هكذا فسّره الطبري وقال غيره : هو معطوف على ما قبله ومعنى الآية نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط ، ويسطع أمامهم وخلفهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم كنور القمر في سواد الليل .

(٤) قال مجاهد : هذا قول المؤمنين حين يُطفأ نور المنافقين ، وقال الحسن : يُعطى المؤمن والمنافق نوراً ، فيُطفأ نور المنافق ، ويخشى المؤمن أن يطفأ نوره فذلك قوله﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

***

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إنك قادر على كل الأشياء ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقينَ﴾ يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واشدد عليهم في ذات الله ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصيرُ﴾ ومستقر هؤلاء جهنم ، وبئس الموضع الذي يصيرون إليه جهنم ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ مثَّل الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنَا صَالِحَينِ﴾ كانتا تحت عبدين من عبادنا وهما « نوح » و « لوط » عليهما السلام ﴿فخانتاهما﴾ في الدين[1] فلم تؤمنا بالله تعالى وكانتا مشركتين تدلان الناس على أضيافه ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلم يدفع نوح ولوط عليهما السلام عن امرأتيها من الله شيئاً ، ولم ينفعهما أن أزواجهما أنبياء، **قال قتادة** : لم يغن صلاح النبيّيْن عن زوجتيهما شيئاً ، ولم يضرّ امرأة فرعون كفر فرعون ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وقال الله لهما: ادخلا نار جهنم مع الداخلين فيها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ ومثَّل الله مثلاً للذين صدَّقوا الله « امرأة فرعون » التي آمنت بالله وصدَّقت رسوله موسى ، وكانت تحت عدوٍ من أعداء الله كافر وهو « فرعون » ، فلم يضرُّها كفر زوجها ، إذ كانت مؤمنة بالله[2] ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ حين قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، فاستجاب الله لها ، فبنى لها بيتاً في الجنة ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ وأنقذني من عذاب فرعون ، ومن أن أعمل عمله فأكفر بالله ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وأنقذني من عمل القوم

(١) هذا هو الصحيح أن الخيانة كانت في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسبوا لهما فاحشة الزنى ، وهذا قول باطل مردود نزَّه الله عنه أزواج الأنبياء ، فإنهن شريفاتٌ مصونات لحرمة الأنبياء ، ولا يتصور أن تتعاطى واحدة منهن الفجور ، ولهذا قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قطُّ، وقد كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تُطلع على سرِّ نوح ، فإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت به الجبابرة من قوم نوح ، وأما امرأة لوطٍ فكانت إذا ضاف لوطاً أحدٌ من الضيوف خبَّرت به أهل المدينة الذين يعملون السوء . . هذه خيانتهما فتدبر قول العلماء رعاك الله فإنه دقيق ونفيس وانظر صفوة التفاسير ٣ / ٤١١

(٢) قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله ، وأبعده من الله ، فواللَّهِ ما ضرَّ امرأَتَهُ كفرُ زَوجها حين أطاعت ربها ، لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدلٌ ، لا يؤاخذ عبْدَه إلاّ بذنبه . اهـ الطبري ٢٨ / ١٧١

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

* * *

الكافرين ومن عذابهم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ ومثَّل الله مثلاً للذين آمنوا «مريم ابنة عمران» التي منعت جيب[1] درعها جبريل عليه السلام، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ فنفخنا في جيب درعها من روحنا جبريل عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وآمنت بعيسى كلمة الله، وبالتوراة والإنجيل ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ وكانت من القوم المطيعين لله تعالى

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

* * *

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تعاظم وتعالى الذي بيده ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، نافذٌ فيهما أمره وقضاؤه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو على ما يشاء قادرٌ، لا يمنعه من فعله مانع ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ الذي أمات من شاء، وأحيا من أراد[1] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ليختبركم أيها

(١) هكذا فسَّره الطبري بأن المراد بالفرج هنا فتحة الدرع ـ الثوب ـ وقال: كل ما كان في الدرع من خرقٍ أو فتق فهو فرج، وكذلك كل صدع وشق في حائط أو سقف فهو فرج، وقال غيره من المفسرين: «أحصنت فرجها» أي حفظت فرجها وصانته عن مقارفة الفواحش والرذائل، فهي عفيفة شريفة طاهرة، لا كما قال اليهود عليهم لعنة الله: إنها زانية فاجرة، وإن ولدها عيسى هو ابن زنى، وهذا القول أظهر.

(٢) قال قتادة: أذلَّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياةٍ ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاءٍ وبقاء اهـ الطبري ٢٩/١

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ
تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

***

الناس أيّكم له أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ وهو القوي في انتقامه ممن عصاه، الغفورُ لذنوب من أناب إليه وتاب ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ الذي خلق سبع سمواتٍ، بعضها فوق بعض طبقاً فوق طبق(١) ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ ما ترى في خلق الرحمن من اختلافٍ، لا في سماءٍ، ولا في أرض ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ فردِّدِ البصر في السموات، هل ترى فيها من صدوع؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ثم ردِّد البصر يا ابن آدم، مرةً بعد أخرى، فانظر هل ترى من شقوقٍ أو تفاوتٍ في خلق الرحمن؟ ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ يرجع إليك بصرك صاغراً مُبْعداً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو كالٌّ متعب. لم ير خللاً ولا تفاوتاً ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ولقد زينا السماء الدنيا بنجوم مضيئة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا المصابيح رجوماً للشياطين تُرجم بها(٢) ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وهيأنا للشياطين عذاب النار، تسعر عليهم فتُسجر في الآخرة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وللكافرين بربهم من الخلق، عذاب جهنم في الآخرة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾وبئست جهنم مصيراً لهم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً﴾ إذا ألقي الكافرون في جهنم، سمعوا لها صوتاً شديداً كصوت الحمار ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ وهي تغلي بهم كما يغلي القِدْرُ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تكاد جهنم تتقطّع وتتفرّق من الغيظ على أهلها ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما طُرح في جهنم جماعةٌ من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ سألهم خزنة جهنم - الزبانية -: ألم يأتكم في الدنيا رسولٌ يخوِّفكم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأجابهم المساكين: بلى قد جاءنا نذير ينذرنا فكذبناه، وقلنا له: ما نزَّل الله من شيء ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ﴾ وقلنا: ما أنتم أيها الرسل، إلا في ذهابٍ عن الحق بعيد ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا

(١) أي متطابقة كل سماءٍ كالقُبَّة للأخرى، بعضها فوق بعض.
(٢) قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها في البر والبحر. القرطبي ٢٠٩/١٨

فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ
قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ
ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

***

كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقالوا : لو كنا في الدنيا نسمع من الرسل ما جاءونا به من النصيحة ، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه ، ما كنَّا اليوم في أهل النار !! ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ**﴾ فأقروا بذنبهم ﴿**فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ فبعداً لأهل النار ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**﴾ إن الذين يخافون ربهم وهم لم يروه ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ لهم عفوٌ من الله عن ذنوبهم ، وثوابٌ جزيلٌ على خشيتهم ﴿**وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ**﴾ وأخفوا كلامكم ـ أيها الناس ـ أو أعلنوه وأظهروه ﴿**إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ إنه تعالى عالمٌ بضمائر الصدور ، التي لم يُتكلم بها ، فكيف بما نَطق به الإنسان وتكلم ؟ ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ ألا يعلم الرب مَنْ خَلَقَه ؟ فكيف يخفى عليه خلقه ؟ ! ﴿**وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ وهو اللطيفُ بعباده، الخبيرُ بهم وبأعمالهم ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً**﴾ هو الذي سهَّل الأرض فجعلها لكم سهْلاً ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا**﴾ فسيروا في نواحيها وجوانبها ﴿**وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ وكلوا من رزق الله ، الذي أخرجه لكم من الأرض ﴿**وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ وإلى الله إحياؤكم وبعثكم من قبوركم أيها الناس .

﴿**ءأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ**﴾ أأمنتم الله[1] أيها الكافرون ، أن يخسف بكم هذه الأرض ؟ ﴿**فَإِذَا هِيَ تَمُورُ**﴾ فإذا الأرض تذهب بكم وتجيء وتضطرب ﴿**أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً**﴾أم أمنتم الله أن يرسل عليكم التراب الذي فيه الحصباء الصغار؟﴿**فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ**﴾ فستعلمون ـ أيها الكفرة ـ عاقبة نذيري لكم ، إذْ كذبتم به ، ورددتموه على رسولي ؟ ﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ ولقد كذَّب الذين كانوا قبل هؤلاء المشركين من الأمم الخالية رسلهم ، فكيف كان إنكاري عليهم بتكذيبهم رسلي ؟ ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ**﴾ أو لم ير هؤلاء المشركون إلى الطير فوقهم باسطاتٍ أجنحتهن ؟ ﴿**وَيَقْبِضْنَ**﴾ ويقبضن أجنحتهن أحياناً ﴿**مَا**

(١) قوله ﴿ءأمنتم مَنْ في السماء﴾ يراد به الله عز وجلَّ كما أشار الطبري، فهو تعالى على عرشه في السماء، له العظمة والكبرياء ، والآية وردت على سبيل الوعيد والتهديد ، لا لبيان الجهة والمكان .

ٱلرَّحۡمَـٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَـٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾

* * *

﴿يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ ما يمسك الطير فوق الناس إلا الرحمن ، فليعتبروا بذلك ﴿إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ذو بصرٍ وخبرة بكل شيء ، لا يدخل تدبيره خلل ﴿أمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ مَن هذا الذي يستطيع أن ينصركم من الرحمن ، إن أراد بكم سوءاً[١] ، فيدفع عنكم عذاب الله ؟ ﴿إنِ الْكَافِرُونَ إلاَّ فِي غُرُورٍ﴾ ما الكافرون إلا في غرور ، من ظنهم أن آلهتهم تنفع أو تضر !! ﴿أمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إنْ أمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أم من هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم ، إن أمسك ربكم عنكم رزقه الذي يرزقكم ؟ ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل تمادوا في طغيانٍ ، واستكبارٍ عن الحق ﴿أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل من يمشي مكباً[٢] على وجهه ، لا يُبصر ما بين يديه ولا ما عن يمينه وشماله ، أهدى على الطريق ، أم من يمشي على قدميه مشي بني آدم ، على طريق لا اعوجاج فيه ؟ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أنْشَأكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ﴾ قل يا محمد للمشركين المكذبين بالبعث : الله هو الذي خلقكم ، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به ، والأبصار التي تبصرون بها ، والأفئدة التي تعقلون بها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ قليلاً ما تشكرون ربكم على هذه النعم ؟! ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأكُمْ فِي الأرْضِ﴾ قل يا محمد : الله هو الذي خلقكم في الأرض ﴿وَإلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإلى الله تجمعون من قبوركم لموقف الحساب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المشركون : متى يكون الحشر ؟ إن كنتم صادقين في وعدكم إيانا به ؟! ﴿قُلْ إنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلونك بالعذاب إنما علم الساعة والقيامة عند الله ، لا يعلم ذلك غيره ﴿وَإنَّمَا أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وما أنا إلا نذير لكم ، أنذركم عذاب الله على كفركم به ، قد أبان لكم

---

(١) قال ابن عباس : من ينصركم مني إن أردتُ عذابكم ؟

(٢) هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالكافر كالأعمى الذي يسير على غير هدى ، يتعثر في مشيه ولا يزال ينكبُّ على وجهه ، لأنه لا يرى الطريق أمامه ، والمؤمن كالبصير الذي يمشي على الطريق المستقيم منتصب القامة فهو آمنٌ من التخبط والعثار ، هل يستوي هذا وهذا ؟ قال ابن عباس معنى الآية : من يمشي في الضلالة أهدى أم من يمشي مهتدياً ؟

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ
وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ
هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

* * *

إنذاره ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ فلما رأى المشركون عذاب الله قريباً وعاينوه ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ساء الله بذلك العذاب وجوه الكافرين ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ وقال الله لهم: هذا العذاب الذي كنتم تذكّرون ربكم أن يعجِّله لكم ﴿قُل أَرَأَيْتُم إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ قل يا محمد للمشركين: أرأيتم إن أهلكني الله، فأماتني ومن معي؟ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أو رحمنا فأخَّر في آجالنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن ينجي الكفار من عذاب الله المؤلم الموجع؟ فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا نزول العذاب ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ﴾ قل يا محمد: ربنا الرحمن صدَّقنا به ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وعليه اعتمدنا في أمورنا وبه وثقنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فستعلمون أيها المشركون، من الذي هو في ذهاب عن الحق، والذي هو على طريق مستقيم، إذا صرنا إليه وحُشرنا جميعاً نحن أو أنتم؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ قل يا محمد: أرأيتم أيها القوم إن أصبح ماؤكم غائراً في الأرض، لا تناله الدلاء ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ فمن يجيئكم بماءٍ جارٍ ظاهر تراه العيون[1]؟

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

* * *

(١) هذا وعيدٌ من الله تعالى للمشركين وتهديد، نبَّههم تبارك وتعالى إلى واجب الشكر لنعم الخالق، التي لا تُحصى، ومن ضمنها نعمةُ حفظِ الماء في الأرض لهم، ولو شاء تعالى لجعله ذاهباً غائراً فيها، لا يُنتفع منه بعد نزوله من السماء، كما قال تعالى ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرض وإنّا على ذهابٍ به لقادرون﴾ فسبحان المنعم على العباد بما فيه حياتهم وبقاؤهم، في الإنزال والإسكان.. اللهم ارزقنا شكر نعمك.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ

***

﴿نٓ والْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن زيد : هذا قسمٌ أقسم الله به ، والمعنى أقسمُ بالنون[1] والقلم الذي خلقه الله ، فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأقسم بالذي يخطُّون ويكتبون ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ما أنت يا محمد بنعمة ربك بمجنون ، كما زعم المشركون في قولهم : « إنك لمجنون » ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وإن لك يا محمد لثواباً من الله عظيماً ، على صبرك على أذى المشركين ، غير منقوص ولا مقطوع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإنك يا محمد لعلى أدبٍ عظيم ، أدَّبك به ربك ، وذلك أدب القرآن ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ فسترى يا محمد ويرى المشركون، بأيكم الجنون[2]؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إن ربك يا محمد ، هو أعلم بمن ضل عن طريق الهدى، وعن دين الله ، كما ضلَّ كفَّار قريش ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو أعلم بمن اهتدى فاتَّبع الحق ، كما اهتديت أنت إليه ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تطع يا محمد المكذبين بآيات الله ورسوله ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ تمنى المشركون لو تلين لهم في دينك ، بالركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك في عبادتهم إلٓهك[3] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ ولا تطع يا محمد كل مكثرٍ للحلف بالباطل

(١) الراجح أن هذا من الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وقيل : هو اسم للدواة التي يوضع فيها الحبر ، وقيل : هو اسم للسورة وقيل غير ذلك والله أعلم .

(٢) هكذا اتهم المشركون سيِّد الرسل بالجنون ، فقالوا : إنه يهذي ، وإن ما يزعم أنه وحيٌ إنما هو من قبيل الهذيان والجنون ، كما حكي القرآن مقالتهم ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذِّكرُ إنك لمجنون﴾ فردُّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة ذلك البهتان .

(١) روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ : لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلٓهك فنزلت الآية .

مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾

***

ضعيف[١] ﴿هَمَّازٍ﴾ مغتاب للناس يأكل لحومهم ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ مشاءٍ بنقل حديث الناس ، ينقل حديث بعضهم إلى بعض ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بخيلٍ بالمال ، ضنين به عن الحقوق ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ معتدٍ على الناس ، ذي إثم بربه ﴿عُتُلٍّ﴾ جاف شديد في فكره ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ وهو مع ذلك دعيٌّ ملصقٌ بالقوم وليس منهم ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ولا تطع كل حلاَّف مهين، من أجل أنه ذو مالٍ وبنين ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ إذا تقرأ عليه آيات القرآن ، قال : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به وإنكاراً أن يكون من عند الله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفه الناس ، وسنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقيةً فيه ما عاش، **قال ابن عباس** : وقد خطم يوم بدر بالسيف[٢] ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ إنا امتحنَّا مشركي قريش ، كما امتحنَّا أصحاب البستان ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ حين حلفوا ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون : إن شاء الله تعالى ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فطرق بستانَهم ليلاً طارقٌ من أمر الله ، وهم غافلون عنها في نومهم ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فأصبحت جنتهم محترقة سوداء ، كسواد الليل المظلم البهيم ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ فنادى القوم بعضهم بعضاً بعد أن أصبحوا ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أن اذهبوا مبكّرين إلى زرعكم ، إن كنتم حاصدين له ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ فمضوا إلى زرعهم، وهم يتسارون بينهم قائلين ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ لا يدخلن جنتكم اليوم عليكم مسكين ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ ومَضوْا على أمرٍ قد قصدوه واعتمدوه[٣] ، وأجمعوا عليه بينهم ، قادرين عليه

(١) هكذا فسَّر الطبري المهين بمعنى الضعيف ، وقال غيره معناه الحقير الفاجر وهو الأظهر .

(٢) نزلت هذه الآيات في « الوليد بن المغيرة » وقيل في الأخنس بن شريق، وقد ألحق به القرآن ذلاً وعاراً لا يفارقه أبداً .

(٣) قال ابن عباس : ﴿على حَرْدٍ﴾على قدرةٍ وقصدٍ ، وقال السُّدي : على حَنَق وغضب ، وقول ابن عباس أظهر لأن المراد أنهم مضوا عازمين على قصدٍ وقدرة في أنفسهم ، يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم،وانظر تفصيل القصة في صفوة التفاسير ٤٢٧/٣ .

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾
قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾
عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ

***

في أنفسهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ فلما رأوها محترقة ، أنكروها وشكُّوا فيها ، هل هي جنتهم أم لا ؟ فقال بعضهم لأصحابه : إنا أيها القوم مخطئون الطريق ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ فقال بعضهم : لم نخطىء الطريق ، بل نحن أيها القوم محرومون ، حُرِمنا منفعة جنتنا بذهاب زرعها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال أعدلهم رأياً : ألم أقل لكم : هلَّا تستثنون حين قلتم « لنصرمنَّها مصبحين » فتقولوا : إن شاء الله ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قال أصحاب الجنة : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، في قسمنا وعزمنا على ترك إطعام المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ فأقبل بعضهم يلوم بعضاً ، على تفريطهم وعزمهم على منع المساكين ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ قال أصحاب الجنة : يا ويلنا إنا كنا مخالفين أمر الله ، في تركنا الاستثناء والتسبيح ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا﴾ لعل الله أن يبدلنا خيراً من جنتنا ، بتوبتنا من فِعْلِنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ إنا راغبون أن يبدلنا ربنا خيراً منها ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ كما فعلنا بهؤلاء ، نفعل بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا ، وعقوبة الآخرة له أكبر من عقوبة الدنيا وعذابها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لارتدعوا وأنابوا ، ولكنهم جهال لا يعلمون .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ إن الذين اتقوا عقوبة الله ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لهم بساتين النعيم الدائم ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أفنجعل الذين خضعوا لله بالطاعة ، وذلوا له بالعبودية ، كالذين اكتسبوا المآثم ، وركبوا المعاصي ، وخالفوا أمر الله ونهيه ؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ما لكم أتجعلون المطيع والعاصي سواء ؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ألكم أيها القوم كتابٌ نزل من عند الله ، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون ؟! ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم في ذلك الكتاب الذي تخيَّرون من الأمور[1] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ

---

(١) هذا تقريع وتوبيخ من الله للمشركين فيما كانوا يقولون من الباطل ، ويتمنونه من الأماني الكاذبة .

﴿لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ
يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝٤٣ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾

* * *

القِيامَةِ﴾ هل لكم أيمان علينا تنتهي بكم إلى يوم القيامة **﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾** بأن لكم حكمكم الذي تحكمون ؟ **﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾** سل يا محمد المشركين : أيهم كفيل بذلك ؟ **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾** أم لهؤلاء القوم شركاء فيما يصفون من الأمور التي يزعمون أنها لهم ؟ **﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾** فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين فيما يدعون من الشركاء ؟ **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾** يوم تكشف القيامة عن أمرٍ فظيع شديد، **قال ابن عباس** : هو يوم القيامة يوم كربٍ وشدَّة[١] **﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾** وتدعوهم هذه الشدة إلى السجود لله ، فلا يطيقون ذلك[٢] **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾** ذليلة أبصارهم متواضعة **﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾** تغشاهم ذلة من عذاب الله **﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾** وقد كانوا في الدنيا يدعونهم إلى السجود لله ، وهم سالمون لا يمنعهم مانع ، ولا يحول بينهم حائل **﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ﴾** اترك يا محمد أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليَّ[٣] **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** سنكيدهم من حيث لا يعلمون[٤] **﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾** وأنسىء في آجالهم، وأمهلهم برهةً من الدهر ، لتتكامل حجج الله عليهم **﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾** إن كيدي بأهل الكفر قويٌّ شديد **﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾** أتسأل يا محمد هؤلاء على النصيحة ودعوتهم إلى الحق ثواباً وجزاء !! **﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾** فهم من غرم ذلك الأجر ، قد أثقلهم القيام بأدائه ، فلذلك تحاموا قبول النصيحة ، والدخول في الدين ؟! **﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾** أم عندهم اللوح المحفوظ فهم

---

(١) قال القرطبي : الأصل فيه أن من وقع في أمر يحتاج فيه إلى الجد شمَّر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة ، والمعنى : اذكر يا محمد ذلك اليوم العصيب ، الذي يُكشف فيه عن أمرٍ فظيع ، شديد الهول والشدة .

(٢) في الحديث (يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً) أخرجه مسلم .

(٣) هذا منتهى الوعيد للكفرة المجرمين على عادة العرب فيمن يتوعدونه يقولون : دعني وإياه، وخلني وإياه ، يريدون أنه سينزل به أشد أنواع العقاب .

(٤) قال الرازي : الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة ، حتى يورِّطه ، فكلما أذنبوا ذنباً جدَّد الله لهم نعمة ، فيحسبونه تفضلاً عليهم وهو سبب لهلاكهم . التفسير الكبير ٩٦/٣٠

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

* * *

يكتبون منه ما يجادلونك فيه ، ويزعمون أنهم أفضل عند الله من أهل الإيمان ؟! ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصبر يا محمد لقضاء ربك ، وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين ، وامض لما أمرك به ربك ، ولا يثنيك عن التبليغ تكذيبهم وأذاهم ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ولا تكن كنبي الله « يونس بن متى » عليه السلام الذي حبسه الحوت في بطنه[1]، فيعاقبك ربك على ترك التبليغ كما عاقبه ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ حين نادى وهو مغموم ، قد أثقله الغمُّ وكَظَمه ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لولا أن تدارك يونس ، نعمةٌ من ربه رحمه بها وتاب عليه ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لطرح بفضاءٍ من الأرض وهو مذنب ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فاصطفاه الله لنبوته ، فجعله من المرسلين ، العاملين بما أمرهم به ربهم ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ وإن يكاد الذين كفروا يا محمد ليرمونك ويصرعونك بأبصارهم ،من شدة عداوتهم لك غيظاً عليك ، لمَّا سمعوا كتاب الله يتلى ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ويقول المشركون : إن محمداً لمجنون ، وهذا الذي جاءنا به من الهذيان ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وما محمد[2] إلا ذكرٌ ، ذكَّر الله به الإنس والجن .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة نٓ »

* * *

---

(١) صاحب الحوت هو نبيُّ الله « يونس » عليه السلام ، الذي غضب على قومه لمَّا لم يؤمنوا ، فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوتُ ، فنُسب إلى الحوت لأنه صار بطنه كسكنٍ له ، وقد ذكر الله قصَّته في سورة الأنبياء في قوله تعالى ﴿وذا النُّونِ إذْ ذهب مغاضباً . .﴾ الآية وانظر قصته في صفوة التفاسير ٢ / ٢٧٣

(٢) هكذا فسَّره الإمام ابن جرير ، فأعاد الضمير ﴿وما هو﴾ على محمد ﷺ ، والأرجح أن الضمير يعود على القرآن ، أي وما هذا القرآن إلَّا موعظةٌ وتذكيرٌ للإنس والجنِّ ، ذكَّر تعالى به عباده ، فكيف يُنْسبُ من نزل عليه هذا القرآن للجنون ؟!


(٦٩) سورة الحاقة مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ

***

﴿ **الْحَاقَّةُ** ﴾ الساعة « الحاقة » التي تحقُّ فيها الأمور ، **قال ابن عباس** : الحاقة : من أسماء يوم القيامة ، عظَّمها الله وحذَّرها عباده ﴿ **مَا الْحَاقَّةُ** ﴾ أي شيءٍ هي ؟ تعجيبٌ منها ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** ﴾ وأيُّ شيءٍ عرَّفك ما هي القيامة ؟[1] ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ** ﴾ كذبت « ثمود » قوم صالح و« عاد » قوم هود بالقيامة ، التي تقرع قلوب العباد بهجومها عليهم ﴿ **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ** ﴾ فأما ثمود قوم صالح فأهلكهم الله بالصيحة الطاغية ، التي جاوزت حدَّ الصياح[2] ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ** ﴾ وأما عادٌ قوم هود ، فأهلكهم الله بريح شديدةٍ في الهبوب والبرد ﴿ **عَاتِيَةٍ** ﴾ قد عتت فجاوزت الحدَّ في الشدة والعصوف ﴿ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً** ﴾ سخر تلك الرياح على عاد سبع ليال ، وثمانية أيام متتابعة ﴿ **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى** ﴾ فترى يا محمد قوم عاد في تلك الليالي والأيام قد هلكوا ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ كأنهم أصول نخل ، متآكلة الجوف قد خوتْ ﴿ **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** ﴾ فهل ترى يا محمد لقوم هودٍ من بقاء ؟ ﴿ **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ** ﴾ وجاء فرعون مصر ، ومن سبقه من الأمم ، المكذبة بآيات الله ﴿ **وَالْمُؤْتَفِكَاتُ** ﴾ والقرى التي انقلبت بأهلها ، فصار عاليها سافلها ،

---

(١) هذا الأسلوب يستعمل للتعظيم والتهويل ، فتكرار لفظ « الحاقة » هو من باب الإطناب تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لأمرها .
(٢) قال قتادة : هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة ، ولهذا سُمِّيت بالطاغية .

بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

* * *

وهم قوم لوط ﴿ **بِالْخَاطِئَةِ** ﴾ بالخطيئة(١) ﴿ **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** ﴾ فعصى هؤلاء رسول ربهم الذي أرسله إليهم ، فأخذهم ربهم أخذةً شديدة زائدة في الشدة ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** ﴾ إنا لما كثر الماء ، فتجاوز حده المعروف زمن الطوفان ﴿ **حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ حملناكم في السفينة ، التي تجري في الماء ﴿ **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً** ﴾ لنجعل السفينة عبرةً وموعظة ، تتعظون بها ﴿ **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ وتعقلها أذنٌ حافظة ، عقلت عن الله ما سمعت ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ فإذا نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى ﴿ **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** ﴾ وحملت الأرض والجبال فزلزلتا زلزلة واحدة حتى صارت غباراً ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** ﴾ فيومئذٍ وقعت الصيحة ، وقامت القيامة ﴿ **وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ وانصدعت السماء فهي منشقة ضعيفة ﴿ **وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا** ﴾ والملائكة على أطراف السماء وحافاتها ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ ويحمل عرش الرحمن فوقهم يومئذ ثمانية من الملائكة(٢) ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ يومئذ تعرضون على ربكم أيها الناس ، لا يخفى على الله منكم أحدٌ ، لأنه عالمٌ بجميعكم ، محيطٌ بكلكم ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ** ﴾ فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه ، فيقول : تعالوا اقرءوا كتابي ﴿ **إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾ إني علمت أني سألقى حسابي ، إذا وردت يوم القيامة على ربي ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** ﴾ فهو في عيشة مرضية ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ في بستان عال رفيع ﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** ﴾ ما يقطف من ثمار الجنة دانٍ قريب من قاطفه ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً** ﴾ كلوا معشر أهل

---

(١) أي بالفعلة الخاطئة المنكرة وهي الكفر والعصيان .

(٢) قيل : إنهم ثمانية من الملائكة يحملون العرش ، وهو قول ابن زيد ، وقيل : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهن إلا الله ، وهو قول ابن عباس ، ولم يذكر الإمام الطبري ترجيحاً لأحد القولين ،والأظهر أنهم ثمانية أملاك لأنه لو كان المراد بها الكثرة لقال ثمانية صفوف .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

***

الجنة من ثمارها ، واشربوا من طيِّب أشربتها هنيئاً ، لا تتأذون بالطعام والشراب ﴿ **بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ ذلك جزاء وثواب ما قدمتم لآخرتكم ، من العمل بطاعة الله ، في أيام الدنيا التي خلت ومضت .

﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ** ﴾ وأما من أعطي يومئذ كتاب أعماله بشماله ، فيقول : يا ليتني لم أعطَ كتابي ﴿ **وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ** ﴾ ولم أعرف أي شيء حسابي ﴿ **يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ** ﴾ يا ليت الموتة التي متُّها في الدنيا، لم يكن بعدها بعثٌ ﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ** ﴾ لم يدفع عني مالي ، الذي كنت أملكه في الدنيا ، شيئاً من عذاب الله ﴿ **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ ذهبت عني حججي ، فلا حجة لي أحتج بها[1] ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ** ﴾ يقول تعالى لخزنة جهنم : خذوه أيها الملائكة فشدُّوه بالأغلال ﴿ **ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ** ﴾ ثم في نار جهنم أوردوه ليصلي فيها ﴿ **ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ** ﴾ ثم أدخلوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً بذراع المَلَك ﴿ **إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ** ﴾ جزاءً له على كفره بالله في الدنيا ، فإنه كان لا يصدق بوحدانية الله العظيم ﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ وكان لا يحضُّ على إطعام أهل المسكنة والحاجة ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ** ﴾ فليس له يوم القيامة قريبٌ يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء ﴿ **وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ** ﴾ ولا طعام له إلا الغسلين ، وهو ما يسيل من صديد أهل النار ﴿ **لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ** ﴾ لا يأكل هذا الطعام إلا المذنبون ، الذين كفروا بالله ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ فأقسم بالأشياء التي ترونها ، والتي لا ترونها ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾إن هذا القرآن يتلوه محمد[2] ﷺ عليهم ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ لأن محمداً لا يحسن قول الشعر ، حتى تقولوا هو شعر ﴿ **قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ** ﴾

(١) هكذا فسَّره الطبري وقال غيره المعنى : زال عني ملكي وسلطاني ، فلا معين لي ولا مجير ، ولا صديق ولا نصير ، وهذا القول هو الأظهر لأن معنى السلطان في اللغة المُلْكُ والاستعلاء .

(٢) قال القرطبي : والرسول ههنا هو محمد ﷺ ، ونُسب القولُ إليه ، لأنه تاليه ومبلِّغه عن الله تعالى . القرطبي ١٨/ ٢٧٤

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

***

تصدِّقون يا معشر المشركين قليلاً به ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ ولا هو بقول كاهن ، لأن محمداً ليس بكاهن حتى تقولوا هو من سجع الكُهَّان ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قليلاً ما تعتبرون وتتعظون به ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولكنه تنزيل من الله رب العالمين ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ ولو اختلق علينا محمد بعض الأقاويل الباطلة ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ لانتقمنا منه بالقوة منا والقدرة ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ثم لقطعنا منه نياط القلب[1] ﴿ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ فما أحد منكم يحجزنا عن محمد وعقوبته ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإن هذا القرآن لعظة للذين يتقون الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين بهذا القرآن ﴿ وَإِنَّه لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وإن التكذيب به لحسرةٌ وندامة على الكافرين يوم القيامة ﴿ وَإِنَّه لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ وإنه للحق اليقين الذي لا شك فيه أنه من عند الله ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فسبح بذكر ربك وباسمه العظيم ، الذي كل شيء في عظمته صغير .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة »

***

(١) الوتين : عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه ، والغرض من الآية أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ
قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾

***

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ سأل سائل[١] من الكفار عن عذاب الله بمن هو واقع؟ ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ ليس للعذاب الواقع على الكافرين ، من يدفعه عنهم ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ من الله ذي العلوِّ ،والدرجات، والنعم ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾تصعد الملائكة وجبريل عليه السلام إلى الله عزَّ وجل ﴿ فـي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾كان مقدار صعودهم في يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، صبراً لا جزع فيه ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ إن هؤلاء المشركين ، يرون العذاب الذي سألوا عنه بعيداً وقوعه[٢] ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ ونحن نراه قريباً لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ يوم تكون السماء كالنحاس المذاب ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ وتكون الجبال كالصوف المنفوش ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ

---

(١) السائل هو « النضر بن الحارث » من صناديد قريش وطواغيتها ، لما خوَّفهم رسول الله من عذاب الله سأل نزول العذاب استهزاءً فنزلت الآية ، وقد جعل الإمام الطبري الصيغة للإستفهام بمن هو واقع ؟ والراجح أنها صفة أي بنزول عذابٍ واقعٍ لا محالة .

(٢) إنما أخبر جلَّ ثناؤه أنهم يرون ذلك بعيداً ، لأنهم لا يصدّقون به وينكرون البعث بعد الموت ، فقال إنهم يرونه غير واقع ، ونحن نراه قريباً أي واقعاً لأنه آتٍ لا محالة .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾
وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾

***

حَمِيماً ﴾ ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يرونهم ويعرفونهم ، ثم يفرُّ بعضهم من بعض ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴾ يتمنى الكافر أنه يفتدي نفسه من عذاب الله ذلك اليوم ، ببنيه ، وزوجته ، وأخيه[١] ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ وعشيرته التي تضمُّه إلى رحله وتحميه ، لقرابة ما بينها وبينه ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ ويفتدي بمن في الأرض جميعاً من الخلق ، ثم ينجيه ذلك من عذاب الله ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ كلا ليس ينجيه من عذاب الله شيء ، إنها جهنم تلتهب ، وإنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن ، **قال الضحاك** : تبري اللحم والجلد عن العظم ، حتى لا تترك منه شيئاً ،**وقال ابن عباس** :تنزع جلدة الرأس ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ تدعو جهنم إلى نفسها[٢] ، من أعرض عن طاعة الله ، وتولى عن الإيمان بكتابه ورسله ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ وتدعو من جمع مالاً فجعله في وعاء ، فلم يزكِّ ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ إن الإنسان الكافر ، خُلق شديد الجزع والضجر ، شديد الحرص ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴾ إذا قلَّ ماله ، وناله الفقر ، فلا صبر له عليه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ وإن كثر ماله ، وناله الغنى ، فهو بخيلٌ لا ينفقه في طاعة الله ، ولا يؤدي حق الله منه ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ إلا الذين يطيعون الله ، بأداء ما افترض عليهم من الصلاة ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وهم على أداء ذلك مقيمون ، لا يضيعون منها شيئاً ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ والذين في أموالهم حق معيَّن ، وهو الزكاة المفروضة[٣] ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ للذي يسألهم من مالهم ، وللذي قد حُرم الغنى ، فهو فقيرٌ متعفِّف ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ والذين يقرون بالبعث يوم

(١) بيَّن تعالى أن الفاجر والكافر يوم القيامة ، يتمنى أن يفدي نفسه من عذاب الله بأحبِّ الناس عنده ، وأقربهم نسباً له ، من ابن ، وزوجة ، وأخ ، ولكنْ هيهات ، فلا مال هناك ولا فداء .

(٢) قال ابن عباس : تدعو المنافقين والكافرين بأسمائهم بلسانٍ فصيح تقول : إليَّ يا كافر ، إليَّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحبَّ .

(٣) هذا قول قتادة واختاره الطبري ، وقال ابن عباس : في المال حقٌّ سوى الصَّدقة ، يصل بها رحمه ، أو يقري بها ضيفاً ، أو يعين بها محروماً . اهـ الطبري ٢٩ / ٨٠ .

وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ

* * *

الحساب ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ ﴾ والذين هم من عذاب ربهم خائفون ، فهم لذلك لا يضيعون فرضاً ، ولا يتعدون حداً ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ لأن عذاب الله غير مأمونٍ أن ينال من عصاه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ والذين هم حافظون لفروجهم ، عن كل ما حرم الله عليهم من الزنى والفواحش ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ إلا أنهم غير ملومين ، في ترك حفظها على أزواجهم أو إمائهم .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فمن التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ما ملكت يمينه ، فهم الذين تعدَّوْا ما أحل الله لهم إلى ما حرَّم عليهم ، فهم الملومون ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ والذين هم لأمانات الله ـ التي ائتمنهم عليها من فرائضه ـ وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها ، وعهوده وعهود عباده ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ويؤدون الشهادة غير مغيَّرةٍ ولا مبدَّلة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ والذين هم على مواقيت صلاتهم وحدودها يحافظون ، فلا يضيِّعون لها ميقاتاً ولا حدّاً ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال ، في بساتين يكرمهم الله بكرامته ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ فما شأن الذين كفروا مسرعين نحوك ، مادين أعناقهم إليك ؟ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ عن يمينك يا محمد وعن شمالك ، متفرقين حلقاً حلقاً ، جماعة جماعة ، معرضين عنك وعن كتاب ربك ؟ ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أيطمع هؤلاء الكفار أن يدخلهم الله بساتين ينعمون فيها ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما يطمع فيه هؤلاء الكفار ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ إنا خلقناهم من منيٍّ قذرٍ ، وإنما يستوجب دخول الجنة مَن يستوجبه منهم بالطاعة ، لا بأنه مخلوق ، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم عصاة كفرة ؟! ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ

(١) أي كأنهم يسعون إلى أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها ويتسابقون نحوها في الدنيا ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم وتعريض بسخافة عقولهم ، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة ، وتركوا عبادة الواحد الأحد .

وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

* * *

الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ فأقسم برب مشارق الأرض ومغاربها ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ ﴾ إنا لقادرون على أن نهلكهم ، ونأتي بخير منهم من الخلق ، يطيعونني ولا يعصونني ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ وما يفوتنا منهم أحد فيعجزنا هرباً ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ فاترك المشركين يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في هذه الدنيا ﴿ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة ، الذي يوعدونه ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ يوم يخرجون من القبور مسرعين ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ كأنهم إلى عَلَمٍ قد نُصب لهم يستبقون[1] ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ خاضعة ذليلةً أبصارهم ، للذي هم فيه من الخزي والهوان ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهم ذلة ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ هذا اليوم هو يوم القيامة ، الذي كان المشركون في الدنيا يكذّبون به .

* * *



(٧١) سورة نوح مكية وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

* * *

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، بأن أنذر قومك ، من قبل أن يأتيهم الطوفان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قال

(١) أي كأنهم يسعون إلى أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها ويتسابقون نحوها في الدنيا ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم وتعريض بسخافة عقولهم ، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة ، وتركوا عبادة الواحد الأحد .

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

* * *

نوح لقومه : إني أنذركم عذاب الله ، فاحذروه أن ينزل بكم وقد أبنت لكم إنذاري **﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾** آمركم بعبادة الله ، وأن تتقوا عقابه ، بالإيمان به والعمل الصالح **﴿وَأَطِيعُونِ﴾** واقبلوا نصيحتي لكم **﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾** يصفح لكم ، ويعفو عن ذنوبكم **﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾** ويؤخر في آجالكم فلا يهلككم ، إلى حين كتب أنه يبقيكم إليه ، إن أنتم أطعتموه **﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾** إن أجل الله الذي كتبه على خلقه ، إذا جاء لا يؤخر عن ميقاته **﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** لو علمتم ذلك لأنبتم إلى طاعة ربكم **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾** قال نوح لما بلَّغ قومه فعصوه : رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، إلى توحيدك وعبادتك ، وحذَّرتهم بأسك وسطوتك **﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾** فلم يزدهم دعائي إلى ما دعوتهم إليه من الحق ، إلا إدباراً عنه ، وهرباً منه **﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك ، والبراءة من عبادة كل ما سواك ، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي **﴿واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾** وتغطوا بثيابهم **﴿وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾** وثبتوا على ما هم عليه من الكفر ، وتكبروا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة **﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾** دعوتهم ظاهراً في غير خفاء **﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾** ثم إني صِحْتُ بالذي أمرتني به ، وأسررت لهم ذلك فيما بيني وبينهم(١) **﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾** فقلت لهم : سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، وتوبوا إليه من كفركم ، يغفر لكم **﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾** لذنوب من أناب وتاب إليه من ذنوبه **﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾** يسقيكم ربكم الغيث ، فيرسل به السماء عليكم متتابعاً **﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾** ويعطكم مع ذلك أموالاً وبنين ، فيكثّرها ويزيد فيما عندكم منها **﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ**

---

(١) تفنَّن نوح عليه السلام مع قومه بالدعوة لهم إلى الله ، فدعاهم سراً وجهاراً ، ليلاً ونهاراً ، مع الترغيب أحياناً، والترهيب أحياناً أخرى ، فلم ينفع كل ذلك مع أولئك الضالين ، ولذلك دعا عليهم بالهلاك في آخر الأمر لمَّا يئس من إيمانهم .

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ
عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾

* * *

لَكُمْ أنْهَاراً﴾ ويرزقكم بساتين ، ويجعل لكم أنهاراً تسقون منها جناتكم ومزارعكم **﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً﴾** ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وقد خلقكم حالاً بعد حال ، طوراً نطفة ، وطوراً علقة ، وطوراً مضغة ؟ **﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾** ألم تروا أيها القوم فتعتبروا كيف خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض **﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾** وجعل القمر[1] في السموات السبع ، منيراً لـلأرض في الظلام **﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾** وجعل الشمس فيهن مصباحاً مضيئاً **﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾** والله أنشأكم من تراب الأرض ، فخلقكم منه إنشاء **﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾** ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم تراباً ، فيصيِّركم كما كنتم قبل أن يخلقكم ، ويخرجكم إذا شاء منها أحياء ، كما كنتم من قبل **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾** تستقرون عليها **﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾** لتسلكوا منها طرقاً صعاباً متفرقة **﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾** قال نوح رب إن قومي عصوني فخالفوا أمري ، وردوا عليَّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد **﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاَّ خَسَاراً﴾** واتبعوا في معصيتهم ربهم مَنْ دعاهم إلى ذلك ، ممن كثر ماله وولده ، فلم تزده كثرة ماله وولده ، إلا بعداً من الله ، وذهاباً عن محجة الطريق **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾** ومكروا مكراً عظيماً **﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾** وقال قوم نوح : لا تتركن آلهتكم ، ولا تتركن أصنامكم التي تعبدونها « وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا »[2] **﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾** وقد ضلَّ بعبادة هذه الاصنام كثيرٌ من الناس **﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ**

---

(١) القمر ليس داخل السماء ، وإنما هو زينةٌ للسماء ، كما قال تعالى ﴿ولَقَد زَيَّنا السَّماءَ الدُّنيا بمصَابيحَ﴾ فهو أكبر المصابيح المضيئة للأرض لقربه منَّا ، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض ، فلا يُستبعد أن يصل الناس إليه ، لأنه دون السماء الأولى ، ولو كان داخل السماء ، لاستحال وصولُ البشر إليه ، وقد روى الإمام الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : إن الشمس والقمر وجوهُهُما قِبَل السماوات ، وأقفيتهما قِبَل الأرض ، وإن ضواهما ونورهما في السماء . اهـ الطبري ٢٩ /٩٧ .

(٢) هذه أسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح « ودّ ، سُواع ، يغوث . . » الخ وهي أسماءُ لأناسٍ صالحين لمَّا ماتوا نحتوا لهم =

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى
ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي
وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾

* * *

إِلَّا ضَلاَلاً﴾ ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا ، إلا طبعاً على قلبه ، حتى لا يهتدي إلى الحق **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾** من خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نار جهنم **﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾** فلم يجدوا أنصاراً تحول بينهم وبين الغرق بالطوفان **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾** وقال نوح رب لا تدع من الكافرين أحداً يدور في الأرض ، جيئةً وذهاباً **﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾** يا رب إنك إن تترك الكافرين أحياء ولم تهلكهم ، يصدُّوا عبادك عن سبيلك **﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾** ولا يلدوا إلا فاجراً في دينك ، كفاراً لنعمتك[1] **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾** ربِّ استر عليَّ ذنوبي ، وعلى والديَّ **﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾** ولمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصدقاً بواجب فرضك عليه ، وللمصدقين بتوحيدك والمصدقات **﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾** ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم ، إلا خساراً وهلاكا

« تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح »

* * *

=تماثيل ليتذكروا أعمالهم الصالحة ، ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوها من دون الله ، فلذلك كانت التماثيل في الإسلام محرمة .

(١) لبث نوح في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فلم يجد منهم إلاَّ إنكاراً وجحوداً وإعراضاً ، وكان الواحد منهم إذا رأى نوحاً يوصي ابنه فيقول له : يا بنيَّ احذر هذا الكذّاب لا يفتنك عن دينك ، ويأمره بإيذائه،ولهذا قال نوح ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

* * *

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قل يا محمد أوحى الله إليَّ ، أن جماعةً من الجن ،استمعوالهذا القرآن [1] **﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾** فقالوا لقومهم لما سمعوه : إن سمعنا قرآناً عجيباً **﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾** يدل على الحق وسبيل الصواب ، فصدَّقنا به **﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾** ولن نجعل لربنا شريكاً من خلقه **﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾** وأنه تعالت عظمة ربنا ، وقدرتُه وسلطانه، أن يكون له صاحبة ـ زوجة ـ أو يتخذ ولداً ، لأن الصاحبة والولد إنما تكون من الضعيف العاجز ، الذي يحتاج لقضاء الشهوة إلى الوقاع ، وربنا منزَّه عن ذلك **﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾** وأنه كان سفيهنا « إبليس » يقول على الله قولاً ظلماً متعدياً فيه **﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** وأنا حسبنا أن لن يجترىء أحد من بني آدم ، أو من الجن على الكذب على الله ، في نسبة الصاحبة والولد ، فلما سمعنا هذا القرآن علمنا أنهم كانوا كاذبين في ذلك **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾** وأنه كان رجال من الإنس ، يستجيرون برجال من

(١) في الآية توبيخ وتقريعٌ لقريش وللعرب ، في تباطئهم عن الإيمان ، إذ كانت الجنُّ خيراً منهم وأسرع إلى التأثر بالقرآن ، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه ، وتعجبُّوا من جماله وسحر بيانه ، فلذلك آمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين ، بخلاف العرب ـ كفار مكة ـ الذين نزل بلسانهم ، فإنهم كذبوا به واستهزءوا ، وشتَّان بين موقف الإنس والجن !!

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا
كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن
نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا
وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾

* * *

الجن في أسفارهم ، فيقولون « نعوذ بعزيز هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه » ، فزاد الإنسُ الجنَّ بفعلهم ذلك إثماً، واستحلالاً لمحارم الله[١] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ وأن الرجال من الجن ، ظنوا كما ظنَّ الرجال من الإنس ، أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه ، يدعوهم إلى توحيده[٢] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ وأنا طلبنا السماء وأردناها ، فوجدناها ملئت حفظة ونجوماً، تُرجم بها الشياطين ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ وأنا كنا معشر الجن نقعد من السماء مقاعد لنسمع ما يحدث فيها ، فمن يستمع الآن منا يجد شهاب نارٍ قد رُصد له ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ وأنَّا لا ندري أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض ، بمنعه إيانا السمع من السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ أم أراد بهم ربهم الهدى ، بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً، يرشدهم إلى الحق ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ وأنا منا المسلمون العاملون بطاعة الله ، ومنا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ كنا فِرَقاً ومذاهب شتَّى ، منا المؤمن ، ومنا الكافر ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ وأنا علمنا أن لن نعجز الله في الأرض إن أراد بنا سوءاً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا فنفوته ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ وأنا لما سمعنا القرآن، الذي يهدي إلى الطريق المستقيم ، صدَّقنا به وأقررنا أنه حقٌّ من عند الله ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً﴾ فمن يصدق بربه فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا زيادةً في سيئاته ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وأنا منا الذين خضعوا لله بالطاعة ، ومنا الجائرون عن الإسلام ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحرَّوْا رَشَداً﴾ فمن خضع لله بالطاعة ، فأولئك يرجون رشداً

(١) الرَّهق في كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم

(٢) هكذا فسّره الطبري ، وقال غيره المعنى: ظنوا أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت ، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ
عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾

* * *

في دينهم ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّم حَطَباً﴾ وأما الجائرون عن الإسلام الظالمون، فكانوا حطباً تُوقد بهم جهنم(١) ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ وأن لو استقام هؤلاء الظالمون على طريقة الحق، لوسَّعنا عليهم في الرزق، وبسطنا لهم في الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنختبرهم فيه ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ ومن يعرض عن استماع القرآن والعمل به، يدخله الله عذاباً شديداً شاقاً ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ وأُوحي إليَّ أن المساجد لله، فلا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا للَّهِ التوحيد، وأخلصوا له العبادة ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ وأنه لما قام محمد رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله» كادت العرب تكون على محمد جميعاً، في إطفاء نور الله(٢) ﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ قل للناس: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك به أحداً ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشداً﴾ قل للمشركين: إني لا أملك لكم ضراً في دينكم ولا دنياكم، ولا رشداً أرشدكم به، لأن الذي يملك ذلك هو الله، الذي له ملك كل شيء ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ قل: إني لن ينصرني من الله أحد من خلقه، إن أراد بي أمراً ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ ولن أجد غير الله ملجأً ألجأ إليه ﴿إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ إلا أن أبلغكم ما أمرني الله بتبليغه، وإلَّا رسالاته التي أرسلني بها إليكم ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ومن يعص الله ويكذِّب به وبرسوله، فيجحد رسالاته، فإن له نار جهنم يصلاها ﴿خالِدِينَ

---

(١) قال في صفوة التفاسير «وإلى هنا انتهى كلام الجن على قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن، وبعضُ المفسرين يجعل قوله تعالى ﴿ وألَّوِ استقاموا ..﴾ من تتمة كلام الجنّ، والأول أظهر لأن الله تعالى قال في الآية﴿ لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾ولو كان من كلام الجن لقالوا: لأسقاهم الله

(٢) وقال غيره: أي كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام. وقد حكى الطبري أقوالاً ثلاثة، ورجح ما ذكرت، والأظهر ما قاله المفسرون لما روي عن الضحاك أن الجن لما رأوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن كاد بعضهم يركب بعضاً حرصاً على ما سمعوا من القرآن.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ
لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

* * *

فِيها أبداً﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿حَتَّى إذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ حتى إذا عاينوا ما يعدهم ربهم من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وأَقَلُّ عَدَداً﴾ أجند الله أم هؤلاء المشركون ؟ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ قل للمشركين : ما أدري أقريب ما يعدكم ربكم من العذاب ، أم يجعل له ربي غاية معلومة ، تطول مدتها ؟ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ هو عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلا يُطلِعُ الغيبَ أحداً من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ إلا من ارتضى من رسول، فإنه يطلعه على ما شاء من الغيب[1] ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ فإنه يرسل من أمام الرسول ومن خلفه ، حرساً وحفظةً من الملائكة يحفظونه ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ ليعلم الرسول[2] أن الرسل قبله ، قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ وعلم الله بكل ما عندهم ، وعلم عدد الأشياء كلها ، فلم يخف عليه منها شيء .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن »

* * *

---

(١) هذه الآيةُ الكريمةُ أصلٌ في اختصاص الله تعالى بعلم الغيب ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله ، لا مَلَكٌ ، ولا نبيٌّ ، ولا رسولٌ يعلم الغيب ، إلا إذا أطلعه الله على ذلك ، كما قال تعالى هنا ﴿عالمُ الغيبِ فلا يُظهر على غيبهِ أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾ وقال في الأنعام ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو﴾ وإنما يطلع الله تعالى على الغيب بعض الرسل ليكون معجزة لهم ، كما أطلع المسيح ابن مريم على بعض المغيبات ، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات .

(٢) هكذا أعاد الإمام الطبري الضمير على الرسول فقال : ليعلم الرسول ، وقال غيره من المفسرين : الضمير يعود على الله ، أي ليعلم الله أن رسله قد بلّغوا وحيه ، وهذا المعنى أظهر ، والله أعلم .



(٧٣) سورة المزمل مكية
وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

* * *

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ** ﴾ يا أيها النبي الملتفُّ بثيابه ، متأهباً للصلاة[١] ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ قم الليل يا محمد كلَّه ، إلا قليلاً منه ﴿ **نِصْفَهُ أَوِ انقصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْزِدْ عَلَيْهِ** ﴾ قم نصف الليل ، أو انقص من النصف قليلاً ، أو زد عليه ، فقم أي ذلك شئت ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ وبَيِّنْ القرآن إذا قرأته تبييناً ، وترسَّلْ فيه ترسُّلاً[٢] ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ إنا يا محمد سنلقي عليك قولاً ثقيل الحمل ، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً** ﴾ إن ساعات الليل والعبادة فيها ، أشدُّ ثباتاً من النهار ،وأثبت حفظاً، **قال قتادة** : القيام بالليل أثبت في الخير ﴿ **وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴾ وأصوب قراءةً لفراغ القلب من الدنيا ﴿ **إِن لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً** ﴾ إن لك يا محمد في النهار فراغاً طويلاً ، تتقلب فيه **لأعمالك وشئونك** ﴿ **واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴾ واذكر اسم ربك فادعه به ، **وانقطع إليه انقطاعاً تاماً** ، لحوائجك وعبادتك ،**قال الحسن** : أخلص له المسألة والدعاء ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ رب المشرق والمغرب وما بينهما ، من العالم ، لا ينبغي أن يعبد إلَهٌ سواه ﴿ **فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾ فوِّضْ إليه

---

(١) هذا ما رجحه الإمام أبو جعفر وذلك لدلالة الأمر بقيام الليل، وقال غيره من المفسرين: أنه طلب تزميله بالثياب عندما جاءه الملك بالوحي في غار حراء أول ما جاءه ، كما هي رواية البخاري فرجع إلى خديجة فقال لها : « زمّلوني زمّلوني » فنزلت﴿ يا أيها المزّمل﴾

(٢) قال الحسن : اقرأه قراءة بيِّنة ، وقال مجاهد : اقرأه على تُؤدة ، وترسَّلْ فيه ترسلاً .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ
أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ
مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ

* * *

أمورك ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ واصبر يا محمد على ما يقول لك المشركون ، واصبر على أذاهم . ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ واهجرهم في ذات الله هجراً جميلاً[1] ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ ودعْني[2] يا محمد والمكذبين بآياتي ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أهل التنعم في الدنيا ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ وأخرهم ليتنعموا بما بسطته لهم ، حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ﴾ إن عندنا لهؤلاء المكذبين ، قيوداً وناراً تُسعَّر ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ وطعاماً يغصُّ به آكله[3] ، وعذاباً مؤلماً موجعاً ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ يوم تضطرب الأرض والجبال بمن عليها عند القيامة ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾ وكانت الجبال رملاً سائلاً متناثراً ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ إنا أرسلنا إليكم ـ أيها الناس ـ رسولاً شاهداً عليكم يوم القيامة ، بإجابة من أجاب الدعوة ، وامتناع من امتنع ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ مثل ما أرسلنا قبلكم إلى فرعون مصر ، رسولاً يدعوه إلى الحق ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ فلم يطع فرعون الرسول المرسل إليه ، فأخذناه أخذاً شديداً ، فأهلكناه ومن معه جميعاً ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ فكيف تخافون[4] ـ إن كفرتم بالله ولم تصدِّقوا به ـ يوم القيامة ، الذي تشيب فيه الصغار لشدته وهوله ؟ ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ السماء متصدِّعةٌ متشققة في ذلك اليوم ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ كان ما وعد الله به من أمرٍ واقعاً ، فاحذروا ذلك اليوم أيها الناس ، فإنه كائن لا محالة ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ إن هذه الآيات ، التي ذكر فيها أمر القيامة وأهوالها ، عبرة وعظة لمن اعتبر بها واتَّعظ ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ فمن شاء من الخلق ، اتخذ

---

(١) كان هذا قبل الأمر بالقتال ، لأن المسلمين كانوا في مكة المكرمة قلة مستضعفين ، فلما عزَّ الاسلام وكثر أتباعه أُمر المسلمون بقتالهم .

(٢) هذا أسلوب التهديد والوعيد يقول العرب : دعني وفلان أي اتركني لأنتقم منه ، يريدون بذلك التهديد والوعيد .

(٣) قال ابن عباس : هو شوك يأخذ بالحلق يغصُّ به آكله ، فلا يدخل ولا يخرج .

(٤) المراد كيف تأمنون ذلك اليوم العصيب الرهيب ، الذي يشيب فيه الوليد ، من شدةِ هوله ، وفظاعة أمره ، وأنتم قد كفرتم بالله !! قال قتادة : واللهِ لا يتقي من كفر بالله ذلك اليوم .

وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

* * *

طريقاً إلى ربه، بالإيمان به والعمل بطاعته ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ** ﴾ إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقرب من ثلثي الليل مصلياً، وتقوم نصفَه وثُلثَه ﴿ **وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ** ﴾ وطائفة من أصحابك المؤمنين، يقومون معك، حين فُرض عليهم قيام الليل ﴿ **وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ والله يُقدِّر الليل والنهار، بالساعات والأوقات ﴿ **عَلِمَ أَن لَن تُحْصُوهُ** ﴾ علم ربكم أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ﴿ **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** ﴾ فتاب عليكم إذ عجزتم وضعفتم عنه، ورجع بكم إلى التخفيف عنكم ﴿ **فَاقرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾ فاقرأوا من الليل ما تيسر من القرآن في صلاتكم[1] ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى** ﴾ علم ربكم - أيها المؤمنون - أن سيكون منكم من قد أضعفه المرض عن قيام الليل ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ وآخرون قد سافروا في تجارةٍ لطلب المعاش، فأضعفهم أيضاً عن قيام الليل ﴿ **وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ وآخرون يجاهدون العدو في نصرة دين الله، فرحمكم فخفَّف عنكم، ووضع عنكم فرض قيام الليل ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** ﴾ فاقرأوا الآن في صلاتكم من الليل، ما تيسَّر من القرآن ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ وأقيموا الصلوات الخمس المفروضة، في اليوم والليلة ﴿ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ وأعطوا الزكاة المفروضة في أموالكم ﴿ **وَأَقْرِضُوا اللَّهِ قَرْضاً حَسَناً** ﴾ وأنفقوا من أموالكم في سبيل الله ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ** ﴾ وما تقدموا - أيها المؤمنون - لأنفسكم في دار الدنيا، من صدقةٍ، أو نفقة، أو غير ذلك من وجوه الخير، طلباً لما عند الله ﴿ **تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً** ﴾ تجدوه يوم القيامة في معادكم، هو خيراً لكم مما قدمتم في الدنيا، وأعظم منه ثواباً ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ** ﴾ وسلوا الله غفران ذنوبكم، يصفحْ لكم عنها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ غفورٌ لذنوب من تاب من عباده، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمل »

* * *

(١) هذا تخفيفٌ من الله تعالى عن عباده، ما كان قد فرض عليهم من قيام الليل، فرخص لهم أن يصلُّوا ما تيسَّر لهم من الصلاة مع قراءة القرآن فيها فذلك قوله ﴿ فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن ﴾.



(٧٤) سورة المدثر مكية وآياتها ست وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦﴾

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يا أيها المتدثر بثيابه عند نومه ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ قم من نومك ، فأنذر قومك عذاب الله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وربك يا محمد فعظِّمْ ، بعبادته والرغبة إليه في حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وثيابك فطهرها من النجاسة[1] ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وما أوجب لك العذاب وسخط الله فاهجرْهُ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ ولاتمنن على ربك فتستكثر عملك الصالح ، فإنه بجانب ما أنعم عليك قليل[2] ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ واصبر على ما لقيت في ذات الله من المكروه ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فإذا نفخ في الصور ، نفخة البعث والنشور ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فذلك يومئذ يومٌ شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ هو يومٌ عسيرٌ على الكافرين ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ اتركني يا محمد ، ودع لي أمر الذي خلقته في بطن أمه وحيداً ، لا شيءَ له من مالٍ ولا ولد[3] ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ وجعلت له المال الكثير الوافر ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ وجعلت له بنين يشهدون معه المشاهد ، وبسطتُ له في العيش بسطاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ثم يأمل أن أزيده مالاً وولداً على ما أعطيته ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا

(١) هذا ما اختاره الطبري وهو الراجح من الأقوال ، وقيل : المراد بالآية طهِّرْ نفسك من الذنوب، فالثياب كناية عن النفس يقال : فلان نقيُّ الثياب أي نفسه زكية طاهرة ، وهذا القول مروي عن ابن عباس وعطاء وقتادة .

(٢) وقال غيره من المفسرين : « لا تعط الناس عطاءً وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً » وهذا أظهر وأرجح والله أعلم .

(٣) نزلت في « الوليد بن المغيرة » الذي كان من صناديد قريش وأغنيائها ، وكان لقَّب رسول الله ﷺ بالساحر ، وأشاع ذلك بمكة =

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ
سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ

* * *

عَنِيداً﴾ ليس الأمر كما يرجو ، إنه كان لحججنا معانداً للحق ، مجانباً له ، كالبعير العنود ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ سأكلفه مشقةً من العذاب ، لا راحةَ له منها ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إنه فكَّر فيما أنزل الله على محمد ﷺ من القرآن ، وقدَّر ما يقول فيه ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ فلُعن كيف قدَّر ؟ ثُمَّ لعن كيف قدَّر ؟ ﴿ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثم روَّى في ذلك ، ثم قبض ما بين عينيه وكلح وجهه ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ثم ولَّى عن الإيمان ، واستكبر عن الإقرار بالحق ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ فقال : ما هذا القرآن إلَّا سحرٌ، يأثره أي يرويه عن غيره ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ما هذا الذي يتلوه محمد ، إلَّا كلام الخلق ، وما هو بكلام الله(١) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ما هي سقر ؟ ﴿لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ هي نارٌ لا تُبقي من فيها حياً ، ولا تذر من فيها ميتاً ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ ولكنها تحرقهم كلما جُدِّد خلقُهم ، مغيرةٌ لبَشَرِ أهلها(٢) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ على جهنم تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وما جعلنا خزنة النار إلَّا ملائكة لا رجالاً من البشر ، فمن يغلب خزنة النار وهم الملائكة ؟! ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما جعلنا عدة هؤلاء الخزنة ، إلا فتنةً للذين كفروا من مشركي قريش ، لتكذيبهم بذلك(٣) ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ليستيقن أهل التوراة والإنجيل ، حقيقة ما في كتبهم من الخبر عن عدة

= المكرمة بعد أن سمع القرآن ، وعرف أنه كلام الرحمن .

(١) روي أن « الوليد بن المغيرة » أرسلته قريش إلى النبي ﷺ ليستمع للقرآن ويُبدي لهم رأيه فيه ، فلما جاء إلى رسول الله وقرأ عليه القرآن ، رقّ له قلبه وكاد أن يُسلم ، فلما رجع إليهم قالوا : ماذا وراءك ؟ قال لهم : والله لقد سمعت قولاً حلواً أخضر ، يأخذ بالقلوب ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول بشر ، فقالت قريش : صبأ الوليد ـ أي ترك دينه ودخل في الإسلام ـ والله لتصبأن قريش كلُّها ، فلما سمع أبو جهل بذلك قال : دعوني أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال: يعطونك إياه ، فإنك أتيتَ محمداً لتتعرض لما عنده ، فقال : لقد علمت قريش إني أكثرها مالاً !! فقال له أبو جهل : إنهم لا يرضون عنك حتى تقول في القرآن قولاً يعلمون أنك منكرٌ وكاره له ؟ قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يرويه محمد وينقله عن غيره فنزلت ﴿إنه فكر وقدَّر . . .﴾ الآيات .

(٢) نقل ابن جرير هذا عن مجاهد وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ،وفي صفوة التفاسير ﴿لواحة للبشر﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس، من مسافاتٍ بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ قال : والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ فأي فائدة من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك ؟

(٣) قال أبو جهل لما نزلت هذه الآية : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة ـ يعني محمداً ـ يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، =

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ
أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ
لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن
شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾
عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ

* * *

« خزنة جهنم » إذ وافق ذلك ما في القرآن ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ وليزداد الذين آمنوا ، تصديقاً إلى تصديقهم بما أنزل الله ﴿وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنونَ﴾ ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون من أمة محمد ﷺ في حقيقة ذلك ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ وليقول الذين في قلوبهم مرض النفاق ، والكافرون بالله من مشركي قريش : ماذا أراد الله بذكر عدد خزنة جهنم ؟! ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ كما أضلَّ الله هؤلاء المنافقين والمشركين ، كذلك يُضلُّ من يشاء من خلقه ، فيخذله عن إصابة الحق ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيوفقه لإصابة الصواب ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وما يعلم جنود ربك من كثرتهم ، إلا الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ وما النار ـ التي وصفتُها ـ إلا تذكرة ، ذكَّر اللَّهُ بها بني آدم ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرْ﴾ كلاَّ ليس القول كما زعم هؤلاء المشركون ، أقسمُ بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ والليل إذا ولَّى ذاهباً ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ والصباح إذا أضاء ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ﴾ إن جهنم من الأمور العظام ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ إنذاراً لبني آدم ،قال الحسن : واللَّهِ ما أُنذر الناس ـ أي خوّفوا ـ بداهية هي أدهى من النار ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله ، أو يتأخر في معصيةِ اللَّهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ كل نفسٍ بما عملت في الدنيا ، رهينةٌ(1) في جهنم ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ إلا أهل اليمين ـ أهل الجنة ـ فإنهم غير مرتهنين ، فكّوا أنفسهم من العذاب بِطاعتهم لله ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ إنهم في بساتين ، يتساءلون عن المجرمين ، الذين أُدخلوا جهنم : أيُّ شي سلككم في جهنم؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ قال المجرمون لهم : لم نك في الدنيا من المصلّين لله ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسكِينَ﴾ بخلنا بما أعطانا الله ، ومنعنا المسكين حقه ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وكنا نخوض في

=وأنتم الدُّهم ـ أي العدد الكثير الشجعان ـ أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال : أبو الأشد الجمحي ـ وكان شديد البطش ـ وأنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين فنزلت الآية ردّاً عليهم . ا هـ صفوة التفاسير .

(1) رهينة : أي محبوسة قد رُهنت بما عملت في الدنيا من الذنوب والآثام .

مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

* * *

الباطل مع من يخوض فيه ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وكنا نكذب بيوم الجزاء والعذاب ، ولا نصدِّق بعقابٍ ولا حساب ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ حتى جاءنا الموت الموقن به ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ فما يشفع لهم أحدٌ من أهل التوحيد ، فتنفعهم شفاعتهم[1] ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله لهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها فيتعظوا ويعتبروا ؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ معرضين عن التذكرة ، تولية الحمر المستنفرة ، فرَّت من الأسد ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ ما بهؤلاء المشركين جهلٌ بل يريد كل رجل منهم ، أن يؤتى كتاباً من السماء ينزل عليه[2] ﴿كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ كلَّا بل لا يُصدِّقون بالبعث، والثواب ، والعقاب ، فلذلك يعرضون عن تذكرة الله ، والاستماع لوحيه وتنزيله ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ كلا إن هذا القرآن ، تذكرة من الله لخلقه ذكَّرهم به، لا كما يقول المشركون من أنه سحرٌ يؤثر ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء من عباد الله ذكره ، فاتَّعظ بما فيه من أمر الله ونهيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما يتعظون بهذا القرآن ، إلا أن يشاء الله ذلك ، لأنه لا أحد يقدر على شيء إلَّا بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ الله أهلٌ أن يتقي عبادُه عقابه ، فيجتنبوا معاصيه ، وهو أهلٌ أن يغفر لهم ذنوبهم ، إذا هم تابوا وأنابوا ، **قال قتادة** : الله أهلٌ أن تُتَّقى محارمه ، وهو أهلٌ أن يغفر الذنوب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المدَّثر »

* * *

---

(١) قال الطبري : وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى مشفِّعٌ بعض خلقه في بعض . أ هـ الطبري ٢٩/١٦٦

(٢) قال مجاهد : يريدون أن يُعطى كل واحدٍ كتاباً خاصاً من ربِّ العالمين ، حتى يؤمنوا به ، مكتوبٌ فيه من ربِّ العالمين إلى فلان ابن فلان أقول : الغرضُ من الآية بيانُ إمعانهم في الضلالة ، وكأن الله يقول لنبيه ﷺ : دعْ يا محمد عنك ذكر إعراضهم ، ونفورهم من القرآن ومواعظه ، نفور الحمر الوحشية من الأسد المفترس ، واستمع لما هو أعجبُ وأغرب ، وذلك طمعُ كل واحدٍ منهم أن يوحى إليه وأن يكون رسولاً !!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾

* * *

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث، أقسمُ بيوم القيامة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أيظن ابن آدم أننا لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها؟ ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ بلى قادرين على أعظم من ذلك، أن نسوِّي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها كخف البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأكل إلَّا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرَّق أصابع يديه، ليأخذ بها ويتناول، ويبسط ويقبض، فحسَّن خلقه[1] ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ بل يريد الإنسان أن يمضي أمامه قُدُماً في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيء، ولا يتوب منها أبداً ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يسأل متى يوم القيامة؟ تسويفـاً منه للتوبة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ فإذا فزع البصر، وحار من شدة هول القيامة، وفزَع الموت ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ وذهب ضوء القمر ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ﴾ وجمع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أين الْمَفَرُّ﴾ يقول الإنسان يوم يعاين أهوال يوم القيامة: أين المفر من الهول النازل؟!

---

(١) قال في «صفوة التفاسير»: أي بلى نجمعها، ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاء، وألطفها التئاماً، فكيف بكبار العظام؟! وإنما ذكر تعالى «البنان» لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع، ولذا يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر. اهـ.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾

* * *

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ليس هناك فرار ولا شيء يلجأ اليه من حصن ، ولا ملجأ من أمر الله ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ إلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار ، وعنده مقرُّ جميع خلقه ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ يُخبَّر الإنسان يومئذ بكل ما عمل من خيرأو شر في حياته، وما أخر بعده من سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيئة ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ بل للإنسان على نفسه رقباء ، يشهدون عليه من جوارحه[1] ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو اعتذر بغير الحق ، وجادل عن نفسه بالباطل ، فشهادة نفسه عليه أحق وأولى من اعتذاره ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ لا تحرك يا محمد لسانك بالقرآن ، لتعجل به قبل جمعه[2] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ إن علينا جمع هذا القرآن في صدرك ، حتى نثبِّته فيه وحتى تقرأه بعد جمعه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فإذا تُلي عليك فاتبع ما أُمرت به ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم إن علينا بيان ما فيه من الحلال ، والحرام ، والأحكام ، مفصلة ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ليس الأمر كما تقولون أنكم لا تبعثون ، ولكن الذي دعاكم إلى ذلك محبتكم الدنيا العاجلة ، وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وجوهٌ يوم القيامة من النعيم والسرور والغبطة ، حسنةٌ جميلة ، تنظر إلى خالقها ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ووجوهٌ يومئذٍ متغيرة الألوان ، مسودَّةٌ عابسةٌ كالحة ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾تعلم أنه سينزل بها داهية وشرٌّ ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ كلا إذا بلغت نفس أحدهم عند مماته أعالي الصدر ، وحشرج بها ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال أهله : من يرقيه ويشفيه مما قد نزل فيه ؟ وطلبوا له الأطباء ، فلم يغنوا عنه شيئاً ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ وأيقن أنه فراق الدنيا ،

---

(١) هكذا فسَّره الإمام الطبري وهو مرويٌّ عن ابن عباس حيث قال : يشهد عليه سمعُه ، وبصرُه ، وجوارحه ، وقال بعض المفسرين المعنى : بل الإنسان شاهدٌ على نفسه وحده ، لا يحتاج إلى شاهد آخر ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿كفى بنفسك اليومَ عليكَ حَسِيباً﴾ وهذا أظهر ، وهو مرويٌّ عن قتادة وابن زيد ، والتاء في « بصيرة » للمبالغة كعلَّامة وبحاثة أي بصير .

(٢) قال ابن عباس : كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله ﴿لا تحرِّكْ به لسانك . .﴾ الآيات ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله به عز وجل . ا هـ الصفوة ٤٨٦/٣

وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ
ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾

* * *

والأهل ، والمال ، والولد ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ والتصقت شدة كرب الموت ، بشدة هول المطلع[١] ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ إلى ربك يوم القيامة مساقُ الإنسان ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ فلم يصدِّق بكتاب الله ، ولم يصلِّ له صلاة ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ولكنه كذب بكتاب الله ، وأدبر عن طاعته ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ ثم مضى إلى أهله منصرفاً إليهم ، يتبختر في مشيته ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ هذا وعيدٌ من الله على وعيد لعدوِّ الله أبي جهل[٢] ﴿أَيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً﴾ أيظن هذا الكافر أن يترك هملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُكلف بعبادة ؟ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ ألم يكن هذا المنكر لقدرة الله ، ماء قليلاً في صلب الرجل من مني ؟ ﴿ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخلَقَ فَسَوَّى﴾ ثم كان من بعد ذلك دماً ثم علقة ، ثم سوَّاه الله بشراً سوياً ، ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ؟ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فجعل من هذا الإنسان أولاداً ذكوراً وإناثاً ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أليس الذي فعل ذلك ، بقادرٍ على أن يحيي الموتى من بعد مماتهم ؟ بلى إنه على كل شيءٍ قديرٌ ، رُوي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : « سبحانك اللهم بَلَى » .

* * *

(١) قال ابن جرير : والعرب تقول لكل أمر اشتد : « قد شمَّر عن ساقه » و « كشف عن ساقه »، وهكذا اختار الطبري أنه من باب الكناية ، وأن المراد به التفُّ ساق الدنيا بساق الآخرة من شدة كرب الموت ، وقال غيره من المفسرين : التفَّت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى من شدة الهول ، وهو قول الحسن البصري ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) لم يذكر الإمام الطبري تفسير الآية وإنما اقتصر على أنها وعيدٌ لأبي جهل ، وقال غيره المعنى ويلٌ لك أيها الشقيُّ ثم ويلٌ لك .. فقد روي أن النبي ﷺ أخذ بمجامع ثياب أبي جهل فقال له ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ فقال عدوُّ الله أبو جهل : أتوعدني يا محمد وتهددني ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، والله إني لأعز أهل الوادي ، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شرَّ قتلة . ا هـ من صفوة التفاسير ٣/٤٨٨ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا

* * *

﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكوراً** ﴾ قد أتى على الإنسان « آدم » وقتٌ من الزمن ، لم يكن شيئاً له رفعةٌ ولا شرف ، إنما كان طيناً لازباً ، وحمأً مسنوناً ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ إنا خلقنا ذرية آدم ، من ماء الرجل وماء المرأة يختلطان ﴿ **نَبْتَلِيهِ** ﴾ لنختبره في هذه الدنيا ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ فجعلناه ذا سمعٍ يسمع به ، وذا بصرٍ يبصر به ، إنعاماً منّا عليه ، ورأفةً به ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ﴾ إنا بيَّنا له طريق الجنة ، وعرَّفناه سبيله ﴿ **إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾ إما سعيداً لشكره للنعم ، وإما شقياً لكفره بها ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً** ﴾ إنا أعددنا لمن كفر نعمتنا ، سلاسل يُستوثق بها منهم في الجحيم ، وتُشدُّ أيديهم بالأغلال فيها ، وناراً تُسعَّر عليهم فتتوقد ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ** ﴾ إن الذين بروا بطاعتهم ربهم في أداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ** ﴾ يشربون من آنية فيها شراب ﴿ **كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً** ﴾ كان مزاج ما فيها من الشراب ، كالكافور في طيب الرائحة ﴿ **عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ** ﴾ من عينٍ يشرب بها عبادُ الله ، الذين يدخلهم الجنة ﴿ **يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً** ﴾ يصرِّفون هذه العين كيف شاؤوا وحيث شاؤوا ، من منازلهم وقصورهم في الجنة ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** ﴾ يبرُّون بوفائهم بالنذور ، التي نذورها في طاعة الله في الدنيا ﴿ **وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً** ﴾ ويخافون عقاب الله ، في يومٍ كان شره ممتداً فاشياً ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً** ﴾ ويطعمون الطعام على حبهم إياه ،

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا
جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

* * *

وشهوتهم له، ذوي الحاجة الذين قد أذلتهم الحاجة ﴿ وَيَتِيماً ﴾ وللطفل الذي مات أبوه ولا شيء له ﴿ وَأَسِيراً ﴾ وللأسير المشرك أو المسلم المحبوس بحق ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ ويقولون لهم: إنما نطعمكم طلباً لرضا الله ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ لا نريد منكم على إطعامنا إياكم ، ثواباً ولا شكوراً[1] ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ ولكننا نطعمكم رجاء أن يؤمننا ربنا من عقوبته في يوم شديد الهول ، تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه ، ويطول بلاء أهله ويشتد ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ فدفع الله عنهم ما كانوا يحذرون ، من شر ذلك اليوم العبوس ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ وأعطاهم نضرةً في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ وأثابهم الله بصبرهم في الدنيا على طاعته ، والعمل بما يرضيه ، جنَّةً يدخلونها ، وحريراً يلبسونه ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ متكئين في الجنة على السرر ، المزينة بفاخر الثياب والستور ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾ لا يرون في الجنة شمساً فيؤذيهم حرها ، ولا برداً شديداً فيؤذيهم بردها ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ وقَرُبت منهم ظلالُ أشجارها ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ وذلل لهم اجتناء ثمرها كيف شاؤوا قعوداً ، وقياماً ، ومتكئين[2] ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ ويطاف على هؤلاء الأبرار ، بأوانٍ يشربون فيها شرابهم ، هي من فضة في صفاء الزجاج ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ هذه الأكواب كانت قوارير فحولها الله فضَّة ، فهي في الصفاء كصفاء الزجاج في بياض الفضة[3] ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قدروا تلك الآنية على قدر حاجتهم ، لا تزيد ولا تنقص ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ﴾ ويسقى الأبرار في الجنة كأساً من الخمر ، مزاجُ الشراب من الزنجبيل ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ عيناً في الجنة توصف بالسلاسة ،

(١) قال سعيد بن جبير : أما واللّهِ ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم ، ليرغب في ذلك راغب .
(٢) قال ابن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها ، تدلت له أغصانها حتى يتناول منها ما يريد.
(٣) قال الطبري : دلَّ ثناؤه بوصفه الآنية أنها من فضة ، ليُعلم عبادَه أن تربة أرض الجنة من فضة ، فان كل آنيةٍ إنما تتخذ من تربة الأرض . اهـ الطبري ٢٩ / ٢١٦

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾

* * *

لسهولة مساغها في الحلق ، وانقيادها لأهل الجنة يُصرّفونها حيث شاؤوا ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ويطوف على هؤلاء الأبرار ، غلمانٌ مخلدون لا تتغير حالهم ﴿إِذَا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ إذا رأيت الولدان في الجنة ، تحسبهم في حسنهم وكثرتهم ، وبياض وجوههم ، كاللؤلؤ المبدَّد ، المنتثر هنا وهناك[١] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً﴾ وإذ نظرت ببصرك يا محمد ، ورميت بطرفك فيما أعطيتُ هؤلاء الأبرار في الجنة من الكرامة ، رأيت هناك نعيماً ﴿وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ ورأيت مع النعيم ملكاً واسعاً ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ﴾ فوق هؤلاء الأبرار ثياب ديباج - حرير - رقيق حسن ، أخضر اللون ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وعاليهم ثياب مما غلظ من الحرير ﴿وَحُلُّوا أَساوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وحلاَّهم ربهم بأساور من فضة ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ وسقى هؤلاء الأبرار شراباً طهوراً ، لا يصير بولاً نجساً ، ولكنه يرشح من أبدانهم كرشح المسك ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ يقال لهم إن الذي أعطيناكم من الكرامة ، كان لكم ثواباً ، على ما كنتم تعملون في الدنيا من الصالحات ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ وكان عملكم فيها مشكوراً ، رضيه ربكم لكم ، فأثـابكم عليه من الكرامة ما أثـابكم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ نحن نزلنا عليك يا محمد هذا القرآن . تنزيلاً ، ابتلاءً منا واختباراً ﴿فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصبر لما امتحنك به ربك ، من تبليغ رسالاته ، والقيام بما ألزمك به من فرائضه ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ ولا تطع من مشركي قومك آثماً يريد بركوبه معاصيه، ولا جحوداً لِنعَمه ، يكفر بربه ويعبد غيره[٢] ﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً﴾ واذكر يا محمد اسم ربك ، فادعه به في صلاة الصبح ﴿وَأَصيلاً﴾ في صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ ومن الليل فاسجد له في صلاتك وسبِّحه أكثر الليل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ إن هؤلاء المشركين يحبون البقاء في الدنيا ، وتعجبهم زينتها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ ويدعون خلف ظهورهم العمل للآخرة ، وما لهم فيه النجاة من عذاب الله

(١) قال قتادة : ما أحد من أهل الجنة إلا ويسعى عليه ألف غلام ، كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه .
(٢) قال قتادة : نزلت في عدو الله « أبي جهل » قال : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه . اهـ الطبري ٢٩ /٢٢٤

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

* * *

﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾ نحن خلقنا هؤلاء المشركين، وشددنا خلقهم [1] ﴿**وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً**﴾ وإذا نحن شئنا أهلكناهم ، وجئنا بآخرين سواهم ، خيراً منهم في العمل ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ**﴾ إن هذه السورة عبرةٌ ، لمن اتعظ واعتبر ﴿**فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ فمن شاء من الناس اتخذ طريقاً إلى رضاء ربه ، بالعمل بطاعته ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ وما تشاؤ ون أيها الناس اتخاذ السبيل ، إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ عالماً بأحوال خلقه ، حكيماً في تدبيره وصنعه ﴿**يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**﴾ يدخل ربكم من يشاء منكم في جنته [2] ﴿**وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ والذين ظلموا أنفسهم فماتوا على شركهم ، أعدَّ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم، المؤلم الموجع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنسان »

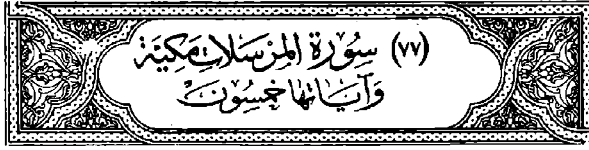
* * *

---

(١) المراد أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشدّاء ، وأصل الأسر في اللغة : الشدُّ والربطُ ، ثم أُطلق على الخَلْق ، يُقال : شدَّ اسْرَه اي احسن خَلْقه ، واحكمَ تكوينَه قال الأخطل :

مِنْ كلِّ مجتنبٍ شديدٍ أسْرُه   سَلِسِ القِيادِ تَخالُه مختالا

(٢) في هذه السورة الكريمة ، بيانٌ للنعيم الذي أكرم الله به أهل الجنة ، ووصفٌ شاملٌ لأحوال أهل الجنة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم ، وحليّهم ، وغيرذلك ممّا لا عين رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأله تعالى الّا يحرمنا نعيم الجنة بمنه وفضله .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾ أُقسمُ بالرياح المرسلات يتبع بعضها بعضاً ، وبكل ما يرسله الله من رياح ، وملائكة ، ورسل[١] ﴿ فَالْعَاصِفاتِ عَصْفاً ﴾ فالرياح الشديدات الهبوب ، السريعات الجري ﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ وأُقسمُ بالرياح التي تنشر السحاب ، وبالمطر الذي ينشر الأرض ، وبالملائكة التي تنشر الكتب ﴿ فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ وأُقسمُ بالفاصلات التي تفصل بين الحق والباطل ، مَلَكاً كان ، أو قرآناً ، أو غير ذلك ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾ وأُقسمُ بالملائكة المبلِّغاتِ وحي الله لرسله ﴿ عُذْراً أو نُذْراً ﴾ إعذاراً من الله إلى خلقه ، وإنذاراً منه لهم ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ إن الذي توعدون أيها الناس من الأمور ، لكائنٌ لا محالة يوم القيامة ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ فإذا ذهب ضياء النجوم ، فلم يبق لها نور ولا ضوء ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ وإذا السماء شقِّقت وصُدِّعت ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ وإذا الجبال نسفت من أصلها ، فكانت هباء منبثاً ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ وإذا الرسل أُجِّلت للاجتماع يوم القيامة ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ لأي يومٍ أُجِّلتْ الرسل ؟ ما أعظم ذلك اليوم ، وما أهوله ؟ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أُجِّلتْ ليومٍ يفصل الله فيه بين خلقه ، فيأخذ من الظالم للمظلوم ، ويجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته

(١) اختلف المفسرون في الآيات الخمس فذهب بعضهم إلى أنها « الرياح » وبعضهم إلى أنها « الملائكة » وبعضهم جعل الآيتين الأولى والثانية للرياح ، والبواقي للملائكة ، وهذا ما ذهب اليه ابن كثير ، وهو الأرجح والأظهر ، وأمَّا الإمام الطبري فقد قال : إن القسم يعمُّ الملائكة ، والرياح ، والرسل وكل ما كان له هذه الصفة ، من الإرسال ، والعصف ، والنشر .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾
إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً
وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ
مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾

* **

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ وأي شيء أدراك يا محمد ما يوم الفصل ؟ تعظيماً لأمره وشدة هوله[1] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الوادي[2] الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها ، للمكذبين بيوم الفصل ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ ألم نهلك الأمم الماضية الذين كذبوا رسلي ، وجحدوا آياتي ؟ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ ممن سلك سبيلهم في الكفر بي وبرسلي ، فنهلكهم كما أهلكنا السابقين ؟ ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ كذلك سنّتي في أمثالهم من الأمم الكافرة ، نهلك المجرمين بإجرامهم ، إذا طغوا وبغوا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الويل للجاحدين بقدرة الله ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِن مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ألم نخلقكم أيها الناس من نطفة ضعيفة مهينة[3]؟ ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ فجعلنا الماء في رحمٍ استقر فيها فتمكّن ، إلى وقتٍ معلومٍ عند الله لخروجه من الرحم ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ فملكنا فنعم المالكون[4] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين بأن الله خلقهم من ماءٍ مهين ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾ ألم نجعل الأرض لكم وعاءً ، تضمُّ أحياءكم في المساكن والمنازل ؟ وتجمع أمواتكم في بطونها في القبور ؟ **قال الشعبي** : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتات شاهقات ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً ﴾ وأسقيناكم ماء عذباً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذه النعم التي أنعمتها عليكم ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ انطلقوا أيها المكذبون إلى ما كنتم به في الدنيا تكذبون من عذاب الله ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى

---

(١) هذا الأسلوب أسلوب التعجيب والتهويل ، فهو تعالى بقوله ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾؟ يُعجّب عباده من هول ذلك اليوم وشدته .

(٢) تقدم معنا أن الويل في اللغة معناه الهلاك والخسار والدمار ، وقصرُ الإمام الطبري على أنه الوادي في جهنم كعادته ليس بالقوي ، والله أعلم .

(٣) في الحديث القدسي يقول الله عز وجل « ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه . . » ؟ الحديث رواه أحمد

(٤) قال في صفوة التفاسير : « فقدرنا على خلقه من النطفة ، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور ، وأجمل الأشكال ، وهذا هو الأظهر .

لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾
وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا
يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

***

ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ انطلقوا إلى ظل دخان جهنم ذي الشعب الثلاث ﴿ **لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** ﴾ لا هو يظلهم من حرها ، ولا يكنّهم من لهبها ﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾ إن جهنم ترمي بشررٍ ، كالقصر العظيم من القصور ﴿ **كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ** ﴾ كأن الشرر الذي ترمي به جهنم الإبل السود ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويل يوم القيامة للمكذبين بوعيد الله ﴿ **هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ** ﴾ هذا يوم لا ينطق فيه المكذبون بعقاب الله ﴿ **وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ممّا اجترموا في الدنيا من الذنوب ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ بوعيد الله ﴿ **هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ** ﴾ هذا يوم يفصل الله فيه بالحق بين عباده ﴿ **جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ** ﴾ جمعناكم فيه لموعدكم مع سائر من كان قبلكم من الأمم ﴿ **فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ** ﴾ فإن كانت لكم حيلة تحتالونها للتخلص من عقابه ، فاحتالوا اليوم ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ بوعيد الله ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ** ﴾ إن الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، هم في ظلالٍ ظليلة ، وفي عيون الماء الجارية ، تجري خلال جناتهم ﴿ **وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ وفواكه يأكلون منها كلما اشتهوا ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا** ﴾ يقال لهم : كلوا من هذه الفواكه ، واشربوا من هذه العيون، كلما اشتهيتم ، لا تكدير عليكم ولا تنغيص ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة الله ﴿ **إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان على إحسانهم ، لا نضيع في الآخرة أجرهم ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويل للمكذبين بوعد الله ﴿ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا** ﴾ كلوا أيها المكذبون وتمتعوا ببقية أعماركم ﴿ **إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ** ﴾ إنكم مجرمون سأنتقم منكم كما انتقمت من مجرمي الأمم الخالية ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ الذين كذبوا خبر الله ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ** ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين : صلُّوا لا يصلّون ، فهم مخالفون لله في أمره ونهيه ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويلٌ للذين كذّبوا رسل الله ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ فبأي حديث بعد هذا القرآن يصدقون ؟ مع وضوح برهانه ، وصحة دلائله ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات »

(٧٨) سُورَةُ النَّبَإِ مَكيَّة
وآياتها أربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣)

***

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن أيِّ شيءٍ يتساءل هؤلاء المشركون ؟وفيم يختصمون ؟ثم أخبر تعالى فقال: ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم وهو البعث ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ الذي صاروا مختلفين فيه فريقين : فريق مصدِّق ، وفريق مكذب ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المنكرون للبعث ، سيعلم هؤلاء الكفار ما الله فاعل بهم يوم القيامة ، ثم أكّد الوعيد فقال : ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ثم كلاَّ سيعلمون إذا لقوا الله وأفضوا إلى ما قدَّموا من سيِّء أعمالهم أن الأمر ليس كما زعموا ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ ألم نجعل لكم الأرض مهاداً تمتهدونها وتفترشونها[1]؟﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ ونجعل الجبال أوتاداً للأرض ، أن تميد بكم ؟ ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ وخلقناكم ذكراناً وإناثاً ، وطوالاً وقصاراً ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ وجعلنا النوم راحة لكم ، تهدءون به وتسكنون ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ وجعلنا الليل غطاء تغطيكم ظلمتُه ، لتسكنوا فيه عن التصرف ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ وجعلنا النهار لكم ضياء ، لتنتشروا وتتصرفوا فيه لمصالح دنياكم ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ وسقفنا فوقكم سبع سموات محكمة الخلق ، لا صدوع فيها ولا فطور ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ وجعلنا الشمس وقَّادة

(١) أشار تعالى في هذه الآيات الكريمة ، إلى دلائل قدرته ووحدانيته ، في خلق الأرض ، والجبال ، والليل ، والنهار ، وفي خلق =

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾
يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ
جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ

* * *

مضيئة ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً** ﴾ وأنزلنا من السحب ماء منصباً ، يتبع بعضه بعضاً ﴿ **لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً** ﴾ لنخرج بالماء الحب الذي يُحصد ، والكلأ الذي يرعى من الحشيش والزرع ﴿ **وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً** ﴾ ولنخرج به البساتين الملتفة الأشجار ونخرج به الثمار ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً** ﴾ إن اليوم الذي يفصل الله فيه بين خلقه ، كان ميقاتاً معلوماً لهؤلاء المكذبين بالبعث ﴿ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ يوم ينفخ في القرن المعد للنفخ ﴿ **فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً** ﴾ فتجيئون زمراً زمراً ، وجماعةً جماعة ﴿ **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً** ﴾ وشُقِّقت السماء وصُدِّعت ، فكانت طرقاً ، وكانت من قبلُ شداداً ﴿ **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً** ﴾ ونسفت الجبال من أصولها ، فصيِّرت هباء منبثاً ، كالسراب الذي يظن من يراه أنه ماء ، وهو في الحقيقة هباء ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً** ﴾ إن جهنم ترقب من يجتازها وترصدهم ﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآباً** ﴾ هي للذين تجاوزوا حدود الله منزلٌ ومرجعٌ ، يرجعون ويصيرون إليه ﴿ **لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً** ﴾ ماكثين في جهنم دهوراً لا تنقضي[1]، في عذاب متنوع ، **قال قتادة** : هذه الأحقاب لا انقطاع لها ، كلما مضى حِقْبٌ جاء حِقْبٌ بعده ﴿ **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً** ﴾ لا يطعمون فيها برداً يُبرد حرَّ السعير عنهم إلا الغسَّاق ، ولا شراباً يرويهم من شدة العطش إلا الحميم ﴿ **إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً** ﴾ لا يشربون إلا ماءً حميماً قد أُغلي حتى انتهى حرُّه ، فهو كالمهل يشوي الوجوه ، ولا برداً إلا غساقاً وهو السائل الزمهرير ، الجامع مع شدة برده نتن رائحته ﴿ **جَزَاءً وِفَاقاً** ﴾ هذا العذاب للكفار ثواباً لهم على أفعالهم وأقوالهم الرديئة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً** ﴾ إن هؤلاء الكفار كانوا لا يخافون محاسبة الله إياهم في الآخرة على نعمه عليهم ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً** ﴾ وكذبوا بحججنا وأدلتنا تكذيباً ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً** ﴾ وكل شيء كتبنا عدده

=السماوات السبع ، وإنزال المطر من السحاب ، وفي الشمس المضيئة التي تنير الكون ؛ وتُخرج الزرع والنبات . . الخ وكلُّ هذه براهين على وحدانية رب العالمين جلَّ وعلا .

(١) ليس المراد بالأحقاب هنا السنون المحدودة ، وإنما يُراد بها الدوام والخلود ، بدليل التنكير في قوله « أحقاباً » أي إلى غير نهاية ، ولهذا فسَّرها الطبري بقوله : دهوراً لا تنقضي ، جمعاً بين النصوص الكريمة الدالة على الخلود الأبدي كما قال تعالى ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ والله أعلم .

كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

* * *

ومبلغه ، وقدره كتاباً ، فلا يعزب عنا علم شيء منه ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً ﴾ فذوقوا أيها القوم من عذاب الله ، الذي كنتم به تكذبون في الدنيا ، فلن نزيدكم إلا عذابًا على العذاب الذي أنتم فيه ﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ إن للمتقين منجىً ومخلصاً من النار ، وظفراً بما طلبوا ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾ بساتين من النخل والأشجار ، وكروم الأعناب ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ ونساء عذارى نواهد ، في سنٍّ واحدة ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ وكأساً ملأى[1] متتابعة على شاربيها ، بكثرةٍ وامتلاء ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول ، ولا يكذِّب بعضُهم بعضاً ﴿ جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ ثواباً من ربك على طاعتهم في الدنيا ، تفضلاً من الله عليهم ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ رب السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلق ﴿ الرَّحْمٰنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ الرحمن لا يقدر أحد من خلقه خطابه يوم القيامة ، إلاَّ من أذن له منهم وقال صواباً ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ يوم يقوم الروح[2] « جبريل » والملائكة صفوفاً ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ لا يتكلمون شيئاً إلا من أذن له الرب سبحانه ، وقال صواباً من الكلام ﴿ ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ يومُ القيامة هو اليوم الحق ، لأنه كائنٌ لا شك فيه ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ فمن شاء من عباده ، اتخذ النجاة له من أهواله ، بالتصديق به والاستعداد له ﴿ إنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ إنا حذَّرناكم أيها الناس ، عذاباً قد دنا منكم وقرب ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه من خيرٍ أو شر ، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله ، ويخاف عقابه على سيئها ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ ويقول الكافر يومئذٍ تمنياً لما يلقى من عذاب الله يا ليتني كنت تراباً كالبهائم التي جعلت تراباً .

(١) المراد بالكأس الخمر أي كأساً من الخمر ممتلئةصافية، ومعنى الدِّهاق :الممتلئة قال تعالى : ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾

(٢) ذكر الطبري أقوالاً عديدة في « الروح » ولم يرجّح قولاً منها ، والجمهور على أن المراد بالروح جبريل لقوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وقوله ﴿قل نزَّله روح القدس من ربك بالحقِّ . . ﴾ .

(٧٩) سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ
أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ
أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ
وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

***

﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ أقسمُ بالنازعات من كل نوعٍ إغراقاً ، كما يغرق النازع في القوس ﴿ والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ وأقسمُ بالناشطات التي تنشط من موضع إلى موضع فتذهب[١] إليه ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾ وأقسمُ باللواتي تسبح من خلق الله سبحاً ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ وباللواتي تسبق من خلق الله سبقاً ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ فالملائكة المدبرة ما أُمرت به من أمر الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ يوم ترجف الأرض والجبال للنفخة الأولى ﴿ تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ ﴾ تتبعها النفخة الثانية ، « نفخة البعث »التي تردف الأولى ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قلوب بعض خلق الله يومئذ خائفة ، من عظيم الهول النازل ﴿ أَبْصَارُها خَاشِعَةٌ ﴾ أبصار أصحابها ذليلة ، ممَّا قد علاها من الكآبة والحزن ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ يقول المكذبون بالبعث : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى ، فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا ؟ ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴾ أئذا كنا عظاماً بالية فانية سنُرَدُّ ؟! ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ قال المكذبون بالبعث : تلك الرجعة بعد الممات رجعة خاسرة غابنة[٢] ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فإنما هي صيحة ونفخة واحدةٌ ، تُنفخ في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ فإذا هم بوجه الأرض أحياء ، بعد أن كانوا أمواتا بباطنها ﴿ هَل

---

(١) لم يرجح الطبري بعض الأقوال حول « النازعات والناشطات » في الآيات الكريمة ، والأظهر أنها الملائكة ، فقد قال ابن كثير : أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط.وهذا هو الراجح أنها ملائكة العذاب ، وملائكة الرحمة . كما قال الجمهور .

(٢) قال ابن زيد : وأيُّ كرَّةٍ أخسر منها ؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت رجعة سَوْء .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ
هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ
وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا
فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾

* * *

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ هل أتاك يا محمد حديث «موسى بن عمران»؟ وهل سمعت خبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ حين ناجاه ربه بالوادي المطهر المبارك ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طغى ﴾ ناداه أن اذهب إلى فرعون مصر ، إنه عتا وتجاوز حده في العدوان ، والتكبر على ربه ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ فقل له : هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر ، وتؤمن بربك !؟ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ وأرشدك إلى ما يرضي ربك ، إلى « الدين القيِّم » فتخشى عقابه ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ فأرى موسى فرعون الدلالة الكبرى على أنه رسولٌ أرسله الله إليه ، وهي يده البيضاء ، وعصاه التي تحولت ثعباناً ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ فكذب فرعونُ موسى ، فيما أتاه من الآيات المعجزة ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ثم ولّى فرعون معرضاً عما دعاه إليه موسى ، وسعى يعمل في معصية الله وفيما يُسخطه ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ فجمع قومه وأتباعه ، فنادى فيهم ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ فقال لهم : أنا ربكم الأعلى ، الذي كل رب دوني ﴿ فَأَخَذَه اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ فعاقبه الله عقوبة الأخيرة من كلمتيه وهي قوله « أنا ربكم الأعلى » وعقوبة الأولى وهي قوله « ما علمت لكم من إلٰهٍ غيري » ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ إن في العقوبة التي عاقب الله بها فرعون في عاجل الدنيا ، وفي أخذه إياه عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ، ويخشى عقابه ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ أأنتم أيها المكذبون بالبعث : أشدُّ خلقاً ، أم السماء رفعها فجعلها للأرض سقفاً ؟ فإنَّ من بنى السماء هيِّنٌ عليه خلقكم بعد مماتكم ، وليس خلقكم بعد مماتكم بأشد من خلق السماء ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ رفع بناءها فسوى السماء فلا شيء أرفع من شيء ، ولا شيء أخفض من شيء ، ولكن جميعها مستوي الارتفاع والامتداد ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ وأظلم ليل السماء ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ وأبرز نهارها ، فأظهره ، ونوَّر ضحاها ﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ والأرض بعد أن استوى إلى السماء بسطها ومدها

(١) انظر إلى هذا « الأسلوب الحكيم » في الدعوة إلى الله ، ففرعون الطاغية الجبّار ، الذي ادّعى الربوبية ونازع اللّهَ في ملكه ، يُؤمر موسى بأن يدعوه برفقٍ ولينٍ ﴿ فقلْ هلْ لكَ إلى أن تزكَّى ﴾!! وهذا هو أسلوب الدعوة إلى الله ، يجب أن يضعه كل داعيةٍ نصيب عينيه ، لتثمر دعوته وتدخل إلى القلب تلك النصيحة التي يريدها ، هدانا الله إلى ذلك .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

* * *

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ فجر فيها الأنهار، وأنبت نباتها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ والجبال أثبتها في الأرض ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ خلق هذه الأشياء منفعةً للناس، ومتاعاً إلى حين ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ فإذا جاءت الداهية، التي تطمُّ على كل هائلة فتغمر ما سواها، لعظيم هوْلها وهي القيامة ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ يوم يتذكر الإنسان ما عمل في الدنيا من خيرٍ وشرّ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ وأُظهرت نار الله لأبصار الناظرين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ فأما من عتا على ربه وعصاه، واستكبر عن عبادته ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وفضّل متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة، فعمل للدنيا، وترك العمل للآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ فإن نار جهنم هي منزله ومأواه، ومصيرُه الذي يصير إليه يوم القيامة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وأمّا من خاف سؤال ربه له، عند وقوفه بين يديه يوم القيامة، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ونهى نفسه عن هواها، فزجرها وخالف هواها، إلى ما أمره به ربُّه ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ فإن الجنة هي منزله ومصيره يوم القيامة[1] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يسألك يا محمد المكذبون بالبعث عن الساعة، التي يُبعث فيها الموتى من قبورهم ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى قيامها وظهورها؟ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ في أي شيءٍ أنت من ذكر الساعة، والبحث عن شأنها؟[2] ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ إلى ربك منتهى علمها، لا يعلم وقتَ قيامها غيرُه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ إنما أنت يا محمد رسولٌ مبعوث بإنذار الساعة، مَنْ يخاف عقاب الله على إجرامه ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ كأن هؤلاء المكذبين بالقيامة، يوم يرونها قد قامت، لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية يوم، أوضحى تلك الليلة، وذلك من عظيم هولها.

تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

(١) ليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان، فإنه «الميزان الدقيق» الذي يُعرف به السعداء من الأشقياء، وأهل الجنة من أهل النار، فمن تكبَّر في الدنيا وتجبَّر، وعصى أمر الله، وفضَّل شهوات الحياة على طاعة مولاه، فهو الشقي الخاسر، وأما من أطاع الله، ونهى النفس عما تهواه، وخاف الحساب يوم الدين، فهو التقي السعيد وصدق الله ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى. وأما مَنْ خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾.

(٢) المراد أن علم الساعة ليس إليك، لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا تسأل عنها؟



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾

* * *

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ قبض وجهه كراهيةً وأعرض(١) ﴿أن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ لأن الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» جاءه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ وما يدريك يا محمد لعل هذا الأعمى يتطهر من ذنوبه !! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو يعتبر فينفعه الاتعاظ ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أما من استغنى بماله ، فأنت تتعرض له رجاء أن يُسلم ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ وأيُّ شيءٍ عليك أن لا يتطهر من كفره فيسلم ؟ ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾ وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعياً ، وهو يتقي الله ويخشاه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ فأنت تُعرض وتتشاغل عنه بغيره ؟(٢) ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ليس الأمر كما تفعل يا محمد ، إنَّ هذه الآيات عبرةٌ وعظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء من عباد الله ، ذكرَ تنزيل الله ووحيه ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ

(١) أنظر إلى روعة القرآن وتدبُّر دقته وحكمته ، فلم يواجه الرسول ﷺ بضمير الخطاب مباشرة فيقول : «عبستَ يا محمد في وجه الأعمى وتولَّيتَ عنه» وإنما أتى بضمير الغائب ﴿عبس وتولى . أن جاءه الأعمى﴾ إجلالاً لمقامه الرفيع عند الله وتلطفاً به ، وتعليماً للأمة أن يخاطبوا الرسول عليه السلام بكل إجلال واحترام «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . .» الآية .

(٢) كان ﷺ يطمع في إسلام رؤساء قريش رجاء أن يُسلم أتباعهم ، وكان ذات يوم مشغولاً معهم يدعوهم إلى الإسلام ، فجاءه «عبد الله بن أم مكتوم» وهو رجل أعمى وقال يا رسول الله : علِّمني ممَّا علَّمك الله وكرَّر ذلك ، فكره ﷺ أن يقطع عليه كلامه وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد !! فعبس في وجهه وأعرض عنه ، وأقبل على القوم يكلمهم ، فأنزل الله ﴿عَبَس وتولَّى . أن جاءه الأعمى﴾ الآيات ، فكان ﷺ بعد ذلك إذا جاءه يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، وكان الفقراء في مجلسه أمراء . اهـ . وانظر تفصيل القصة في «صفوة التفاسير» ٥١٩/٣ .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ
خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾
مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

* * *

مُطَهَّرَةٍ ﴾ إنها في اللوح المحفوظ ، المرفوع المطهر عند الله ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ بأيدي الملائكة الذين هم سفراء بالوحي بين الله ورسله ، وهم كرام بررة ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ لُعن الإنسان الكافر ما أكفره !! ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ من أي شيء خلقه ربُّه ، حتى يتكبر ويتعاظم عن طاعته والإقرار بتوحيده !؟ ﴿ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ خلق الله الإنسان من نطفةٍ ، فقدَّره أحوالاً في بطن أمه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم يَسَّره للخروج من بطن أمه ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ثم قبض روحه فأماته، وصيَّره إلى القبر ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ثم إذا شاء الله أحياه بعد مماته ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ كلاَّ لم يؤدِّ هذا الكافر ، ما فرض ربه عليه من الفرائض ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فلينظر هذا المنكر إلى طعامه ، كيف دبَّره له ربُّه ؟ ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ أنا أنزلنا الغيث من السماء إنزالاً ، وصببناه على الأرض صباً ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴾ ثم فتقنا الأرض ، فصَدَعناها بالنبات ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ فأنبتنا فيها ما أخرجته الأرض من الحبوب ، وكرم العنب ، والخضرة الرطبة ﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ والزيتون والنخل ، وأشجاراً في بساتينَ غلاظٍ كثيرة الأشجار ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ وأخرجنا ما يأكله الناس من ثمار الأشجار ، وما تأكله البهائم من العشب والنبات[1] ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ الفاكهة متاع لكم ، والعشب لأنعامكم ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فإذا جاءت نفخة القيامة[2] ، في هذا اليوم يفرُّ المرء فيه عن أخيه ، وأمه ، وأبيه[3]،وزوجته التي كانت في الدنيا ، وعن أبنائه

(١) الأَبُّ : هو ما تأكله البهائم من العشب ، قال ابن عباس : هو ما أنبتته الأرض مما تأكله البهائم والدواب كالحشيش ، وقال مجاهد : هو الكلأ . (٢) سميت صاخَّة لأنها تصخُّ الأذان حتى تكاد تصمُّها لشدتها ، فهي صيحة رهيبة .

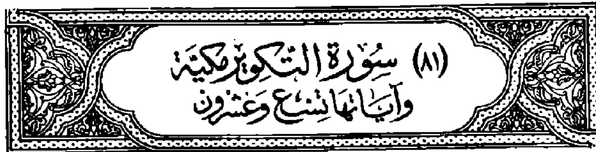
(٣) ما أعظم هوْل ذلك اليوم ، وما أشدَّ كربته !! حتى إن الإنسان ليهرب فيه من أعزّ الناس إليه ،وأحبِّهم لديه ، من أمه وأبيه ، وزوجه وأخيه ، وأولاده الذين كان يفديهم بالروح والمال ! اللهمَّ نجِّنا من أهوال ذلك اليوم الرهيب .

لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

* * *

حذراً من مطالبتهم إياه بالتبعات والمظالم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ لكل واحد من هؤلاء يوم القيامة، أمرٌ يشغله عن شأن غيره ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ وجوه المؤمنين الذين رضي الله عنهم يوم القيامة مشرقةٌ مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ضاحكة من السرور بما أعطاها الله من النعيم والكرامة، مستبشرة لما ترجو من الزيادة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ووجوه الكفار يومئذ يعلوها الغبار، يغشاها ويغطّيها ظلمةٌ وسواد ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ هؤلاء هم الكفرة بالله في الدنيا، الفجرة في دينهم، لا يبالون ما أتوا به من معاصي الله، وركبوا من محارمه، ولذلك جازاهم الله بسوء أعمالهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

* * *

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إذا الشمس لُفّت، ورمي بها فذهب ضوءها[1] ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وإذا النجوم تناثرت من السماء فتساقطت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ وإذا سيّر الله الجبال، فكانت سراباً وهباءً منبثاً ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وإذا الحوامل من الإبل التي يتنافس أهلها فيها، أُهملت فتُركت من

(١) هذه السورة الكريمة إحدى السور الثلاث التي تتحدث بالتفصيل عن أهوال يوم القيامة، وفي الحديث الذي رواه أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عينٍ فليقرأ ﴿إذا الشمسُ كُوِّرتْ﴾ و﴿إذا السّماءُ انفطرتْ﴾ و﴿إذا السّماءُ انشقّتْ﴾».

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾

* * *

شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ وإذا الوحوش جمعت فأميتت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وإذا البحار ملئت حتى فاضت ، فانفجرت وسالت[١] ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وإذا أُلحِقَ كل إنسان بشكله ، وقُرِن بين الأمثال ، في الخير والشر ، فقرن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة ، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وإذا المدفونة حيةً سُئلت: ما هو الذنب الذي اقترفته حتى قتلت[٢] ؟ ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ وإذا نشرت صحف أعمال العباد ، على ما فيها من الحسنات والسيئات ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ وإذا السماء نُزِعتْ من مكانها ، وجُذِبتْ ثم طُوِيت ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ وإذا أُوقد على الجحيم فأُحميت ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ وإذا الجنة قُرِّبت وأُدنيت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ علمت نفسٌ عند ذلك ما أَحضرت من خيرٍ ، فتصير به إلى الجنة ، أو شرٍّ فتصير به إلى النار ، ويتبيَّن للإنسان عند ذلك ما كان فيه صلاحه من غيره ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ فأُقسمُ بكل ما كانت صفتُه الغيابُ بعد الظهور، ثم الجرْيُ فتأوي إلى مواضعها[٣] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وأُقسمُ بالليل إذا أدبر[٤] ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وأُقسم

---

(١) نقل الإمام ابن جرير أقوال العلماء في هذه الآية كعادته ، ثم رجح ما نقلته عنه معللاً ذلك : بأن العرب تقول للنهر المملوء مسجور ، ولقوله تعالى : ﴿وَإِذا البِحارُ فُجِّرَتْ﴾ .

وقال بعض المفسرين بأن المراد :وإذا البحار تأججت ، وصارت نيراناً تضطرم ، وهذا المعنى أكثر استعمالاً في العربية ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) السؤال للموءودة إنما يراد به التوبيخ لقاتلها ، فتُسأل يوم القيامة حتى يظهر أنها قتلت بدون حق ، وإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً ؟ هل يترك من الحساب والعقاب ؟

(٣) عمَّم الإمام الطبري المعنى بأنه قسمٌ بكل ما يغيب ويظهر ، ثم يختفي في مكانه ، ونُقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن أن الآية قسمٌ بالنجوم المضيئة التي تظهر بالليل وتختفي بالنهار ، وتجري مع الشمس والقمر ، ثم تستتر وقت غروبها في « كناسها » وهو المكان الذي تأوي إليه الظباء ، ولعل هذا المعنى أولى والله أعلم .

(٤) قال الراغب : ﴿والليل إذا عسعس﴾ أي أقبل وأدبر ، وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه فالعسعسة والعساس رقة الظلام ، وذلك في طرفي الليل . المفردات في غريب القرآن (٣٣٤) قال في الصفوة : أي إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون . وقال: وهذا أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه قال : أقسم بالليل حينَ يقبل بظلامه وبالنهار حين يقبل بضيائه وهو اختيار ابن كثير . اهـ .

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾
فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

بضوء النهار ، إذا أقبل وتبيَّن ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إن هذا القرآن لتنزيلُ جبريل ، نزَّله على محمد ابن عبدالله ﷺ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وجبريلُ ذو قوة على ما كُلِّف به من أمر ، ذو مكانةٍ رفيعة عند رب العرش العظيم ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وجبريل تطيعه الملائكة في السماء ، وهو أمينٌ عند الله على وحيه ورسالته ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وما محمد المرسل إليكم أيها الناس يتكلم عن جنون ، ويهذي هَذَيان المجانين ، بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ولقد رأى محمدٌ جبريلَ في صورته الملكيَّة من قبل المشرق ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وما محمد على ما علَّمه الله من وحيه وتنزيله ، ببخيلٍ بتعليمكم إياه ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وما هذا القرآن بقول شيطانٍ ، ملعونٍ مطرودٍ من رحمة الله ، ولكنه كلام الله ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ فأين تذهبون عن هذا القرآن ، وتعدلون عنه ؟! ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما هذا القرآن إلا تذكرةٌ وعظةٌ للعالمين ، من الجنِّ والإنس ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ لمن شاء منكم أن يستقيم على طريق الحق ، فيتَّبعه ويؤمن به ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وما تشاءون ـ أيها الناس ـ الاستقامةعلى الحق ، إلا أن يشاء الله لكم ذلك ، فاطلبوا من الله الهداية والتوفيق .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير »

* * *

(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ إِذَا السَّماءُ انفَطَرَتْ ﴾ إذا السماء انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ وإذا النجوم تساقطت ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ وإذا فجَّر الله البحار بعضها في بعض ، فملأ جميعَها ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ وإذا القبور أثيرت ، فاستُخرج من فيها من الموتى أحياء ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ علمت كل نفس ما قدمت لذلك اليوم من عملٍ صالحٍ ، وما أخَّرت من شيء سَنَّه فعُمِل به بعده ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ يا أيها الإنسان الكافر ، ما خدعك بربك الكريم ، فعصيته بجهلك وحُمقك !! ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ الذي خلقك أيها الإنسان فسوَّى خلقك ، فجعلك معدَّل الخلق مقوَّماً[١] ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ في أي صورةٍ قبيحةٍ أو حسنةٍ شاء الله أوجدك ، **قال قتادة:** إن شاء في صورة كلب ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة خنزير[٢] ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ليس الأمر كما يقول الكافرون ، ولكنكم تكذبون بالثواب والعقاب ، والجزاء والحساب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ وإن عليكم رقباء من الملائكة ،

(١) المراد جعلك سوياً سالم الأعضاء ، معتدل القامة ، في أحسن الهيئات والأشكال .

(٢) هذا ما قاله بعض السلف أن الآية وردت مورد التهديد وأنه تعالى قادرٌ على أن يخلقه في أي صورةٍ شاء ، صورة كلب ، أو حمار ، أو قرد ، أو خنزير ، فهو تعالى لو أراد لفعل ، ولكنه بقدرته ، ورحمته وحكمته ، خلقه بشكل حسنٍ مستقيم ، معتدل القامة ، في أحسن صورة ، أفلا يشكر ربه على هذا الخَلْق الحسن الجميل ؟ وقال بعض المفسرين : المعنى في أيِّ صورة شاءها واختارها لك ، من الصور الحسنة العجيبة الجميلة ، خلقك وركَّبك ، ولم يجعلك في الشكل كالدابة والبهيمة ، ويؤيده قوله تعالى﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

* * *

يحفظون أعمالكم ، ويحصونها عليكم ﴿كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ كراماً على الله يكتبون جميع أعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعلمون ما تفعلون من خيرٍ أو شرٍ ، يُحصون ذلك عليكم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن الذين برُّوا ربهم ، بأداء فرائضه،واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان يُنَعَّمون فيها ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وإن الذين كفروا بربهم ، لفي نارٍ مُحرقة ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يصلون الجحيم يوم يحاسبون بالأعمال ، فَيُجازون بها ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ وما هم بخارجين عنها أبداً ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وما أشعرك يا محمد أيُّ شيءٍ يومُ الحساب والمجازاة ؟ معظماً من شأنه[1] ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثم أيُّ شيءٍ يومُ الحساب والمجازاة يا محمد؟ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ يوم لا تُغني نفسٌ عن أخرى شيئاً ، فتدفع عنها مصيبة نزلت بها ، ولا تنفعها بنافعة ، وقد كانت في الدنيا تحميها وتدفع عنها ﴿والأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للَّهِ﴾ والأمر كله يوم القيامة لله ، دون سائر خلقه ، فليس لأحد معه يومئذٍ أمرٌ ولا نهي .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار »

* * *

(١) هذا الأسلوب ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟ للتهويل والتعظيم من شأنه ، كأنه يقول : هل تدري أيُّ شيءٍ هو في فظاعته وهوله ؟ كما كرره تعظيماً لشأنه وتهويلاً فقال ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟

(٨٣) سُورَةُ المطففين مكية وآياتها ست وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾
أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

* * *

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الوادي الذي يسيل من صديد[١] أهل جهنم ، للذين يُنقِصون النَّاسَ حقوقَهم ، في مكاييلهم أو في موازينهم عن الواجب لهم ﴿الَّذِين إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ الذين إذا اكتالوا من الناس ما لهم من حقٍّ ، يستوفونه لأنفسهم فيكتالونه منهم وافياً ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ وإذا هم كالوا للناس ، أو وزنوا لهم ، يُنقصونهم حقَّهم ﴿أَلَا يَظُنّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ألا يظن هؤلاء المطفِّفون ، أنهم مبعوثون بعد مماتهم ، ليوم عظيمٍ شأنُه ، هائلٍ أمرُه ، فظيعٍ هولُه ؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يوم يقف الناس لرب العالمين ، حتى يُلجمهم العَرَقُ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ليس الأمر كما يظن الكفار أنهم غير مبعوثين ولا معذبين ، إن كتابهم الذي كتب فيه أعمالهم ، حبيسٌ في الأرض السفلى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وأيُّ شيءٍ أدراك يا محمد ما هو ذلك الكتاب؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ هو كتاب مكتوب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل يومئذ للذين يكذبون بهذه الآيات ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ الذين يكذبون بيوم الحساب والمجازاة ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ وما يكذب بيوم الدين ، إلا كل من اعتدى على الله ، فخالف أمره ، كثير المعاصي والآثام ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ

(١) كلمة « ويل » في اللغة تستعمل للعذاب ، والهلاك ، والدمار ، والإمام الطبري رحمه الله يفسرها حيث وردت في القرآن بأنها وادٍ في جهنم يسيل منه صديد أهل النار .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي
ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

* * *

آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إذا قرئت عليه حججنا وأدلتنا ، التي بيناها في كتابنا ، قال : هذا ما سطّره وكتبه الأولون من الأحاديث والأخبار **﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قلوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** كلّا ، ما ذلك كذلك ، ولكنه غلب على قلوبهم وغمرتها وغطّتها الذنوب[1] ، فلا تعرف الحق من الباطل **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾** كلّا ما الأمر كما يقول هؤلاء المكذبون إنهم يومئذٍ لا يرون ربهم ، ولا يصل إليهم شيءٌ من كرامته **﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾** ثم إنهم لداخلوا الجحيم ، فمشوون فيها **﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾** ثم يقال لهم : هذا العذاب هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تُنكرونه ، فذوقوه اليوم **﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾** كلا إن كتاب الذين برُّوا ربهم ، لفي عُلوٍّ وارتفاع ، لا يعلم أحد منتهاه **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾** وأيُّ شيءٍ أشعرك يا محمد ما عليون ؟ **﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾** كتابٌ مكتوبٌ بأمانٍ من الله ، للبَرِّ من عباده من النار **﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾** شهد ذلك الكتاب المقربون من ملائكة الله **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾** إن الذين بروا باتقاء الله ، لفي نعيمٍ دائمٍ في الجنان **﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾** على السرر المزدانةِ باللؤلؤ والياقوت ، ينظرون ما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم **﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾** تعرف في وجوه الأبرار حسن النعيم وبريقه **﴿يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾** يُسْقون من خمرٍ صِرفٍ ، لا غش فيها ، طيبة الرائحة **﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾** آخره وعاقبتُه مسكٌ ، يُختم لهم في آخر شرابهم بريح المسك **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** وفي هذا النعيم الموصوف ، فلْيستبقوا في طلبه ، ولْتَحرِصْ عليه نفوسُهم **﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾** ومزاج هذا الرحيق ، من عينِ ماءٍ ، تنحدر عليهم من فوقهم **﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾** يشرب من هذه العين المقربون من الله صِرْفاً ، وتُمزج لسائر أهل الجنة **﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾** إن الذين اكتسبوا المآثم

---

(١) في الحديث الصحيح « إن العبد إذا أخطأ خطيئةً ، نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداء ، فإذا هو نزع ـ رجع عن ذنبه ـ واستغفر الله وتاب صُقل قلبُه ، فإن عادَ زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الرَّانُ الذي ذكر الله في كتابه ﴿ كلاًّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ رواه الترمذي

وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

* * *

فكفروا بالله ، كانوا في الدنيا يضحكون من الذين صدَّقوا بوحدانية الله ، استهزاءً بهم **﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾** وإذا مرَّ المؤمن بهم ، يغمز بعضهم بعضاً ، سخريةً به **﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾** وإذا انصرف المجرمون إلى أهلهم من مجلسهم ، انصرفوا ناعمين معجبين بسخريتهم **﴿وَإِذَا رَأَوْهُم قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾** وإذا رأوا المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون عن محجة الحقِّ ، وسبيل القصد **﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾** وما جُعل هؤلاء الكفار ، حافظين رقباء على المؤمنين بأعمالهم **﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾** فيوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار **﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾** على سررهم المزدانة وهم في الجنة . ينظرون إليهم ، والكفارُ يعذبون في النار[1] **﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** هل أثيب الكفارُ وجوزوا ، على ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين من السخرية والضحك ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين »

* * *

---

(١) روي أن خزنة جهنم تفتح أبواب النار للكفار ويقال لهم : اخرجوا ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا أليها يريدون الخروج منها ـ والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ـ فإذا وصلوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون ، فذلك قوله تعالى **﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون﴾** .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

* * *

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ إذا السماءُ تصدَّعت وتقطَّعت ، فكانت أبواباً ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ وسمعت السموات أمر ربها في تصدُّعها ، وأطاعت له ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحُقَّ لها أن تسمع وتستجيب ، فقد أوجب الله عليها الاستماع بالانشقاق ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّت ﴾ وإذا الأرض بُسطت فزيد في سعتها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ وألقت الأرض ما في بطنها من الموتى ، وتخلَّت عنهم ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ وسمعت الأرض أمر ربها في ذلك وأطاعته ، وحُقَّ لها أن تستمع لأمره جلَّ وعلا وتطيع ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ يا أيها الإنسان إنك ساعٍ إلى ربك ، وعاملٌ عملاً فملاقيه به ، خيراً كان أم شراً ، فليكن عملك فيما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه ، فسوف يحاسبه ربه حساباً يسيراً ، بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازيه على حسنها[1] ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ وينصرف هذا

---

(١) المراد بالحساب اليسير هو العرضُ ، تُعرض على المؤمن أعماله يوم القيامة ، فيقول الله تعالى له : فعلتَ يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول نعم يا رب ، فيقول الله له : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، وحين سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ يقول « من حُوسب عُذِّب » قالت : أوليس الله يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ فقال لها ﷺ: « إنما ذاكِ العَرْضُ ، ولكنْ من نوقش الحساب عُذِّب » وانظر صفوة التفاسير ٥٨٣/٣

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا
ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

* * *

المحاسب إلى أهله في الجنة مسروراً ، بفضل الله عليه ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ﴾ وأما من أعطي كتابه بشماله من وراء ظهره ، فسوف ينادي بالهلاك فيقول : واثبوراه واويلاه ﴿ وَيَصْلَى سعيرًا ﴾ ويَرِد النار فيحترق فيها ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ إنه كان في الدنيا بين أهله وذويه مسروراً ، في مخالفته أمر الله ، وركوبه معاصيه ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ ﴾ إنه ظنَّ أن لن يرجع إلينا ، ولن يبعث بعد مماته ، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ بل ليرجعنَّ إلى ربه حياً ، كما كان قبل مماته ، وإن ربه كان بصيراً بما كان يعمل في الدنيا من المعاصي ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ فأقسمُ بالحمرة التي تكون في الأفق ، عند غروب الشمس ﴿ واللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ وأقسم بالليل وما جمع فيه من ذي روحٍ . أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ والقمر إذا تمَّ واستوى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ لتلاقون ـ أيها الناس ـ من شدائد يوم القيامة وأهواله ، حالاً بعد حال ، وأمراً بعد أمر ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فما لهؤلاء المشركين لا يصدِّقون بتوحيد الله ، ولا يقرون بالبعث بعد الموت ؟ ﴿ وَإِذَا قُرِيءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ وإذا قرىء عليهم كتاب ربهم ، لا يخضعون ولا يستكينون ؟ ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ بل الذين جحدوا وحدانية الله ، يكذّبون بآياته وتنزيله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ والله أعلم بما تكتمه صدور هؤلاء المشركين ، من التكذيب بكتاب الله ورسوله ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فبشِّرْ يا محمد هؤلاء المكذبين ، بعذابٍ موجعٍ لهم عند الله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلَّا الذين تابوا منهم ، وصدَّقوا بنبوة محمد ﷺ وبالبعث بعد الممات ، وأدَّوا فرائض الله ، واجتنبوا ما حرَّم الله عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهؤلاء ثوابٌ غير محسوبٍ ، ولا منقوصٍ ، ولا مقطوعٍ ، بل هو دائمٌ مستمر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

***

﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ أُقسمُ بالسماءِ ، ذاتِ منازلِ الشمس والقمر ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ وأُقسمُ بيوم القيامة ، الذي وعدته عبادي ، لفصل القضاء بينهم ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ وأقسمُ بكل شاهدٍ ومشهود[١] ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ لُعن أصحاب الأخدود ، الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود فأحرقوهم[٢] ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ النار ذات الحطب واللهب ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ حين الكفار من أصحاب الأخدود ، قعود على شفير الأخدود ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ وهم حضورٌ لإحراق المؤمنين ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ وما وجد هؤلاء الكفار على المؤمنين والمؤمنات ، فأحرقوهم بالنار ، إلاّ من أجل أنهم آمنوا بالله ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الشديد في انتقامه ممن انتقم منه ، المحمود بإحسانه إلى خلقه ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذي له سلطان السموات السبع ، والأرضين وما فيهنّ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والله شاهدٌ لفعل هؤلاء الكفار ، وهو مجازيهم جزاءهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ إن الذين ابتلوا المؤمنين

---

(١) قال ابن كثير : الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .ا هـ ورجح الطبري العموم في كل شاهد ومشهود .

(٢) وتتلخص القصة في أن ملكاً كافراً آمن قومه بالله ، فحفر لهم خندقاً كبيراً وملأه بالنار ، وأجبرهم على النزول إليه إن لم يرجعوا عن دينهم . وتفصيل القصة في صحيح مسلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

* * *

والمؤمنات ، بتعذيبهم وإحراقهم بالنار ، ثم لم يتوبوا من كفرهم ، وفعلهم هذا ﴿ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ فلهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ إن الذين أقروا بتوحيد الله ، وعملوا بطاعته ، لهم في الآخرة عند الله ، بساتينُ تجري من تحتها الأنهار ، من الماء ، والخمر ، واللَّبن ، والعسل ﴿ **ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ هذا هو الظفر الكبير ، بما طلبوا والتمسوا من رضى الله ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ إن انتقام ربك يا محمد من خلقه لشديد ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ إن الله يُبدئُ العذاب ، لأهلِ الكفر به في الدنيا ، ويُعيده لهم في الآخرة[1] ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ** ﴾ وهو ذو المغفرة لمن تاب من ذنوبه ، وذو المحبة لعباده التائبين ﴿ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴾ واللهُ صاحبُ العرش الكريمُ ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ هو غفَّارٌ لذنوب من شاء من عباده إذا تاب ، ومعاقبٌ من أصرَّ عليها ، لا يمنعه مانعٌ من فعل شيءٍ أراده ، لأن له ملك السمواتِ والأرض ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ** ﴾ هل جاءك يا محمد خبر الذين تجنَّدوا على الله ورسوله ، بأذاهم ومكرهم ، ماذا فعلتُ بهم ؟ ﴿ **فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ** ﴾ هم فرعون وقومُه ، وقوم ثمود أيضاً ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ** ﴾ بل هؤلاء الكافرون في تكذيبٍ بوحي الله وتنزيله ، إيثار منهم لأهوائهم ، واتباعاً منهم لسنَنِ آبائهم ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾ والله محيط بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيهم على جميعها ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ** ﴾ ما يأتيكم محمدٌ بشعرٍ ، ولا سجع ، بل هو قرآنٌ كريم ﴿ **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ وهو مثبتٌ في لوح محفوظٍ ، من التغيير والتبديل .

* * *

---

(١) هذا ما رجحه الإمام ابن جرير ، وذلك لأن الله أتبع ذلك قولَه ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ ، فكان للبيان عن معنى شدة بطشه ، بينما رجح غيره تفسير ذلك ، بأن الله يبدأ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ، وهو اختيار ابن كثير والجمهور وهو الأظهر والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾
فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ والسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ أُقسِم بالسماء ، وبالنجوم المضيئة فيها ، التي تطرق ليلاً وتختفي نهاراً ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ وما أشعرك يا محمد ما الطارق الذي أقسمت به ؟ ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ هو النجم المتوقد ضياؤه المتوهج ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ما كل نفس إلا عليها حافظ من ربها ، يحفظ عملها ، ويحفظ عليها ما تكسب من خيرٍ أو شرٍ ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ فلينظر الانسان المكذّب بالبعث ، المنكر قدرة الله ، من أيِّ شيءٍ خلقه ربه ؟ ﴿ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ خلق الإنسان من ماءٍ متدفق ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ﴾ يخرج من بين صلب الرجلِ ، وترائب المرأة[١] ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ إن الله قادرٌ على ردِّ الإنسان حياً ، كهيئته قبل مماته[٢] لا يعجزه شيءٌ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ يوم تختبر سرائر العباد ـ ضمائرهم ـ فيظهر منها ما كان مستخفياً عن أعين الناس ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ فما للإنسان الكافر يومئذٍ قوة يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصرٌ ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه

---

(١) الترائب: عظام الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل،قال ابن كثير : ترائب المرأة يعني صدرها وهو قول ابن عباس ومجاهد .
(٢) في الآية قولان :
أحدهما : إن الله على رجع هذا الماء الدافق ، إلى مكانه الذي خرج منه لقادر ، وهو قول مجاهد وعكرمة .
والثاني : إن الله على إعادة هذا الإنسان بعد موته ، وإحيائه بعد فنائه لقادر ، وهو قول الضحاك واختاره ابن جرير وهو الظاهر .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

* * *

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ وأقسم بالسماء التي ترجع بالغيوم والأمطار ، وأرزاق العباد كل عام ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ وبالأرض التي تتشقق بالنبات ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ إن هذا الخبر[1] ، لقولٌ يفصل بين الحق والباطل ببيانه ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ وما هو باللعب ولا الباطل ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ إن هؤلاء المكذبين بالله ورسوله ، يمكرون مكراً ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ وأمكر بهم مكراً ، بأن أمهلهم على معصيتهم وكفرهم ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ فمهِّلِ الكافرين يا محمد ، ولا تعجلْ عليهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ أمهلهم قليلاً ، وأنْظِرهم إلى وقت حلول النقمة بهم ، فسوف ترى ما أصنع بهم .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

* * *

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ عظِّمْ اسم ربك ، ونزِّهْه أن تدعو به الآلهة والأوثان ، كما فعل المشركون ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ الذي خلق الأشياء كلها ، فسوَّى خلقها ، وعدَّلها في أجمل الصور ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ والذي قدَّر خلقه ، فهداهم إلى ما فيه خيرهم وما فيه معاشهم ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ والذي أخرج من الأرض مرعى الأنعام ، من صنوف النبات ، وأنواع الحشيش ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً

(١) وقيل المراد : إن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد بلغ الغاية في البيان والتشريع والإعجاز ، وهو أظهر مما قاله الطبري .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

* * *

أَحْوَىٰ ﴾ فجعله جافاً يابساً ، تطير به الريح ، بعد أن كان أخضر زاهياً ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ إلا ما شاء الله أن ينسيك إيّاه ، بنسخه ورفعه ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ إن الله يعلم جميع أعمالك ، سرَّها وعلانيتها ، فاحذر أن تعمل بغير الذي أذن لك به ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ونسهِّل لك عمل الخير ، ونيسِّره لك ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ فذكِّرْ يا محمد عبادَ الله عظمته ، وعظْهم وحذِّرْهم عقوبته ، والذين أخبرتك أنهم لا يؤمنون ، فلا تنفعهم الذكرى(١) ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ سيذكر من يخاف عقاب الله ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ ﴾ ويتجنب الذكرى أشقى الفريقين ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾ الذي يرد نار جهنَّم ، الشديدة الحرِّ والألم ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ ثم لا يموت في النار ولا يحيا ، لأن نفس أحدهم تصير في حَلْقه ، فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا(٢) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قد نجح من تطهَّر من الكفر والمعاصي ، وعمل بما أمره الله به ، فأدّى فرائضه ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ وذكر اللّهَ فوحَّده ودعاه ، وصلَّى الصلوات وذكر الله فيها بالتحميد ، والتمجيد ، والدعاء ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ بل تفضلون ـ أيها الناس ـ زينة الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ وزينة الآخرة خيرٌ لكم وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ إن هذه المواعظ المذكورة في السورة ، ممَّا ذُكر في الكتب الأولى ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ كتب إبراهيم خليل الرحمن ، وصحف موسى بن عمران ، عليهما الصلاة والسلام .

---

(١) هكذا فسَّره ابن جرير ، وقال ابن كثير : أي ذكِّرْ حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه في غير أهله ، كما قال عليٌّ رضي الله عنه : حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟

(٢) معنى قوله تعالى ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾ أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم في العذاب والشقاء ، قال الطبري : العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدَّة شديدة قالوا : لا هو حيٌّ ولا هو ميِّتٌ ، فخاطبهم الله بما يعرفون .



بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾
لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ هل أتاك يا محمد قصة القيامة ، التي تغشى الناس بالبلاء والأهوال ؟ ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** ﴾ وجوهُ أهل الكفر يوم القيامة ذليلةٌ ﴿ **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ** ﴾ عاملةٌ في النار ، ناصبةٌ فيها - أي متعبة - بجرِّ الأغلال والسلاسل[١] ﴿ **تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً** ﴾ ترِد هذه الوجوه ناراً ، قد حميت واشتدَّ حرها ﴿ **تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾ تُسقى من شرابِ عينٍ ، بَلَغ غايته في شدة الحر ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ** ﴾ ليس لهؤلاء يوم القيامة طعامٌ ، إلا ما يطعمونه من نبات الضريع ، وهو سمٌّ قاتل **قال ابن عباس** : هو شجرٌ من النار ، **وقال قتادة** : هو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه ﴿ **لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ لا يُسمن هذا الضريع آكليه يوم القيامة ، ولا يُشبعهم من جوعٍ يصيبهم ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ** ﴾ وجوه أهل الإيمان يوم القيامة ، ناعمة بتنعيم اللّهِ أهلَها في جناته ﴿ **لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ** ﴾ لثواب عملها الذي عملته في الدنيا ، راضيةٌ في الآخرة ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ في بستانٍ فسيحٍ رفيع ﴿ **لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً** ﴾ لا يسمع أهل الجنة في الجنة كلمة باطل ﴿ **فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** ﴾ في الجنة عينٌ جاريةٌ في غير أخدود ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ** ﴾ في الجنة سُررٌ رُفعت ، ليرى المؤمن ببصره ما خَوَّله ربه من النعيم[٢] ، إذا جلس عليها

---

(١) هذه الآية في الكفار يتعبون ويشقون بجرّ السلاسل والأغلال في النار ، وبالصعود والهبوط في دركاتها كما قال تعالى ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل . يُسحبون في الحميم . ثم في النار يُسجرون﴾ .

(٢) قال ابن كثير : أي عالية ناعمة ، مرتفعة السُّمك عليها الحور العينُ ، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس عليها تواضعت له .

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

* * *

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ وأكواب موضوعةٌ على حافَّة العين الجارية ، كلَّما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ ووسائدُ ومرافقُ ، بعضُها بجنب بعض ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ وفيها طنافسُ ذا خَمَلٍ رقيق ، وبُسطٌ كثيرةٌ مفروشة ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ أفلا ينظر هؤلاء المنكرون إلى الإبل كيف خلقها الله ، وسخَّرها وذلَّلها لهم ، وجعلها تحمل حملها باركةً ، ثم تنهض به ؟ ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ وإلى السماء كيف رفعها الله ، فيعلموا أن قدرته كاملة ، وأنه لا يعجزه فعل شيء أراده ؟ ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ وإلى الجبال كيف أقيمت منتصبةً ، جامدة ، لا تبرح مكانها ، ولا تزول عن موضعها ؟ ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ وإلى الأرض كيف بُسطت ؟ أليس الذي خلق هذا بقادر على أن يخلق ما أراد في الجنة ؟ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فذكر يا محمد عبادي ، وبلِّغهم رسالتي ، فإنما أرسلناك إليهم لتذكرهم وتعظهم ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ لست عليهم بمسلط ، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد ، فكِلْهم إلي ، ودعهم وحكمي فيهم ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ إلَّا من تولَّى منهـم عنك ، وأعرض عن آيات الله فكفر بها ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ فيعذبه الله عذاب جهنم في الآخرة ، على كفره بربه في الدنيا ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ إن إلينا رجوعهم ومعادهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ثم إن على الله حسابهم ، فيجازيهم بما سلف منهم من معصية ربهم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية »

* * *

(٨٩) سُورَةُ الفَجْرِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَلاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟
ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ أُقسم بفجر الصبح ، وبليال عشر الأضحى ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ وأُقسم بكل شفعٍ ووتر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ وأُقسم بالليل إذا سار فذهب ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ هل فيما أُقسمت به من هذه الأمور قسمٌ مقنِع لذي عقل ؟! إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك ، فترى كيف فعل ربك بإحدى قبائل عاد ؟ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ إرم الذين كانوا أهل عمد ، ينتجعون أماكن الغيث ، وينتقلون إلى الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ التي لم يخلق الله مثلها في العِظَم، والبطش ، والقوة ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ وما فعل بثمود الذين خرقوا الصخر ، ودخلوه فاتخذوه بيوتاً ؟ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ وما فعل ربك أيضاً بفرعون ، صاحب الأوتاد التي كان يعذِّب الناس بها ؟[١] ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ الذين تجاوزوا الحدَّ في الكفر ، وعتوا على ربهم ، في البلاد التي كانوا فيها ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ فأكثروا في البلاد المعاصي ، وركوب ما حرَّم الله عليهم ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ فأنزل بهم ربك عذابه ، وأحلَّ بهم نقمته ، بما طغوا وأفسدوا في

---

(١) وقيل : وُصف بذلك لكثرة جنوده ، وخيامهم التي يضربونها في منازلهم ، والمعنى : وفرعون ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشدُّ ملكه .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ
إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ
لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾



البلاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ إن ربك يا محمد لأهل الكفر لبالمرصاد[1] ، يرصدهم بأعمالهم في الدنيا ، وفي الآخرة يرصدهم ليكردسهم في جهنم ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم ، فأكرمه بالمال والغنى ، وأوسع عليه من فضله ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ويُسرُّ ويقول : ربي أكرمني بهذه الكرامة ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ وأما إذا امتحنه ربه بالفقر ، فضيَّق عليه ولم يوسِّع عليه الرزق ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ فيقول ذلك الإنسان : ربي أذلني بالفقر . . لم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه ، والعافية في جسمه ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ كلَّا بل إنما أهنتُ من أهنتُ ، من أجل أنه لا يكرم اليتيم ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ولا تأمرون بعضكم بإطعام المسكين ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ﴾ وتأكلون أيها الناس الميراث ، أكلاً شديداً لا تتركون منه شيئاً ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ وتحبون جمع المال ، واقتناءه حباً كثيراً ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ ما هكذا ينبغي أن يكون أمركم ، فإذا رجَّت الأرضُ وزُلزلت ، وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه ، صفوفاً متتابعةً صفاً بعد صف[2] ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ وجاء ربك يومئذٍ بجهنم ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسانُ ﴾ في ذلك اليوم يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة الله ، وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِكْرَىٰ ﴾ ومن أي وجه له التذكير[3] ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يقول : يا ليتني قدَّمت من

---

(١) المرصاد : المكان المرتفع الذي يترقب الإنسان فيه عدوَّه ويرصده ، والمراد بالآية أنه تعالى رقيب على كل ظالم ، وأنه لا يفوته أحدٌ من الطغاة والجبابرة .

(٢) هذا يكون لفصل القضاء بين العباد ، يقوم الناس من قبورهم ويُساقون لأرض المحشر ، ويجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً .

(٣) أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها ؟

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

* * *

صالح الأعمال ، لحياتي هذه ، بما ينجيني من غضب الله ، ويوجب لي رضوانه !! ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ**﴾ فعذاب اللّـه يومئـذٍ، لا يُعذَّبَ به أحدٌ في الدنيا[١] ﴿**وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**﴾ ولا يُوثق كوثاقه يومئذ أحدٌ في الدنيا ﴿**يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ تقول الملائكة لأولياء الله يوم القيامة : يا أيتها النفس التي اطمأنت إلى وعد الله ، الذي وعد به أهل الإيمان في الدنيا ﴿**ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ ارجعي إلى الجسد الذي خرجتِ منه ، راضيةً مرضية[٢] ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ فادخلي في عبادي الصالحين ، وادخلي جنتي دار المتقين .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

* * *

﴿ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ أُقسمُ بهذا البلد الحرام « مكة » ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ وأنت يا محمد حلالٌ بمكة تصنع فيها ما تشاء ، من قتلٍ وأسرِ من أردتَ ، قد أطلقنا لك ذلك[٣] ﴿ **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾

---

(١) هكذا فسّره الطبري وقال غيره المعنى : ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً ممن يعذبه اللهُ في نار جهنم ، وليس أحدٌ يُقيَّد بالسلاسل والأغلال كتقييد اللهِ لهؤلاء الكفرة الفجرة .

(٢) هذا القول إنما تقوله الملائكة للمؤمن عند احتضاره ، وقت نزع الروح ، وتبشره بالخلود في جنان النعيم ، كما قال تعالى ﴿ يُبَشِّرهمْ ربُّهمْ برحْمةٍ منهُ ورضوانٍ وجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدينَ فيها أبداً إنَّ اللَّهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾.

(٣) هكذا رجح الطبري ، ورجح غيره أن المعنى : وأنت حالٌ أي ساكنٌ ومقيم بمكة ، ولعل ابن جرير أخذ المعنى من قوله ﷺ : =

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن
لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

* * *

وأقسم بكل والدٍ وبولده ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ لقد خلقنا ابن آدم في شدةٍ ، يكابد الأمور ويعالجها ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أيحسب هذا القوي بجَلَده وقوته ، أن لن يقهره أحد ؟ فالله غالبُه وقاهرُه ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً ﴾ يقول الشقيُّ : أهلكت مالاً كثيراً في عداوة محمد ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أيظنُّ أن لم يره أحدٌ في حال إنفاقه ؟ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ ألم نجعل له عينين يبصر بهما حجج الله ؟ ولساناً يعبِّر به عمَّا في نفسه ؟ وشفتين يطبقهما على فمه ، نعمةً منا بذلك ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ وهديناه طريقَ الخير ، وطريقَ الشرِّ ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ فلم يركب هذا المعاند العقبة ، فيقطعها ويجوزها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ وأيُّ شيءٍ أشعرك يا محمد ما العقبة ؟ ثم بيَّنها بقوله ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي النجاةُ من العقبة ، ووجه قطعها واقتحامها : إعتاقُ رقبةٍ من الرقِّ ، ومن أسر العبودية ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أو إطعامٌ في يوم ذي مجاعة ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ طفلاً صغيراً من قرابته ، لا أب له ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أو مسكيناً قد لصق بالتراب من الفقرِ والحاجة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ثم كان من الذين آمنوا بالله ورسوله ، وممن أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على ما نالهم في ذات الله ، وممَّن تواصوا بالرحمة فيما بينهم ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، هم أصحاب اليمين ، الذين يُؤخذ بهم إلى الجنة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ والذين جحدوا بأدلتنا وحججنا من الكتب والرسل ، هم أصحاب الشمال ، الذين يُؤخذ بهم إلى النَّار يوم القيامة ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ نار جهنم يوم القيامة مطبقةٌ على هؤلاء المجرمين .

= « إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحلَّ لأحد قبلي ، ولن تحلَّ لأحد بعدي ، ولم تحلَّ لي إلا ساعة من نهار . . » الحديث رواه البخاري ومسلم . وما ذهب إليه المفسرون أرجح لأن ظاهر اللغة يؤيده ﴿وأنت حِلٌّ﴾ أي مقيمٌ من حلَّ بالمكان إذا قام فيه ، فيكون قد أقسم بالمكان والساكن فيه ، لأن شرف المكان بشرف ساكنه والله أعلم .



(٩١) سورة الشمس مكية وآياتها خمس عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ

* * *

﴿ والشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أقسم بالشمس ونهارها ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ والقمر إذا تبع الشمس طالعاً بعد غروبها[١] ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ والنهار إذا أضاء الكون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ والليل إذا يغشى الشمس ، حتى تغيب فتظلم الآفاق ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ والسماء ومن خلقها وجعلها سقفاً للأرض[٢] ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ والأرض ومن بسطها من كل جانب ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ وأقسم بالنفوس وخالقِها ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فبيَّن لها أن تأتي الخير والطاعة ، وتَذَر الشرَّ والمعصية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ قد أفلح من زكَّى نفسه ، بتطهيرها من الكفر والمعاصي ، وأصلحها بالصالحات من الأعمال ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ وقد خاب وخسر من دسَّس نفسه فأخملها ، بركوب المعاصي ، وترك طاعة الله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ كذبت ثمود بعذابها الذي وعدهم به نبيُّهم « صالح » عليه السلام ، فكان ذلك العذاب طاغياً طغى عليهم[٣] ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ حين ثار أشقى ثمود[٤] ﴿ فَقَالَ

(١) وذلك في النصف الأول من الشهر ، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخَلَفها في النور .

(٢) هذا قسمٌ بالخالق جلَّ وعلا أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي بنى السماء وأحكم بناءها بلا عمد ، وجواب القسم هو قوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ .

(٣) وقال بعض المفسرين « كذبت ثمود نبيَّها بسبب طغيانها » وهذا المعنى هو الأظهر .

(٤) هو كما جاء في الحديث الصحيح « قُدار بن سالف » وكان عزيزاً شريفاً في قومه .

رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ
عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

* * *

لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ فقال رسول الله « صالح » لثمود : احذروا ناقة الله أن تمسُّوها بسوءٍ ، وراعوا يوم شربها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ فكذبوا « صالحاً » في خبره بما يَحِلُّ من نقمته تعالى بهم إن عقروها ، فقتلوا الناقة عن رضا جميعهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ فدمَّر الله عليهم ، بكفرهم وتكذيبهم لرسوله « صالح » وعقرهم للنَّاقة ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فسوى الدمدمة عليهم ، فلم يُفلت منهم أحد ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ ولا يخاف تبعة دمدمته عليهم[1] .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

* * *

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أُقسِمُ بالليل إذا غشيَ النهار بظلمته ، فأذهب ضوءه ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وأُقسم بالنهار إذا أضاء وظهر للأبصار ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وأقسم بخالق الذكر والأنثى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ إن عملكم أيها الناس لمختلف ، لأن منكم المؤمن بالله ، المطيع له في أمره ونهيه ، ومنكم الكافر بالله ، العاصي لأمره ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ فأما من أعطى من ماله في سبيل الله ، واتَّقى اللهَ ، واجتنب محارمه ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ وصدَّق بإخلاف الله له ، على ما أعطى من ماله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ

(١) أي لا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون ، لأنه تعالى لا سلطان لأحدٍ عليه .

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾
ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾
إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

* * *

لِلْيُسْرَىٰ ﴾ فسنهيئه للخلَّة اليسرى ، وهي العمل بما يرضاه الله منه ، ليوجب له به الجنة في الآخرة **﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾** وأما من بخل بالنفقة في سبيل الله ، ومنع ما وهب الله له من فضله ، واستغنى عن ربه ، فلم يرغب العمل بطاعته **﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾** وكذَّب بالخُلْف[1] من الله **﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾** فسنهيئه في الدنيا للخَلَّة العُسرى ، وهي العمل بما يكرهه الله ولا يرضاه **﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾** وأيُّ شيءٍ يدفع عن هذا الذي بخل بماله يوم القيامة ، إذا هو تردَّى ـ هوى ـ في جهنم ؟ **﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾** إن علينا بيان الحق من الباطل ، والطاعة من المعصية **﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾** وإن لنا ملك ما في الدنيا والآخرة ، نعطي منهما من أردنا ، ونحرم من شئنا ، ونوفّق لطاعتنا من أحببنا ، ونخذل من نشاء **﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ ﴾** فأنذرتكم ـ أيها الناس ـ نار جهنم التي تتوهج ، فاحذروا معصية ربكم ، فتَصْلونها في الآخرة **﴿ لَا يَصْلَنْهَا إِلَّا الأَشْقَىٰ ﴾** لا يدخلها فيصلى بسعيرها ، إلَّا الأشقى **﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾** الذي كذَّب بآيات ربه ، وأعرض عنها ، ولم يصدِّق بها **﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾** وسيُوقى دخول النار ، التقيُّ الذي يخاف الله **﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾** الذي يعطي ماله في الدنيا ، يتطهَّر بذلك من ذنوبه **﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾** وليس ينفق ويعطي ما يعطي ، يُجازي إنساناً مكافأةً له ، على نعمةٍ سلفت منه إليه[2] **﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾** ولكنْ ينفق ماله ابتغاء وجه الله **﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾** وسيرضى هذا المؤتي بما يثيبه الله في الآخرة ، عوضاً مما آتى في الدنيا ، إذا لقي ربه تبارك وتعالى .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل »

* * *

---

(١) المراد التصديق بوعد الله بالإخلاف على المنفق ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفه﴾. وقيل : المراد بالحسنى هنا الجنة لقوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي لهم الجنة مع الزيادة .

(٢) اتفق المفسرون على أن هذه الآيات قد نزلت في « أبي بكر الصدِّيق » رضي الله عنه وأرضاه ، وذلك أنه اشترى بلالاً من ماله الخاص وأعتقه في سبيل الله ليخلّصه من العذاب ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : (أعتق سيدُنا سيّدَنا) يقصد أعتق أبو بكر بلالاً



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ وَالضُّحَى ﴾ أقسم بالنهار ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ وبالليل إذا سكن بأهله ، وثبت بظلامه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ما تركك ربك يا محمد وما أبغضك ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ وللدار الآخرة وما أعدَّ الله لك فيها ، خيرٌ لك من الدنيا وما فيها ، فلا تحزن فإنَّ الذي لك عند الله خيرٌ لك منها ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ولسوف يعطيك ربك في الآخرة ، من فواضل نعمه إلى أن ترضى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ ألم يجدك يا محمد ربك يتيماً ، فجعل لك منزلاً ومأوى تأوي إليه ؟ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ ووجدك[1] على غير ما أنت عليه من الإسلام فهداك إليه؟ ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ ووجدك فقيراً فأغناك من فضله ؟ ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فأما اليتيم يا محمد فلا تقهره ، فتذهب بحقه ، استضعافاً منك له[2] ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وأما من سألك من ذي حاجة فلا تزجره ،

(١) لا يقصد بقوله تعالى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ الضلالة عن الهداية والإيمان ، فالرسول ﷺ منذ الصغر محفوظ بعناية الله ، لم يسجد لصنم ولم يعبد غير الله ، وإنما يراد به هنا عدم المعرفة بشرائع الإسلام ، كما نبه الإمام الطبري وأئمة التفسير حتى قال أبو حيان : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابل الهدى فإن الأنبياء معصومون من ذلك . ا هـ . فمعنى الآية إذن : ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ .

(٢) ذكَّره ربه بثلاثِ نعَم عليه ، ووصَّاه مقابلها بثلاثة أمور ، وكأنه يقول له : كنت يا محمد يتيماً ، وضالاً ، وعائلاً ، فآواك الله ، وهداك ، وأغناك ، فلا تنس نعمة الله وفضله عليك في هذه النعم الثلاث ، فتعطَّفْ على اليتيم ، وترحَّمْ على السائل ، وآوِ الضعيف ، فقد ذقت طعم اليتم والفقر والحرمان ، ويا له من توجيه سامٍ كريم !؟

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

* * *

ولكن أطعمْه وآقض له حاجته ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وآذكر ما أنعم به ربك عليك ، وحدِّثْ به الناس .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

* * *

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ألم نشرح صدرك يا محمد للهدى والإيمان ، ومعرفة الحق ونفسح لك قلبك ، فنجعله وعاءً للحكمة ؟ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية ؟ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الذي أثقل ظهرك فأوهنه ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ورفعنا لك ذكرك ، فجعلنا اسمك مقروناً باسمي ، لا أُذكرُ إلا ذكرتَ معي ، وذلك قول « لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله »[1] ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ فإن مع الشدة التي أنت فيها ، من جهاد هؤلاء المشركين ، رجاءً وفرجاً بأن يُظفرك الله بهم ، حتى ينقادوا للحق ، طوعاً أو كرهاً ، وكرَّره للتأكيد ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ فافرغ يا محمد من كل ما كنت به مشتغلاً من أمر دنياك ،وأتعبْ نفسك في عبادة الله ، والاشتغال فيما يقرِّبك إليه ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ وإلى ربك فاجعل رغبتك ، دون من سواه من خلقه ، فقد جعل المشركون حاجاتهم ، إلى الآلهة التي لا تغني عنهم شيئاً .

(١) قال قتادة : رفع الله ذكر محمد ﷺ في الدنيا والآخرة ، فليس خطيبٌ ، ولا متشهدٌ ، ولا صاحب صلاة ، إلا ينادي « أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » وفي الحديث الصحيح « أتاني جبريل فقال لي يا محمد : إن ربك يقول : أتدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم ، قال : إذا ذكرتُ ذكرتَ معي ».

(٩٥) سورة التين مكية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ
تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

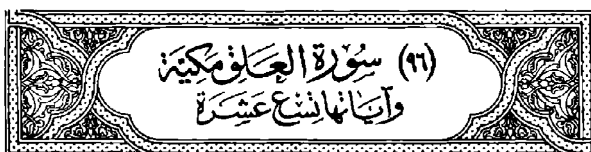
* * *

﴿ **والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴾ أقسم بالتين الذي يؤكل ، وبالزيتون الذي يُعصر[١] ﴿ **وَطُورِ سِينِينَ** ﴾ وأقسم بالجبل كثير النبات المسمى سينين ﴿ **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾ وبمكة البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** ﴾ ثم رددناه إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخَرَفى الـذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في إدبار العمر وذهاب العقل[٢] ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال صحتهم وشبابهم ، فلم نردُّهم إلى أرذل العمر ﴿ **فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ فلهم في حال الهرم والكبر ، أجرٌ غير منقوص على أيام الصحة والشباب ، بل نعطيهم الأجر كاملاً كأنهم عملوه وهم أقوياء ﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بعد بِالدِّينِ** ﴾ فمن يكذبك يا محمد بطاعة الله ؟ ومجازاته العباد على أعمالهم ، بعد الذي جاءك من البيان والحجج ؟ ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ أليس الله بأحكم من حكم في أحكامه ، وفصل قضائه بين عباده ؟

---

(١) هكذا فسرها الإمام الطبري ، وقال بعضهم « أقسم الله تعالى بالبقاع المقدسة التي شرفها الله بالوحي والرسالات السماوية ، وهي منابت التين والزيتون في بلاد الشام ، كما قال بعضهم : المقصود جبل التين ، وجبل الزيتون حول بيت المقدس ، فهي قسم بالأماكن المقدسة وهو اختيار ابن كثير .

(٢) وقال بعض المفسرين : المراد « رددناه في جهنم حيث يكون على أقبح صورة وأبشعها ، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها » وكذا ما بعدها ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي لهم الجنة ثواباً دائماً غير مقطوع .



(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١)
أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣)

* * *

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ اقرأ يا محمد بذكر ربك الذي خلق ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ خلق الإنسان من علقةٍ من دم ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ اقرأ يا محمد وربك العظيم الأكرم ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ الذي علَّم خلقه الكتاب والخطَّ ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ علم الإنسان الخط بالقلم ، مع أشياء ممَّا علَّمه مع العلوم والمعارف ﴿**كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ**﴾ كلَّا ما هكذا ينبغي للإنسان ، أن ينعم عليه ربه بالخلق والتعليم والإنعام ثم يكفر ويستكبر على ربه ﴿**أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾ لأنه رأى نفسه استغنت ، وأصبح ذا ثروةٍ ومال ﴿**إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ**﴾ إن إلى ربك مرجعه ، فذائقٌ من أليم عقابه ، ما لا قِبَل له به ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ. عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ**﴾ أرأيت يا محمد « أبا جهل » الذي ينهاك أن تصلي عند المقام ، وهو معرضٌ عن الحقِّ مكذبٌ به[1] ﴿**أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ**﴾ أرأيت إن كان محمدٌ على استقامة وسداد ، أو أَمَرَ بإتقاء الله ، وخوف عقابه ، كيف تزجره وتنهاه ؟ ﴿**أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ أرأيت إن كذب « أبو جهل » بالحق الذي بُعث به محمد ﷺ وأدبر عنه فلم يصدِّق به ؟

(١) نزلت هذه الآيات في « أبي جهل » اللعين ، كان يطغى بكثرة ماله ، وكان يقول : والله لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، ولأعفرنَّ وجهه بالتراب ، ولأرضخنَّ رأسه بصخرة لا أطيق حملها ، فرآه ذات يوم فلما أراد أن يفعل به ذلك واقترب منه ، رمى بالصخرة وولى ينكص على عقبيه ، فقيل له : ما لك ؟ قال : والله لقد رأيت بيني وبين محمد خندقاً من نار ، ورأيت هولاً وأجنحة

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

* * *

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ ألم يعلم أبو جهل بأن الله يراه ، فيخاف سطوته وعقابه ؟ ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ليس الأمر كما قال أبو جهل ، لئن لم يكفَّ أبو جهل عن محمد ، لنأخذنَّ بمقدّم رأسه فلنذلنَّه ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ناصيةٍ[1] يتصف صاحبُها بالكذب والخطيئة ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ فليدع أبو جهل أهل مجلسه وأنصاره ، من عشيرته وقومه ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ سننادي زبانية العذاب ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ ليس الأمر كما يقول ، فلا تطع يا محمد أبا جهل ، فيما أمركِ من ترك الصلاة لربك ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ واسجد لربك واقترب منه ، بالتحبب إليه بطاعته .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

* * *

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ إنا أنزلنا هذا القرآن جملة واحدةً ، إلى السماء الدنيا في ليلة الحكم[2] ، التي يقضي الله فيها قضاء السنة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ وما أشعرك يا محمد أي شيءٍ ليلة القدر ؟ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ عملٌ صالح في ليلة القدر ، خيرٌ من عمل ألف شهر ،

(١) الناصية : هي شعر مقدّم الرأس ، وقد روي أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد ؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ القول ، فقال أبو جهل : أتهددني وأنا أكثر أهل هذا الوادي ناصراً وأعواناً فنزلت الآية .

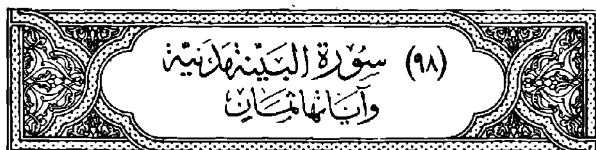
(٢) هكذا جعل الإمام الطبري معنى « القدر » الحكم أي من التقدير ، والظاهر أنها من « القَدْر » بمعنى الشرف ، فهي ليلة الشرف ، وسميت كذلك لعظمها وقدرها وشرفها والله أعلم .

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

* * *

ليس فيها ليلة القدر ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ تتنزّل الملائكة ومعها « جبريل »، بإذن ربهم من كل أمرٍ قضاه الله في تلك السنة ، من رزقٍ وأجلٍ وغير ذلك ﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ ليلة القدر سلامٌ من الشرِّ كلِّه ، من أولها إلى طلوع الفجر من ليلتها .

* * *



(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ
يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

* * *

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل « التوراة والإنجيل » والمشركين ، مفترقين في أمر محمد ﷺ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حتى تأتيهم البينة ـ الحجة الواضحة ـ بإرساله وبعثته ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ حتى يأتيهم بيان أمر محمد أنه رسول الله ، ببعثة الله له إليهم ، يقرأ صحفاً مطهَّرةً من الباطل ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ في الصحف كتبٌ من الله قيِّمة عادلة ، مستقيمة ليس فيها خطأ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وما تفرّق « اليهود والنصارى » في أمر محمد ﷺ فكذبوا به ، إلا من بعد ما جاءهم بيان حقيقة نبوته وبعثته ، وقد كانوا قبل بعثته غير مفترقين في أنه نبيٌّ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وما أمر الله « اليهود والنصارى » إلا أن يعبدوا الله ، مفردين له الطاعة ولا

وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

* * *

يخلطوها بشرك ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على الحنيفية السمحة[1] ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ، وليدفعوا الزكاة لمستحقيها ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وهذا الذي أُمروا به ، هو الدين المستقيم العادل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إن الذين جحدوا بالله ورسوله ، من اليهود والنصارى والمشركين ، جميعُهم في نار جهنم ، ماكثين فيها أبداً ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أولئك هم شرُّ من خلقه الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدَّقوا بالله ورسوله محمد ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أولئك هم خير خلق الله ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ثوابهم يوم القيامة بساتينُ إقامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها لا يخرجون عنها ، ولا يموتون فيها أبداً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضي الله عنهم بطاعتهم ، وعملهم للخلاص من عقابه ، ورضوا عنه ، بما أعطاهم من الثواب وجزاهم من الكرامة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ذلك الخير لمن خاف الله في الدنيا في سره وعلنه ، فأدى الفرائض ، واجتنب المعاصي .

* * *

(١) قد فصل الإمام ابن جرير القول في الحنيفية وأنها الاستقامة في سورة البقرة ، ج ١/٤٤٠



(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

* * *

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إذا حُرِّكت الأرض تحريكاً شديداً، ورُجَّت رجاً عنيفاً ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ وقال الناس حينئذ ما للأرض؟ وما قصتها؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ يومئذٍ تبين الأرض أخبارها[1] بالزلزلة والرجة، وإخراج الموتى من بطونها إلى ظهورها، بوحي الله إليها، وإذنه لها بذلك ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ يومئذٍ يصدر الناس فِرَقاً، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ليرى المحسن في الدنيا جزاء عمله، وما أُعدَّ له من الكرامة، ويرى المسيءُ العاصي جزاء عمله، وما أُعد له من الهوان والخزي في جهنم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرةٍ من شر، يرى جزاءه هنالك.

* * *

(١) في الحديث الصحيح «قرأ رسول الله ﷺ ﴿يومئذٍ تحدّث أخبارها﴾ فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا كذا وكذا، فهذه أخبارها».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ
بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

* * *

﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ أقسم بالخيل التي تعدو وهي تُحمْحم[١] ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ وأقسم بالخيل التي توري النيران قدحاً ، بوقع حوافرها على الحجارة ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ فالتي تغير حين الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فرفعن بالوادي غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ فوسطن بركبانهن جمع القوم ﴿إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إن الإنسان لكفورٌ لنعم ربه[٢] ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وإنه على كفره لشاهد ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإن الإنسان لحب المال لشديد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أفلا يعلم هذا الإنسان الجاحد ، إذا أُثير ما في القبور ، وأُخرج ما فيها من الموتى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ وبُيِّن وأُبرز ما في صدور الناس، من خيرٍ وشر ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ إن ربهم بأعمالهم، وما أسرُّوه في صدورهم ، وأعلنوه بجوارحهم ، عليم لا يخفى عليه منها شيءٌ ، وهو مجازيهم على جميع ذلك .

* * *

(١) المراد بها خيل المجاهدين ، التي يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير عند العَدْو وهو الضَّبْح .
(٢) قال الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

* * *

﴿الْقَارِعَةُ﴾ الساعة التي يَقرع هولُها قلوب الناس ، من عظيم ما ينزل بهم من البلاء[١] ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ هي القارعة ؟! ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وما أشعرك يا محمد أيُّ شيء القارعة[٢] ؟! ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يوم يكون الناس كالفراش المفرَّق ، الذي يتساقط في النار ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فأما من ثقل وزن حسناته ، فهو في عيشةٍ قد رضيها في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وأما من خفَّ وزن حسناته ﴿فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ فمأواه ومسكنه الهاوية ، التي يهوي فيها على رأسه في جهنم ، فهي تضمُّه كأمه ليس له سواها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ وما أشعرك يا محمد ما الهاوية ؟! ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ هي النار التي قد حميت من الوقود عليها .

* * *

(١) القارعة : اسم من أسماء القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع الأذان والقلوب بأهوالها .

(٢) التكرار هنا للتفخيم والتهويل ، فإنها في الفظاعة والشدة بحيث لا يدركها خيال ، والأصل أن يقال : ما هي ؟ ولكنه وضع الظاهر ﴿ما القارعة﴾ موضع الضمير لزيادة التهويل .

(١٠٢) سورة التكاثر مكية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

* * *

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال ، عن طاعة ربكم ، وعما ينجيكم من سخطه عليكم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى صرتم إلى المقابر ، فدُفِنتم فيها ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما هكذا ينبغي أن تفعلوا ، فسوف تعلمون إذا صرتم في القبور ، عاقبة اشتغالكم بالتكاثر في الدنيا ، عن طاعة الله ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما تلقون من مكروه اشتغالكم ، عن طاعة ربكم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ كلا لو تعلمون أيها الناس علماً يقيناً ، أن الله باعثكم بعد مماتكم ، لسارعتم[1] إلى رفض الدنيا ، إشفاقاً على أنفسكم من عقابه ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ثم لترونها عياناً لا تغيبون عنها ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ثم ليسألنكم الله عز وجل ، عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ، ماذا عملتم فيه ؟ من أين وصلتم إليه ، وفيم أصبتموه ؟

* * *

(١٠٣) سورة العصر مكية وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أُقسمُ بالدهر[2] ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إن ابن آدم لفي هَلَكةٍ ونُقصان ﴿إِلَّا الَّذِينَ

---

(١) جواب « لو » محذوف للتهويل أي لو عرفتم ذلك لما خُدعتم بنعيم الدنيا ، وقد قدّره الطبري بقوله : لسارعتم إلى رفض الدنيا .

(٢) قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « لو لم يُنزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس »يريد أنها جمعت خصال الإيمان والعمل الصالح .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

* * *

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلا الذين صدَّقوا الله وأقرُّوا له بالوحدانية ، وأدَّوْا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً ، بلزوم العمل بكتاب الله ، واجتناب ما نهى عنه ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر ، على العمل بطاعة الله [٢] .

* * *


(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ وآياتها تسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الوادي الذي يسيل من صديد أهل النار ، لكل مغتاب[١] للناس ، يعيبهم ويطعن[٢] فيهم[٣] ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ الذي جمع مالاً ، وأحصى عدده ، ولم ينفقه في سبيل الله ، ولكنه جمعه فأوعاه ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يظن أن ماله الذي جمعه وبخل بإنفاقه ، مُخلِّده في الدنيا ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ليس ماله مخلده ، ولكن ليُقْذَفن يوم القيامة في النار ، التي تحطم كل ما أُلقي

(٢) حكم تبارك وتعالى بالخسران على جميع أفراد البشر ، إلا من اتصف بهذه الخصال الأربع وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالمعروف ، والتواصي بالصبر .

(١) الهُمَزة : الهمّاز الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم .

(٢) اللُّمزة : اللمّاز الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين .

(٣) نزلت السورة في « الأخنس بن شريق » كان كثير الطعن في الناس ، يسخر منهم ويعيبهم ، والآية عامة .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾
فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

* * *

فيها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ وأي شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة ؟ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ النَّار المسعَّرة بأمر الله تعالى ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ التي يبلغ ألمها ووهجها القلوبَ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ إن النار على هؤلاء الهمازين اللمازين مُطْبقةٌ ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ إنهم يعذبون بعَمدٍ في النار .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك ، فترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة ، ورئيسهم « أبرهة الأشرم »[١] ؟ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ألم يجعل سعي الحبشة في تخريب الكعبة ، في ضياعٍ وخسار ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ وأرسل عليهم ربك طيراً متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً ، من نواحٍ شتَّى ﴿تَرْمِيهِمْ

* * *

(١) روي أن « أبرهة الأشرم » ملك اليمن ، بنى كنيسة بصنعاء ، وأراد أن يصرف إليها حجَّ العرب ، فجاء رجلٌ من العرب من « كنانة » وتغوَّط فيها ليلاً ، ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها ، فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة المشرفة ، وجاء بجيش كبير على الأفيال ، فأرسل الله على جيش أبرهة طيوراً سوداً ترميهم بالحجارة حتى أهلكهم عن آخرهم .

بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

* * *

﴿بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تقذف هذه الطيور أصحاب الفيل ، بحجارة من طينٍ متحجر فتهلكهم ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ فجعل الله أصحاب الفيل كزرعٍ أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرّقت أجزاؤه .

* * *


(١٠٦) سورة قريش مكية وآياتها أربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

* * *

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ اعْجبوا من اعتياد قريش رحلة الشتاء والصيف التي ألفوها[1] !؟ رحلة الصيف إلى « الشام » ورحلة الشتاء إلى « اليمن » وتركهم عبادة رب هذا البيت ، الذي أنعم عليهم بنعم كثيرة لا تُحصى !! ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ فليقيموا بموضعهم ووطنهم من مكة ، وليعبدوا ربَّ هذه الكعبة ﴿الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ الذي أطعم قريشاً من جوع ، بما يُجبى إليها من الثمرات ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ وآمنهم من خوف العدو والأمراض .

---

(١) هكذا فسَّرها الإمام ابن جرير ، وقال غيره من المفسرين المعنى : من أجل تسهيل الله على قريش ، وتيسيره لهم ما كانوا يعتادونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فليعبدوه على هذه النعمة الجليلة ، إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، وهو معنى وجيه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

* * *

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أرأيت يا محمد الذي يكذِّب بثواب الله وعقابه ؟ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ فذلك هو الذي يدفع اليتيم عن حقه ، ويظلمه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يحثُّ غيره على إطعام المحتاج من الطعام ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فالوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين ، الذين يُصلُّون لا يريدون اللّهَ عزَّ وجلَّ بصلاتهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وهم في صلاتهم لاهون ، يتغافلون عنها أحياناً ، ويضيِّعون وقتها[١] أحياناً أخرى ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ الذين يراءون بصلاتهم إذا صلوا ، لأنهم يصلون ليراهم المؤمنون ، فيكفُّون عن سفك دمائهم ، وهؤلاء هم « المنافقون » الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، يبطنون الكفر ، ويُظهرون الإسلام ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ويمنعون الناس منافع ما عندهم .

* * *

(١) قال بعض السلف : الحمد لله الذي قال : ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون ، لأنه لو قال « في صلاتهم » لكانت في المؤمنين ، والمؤمن قد يسهو في صلاته ، ولكنه أراد بهم المنافقين ، لأنهم يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وهذا هو السر في التعبير بعن .



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

* * *

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ إنا أعطيناك يا محمد نهراً في الجنة ، عظيم القدر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فاجعل صلاتك كلها لربك ، خالصاً دون ماسواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك اجعل نحرك الذي تنحره لله ، شكراً لله على ما أعطاك من الكرامة والخير ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ إن مبغضك يا محمد ، هو الأقلُّ الأذلُّ ، المنقطع ، دابره ، الذي لا عقب له(١)

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾

* * *

﴿ قُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، الذين سألوك عبادة آلهتهم سنةً ، على أن يعبدوا إلهك سنة ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ لا أعبد ما تعبدون من الآلهة والأوثان ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

---

(١) قال العاص بن وائل لما توفي القاسم بن رسول الله ﷺ : « دعوا محمداً فإنه رجل أبتر ، لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . » فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وأخبر تعالى أن هذا الكافر الفاجر هو الأبتر .

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

* * *

أَعْبُدُ ﴾ ولا أنتم الآن عابدون إلٰهي الذي أعبده ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم ﴾ ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ولا أنتم عابدون فيما تستقبلون ما أعبد الآن ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ لكم دينكم فلا تتركونه وتموتون عليه ، وليَ الدين الذي أنا عليه ، لا أتركه أبداً ، ولا أنتقل عنه إلى غيره .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾

* * *

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إذا جاءك نصر الله يا محمد على قريش ، وفتح مكة ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها ، يدخلون في دين الله الذي ابتعثك به ، زمراً زمراً ، وفوجاً فوجاً ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فسبِّح ربك وعظِّمه ، بحمده وشكره على ما أنجز لك من وعده ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ وسله أن يغفر ذنوبك ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ إن الله يرجع على عبده المطيع بما يحب من التوبة[٢]

(١) هذه السورة الكريمة سورة البراءة من عبادة الأوثان ، وهي مع سورة الاخلاص دعائم التوحيد ، ولهذا يسنّ للمحرم أن يقرأهما في الصلاة عقب انتهائه من الطواف .

(٢) في هذه السورة الكريمة إشارة الى قرب وفاة النبي ﷺ ونعيٌ له ، ولهذا لما نزلت السورة قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا قد حضر أجلي ، وتسمى « سورة التوديع » وهكذا فهم عمر وابن عباس كما في صحيح البخاري أن فيها بيان أجل الرسول ﷺ .

(١١١) سُورة المسد مكية وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

* * *

﴿ تبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ خسرت يدا «أبي لهب»[١] وخسر هو وهلك **﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾** أيُّ شيءٍ أغنى عنه ماله ، ودفع من سخط الله عليه ؟ وما أغنى عنه ولده ؟ **﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾** سيصلى أبو لهب ناراً ذات لهبٍ عظيم **﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾** وامرأته حمالة الحطب ، التي كانت تحمل الشوك ، فتطرحه في طريق الرسول ، ستصلى أيضاً ناراً ذات لهب شديد **﴿في جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾** في عنقها حبلٌ من الليف واللحاء ، يجعل في عنقها كالقلادة يوم القيامة .

* * *

(١١٢) سُورة الإخلاص مكية وآياتها أربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين سألوك عن صفة ربك :ربي واحدٌ أحد ، لا شريك

---

(١) أبو لهب : هو عمُّ الرسول ﷺ وكان كافراً يؤذي رسول الله ﷺ هو وامرأته العوراء التي تكنى « أم جميل » وفيهما نزلت هذه السورة الكريمة

ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

* * *

له،ولا شبيه، ولا نظير ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له،وهو السيد الذي يلجأ إليه الناس في حوائجهم ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ليس بفانٍ ولا بائد ، لأنه لا شيء يلد إلا وهو فانٍ[1] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وليس بمحدَثٍ لم يكن فكان ، لأن كل مولود فإنما وُجد وحدث بعد أن كان غير موجود ، ولكنه تعالى قديمٌ لا يزول ولا يفنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ولم يكن له شبيه ، ولا مثيلٌ أحدٌ من خلقه .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

* * *

﴿ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ قل محمد :أستجير برب فلق الصبح ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من شر كل شيء ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومن شر كل مظلمٍ هجم بظلامه[2] ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عُقَد الخيط ، حين يرقين عليها ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ومن شر كل حاسد ، إذا حسد غيره ، فسحره أو بغى به السوء .

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري وقال بعض المفسرين المعنى : ليس له ولد ولم يتخذ ولداً ، وهذه السورة ردٌّ على النصارى الذين يقولون بعقيدة التثليث ، وعلى اليهود الذين جعلوا عزيراً ابن الله .

(٢) المراد بالغاسق : الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل مخيفة ، فيه تخرج السباع من آجامها ، والهوام من أوكارها ، ولهذا قالوا في المثل « الليلُ أخفى للويل » وهذا هو سرُّ التعوذ من شر الليل .



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾
مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

* * *

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ قل يا محمد: أستجير برب الناس ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ معبود الناس الذي له العبادة ، دون كل شيءٍ سواه ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ من شر الشيطان الذي يختفي مرة ، ويوسوس مرةً ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ .مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ، جنِّهم وإنسهم[١]
والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) قال في الصفوة : الذي يوسوس في صدور الناس ، هو من شياطين الجن وشياطين الإنس . قال تعالى﴿ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعاً .

خاتمة

يقول راجي عفو ربه محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة « أم القرى » بمكة المكرمة : إنه قد تمَّ بعون الله وتوفيقه ، في البلد الأمين ـ مكة المكرمة ـ إختصار هذا التفسير الكبير ، لإمام المفسرين « أبي جعفر محمد بن جرير الطبري » رحمه الله ، وكان الفراغ منه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين ، ونسأل الله تعالى حسن القبول ، وأن يمنحنا التوفيق والسداد ، في البدء والختام ، وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الشيخ محمد علي الصابوني ـ الدكتور صالح أحمد رضا

فهرس

الموضوع	الصفحة
سورة الكهف	٥ - ٢٢
سورة مريم	٢٣ - ٣٤
سورة طه	٣٥ - ٤٩
سورة الأنبياء	٥٠ - ٦٣
سورة الحج	٦٤ - ٧٧
سورة المؤمنون	٧٨ - ٩٠
سورة النور	٩١ - ١٠٦
سورة الفرقان	١٠٧ - ١١٧
سورة الشعراء	١١٨ - ١٣٤
سورة النمل	١٣٥ - ١٤٩
سورة القصص	١٥٠ - ١٦٤
سورة العنكبوت	١٦٥ - ١٧٦
سورة الروم	١٧٧ - ١٨٦
سورة لقمان	١٨٧ - ١٩٤
سورة السجدة	١٩٥ - ١٩٩
سورة الأحزاب	٢٠٠ - ٢١٧
سورة سبأ	٢١٧ - ٢٢٨
سورة فاطر	٢٢٨ - ٢٣٨
سورة يسٓ	٢٣٩ - ٢٤٨
سورة الصافات	٢٤٩ - ٢٦١

* * *